أعمال الأعلام

فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام

تأليف
الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني
الشهير بلسان الدين ابن الخطيب
المتوفى سنة ٧٧٦ هـ

تحقيق
سيد كسروي حسن

2-1

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

أعمال الأعلام

فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام
وما يتعلق بذلك من الكلام

تأليف
الوزير أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطي الأندلسي
الشهير بلسان الدين ابن الخطيب
المتوفى ٧٧٦هـ

تحقيق
سيد كسروي حسن

١ - ٢

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى: الناظرين عبر نافذة التاريخ للاعتبار بالغابرين.

إلى: المتطلعين إلى المستقبل متسلحين بخبرة السابقين.

إلى: الحاكمين في الأمور بعد تحقق على بصيرة ويقين.

إلى: من يَزِنُونَ الناس بحقائقهم لا بأقوال القائلين.

إلى: من عَفَّت ألسنتهم عن أعراض الحاضرين والماضين.

أقدم هذا الكتاب

سيد كسروي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله. . . ثم الحمد لله. . . ثم الحمد لله يكور الدهور على الدهور، ويدور العصور، ويجعل المقهور منصوراً، والمنصور مأسوراً، وينقل الملوك من حبور وسعة القصور إلى كدر وظلمة القبور، ويجعل المُذِلَّ منهم هو المسؤول المذلول، ويحيق به الويل ويجعله يدعو على نفسه بالثبور ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: الآية ٥].

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله المبدىء المعيد ذو العرش المجيد مسلطن العبيد على العبيد، ومحذرهم من الشطط في القول أو العمل، وآمرهم بالأمر السديد، ومعلمهم بالقرآن أخبار الزمن البعيد، وما فعل بالملوك والعبيد للاتعاظ والحذر من يوم الوعيد.

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أعدل من حكم، وأحكم من فصل بين من إليه احتكم ولأَظْهُر أهل الكفر بالإنصاف قَصَم، وجعل راية الإسلام بالحق والعدل فوق هام الزمان أعلى علم، وما قال عنه أهل الكفر يوماً: ظَلَم، فصلى الله عليه وسلم من نبي أخرج البشرية من دياجير الظُّلَم إلى بحبوحة الإيمان والإسلام دينِ السَّلَم.

أما بعد:

فإن كتاب «**أعمال الأعلام**» لابن الخطيب لسان الدين الذي نحن بصدده اليوم ما هو إلا أحد كتب التاريخ، وتلك الكتب لها طبيعة خاصة والتي تعود على قارئها بفائدة عظيمة خصوصاً إذا كان من رجالات الحكم والسياسة أو من أهل الدعوة أو الصحافة أو ممن يدرسون الجغرافيا أو المهتمين بعلوم النسب والأجناس، وكذا المشتغلون بالثروات البشرية والمعدنية وتأثيرها في الأماكن وما يجاورها إلى آخره من اهتمامات العلماء المتنوعة.

العسكري الذي وصلت إليه الجيوش اليوم، إلا أن الخطوط الرئيسية ما زالت هي هي ميمنة، وميسرة، وقلب، ومقدمة، ومؤخرة، واستطلاع، وتخابر، وخداع، وإشاعات، إلى آخره.

وعلى الرغم من ذلك الجو الذي تدور فيه تلك الكتب من صلصلة السيوف وقعقعة السلاح وصهيل الخيل وحمرة الدماء ورعدة الخوف وإذلال الأسْرِ، وحسرة الهزيمة، فإنها أيضاً لا تخلوا أبداً من دعابة بعض الجنود والقادة، ومن فكاهة بعض الملوك، وأخبار العشاق والمحبين، وخشوع العباد والزاهدين، ونوادر الحمقى والمغفلين.

فمن تناول تلك الكتب للوعظ اتعظ، ومن تناولها من باب التسلية وجد فيها السلوى، ومن تناولها من باب العلم تعلم فنون الحرب وخططها وكيفية تفكير الخصم للخصم، وما يترتب على الأحداث من الأحداث، وأضاف معارف إلى معارفه، ولله در من قال:

من وعى التاريخ في صدره   أضاف أعماراً إلى عمره

وكثير منها يصلح أن يبسط ويكون قصصاً للأطفال يسلون به، ويتعلمون أخبار الماضين ليتسلحوا لسلوك طريقهم الصحيح في المستقبل بوعي.

فكل ما أرجوه من قارىء التاريخ هو شيء واحد، وهو أن يعلم أن هؤلاء الذين يقرأ عنهم هم أُناس لهم حرمة، فلا يصدق كل ما يقال عنهم أو فيهم من طعن، ولا يظن بهم العصمة والنزاهة الكاملة وأنهم صُنّاع التاريخ، وأنهم عظماء الناس وساداتهم، ولكن ليتعظ ويتعلم، واضعاً نصب عينيه قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: الآية ١٣٤]. وتحضرني حكمة طيبة تصلح أن تكون قاعدة ينطلق منها أو يقف عليها من يهتم بتلك الكتب، وهي قول أحد العلماء:

«تلك دماء طهر الله منها سيوفنا فلما نَدُسّ فيها ألسنتنا؟!».

والله لي ولكم أسأل العصمة وحسن الختام بالموت على دين الإسلام، اللهم آمين.

أبو إسلام سيد كسروي

القاهرة في ٢٨ من شوال ١٤٢٣هـ ١/١/٢٠٠٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله... ثم الحمد لله... ثم الحمد لله يكور الدهور على الدهور، ويدور العصور، ويجعل المقهور منصوراً، والمنصور مأسوراً، وينقل الملوك من حبور وسعة القصور إلى كدر وظلمة القبور، ويجعل المُذِلَّ منهم هو المسؤول المذلول، ويحيق به الويل ويجعله يدعو على نفسه بالثبور ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: الآية ٥].

وأشهد أن لا إله إلا الله المبدىء المعيد ذو العرش المجيد مسلطن العبيد على العبيد، ومحذرهم من الشطط في القول أو العمل، وآمرهم بالأمر السديد، ومعلمهم بالقرآن أخبار الزمن البعيد، وما فعل بالملوك والعبيد للاتعاظ والحذر من يوم الوعيد.

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أعدل من حكم، وأحكم من فصل بين من إليه احتكم ولأظْهُر أهل الكفر بالإنصاف قَصَم، وجعل راية الإسلام بالحق والعدل فوق هام الزمان أعلى علم، وما قال عنه أهل الكفر يوماً: ظَلَم، فصلى الله عليه وسلم من نبي أخرج البشرية من دياجير الظُّلَم إلى بحبوحة الإيمان والإسلام دينِ السَّلَم.

أما بعد:

فإن كتاب «**أعمال الأعلام**» لابن الخطيب لسان الدين الذي نحن بصدده اليوم ما هو إلا أحد كتب التاريخ، وتلك الكتب لها طبيعة خاصة والتي تعود على قارئها بفائدة عظيمة خصوصاً إذا كان من رجالات الحكم والسياسة أو من أهل الدعوة أو الصحافة أو ممن يدرسون الجغرافيا أو المهتمين بعلوم النسب والأجناس، وكذا المشتغلون بالثروات البشرية والمعدنية وتأثيرها في الأماكن وما يجاورها إلى آخره من اهتمامات العلماء المتنوعة.

غير أن هذا النوع من فنون العلم يختلف عن غيره منها إذ أنه أكثرها جدلاً وضداً وتضارباً وشكاً، ومع هذا فإني دائماً أقول عنه أنه شاق وشيق، فهو شيق جداً في قراءته، وشاق جداً في التأثر والتأثير، وذلك أن مدوني التاريخ لهم نزعات سلبية أو إيجابية، متحررة من اللهو أو الخوف أو العقيدة، أو مقيدة بها.

فعلى قارىء تلك الكتب أن يكون على دراية بذلك تماماً، فلا يتأثر بكل ما يقرأ ولا يصدق منها كل ما يكتب، غير أن عليه أن يأخذ منها خطوطها العامة، فمثلاً كون أن هناك خلاف وحرب كانت بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما وانتهت بتولي معاوية رضي الله عنه الإمارة، فالأمر على الإجمال كان إما على التفصيل المحكي في تلك الكتب بقولهم قال فلان كذا، فقال فلان كذا، فأجابه بقوله كذا، فقام له فلان، ففعل كذا؛ فأما بهذا التفصيل فلا. وأن حرباً كانت بين المسلمين وأهل الأندلس فتح على أثرها طارق بلادهم فنعم أما على التفصيل المروي بدقته فلا.

وأن حرباً كانت بين صلاح الدين الأيوبي والصليبيين أخرجهم على أثرها من بيت المقدس فنعم، أما على التفصيل المروي فلا.

وأن حرباً كانت في أيامنا نحن بين مصر وإسرائيل استعادت مصر على أثرها قناة السويس وكل أرضها فنعم، وعلى التفصيل فلا، فبالرغم من قرب هذه الحرب وعلى الرغم من أن أهلها ما زالوا على قيد الحياة من الطرفين إلا أن هناك من يعكس تلك الحقيقة ويقول إن قائد الحرب المصري كان متواطئاً مع الإسرائيليين وأنها كانت تمثيلية، فكيف إذا مضى التاريخ وذهب رجالات تلك الحرب من الطرفين كيف يكون قول المؤرخين عنها؟! هذا جانب.

وجانب آخر: هو أن أشخاص وأبطال ورجال وملوك تلك المعارك قد ذهب، وسلطانهم قد وَلّى فلا يهابون ولا يخاف لهم بطش ولا سطوة، فصار يتناولهم من يتناولهم وكأنهم من رعاع الناس ومن لا وزن لهم غير مراعين لهم حرمة من دين، وحق في صون عرض، وحفظ لغيبة، ناسين أنهم وإن كانوا ملوكاً إلا أنهم بشر مثلنا، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وأنّا نُسأل عنهم ولا يُسألون عنا لأنهم قد مضوا وقد يكون قولنا فيهم غيبة لهم هم أو باطل هم منه براء، أما هم فلا يُسألون عنا لأنهم لم يعرفونا ولم يعاصرونا ولم يظلمونا في الغالب، فإن غيبتهم يجب أن تراعى غير أن أحد منا لا يكاد يفكر في ذلك.

وهذه الكتب على الرغم من ذلك مفيدة جداً في الاعتبار والاتعاظ بمن مضى، ومفيدة أيضاً في معرفة الخطط والتدابير العسكرية، والمكر، والحيل، والخداع، والإمداد، والتمويل، والتمويه، وما إلى ذلك على الرغم من التقدم والتطور

العسكري الذي وصلت إليه الجيوش اليوم، إلا أن الخطوط الرئيسية ما زالت هي هي ميمنة، وميسرة، وقلب، ومقدمة، ومؤخرة، واستطلاع، وتخابر، وخداع، وإشاعات، إلى آخره.

وعلى الرغم من ذلك الجو الذي تدور فيه تلك الكتب من صلصلة السيوف وقعقعة السلاح وصهيل الخيل وحمرة الدماء ورعدة الخوف وإذلال الأسْرِ، وحسرة الهزيمة، فإنها أيضاً لا تخلوا أبداً من دعابة بعض الجنود والقادة، ومن فكاهة بعض الملوك، وأخبار العشاق والمحبين، وخشوع العباد والزاهدين، ونوادر الحمقى والمغفلين.

فمن تناول تلك الكتب للوعظ اتعظ، ومن تناولها من باب التسلية وجد فيها السلوى، ومن تناولها من باب العلم تعلم فنون الحرب وخططها وكيفية تفكير الخصم للخصم، وما يترتب على الأحداث من الأحداث، وأضاف معارف إلى معارفه، ولله در من قال:

من وعى التاريخ في صدره   أضاف أعماراً إلى عمره

وكثير منها يصلح أن يبسط ويكون قصصاً للأطفال يسلون به، ويتعلمون أخبار الماضين ليتسلحوا لسلوك طريقهم الصحيح في المستقبل بوعي.

فكل ما أرجوه من قارىء التاريخ هو شيء واحد، وهو أن يعلم أن هؤلاء الذين يقرأ عنهم هم أُناس لهم حرمة، فلا يصدق كل ما يقال عنهم أو فيهم من طعن، ولا يظن بهم العصمة والنزاهة الكاملة وأنهم صُنّاع التاريخ، وأنهم عظماء الناس وساداتهم، ولكن ليتعظ ويتعلم، واضعاً نصب عينيه قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٣٤]. وتحضرني حكمة طيبة تصلح أن تكون قاعدة ينطلق منها أو يقف عليها من يهتم بتلك الكتب، وهي قول أحد العلماء:

«تلك دماء طهر الله منها سيوفنا فلما نَدُسّ فيها ألسنتنا؟!».

والله لي ولكم أسأل العصمة وحسن الختام بالموت على دين الإسلام، اللهم آمين.

أبو إسلام سيد كسروي

القاهرة في ٢٨ من شوال ١٤٢٣هـ ١/١/٢٠٠٣م

بين يدي كتاب

أعمال الأعلام

أول ما أود أن أنوه إليه في هذا الكتاب هو عنوانه حيث إنه بهذا الاسم لا ينطبق وموضوع الكتاب، إذ يظن الناظر إلى العنوان «أعمال الأعلام» أنه يتناول ما قام به هؤلاء الأعلام أو الملوك من أعمال كإنشاء القناطر، والقلاع، والقصور، والمدارس، والبيمارستانات، والخانقاهات، وشق الترع، وحفر الآبار، وتخطيط المدن، وتشييد المساجد... الخ، وفي الحقيقة أن الكتاب خلو من هذا تماماً، وأن موضوعه غير ذلك تماماً حيث يتناول أهم الأعلام في المشرق والأندلس والمغرب، وهو الوحيد الذي تناول بعض ملوك النصارى المجاورين لحكام المسلمين في الأندلس.

فإني أرى أن الأصوب له هو: «أعلام الأعلام» وقد وقفت في بعض المراجع على تلك التسمية، ووقفت له أيضاً على اسم «إعلام الأعلام» بكسر الهمزة، وهو أقرب إلى الصواب، كذلك من الاسم المدون به الكتاب وإن كنت آثرت أن أكتب ما دون المؤلف لاشتهاره بين السابقين بهذا الاسم، فهم يقولون: قال لسان الدين في «أعمال الأعلام» كذا.

ثم في قوله: «**فيمن بويع قبل الاحتلام**» فهذه العبارة أيضاً من العنوان لم يقف أو لم يقتصر عندها أو عليها المؤلف حيث ذكر من بويع قبل وبعد الاحتلام.

وقوله ضمن العنوان كذلك: «**من ملوك الإسلام**» فإن لي فيها قول يأتي بعد قليل.

ثم إن المؤلف لما وجد نفسه قد أخل بما وضع من عنوان أراد أن يستدرك ذلك على نفسه فقال ضمن العنوان: «**وما يتعلق بذلك من الكلام**» وفي القسم الثالث قال «وما يجر إلى ذلك من شجون الكلام»، وذلك جبراً لما وقع فيه من ذكره لغيرهم.

فالكتاب كان من الممكن أن يكون أصغر من ذلك بكثير لو اقتصر مؤلفه على ما عنون به كتابه فذكر من بويع قبل الاحتلام فقط.

وكان من الممكن أيضاً أن يأخذ اتجاهاً آخر لو سار على العنوان المدون

والمشهور به الكتاب وهو «**أعمال الأعلام**» حيث كان تناول العمران الذي أحدثوه في فترات توليهم لمن تم له الوصول إلى حد الاحتلام وسدة الحكم وامتلاك زمام الأمور في يده.

وأظن أن الكاتب ألف الكتاب مجاملة للسلطان أبي زيان محمد بن عبد العزيز حيث تولى طفلاً، وتقرباً للقائم بأمره العزيز أبا يحيى بن أبي مجاهد الذي كان يحميه بالمغرب من ملك غرناطة حيث كان يطلب رأسه، ثم نالها على الرغم من هذا الحذر الشديد.

وعلى العموم، فالكتاب أسهب في مناطق أو عند بعض الملوك واختصر عند بعضهم خصوصاً في القسم الثالث المخصص للمغرب الإسلامي، فلم يسير المؤلف على وتيرة أو منهج واحد.

أسهب المؤلف، إن لم يكن أسرف، في سرد الأشعار والمقطوعات الأدبية الوعظية على الرغم من أن المقام ليس مناسباً لذلك، والسبب هو أن المؤلف مطبوع على الأدب وله فيه باع كبير وله في ذلك عدة مؤلفات، كما أن له ديوان شعر جيد، والوعظ الذي سرده كثيراً في الكتاب والذي دائماً ما يعقب به على نهايات الملوك يفيد أنه كان على قدر كبير من الورع والتخشع والتبتل على الرغم من سعة ماله وما كان تحت يديه من الضياع والعقارات.

وقد سبب لي إسرافه في الأدب والشعر متاعب كثيرة أثناء نسخ المخطوط يأتي الكلام عنها في وصف المخطوط إن شاء الله تعالى.

قسم المؤلف المخطوط، أو الكتاب، إلى ثلاثة أقسام، هي:

القسم الأول: جعله خاص بتاريخ المشرق من أول عصر النبوة إلى عصر الأمراء العلويين بالحرمين.

القسم الثاني: خصصه لتاريخ الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى عصر المؤلف، وقد ذكر في هذا القسم من جاورهم من ملوك النصارى، وكان بينهم من علاقات مع ملوك الإسلام في كل عصر ويعتبر هذا الكتاب هو أول كتاب إسلامي تناول ملوكهم بالتاريخ المسلسل في جوار الأندلس.

القسم الثالث: وضعه لملوك المغرب من مدينة برقة شرقاً إلى حدود المحيط الأطلسي غرباً، وانتهى هذا القسم عند دولة الموحدين، وكان قد عزم على إتمامه إلى عصره حسب ما ذكر في المقدمة، فربما يكون قد قتل قبل إتمام هذا القسم، فالله تعالى أعلم، ولنا وله نسأل حسن الختام والمغفرة ودخول الجنة بسلام آمين.

والتعليق الذي كنت قد أجلته في التعليق على فقرة: «ملوك الإسلام» من

العنوان، هو أنني أردت أن أقول:

إن الإسلام ابتلى على مر العصور بكثير ممن استغله لغرضه الشخصي سواء كان حاكماً أو محكوماً، عالماً أو جاهلاً، إلا أن هناك بعض الأمور التي لا تنطلي على الناس ومن هذه الأمور أن الإسلام لا يعرف في نظامه الملك، ولا يقر بالملوك إلا أن يكونوا حكاماً عادلين. ومن أهم أسس العدل أن لا يولوا على الناس من لا يرغبون ولا يحبون ولا يشاوروهم في شأنهم ويجبروهم على بيعتهم، فهذا النوع من الحكام لا يعرفهم الإسلام ولا يعترف بهم، بل ويقاومهم مقاومة شديدة حتى ينزعهم ويولي على الناس من يقيم بينهم العدل ويحكم بينهم بالسوية.

من أهم ما يعرفه الناس أيضاً ولا يجهله جاهل هو أن يكون الحاكم: مسلم، بالغ، عاقل، إلى غير ذلك من الصفات التي تمكن الحاكم من ممارسة عمله على وجهه الأكمل الذي يقيم حياة الناس ويحفظ عليهم دينهم وعرضهم ويصون أرضهم ويجعله في عيون من جاوره من الحكام مهاباً كبيراً جليلاً.

إلا أن الكتاب هنا يقرر حقيقة واقعة لا يفتي صاحبه بذلك ولا بنفيه.

فلينتبه القارىء إلى ذلك، والله سبحانه وتعالى يهدينا سواء السبيل والعمل بالتنزيل وأن يحسن ختامنا يوم الرحيل اللهم آمين.

ترجمة المؤلف[1]

هو: محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن أحمد بن علي.

كنيته: أبو عبد الله.

نسبه: السلماني، اللوشي، الغرناطي، الأندلسي.

شهرته: لسان الدين، وابن الخطيب، ذو الوزارتين، ذو العمرين، ذو الميتتين، ذو القبرين.

ميلاده: ولد في الخامس والعشرين من رجب سنة ثلاث عشرة وسبعمائة.

وهو من العلماء الوزراء، وقد ولد ببلوشة وتلقى بها علومه، وتتلمذ عليه عدة من العلماء، وكان أديباً، شاعراً، مؤرخاً، مشاركاً في فنون عدة منها علم الطب. ونشأ بغرناطة واستوزره بها السلطان أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل، ثم ابنه الغني بالله محمد من بعده.

وكان فقيهاً واعظاً، وعظمت مكانته، وكما هي الحال كان له حساد يوشون به فكاتب السلطان عبد العزيز بن علي المريني برغبته في الرحلة إليه وترك الأندلس خلسة إلى جبل طارق، ومنه إلى سبتة فتلمسان، وكان السلطان عبد العزيز بها فبالغ في إكرامه واستقر بفاس القديمة.

ثم تولى المغرب السلطان المستنصر أحمد بن إبراهيم، وقد ساعده الغني بالله صاحب غرناطة مشترطاً عليه شروطاً منها تسليمه ابن الخطيب، فقبض عليه المستنصر، ووجهت إليه تهمة الزندقة من قِبل حساده للخلاص منه، واتهموه أيضاً بسلوك مذهب الفلاسفة، وسجن وقتل في سجنه خنقاً أوائل عام (٧٧٦هـ). هذا ملخص سيرته.

أما ابن العماد فيقول في ترجمته في شذرات الذهب في أحداث سنة ست

---

(١) مصادر الترجمة: ديوان الإسلام (١٧٨٠)، هدية العارفين (٢/ ١٦٧)، الأعلام (٦/ ٢٣٥)، معجم المؤلفين (١٠/ ٢١٦)، كشف الظنون (١٥/ ١ وغير ذلك كثير)، إيضاح المكنون (١/ ٧٣ وغير ذلك كثير)، شذرات الذهب (٦/ ٢٤٤)، الدرر الكامنة (٣/ ٤٦٩)، نفح الطيب (٤/ ٢٤٠)، نيل الابتهاج (٢٦٤)، البدر الطالع (٢/ ١٩١).

وسبعين وسبعمائة ما نصه:

كان والده بارعاً فاضلاً، قال العلامة المقرىء في كتابه تعريف ابن الخطيب:

هو الوزير الشهير الكبير الطائر الصيت في المشرق والمغرب، عرف الثناء عليه بالعنبر والعبير المثالي الطروب في الكتابة والشعر، والطب، ومعرفة العلوم على اختلاف أنواعها، ومصنفاته تخبر عن ذلك ولا ينبئك مثل خبير.

علم الرؤساء الأعلام الذي خدمته السيوف والأقلام، وغني بمشهور ذكره عن مستور التعريف والإعلام، واعترف له بالفضل أصحاب العقول الراجحة والأحلام، عرّف هو بنفسه آخر كتابه «الإحاطة» فقال: يقول مؤلف هذا الديوان تعمد الله خطله في ساعات أضاعها، وشهوة من شهوات اللسان أطاعها، وأوقات للاشتغال بما لا يعنيه استبدل بها اللهو لما باعها، أما بعد حمد الله الذي يغفر الخطية، ويحث من النفس اللجوج المطية، فتحرك ركابها البطية، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد ميسر سبل الخير الوطية، والرضى عن آله وصحبه منتهى الفضل ومناخ الطية.

فإنني لما فرغت من تأليف هذا الكتاب الذي حمل فضل النشاط مع الالتزام بمراعاة السياسة السلطانية والارتباط، والتفت إليه، فراقني منه صوان درر، ومطلع غرر، قد تخلدت مآثرهم بعد ذهاب أعيانهم، وانتشرت مفاخرهم بعد انطواء زمانهم، نافستهم في اقتحام تلك الأبواب، ولباس تلك الأثواب، وقنعت باجتماع الشمل بهم ولو في الكتاب، وحرصت على أن أنال منهم قرباً، وأخذت أعقابهم أدباً وحباً، وكما قيل: «ساقي القوم آخرهم شرباً»، فأجريت نفسي مجراهم في التعريف، وحذوت بها حذوهم في بابَيّ: النسب والتصريف، بقصد التشريف، والله لا يعدمني وإياهم، واقفاً يترحم وركاب الاستغفار بمنكبه يترحم عندما ارتفعت وظائف الأعمال، وانقطعت من التكسبات حبال الآمال، ولم يبق إلا رحمة الله التي تنتاش النفوس، وتخلصها وتعينها بميسم السعادة، وتخصصها، جعلنا الله ممن حَسُنَ ذكره، ووقف على التماس ما لديه ذكره بمنه.

ثم ساق نسبه، وأوليته بما يطول ذكره إلى أن قال:

ومع ذلك فلم أعدم الاستهداف للشرور والاستعراض للمحذور، والنظر الشزر، المنبعث من خزر العيون، شيمة من ابتلاه الله بسياسة الدهماء، ودعاية سخطه أرزاق السماء، وقتلة الأنبياء، وعبدة الأهواء، ممن لا يجعل الله إرادة نافذة، ولا مشيئة سابقة، ولا يقبل معذرة، ولا يجمل في الطلب، ولا يتجمل مع الله بأدب، ربنا لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا.

والحال إلى هذا العهد وهو منتصف عام خمسة وستين وسبعمائة.

ثم قال المقرىء:

وكان رحمه الله مبتلى بداء الأرق لا ينام من الليل إلا اليسير جداً، وقد قال في كتابه «الوصول لحفظ الصحة في الفصول»:

العجب مني مع تأليفي لهذا الكتاب الذي لم يؤلف مثله في الطب، ومع ذلك لا أقدر على داء الأرق الذي بي.

ولذا يقال له: ذو العمرين، لأن الناس ينامون وهو ساهر.

ومؤلفاته ما كان يصنف غالبها إلا بالليل، وقد سمعت بعض الرؤساء بالمغرب يقول: لسان الدين ذو الوزارتين، وذو العمرين، وذو الميتتين، وذو القبرين.

ثم قال المقرىء:

واعلم أن لسان الدين لما كانت الأيام له مسالمة لم يقدر أحد أن يواجهه بما يدنس معاليه أو يطمس معالمه، فلما قلبت الأيام له ظهر مجنها، وعاملته بمنعها بعد منحها، ومنها أكثر أعداؤه في شأنه الكلام، ونسبوه إلى الزندقة والانحلال من ربقة الإسلام بتنقص النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، والقول بالحلول والاتحاد، والانفراط في سلك أهل الإلحاد، وسلوك مذاهب الفلاسفة في الاعتقاد، وغير ذلك مما أثاره الحقد والعداوة والانتقاد من مقالات نسبوها إليه خارجة عن السنن السوي، وكلمات كدروا بها منهل علمه الروي لا يدين بها ويفوه إلا الضال والغوي.

والظن أن مقامه، رحمه الله، من لبسها بري، وجنابه، سامحه الله، عن لبسها عري.

وكان الذي تولى كبر محنته وقتله تلميذه أبو عبد الله بن زمرك الذي لم يزل مغمر الختلة مع أنه حلاه في الإحاطة أحسن الحلى وصدقه فيما انتحله من أوصاف العلى، ومن أعدائه الذين باينوه بعد أن كانوا يسعون في مرضاته سعي العبيد: القاضي أبو الحسن بن الحسن النباهي، فكم قبّل يده ثم جاهره عند انتقال الحال، وجد في أمره مع ابن زمرك، حتى قتل وانقضت دولته.

فسبحان من لا يتحول ملكه ولا يبيد، وذلك أن ابن زمرك قدم على السلطان أبي العباس، وأحضر ابن الخطيب من السجن، وعرض عليه بعض مقالات وكلمات وقعت له في كتاب المحبة، فعظم النكير فيها، فوبخ، وامتحن بالعذاب بمشهد من ذلك الملأ، ثم تلا إلى مجلسه واشتوروا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه، وإفتاء بعض الفقهاء فيه، فطوقوا عليه السجن ليلاً، وقتلوه خنقاً، وأخرجوا شلوه من الغد فدفن بمقبرة باب المحروق، ثم أصبح من الغد على شفير قبره طريحاً وقد جمعت له أعواد، وأضرمت عليه نار، فاحترق شعره، واسود بشره، فأعيد إلى حفرته.

وكان في ذلك انتهاء محنته، أي ولذلك سمي: ذا القبرين، وذو الميتتين.

وكان رحمه الله تعالى أيام امتحانه بالسجن يتوقع مصيبة الموت فتهجس هواتفه بالشعر يبكي نفسه، ومما قال في ذلك:

بعدنا وإن جاورتنا البيوت ... وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأنفسنا سكتت دفعة ... كجهر الصلاة تلاها القنوت
وكنا عظاماً فصرنا عظاماً ... وكنا نقوت فها نحن قوت
وكنا شموس سماء العلى ... غربن فناحت علينا السموت
فكم جدلت ذا الحسام الظبا ... وذو البخت كم جدلته البخوت
وكم سبق للقبر في خرقة ... فتى ملئت من كساه التخوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب ... وفات ومن ذا الذي لا يفوت
ومن كان يفرح منهم به ... فقل يفرح اليوم من لا يموت

هذا الصحيح كما ذكره ابن خلدون، فلا يلتفت إلى غيره، وقد رؤي بعد الموت فقيل له: ما فعل الله بك؟

فقال: غفر لي ببيتين قلتهما وهما:

يا مصطفى من قبل نشأة آدم ... والكون لم تفتح له أغلاق
أيروم مخلوق ثناءك بعدما ... أثنى على أخلاقك الخلاق

وقال ابن حجر: ومن مصنفاته: الإحاطة بتاريخ غرناطة، وروطة التعريف بالحب الشريف، والغيرة على أهل الحيرة، وحمل الجمهور على السنن المشهور، والتاج على طريقة يتيمة الدهر، والإكليل الزاهر فيما ندر عن التاج من الجواهر كالذيل عليه، وغائلة النضلة في التاريخ، وغير ذلك. انتهى.

قلت: وأنا أذكر أسماء مصنفاته على الإجمال قدر ما وقع لي في جمعي لها في كتاب ديوان الإسلام، فهي:

١ ـ أبيات الأبيات فيما اختار من مطالع ما له من الشعر.

٢ ـ الإحاطة في ما تيسر من تاريخ غرناطة.

٣ ـ استنزال اللطف الموجود في سر الوجود.

٤ ـ الإشارة إلى آداب الوزارة.

٥ ـ إعلام الأعلام فيمن بويع من ملوك الإسلام قبل الاحتلام (وهو كتابنا هذا على قول بعض من سماه بهذا الاسم).

٦ ـ الإكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر.

٧ ـ ألفية من ألف بيت في أصول الفقه.

٨ ـ بستان الدول (موضوع غريب لم يؤلف مثله).

٩ ـ البيزرة.

١٠ ـ البيطرة.

١١ ـ تاج المحلى في مساجلة قدح المعلى.

١٢ ـ تافه من جم ونقطة من يم.

١٣ ـ تحلية الأعلام من حملة السيوف والأقلام.

١٤ ـ تخليص الذهب في اختيار عيون الكتب.

١٥ ـ تقرير الشبه وتحرير المشتبه.

١٦ ـ جيش التواشيح.

١٧ ـ الحلل المرقومة في اللمع المنظومة.

١٨ ـ حمل الجمهور على السنن المشهور.

١٩ ـ خطر الطيف ورحلة الشتاء والصيف.

٢٠ ـ خلع الرسن للتعريف بأحوال القاضي ابن الحسن.

٢١ ـ الدرة الفاخرة واللجج الزاخرة.

٢٢ ـ الرد على أهل الإباحة.

٢٣ ـ رقم الحلل في نظم الدول.

٢٤ ـ روضة التعريف بالحب الشريف.

٢٥ ـ ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب.

٢٦ ـ الزبدة الممخوضة في الأدب.

٢٧ ـ سد الذريعة في تفضيل الشريعة.

٢٨ ـ سياسة المدينة.

٢٩ ـ الصبيب والجهام والماضي والكهام (ديوان شعره).

٣٠ ـ طرفة العصر في دولة بني نصر.

٣١ ـ عائد الصلة.

٣٢ ـ عمل من طب لمن حب (في الصناعة الطبية).

٣٣ ـ الغبرة على أهل الحبرة.

٣٤ ـ فتات الخوان ولقطة الصوان.

٣٥ ـ قطع السلوك.

٣٦ ـ كتاب السحر والشعر.

٣٧ ـ كتاب الوزارة ومقاصد السياسة.

٣٨ ـ الكتيبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة.

٣٩ ـ كناسة الدكان بعد انتقال السكان.

٤٠ ـ اللمحة البدرية في الدولة النصرية.

٤١ ـ المباخرة الطيبية في المفاخر الخطيبية.

٤٢ ـ مثلى الطريقة في ذم الوثيقة.

٤٣ ـ المسائل الطبية.

٤٤ ـ المعتمد في الأغذية المفردة.

٤٥ ـ المعلومة (رجز في العلاج من الرأس إلى القدم).

٤٦ ـ معيار الأخبار ومفاضلة مالقة وسلار.

٤٧ ـ مقامات العشاق.

٤٨ ـ المنح الغريب في الفتح القريب (قصيدة).

٤٩ ـ نفاضة الجراب في علامة الإعراب.

٥٠ ـ النقاية بعد الكفاية.

٥١ ـ الوصول لحفظ الصحة في الفصول.

٥٢ ـ اليوسفي في صناعة الطب.

ومن هذه الكتب ما هو مطبوع ومنها ما هو مخطوط لم ير النور بعد.

وقد تقلب ابن الخطيب بين النعيم والهم كما هي حال من خلط العلم بالسياسة أو الدين بالوزارة أو السلطان، فهما في غالب الأحيان ضدان أو ضرتان لا يهدأ لهما حال ولا يستقر لهما قرار إلا أن يكون كل واحد منهما في جانب، ما لم يكن السلطان قائم على العدل والقسط فلا يصلح ساعتها إلا بالاصطلاح مع العلم والدين.

ومما هز ابن الخطيب أيضاً في حياته هو موت زوجته والتي كان من الواضح من المراجع أنها كانت على قدر كبير من التآلف معه، وكانت تربطهما مع الزواج

آصرة الحب الشديد والمودة حتى أنه آثر أن يدفنها في محل إقامته، ورثاها بشعر حزين ينضح بمدى إجلاله لها، إذ يقول فيه:

روع بالي وهاج بلبالي وسامني الثكل بعد إقبال
ذخيرتي حين خانني زمني وعدتي في اشتداد أهوالي
حفرت في داري الضريح لها تعللاً بالمحال في الحال
وغبطة توهم المقام معي وكيف لي بعدها بإمهال
سقى الحيا قبرك الغريب ولا زال مناخاً لكل هطال
قد كنت مالي لما اقتضى زمني ذهاب مالي وكنت آمالي
أما وقد غاب في تراب سلا وجهك عني فلست بالسالي
واللّه حزني لا كان بعد على ذاك الشباب الجديد البالي
فانتظريني فالشوق يقلقني ويقتضي سرعتي وإعجالي
ومهدي لي لديك مضطجعاً فعن قريب يكون ترحالي
واسمك مقلوبة يبين لي مآل أمري في معرض الفال

كذا رثى ابن الخطيب زوجته ومحبوبته كما سبق أن ذكرنا، رثاءه لنفسه عند توقعه للقتل، غير أن هذا الحزن الذي انتابه لفراقها ما أوقفه عن التدفق والعطاء العلمي في مجالاته الرحيبة، فألف وصنف حتى أتاه اليقين ولقي ربه مظلوماً، فرحم الله ابن الخطيب ورحمنا آمين، في سنة ست وسبعين وسبعمائة، فرحم الله ابن الخطيب ورحمنا آمين.

فهي الدنيا صديقي لا تصفوا لك يوماً حتى تعطيك من غدٍ كدرها، ولا نعيم فيها يدوم حتى تتفرد الجنة بالنعيم الذي لا يفنى والنار بالعذاب الذي لا يبلى، فالعاقل من أخذ من دنياه الراحل عنها إلى أخراه المقيم فيها قبل أن يأتيه اليقين، ولله در من قال:

زمان وفِيٌّ بميعاده فظلماً يقال ليالٍ غُدُر
كما يُقْرَعُ الجَرْسُ للناشئين تأتي إلى الناس منه النُّذُر
ولكن يريد الفتى أن يدوم ولو دام ساد عليه الضجر
ويأبى التنازع طول البقاء وتأباه بُقْيا نفوس أُخَر
وقد يهلك الناس فردٌ يعيش حيناً فكيف إذا ما استمر
فللّه من شارع لم يعقْهُ حُكم الضرورة أو ما نَدَر

سواءٌ صليبُ الصفا والزجاج كسراً بكف القضا والقدَر[١]

وبالدهر في الناس مثل الجنون فليس يبالي بمن ذا عثر

وحتم على الخَفَرِ الآنسات والـ ـوحش حشرجة المحتضر[٢]

تجيء إلى الصدر تحت الحرير كجيئتها الصدر تحت الوبر[٣]

وكل الفوارق بين اللغات وبين الطباع وبين الأُسر

سيُوقفها للردى زائرٌ ثقيل الورود بغيض الصَّدَر

فيا صفرة الموت إن الوجوه تساوى بها صَفَقٌ أو خَفَر

فاللَّه أسأل أن يرزقني حسن الختام بالموت على دين الإسلام، وأن يرحم أمي، ويهدي أبي، ويصلح زوجي، ويبصر أولادي بالهدى، ويفك أسر إخواني، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه أجمعين، آمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أبو إسلام، سيد كسروي

القاهرة في يوم الجمعة

الموافق ٧ ذي القعدة ١٤٢٤هـ/ ١٠/ ١/ ٢٠٠٣م

---

(١) صليب الصفا: أي الصخر الشديد الصلابة والمتانة الصعب، والزجاج الهش السهل الكسر.

(٢) الخفر الآنسات: البنات الرقيقات الكثيرات الخجل والحياء.

(٣) أي تأتي المنية ولا تبالي ما يلبس صاحبها حريراً كان أو صوف أو حديد فهي لا تفرق بين غني وفقير ولا ضعيف وقوي.

وصف المخطوط وبياناته

اسم المخطوط: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام.

اسم المؤلف: لسان الدين محمد بن عبد الله بن الخطيب (ت٧٧٦هـ).

مكان المخطوط الأصلي: الخزانة العامة بالرباط في المغرب.

مكان مصورة المخطوط: معهد المخطوطات العربية بالقاهرة.

رقم المخطوط الأصلي بالرباط: D١٥٥٢.

نوع الفن: تاريخ.

رقم المخطوط المصور: ١٣٨١.

عدد الأوراق: ٢٨٠ ورقة.

مقاس الصفحة: ٩× ١٧،٥ سم.

عدد الأسطر: ٢٣ سطراً.

عدد الكلمات في السطر: ١٠=١٢ كلمة.

نوع الخط: مغربي مشكول.

سنة النسخ: ٢٧ ربيع الأول الأبرك ١٢٥٨هـ.

اسم الناسخ: لم يذكر الناسخ اسمه.

ملاحظات أخرى

المخطوط مقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يخص المشرق الإسلامي.

القسم الثاني: يخص بلاد الأندلس.

القسم الثالث: يخص بلاد المغرب العربي.

والمخطوط لاقيت فيه من التعب ما لا يعلمه إلا الله تعالى لأسباب، منها: أنه لا يوجد تحت يدي من المخطوط إلا صورة واحدة، وكأنها مصغرة عن

الصورة الأصلية، مما جعل قراءتها تكاد تكون مستحيلة.

إسهاب المؤلف في الأدب والشعر أثناء سرد الأحداث زاد من غموض القراءة إذ الذهن منصرف إلى التاريخ وحوادثه والمؤلف يتكلم بكلام أدبي بعيد تماماً عن ما المحقق يتأمله من الناحية التاريخية فلا يدرك ذلك إلا بعد أن يكون قد بذل جهداً في استنطاق الكلمة، ثم استعمال المؤلف لبعض الألفاظ العربية المتقعرة والقليلة الاستخدام زاد أيضاً من غموض الكلام والحروف.

المخطوط أصاب حوالي ثلثه الرطوبة خصوصاً في الصفحات الأولى منه مما جعل صورته جاءت شبه مطموسة مما صعب أيضاً مسألة استنطاقه.

نوع الخط الذي كتب به المخطوط كان أيضاً سبباً آخر من أسباب صعوبة القراءة حيث أخذت الحروف أشكالاً غير مألوفة، ثم أن الناسخ له بصمة خاصة في بعض الحروف غير مألوفة أيضاً في الخط المغربي، فكان ذلك عاملاً آخر في تصعيب القراءة.

المهم أن الله تعالى أعان ووفق في إخراجه، فمن وقف على موطن خلل فيه فليلتمس العذر لي ويدعو الله أن يتغمدني برحمته، فقد أكون ساعتها تحت طبقات الثرى فلا تحرمني منك هذه الدعوة عساها تجد من ربها ساعة رضا، فتكون سبباً في رحمتي وسعادتي.

منهج التحقيق

أعانني الله تعالى على نسخ المخطوط والذي يعتبر من أصعب المخطوطات التي وقفت عليها وأنا أعمل في هذا المجال من حوالي عشرين عاماً، فما قابلني مخطوط في صعوبته إلا مخطوط «تهذيب مستمر الأوهام لابن ماكولا».

اكتفيت في بعض الأحيان بذكر مصادر العلم الذي يذكره المؤلف في صدر الدولة المراد الكلام عنها، وأحياناً أعقبه بترجمة موجزة، وربما ذكرت بعض الأحداث التاريخية التي لم يذكرها المؤلف، غير أني في القسم الثالث لم أسر على هذا المنهج، فقد اكتفيت بالنسخ في معظم الأحيان.

عرفت ببعض البلدان الواردة بالكتاب وبعض الحصون وبعض المواضع ولم أتقصى ذلك.

قدمت له بمقدمة ذكرت فيها مضمون الكتاب ورأيي فيه.

ترجمت للمؤلف ترجمة موجزة عرفت فيها بتاريخ ميلاده ووفاته وأهم مصنفاته وبعضاً مما أصابه في حياته العامة.

وصفت المخطوط وصفاً تفصيلياً بحيث يسهل على طالبه الوقوف عليه بسرعة أو بسهولة والتأكد من أنه هو المراد أو المقصود الذي عنه نسخت الكتاب.

أرفقت بالمقدمة صور لأقسام المخطوط الثلاثة.

والله من وراء القصد وهو حسبي ونعم الوكيل.

صور المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

(صورة الصفحة الأولى من القسم الأول)

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

(صورة الصفحة الأولى من القسم الثاني)

(صورة الصفحة الأخيرة من المخطوط، وهي من آخر القسم الثالث
ويظهر بها تاريخ النسخ)

[٢/أ]

بسم الله الرحمن الرحيم /

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

[الحمد لله][١] الذي بدأ الخلق ثم يعيده، ووعد الوعد فلا يخلف وعده ووعيده، وفرغت مشيئته من الحظوظ المقسومة، والآجال المعلومة فتعين قريب ذلك وبعيده، وشقيه وسعيده.

الذي علَّم الإنسان بالقلم ليتوصل به إلى علم ما يريده، فيفيده بأخبار الأمم السالفة ويزيده، ويجمع له الجموع الوافرة فيزيده ويهز جذعه الزاوي فيسقط الرطب الجني جريده.

فلولاه ما استفاد علم ما غاب عنه مستفيده ولا عرف حال الأب نجله ولا الجد حفيده.

ففي كل شيء له آية يَثْبُتُ بشهادتها توحيده، فلا ينفع الجاحد جحوده، ولا الحائد محيده. . .[٢].

. . .[٢] وهو الواجب تحميده، ونقر له بالبقاء الذي تقرن به البرية تأبيده. . .[٢] على إنعامه وإلهامه، شكراً يترتب عليه مزيده.

ونعترف بالتقصير عن منتهى حمده فلن تُجتاب بنجائب المحدثات بيْده، ولن يحيط بكنه المعبود عبيده.

[وصلى الله][٣] على سيدنا ومولانا [محمد][١] رسوله الذي تقرر في الذكر

---

(١) ما بين المعقوفين جاء موضعه بياض بالمخطوط فأثبت ما هو مناسب للمقام والمقال، والمعتاد في سائر الكتب الإسلامية وافتتاح الخطب وما شابه ذلك.

(٢) موضع النقط بياض بالأصل، وأرى أن السياق مستمر غير أنني تركت البياض على ما هو بالمخطوط، ووضعت موضعه تلك النقط.

(٣) ما بين المعقوفين جاء موضعه بياض في المخطوط وهو أمر غريب حيث ذكر في أول الكتاب ما هو واجب الذكر، وترك هنا أيضاً ما هو كذلك.

الحكيم تمجيده فمن ذا الذي يوفي الثناء عليه ويجيده. وقد وجبت له النبوءة وآدم بين الطين والماء فخراً أشرف جيده، ومَبْنى اصطفائه ثم تمجيده، فنادى الخلق إلى نهج الحق وقد جُهِلَ سديده، ورافع علم الإيمان بادياً للعيان بعدما هُدَّ مشيده.

[٢/ب] والشفيع المشفع يوم الفزع الأكبر، وقد شاب من الهول وليده، وتساوى ذكيه/ في الذعر وبليده، وخذل الغني طريقه وتليده (. . .)[١] باب الجنة، وكيف لا، وقد جُعِلَ. . .[١]

[ورضي الله][٢] عن آله وصحبه الذين أوضحوا دينه فلا يَخْلُق جديده، . . .[١] وخلّدوا معالم أمره تخليداً، . . .[٣] وورثوه في أمته بالهدى الذي قرب القواعد تمهيده، والعدل الذي بناه ظله وامتد مديده، والعطف الذي لا يعرف البَدَه توكيده، ما أعاد ذكرهم مُعيده، فعاد المشوق إليهم عيده، وما غرّد الطير فساق تغريده. . .[١] وما هيَّج نبيل المراد مريده.

[أما بعد][٤]: فإني أُملي بمشيئة الله الذي يُنهض القوى كلما أخلدت ويزكي الأذهان بعدما تبلدت ويجلي القرائح كلما تراكب فوقها الصدأ، ويعمر المعاهد بعدما تجاوب بها الصداء طرفاً تجاهل عن الوقت الذي شره إليه الجدال حين عدم الاعتدال، ونذكر بفوائد الدهر التي نسيها اليوم بنوه، فطووا حديثها ودفنوه، وغمصوا حق زمنهم وغبنوه، ونجلب تذكيره فنوقظ العيون ونقضي من شكر الله الديون وينصب الميزان الذي لا يبخس مثقال حبة إلاّ وفَّاها؛ والمنازعة كَفَاهَا بشرط الإنصاف، وجميل الأوصاف، فإن النفس تميل لأغراضها وتجنح لافتراضها وتربوا في قِراضها راضية بانحرافها عن حميد العدل وإعراضها مبادرة لأدلة الحق باعتراضها، مطاوعة لعلل القلوب وأمراضها، ولا سيما في شأن الدول التي لا يزالون يسخطون فيها الحظوظ وهي سنِيَّة، ويتشوفون لتحول الأحوال وهي هنية، ويحسدون النعم التي أوصلها الحق لأربابها، والأقسام التي فرغ اللوح المحفوظ من كتابتها، فمن أعطى منهم تشوق إلى التطفيف كيله، ومن وعدْم عظم من المواعد نيله، ومن حرم دجا ليله وسأل بالشيء سيله. وأما الحسد فلا تزال مغيرة على ساحل البحر خيله ما لزم الفلك ميله، وطلعت ثرياه وسُهيله.

---

(١) موضع النقط كلمات مطموسة بالمخطوط لم أتبين قراءتها. وليس للمخطوط نسخة أخرى تساعد على إيضاح ذلك.

(٢) كذا موضع ما بين المعقوفين بياض وقد ترك ما يجب ذكره أيضاً في هذا الموضع ولا أعرف السر في ذلك.

(٣) موضع النقط كلمات مطموسة.

(٤) موضع ما بين المعقوفين بياض أيضاً في الموضع الذي يجب فيه ذكر ما ذكرته، وربما كان موضعه مكتوباً بمداد غير قابل للبقاء فانمحى بعامل الزمن وتأثير البيئة أو العوامل الجوية.

وكثيراً ما تركب الدول هواها عندما ترجوا مثواها، مع اعتقاد برها وتقواها، كما قال الشاعر:

/ إذا لم يكن للمرء في... ....[١] زوالها

وما ذاك من بغض لها غير أنه يريد سواها فهو يهوي انتقالها [٣/أ]

وقد قال: من...[١] لا يترك، رضا الناس غاية لا تدرك، ...[١] أوتيت هُداها وقبيح في خطة الرشد مداها، لا تقصر في...[١] بالحق أباطيلها.

وعَلِمَتْ فضل هذا الزمان على كثير من الأزمان واعتبرت بألطاف الرحمٰن ورأت أنها ثاوية في إيالة اليُمن والأمان، مظللة بأروقة مشاهير الإيمان.

أما سماؤها فدارة بالعنان، وأما أشجارها فسخية الأجنان، وأما أقواتها فحقيرة الأثمان، وأما أحكامها فقويمة الميزان، وهلا اعتبرت بِمَثُلاتِ العباد، المُفَتِّتَةِ للأكباد، وزلزال البلاد، الذي ذهب بالأموال والأقلاد، وألوى بالطارفين التلاد، فاغتبط بالنعم الراضية الحاضرة، وصرفت لحاظ الأعين الناظرة إلى وجوه المنن الناضرة، وسكنت إلى حنين كفالة ربها الوافرة، وتمكينها إياها من ضرورة الدنيا والآخرة، فالأسواق تموج بها الأرزاق كالأتْجُرِ الزاخرة، والمآذن تُسمع بالدعاء آذان العظام الناخرة، والأحكام تنفذها السيوف الباترة عن الغرماء غير الفاترة، ومن يرجع الملك إلى نيابته باخع بإقامته مبادر للدعاء بإجابته، لم يستأثر به الحجاب، ولا شمخ بأنفه الإعجاب، ولا استهوته الشهوات، ولا فاتته في أوقاتها الصلوات، ولا فارقه العفاف، ولا تعين له الكفاف، قد فوّت نومه لينام سواه، وأحيا جدّه وأمات هواه، وحق الدعاء على ولاة أمورها ورعاة جمهورها، ليس إلاّ جهادٌ عن ساحتها ودفاع لعدو دينها كلما هَمَّ باستباحتها، وتأمين سبلها الخائفة، وإصلاح سكتها الزائفة. ومتى أراها العيون هذه الألقاب أقوم سمتاً، وأبعد عوجاً وأمتاً، سيما في هذا الزمان الذي إن قيس بغيره رجح أو جادل عنه لسان بأي حجج، وبان فضله واتضح، وخاب معانده وافتضح، فتقر عين المؤمن بلطائف ربه، وتنشق أرج العناية من مهبّه، ويسلك الأدب مع الله بالتسليم لأمره، ويشتغل بخويصة نفسه عن زَيْدِه/ وعمرِه...[٢] [٣/ب] ورجوت السلامة واستدفعت بترخيص الله الملامة، ودعيت في الأوقات، واجتنبت الموبقات، وأخلصت إلى الله الضراعة في التماس الوقاية، ورميت بضاعة الشيطان من النفاق بالإخفاق.

---

(١) موضع النقط كلمات مطموسة في المخطوط.

(٢) موضع النقط تسع أسطر مطموسة في المخطوط فيها كلمات تدل على استلهام الله العون على إتمام هذا العمل.

وإذا وعدت بهدنة في آجل وصلاح حال في الزمان الآتِ

فصلاح حال الوقت راع فربما ندم المضيع الشيء بعد فواتِ

وما كنت بالأحق لا ملائها، ولا لمد اليد لمنشر ملائها، لحل الكبوة التي عجزت معها الجوارح وبعدت عن تجمعتها المسارح، وذهبت بالأمل الذي وهدَ في التنفيق التذلق، ورغب عن التكملة، لولا أمر مطاع وجب امتثاله، ورسم اعتمد مثاله، ونداء لزم جوابه، وقصد رجى من الله ثوابه، لما يُلهم من شكر الذي تأكد إيجابه، وأوكاه العقل وقد كُشِفَ حجابه، ومجلس بهر في جماله وراقني اكتماله، ومحسن رأيت إكمال محاسنه الفائقة، وإغفال مزاينه الرائقة، غمط للحقوق المتعينة وطمساً لرسوم الفضائل البينة فأمليته عفواً من غير روية تحكم الاختيار، وتستدعي للحفظ والاعتبار، فطغت به العزيمة عن الاشتغال بالكتاب الكبير المسمى بـ «رئاسة الفلك في سياسة الملك» إلى أن نكرّ إن شاء الله عليه، ونعود بحول الله وقوته إليه، وهو الذي/ لا يبخل بالإجابة... [1] تجلي الولاية في ريعان الشباب إمام الحرب والضراب وسيف الله الواضح الضراب، وفخر الملوك إلى منقطع التراب، مولانا السلطان الكبير الهمّة الراعي للذمة فاتح الأمصار والأقطار، وممد الأوطان ومدرك الأوطار، ومقيل العثار والآخذ للملوك المرضية بالثار، أمير المسلمين، ورحمة الله التي سَمَت إلينا... [2]، وظل ربهم المقدس المجيد المطَهر المنعم أبي فارس عبد العزيز ابن مولانا الكبير الشهير المخصوص من الله بالتقديس والتطهير، واقد الملوك، وناهج العدل المسلوك، الذي لا تسبح الألسن في بحار مدحه إلاّ ظله، ولا تُقاس الملوك إلا مبحرة بعزّه... [3] ولا تجبهه الشياطين بذكر إلاّ ولت، قدوة الأئمة، وسلطان الأمة، والمثل البعيد في رفع القدر وعَلِيّ الهمة حامي المسلمين، وقسطاس الله في العالمين، ومرقد الحرم الأمين،... [1] من كتاب الله الذي خطته بنانه بالذخر الثمين، قدوة الصابرين المعروف بالحق في الأولين والآخرين أبي الحسين ابن موالينا أمراء المسلمين وملوكهم الصالحين المجاهدين، قدّس الله روحه وطيّب ضريحه، فاستقرّ لي الثواب، ورتّب الألقاب، وأعاد العوائد، وفرّج الشدائد، وجدد الأيام، وأعزّ الإسلام، وسلك مسلك المولى المقدّس أبيه في عمران الأوقات بالوظائف المهمة وتقييم الركبان على مصالح الأمة، ومباشرة التدبير، والمحافظة على حقوق الملك الكبيرة / واكتتاب القرآن العزيز والذكر الحكيم، ومشاورة

[٤/ب] [٤/أ]

---

(١) طمس في المخطوط وكلمات غير مقروءة بسبب اختلاط المداد مقداره ثمانية أسطر.

(٢) كلمة مختلطة المداد.

(٣) موضع النقط كلمة مطموسة في المخطوط.

المشير، والقعود للقبيل، والرفق بالضعيف، وجبر الكسير، ونصر المظلوم على الظالم المستطيل.

وعرض الجيش العديد، ورفع رمز أولي الصداقة، وندب العباد والبلاد إلى الدخول في دعوته، وكان من أعلى مفاخره وأعظم محامده، ما ذهب إليه اختياره وآراءه الكريمة وأنظاره، وأعملت فيه بعد استخارة الله خواطره المقدسة وأفكاره، من الاستعانة بولي نعمته ومكنون حرمته وسيف نصره المدخور في غيب الله لخدمته والوفاء بذمته، والمقتدى به رضي الله عنه في طهارة أفكاره وكلامه، الشيخ الوزير العماد الأعلى علم الأعلام، وفخر الليالي والأيام الطاهر الذات والصفات، البعيد عن الشبهات المرشح في خزائن الغيب لدفع الملمات المدخور عمره للمحيا والممات أبي بكر ابن وزير المقدمين المولى أبيه ذي القدر الشاعر المجد النبيه كبير الوزراء، وصدر الصدور الظهرانة، الذي بذل في نصيحة أمره غاية اجتهاد، ثم باع نفسه من الله...[1] فوقف وقفة للشهادة تشهد بالامتنان بثنائه، فولده السعيد الشهيد أبي مجلز غازي بن يحيى بن الكامل باركه الله للإسلام وأمد له في عمره وجعل الدهر منفذ نهيه وأمره، وشكر عن الدين حميد سعيه، وعن الملك عظيم رَعْيه، وجعل النصر لضرابيه، والتوفيق نصيب رأيه، وقد كان المولى المقدس يُعِدَّهُ لتربية ولده في مضامين الأمراء لحسن مقاصده، فاختصه ابنه بعده واستكفاله وكمل بره، ووقائه وبدا به الأمر والمهمة على سلطانه، وجعل بيده مفاتح جهاده وباب أوطانه، وقلده الأمانة العظمى...[2] خطر السياسة، وقفل العهد...[1] مدينة سبتة منطلقة بالعزّ يَدهُ، بعيداً في الحظوة البالغة أمره، ففتح له الجزيرة الخضراء تدبيره، وأخلد له الفخر الذي لا يجحد شهيره، وأثبته في صحائف الدهور، وأعمل إلى مجالس الخدمة الرواح والبكور، وتلي لسان الحال والمقال/ من بعد الاعتقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر: الآية ٣٤] ونصر هذا الوزير الصالح والتلميذ الناصح في سياسة الملك...[3] ضجيعاً للسباع، مُعوّلاً على كرم الطباع، مستظهراً بالعفاف وحفظ العوائد، واستدرار الفوائد، وحذف الخرائد، وأفاض بحر العطاء وقاد الجرد للامتطاء، ونفض الخزائن على الأعناق...[4] الطباق والاستحقاق وجرّد الصكوك بالبلاد المقطعة والفوائد المنوّعة والدولة المحترمة، والجوان المكرمة، والولايات المقررة، والمغارم المحررة، والجرايات المقدرة. [١/٥]

---

(١) كلمة مطموسة.

(٢) موضع النقط كلمات مطموسة في المخطوط.

(٣) موضع النقط طمس في المخطوط.

(٤) طمس في المخطوط.

ثم تفقّد المظالم الخافية فأزالها، ثم صرف العناية لبيوت الله فكساها ونوّرها، . . .[١]، ورمّ بيوت العبادة وبناها، وضاعف المثاوب وأسناها.

وقد ذكر بين يديه يوماً: أن الإمام بجامع الأندلسيين طرق صلاته خلل فأعاد الصلاة من أجله، فبحث عن الأمر الذي شغل باله وأوجب خباله.

فأخبره أنه عن دين ضاق عن أدائه واضطر إلى إنصاف غريمه قبل استعدائه وإعلان ندائه.

فأمر للحين تحملته عيوناً وأذنه، وكافة جملته، فوالله ما أعمله فيها مهلة[١].

وتفقد خزائن الملك، وجدّد الأقفال وأوضح منها الأغفال، ثم طلب الأموال وأغرم العمال، وأراهم الأموال، وباشر الحسابات بنفسه، يسابق في ذلك المهرة وينقد الجملة المختبرة، ويخرج الخبايا الكامنة، ويقيم البراهين الساطعة، والحجج القاطعة، ففشى في الخونة العقاب، واستوفيت الألقاب.

واختصر بيت الأموال وشهد بما به لنجم الأحوال، وصرف الوجه إلى تأمين الطرقات، وحسم الموبقات وكفَّ كفْ المعتدين، وقطع دابر المفسدين، فأمنت صولات الرجفان، وترددت الناس إلى الآفاق، فحيث جنك الليل أظلك وسالمك الزمان ووقاك من المحذور الرحمٰن.

ثم نظر في السكة المتعارفة وقد فشى فيها الزيف، وتطرق إليها الحيف، وذهبت بالغش أعيانها، ونحتت بالمقراض أوزارها، فأبلى فيها البلاء الحسن حتى خلصها من الفساد، وحفظ بصونها بضائع العباد، وكنّ عنها أيدي المغيرين لصرفها فهي اليوم متصفة بالجمال منيعة على / العباد بمزايدة الكمال. [٥/ب]

وأنصف الجيوش إنصافاً لا تهلّ أهلة الشهور ولا يتأخر عند شروعها في الظهور، و . . .[٢] أحضر مجالسه . . .[٢] من فصل الحكم وسماع حجج الصُّك البُكم، واستجلب فصول العقود وتزييل الشهود، وإجبار الخلل في . . .[٢] والقصر منها إلى أماكن الفساد، وسداد الانتقاد . . .[٢] الكثير من القضاة سلكوا مسلكه . . .[٢] أعانه على ما ملكه وصحبه التأييد في سائر مُلكه ويأتي الكاتب وقد تعددت البطايق وحمد بقية الفايق . . .[٢] المضايق وحُققت منها الحقائق وبدا إمضاء أحكامها على خلده، وأرسل فيها صحيح اختباره، ووزن ألفاظها بميزان اعتباره،

---

(١) كذا تكون رعاية الأمير لرعيته وعمّاله يزيل ما يشغل بالهم من كدر الحياة ليقبلوا على أعمالهم فيعطوها كل طاقتهم وجهدهم، ويخلصون لها من كل قلوبهم.

(٢) طمس في المخطوط.

سُحِرت في صحة نقده، وتمت في إصلاحه وتنقيبه وتمزيقه لما يصد عن تلفيقه. وأقول: سبحان المان على العبد بتوفيقه، ولقد أنشدته ابتهاجاً بشأنه وسروراً لما جاء به، ومكانه من نصيحة سلطانه:

يا نخبة الوزراء الثوابت ... والملهم المهدي لكل صواب
وابن المجادة والسيادة والتقى ... والفضل والأنساب والأحساب
ومن الذي أيامه مذكورة ... وسعوده موصولة الأسباب
منصور دولة آل عبد الحق ذا ... الأثر الغريب لباب كل لباب
شبه السعيد وكامل الأمر الذي ... قد فات عن مولاه خير مناب
قد كنت تذخر للأمور وترتجي ... للمعضلات وأنت في الكتاب
ويقال هذا كمال لخلافة ... تختال للبركات في جلباب
بشرى أتت مثل الصباح لناظر ... لم تعز... [1] إلى كذاب
ورعى حمى من بعد ذا مستمنح ... إنجازها من منعم منساب
اللَّه حبك يا أبا يحيى فقد ... أحييت رسم المجد بعد ذهاب
إنصاف جيش المسلمين فما القنا ... صغت المميز وما الحسام بناب
وأعدت سكتهم كأن وجوهها ... زهر الرياض ربت لصوب رباب
/ وجبيت مال اللَّه فاستخلصته ... من دين كفر... [2] سباع وناب [٦/أ]
وخلفت مولى الخلق خير خلافة ... ترضيه في الأعداء والأحباب
ورعيته بعد الممات كأنه ... رهن الحياة يراك خلف حجاب
هذا الوفاء يقلّ ما حدثته ... من فقه... [1] والإيجاب
بالعدل يحكم فالورى قد طمأنته ... والأمن ظل وافر والإطناب
والدهر بعد مشيبه... [1] لابس ... ما شئته من عنفوان شباب
جعل الإله على كمالك عوده ... من ذكرك في جيئة وذهاب
يهنيك ما أولاك من ألطافه ... في خلقه تجري بخير مثاب
غلبت ظنون الروع أول وهلة ... فقضى... [3] غالب الغلاب

---

(١) كلمة غير مقروءة في المخطوط.
(٢) طمس في المخطوط.
(٣) طمس في المخطوط.

وأهل محتبس الغمام يحمله — الرحمٰن بفضل مُتمم الأسباب
لطف يدل على العناية والرضى — فكأنه العنوان فوق كتاب
ومقاصد شكر الإلٰه ضميرها — ودعاء مسموع الدعاء مجاب
ووسائل خلصت لمن رحماته — للقاصدين رحيبة الأبواب
أتت الوزير ابن الوزير حقيقة — إرث أصيل الحق في الأحقاب
وأبوك موقفه إذا شاهدته — فسل المحق فليس كالمرتاب
صدق الإلٰه وباع منه نفسه — فجزاه بالزلفى وحسن مآب
من للطعام وللطعان وللتقى — إلآك أو للحرب والمحراب
تهدي الأسنة للكتائب هادياً — بسنا الهدى من سنّة وكتاب
لم يعط ما أعطيت معط قبلها — من صامت برّ ومن أثواب
تستعبد الأحرار بين تحية — مبرورة وتواضع وثواب
وتمهد الملك الذي يك جاوزت — أسياف عزمته تخوم الزاب
دامت سعودك ما تألق بارق — وبدا بأفق الشرق ضوء شهاب
وحللت من كنف الإلٰه وستره — أبد الليالي في أعزّ أحباب
[٦/ب] / حسن يكون اسم السعيد مضمناً — في كل حين خطبه وخطاب
وتقرّ عين علاك بوارث — بهرت حُلاه نهى أُولي الألباب
من بحره تُروى العلى عن مالك — أو فطنة تروى عن ابن شهاب
من كنت أنت حسامه فالنصر سار — وأمَامَه حزباً من الأحزاب
إن لم يدع لي جودك حاجة — أسمو لها بشفاعة الآداب
لكنني أئتي إليك بواجب — شكر الرياض الدائم التسكاب
وأخلد الذكر الجميل وأنشر الـ — فجر الأصيل مصاحب الأحقاب
وفضائل الفضلاء يذهب رسمها — ما لم تُشد بصحائف الكُتّاب
فهي التي تروى على بُعد المدى — وتشد فوق رواحل الأقتاب
واللّه غاية كل طالب غاية — وسواه في التحقيق لمع سراب
فعليه عَوّل في أمورك واعتمد — تنل المُنى وتفز بكل طِلاب

فلما تقررت الأمور واغتبط الخاصة والجمهور، وحسن الذكر، واستقر الأمر واعتدل الدهر واستوسق البر والبحر، ووفدت أعلام الأقطار، وأشراف جهات البلاد

الكبار، وقواعد الأمصار، مهنية، وعد الله بمنظومها ومنثورها مُثنية عارضة ما عقدته من البيعات، وأخذته على الجماهير من الطاعات ومن الله على العباد والبلاد برخص الأسعار ومساعدة الأقطار وتيسير الأوطار. وشرع في تكميل ما تخص المولى السعيد أسعد الله من ضرورة ومقاصد مبرورة فاختار معلّم الكتاب واتخذ له الآلات المناسبة لسلطانه الرفيع الجناب، وحرص له على اقتناء الأدب في زمن الشباب وارتباط النقاوة من الخيل العراب، وزينة الملك التي تمتد له بالانتساب.

ثم أولم لختانه، وأشرك أولاد الملوك الكبار في شأنه وجعلهم في تلك السنة أسوة سلطانه، وعم وفودهم بإحسانه، وبلغ في ذلك الغاية التي شهدت بفضل زمانه، وشرف مكانه، فقلد الأعناق أطواق المنن.

وأقام السُّنن الواضحة السَّنن، فكان صنيعاً قدم العهد بمثله/ ، وطرازاً على حلل فضله. [٧/أ]

وصدرت عني أبيات أسعد بها الخاطر أنشدتها على قبر المولى المقدس جاده الغمام الطاهر وحيّاه من روح الله وريحانه الشذا العاطر، وهي:

سلام اللّه بورك من سلام ... على قبر الإمام ابن الإمام

سقينا ثم سقينا ثم سقينا ... بصوب... [١] جفن الغمام

إلى أن تهفو القيعان ريّاً ... وتورث عنه أوتاد الخيام

تبشّر بالرضى مغدى وممسى ... فتبسم عنه أزهار الكمام

ولولا أنها بشرى ورحمى ... لما جرىء الكمام على ابتسام

أمولاي أهن نومك في قرار ... يعود عليك بالنعم الجسام

تمت على جوانبه النعامى ... فتهديك السلام من السلام

إلى أن تستقرّ بدار عدن ... فتظهر بالنعيم المستدام

هناك الملك لا ما بِنْتَ عنه ... فما الدنيا سوى حلم المستنام

يقر علاك ما قدمت فيه ... من القربات في جنح الظلام

ووضاك بالصلاة دجى الليالي ... وقطعك للهواجر بالصيام

وسمحك للجهاد بكل سام ... من السام النضار وكل جام

وتصدق وعدك الصدقات تُعلى ... مقامك في المقامات الكرام

أيا عبد العزيز يعزّ صبري ... عليك فإنه صعب المرام

---

(١) طمس في المخطوط.

ولكني يُخفِّض بعض بثي | وحزني ما لعزّك من دوام
سعودك بعد موتك في حياة | وإن جرعت أكواس الحِمام
وبيتك فوقه للّه ستر | صفاك الستر بالبيت الحرام
ووارثك العزيز عليك مَلك | عزِيز الأمر مرهوب الحسام
سعيد فابتهج لفظاً ومعنى | يطاوعه الزمان بلا زمام
ودارك للسعود بها مداد | تملك في اتساق وانتظام
[٧/ب] / لئن خلفت منه هلال مُلك | ورحنا بعد شمسك في ظلام
فها هو كل يوم في ازدياد | يشابه هيئته البدر التمام
فخضت به الوصالة إلى رجال | كرام شأنهم رعي الذمام
أبو يحيى وحسبك من حيي | وفّى بالعهود على التمام
يدافع عتيد الأرض المواخي | ويحمي السَّرج بالجيش الهمام
ومهما سار في الأمر مبهم | وجدّ السير بورك من همّام
لعلال بدارك أي ذُخر | يقوم بحفظها خير القيام
فشكر أمته المولى السعي | بري في الوفاء من الملام
ويا ذا أكف تشكر من وفاء | ودعنيْ لو قدرت على الكلام
وظائف بعد بُعدك في ازدياد | وحفظ من طعان أو طعام
وإعداد له بركات نُعمى | سحائبها تجود على الأنام
أعدته الملوك إلى بنيها | وشامخ وصلة ذات التحام
وأبدت فيه رغبة ذي امتساك | بحبل للمودة واعتصام
وأهْدَتْهُم إليه بحُسن عقبى | وجمع بعد شتت والتئام
ومن غرس المودة قرّ عيناً | وأعمل في الجَنَا كف احتكام
فطب نفساً ونم في ظل رُحْمى | تلذ ببردها بين النيام
أتيتك بالهناءِ هناء عبدٍ | أخي همّ بأمرك واهتمام
تطوق مِنّا إنعاماً كريماً | لزيماً مثل تطويق الحمام
تعلل بالسلام عليك حتى | يراك وأنت في دار السلام

وجرى في بعض ما يجري الحديث بمجالسه التي لا يدخلها اللهو والهجر، ولا يعرف فيها إلاّ الجد والأجر، ولا يفاوض لديها إلاّ في نصيحة وخدمة صريحة

اتخذت في سلطانه المولى السعيد أقرّ الله عين وزارته فيما يوفيه من اضطلاعه وانشغاله واجتناؤه ثمرة وفائه بجلاله وبجاه[١] محمد ﷺ / وعلى آله وما يظهر من مخيلة نبله، ويبهر العيون من حُسن شكله، وشبه الفرع الزكي بأصله، وإشراق نور السعد على محله، وأنه هلال له يترقى إلى الأنوار سريعاً، وغصن مجد حل من العزّ والصوب محلاً رفيعاً، فعن قريب يملأ الجوانب تقريظه ويرق زهراً بديعاً، وجنى رفيعاً، ووقع من الثناء على وقاية، وما خصّه الله به بين نظرائه وأكفائه، ما صحب الصدق جميع أنحائه وإن قصر الجند عن استيفائه. [١/٨]

وأنه أبقاه الله امتاز بحلية الصدق بين الوزراء، واختص بعلمه الخفّاق بين أهل هذه الآفاق، وربما جلب درهماً تنبعث به من تحسد الشمس سناها، ويتعلل به من يجهل لفظ الأمور ومعناها، ومن يغفل في نومه عن أمسه، ويُبصر ولا يَبصر الجذع في عين نفسه، ولا يعلم أن هذه الأمور التي تخللت المعمورة سبق فيها الجدال الجلاد، ونابت عن الحجج القاطعة والبراهين الساطعة السيوف الحداد.

قلت: ويغفر الله لأبي الحكم منذر بن يحيى أمير ثغر الأندلس.

لمّا تناظر مع الفقيه أبي عبد الله بن الفخار القرطبي.

وكان منذر يدعو إلى سليمان بن الحكم. . .[٢]، والفقيه يدعو إلى هشام بن الحكم خليفتهم بقرطبة. الرجل الصالح. إذ قال له ابن الفخار: أنشدك الله يا أبا الحكم لو أنك في جماعة حضرتهم صلاة مكتوبة وفيهم هذان الرجلان سليمان وهشام من كنت ـ ولا أمر لهما ـ تولي الصلاة؟

فقال له منذر: أبيت إلاّ جهلاً، هشاماً والله كنت أقدّم للمحراب، وسليمان والله كنت أرفع إلى سرير المُلك، فليس هذا مكان مسائل المدونة يا فقيه، إنما هو مكان السيف الذي ليست بعده بقية.

فقال أعزّ الله جانبه وأوضح في فصل القول مذاهبه وتمّم قبله مننه العميمة ومواهبه: أما نحن فيما اضطرنا الوفاء إليه، وقصر إجماعنا عليه لكثير من أعلام ملّة الإسلام نتبع، وفي عملهم لنا مرتبع، ولم نأت في زماننا بدع من العمل، ولا اخترعنا ما لم يتقدم نظيره الأول، إذ الناس ناس والعلماء أجناس، والقضاة شريح وإياس، والأمراء أمية وعباس، وأولياء الله أقطاب وأحراس، والرؤساء للمفاخر، والفقهاء الشافعي ومالك، وبهم / تسلك المسالك، وأنوارهم يملىء الليل الحالك، [٨/ب]

---

(١) كلمة دعاء وتقرُّب يذكرها الصوفية ولا يرون بها بأساً.

(٢) كلمة غير مقروءة هذا رسمها في المخطوط: «فيرزناتة».

فإن كانوا أصابوا في اجتهادهم، فامضوا واستمروا، وعاهدوا الأباء على الوفاء لأبنائهم فبروا.

وذكروا أنهم قهروا الاجتهاد وتعمدوا السداد، فما أسعدوا في اتباعهم في طريقهم والانتظام في قربهم.

وإن كانوا قد غلطوا مع تعدد فقهائهم وعلمائهم وأعيانهم وفضلائهم، وشهرة أعلامهم، وفضل زمانهم ومكانهم، فنحن راضون بمشاركتهم في الغلط، والانتظام معهم في هذا النمط.

ومع هذا فإن كان الوفاء... (١) والرضى والالتزام والثبات على العهد، وقضاء حق المولى بعد استقراره في... (١) إلى أن يستقل الوارث بأمانته يعد علينا ذنباً، ويجر لوماً وعَتْباً، فقد رضينا أن يكون ذنبنا الوفاء، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النّساء: الآية ٤٨].

وإن عدّ حسنة فالحمد لله عليها، والشكر له على الهداية إليها.

فارتجّ المجلس وهمّ أهل العقل والعضد الأشد والرأي الأسد، وقالوا: صدقت وبالحق نطقت فمن متمثل بقول القائل:

السيف أصدق أنباءً من الكتب في حدّه الحدُّ بين الجد واللعب

وقائل:

السيف أصدق من زياد خطبة في الحرب إن كانت يمينك منبرا

وقائل:

ومن طلب الأعداء بالمال والظبا وبالسعد لم يبعد عليه مرام

وقالوا: نيابتك فينا كافية، وبكل غرضْ وافية، وفيك لنا المقفع، ومن دونك نقول ونصنع، إلى أن يكمل هذا الهلال ويصح منه الاستقلال.

ثم قال لي: هل تدري إن ذهب هذا المذهب من قبلنا دولة من دول الإسلام مشتملة على الأعلام، وحملة السيوف والأقلام؟

وهو أعزّه الله أعلم بما هو عنه يسأل، وفضله أكمل، ومثل هذا لا يجهل.

فقلت: كثير وشهير، ولكم في الناس نظير ثم نظير، والله على كل شيء قدير، وهو الغني ومن سواه فقير.

إن قلت في شيء غريب وقوعه فسل عنه تلق الدهر قد جاءه قدما

---

(١) كلمات مطموسة في المخطوط.

فحاضر من عاصرت أسوة من مضى   وأبناؤهم لم ينقضوا لهم حكما
/ وسابقهم خير على كل حالة   وأوفرهم ديناً وأغزرهم علما [٩/أ]

ومن ذاك:

إنما الدنيا على علاتها   شجر قد ود. . .[١] ودوحاً. . .[١]
كل معروف ومجهول الجنى   فيه ما شئت وما لم تحتسب

ثم اختبرت فألفيته تبلغ ثمانية وأربعين شخصية كلها ثابت الرسم معروف العين في دول الإسلام، والاسم قد تمتع بأعين له القدر من القسم واستوفى ما يسوغ من لذات النفس والجسم، بحيث لو نسقوا من دون فصل ما بين زماننا هذا المخصوص بالإضافة، وبين آخر زمن الخلافة لعمروا الزمان عدداً ووسعوه مطرداً، ولم تنسب أفرادهم في التعمير إلى غريب، ولا خرجت عن المعتاد في بعيد الزمان ولا قريب، فإننا إذا قسّمنا الزمان المحسوب على عدد الأسماء وجعلنا المدد على السواء، كان حصة كل واحد منهم نحواً من خمس عشرة سنة، وهي في أيام أرباب الدول عدد متوسط، وميزان مقسط، وإلى أين يذهب من يحتج بعدد أو يستظهر في الخصم على لدد أو يجري في الاستكثار إلى مدد لأكثر من ثلاثين مثالاً، قد استرسلت استرسالاً، وتعددت في أقطار الإسلام يميناً وشمالاً ما منهم إلا أذعنت له بحسب حصته من الأيام، ومضت عنه وعن من يستكفيه الأحكام، وخفقت فوقه الأعلام، واستوفى وظائفه بعد الإسلام، ومن كان على عضده الأئمة الأعلام والأديان والأحلام، فأقيمت بكل حال الصلاة والزكاة والصيام، وحجّ البيت العتيق فلم يتعطل الطواف، ولا الإحرام، وربما صلحت الأحوال بهم وتيسر المرام قدر الغمام، ورسخت الأقدام.

وسبحان من له البقاء والدوام وبيده الحل والعقد والنقض والإبرام، الغني عن العباد، الهادي إلى سبيل الرشاد، والذي لا يُسئل عما يفعل، انفرد بالعزّ الذي وضحت منه الأشهاد. فطوبى لمن سلم في حكمه، ورضي بقسمه، وعلم أن الأشياء مفروغ منها وعلم وأيقن / أن متاع الدنيا قصير، وسوى ما لديه حقير، وأن الدنيا لم [٩/ب] تحل أيامها على ذي مرغب، وأن زمانه جنة بالنسبة إلى غيره، وقد فضل كثيراً من الأزمنة فيمن طيره، وعموم خيره، فيقصر في فضول القول والعمل من سيره، ويقصر الشغل بخاصة نفسه، والإعداد لرمسه، ويسأل الله عموم التوفيق، ويتمسك منه بالسبب الوثيق، ويفوض أمره إليه، ويتوكل في جميع أحواله عليه.

---

(١) كلمات غير مقروءة.

تفسير المجمل المستخصر في الحال

وربما يجد سواه من أمعن في النظر والسؤال، ففي:

الدولة الأموية بالمشرق

يزيد بن معاوية، والوليد بن يزيد بن عبد الملك، ثم ابناه: الحكم بن الوليد، وعثمان بن الوليد.

وفي الدولة العباسية

عبد الله المأمون بن الرشيد ومحمد والأمين أخوه، وهما أميرا المؤمنين، وأخوهما قاسم، والمؤتمن بن الأمين، والمعتز والمؤيد أخو المنتصر، والمقتدر بن المعتضد.

وفي الدولة الأموية بالأندلس

الحكم بن عبد الرحمٰن، والمنتصر بن الناصر، وهشام بن الحكم المؤيد، ومحمد بن سليمان بن الحكم.

ومن الشيعة العلويين

إدريس بن إدريس، وعلي بن محمد بن إدريس ولد حسين بن يحيى من بني حمود.

ومن الشيعة العبيديين

الحاكم بن نزار، ويوسف بن عبد المجيد.

ومن بني هناد الصناهجة

باديس بن المنصور، والمعز بن باديس، والعزيز بن عُلاَ الناس.

ومن لمتونة الملثمين

إبراهيم بن تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين.

ومن بني عبد المؤمن الموحدين

الرشيد بن المأمون، ويوسف بن الناصر، والمعتصم بن الواثق.

ومن الحفصيين

يونس بن إبراهيم بن أبي يحيى، وخالد بن إبراهيم.

ومن الأتراك

نصر الملك الناصر، والملك شلامش، وعلي الناصر، وكخد بن الناصر، وشعبان حفيد الناصر، وشجرة الدُّر.

ومن بني هود بالأندلس

الواثق بن محمد.

ومن الطوائف

ابن عز الدولة، ومحمود بن المظفر بن أبي عامر، وعبد العزيز بن عبد الرحمٰن بن أبي عامر، وعبد الملك ابنه، وعبد الله وتميم حفيدا باديس بن حموس.

ومن بني نصر

محمد بن إسماعيل، ويوسف بن إسماعيل، ومحمد بن يوسف.

ومن بني مزيد، وساقي القوم آخرهم شراباً

السعيد بن أبي عنان.

فقال: نريد أن تقيد لنا من أحوالهم ما يسره الذكر/ واستحضره الفكر، نجعله [١٠/أ] تأنيساً في الأسمار، وراحة عند كدر الأفكار، وتأسياً بمن سلف من أهل الأمصار والأعصار.

فقلت: أما إذا كان المقصود مقصوراً على تاريخ ينقل، وأدب يعقل، وأخبار عن واقع الزمان يقرر، وكائن قد تواتر خبره وتحرر فسمع وطاعة، وجهد مبذول واستطاعة. وإن كان القصد الاحتجاج والاستدلال واستعمال طرق الجدال، فلذلك محل وموضوع يليق بسره ونجواه، وميدان يتعصب فيه ذو الهوى لهواه، أو ينتصر ذو البر والتقوى لتقواه.

وعزمكم والحمد لله قد ظهر عن ذلك غناه، وزهد في لفظه ومعناه، وظننت يومئذ أن العزيمة فاترة، حتى وقع التأكيد والعود الحميد.

فاستعنت الله على منال الطلبة المقترحة، وشرعت في الحين لإملائها، ممتثلاً أمر الوزارة، حرس الله أعلامها، مكافئاً حسن بلائها، مستعيناً بالله على قضاء حقوقها وأدائها.

ثم ظهر لي أن الاقتصار على القدر المتعين، والوقوف عند محل الاحتجاج البين، شح من ميسور، وإقناع بالقليل من موفور، وأشفقت أن نأتي بفرع خبر يتشوق إلى إتمامه، أو نقطع حديثاً يرتاح السامع إلى وصله.

فنسقت الأصول تبعاً للفروع، وجعلت الأفراد وسيلة إلى الإتيان بالمجموع ليحصل تناسب المسموع.

إلاّ أنني متى عثرت بالغرض المطلوب، سامحت القلم في الإكثار، ليعلم أن ما سواه مذكور بحسب الاجترار.

وإنني إن جمحت فيما اجتلبت، وجئت بأكثر مما طلبت، ولم أحسن في ارتكاب هذا الأمر وامتطائه... [1] قولهم: زيادة الأخرق أكثر من عطائه[2].

فعسى أن نكون ممن استهدى زهرة غيضة فأهدى من أجلها روضة، وممن استمنح من البستان نفحة، فسلم فيها دوحة، وممن طويت سرية فاستعرض جيشاً، وممن استعير مشطاً فسوغ حماماً، ويكون اسم الكتاب من باب تسمية الشيء ببعضه، فقد سبق إلى ذلك كثير ممن خيره وسمى، ورمى بغرضه هذا المرمى، والسرف في الخير لا يسمى سرفاً، ولا يجد فاعله إلى العتب منصرفاً، لا سيما لمن تعين نصحه، وأسرف في الفضل صبحه، وسبق فضله وكرم جناه وفاء ظله.

[١٠/ب] وقد آن أن نبسط برنامج هذا التعليق ليكون / الناظر فيه محكم الاختيار في الأخبار، عالماً بما اشتمل عليه من الحلي والنضار، وسقط المتاع المخصوص بعدم الاعتبار، وليتمكن من الاختيار في الأخبار، ويقف على ما جاء بالقصد أو جاء بالاضطرار، فنقول:

يشتمل الكتاب أولاً: على مقدمة نأتي فيها بقول كلي، وعرض علمي حكمي، نبين فيه أن الله جلّ وتعالى لم تكن رحمته لتهمل العالم من ضروريات السياسة التي لا تستقيهم دونها أحواله، ولا يحسن مع عدمها مآله، وأنها شرط في السعادة

---

(١) سقطت من هنا كلمة أو جملة.

(٢) مثل عربي قديم، راجع (على رأي المثل: موسوعة الأمثال العربية والعامية) من تأليفي حوت ما يزيد على عشرين ألف مثل عربي وعامي وهي على حروف المعجم مشروحة الأمثال.

المشروطة، وبدايته المقدورة، وعودته المغبوطة، وأن من خلقه في أحسن التقويم، وحباه بالفضل الجسيم، ويسّر منافع أعضائه عبرة لمن تأملها وموقظة لمن سرّح الفكر وأعملها، مع أن أكثرها لا يفيده إلاّ صلاح دنياه، وهي وجوده الأول، وعلى ما بعده المعول أرحم وأرأف وأكرم وألطف من أن يهمل ما فيه صلاح حياته، ثم كمال ذاته وما يخطيه بالخير الدائم بعد مماته فهو متمّ نوره ولو كره الكافرون، والقائل في مخاطبة عباده: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: الآية ١١٥].

ونشير فيها إلى رحمة المولى بالأنبياء هداة البشر الهداية. . .[١] وسريان الهداية في الناس لتوارث في سننهم وتبين فضل الله على الإنسان في تعليمه بالقلم، لتتميم النعم التي لم تكن لولاه ولا تتصل بسواه.

ثم نبين فضل التاريخ الذي لولاه لضاعت رسوم الدين، وماتت الهداية بموت الهادين.

ثم نأتي بالدول بين الغفل والمشهور، والمهموس والمهجور، ونجلب ما تعلق بأهدابها على حسب الندور، وما ينظم من الخرزات بين الشذور، ونجعل ذلك بمحاله من أماكن المعمورة من لدن أشرق صبح الإسلام المتألق النور البادي السفور، ولا ندعي الإحاطة بالأمور، ولا استيعاب حوادث الدهور، إنما نأتي بجهد المقدور، فنذكر شيئاً من أيام رسول الله ﷺ تبركاً بذكره، وافتتاحاً بأمره.

ثم نذكر من أيام الخلفاء رضي الله عنهم أيام أبي بكر الصديق، ثم أيام أبي حفص عمر بن الخطاب، ثم أيام أبي عمرو عثمان بن عفان، ثم أيام أبي الحسن علي بن أبي طالب، ثم أيام ابنه الحسن.

ثم نذكر / أيام من بعد الخلفاء من الملوك، فنبدأ بدولة بني أبي سفيان ومنهم معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، ويزيد بن معاوية ولده، ثم معاوية بن يزيد. [١١/أ]

ثم بدولة بني الزبير، ثم نأتي بدولة بني مروان بالمشرق أولاً، فنذكر أيام مروان بن الحكم، ثم أيام ولده عبد الملك بن مروان، ثم أيام ولده الوليد بن عبد الملك، ثم أيام ولده سليمان بن عبد الملك، ثم أيام عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، ثم أيام يزيد بن عبد الملك، ثم أيام هشام بن عبد الملك، ثم أيام الوليد بن يزيد بن عبد الملك، ثم أيام اليزيد بن الوليد بن عبد الملك، ثم أيام إبراهيم بن يزيد بن عبد الملك، ثم أيام مروان بن محمد بن مروان بن الحكم.

---

(١) موضع النقط طمس ثم كلمة غير مقروءة.

ونعيش في هذه الدولة المروانية ممن اجتلب الحديث فيهم وهم المبايعون قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ثلاثة.

ثم في دولة بني العباس ببغداد فنذكر أيام أبي العباس السفاح، ثم أيام أبي جعفر المنصور، ثم أيام المهدي، ثم أيام الهادي، ثم أيام الرشيد، ثم أيام الأمين، ثم أيام المأمون، ثم أيام المعتصم، ثم أيام الواثق، ثم أيام المتوكل، ثم أيام المنتصر، ثم أيام المستعين، ثم أيام المعتز، ثم أيام المهتدي، ثم أيام المعتمد، ثم أيام المعتضد، ثم أيام المكتفي، ثم أيام المقتدر، ثم أيام القاهر، ثم أيام الراضي، ثم أيام المقتفي، ثم أيام المستكفي، ثم أيام المطيع، ثم أيام الطائع، ثم أيام القادر، ثم أيام القائم، ثم أيام المقتدي، ثم أيام المستظهر، ثم أيام المسترشد، ثم أيام الراشد، ثم أيام المقتفي، ثم أيام المستنجد، ثم أيام المستضيء، ثم أيام الناصر، ثم أيام الظاهر، ثم أيام المستنصر، ثم أيام المستعظم، وهو آخر ملوك الدولة العباسية ببغداد إلى أن تغلب عليها التتر.

وفي هذه الدولة العباسية ممن بويع قبل الاحتلام

الأمين، ثم المأمون، ثم المؤتمن، ثم ولد الأمين، ثم ولد المتوكل، ثم أخوه ثانية، ثم المعتز.

ثم نأتي بملوك وأمراء تعلقوا بأهداب هذه الدولة العباسية من بني بُوَيه، والمماليك السلجوقية التركية والديلمية، والملوك من بني حمدان بحلب، والملوك من بني طولون، وبني طغج بمصر والشام، وهم الأخشيدية وفيهم ممن شرطنا: / [١١/ب] الإخشيد بن طغج.

ثم نأتي بدولة الشيعة العبيديين الذين انتقلوا من تملك إفريقية إلى تملك المشرق فنذكر أيام عبد الله المهدي منهم، ثم أيام المنصور، ثم أيام المعتز، ثم أيام العزيز، ثم أيام الحاكم، ثم أيام الظاهر، ثم أيام المستنصر، ثم أيام المستعلي، ثم أيام الآمر، ثم أيام الحافظ، ثم أيام الظافر، ثم أيام القاهر، ثم أيام العاضد، وهو آخر بني عبيد الله ملوك الشيعة، وكان في هؤلاء العبيديين ممن بويع قبل الاحتلام: الحاكم بن نزار، ويوسف بن عبد المجيد.

ثم نأتي على ذكر دولة المماليك بالمشرق من الغُز والترك فنذكر: دولة الملك العادل نور الدين محمود، ثم دولة ولده الملك الصالح، ثم دولة أسد الدين...[١]، ثم دولة ابن أخيه صلاح الدين بعده بمصر والشام.

---

(١) موضع النقط طمس بالمخطوط قدره كلمة.

ثم ما اتصل به من الممالك إلى شجرة الدر.

ثم أيام الأمير أيبك.

ثم انتقال الأمر من الغُز إلى التُرك فنذكر: أيام الملك المظفر، ثم أيام الملك الظاهر، ثم أيام السعيد بن الظاهر، ثم أيام هلامش بن الظاهر، ثم أيام المنصور قلاوون، ثم أيام الملك الأشرف خليل، ثم أيام بيدلا، ثم أيام الملك الناصر وكشغا ولاجين وبيبرس، ثم استقامة الأمر للملك الناصر، ثم أيام ولده أبي بكر، وأيام ولده الآخر كجك، ثم أيام الثالث أجد، ثم أيام الرابع إسماعيل، ثم أيام الخامس شعبان، ثم أيام السادس حاجي، ثم أيام السابع حسن، ثم أيام حفيده شعبان أبي البركات الكائن على عهد هذا التعليق.

وكان في هؤلاء المذكورين بعد العباسيين ممن بويع قبل الاحتلام: ولد الإخشيد بن طغج بمصر، ثم شجرة الدُّر، ثم الملك الصالح ابن الملك العادل بحلب، ثم سلامش، ثم الملك الناصر، ثم كجك، ثم شعبان.

وبالحجاز الشريف أمراء علويون تعرضاً منهم على هذا العهد: الأمير عجلان بن رميثة بن محمود أبي سعد من ورثة آل جمان الحسني.

نرجع إلى ما يخص المغرب بما وراء برقة ونحسب الأغالبة من الملوك المستبدين لاستبداد أكثرهم، ونبدأ بذكر: أيام إبراهيم بن الأغلب، ثم بذكر أيام ولده أبي العباس، ثم بذكر أيام زيادة الله / أخيه، ثم أيام أبي العرانين، ثم أيام إبراهيم بن أحمد الممقوت، ثم أيام أخيه العباس بن أحمد، ثم أيام أبي مضر زيادة الله الآخر. [١٢/أ]

ثم نذكر مرد مروان على عهد الشيعة بصقلية، ثم ننتقل إلى الأندلس ونبدأ بذكر: دولة المروانيين من بني أمية، فنذكر أيام عبد الرحمٰن بن معاوية أولهم، ثم أيام ابنه هشام، ثم أيام الحكم بن هشام، ثم أيام عبد الرحمٰن بن الحكم، ثم أيام ولده محمد، ثم أيام المنذر بن محمد، ثم أيام أخيه عبد الله، ثم أيام الناصر، ثم أيام المستنصر، ثم أيام هشام المؤيد، ثم أيام المهدي بن عبد الجبار، ثم أيام سليمان بن الحكم، ثم أيام المستظهر، ثم أيام المستكفي، ثم أيام المعتز والمرتضى، وفي هؤلاء ممن بويع قبل الاحتلام: هشام بن الحكم، ومحمد بن سليمان بن الحكم.

ونذكر ملوك بني حمود العلويين الذين دالوا بالأندلس، فنذكر: أيام علي بن حمود، ثم أيام القائم أخيه، ثم أيام يحيى بن علي، ثم أيام العالي، والمستعلي، ثم سائر الحموديين بإجمال.

ونذكر المشهورين من ملوك الطوائف كمثل: بني جهور بقرطبة، وبني عباد

بإشبيلية، وبني هود بسرقُسطة، وبني ذا النون بطليطلة، وبني الأفطس ببطليموس، وبني صُمادح بالمرية، وبني أبي عامر ببلنسية وغيرها، ومنذر بن يحيى بالثغور الجوقية، وبني زيري حبوس بن باديس وخافد له بغرناطة، وابن طاهر بمرسية.

والمماليك العامريين: خيران، وزهير، وموفق، وواضح، ولبيب، ومظفر، ومبارك.

وبعدهم ممن دون زمانهم: ابن حمدين، وابن حشون، وابن مرذنيش، وابن هلال، وابن ممشك، وابن ملحان، وابن قيسي، وابن حجان، وابن الباجي، وابن عصام، وابن جعفر. وأضربنا عن كثير منهم احتقاراً.

ونذكر دولة محمد بن يوسف بن هود.

ثم أيام ولده أبي بكر من بعده، وهو ممن شرطنا من المبايعين بحال الصغر.

ونذكر دولة بني نصر: فأولهم محمد بن يوسف، ثم أيام ولده محمد الثاني عنه، ثم أيام ولده المخلوع، ثم أيام نصر أخيه، ثم أيام أبي الوليد ابن عمهم، ثم أيام ولده محمد، ثم أيام أخيه يوسف، ثم أيام ابن عمهم...(1) آل لمحمد بن يوسف الآمر من بعده والكثرة عليه.

[١٢/ب] وفي هؤلاء / النصريين ممن بويع في حدود الاحتلام وقبله: ثلاثة.

وننتقل إلى دول المغرب المتصل بحدود الشرق: ونبدأ من إفريقية من حيث خرجنا إلى الأندلس.

فنأتي بدولة بني الأغلب بعد أن نعد...(1) إفريقية قبلهم من عمال الخلف الصالح وأمرائهم.

ثم أيام إبراهيم بن الأغلب بن سالم، ثم أيام العباس بن إبراهيم بن الأغلب، ثم أيام زيادة الله بن إبراهيم، ثم أيام أبي عقل الأغلب بن إبراهيم، ثم أيام أبي العباس محمد بن الأغلب، ثم أيام أحمد بن محمد بن الأغلب، ثم أيام زيادة الله بن محمد بن الأغلب، ثم أيام محمد بن أحمد بن الأغلب، ثم أيام إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب، ثم أيام أبي العباس بن إبراهيم بن محمد بن الأغلب، ثم أيام ولده زيادة الله بن أبي العباس بن إبراهيم بن الأغلب.

ثم نأتي بدولة بني زيري بن هناد الصناجقة الذين تسلم لهم الدولة في ملك المغرب.

فنذكر ملوكهم بإفريقية، ثم بالمهدية.

---

(١) كلمة غير واضحة ومتراكبة الحروف.

فنبدأ بدولة بلقين بن زيري، ثم أيام المنصور بن بلقين، ثم أيام باديس بن المنصور، ثم أيام المعز بن باديس، ثم أيام تميم بن المعز، ثم أيام يحيى بن تميم، ثم أيام علي بن يحيى، ثم أيام الحسن بن علي بن يحيى.

ومن بني حماد بن بلقين أبناء عمهم المنفردين بقلعة حماد فنذكر منهم: أيام حماد، ثم أيام ابنه القائد، ثم أيام محسن ابن القائد، ثم أيام بلقين بن محمد بن حماد، ثم أيام الناصر عباس بن حماد، ثم أيام المنتصر وابنه، ثم أيام أباديس بن المنصور، ثم أيام العزيز بن المنصور، ثم أيام يحيى بن العزيز.

وفيهم ممن بويع قبل الاحتلام: باديس بن المنصور، وتميم بن المعز، والعزيز بن عباس.

ونذكر نبذة من أخبار صقلية، وبعض من ولي الأمر من قبل أمراء إفريقية.

ونذكر دولة بني حميد بالمغرب الأقصى والريف ودارهم أو مدينة تكور.

نذكر منهم أيام صالح بن منصور، ثم أيام المعتصم بالله، ثم أيام إدريس بعده، ثم أيام صالح بن سعيد، ثم أيام سعيد بن صالح، ثم أيام صالح بن سعيد، ثم أيام ابن عمه المؤيد بن البديع، ثم أيام إسماعيل بن موسى بن علي، ثم أيام عبد / [١/١٣] السميع بن...[١]، ثم أيام محمد بن عبد السميع، ثم أيام عبد السميع، ونذكر مصير إبراهيم لبني الفتوح الازداجي فملك يَعْلى بن الفتوح، ثم ولده يوسف، وولده عزيز بن يوسف إلى أيام لمتونة.

ثم نذكر دولة الأدارسة العلويين الذين ظهروا بالمغرب مُفْلِتاً أوّلهم من الإيقاع بأهل البيت، فنأتي منهم: بأيام إدريس بن عبد الله، ثم أيام ولده محمد بن إدريس، ثم أيام ولده علي بن محمد، ثم أيام علي بن إدريس، ثم أيام المقدام يحيى بن القاسم بن إدريس، ثم أيام يحيى بن إدريس بن عمر، ثم أيام الأمير الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس.

ونذكر شيئاً من أخبار ابن أبي العافية الذي نازع الأمر ولده. ثم أيام قنون بن محمد بن القاسم، ثم أيام أبي العيش ابنه، ثم أيام الحسن بن قنون أخيه.

ثم نذكر في هذه الدولة ممن بويع قبل الاحتلام اثنين: إدريس بن إدريس، وعلي بن محمد بن إدريس.

ونذكر بعد ذلك دولة بني مدرار ومن قبلهم بسجلماسة من الصفرية فنذكر: أيام عيسى بن يزيد، ثم أيام أبي الوزير إلياس بن القاسم، ثم أيام أبي الخطاب الصفري،

(١) طمس خفيف جعل الكلمة غير مقروءة.

ثم أيام أليسع بن مذرار، ثم أيام مالك بن أليسع، ثم أيام ابن تقية، ثم أيام أليسع بن مذرار، ثم أيام الفتح ابن الأمير، ثم أيام أبي العباس أخيه، ثم أيام المعتز بن محمد بن مساور، ثم أيام محمد بن المعتز، ثم أيام المنتصر سمعون بن محمد، ثم أيام الفتح ابن الأمير، ثم أيام من ملكها من مغراوة وغيرهم إلى دولة بني مرير أعزّها الله وأبقاها.

ونذكر بعد [ذلك][1] دولة بني خرز بالمغرب، وأيام زيري بن عطية، وابنه المعز، وأيام حمامة بن المعز بن عطية، ثم أيام محمد بن دوناس بن حمامة، ثم أيام الفتوح بن دوناس، ثم أيام مع النصر بن المعز بن زيري، ثم أيام مع تميم بن النصر.

ونذكر دولة بني يفرن من زناتة أيام يعلى بن محمد اليفريني، ثم ولده يدق بن يعلى، ثم تميم بن زيري، ثم محمد بن تميم إلى دولة لمتُونة ثم دولة بني تجين، وبني توالي وغيرهم من زناتة بإجمال واختصار.

ونذكر دولة برغواطة وإن كانت غير محسوبة من دول الإسلام ولكنها مما نذكر بحكم الانجرار، فمنهم: صالح بن طريف، ثم إلياس بن صالح بن طريف، ثم يونس / بن إلياس بن صالح، ثم أبو عمر معاذ بن يونس، ثم [أيام][2] عمر بن معاذ بن [١٣/ب] يونس، ثم. . .[3] أليسع بن إسماعيل إلى دولة المرابطين، وآخر دولتهم عيسى بن أبي الأنصار.

ثم نذكر دولة لمتونة المتسمين بالمرابطين فنذكر: أيام الأمير يحيى بن إبراهيم الجد ثم [أيام] يحيى بن عمر، ثم أيام الأمير أبي بكر، ثم أيام الأمير يوسف بن تاشفين، ثم ولده علي بن يوسف، ثم تاشفين بن علي، ثم إبراهيم بن تاشفين.

ثم نذكر دولة المؤمنية المدعو قومها بالموحدين. نبدأ بخبر المهدي، ثم أيام خليفته عبد المؤمن، ثم أيام يوسف بن عبد المؤمن، ثم أيام يعقوب بن يوسف، ثم أيام الناصر بن يعقوب، ثم أيام المنتصر ابنه، ثم أيام عبد الواحد المخلوع، ثم أيام العادل، ثم أيام يحيى بن الناصر، ثم أيام المأمون إدريس، ثم أيام الرشيد، ثم أيام السعيد، ثم أيام المرتضى، ثم أيام الواثق.

ونذكر بعد ذلك دولة الحفصيين بتونس المقتطعة من دولة الموحدين بمراكش فنبدأ: بأيام الأمير أبي زكريا، ثم أيام المنتصر بالله ابنه، ثم أيام يحيى الواثق بالله، ثم أيام إبراهيم أخي المنتصر.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

(٣) كلمات مطموسة تقدر بثلاث كلمات.

ونذكر حديث ابن أبي عمارة.

ثم أيام أبي حفص، ثم أيام أبي عبد الله بن الواثق، ثم أيام أبي بكر بن عبد الرحمٰن، ثم أيام خالد بن يحيى، ثم أيام أبي يحيى اللحياني، ثم ولده أبي ضربة، ثم أيام يحيى بن أبي بكر بن يحيى، ومن نازعه على عهده من ابن اللحياني وابن أبي عمران، ثم أيام ولده أبي حفص عمر، ثم الفضل أخيه، ثم أيام أخيه أبي إسحاق إبراهيم، وولده خالد، ثم أيام ابن عمه أبي العباس المستقر فيها إلى هذا العهد.

ثم نذكر دولة بني زيان بتلمسان وما يليها: أيام أوّلهم أبي يحيى يعمر بن زيادة، ثم أخيه موسى بن عثمان، ثم أيام ابنه أبي تاشفين، ثم أيام عثمان بن عبد الرحمٰن، ثم أيام أبي حمثوا موسى بن يوسف بن عبد الرحمٰن بن يحيى بن يعمر ابن أميرها إلى اليوم.

ونذكر من استبد بسبتة مثل سفوت البرغواطي، ثم أيام ابن خلاص، ثم اليشتي، ثم أبا القاسم الغربي، ثم أبا حاتم ابنه، ثم أخاه ابن طالب، / ثم ولده يحيى، ثم ابنه محمد بن يحيى، ثم ابن عمه محمد بن علي. [١٤/أ]

ونأتي بالدولة الطاهرة الزكية المرينية، فنذكر: القائم بها الأول عبد الحي بن محمد، ثم بنيه الثلاثة: عثمان، ومحمد، وأبا يحيى، ثم أمير المسلمين أبا يوسف، ثم أيام ولده أبي يعقوب، ثم تصيير أمره إلى عهدة أخيه جعدة، ثم إلى أخيه أبي الربيع. ثم أمير المسلمين أبي سعيد، ثم أمير المسلمين أبي الحسن، ثم إلى أمير المسلمين أبي عنان، ثم ولده أبي بكر، ثم إلى أمير المسلمين أبي سالم، ثم إلى ابن أخيه أبي زيان محمد بن أبي عبد الرحمٰن، ثم إلى بركة الإسلام، وشرف تلك الأيام، وعلم هؤلاء الأعلام أبي فارس قدّس الله أسرارهم، ورفع في محل المُلك الباقي أقدارهم.

وإنما أخرنا هذه الدولة الكريمة ليكون ذكرها الطيب الحلاوة في الأفواه باقية وحَسَنَةً في الكتب شافية واقية، وكفى بالمثل في قولهم:

«ساقي القوم آخرهم شرباً»

حُجّة، ويقول الشاعر شاهداً لا تلتبس منه محجتها:

لا تأنفن من التأخر ربما ... كان التأخر فاضلاً لم يفضل
هذا كما البستان ليس يضره ... أن جاء في عقب الغمام المُسبل
وتقدم البطل الكتائب أحمدا ... أعقابها حتى تقرّ بمنزل
وكذلك الراعي يُقدم بالعصا ... قطع السوائم أولاً في أوّل
وتأخر الساقي عن الشرب الذي ... يسقيه من أمثال كل ممثّل

أو مـا تـرى أن الـنـبـي مـحـمـداً سـاد الـبـريـة وهـو آخـر مُـرْسَـلِ

ثم نختم الكتاب بتقرير فضل الدولة المرينية على كل دولة ما عدا ما يختص بصحابة رسول الله ﷺ إذ لهم فضل الزمان والمكان والاستباق إلى الهدى والإيمان والرفعة بلقاء رسول الله ﷺ شرف الأكوان ومصطفى الرحمٰن.

ونرفع في هذه الدعوى ميزان الإنصاف الذي لا يظلم مثقال ذرة إلاّ وَفّى بها، وأشهر انتسابها حتى يدعى المعلنين لحجة الحق، ويقصر الفضل على الأوْلى به والأحق. وحسبنا الله ونِعم الوكيل.

[بسم الله الرحمن الرحيم][1]

/المقدمة التي نسبق بها الوعد ونفتتح بها هذا القصد

[١٤/ب]

من يسبق بدورة السياسة ورجوع الخلق إلى دور الإقرار والرياسة، وبيان علم الله في أن علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، والإشادة بفضل التاريخ تتجلى بصراحة............[2] تفرّد به هذا الكتاب بأن الله اللطيف الخبير الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، ولم يهمل شيئاً من مخلوقاته كائناً ما كان الذرة فما فوقها مقدّر بذلك ومفروغ منه عنده قبل وجود المخلوق، سبحانه لا إله إلاّ هو.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

فلا يعمل الناظر المعتبر النظر في شيء من أعضائه أو أجزاء خلقه إلاّ وجد خلقه على ذلك الشكل وتلك الصورة لمنفعة ملحوظة أو لحكمة مقررة أو لزينة ملموحة مستحسنة.

فمن ذلك ما يجمع بين المنفعة والضرورة والزينة، ومنه ما لا يظهر منه التي تظهر منه.

مثال ذلك فيما يجمع بين الزينة والضرورة: اليدان، فإنهما زينتا الشكل من عن يمين وشمال، وكان في جريهما عن جنبي الضرورة.

الجوف، فيه مسكن الروح، زيادة صون وتكثير سياج لعزة الروح والاحتياط عليه. ثم تعددت المنفعة في أشكال اليدين، فلولاهما لم تتأت المدافعة والاتقاء عن محل الروح، ولا صدرت الصنائع العملية التي بها يتمشى المعاش.

ثم تكثر المنافع بالكفين والأصابع التي تعين عند القبض.

---

(١) زيادة تبركية تسبيح لابتداء موضوع الكتاب وهي من عمل المحقق غفر الله تعالى له.

(٢) موضع النقط طمس وكلمات متراكبة الحروف.

ثم جعل في أطرافها الأظفار للقط الأشياء الحقيرة وإخراج الشوك، وقتل الحيوان المؤذي.

ثم كانت في أطراف الأصابع زينة ومنفعة مثل الأسنة فهي للعصي، وكالحواجب فإنها جمعت الزينة، وجعل منها فوق العينين رفرف بارز يقي ما تحته، ويتقي ما يصله من الأعلى كما تتخذ فوق الأبواب السهة والرواشن(١) المزخرفة.

وكأشفار العينين، فإنما جمعت بين الزينة والمنفعة إذ كانت في حرف الجفن كأهداب الثياب التي تزين بفتل أطرافها وجُعل منها ذلك من باب يُشرد بها الذباب عن العين دائماً.

وهذه أمور لو لم تكن لم تتعذر مع عدمها حياة الإنسان لكن عناية الله بكماله وخلقه في أحسن التقويم اقتضت ذلك فسبحان الحكيم العليم.

[١٥/أ] فهذا مثال ما جمع / بين المنفعة والزينة.

ومثال ما انفرد بالزينة فقط: اللحية، فبها الفرق بين الذكر والأنثى حتى في بعض الطيور حكمة من الله الحكيم العليم لا إله إلاّ هو وجعل سبحانه وتعالى أجناس الحيوان كله من خلقه بين عاقل يدبِّر ويقيس ويعلِّم ويعلل، وفيهم غير عاقل جعل طباعه ما يكفيه لضرورة معاشه.

والكل بميزة متميزة، كان لا بد من اجتماع واستعانة بعض ببعض كالإنسان.

وبين ما يوهم...(٢) في ظاهر أمره كالنحل...(٢) في شأنه الظاهر وهم سائر الحيوان. وكان التميز بالعقل والفهم وصحة الفكر، وقوة النطق للإنسان وهم نوع البشر الذين أخرجهم من ظهر آدم صلوات الله على نبينا وعليه ليعمر بهم الأرض، ويقيم عليهم الحجة بالفكر والعقل، ويعمِّر بهم من بعد ذلك داري البقاء: الجنة والنار ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: الآية ٣١]، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: الآية ١١٥].

ولما أوجب الفكر والتدبير في الإنسان محاولة معاشه وإحكام الأمور الضرورية في حياته من مطعوم يقويه، وملبوس يدفيه، ومسكن يأوي إليه ويصون قوته.

ولم يكن يكفي نفسه في ذلك ما لم يحتج لغيره فإنه إن حرث يحتاج إلى آلة الحديد أو الخشب واحتاج من يعمل له الآلة إلى غير نفسه فيمن يعينه.

(١) جاء بهامش المخطوط تعريف بكلمة: «الرواشن» نصها: الرواشن بالنون روشن: الكوة. قلت: والكوة: هي الفتحة أو ما نسميه نحن الشباك أو الطاق.

(٢) كلمات غير مقروءة.

وكذلك فيما يخاط أو يبني أو ينسج أو يطبخ أو يخبز أو يجزر.

وكان الإنسان فيما يحتاج إليه من ذلك كله لا يقنعه فيه أنه وراء. . .[(١)] يتشوّف من حيث العقل والفكر إلى التزايد في طلب الأفضل والأكمل لزم الاجتماع والاستعانة من بعض ببعض، فهذا يخبز، وهذا يخيط، وهذا يحرث، وهذا يصطاد، فكان متمدناً بطبعه ومفتقراً بعضه لبعضه، ولا بد من الاجتماع والتآلف والتعامل والاستجارة والمشاركة.

ولما تعينت مبايعات ومعاملات ومشاركات لم يكن بد فيها من أحكام وشروط وحدود وأمور بإزاء ما يقع فيه فساد أو ظلم أو غش أو مطل أو تعدي أو مضايقة جوار [كان لا بد][(٢)] من أحكام وقوانين وعوائد وسنن وشيء يُسَمّى عدلاً وإنصافاً، ولزم وجود من ينظر في ذلك ويحكم بينهم فيه ويبين لهم الصواب ويحملهم عليه وينهاهم عن غيره.

وكان من شروط أن يكون من جنسهم بشراً منهم يخاطبهم بلسانهم ويبين لهم الصواب من غيره في جميع أمورهم / ويخبرهم في الأمور الظاهرة ويخوفهم في الأمور الباطنة من الملك القاهر فوق عباده وهو الله سبحانه وأنه يعلم أمورهم الظاهرة والباطنة. [١٥/ب]

ولزم أن يكون له عليهم مزية في الفضل ومعرفة في الخير وبرهان على ما يأتي به عن غائب.

فبعث الله فيهم ـ وهم أمّة واحدة ـ النبيين مبشرين ومنذرين ليحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه، وليقرروا لهم الأمور التي تصان بها أموالهم وأنفسهم وتحسن بها معاملاتهم ومجاوراتهم في الدنيا، ثم ما تختص به أحوالهم من بعد انصرافهم عن الدنيا، وأيّدهم بالدلائل الساطعة والبراهين القاطعة ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النّساء: الآية ١٦٥].

وكيف يهمل اللطيف الخبير بعباده الذين [خلقهم و] ظهرت حكمته حتى في الإصبع والظفر والحاجب وشعر العينين ـ كما قلنا ـ هذه الضرورة التي تقتضي سعادة خلقه في العاجلة والآجلة؟

حاشى وكلا، فهو أرأف وأرحم لهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: الآية ٧٠]، فأرسل سبحانه الرسل صلوات الله عليهم فنصحوا وبيّنوا وأوضحوا حجج الله، صادعين بأمره موقنين بعهده.

---

(١) طمس في المخطوط.

(٢) ما بين المعقوفين زيادة يتطلبها سياق الكلام.

وورثهم من بعدهم علماؤهم ووُرّاثهم إلى أن ختم الله الرسالة والنبوة برسوله وعبده النبي العربي خيرة خلقه وصفوة أنبيائه، وجعله مهيمناً على الجميع وحجّة على الرسل صلى الله عليهم وسلّم.

فكان من سير الناس وأحكامه ودخول الناس أفواجاً في أمره وإنجاز الله لوعده بعموم أمره وبلوغ مُلك أُمَّته ما زوى له من الأرض ما هو معروف.

ومن حيث كان رسول الله ﷺ بشراً ألزمه ما لزم كل الأحياء من شرب كأس الموت والانتقال من دار الدنيا إلى دار الآخرة، قال الله عزَّ وجل يخاطبه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الزُّمَر: الآيتان ٣٠، ٣١]، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٤٤] الآية.

وأُشْعِرَ باقتراب الأجل عند فراغه من التبليغ والهداية، فأنزل الله عليه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النَّصر: الآيات ١-٣]، فعلم ﷺ أنه منعي فيما نقل.

[١٦/أ] قال بعض المفسرين: إن عمر بن الخطاب سأل ابن/ عباس رضي الله عنه عن تأويلها، فأخبره أن الله تعالى أعلم نبيه فيها انقضاء أجله.

فقال عمر: ما أعلم فيها إلاّ ما قلت.

حتى كأن النبي ﷺ كان أشدّ اجتهاداً في أمر الآخرة.

وكم تعهدنا والنبوّة لم تنقض زمانها ولا ذهب ريعانها، فسبحان من كتب اللطائف ثم أمضاها، وعرف المنن ثم أبقاها وحفظها، وعيّن طريق النجاة ثم هدى إليها وألهم إلى المقاصد المبرورة ثم أثاب عليها، لا إلٰه إلاّ هو الرحمٰن الرحيم.

فصـــل

في لطائف الله تعالى أن علَّم بالقلم
علَّم الإنسان ما لم يعلم

ولما تقدم من لطف الله جلّ جلاله بعالم الإنسان ما تقرر في جعله متآلفاً مجتمعاً مستعيناً بعضه ببعض ليكون له الفضل في معاشه وضروريات بقائه والكمال على غيره، كما له الفضل على الغير بمزية عقله وتقديره ووجود فكره ورؤيته وقبوله للصنائع والعلوم، وترقيه في طلب المزيد من الكمال حتى حسن عيشه وطابت حياته.

ووجب أن نبيِّن فضل الله عزَّ وجل عليه في تعليمه بالقلم وإلهامه إلى الاكتتاب الذي ينوب عن النطق فيما يتعذر فيه النطق أو لاختيار توجيه فضله وترجيح العوض عن النطق أو بعد مكان يفصل بين المختلطين. وإقراره سبحانه وتعالى على الاعتياض عن النطق في جملة ما قرره عليه من اكتتاب الصنائع والعلوم والملكات إما بما يقوم من حال الشيء ويقوم مقام الشيء كما قال القائل يصف حوضاً قد امتلأ وفاض، فقال:

امـتـلأ الـحـوض وقـال بـطـنـي

فكأن هيئته تنوب لفهم الإنسان مناب قوله، وإن لم يتكلم.

وإمّا بإشارة تنوب عن النطق: كما يجري عليه أحوال من فُقد الغرض منه وبه يجري نيابة الإشارة عن الكلام كما نشاهده كثيراً، ولذلك يقول الشاعر:

أرادت كلاماً فاتقت من رفيقها فلم يك إلاّ وَمؤها بالحواجب

وإمّا بالكتاب: وهو أشرف ما ناب عن النطق والكلام، وأشد أمانة على أداء ما يراد منه أداؤه، فَقَلّ أن يتحيفه أو ينقصه أو يخونه بل يؤديه بحاله ويبلغه بكماله ويدفع حكم الأسماع عن سره ويوصله إلى قوة النفس التي تتدبره في الإنسان بواسطة بصره منفرداً إذا شاء عن غيره، ثم يحكم فيه خاصة الاستماع إذا شاء عند جهره وإعلانه والخروج في الأمر عن كتمانه، وفي ذلك قيل:

/ لله في هذه الجوانح سريرة من كاتب منها وخلف...[1] [١٦/ب]

....[1]

(١) بيت وبعض الكلمات المطموسة.

. . .[١] أما لفظه الكون من أسراره   مهما اعتبرت معلم الأشياء

فبان بذلك أن ذلك من مزيد الكمال على مخلوقات الله وعرَّف ملائكته الكرام الكاتبين كانت المزية تماماً على التي أحسن الله به من إيداع خلقه وتيسير ضرورة نيابته، وتبعث تلك المزية منافع ماسة إليها حاجة من يدبر دُنياه وأراد قضاء الشيء من حكمة دنياه مما يتناوله ووظائف القلم كالحساب والقسم والمساحة، وإنفاذ صيغ الأمر والنهي والخير والاستخبار بين متولي تدبير الجماعات وبين غيره، ومن ذلك توارث الصنائع والعلوم الضرورية للإنسان التي لو لم تكتب لماتت فوائدها بموت من يستنبطها أو يتممها أو يغرب المقاصد إليها من طب، وفلاحة، ونجوم، وكيمياء وغير ذلك.

وأما من جهة دينه: فكنقل الشرائع والسنن والأحكام وإلاّ ماتت بموت من سنّها وشرّعها عند موته، ولو فرض نقلها خلف عن سلف من غير كتاب لم يؤمن عليها كذب الناقلين وافتيات الواضعين والتباس الصحيح بالسقيم، واختلاط البريء بالمريب لولا الكتاب الذي بيّن حال الناقلين من جهة العدالة وغيرها، ويعني بارتهان الصحة فيه ناس متفق على ثقتهم.

ثم نجمل القول فنقول: فكان الإنسان كما تقدم وتقرر مفتقر إلى الاجتماع والتمدن مفتقر إلى معاملات ومشاركات ومؤاجرة وعدلٌ في ذلك، وتلك المعاملات مفتقرة إلى من يسنّ بين أهلها كلما تنازعوا سُنناً وأحكاماً يوقَف عندها، وتلك الأحكام مفتقرة إلى الإذعان والوقوف بالظاهر والباطن عندها لتصديق من يسنها ويقررها وتعظيمه وتهييبه ساحته حتى لا تسهل مخالفته لما امتاز به من شواهد الصدق ودلائل النبوّة، فإن منزلة النبي [أن][١] له المثل الأعلى وبه شغل المتكلمون عند ذكر المعجزات كلما جاء بالمعجز مستدلاً به على توسطه بين الله وبين عباده وصدقهم إياهم عنده بمنزلة من يقوم بين يدي الملك بمحضر رجاله وعبيده، فيقول لهم: الملك يأمركم بكذا أو ينهاكم عن كذا، وأنا أبلغكم عنه / ودليل صدقي فيما أبلغه أن أطلب [١/١٧] من الملك إمارة من مزية أو مثل ذلك بعد فراغي مما نقلته عنه إعلاماً بصدقي.

ويطلب ذلك من الملك، فإذا قرر مراده منهم فعل الملك ما طلبه منه المبلِّغ فلا يكذبه بعد ذلك إلا معاند بعيد عن الحق قد طبع الله على سمعه وبصره وقلبه.

ثم كانت تلك الأحكام والسنن مفتقرة لأن تكتب لكي ترسخ ويجمعها المتّبع بعد انقراض الجيل وموت الرسول عظة جليلة ووصية باقية.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «عليكم بكتاب الله وسنّة رسوله، عضوا عليها بالنواجذ».

فكتبت الصحابة رضوان الله عليهم القرآن كما أنزله الله على نبيه، وكتب عنهم السنن التابعون لهم بإحسان، وتمّ أمر الله واستقام السير على ما جاء به رسوله وأنفذته الخلفاء، ثم الملوك بعدهم، والأمراء بالأقطار والأمصار التي بلغها الدين وأشرق عليها النور المبين.

والكلام في اللغات، وصور المكتوب وحروفه وأشكاله وإعطاء علل ذلك يخرج الخوض فيه عن الغرض. وفي هذا المقدار . . .[١] ويتعلق بهذا شرف التاريخ.

فصل

في شرف التاريخ

نقول: كان هذا المنقول الذي علّقنا به صلاح الدنيا والآخرة يرجع بأجناس ما يكتب ويعرف ويلقب إلى فن التاريخ، وحقيقته نقل الأخبار وإثباتها بإزاء ما يقارنها من الأخبار الزمانية والتواريخ المنقولة ما بين تاريخ زمان كغرض كُتب السيرة المعروف بابتداء أمر الإسلام، وأحوال رسول الله ﷺ في دعاء الخلق إلى الله، وما جرى بينه وبين العرب في ذلك، وما جاءهم به من معجزة، وحال هجرته إلى المدينة، وغزواته، ووفود العرب عليه، وسيره في أهله وصحبه، وكأخذه ومشاركته إلى أن توفاه الله إليه. ثم ما وقع أثناء تلك المدة من الحديث الذي هو أحد الأصول كبيان[٢] أحكام الشريعة من بعده، وتاريخ رجال، وككتب الصلاة، والتعديل والتجريح.

فلو لم يكن في التاريخ من شرف إلاّ هذا لكفي؛ إذ ثبت أنه الأصل الذي تفرّع عنه تفسير الكتاب والسنّة والتنبيه على ناسخها ومنسوخها وغريبها، ومعرفة رجالها، وبسقت من جوهره عظمة أحكامها وأفنان حلالها وحرامها إلى ما فيه الاعتبار والاستبصار والاتعاظ والازدجار / والتأتي بجولان الليل والنهار. [١٧/ب]

فمتى فتح الله على من زاول هذا الفن أبواب الرجاء ومدّ عليه ظلل العافية وطوّع له قصياه إلا نال نظر بمعزله تحفظه، واستحضر . . .[٣] والمترفين في الزمن السالف يعكره، ولم يبطره الغنى ولا لعبت به الدنيا . . .[٣] ولأن القصد بالإنسان إنما

---

(١) بياض في الأصل قدره كلمة.

(٢) في المخطوط: كبنيان، وهو تحريف.

(٣) موضع النقط كلمات مختلطة المداد.

هو مستقره، وإن ما فضل له من الدنيا ذخرة فاز وشكر لطف الله على ما ناله من فضله العاجل ولم يشغله عن العمل للآجل، ويسأل من أعطاه الإرشاد الوصول إلى مراضيه، وأحسن لما أحسن الله إليه، وانتهز الفرصة فيما يقدمه من ذلك بين يديه من خير حاضر عند القدوم عليه، واعتبر بأرباب الدنيا وخروجهم منها كما دخلوها، وصدورهم عن مواردها عطاشاً كالذي وردوا ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: الآية ٩٤]، ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ[1] أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: الآية ٤٨]، وأخذ بالقصد، وآثر فضل الرفق، ولم يتَعَنَّ في استعجال الحظ فكان من الذاكرين الشاكرين والمعتبرين المستبصرين، وإن كانت الأخرىٰ وتعاصاه زمان أو تعذر أمان أو ضيق معاش أو عوز انتعاش تأسى بالفضلاء الذين حماهم الله الدنيا وجنبهم الغرور بها وما لقوا من الشدائد وتجرعوا الغصص، وكابدوا من الضراء ولم يكونوا أولى بذلك منه ولا أجد ريبة دونه فعلل الحلم باليقظة، وارتقب الصبح في الظلمة، والفرج في الشدّة، وعرض على نفسه النبأ العظيم، وما بعده حتى يرى كل أليم بالنسبة إليه لذّة، وكل نصب راحة ما لم يكن على بصيرة من حسن المآل والعرض الدائم بعد الانتقال، فكان من الراضين الصابرين والمسرعين العابدين، ولم يكن على فوات حظ الحلم من المستحسرين إلى ما تفيد مطالعة التاريخ من خلق جميل وسيرة حسنة، وعلاج فرح وإعداد أمر، وإتيان محمدة، واجتناب مذمة، وأنس مجلس، واستحضار حجة، وازديان بأدب، وتمسك من الكمال بسبب.

وقد ورد في كتاب الله جلّ جلاله من إطراء فن التاريخ ما فيه مفخرة لأهله، وشرف لمن آثر سلوك سبله، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ / حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ [يوسف: الآية ١١١]. [١/١٨]

وقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف: الآية ٣].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا[2] فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: الآية ٩].

ومطالع التاريخ سائر في الأرض وجائل في الطول منها والعرض يعرف من كُتابه من تاريخ الأمم الخالية، والأجيال الماضية، والرسل المبعثة، والمثلات والمواعظ بما يشهد بأنه عمدة في الدين، وسبيل من سبل المهتدين.

---

(١) في المخطوط: ظننتم، وهو سهو من الناسخ.

(٢) في المخطوط: يعبر، وهو تحريف.

وقد كدنا نخرج عن القصد، فلنرجع إلى العرض المطلوب من هذا الغرض المجلوب.

رجع الحديث إلى التاريخ

قلت: ولما ابتعث الله نبينا [محمداً][1] ﷺ ونسخ برسالته الرسل، وجعله شهيداً عليهم، وأمته شهداء على الناس، بَلّغَ ما أمره الله به، فلم يدع شيئاً من نصائح الدنيا والآخرة إلاّ علق عليه قسطاساً قويماً، ونهج للعدل فيه صراطاً مستقيماً، وأنجز الله له وعده في علوّ كلمته وشيوع دعوته، وقال الله تعالى على لسانه يخاطب المسلمين: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المَائدة: الآية ٣].

واختار له عنده دار كرامته الباقية ومعارج قدسه الراقية.

وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما نسمعه يقول: «إن الله يقول: إن الله لا يقبض نبياً حتى يخيِّره»، فلما احتضر رسول الله ﷺ كان آخر كلمة سمعناها منه وهو يقول: «الرفيق الأعلى من الجنة»، فقلت: والله لا يختارنا، وعرفت أنه الذي كان يقول لنا: «إن نبيّاً لا يقبض حتى يخيّر»[2].

وفي سنة عشرة من الهجرة خطب ﷺ خطبة الوداع، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أيها الناس اسمعوا قولي وأطيعوا فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف أبداً، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في مكانكم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلّغت، فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وأن كل دم موضوع، [وكل ربا موضوع][3] ولكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون. أما بعد: أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبداً فاحذروه/ على دينكم». [١٨/ب]

ثم قال بعد: «وقد بلغت وتركت فيكم أمرين إن اعتصمتم بهما لن تضلوا: كتاب الله وسنّة نبيه، والمسلم أخو المسلم، فلا يحل لمسلم من أخيه إلاّ ما أعطاه عن طيب نفس، فلا تظلموا أنفسكم، اللهم قد بلغت؟».

فقال الناس: اللهم نعم.

---

(١) ما بين المعقوفين موضعه في المخطوط بياض.
(٢) طرق الحديث عند القرطبي في تفسيره (٦/ ١٣٢).
(٣) زيادة من بعض مصادر الحديث.

فقال النبي ﷺ: «اللهم اشهد».

وعن عبد الله بن مسعود قال: نعى لنا نبيّنا ﷺ نفسه قبل موته بشهر فجمعنا في بيت أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فنظر إلينا ودمعت عيناه وقال: «أوصيكم بتقوى الله، أوصي الله بكم، وأستخلفه عليكم، أن لا تعلوا على الله في عباده وبلاده، فإنه قال لي ولكم: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: الآية ٨٣]، وقال: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾» [الزُّمَر: الآية ٦٠].

ثم قال: «قد دنا الفراق، والمنقلب إلىَ الله، وإلى سدرة المنتهى، والرفيق الأعلى، وجنة المأوى»(١).

وتوفي ﷺ يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة، ودفن في ظهر يوم الثلاثاء بعده.

وعظم حزن المسلمين عليه، وكان ضجيج الناس بالمدينة يسمع من البقيع، ودون ذلك للمصيبة برسول ﷺ.

وكثرت الأشعار في رثائه والتفجع لذلك، ومما هو معروف من كلام شاعره حسان، وأبي سفيان بن الحارث وغيرهما، وقالت بنته فاطمة رضي الله عنها بعد أن رجعت إلى بيتها، واجتمع إليها النساء:

اغبر آفاق السماء وكورت ... شمس النهار وأظلم العصرانِ

فالأرض بعد النبي كئيبةٌ ... أسفاً عليه كثيرة الرجفانِ

فليبكه شرق البلاد وغربها ... والبيت ذو الأستار والأركانِ

يا خاتم الرسل المنير سراجه ... صلى عليك مُنزِّلُ الفرقان

وأظلمت الأرجاء يوم موت رسول الله، وساءت الظنون، وطأطأت الرؤوس، وأصبح الناس كالغنم المهملة في الليلة الشاتية، لولا أن الله جمع الشمل، وضمّ الفرقة، وآنس الوحشة، وحفظ الكلمة بأبي بكر الصديق، خير الناس بعد رسول الله ﷺ.

واستقام السبيل في توارث الهداية، والاقتداء، وأخذ الخلف عن السلف،

---

(١) أطراف هذا عند: الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠/ ٢٨٦)، أبي نعيم في حلية الأولياء (٤/ ١٦٨)، البيهقي في دلائل النبوة (٧/ ٢٣١)، وابن كثير في البداية والنهاية (٥/ ٢٥٣)، الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٩/ ٢٥)، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار في الأسفار (٤/ ٤٥٥).

بشرط المحافظة في المنقول، واختيار الحامل الصون المحمول، فبلغ المأمول، ورتبت الفروع على الأصول.

[ذكر خلفاء رسول الله ﷺ]

/ ذكر خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

[١٩/أ]

هو: عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة. فكان علاج القَرح ودواء المصيبة القوية في [رسول][١] الله والرضا بقضاء الله والمحبة لرسول الله.

قالوا: لما بلغ موته أبا بكر الصديق رضي الله عنه، أقبل وعيناه تدمعان...[٢] ونفسه يتردد في صدره، وهو ـ مع ذلك ـ رابط الجأش والمقالة ظاهر الجلد حتى دخل على رسول الله ﷺ، فأكب، وقَبّلَ وجهه، وجعل يبكي ويقول: بأبي أنت وأمي طبت حيّاً وميّتاً، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لأحد من النبوة فعظمت عن الصفة، وجللت عن البكاء.

ثم قال: اللهم فأبلغه عنا، اذكرنا يا محمد عند ربك ولنكن من بالك...[٣] من السكينة لم نقم لِمَا خلّفت من الوحشة.

ثم خرج، وقام خطيباً بخطبة جُلها الصلاة على رسول الله ﷺ، ثم قال: أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وخاتم أنبيائه، وأشهد أن الكتاب كما نزل، وأن الدين كما شرع، وأن الحديث كما حَدَّث، وأن القول كما قال، وأن الله هو الحق المبين.

ثم قال: أيها الناس، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت، وأن الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم، وقبضه إلى ثوابه، وخلف فيكم كتابه وسُننه، فمن أخذ بهما عرف، ومن فرق بينهما أنكر. يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم عن دينكم، ألا عاجلوا الشيطان بالخزي تعجزوه، ولا تنتظروا فيلتحق بكم.

فلما فرغ من خطبته بينما هو يفاوض عمر وأبا عبيدة، وغيرهما من الصحابة، وقد اجتمعوا إليه، جاء رسول من الناس يسعى فقال: تلافوا الأمر، واستدركوه إن الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة يقولون: مِنَّا أمير ومن قريش أمير.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) كلمة مختلطة المداد لم أتبين قراءتها.

(٣) موضع النقط طمس بالمخطوط قدره كلمة تقريباً.

فانطلق أبو بكر وعمر، فأتياهم، فتكلم أبو بكر فذكر فضل الأنصار، وعظم حقها ثم ذكر قريشاً وعظم حقها.

ولما أخذ الكلام مأخذه، قام إليه عمر فقال: ابسط يدك يا أبا بكر، فضرب عليها فقال: إن قوتي من قوتك، فبايعه، ثم بايعه المهاجرون والأنصار.

ولما بويع جلس على المنبر من الغد، وقام عمر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إن الله قد أبقى فيكم الذي هدى به رسولكم، وجمع أمركم صاحب رسول الله/ ﷺ وثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه. [١٩/ب]

فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة. ثم تكلم أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على محمد نبيه ﷺ، ثم قال: «أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلاّ ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلاّ عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله».

وخطب الناس بعد ذلك اليوم ثم قال: «أيها الناس، إن الذي رأيتم مني لم يكن حرصاً على ولايتكم، ولكني خفتِ الفتنة والاختلاط فيما بينكم فدخلت فيها لهذا، وقد رجع الأمر والحمد لله إلى أحسن ذلك، وهذا أمركم اليوم قد رددته إليكم فقدموا من أحببتم، وأنا كأحدكم».

فأجابه الناس جميعاً: رضينا بك حظاً وقِسماً ونصيباً، فأنت الرضي، وأنت ثاني اثنين وخليفة رسول الله ﷺ على صلاتنا وهو حَيّ.

ثم أحدثوا له بيعة أخرى.

وكان رسول الله ﷺ قد وجهه ليغزو مع أسامة بن زيد، فلما توفي، قيل لأبي بكر: قد انتقضت العرب ولا ينبغي لك أن تغزو بجماعة المسلمين. فقال رضي الله عنه: والذي نفس أبي بكر بيده لو علمت أن السباع تخطفني من المدينة لأنفذت جيش أُسامة كما أمر رسول الله، ولو لم يبق في العرب غيري لأنفذته.

ونهض بقوة الله إلى ردّ العرب إلى الإسلام، وبنى ما كاد ينهدم من قواعده، وقال: والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه.

وعقد أحد عشر لواء، وضرب من عصى بمن أطاع، فجبر الكسر ورد الناس إلى الإسلام.

ثم جهّز الجيوش إلى العراق والشام وكان من أمره ما هو معروف. وجاءه

داعي ربه. . .[١] في لحاق صاحبه ﷺ ورضي الله عنه بعد مرضه أياماً.

وقيل له: لو أرسلت إلى الطبيب؟

فقال: قد أرسلت.

فقالوا: وما قال لك؟

فقال: قال لي: إني أفعل ما أشاء.

ولما ثقل، قالت له عائشة رضي الله عنهما: أتريد أن تعهد إلى الناس؟

قال: نعم.

قالت: فافعل وبيّن للناس / حتى يعلموا من الولي بعدك. [٢٠/أ]

قال: نستخير الله.

فقالت: إن أولى الناس بعدك عُمر.

فقال: نعم الوالي عمر، ونعم الرجل الخارج ـ يعني عثمان ـ وكان يلومه.

ولما أصبح دعا نفراً، فاستشارهم واحداً واحداً حتى رأى ما لديهم.

ثم اضطجع، ودعا بعثمان، فكتب: هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة خليفة محمد رسول الله ﷺ عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة، داخلاً فيها في الحالة التي يؤمن بها الكافر ويتقي الفاجر ويصدق الكاذب، إني أستخلف عليكم عمر بن الخطاب، فإن عدل واتقى فذلك ظني فيه، وإن بدّل أو غيّر، فالخير أردت، ولا يعلم الغيب إلاّ الله، ولكل امرىء ما اكتسب ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢٢٧].

ولما أوصى إلى عمر قال: لست أقبل خلافتك.

فقال: لا بد لك. . .[٢] عني.

فقال أبو بكر: يا غلام، السيف.

فقال عمر: إذا كان السيف فسمعاً وطاعة، قلّد أبو هشام في البهجة.

ثم توفي لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة، وهو ابن ثلاث وستين سنة، ولم يتلبس بشيء من الدنيا ولا غيّر من حاله من بعدما أفضت إليه الخلافة، وذكر أنه كان يسكن بالسيخ من خارج.

وكانت له قطعة من الغنم تروح عليه، وربما رعاها بنفسه، وكان يحلب للحي

---

(١) موضع النقط كلمة مختلطة الحروف أو متراكبة الحروف.

(٢) موضع النقط كلمات لم أتبين قراءتها.

مواشيهم، فلما بويع بالخلافة قالت جارية من الحيّ: إلاه لا يحلب لنا. وسمعها فقال: بل لعمري لأحلبنها لكم، وإني لأرجو أن لا يغيّرني ما دخلت فيه عن خلق كثير كنت عليه، ثم تولى بعد إلى المدينة[١].

ذكر خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

وقام بأمر المسلمين من بعده أولى الناس وأفضلهم بعده، القوي الجريء بالله وفي الله، الفتاح الأغر والميمون النقيبة الفاروق بين الحق والباطل الذي لو سلك فجاً لسلك الشيطان غير الفج الذي سلك، أبو حفص عمر بن الخطاب بن نُفَيْل بن عبد العزى بن رباح بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب.

بويع يوم مات أبو بكر، خلف به صاحبيه وتسمى بأمير المؤمنين وكان قوياً في الله متواضعاً لله شديداً في ذات الله تعالى يلبس المرقوع ويشتمل بالعباءة، ويحمل القربة على كتفيه مع هيبة الله التي جللته، وعزّته التي شهرته، وفتح الفتوح، وجنّد الأجناد، وأرّخ المكتوبات، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله يقول: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٥]، هذا وعد من ربكم، فإن تزهدوا في الدنيا يجمع الله لكم الدنيا والآخرة. في كلام غير هذا.

وفتح الشام، والعراق، وطَهَّرَ المسجد الأقصى، وأغزى المغرب واستقرت بيده.. يسفره منها شيء، ولا فارق لبابته الخشن إلى أن لحق بربه، ورمدت المدينة على عهده، فقال: ما هذا؟ هذا شيء لم يكن على عهد رسول الله ﷺ، ولا عهد أبي بكر إلاّ من حادث أحدثتموه ووالله لا أساكنكم بهذه المدينة إلاّ أن تتوبوا، فتابوا بأجمعهم.

ثم رجفت ـ أي تزلزلت ـ فضربها بالدرة وقال: أتزلزلي على قوم تائبين. فسكنت الأرض.

وحج رضي الله عنه سنة ثلاث وعشرين ولم يحج بعدها، فقال في انصرافه وقد مرَّ بواد: الحمد لله، ولا إله إلاَّ الله الذي لم يزل يعطي ما شاء لمن يشاء. لقد كنت بهذا الوادي أرعى إبلاً للخطاب وكان فظاً غليظاً يتعتعني إذا عملت، ويضربني إذا

(١) ومن مصادر ترجمة أبي بكر وهي كثيرة نذكر منها: الإصابة (٣/ ١٠١)، أسد الغابة (٣/ ٣٠٩)، الاستيعاب (٩٦٣)، تجريد أسماء الصحابة (١/ ٣٢٣)، أصحاب بدر (٤١)، التحفة اللطيفة (٢/ ٣٥٨)، تاريخ الإسلام (٢/ ٩٧)، الرياض المستطابة (١٤٠)، ديوان الإسلام (٦٦)، تهذيب الكمال (٢/ ٧٠٩)، الدرر المكنون (٧٠)، صفة الصفوة (١/ ٢٣٠)، إلى غير ذلك كثير.

غفلت، فصرت، وأصبحت، وأمسيت، وأنا اليوم أمير المؤمنين ليس بيني وبين الله أحد أخشاه، وقال:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ويودي المال والولدُ
لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
أين الملوك التي كانت لعزتها من كل أوب إليها وافِدٌ يَفِدُ
حوض هنالك مورود بلا كذب لا بد من ورده يوماً كما وردوا

ولما اختار الله له ما عنده قدم علج من سبي فارس كان مملوكاً للمغيرة بن شعبة يدعى أبا لؤلؤة، وكان نجاراً وقد كَلَّفه المغيرة خراجاً ضاق به فشكى به إلى عمر.

فقال عمر: ليس خراجك بكثير في جنب ما تحسن من الأعمال، وأنت الذي تقول: لو شئت لصنعت رحىً تطحن بالريح.

فقال: والله لأصنعن رحىً يتحدّث بها بعدي الناس.

فقال عمر: أما العلج فقد توعدني.

وقعد أبو لؤلؤة لعمر رضي الله عنه في بعض زوايا المسجد، وبيده خنجر، فلما مرَّ به عمر ضربه به ست ضربات إحداهن في سُرَّته.

وطعن اثني عشر رجلاً من المسلمين، ثم نحر نفسه.

واحتمل عمر إلى منزله، ودخل عليه عبد الله بن عمر ولده وهو يجود بنفسه.

فقال: يا أمير المؤمنين استخلف على أمة محمد، فإنه إن جاء راعي إبلك أو غنمك وقد تركها / لمته. [٢١/أ]

فقال: إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني.

ثم جمع أهل الشورى وهم: عبد الرحمٰن بن عوف، وعلي، وعثمان، والزبير، وسعد، وطلحة. وقال: تشاوروا ثلاثة أيام.

وجرى بينه وبين القوم كلام مشهور، ثم أغمي عليه، . . .[1] أنه قال: أوصي الخليفة منكم بتقوى الله، وأحذره مثل مضجعي هذا.

ثم التفت، وقد نادوه بالصلاة، فصلى بحاله وجرحه يثعب.

ثم قال: اخرجوا عني، اللهم اجمعهم على الحق وولّ أمر أمّة محمد خيرهم.

(١) موضع النقط كلمة مطموسة بالمخطوط.

ثم توفي في السابع والعشرين من ذي الحجة سنة أربع وعشرين للهجرة. ودفن مع رسول الله ﷺ وأبي بكر[١].

ذكر خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه

وقام بأمر المسلمين بعد أمير المؤمنين عثمان بن عفان بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف[٢].

وهو ذو النورين وصهر رسول الله ﷺ، والذي أخبر رسول الله ﷺ أنه تستحي منه ملائكة السماء رحمة الله عليه ورضوانه.

وامتدت ظلال الإسلام في أيامه ووردت الفتوحات، وكثر المال، واتسعت الخطة الإسلامية.

ولما بايعه الناس خرج فصلى العصر وزاد في أعطيات الناس مائة مائة، ثم صعد منبر رسول الله ﷺ فخطب الناس وقال: إنكم في دار قلعة، وفي بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه من أعمالكم، ألا وأرى الدنيا قد طويت على الغرور، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور.

وهو الذي فسح مسجد رسول الله ﷺ وباشر العمل فيه بيده. وكان عثمان كثير الجود والبذل والسماح والحياء.

وفي أيامه اقتنى الصحابة الدور والضياع. ونوّه ببني أميّة واستعملهم وأناط بهم الولايات، وقلدهم الممالك والأقطار وأمنوه، فساءت سيرتهم في الناس إلى أن فسدت بسببهم دنياه، وجرى في شأنه الحادث الشنيع لتعصب أهل مصر...[٣] عليه.

---

(١) ومن المصادر التي ترجمت لعمر وهي كثيرة أيضاً نذكر منها غير ما أُلف في سيرته وحياته كصاحبه أبي بكر، وعثمان، وعلي: الإصابة (٤/ ٥٨٨)، أسد الغابة (٤/ ١٤٥)، الاستيعاب (٣/ ١١٤٤)، الاستبصار (٣٩١)، تهذيب الكمال (٢/ ٢٦٨)، الرياض المستطابة (١٤٧)، الحلية (١/ ٣٨، ٥٥)، طبقات ابن سعد (٩/ ١٤١)، طبقات الحفاظ (٦٢٨)، موسوعة رجال الكتب التسعة (٦٥٣٢) وغير ذلك كثير جداً.

(٢) كذا قد صنفت في سيرته الكتب والمؤلفات الكثيرة وترجمت له العديد من الكتب ومن مصادر ترجمته نذكر: أسماء الصحابة الرواة (٢٨)، تهذيب التهذيب (٧/ ١٣٩)، تقريب التهذيب (٢/ ١٢)، تاريخ البخاري الكبير (٦/ ٢٠٨)، الجرح والتعديل (٦/ ١٦٠)، تاريخ الثقات (١١٠٩)، شذرات الذهب (١/ ١٠)، (١/ ٢٥، ٣٠، ٣٣، ٤٣، ٤٥)، نسب قريش (١١٠)، جمهرة أنساب العرب (٨٣)، أنساب الأشراف (٤٤، ٤٥)، موسوعة رجال الكتب التسعة (٦٠٥١)، وغير ذلك كثير وكثير.

(٣) موضع النقط بياض قدره كلمة واحدة.

قال المؤرخ: واستعدى أهل مصر على أميرهم وعظم الطعن على عثمان وثار به أولئك الناس، وحصروه في داره أياماً، ثم اقتحموها عليه، فقتلوه بعد أن طولب بترك الخلافة، فأبى ذلك بما هو معلوم.

وكان قتله يوم الجمعة بعد العصر لثمان عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين / من الهجرة رحمة الله عليه. [٢١/ب]

وكان عثمان يصوم النهار ويقوم الليل. وأراد الناس القتال عنه لما حُصر، فأبى، وقال: سنجتمع وإياهم عند الله، وسيرون بعدي أموراً يتمنون أني عشت لهم.

وأقام ثلاثة أيام لم يدفن إلى أن دفن بِحُشّ كَوْكَب[١] وأُجص قبره.

وتركبت على قتل عثمان. . .[٢] الفتنة المشهورة كما شاء من له الخلق والأمر سبحانه.

ذكر خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه

بويع بعد عثمان علي بن أبي طالب[٣] رضي الله عنهما.

وفَخْر علي بنفسه وبقرباه من رسول الله ﷺ، وصهره المنعقد على فاطمة بنته، وكونه منه بمنزلة هارون من موسى.

أشــــهــــر مــــن الــــشــــمــــس فالشمس أكبر من حلي ومن حُلَلِ

الجامع بين العلم والفقه في الدين

---

(١) قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: حش كوكب: بفتح أوله وتشديد ثانيه، وبضم أوله أيضاً. والحُشُّ في اللغة: البستان، وبه سمي المخرج حشاً لأنهم كانوا إذا أرادوا الحاجة خرجوا إلى البساتين. وكوكب الذي أضيف إليه: اسم رجل من الأنصار. وهو عند بقيع الغرقد اشتراه عثمان بن عفان رضي الله عنه وزاده في البقيع، ولما قُتل أُلقي فيه، ثم دفن في جنبه. وحُش طلحة: موضع آخر بالمدينة.

(٢) موضع النقط كلمة أو كلمتان لم أتبينها لطمس بهما من رطوبة أصابت المخطوط في كثير من مواضعه.

(٣) أُلفت في سيرته الكتب الكثيرة ونسبت إليه طائفة، وتشيع له قوم وهو أشهر من أن يعرف، ومن المصادر الكثيرة التي ترجمت له أذكر منها على سبيل الاختصار: الإصابة (٢/ ١٠٥)، أسد الغابة (٤/ ٩١)، الاستبصار (٣٩٠)، حلية الأولياء (٢/ ٨٧، ٦١)، طبقات ابن سعد (٩/ ١٣٧)، أسماء الصحابة الرواة (ت: ١٠)، تجريد أسماء الصحابة (١/ ٣٩٢)، تاريخ الخلفاء (١٦٦)، شذرات الذهب (١/ ٤٩)، البداية والنهاية (٧/ ٢٢٣)، تاريخ بغداد (١/ ١٣٣)، الرياض المستطابة (٢/ ١٦٣)، تهذيب الكمال (٢/ ٩٧١)، تهذيب التهذيب (٧/ ٣٣٤)، تقريب التهذيب (٢/ ٣٩)، تاريخ البخاري الكبير (٦/ ٢٥٩)، الجرح والتعديل (٦/ ١٩١)، موسوعة رجال الكتب التسعة (٦٣٥٤) وغير ذلك كثير جداً.

وقاتل أبطال الكافرين والزاهد في الدنيا والمؤتي الحكمة وفصل الخطاب.

وروي عنه أنه نظر إلى المال ببيت مال المسلمين فقال: يا صفراء، ويا بيضاء، غُرّي غَيْري.

وفرّق ذلك، وصلى في مكانه.

ومن المأثور عنه قوله: طلقت دنياكم ثلاثاً لا رجعة فيها. ولذلك يشير الشاعر يخاطب العلويين من ذريته وقد ضعفت حظوظهم في الدنيا بعده:

عتبت على الدنيا وقلت إلى متى أرى غمرات همها ليس تنجلي

أكل كريم من علي بجاره حرام عليه الوقر غير مُحَلَّلِ

فقالت نعم يا ابن الوصي لأنني غضبت عليكم يوم طلقني عَلي

وحلَّ هذا المعنى أبو عبد الله بن الأبار في درر السمط، فقال: أتدري لِمَ حُرِمَ بنو علي الدنيا، وإن تبوأوا من الفضل الرتبة العُليا؟ لأن أباهم طلقها ثلاثاً لا رجعة فيها وزوج الأب على الابن حرام.

وامتنع معاوية بن أبي سفيان من بيعته وأخَذَ البيعة على أهل الشام لنفسه على الطلب بدم عثمان من قتلته.

وماج بحر الفتنة التي أخبر بها رسول الله ﷺ بين يدي وفاته بما هو معروف، فلا فائدة في إعادة الكلام في جمهوره.

وآلت الحال إلى القتال بصفّين بين أهل الشام، وأهل العراق، ودامت أياماً.

[٢٢/أ] ولما أشفق الناس من اتصال الحرب وتمادي البأس وشارف على الفتح / طالب أهل الشام التحاكم إلى كتاب الله، ورفعوا المصاحف فوق رماحهم.

فأشار علي بقبول ما دعوا إليه، وكان في ذلك بين أصحابه خطب طويل إذ لم يغب عنه أنها مكيدة.

واتفق الجميع على تعيين حكمين[١] تفوض لهما الطائفتان الحكم بما أنزل الله واقتضى اجتهاد الحكمين اختيار رجل من الصحابة يرتفع ببيعته الشتات وتذهب بالاجتماع عليه الفتنة.

فلما خاطب الناس بما رضياه، وعزل أحدهما علياً رضي الله عنه، قام الحكم الثاني فأقرّ معاوية وأشهد باختياره إياه.

---

(١) الشائع أن الحكمين هما أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص رضي الله عنهما والله أعلم بمن كانا.

فاضطرب الأمر على عَلِيّ رضي الله عنه، فرفضت طائفة التحكيم وانصرفت عنه. وأنكرت أخرى ـ وهم الخوارج ـ على عليٍّ التحكيم ونابذته، وناظرها [جماعة](١) فرجع منهم كثير.

وقاتل من سواهم، وأوقع فيهم بالنهروان، ورجع إلى الكوفة عن مهادنة بينه وبين معاوية تجري فيها المحاورة والتفاوض وفضّ النزاع في هذا الأمر ومعالجته قبل تجدد الحروب.

فانتدب [بعض الناس](١) منهم ثلاثة رجال يقتل أحدهم معاوية، والآخر عمرو بن العاص، والآخر علياً.

وكان المنتدب إلى قتل علي رحمه الله عبد الرحمٰن بن ملجم، وثلاثتهم يعتقدون التقرّب بذلك [إلى الله](٢) نعوذ بالله من الضلال البعيد.

فضرب أحدهم معاوية وهو يهوي إلى السجود فأصابت الضربة إليته، فَسَلِمَ، وقتل الخارجي.

وضرب صاحب عمرو رجلاً كان أشبه الناس بعمرو اسمه خارجة ـ وكان قاضٍ ـ فقتله، وقال: أردت عمراً، وأراد الله خارجة.

وأقبل ابن ملجم لعنه الله فكمن لعلي رضي الله عنه في بعض زوايا المسجد، فلما خرج ينادي الصلاة، ضربه بالسيف على رأسه، وقبض عليه وحمل إلى منزله.

فكانت وفاته ليلة إحدى وعشرين لرمضان، وهو موعد الثلاثة بإيقاع ما عزموا عليه من سنة أربعين من الهجرة الكريمة. واستؤذن في ابن ملجم، فقال: إن مت فاقتلوه بي وإن تعفوا أقرب للتقوى، فإن عشت أرى رأيي [فيه](٣).

وقيل: ألا تعهد؟

فقال: لا، ولكني أتركهم كما تركهم رسول الله ﷺ.

ولم يترك يوم مات لأهله شيئاً سوى سيفه ومضجعه، ودراهم فضلت من عطائه كان يشتري بها خادماً رحمة الله عليه ورضوانه(٤).

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

(٣) زيادة يتطلبها الإيضاح.

(٤) قال ابن حزم رحمنا الله وإياه في رسالته: أسماء الخلفاء والولاة وذكر مددهم (ص ١٠٨) في ذكره خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يكنى أبا الحسن، وليَ الخلافة يوم قتل عثمان رضي الله عنهما بالمدينة. فرحل عن المدينة إلى الكوفة فاستقر بها، وكانت الخلافة قبل ذلك

[٢٢/ب]

/ خلافة الحسن بن علي[١] رضي الله عنهما

ولما توفي علي رضي الله عنه بايع أهل العراق ولده الحسن سبط رسول الله ﷺ. . .[٢] الامتعاض، وزحف بمن اجتمع إليه منهم إلى محاربة معاوية، فلما. . .[٣] وفكر فيما يكون بينهما من القتال عظم عليه واختار حقن الدماء وصلاح الأمة، فجرت بينه وبين معاوية المفاوضة التي أجلت عن تسليم الأمر إلى معاوية. فبايعه الحسن بن علي بالخلافة هو ومن كان معه، ودخلا معاً الكوفة وانصرف معاوية إلى الشام، وانصرف الحسن إلى المدينة.

وكانت مدة الحسن رضي الله عنه في الخلافة إلى يوم أسلم الأمر إلى معاوية خمسة أشهر وخمسة وعشرين يوماً، واشترط على معاوية أن يكون له الأمر بعده.

وكان الحسن رضي الله عنه من الفضل والهدى على ما ينبغي أن يكون عليه بضعة من رسول الله ﷺ، وولد بنته سيدة نساء أهل الجنة.

وروي. . .[٤] قال: حدثنا الأعمش عن سفيان عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ للحسن بن علي: «إن ابني هذا سيد يصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[٥].

= بالمدينة. وتأخر عن بيعته قوم من الصحابة بغير عذر شرعي إذ لا شك في إمامته. وقتل رضي الله عنه بالكوفة غيلة، قتله عبد الرحمٰن بن ملجم المرادي حين دخل المسجد وذلك في رمضان لثلاث بقين منه لسنة أربعين من الهجرة، وله ثلاث وستون سنة.

أمه: فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، مهاجرة رضوان الله عليها. وفي أيامه كانت وقعة الجمل وصفّين، وعلم الناس منه فيها كيف قتال أهل البغي، وحديثهما قد اعتنى به ثقات أهل التاريخ كأبي جعفر بن جرير وغيره.

وقتل أهل النهروان من الخوارج، ونِعْمَ الفتح كان أنذر به ﷺ. وكانت خلافته رضي الله عنه أربع سنين وتسعة أشهر وعشرة أيام، واستضيم المسلمون في قتله غيلة، رضي الله عنه.

(١) قال ابن حزم في الرسالة السابقة الكلام عنها في ذكره لخلافة الحسن رضي الله عنه (ص ١٠٩): يكنى أبا محمد، وولي الخلافة يوم مات أبوه عليّ. وكانت مدة خلافته ستة أشهر. كره سفك الدماء فتخلى عن حقه لمعاوية بن أبي سفيان، وانخلع وبايع معاوية وعاش رضي الله عنه متخلياً عن الدنيا إلى أن مات سنة ثمان وأربعين. وأمه: فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

(٢) موضع النقط طمس قدره كلمة.

(٣) موضع النقط طمس قدره ثلاث كلمات تقريباً والله أعلم.

(٤) كلمة غير مقروءة في المخطوط.

(٥) أطراف هذا الحديث عند الحميدي في المسند (٧٩٣)، وكنز المتقي الهندي (٣٧٦٩١)، الخطيب في تاريخ بغداد (١١/ ٣٦٤، ١٣/ ١٨)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٢/ ٢٢٦)، ابن أبي شيبة (١٢/ ٩٦)، (١٥/ ٩٦)، الطبراني في الكبير (٣/ ٢٣)، ابن حجر في الفتح (١٣/ ٦٦).

وهو أول من خلع نفسه في الإسلام وسلّم الأمر إلى غيره، وكان انخلاعه على رأس ثلاثين سنة من وفاة رسول الله ﷺ، وهو مصداق الخبر عنه إذ قال: الخلافة بعدي ثلاثون سنة[١]. وإذا صح هذا الخبر، فإنما تطبق الخلافة على ما يخص الخلفاء البررة المُقتدين بمن خلفوه في كل شيء من أمور الدنيا والآخرة والذين لحقوه ولم يغيروا منها شيئاً، وما يختص بمن معهم، فهو أولى باسم الخلافة وقد تكلم الناس في الفرق بين المُلك والخلافة وإن وجد الفرق فليس إلاّ بشدة الاقتداء بالمصدر الأول.

وإنما جلبنا ذكر خلفاء رسول الله ﷺ تبركاً، فنكون على بصيرة من أمره إذا نصب ميزان النصفة. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ذكر دولة بني أمية
دولة معاوية بن أبي سفيان[٢] رضي الله عنه

/ وهو أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. [٢٣/أ]

فجمع مع رسول الله ﷺ في النسب.

وقيل: كنيته: أبو عبد الرحمٰن.

وانعقدت بيعته ببيت المقدس في شوال سنة إحدى وأربعين.

وكانت...[٣] أعلى بيوت المسلمين بالشام. وله المجد المنظور، والفخر

---

(١) وأطراف هذا الحديث عند الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٢/ ٢١٠، ٢٢٥)، الربيع بن حبيب في المسند (١٥٣١)، وابن حجر في فتح الباري (٨/ ٧٧، ١٢/ ٢٨٧، ١٣/ ٢١٢)، الطحاوي في مشكل الآثار (٤/ ٣١٣)، ابن كثير في التفسير ٦/ ٨٥)، القرطبي في التفسير (١٢/ ٢٩٧، ٢٩٨)، ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٢١٩)، (٦/ ٢٢٥)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤/ ٢٢٢)، الطبراني في الكبير (١/ ٤٥)، البغوي في شرح السنة (١٤/ ٧٤)، أحمد في المسند (٥/ ٢٢٠. ٢٢١)، الترمذي (٢٢٢٦)، وابن عدي في الكامل (٣/ ١٢٣٧).

(٢) قال ابن حزم في رسالة أسماء الخلفاء والولاة (ص ١١٠) في ولاية معاوية بن أبي سفيان: ثم ولي الخلافة إذ تركها الحسن بن علي بن أبي طالب لمعاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. يكنى: أبا عبد الرحمٰن.
بويع لثلاثة أشهر خلت من سنة إحدى وأربعين. وكانت مدته عشرين سنة غير سبعة أشهر. ومات في نصف رجب سنة ستين، وسنه ثمان وسبعين سنة. وأمه: هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف. مسلمة رحمها الله تعالى. وفي أيامه حوصرت القسطنطينية. وقتل حجر بن عدي وأصحابه صبراً بظاهر دمشق. أيضاً من الوهن للإسلام أن يقتل من رأى النبي ﷺ من غير ردة ولا زنى بعد إحصان ولعائشة في قتلهم كلام محفوظ. وفي أيامه بنيت القيروان بإفريقية.

(٣) مواضع النقط كلمات مطموسة في المخطوط تتراوح في كل موضع بين كلمة إلى ثلاث كلمات.

المشهور بأنسابه . . .[١] إلى رسول الله ﷺ، ومصاهرته إياه على أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين رضي الله عنهما.

وهو المثل المعروف في سعة الصدر[١]، والتجرّد للأمر، وبلوغ الغاية في الدهاء، واستئلاف الناس، ولم يكن في أمثاله أحوج . . .[١] واستقامت له الأمور، واجتمعت عليه الأُمة، فسميت سنة ولايته سنة . . .[١].

وكانت معاملته لأهل بيت النبوة جزلة، وسيرته في الجهاد حميدة، وأخباره في الحلم والإغضاء وحُسن الملكة شهيرة، منها:

أنه قسم يوماً من الفيء قُطُفاً، فأعطى شيخاً من جند أهل الشام قطيفة لم ترضه، وكان شكس الأخلاق، فحلف أن يضرب بها رأس معاوية، وأتاه، فأخبره.

فقال له معاوية: أوفِ بنذرك، وليرفق الشيخ بالشيخ.

وتوفي الحسن بن علي وليّ عهده في حياته، فأخذ البيعة لولده يزيد بن معاوية على كره من الناس والله أعلم بما خفي من سبل اجتهاده.

فذكر نقلة الأخبار أنه لما وفد عليه وفود العراق وغيرها، وكان ممن وفد الأحنف بن قيس فقال: إن الناس سواء في منكر زمان قد سلف ومعروف زمان يؤتنف، ويزيد حبيب قريب، فإن توله عهدكَ فعن غير كِبَر مُعْنٍ أو مرض مُضْنٍ، وقد حلبت الدهور وأجريت الأمور فاعرفْ من تستند إليه بعهدك ومن توليه الأمر بعدك. فراوده ذلك ثم أمضاه فيما بعده.

قال المؤرخ: أجمع معاوية على البيعة لابنه، فأحضر الناس بعد مراوضة وتمهيد، وقد شعر بكراهية قوم لذلك.

وقام رجل من عنده فوقف على رأس معاوية واخترط سيفه شبراً، ثم قال: أمير المؤمنين هذا - وأشار إليه - فإن يمتْ فهذا - وأشار إلى يزيد - فإن أبَيْنَ فهذا - وأشار إلى قائم سيفه - فقال له معاوية: اقعد فأنت سيد الخطباء.

[٢٣/ب] وتمت البيعة ليزيد، والبلاد مالية بعد ببقايا أصحاب رسول الله ﷺ/ . . .[٢] أصحابه . . .[١] والإسلام عزيز روضه، وابن ولد رسول الله، وأولاد الأُوَل وأرباب الشورى المؤتمنين على حسن النظر للمسلمين وصون ظهورهم. ثم مرض معاوية رضي الله عنه بدمشق بقصر ملكه في رجب سنة إحدى وستين من الهجرة وله ثمانون سنة.

---

(١) إليه ينسب المثل القائل: لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت.
(٢) موضع النقط غير مقروء لطمس بالمخطوط.

وفي بعض الروايات: وكان ابنه يزيد غائباً ببعض البلاد[١] فبعث إليه بالضحاك بن قيس، ومسلم بن عقبة وقال لهما:

أبلغا يزيد وصيتي وقولا له: انظر أهل الحجاز فإنهم أهلك، وأكرم من قدم منهم، وتعاهد من غاب عنك. وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل كل يوم والياً، فافعل، فإن عزل عامل أهون من أن يشهر عليك مائة سيف [ألف][٢] سيف. وانظر أهل الشام فاجعلهم بطانتك، عيبتك[٣].

ثم مات من يومه ودفن بباب. . .[٤] من دمشق وقبره اليوم مزور بها معروف[٥].

---

(١) في الكامل في التاريخ: وقيل: لما اشتد مرضه ـ أي مرض معاوية ـ كان ولده يزيد بخوارين، فكتبوا إليه يحثونه على المجيء ليدركه، فقال يزيد شعراً:

جاء البريد بقرطاس يخُبُّ به ... فأوجس القلب من قرطاسه فزَعا
قلنا: لك الويل ماذا في كتابكُمُ ... قال: الخليفة أمسى مُثْبَتاً وجِعَا
ثم انبعثنا إلى خوص مزممة ... نرمي الفجاج بها لا نأتلي سرعا
فمادت الأرض أو كادت تميدُ بنا ... كأن أغبر من أركانها انقطعا
من لم تزل نفسه توفي على شَرَفٍ ... توشك مقاليد تلك النفس أن تقعا
فلما انتهينا وباب الدار مُنْصَفِقٌ ... وصوت رملة[١] رِيعَ القلب فانصدعا
ثم ارعوى القلب شيئاً بعد طيرته ... والنفس تعلم أن قد أثبتت جزعا
أودى ابن هند وأودى المجد يتبعه ... كانا جميعاً فماتا قاطنين معا
أغر أبلج يستسقى الغمام به ... لو قارع الناس عن أحسابهم قرعا

(١) هي ابنة معاوية.

فأقبل يزيد، وقد دفن. فأتى قبره، فصلى عليه.

(٢) زيادة من الكامل.

(٣) زاد ابن الأثير في الكامل في وصيته فقال بعد هذا: فإن رابك من عدوك شيء فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم تغيَّرت أخلاقهم وإني لستُ أخاف عليك أن ينازعك في هذا الأمر إلا أربعة نفر من قريش: الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمٰن بن أبي بكر. فأما ابن عمر: فإنه رجل قد وقذته العبادة، فإذا لم يبق أحد غيره بايعك. وأما الحسين بن علي: فهو رجل خفيف ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه، فإن خرج وظفرت به، فاصفح عنه، فإن له رحماً ماسة، وحقاً عظيماً، وقرابة من محمد ﷺ. وأما ابن أبي بكر: فإن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله، ليس له هِمَّة إلاّ في النساء، واللهو. وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد، ويراوغك مراوغة الثعلب، فإن أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير، فإن هو فعلها بك فظفرت به، فقطعه إرباً إرباً، واحقن دماء قومك ما استطعت.

(٤) موضع النقط كلمة مطموسة وربما كان موضعها تُومَاء، فإن بدمشق باب بهذا الاسم على ما ذكر ياقوت في معجمه حيث قال: باب توماء: أحد أبواب مدينة دمشق لما حاصر المسلمون دمشق أيام أبي بكر رضي الله عنه. ولم أقف على أسماء أبواب دمشق في ترجمته لمدينة دمشق، فالله أعلم باسم الباب.

(٥) وفي الكامل في التاريخ عن تاريخ وفاته ودفنه قال: ثم مات بدمشق لهلال رجب. وقيل: للنصف

دولة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان(١)

وكنيته: أبو خالد.

وكان طاغية جباراً عظيم البأو والأنفة بخلافة أبيه.

وخلعه أهل المدينة، وجعلوا أمرهم إلى عبد الله بن حنظلة.

= منه. وقيل: لثمان بقين منه. وكان مُلكه تسع عشرة سنة، وثلاثة أشهر وسبعة وعشرين يوماً، مذ اجتمع له الأمر وبايع له الحسن بن علي. وقيل: كان ملكه تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر. وقيل: وثلاثة أشهر إلا أياماً. وكان عمره: خمساً وسبعين سنة. وقيل: ثلاثاً وسبعين سنة. وقيل: توفي وهو ابن ثمانين سنة. وقيل: خمس وثمانين سنة. وقيل: لما اشتدت علّته وأرجف به قال لأهله: احشوا عيني إثمداً، وادهنوا رأسي. ففعلوا، وبرقوا وجهه بالدهن، ثم مهد له، فجلس، وأذن للناس، فسلّموا قياماً ولم يجلس أحد. فلما خرجوا عنه قالوا: هو أصح الناس. فقال معاوية عند خروجهم من عنده:

وتجلّدي للشامتين أُريهمُ ... أني لريب الدَّهرِ لا أتضعضعُ
وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفعُ

(١) قال ابن حزم في رسالة أسماء الخلفاء والولاة (ص ١١١) في ولاية يزيد بن معاوية: بويع يزيد بن معاوية إذ مات أبوه. يكنى أبا خالد. وامتنع من بيعته الحسين بن علي بن أبي طالب، وعبد الله بن الزبير بن العوام. فأما الحسين عليه السلام والرحمة فنهض إلى الكوفة، فقتل قبل دخولها. وهو ثالثة مصيبة في الإسلام بعد أمير المؤمنين عثمان، أو رابعها بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وخرومه، لأن المسلمين استضيموا في قتله ظلماً علانية.

وأما عبد الله بن الزبير، فاستجار بمكة، فبقي هناك إلى أن أغزى يزيد الجيوش إلى المدينة ـ حرم رسول الله ﷺ ـ، وإلى مكة ـ حرم الله تعالى ـ، فقتل بقايا المهاجرين والأنصار يوم الحَرَّة. وهي أيضاً أكبر مصائب الإسلام وخرومه، لأن أفاضل المسلمين، وبقية الصحابة، وخيار المسلمين من جلّة التابعين، قتلوا جهراً وظلماً في الحرب وصبراً.

وجالت الخيل من مسجد رسول الله ﷺ وراثت وبالت في الروضة بين القبر والمنبر، ولم تصل جماعة في مسجد النبي ﷺ، ولا كان فيه أحد حاشا سعيد بن المسيب فإنه لم يفارق المسجد، ولولا شهادة عمرو بن عثمان بن عفان، ومروان بن الحكم عند مُجرِم بن عُقبة المُرِّي بأنه مجنون لقتله. وأكره الناس على أن يبايعوا يزيد بن معاوية على أنهم عبيد له إن شاء باع وإن شاء أعتق.

وذكر له بعضهم على حكم القرآن وسنّة رسول الله ﷺ، فأمر بقتله، فضرب عنقه صبراً. وهتك مُسْرِفُ أو مُجْرِمُ الإسلام هتكاً، وانتهب المدينة ثلاثة أيام، واستُخِفَّ بأصحاب رسول الله ﷺ ومُدَّت الأيدي إليهم، وانتهبت دورهم، وانتقل هؤلاء إلى مكة شرَّفها الله تعالى فحوصِرَت، ورمى البيت بحجارة المنجنيق وتولى ذلك الحصين بن نُمير السكوني في جيوش من أهل الشام. وذلك لأن مُجرم بن عقبة المُري مات بعد وقعة الحرة بثلاث ليال، وولّي مكانه الحصين بن نمير.

وأخذ الله تعالى يزيد أخذ عزيز مقتدر فمات بعد الحرة بأقل من ثلاثة أشهر أو أزيد من شهرين، وانصرفت الجيوش عن مكة. ومات يزيد في نصف ربيع الأول سنة أربع وستين وله نيف وثلاثون سنة. أمه: ميسون بنت بَحْدَل الكلبية. وكانت مدته ثلاث سنين وثمانية أشهر وأياماً فقط.

فجمع إليهم الجيوش لنظر مسلم بن عقبة المري فنزل بالحرة منها وأحاط بالمدينة واقتحم على أهلها. فقاتلوه مستميتين حتى غُلبوا.

فقتل منهم من قريش، والمهاجرين، والأنصار ألف رجل وسبعمائة، ومن سائر الناس عشرة آلاف رجل سوى النساء والصبيان. وانتهبت المدينة ثلاثة أيام، وعطلت الصلوات في مسجد رسول الله ﷺ، ولم يُجِر من استجار بجواره، وقتل عبد الله بن حنظلة.

قال العُتبي: قتل من أصحاب النبي ﷺ ثمانون ولم يبق به. . . وذلك في سنة ثلاث وستين من الهجرة.

ولما بلغ الخبر يزيد تمثّل بشعر بعض الجاهلية:

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

ولا شاهد على ما كان ينطوي عليه من النفاق والحقد على أصحاب رسول الله ﷺ بسبب من قتلوا من قومه في الجاهلية بين يدي رسول الله ﷺ أكبر من هذا.

وكان ملك يزيد مفتاح الشر وباكورة الفساد الناشىء في ولاة / أمر المسلمين [٢٤/أ] واختلال ذلك المنصب الكريم وتجريده من وشمة السلف، وأول من تظاهر بشرب الخمر، وجاهر باللهو واللعب، وأسقط المبالاة، والناس. . .[(١)] وظيفة صلاتهم وخطبة جماعاتهم، وانتهى في ذلك إلى. . .[(١)] رفيعة ويقلده ويجلسه للناس بمحله والوقت معمور بأشراف العرب وفضلاء الصحابة.

ثم أوقع بالحسين بن علي بن أبي طالب يوم عاشوراء بكربلاء فقتله وثمانين رجلاً من أهل بيته على يد عبيد الله بن زياد، وأسر نساءه وحفيدة رسول الله ﷺ وحملهن حاسرات الوجوه على ظهور الجمال.

ووضع رأسه بين يديه وأمر أن يطاف به على البلاد إلى أن يبلغ مصر وبها اليوم مشهده الكريم، ولله درّ القائل:

وإن قتيل الطف من آل هاشم أذل رقاب المسلمين فذلّت
ألم تر أن الأرض أضحت مريضةً لقتل حُسين والبلاد اقشعرت
فلا يُبعد اللّه البلاد وأهلها وإن أصبحت منهم برغمي تحلت

ودرّ القائل:

أبي. . .[(٢)] له في دينه في بلاده تضيق عليهم فسحة. . .[(١)]
وما الدين إلا دين جدهم الذي به أصدروا في العالمين وأوردْ

---

(١) موضع النقط كلمات غير مقروءة لطمس بالمخطوط.
(٢) كلمات غير مقروءة بالمخطوط.

ولم يزل الحزن متصلاً على الحسين والمآتم قائمة في البلاد يجتمع لها الناس ويختلفون لذلك ليلة ويوم قتل فيه بعد الأمان من نكير دول قتلته ولا سيما بشرق الأندلس.

فكانوا على ما حدثنا به شيوخنا من أنهم بالشرق يقيمون هم الجنازة في شكل من الثياب يسجوه خلف سُترة في بعض البيت وتحتمل الأطعمة والأضواء والشموع وتجلب القراء، ويوقد البخور ويتغنى بالمراثي الحسينية كقول الإمام أبي بحر صفوان بن إدريس من أهل بيته وولد الخطيب بمسجدها أعادها الله تعالى، وهو المعني بمراثي الحسين بن علي رضي الله عنه ونفعه.

سلام كأزهار الربى يتنسَّم … على منزل منه الهدى يُتَعَلَّمُ

على مصرع للفاطميين غُيِّبَت … لأوجههم فيه بدور وأنجمُ

[٢٤/ب] / على...... [1] فاطهر أهله … لعاينت أعضاء النبي تُقَسَّمُ

على كربلاء ألا خلف الغيث بكربلا … وإلاّ فإن الدمع أندر وأكرم

مصارع.............. [1] … وناح عليهن الحطيم وزمزم

عطّروا الأحجار والركن والصفا … وموقف جمع والمقام المعظم

وبالحجر الملثوم عنوان حسرة … ألست تراه وهو أسود أسحم

وروضة مولانا النبي محمد … تبدى عليها الثكل يوم تُحرّم

ومنبره... [2] والجذع أعولا … عليهم عويلاً بالضمائر يفهم

ولو قدرت تلك الجمادات قدرهم … لدك حراء واستطير يَلَمْلَمُ

وما قدر مالكي البلاد وأهلها … لآل رسول اللّه والردّة أعظم

لو أن رسول الله يحيي بُعَيْدهم … رأى ابن زياد أمّه كيف تعقم

وأقبلت الزهراء قدس تربها … تنادي أباها والمدامع تَسْجُمُ

تقول: أبي هم غادروا ابني نهبة … لما صاغه فيْن وما مج أرقم

سقوا حسيناً بالسمّ كأساً رويداً … ولم يقرعوا سنا ولم يتندم

هم قطعوا رأس الحسين بكربلا … كأنهم قد أحسنوا حين أجرم

فخذ منهم ثاري وسكن جوانحاً … وأجفان عين تستطير وتَسْجُمُ

أبي وانتصر للسبط واذكر مصابه … وعَلَيْه والنهر ريان مَفْعَمُ

---

(١) موضع النقط كلمات مطموسة.

(٢) موضع النقط كلمات مطموسة.

وأسر بنيه بعده واحتمالهم كأنهم من نسل كسرى تُغْنَّمُ
ونَقْر يزيد في الثنايا التي اغتدت ثنايا بك فيها أيها النور تَلْثُمُ
إذا صَدَقَ الصِّدِّيق حملة مُقدِمِ وما فارق الفاروق فاض ولهذَمُ
وعاث بهم عثمان عيث ابن حُرّةٍ وأعلى عَليٍّ كعب من كان يُهْضَمُ
وجب لهم جبريل. . .[1] غارب من الغَيِّ لا يُعْلَى وَلا يُتَسَنَّمُ
ولكنها أقدارُ رَبِّي بها قضى فلا يتخطى النقض ما هو مُبْرَمُ
قضى الله أن يقضي عليهم عبيدهم لتشقى بهم تلك العبيد وتَنْقَمُ
/ هُمُ القوم أما سعيهم متخيب مضاع وأما دارهم فجهنم [١/٢٥]
فيا أيها المغرور والله غاضبٌ لبنت رسول الله أين. . . . . .[1]
قفوا ما عدونا بالدموع فإنها لتصغر في حق الحسين وفاطم
ومهما سمعتم في الحسين مراثيا تُعبر عن محض الأسى وتترحَّمُ
فمدوا أكُفّاً مستعدين بدعوةٍ وصلوا على جد الحسين وسلِّمْ

والحسينية التي يستعملها اليوم المُسْمِعُونَ، فيلوون. . .[2] ويبدلون الأثواب في الرفض كأنهم يشقون الأعلى عن الأسفل، بقية من هذا لم تنقطع بعد وإن ضعفت، ومهما قيل: الحسينية أو الصفة، لم يُدْرَ اليوم أصلها.

ومن مراثي أبي بحر قال، وهي أول كلمة نَظَمْتُهَا في هذا المعنى:

إذا جادت دموعي في انتحابِ فما دعوى الغمام في الانسكاب
وحق لي البكاء فإن حُزْني يثير الدمع في جفن السراب
وأين لي العزاء وقد تردى فراس الصبر في نار المصاب
ويا عينيّ إن لم تستهِلاّ ثكلتكما إذاً بين السحاب
على سبط الرسول على الحسين على نجل الشهيد أبي تراب
يزيد فكم يزيد عليت حقدي رُزِئْتَ الفوز من حُسن المآب
قتلتم سبطه قتل الأعادي لقد وُفِقْتُم لِسوى الصواب
وسقتم أهله سوق السَّبَايا أهذا ما قرأتم في الكتاب
لقد نَشِبَ الحسين من البلايا من الطلقاء في ظفر وناب

---

(١) موضع النقط كلمات مطموسة في المخطوط.
(٢) كلمات غير ظاهرة بالمخطوط لطمس به.

تشكى بالغليل فأورده ... ولكن كل مطرود الذباب
أيوم الطف لا بوركت يوماً ... جعلت الأسد نهباً للكلاب
جنابك حيث طل بنو عليٍّ ... ألاَ لاَ دَرَّ دَرُّكَ مِن جناب
ألم تحلقهم فتذودَ عنهم ... وتحصب من رماهم بالمصاب
/ ألا يا . . .[1] وراء راجع ... جوابي لا قررت على الجواب [٢٥/ب]
علام تركت نُور الله يُطْفَى ... غداتك بالمهندة العِضَاب
هو المختار. . . . .[2] ... لقد ضحيت بالغِلْقِ اللباب
ألم تغدو ثكلت على انتصار ... فتقذفهم بسَمِيك من شهاب
ويا نجل الدعي دعي حوب ... لقد لفقت نسلاً من كِذَاب
نصيبك من جناب الخُلد فاهنأ ... نصيب أبيك من صدق انتساب
غدوت على الحساب بيوم شرٍّ ... صنعت به صنيعاً للذئاب
وليس دم الحسين أرقت لكن ... مزجت دم الرسول مع التراب
ولولا قاتل يومئذٍ أبُوه ... عَدَاك عن الغنيمة والإياب
وسلط ذو الفِخار عليك حتى ... تواري شمس ظلك بالحجاب
ولو أني حضرت بكربلاء ... إذا حَمِدَ الحسين بها مناب
إذاً لسَقَيْتُ عنه السيف رِيّاً ... وليس سوى نجيعي من ضواب
أمولاي الحسين نداء عبدٍ ... عظيم الحزن فيك والانتحاب
منحتك من بنات الفكر بكراً ... بها طار شرارها زندُ اكتتاب
عسىٰ الرحمٰن يقبلها فتضحى ... شفاعةُ أحمد عنها ثواب

قلت: واشتهر صفوان رحمه الله برثاء الحسين وظهرت عليه بركات ذلك بما هو مشهور عند من عُني بأخباره.

حدثني غير واحد من شيوخنا رحمهم الله بما معناه: أن صفوان اضطر إلى تجهيز بنت أو بنيات كن له وضاق عنهن وسعه، فرحل من بلده مرسية إلى حضرة مراكش على عهد ملوكها من بني عبد المؤمن بن علي، وأظنه ولده يوسف أو المنصور، وصعب عليه الوصول إليه، أو إيصال أرقعته.

---

(١) موضع النقط كلمات مطموسة.

(٢) كلمات غير مقروءة لطمس بالمخطوط.

ولما عجز عن ذلك التزم العُكوف بمحل استقراره، وشرع في الرجوع إلى بلده خائباً قصده، وما راعه إلا النداء عليه ورجال السلطان تبحث عنه، ولما عُثِر به استعجل إلى باب السلطان، وأُدخل عليه، والسلطان ملاطف له سائل عن حاله مستفهم له / عن غرضه، ولم يبرح حتى أُجيب أمله بما لم يكن قد ظنه وبما حظي به [٢٦/أ] من المعونة والمتاع الذي يليق بالنساء وتيسير وظائف القُفُول بها . . .[١] رزق وعناية. فسأل عن سبب ذلك.

فإذا السلطان يخبره: أنه رأى رسول الله ﷺ في النوم يعتبه ويقول له: صفوان بن إدريس المشغول بخدمتنا والتفجع لولدنا على البُعد وطول العهد ببابك قد غُفِل عنه ما هذا حقه، ابحث الساعة عنه ويسِّر حاجته، فقد تعين علينا حقه. وخرج دامع العين خجلاً من رسول الله ﷺ فتيسّر مطلب صفوان.

قلت: فما يكون غدر يزيد وبأي وجه يلقى رسول الله ﷺ بعد هذا الجفاء الذي لا تصح معه دعوى الإيمان ولا خفاء بجهالة من يعتقد أن يزيد خليفة من خلفاء الله وورثة نبيه بسلف أو نسب أو غير ذلك، بل دعوى الإسلام لا تصح حتى يصح حُبّ محمد صلوات الله عليه وبره ورعيُهُ واتباعه والانتظام فيمن رضي عنه وحسبه منهم.

فمن قَتَل ولده وأهل بيته وساق ذريته أسرى باديات الوجوه مستباحة الحُرْمَة.

وأغرب من ذلك وأشد بُعداً في العصبية والجاهلية من قال: وقد قرأ خبر أنه كتب في بعض كتبه إنما قتله بسيف جَدِّهِ.

وليت شعري من قَلَّدَ يزيد سيف جد الحسين عليه السلام، أو من حكم له بأنه أولى منه بسيف جَدِّهِ.

وقال بعض أصحابنا: إذا كان الحكم الشرعي فيمن لطخ منبر الخطبة أو عود الاتكاء بالأذى أن يُقتل للقطع على غيره بالفساد الدال عليه عمله من امتهان رسوم الشريعة، فما ظنك بمن قتل ولد رسول الله ﷺ، ثم عبث برأسه ولعب بثناياه بقضيبه، وانتقم من حرمه وذريته وأظهر الشماتة به، فالحمد لله على معافاة زماننا من مثل هذه الآفات، وإياه نسأل أيضاً العصمة في المحيا والممات برحمته. ثم أن الله عزّ وجل لم يمهل يزيد وأراح منه فهلك في منتصف صفر من سنة أربع وستين من الهجرة.

وترك أمره إلى معاوية ولده، وكان مضعفاً، لا بل مُوَفّقاً[٢].

---

(١) موضع النقط طَمَسٌ في المخطوط.

(٢) ذكر ابن الأثير في الكامل أسماء من قتل مع الحسين في حديث طويل في سرده لأحداث سنة إحدى وستين في ذكر مقتل الحسين: قال سليمان: لما قتل الحسين ومن معه حملت رؤوسهم إلى ابن

....

= زياد، فجاءت كندة بثلاثة عشر رأساً وصاحبهم قيس بن الأشعث. وجاءت هوازن بعشرين رأساً وصاحبهم شمر بن ذي الجوشن الضبابي. وجاءت بنو تميم بسبعة عشر رأساً. وجاءت بنو سعد بستة رؤوس. وجاءت مذحج بسبعة رؤوس. وجاء سائر الجيش بسبعة رؤوس فذلك سبعون رأساً.
وقتل الحسين، وقتله سنان بن أنس النخعي لعنه الله. وقتل العباس بن علي وأمه أم البنين بنت حزام، قتله زيد بن داود الجنبي، وحكيم بن الطفيل السنبسي. وقتل جعفر بن علي، وأمه أم البنين أيضاً. وقتل عبد الله بن علي وأمه أم البنين أيضاً. وقتل عثمان بن علي وأمه أم البنين أيضاً، رماه خولي بن يزيد بسهم فقتله. وقتل محمد بن علي وأمه أم ولد قتله رجل من بني دارم. وقتل أبو بكر بن علي وأمه ليلى بنت مسعود الدارمية، وقد شك في قتله. وقتل علي بن الحسين بن علي وأمه ليلى ابنة أبي مرة بن عروة الثقفي، وأمها ميمونة ابنة أبي سفيان بن حرب، قتله منقذ بن النعمان العبدي. وقتل عبد الله بن الحسين بن علي وأمه الرباب ابنة امرىء القيس الكلبي، قتله هانىء بن ثبيت الحضرمي. وقتل أبو بكر ابن أخيه الحسن أيضاً، وأمه أم ولد، قتله حرملة بن الكاهن، رماه بسهم. وقتل القاسم بن الحسن أيضاً، قتله سعد بن عمرو بن نفيل الأزدي. وقتل عون بن أبي جعفر بن أبي طالب وأمه جمانة بنت المسيب بن نجية الفزاري قتله عبد الله بن قحطبة الطائي. وقتل محمد بن عبد الله بن جعفر، وأمه الخوصاء بنت خصفة بن تيم الله بن ثعلبة قتله عامر بن نهشل التيمي. وقتل جعفر بن عقيل بن أبي طالب، وأمه أم البنين ابنة الشقر بن الهضاب، قتله بشر بن الخوط الهمداني. وقتل عبد الرحمٰن بن عقيل، وأمه أم ولد، رماه عمرو بن صبيح الصيداوي بسهم فقتله. وقتل مسلم بن عقيل بالكوفة، وأمه أم ولد. وقتل عبد الله بن مسلم بن عقيل، وأمه رقية ابنة علي بن أبي طالب، قتله عمرو بن صبيح الصيذاوي، وقيل: قتله مالك بن أسيد الحضرمي. وقتل محمد بن أبي سعيد بن عقيل، وأمه أم ولد، قتله لقيط بن ياسر الجهني. واستصغر الحسن بن الحسن بن علي، وأمه خولة بنت منصور بن زياد الفزاري واستصغر عمرو بن الحسن، وأمه أم ولد فلم يقتلا.
وقتل من الموالي: سليماً مولى الحسين، قتله سليمان بن عوف الحضرمي. وقتل منجح مولى الحسين أيضاً. وقتل عبد الله بن يقطر رضيع الحسين.
قال ابن عباس: رأيت النبي ﷺ الليلة التي قتل فيها الحسين وبيده قارورة، وهو يجمع فيها دماً. فقلت: يا رسول الله ما هذا؟ قال: «هذه دماء الحسين وأصحابه أرفعها إلى الله تعالى». فأصبح ابن عباس فأعلم الناس بقتل الحسين، وقصَّ رؤياه، فوجد قد قتل في ذلك اليوم.
وروي: أن النبي ﷺ أعطى أم سلمة تراباً من تربة الحسين، حمله إليه جبريل، فقال النبي ﷺ لأم سلمة: «إذا صار هذا التراب دماً، فقد قُتل الحسين». فحفظت أم سلمة ذلك التراب في قارورة عندها. فلما قتل الحسين صار التراب دماً، فأعلمت الناس بقتله أيضاً. وهذا يستقيم على من يقول: أم سلمة توفيت بعد الحسين، ثم إن ابن زياد قال لعمر بن سعد بعد عوده من قتل الحسين: يا عمر ائتني بالكتاب الذي كتبته إليك في قتل الحسين. قال: مضيت لأمرك، وضاع الكتاب. قال: لتجئني به. قال: ضاع. قال: لتجئني به. قال: ترك والله يقرأ على عجائز قريش بالمدينة اعتذاراً إليهن، أما والله لقد نصحتك في الحسين نصيحة لو نصحتها أبي سعد بن وقاص لكنت قد أديت حقه. فقال عثمان بن زياد أخو عبيد الله: صدق والله، لوددت أنه ليس من بني زياد رجل إلا وفي أنفه خزامة إلى يوم القيامة. وأن الحسين لم يقتل. فما أنكر ذلك عبيد الله بن زياد.
=

....

= وذكر وفاته يزيد فقال: وفي هذه السنة - أي في سنة أربع وستين - توفي يزيد بن معاوية بحُوّارين من أرض الشام لأربع عشرة خلت من شهر ربيع الأول، وهو ابن ثمان وثلاثين سنة في قول بعضهم. وقيل: تسع وثلاثين، وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر، وقيل: ثمانية أشهر. وقيل: توفي في ربيع الأول سنة ثلاث وستين وكان عمره خمساً وثلاثين سنة، وكانت خلافته سنتين وثمانية أشهر، والأول أصح. وأمه: ميسون بنت بحدل بن أنيف الكلبية. وكان له من الولد: معاوية وكنيته أبو عبد الرحمٰن، وأبو ليلى، وهو الذي وُلي بعده.
وخالد ويكنى أبا هاشم، يقال: إنه أصاب علم الكيمياء ولا يصح ذلك لأحد، وأبو سفيان. وأمهم أم هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة تزوجها بعده مروان بن الحكم. وله أيضاً عبد الله بن يزيد كان أرمى العرب، وأمه أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر، وهو الأسوار. وعبد الله الأصغر، وعمر، وأبو بكر، وعتبة، وحرب، وعبد الرحمٰن، ومحمد لأمهات شتى. ثم ذكر طرفاً من سيرته فقال:
قال محمد بن عبيد الله بن عمرو العتبي: نظر معاوية ومعه امرأته ابنة قريظة إلى يزيد. وأمه ترجله، فلما فرغت منه قبلته بين عينيه، فقالت ابنة قريظة: لعن الله سواد ساقي أمك. فقال معاوية: أما والله لما تفرجت عنه وركاها خير مما تفرجت عنه وركاك، وكان لمعاوية من ابنة قريظة عبد الله، وكان أحمق، فقالت: لا والله ولكنك تؤثر هذا عليه. فقال: سوف أبين لك ذلك. فأمر فدعي له عبد الله فلما حضر قال: أي بني إني أردت أن أعطيك ما أنت أهله ولست بسائل شيئاً إلا أجبتك إليه. فقال: حاجتي أن تشتري كلباً فارهاً وحماراً. فقال: أي بُني أنت حمار، وأشتري لك حماراً؟! قم فاخرج.
ثم أحضر يزيد، وقال له مثل قوله لأخيه، فخرَّ ساجداً ثم قال حين رفع رأسه: الحمد لله الذي بلغ أمير المؤمنين هذه المدة وأراه فيّ هذا الرأي، حاجتي أن تعتقني من النار، لأن من ولي أمر الأمة ثلاثة أيام أعتقه الله، فتعقد لي العهد بعدك وتوليني العام الصائفة، وتأذن لي في الحج إذا رجعت، وتوليني الموسم، وتزيد لأهل الشام كل رجل عشرة دنانير وتفرض لأيتام بني جمح وبني سهم، وبني عدي لأنهم حلفائي. فقال معاوية: قد فعلت، وقَبَّل وجهه. فقال لامرأته ابنة قريظة: كيف رأيتِ؟ قالت: أوصه به يا أمير المؤمنين. ففعل. وقال عمر بن سبينة: حج يزيد في حياة أبيه، فلما بلغ المدينة جلس على شراب له، فاستأذن عليه ابن عباس والحسين فقيل له: إن ابن عباس إن وجد ريح الشراب عرفه، فحجبه، وأذن للحسين. فلما دخل وجد رائحة الشراب مع الطيب، فقال: لله وطيبك مما هذا؟ قال: هو طيب يصنع بالشام، ثم دعا بقدح فشربه، ثم دعا بآخر، فقال: اسق أبا عبد الله. فقال له الحسين: عليك شرابك أيها المرء لا عين عليك مني. فقال يزيد:

ألا يــا صــاح لــلــعــجــب ... دعــوتُــك ذا ولــم تــجــب
إلـى الـفـتـيـات والـشـهـوات ... والـصـهـبـاء والـطـرب
وبــاطــيــة مــكــلّــلــة ... عــلــيــهــا سادة الــعــرب
وفــيــهــن الــتــي تَــبَــلَــتْ ... فــؤادك ثــم لــم تــتــب

فنهض الحسين وقال: بل فؤادك يا ابن معاوية تبلت. وقال شقيق بن سلمة: لما قتل الحسين ثار عبد الله بن الزبير فدعا ابن عباس إلى بيعته، فامتنع. وظن يزيد أن امتناعه تمسك منه ببيعته، فكتب إليه: أما بعد: فقد بلغني أن الملحد ابن الزبير دعاك إلى بيعته، وأنك اعتصمت ببيعتنا وفاء منك، فجزاك الله من ذي رحم خير ما يجزي المواصلين لأرحامهم الموفين بعهودهم، فما أنسى من

دولة معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان(١)

[٢٦/ب] / ولكن أبا ليلى قد كره هذه الكُنية التي تجريها العرب على المضعوفين فنبذ الأمر لما تصير إليه ونبذ طوقه ولم يتقلده، وسنه إذ ذاك تسع عشرة سنة بهم. ثم جمع الناس، وخطبهم، فقال: أيها الناس، إني نظرت في أموركم فضعفت عنها...(٢) من الخلافة، فاختاروا لأنفسكم. وقام فدخل بيته، واجتمع إليه بنو أمية وقالوا: اعهد إلى من تريد.

فقال: والله لا أتجرع مرارتها وتكون لبني أمية حلاوتها.

ومات لأيام من خطبته في السنة التي توفي فيها أبوه بشهر أو نحوه، وقام بالأمر بعده مروان بن الحكم(٣).

= الأشياء، فلست بناسٍ برَّكَ وتعجيل صلتك بالذي أنت له أهل، فانظر من طلع عليك من الآفاق ممن سحرهم ابن الزبير بلسانه فأعلمهم بحاله فإنهم منك أسمع الناس ولك أطوع منهم للمحل.

فكتب إليه ابن عباس: أما بعد: فقد جاءني كتابك، فأما تركي بيعة ابن الزبير، فوالله ما أرجو بذلك برَّك ولا حمدك، ولكن الله بالذي أنوي عليم. وزعمت أنك لست بناسٍ برّي، فاحبس أيها الإنسان برَّكَ عني فإني حابس عنك برّي. وسألت أن أحبب الناس إليك وأبغضهم وأخذلهم لابن الزبير فلا ولا سرور ولا كرامة كيف وقد قتلت حسيناً، وفتيان عبد المطلب مصابيح الهدى ونجوم الأعلام؟ غادرتهم خيولك بأمرك في صعيد واحد مرملين بالدماء، مسلوبين بالعراء، مقتولين بالظماء، لا مكفنين ولا مسودين، تسفى عليهم الرياحُ وينشىء بهم عُوّج البطاح، حتى أتاح الله بقوم لم يشركوا في دمائهم فكفنوهم وأجنوهم، وبي وبهم لو عززت وجلست مجلسك الذي جلست فما أنسى من الأشياء، فلست بناس إطرادك حسيناً من حرم رسول الله ﷺ إلى حرم الله. وتسييرك الخيول إليه، فما زلت بذلك حتى أشخصته إلى العراق، فخرج خائفاً يترقب، فنزلت به خيلك عداوة منك لله ولرسوله ولأهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، فطلب إليكم المرادعة وسألكم الرجعة، فاغتنمتم قلّة أنصاره واستئصال أهل بيتهِ وتعاونهم عليه كأنكم قتلتم أهل بيت من الترك والكفر، فلا شيء أعجب عندي من طلبتك ودي وقد قتلت ولد أبي وسيفك يقطر من دمي، وأنت أحد ثاري، ولا يعجبك أن ظفرت بنا اليوم فلنظفرن بك يوماً والسلام.

(١) قال ابن حزم في رسالة الخلفاء والولاة ومددهم (ص ١١٢ : ١١٣): ثم بويع أبو ليلى معاوية بن يزيد بن معاوية فبقي نحواً من أربعين يوماً، ثم رأى صعوبة الأمر، وكان رجلاً صالحاً، فتبرأ عن الأمر وانخلع، ولزم بيته. ومات رحمه الله بعد انقضاء نحو أربعين يوماً، وسِنّه عشرون سنة.

(٢) موضع النقط كلمات غير ظاهرة لطمس بالمخطوط.

(٣) ذكر ابن الأثير في الكامل بيعته فقال: بويع لمعاوية بن يزيد بالخلافة بالشام ولعبد الله بن الزبير بالحجاز. ولما هلك يزيد بلغ الخبر عبد الله بن الزبير بمكة قبل أن يعلم الحصين بن نمير، ومن معه من عسكر الشام، وكان الحصار قد اشتد من الشاميين على ابن الزبير. فناداهم ابن الزبير، وأهل مكة: علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم؟ فلم يصدقوه، فلما بلغ الحصين خبر موته بعث إلى ابن الزبير، فقال: موعد ما بيننا الليلة بالأبطح، فالتقيا وتحادثا. فراث فرس الحصين، فجاء حمام الحرم يلتقط روث الفرس. فكفّ الحصين فرسه عنهن وقال: أخاف أن يقتل فرسي حمام الحرم. =

دولة مروان بن الحكم بن العاص ابن أمية بن عبد شمس بن مناف[١]

ولما توفي معاوية، وكان مروان حاضراً إذ ذاك بدمشق، دعا إلى نفسه، وطلب

= فقال ابن الزبير: تتحرجون من هذا، وأنتم تقتلون المسلمين في الحرم. فكان فيما قال له الحصين: أنت أحق بهذا الأمر، هلم فلنبايعك، ثم اخرج معنا إلى الشام، فإن هذا الجند الذين معي هم وجوه الشام وفرسانهم، فوالله لا يختلف عليك اثنان، وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا، وبينك وبين أهل الحرم.

فقال له: أنا لا أهدر الدماء، والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة منكم. وأخذ الحصين يكلمه سِرّاً وهو يجهر. ويقول: والله لا أفعل. فقال له الحصين: قبّح الله من يعدك بعد ذاهباً وآيباً، قد كنت أظن أن لك رأياً، وأنا أكلمك سِرّاً، وتكلمني جهراً، وأدعوك إلى الخلافة، وأنت لا تريد إلا القتل والهلكة، ثم فارقه ورحل هو وأصحابه نحو المدينة.

وندم ابن الزبير على ما صنع، فأرسل إليه: أما المسير إلى الشام فلا أفعله، ولكن بايعوا لي هناك، فإني مؤمنكم، وعادل فيكم. فقال الحصين: إن لم تقدم بنفسك لا يتم الأمر فإن هناك ناساً من بني أمية يطلبون هذا الأمر. ثم سار الحصين إلى المدينة، فاجترأ أهل المدينة على أهل الشام، فكان لا يتفرد منهم أحد إلا أخذت دابته فلم يتفرقوا. وخرج معهم بنو أمية من المدينة إلى الشام ولو خرج معهم ابن الزبير لم يختلف عليه أحد. فوصل أهل الشام دمشق وقد بويع معاوية بن يزيد، فلم يمكث إلاّ ثلاثة أشهر حتى هلك. وقيل: بل ملك أربعين يوماً. ومات وعمره إحدى وعشرون سنة، وثمانية عشر يوماً. ولما كان في آخر إمارته أمر فنودي: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد: فإني ضعفت عن أمركم، فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى، فلم أجدهم، فأنتم أولى بأمركم، فاختاروا له من أحببتم.

ثم دخل منزله وتغيب حتى مات. وقيل: إنه مات مسموماً، وصلى عليه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، ثم أصابه الطاعون من يومه، فمات أيضاً. وقيل: لم يمت، وكان معاوية أوصى أن يصلي الضحاك بن قيس بالناس حتى يقوم لهم خليفة. وقيل لمعاوية: لو استخلفت؟ فقال: لا أتزود مرارتها وأترك لبني أمية حلاوتها.

(١) قال ابن الأثير في أحداث سنة أربع وستين في ذكر بيعة مروان بن الحكم: بويع مروان بن الحكم بالشام، وكان السبب فيها: أن ابن الزبير لما بويع له بالخلافة ولي عبيد الله بن الزبير المدينة، وعبد الرحمٰن بن جحدم الفهري مصر، وأخرج بني أمية، ومروان بن الحكم إلى الشام، وعبد الملك بن مروان يومئذ ابن ثمان وعشرين سنة. فلما قدم الحصين بن نمير ومن معه إلى الشام أخبر مروان بما كان بينه وبين ابن الزبير، وقال له ولبني أمية: نراكم في اختلاط، فأقيموا أميركم قبل أن يدخل عليكم شأنكم فتكون فتنة عمياء صماء.

وكان من رأي مروان: أن يسير إلى ابن الزبير فيبايعه بالخلافة، فقدم ابن الزبير من العراق، وبلغه ما يريد مروان أن يفعل فقال له: قد استحييت لك من ذلك أنت كبير قريش وسيدها، تمضي إلى ابن خبيب فتبايعه ـ يعني ابن الزبير، لأنه كان يكنى بابنه خبيب ـ. فقال: ما فات شيء بعد. فقام إليه =

الأمر وقال:

إني أرى فتنة تغلي مراجلها والملك بعد أبي ليلى لمن غلب

= أمية ومواليهم وتجمع إليه أهل اليمن، فسار إلى دمشق وهو يقول: ما فات شيء بعد، فقدم دمشق، والضحاك بن قيس قد بايعه أهلها على أن يصلي بهم ويقيم لهم أمرهم حتى يجتمع الناس وهو يدعو إلى ابن الزبير سِرّاً.

وكان زفر بن الحارث الكلابي بقنسرين يبايع لابن الزبير، والنعمان بن بشير بحمص يبايع له أيضاً. وكان حسان بن مالك بن بحدل الكلبي بفلسطين عاملاً لمعاوية ولابنه يزيد، وهو يريد بني أمية، فسار إلى الأردن، واستخلف على فلسطين روح بن زنباع الجذامي. فثار ناتل بن قيس بروح فأخرجه من فلسطين وبايع لابن الزبير. وكان حسان في الأردن يدعو إلى بني أمية، فقال لأهل الأردن: ما شهادتكم على ابن الزبير، وقتلى الحرة؟ قالوا: نشهد إنه منافق، وأن قتلى الحرة في النار. قال: فما شهادتكم على يزيد وقتلاكم بالحرة؟ قالوا: نشهد أنه على الحق وإن قتلانا في الجنة. قال: فأنا أشهد لئن كان يزيد وشيعته على الحق إنهم اليوم على حق ولئن كان ابن الزبير وشيعته على باطل إنهم اليوم عليه. قالوا له: صدقت، نحن نبايعك على أن نقاتل من خالفك وأطاع ابن الزبير على أن تجنبنا هذين الغلامين ـ يعنون ابني يزيد: عبد الله وخالداً ـ فإنَّا نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبي.

وكتب حسان إلى الضحاك كتاباً يعظم فيه حق بني أمية وحسن بلائهم عنده، ويذم ابن الزبير، وأنه خلع خليفتين، وأمره أن يقرأه على الناس. وكتب كتاباً آخر وسلّمه إلى الرسول ـ واسمه ناغضة ـ وقال له: إن قرأ كتابي على الناس وإلاّ فاقرأ هذا الكتاب عليهم. وكتب حسان إلى بني أمية يأمرهم أن يحضروا ذلك. فقدم ناغضة، فدفع كتاب الضحاك إليك، وكتاب بني أمية إليهم. فلما كانت الجمعة، صعد الضحاك المنبر فقال له ناغضة: لتقرأ كتاب حسان على الناس. فقال له الضحاك: اجلس. فقال إليه ثانية، وثالثة وهو يقول: اجلس، فأخرج ناغضة الكتاب، وقرأه على الناس. فقال الوليد بن عتبة بن أبي سفيان: صدق حسان، وكذب ابن الزبير، وشتمه... وسار الضحاك وبنو أمية نحو الجابية، فأتاه ثور بن معن السلمي، فقال: دعوتنا إلى ابن الزبير فبايعناك على ذلك وأنت تسير إلى هذا الأعرابي من كلب تستخلف ابن أخته خالد بن يزيد. فقال الضحاك: فما الرأي؟ قال: الرأي أن تُظهر ما كنا نكتم وتدعو إلى ابن الزبير. فرجع الضحاك ومن معه من الناس فنزل بمرج راهط ودمشق بيده.

واجتمع بنو أمية وحسان وغيرهم بالجابية، فكان حسان يصلي بهم أربعين يوماً، والناس يتشاورون. وكان مالك بن هبيرة السكوني يهوى خالد بن يزيد، والحصين بن نمير يميل إلى مروان. فقال مالك للحصين: هل نبايع هذا الغلام الذي نحن ولدنا أباه، وقد عرفت منزلتنا من أبيه؟ فإنه يحملنا على رقاب العرب غداً ـ يعني خالداً ـ. فقال الحصين: لا والله، لا تأتينا العرب بشيخ وتأتيها بصبي. فقال مالك: والله لئن استخلفت مروان ليحسدك على سوطك وشراك نعلك وظل شجرة تستظل بها، إن مروان أبو عشيرة وأخو عشيرة، فإن بايعتموه كنتم عبيداً لهم، ولكن عليكم بابن أختكم. فقال الحسين: إني رأيت في المنام قنديلاً معلقاً في السماء، وإن من يلي الخلافة يتناوله، فلم ينله أحد إلاّ مروان، والله لنستخلفنه.

وقام روح بن زنباع الجذامي فقال: أيها الناس إنكم تذكرون عبد الله بن عمر وصحبته وقدمه في الإسلام، وهو كما تذكرون ولكنه ضعيف وليس بصاحب أمر أمة محمد الضعيف، وتذكرون ابن =

فبويع يوم الأربعاء لثلاث خلون من ذي القعدة سنة أربع وستين.

ولما مرج أمر بني أمية، وكان يوم بويع سنة اثنين وستين سنة، وجعل البيعة بعده لخالد بن يزيد بن معاوية، وبه مهد الأمر لنفسه، وكأنه كافل ولي الخلافة.

وخالد هذا من شرط من ذهبنا إليه في بيعة من لم يبلغ سِن الاحتلام.

وانحاز عند ذلك قيس وسائر مضر، وغيرهم من نزار إلى الضحاك بن قيس الفهري.

وسار إليه مروان، فكان له الظهور.

وقتل الضحاك، وقتل معه من نزار وقيس مقتلة عظيمة، واستقام الأمر بعد ذلك لمروان بالشام.

ودعا عبد الله بن الزبير إلى نفسه بالخلافة بالحجاز، ثم بالعراق حسبما يأتي ذكره.

وتوفي مروان لثلاث خلون من رمضان سنة خمس وستين.

وكان سبب موته فيما حكاه غير واحد من المؤرخين:

أنه كان قد تزوج أم خالد المعهود إليه بعده وهي عاتكة بنت هاشم بن ربيعة. فدخل عليه ابنها خالد المذكور وقد صرف عنه البيعة لولده عبد الملك بن مروان، فكلمه بما أغضبه.

= الزبير وهو كما تذكرون أنه ابن حواري رسول الله ﷺ، وأنه ابن ذات النطاقين ولكنه منافق قد خلع خليفتين يزيد وابنه معاوية، وسفك الدماء وشقّ عصا المسلمين وليس المنافق بصاحب أمة محمد ﷺ. وأما مروان بن الحكم، فوالله ما كان في الإسلام صدع إلا كان ممن يشعبه، وهو الذي قاتل علي بن أبي طالب يوم الجمل. وإنا نرى للناس أن يبايعوا الكبير ويستشيروا الصغير - يعني بالكبير مروان وبالصغير خالد بن يزيد - فاجتمع رأيهم على البيعة لمروان بن الحكم، ثم لخالد بن يزيد، ثم لعمرو بن سعيد بن العاص من بعد خالد على أن إمرة دمشق لعمرو، وإمرة حمص لخالد بن يزيد.

فدعا حسان خالداً، فقال: يا ابن أختي إن الناس قد أبوك لحداثة سنك وإني والله ما أريد هذا الأمر إلاّ لك ولأهل بيتك، ما أبايع مروان إلاّ نظراً لكم. فقال خالد: بل عجزت عنا. قال: والله ما عجزت عنكم ولكن الرأي لك ما رأيت. ثم بايعوا مروان لثلاث خلون من ذي القعدة سنة أربع وستين. وقال مروان حين بويع له:

لما رأيت الأمر أمراً نهبا ... يسّرْتُ غساناً لهم وكلبا
والسكسكين رجالاً غُلْبا ... وطيئاً يأباه إلاّ ضربا
والقين يمشي في الحديد نكبا ... ومن تنوخ مشمخراً صعبا
لا يأخذون الملك إلاّ غصبا ... فإن دنت قيس فقل لا قربا

فقال له مروان: اذهب يا ابن الرطبة الكن، أو قال: يا ابن الربوح.

[٢٧/أ] وهي المرأة(١)/ التي يغشى عليها عند المواقعة.

فانصرف باكياً ودخل على أمه، فلامها فيما جنت عليه.

فقالت له: مهلاً عليك فوالله لا يقوله لأحد بعد.

وعمدت من الليل إلى وسادة فجعلتها فوق أنفسه وقعدت عليها، فمات.

وكانت مدة مُلْكِهُ تسعة أشهر وأياماً قليلة.

وولي الأمر بعده عبد الملك.

ونحن نذكر ما كان في دولة عبد الله بن الزبير، ثم نكر إلى تمام الدولة المروانية.

دولة أبي خبيب عبد الله بن الزبير(٢) رضي الله عنه

ودعا إلى نفسه بمكة والحجاز عبد الله بن الزبير على ثمانية وسبعين يوماً من بعد مروان بن الحكم.

فاستقامت له الخلافة، ثم دخل في إمرة العراق، فوجه إليه أخاه مصعب بن

---

(١) تكررت عبارة: وهي المرأة في أول الورقة [٢٧/أ] فحذفت التكرار.

(٢) قال ابن حزم في رسالة أسماء الخلفاء والولاة (ص ١١٣): بويع له بمكة سنة أربع وستين بعد ثلاثة أشهر منها. وأجمع عليه المسلمون كلهم من إفريقية إلى خراسان، حاشا شرذمة ابن الأعرابية بالأردن (هو حسان بن مالك بن بحدل الكلبي) فوجه إليهم رسوله مروان بن الحكم ليأخذ بيعتهم بعد أن بايعه مروان بن الحكم. فلما ورد عليهم خلع الطاعة. وهو أول من شقّ عصا المسلمين بلا تأويل ولا شبهة، وبايعه أهل الأردن وخرج على ابن الزبير، وقتل النعمان بن بشير ـ أول مولود في الإسلام من الأنصار، وصاحب رسول الله ﷺ ـ بحمْص. وخرج المختار بن أبي عُبيد بن مسعود الثقفي فقتِلَ بالكوفة، وادعى النبوة في جهالات توجب أنه كان يعلم من نفسه أنه ليس كما يظهر، وحاله مضبوطة عند علماء التاريخ.

ومن جيد ما وقع منه: أنه تتبع بعض الذين شاركوا في أمر ابن الزهراء الحسين فقتل منهم ما أقدره الله عليه، وفعل أفعالاً يُعَفِّي فيها على هذه الحسنة. وقَتَلَ بالكوفة ممن توهم منه ما يوجب مُباينة ما هو عليه، فهذا كان الغالب عليه. وتغلب مروان على مصر والشام، ثم مات بعد عشرة أشهر فقام مقامه في الخُلعان لعبد الله بن الزبير ابنه عبد الملك. وبقية فتنة إلى أن قوي أمره، ووجَّه عامله الحجاج بن يوسف إلى مكة فحاصرها ورمى البيت بحجارة المنجنيق. وقتل ابن الزبير في المسجد الحرام بمكة سنة ثلاث وسبعين في جمادى الآخرة مُقبلاً غير مُدْبِر، مدافعة عن نفسه مقاتلاً، فلذلك لم يعرف من قتله، وله ثلاث وسبعون سنة، وهو أول مولود ولد في الإسلام. وقتله أحد مصائب الإسلام وخرومه لأنَّ المسلمين استضيموا بقتله ظُلْماً علانية وصلبه واستحلال الحرم. وكانت ولايته تسعة أعوام وشهرين ونصف شهر. أمه: أسماء بنت أبي بكر الصديق رضوان الله عليه.

الزبير المثل المضروب فيما جمع الله له من الجمال والشجاعة، وقلال العرب وعقيلتي العرب، عائشة بنت طلحة، وسكينة بنت الحسين بن علي، فاتصلت خلافته إلى يوم قتل بمكة سنة ثلاث وتسعين.

وأخبار عبد الله بن الزبير وأخبار مصعب وخُطَبُ عبد الله وسيرته، وأخبار مصعب وحروبه، وقتل عبيد الله بن زياد وأخبار ولايته بالعراق تقتضي شرحاً وبسطاً لم نبن عليه في الأمور المعروفة والتواريخ المشهورة.

دولة عبد الملك بن مروان بن الحكم ابن العاصي بن أمية[1]

وولي الأمر بعد مهلك مروان ولده عبد الملك بن مروان ابنه بعهد من أبيه، فاستقل بالأمر.

وكان فقيهاً ملازماً للمسجد معدوداً من أهل العلم وهو أبو الأملاك من بني أمية.

زعموا أنه رأى في الحلم كأنه يبول في المحراب مرات.

فعبر ذلك بأولاد له يتناوبون ملك الإسلام.

وعانى شدائد لم يعانيها ملك قبله، فذكر أنه ورد عليه في ليلة واحدة مقتل عبيد الله بن زياد، ومن كان معه، وهزيمة جيوشه التي جمعها، ومقتل حبيش بن دلجة، وكان على جيش له بالمدينة لحرب ابن الزبير.

ثم دخول بابل بن قيس فلسطين وسفر مصعب بن الزبير إليها.

ثم خروج ملك الروم ونزوله بالمصيصية يريد الشام.

ثم ثورة أوباش دمشق ودُعَّارها، وفرار من كان في سجنها من عدوه. ثم أن خيل الأعراب أغارت على جبال الشام، وجبال حمص وبعلبك. وغير ذلك مما نمى إليه المفظعات/ ...[2] واضطر إلى مسالمة الروم بضريبة تدفع إلى ملكهم بحساب [٢٧/ب] ألف دينار في كل عام، ورحل إلى ابن الزبير فلما أبعد عن دمشق بلغه وثوب عمرو بن سعيد بن العاصي بداره...[3] وأن الله أبدل له العُسر يسراً، وأجناك من الصبر

---

(١) قال ابن حزم في رسالة أسماء الخلفاء والولاة (ص ١١٥) وَليَ إذ قُتل ابن الزبير، وبقي إلى أن مات يوم الخميس النصف من شوال سنة ست وثمانين بدمشق. وكانت ولايته ثلاثة عشر عاماً وشهرين ونصفاً. أمه: عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، قتله النبي ﷺ صبراً. وكان سِنُّهُ إذ مات اثنتان وخمسون سنة.

(٢) موضع النقط ثلاث كلمات غير مقروءة لطمس بالمخطوط.

(٣) موضع النقط طمس بالمخطوط.

ظفراً. . . [١] بفتحها، ولا تترك عمرو بن سعيد عن عهد، ثم. . . [١] ووجه الحجاج بن يوسف، وهو أول من استعمله.

فنازل عبد الله بن الزبير بمكة بعد الفراغ من أخيه مصعب بالعراق، وقتله والاستيلاء على العراق.

فضيق على عبد الله بن الزبير، وشدد حصاره، ورمى الكعبة بالمنجانيق حتى دخلها عليه عنوة، وقتله وصلبه بها وخرج عليه عقبة بن الأشعث بن قيس في أمم من كبار السلف من التابعين وكان اللقاء بدير الجماجم، ووقعت بين جيوشه وبين القوم نيف وثمانون وقعة تفانى فيها الخلق، ثم كانت. . . [١] عقبة بن الأشعث، فقُتِل، وعظم عليه أمر الخوارج.

وحروب الخوارج مع المهلب بن أبي صفرة والحجاج مشهورة في كل تاريخ. وكذلك أخبار الحجاج إلى أن هلك سنة خمس وتسعين بواسط، وقد بلغت سنين ولايته عشرين سنة وأحصى من قتله صبراً سوى من مات في حروبه فكانوا مائة وعشرين ألفاً.

والحجاج هو الذي أرسى قواعد ملك بني مروان، في إطار من حصد شوكة العراق واستأصل أعداءهم فيها، وأشقى الناس من باع آخرته بدنيا غيره، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد ولع بأخبار عبد الملك القُصَّاص وأرباب الأخبار لجلالة قدره وسياسته في ملكه وانفساح مدته. وتوفي بدمشق يوم السبت لأربع عشرة مضت من شوال سنة ست وثمانين[٢].

دولة الوليد بن عبد الملك بن مروان ويُكنى أبا العباس[٣]

وكان جباراً عنيداً وملكاً عظيماً جريئاً على سفك الدماء، يُكَلّم في غضب ولا

---

(١) كلمة مطموسة في المخطوط.

(٢) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء عن عبد الملك بن مروان (٤/ ٢٤٦): الخليفة الفقيه، أبو الوليد، الأموي، ولد سنة ست وعشرين. سمع عثمان، وأبا هريرة، وأبا سعيد، وأم سلمة، ومعاوية، وابن عمر، وبَرِيرَة، وغيرهم. ذكرته لغزارة علمه. . . تملك بعد أبيه الشام ومصر، ثم حارب ابن الزبير الخليفة، وقتل أخاه مصعباً في وقعة مَسْكِين، واستولى على العراق، وجهز الحجاج لحرب ابن الزبير فقتل ابن الزبير سنة اثنتين وسبعين، واستوثقت الممالك لعبد الملك.
قال ابن سعد: كان قبل الخلافة عابداً ناسكاً بالمدينة. . . وكان أبيض طويلاً مقرون الحاجبين، أعين، مُشْرِفَ الأنف، رقيق الوجه، ليس بالبادن، أبيض الرأس واللحية. ثم قال في آخر ترجمته: كان من رجال الدهر ودهاة الرجال، وكان الحجاج من ذنوبه.

(٣) قال ابن حزم في رسالة أسماء الخلفاء والولاة (ص ١١٥، ١١٦): يكنى بأبي العباس، ولّي إذ مات =

يراجع في سطوة.

وكان يدعى فارس بن مروان، وأغزى الغرب، فبلغ جيش عماله بإفريقية السوس وفتحت له الأندلس على عهده بما هو معروف لا نطرقه في جليته وشياعه واشتهاره في كل كتاب.

ونظر إليه عبد الملك لما حضرته الوفاة وهو يبكي، فقال: ما هذا الكنين والحماقة؟ إذا أنا مِت فشمر، واتزر، والبس جلد نمر/ وضع سيفك على عاتقك فمن [٢٨/أ] أبدى خلاف نفسه لملكك فاضرب عنقه، ومن سكت مات بدائه.

واستعمل الحجاج بعد عبد الملك واغتبط به، وكانت وفاته بدير مروان من الشام وحُمل على أعناق الرجال إلى دمشق ودفن بها خارج باب الصغير.

وكانت وفاته يوم السبت لأربع عشرة خلت من جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين(١).

وولي الأمر بعده أخوه سليمان.

= أبوه وبقي والياً إلى أن مات يوم السبت في النصف من جُمادى الأولى سنة خمس وتسعين. وكانت مدة ولايته تسع سنين، وسبعة أشهر. ومات وله ستٌّ وأربعون سنة. أمه: ولاَّدة بنت العباس بن جزء بن الحارث بن زُهير بن جذيمة العبسي. وفي أيامه فُتحت الأندلس، وما وراء النهر بخراسان والسند.

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٤٧): أبو العباس... الأموي الدمشقي الذي أنشأ جامع بني أمية. بويع بعهد من أبيه، وكان مترفاً دميماً سائل الأنف، طويلاً، أسمر، بوجهه أثر جُدري، في عنفقته شيب يتبختر في مشيته، وكان قليل العلم نهمته في البناء. أنشأ أيضاً مسجد رسول الله ﷺ، وزخرفه، ورُزِق في دولته سعادة. ففتح بوَّابة الأندلس، وبلاد الترك، وكان لُحَنةً، وحرص على النحو أشهراً فما نفع. وغزا الروم مراتٍ في دولة أبيه، وحج.

وقيل: كان يختم في كل ثلاث، وختم في رمضان سبع عشرة ختمة. وكان يقول: لو لا أن الله ذكر قوم لوط ما شعرت أن أحداً يفعل ذلك. وقال ابن أبي عَبلة: رحم الله الوليد، وأين مثل الوليد، افتتح الهند، والأندلس، وكان يعطيني قِصاع الفضة، أقسمها على القُرّاء. وقيل: إنه قرأ على المنبر: يا ليتُها، وكان فيه عَسْفٌ وجبروت، وقيام بأمر الخلافة وقد فرض للفقهاء والأيتام والزمنى، والضعفاء، وضبط الأمور، فالله يُسامحه... وقد كان عزم على خلع سليمان من ولاية العهد لولده عبد العزيز، فامتنع عليه عمر بن عبد العزيز، وقال: لسليمان بيعة في أعناقنا. فأخذه الوليد، وطين عليه، ثم فتح عليه بعد ثلاث وقد مالت عنقه. وقيل: خنقه بمنديل حتى صاحت أم البنين. فشكر سليمان لعمر ذلك، وعهد إليه بالخلافة.

ومن مصادر ترجمته: تاريخ الإسلام (٤/ ٦٥)، العبر (١/ ١١٤)، فوات الوفيات (٤/ ٢٥٤)، البداية والنهاية (٩/ ٧٠)، العقد الثمين (٧/ ٣٨٩)، الذهب المسبوك (٢٩)، النجوم الزاهرة (١/ ٢٢٠)، تاريخ الخلفاء (٢٢٣)، شذرات الذهب (١/ ١١١).

دولة سليمان بن عبد الملك بن مروان[١]

يكنى أبا أيوب، وكان يُدعى الداعي إلى الله لحرصه على المحافظة على معالم الشريعة، وكان فصيحاً، شاعراً، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم. . .[٢] والملوك، وممن يضرب به المثل في ذلك.

قال المسعودي في التاريخ: وكان يبسط في كل يوم مائة رطل بالعراء من الطعام، وربما أتاه الطباخون. . .[٣] فيها الدجاج المشوي وعليه الحُلة من الوشي المثقلة فالتهمه و [كان من][٤] حرصه على الأكل يدخل يده في كمه، ويقبض على الدجاجة وهي حارة فيفصلها.

ولما انقضت أيامه استلزمت أثوابه وحُلَلَهُ بذلك، ويظهر أنه لا عتب عليه في ذلك، فإنه مرض معروف[٥].

---

(١) قال ابن حزم في رسالة الخلفاء (ص ١١٦): كنيته أبو أيوب، وسُكناه بالرملة من فلسطين، وكانت سُكنى أبيه وأخيه بدمشق. بويع يوم مات أخوه الوليد، وبقي والياً إلى أن مات يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين. فكانت ولايته عامين وتسعة أشهر وخمسة أيام. ومدة عمره، قيل: سبع وثلاثون سنة. وهو شقيق الوليد أخيه. وفي أيامه حُوصرت القسطنطينية، وحاصرها أخوه مسلمة، وسن مسلمة أربع وعشرون سنة.

(٢) موضع النقط طمس بالمخطوط.

(٣) كلمة مطموسة بالمخطوط.

(٤) زيادة يتطلبها السياق.

(٥) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٥/ ١١١) في ترجمته: كان دَيِّناً فصيحاً مفوهاً عادلاً مُحباً للغزو يقال: نشأ بالبادية. مات بذات الجنب، ونقش خاتمه: أومِنُ بالله مُخلِصاً. وأمه وأم الوليد هي ولاّدة بنت العباس بن حزن العبسية. . . وكان أبيض كبير الوجه مقرون الحاجبين جميلاً، له شعر يضرب منكبيه، عاش تسعاً وثلاثين سنة، قسم أموالاً عظيمة، ونظر في أمر الرعية، وكان لا بأس به، وكان يستعين في أمر الرعية بعمر بن عبد العزيز، وعزل عمال الحجاج. وكتب: إن الصلاة كانت قد أُميتت فأحيوها بوقتها. وهم بالإقامة ببيت المقدس، ثم نزل قنسرين للرباط، وحج في خلافته. وقيل: رأى بالموسم الخلق، فقال لعمر بن عبد العزيز: أما ترى هذا الخلق الذين لا يحصيهم إلا الله، ولا يسع رزقهم غيره؟

قال: يا أمير المؤمنين هؤلاء اليوم رعيتك وهم غداً خُصماؤك. فبكى وقال: بالله أستعين. وعن ابن سيرين قال: يرحم الله سليمان افتتح خلافته بإحياء الصلاة واختتمها باستخلافه عمر. وكان سليمان ينهى الناس عن الغناء. وكان من الأَكَلَة حتى قيل: إنه أكل مرة خروفاً وست دجاجات وسبعين رمانة، ثم أُتي بمكوك زبيب طائفي فأكله. ولما مرض بدابق قال لرجاء بن حيوة الكندي: من لهذا الأمر؟ قال: ابنك غائب. قال: فالآخر؟ قال: صغير. قال: فمن ترى؟ قال: عمر بن عبد العزيز. قال: أتخوف إخوتي. قال: وَلِّ عمر، ثم من بعده يزيد بن عبد الملك وتكتب كتاباً، وتختمه، وتدعوهم إلى بيعة مَنْ فيه. قال: لقد رأيت. =

وقال صاحب الخطبة في الزرد: يا بني، امعنوا في الوَدِك، وكونوا آكل من سليمان بن عبد الملك، فقد بلغني أنه خرج من الحمام واستعجل الطعام، فأُتي إليه بمائة خروف، فأكل أجوافها بمائة رقاقة، ثم جيء بمعتاد الطعام فأكل كأن لم يأكل من قبل شيئاً.

وله المنقبة الشريفة بإيثار عمر بن عبد العزيز والعهد له من بعده دون إخوته وولده؛ ولذلك قيل: إن ولداً لعمر بن عبد العزيز فاخر ولداً لسليمان بن عبد الملك، فذكر له ولد عمر فضل أبيه وحاله.

فقال له ولد سليمان بن عبد الملك: إن شئت فأقلل، وإن شئت فأكثر، فما أبوك إلاَّ حسنة من حسنات أبي.

وبمثله قال أبو عبد الله بن الأبار القضاعي في درر الزمان: يزعم الناس أن عمر أحيا الإيمان، وأنا أخالف، لكون ذلك من سليمان.

وفي أيام سليمان: كانت نكبة موسى بن نصير، ومطالبته بسبب فيء الأندلس.

وكان موسى رجلاً صالحاً/ تقيّاً إلاّ أنه بُغي عليه عنده. [٢٨/ب]

وكانت وفاة سليمان بن عبد الملك سنة تسع[١].

ووليّ الأمر بعده أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

دولة عمر بن عبد العزيز بن مروان رضي الله عنه[٢]

وهو: عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم.

= وكتب العهد، وجمع الشرط، وقال: من أبى البيعة، فاقتلوه، وفعل ذلك، وتم. ثم كُفّن سليمان في عاشر صفر سنة تسع وتسعين، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز. وقيل: عاش أربعين سنة، وخلافته سنتان وتسعة أشهر وعشرون يوماً عفا الله عنه، وفي آل مروان نصب ظاهر سوى عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

(١) ومن مصادر ترجمة سليمان بن عبد الملك: تاريخ خليفة (٢٨١، ٢٩٢)، تاريخ الفسوي (١/ ٢٢٣)، تاريخ اليعقوبي (٣/ ٣٦)، تاريخ الطبري (٦/ ٥٤٦)، مروج الذهب (٢/ ١٢٧)، وفيات الأعيان (٢/ ٤٢٠، ٤٢٧)، تاريخ الإسلام (٤/ ٨)، العبر (١/ ١١٥)، فوات الوفيات (٢/ ٦٨)، البداية والنهاية (٩/ ١٨٣)، شذرات الذهب (١/ ١١٦).

(٢) كتبت في سيرته الكتب ودونت الدواوين وملأت طباق الأرض بحسن سجاياه وعدله وورعه وزهده وعدله وعُدّ خامس الخلفاء الراشدين، ومن مصادر ترجمته نذكر: طبقات ابن سعد (٥/ ٣٣٠)، تاريخ خليفة (٣٢١)، تاريخ الفسوي (١/ ٥٦٨)، حلية الأولياء (٥/ ٢٥٣)، طبقات الشيرازي (٦٤)، تاريخ الإسلام (٤/ ١٦٤)، سير أعلام النبلاء (٥/ ١١٤)، تذكرة الحفاظ (١/ ١١٨)، العبر (١/ ١٢٠)، فوات الوفيات (٣/ ١٣٣)، البداية (٩/ ١٩٢)، العقد الثمين (٦/ ٣٣١)، تاريخ الخلفاء (٢٢٨)، شذرات الذهب (١/ ١١٩)، وغير ذلك كثير جداً.

أمه: أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب.

وكان إماماً في الفضل والورع والزهد في الدنيا، والقيام بالحق، والعمل على الآخرة، وأبى أن يأخذ من بيت المال لاقتصاره على مُوَيْلٍ كان له.

ولم يُر يوماً باكياً أكثر من يوم قرىء عهده على الناس بمسجد دمشق... [١] سليمان بن عبد الملك الذي عهد له.

وذكر أنه لما مَلَّ الحياة وثقل عليه المرض قال لبعض ولده: أشتاق إلى لقاء الله.

وكان يقول: خُلِقْتُ امرء تواقاً تُقْتُ إلى... [٢] فبلغتها، وتقت إلى الخلافة فبلغتها، ثم تقت إلى ما عند الله.

قال أبو محمد بن قتيبة: كتب عمر بن عبد العزيز إلى ابن أبي زكريا:

أما بعد: فإذا بلغك كتابي هذا فأقدم. فقدم عليه، فقال: مرحباً بك يا ابن أبي زكريا.

---

(١) طمس في المخطوط.

(٢) طمس في المخطوط، ومما قال في ترجمة الذهبي في سير أعلام النبلاء: الإمام الحافظ العلاّمة المجتهد الزاهد العابد السيد أمير المؤمنين حقاً أبو حفص القرشي الأموي المدني ثم البصري الخليفة الزاهد الراشد أشجُّ بني أمية... وكان من أئمة الاجتهاد، ومن الخلفاء الراشدين رحمة الله عليه... قالوا: ولد سنة ثلاث وستين. قال: وكان ثقة مأموناً، له فقه وعلم وورع روى حديثاً كثيراً، وكان إمام عدل رحمه الله، ورضي عنه.. وذكر صفته سعيد بن عفير فقال: إنه كان أسمر، رقيق الوجه حسنه، نحيف الجسم، حسن اللحية، غائر العينين، بجبهته أثر نفحة دابة، قد وخطه الشيب.

وقال إسماعيل الخُطبي: رأيت صفته في بعض الكتب: أبيض رقيق الوجه... وعن عبد العزيز بن يزيد الأيلي قال: حجّ سليمان بن عبد الملك، ومعه عمر بن عبد العزيز فأصابهم برق ورعد حتى كادت تنخلع قلوبهم. فقال سليمان: يا أبا حفص هل رأيت مثل هذه الليلة قط أو سمعت بها؟ قال: يا أمير المؤمنين، هذا صوت رحمة الله فكيف لو سمعت صوت عذاب الله؟!

... قال الليث: بدأ عمر بن عبد العزيز بأهل بيته فأخذ ما بأيديهم وسمى أموالهم مظالم ففزعت بنو أمية إلى عمته فاطمة بنت مروان فأرسلت إليه: إني قد عناني أمر، فأتته ليلاً، فأنزلها عن دابتها، فلما أخذت مجلسها قال: يا عمة، أنت أولى بالكلام. قالت: تكلم يا أمير المؤمنين. قال: إن الله بعث محمداً ﷺ رحمة، ولم يبعثه عذاباً، واختار له ما عنده، فترك لهم نهراً شُرْبُهُم سواء، ثم قام أبو بكر فترك النهر على حاله، ثم عمر، فعمل عمل صاحبه، ثم لم يزل النهر يشتق منه يزيد، ومروان، وعبد الملك، والوليد، وسليمان، حتى أفضى الأمر إليّ، وقد يبس النهر الأعظم ولن يروى أهله حتى يعود إلى ما كان عليه. فقالت: حسبك، فلست بذاكره لك شيئاً. ورجعت فأبلغتهم كلامه... وقال أبو عمر الضرير: مات بدير سمعان من أرض حمص يوم الجمعة لعشر بقين من رجب، وله تسع وثلاثون سنة ونصف. وقالت طائفة: في رجب، ولم يذكروا اليوم، وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وأياماً.

قال: وبك يا أمير المؤمنين.

قال: حاجة لي قبلك.

فقال: بين العين والأنف حاجتك إن قدرت عليها.

قال: لست أُكلفك إلاّ ما تقدر عليه.

قال: نعم.

قال: إن تثني على الله تبارك وتعالى بمبلغ علمك، وتجتهد حتى إذا فرغت سألت الله تعالى أن يقبض عمر، وأمنت معك.

فقال الرجل: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون بيني وبينك أمة محمد، هذا ما لا يحل لي.

قال: فإني أعزم عليك بحق الله ورسوله وحقي عليك إن كان لي عليك حق إلاّ فعلت.

فبكى، ثم استرجع، ثم أقبل بشيء على الله وإنه ليبكي حتى إذا فرغ قال: اللهم إن عمر سألني بحقك وحق رسولك يا رب فاقبض عمر كما سأل، ولا تبقني بعده.

قال: وجاء شيء لعمر فسقط في حجره، فقال وهذا أي رب معنا فإني أحبه.

قال: فما كانوا إلاّ خرزات في خيط فانقطع الخيط فاتبع بعضهم بعضاً.

وتوفي عمر بن عبد العزيز بدير سمعان من أعمال حمص يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة إحدى ومائة.

وقبره مشهور يغشاه الناس ويتبركون به، ذكره المسعودي.

ثم ولي الأمر بعده اليزيد بن عبد الملك بن مروان.

/ دولة اليزيد بن عبد الملك بن مروان(١) [٢٩/أ]

ولم يكن لليزيد بن عبد الملك ما تصرف وإنما كان على عظم الملك في زمانه

---

(١) ومن مصادر ترجمة يزيد ما يلي: سير أعلام النبلاء (٥/ ١٥٠)، تاريخ خليفة (٩/ ٢٧٨)، تاريخ اليعقوبي (٣/ ٥٢)، تاريخ الطبري (٧/ ٢١)، تاريخ الإسلام (٤/ ٢١٢)، العبر (١/ ١٢٨)، فوات الوفيات (٤/ ٣٢٢)، البداية والنهاية (٩/ ٢٣١)، شذرات الذهب (١/ ١٢٨)، ومما قال الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمته: الخليفة أبو خالد القرشي الأموي الدمشقي استخلف بعهد عقده له أخوه سليمان بعد عمر بن عبد العزيز.
وأمه هي: عاتكة بنت يزيد بن معاوية ولد سنة إحدى وسبعين، وكان أبيض جسيماً جميلاً مدور الوجه لم يتكهل. . قال ابن وهب: حدثنا عبد الرحمٰن بن يزيد قال: لما توفي عمر بن عبد العزيز قال يزيد: سيروا بسيرة عمر بن عبد العزيز، فأتي بأربعين شيخاً شهدوا أن الخلفاء ما عليهم حساب

واتساع الخطة وتناهي الدنيا غَرِقاً في اللهو، والغناء...[١] وزاد أمره فضحة ما كان من اتصال أيامه بأيام عمر بن عبد العزيز، وهو الذي شهر غرامه بالجاريتين حبابة وسلاّمة، وكان يجلسهما عن يمينه وعن شماله، فإذا غنتاه، وأخذ منه الشراب، هزل وقال لهما: أتأذنان لي أن أطير أريد أن أطير، فتظهران الجزع وتقولان: فلمن تدعنا وتدع أمة محمد؟

وخبره على موت حبابة بين يديه مشهور وأنه أظهر من الجزع عليها ما لم يسمع بمثله من قبل حتى تغير، وقيل له: إن الناس يتمزحون بجزعك، فدفنها وقال وهو واقف على قبرها:

فإن تسل عنك النفس أو تدع الأسى ... فباليأس أسلوا عنك لا بالتجلد

[وكل خليل لامني فهو قائلٌ ... من أجلك هذا هامة اليوم أو غدِ[٢]]

وقيل: إنه نبش اللحد عنها بعد ذلك متشوقاً إليها.

وفي مثل حاله قلت وقد مات لي سَكَنٌ عزيز عليّ وأنا في حال غربة بمدينة سلا وكان إذ ذاك جملة أُنسي:

يا قلب كم هذا الجوى والخفوق ... دماءك استبق لئلا يقوى

فقال: لا قول ولا حول لي ... قد كان فحسبي الشكوى

فارقني الرشد وفارقته ... لما تعشقت بشيء يفنى

نصير الله كلف نفوسنا على ما لا يفنى وجعلها ممن شغل بالمعنى عن المغنى، وممن كتب له الزيادة من بعد الحسنى برحمته.

وهو أول من قدم صبياً لم يبلغ الحُلم في ملوك الإسلام. وفتح الباب على وفور أهل بيته، فلم يختلف عليه منهم أحد في ذلك حسبما تأدى إلينا.

حدَّث الإمام أبو الفرج الأصبهاني بسنده أن اليزيد بن عبد الملك لما وجَّه الجيوش إلى يزيد بن المهلب، وعقد الأمر لمسلمة بن عبد الملك على الجيش، وابن

= ولا عذاب. وقال ابن الماجشون وآخر: إن يزيد قال: والله ما عُمَرُ بن عبد العزيز بأحوج إلى الله مني. فأقام أربعين يوماً يسير بسيرته، فتلطفت حَبَابة وغَنَّتْهُ أبياتاً. فقال للخادم: ويحك، قل لصاحب الشرطة يُصلي بالناس. وهي التي أحب يوماً الخلوة معها، فحذفها بعنبة وهي تضحك فوقعت في فيها، فشرقت فماتت، وبقيت عنده حتى أروحت، واغتم لها، ثم زار قبرها وقال:

* فإن تسل عنك النفس ... *

ثم رجع، فما خرج إلا على النعش.

(١) كلمة مطموسة في المخطوط.

(٢) زيادة من مصارع العشاق (١/ ١٢٠).

أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك، وعقد له على دمشق، فقال له العباس: يا أمير المؤمنين إن أهل العراق أهل غدر وإرجاف، وقد وجهتنا محاربين والحوادث تحدث، ولا آمن أن يرجف أهل العراق فيقال: مات أمير المؤمنين ولم يعهد فيفت ذلك في أعضاد ابن عبد الملك أهل الشام، فلو عهدت عهداً لعبد العزيز بن الوليد أو ولد عبد الملك[١].

/ قال: بل ولد عبد الملك. [٢٩/ب]

قال: وأخوك أحق بالخلافة أم ابن أخيك؟

قال: إذا لم يكن من ولدي[٢] فأخي أحق بذا من ابن أخي.

قال: فإن ابنك لم يبلغ، فبايع لهشام، ثم لابنك بعد هشام.

قال: والوليد يومئذ له إحدى عشرة سنة.

فقال: غداً أبايع.

فلما أصبح فعل ذلك، وبايع لهشام بولاية العهد وبعده لابنه الوليد وأن لا يُخلع الوليد بعده ولا يغيِّر عهده ولا يحتال عليه. فلما أدرك الوليد ندم اليزيد، فكان ينظر إليه ويقول: الله بيني وبين من جعل هشاماً بيني وبينك.

ولم يزل الوليد مكرَّماً عند هشام، رفيع المنزلة، ثم طمع في خلعه، وعقد العهد بعده لمسلمة ابنه.

فجعل يذكر مجون[٣] الوليد بن يزيد، وتهتكه، وإدمانه على الشراب، ويظهر ذلك في مجلسه، ويقوم...[٤] فوَلاّه الحج ليظهر ذلك منه بالحرمين الشريفين.

فزاد ذلك وظهر منه فعل كثير مذموم...[٥] والمغَنين والشراب، وأمر مولاه فحجّ بالناس.

فلما رجع طالبه هشام بأن يخلع نفسه، فأبى[٦]. فحرمه العطاء وسائر مواليه وأشياعه وجفاه جفاءً شديداً.

---

(١) بعده في الكامل: فبلغ ذلك مسلمة بن عبد الملك، فأتى أخاه يزيد فقال: يا أمير المؤمنين، أيما أحب إليك: أخوك أم ابن أخيك؟ قال: بل أخي...

(٢) في المخطوط: ولده، والتصويب من الكامل.

(٣) طمس بالمخطوط أثبت معناه من الكامل.

(٤) طمس بالمخطوط.

(٥) طمس في المخطوط.

(٦) في الكامل من التاريخ في أحداث سنة خمس وعشرين ومائة في ذكر بيعة الوليد بن يزيد بن عبد الملك، قال ابن الأثير: فلما ولي هشام أكرم الوليد بن يزيد حتى ظهر من الوليد مجون وشرب الشراب ـ وكان يحمله على ذلك عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدّبه، واتخذ له ندماء. فأراد هشام أن يقطعهم عنه، فولاّه الحجّ سنة ست عشرة ومائة، فحمل معه كلاباً في صناديق، وعمل قبة على قدر

فخرج عن دمشق وسكن بعض ضياعه، وأخرج معه عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدِّبه وكان يرمى بالزندقة.

ودعا هشام الناس إلى خلعه والبيعة لمسلمة بن هشام.

وكان مسلمة يُكنى أبا شاكر، كني بذلك لمولى كان لمروان يكنى أبا شاكر كان ذا دين وفضل، وكانوا يعظمونه ويتبركون به.

فأجابه إلى خلع الوليد والبيعة لمسلمة فلان وفلان من خاصة هشام. فكتب إلى الوليد:

ما تدع شيئاً من المنكر إلاّ أتيته غير متحاش ولا مستتر، فليت شعري ما دينك فما أدري أعلى الإسلام أنت أم لا؟

فكتب إليه الوليد بن يزيد يعرض له بولده المنهمك أيضاً في الشراب واللهو:

يا أيها السائل عن ديننا نحن على دين أبي شاكر
نشربها صرفاً وممزوجةً بالسخن أحياناً وبالفاتر

فغضب هشام على ابنه مسلمة وقال له: يعيِّرني بك الوليد، وأنا أرشحك للخلافة، فالزم الأدب، واحضر الصلوات. وولاّه الموسم سنة سبع عشرة ومائة، فأظهر النسك [واللين][1] وقسَّم بمكة والمدينة أموالاً.

قال المدائني: وبلغ خالداً القسري ما عزم عليه هشام، فأتاه، فقال: أنا بريء من خليفة يكنى أبا شاكر.

[١/٣٠] فبلغت مسلمة عنه/ وكان ذلك سبب الإيقاع به.

وحدث أن دخل الوليد يوماً مجلس هشام ولم يكن هشام حاضراً، فجلس الوليد [في][2] مجلس هشام، وأقبل هشام، فما كاد الوليد يتنحى عن صدر مجلسه

= الكعبة ليضعها على الكعبة، وحمل معه الخمر. وأراد أن ينصب القبة على الكعبة ويشرب فيها الخمر، فخوَّفه أصحابه وقالوا: لا نأمن من الناس عليك وعلينا معك، فلم يفعل.
وظهر للناس منه تهاون في الدين واستخفاف. فطمع هشام في البيعة لابنه مسلمة وخلع الوليد، وأراد الوليد على ذلك فأبى. فقال له: اجعله، فأبى، فتنكر له هشام وأضرَّ به، وعمل سراً في البيعة لابنه مسلمة، فأجابه قوم، وكان ممن أجابه: خالاه محمد وإبراهيم ابنا هشام بن إسماعيل، وبنو القعقاع بن خليد العبسي، وغيرهم من خاصته.
فأفرط الوليد في الشراب وطلب اللذات. فقال له هشام: ويحك يا وليد، والله ما أدري أعلى الإسلام أنت أم لا؟ ما تدع شيئاً من المنكر إلاّ أتيته...

(١) ما بين المعقوفين زيادة من الكامل.
(٢) زياد يتطلبها السياق.

إلاَّ أنه رماه بأن رحل له قليلاً فجلس هشام.

فقال: كيف أنت يا وليد؟

قال: صالح.

قال: ما فعلت برباطك؟

قلت: وهي جمع رباط، وهو آلة[1] من آلات الغناء؟

فقال الوليد: هي مهملة ومستعملة.

قال: فما فعل ندماؤك؟

قال: ...[1] لعنهم الله إن كانوا شراً ممن حضر، وقام.

فقال هشام: جأوا في عنق ابن اللخناء. فلم يفعلوا، ودفعوه رويداً، فقال الوليد:

أنا ابن العاصي وعثمان والدي ... ومروان جدي ...[2] آل عامر

أنا ابن عظيم القريتين وعزها ... .[2] والعصاة الأكابر

نبي الهدى خالي ومن يك خالد ... نبي الهدى ...[2] فخر به من يفاخر

قالوا: مات مسلمة بن هشام في حياة أبيه هشام وكان ينكر عليه تنقص الوليد ويعاتبه فيه[3].

دولة هشام بن عبد الملك بن مروان[4]

وكان هشام ملكاً عظيماً خشن الجانب، جمَّاعاً للأموال، متيقظاً في مملكته.

---

(١) طمس بالمخطوط. (٢) طمس بالمخطوط.

(٣) ذكر الذهبي وفاة يزيد بآخر ترجمته فقال بعد ذكره للشعر الذي قيل في حبابه: ومات بعد أيام. قيل مات بسواد الأردن، ومرض بنوع من السلّ. وقال أبو مسهر: مات بإربد. وقالوا: مات لخمس بقين من شعبان سنة خمس ومائة. فكانت دولته أربعة أعوام وشهراً. وعهد بالخلافة إلى أخيه هشام، ثم من بعده لولده الوليد بن يزيد ذاك الفويسق، وخلف أحد عشر ابناً.

(٤) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٥١)، تاريخ اليعقوبي (٣/ ٥٧)، تاريخ الطبري (٧/ ٢٠٠)، مروج الذهب (٢/ ١٤٢)، تاريخ الإسلام (٥/ ١٧٠)، دول الإسلام (١/ ٨٥)، مرآة الجنان (١/ ٢٦١)، فوات الوفيات (٤/ ٢٣٨)، خلاصة الذهب المسبوك (٢٦)، البداية والنهاية (٩/ ٣٥١)، النجوم الزاهرة (١/ ٢٩٦)، تاريخ الخلفاء (٢٦٩).

ومما قال الذي في ترجمته في سير أعلام النبلاء: قال ابن سعد عن الواقدي: حدثني سحبل بن محمد قال: ما رأيت أحداً من الخلفاء أكره إليه الدماء من هشام، ولقد دخله من قتل زيد بن علي وابنه يحيى أمر شديد حتى قال: وددت لو كنت افتديتهما.

مباشراً للأمور بنفسه، لا يغيب شيء من أمر مُلكه، وكان أحول العينين، ولم يكن في أهل بيته كذلك غيره.

ولذلك حكايات ونوادر مشهورة.

وفي أيامه قُتل زيد بن علي بن الحسين وأُخفي قبره، ثم عُثر به، فكتب هشام إلى عامله أن اصلبه عرياناً... (١) وأقام مصلوباً خمس سنين، ثم أمر بإحراقه وذروه في الرياح، وهو من بُخلاء الملوك.

حُكي أنه دخل بستاناً له ومعه ندماؤه فطافوا فيه، وفيه من كل الثمار، فجعلوا يأكلون ويقولون: بارك الله لأمير المؤمنين.

فقال: وكيف يُبارك له فيه وأنتم تأكلونه؟. ثم دعا قيِّمه فقال: اقلع شجره وازرع مكانه زيتوناً حتى لا يأكل أحد منه شيئاً. وذمَّ الناس مذهبه في ذلك، ومنعوا ما في أيديهم.

فلم ير زمان أصعب من زمانه، واختلطت الدولة الأموية على عهده.

[٣٠/ب] وورد عليه أيام دولته كتاب ابن هبيرة يُعرف أنه رأى ببخارى وقت/ السحر شيئاً سقط من السماء ودوي كالرعد القاصف أسقطت فيه الحوامل، فنظر فإذا قد انفرج من السماء فرجة عظيمة ونزل أشخاص عظماء، وسمع في السماء زأر وصوت قائل يقول: يا أهل الأرض اعتبروا، يا أهل السماء هذا جبرائيل الملك أنزله الله بعذاب. فلما طلع النهار أتى الناس إلى ذلك الموضع فوجدوا شقّاً في الأرض لا يدرى له قرار، يصعد منه دخان أسود. كل ذلك مثبوت عند قاضي بخارى بأربعين عدلاً.

قلت: نقلته من خط أبي العباس بن أبي حجلة من بعض ما كتب به إلى...

ومات هشام لست خلون من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة.

قالوا: إن هشام بن عبد الملك قد دعا سالم، فقال له سالم: لقد رأيت منك ما غمَّني.

فقال: ويحك، وكيف لا أغتم وأهل العلم يزعمون أنني ميت إلى ثلاثة وثلاثين يوماً؟

فلما كان في ليلة تمام المدة، دقّ الباب خادم، وقال: أجب أمير المؤمنين، وادخل في يدك دواء الذبحة، وقد كنت مرضت بذلك وانتفعت به.

= وقال الواقدي: حدثني ابن أبي الزناد عن أبيه قال: ما كان أحد أكره إليه الدماء من هشام، ولقد ثقل عليه خروج زيد.

(١) طمس في المخطوط.

وجئت فاستعمل الدواء، فتغرغر، فازداد الوجع، ثم سكن قليلاً، فقال: يا ابن سالم، قد خفّ ما كنت أجد، فانصرف واترك الدواء.

فانصرفت عنه، فلم يك إلاّ ساعة حتى سمعت الصراخ عليه.

وكان قد وضع العهد للوليد، فأغلق الخزّان الأبواب، وجمعوا المتاع والماعون.

فلما أرادوا غسله طلبوا قمقماً يسخَّن فيه [الماء][1] لغسله، فلم يوجد عنده حتى استعير من الجيران، وذلك ليصير غنى المُلك إلى ضده.

وذكروا أن ببابه ظهره خاصة دون عياله وحشمه، وخزائنه كان يحملها سبعمائة جمل وعشرون جملاً.

إن في ذلك لعبرة.

ونظر إلى أهله يبكون حوله فقال: جاد لكم هشام بالدنيا وجُدتم له بالبكاء.

وولي بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان.

دولة الوليد بن اليزيد بن عبد الملك[2]

وكنيته أبو العباس.

وكان ماجناً، معاقراً، شاعراً، جوّاداً، مصروف الهمة إلى الملذات، خالعاً لثوب الحياء والدين، يقطع زمانه بابن شريح المغني، ومعبد المدني، والغريض، وابن عائشة، وابن محرز، وطويس، ودهمان.

وفي أيامه قُتل يحيى بن زيد [بن الحسين][3] بن علي بن أبي/ طالب [٣١/أ]

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٧٠)، اليعقوبي في تاريخه (٣/ ٧١)، تاريخ الطبري (٧/ ٢٠٩)، مروج الذهب (٢/ ١٤٥)، الأغاني (٧/ ٩٥١)، تاريخ الإسلام (٥/ ١٧٣)، البداية والنهاية (١٠/ ٢، ٥)، تاريخ الخميس (٢/ ٣٢٠).

ومما قال الذهبي في سيرته في سير أعلام النبلاء: ولد سنة تسعين، وقيل: سنة اثنتين وتسعين، ووقت موت أبيه كان للوليد نيف عشرة سنة فعقد له أبوه بالعهد من بعد هشام بن عبد الملك، فلما مات هشام بن عبد الملك سُلمت إليه الخلافة...

قال مروان بن أبي حفصة: قال لي الرشيد: صف لي الوليد! قلت: كان من أجمل الناس، وأشعرهم، وأشدهم...

قال الواقدي: حدثنا ابن أبي الزناد عن أبيه قال: كان الزهري يقدح أبداً عند هشام في الوليد، ويذكر أموراً عظيمة، حتى يذكر الصبيان، وأنه يخضبهم. ويقول: يجب خلعه، فلا يقدر هشام. ولو بقي الزهري لفتك به الوليد.

(٣) زيادة من الكامل لابن الأثير.

بالجوزجان من بلاد خراسان على يد نصر بن سيّار[١].

ولم يكن في ملوك بني أمية أبعد مدى في التهتك والتخلع من الوليد هذا، فبأحاديثه وانتهاكه لحرمات الله سارت الأمثال.

فيقال: إنه فتح المصحف يوماً على نيَّة التفاؤل، فقابله في الورقة منه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥﴾ [إبراهيم: الآية ١٥]، فوجد على المصحف بسخفه وترفه وبُعد شأوه في البطال. . .[٢] وجعل يرميه بالسهام ويقول:

أتُوعِدُ كلَّ جبارٍ عنيدٍ[٣] فها أنا ذاك جبَّار عنيد

---

(١) قال ابن الأثير في الكامل في ذكره لخبر قتل يحيى بن زيد بن الحسين بن علي بن أبي طالب في أحداث سنة خمس وعشرين ومائة: وسبب قتله أنه سار بعد قتل أبيه إلى خراسان. . . فأتى بلخ فأقام بها عند الحريش بن عمرو بن داود حتى هلك هشام وولي الوليد بن يزيد، فكتب يوسف بن عمر إلى نصر بمسير يحيى بن زيد وبمنزله عند الحريش وقال له: خذه أشد الأخذ، فأخذ نصر الحريش فطالبه بيحيى. فقال: لا علم لي به. فأمر به فجلد ستمائة سوط. فقال الحريش: والله لو أنه تحت قدميّ ما رفعتهما عنه. فلما رأى ذلك قريش بن الحريش قال: لا تقتل أبي وأنا أدلك على يحيى. فدله عليه، فأخذه نصر، وكتب إلى الوليد يخبره. فكتب الوليد يأمره أن يؤمنه ويخلي سبيله وسبيل أصحابه. فأطلقه نصر وأمره أن يلحق بالوليد وأمر له بألف درهم. فسار إلى سرخس، فأقام بها، فكتب نصر إلى عبد الله بن قيس بن عباد يأمره بسيره عنها. فسيَّره عنها، فسار حتى انتهى إلى بيهق، وخاف أن يغتاله يوسف بن عمرو، فعاد إلى نيسابور، وبها عمرو بن زرارة، وكان مع يحيى سبعون رجلاً، فرأى يحيى تجاراً، فأخذ هو وأصحابه دوابهم، وقالوا: علينا أثمانها. فكتب عمرو بن زرارة إلى نصر يخبره. فكتب نصر يأمره بمحاربته. فقاتله عمرو، وهو في عشرة آلاف، ويحيى في سبعين رجلاً، فهزمهم يحيى، وقتل عمراً وأصاب دواب كثيرة، وسار حتى مرَّ بهراة، فلم يعرض لمن بها وسار عنها. وسرح نصر بن سيار سالم بن أحوز في طلب يحيى، فلحقه بالجوزجان فقاتله قتالاً شديداً، فرُمي يحيى بسهم، فأصاب جبهته، رماه رجل من عنزة يقال له: عيسى. فقتل أصحاب يحيى عن آخرهم، وأخذوا رأس يحيى، وسلبوه قميصه.

فلما بلغ الوليد قتل يحيى، كتب إلى يوسف بن عمر: خذ عجيل أهل العراق فأنزله من جذعه ـ يعني زيداً ـ وأحرقه بالنار، ثم انسفه باليم نسفاً. فأمر يوسف به فأُحرق، ثم رضّه وحمله في سفينة، ثم ذراه في الفرات.

وأما يحيى فإنه لما قتل صلب بالجوزجان فلم يزل مصلوباً حتى ظهر أبو مسلم الخراساني واستولى على خراسان، فأنزله، وصلى عليه ودفنه وأمر بالنياحة عليه في خراسان. وأخذ أبو مسلم ديوان بني أمية، وعرف منه أسماء من حضر قتل يحيى، فمن كان حياً قتله ومن كان ميتاً خلفه في أهله بسوء، وكانت أم يحيى ريطة بنت أبي هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية.

(٢) طمس بالمخطوط.

(٣) في الكامل الشطر الأول على النحو التالي: «تهددني بجبّار عنيد. . .» ثم قال بعد ذكره للشعر، فلم يلبث بعد ذلك إلاّ يسيراً حتى قُتل.

إذا ما جئت ربك يوم حشر　　فقل: يا رب مزَّقني الوليد

وعن المدائني قال: لما ولّي الوليد بن يزيد اهتم بالغناء والشرب والصيد، وحمل المغنين والملهين إليه من المدينة وغيرها.

وأرسل إلى أشعب[١] فجيء به إليه، فألبسه سراويل من جلد قرد له ذنب، وقال له: ارقص وغني صوتاً يعجبني، فإن فعلت فلك. وغناه، فأعجبه، فأعطاه ألف درهم.

وذكروا أنه واقع جارية يوماً وهو سكران فلما تنحّى عنها أذَّنه المؤذن بالصلاة، فحلف أن لا يصلي بالناس غيرها، فخرجت متلثمة، فصلت بالناس.

وحدَّث عمرو الوادي[٢] قال: دخلت إليه وعنده أصحابه وقد تغدى وهو يشرب، فقال: اشرب. فشرب وطرب وغنى صوتاً واحداً، وأخذ عباءة فرفعها وأخذ كل واحد حاجته فوقف بها.

فقام وقمنا حتى بلغنا إلى الحاجب، ورآنا فصاح بالناس: الحرم الحرم، فوقفوا، ودخل إليه [الحاجب][٣] فقال: جعلني الله فداك، اليوم يوم يحضر فيه الناس. فأمره الوليد أن يشرب.

فقال: إنما أنا حاجب، فلا تحملني على الشراب وما شربته قط.

فقال: اجلس، واشرب.

فامتنع، فما فارقناه حتى صببنا في حلقه القمع، وقام وهو سكران.

وقال: وكان ينادمه القاسم بن الطويل العبادي، وكان أديباً طرباً كثير الشراب، وكان لا يصبر عنه.

وطرب ليلة طرباً شديداً إلى أن غلبه السكر فنام في موضعه وانصرف ابن الطويل، فلما أفاق سأل عنه، فعُرِّفَ خبر انصرافه. فغضب، وقال...[٤] لغلام/ [٣١/ب]

---

(١) قال ابن واصل الحموي في تجريد الأغاني (ص ٢٠١٦) في أخبار شعب الطامع: هو أشعب بن جبير، واسمه شُعيب، وكنيته أبو العلاء. وكان يقال لأمه: أم الجلندح. وقيل: بل أم حميدة، مولاة أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما واسمها حميدة. وكان أبوه خرج مع المختار بن أبي عبيدة، فأسرع مصعب بن الزبير فضرب عنقه صبراً، وقال: تخرج عليّ وأنت مولاي؟!
ونشأ أشعب بالمدينة في دار آل أبي طالب، وتولت تربيته عائشة بنت عثمان بن عفان رضي الله عنه... وذكر أن أشعب كان يقرأ القرآن، وكان حسن الصوت، وروى شيئاً من الحديث.
... وحكي عن الأصمعي قال: رأيت أشعب يغني، وكان صوته بلبل.
وهو مشهور بنوادر الطمع والتطفل والإلحاح في الطلب.

(٢) هو مُغني أيضاً من مشاهير المغنين.

(٣) زيادة يتطلبها السياق.

(٤) موضع النقط طمس في المخطوط.

كان. . .(١): ائتني برأسه.

فمضى حتى ضرب عنقه وأتى برأسه فوضعه بين يديه، فلما أفاق أنكره، وسأل عن الخبر، فعُرِّفَ، واسترجع. . .(١) فجعل يقلِّب رأسه بين يديه ويبكي، ثم دخل إلى جواريه، فقلن له: ما أبكاك؟ فقال: كيف الحياة بعد الخليل بن الطويل. ولم يعش بعده إلاَّ يسيراً حتى قُتل.

قلت: ونبرأ إلى الله من عهدة شيء مما ذُكر، وإنما نقلده ذمّة ناقله حسبما ذكره صاحب الجامع الكبير الإمام أبو الفرج الأصفهاني.

قال: ولما أكثر الوليد التهتك وانهمك في الشراب. . .(١) ملَّ الناس أيامه وكرهوه وكان من أمره ما نذكره بعد.

ذكر أخذ الوليد البيعة لابنيه الحكم وعثمان وتصيير الخلافة إليهما وهما صبيان صغيران لم يبلغا

قال الطبري: وفي سنة خمس وعشرين ومائة عقد الوليد بن اليزيد البيعة للحكم ابنه ولعثمان من بعد الحكم، وكتب بذلك إلى الأمصار، وهذه نسخة الرسالة التي كتبها:

فإن الله تباركت أسماؤه، وجلَّ ثناؤه، اختار الإسلام ديناً لعباده، وبعث به خيرته من خلقه، واصطفى من الملائكة رُسلاً ومن الناس يدعون إلى التي هي أحسن ويهدون إلى صراط مستقيم، حتى انتهت كرامة الله تعالى إلى نبوءته إلى محمد ﷺ على حين ضمور من العلم، وعمى من الناس، وتشتيت بين الناس، وتفرقة من السُّبُل، وطموس من أخلاق الحياة، فأنار الله به الدنيا، وكشف به من العمى، واستنقذ به من الضلالة والردى، وجعله رحمة للعالمين، وختم به وَحْيَه، وجمع له ما أكرم به الأنبياء قبله، وقفى [به](٢) على آثارهم مصدقاً لما أنزل، ومهيماً عليه، داعياً إليه، وآمراً به حتى كان من أجابه من أمَّته وهم الذين أكرمهم الله به، مصدِّقين لما سلف من أنبياء الله ورُسله، فما كذَّبهم فيما. . .(٣) ناصحين لهم فيما اتهموهم فيه، ذابّينَ عن حُرَمِهم التي كانوا لها منتهكين، ومعظِّمين منها ما كانوا له مصغرين، فليس من أمَّة محمد ﷺ/ [١/٣٢] أحد يسمع لأحد من أنبياء الله فيما بعثه الله به مكذِّباً، ولا له مؤذياً بتسفيه له أورد عليه أو جحد لما أنزل الله معه. ثم أن الله استخلف خُلفاءه على

(١) موضع النقط طمس في المخطوط.
(٢) زيادة يتطلبها السياق.
(٣) طمس بالمخطوط.

منهاج نبوءته حتى قبض نبيه ﷺ فختم به وحيه لإبانة حكمه، وإقامة سننه، وحدوده، والأخذ بهما. واستخلف بعده الخلفاء تأييداً بهم للإسلام وتسديداً بهم لعراه وتقوية بهم لقوى جنابه، ودفعاً بهم عن حدوده، وعدلاً بهم بين عباده، وإصلاحاً بهم لبلاده، فإنه تبارك وتعالى يقول: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥١].

وتابع خلفاء الله على ما أوردهم عليه من أمر أنبيائهم واستخلفوهم عليه، فلا يتعرَّض لحقهم أحد إلا صُيِّر عدو الله، ولا يفارق جماعتهم أحدٌ إلاَّ أهلكه الله، ولا يستخف بولايتهم ويتهم قضاء الله فيهم إلاّ أمكنهم الله منه وسلطهم عليه وجعله نكالاً وعظة لغيره، وكذلك صنيع الله بمن فارق الجماعة التي أمر الله بلزومها والأخذ بها، والأثرة بها، والتي بها قامت السموات والأرض، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فُصِّلَت: الآية ١١]، وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٠].

فبالخلافة أبقى الله في الأرض من عباده، وبطاعة من ولاهم إياها سعد من ألهمه نصرها ووفَّق لها، فإن الله عزَّ وجلَّ علم أن لا قوام لشيء ولا صلاح له إلاَّ بالطاعة التي يحفظ الله بها حقَّه، ويمضي بها أمره، ويُنكل بها عن معاصيه، ويوقف عن حرماته، فمن أخذ بحظه منها كان له ولياً، ولأمره مطيعاً، ولرشده مصيباً، ولعاجل الخير وآجله مخصوصاً، ومن تركها عمداً أو حادَّ الله فيها أضاع نصيبه، وعصى ربه، وخسر دنياه وآخرته، وكان ممن غلبت عليه الشقوة، واستحوذت عليه الأمور التي تُورد أهلها أفظع المشارع وتسوقهم إلى أسوأ/ المكاره. [٣٢/ب]

...[1] ثم إن الله، وله الحمد والمن والفضل، هدى الأمة لأفضل الأمور، وحقن دمائها، والتئام إلفتها، واجتماع كلمتها، واعتدال عمودها، وإصلاح دعائمها. وذخر النعمة عليها في دنياها بعد خلافته التي جعلها الله لهم نظاماً ولأمورهم خطاماً ألا وهو العهد الذي ألهم الله خلفاءه إلى توطيده، والنظر للمسلمين في دينهم بعده، وتوكيده ليكون لهم ما يحدث لخلفائه ثقة في المفزع وملتجأ وصلاحاً لذات البين وتثبيتاً لأرجاء الإسلام، وقطعاً لنزغات الطامعين فيما يتطلع إليه أولياءه، وينازعهم عليه، وحفظاً من تلف هذا الدين وانصداع شعب أهله واختلافهم فيما جعلهم الله عليه منه، فلا يريهم الله في ذلك إلاّ كذب أمانيهم، ويجدون الله قد أحكم بما قضى

---

(١) طمس في المخطوط.

من ذلك عقده ونفى عنهم من أراد فيها إدغالاً وبها إعلالاً، ولما شدَّد الله منها اعتماراً أكمل الله بها الخلافة، وسبَّب لهم من إعزازه وإكرامه وإعلائه وتمكينه باب هذا العهد من تمام الإسلام وكمال ما استوجب الله على أهله من المنن العظام/ [٣٣/أ] ومما جعل الله فيه لمن أجراه على يديه، وقضى على لسانه، لنصر الدين وعزِّ المسلمين أحسن الأجر الذي به وُسِمَت وجوهكم وتلتقي نواصيكم في أمر دينكم، وإن فيه من الدنيا بلاءً حسناً في سعة العافية، فأنتم حقيقون بشكر الله على قيام خليفتكم بأمر جماعتكم من أن تهلك، وجديرون بمعرفة كنه واجب حقه عليكم وطاعته على الذين عزم عليه فيكم، فلتكن منزلته لكم منكم، وفضيلته في أنفسكم على قدر حسن بلائه عندكم إن شاء الله.

ثم إن أمير المؤمنين لم يكن قد استخلفه الله تعالى لشيء من الأمور أشد عليه من هذا العهد؛ لعلمه بمنزلته من أمر المسلمين وبما أراهم الله فيه من الأمور التي يغتبطون بها وبما يقضي لهم ويختار له ولهم فيه، ويستقضي له ولهم فيه الأئمة وولاة الحكم، وعنده علم الغيب، وهو على كل شيء قدير، ونسأله أن يعلِّمه مناصحة المسلمين عامة.

وقد رأى أمير المؤمنين أن يعهد إليكم عهداً بعهده، كونوا فيه على مثل ما كان عليه من قبلكم في مثله من انعقاد الأمل، وطمأنينة الأنفس، وصلاح ذات البين، وعلم مواضع الأمر الذي جعله لأهله رعاية وصلاحاً، ولكل منافق فاسق يُحب إتلاف هذا الدين وفساد أهله، وقد ولَّى أمير المؤمنين ذلك الحكم ابن أمير المؤمنين، ثم أخاه عثمان ابن أمير المؤمنين، وهما ممن يرتجى أن يكونا لله رضاً ولصالح المؤمنين مقنعاً لما جمع الله فيهما من وفاء الرأي وصحة الدين وجزالة المروءة والمعرفة في صالح الأمر، وليتم لكم أمير المؤمنين ولنفسه في ذلك خيراً، فبايعوا للحكم ابن أمير المؤمنين باسم الله وبركته ولأخيه من بعده على السمع والطاعة، وأجدوا في ذلك/ [٣٣/ب] أحسن ما كان، والله يرعاكم ويثبتكم ويعزكم ويقويكم في مستقبلكم وفيما مضى، . . .[1] وقد سبق لكم في ذلك من نِعَم الله وحسن قسمته بما أنتم حقيقون أن يكون جزاؤكم عليه بقدر ما أبلاكم عليه وصنعَ لكم فيه.

وأمير المؤمنين أولى بأن يجعل الأمر مكانه من أهل بيته وولده ويقدمه بين يدي الباقي منهما لو يؤخره بعده، واعلموا أن الحُكم لله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة، فاسألوه أن يبارك لأمير المؤمنين ولكم في الذي اختاره لكم وقدَّر منه أن يجعل عاقبته عافية وسرور وغبطة، فإن ذلك سرَّه لا يملكه إلاَّ هو، ولا يرغب فيه إلاَّ إليه.

---

(١) طمس في المخطوط.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وذلك في يوم الثلاثاء لثمان بقين من رجب سنة خمس وعشرين ومائة.

وكان العهد الذي كتب به إلى العمال وأمر أن يبايعوا عليه الناس بعد:

بسم الله الرحمن الرحيم

تبايعوا لعبد الله الوليد أمير المؤمنين، وللحكم ابن أمير المؤمنين من بعده، ولعثمان ابن أمير المؤمنين بعد الحكم على السمع والطاعة، فإن حدث بهما حدث فأمير المؤمنين أملك في ولده ورعيته يقدم من أحب ويؤخر من أحب، عليك بذلك عهد الله وميثاقه. ولا خفاء بطول هذا المكتوب وجفائه وكونه مما يُنكر على دول الفصاحة والإيجاز، وتخير الألفاظ ودرب الفضول، إلاَّ أن الإطالة والتكرار قلَّ أن ينكرا في الوثائق والعهود، والله يتجاوز عن الجميع برحمته.

وتمت هذه البيعة لهاذين الوليدين الصغيرين وكانا لم يُقاربا الاحتلام، فما امتنع عليهما أحد، والجيل موفور من أعمامهما وأبناء أعمامهما بني عبد الملك بن مروان، وسواهم، وذلك مشهور في كتب التاريخ.

وعن المدائني قال: حدثني بعض موالي الوليد قال: دخلت إليه وقد عقد البيعة لابنيه بعده، فقلت: يا أمير المؤمنين أقول قول الموثوق بنصيحته/ [٣٤/أ] أم يسعني السكوت؟

قال: قل قول الموثوق بنصيحته.

فقلت: . . . .[١].

ثم أمضى ذلك، وهي أول بيعة في الإسلام - أعني بيعة الوليد لابنيه بعده لمن لم يبلغ الحلم - ولأقاربه من بعد يزيد بن معاوية بن يزيد، وكتب في تولي ذلك لمن أراد أن يتأسى به أو يقتدي.

وكان مآل أمرهما بعد قيام اليزيد بن الوليد ابن عم أبيهما على أبيهما وقتله إياه[٢] ما يأتي التعريف به في دولة يزيد الآتية بعد هذه.

---

(١) موضع النقط طمس يتخلله كلام مفاده نصيحة منه للوليد بأن ذلك يجر على ولديه الأذى، وتضمنه شعر، غير أن الوليد لم يأخذ بتلك النصيحة وأمضى ما عزم عليه. وفي الكامل هو سعيد بن بيهس، وذكر أنه حبسه حتى مات في الحبس.

(٢) ذكر ابن الأثير في الكامل قتل الوليد بن يزيد في أحداث سنة ست وعشرين ومائة، فقال: قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذي يقال له: الناقص، في جمادى الآخرة، وكان سبب قتله ما تقدم ذكره من خلاعته ومجانته، فلما وَلي الخلافة لم يزد من الذي كان فيه من اللهو واللذة، والركوب للصيد، وشرب النبيذ، ومنادمة الفُسّاق إلا تمادياً. فثقل ذلك على رعيته وجنده وكرهوا أمره، وكان

وكان على ما ذكره المؤرخون ممن باشر التعريف به في دولة اليزيد، جماعة من

= أعظمه ما جنى على نفسه من إفساده بني عميه هشام، والوليد، فإنه أخذ سليمان بن هشام فضربه مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وغرّبه إلى عمان من أرض الشام فحبسه بها، فلم يزل محبوساً حتى قُتل الوليد.

وأخذ جارية كانت لآل الوليد، فكلمه عثمان بن الوليد في ردها. فقال: لا أردها. فقال: إذن تكثر الصواهل حول عسكرك. وحبس الأفقم يزيد بن هشام، وفرّق بين روح بن الوليد وبين امرأته. وحبس عدّة من ولد الوليد فرماه بنو هاشم وبنو الوليد بالكفر، وغشيان أمهات أولاد أبيه. وقالوا: قد اتخذ مائة جامعة لبني أمية، وكان أشدهم فيه يزيد بن الوليد. وكان الناس إلى قوله أميل لأنه كان ظاهر النسك ويتواضع.

وكان قد نهاه سعيد بن بيهس بن صهيب عن البيعة لابنيه الحكم وعثمان لصغرهما، فحبسه حتى مات في الحبس. وأراد خالد بن عبد الله القسري على البيعة لابنيه فأبى، فغضب عليه. فقيل له: لا تخالف أمير المؤمنين. فقال: كيف أبايع من لا أصلي خلفه ولا أقبل شهادته؟ قالوا: فتقبل شهادة الوليد مع فسقه؟! قال: أمير المؤمنين غائب عني وإنما هي أخبار الناس.

ففسدت اليمانية عليه، وفسدت قضاعة، وهم واليمن أكثر جند أهل الشام. فأتى حريث، وشبيب بن أبي مالك الغساني، ومنصور بن جمهور الكلبي، وابن عمه حيال بن عمرو، ويعقوب بن عبد الرحمٰن، وحميد بن منصور اللخمي، والأصبغ بن ذؤالة، والطفيل بن حارثة، والسري زياد إلى خالد بن عبد الله القسري، فدعوه إلى أمرهم فلم يجبهم.

وأراد الوليد الحج فخاف خالد أن يقتلوه في الطريق، فنهاه عن الحجّ فقال: لِمَ؟ فأخبره، فحبسه وأمر أن يطالب بأموال العراق، ثم استقدم يوسف بن عمر من العراق، وطلب منه أن يحضر معه الأموال وأراد عزله وتولية عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف. فقدم يوسف بأموال لم يحمل من العراق مثلها. فلقيه حسان النبطي، فأخبره أن الوليد يريد أن يولي عبد الملك بن محمد، وأشار عليه أن يحمل الرشاء إلى وزرائه، ففرق فيهم خمسمائة ألف. وقال له حسان: اكتب على لسان خليفتك بالعراق كتاباً: إني كتبت إليك ولا أملك إلاّ القصر، وادخل على الوليد والكتاب معك مختوماً واشتر منه خالداً. ففعل، فأمره الوليد بالعود إلى العراق، واشترى منه خالداً القسري بخمسين ألف ألف فدفعه إليه فأخذه معه في محمل بغير وطاء إلى العراق. فقال بعض أهل اليمن شعراً على لسان الوليد يحرّض عليه اليمانية. وقيل: إنها للوليد يوبّخ اليمن على ترك نصر خالد:

ألم تهتج فتذكر الوصالا وحبلاً كان متصلاً فزالا

في أبيات تركت ذكرها لعدم الإطالة، وأُجيب عليه بأبيات من حمزة بن بيض، ثم قال ابن الأثير مستأنفاً الخبر. فأتت اليمانية يزيد بن الوليد بن عبد الملك فأرادوه على البيعة، فشاور عمر بن يزيد الحكمي فقال له: لا يبايعك الناس على هذا، وشاور أخاك العباس، فإن بايعك لم يخالفك أحد وإن أبى كان الناس له أطوع. فإن أبيت إلاّ المضي على رأيك فأظهر أن أخاك العباس قد بايعك.

وكان الشام وبيئاً، فخرجوا إلى البوادي وكان العباس بالقسطل، ويزيد بالبادية أيضاً بينهما أميال يسيرة. فأتى يزيد أخاه العباس، فاستشاره فنهاه عن ذلك، فرجع وبايع الناس سراً وبث دعاته فدعوا الناس. ثم عاود أخاه العباس فاستشاره ودعاه إلى نفسه فزجره، وقال: إن عدت لمثل هذا لأشدنك وثاقاً وأحملنك إلى أمير المؤمنين. فخرج من عنده، فقال العباس: إني لأظنه أشأم مولود في بني مروان.

=

الأعلام منهم: محمد بن شهاب الزهري، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، وأبو

= وبلغ الخبر مروان بن محمد بأرمينية، فكتب إلى سعيد بن عبد الملك بن مروان يأمره أن ينهي الناس ويكفهم ويحذرهم الفتنة ويخوّفهم خروج الأمر عنهم. فأعظم سعيد ذلك، وبعث الكتاب إلى العباس بن الوليد، فاستدعى العباس يزيد وتهدده فكتمه يزيد أمره فصدقه. وقال العباس لأخيه بشر بن الوليد: إني أظن أن الله قد أذن في هلاككم يا بني مروان:

إنـي أُعـيـذكـم بـالـلّـه مـن فـتـن ... مـثـل الـجـبـال تـسـامـى ثـم تـنـدفـع

في أبيات. فلما اجتمع ليزيد أمره وهو متبد، أقبل إلى دمشق وبينه وبين دمشق أربع ليال متنكراً في سبعة نفر على حمير، فنزلوا بجرود على مرحلة من دمشق. ثم سار فدخل دمشق وقد بايع له أكثر أهلها سراً وبايع أهل المزة، وكان على دمشق عبد الملك محمد بن الحجاج، فخاف الوباء فخرج منها فنزل قطناً واستخلف ابنه على دمشق وعلى شرطته أبو العاج كثير بن عبد الله السلمي. فأجمع يزيد على الظهور، فقيل للعامل: إن يزيد خارج، فلم يصدق.

وراسل يزيد أصحابه بعد المغرب ليلة الجمعة، فكمنوا عند باب الفراديس حتى أذن للعشاء، فدخلوا فصلوا وللمسجد حرس قد وكلوا بإخراج الناس منه بالليل، فلما صلّى الناس أخرجهم الحرس، وتباطأ أصحاب يزيد حتى لم يبق في المسجد غير الحرس وأصحاب يزيد، فأخذوا الحرس، ومضى يزيد بن عنبسة إلى يزيد بن الوليد فأعلمه وأخذ بيده. فقال: قم يا أمير المؤمنين وابشر بنصر الله وعونه. فقام، وأقبل في اثني عشر رجلاً. فلما كان عند سوق الحمر لقوا أربعين رجلاً من أصحابهم ولقيهم زهاء مائتي رجل، فمضوا إلى المسجد فدخلوه وأخذوا باب المقصورة فضربوه.

فقالوا: رسل الوليد. ففتح لهم الباب خادم فأخذوه، ودخلوا فأخذوا أبا الحاج وهو سكران، وأخذوا خزائن بيت المال. وأرسل إلى كل من كان يحذره فأخذه، وقبض محمد بن عبيدة وهو على بعلبك، وأرسل بني عذر إلى محمد بن عبد الملك بن محمد بن الحجاج فأخذوه. وكان بالمسجد سلاح كثير فأخذوه. فلما أصبحوا جاء أهل المزة، وتتابع الناس، وجاءت السكاسك. وأقبل أهل داريا، ويعقوب بن محمد بن هانىء العبسي، وأقبل عيسى بن شبيب التغلبي في أهل دومة، وحرستا، وأقبل حميد بن حبيب النخعي في أهل ديرمران، والأرزة، وسطرا، وأقبل أهل جرش، وأهل الحديثة، ودير زكا، وأقبل ربعي بن هاشم الحارثي في الجماعة من بني عذرة، وسلامان، وأقبلت جهينة ومن والاهم.

ثم وجّه يزيد بن الوليد بن عبد الملك عبد الرحمٰن بن مصادف في مائتي فارس ليأخذوا عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف من قصره، فأخذوه بأمان، وأصاب عبد الرحمٰن خُرجين في كل واحد منهما ثلاثون ألف دينار. فقيل له: خذ أحد هذين الخرجين. فقال: لا تتحدث العرب عني أني أول من خان في هذا الأمر. ثم جهّز يزيد جيشاً وسيّرهم إلى الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وجعل عليهم عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك.

وكان يزيد لما ظهر بدمشق سار مولى للوليد إليه فأعلمه الخبر وهو بالأغدف من عمان، فضربه الوليد وحبسه، وسير أبا محمد عبد الله بن يزيد بن معاوية إلى دمشق، فصار بعض الطريق، فأقام، فأرسل إليه يزيد بن الوليد عبد الرحمٰن بن مصادف، فسأله أبو محمد ثم بايع ليزيد بن الوليد. ولما أتى الخبر إلى الوليد قال له يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية: سر حتى تنزل حمص فإنها حصينة، ووجه الخيول إلى يزيد فيقتل أو يؤسر.

إسحاق بن يسار مولى قيس بن مخرمة، والإمام الأوزاعي أبو عمرو بن عبد

= فقال عبد الله بن عنبسة بن سعد بن العاص: ما ينبغي للخليفة أن يدع عسكره ونساءه، قبل أن يقاتل، والله يؤيد أمير المؤمنين وينصره. فقال يزيد بن خالد: وما نخاف على حرمه، وإنما أتاه عبد العزيز وهو ابن عمهن، فأخذ بقول ابن عنبسة، وسار حتى أتى البخراء، قصر النعمان بن بشير، وسار معه من ولد الضحاك بن قيس أربعون رجلاً، فقالوا له: ليس لنا سلاح، فلو أمرت لنا بسلاح فما أعطاهم شيئاً، ونازله عبد العزيز. وكتب العباس بن الوليد بن عبد الملك إلى الوليد: إني آتيك. فقال الوليد: أخرجوا سريراً، فأخرجوه فجلس عليه وانتظر العباس، فقاتلهم عبد العزيز، ومعه منصور بن جمهور، فبعث إليهم عبد العزيز زياد بن حصين الكلبي، يدعوهم إلى كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ، فقتله أصحاب الوليد، واقتتلوا قتالاً شديداً.

وكان الوليد قد أخرج لواء مروان بن الحكم الذي كان عقده بالجابية. وبلغ عبد العزيز مسير العباس إلى الوليد، فأرسل منصور بن جمهور إلى طريقه، فأخذوه قهراً، وأُتي به عبد العزيز، فقال له: بايع لأخيك يزيد. فبايع ووقف ونصبوا راية وقالوا: هذه راية العباس قد بايع لأمير المؤمنين يزيد. فقال العباس: إن لله خدعة من خدع الشيطان، هلك بنو مروان. فتفرّق الناس عن الوليد وأتوا العباس وعبد العزيز.

وأرسل الوليد إلى عبد العزيز يبذل له خمسين ألف دينار، وولاية حمص ما بقي، ويؤمنه من كل حدث على أن ينصرف عن قتاله، فأبى ولم يجبه. فظاهر الوليد بين درعين، وأتوه برفسية السندي والراية، فقاتلهم قتالاً شديداً، فناداهم رجل: اقتلوا عدو الله قتلة قوم لوط، ارجموه بالحجارة. فلما سمع ذلك دخل القصر، وأغلق عليه الباب وقال:

دعوا لي سلمى والطلاء وقينة ... وكأساً ألا حسبي بذلك مالا
إذا ما صفى عيسى برملة عالج ... وعانقت سلمى ما أريد بدالا
خذوا ملككم لاثبت اللّه ملككم ... ثبات يساوي ما حييت عقالا
وخلوا عناني قبل عير وما جرى ... ولا تحسدوني أن أموت هزالا

فلما دخل القصر وأغلق الباب، أحاط به عبد العزيز، فدنا الوليد من الباب وقال: أما فيكم رجل شريف له حسب وحياء أكلمه؟ قال يزيد بن عنبسة السكسكي: كلمني. قال: يا أخا السكاسك، ألم أزد في أعطياتكم؟ ألم أرفع المؤنة عنكم؟ ألم أعط فقراءكم؟ ألم أخدم زمناكم؟ فقال: إنّا ما ننقم عليك في أنفسنا إنما ننقم عليك في انتهاك ما حرّم الله وشرب الخمر ونكاح أمهات أولاد أبيك واستخفافك بأمر الله. قال: يا أخا السكاسك، فلعمري لقد أكثرت وأغرقت، وإن فيما أحل الله سعة عما ذكرت.

ورجع إلى الدار، وجلس وأخذ مصحفاً، ونشره يقرأ فيه، وقال: يوم كيوم عثمان. فصعدوا على الحائط، وكان أول من علاه يزيد بن عنبسة، فنزل إليه، فأخذه بيده، وهو يريد أن يحبسه، ويؤامره فيه. فنزل من الحائط عشرة منهم منصور بن جمهور، وعبد السلام اللخمي، فضربه عبد السلام اللخمي على رأسه، وضربه السندي بن زياد بن أبي كبشة في وجهه، واحتزوا رأسه، وسيَّروه إلى يزيد، فأتاه الرأس وهو يتغدى فسجد. وحكى له يزيد بن عنبسة ما قاله للوليد. قال: آخر كلامه: الله لا يرتق فتقكم، ولا يلم شعثكم، ولا يجمع كلمتكم. فأمر يزيد بنصب رأسه. فقال له يزيد بن فروة مولى بني مرة: إنما تنصب رؤوس الخوارج، وهذا ابن عمك وخليفة، ولا آمن إن نصبته أن ترقّ له قلوب الناس ويغضب له أهل بيته. فلم يسمع منه ونصبه على رمح وطاف به في دمشق، ثم =

الرحمٰن بن عمر إمام أهل الشام، وعلى مذهبه كان العمل بالأندلس قبل اشتهار أصحاب مالك بها، والليث بن أبي أسامة مولى عنبسة بن أبي سفيان، وأبو عمرو بن العلاء أحد الأئمة السبعة، وابن شبرمة، وابن أبي ليلى، وربيعة مولى المنكدر، وزيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب، وسفيان الثوري، ومالك بن أنس رضي الله عنه.

وحسبك بهؤلاء الأئمة، وبرد بن سنان، وحيوة بن شريح وأمثالهم.

ولولا أن يطول الكتاب لجلبنا أسماء آلاف من الفضلاء والعلماء، وكانوا على عهد ذلك رحمة الله عليهم أجمعين.

وكانت وفاة الوليد، غفر الله لنا وله، يوم الخميس لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة للهجرة.

دولة يزيد بن الوليد بن عبد الملك ابن مروان بن الحكم[1]

/ يكنى أبا خالد. [٣٤/ب]

= أمر به أن يدفع إلى أخيه سليمان بن يزيد، فلما نظر إليه سليمان قال: بعداً له أشهد أنه كان شروباً للخمر ماجناً فاسقاً، ولقد أرادني في نفسي الفاسق.

وكان سليمان ممن سعى في أمره، وكان مع الوليد مالك بن أبي السمع المُغني، وعمرو الوادي المُغني أيضاً. فلما تفرّق عن الوليد أصحابه وحصر، قال مالك لعمرو: اذهب بنا. فقال عمرو: ليس هذا من الوفاء، نحن لا يعرض لنا، لأنا لسنا ممن يقاتل. فقال مالك: والله لئن ظفروا بك وبي لا يقتل أحد قبلي وقبلك، فيوضع رأسه بين رأسينا، ويقال للناس: انظروا من كان معه في هذه الحال، لا يعيبونه بشيء أشد من هذا، فهربا.

وكان قتله لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين. وكانت مدة خلافته سنة وثلاثة أشهر. وقيل: سنة وشهرين، واثنتين وعشرين يوماً. وكان عمره اثنتين وأربعين سنة. وقيل: قُتل وهو ابن ثمان وثلاثين سنة. وقيل: إحدى وأربعين سنة. وقيل: ست وأربعين سنة.

(١) مصادر ترجمته كثيرة نذكر منها: سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٧٤)، تاريخ خليفة (٣٦٨)، تاريخ اليعقوبي (٣/ ٧٤)، البداية والنهاية (١٠/ ١١)، الكامل في التاريخ في أحداث سنة (١٢٦)، الطبري في حوادث سنة (١٢٦)، النجوم الزاهرة (١/ ١٢٦)، تاريخ الخميس (٢/ ٣٢١). ويقول الذهبي في سير الأعلام في ترجمته: أبو خالد القرشي، الأموي، الدمشقي، الملقب بالناقص، لكونه نقص عطاء الأجناد. توثب على ابن عمه الوليد بن يزيد، وتم له الأمر، واستولى على دار الخلافة في سنة ست وعشرين، ولكنه ما مُتّع ولا بلع ريقه..

وقال خليفة بن خياط: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن أبيه قال: إن يزيد بن الوليد خطب عند قتل الوليد فقال: إني والله ما خرجت أشراً ولا بطراً ولا حرصاً على الدنيا، ولا رغبة في المُلك، وإني لظلوم لنفسي إن لم يرحمني ربي، ولكني خرجت غضباً لله ولدينه، وداعياً إلى كتاب الله وسنة نبيه

ولد بأرمينية، من ولد فيروز بن يزدجرد. وهو أول مَلِك في الإسلام.

وقام على الوليد منكراً لما اشتهر به من البطالة، فلما استجمع له أمره وهو منتبذ عن دمشق وبين البادية أربع ليال، فأقبل متنكراً في سبعة أنفس على حُمر.

وكان الوليد أيضاً منتبذاً عن دمشق في صيده ولهوه، فدخل دمشق اليزيد وقد بايع له أكثر أهلها.

وعلى دمشق يومئذ عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف.

فصلّى اليزيد مع بعض أصحابه بمسجدها، فلما فرغ الناس صاح بهم الحرس، فجعلوا يخرجونهم من باب ويدخلون من غيره حتى لم يبق في المسجد إلاّ الحرس وأصحاب يزيد، فقبضوا على الحرس، وأتوا باب المقصورة وهو متصل بدار الخلافة، فقرعُوه وقالوا: نحن رُسُل الوليد في مهمة. ففتح لهم خادم الباب، فدخلوا، وقبضوا على من كان به. وكان في المسجد سلاح كثير قدم به سليمان بن هشام من الجزيرة فأخذوه واستظهروا به.

= حين درست معالم الهدى، وطفىء نور أهل التقوى، وظهر الجبّار المستحلّ للحرمة، والراكب البدعة، فأشفقت إذ غشيكم ظلمه أن لا يُقلع عنكم من ذنوبكم، وأشفقت أن يدعو أناساً إلى ما هو عليه، فاستخرت الله ودعوت من أجابني، فأراح الله منه البلاد والعباد. أيها الناس، إن لكم عندي إن وليت أن لا أضع لبنة على لبنة، ولا أنقل مالاً من بلد إلى بلد حتى أسد الثغور، فإن فضل شيء رددته إلى البلد الذي يليه حتى تستقيم المعيشة، وتكون فيه سواء، فإن أردتم بيعتي على الذي بذلت لكم فأنا لكم، وإن ملتُ فلا بيعة لي عليكم، وإن رأيتم أقوى مني عليها فأردتُم بيعته فأنا أول من يبايع، ويدخل في طاعته، وأستغفر الله لي ولكم.

قال عثمان بن أبي العاتكة: أول من خرج بالسلاح في العيد، يزيد بن الوليد، خرج بين صفين من الخيل في السلاح من باب الحصن إلى المصلى. وعن أبي عثمان الليثي: أن يزيد الناقص قال: يا بني أمية، إياكم والغناء، فإنه يُنقص الحياء ويزيد في الشهوة، ويهدم المروءة، وينوب عن الخمر، فإن كنتم لا بد فاعلين، فجنبوه النساء، فإن الغناء داعية الزنا. قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: سمعت الشافعي يقول: لما ولي يزيد بن الوليد، دعا الناس إلى القَدَرِ، وحملهم عليه، وقرب غيلان القدري ـ أو قال: أصحاب غيلان ـ. قلت: كان غيلان قد صلبه هشام قبل هذا الوقت بمدة.

ومات يزيد الناقص في سابع ذي الحجة سنة ست وعشرين ومائة. فكانت دولته ستة أشهر، ومات وكان شاباً أسمر نحيفاً، حسن الوجه. وقيل: مات بالطاعون، وبويع من بعده أخوه إبراهيم بن الوليد. ودفن بباب الصغير، سامحه الله. وقال ابن الغُوطي في معجم الألقاب: إن لقبه الشاكر لله. ولد سنة ثمانين، وتوفي يوم الأضحى بالطاعون بدمشق. وآخر ما تكلم به: واحسرتاه واأسفاه. ودفن بباب الفراديس. وكان مربوعاً أسمر، خفيف العارضين، فصيحاً شديد العُجب. يقال: نبشه مروان الحمار وصلبه. . وليزيد من الأولاد: خالد، والوليد، وعبد الله، وعبد الرحمٰن، وأصبغ، وأبو بكر، وعبد المؤمن، وعلي.

وقد أسرع إليهم الناس من دون أمرهم. . .[١] ونادى يزيد في العطاء وندب إلى قتل الوليد.

واتصل بالوليد الخبر، فخذله الناس وتقاعدوا عنه، وتحصن ببعض الحصون من نظر حمص، ورام الدفاع عن نفسه، فغلب وكوثر فقعد في بيته، وأخذ المصحف، فنشره وقال: يوم كيوم عثمان.

فقتل وهو ابن اثنين وأربعين سنة. واستولى اليزيد على المُلك، وكان مُتقللاً خيِّراً، إلا أنه كان معتزلي المذهب فيما ذُكر عنه.

وكانت المعتزلة فيما نقل تفضله على عمر بن عبد العزيز.

وهيهات من ذا الذي يفضل عمر ويرجح به.

وكان ولد الوليد حكم وعثمان الذَيْن جلبنا حديث بيعتهما، ممن استأثر بهما سجنه. وكان قريب الوفاة من الولاية. فلما مرض طوق سجنه من شيعة اليزيد بن الوليد المظاهرين على قتل أبيهما من خاف من بقائهما، ورجوع الأمر إليهما على نفسه تهلكاً، عليه رحمة الله.

وكانت وفاة اليزيد بن الوليد حتف أنفه بدمشق مستهل ذي الحجة من سنة ست وعشرين ومائة.

ولما قارب الوفاة عزم أولياؤه عليه في الاستخلاف. فبايع لأخيه إبراهيم بن الوليد.

/ دولة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ابن مروان بن الحكم[٢]

[١/٣٥]

كنيته: أبو إسحاق.

وكان خيِّراً من الضعفاء، فاضطربت عليه الأمور، وكثر في أيامه الهرج،

---

(١) طمس بالمخطوط.

(٢) قال ابن الأثير في أحداث سنة ست وعشرين ومائة في ذكره لبيعة إبراهيم بن الوليد بالعهد: أمر يزيد بن الوليد بالبيعة لأخيه إبراهيم ومن بعده لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، وكان السبب في ذلك أن يزيد مرض سنة ست وعشرين ومائة، فقيل له ليبايع لهما، ولم تزل القدرية بيزيد حتى أمر بالبيعة لهما. . . ثم ذكر خلافته فقال فيها: فلما مات يزيد بن الوليد قام بالأمر بعده أخوه إبراهيم، غير أنه لم يتم له الأمر، فكان يسلم عليه تارة بالخلافة، وتارة بالإمارة، وتارة لا يسلم عليه بواحدة منهما. فمكث أربعة أشهر، وقيل: سبعين يوماً. ثم سار إليه مروان بن محمد فخلعه على ما نذكره، ثم لم يزل حياً حتى أصيب سنة اثنتين وثلاثين، وكنيته أبو إسحاق، وأمه أم ولد.

واختلفت الكلمة، وسقطت الهيبة.

ونازعه الأمر مروان بن عبد الملك وخرج عليه وهزم جيشه وكانوا أزيد من مائة ألف فانخلع سريعاً، وسَلَّم الأمر إلى مروان بن محمد المذكور، وبايعه يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة من صفر سنة سبع وعشرين ومائة[١].

وعاش بعد ذلك إلى أن مات يوم الزاب في حروب مروان بن محمد في طلبه الأمر لنفسه على أبيات منسوبة للحكم بن الوليد الصبي المسجون قالها تحريضاً لمروان لينتقم به من عدوه، وهي:

ألا يا ليت كلباً لم تلدنا وكنا من.............[٢]

---

(١) قال ابن الأثير في أحداث سنة سبع وعشرين في ذكره لمسير مروان إلى الشام وخلع إبراهيم: فلما مات يزيد سار مروان في جنود الجزيرة وخلف ابنه عبد الملك في جمع عظيم على الرقة. فلما انتهى مروان إلى قنسرين لقي بها بشر بن الوليد ـ وكان ولاّه أخوه يزيد قنسرين ـ ومعه أخوه مسرور بن الوليد، فتصافوا، ودعاهم مروان إلى بيعته، فمال إليه يزيد بن عمر بن هبيرة في القيسية، وأسلموا بشراً، وأخاه مسروراً، فأخذهما مروان فحبسهما. وسار معه أهل قنسرين متوجهاً إلى حمص، وكان أهل حمص قد امتنعوا حين مات يزيد من بيعة إبراهيم وعبد العزيز، فوجه إليهم إبراهيم عبد العزيز وجند أهل دمشق، فحاصرهم في مدينتهم، وأسرع مروان السير، فلما دنا من حمص، رحل عبد العزيز عنها، وخرج أهلها إلى مروان فبايعوه، وساروا معه.
ووجه إبراهيم بن الوليد الجنود من دمشق مع سليمان بن هاشم فنزل عين الجر في مائة وعشرين ألفاً، ونزلها مروان في ثمانين ألفاً، فدعاهم مروان إلى الكفّ عن قتاله وإطلاق ابني الوليد: الحكم وعثمان من السجن، وضمن لهم أنه لا يطلب أحداً من قتله الوليد، فلم يجيبوه وجدّوا في قتاله، فاقتتلوا ما بين ارتفاع النهار إلى العصر، وكثر القتل بينهم، وكان مروان ذا رأي ومكيدة، فأرسل ثلاثة آلاف فارس فساروا خلف عسكره، وقطعوا نهراً كان هناك وقصدوا عسكر إبراهيم ليغيروا فيه. فلم يشعر سليمان ومن معه وهم مشغولون بالقتال إلاّ بالخيل والبارقة والتكبير في عسكرهم من خلفهم. فلما رأوا ذلك انهزموا، ووضع أهل حمص السلاح فيهم لحنقهم عليهم فقتلوا منه سبعة عشر ألفاً. وكفّ أهل الجزيرة وأهل قنسرين عن قتلهم وأتوا مروان من أسرائهم بمثل القتلى وأكثر، فأخذ مروان عليهم البيعة لولدي الوليد، وخلى عنهم، ولم يقتل منهم إلاّ رجلين: يزيد بن العقار، والوليد بن مصاد الكلبيين، وكانا ممن وليا قتل الوليد فحبسهما حتى هلكا في حبسه. وهرب يزيد بن خالد القسري فيمن هرب مع سليمان إلى دمشق، واجتمعوا مع إبراهيم وعبد العزيز بن الحجاج فقال بعضهم لبعض: إن بقي ولد الوليد حتى يخرجهما مروان ويصير الأمر إليهما لم يستبقيا أحداً من قتلة أبيهما، والرأي قتلهما. فرأى ذلك يزيد بن خالد، فأمر بالأسد مولى خالد بقتلهما. فأخرج يوسف بن عمر فضرب رقبته، وأرادوا قتل أبي محمد السفياني، فدخل بيتاً من بيوت السجن، وأغلقه وألقى خلفه الفرش والوسائد واعتمد على الباب، فلم يقدروا على فتحه، فأرادوا إحراقه، فلم يؤتوا بنار حتى قيل: قد دخلت خيل مروان المدينة. فهربوا، وهرب إبراهيم، واختفى، وانتهب سليمان ما في بيت المال، فقسمه في أصحابه، وخرج من المدينة.

(٢) طمس في المخطوط.

أيذهب عامر بدمي وملكي فلا غثّاً أصبت ولا ثمينا
فإن أهلك أنا وولي عهدي فمروان أمير المؤمنينا

فمن أجل هذه ـ فيما زعموا ـ طلب مروان الخلافة بأهل الجزيرة وقنسرين وحمص. . .[١] في محله، وإنما قلنا هذا ليعلم الواقف عليه اعتداد القوم يومئذ ببيعة الوليد للصّغير بحيث إن بني مروان بنوا الطلب بحقه في الخلافة لشعر قاله الصبي هو وأخوه وليّ العهد في السجن، وشمّر لاستخلاصه، مع دينه وفضله فما يبالي هو ومن معه بما في ذلك من المحنة. ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

دولة مروان بن محمد الجعدي[٢]

ويكنى: أبا عبد الملك.

ولقبه: القائم بحق الله.

وكان رجل قومه عزماً وسياسة وتدبيراً للحروب.

وكان يُنبز بالحمار لجِرانه في الحروب، ووقوفه في الهيجاء.

---

(١) كلمة مطموسة بالمخطوط.

(٢) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٦/ ٧٤)، تاريخ خليفة (٤٠٣)، تاريخ الطبري في حوادث سنة (١٠٥، ١١٤، ١٢٦، ١٢٧)، وفي الكامل لابن الأثير في حوادث سنة (١٢٧ وما بعدها حتى سنة ١٣٢)، تاريخ الإسلام (٥/ ٢٢٢، ٩٢٨)، البداية والنهاية (١٠/ ٢٢، ٤٢، ٤٦)، رسالة أسماء الخلفاء (١٢٠).

وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء: أبو عبد الملك الأموي الخليفة، يعرف بمروان الحمار، وبمروان الجعدي نسبة إلى مؤدبه جعد بن درهم. ويقال: اصبر في الحرب من حمار. وكان مروان بطلاً شجاعاً، داهية، رزيناً، جبّاراً يصل السّير بالسُّرى، ولا يجف له لِبْدٌ، دوّخ الخوارج بالجزيرة. ويقال: بل العرب تسمي كل مائة عام حماراً، فلما قارب ملك آل أمية مائة سنة لقبوا مروان بالحمار. وذلك مأخوذ من موت حمار العُزَير عليه السلام وهو مائة عام، ثم بعثهما الله تعالى.

مولد مروان بالجزيرة في سنة اثنتين وسبعين إذ أبوه متوليها، وأمه أم ولد. . وكان أبيض، ضخم الهامة، شديد الشهلة، كثّ اللحية أبيضها، ربعة، مهيباً، شديد الوطأة، أديباً، بليغاً، له رسائل تؤثر. ومع كمال أدواته لم يُرزق سعادة، بل اضطربت الأمور، وولت دولتهم.

بويع بالإمامة في نصف صفر سنة سبع وعشرين ومائة. . قال المدائني: كان مروان عظيم المروءة، محباً للهو، غير أنه شُغل بالحرب، وكان يحب الحركة والسفر. ومن جبروت مروان، أن يزيد بن خالد بن عبد الله القسري الأمير، كان قد قاتله، ثم ظفر به، فأدخل عليه يوماً، فاستدناه، ولفّ على إصبعه منديلاً ورضّ عينه حتى سالت، ثم فعل كذلك بعينه الأخرى، وما نطق يزيد، بل صبر، نسأل الله العافية.

وقيل: إن أم مروان الحمار كُردية يقال لها: لُبابة جارية إبراهيم بن الأشتر، أخذها محمد من عسكر إبراهيم، فولدت له مروان، ومنصوراً، وعبد الله. ولما قتل مروان هرب ابناه: عبد الله وعبيد الله إلى الحبشة، فقتلت الحبشة عبيد الله، وهرب عبد الله، ثم بعد مدة ظفر به المنصور، فاعتقله.

إلاّ أن دولته صادفت الانقضاء لتمام أمر العباسيين على عهده.

وقام عليه سليمان بن هشام، وكانت بينهم حروب عظيمة انجلت عن هزيمة سليمان بن هشام وقتل ثلاثين ألفاً، وقُتل من أصحابه الخوارج ستة آلاف.

وقبض في أيامه على إمام الدعوة العباسية إبراهيم بن إسحاق بن محمد بن علي، وقتله في سجنه، فانتقلت الدعوة إلى أبي العباس أيوب/ بعده، وأقبلت جيوش [٣٥/ب] العباسيين المسودة يتخذون الرايات السود ولباس. . .[١] وكان اللقاء المنجلي عن هزيمة مروان. وأجفل مروان إلى جهة مصر وتلاحق به وقد نزل الزاب الصغير عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس في عساكر أهل خُراسان. وقد عظم على مروان فيها الهزيمة يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

ومضى مروان في هزيمته يتخطى بلاد الشام حتى انتهى إلى مصر فقتل في أحوازها.

قال صاحب البهجة: روى عبد الله بن محمد قال: سألت أبا. . .[٢] الحميري: كم كان جند بني مروان؟

فقال: ثلاثمائة وخمسين ألفاً من أهل الشام، ومائة ألف وخمسين ألفاً من أهل العراق.

فلم تغن العِدةُ والعُدةُ لما انقضت المدة. .[٢].

وكانت هذه الدولة الأموية أوسعَ الدول الإسلامية خطة لاشتمال ملكها على المغرب والأندلس بما لم يكن لغيرها من بعدها، وكان من مفاخرها: معاوية، وعمر بن عبد العزيز، وكفى.

والكون لا بد أن تفسد وأسواق الفضل لا بد أن تكسد.

ومما زعم به المؤرخون بالتجربة أن كل بيوتات الملوك تُختم أسماؤهم إذا انقرضوا بمثل ما ابتدأت به.

فابتدىء بيت معاوية رضي الله عنه من الأمويين باسمه معاوية، وختم باسمه معاوية بن يزيد ولده.

وابتدىء بنو مروان بمروان بن الحكم، وختموا بمروان بن محمد.

ومما وجد ذلك مطرداً في كثير من المواقع، ونحن ننتقل إلى ذكر الدولة العباسية فننبه منها على ما يَخُصّها من طلبتنا، وهي أسماء من بُويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام.

---

(١) طمس بالمخطوط.

(٢) كلمة مطموسة في المخطوط.

ذكر الدولة العباسية بالمشرق

وفيهما ممن جعلنا هذا الكتاب لأجله وهم المبايعون قبل الاحتلام سبعة نفر أولهم: محمد بن الرشيد الملقب بالأمين، وأخوه عبد الله بن الرشيد الملقب بالمأمون، وأخوهما أبا القاسم بن الرشيد، ثم موسى بن الأمين، والمنتصر، والمعتز، والمؤيد، ثم المقتدر أبو جعفر بن المقتصد[١].

ونحن نُلمح بالملوك العباسيين على سبيل الاختصار، ثم نصرح فنفصل القول عند الوصول إلى غرضنا منهم إن شاء الله، ونقول بإعانة الله تعالى:

لما أراد الله جلَّ جلاله انقضاء إمرة بني أمية بانتقال أمرهم إلى غيرهم/ حرك [٣٦/أ] خواطر شيع من الخلق عند ملل الناس لبني أمية، وأمال قلوبهم إلى ذرية العباس عم رسول الله ﷺ واعتقدوا أنهم ظلموا علياً وذريتهم ونجسوا في إرثهم، وعضدوا ذلك بآثار عن رسول الله ﷺ، ووعدوا برد ذلك إليهم، واستدراك الفائت من أمرهم إلى تكهنات وحدثان كثير . . .[٢] والرجوع إليه فيه والأمين للإمامة إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب المسمى بإبراهيم الإمام[٣].

---

(١) كذا ذكر ثمانية أسماء وقد سبق أن قال إنهم سبعة أنفس.

(٢) طمس بالمخطوط.

(٣) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٧٩) في ترجمته: أبو العباس الهاشمي، كان بالحميمة من البلقاء، عهد إليه أبوه بالأمر، وعلم به مروان الحمار، فقتله . . . قال الخُطَبي: أوصى محمد بن علي إلى ابنه إبراهيم فسمي بالإمام بعد أبيه. وانتشرت دعوته بخراسان، ووجه إليها بأبي مسلم والياً على دعاته، فظهر هناك فكان يدعو إلى طاعة الإمام من غير تصريح باسمه إلى أن ظهر أمره، ووقف مروان على أمره، فأخذ إبراهيم وقتله.
قال صالح بن سليمان: كان أبو مسلم يكاتبه، فقدم رسوله فرآه عربياً، فصيحاً، فغمه ذلك. فكتب إلى أبي مسلم: ألم أنهك عن أن يكون رسولك عربياً يطلع على أمرك، فإذا أتاك، فاقتله. فأحسَّ الرسول، ثم قرأ الكتاب، فذهب به إلى مروان. فأخذ إبراهيم فغمَّهُ بحران في مزفقةٍ. ويقال: إن إبراهيم حضر الموسم في حشمه فشهر نفسه، فكان سبباً لأخذه. ويقال: أتته عجوزها شمية تسترفده، فوصلها بمال جزيل، واعتذر. ويذكر أن أبا مسلم صبغ خرقاً سوداً وشدها في رمح، وكانوا يسمعون بحديث رايات سود من قِبل المشرق، فتاقت أنفسهم إلى ذلك، وتبعه عبيد فقال: من يتبعني فهو حرٌ، ثم خرج بهم، فوقعوا بعامل في تلك الكورة فقتلوه، ثم كثروا. ولما قتل إبراهيم قال: الأمر بعدي لابن الحارثية، يعني: السفاح.

وفي سنة ثمان وعشرين ومائة وجّه الإمام إبراهيم أبا مسلم الخراساني المعروف بالسّراج إلى خُراسان وكتب إلى أصحابه ومنتحلي اعتقاده والعالمين بإمامته يقول: إني قد أمرته بأمري، فاسمعوا منه واقبلوا قوله وإني قد أمّرته على خراسان وعلى ما غلب عليه بعد ذلك، وهذا في أيام مروان وعلى حال تشاغل كثير منهم بحروب الشام ومنازعة سليمان بن هشام بن عبد الملك مروان وإياه الملك.

والتأث أمر أبي مسلم إلى السنة بعدها وخرج إلى خراسان، وقد بعث إليه الإمام إبراهيم براية النصر الموعود، وهو لواء يدعى الظل على رمح طوله أربعة عشر ذراعاً، وراية تدعى السحاب على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعاً.

وتأويل هذين الاسمين: الظل والسحاب، أن الدعوة تطبق الأرض وتعمها كما يطبقها ويعمها السحاب والظل.

وكتب إلى سليمان بن كثير بمثل ما كتب إلى أبي مسلم.

وقد كانت اجتمعت لهم أموال وعدّة من سلاح وأثواب. وكان ما اجتمع لهم من المال ثلاثمائة ألف وستين ألف درهم، فوصل أبو مسلم خراسان، ووجّه الدعاة والنقباء إلى بلخ، وإلى طخارستان، والطالقان، وخوارزم، وحَدَّ لهم أن يكون إعلان الدعوة لخمس بقين من رمضان هذه السنة.

وفي ليلة الخميس لخمس بقين، أخرج أبو مسلم الخراساني اللواء المسمّى بالظلّ والراية المسماة بالسحاب، وهو يقول: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحَجّ: الآية ٣٩]. ولبس السواد، وأوقد النيران عامّة ليلته للشيعة، وكانت العلامة، واجتمعوا...[1]. فأمر سليمان بن كثير من رؤوس الدعاة وأكابر أصحاب العباسية أن يصلي به وبالشيعة، ونصب له منبراً وأمره أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة وأن يخطب على المنبر جالساً، وأن يُكبّر/ [٣٦/ب] في الركعة الأولى ست تكبيرات تباعاً، ثم يقرأ ويركع بالسابعة ويكبّر في الركعة الثانية خمس تكبيرات تباعاً، ثم يقرأ ويركع بالسادسة. ويفتتح الخطبة بالتكبير، ثم يختتمها بالتكبير.

فلما قضى سليمان بن كثير الصلاة والخطبة انصرف أبو مسلم والشيعة إلى خباء قد أعدّه لهم أبو مسلم، فطعموا مستبشرين. ثم انتشرت الدعوة، واتسمت بالظهور، فأذن الله بالإدالة.

وكتب نصر بن سيّار أمير مروان على العراق يخبره بخبر أبي مسلم وظهوره

---

(١) طمس بالمخطوط.

وقوته وأنه يدعو إلى إبراهيم الإمام ابن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وكتب إليه بهذه الأبيات:

أرى خلل الرماد وميض نار ... يوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تذكى ... وإنّ الحرب أوّلها الكلام
أقول من التعجب ليت شعري ... أأيقاظ أمية أم نيام
فإن كانوا لحينهم نياما ... فقل قوموا فقد حان القيام
[ففرّي عن رحالك ثم قولي ... على الإسلام والعرب السلام[١]]

فسيَّر مروان الكتب في [طلب][٢] إبراهيم بن محمد، وكان مستتراً بأحواز البلقاء من دمشق. فتوجه عامل البلقاء في طلبه، فأتى إبراهيم وهو في مسجده فأخذه وكتفه وحمله إلى مروان. فحبسه مروان في السجن حتى مات مغتالاً بأمر مروان[٣].

---

(١) هذا البيت زيادة من كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري (٢/ ١٣٨).

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

(٣) قال ابن الأثير في ذكره لقتل إبراهيم الإمام في أحداث سنة اثنين وثلاثين ومائة: اختلف الناس في موته فقيل: إن مروان حبسه بحران، وحبس سعيد بن هشام بن عبد الملك وابنيه: عثمان، ومروان، وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز، والعباس بن الوليد بن عبد الملك، وأبا محمد السفياني، هلك منهم في وباء وقع بحران العباس بن الوليد، وإبراهيم بن محمد بن علي الإمام، وعبد الله بن عمر.

فلما كان قبل هزيمة مروان من الزاب بجمعة خرج سعيد بن هشام وابن عمه ومن معه من المحبوسين فقتلوا صاحب السجن، وخرجوا، فقتلهم أهل حران ومن فيها من الغوغاء. وكان فيمن قتله أهل حران شراحيل بن مسلمة بن عبد الملك، وعبد الملك بن بشر التغلبي، وبطريق أرمينية الرابعة ـ واسمه كوشان ـ وتخلف أبو محمد السفياني في الحبس، فلم يخرج فيمن خرج ومعه غيره لم يستحلوا الخروج من الحبس فقدم مروان منهزماً من الزاب، فجاء فخلى عنهم. وقيل: إن مروان هدم على إبراهيم بيتاً فقتله.

وقد قيل: إن شراحيل بن مسلمة بن عبد الملك كان محبوساً مع إبراهيم، فكانا يتزاوران فصار بينهما مودة، فأتى رسول من شراحيل إلى إبراهيم يوماً بلبن فقال: يقول لك أخوك: إني شربت من هذا اللبن فاستطبته، فأحببت أن تشرب منه. فشرب منه فتسكر جسده من ساعته ـ وكان يوماً يزور فيه شراحيل فأبطأ عليه ـ فأرسل إليه شراحيل: إنك أبطأت فما حبسك؟ فأعاد إبراهيم: إني لما شربت اللبن الذي أرسلت به قد أسهلني. فأتاه شراحيل، فقال: والله الذي لا إله إلا هو ما شربت اليوم لبناً، ولا أرسلت به إليك، فإنا لله وإنا إليه راجعون، احتيل والله عليك. فبات إبراهيم ليلته وأصبح ميتاً من الغد. فقال إبراهيم بن هرثمة يرثيه:

قد كنت أحسبني جلداً فضعضعني ... قبر بحران فيه عصمة الدين
فيه الإمام وخير الناس كلهم ... بين الصفائح والأحجار والطين
فيه الإمام الذي عمت مصيبته ... وعيّلت كل ذي مال ومسكين
فلا عفا الله عن مروان مظلمة ... لكن عفا الله عمّن قال آمين

ولما أُخذ الإمام إبراهيم كتب إلى الأفاق ينعي إليهم نفسه، ويأمرهم بالخروج إلى الكوفة مع أخيه أبي العباس بعهده، وقد جعله الخليفة من بعده، وأمر الدُّعاة أن يسمعوا منه ويطيعوا. فشخص عند ذلك [هو][١] ومن معه من أهل بيته إلى الكوفة، وفيهم أعمامه عبد الله، وداود، وعيسى، وصالح، وغيرهم.

فأسر لهم أبو مسلم الدَّاعي واتصل بالشيعة أن الإمام قدم الكوفة، فاستبشروا ووفد عليه وجوههم وصارت البيعة إلى أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد بن علي، فتربع.

ولما ظهر أمر العباسية ودخل الناس في بيعتهم جهَّز أبو العباس السفاح الجيوش إلى مروان مع عمه صالح، وعمه عبد الله، وكان من استيلائهم على أمره، وقتلهم إياه بأحواز مصر ما هو معلوم[٢].

= وكان إبراهيم خيِّراً فاضلاً كريماً، قدم المدينة مرة ففرق في أهلها مالاً جليلاً، وبعث إلى عبد الله بن الحسن بن الحسن بخمسمائة دينار، وبعث إلى جعفر بن محمد بألف دينار، وبعث إلى جماعة العلويين بمال كثير. فأتاه الحسين بن زيد بن علي، وهو صغير، فأجلسه في حجره، قال: من أنت؟ قال: أنا الحسين بن زيد بن علي. فبكى حتى بلَّ رداءه، وأمر وكيله بإحضار ما بقي من المال، فأحضر أربعمائة دينار فسلمه إليه وقال: لو كان عندنا شيء آخر لسلمته إليك. وسَيّر معه بعض مواليه إلى أمه ريطة بنت عبد الملك بن محمد ابن الحنفيَّة يعتذر إليها. وكان مولده سنة اثنتين وثمانين، وأمه أم ولد بربرية، اسمها سلمىٰ.

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) قال ابن الأثير في أحداث سنة اثنتين وثلاثين في ذكره لقتل مروان بن محمد، وكان قتله ببوصير من أعمال مصر لثلاث بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة. وكان مروان لما هزمه عبد الله بن علي بالزاب أتى مدينة الموصل، وعليها هشام بن عمرو التغلبي، وبشار بن خزيمة الأسدي، فقطع الجسر. فناداهم أهل الشام: هذا أمير المؤمنين مروان. فقالوا: كذبتم أمير المؤمنين لا يفر. وسبه أهل الموصل، وقالوا: يا جعدي، يا معطل، الحمد لله الذي أزال سلطانكم، وذهب بدولتكم، الحمد لله الذي أتانا بأهل بيت نبينا.

فلما سمع ذلك سار إلى بلد، فعبر دجلة وأتى حران وبها ابن أخيه أبان بن يزيد بن محمد بن مروان عامله عليها، فأقام بها نيفاً وعشرين يوماً. وسار عبد الله بن علي حتى أتى الموصل فدخلها وعزل عنها هشاماً، واستعمل عليها محمد بن صول، ثم سار في أثر مروان بن محمد، فلما دنا منه عبد الله حمل مروان أهله وعياله، ومضى منهزماً، وخلف بمدينة حران ابن أخيه أبان بن يزيد وتحته أم عثمان ابنة مروان. وقدم عبد الله بن علي حران، فلقيه أبان مسوداً مبايعاً له، فبايعه له، ودخل في طاعته، فأمَّنَهُ ومن كان بحران والجزيرة. ومضى مروان إلى حمص فلقيه أهلها بالسمع والطاعة، فأقام بها يومين أو ثلاثة، ثم سار منها. فلما رأوا قلة من معه طمعوا فيه وقالوا: مرعوباً منهزماً، فاتبعوه بعدما رحل عنهم فلحقوه على أميال. فلما رأى غبرة الخيل كمن لهم، فلما جاوزوا الكمين صافهم مروان فيمن معه، فأشدهم فأبوا إلا قتاله، فقاتلهم، وأتاهم الكمين من خلفهم، فانهزم أهل حمص، وقتلوا حتى انتهوا إلى قريب المدينة. وأتى مروان دمشق وعليها الوليد بن معاوية بن مروان =

ولما قتل مروان، وقصد المسودة الكنيسة التي كان فيها بنات مروان ونساؤه،

= خلفه بها، وقال: قاتلهم حتى يجتمع أهل الشام.
ومضى مروان حتى أتى فلسطين، فنزل نهر أبي فطرس ـ وقد غلب على فلسطين الحكم بن ضبعان الجذامي ـ فأرسل مروان إلى عبد الله بن يزيد بن روح بن زنباع الجذامي فأجاره ـ وكان بيت المال في يد الحكم ـ. وكان السفاح قد كتب إلى عبد الله بن علي يأمره باتباع مروان، فسار حتى أتى الموصل، فتلقاه من بها من مسودين، وفتحوا له المدينة. ثم سار إلى حران، فتلقاه أبان بن يزيد مسوداً كما تقدم، فأمّنه، وهدم عبد الله الدار حتى حُبس فيها إبراهيم. ثم سار من حران إلى منبج، وقد سودوا فأقام بها، وبعث إليه أهل قنسرين ببيعتهم. وقدم عليه أخوه عبد الصمد بن علي، أرسله السفاح مدداً له في أربعة آلاف، فسار بعد قدوم عبد الصمد بيومين إلى قنسرين، وكانوا قد سودوا، فأقام يومين. ثم سار إلى حمص وبايع أهلها وأقام بها أياماً، ثم سار إلى بعلبك، فأقام يومين، ثم سار فنزل مزة دمشق، وقدم عليه أخوه صالح بن علي مدداً، فنزل مرج عذراء في ثمانية آلاف.
ثم تقدم عبد الله فنزل على الباب الشرقي، ونزل صالح على باب الجابية، ونزل أبو عون على باب قيسان، ونزل بسام بن إبراهيم على باب الصغير، ونزل حميد بن قحطبة على باب تومة، وعبد الصمد ويحيى بن صفوان، والعباس بن يزيد على باب الفراديس. وفي دمشق الوليد بن معاوية فحصروه ودخلوها عنوة يوم الأربعاء لخمس مضين من شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين ومائة...
وأقام عبد الله بن علي في دمشق خمسة عشر يوماً، ثم سار يريد فلسطين، فلقيه أهل الأردن، وقد سودوا، وأتى نهر فطرس وقد ذهب مروان، فأقام عبد الله بفلسطين.
ونزل بالمدينة يحيى بن جعفر الهاشمي، فأتاه كتاب السفاح يأمره بإرسال صالح بن علي في طلب مروان، فسار صالح من نهر أبي فطرس في ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثين ومائة ومعه ابن فتان، وعامر بن إسماعيل. فقدم صالح أبا عون، وعامر بن إسماعيل الحارثي، فساروا حتى بلغوا العريش، فأحرق مروان ما كان حوله من علف وطعام. وسار صالح فنزل النيل، ثم سار حتى أتى الصعيد، وبلغه أن خيلاً لمروان يحرقون الأعلاف. فوجّه إليهم، فأخذوا، وقدم بهم على صالح وهو بالفسطاط، وسار فنزل موضعاً يقال له ذات السلاسل. وقدم أبو عون عامر بن إسماعيل الحارثي، وشعبة بن كثير المازني في خيل أهل الموصل، فلقوا خيلاً لمروان فهزموهم، وأسروا منهم رجالاً، فقتلوا بعضاً واستحيوا بعضاً، فسألوهم عن مروان، فأخبروهم بمكانه، على أن يؤمنوهم. وساروا فوجدوه نازلاً في كنيسة في بوصير، فوافوه ليلاً. وكان أصحاب أبي عون قليلين، فقال لهم عامر بن إسماعيل: إن أصبحنا ورأوا قلّتنا أهلكونا ولم ينج منا أحد. وكسر جفن سيفه، وفعل أصحابه مثله وحملوا على أصحاب مروان فهزموا.
وحمل رجل على مروان فطعنه، وهو لا يعرفه، وصاح صائح: صُرع أمير المؤمنين، فابتدروه، فسبق إليه رجل من أهل الكوفة كان يبيع الرمّان، فاحتز رأسه، فأخذه عامر، فبعث به إلى أبي عون، وبعثه أبو عون إلى صالح، فلما وصل إليه أمر أن يقص لسانه، فانقطع لسانه. فأخذه هر، فقال صالح: ماذا تُرينا الأيام من العجائب، والعبر، هذا لسان مروان قد أخذه هر! . وقال الشاعر:

قد فتح اللّه مصر عنوة لكم ... وأهلك الفاجر الجعدي إذ ظلما
فلاك مقوَلَه هر يجرجره ... وكان ربك من ذي الكفر منتقما

وسيره صالح إلى أبي العباس السفاح. وكان قتله لليلتين بقيتا من ذي الحجة. ورجع صالح إلى الشام، وخلف أبا عون بمصر، وسلّم إليه السلاح والأموال والرقيق. ولما وصل الرأس إلى السفاح

[١/٣٧] إذا بخادم من خدم مروان شاهر/ السيف يحاول الدخول عليهن، فأخذوا الخادم وسألوه عن أمره. فقال: إن مروان [أمرني][١] إن قتل أن أضرب رقاب بناته ونسائه، فلا تقتلوني فإنكم إن قتلتموني فقدتم ميراثي في رسول الله ﷺ.

ثم قال: هلموا، وجاء بهم إلى موضع رمال وقال: لكم فيه العباءة، والبُرد، والقضيب، والنعل، والقطيفة، والخصف، وقد دفنها مروان...[٢] عبد الله بن علي.

فوجه به إلى أبي العباس السفاح، فتداوله بنو العباس إلى دولة المقتدر. واستولى العباسيون على ملك بني أمية واستأثروا بخزائنهم، وسبوا حريمهم، وذخيرتهم.

وذكروا أنه لما قدم بنات مروان بن محمد، وجواريه، وأسارى قومه، على صالح بن علي تكلمت ابنة مروان الكبرى فقالت: يا عم أمير المؤمنين، حفظ الله لك من أمرك ما تحب حفظه، وأسعدك في الأمور بخواص نعمه وعمَّكَ بالعافية في الدنيا والآخرة، نحن بناتك، وبنات أخيك وابن عمك، فيسعنا من عفوك ما وسعكم من جورنا.

فقال: إذاً لا نستبقي، ألم يَقتل أبوكِ بالأمس ابن أخي إبراهيم بن محمد بن علي الإمام بالسجن؟ ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن علي بن الحسين وصلبه في كناسة بالكوفة؟ وقتل امرأة زيد بالحيرة؟ ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد وصلبه بخراسان؟ ألم يقتل عبد الله بن زياد مسلم بن عقيل بن أبي طالب؟ ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن علي مع من قتل من أهل بيته؟ ألم يخرج حرم رسول الله ﷺ سبايا ونَفَلَهم؟ وورد على يزيد رأسه كأنما بُعث إليه برأس رجل من أهل الشرك؛ ثم أوقف يزيد حرم رسول الله ﷺ موقف السبي يتصفحهن جنود أهل الشام الجُفاة الطغاة ويطلبون منه أن يهب حرم رسول الله ﷺ استخفافاً بحقه وجرأة على الله وكفراً لأنْعُمِهِ؟ فما الذي استبقيتم مِنَّا أهل البيت؟

قالت: يا عَمَّ أمير المؤمنين، فليسعنا عفوكم.

قال: أما العفو، فنعم، وقد وسعكم. فإن أحببت زوجتك من الفضل بن صالح بن علي. وزوَّجت أختك من أخيه عبد الله.

فقالت: وأي عز خير من هذا، بلى، تلحقنا بحران.

= كان بالكوفة، فلما رآه سجد، فلما رفع رأسه قال: الحمد لله الذي أظهرني عليك، وأظفرني بك، ولم يبق ثأري قِبلك، وقِبل رهطك أعداء الدين.

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) موضع النقط طمس بالمخطوط.

قال: أفعل ذلك بِكُنَّ إن شاء الله.

وكان مروان قد كتب إلى عبد الله بن علي يستوصيه ببناته وحرمه فكان. . .[١] قولك الحق لنا في دمك والحق عليك. . ./ . . .[٢] الملوك[٢]. [٣٧/ب]

دولة أبي العباس السفاح[٣]

. . .[٤] أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس.

فكان ملكاً جليل القدر، بعيد الصيت.

كان أخوه أبو جعفر صاحب مشورته، وأبو مسلم الداعي. . .[٤]، وحميد أخوه على الحرب إلى آخر مدته.

وهو أول من رسم الوزارة بأبي سلمة حفص بن سليمان الهمداني الخلال وسماه وزير آل محمد.

ولما أُتي إليه برأس مروان، سجد فأطال السجود، ثم رفع رأسه، فقال: الحمد لله الذي لم يبق ثأري قِبلك وقِبل رهطك، والحمد لله [الذي][٥] أظفرني بك، وأظهرني عليك.

---

(١) موضع النقط طمس في المخطوط.

(٢) ومما قاله ابن الأثير في خبر قتل مروان في الكامل: ولما قتل مروان هرب ابناه عبيد الله، وعبد الله، إلى أرض الحبشة، فلقوا من الحبشة بلاء، قاتلهم الحبشة، فقتل عبيد الله ونجا عبد الله في عدة ممن معه فبقي إلى خلافة المهدي، فأخذه نصر بن محمد بن الأشعث عامل فلسطين، فبعث به إلى المهدي.

(٣) مصادر ترجمته: رسالة أسماء الخلفاء والولاة لابن حزم (ص ١٢١، ١٢٣)، سير أعلام النبلاء (٦/ ٧٧)، تاريخ خليفة (٤٠٩)، تاريخ الطبري (٧/ ٤٢١)، تاريخ بغداد (١٠/ ٥٣)، فوات الوفيات (٢/ ٢١٥)، البداية والنهاية (١٠/ ٥٢)، شذرات الذهب (١/ ١٨٣)، وغير ذلك.
ومما قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: أول الخلفاء من بني العباس كان شاباً، مليحاً، مهيباً أبيض، طويلاً، وقوراً. . . ولكن لم تطل أيام السفاح، ومات في ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة، وعاش ثمانية وعشرين سنة في قول. وقال الهيثم بن عدي، وابن الكلبي: عاش ثلاثاً وثلاثين سنة، وقام بعده المنصور أخوه. وقيل: بل مولده سنة خمس ومائة. . . وعن السفاح قال: إذا عظمت القُدرَةُ، قَلّت الشهوة. قَلَّ تبرع إلا ومعه حق مضاع. الصبر حسن إلا على ما أوتغ الدين وأوهن السلطان.
قال الصولي: أحضر السفاح جوهراً من جوهر بني أمية، فقسمه بينه وبين عبد الله بن حسن بن حسن. وكان يضرب بجود السفاح المثل. وكان إذا تعادى اثنان من خاصته لم يسمع من أحدهما في الآخر، ويقول: الضغائن تولد العداوة.

(٤) موضع النقط طمس بالمخطوط.

(٥) زيادة من الكامل في التاريخ.

ثم قال: ما أبالي متى طرقني الموت، قد قتلت بني الحصى، وبني أبيه من بني أمية مائتين، وأحرقت شلو هشام بيزيد بن علي، وقتلت مروان بأخي إبراهيم.

ولما استولى على ملك بني أمية نبش قبورهم وأخرج ما ألقي فيها من عظام بالية وأشباح باقية، فأحرق بعضها، وصلب بعضها، وانتقم من بقايا بني أُمية بما لم يتقدم قبله ممن أراد خفاء نفسه. فلقد زعموا أن شاعراً دخل عليه وقد. . .[1] مجلس الطعام، فأنشده:

لا يغرنك ما ترى من أناس إن تحت الثياب داءً دويّا

فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أُمويّا

قال: فأمر فشدخوا بالعُمُد، وجعلت عليهم البُسُط والطعام، وأكل الناس وإنه لَيُسْمَعُ أنين بعضهم، وكانوا عدداً كثيراً[2].

وتوفي بمدينة الأنبار التي بناها وسماها الهاشمية، يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة.

وعهد إلى أخيه [أبي][3] جعفر المنصور، ولعيسى بن محمد بن علي بعده.

---

(١) موضع النقط طمس بالمخطوط.

(٢) في الكامل لابن الأثير، في ذكره لقتل بني أمية قال قبل ذكره لهذا الشعر: دخل سديف على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك، وقد أكرمه، فقال سديف، فذكر الشعر بنحوه مما هنا، ثم قال: فقال سليمان: قتلتني يا شيخ. ودخل السفاح، وأُخذ سليمان فقتل. ودخل شبل بن عبد الله مولى بني هاشم على عبد الله بن علي، وعنده من بني أمية نحو تسعين رجلاً على طعام، فأقبل عليه شبل فقال:

أصبح الملك ثابت الأساس بالبهاليل من بني العباسِ

طلبوا وتر هاشم فشفوها بعد ميل من الزمان وباس

لا تقيلن بني عبد شمس عثارا واقطعن كل رقلة وغراس

ذلّها أظهر التودد منها وبها منكم كحر المواسي

ولقد غاظني وغاظ سوائي قربهم من نمارق وكراسي

أنزلوها بحيث أنزلها اللّه بدار الهوان والاتعاس

واذكروا مصرع الحسين وزيداً وقتيلاً بجانب المهراس

والقتيل الذي بحران أضحى ثاوياً بين غُربةٍ وتناسي

فأمر بهم عبد الله، فضربوا بالعمد حتى قتلوا وبسط عليهم الأنطاع، فأكل الطعام عليها وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً. وأمر عبد الله بن علي بنبش قبور بني أمية بدمشق.

(٣) سقط من المخطوط.

ذكر دولة أبي جعفر المنصور(١)

وكان المنصور ملكاً حازماً عالماً، أحزم أهل بيته وأشدهم تقتيراً على نفسه، وخالف عليه عمه عبد الله بن علي، ودعا إلى نفسه، فأظهره الله عليه. ونازعه الأمر محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، جد هؤلاء الأدارمية اللاحقين/ بالمغرب. وجرت بينهما مخاطبات ومحاورات شهيرة في كتب التاريخ، [٣٨/أ] ثم قاتل هو وأنصاره هذه الطوائف الحسنية فاستأصلها ولم تقم لها معه قائمة.

وروي عنه أنه قال لجلسائه يوماً: ما رأيت رجلاً أنصح من الحجاج لبني...

فقال المسيب بن زهير: يا أمير المؤمنين، ما سبقنا الحجاج بأمر تخلفنا عنه،

---

(١) قال الذهبي في ترجمته في سير أعلام النبلاء (٧/ ٨٤): الخليفة أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي الهاشمي العباسي المنصور. وأمه سلامة البربرية. ولد في سنة خمس وتسعين أو نحوها، ضرب في الآفاق، ورأى البلاد، وطلب العلم. قيل: كان في صباه يُلَقَّبُ: بمدرك التراب، وكان أسمر، طويلاً، نحيفاً، مهيباً، خفيف العارضين، مُعَرَّقِ الوجه، رحب الجبهة كأن عينيه لسانان ناطقان تخالطه أُبهة الملك بزي النُّسَّاك، تَقْبَله القلوب وتتبعه العيون، أقنى الأنف بَيِّن القنا، يخضب بالسواد. وكان فحل بني العباس، هيبة وشجاعة ورأياً وحزماً ودهاءً وجبروتاً. وكان جمّاعاً للمال حريصاً، تاركاً للهو واللعب، كامل العقل، بعيد الغور، حسن المشاركة في الفقه والأدب والعلم. أباد جماعة كباراً حتى توطد له المُلك، ودانت له الأمم على ظُلم فيه وقوة نفس، ولكنه يرجع إلى صحة إسلام وتدين في الجملة، وتصون وصلاة وخير، مع فصاحة وبلاغة وجلالةٍ. وقد ولي بليدة من فارس لعاملها سليمان بن حبيب بن المهلب بن أبي صُفرة، ثم عزله وضربه وصادره، فلما استخلف قتله. وكان يُلَقَّب: أبا الدوانيق، لتدنيقه ومحاسبته الصُّنَّاع، لما أنشأ بغداد. وكان يبذل الأموال في الكوائن المخوفة ولا سيما لما خرج عليه محمد بن عبد الله بن حسن بالمدينة، وأخوه إبراهيم بالبصرة.

قال أبو إسحاق الثعالبي: على شهرة المنصور بالبخل، ذكر محمد بن سلام أنه لم يُعط خليفة قبل المنصور عشرة آلاف ألف درهم دارت بها الصِّكَاك، وثبتت في الدواوين، فإنه أعطى في يوم واحدٍ، كل واحد من عمومته عشرة آلاف ألف. وقيل: إنه خلَّف يوم موته في بيوت الأموال تسعمائة ألف ألف درهم ونيف... وعن المنصور قال: الملوك أربعة: معاوية، وعبد الملك، وهشام بن عبد الملك، وأنا.

حجّ المنصور مرات منها في خلافته مرتين، وفي الثالثة مات ببئر ميمون قبل أن يدخل مكة. قال مبارك الطبري: حدثنا أبو عبيد الله الوزير، سمع المنصور يقول: الخليفة لا يصلحه إلا التقوى، والسلطان لا يصلحه إلاّ الطاعة، والرعية لا يصلحها إلا العدل، وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وأنقص الناس عقلاً من ظلم من هو دُونَه.

ومن مصادر ترجمته: تاريخ الطبري (٧/ ٤٦٩)، الوزراء والكُتاب (٩٦)، مروج الذهب (٢/ ٢٢٨)، تاريخ بغداد (١٠/ ٥٣)، العبر (١/ ٢٢٨)، تاريخ الإسلام (٦/ ٢١٤)، دول الإسلام (٩٣)، فوات الوفيات (٢/ ٢١٦)، البداية والنهاية (١٠/ ١٢١)، العقد الثمين (٢/ ٢٤٨)، تاريخ الخلفاء (٢٥٩)، شذرات الذهب (١/ ١٨٥)، رسالة الخلفاء والولاة (ص ١٢٣).

والله ما خلق الله على وجه الأرض خلقاً أعز علينا من نبينا محمد ﷺ، وقد أمرتنا بقتل أولاده فأطعنا ذلك، فهل نصحناك أم لا؟

فقال المنصور: اجلس لا جلست.

وأخبار أبي جعفر المنصور وخطبه، وما تعامل فيه...(١)، وأبي مسلم الخراساني شهيرة، ونحن لا نستكثر من ذكر الشهير...(١).

وتوفي المنصور وهو حاج بأحواز مكة يوم السبت لست خلون من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة.

وعهد إلى ولده المهدي بعده.

ذكر دولة محمد المهدي بن المنصور(٢)

وقام المهدي بالأمر بعده، وكنيته أبو العباس.

وكان ملكاً عظيماً، مستجد الحُمُود، بذّالاً للأموال، على الضد في السخاء من خلق أبيه.

زعموا أنه أنفق لأيام من موت أبيه أربعة عشر ألف ألف دينار وأربعة آلاف درهم، إلى أن فرغت بيوت الأموال، ودخل عليه خُزَّانُهَا فرموا بالمفاتيح إليه، وقالوا: ما نفعل بمفاتيح بيوت خاوية؟. ثم استأنف الأمر وجبر الإصر.

وحكي أنه صلّى يوماً في مسجد المدينة، وكان إلى جانبه رجل، فعطف عليه وسأله عن حال أميرهم، فأثنى عليه خيراً.

ثم استدرجه يسأله عن أمير المؤمنين وهو لا يعرفه.

فلعنه لعناً شديداً وأتبعه بكل نقيصة وقبيحة. فلما انصرف لطف في أمره حتى

---

(١) طمس بالمخطوط.

(٢) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٠٠) في ترجمته للمهدي: مولده بإيذج من أرض فارس سنة سبع وعشرين، وقيل: في سنة ست. وأمه أم موسى الحميرية. كان جواداً ممداحاً معطاءً محبباً إلى الرعية، قصاباً في الزنادقة باحثاً عنهم، مليح الشكل قد مَرَّ... ولما اشتد ولاّه أبوه مملكة طبرستان، وقد قرأ العلم، وتأدّب وتميّز. عزم أبوه أموالاً حتى استنزل ولي العهد ابن أخيه عيسى بن موسى من العهد للمهدي. ولما مات المنصور، قام بأخذ البيعة للمهدي الربيع بن يونس الحاجب. وكان المهدي أسمر مليحاً مضطرب الخلق، على عينه بياض، جعد الشعر، ونقش خاتمه: الله ثقة محمد وبه نؤمن. وقال يقطونة: أنبأنا أبو العباس المنصوري قال: لما حصلت الخزائن في يد المهدي، أخذ في ردّ المظالم، فأخرج أكثر الذخائر، ففرّقها وبرَّ أهله ومواليه، فقيل: فرّق أزيد من مائة ألف ألف.

وقيل: إنه أثنى عليه بالشجاعة، فقال: لِمَ لا أكون شجاعاً وما خفت أحداً إلاّ الله؟.

وصل إليه، فقال له: ويلك. . .[١].

فقال: لا، الله يعيذ أمير المؤمنين منَ ظلم أحد.

قال: فلِمَ لعنتني وشتمتني في المسجد؟

قال: المَلَلُ والله فديتك يا سيدي، وامرأتي طالق وما أملك أحرار وصدقة، قد أغير كنيتي في اليوم مرتين أو ثلاثاً من كثرة الملل. فضحك المهدي ووصله[٢].

قلت: هذه علّة قديمة لم يؤت الملوك مع رعاياهم وخدامهم شرّاً منها على أي حال كانوا من الفضل/ والصلاح أو لغيره، فسبحان من قال وقوله الحق: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٠٢]. [٣٨/ب]

وكانت وفاته ليلة الخميس لسبع بقين من المحرّم سنة تسع وستين ومائة. وولي بعده ولده: موسى الهادي.

دولة موسى الهادي بن محمد المهدي[٣]

ولّي الأمر بعد المهدي، الهادي ابنه، وكان موسى صعب المرام، شجاعاً،

---

(١) طمس بالمخطوط.

(٢) ومما ذكر ابن حزم في ترجمته في رسالته أسماء الخلفاء (ص ١٢٤): لم يزل والياً إلى أن مات سنة تسع وستين ومائة. فكانت ولايته عشر سنين وأشهراً إذ مات وله ثلاث وأربعون سنة بعيساباد. أمه أم موسى بنت منصور الحميري، كانت من أهل القيروان بإفريقية، فتزوجها هناك فتى من ولد عبيد الله بن عباس بن عبد المطلب، وكان خليعاً متخلعاً، فولدت له ابنه.
وكان لها زوج قبله خياط ولدت منه ولداً وبلغ ذلك قومها، فنهض أبو جعفر المنصور بنفسه، وذلك في خلافة هشام بن عبد الملك، فدخل القيروان ووجد الخياط قد مات أو طلقها، فتزوجها أبو جعفر وأتى بها، فلما صارت الخلافة إليه سمَّوُا ابن الخياط طيغور، وقالوا: هو مولى المهدي، وإنما كان أخاه لأمه، وهو جد عبيد الله بن أحمد بن أبي طاهر مؤلف أخبار بغداد.

(٣) من مصادر ترجمته: الكامل في التاريخ في أحداث سنة تسع وستين وسبعين ومائة، وسير أعلام النبلاء (٧/ ٤٤١)، الوزراء والكتّاب (١٦٧)، مروج الذهب (٢/ ٢٥٥)، تاريخ بغداد (١٣/ ٢١)، العبر (١/ ٢٥٧)، البداية والنهاية (١٠/ ١٣١)، تاريخ الخلفاء (٢٧٩)، شذرات الذهب (١/ ٢٦٦)، رسالة الخلفاء (ص ١٢٥). وقال ابن الأثير في الكامل: وكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر. وقيل: كانت أربعة عشر شهراً، وكان عمره ستاً وعشرين سنة، وقيل: ثلاثاً وعشرين سنة، وصلى عليه الرشيد، وكانت كنيته أبا محمد، وأمه الخزيران أم ولد. ودفن بعيسابا ذا الكبرى في بستانه. وكان طويلاً جسيماً أبيض مشرباً بحمرة، وكان بشفته العليا نقص وتقلص، وكان المهدي قد وكل به خادماً يقول له: موسى أطبق، فيضم شفته، فلقب موسى أطبق.
وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء (في ترجمته: كان يشرب المسكر، وفيه ظلم وشهامة ولعب، وربما ركب حماراً فارهاً، وكان شجاعاً، فصيحاً، لَسِناً، أديباً، مهيباً، عظيم السطوة. قال ابن حزم: كان سبب موته أنه دفع نديماً له من جُرف على أصول قصب قد قطع، فتعلق به النديم، فوقع

سفّاكاً للدماء، جريئاً مقداماً، شديد التسرّع والعجلة، محبّاً في الشعر.

وحكايته مع الخارجي الذي. . .[١]، وأقبل عليه به معروفة.

وفي أيامه قُتل الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب بفخ من أحواز مكة في طائفة من أهل بيته رحمهم الله.

وكان يظهر اللهو والمعاقرة، واشتغل بها عن الملك.

ثم تفاقم الأمر بعده حتى لم يقف عند غاية.

وتوفي ليلة الجمعة لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة.

وولي الأمر بعده أخوه هارون بعهد أبيه.

دولة هارون الرشيد بن محمد المهدي[٢]

وكان هارون الرشيد ملكاً عظيماً، قريباً من الاعتدال في أموره، إلا ما كان فيه

= معه فدخلت قصبة في دُبُره، فكان ذلك سبب موته، فهلكا جميعاً.

. . . وكان كوالده في استئصال الزنادقة وتتبعهم، فقتل عدّة منهم: يعقوب بن الفضل بن عبد الرحمٰن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم، وظهرت بنته حبلى منه أكرهها. . . . وخرج على الهادي حسين بن علي بن الحسن بن حسن الحسني بالمدينة، المقتول في وقعة فَخ بظاهر مكة، وكان قليل الخير، وعسكره أوباش. وهلك الهادي فيما قيل: من قرحة. ويقال: سَمَّتْهُ أمه الخيزران لما أجمع على قتل أخيه الرشيد، وكانت متصرفة في الأمور إلى الغاية، وكانت من مولّدات المدينة، فقال لها: لئن وقفت ببابك أمير لأقتلنك، أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو سُبحة، فقامت لا تعقل غضباً.

(١) طمس في المخطوط.

(٢) من مصادر ترجمته: تاريخ بغداد (١٤/ ٥)، تاريخ الخلفاء (٢٨٣)، شذرات الذهب (١/ ٣٣٤)، دول الإسلام (١/ ١١٣)، تاريخ خليفة (٣٤٧)، المعرفة والتاريخ (١/ ١٦١)، تاريخ اليعقوبي (٣/ ١٣٩)، تاريخ الطبري (٨/ ٢٣٠)، المختصر في أخبار البشر (١/ ٣٠٥)، العبر (١/ ٣١٢)، سير أعلام النبلاء (٩/ ٢٨٦)، وقال فيها الذهبي في ترجمته: كان من أنبل الخلفاء، وأحشم الملوك، ذا حجّ وجهاد، وغزو وشجاعة، ورأى أمه أم ولد اسمها خيزران.

وكان أبيض طويلاً، جميلاً، وسيماً، إلى السِّمن، ذا فصاحة وعلم وبصر بأعباء الخلافة، وله نظر جيد في الأدب والفقه، قد وخطه الشيب. أغزاه أبوه بلاد الروم وهو حدث في خلافته. وكان مولده بالري سنة ثمان وأربعين ومائة. قيل إنه كان يصلي في خلافته في كل يوم مائة ركعة إلى أن مات، ويتصدّق بألف. وكان يحب العلماء، ويعظّم حرمات الدين، ويبغض الجدال والكلام، ويبكي على نفسه ولهوه وذنوبه، لا سيما إذا وُعِظَ، وكان يحب المديح، ويجيز الشعراء، ويقول الشعر. . . ووعظه الفضيل فأبكاه حتى شهق في بكائه. ولما بلغه موت ابن المبارك حزن عليه وجلس للعزاء، فعزّاه الأكابر. =

من الميل للدعة وبذل الأموال الخطيرة في سبيل اللهو ومطاوعة اللذات.

وهو الذي أوقع بالبرامكة ووزرائه وكُتّابه وكانوا زينة ملكه ودرر مِلكه، فأبادهم وصيّرهم عبرةً من عِبَرِ الأيام.

وقتل جعفر بن يحيى بن خالد، وكان في الوزراء من رجال الكمال.

ذكروا أنه وقّع بين يدي الرشيد على ألف توقيع كلها بموجب الفقه.

وقال سفيان بن عيينة رضي الله عنه: اللهم إنه قد كفاني مؤنة الدنيا فاكفه مؤنة الآخرة.

وفي أيامه تناهت الخلافة وكذلك الأبهة فكثرت عنه أخبار القصّاص والمحدّثين في الجماهير.

وكان اليزيد بن عبد الملك من بني مروان أول من أخذ البيعة لولده، وهو صبيّ غير محتلم من بعد يزيد بن معاوية. ثم أخذ الوليد البيعة لابنيه وهما صغيران، فكذلك الرشيد كان أول بني العباس الذين سلكوا ذلك المسلك، ثم تبعه من بعده.

وهو أول من عقد لولده العهد وأخذ له البيعة وسمّاه الأمين، وهو ابن خمس سنين أو ما يقرب منها/ مطاوعة لأم الأمين أمّ جعفر المدعوّة بزبيدة[1] بنت جعفر بن [٣٩/أ] المنصور.

ثم عقد البيعة لأخيه بعده، عبد الله، وسمّاه المأمون. . .[2] لابنه القاسم بعدهما بأيام.

ذكروا أن الرشيد قال للقاسم يوماً قبل أن يبايع له ـ وكان بديناً سميناً ـ: ليت للمأمون بعض لحمك هذا.

= . . . قال الجاحظ: اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لغيره، وزراؤه البرامكة، وقاضيه القاضي أبو يوسف، وشاعره مروان بن أبي حفصة، ونديمه العباس بن محمد عم والده، وحاجبه الفضل بن الربيع أتْيَهُ الناس، ومُغنّيه إبراهيم الموصلي، وزوجته زبيدة.

. . . ومحاسنه كثيرة، وله أخبار شائعة في اللهو، واللذات، والغناء الله يسمح له. قال ابن حزم: أراه كان يشرب النبيذ المختلف فيه، لا الخمر المتفق على حرمته. قال: لم جاهر جهاراً قبيحاً. قلت: حجّ غير مرة، وله فتوحات ومواقف مشهودة، ومنها فتح مدينة هرقلة، ومات غازياً بخراسان، وقبره بمدينة طوس. عاش خمساً وأربعين سنة، صلى عليه ولده صالح. توفي في ثالث جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة.

(١) قال الأستاذ عمر رضا كحالة في كتابه أعلام النساء (٢/ ١٧) في تعليقه على ترجمتها: زبيدة لقب غلب عليها واسمها: أمة العزيز، وكان المنصور يرقصها وهي صغيرة، وكانت سمينة حسنة البدنة، فيقول لها: يا زبيدة، فغلب عليها ذلك، وتكنى أم الواحد.

(٢) طمس في المخطوط.

فقال له الولد: نعم ببعض حظه.

فأعجبه جوابه، فقال له: قد وصيت الأمين والمأمون بك.

فقال: أما أنت يا أمير المؤمنين فقد توليت النظر لهما بنفسك، ووكّلت النظر لي إلى غيرك.

فَرَقَّ وكتب له البيعة من بعدهما، ولقبه بالمؤتمن.

ومن مختصر غريب: وفي هذه السنة - يعني سنة ست وثمانين ومائة - خرج هارون الرشيد من الرَّقة يريد الحج في. . .[1] فمرّ بالأنبار، ولم يدخل مدينة السلام ولكنه نزل منزلاً على شاطىء الفرات يدعىٰ الزاوية تبعد عن مدينة السلام سبعة فراسخ.

وخلّف على الرقة إبراهيم بن عثمان وأخرج مع نفسه ابنيه: الأمين، والمأمون، فسار حتى المدينة، فأعطى أهلها ثلاث أعطية كانوا يقدمون إليه فيعطيهم عطاءهم، ثم يقدمون على الأمين فيعطيهم عطاءً ثانياً، ثم يقدمون على عبد الله المأمون فيعطيهم عطاءً ثالثاً.

ثم سار إلى مكة، فأعطى أهلها عطاءً عظيماً، فبلغ عطاؤه ألف ألف دينار وخمسين ألف دينار.

وكان الرشيد عقد لابنه محمد ولاية العهد في شعبان سنة ثلاث وسبعين ومائة.

ثم بايع لعبد الله ابنه بالرقة في سنة ثمان وثمانين وسمّاه المأمون، وضمّ إليه من حَدِّ همذان إلى آخر المشرق.

وقيل: كان القاسم بن الرشيد في حجر عبد الملك بن صالح، فكتب عبد الملك إلى الرشيد:

يا أيها الملك الذي ... لو كان بجماله. . .[2] سعدا

اعقد لقاسم بيعة ... واقدح له في البلاد زندا

الله فردٌ واحدٌ ... فاجعل ولاة العهد مردا

فكان أول. . .[2] الرشيد على البيعة للقاسم، وسمّاه المؤتمن، وولاّه الجزيرة، والثغور، والعواصم، فقال في ذلك عبد الملك بن صالح:/ . . .[3]. [٣٩/ب]

فلما حجّ هارون الرشيد وقضى مناسكه عقد لمحمد الأمين وعبد الله المأمون

---

(١) موضع النقط طمس بالمخطوط.

(٢) كلمات مطموسة بالمخطوط.

(٣) فذكر شعراً له ولغيره كثير تركته كله لإصابة معظمه بالطمس.

كتابين وحشد الفقهاء وأراهم إياهما أحدهما على. . .[١] المشترطة عليه من الوفاء لعبد الله وتسليم ما ولاّه من الأعمال وصيّر إليه من الضياع والأموال.

والثاني: نسخة بالبيعة/ التي أخذها على الخاصة والعامة والشروط التي عقدها [٤٠/أ] لعبد الله على محمد وأشهد على الكتابين، وأخذ البيعة لمحمد ولعبد الله من سائر. . .[٢] وقوّاده، ووزرائه، وسائر أهل خدمته بعد أن أمر بقراءتهما على الناس، وأمر بوضع الكتابين في البيت الحرام، وتقدم على الحجبة في حفظهما.

ونسخة الكتاب الذي عقده هارون الرشيد على ابنه محمد:

هذا كتابٌ لعبد الله بن هارون الرشيد، أمير المؤمنين، كتبه محمد بن هارون أمير المؤمنين في صحة من عقله وطائعاً غير مكره. . . ولاّني العهد وصيّر البيعة لي في رقاب المسلمين جميعاً، وولّي عبد الله بن هارون الرشيد أمير المؤمنين العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين بعدي، وولّي عبد الله بن هارون برضى نفسي وتسليم، طائعاً غير مكره، وَوَلاّه خراسان وثغورها وكورها، وخراجها، وطرقها، وبريدها، وبيوت أموالها وصدقاتها، وحشدها، وعشرها، وجميع أعمالها في حياته وبعده، وشرطت لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين برضى مني وطيب نفس لأخي عبد الله بن هارون للوفاء بما عقد له هارون أمير المؤمنين من العهد والولاية والخلافة، وأمور المسلمين جميعاً بعدي، وتسليم ذلك له، وما جعل له من ولاية خراسان وأعمالها كلها، وما أقطعه أمير المؤمنين من قطعه، وجعل له من عقدة أو ضيعة من ضياعه، أو ما ابتاع من الضياع والعقار وما أعطاه في حياته وصحته من مال أو حلي أو متاع أو كسوة أو منزل أو دواب أو قليل أو كثير فهو لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين، ومسلّماً إليه، وقد عرفت ذلك كله شيئاً شيئاً فإن حدث بأمير المؤمنين حدث الموت فإن الخلافة إلى محمد ابن أمير المؤمنين هارون، فعلى محمد إنفاذ ما أمر به هارون أمير المؤمنين في تقليد عبد الله بن هارون أمير المؤمنين خراسان والكور التي سمّاها أمير المؤمنين، وكان عبد الله ابن أمير المؤمنين من معسكر أمير المؤمنين وغيره من سلطان أمير المؤمنين وما ضمّ إليه أمير المؤمنين من أهل بيت أمير المؤمنين، وأن يمضي عبد الله ابن أمير المؤمنين. . .[٣] ولده الري إلى أقصى عمل خراسان وليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحول عنه قائداً ولا. . .[٣] ولا رَجُلاً واحداً ممن انضم إليه من أصحابه الذين ضمهم إليه أمير المؤمنين ولا يُحول عبد

---

(١) كلمة في المخطوط لم أتبين قراءتها هذا رسمها: «محمرب».
(٢) طمس في المخطوط.
(٣) طمس في المخطوط.

[٤٠/ب] الله/ ابن أمير المؤمنين ولا حتى التي ولاّه إياها أمير المؤمنين من ثغر وغيره من أعمالها كلها من بلاد الري وكورها إلى أقصى خراسان وثغورها وبلادها، وما هو منسوب إليها . . .[١] ولا يفرق أحد من أصحابه وقوّاده عنه، ولا يحول عليه أحد ولا يبعث عليه ولا أحد من عمّاله وولاة أمره داعياً، ولا محاسباً، ولا عاملاً، ولا يدخل عليه في صغير من أمره، ولا كبير ضرر، ويحول بينه وبين العمل في ذلك كله برأيه وتدبيره، ولا يعرض لأحد من. . .[١] أمير المؤمنين من أهل بيته، وصحابته، وقضاته، وعُماله، وكُتّابه، وقوّاده، ومواليه، وجدوه يلتمس به إدخال الضرر عليهم، والمكروه في أنفسهم وأقربائهم، ومواليهم، وضياعهم، ودورهم، ورباعهم، وأمتعتهم، ورقيقهم، ودوابهم، ولا شيء من ذلك صغير ولا كبير، ولا أحد من الناس بأمره ورأيه وهواه وترخيص له في ذلك وإدهان منه لأحد من ولد آدم، ولا يحكم في أمرهم، ولا أحد من قضاته، وإن نزع إليه واحد ممن ضمّ أمير المؤمنين إلى عبد الله من أهل بيت أمير المؤمنين، وصحابته، وقوّاده، وعمّاله، وكُتّابه، وخدمه، ومواليه، وجنده، ورفض. . .[٢] ومكانه مع عبد الله ابن أمير المؤمنين عاصياً له، ومخالفاً عليه، فعلى محمد ابن أمير المؤمنين ردّه لعبد الله ويصغي له. . .[٣] حتى ينفذ فيه رأيه وأمره، فإن أراد محمد ابن أمير المؤمنين خلع عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية العهد من بعده أو عزلاً لعبد الله عن ولاية خراسان وثغورها وأعمالها والرّي من حَدّ عملها، والكور التي سماها أمير المؤمنين في كتابه أو صرف أحد من قواده الذين ضمهم أمير المؤمنين ممن قدَّم قدماً إليه أو نقصه قليلاً أو كثيراً ممن خافهُ أمير المؤمنين عليه بوجه من الوجوه أو بحيلة من الحيل، صغرت أو كبرت، فلعبد الله ابن أمير المؤمنين الخلافة من بعد أمير المؤمنين وهو المقدّم على محمد ابن أمير المؤمنين وولي الأمر بعده، والطاعة من جميع قوّاد أمير المؤمنين هارون وأهل العطاء والفضل والمجاهدة لمن خالفه والنصرة له، والذبّ عنه ما كانت الحياة في أبدانهم، وليس لأحد منهمْ جميعاً ممَّن كانوا أو حيث كانوا أن يخالفه ولا يعصيه ولا يخرج عن طاعته، ولا يطيع محمد ابن أمير المؤمنين من صرف العهد عنه إلى غيره أو انتقاصه شيئاً مما جعله أمير المؤمنين في حياته وصحته واشترطه عليه في [٤١/أ] كتابه/ الذي كان في بيت الله الحرام مع كتاب لولده عبد الله ابن أمير المؤمنين. . .[٤] وأنتم في حل من البيعة التي كانت في أعناقكم لمحمد ابن أمير المؤمنين. . .[٤] مما جعله أمير المؤمنين هارون على محمد ابن أمير المؤمنين. . . الخلافة، وليس لمحمد

---

(١) طمس في المخطوط. (٢) طمس في المخطوط.
(٣) سقط استدرك بهامش المخطوط بقلم غير قلم الناسخ ولم يظهر الاستدراك.
(٤) طمس في المخطوط.

ولا لعبد الله ابني أمير المؤمنين أن يخلعا . . .[١] أمير المؤمنين ولا يقدّما عليه أحداً من أولادهما وقرابتهما ولا غيرهم من جميع الرعية بعدما أفضت الخلافة إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين، فالأمر إليه في إمضائه على ما أخذ أمير المؤمنين من العهد المقام بعده أو صرف الأمر عنه إلى من رأى من ولده أو إخوته وتقديم من أراد أن يقدم قبله وتصيير القاسم ابن أمير المؤمنين بعد من تقدّم بحكمهما له . . .[٢] فعليكم معشر المسلمين إنفاذ ما كتب به أمير المؤمنين في كتابه هذا وشرطه وأمر به. وعليكم السمع والطاعة لأمير المؤمنين فيما ألزمكم وأوجب عليكم به عبد الله ابن أمير المؤمنين وعهد الله وذمة رسول الله ﷺ، والعهود والمواثيق التي أخذ الله على الملائكة المقربين والنبيين والمرسلين ووكده في أعناق المؤمنين والمسلمين لينفذ لعبد الله ابن هارون أمير المؤمنين في حق عبد الله، والقاسم ابن أمير المؤمنين ما سمّى وكتب في كتابه هذا واشترط عليكم وأقررتم به على أنفسكم فإن بدلتم من ذلك شيئاً أو غيّرتم أو نكلتم أو خالفتم ما أمركم به أمير المؤمنين واشترطه عليكم في كتابه هذا برئت منكم ذمّة الله وذمّة رسوله محمد ﷺ وذمم أمير المؤمنين والمسلمين، وكل مال هو إليهم لكل رجل منكم أو تستفيدونها إلى خمسين سنة فهو صدقة على المساكين، وعلى كل رجل المشي إلى مكة خمسين حجّة تروا واجباً لا يقبل الله تعالى منه إلاّ الوفاء بذلك، وكل مملوك له أو يملكه إلى خمسين سنة حُرٌّ، وكل امرأة له فهي طالق ثلاثاً البتة طلاق الحرج . . .[٣] والله عليكم بذلك كفيل وراع وكفى بالله حسيباً.

نسخة الشرط الذي كتبه المأمون بخط يده في الكعبة

هذا كتاب لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين، كتبه عبد الله ابن هارون أمير المؤمنين، في صحة من عقله، وجواز من أمره، وصدق نيته فيما كتب من كتابه/ [٤١/ب] هذا . . .[٤] من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعة المسلمين، أن أمير المؤمنين الثغور والخلافة وجميع أمور المسلمين في . . .[٤] بغداد . . .[٤] وثغور خراسان وكورها، وجميع أعمالها وشرط على . . .[٤] فيما كان لي من الخلافة وولاية أمور العباد بعده وولاية خراسان وجميع أعمالها وشرط لي أن لا يتعرض لي في شيء مما أقطعني أمير المؤمنين وأصلح لي من الضياع والعقار، وما ابتعت من ذلك، وما أعطاني أمير المؤمنين من الأموال والجواهر والكساوي والمتاع والدواب والرقيق

---

(١) طمس في المخطوط.

(٢) طمس في المخطوط.

(٣) طمس في المخطوط.

(٤) طمس في المخطوط.

وغير ذلك، ولا يعرض لي ولا لأحد من حاشيتي وكُتّابي بسبب محاسبة، ولا يُدخل عَلَيَّ ولا عليهم ولا على من استعنت به من جميع الناس مكروهاً في نفس، ولا دم، ولا شعر، ولا بشر، ولا مال، ولا صغير من الأمور ولا كبير، فأجابه إلى ذلك وأقرَّ به وكتب له كتاباً أكّد فيه على نفسه ما عقده له ورضي به أمير المؤمنين وقبله، وعرف له صدق نيته فيه، فشرطت لأمير المؤمنين وجعلت على نفسي أن أسمع لمحمد وأطيع، ولا أعصيه، ولا أغشه، وأن أوفي ببيعته وولايته، ولا أغدر، ولا أنكث، وأنفذ كُتبه، وأموره، وأن أحسن مؤازرته وجهاد عدوه في ناحية ما وفّى لي بما شرط لأمير المؤمنين ورضي به أمير المؤمنين، ولم ينقض أمراً من الأمور التي شرطها أمير المؤمنين لي عليه، فإن احتاج محمد ابن أمير المؤمنين إلى جند وكتب لي يأمرني بإشخاصهم إليه أو إلى ناحية من نواحيه أو إلى عدو خالفه فأراد نقض شيء من سلطانه أو مماطلة الذي أسنده أمير المؤمنين إليه وولاّه إياه، فعلي أن أنفذ أمره ولا أخالفه، ولا أقصر في شيء كتب إليّ به، وأراد محمد أن يُوَلّي من ولده العهد والخلافة بعدي فذلك له إن. . .[1] جعله أمير المؤمنين إليَّ واشترطه عليه وشرطه على نفسه في أمري وله. . .[1] عليّ الوفاء به لا أنقض ذلك، ولا أغيّره، ولا أُبدّله، ولا أقدم قبله أحداً من ولدي ولا قريباً ولا بعيداً من الناس أجمعين، أن يولي أمير المؤمنين هارون أحداً من أولاه العهد من بعدي فليس مني ومحمد [إلاّ][2] الوفاء، وجعلت لأمير المؤمنين وعداً عليّ الوفاء به بما اشترطت وسميت في كتابي هذا ما وفّى لي محمد بجميع ما اشترط/ لي أمير المؤمنين عليه في نفسي، وما أعطاني أمير المؤمنين من جميع الأمور والأعطيات في هذا الكتاب الذي كتبه لي. وعليَّ عهد الله وميثاقه، وذمّة رسول الله ﷺ، وذمّة المؤمنين، وأشد ما أخذ الله على النبيين والمرسلين من عهده ومواثيقه والأيمان المؤكدة التي أمر الله بالوفاء بها. . .[3] إن أنا نقضت شيئاً مما شرطت وسميت في كتابي هذا أو غيّرته أو بدّلته فقد برئت من الله ومن ولايته ودينه، ومن آل محمد رسول الله ﷺ، ولقيت الله يوم القيامة كافراً مشركاً، وكل امرأة اليوم هي لي أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً البتة طلاق الحرج، وكل مملوك لي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة هو حرّ لوجه الله، وعليَّ المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة ثلاثين حجّة نذراً عليَّ في عنقي حافياً راجلاً لا يقبل الله مني إلا الوفاء بذلك، وكل مال لي أو أملكه إلى ثلاثين سنة هو بالغ للكعبة، وكل ما جعلت لأمير المؤمنين وشرطت في كتابي هذا لازم لي لا أصير إلى غيره ولا أنوي سواه.

[٤٢/أ]

---

(١) طمس في المخطوط. (٢) زيادة يتطلّبها السياق. (٣) طمس في المخطوط.

شهد سليمان ابن أمير المؤمنين، وفلان وفلان.

وكتب في ذي الحجة سنة سبع وثمانين ومائة.

ونسخة كتاب هارون الرشيد إلى العمال

أما بعد، فإن الله ولي [أمير][١] المؤمنين وولي ما ولاّه، والحافظ لما استرعاه، والمُنعم عليه بالنصر والتأييد في مشارق الأرض ومغاربها، والكالىء والحافظ والكافىء من جميع خلقه، وهو المحمود على جميع آلائه، المسؤول تمام أحسن ما مضى من قضائه لأمير المؤمنين عنده والقيام بما يرضي ويوجب له أحسن المزيد، وقد كان من نعمة الله عند أمير المؤمنين وعندك وعند عوام المسلمين ما ولّى الله من محمد وعبد الله ابني أمير المؤمنين بتبليغه بما أحسن ما أملت الأمة وقدمت إليه أعناقها، وقذفه الله تعالى في قلوب العامّة من المحبة والمودة والسكون إليهما والثقة بهما...[٢] أمورهم وجميع أمورهم وجمع إلفتهم وصلاح دنياهم، ودفع المكروه والشتات والفرقة عنهم حتى ألقوا إليهما أزمتهم وأعطوهما بيعتهم وصفقة أيمانهم بالعهود والمواثيق، وتوكيد الأيمان المغلظة عليهم ما أراده الله، فلم يكن مكره وأمضاه فلم يؤكده أحد من العباد/ ...[١] ولا صرفه عن محبته ومشيئته وما سبق في [٤٢/ب] علمه كافة ولا ناقض لأمره، ولا معقّب لحكمه، ولم يزل أمير المؤمنين منذ اجتمعت الأمة على عقد البيعة لأمير المؤمنين ومن بعد أمير المؤمنين ولعبد الله ابن أمير المؤمنين من بعده، ورأي أمير المؤمنين يجعل رأيه وفكرته ورؤيته فيمن يظن فيه الصلاح لنا ولجميع الرعية، والجمع للكلمة واللمّ للشعث والدّفع للشتات والفرقة، والحسم لكيد أعداء المسلمين لسلِ الكفر والنفاق والغل والشقاق، والقطع لآمالهم من كل فرصة يأملون إدراكها وانتهازها منه بانتفاض حقها، ويستخير الله أمير المؤمنين في ذلك وتحمله العزيمة على ما فيه الخيرة لنا ولجميع المسلمين، والعزّة والمروءة باختلاف أحوالها، وإصلاح ذات البين بينها، وتحصينها من كيد أعدائها ومكرهم وبغيهم وسعيهم بالفساد، فعزم...[٣] لأمير المؤمنين على...[١] البيعة منهما لأمير المؤمنين بالسماع والطاعة لأمره، واكتتاب الشرط على كل واحد منهما لأمير المؤمنين ولنا بأشدّ المواثيق والعهود وأغلظ الأيمان والتوكيد، ولا حل لكل واحد منهما على صاحبه بما التمس به أمير المؤمنين لإجماع الفقهاء وتواصوا وتواصلهما ومؤازرتهما ومكافأتهما على حسن النظر لنفسهما ولرعية أمير المؤمنين التي استرعاهما، الجماعة لدين وكتابه وسنن نبيه ﷺ، والجهاد لعدوّ المسلمين من كانوا وحيث كانوا لقطع طمع كل عدوّ مظهر العداوة ومبذلها، وكل منافق ومراءٍ وأهل

---

(١) زيادة يتطلّبها السياق. (٢) طمس في المخطوط. (٣) كلمة لم أتبين قراءتها.

الأهواء الضالّة المضلّة من فرقة تكيد بكيد توقعه بينهما، ودحرٍ تَدْحَرُ به لهما، وما يلتمس لهما أعداء المنعم وأعداء دينه من الضرّ بين الأمة والسعي بالفساد فيها، والدعاء إلى البدع والضلالة، وقد نظر أمير المؤمنين لدينه ورعيته ولرسول الله ﷺ، ومناصحته لله ولرسوله ولجميع المسلمين، وذبّاً عن سلطان الله التي حَمَّلَهُ إياها واجتهاداً لكل ما فيه قربة إلى الله، وما يُنال به رضوانه والوسيلة عنده.

[١/٤٣] فلما قدم لمكة أظهر لمحمد، وعبد الله رأيه في ذلك وما/ نظر لهما، فقبلا كل ما نواهما إليه من التوكيد على أن يضعا بيعتهما بأمر أمير المؤمنين في بطن بيت الله الحرام بخطوط أيديهما...[١] أمير المؤمنين وقوله، وصحابته، وقضاته، وحجبته...[١] كتابين استودعهما أمير المؤمنين الحجبة، وأمر بتعليقهما في داخل الكعبة...[٢] أمير المؤمنين من ذلك كله في داخل بيت الله الحرام وبطن الكعبة، وأمر قضاته الذين شهدوا عليها وحضروا كتابهما أن يعلموا جميع من حضر الموسم من الحاج، والعلماء، وقوّاد الأمصار، ما شهدوا عليه من شرطهما وكتابهما وقراءة ذلك عليهم ليعرفوه، ويحفظوه، ويؤدوه إلى إخوانهم وأهل بلدانهم وأمصارهم. ففعلوا ذلك، وقرأوا عليهم الشرطان جميعاً في المسجد الحرام.

فانصرفوا وقد شهدوا عليهم بذلك، وأثبتوا الأشعار عليه، وعرفوا نظر أمير المؤمنين وعنايته بصلاحهم، وحقن دمائهم، ولمّ شعْثهم، وإطفاء جمرة أعداء الله وأعداء دينه وكتابه وجماعة المسلمين...[٣] فأكثروا الدعاء لأمير المؤمنين والشكر لما كان منه في ذلك، وقد نسخ لك أمير المؤمنين ذينك الشرطين اللذين كتبهما لأميري المؤمنين: محمد وعبد الله في بطن الكعبة في أسفل كتابه هذا، فأحمد الله على ما صنع لمحمد وعبد الله وليي عهد المسلمين حمداً كثيراً، وأشكره ببلائه عند أمير المؤمنين وعند وليي عهد المسلمين وعندك وعند جماعة أمة محمد ﷺ وعلى آله كثيراً.

واقرأ كتاب أمير المؤمنين على من قبله، وأفهمهم إيّاه، وقم به بينهم وأثبته في الديوان قبلك، واكتب لأمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء الله.

وحسبنا الله ونعم الوكيل، وبه الحول والقوّة والطول.

وكتب إسماعيل بن صبيح يوم السبت لسبع بقين من المحرّم، سنة ست وثمانين ومائة[٤].

---

(١) طمس في المخطوط.

(٢) طمس في المخطوط.

(٣) طمس في المخطوط.

(٤) ثم جاء بعد هذا بيتان من الشعر لإبراهيم الموصلي غير مقروءة كلماتهما وبهما تنتهي صفحة [٤٣/ أ].

ويُذكر أن العهود أُمر بها/ فعلقت بالبيت الحرام من مكة. [٤٣/ب]

. . .(١) وأخبار هارون الرشيد كثيرة وشهيرة. . .(١) وحكي. . .(١) أنه من أهل الجنة، واستفتى العلماء في ذلك، فلم يُفْتِهِ أحد أنه من أهلها، فأرسل إلى ابن السمّاك، القاضي الكوفي، فاستحضره وسأله، فقال: قدر أمير المؤمنين على معصية فتركها خوفاً من الله؟

قال: نعم.

قال: لبعض الناس جارية، فعلقت بها وأنا شاب، فلما ظفرت بها، فكّرت في أن الزنى من الكبائر، وخفت من النار، فكففت عنها.

فقال له ابن السماك: أبشر يا أمير المؤمنين، فإنك من أهل الجنة.

فقال هارون: ومن أين أخذته؟

فقال من قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النَّازعَات: الآيتان ٤٠،٤١].

فسُرّ الرشيد، وأجزل صلته. وهذا في باب الرجاء.

وكانت وفاة الرشيد بطوس، نصف ليلة السبت، لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة(٢).

---

(١) طمس في المخطوط.

(٢) قال ابن الأثير في الكامل في ذكره لموت هارون الرشيد: مات أول جمادى الآخرة لثلاث خلون منه، وكانت اشتدت علّته بالطريق بجرجان، فسار إلى طوس فمات بها. قال جبرائيل بن بختيشوع: كنت مع هارون الرشيد بالرقة، وكنت أول من يدخل عليه في كل غداة أتعرف حاله في ليلته، ثم يحدّثني وينبسط إليّ، ويسألني عن أخبار العامة. فدخلت عليه يوماً، فسلمت عليه، فلم يكد يرفع طرفه، ورأيته عابساً مفكراً مهموماً، فوقفت ملياً من النهار وهو على تلك الحال، فلما طال ذلك أقدمت فسألته عن حاله، وما سببه؟ فقال: إن فكري وهمي لرؤيا رأيتها في ليلتي هذه قد أفزعتني، وملأت صدري.

فقلت: فرّجت عني يا أمير المؤمنين، ثم قبّلت يده، ورجله، وقلت: الرؤيا إنما تكون لخاطر أو بخارات رديئة، وتهاويل السوداء، وهي أضغاث أحلام. قال: فإني أقصها عليك، رأيت كأني جالس على سريري هذا إذ بدت من تحتي ذراع أعرفها، وكفٌّ أعرفها لا أفهم اسم صاحبها، وفي الكفّ تربة حمراء. فقال لي قائل أسمعه ولا أرى شخصه: هذه التربة التي تدفن فيها. فقلت: وأين هذه التربة؟ قال: طوس وغابت اليد، وانقطع الكلام. قلت: أحسبك لما أخذت مضجعك فكرت في خراسان، وما ورد عليك منها، وانتقاض بعضها، فذلك الفكر أوجب هذه الرؤيا. قال: كان ذلك. قال: فأمرته باللهو والانبساط، ففعل ونسينا الرؤيا، وطالت الأيام، ثم سار إلى خراسان لحرب رافع، فلما صار ببعض الطريق ابتدأت به العلّة، فلم تزل تزيد حتى دخلنا طوس، فبينا هو يُمرض في بُستان في ذلك القصر الذي هو فيه إذ ذكر تلك الرؤيا، فوثب متحاملاً يقوم ويسقط،

دولة محمد الأمين بن هارون الرشيد[١]

وكنيته أبو موسى، وقيل: أبو عبد الله. وكان أبوه كما ذُكر قد عقد له ولاية العهد، وأخذ له البيعة على جميع الناس بالأمر بعده، ولقّبه بالأمين وهو ابن خمس سنين، خاصة بعد أن عقد له ذلك الفضل بن يحيى بن خالد بخراسان، وقيل في ذلك:

أقمت بمرو على التوفيق قد ضعفت ... على يد الفضل أيدي العجم والعرب

ببيعة لولي العهد حكمها ... بالنصح منه وبالإشفاق والحرب

.........[٢] عقداً لا انقضاض له ... لمصطفى من بني العباس منتخب

وكان الأمين هذا ملكاً جليلاً أصيلاً، إلاّ أنه ذهب في الراحة والاستغراق في الشهوات كل مذهب[٣]. وفي السنة الأولى من ولايته حلّ ما عقده أبوه بينه وبين

= فاجتمعنا إليه نسأله. فقال: أتذكر رؤياي بالرقة في طوس؟ ثم رفع رأسه إليّ مسروراً فقال: جئني من تربة هذه البستان. فأتاه بها في كفه حاسراً عن ذراعيه. فلما نظر إليه قال: هذه والله الذراع التي رأيتها في منامي، وهذه الكفّ بعينها، وهذه التربة الحمراء ما خرمت شيئاً. وأقبل على البكاء والنحيب، ثم مات بعد ثلاثة.

(١) مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٩/ ٣٣٤)، تاريخ الخلفاء (٢٩٧)، تاريخ الطبري (٨/ ٣٦٥)، تاريخ بغداد (٣/ ٣٣٦)، دول الإسلام (١/ ١٢٤)، البداية والنهاية (١٠/ ٢٢٢)، شذرات الذهب (١/ ٣٥٠)، الوافي بالوفيات (٥/ ١٣٥)، العبر (١/ ٣٣٥)، الكامل في التاريخ من سنة ست وثمانين ومائة إلى سنة ثمان وتسعين ومائة، رسالة أسماء الخلفاء والولاة (ص ١٢٦).
ومما ترجم له به الذهبي في سير أعلام النبلاء أن قال: أمه زبيدة بنت الأمير جعفر بن المنصور، عقد له أبوه الخلافة وكان مليحاً، بديع الحسن، أبيض، وسيماً، طويلاً، ذا قوة وشجاعة، وأدب وفصاحة، ولكنه سيىء التدبير، مفرط التبذير، أرعن لعّاباً، مع صحة إسلام ودين. يقال: قتل مرة أسداً بيديه. قال أحمد بن حنبل: إني لأرجو أن يرحم الله الأمين بإنكاره على ابن عُلَيَّة، فإنه أدخل عليه، فقال له: يا ابن الفاعلة، أنت الذي تقول: كلام الله مخلوق؟ قال الذهبي: ولم يصرّح بذلك ابن علية، حاشاه، بل قال عبارة تُلزِمُه بعض ذلك.

(٢) طمس في المخطوط.

(٣) قال ابن الأثير في الكامل في ذكره خلافة الأمين: بُويع الأمين بالخلافة في عسكر الرشيد صبيحة الليلة التي توفي فيها الرشيد. وكان المأمون حينئذ بمرو، فكتب حمويه مولى المهدي صاحب البريد إلى نائبه ببغداد ـ وهو سلام أبو مسلم ـ يعلمه بوفاة الرشيد، فدخل أبو مسلم على الأمين فعزّاه، وهنّأه بالخلافة، فكان أول الناس فعل ذلك. وكتب صالح بن الرشيد إلى أخيه الأمين يخبره بوفاة الرشيد، مع رجاء الخادم، وأرسل معه الخاتم، والقضيب، والبردة. فلما وصل رجاء انتقل الأمين من قصره بالخلد إلى قصر الخلافة. وصلّى بالناس الجمعة، ثم صعد المنبر، فنعى الرشيد وعزّى نفسه، والناس، ووعدهم الخير، وأمّن الأبيض والأسود، وفرّق في الجند الذين ببغداد رزق أربعة وعشرين شهراً، ودعا إلى البيعة، فبايعه جلّة أهل البيت، وكل عمّ أبيه، وأمر سليمان بن المنصور بأخذ البيعة على القوّاد وغيرهم، فأمر السندي أيضاً بمبايعة من عداهم.

أخيه المأمون، وتجنّى عليه، وبايع لابنه موسى، وسمّاه: الناطق بالحق ـ وهو لا ينطق، ولا يعقل، طفل في خمس سنين ـ وخصّه بعلي بن عيسى، وولاّه العراق، وأخذ له البيعة بمكة/ والمدينة على خواصّ الناس. [1/٤٤]

وجعل على شرطته محمد بن عيسى بن نهيك، . . .[١] عثمان بن عيسى بن نهيك أخاه، وعلى خراجه عبد الله ابن . . .[١].

ووجّه إلى مكة رسولاً جاءه بالكتابين اللذين كان الرشيد كتبهما وعلّقهما بالكعبة.

ولما اتّصل الخبر بالمأمون، نابذه، وأقلع عليه الحجّة، وخالفه بخراسان، ودعا إلى نفسه، وقدم طاهر بن الحسين قائده لمطالعة الأمر، وأخرج إليه الأمين العساكر مع علي بن عيسى بن ماهان، فظفر به طاهر وقتله، واستولى على عساكره.

وقدم على بغداد، فحاصر بها الأمين، وشدّ خناقه إلى أن كان من أمره ما يُنكر أن . . .[٢]. وبلغ محمد الأمين من إيثار اللهو، وترك ضروريات الخلافة، والاستغراق في السخف والشراب للغاية التي لا شيء وراءها حسبما تقرّر في كتب التاريخ، فلينظره هناك من أراده.

وحكي عنه: أن مدبّر أمره دخل عليه وقد اشتدّ به الأمر . . .[١] يُفاوضه في مهمة، فألفاه مغموماً محزوناً، ورام أن يلقي إليه ما عنده في أمر . . .[١] والمُحَاصِر للحضرة.

فقال: إليك عني، فإني قد ذهبت مُقَرّطتي ـ وكانت المقرطة سمكة قد اتخذ لها قرطاً من ذهب فيه حجر نفيس من الياقوت ـ ففقدها ولم يجدها، فطلبها طيلة يومئذ، فعلم أنه لا يفلح.

وكانت وفاته بأيدي رجال طاهر بن الحسين، لخمس بقين من المحرّم سنة ثمان وتسعين ومائة[٣].

---

(١) طمس في المخطوط. (٢) طمس في المخطوط.

(٣) قال صاحب الكامل في ذكره لصفة الأمين وعمره وولايته: قيل: إن محمداً ولي يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين ومائة. وقتل ليلة الأحد لست بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة. . . وأمه زبيدة بنت جعفر الأكبر ابن المنصور. وكانت ولايته في النصف من جمادى الآخرة، وكان عمره ثمانياً وعشرين سنة. وكان سبطاً أنزع صغير العينين، أقنى جميلاً طويلاً عظيم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين، وكان مولده بالرصافة.

ولما وصل خبر قتله إلى المأمون أذن للقوّاد، وقرأ الفضل بن سهل الكتاب عليهم، فهنّؤوه بالظفر ودعوا له. وكتب إلى طاهر وهرتمة بخلع القاسم المؤتمن من ولاية العهد فخلعاه في شهر ربيع الأول من هذه السنة. وأكثر الشعراء في مراثي الأمين وهجائه.

وتتابع لعهد قريب من هذه الدولة العباسية وهي المختصة بعنوان الملّة، وريعان العزّة، واحتفال الوقت بفضلاء ما لملّة تقليداً خالفه أربعة تنافسوا في تقلّد عهد المسلمين بحال الصغر والطفولة والغلامية، والبعد عن زمن الاحتلام، والخلوّ التام عن الشروط المعتبرة.

وكان...[1] عقد عهدهم على من ينوب عنهم في أمور المسلمين، وكان على الأقطار التي أخذت فيها على الناس الخاصة والعامة وجُلي عليهم...[1] النظر أو أخطأ في جماعتي العلماء والفقهاء والمحدّثين بحور زاخرة، وأعلام فاخرة، ورؤساء دنيا وآخرة، مثل أحمد بن أبي داود قاضي بغداد الشهير بالفضل والجود/ ...[1]، [٤٤/ب] وهو أحد أصحاب أبي يوسف القاضي. ولي القضاء زمن المنصور، وحمل الناس عنه الفقه والمسائل...[1] وولي قضاء أقطار من العمار، وأخذ عنه الإمام أحمد والحسن بن عطية بن سعد بن جنادة.

حدّث عن أبيه، وعن الأعمش، وكان من قضاة العدل، وحفص بن عبادة بن طلق، سمع القواريري، وهشام بن عمر، والأعمش، وكان كثير الحديث، ثقة، ثبتاً، ولي القضاء ببغداد ثم الكوفة، وقال: والله ما توليت القضاء حتى حلّت لي الميتة.

وذكر أنه مرض خمسة عشر يوماً، فرد رزقها على العامل وقال: لا حق لي في هذا.

وسليمان بن حرب أبو أيوب الأزدي، سمع شعبة، وجرير بن حازم، وولي قضاء بغداد.

وسعيد بن عبد الرحمٰن بن عبد الله المديني، سمع هشام بن عروة وغيره، وولي قضاء بغداد.

وسوار بن عبد الله بن سوار، حدّث عن المعتمر ويحيى بن القطان وغيرهما، وولي قضاء بغداد وهو مشهور في قدماء القضاة.

وشريك بن عبد الله النخعي، سمع المعتمر، وروى عنه ابن المبارك، ووكيع، وولي قضاء الكوفة، وله حكايات في الصلابة على الملوك وإنفاذ أحكام الشرع على أوليائهم.

وصالح بن أحمد بن محمد بن حنبل مع أبيه، وكان ثقة صدوقاً، زاهداً، صالحاً، ولي قضاء أصبهان.

ومنهم عبد الرحمٰن بن زياد بن أنعم الإفريقي، روى عنه الثوري، وابن لهيعة،

---

(١) طمس في المخطوط.

وولي القضاء بإفريقية.

ومنهم عبد الله بن الحسين العنبري، سمع خالد الحذّاء، وداود بن أبي هند، وولي القضاء ببغداد.

وعمر بن حبيب العمروي، حدّث عن أبي داود وخالد الحذاء، وهشام بن عروة، وولي قضاء البصرة، وبغداد.

وعلي بن محمد بن علي الدامغاني، قاضي القضاة، ابن قاضي القضاة، سمع من أبي يعلى، وأبي بكر الخطيب وغيرهم.

وعلي بن ضبيان أبو الحسن العبسي، حدّث عن إسماعيل بن أبي خالد، وعبد الملك بن سليمان، وولي/ قضاء القضاة في زمن الرشيد. [٤٥/أ]

والقاسم بن سلاّم أبو عيسى، روى عن...[١]، والأصمعي، وابن الأعرابي، والكسائي.

ومحمد بن عبد الله بن علافة، روى عن الأوزاعي، وروى عنه ابن المبارك، ووكيع وقضاة بغداد.

ومحمد ابن...[٢] حدّث عن الليث بن سعد، وأبي يوسف، وغيرهما، وتولى...[٣] والقضاء، وكان يصلي في كل يوم مائة ركعة.

ومحمد بن عبد الله بن المثنى بن أنس بن مالك، سمع مالك بن دينار، وولي القضاء أيام الرشيد.

ويحيى بن زكريا بن أبي زائد أبو سعيد، سمع أبا هشام بن عروة، وولي القضاء بالمدائن.

ويحيى بن أكثم قاضي القضاة في أيام المأمون، سمع ابن المبارك، وسفيان بن عيينة، ويعقوب بن إبراهيم أبا يوسف القاضي، سمع الأعمش وأبا إسحاق الشيباني، وهشام بن عروة، وهو أول من دُعي بقاضي القضاة في الإسلام.

ومحمد بن أبي عمر أبو نصر القاضي، ولي القضاء ببغداد في حياة أبيه وبعد وفاة أبيه.

ومن القرّاء والعلماء

إسماعيل بن إبراهيم الزبيري الأسدي أبو علي، يُذكر أنه لم يضحك قط، وكان من كبار الحفّاظ العلماء.

---

(١) طمس في المخطوط. (٢) طمس في المخطوط. (٣) طمس في المخطوط.

وإسحاق بن يوسف بن محمد الأزرق، سمع الثوري، والأعمش، وشريكاً.

وآدم بن أبي إياس، وكان صالحاً. له حديث عن سعيد، والليث بن سعد، وحماد بن سلمة، وخالد بن عبد الله الواسطي، روى عن وكيع، وابن مهدي، وعفان، ورواح بن عُبادة بن العلاء.

وأبو محمد القيسي، سمع من جُريج والأوزاعي، ومالك وشعبة، وزهير بن حرب، وأبي خيثمة، وسعية بن الحجاج بن الورد، وأبو. . .[1] العتكي.

وعبد الله بن إدريس بن يزيد الأزدي، سمع الأعمش ومالك بن أنس، وشعبة، وسفيان الثوري، وعبد الله بن محمد بن عبد الله بن جعفر أبو جعفر الجعفي.

وعبد الله بن محمد بن إبراهيم بن أبي شيبة، سمع شريكاً وسفيان، وهُشيم الوائلي، وروى عنه أحمد بن حنبل، والبغوي، وعبد الله بن سفيان، أبو بكر. . .[1] وعبد الأعلى بن مسهر بن مسهد الدمشقي.

وعيسى بن يونس بن أبي إسحاق. . .[2] الأعمش، وخلف، وحدّث ببغداد.

وعلي بن عبد الله بن جعفر بن نجيح، روى عنه الإمام أحمد بن حنبل.

وعاصم بن الحسن بن محمد أبو الحسن القاضي، سمع أبا مهدي، وأبا مهدي، وأبا الحسين ابن. . .[1] وعفان/ بن مسلم الثقة. روى عن أبي خيثمة والبخاري. [٤٥/ب]

والفضل بن دكين، سمع الأعمش، ووكيع، وسفيان الثوري، ومالكاً، وشعبة، ومحمد بن إسماعيل يوسف الترمذي. . .

و[3]. . . كوفي سمع أبا إسحاق الشعبي، وعبد الملك بن عمير، والأعمش، و. . .[1]، والبخاري، ومسلم.

ووكيع بن الجراح، سمع إسماعيل بن أبي خالد. . .[1] وروى عنه ابن المبارك وقتيبة، وهاشم بن قاسم الكناني، سمع شعبة، وسفيان، روى عنه أبو خيثمة.

والهياج بن بسطام الهروي، سمع يونس ابن. . .[1]، وداود بن أبي هند، وابن عون، وإسماعيل بن أبي خالد، وليث بن أبي سليم في خلق كثير، وقدم بغداد وحدّث بها، واجتمع عليه مائة ألف.

وهشيم بن بشير أبو معاوية الواسطي، سمع عمر بن دينار، ويونس، والزهري، روى عنه مالك والثوري.

---

(١) طمس في المخطوط. (٢) طمس في المخطوط. (٣) طمس في المخطوط.

ويحيى بن أبي زكريا بن زائدة، حدّث عن يحيى بن سعيد الأعمش وغيرهم، حدّث عنه الإمام أحمد بن حنبل. . .[١] والفقهاء وتاج الزاهدين والأولياء. كان حافظاً للقرآن عالماً بظاهر كتاب الله تعالى وباطنه، إماماً في الحديث والفقه والعربية وغير ذلك من العلوم التي لم يجتمع لغيره من الأئمة، وقدر على الفقر والتقلل على ما لم يقدر عليه غيره. وردّ من الأموال على ما أحصي خمسين ألفاً، وصبر على ما ناله من النكال في جانب الله والوقوف مع الحق بما هو معروف.

وقد دوّنت الكتب في فضائله.

وربيعة بن عبد الرحمٰن، سمع أنس بن مالك، وعامّة التابعين.

وروى عنه مالك، وشعبة والليث بن سعد، وعبد العزيز بن سلمة الماجشون، وكان فقيهاً عالماً، سمع الزهري، وابن المنكدر، وأبا حازم في خلق كثير.

ومحمد بن إدريس بن العباس الإمام الشافعي، وحسبك به مفخرة ملّة الإسلام، وإمام الأئمة الأعلام قاطبة، وكتبة بها العلم.

سمع مالك بن أنس، وإبراهيم بن سعد. . .[٢]، وحفظ الحديث وهو ابن سبع سنين. وروى عنه أحمد بن حنبل، وسليمان بن داود الهاشمي، وأبو ثور.

ورأى في منامه علي بن أبي طالب يُسَلّم عليه ويصافحه، وخلع خاتمه فجعله في إصبعه.

ففسرت له بأن مصافحته لك/ أمان من العذاب، وإنما خلع خاتمه وجعله في [٤٦/أ] إصبعك لتبلغ أمرك من أمّة محمد ما بلغ من أمرها في المشرق والمغرب.

وأفتى وعمره خمس عشرة سنة، وكان يحيي الليل، وكان مع ذلك كثير التلاوة، يختم القرآن كل يوم ختمة.

قال إسحاق بن راهويه: . . .[٣]، وقال: تعال أذهب بك إلى من لم تر عيناك مثله، فذهب به إلى الشافعي. . .[١]. وتوفي رضي الله عنه بمصر، وقد بُلغ به من الإشادة والتعظيم ما ليس وراءه مبلغ.

ويذكر أن بعض المغاربة من المالكية وقّعه على مكتوب بتربة الإمام الشافعي فيه من إطراء الإمام وأوصافه، فكتب تحته: ولِمَ لا يكون كذلك وشيخه مالك.

وأنشدني الشيخ الخطيب، رئيس الطائفة أبو عبد الله بن مرزوق أبياتاً ليس على نظم المشارقة في مدح الإمام الشافعي والثناء، ذكر أنها مما كتب ببعض مشاهده، وهي بعد بسم الله الرحمٰن الرحيم:

---

(١) طمس في المخطوط. (٢) طمس في المخطوط. (٣) طمس في المخطوط.

الشافعي إمام الناس كلهم في العلم والحلم والطلاب والناس
أصحابه خير أصحاب ومذهبه خير المذاهب عند اللّه والناس
له الإمامة والدنيا مسلّمة كما الخلافة في أولاد عباس

فأجابه عن ذلك مغيّراً على المغربي الشاطر المتقدّم الذكر:

كفاك فضلاً أن امتاحت معارفه[(١)]

وعلي بن حمزة الكسائي المقرىء الإمام. وعمر بن عثمان بن قنبر...[(٢)] المعروف بسيبويه.

ويحيى بن زياد، ويحيى بن المبارك.

ومن الصوفية

الشيخ أبو سعيد الخراز، وأسود بن سالم صاحب معروف، وبشر الحافي...[(٢)]، وأبو نصر الموصلي، ومعروف الكرخي.

[٤٦/ب] ولو وقع الانتقاص لم.../...[(٣)] دون التبرّك بهم في العهود الملوكية والاستخلافات الخلافية، ولم تنقل التواريخ عنهم حكاية في إنكار ما وقع على عهد من تقدم ذكره[(٤)].

دولة المأمون بن الرشيد

ولما فرغ...[(٥)] محمد الأمين، قَدِمَ أخوه المأمون بغداد، وكنيته أبو العباس...[(٦)] أبو جعفر، وهو ابن ثمان وعشرين سنة[(٧)].

---

(١) فذكرا خمسة أبيات ذكرت السطر الأول منها لإصابة معظم كلمات القصيدة بطمس، ومآثر الشافعي رحمه الله تعالى وفضائله كثيرة فاكتفيت بتلك الإشارة.

(٢) طمس في المخطوط.

(٣) طمس في المخطوط.

(٤) لم أحب أن أترجم لهؤلاء الأعلام الذين ذكرهم من أهل القرآن، والقراءات، والحديث، واللغة، والفقه، والزهد، لكثرتهم واشتهارهم، وحتى لا يطول الكتاب أو التعليق عليه.

(٥) موضع النقط طمس بالمخطوط.

(٦) في سير الأعلام: كنيته أبو العباس، فلما استخلف اكتنى بأبي جعفر.

(٧) من مصادر ترجمته: تاريخ اليعقوبي (٣/ ١٧٢)، الأخبار الطوال (٤٠٠)، تاريخ الطبري (٨/ ٤٧٨)، مروج الذهب (٢/ ٢٤٧)، تاريخ بغداد (١٠/ ١٨٣)، البداية والنهاية (١٠/ ٢٤٤)، النجوم الزاهرة (٢/ ٢٢٥)، تاريخ الخلفاء (٣٠٦)، شذرات الذهب (٢/ ٣٩)، فوات الوفيات (٢/ ٢٣٥)، سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٧٢)، تاريخ الخميس (٢/ ٣٣٤) وغير ذلك.

كان له بصر بالعلوم العقلية، طلبها وطلب الحديث وكتبه، وحضر مجلس مالك.

حدّث يحيى بن أكثم قال:

كنت عنده ليلة. . .[1].

فقال: يا يحيى، انظر أي شيء تحت رجلي؟ فنظرت، فلم أرَ شيئاً، فدعا بالشمع فتبلّد الفراشون، وقال: انظروا. فإذا تحت الفراش حيّة.

فقلت: قد انضاف إلى كمال أمير المؤمنين علم بالغيب.

فقال: معاذ الله، ولكن، هتف بي هاتف وأنا نائم الساعة، فقال:

يا راقد الليل انتبه إن الخطوب لها سُرَا

. . . . بزمانه ثقة مُحلله العُرَا

فانتبهت، فعلمت أنه قد حدث أمر إما قريب أو بعيد، فتأملت فكان ما رأيت.

وكان المأمون رحمه الله من عقود الدولة العباسية بمنزلة، يرجع إلى علم وثيق المعاقد، والحلم، كريم المشاهد.

وكان يتشيع إلى علي رضي الله عنه، وكلّمه العباسيون في ذلك فقال لهم:

ولي الأمر قبلي عبد الله بن العباس البصرة، وولي عبيد الله بن العباس اليمن، وولي قثم بن العباس مكة.

وصيّر الخلافة من بعده إلى علي بن موسى وزوّجه ابنته أم حبيبة، وأختها أم الفضل، ولده محمود بن علي بن موسى، ورأى العباس ذلك.

وأشاروا على عمه إبراهيم بن المهدي بن المنصور بالدعاء لنفسه، وقد رحل المأمون في بعض تحركاته عن بغداد، فتمت بيعته، وخطب الناس، ودعوه المبارك.

= ومما ترجم له به الذهبي في سير أعلام النبلاء أن قال: ولد سنة سبعين ومائة. قرأ العلم والأدب والأخبار والعقليات، وعلوم الأوائل، وأمر بتعريب كتبهم، وبالغ، وعمل الرصد فوق جبل دمشق، ودعا إلى القول بخلق القرآن وبالغ، نسأل الله تعالى السلامة. . . وكان من رجال بني العباس حزماً وعزماً ورأياً وعقلاً وهيبة وحلماً ومحاسنه كثيرة في الجملة.

وقال ابن أبي الدنيا: كان أبيض، ربعة، حسن الوجه تعلوه صفرة، وقد خطه الشيب، وكان طويل اللحية، أعين، ضيق الجبين، على خده شامة. أتته وفاة أبيه وهو بمرو، سائراً لغزو ما وراء النهر، فبايع من قِبَلَهُ لأخيه الأمين، ثم جرت بينهما أمور وخطوب وبلاء وحروب تُشيب النواصي إلى أن قُتِلَ الأمين، وبايع الناس المأمون في أول سنة ثمان وتسعين ومائة.

(١) طمس في المخطوط.

ثم كرّ المأمون إلى بغداد، فقلع إبراهيم واختفى وقبض عليه وحبسه ورجع بعد إليه وعفا عنه ونادمه[١].

وهذه من مستغربات قصص الحلم.

ولإبراهيم في ذلك أشعار كثيرة منها، وقد وقفت بين يديه:

نعم ذنبي إليك عظيم وأنت أعظم منه

/ فخذ بحقك أو لا فاصفح يصفح الله عنه [1/47]

إن لم أكن في فعالي من الكرام فكن...... [٢]

فقال المأمون: القدرة تُذْهِبُ الحفيظة، والندم توبة، عفوت عنك لا تثريب عليك، يغفر الله لك، وعفا عنه، وأمر بردّ ماله وضياعه إليه[٣]، وفي هذا يقول

---

(١) قال ابن الأثير في الكامل في ذكر بيعة إبراهيم بن المهدي سنة (٢٠٢): في هذه السنة بايع أهل بغداد إبراهيم بن المهدي بالخلافة ولقّبوه المبارك، وكانت بيعته أول يوم من المحرم، وقيل: خامس، وخلعوا المأمون، وبايعه سائر بني هاشم، فكان المتولي لأخذ البيعة المطلب بن عبد الله بن مالك، فكان الذي سعى في هذا الأمر السندي وصالح صاحب المصلى، ونصير الوصيف وغيرهم غضباً على المأمون حين أراد إخراج الخلافة من ولد العباس، ولتركه لباس آبائه من السواد.

(٢) طمس في المخطوط.

(٣) وقال ابن الأثير أيضاً في الكامل في أحداث سنة (٢١٠) في ذكر ظفر المأمون بإبراهيم بن المهدي: وفي هذه السنة في ربيع الأول أخذ إبراهيم بن المهدي وهو متنقب مع امرأتين وهو في زيّ امرأة أخذه حارس أسود ليلاً، فقال: من أين أنتن وأين تُرِدْنَ هذا الوقت؟ فأعطاه إبراهيم خاتم ياقوت كان في يده له قدر عظيم ليخليهن، ولا يسألهن، فلما نظر الحارس إلى الخاتم استرابهن، وقال: خاتم رجل له شأن، ورفعهن إلى صاحب المسلحة، فأمرهن أن يسفرن، فامتنع إبراهيم، فجذبه جذبة، فبدت لحيته فدفعه إلى صاحب الجسر، فعرفه، فذهب به إلى باب المأمون وأعلمه به، فأمر بالاحتفاظ به إلى بكرة. فلما كان الغد أقعد إبراهيم في دار المأمون والمقنّعة التي تقنّع بها في عنقه والملحفة على صدره ليراه بنو هاشم والناس ويعلموا كيف أُخذ، ثم حوّله إلى أحمد بن أبي خالد فحبسه عنده. ثم أخرجه معه لما سار في الصلح إلى الحسن بن سهل، فشفع فيه الحسن، وقيل: ابنته بوران. وقيل: إن إبراهيم أخذ فحمل إلى دار ابن إسحاق المعتصم ـ وكان المعتصم عند المأمون ـ فحمل رديفاً لفرح التركي.

فلما دخل على المأمون قال له: هيه يا إبراهيم؟! فقال: يا أمير المؤمنين وليّ الثأر محكم في القصاص، والعفو أقرب للتقوى، ومن تناوله الاغترار بما مدّ له من أسباب الشقاء أمكن عاديه الدهر من نفسه، وقد جعلك الله تعالى فوق كل ذي ذنب دونك، فإن تعاقب فبحقك، وإن تعفُ فبفضلك. قال المأمون: بل أعفو يا إبراهيم، فكبّر وسجد.

وقيل: بل كتب إبراهيم هذا الكلام إلى المأمون، وهو متخف فوقع المأمون في حاشية رقعته: القدرة تذهب الحفيظة والندم توبة، وبينهما عفو الله عزّ وجل وهو أكبر ما يسأله. فقال إبراهيم يمدح المأمون:

يا خير من رفلت يمانية به فبفضلك بعد النبي لآيسٍ أو طائع

في أبيات كثيرة.

إبراهيم بن المهدي:

رددت مالي ولم تبخل عليّ به وقبل ردكَ مالي قد حفظت دمي

فبؤت منك وما كافيتها بيد هما حياة ابن موسى...[١]

وفي شعبان سنة تسع ومائتين أملك بخديجة بنت الحسن بن سهل بوران ونثر الحسن في ذلك الأملاك ما لم يسمع بمثله قط في جاهلية ولا إسلام. فنثر على الهاشميين والقوّاد بنادق مِسْكٍ فيها رقاع بأسماء ضياع وجواهر فمن وقعت بيده بندقة استوفى ما فيها من وكيله الحسن بحسب سعده وحظه.

وغزا الأرض وأبعد الأثر.

وفي أيامه ترجمت الكتب في العلوم العقلية إلى العربية.

وأطلقت المناظرة في العقائد.

وفي سنة اثنتي عشرة ومائتين أظهر القول بخلق القرآن[٢].

وفيها: أعلن النداء ببراءة الذمّة ممن ذكر معاوية بخير.

فكان ذلك كله عيب الكمال في دولته، وسيئات عظمت على كثير من محاسن مدته.

فسبحان من له الكمال المحض، المحمود في ملأ السماء والأرض لا إله إلاّ هو.

---

(١) طمس في المخطوط.

(٢) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: قيل: إن المأمون لتشيعه أمر بالنداء بإباحة المتعة ـ متعة النساء ـ فدخل عليه يحيى بن أكثم، فذكر له حديث علي رضي الله عنه بتحريمها، فلما علم بصحة الحديث رجع إلى الحق، وأمر بالنداء بتحريمها. أما مسألة القرآن: فما رجع عنها، وصمم على امتحان العلماء في سنة ثماني عشرة، وشدّد عليهم، فأخذه الله... وفي سنة اثنتي عشرة:... أظهر المأمون تفضيل عَلِيّ عَلَى الشيخين، وأن القرآن مخلوق.

ومما ذكر ابن الأثير في امتحانه العلماء في فتنة خلق القرآن في أحداث سنة (٢١٨): في هذه السنة كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم ببغداد في امتحان القضاة، والشهود، والمحدثين بالقرآن، فمن أقرّ أنه مخلوق محدث خلى سبيله، ومن أبى أعلمه به ليأمره فيه برأيه، وطوّل كتابه بإقامة الدليل على خلق القرآن، وترك الاستعانة بمن امتنع عن القول بذلك، وكان الكتاب في ربيع الأول. وأمر بإنفاذ سبع نفر منهم: محمد بن سعد كاتب الواقدي، وأبو مسلم مستملي يزيد بن هارون، ويحيى بن معين، وأبو خيثمة زهير بن حرب، وإسماعيل بن داود، وإسماعيل بن أبي مسعود، وأحمد بن الدورقي. فأشخصوا إليه، فسألهم، وامتحنهم عن القرآن، فأجابوا جميعاً بأن القرآن مخلوق. فأعادهم إلى بغداد، فأحضرهم إسحاق بن إبراهيم داره، وشهر قولهم بحضرة المشايخ من أهل الحديث، فأقروا بذلك فخلى سبيلهم.

وتوفي المأمون غازياً بصقع يعرف بالبرذون لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب، سنة ثمان عشرة ومائتين[١].

دولة المعتصم بن الرشيد[٢]

واسمه: محمد بن هارون. وكنيته أبو إسحاق. وكان فارساً شهماً.

ويقال له: الثماني، إذ كان ثامن أهل بيته، وولد في الشهر الثامن سنة ثمانين، وفتح ثمان مدن، وقتل ثمانية. . .[٣] وملك ثمان سنين وثمانية أشهر، وثمانية أيام. وهو أول من استخدم المماليك من الروم، والديلم، ونوابهم، لِمَا أراد الله من

(١) قال صاحب الكامل في ذكره لموت المأمون في السنة المذكورة: لما اشتدّ مرضه وحضره الموت كان عنده من يلقّنه، فعرض عليه الشهادة، وعنده ماسويه الطبيب، فقال لذلك الرجل: دعه فإنه لا يفرّق في هذه الحال بين ربّه وماني. ففتح المأمون عينيه، وأراد أن يبطش به، فعجز عن ذلك، وأراد الكلام فعجز عنه، ثم أنه تكلم فقال: يا من لا يموت ارحم من يموت، ثم توفي من ساعته.
ولما توفي حمله ابنه العباس، وأخوه المعتصم إلى طرسوس، فدفناه بدار خاقان خادم الرشيد وصلى عليه المعتصم، ووكلوا به حرساً من أبناء أهل طرسوس وغيرهم مائة رجل، وأجري على كل رجل منهم تسعون درهماً. وكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً، سوى سنين كان دعى فيها بمكة وأخوه الأمين محصور ببغداد. وكان مولده للنصف من ربيع الأول سنة سبعين ومائة.

(٢) مصادر ترجمته: المعارف (٣٩٢)، الأخبار الطوال (٤٠١)، تاريخ بغداد (٣/ ٣٤٢)، تاريخ الطبري (٩/ ١١٨)، مروج الذهب (٧/ ١٠٢)، البدء والتاريخ (٦/ ١١٤)، العبر (١/ ٤٠٠)، تاريخ الخلفاء (٣٣٣)، تاريخ الخميس (٢/ ٣٣٦)، شذرات الذهب (٢/ ٦٣)، البداية والنهاية (١٠/ ٢٩٥)، النجوم الزاهرة (٢/ ٥٢٠)، فوات الوفيات (٤/ ٤٨)، الوافي بالوفيات (٥/ ١٣٩)، سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٩٠). وقال الذهبي فيه في ترجمة المعتصم: ولد سنة ثمانين ومائة، وأمه ماردة أم ولد. بويع بعهد من المأمون في رابع عشر رجب سنة ثمان عشرة. وكان أبيض اللحية طويلها، ربع القامة، مشرب اللون، ذا قوة وبطش وشجاعة وهيبة، لكنه نزر العلم.
. . . وقال غير نفطويه: خلّف من الذهب ثمانية آلاف ألف دينار، وثمانية عشر ألف ألف درهم، وثمانين ألف فرس، وثمانية آلاف مملوك، وثمانية آلاف جارية، وبنى ثمانية قصور، وقيل: بلغ مماليكه ثمانية عشر ألفاً، وكان ذا سطوة إذا غضب لا يبالي من قتل.
. . . قال الخطيب: كثر عسكر المعتصم، وضاقت عليهم بغداد، فبنى مدينة سُرَّ مَنْ رَأى وتحوّل إليها، وتسمّى أيضاً: العسكر. . . . وقال علي بن الجعد: جعل المعتصم يقول: ذهبت الحيلة فليس حيلة، فليس حيلة، حتى صمت. وقيل: إنه قال: أُوْخذ وحدي من بين هذا الخلق. وله نظم وسط، وكلمات جيدة. وقيل: إنه جعل زند رجل بين أصبعيه فكسره.

(٣) موضع النقط كلمة في المخطوط مطموسة، وفي سير أعلام النبلاء: وله فتوحات ثمانية: بابك، عمورية، والزُط، وبحر البصرة، وقلعة الأجراف، وعرب ديار ربيعة، والشاري، وفتح مصر يعني قهر أهلها قبل خلافته، وقتل ثمانية: بابك، والأفشين، ومازيار، وباطيس، ورئيس الزنادقة، وعجيفاً، وقارون، وأمير الرافضة.

استيثارهم بملكه، وللتغلّب على ولده وولد ولده من بعده.

وكان أميناً، ففشا في أيامه القول بخلق القرآن وتألّف أئمة الإسلام/ لذلك[٤٧/ب] محن.

وكان المعتصم يميل إلى التبديد والاستمتاع بلذات الدنيا، وإيثار المغنين والملهين على ما في كتب التاريخ من الأغاني وغيرها. وكان من مناقبه فتح عمورية، وكان ملكهم قد خرج إلى بلاد المسلمين فاستولى على ما يجاوره...[١] فقام له المعتصم فشمّر للدفاع ولبس الصوف وأشاع...[١] من فتح عمورية.

وفي ذلك يقول حبيب بن أوس الطائي قصيدته...[٢] على المنجمين في عهده إذ كانوا يخبرون على وفورهم إذ ذاك وشهدت أعلامهم بحوادث في العالم أكذبها الله بخلافها من نصر المعتصم، وغلبته على بلاد الروم، وما فتح الله من أبواب الخير للمسلمين في أيامه.

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحدّ بين الجد واللعب

والعلم في شهب الأرماح لامعة ... بين الخمسين لا في السبعة الشهب

ابن الرواية أم ابن النجوم وما ... صاغوه من زخرف فيها ومن كذب

تخرصاً وأحاديثاً مُلَفَّقَةً ... ليست بنبع إذا عُدت ولا غرب

غرائب زعموا الأيام مُجفلة ... عنهن في صفر الإسلام أو رجب

وهل الأبراج العليا مدبرة ... ما كان متقلباً أو غير متقلّب

يقضون بالأمر عنها وهي غافلة ... ما دار في فلك منها وفي قُطْب

لو بنيت قط أمراً قبل موقعه ... لم يخف ما حلّ بالأوتار والطلب

فتح الفتوح تَعَلَى أن تحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب

فتح بفتح أبواب السماء له ... وتبرز الأرض في أثوابها القشب

وتوفي المعتصم بسر من رأى، لثامن عشرة خلت من ربيع الأول سنة سبع وعشرين[٣].

---

(١) طمس في المخطوط. (٢) طمس في المخطوط.

(٣) وفي سير أعلام النبلاء: مات المعتصم يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين، وله سبعة وأربعون سنة وسبعة أشهر، ودفن بسر من رأى، وصلّى عليه ابنه الواثق. وقال ابن الأثير في الكامل في ذكره لوفاة المعتصم: توفي المعتصم أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد... لثمان عشرة مضت من ربيع الأول. وكان بدو علّته أنه احتجم أول يوم في المحرم واعتلّ عندها.

وكانت ولايته ذروة الدولة العباسية، ومن بعده أخذت في الاضمحلال، وطوى بساط الجهاد في سبيل الله والقتال، وولي بعد المعتصم الواثق.

[١/٤٨]

/ دولة الواثق بن المعتصم(١)

واسمه هارون.

وكان شغوفاً بالشراب والغناء...(٢) على رأي أبيه في القول بخلق القرآن، وله في ذلك حكايات.

= قال زنام الزامر: أفاق المعتصم في علّته التي مات فيها إفاقة قال: هيؤوا لي الزلال لأركب غداً. فركب في الزلال في دجلة وأنا معه، فمرّ بإزاء منازله فقال: يا زنام أزمر لي:

يا منزلاً لم تبلَ أطلاله ... حاشى لأطلالك أن تبلى

الأبيات. قال: فما زلت أزمُر له هذا الصوت وأكرّره وقد تناول منديلاً بين يديه، فما زال يبكي فيه وينتحب حتى رجع إلى منزله، ولما احتضر المعتصم جعل يقول: ذهبت الحيل ليست حيلة حتى أصمت، ثم مات ودفن بسامرا وكانت خلافته ثمان سنين وثمانية أشهر ويومين. وكان مولده سنة تسع وسبعين ومائة. وقيل: سنة ثمانين ومائة في الشهر الثامن، وهو الثامن الخلفاء من ولد العباس. مات عن ثمانية بنين وثمان بنات، وملك ثمان سنين وثمانية أشهر. فعلى القول الأول يكون عمره سبعاً وأربعين سنة وسبعة أشهر.

(٢) طمس في المخطوط.

(١) مصادر ترجمته: تاريخ بغداد (١٤/ ١٥)، تاريخ الخلفاء (٣٦٧)، تاريخ الخميس (٢/ ٣٣٧)، النبراس لابن دحية (٧٣)، تاريخ اليعقوبي (٣/ ٢٠٤)، تاريخ الطبري (٩/ ١٢٣)، مروج الذهب (٧/ ١٤٥)، فوات الوفيات (٤/ ٢٢٨)، سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٠٦)، والكامل في التاريخ في أحداث سنة (٢٢٧) وما بعدها إلى سنة (٢٣٢)، وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء: أمه روميّة اسمها قراطيس أدركت خلافته.... كان مولده في شعبان سنة ست وتسعين ومائة.

قال يحيى بن أكثم: ما أحسن أحد إلى الطالبيين ما أحسن إليهم الواثق، ما مات وفيهم فقير. وقال حمدون بن إسماعيل: كان الواثق مليح الشِّعر، وكان يحب مولى أهداه له من مصر شخص، فأغضبه، فحرد حتى قال لبعض الخدم: والله إن مولى ليروم أن أُكلّمه من أمس، فما أفعل، فعمل الواثق:

يا ذا الذي بعذابي ظَلَّ مفتخراً ... ما أنت إلاّ مليك جار إذ قدر
لولا الهوى لتجازينا على قدر ... وإن أفق منه يوماً ما فسوف ترى

قال الخطيب: استولى أحمد بن أبي داود عليه وحمله على التشدّد في المحنة، والدعاء إلى خلق القرآن... وعن طاهر بن خلف قال: سمعت المهتدي بالله بن الواثق يقول: كان أبي إذا أراد أن يقتل رجلاً أحضرنا، قال: فأُتي بشيخ مخضوب مُقيّد. فقال أبي: ائذنوا لأحمد بن أبي داود وأصحابه، وأُدخل الشيخ، فقال: السلام عليكم يا أمير المؤمنين. فقال: لا سَلَّم الله عليك. قال: بئس ما أدّبك مُؤدِّبُكَ، قال الله تعالى: ﴿وإذا حُيِّيْتُم بتحيةٍ فحَيُّوا بأحسنَ منها أو رُدُّوها﴾ [النساء: ٨٦]. فقال أحمد: الرجل متكلم. قال: كَلِّمه. فقال: يا شيخ، ما تقول في القرآن؟ قال: لم تنصفني ولي السؤال. قال: سَلْ. قال: ما تقول أنت؟ قال: مخلوق. قال: هذا شيء علمه =

وذكروا أنه أدخل على الواثق. . .[١] فقال: ما تقول في خلق القرآن؟

وكان الشيخ يقول: إنه به صمم. . .[١] اليوم ولا أقدر على الخياطة.

فغضب الواثق وقال: . . .[٢] بصوت أعلى.

فقال: لي أكثر من عشرين سنة ما عملتها. فهمّ الواثق بالضحك، وقال. . .[١] فصاحوا بالقول.

فقال: وما أقول في القرآن والتوراة والإنجيل والزبور كل الأربعة مخلوقة.

وهو يعقد بأصابعه.

فلما خرج، قيل له: إنه كان يشير إلى أصابعه. فأمر بِرَدِّهِ، فطلب فلم يوجد.

ومات الواثق حتف أنفه لست بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين.

وكان قد ارتأى على والده في الاستظهار بالمماليك، وأبناء العجم. . .[٣].

وجعل مقاليد أموره بأيدي العجم، فأخذت الدولة العربية في. . .[١] رسمها عما قليل.

واختار الوزراء من بعده للمُلك أخاه جعفراً.

= رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمر، والخلفاء، أم لم يعلموه؟ فقال: شيء لم يعلموه. قال: سبحان الله، شيء لم يعلموه وعلمته أنت؟! فخجل وقال: أقلني. قال: المسألة بحالها، ما تقول في القرآن؟ قال: مخلوق. قال: شيء علمه رسول الله ﷺ؟ قال: عَلِمَهُ. قال: أعلمه ولم يدع الناس إليه؟ قال: نعم. قال: فوسعه ذلك؟ قال: نعم. قال: أفلا وسعك ما وسعه، ووسع الخلفاء بعده؟.

فقام الواثق، فدخل الخلوة، واستلقى، وهو يقول: شيء لم يعلمه النبي ﷺ، ولا أبو بكر، ولا عمر، ولا عثمان، ولا علي، علمته أنت، سبحان الله، عرفوه، ولم يدعوا إليه الناس، فهلا وسعك ما وسعهم. ثم أمر برفع قيد الشيخ، وأمر له بأربعمائة دينار، وسقط من عينه ابن أبي داود، ولم يمتحن بعدها أحداً.

. . . قال ابن أبي الدنيا: كان أبيض تعلوه صُفرة، حسن اللحية، في عينه نكتة. . . . قال زرقان بن أبي داود: لما احتضر الواثق ردّد هذين البيتين:

الموت فيه جميع الخلق مشترك ... لا سوقة منهم يبقى ولا ملك

ما ضرّ أهل قليل في تفرّقهم ... وليس يغني عن الأملاك ما ملكوا

ثم أمر بالبسط فطويت وألصق خدّه بالتراب، وجعل يقول: يا من لا يزول ملكه، ارحم من زال ملكه. وكانت خلافته خمس سنين ونصفاً، ومات بسامرا لستّ بقين من ذي الحجة.

(١) طمس في المخطوط.

(٢) طمس في المخطوط.

(٣) طمس في المخطوط.

دولة جعفر المتوكل بن المعتصم(١)

بويع يوم وفاة أخيه.

وكان شديد الاستغراق في الشهوات، وبالغاً أقصى ما بلغ المترفين من الملوك.

ذكر الجوزي في تاريخ بغداد أنه بلغ عدد الفرّاشين كل يوم بداره أربعة آلاف فرّاش.

قلت: يرحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، لو عاش إلى زمان المتوكل هذا لكنه رحمه الله أظهر السنّة.

وقيل: إنه رُئي في المنام بعد موته، وقيل له: ما فعل الله بك؟

قال: غفر لي.

قيل: وبماذا؟

قال: بقليل من السُّنَّة أحييتها.

وهو الذي بَنَى الجعفرية، والمكاني، والبنية المسماة اللؤلؤة.

وأنفق على... (٢) والجوسق أكثر من مائة ألف ألف.

وكانت له أربعة آلاف سرية... (٢). ونالت بآل طالب في أيامه محنة عظيمة، ومنعوهم وغيرهم من زيارة قبر الحسين(٣) وأمر بتسويته ونبشه، فلم يوجد فيه أثر رِمَّةٍ ولا غيرها.

---

(١) مصادر ترجمته: تاريخ بغداد (٧/ ١٦٥)، العبر (١/ ٤٤٩)، فوات الوفيات (١/ ٢٩٠)، البداية والنهاية (١٠/ ٣١٠)، العقد الثمين (٣/ ٤٣١)، سير أعلام النبلاء (١٢/ ٣٠)، شذرات الذهب (٢/ ١١٤)، النجوم الزاهرة (٢/ ٢٧٥)، تاريخ الخلفاء (٣٤٦)، وفيات الأعيان (١/ ٣٥٠).
قال ابن الأثير في الكامل في أحداث سنة (٢٣٢) في ذكر خلافة المتوكل: في هذه السنة بويع المتوكل على الله جعفر بن المعتصم بعد موت الواثق. وسبب خلافته أنه لما مات الواثق حضر الدار أحمد بن أبي داود، وإيتاخ، ووصيف، وعمر بن فرج، وابن الزيات، وأبو الوزير أحمد بن خالد، وعزموا على البيعة لمحمد بن الواثق ـ وهو غلام أمرد قصير ـ فألبسوه دراعة سوداء، وقلنسوة، فإذا هو قصير. فقال وصيف: أما تتقون الله، تولّون هذا الخلافة؟ فتناظروا فيمن يوّلونه، فذكروا عدّة، ثم أُحضر المتوكل، فلما حضر ألبسه أحمد بن أبي داود الطويلة وعممه، وقَبَّل بين عينيه، وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، ثم غسل الواثق وصلّى عليه ودفن. وكان عمر المتوكل يوم بويع ستاً وعشرين سنة. ووضع العطاء للجند لثمانية أشهر. وأراد ابن الزيّات أن يلّقبه المنتصر، فقال أحمد بن أبي داود: قد رأيت لقباً أرجو أن يكون موافقاً وهو المتوكل على الله. فأمر بإمضائه فكتب به إلى الآفاق.

(٢) طمس في المخطوط.

(٣) قال ابن الأثير في الكامل في أحداث سنة (٢٣٦) في ذكر ما فعله المتوكل بمشهد الحسين بن علي بن =

ولما أتمَّ بناء الجعفرية، أحضر القرّاء، وبعدهم الملهين، فلما قضى القوم شأنهم وهب لهم ألف ألف.

وكان موته بتدبير ابنه/ المنتصر على يدي بُغا التركي لأربع خلون من شوال سنة [٤٨/ب] سبع وأربعين ومائتين.

وكان قد أخذ العهد الشديد على الناس بالطاعة لبنيه الثلاثة من بعده وهم: محمد المنتصر الذي صار إليه أمره...[١]، والمعتز بالله، وإبراهيم المؤيد بالله.

في كتب كتبها وشروط اشترطها...[١] جزءً من الأعمال، وجعل ولي عهده المُنتصر المذكور...[٢] وإبراهيم المؤيد.

واستوثق من الناس، واستحلفهم على ذلك، وفرّق الأموال، ووعد الناس

= أبي طالب عليه السلام: في هذه السنة أمر المتوكُل بهدم قبر الحسين بن علي، وهدم ما حوله من المنازل والدور، وأن يُبذر ويُسقى موضع قبره، وأن يُمنع الناس من إتيانه. فنادى بالناس في تلك الناحية من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة حبسناه في المطبق، فهرب الناس وتركوا زيارته، وخرب وزرع. وكان المتوكل شديد البغض لعلي بن أبي طالب، ولأهل بيته، وكان يقصد من يبلغه عنه أنه يتولى علياً وأهله بأخذ المال والدم.

وكان من جملة ندمائه عبادة المخنث، وكان يشدّ على بطنه من تحت ثيابه مخدّة، ويكشف رأسه وهو أصلع، ويرقص بين يدي المتوكل والمغنون يغنون: قد أقبل الأصلع البطين خليفة المسلمين. يحكي بذلك علياً عليه السلام، المتوكل يشرب ويضحك. ففعل ذلك يوماً والمنتصر حاضر، فأومأ إلى عبادة يتهدده، فسكت خوفاً منه، فقال المتوكل: ما حالك؟ فقام وأخبره، فقال المنتصر: يا أمير المؤمنين، إن الذي يحكيه هذا الكلب ويضحك منه الناس، هو ابن عمك وشيخ أهل بيتك وبه فخرك، فكل أنت لحمه إن شئت ولا تطعم هذا الكلب وأمثاله منه. فقال المتوكل للمغنين: غنوا جميعاً:

غـارَ الـفـتـى لابـن عـمـه ... رأس الـفـتـى فـي حِـرِ أمـه

فكان هذا من الأسباب التي استحلّ بها المنتصر قتل المتوكل.

قيل: إن المتوكل كان يبغض من تقدّمه من الخلفاء، المأمون، والمعتصم، والواثق، في محبة علي وأهل بيته، وإنما كان ينادمه ويجالسه جماعة قد اشتهروا بالنصب والبغض لعلي منهم علي بن الجهم الشاعر الشامي بني شامة بن لؤي، وعمرو بن فرخ الرخجي، وأبو السمط من ولد مروان بن أبي حفصة من موالي بني أميّة، وعبد الله بن محمد بن داود الهاشمي المعروف بابن أترجة، وكانوا يخوفونه من العلويّين ويشيرون عليه بإبعادهم والإعراض عنهم والإساءة إليهم، ثم حسّنوا له الوقيعة في أسلافهم الذين يعتقد الناس علوّ منزلتهم في الدين. ولم يبرحوا به حتى ظهر منه ما كان، فغطت هذه السيئة جميع حسناته.

وكان من أحسن الناس سيرة، ومنع الناس من القول بخلق القرآن إلى غير ذلك من المحاسن.

(١) طمس في المخطوط.

(٢) طمس في المخطوط.

بالصِّلات[١]، وتكلمت في ذلك الخطباء والشعراء، ففي ذلك يقول ابن المُدبر:

يا بيعة تعدل بيعة الشجرة فيها لكل الخلائق الخِيرة
أكدها جعفر وصيَّرها إلى بنيه الثلاثة البررة

وقال اليشع السُّلمي شاعرهم في ذلك:

لقد شَدَّ عرى الدين بالبيعة الرضى وطائر سعد جعفر بن محمد
بمنتصر باللَّه مكَّنه وأكرم بالمعتز قبل المؤيد

وكان المعتزّ والمؤيد صبيين لم يحتلما..

ويأتي في دولة أخيهما المنتصر تمام الحديث فيهما إن شاء الله تعالى، وهما من شرط هذا الكتاب.

دولة المنتصر بن المتوكل[٢]

ولما صار الأمر إلى المنتصر محمد بن جعفر المتوكل، أجْبَرَ أخويه المؤيد والمعتزّ على خلع نفسيهما.

---

(١) قال ابن الأثير في الكامل في أحداث سنة (٢٣٥) في ذكر البيعة لأولاد المتوكل بولاية العهد: في هذه السنة عقد المتوكل البيعة لبنيه الثلاثة بولاية العهد وهم: محمد ولقبه المنتصر بالله. وأبو عبد الله محمد، وقيل طلحة، وقيل الزبير، ولقبه المعتزّ بالله. وإبراهيم ولقبه المؤيد بالله. وعقد لكل واحد منهما لواءين أحدهما أسود وهو لواء العهد، والآخر أبيض وهو لواء العمل، فأعطى كل واحد منهما ما نذكره.

فأما المنتصر فأقطعه إفريقية، والمغرب كله، والعواصم، وقنسرين، والثغور جميعها الشامية، والجزرية، وديار مضر، وديار ربيعة، والموصل، وهيت، وعانة، والأنبار، والخابور، وكور باجرمي، وكور دجلة، وطساسيج، والسواد جميعها، والحرمين، واليمن، وحضرموت، واليمامة، والبحرين، والسند، ومُكْرَان، وقتدابيل، وفرج بيت الذهب، وكور الأهواز، والمستغلات بسامرا، وماء الكوفة، وماء البصرة، وماء سبذان، ومهر جانقذق، وشهرزور، والصامغان، وأصبهان، وقُم، وقاشان، والجبل جميعه، وصدقات العرب بالبصرة.

وأما المعتز فأقطعه: خراسان، وما يضاف إليها، وطبرستان، والري، وأرمينية، وأذربيجان، وكور فارس. ثم أضاف إليه سنة أربعين خزن الأموال في جميع الآفاق، ودور الضرب، وأمر أن يضرب اسمه على الدراهم.

وأما المؤيّد فأقطعه: جند حمص، وجند دمشق، وجند فلسطين.

(٢) مصادر ترجمته: تاريخ بغداد (٢/ ١١٩)، تاريخ الطبري (٩/ ٢٣٤)، تاريخ الخلفاء (٣٥٦)، فوات الوفيات (٣/ ٣١٧)، الوافي بالوفيات (٢/ ٢٨٩)، النجوم الزاهرة (٢/ ٣٢٧)، سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٢)، شذرات الذهب (٢/ ١١٨)، أسماء الخلفاء والولاة (ص ١٢٩)، الكامل من أحداث سنة (٢٤٧: سنة ٢٤٨).

قال الذهبي في ترجمته في السير: أمه رومية اسمها حبشية. وكان أعين، أسمر، أقنى، مليح =

وقد كان أبوهما عهد إليهما بالأمر بعده وهما غلامان صغيران لم يبلغا الاحتلام من مُلوك الإسلام.

قال: فلما أُحضر أبرار الملك قال المعتزّ لأخيه المؤيد: لِمَ ترى أحضرنا؟

قال: يا أخي للخلع.

قال المؤيد: ما كنت لأفعل.

وقال المعتزّ: السمع والطاعة.

= الوجه، مُصَبَّراً، رُبْعَةً، كبير البطن، مليحاً، مهيباً. ولما قُتل أبوه دخل إليه قاضي القضاة جعفر بن عبد الواحد الهاشمي، فقالوا: بايع. فقال: وأين أمير المؤمنين - يعني المتوكل؟ - قال: قتله الفتح بن خاقان. قال: وأين الفتح؟ قال: قتله بغا. قال: فأنت وليّ الدم، وصاحب الثأر، فبايعه وبايع الوزير، والكبار.

ثم صالح المنتصر إخوته عن ميراثهم على أربعة عشر ألف ألف درهم، ونفى عمَّه علياً إلى بغداد، ورَسَّم عليه. وكان المنتصر وافر العقل، راغباً في الخير، قليل الظلم، بازاً بالعلويين. قيل: إنه كان يقول: يا بغا، أين أبي؟ من قتل أبي؟!! ويسبّ الأتراك، ويقول: هؤلاء قتلة الخلفاء. فقال بغا الصغير للذين قتلوا المتوكل: ما لكم عند هذا رزق. فعملوا عليه وهمُّوا فعجزوا عنه، لأنه كان شجاعاً مهيباً يقظاً متحرِّزاً لا كأبيه، فتحيّلوا إلى أن دسّوا إلى طبيبه ابن طيفور ثلاثين ألف دينار عند مرضه، فأشار بفصده، ثم فصده بريشة مسمومة، فمات منها. ويقال: إن طيفور نسي ومرض، وافتُصد بتلك الريشة فهلك. وقال بعض الناس: بل حصر للمنتصر مرض في أنثييه، فمات منه في ثلاث ليال. ويقال: مات بالخوانيق. ويقال: سُمَّ في كمثراة بإبرة.

وورد عنه أنه قال في مرضه: ذهبت يا أماه مني الدنيا والآخرة، عاجلت أبي فعوجلت. وكان يتهم بأنه واطأ على قتل أبيه، فما أُمهل ووزر له أحمد بن الخصيب أحد الظلمة. وذكر المسعودي: أنه أزال عن الطالبيين ما كانوا فيه من الخوف والمحنة من منعهم من زيارة تربة الحسين الشهيد، وردّ فَدَكَ إلى آل علي... ثم أن المنتصر تمكّن وخلع من العهد أخويه: المعتزّ وإبراهيم.

... قال المسعودي: كان المعتزّ أظهر العدل في الرعية، فمالوا إليه مع شدّة وهيبة. وجلس مرة للهو، فرأى في بعض البسط دائرة فيها فارس عليه تاج، وحوله كتابة فارسية، فطلب من يقرأ. فأُحضر رجل، فنظر، فإذا فيها: ... فقطب وسكت، وقال: لا معنى له. فألح المنتصر عليه. قال: فيها: أنا شيرويه بن كسرى بن هرمز... قتلت أبي، فلم أُمتَّع بالملك سوى ستة أشهر. قال: فتغيّر وجه المعتز، وقام. قال الذهبي: قلَّ ما وقع في دولته من الحوادث لقصر مدته، وعاش ستاً وعشرين سنة سامحه الله.

ومات في خامس ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين، وكانت خلافته ستة أشهر وأياماً. وكان قد أبعد وصيفاً في عسكر إلى ثغر الروم، وكان قد ألحّ عليه هو، وبغا، وابن الخصيب في خلع أخويه خوفاً من أن يلي المعتزّ فيستأصلهم. فاعتقلا، وتمنع أولاً المعتز، ثم خاف، وأشهدا على أنفسهما أنهما يعجزان عن الإمامة. فقال المنتصر: أترياني خلعتكما طمعاً في أن أعيش بعدكما حتى يكبر ابني عبد الوهاب وأعهد إليه؟! والله ما طمعت في ذلك، ولكن هؤلاء ألحوا عليّ، وخفت عليكما من القتل، فقبّلا يده، وضمهما إليه. وللمنتصر من الولد: أحمد، وعلي، وعبد الله، وعمر.

فأُعْلِم المنتصر، فأُخذ بعنف وأُدخل بيتاً وأغلق عليه الباب.

فلما رأى ذلك المعتز، قال بِجُرْأةٍ واستطالة: ما هذا يا كلاب؟

هكذا تثبون على مولاكم؟! قبحكم الله حتى أُكلِّمه.

ثم قام إلى المؤيد، فقال: يا جاهل، تراهم قد نالوا من أبيك ما نالوا وهو خليفة، وتمتنع أنت!! اخلع نفسك.

فقال: أفعل.

فخرج المعتز إليهم، وقد أجاب، وأعلم المنتصر بذلك.

ثم عادوا إلى المعتزّ فجزوه خيراً.

وكتب المؤيد خلعه بيده.

وكذا كتب المعتز، كذلك.

[١/٤٩] / نسخة ما كتب المعتزّ إذ كان له العهد بعد المنتصر

بعد بسم الله الرحمٰن الرحيم: إن أمير المؤمنين المتوكِّل على الله قلّدني هذا الأمر، وبايعني وأنا صغير من غير محبتي ولا إرادتي، فلما فهمت أمري وعلمت أني لا أقوم بما قلّدني من ذلك ولا أصلح لخلافة المسلمين انخلعت عنها.

فمن كانت بيعتي بعنقه، فهو من نقضها في حلّ، وأحللكم وأبرئكم من أيمانكم، فلا عهد لي في رقابكم، وأنتم براء من ذلك إن شاء الله.

وكانت:

نسخة البيعة التي عقدت من كلام سعيد بن حُميد الكاتب

وهي هذه:

تبايعون عبد الله محمد المنتصر بالله أمير المؤمنين، بيعة طوع واعتقاد وإخلاص من سرائركم، وانشراح من صدوركم، وصدق من نيّاتكم، لا مكرهين ولا مضطهدين، بل مقرّين عالمين بما في هذه البيعة وتأكيدها من طاعة الله وتقوي المؤمن إقرار بدين الله، وحقه وصلاح عباده، واجتماع الكلمة ولمّ الشعث. . .[١] وأمن العواقب، وعزّ الأولياء، وقمع الملحدين الأعداء على. . . المنتصر بالله أمير المؤمنين عبد الله وخليفته، المفترض عليكم حقه وطاعته ومناصحته والوفاء بعهده، لا تنكثون ولا تداهنون، وعلى السمع والطاعة والمسالمة والنصر والوفاء والاستقامة

(١) طمس في المخطوط قدره كلمة.

والنصيحة في السرّ والعلانية، والوقوف عند أوامره، وعلى أنكم أولياء أوليائه وأعداء أعدائه، من خاصٍ وعام وقريب وبعيد، سرائركم في ذلك مثل علانيتكم، وضمائركم مثل ظواهركم، راضون بما يرضاه لكم أمير المؤمنين في عاجلكم وآجلكم، وعلى إعطائكم أمير المؤمنين بيعته في صفقة أيمانكم راغبين طائعين عن سلامة من قلوبكم وأهوائكم، وعلى أن لا تسقطوا شيئاً مما أكّد الله جلّ ذكره عليكم حتى تلقوه تقدست أسماؤه موفين بعهده ومؤدِّين حقه، ومتمسكين ببيعته غير ناكثين، إذ كان الذين يبايعون منكم أمير المؤمنين ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: الآية ١٠].

عليكم الوفاء بما تأكدت به هذه البيعة في أعناقكم، وكل ما يملك كل واحد، فما كان/ فيها من مال أو. . .[١]، أو ضرع، صرفه على المساكين مُحرجاً عليه أن [٤٩/ب] يصرف عليه شيئاً من. . .[١] عن حيلة يقدمها لنفسه بقية عمره. . .[١] إلى أن توافيه المنية ويأتيه أجله، وكل مملوك يملك من اليوم إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله، ونساؤه في يوم يلزمه الحنث، ومن تزوّج بعد هذا إلى ثلاثين سنة طوالق البتة طلاق الحرج لا ثنوية فيها ولا رجعة، وعليه المشي إلى بيت الله الحرام ثلاثين حجّة لا يقبل الله منه إلاّ الوفاء بها ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً، والله شهيد عليكم، وكفى بالله شهيداً.

وكان على عهد هذا الإشهاد المعقود لهذين الغلامين من الأعلام الذين لا يُغفل عن إشهادهم بمثل هذه العهود تبرّكاً واستظهاراً للوثوق فيها، فمن القضاة مثل:

إبراهيم بن إسحاق العبسي الصوفي، قاضي مدينة المنصور، سمع من ابن أبي الدنيا، ومثله.

والحسن بن عبد الله بن المرزبان ولي القضاء ببغداد وكان نزيهاً، عفيفاً، جميل الأثر، حسن الأخلاق.

والحسن بن عثمان بن حماد الإيادي، سمع هُشيماً وابن علية، والمعتزّ، وجريراً ووكيعاً، وولي قضاء الشرقية ببغداد، وكان من الفقهاء الفضلاء.

وحماد بن إسحاق بن إسماعيل بن زيد، ولي القضاء ببغداد، وحدّث عن مسلم بن إبراهيم، والعتبي، وكان ثقة فصيحاً، كثير التصنيف في علوم الإسلام.

والحارث بن مسكين بن محمد أبو عمر المصري، سمع سفيان بن عيينة، وكان مأموناً، ثقة، ولي قضاء مصر، وكان ممن امتحن زمن المأمون بسبب القول بخلق القرآن.

(١) موضع النقط كلمات مطموسة في المخطوط.

والزبير بن بكار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير الأسدي العلاّمة، سمع من سفيان بن عيينة، والنضر بن شميل، وروى عنه ثعلب، وابن أبي الدنيا، والمحاملي، ولي القضاء بمكة، وحدّث ببغداد.

وصالح بن أحمد بن محمد بن حنبل، سمع أبا الوليد الطيالسي، وعلي بن المديني، روى عن البغوي، وابن مخلد، وولي القضاء بأصبهان.

وعلي بن محمد بن أبي الشوارب الذي سمع أبا الوليد الطيالسي، وروى عنه ابن صاعد، وأبو بكر الشافعي، وولي القضاء بمدينة المنصور، وسُرَّ مَنْ رَأَى.

[٥٠/أ] ومن القرّاء مثل: محمد بن أحمد بن بكيرْ، أبو بسكر/ المقرىء، سمع يزيد بن هارون، وسليمان بن حرب، وخلف بن هشام، وأحمد بن حنبل، وكان أحمد يُبَجِّله ويصلي خلفه.

ومن المحدِّثين: أحمد بن إبراهيم بن كثير، روى عن أحمد بن إسماعيل ابن عُلية، ويزيد بن زريع، وهشيماً، وابن مهدي، وروى عنه مسلم بن الحجاج، وابن أبي الدنيا، وأحمد بن أبي خيثمة، وزهير بن حرب، ومنصور بن سلمة الخزاعي، وعفان بن مسلم، وأبا نُعيم في خلق كثير.

وأحمد بن سعيد أبو عبد الله الرياضي، سمع وكيع بن الجراح وغيره، وروى عنه البخاري.

وأحمد بن سعيد بن صخر بن سليمان بن جعفر الدارمي، سمع من النضر بن شميل، وخلق كثير، وكان من الحفّاظ، وحدّث ببغداد.

وأحمد بن سعيد بن إبراهيم الزبيري، سمع علي بن الجعد وخلقاً كثيراً، وروى عن البخاري، وابن صاعد بن أبي الدنيا، والبغوي، والحسن بن عبد العزيز أبو علي. روى عنه ابن أبي الدنيا، والمحاملي.

وسليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني، مصنّف كتاب السنن.

[٥٠/ب] حكى الجوزي/ عنه قال: كتبت من حديث رسول الله ﷺ خمسمائة ألف حديث، انتخبت منها . . .[١].

وعبد الله بن عبد الرحمٰن بن الفضل، أبو محمد الداودي، ثقة، روى عنه مسلم والبخاري . . .[١]، البغوي، وابن صاعد المحاملي، وكان من أهل الزهد والصلاح.

وأحمد بن يسار بن أيوب، الفقيه المروزي، سمع من عفان بن مسلم إمام المحدّثين ببلده.

---

(١) طمس في المخطوط.

وأحمد بن صالح أبو جعفر، وكان من الحفّاظ الكبار، ذاكر أحمد بن حنبل، فأثنى عليه وحدّث عنه. . .(١) والبخاري وغيرهما.

وأحمد بن عبد الله بن صالح بن مسلم العجلي، حدّث عن سيابة، وعنه أبو حسين الجعفي.

وأحمد بن الفرات بن خالد بن مسعود الضبي، حدّث ببغداد، وكان الإمام أحمد يقدمه.

وأحمد بن منصور بن يسار، كثير السماع، سمع من عبد الرزاق بن هشام بن القاسم، وصنّف المسند، روى عنه إسماعيل القاضي والبغوي، وأحمد بن منيع بن عبد الرحمٰن أبو جعفر الأصم جد أبي القاسم البغوي. . .(٢) وسفيان بن عيينة وغيرهم، روى عنه البخاري ومسلم.

وإبراهيم بن إسحاق. . .(١)، كان إماماً ثقة يزوره أحمد بن حنبل، ويفطر عنده.

وإسحاق ابن. . .(١) ابن حسان بن سنان التنوخي الأنباري، سمع من وكيع وأبي معاوية وابن عُلية، وروى عنه ابن صاعد بن أبي الدنيا، واستدعاه المتوكل، ونصب له منبراً. . .(١).

والحسن بن الصبَّاح بن محمد.

وأبو علي البزار، سمع سفيان وروى عنه. . .(٣) ابن عبد الله بن عبد الكريم أبو زرعة الرازي إمام من أئمة المحدثين، قال أبو العباس. . .(١) رأيت أبا زرعة في المنام، فقلت له: ما فعل الله بك. . .(١)؟

فقال: قال لي: يا أبا زرعة، إني آتي بالطفل فآمر به إلى الجنة، فكنه من حفظك للحديث. . .(١) تبوّأ من الجنة حيث تشاء.

وعبد الوهاب بن الحكم الوراق، روى عن علي بن عباد، وأنس بن عياض، وروى عنه أبو داود، وابن أبي الدُّنيا، والمحاملي.

وعلي بن عاصم بن صهيب، وسمع من خلق كثير، وروى عنه أحمد بن حنبل وغيره.

قال: دفع إليَّ أبي مائة ألف درهم، وقال: اذهب، فلا أرى لك وجهاً إلاّ بمائة

---

(١) طمس في المخطوط قدره كلمة.

(٢) موضع النقط طمس في المخطوط.

(٣) موضع النقط كلمات مطموسة في المخطوط.

ألف حديث.

والفتح بن إسحاق، وأبو نصر...[١] من أئمة المحدّثين الصالحين، قال الإمام أحمد: ما أخرجت خراسان مثله.

ومحمد بن إسماعيل قطني أبو بكر الصاغاني، قال عبد الرزاق قطنيّ ثقة وفوق الثقة.

ومحمد بن إبراهيم أبو جعفر الأنماطي صاحب التاريخ.

ومحمد بن إبراهيم بن مسلم أبو أميّة، من أئمة المحدّثين.

ومحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة أبو عبد الله البخاري صاحب الجامع الصحيح، جمعه من ستمائة ألف، ومقداره لا يُجْهَل.

ومحمد بن يسار بن عثمان بن كيسان أبو بكر البصري، المعروف ببندار، روى عنه ابن أبي الدنيا والبغوي وغيرهم.

ومحمد بن عبد الرحيم أبو...[٢] روى عنه البخاري.

ومحمد بن مسلم بن عثمان الرازي، حدّث عنه البخاري وغيره.

ومحمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن خالد النيسابوري الذهلي مولاهم. سمع ابن مهدي، وكان من الأئمة يقوم إليه أحمد بن حنبل إذا دخل.

ومسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري صاحب المسند الصحيح، صنّف المسند المذكور من ثلاثمائة ألف مسموعة.

ونصر بن علي بن ناصر أبو عمر الجهضمي، روى عن سفيان بن عيينة، وروى عنه مسلم بن الحجاج. وذكر الجوزي قال:...[٣] إلى نصر بن علي يُشخصه للقضاء، فقال: ارجع فأستخير الله، فرجع إلى...[١] فصلى ركعتين وقال: اللهم إن كان لي عندك خير فاقبضني...[١].

[١/٥١] ويعقوب بن إبراهيم بن كثير الدورقي، روى عنه البخاري، ومسلم،/ ويعقوب بن شيبة أبو يوسف السدوسي.

ومن الفقهاء: إبراهيم بن إسحاق أبو إسحاق الجرمي، إمام كبير.

وداود بن علي بن خلف بن سليمان...[١]، إمام أهل الظاهر الذي لم يعقد

---

(١) كلمة مطموسة في المخطوط.

(٢) كلمة مطموسة.

(٣) طمس في المخطوط.

العمل على قياس، إمام معروف القدر.

وأحمد أبو العباس بن يحيى بن يزيد، إمام أهل اللغة في وقته المعروف بثعلب.

وعبد الله بن مسلم بن قتيبة أبو محمد الدينوري.

والعباس بن الفرج أبو الفضل الرياشي.

ومحمد بن يزيد المبرد أبو العباس.

ومن الأولياء: أبو سعيد الخراز رضي الله عنه.

وبدر بن المنذر.

وعلي بن الموفق العابد.

وعمر بن مسلم بن عبد الرحمٰن القنطري رضي الله عنهم أجمعين.

ولم تطل مدة المنتصر إلى أن مات بعد أبيه لستة أشهر.

فولي الأمر بعده المستعين.

دولة المستعين بالله[١]

وهو أحمد بن محمد بن هارون الرشيد. كنيته أبو العباس[٢].

---

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٦)، تاريخ بغداد (٥/ ٨٤)، العبر (٢/ ٢)، فوات الوفيات (١/ ١٤٠)، الوافي بالوفيات (٨/ ٩٣)، البداية والنهاية (١١/ ٢)، النجوم الزاهرة (٢/ ٣١٣)، تاريخ الخلفاء (٣٥٨)، شذرات الذهب (٢/ ١٢٤)، الكامل في التاريخ (أحداث سنة ٤٨ : ٥٢).

(٢) قال السيوطي في تاريخ الخلفاء: ولد سنة إحدى وعشرين ومائتين. وأمه أم ولد اسمها مخارق. وكان مليحاً أبيض بوجهه أثر جدري، ألثغ، ولما مات المنتصر اجتمع القوّاد وتشاوروا وقالوا: متى وليتم أحداً من أولاد المتوكل لا يبقى منا باقية. فقالوا: ما لها إلا أحمد بن المعتصم، ولد سنة أستاذنا. فبايعوه وله ثمان وعشرون سنة، واستمر إلى أول سنة إحدى وخمسين، فتنكّر له الأتراك لما قتل وصيفاً وبُغا، ونفى باغر التركي الذي فتك بالمتوكل، ولم يكن للمستعين من وصيف وبغا أمر. ولما تنكّر له الأتراك خاف وانحدر من سامرا إلى بغداد، فأرسلوا إليه يعتذرون ويخضعون له، ويسألونه الرجوع، فامتنع فقصدوا الحبس، وأخرجوا المعتز بالله، وبايعوه، وخلعوا المستعين.
ثم جهّز المعتز جيشاً لمحاربة المستعين، واستعد أهل بغداد للقتال مع المستعين، فوقعت بينهما وقعات، ودام القتال أشهراً، وكثر القتل، وغلت الأسعار، وعظم البلاء، وانحلّ أمر المستعين. فسعوا في الصلح على خلع المستعين، وقام في ذلك إسماعيل القاضي وغيره، بشروط مؤكدة، فخلع المستعين نفسه في أول سنة اثنتين وخمسين، وأشهد عليه القضاة وغيرهم. فأحدر إلى واسط، فأقام بها تسعة أشهر محبوساً موكلاً به أمينٌ، ثم رُدّ إلى سامرا. وأرسل المعتز إلى أحمد بن طولون أن يذهب إلى المستعين فيقتله...

وقعت الفتنة في أيامه وشغب عليه الجند، وبايع بعضهم أخاه المعتزّ. وتغلّب على ملكه الأتراك بوصيف، وبغا.

وفيه يقول بعض الشعراء:

خليفة في قفص بين وصيف وبُغا
يقول ما قالا لهُ كما تقول الببغا

وفي أيامه ظهر يحيى بن عمر بن يحيى بن الحُسَين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي [بن أبي طالب].

وقيل: في أيام المهدي بعده.

دولة المعتزّ بالله(١)

اسمه الزبير بن جعفر المتوكل. وكان قد خلع نفسه بالمنتصر المذكور قبل. ثم

= فقال: والله لا أقتل أولاد الخلفاء. فندب له سعيد الحاجب فذبحه في ثالث شوال من السنة. وله إحدى وثلاثون سنة، وكان خيّراً فاضلاً، بليغاً أديباً، وهو أول من أحدث لبس الأكمام الواسعة فجعل عرضها نحو ثلاثة أشبار، وصغَّر القلانس وكانت قبله طويلة. مات في أيامه من الأعلام: عبد بن حميد، وأبو طاهر بن السرح، والحارث بن مسكين، والبزي المقرىء، وأبو حاتم السجستاني، والجاحظ، وآخرون.

(١) من مصادر ترجمته: تاريخ الخلفاء (٣٥٩)، معجم الشعراء (٤٠٠)، تاريخ بغداد (٢/ ١٢١)، العبر (٢/ ١٠٩)، فوات الوفيات (٣/ ٣١٩)، الوافي بالوفيات (٢/ ٢٩١)، تاريخ القاهرة (٣/ ٢٣)، شذرات الذهب (٢/ ١٣٠)، سير أعلام النبلاء (١٢/ ٥٣٢)، الكامل في التاريخ (من سنة ٥٢: ٥٥)، ورسالة أسماء الخلفاء والولاة (ص ١٣١)، وقال الذهبي في ترجمته في سير أعلام النبلاء: الخليفة أبو عبد الله، محمد، وقيل: الزبير بن المتوكل جعفر بن المعتصم محمد بن الرشيد هارون بن المهدي العباسي. ولد سنة اثنتين وثلاثين ومائتين. واستخلف وهو ابن عشرين سنة أو دونها، وكان أبيض جميلاً وسيماً من ملاّح زمانه... أمه رومية.
بويع وقت خلع المستعين، فلما كان بعد أشهر من ولايته خلع أخاه المؤيد بالله إبراهيم من العهد، فما بقي إبراهيم حتى مات وخاف المعتزّ من أن يتحدث الناس أنه سَمَّهُ، فأحضر القضاة حتى شاهدوه وما به أثر، فالله أعلم. وكانت دولة المعتز مستضعفة مع الأتراك فاتفق القوّاد وقالوا: أعطنا أرزاقنا، ونقتل لك صالح بن وصيف ـ وكان المعتز يخافه ـ فطلب من أُمّه مالاً لينفقه فيهم، فشحت عليه. فتجمّع الأتراك لخلعه، واتفق معهم صالح وبابياك، ومحمد بن بُغا. فتسلحوا وأتوا الدار، وبعثوا إلى المعتز ليخرج إليهم، فقال: قد شربت دواءً وأنا ضعيف. فهجم [عليه] جماعة، وجروه، وضربوه، وأقاموه في الحَرّ، فبقي المسكين يتضوّر، وهم يلطمونه، ويقولون: اخلع نفسك، ثم أحضروا القاضي والعدول وخلعوه.
وأقدموا من بغداد محمد بن الواثق ـ وكان المعتزّ قد أبعده ـ فسلم المعتز إليه الخلافة وبايعوه، ولُقِّب بالمهتدي بالله. ثم إن رؤوس الأتراك، أخذوا المعتز بعد خمسة أيام، فأدخلوه حماماً، =

ولي ثانية عند خلع المستعين هذا في رمضان من سنة اثنتين وخمسين ومائتين.

وقُتِل المستعين في أيامه.

وأفرط في التبذير مع الحاجة.

فأمر باتخاذ جميع الآلات كلها من الذهب. وخلع أخاه المُلَقَّب بالمؤيد المعهود له بعده.

ثم قتل في لحاف مسحوراً أُمسكت أطرافه ولياته عليه حتى مات.

واضطرب أمر المعتزّ وشغب عليه الأتراك وطلبوا أرزاقهم.

وسأل أمه أن تعطيه، فقالت: ما عندي شيء. وبعد أن فات الأمر فيها أخذ لها مالاً ...[1] من المال، والذخيرة، واجتمع الأتراك فخلعوه، وأهانوه، وعذّبوه حتى خلع نفسه سنة خمس وخمسين ومائتين وولي بعده المهتدي.

/ دولة المهتدي بالله[2] [٥١/ب]

اسمه محمد بن هارون بن محمد بن هارون.

= وأكربوه حتى عطش، ومنعوه الماء حتى كاد، ثم سقوه ماء ثلج، فسقط ميتاً رحمه الله. وذلك في شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين، وعاش ثلاثاً وعشرين سنة. ولما تولى خلع على محمد بن عبد الله بن طاهر خلعة الملك، وقلّده سيفين، فأقام وصيف، وبغا على وجل من ابن طاهر، ثم رضي المعتز عنهما، وأعادهما إلى مرتبتهما، وخلع على أخيه أبي أحمد خلعة الملك أيضاً، وتوّجه ورشّحه وقلّده سيفين، وولي القضاء الحسن بن محمد بن أبي الشوارب الأموي، وحسبت أرزاق جند الإسلام، فكانت في السنة مائتي ألف ألف درهم، ثم قبض المعتز على أخيه أبي أحمد، ثم أطلقه مضطهداً. وغلب على خراسان يعقوب بن الليث الصفار، وأخذ هراة وغيرها وخرج بالكرج الأمير عبد العزيز بن أبي دُلف، فالتقاه موسى بن بُغا وجرت ملحمة كبرى، وقُتل وصيف من كبار الأمراء.

(١) كلمة مطموسة.

(٢) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٢/ ٥٣٥)، معجم الشعراء (٤٠١)، وفيات الوفيات (٤/ ٥٠)، الوافي بالوفيات (٥/ ١٤٤)، تاريخ ابن كثير (١١/ ١٧)، النجوم الزاهرة (٣/ ٢٦)، تاريخ الخلفاء (٣٦١)، شذرات الذهب (٢/ ١٣٢)، رسالة أسماء الخلفاء والأمراء (١٣١)، الكامل في التاريخ (في أحداث سنة ٢٥٥: ٢٥٦).

قال السيوطي في تاريخ الخلفاء: أمه أم ولد تسمى وردة، ولد في خلافة جده سنة بضع عشرة ومائتين. وبويع بالخلافة لليلة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين، وما قبل بيعته أحد حتى أُتي بالمعتز، فقام المهتدي له، وسلّم عليه بالخلافة، وجلس بين يديه، فجيء بالشهود، فشهدوا على المعتز أنه عاجز عن الخلافة.

فاعترف بذلك، ومدّ يده فبايع المهتدي، فارتفع المهتدي حينئذ إلى صدر المجلس. وكان المهتدي أسمر رقيقاً، مليح الوجه، ورعاً، متعبّداً، عادلاً، قوياً في أمر الله، بطلاً شجاعاً لكنه لم يجد ناصراً

وأبوه الواثق بن المعتصم.

= ولا معيناً. قال الخطيب: لم يزل صائماً منذ ولي إلى أن قُتِل. وقال هاشم بن القاسم: كنت بحضرة المهتدي عشية من رمضان، فوثبت لأنصرف، فقال لي: اجلس، فجلست، وتقدم فصلى بنا، ثم دعا بالطعام، فأحضر طبق خلاف، وعليه رغيف من الخبز النقي، وفيه آنية فيها ملح، وخلّ وزيت، فدعاني إلى الأكل، فابتدأت آكل ظاناً أنه سيؤتى بطعام، فنظر إليّ، وقال: ألم تك صائماً؟ قلت: بلى، قال: أفلست عازماً على الصوم؟ فقلت: كيف لا وهو رمضان؟ فقال: كل واستوف، فليس ها هنا من الطعام غير ما ترى. فعجبت وقلت: ولِمَ يا أمير المؤمنين، وقد أسبغ الله نعمته عليك؟ فقال: إن الأمر ما وصفت، ولكني فكّرت في أنه كان في بني أمية عمر بن عبد العزيز ـ وكان التقلل والتقشف على ما بلغك ـ فغِرْتُ على بني هاشم، فأخذت نفسي بما رأيت.

وقال جعفر بن عبد الواحد: ذاكرت المهتدي بشيء، فقلت له: كان أحمد بن حنبل يقول به، ولكنه كان يخالف أشير إلى من مضى من آبائه ـ فقال: رحم الله أحمد بن حنبل، والله لو جاز لي أن أتبرّأ من أبي لتبرّأت منه. ثم قال لي: تكلم بالحق وقل به، فإن الرجل ليتكلم بالحق فينبل في عيني.

وقال نفطويه: حدّثني بعض الهاشميين: أنه وجد للمهتدي سقط فيه جبة صوف وكساء كان يلبسه بالليل ويصلي فيه، وكان قد أطرح الملاهي، وحرم الغناء، وحسمَ أصحاب السلطان عن الظلم، وكان شديد الإشراف على أمر الدواوين يجلس بنفسه ويُجْلِسُ الكُتاب بين يديه، فيعملوا الحساب، وكان لا يُخِل بالجلوس الاثنين والخميس، وضرب جماعة من الرؤساء، ونفى جعفر بن محمود إلى بغداد، وكره مكانه لأنه نسب عنده إلى الرفض.

وقدم موسى بن بغا من الري يريد سامرا لقتل صالح بن وصيف بدم المعتز، وأخذ أموال أمه ومعه جيشه، فصاحت العامة على ابن وصيف: يا فرعون قد جاءك موسى فطلب موسى بن بغا الإذن على المهتدي، فلم يأذن له، فهجم بمن معه عليه ـ وهو جالس في دار العدل ـ فأقاموه، وحملوه على فرس ضعيفة، وانتهبوا القصر، وأدخلوا المهتدي إلى دار ناجود، وهو يقول: يا موسى اتق الله، ويحك ما تريد؟ قال: والله ما نريد إلاّ خيراً، فاحلف لنا أن لا تمالىء صالحاً بن وصيف. فحلف لهم، فبايعوه حينئذ، ثم طلبوا صالحاً ليناظروه على أفعاله، فاختفى.

وندبهم المهتدي إلى الصلح فاتهموه أنه يدري مكانه، فجرى في ذلك كلام، ثم تكلموا في خلعه. فخرج إليهم المهتدي من الغد متقلّداً بسيفه فقال: قد بلغني شأنه، ولست كمن تقدمني مثل المستعين والمعتز، والله ما خرجت إليكُم إلاّ وأنا متحنط، وقد أوصيت وهذا سيفي والله لأضربن به ما استمسكت قائمته بيدي، إما دين، إما حياء، إما دعة؟ لم يكون الخلاف على الخلفاء والجرأة على الله؟ ثم قال: ما أعلم علم صالح، فرضوا وانفضّوا. ونادى موسى بن بغا: من جاء بصالح فله عشرة آلاف دينار.

فلم يظفر به أحد، واتفق أن بعض الغلمان دخل رقاقاً وقت الحر فرأى باباً مفتوحاً فدخل، فمشى في دهليز مظلم، فرأى صالحاً نائماً فعرفه ـ وليس عنده أحد ـ فجاء إلى موسى فأخبره، فبعث جماعة، فأخذوه، وقطعت رأسه وطِيفَ به، وتألم المهتدي لذلك في الباطن. ثم رحل موسى ومعه بكيال إلى السن في طلب مساور. فكتب المهتدي إلى بكيال أن يقتل موسى ومفلحاً ـ أحد أمراء الأتراك أيضاً ـ أو يمسكهما، ويكون هو الأمير على الأتراك كلهم.

فأوقف بكيال موسى على كتابه، وقال: إني لست أفرح بهذا وإنما هذا يعمل علينا كلنا، فأجمعوا على قتل المهتدي، وصاروا إليه. فقاتل عن المهتدي المغاربة والفراغنة، والأسروسنية. وقُتل من =

وحجبه صالح بن وصيف، وموسى بن بُغا.

ولم يقبل البيعة حتى أتى بالمعتز، وخلع نفسه بين يديه، واعترف بالعجز.

وقيل: إنه سعى في صالح حال المعتز على الأتراك فلم يقدر، فصرفه إلى حينه.

وطوّلت أم المعتزّ بالمال، فأحضرت. . .[1] ألف ألف من الذهب.

فلما تخلّصت عند صالح بن وصيف قال: فعل الله بها وصنع عرّضت ابنها للقتل في مقدار خمسين ألفاً، وفي خزائنها مثل هذا.

ثم اضطرب أمره، فخلعه الأتراك في رجب من سنة ست وخمسين ومائتين.

وكان الذي تولى قتله وتلا بابك، ضربه بخنجر وبابك سكران، وجعل فَمَهُ في ودجه، وجعل يشرب دمه.

ثم ندموا على قتله إذ كان من أهل العافية، وقدَّموا أحمد بن جعفر المعتمد.

دولة المعتمد على الله[2]

وهو أحمد بن جعفر المتوكل بن محمد بن هارون الرشيد.

= الأتراك في يوم أربعة آلاف، ودام القتال إلى أن هزم جيش الخليفة وأمسك هو، فعصر على خصيتيه، فمات، وذلك في رجب سنة ست وخمسين. فكانت خلافته سنة إلاّ خمسة عشر يوماً.

وكان لما قامت الأتراك عليه ثار العوام وكتبوا رقاعاً، وألقوها في المساجد: يا معشر المسلمين. ادعوا الله لخليفتكم العدل الرضا المضاهي لعمر بن عبد العزيز أن ينصره الله على عدوه.

(١) كلمة مطموسة في المخطوط.

(٢) مصادر ترجمته: تاريخ بغداد (٤/ ٦٠)، الكامل في التاريخ (من أحداث سنة ٢٥٦ : ٢٧٩)، تاريخ الطبري (٩/ ٤٧٤)، فوات الوفيات (١/ ٦٤)، سير أعلام النبلاء (١٢/ ٥٤٠)، تاريخ الخلفاء (٣٦٣)، شذرات الذهب (٢/ ١٧٣)، تاريخ ابن كثير (١١/ ٢٣)، رسالة أسماء الخلفاء والولاة (١٣٢).

ومما قال الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمته: أمه رومية اسمها فتيان، ولد سنة تسع ومائتين، وقال ابن أبي الدنيا: كان أسمر رقيق اللون، أعين جميلاً، خفيف اللحية. قلت: استخلف بعد قتل أخيه المهتدي في سادس عشر من رجب سنة ست وخمسين ومائتين. وقدم موسى بن بُغا بعد أربعة أيام إلى سامراء وخمدت الفتنة، وكان في حبس المهتدي بالجوسق فأخرجوه، وبايعوه، فضيق المعتمد على عيال المهتدي، واستعمل أخاه أبا أحمد الموفق على سائر المشرق وعقد بولاية العهد لابنه جعفر، ولقبه بالمفوض إلى الله، واستعمله على مصر، والمغرب، وانهمك في اللهو واللعب، واشتغل عن الرعية، فكرهوه وأحبوا أخاه الموفق.

وفي رجب أيضاً استولت الزنج على البصرة والأُبلة والأهواز، وقتلوا وسبوا وهم عبيد العوام، وغوغاء الأنذال الملتفين حول الخبيث. . . وقتلت الزنج بالأُبلة نحو ثلاثين ألفاً، فحاربهم سعيد

ولقبه المعتمد على الله.

وحذر عاقبة الأمور فأسند التدبير إلى أخيه أبي أحمد المُلَقَّب بالموفق، وبقي كالمحجور تحت نظره.

وفي أيامه قُتِل صاحب الزنج الخلد يحيى الذي اجتمعت إليه الزنج في كل مكان، ولم يبق لأحد منهم مملوك إلاّ لحق به، وعملوا في الإسلام المصائب الشنيعة.

وفي أيامه ابتدى أمر القرامطة[١] الذين استباحوا مكة، وحريمها، وذهبوا بالحجر الأسود حتى افتدى منهم.

وتوفي المعتمد حتف أنفه في سنة تسع وسبعين ومائتين.

وكان مؤثراً للذّات معتكفاً على الملاهي، شغوفاً بالطرب، ومات مسموماً.

ولّى المعتمد بعده المعتضد بالله.

= الحاجب، ثم قووا عليه، وقتلوا خلقاً من جنده وتمّت بينهم وبين العسكر وقعات. وفي سنة (٢٥٨) جرت وقعة بين الزنج وبين العسكر، فانهزم العسكر، وقتل قائدهم منصور ثم نهض أبو أحمد الموفق، ومفلح في عسكر عظيم إلى الغاية لحرب الخبيث، فانهزم جيشه، ثم تهيّأ وجمع الجيوش، وأقبل فتمّت ملحمة لم يُسمع بمثلها، وظهر المسلمون، ثم قتل مقدمهم مُفلح، فانهزم الناس، واستباحهم الزنج، وفرَّ الموفق إلى الأبلة وتراجعت إليه العساكر، ثم التقى الزنج فانتصر، وأسر طاغيتهم يحيى وبعث به إلى سامراء فذُبح، ووقع الوباء فمات خلائق.

(١) قال السيوطي في تاريخ الخلفاء في ترجمته له في أحداث سنة ثمان وسبعين ومائتين: وفيها ظهرت القرامطة بالكوفة، وهم نوع من الملاحدة يدعون أنه لا غُسل من الجنابة، وأن الخمر حلال، ويزيدون في أذانهم: وأن محمد ابن الحنفية رسول الله، وأن الصوم في السنة يومان: يوم النيروز، ويوم المهرجان. وأنّ الحج والقِبلة إلى بيت المقدس، وأشياء أخرى. ونَفَقَ قولهم على الجهال، وأهل البرّ، وتعب الناس بهم.

وفي سنة تسع وسبعين ضعف أمر المعتمد جداً لتمكن أبي العباس بن الموفق من الأمور وطاعة الجيش له. فجلس المعتمد مجلساً عاماً وأشهد فيه على نفسه أنه خلع ولده المفوض من ولاية العهد، وبايع أبا العباس، ولقبه المعتضد، وأمر المعتضد في هذه السنة أن لا يقعد في الطريق منجم ولا قصّاص، واستحلف الورّاقين أن لا يبيعوا كتب الفلاسفة والجدل. ومات المعتمد بعد أشهر من هذه السنة فجأة فقيل إنه سمّ. وقيل: بل نام فغمّ في بساط، وذلك ليلة الاثنين لإحدى عشرة بقيت من رجب. وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة إلاّ أنه كان مقهوراً مع أخيه الموفق لاستيلائه على الأمور ومات وهو كالمحجور عليه من بعض الوجوه من جهة المعتضد أيضاً.

... ومن شعر المعتمد لما حجر عليه:

أصبحت لا أملك دفعاً لما ... أسامُ من خَسْفٍ ومن ذلة

تمضي أمور الناس دوني ولا ... يشعرني في ذكرها قلتي

إذا اشتهيت الشيء وَلّوْا به ... عني وقالوا: ها هنا علّتي

قال الصولي: كان له ورّاق يكتب شعره بماء الذهب.

دولة المعتضد بالله(١)

وهو أحمد بن طلحة بن جعفر بن محمد بن هارون الرشيد.

وهو الذي صاهر أبا الحسن خمارويه على بنته قطر الندى، وكان شغوفاً بها ظهير الجلالة إلى أن توفيت سنة سبع وثمانين ومائتين.

وفي سنة تسع وثمانين ومائتين توفي المعتضد.

وذكر أنه توفي مسموماً، وأنهم شكّوا في موته، فتقدم المطبِّب يجسُّ ذراعه فأنف من ذلك، فركله برجله ورماه، فمات الطبيب من ركلته، ومات المعتضد.

قلت: ولا خفاء بحال/ هذه النفس الفظّة بين يدي القدوم على الله، ولا حول [٥٢/أ] ولا قوَّة إلاّ بالله.

ووَلِيَ بعده ابنه المكتفي بالله.

دولة المكتفي بالله(٢)

وهو علي بن أحمد بن طلحة بن جعفر بن محمد بن هارون الرشيد.

---

(١) من مصادر ترجمته: تاريخ الخلفاء (٣٦٨)، تاريخ بغداد (٤/٤٠٣)، تاريخ ابن ماجه (٤٩)، تاريخ الطبري (١٠/٢٠)، مروج الذهب (٢/٤٦٢)، شذرات الذهب (٢/١٩٩)، المنتظم (٥/١٢٣)، النجوم الزاهرة (٣/١٢٦)، العبر (٢/٨٢)، الوافي بالوفيات (٦/٤٢٨)، فوات الوفيات (١/٧٢)، البداية والنهاية (١١/٦٦)، رسالة أسماء الخلفاء (ص ١٣٣)، الكامل في التاريخ (من سنة ٢٧٩: ٢٨٧).

ومما قال الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمته (١٣/٤٦٣): الخليفة أبو العباس أحمد بن الموفق بالله، ولي العهد أبي أحمد طلحة بن المتوكل جعفر بن المعتصم محمد بن الرشيد الهاشمي العباسي، ولد في أيام جده سنة اثنتين وأربعين ومائتين. وكان ملكاً مهيباً، شجاعاً، جبّاراً، شديد الوطأة، من رجال العالم، يُقْدِمُ على الأسد وحده. وكان أسمر، نحيفاً، معتدل الخلق، كامل العقل.

قال المسعودي: كان قليل الرَّحمة، إذا غضب على أمير حفر له حفيرة، وألقاه حياً وطمّ عليه. وكان ذا سياسة عظيمة، قيل: إنه تصيّد فنزل إلى جانب مقثاة، فصاح الناطور، فطلبه. فقال: إن ثلاثة غلمان دخلوا المقثاة، وأخذوا، فجيء بهم، فاعتقلوا، ومن الغد ضربت أعناقهم. فقال لابن حمدون: اصدقني عني، فذكرت الثلاثة. فقال: والله ما سفكت دماً حراماً منذ وليت الخلافة وإنما قتلت حَرَامِيَّة قد قتلوا، أوهمت أنهم الثلاثة. قلت: فأحمد بن الطيب؟ قال: دعاني إلى الإلحاد... وكان في المعتضد حرص وجمع للمال، حارب الزنج، وله مواقف مشهودة، وفي دولته سكنت الفتن... وأسقط المكس، ونشر العدل، وقلّل من الظلم، وكان يسمى السفّاح الثاني. أحيا رميم الخلافة التي ضعفت من مقتل المتوكل، وأنشأ قصراً غرم عليه أربعمائة ألف دينار، وكان دماغه قد تغيّر من فرط الجماع.

(٢) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٣/٤٧٩)، تاريخ ابن ماجه (٥٠)، تاريخ بغداد (١١/

في أيامه ظهر يحيى بن زكرويه الخارجي[(١)] وكان يتغلّب على البلاد، فيقتل حتى الأطفال، والبهائم، وسيق إلى بغداد بعد هزيمته أسيراً.

وقُتِلَ القرمطي صاحب الشامة مُخلي البلاد ومفتي الضلال.

وكان المكتفي مغرماً بالأحداث من المماليك، ذكر ذلك المسعودي صاحب المروج.

وتوفي في ذي القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين[(٢)].

وولي الأمر بعده أخوه المقتدر.

= ٣١٦)، تاريخ الخلفاء (٣٧٦)، شذرات الذهب (٢/ ٢١٩)، المنتظم (٦/ ٣١)، العبر (٢/ ١٠٢)، فوات الوفيات (٣/ ٥)، البداية والنهاية (١١/ ٩٤)، النجوم الزاهرة (٣/ ١٨٣)، الكامل في التاريخ من سنة (٢٨٩ : ٢٩٤)، رسالة أسماء الخلفاء والولاة (ص ١٣٣).

ومما قال السيوطي في تاريخ الخلفاء في ترجمته: ولد في غرة ربيع الآخر سنة أربع وستين ومائتين، وأمه تركية اسمها جيجك، وكان يضرب بحسنها المثل. وعهد إليه أبوه فبويع في مرضه يوم الجمعة بعد العصر لإحدى عشرة بقيت من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين. ومما قال الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمته: كان يضرب بحسنه المثل في زمانه، كان معتدل القامة، دُرِّي اللون، أسود الشعر، حسن اللحية.

(١) ومما قال ابن الأثير في الكامل في ذكره قتل زكرويه لعنه الله بعد أن كان سرد كثيراً من أخباره وشنائع صنائعه في البلاد والعباد: لما فعل زكرويه بالحجاج ما ذكرناه، عظم ذلك على الخليفة خاصة وعلى كافة المسلمين عامة، فجهّز المكتفي الجيوش، فلما كان أول ربيع الأول صيّر وصيف بن صوار تكين مع جماعة من القوّاد والعساكر إلى القرامطة، فساروا على طريق خفان فلقيهم زكرويه ومن معه من القرامطة ثامن ربيع الأول، فاقتتلوا يومهم، ثم حجز بينهم الليل، وباتوا يتحارسون. ثم بكّروا إلى القتال، فاقتتلوا قتالاً شديداً فقُتِل من القرامطة مقتلة عظيمة، ووصل عسكر الخليفة إلى زكرويه، فضربه بعض الجند وهو مُوَلٍّ بالسيف على رأسه، فبلغت الضربة دماغه، وأخذه أسيراً، وأخذ خليفته، وجماعة من خواصه وأقربائه، وفيهم: ابنه وكاتبه وزوجته، واحتوى على ما في العسكر. وعاش زكرويه خمسة أيام ومات. فسُيِّرت جيفته والأسرى إلى بغداد. وانهزم جماعة من أصحابه إلى الشام، فأوقع بهم الحسين بن حمدان فقتلوهم جميعاً، وأخذوا جماعة من النساء والصبيان، وحُمِلَ رأس زكرويه إلى خراسان لئلا ينقطع الحُجاج، وأخذ الأعراب رجلين من أصحاب زكرويه، يعرف أحدهما بالحداد، والآخر بالمنتقم ـ وهو أخو امرأة زكرويه ـ كانا قد سارا إليهم يدعوانهم إلى الخروج معهم، فلما أخذوهما سيّروهما إلى بغداد. وتتبع الخليفة القرامطة بالعراق، فقتل بعضهم، وحبس بعضهم، ومات بعضهم في الحبس.

(٢) قال ابن الأثير في الكامل في وفاة المكتفي في سنة (٢٩٥): في هذه السنة في ذي القعدة توفي أمير المؤمنين المكتفي بالله أبو محمد علي بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق بن المتوكل. وكانت خلافته ست سنين وستة أشهر وتسعة عشر يوماً. وكان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة، وقيل: اثنتين وثلاثين سنة. وكان ربعة جملاً، رقيق البشرة، حسن الشعر، وافر اللحية. وكنيته أبو محمد، وأمه أم ولد تركية اسمها جيجك. وطال عليه المرض عدّة شهور. ولما مات دفن بدار محمد بن طاهر، رحمه الله.

دولة المقتدر بالله[1]

وهو جعفر بن أحمد بن طلحة بن محمد بن هارون الرشيد.

بُويع في اليوم الذي توفي فيه أبوه المكتفي، يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة من ذي القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين وهو صبي صغير لم يبلغ الاحتلام.

زعم المكثر في سنه أنه كان ابن ثلاث عشرة سنة. وكان الخاصة قد تآمروا على إقعاد عبد الله بن المعتز للخلافة بعد المكتفي.

فخالفهم الوزير العباس بن الحسن، ورأى تقديمه على خاله من صغر السن، إذ كان أخوه المكتفي قد عهد له بالأمر فولي بعد أخيه، وقام بأمره العباس بن الحسن الوزير.

وقد عرف المقتدر قدره، فأرخى إليه الحق الذي يجب لمثله، وزاد في منزلته، وفوّض إليه الأمور وفَرَغَ له منها.

ونافسه الأتراك والقوّاد، ورجع أمرهم إلى وصيف بن سوار، فخلعوا المقتدر، وبايعوا عبد الله بن المعتز، ولقّبوه المنتصف لله.

وهلك في هذه الطائفة العباس بن الحسين الوزير.

ثم تقاتل الغلمان ووقع الحرب في دار الخلافة وانقسموا فرقتين، فرقة تتعصب إلى عبد الله بن المعتز. وأخرى تتعصّب إلى المقتدر.

---

(١) ومن مصادر ترجمته: تاريخ بغداد (٧/ ٢١٣)، النجوم الزاهرة (٣/ ٢٣٣)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ٤٣)، تاريخ الخلفاء (٢٧٨)، شذرات الذهب (٢/ ٢٨٤)، مروج الذهب (٢/ ٥٠١)، المنتظم (٦/ ٢٤٣)، العبر (٢/ ١٨١)، البداية والنهاية (١١/ ١٦٩)، أسماء الخلفاء والولاة (ص ١٣٣)، الكامل في التاريخ (من سنة ٢٩٥ : ٣٢٠)، وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء: ما ولي أحد قبله أصغر منه، وانخرم نظام الإمامة في أيامه، وصغر منصب الخلافة. وقد خُلع في أوائل دولته، وبايعوا ابن المعتز، ثم لم يتم ذلك.

وقتل ابن المعتز وجماعة، ثم إنه خُلع ثانياً في سنة سبع عشرة. وبذل خطة بعزل نفسه. وبايعوا أخاه القاهر، ثم بعد ثلاث أُعيد المقتدر، ثم في المرة الثالثة قُتل. وكان ربعة، مليح الوجه، أبيض بحمرة نزل الشيب بعارضيه، وعاش ثمانياً وثلاثين سنة. وقال أبو علي التنوخي: كان جيد العقل، صحيح الرأي، ولكنه كان مؤثراً للشهوات، لقد سمعت علي بن عيسى الوزير يقول: ما هو إلاّ أن يترك هذا الرَّجل - يعني المقتدر - النبيذ خمسة أيام، فكان ربما يكون في أصالة الرأي كالمأمون والمعتضد. قلت: كان منهوماً باللعب، والجواري، ولا يلتفت إلى أعباء الأمور، فدخل عليه الداخل ووهن دَسْتُه، وفارقه مؤنس الخادم مغاضباً إلى الموصل، وتملكها، وهزم عسكرها في صفر سنة عشرين... وكان سمحاً متلافاً للأموال، محق ما لا يُعدُّ ولا يُحصى، ومات دمشقي [صاحب دار الخلافة] وتفرّد مؤنس بأعباء الأمور.

وأجلت الطائفة عن قتل عبد الله بن المعتز وأعادت المقتدر . . .[١].

لك صاحب البهجة ولم ير أعجب من أمر المقتدر وابن المعتز، فإن الخاصة والعامة اتفقت على الرضى بابن المعتز وتقديمه، وخلعوا المقتدر إذ توقعوا من ضعفه/ وأشفقوا من صغر سنه، وأبى الله إلاّ بقاءه وطول دولته ولتطول أيامه، فبلغت ما يبلغ خمساً وعشرين سنة، ليعلم أهل الاعتبار أن الأمر لله وما شاء فعل. [٥٢/ب]

وكان على عهد . . .[٢] البيعة للمقتدر بعهد أخيه، ثم تجديدها عند موته، ثم إعادتها مجددة أعلام الإسلام على احتفال بغداد لأيامه.

فمنهم من القضاة الأكابر: أحمد بن إسحاق بن البهلول بن حسان بن سنان، تقلّد القضاء بالأنبار، ثم بمدينة المنصور.

والحسن بن أحمد بن يزيد الأصطخري، روى عنه ابن المظفر، والدارقطني، وصنّف كتاب القضاء، الذي لا نظير له.

والحسن بن عبد الله بن المرزبان، ولي قضاء القضاة ببغداد.

وعمر بن أبي محمد بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حماد، ولي القضاء بمدينة السلام[٣] حياة أبيه، ثم بعده، ولم يزل قاضياً، وكان مالكي المذهب، صنّف مسنداً حسناً.

وعلي بن أبي الفهم التنوخي، ولي القضاء بالأهواز وكورها، مشهور الفضل والجلالة.

وعبد الله بن عبد الله بن موسى بن السائل الهمداني، ولي القضاء بمدينة المنصور، ثم قضاء القضاة أيام المطيع.

ومحمد بن عبد الرحمٰن أبو بكر بن قريعة، نادرة، وجيه في الظرف[٤] وسرعة الجواب المطبوع بالكلام المسجوع، وهو القائل، وقد مشى بين يديّ القاضي ابن معروف فقال: إن تقدمت فحاجب، وإن تأخّرت فواجب.

ومحمد بن عمر بن محمد بن مسلم أبو بكر بن الجعادي، وكان يحفظ مائة ألف حديث، ويذاكر بستمائة ألف.

ومحمد بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حماد بن زيد أبو عمر القاضي،

---

(١) طمس في المخطوط.

(٢) طمس في المخطوط.

(٣) أي ببغداد، وكانت تسمى بمدينة السلام قديماً.

(٤) أي الطرافة وخفّة الدم المصحوب بالأدب الجمّ والوقار الكامل.

مولى آل جرير، نظر قضاء القضاة، وكان لا نظير له.

وعمر بن أبي عمر أبو نصر القاضي، ولي القضاء ببغداد.

ومن المحدّثين والفقهاء[١]: أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد، شيخ القرّاء في وقته.

ومحمد بن جعفر بن محمد أبو بكر الآدمي أطيب الناس صوتاً بالقرآن.

حدّث أبو الفرج بسنده لأبي موسى القاضي قال: سمعت أبا جعفر بن برية يقول: رأيت أبا بكر الآدمي في النوم بعد موته بمدة، فقلت: ما فعل الله بك؟

فقال: أوقفني بين يديه وقاسيت شدائد وأموراً صعبة.

فقلت له: وقيامك الليالي والمواقف؟

قال: ما كان أشدّ عليّ منها لأنها كانت للدنيا.

فقلت له:/ فإلى أي شيء انتهى أمرك؟ [٥٣/أ]

فقال: قال لي تعالى: آليت على نفسي أن لا أعذّب أهل القرآن.

ومحمد بن الحسن بن محمد بن زياد أبو بكر النقاش، روى عنه أبو بكر بن مجاهد، والدارقطني.

ومحمد بن الحسن بن يعقوب أبو بكر بن مقسم، له كتاب في القراءات ومعاني القرآن سمّاه كتاب الأنوار، بديع في معناه.

وأحمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله أبو الحسن المنادي. سمع أبا داود السجستاني وخلقاً كثيراً، وصنّف في علوم جمّة.

وأحمد بن جعفر بن محمد بن سلم الختلي، روى عنه الدارقطني، وابن أبي الفوارس وغيرهما.

وأحمد بن سليمان بن الحسن بن إسرائيل مع أبي داود، وأبي بكر بن أبي الدنيا، وكان يصوم الدهر.

وأحمد بن ناج بن عبد الله أبو الحسين الورّاق. روى عنه الدارقطني وأمثاله.

وأحمد بن محمد بن سعيد بن عبد الرحمٰن أبو العباس الكوفي الحافظ، المكثر، لم يُرَ أحفظ منه.

---

(١) أي الذين جمعوا بين الحديث والفقه وغلب عليهم التحديث أو كثرة الرواية، ولهم في الفقه وأصوله ومسائله باع طولى غير أنهم كانوا في الحديث أكثر اهتماماً بأسانيدها ومتونها، وعكفوا على دراسة وتدريس ذلك الفن من العلوم حتى اشتهروا به وذاع صيتهم فيه.

قال أبو الفرج الجوزي: نقلت كتبه من مكان إلى مكان فكانت خمسمائة حمل، وكان يقول: أحفظ مائة ألف حديث بالإسناد والمتن، وأُذاكر بثلاثمائة ألف حديث.

وأحمد بن نصر بن طالب الحافظ، سمع عباساً الدراوردي، وروى عنه الدارقطني وقال أُسْتَاذ.

وإبراهيم بن حماد بن إسماعيل بن حماد بن ذرّ، روى عنه الدارقطني، والنيسابوري وقال: ما رأيت أعبد منه.

وإبراهيم بن محمد بن شحمويه، وكان من جُلّة الحفّاظ المكثرين، سمع من إسحاق بن خزيمة، وانتخب عليه ببغداد آداباً أبو الحسن الدارقطني.

وإسماعيل بن محمد أبو بكر الصفّار، وكان متعصّباً للسُّنة، معروف الفضل، إماماً في الحديث.

وإسماعيل بن علي بن إسماعيل الخطبي، روى عنه الدارقطني، وابن شاذان.

والحسن بن علي بن زيد أبو علي الحافظ النيسابوري، أوحد دهره في الحفظ والاتقان والورع.

ودعلج بن أحمد بن دعلج السجستاني، ذو الصدقات، والمجاورة بمكة، صنّف له الدارقطني المسند الكبير، وقال: لم أرَ في . . .[١] أثبت منه.

وعبد الله بن جعفر بن يوسف أبو القاسم الريْحاني، يعرف بالأباوردي، من جلّة المحدّثين.

وعبد الله بن إسماعيل بن إبراهيم بن أبي عيسى بن أبي جعفر المنصور. . .[٢]، إمام جامع مدينة المنصور، حدّث عن العطاردي وابن أبي الدنيا.

وعبد الله بن محمد بن زياد بن واصل أبو بكر النيسابوري، روى عنه ابن حسنونه بن المبارك، والدارقطني، وغيرهما/ وأفتى فيما ذُكر أربعين سنة، وكان يصلي الغداة بوضوء العشاء. [٥٣/ب]

وعبد الله بن محمد بن محمد، . . .[٣] سافر البلاد، وحدّث ببغداد، وكان من أتقى المسلمين.

وعثمان بن أحمد بن عبد الله بن يزيد أبو عمر البغدادي المعروف بابن السماك، روى عنه الدارقطني، وابن شاه، وعلي بن الحسين.

---

(١) موضع النقط كلمة مطموسة بالمخطوط.

(٢) موضع النقط كلمة مطموسة بالمخطوط.

(٣) موضع النقط كلمة مطموسة بالمخطوط.

وأبو الفرج الأصفهاني الإمام المتعدِّد الدواوين، الشهير، صاحب الجامع.

ومحمد بن محمد بن الحسين بن إسحاق أبو علي الصواف، روى عنه الدارقطني...[١].

ومحمد بن أحمد بن يعقوب بن شيبة أبو بكر السدوسي، كان ثقة، سمع جده، وأحمد بن منصور...[١].

وأحمد بن جعفر الجريري المعروف بزوج الحرية، سمع محمد بن جرير الطبري، والبغوي، وغيرهما.

ومحمد بن الحسن بن عبد الله أبو بكر الآجُري، حدّث ببغداد، وله تصانيف جليلة.

ومحمد بن عبد الله بن إبراهيم بن عبد ربه أبو بكر الشافعي، روى عنه الدارقطني وابن بشّار وخلق كثير.

ومحمد بن العباس بن أحمد بن محمد بن عاصم أبو عبد الله بن أبي ذهل الضبي. حدّث ببغداد، سمع منه الدارقطني وغيره، وكان رئيساً جليلاً.

ومحمد بن مخلد بن حفص أبو عبد الله الدوري العطار، وكان على متسع الرواية مشهوراً بالعبادة.

ويوسف بن يعقوب بن البهلول أبو بكر الأزدي التنوخي، سمع الزبير بن بكار، وثعلب والحسن بن عرفة وغيرهم، وروى عنه محمد بن المظفر، والدارقطني وابن شاهين وجماعة.

ومن الفقهاء: أحمد بن علي أبو بكر الرازي، إمام الرأي في وقته، وإليه انتهت الرئاسة، وله تصانيف كثيرة.

والحسين بن القاسم أبو علي الطبري، صنّف كتاب المحرر، وكتاب الإيضاح.

وعبد الله بن الحسين بن دلال أبو الحسن الكوفي الذي انتهت إليه رئاسة الحنفية.

وعبد العزيز بن أحمد بن جعفر بن داود، أبو بكر الفقيه البغدادي، عُرف بغلام الخلال[٢]. حدّث عن خلق كثير أحدهم البغوي، وله مصنفات حسنة.

---

(١) موضع النقط كلمة مطموسة بالمخطوط.

(٢) في المخطوط: الحلل. وهو تحريف، وقد حدث في اسمه تقديم وتأخير وتحريف حيث إن صوابه: عبد العزيز بن جعفر بن أحمد بن يزداد، أبو بكر البغدادي، (راجع سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٤٣).

وعمر بن الحسين بن عبد الله أبو القاسم الخِرَقي[١] صاحب الكتاب في الفقه على مذهب الإمام أحمد، خرج من بغداد لما ظهر سبّ الصحابة.

ومن علماء اللسان: إبراهيم بن محمد بن عرفة...[٢]

والحسن بن عبد الغفار أبو الحسن الفارسي النحوي.

وعبد الله بن جعفر بن درستويه[٣].

والفتح بن عثمان بن جِنّي.

وأبو عمر الزاهد غلام ثعلب.

وأبو بكر الأنباري.

ومن الصوفية: بنان بن محمد بن حمدان.

وجعفر بن محمد بن نُصير.

وأبو بكر/ الشبلي رضي الله عنهم أجمعين. [٥٤/أ]

وهؤلاء هم المستدعون لبيعة...[٤] عُدل عنهم إلى غيرهم لما احتفل للبيعة وجمع كل مشهوري الناس...[١] المرجوح الخفي الوضوح، غفر الله لنا أجمعين.

رجع التاريخ والحديث إلى أيام المقتدر بالله وفيها كان عاد الحجر الأسود بعد غيبة عند القرامطة اثنتين وعشرين سنة.

وذكر الإمام أبو الفرج رحمه الله مشيداً ببذخ دولته: أنه قدم عليه رسول ملك الروم في المهادنة والفداء سنة خمس وثلاثمائة، وكان الرسول غلاماً حدث السن، ومعه شيخ، فأُقيمت لهما الأنزال الواسعة، وزين قصر[٥] الخلافة، وصفّ لهما العساكر بالأبارقة التامة، وكان عدد العساكر مائة وستين ألفاً بين فارس وراجل،

---

(١) في المخطوط: الجُرمي، وهو تحريف. قال الذهبي في ترجمته (١٥/ ٣٦٣): العلاّمة شيخ الحنابلة، أبو القاسم عمر بن الحسين بن عبد الله، البغدادي، الخِرَقيّ، الحنبلي، صاحب المختصر المشهور (وهو ما شرحه ابن قدامة باسم: «المغني» المطبوع المشهور) في مذهب الإمام أحمد، كان من كبار العلماء، تفقّه بوالده الحسين صاحب المروذي، وصنّف التصانيف.
قال القاضي أبو يعلى: كانت لأبي القاسم مصنّفات كثيرة لم تظهر لأنه خرج من بغداد لما ظهر بها سبّ الصحابة فأودع كتبه في دار، فاحترقت الدار. قلت: وقدم دمشق، وبها توفي، وقبره ظاهر يزار بمقبرة باب الصغير. قال أبو بكر الخطيب: زُرتُ قبره. وتوفي سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة.

(٢) طمس في المخطوط. وهو ابن سليمان أبو عبد الله العتكي.

(٣) وهو أبو محمد، الفارسي النحوي.

(٤) طمس في المخطوط.

(٥) زيادة يتطلبها السياق.

وبعدهم الغلمان الحجرية، والخدم الخواص ذوو المناطق المحلاة والبزّة الظاهرة وعددهم سبعة آلاف، فنادم أربعة آلاف منهم بيض، وسائرهم سود، وكان عدد الحجّاب سبعمائة حاجب.

وقد صُفتّ الزوارق والطيارات في دجلة بأكمل زينة.

ومَرَّ الرسول على دار نصر القصوري فهاله أمرها حتى ظنه [قصر] الخليفة، فقيل له: هو الحاجب.

ومَرَّ بدار الوزير فشاهد ما هاله، وكانت الستور ثمانية وثلاثين ألف ستراً، الديباجة المذهبة فيها اثنا عشر ألفاً وخمسمائة، وكان في الدار من الوحش قطعان تأنس الناس، وتأكل من أيديهم، ومن السباع مائة، ومن الطير اثنان وعشرون ألفاً. ثم أخرج إلى دار الشجرة، وكانت شجرة في وسط بركة فيها ماء صافٍ، والشجرة ثمانية عشر غصناً لكل غصن منها أفنان كثيرة عليها الطير، والعصافير المنوّعة مُفضّضة ومذهّبة، وهي تتمايل، ولها ورق مختلف الألوان، وكل طير من الطيور يصفِّر.

ثم أُدخل إلى الفردوس، وكانت فيه من الفرش والأثاث ما لا يحصى.

قال المخبر: ويطول شرح ما شاهده الرسول من العجائب إلى أن وصل [إلى][1] المقتدر، وهو جالس على سرير أبنوس قد فُرش بالوشي المطرّز على كنبة السرير تسعة عقود معلّقة وعلى كسيرته تسعة أخرى من أفخر الجواهر يغلب ضوؤها على ضوء النهار.

فلما نظر الرسولان إلى الخليفة وقفا منه على نحو مائة ذراع.

وابن الفرات قائم بين يديه، والترجمان قائم يخاطبه، وهو يخاطب الخليفة.

ثم أُخرجا وطيف بهما في الدار حتى أُخرجا إلى دجلة، وقد/ أُقيمت على [٥٤/ب] الخطوط بها الصلة مزينة والزرافات والسباع والفهود.

ثم خلع عليهما وحمل إليهما خمسون بدرة في كل بدرة خمسة آلاف درهم.

قلت: أذكرتني هذه الحكاية...[2] بايع السلطان أبي الحجاج مصطفى بالأندلس رحمة الله عليه وقد استخرج...[2] وتوقفني على ذلك تأنيساً منه وفضلاً وإطرافاً، فرأيت والله بما سألته وأكل...[2] مقال، وكل على قدره فَبُهِتُ وأظهرت الاغتمام بما رأيت، وكان ذلك...[2] الجارية على المسلمين بطريق التي مَحّص بها أهل العُدوتين، فقال لي: أراك مطرقاً مفكّراً؟

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) طمس في المخطوط.

فقلت: أيدك الله، تعارض عندي جلالة هذه الذخائر مع الخوف عليها، فإنها محتاجة إلى جيش وقوّة تحرسها من نسبتها، تحرسها ولو دعى ذلك إلى إنفاق ثمن شطرها، رأيت على حفظ. . .[١] كان صواباً من العمل.

فخجل ووافق على ذلك بعض الموافقة، فوالله ما مرَّ من الزمان بعد هذا المجلس كثير حتى توفي، وصار الأمر إلى ولده واتصلت الغفلة والدّعة إلى أن وقع التدبير على الدولة من بعض صعاليك القرافة لإضاعة الحزم. . .[١] وآل الأمر بمعظم تلك الذخيرة إلى استقرارها بيد طاغية الروم، انتزعها من يد المتغلب وقد لحق به فارّاً فقتله، وكان قد فوّت منها بالبيع كثيراً، ولم أنصرف من الأندلس حتى حِيزت منها جملة بالحِيل عليها وكنت أقول: رحمة الله على السلطان وددت أن أُريه مصداق قولي.

والدول الغالبة المقتبلة الشبيبة والقوّة، فلما اعتدت. . .[٢] ذات ولا عوّلت عليه، إنما ينفع الدول الاقتصاد في النفقة، والعدل في الرعية. . .[١] العقد مع الله والسريرة، ولم يمر إلاّ قليل وتنافس مؤنس المظفر من الأتراك وغيره من قوّاد المقتدر، ونابذه، وخرج عن الحضرة، وبذل المال في الجند، فتلاحق به الرجال، وانضاف إليه يلبق التركي، وتاروك، وأمثالهما، وكتب إلى المقتدر يطلب منه التخلي عن. . .[٣] في خبر طويل. فخرج إليه المقتدر كارهاً، وقال له رجاله: . . .[١] إن خرجت معنا إلى. . .[١] وإلا تقرّبنا به الليلة.

فخرج وكان البقاء بباب بغداد، وأسلم المقتدر قومه، وقتل وحمل رأسه إلى مؤنس[٤] يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من شوّال سنة عشرين وثلاثمائة.

---

(١) طمس في المخطوط.

(٢) طمس في المخطوط.

(٣) طمس في المخطوط.

(٤) قال ابن الأثير في الكامل في أحداث سنة (٣٢٠) في ذكره لقتل المقتدر: كان مؤنس في الراشدية لم يشهد الحرب فلما حُمل رأس المقتدر إليه بكى ولَطَمَ وجهه ورأسه وقال: يا مفسدون ما هكذا أوصيتكم. وقال: قتلتموه، وكان هذا آخر أمره، والله لنقتلنّ كلنا، وأقلّ ما في الأمر أنكم تظهرون أنكم قتلتموه خطأ، ولم تعرفوه. وتقدم مؤنس إلى الشماسية، وأنفذ إلى دار الخليفة من يمنعها من النهب. ومضى عبد الواحد بن المقتدر، وهارون بن غريب، ومحمد بن ياقوت، وابنا رائق إلى المدائن، وكان ما فعله مؤنس سبباً لجرأة أصحاب الأطراف على الخلفاء وطمعهم فيما لم يكن يخطر لهم على بال.

وانخرقت الهيبة، وضعف أمر الخلافة حتى صار الأمر إلى ما نحكيه على أن المقتدر أهمل من أحوال الخلافة كثيراً، وحكم فيها النساء والخدم.

وفرط في الأموال، وعزل من الوزراء وولّى ما أوجب طمع أصحاب الأطراف، والنواب، =

وبقيت جثته مطروحة إلى أن أمر مؤنس بمواراته.

وقيل: طُرِح في دجلة، وبقي/ مؤنس في مضاربه بباب الشماسية من بغداد حتى [١/٥٥] أقام القاهر الخلافة.

وكان المقتدر مع انفساح مدَّته وبذخ حالته مضعفاً مغلوباً، ذود الأتراك التي...[١].

وذكر الطبري أن السيدة أم المقتدر أمرت قهرمانة...[١] بالرعاية للمظالم، وتنظر في كتب الناس.

فجلست أياماً، وأنكر الناس ذلك، وكثر عيبهم لها وطعنهم على هذا الأمر إلى أن أمرت القاضي أبا الحسين، فجلس معها...[٢] وتركه الناس إلى ما كانوا ناجزوه من قعودها ونظرها.

وخُلع المقتدر ثانية سنة سبع عشرة وثلاثمائة.

ودعى محمد بن المعتضد، فحضر وسمى القاهر بالله ودخل...[١] إلى داخل القصر مُسَلماً في نفسه، وأبى من الإشهاد بالخلع[٣]. ثم أن الجند من الرَّجالة، وكانوا عشرين ألفاً، لم تعتبرهم المماليك، ولا عملت حسابهم، فطلبوا الزيادة، فلم يُعطوا شيئاً.

فدخلوا إلى دهليز القصر وشتموا تاروط مدبّر الأمر، وقتلوه، وقتلوا عجيباً الخادم وسواهما، ومزّقوا أشلاءهم، وأوقعوا النهب ببغداد، وهرب القاهر.

= وخروجهم عن الطاعة. وكان جملة ما أخرجه من الأموال تبذيراً وتضييعاً في غير وجه نيفاً وسبعين ألف ألف دينار سوى ما أنفقه في الوجوه الواجبة، وإذا اعتبرت أحوال الخلافة في أيامه وأيام أخيه المكتفي، وولده المعتضد، رأيت بينهم تفاوتاً بعيداً. وكانت مدة خلافته أربعاً وعشرين سنة، وأحد عشر شهراً، وستة عشر يوماً. وكان عمره ثمانية وثلاثين سنة ونحواً من شهرين.

(١) طمس في المخطوط.

(٢) طمس في المخطوط.

(٣) في تاريخ الخلفاء (ص ٣٨٣) قال السيوطي: وأشهد عليه بالخلع، وأحضر محمد بن المعتضد، وبايعه مؤنس والأمراء، ولقّبوه القاهر بالله، وفوّضت الوزارة إلى أبي علي بن مُقْلة، وذلك يوم السبت، وجلس القاهر يوم الأحد، وكتب الوزير عنه إلى البلاد، وعمل الموكب يوم الاثنين. فجاء العسكر يطلبون رزق البيعة، ورزق السنة ولم يكن مؤنس حاضراً، فارتفعت الأصوات فقتلوا الحاجب، ومالوا إلى دار مؤنس يطلبون المقتدر ليردّوه إلى الخلافة، فحملوه على أعناقهم من دار مؤنس إلى قصر الخلافة. وأخذ القاهر، فجيء به وهو يبكي، ويقول: الله الله في نفسي. فاستدناه، وقبّله، وقال له: يا أخي أنت والله لا ذنب لك، والله لا يجري عليك مني سوء أبداً، فطب نفساً. وسكن الناس، وعاد الوزير فكتب إلى الأقاليم بعود الخليفة إلى خلافته، وبذل المقتدر الأموال للجند.

وأخرج المقتدر فبايعه الناس بيعة مجددة، واستولى الرجال ومقدموهم على الأمر إلى أن وقع التدبير على قتلهم وتفريق جماعاتهم، فانقرضوا، وتمادى أمر المقتدر إلى حيث وقت الله.

وفي أيامه دخل القرمطي مكة، فأوقع بالناس في المسجد الحرام، فقتلهم متعلقين بأستار الكعبة[1].

وقلع الحجر، وأبواب الكعبة، وأخذ ما كان فيها من ذخائر الخلفاء، وكان منها الدُّرة اليتيمة، وتزن أربعة وعشرين مثقالاً، وقُرط مارية، وقرن كبش إبراهيم، وعصا موسى ملبسين بالذهب مُرَصَّعِين بالجَوْهر، وطبق، ومَكَبَّة من الذهب، وسبعة عشر قنديلاً، وثلاث محاريب من الفضة كانت تنصب للناس في صدر البيت.

دولة القاهر بالله[2]

وهو محمد بن أحمد بن طلحة بن جعفر بن محمد بن هارون الرشيد.

---

(١) وأضاف السيوطي أيضاً في تاريخ الخلفاء فقال: وفي هذه السنة المقتدر ركب الحاج مع منصور الديلمي، فوصلوا إلى مكة سالمين فوافاهم يوم التروية عدوّ الله أبو طاهر القرمطي، فقتل الحجيج في المسجد الحرام قتلاً ذريعاً، وطرح القتلى في بئر زمزم، وضرب الحجر الأسود بدبوس فكسره، ثم اقتلعه، وأقام بها أحد عشر يوماً، ثم رحلوا وبقي الحجر الأسود عندهم أكثر من عشرين سنة، ودفع لهم فيه خمسون ألف دينار، فأبوا حتى أُعيد في خلافة المطيع.
قيل: إنهم لما أخذوه هلك تحته أربعون جملاً من مكة إلى هجر، فلما أُعيد حمل على قعود هزيل فسمن. قال محمد بن الربيع بن سليمان: كنت بمكة سنة القرامطة، فصعد رجل لقلع الميزاب وأنا أراه، فعيل صبري، وقلت: يا رب ما أحلمك، فسقط الرجل على دماغه فمات، وصعد القرمطي على باب الكعبة وهو يقول:
أنا بالله وبالله أنا يخلق الخلق وأفنيهم أنا
ولم يفلح أبو طاهر القرمطي بعدها، وتقطّع جسده بالجُدري.

(٢) من مصادر ترجمته: تاريخ بغداد (١/ ٣٣٩)، أسماء الخلفاء والولاة (ص ١٣٤: ١٣٥)، الكامل في التاريخ من سنة (٣٢٠: ٣٢٢)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ٩٨)، مروج الذهب (٢/ ٥١٣)، المنتظم (٦/ ٢٤١)، النبراس (١١٣)، العبر (٢٥٠)، الوافي بالوفيات (٢/ ٣٤)، نكت الهيمان (٢٣٦)، البداية والنهاية (١١/ ١٧٠)، النجوم الزاهرة (٣/ ٣٠٣)، تاريخ الخلفاء (٣٨٦)، شذرات الذهب (٢/ ٣٤٩).
قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: الخليفة أبو منصور محمد... كان أسمر مربوعاً، أصهب الشعر، طويل الأنف، فيه شرٌ، وجبروت، وطيش. وقد كان المُقتدر خلع في سنة سبع عشرة وثلاثمائة فبايعوا القاهر هذا، وحَكَمَ ثم تعصّب أصحاب المقتدر له، وأُعيد بعد قتل جماعة منهم أبو الهيجاء بن حمدان، وعفا المقتدر عن أخيه وحضر بين يديه باكياً، فقال: يا أخي، أنت لا ذنب لك، ثم بايعوه بعد المقتدر، فصادر حاشية أخيه، وعذّبهم، وضرب أم المقتدر بيده، وهي عليلة، ثم ماتت معلقة بحبل، وعذّب أم موسى القهرمانة، وبالغ في الإساءة، فنفرت منه القلوب، وطلب =

ولي بعد أخيه المقتدر، والتزم البيعة إلاّ أنه استثنى نفقة الجند فاعتذر بعُدمة المال.

ولم يكن له يوم بويع غير قميص ورداء، وكان حازماً مقداماً، جريء النفس على البغاة.

واشتد خوفه على نفسه من الأتراك، واتخذ حربة حملها دائماً.

ثم رصد القوم.../...[١] عيناه بالنار. [٥٥/ب]

وقيل: سُمِلَ، ومعنا: فجّرت عيناه.

ولم يكن يُعْمل...[١] وخلع لخمس بقين من جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة.

= ابن مُقْلَة من الأهواز واستوزره، وكان قد نُفي.

ولم يكن القاهر متمكّناً من الأمور، وحكم عليه علي بن يلبق الرافضي الذي عزم على سَبّ معاوية رضي الله عنه على المنابر، فارتجّت العراق، وقبض على شيخ الحنابلة البربهاري، ثم قوي القاهر، ونهب دور مخالفيه، وطيَّن على ولد أخيه المكتفي بين حيطين، وضرب ابن يلبق، وسجنه، ثم أمر بذبحه، وبذبح أبيه، وذبح بعدهما مؤنساً الكبير ويُمناً، وابن زيرك.

وبذل للجند العطاء، وعظم شأنه، ونادى بتحريم الغناء والخمر وكسّر الملاهي، وهو مع ذلك يشرب المطبوخ والسُّلاف، ويسكر ويسمع القينات. واستوزر غير واحد، وقتل أبا السرايا بن حمدان، وإسحاق النوبختي ألقاهما في بئر، طُمّت لكونهما زايداه في جارية قبل الخلافة. وبقي ابن مُقْلَة في اختفائه يراسل الجند ويُشَغّبهم على القاهر، ويخرج متنكّراً في زي عجمي، وفي زي شحاذ، وأعطى منجماً ذهباً ليقول للقوّاد عليكم قطع من القاهر، ويعطي دنانير لمعبري الأحلام، فإذا قصَّ سيما مناماً خَوَّفوه من القاهر جداً ـ وكان رأس الساجية ـ فأضمر الشر وانتدب طائفة لاغتياله وبكروا، وكان نائماً به سُكر، وهرب وزيره، وحاجبه، فهجموا عليه بالسيوف، فهرب إلى سطح، فاستتر ثم ظفروا به، وبيده سيف مسلول، فقالوا: انزل، فامتنع، فقالوا: نحن عبيدك، ثم فوّق واحد إليه سهماً وقال: انزل وإلاّ قتلتك. فنزل، فأمسكوه في سادس جمادى الآخرة.

وبايعوا الراضي بالله بن محمد بن المقتدر، ثم خُلع وأُكحل بمسمار لسوء سيرته وسفكه الدماء.

وكانت خلافته سنة ونصفاً وأسبوعاً. قال الصولي: كان أهوج سفاكاً للدماء، كثير التلوّن، قبيح السيرة، مُدمن الخمر، ولولا جودة حاجبه سلامة لأهلك الحرث والنسل. وكان قد صنع حربة يحملها فلا يطرحها حتى يقتل إنساناً. قال محمد بن علي: أحضرني القاهر يوماً وبيده حربة، فقلت: الأمان. قال: على الصدق. قلت: نعم. قال: أسألك عن خلفاء بني العباس؟ فذكرت له من أحوالهم، وهو يسأل عنهم واحداً واحداً. فقال: قد سمعت قولك وكأني مشاهد القوم. وقام وبيده الحربة، فاستسلمت للقتل، فعطف إلى دار الحرم...

قال محمود الأصبهاني: كان سبب خلعهم للقاهر سوء سيرته، وسفكه للدماء، فامتنع عليهم من الخلع، فسملوه حتى سالت عيناه. وفي أيامه ظهر محمد بن علي بن أبي العزاقر الشلمغاني، وادعى الإلهية ببغداد، وأنه يحيي الموتى، وتعصّب له ابن مُقْلَة، وأنكر ما قيل عنه، ثم قُتل، وقُتل بسببه الحسين بن القاسم، وأبو إسحاق إبراهيم بن أبي الشلمغاني.

(١) موضع النقط طمس بالمخطوط.

وولي الأمر بعده الراضي بالله.

دولة الراضي بالله(١)

وهو محمد بن أحمد بن طلحة بن جعفر بن محمد بن هارون الرشيد.
وكان أديباً، ظريفاً كثير المجالسة للأدباء والمغنين.

---

(١) من مصادر ترجمته: تاريخ بغداد (٢/ ١٤٢)، أخبار الرضي والمتقي للصولي (١/ ١٨٥)، مروج الذهب (٢/ ٥١٩)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٠٣)، معجم الشعراء (٤٣٠)، المنتظم (٦/ ٢٦٥)، النبراس (١١٤)، الكامل في التاريخ (من سنة ٣٢٢: ٣٢٩)، العبر (٢/ ٢١٨)، فوات الوفيات (٢/ ٣٧٥)، الوافي بالوفيات (٢/ ٢٩٧)، مرآة الجنان (٢/ ٢٩٦)، البداية والنهاية (١١/ ١٧٨)، النجوم الزاهرة (٣/ ٢٧١)، تاريخ الخلفاء (٣٩٠)، شذرات الذهب (٢/ ٣٢٤)، رسالة أسماء الخلفاء والولاة (ص ١٣٥).

قال الخطيب في تاريخ بغداد في ترجمة الراضي: أمه أم ولد رومية تسمى: ظلوم، أدركت خلافته. ومولده في رجب سنة سبع وتسعين ومائتين. وتوفي ليلة السبت لست عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من تسع وعشرين وثلاثمائة. ودفن ليلة الأحد في الرصافة. وكانت خلافته ست سنين، وعشرة أيام. وتوفي وهو ابن إحدى وثلاثين سنة، وثمانية أشهر. وكان قصير القامة، نحيف الجسم، أسمر رقيق السمرة، دريّ اللون، أسود الشعر سبطه، في وجهه طول، وفي مقدم لحيته تمام، وفي شعرها رقّة، هكذا رأيته.

قال لنا الحسن بن أبي بكر: كانت مدّة خلافة الراضي ست سنين وعشرة أشهر، ومات بمدينة السلام... قال الشيخ أبو بكر: كان للراضي فضائل كثيرة، وختم الخلفاء في أمور عدّة، فمنها أنه آخر خليفة له شعر مدوّن، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجيش والأموال... قال: سمعت أبا بكر محمد بن يحيى الصولي يقول: سمعت أمير المؤمنين الراضي بالله يقول: لله أقوام هم مفاتيح الخير، وأقوام مفاتيح الشر، من أراد به خيراً قصد به أهل الخير وجعله الوسيلة إلينا فتقضى حاجته، فهو الشريك في الثواب، والشكر، ومن أراد الله به سوءاً عدل به إلى غيرنا، فهو الشريك في الوزر والإثم، والله المستعان على كل حال.

... حدثنا أبو طاهر محمد بن علي البيع قال: أنبأنا أحمد بن محمد بن موسى القرشي قال: قرىء على أبي بكر محمد بن يحيى الصولي وأنا أسمع للراضي بالله:

كل صفو إلى كدر ... كل أمن إلى حذر
ومصير الشباب للمو ... ت فيه أو الكبر
دَرَّ دَرُّ المشيب من ... واعظ ينذر البشر
أيها الآمل الذي ... تاه في لجّة الغرر
أين من كان قبلنا ... دَرَسَ الشخص والأثر
سيرد المُعَار من ... عمره كله خطر
رب إني ذخرت عنـ ... ـدك أرجوك مدّخر
إنني مؤمن بما ... بَيَّنَ الوحي في السور
واعترافي بترك نفـ ... ـعي وإيثاري الضرر
رب فاغفر لي الخطيـ ... ـئة يا خير من غفر

ومات حتف أنفه ببغداد سنة تسع وعشرين وثلاثمائة.

وولي الأمر بعده أخوه المتقي[(١)].

والراضي آخر خليفة خطب على المنبر يوم الجمعة.

وآخر خليفة انفرد بتدبير الجيوش.

والكلام في حروب الأعداء كثير.

وآخر خليفة له شعر مُدَوَّن.

وآخر خليفة كانت نفقته قصداً. رحمة الله عليه.

دولة المتقي بالله[(٢)]

وهو إبراهيم بن جعفر بن أحمد بن طلحة. وكان القَيِّم بأمره توزون التركي، وابن تكلا النصراني.

---

(١) في المخطوط: المقتفي. وهو تحريف، والصواب ما أثبته.

(٢) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٠٤)، أخبار الصولي (١٨٦)، مروج الذهب (٢/ ٥٣٠)، تاريخ بغداد (٦/ ٥١)، المنتظم (٦/ ٣١٦)، الكامل في التاريخ من سنة (٣٢٩: ٣٥٧)، النبراس (١١٩)، العبر (٢/ ٣٠٧)، الوافي بالوفيات (٥/ ٣٤١)، نكت الهيمان (٨٧)، تاريخ الخلفاء (٣٩٤)، شذرات الذهب (٣/ ٢٢)، أسماء الخلفاء والولاة (ص ١٣٦).

قال السيوطي في تاريخ الخلفاء في ترجمته: بويع له بالخلافة بعد موت أخيه الراضي وهو ابن أربع وثلاثين سنة. وأمه أمة اسمها خلوب، وقيل: زهرة. ولم يغير شيئاً قط، ولا تَسرَّى على جاريته التي كانت له. وكان كثير الصوم والتعبّد، ولم يشرب نبيذاً قط، وكان يقول: لا أريد نديماً غير المصحف. ولم يكن له سوى الاسم والتدبير لأبي عبد الله أحمد بن علي الكوفي كاتب يَحْكَم...

وفي سنة ثلاثين... خرج أبو الحسن علي بن محمد اليزيدي، فخرج لقتاله الخليفة، وابن رائق فهزما، وهرب إلى الموصل، ونهبت بغداد، ودار الخلافة، فلما وصل الخليفة إلى تكريت وجد هناك سيف الدولة أبا الحسن علي بن عبد الله بن حمدان، وأخاه الحسن، وقُتل ابن رائق غيلة. فولّى الخليفة مكانه الحسن بن حمدان ولقبه ناصر الدولة، وخلع على أخيه، ولقّبه سيف الدولة، وعاد إلى بغداد وهما معه، فهرب اليزيدي إلى واسط.

ثم ورد الخبر في ذي القعدة أن اليزيدي يريد بغداد فاضطرب الناس، وهرب وجوه أهل بغداد، وهرب الخليفة ليكون مع ناصر الدولة، وسار سيف الدولة لقتال اليزيدي، فكانت بينهما وقعة هائلة بقرب المدائن، وهزم اليزيدي، فعاد بالويل إلى واسط، فساق سيف الدولة إلى واسط، فانهزم اليزيدي إلى البصرة.

وفي سنة إحدى وثلاثين وصلت الروم إلى أرزن، وميافارقين، ونصيبين، فقتلوا وسبوا ثم طلبوا منديلاً في كنيسة الرها، يزعمون أن المسيح مسح به وجهه، فارتسمت صورته فيه، على أنهم يطلقون جميع من سبوا، فأرسل إليهم، فأطلقوا الأسرى. وفيها هاج الأمراء بواسط على سيف الدولة فهرب في البريد يريد بغداد، ثم سار إلى الموصل أخوه ناصر الدولة خائفاً لهرب أخيه،

وغلب عليه، فلم يكن في يده من الأمر شيء.

وخاطب لما خاف على نفسه في السِّر أبا محمد ناصر الدولة، وأبا الحسن سيف الدولة ابن حمدان في أن يجيراه، ويعوّض لهما المُلك، ثم لحق بالموصل، والتقى بجيش توزون التركي، وكانت الهزيمة على جيش توزون.

وعاد المتقي إلى بغداد مهادناً إيّاه، واستخلف توزون، واطمأن إلى عهده فخانه، وخلعه، وكحل عينه بالقارّ في صفر من سنة تسع وعشرين وثلاثمائة[١].

وقدم بغداد المستكفي بالله.

دولة المستكفي بالله[٢]

وهو عبد الله بن المكتفي بالله علي بن أحمد بن طلحة بن جعفر المتوكل.

= وسار من واسط توزون، فقصد بغداد، وقد هرب منه سيف الدولة إلى الموصل. فدخل توزون بغداد في رمضان، فخلع عليه المتقي، وولاّه أمير الأمراء.

ثم وقعت الوحشة بين المتقي وتوزون، فأرسل توزون أبا جعفر بن شيرزاد من واسط إلى بغداد فحكم عليها، وأمر ونهى. فكاتب المتقي ابن حمدان بالقدوم عليه، فقدم في جيش عظيم، واستتر ابن شيرزاد. فسار المتقي بأهله إلى تكريت، وخرج ناصر الدولة بجيش كثير من الأعراب، والأكراد، إلى قتال توزون، فالتقيا بعكبرا، فانهزم ابن حمدان والمتقي إلى الموصل، ثم تلاقوا مرة أخرى، فانهزم ابن حمدان والخليفة إلى نصيبين. فكتب الخُليفة إلى الاخشيد صاحب مصر أن يحضر إليه، ثم بان له من بني حمدان الملل والضجر، فراسل الخليفة توزون في الصلح، فأجاب، وبالغ في الإيمان.

ثم حضر الاخشيد إلى المتقي، وهو بالرقة، وقد بلغه مصالحة توزون، فقال: يا أمير المؤمنين أنا عبدك، وابن عبدك، وقد عرفت الأتراك فجورهم وغدرهم، فالله الله في نفسك، سِرْ معي إلى مصر فهي لك وتأمن على نفسك. فلم يقبل، فرجع الاخشيد إلى بلاده، وخرج المتقي من الرقة إلى بغداد في رابع المحرم سنة ثلاث وثلاثين، وخرج للقائه توزون، فالتقيا بين الأنبار وهيت، فترجّل توزون، وقبّل الأرض، فأمره المتقي بالركوب، فلم يفعل، ومشى بين يديه إلى المخيم الذي ضرب له، فلما نزل قبض عليه وعلى ابن مُقْلَة ومن معه. ثم كحّل الخليفة، وأُدخل بغداد مسمول العينين، وقد أخذ منه الخاتم والبردة والقضيب.

وأحضر توزون عبد الله بن المكتفي، وبايعه بالخلافة، ولقّب المستكفي بالله. ثم بايعه المتقي المسمول وأشهد على نفسه بالخلع على ذلك لعشر بقين من المحرم. وقيل: من صفر، ولما كحل قال القاهر:

صرت وإبراهيم شيخي عمي ... لا بد للشيخين من مصدرِ
ما دام توزون له إمرة ... مطاعة، فالمِيل في المجمرِ

ولم يَحُلْ على توزون الحول حتى مات. وأما المتقي، فإنه أُخرج إلى جزيرة مقابلة للسندية فسجن بها، فأقام بالسجن خمساً وعشرين سنة إلى أن مات في شعبان سنة سبع وخمسين.

(١) كذا في المخطوط، وفي غيره من المصادر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

(٢) من مصادر ترجمته: تاريخ بغداد (١٠/ ١٠)، تاريخ الخلفاء (٣٩٧)، سير أعلام النبلاء (١٥/ =

وكان مضعفاً بعيداً عن النجابة، وهو الذي بلغ من الإخلال بالرسوم، وإبعاد الأمد في التخلّف والإضاعة أن أمر حسناء الشيرازية العجوز قيمة الجواري في قصره بالركوب متعمِّمة مُتقلِّدة سيفاً، والقعود للنظر في المظالم، والحكم بين الناس وبين القضاة والفقهاء.

وقيل: إن بطره العنيف مقرون بالضعف وقلّة النجابة. وكان بينه وبين الفضل بن المقتدر المسمّى المطيع بالله منافرة، ومنافسة، وعداوة، ومشاحة على اللعب/ [٥٦/أ] بالحمام، والكباش، والديوك.

= ١١١)، مروج الذهب (٢/ ٥٤٠)، المنتظم (٦/ ٣٣٩)، الكامل في التاريخ (من سنة ٣٣: ٣٤)، النبراس (١٢٠)، العبر (٢/ ٢٤٥)، أسماء الخلفاء والولاة (ص ١٣٦)، نكت الهيمان (١٨٢)، البداية والنهاية (١١/ ٢١٠)، النجوم الزاهرة (٣/ ٢٩٩)، شذرات الذهب (٢/ ٣٤٥).

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمته: كان ربع القامة، مليحاً، معتدل البدن، أبيض بحمرة، خفيف العارضين. أمه أم ولد. بُويع وقت خُلع المتقي لله، وله يومئذ إحدى وأربعين سنة. قام ببيعته توزون، فأقبل أحمد بن بويه، واستولى على الأهواز والبصرة وواسط، فبرز لمحاربته جيش بغداد مع توزون، فدام الحرب بينهما أشهراً، وانهزم فيها توزون ولازمه الصرع، وضاق بأحمد الحال والقحط، فردّ إلى الأهواز، وقطع توزون الجسر وراءه وعاد إلى بغداد مشغولاً بنفسه. ووزر أبو الفرج السامري، ثم عزله توزون بعد أربعين يوماً، وأغرمه ثلاثمائة ألف دينار، وردَّ إلى الوزارة أبا جعفر بن شيرزاد. واشتد بالعراق القحط، ومات الناس جوعاً، وهلك ملك الأمراء توزون في أول سنة أربع، فطمع في منصبه ابن شيرزاد، وحلَّف العساكر، ونزل بظاهر بغداد.

وبعث المستكفي إليه الخِلَع والإقامات، فصادر التجّار والكتّاب، وسلّط جنده على العوام. فهرب الناس، وانقطع الجلب، ووهن أمن بغداد. وأما أحمد بن بُويه فقصد بغداد، ونزل باجسراي، وهرب الأتراك إلى الموصل، واستتر المستكفي، وابن شيرزاد، فنزل معزّ الدولة أحمد بن بويه الشماسية، وبعث إليه الخليفة التُّحَف والخِلَع، ثم حضر وبايع، فلقّبه الخليفة بمعز الدولة، ولقّب أخاه عليّاً عماد الدولة، وأخاه الآخر حسن رُكن الدولة. وضُربت أسماؤهم على السّكّة، ثم ظهر ابن شيرزاد، وقرر مع معزّ الدولة أموراً منها: في الشهر للخليفة مائة وخمسون ألف درهم ليس إلا. وكانت عَلم القهرمانة معظمة عند المستكفي تأمر وتنهي، فعلمَتْ دعوة للأمراء فاتهمها معز الدولة. وكان أصفيذ قد شفع إلى الخليفة في شيعي مغبن فردّه، فحقد.

وقال لمعزّ الدولة: الخليفة يراسلني فيك، فتخيل منه. ثم دخل على الخليفة اثنان من الديلم فطلبا منه الرزق، فمدّ يده للتقبيل، فجبذاه من سرير الخلافة، وجرّاه بعمامته، ونهبت داره، وأمسكوا القهرمانة، وجماعة، وساقوا المستكفي ماشياً إلى منزل معزّ الدولة، فخلع المستكفي وسمله. وكانت خلافته ستة عشر شهراً. وبايعوا في الحال الفضل بن المقتدر، ولقبوه المطيع لله.

وبقي المستكفي مسجوناً إلى أن مات في سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة، وله ست وأربعون سنة. واستقل بمُلك العراق معزّ الدولة وضعف دَست الخلافة جداً، وظهر الرفض والاعتزال ببني بويه، نسأل الله العفو. وكان إكحال المستكفي بعد أن خلع نفسه ذليلاً مقهوراً في جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين، فعاش بعد العزل والكحل أربعة أعوام.

فلما شرع في . . .[١] هرب المطيع منه، وطلب المطيع فلم يوجد.

وانهمك المستكفي في الشراب واللهو . . .[١]، معزّ الدولة أبو الحسن أحمد بن بويه الديلمي ومن معه من الأتراك، فسملوا عينيه، ثم قتلوه.

وقدَّم ابن بويه والأتراك المطيع لله.

دولة المطيع لله[٢]

هو محمد بن جعفر بن أحمد بن طلحة بن جعفر المتوكل.

ولم يكن له من الأمر شيء.

ثم خلع نفسه، ونقل الأمر إلى ابنه أبي بكر الطائع لله.

ومات بعد ذلك سنة أربع وستين وثلاثمائة.

وقيل: إنه سُمل إثر خلعه.

دولة الطائع لله[٣]

وهو عبد الكريم بن المطيع لله، واستمرت أيامه ثمانية عشر سنة.

---

(١) طمس في المخطوط.

(٢) من مصادر ترجمته: تاريخ بغداد (١٢/ ٣٧٩)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ١١٣)، مروج الذهب (٢/ ٥٥٢)، شذرات الذهب (٣/ ٤٨)، تاريخ الخلفاء (٣٩٨)، المنتظم (٦/ ٣٤٣)، العبر (٢/ ٣٣٤)، البداية والنهاية (١١/ ٢١٢)، رسالة أسماء الخلفاء والولاة (ص ١٣٦)، الكامل في التاريخ من سنة (٣٣٤: ٣٦٣).

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمته: ولد سنة إحدى وثلاثمائة. وأمه اسمها مَشْغَلة أم ولد. كان كالمقهورين مع نائب العراق ابن بويه، قرر له في اليوم مائة دينار فقط. واستفحل البلاء باللصوص ببغداد وركبوا الخيل وتسمّوا بالقوّاد. ثم أن المطيع خرج وولده الخليفة الطائع لله إلى واسط فمات هناك في المحرم سنة أربع وستين وثلاثمائة بعد ثلاث أشهر من عزله، وعمره ثلاث وستون سنة سوى أشهر.

وفي أيامه تلقب صاحب الأندلس الناصر المرواني بأمير المؤمنين، وقال: أنا أحق بهذا اللقب من خليفة تحت يد بني بويه. وصدق الناصر، فإنه كان بطلاً شجاعاً سائساً مهيباً، له غزوات مشهورة، وكان خليقاً للخلافة، ولكن كان أعظم منه بكثير المعز العُبَيْدي الإسماعيلي النِّحلة، وأوسع ممالك، حكم على الحرمين، ومصر، والشام، والمغرب.

(٣) من مصادر ترجمته: تاريخ بغداد (١١/ ١٢٧)، المنتظم (٧/ ٦٦)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ١١٨)، الكامل في التاريخ (من سنة ٣٦٣: ٣٨١)، رسالة أسماء الخلفاء والولاة (ص ١٣٧).

قال السيوطي في تاريخ الخلفاء: أمه أم ولد اسمها هزار. نزل له أبوه عن الخلافة وعمره ثلاث وأربعون سنة، فركب وعليه البُرْدة ومعه الجيش، وبين يديه سبكتكين، وخلع من الغد على =

وكان القائم بدولته أبو نصر بهاء الدولة.

= سبكتكين خلع السلطنة، وعقد له اللواء، ولقبه نصر الدولة. ثم وقع بين عز الدولة وسبكتكين، فدعا سبكتكين الأتراك لنفسه فأجابوه، وجرى بينه وبين عزل الدولة حروب... وفي سنة ثمان وستين أمر الطائع بأن تضرب الدبابات على باب عضد الدولة في وقت الصبح والمغرب والعشاء، وأن يخطب له على منابر الحضرة.

قال ابن الجوزي: وهذان أمران لم يكونا من قبله، ولا أطلقا لِوُلاَةِ العهود، وقد كان معز الدولة أحب أن تضرب له الدبادب بمدينة السلام. فسأل المطيع في ذلك، فلم يأذن له، وما حظي عضد الدولة بذلك إلاّ لضعف أمر الخلافة. وفي سنة تسع وستين وَرَدَ رسول العزيز صاحب مصر إلى بغداد، وسأل عضد الدولة الطائع أن يزيد في ألقابه: تاج الملّة، ويجدّد الخلع عليه ويلبسه التاج، فأجابه وجلس الطائع على السرير وحوله مائة بالسيوف والزينة، وبين يديه مصحف عثمان، وعلى كتفه البردة، وبيده القضيب وهو متقلّد بسيف رسول الله ﷺ. وضربت ستارة بعثها عضد الدولة، وسأل أن تكون حجاباً للطائع حتى لا يقع عليه عين أحد من الجند قبله. ودخل الأتراك والديلم وليس مع أحد منهم حديد. ووقف الأشراف، وأصحاب المراتب من الجانبين. ثم أذن لعضد الدولة فدخل، ثم رفعت الستارة، وقبّل عضد الدولة الأرض. فارتاع زياد القائد لذلك، وقال لعضد الدولة: ما هذا أيها الملك؟! أهذا هو الله؟! فالتفت إليه وقال: هذا خليفة الله في الأرض. ثم استمر يمشي ويقبّل الأرض سبع مرات. فالتفت الطائع لله إلى خالص الخادم، وقال: استدنِهِ. فصعد عضد الدولة، فقبّل الأرض مرتين. فقال له: ادن إليَّ. فدنا. وقبّل رجله، وثنى الطائع يمينه عليه وأمره، فجلس على الكرسي بعد أن كرّر عليه: اجلس، وهو يستعفي. فقال له: أقسمت عليك لتجلسن. فقبّل الكرسي وجلس.

فقال له الطائع: قد رأيت أن أفوّض إليك ما وكلَ الله إليَّ من أمور الرعية في شرق الأرض وغربها، وتدبيرها، في جميع جهاتها سوى خاصتي وأسبابي، فتولى ذلك. فقال: يعينني الله على طاعة مولانا أمير المؤمنين وخدمته، ثم أفاض عليه الخلع وانصرف. قلت: انظر إلى هذا الأمر، وهو الخليفة المستضعف الذي لم تضعف الخلافة في زمن أحد ما ضعفت في زمنه، ولا قوي أمر سلطان ما قوي أمر عضد الدولة. وقد صار الأمر في زماننا إلى أن الخليفة يأتي السلطان يهنئه برأس الشهر، فأكثر ما يقع من السلطان في حقه أن ينزل عن مرتبته، ويجلسا معاً خارج المرتبة، ثم يقوم الخليفة يذهب كأحد الناس، ويجلس السلطان في دست مملكته.

وقد حُدِّثت: أن السلطان الأشرف برسباس لما سافر إلى آمد لقتال العدو وصحب الخليفة معه كان الخليفة راكباً أمامه يحجبه، والهيبة والعظمة للسلطان، والخليفة كآحاد الأمراء الذين في خدمة السلطان الأشرف برسباس لما سافر إلى آمد لقتال العدو، وصحب الخليفة معه كان الخليفة راكباً أمامه يحجبه، والهيبة والعظمة للسلطان، والخليفة كآحاد الأمراء الذين في خدمة السلطان. وفي سنة إحدى وثمانين قبض على الطائع، وسببه أنه حبس رجلاً من خواص بهاء الدولة، فجاء بهاء الدولة وقد جلس الطائع في الرواق متقلّداً سيفاً، فلما قرب بهاء الدولة قبّل الأرض وجلس على كرسي، وتقدم أصحاب بهاء الدولة فجذبوا الطائع من سريره، وتكاثر الديلم، فلفوه في كساء، وأصعد إلى دار السلطنة، وارتج البلد، ورجع بهاء الدولة، وكتب على الطائع إيماناً بخلع نفسه، وأنه سلّم الأمر إلى القادر بالله، وشهد عليه الأكابر، والأشراف، وذلك في تاسع عشر شهر شعبان، ونفذ إلى القادر بالله ليحضر وهو بالبطيحة.

ثم خلع سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة. وولي الأمر ابن عمه القادر بالله.

دولة القادر بالله(١)

هو أحمد بن إسحاق بن جعفر المقتدر بالله.

قام بأمر دولته أبو نصر صمصام الدولة ابن فناخسروا.

وكان خَيِّراً، فاضلاً، صنَّف كتاباً في الأصول كفَّرَ فيه القائلين بخلق القرآن.

وكان يخرج بزيّ العوام.

وأقام في الأمر إحدى وأربعين سنة وأشهراً.

وتوفي وهو ابن ثلاث وتسعين سنة.

ولي بعده ابنه القائم بأمر الله.

= واستمر الطائع في دار القادر بالله مكرماً محترماً في أحسن حال، حتى إنه حمل إليه ليلة شمعة قد أوقد نصفها، فأنكر ذلك فحملوا إليه غيرها إلى أن مات ليلة عيد الفطر سنة ثلاث وتسعين. وصلّى عليه القادر بالله في داره وشيّعه الأكابر والخدم.

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٢٧)، تاريخ بغداد (٤/ ٣٧)، المنتظم (٧/ ١٦٠)، النبراس (١٢٧)، العبر (٣/ ١٤٨)، الوافي بالوفيات (٦/ ٢٣٩)، النجوم الزاهرة (٤/ ١٦٠)، تاريخ الخلفاء (٤١١)، شذرات الذهب (٣/ ٢٢١)، رسالة أسماء الخلفاء (ص ١٣٨)، الكامل في التاريخ من سنة (٣٨٠: ٤٢٣).

ومما قاله الذهبي في ترجمته في سير أعلام النبلاء: أمه اسمها تمني. مولده سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، وماتت أمه في دولته، وقد عجزت سنة تسع وتسعين وثلاثمائة. وكان أبيض كثّ اللحية، ديّناً، عالماً، متعبّداً، وقوراً، من جُلَّة الخلفاء وأمثلهم. عدّه ابن الصلاح في الشافعية، تفقّه على أبي بشر أحمد بن محمد الهروي. قال الخطيب: كان من الدين وإدامة التهجد وكثرة الصدقات على صفة اشتهرت عنه، وصنّف كتاباً في الأصول ذكر فيه فضل الصحابة، وإكفار من قال بخلق القرآن، وكان ذلك الكتاب يُقرأ في كل جمعة في حلقة أصحاب الحديث، ويحضره الناس مدة خلافته، وهي إحدى وأربعون سنة، وثلاثة أشهر.

قلت: قام بخلافته بهاء الدولة في سنة إحدى وثمانين، واستقدموه من البطائح فجهزه أميرها مهذّب الدولة علي بن نصر، وحمَّله من الآلات والرخت بما أمكن، وأعطاه طيَّاراً، فلما قَدِمَ واسط، أتاه الأجناد وطلبوا رسم البيعة، وهاشوا، فوعدهم بالجميل، فرضوا، فكان مقامه بالبطيحة أزيد من سنتين، فقدم، واستكتب أبا الفضل محمد بن أحمد عارض الديلم، وجعل أستاذ داره عبد الواحد الشيرازي، وحلف هو وبهاء الدولة كل منهما لصاحبه ثم سلطنه... وعملت الرافضة عيد الغدير يعني: يوم المؤاخاة، فثارت السُنَّة، وقووا، وخرّقوا عَلَمَ السلطان، وقُتِلَ جماعة، وصُلِب آخرون فكفّوا.

... وفي ذي الحجة من سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة مات القادر بالله في أول أيام التشريق، وصلّى عليه ابنه القائم بأمر الله وكبَّر عليه أربعاً، ودفن في الدار.

دولة القائم بأمر الله[1]

وهو عبد الله بن أحمد.

واستمرت أيامه أربعاً وأربعين سنة.

وتوفي في شعبان سنة سبع وستين وأربعمائة.

وولي بعده ابن ابنه المقتدي بأمر الله.

---

(١) من مصادر ترجمته: تاريخ بغداد (٩/ ٣٩٩)، المنتظم (٨/ ٥٧)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٣٨)، رسالة أسماء الخلفاء (ص ١٣٨)، العبر (٣/ ٢٦٤)، تاريخ الخلفاء (ص ٤١٧)، شذرات الذهب (٣/ ٣٢٦)، النبراس (١٣٦)، الكامل في التاريخ من أحداث سنة (٤٢٢: ٤٦٧).
ومما قال السيوطي في تاريخ الخلفاء في ترجمته: ولد في نصف ذي القعدة سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة. وأمه أم ولد أرمينية اسمها بدر الدُّجى، وقيل: قطر الندى. وَلِيَ الخلافة عند موت أبيه في يوم الاثنين الحادي عشر من ذي الحجة سنة اثنتين وعشرين، وكان ولي عهده في الحياة، وهو الذي لقّبه القائم بأمر الله.
قال ابن الأثير: كان جميلاً مليح الوجه، أبيض مشرباً بحمرة، حسن الجسم، ورعاً، ديناً، زاهداً، عالماً، قوي اليقين بالله تعالى، كثير الصدقة والبرّ، له عناية بالأدب، ومعرفة حسنة بالكتابة، مؤثراً للعدل والإحسان وقضاء الحوائج، لا يرى المنع من شيء طُلب منه.
قال الخطيب: ولم يزل أمر القائم بأمر الله مستقيماً إلى أن قُبض عليه في سنة خمسين وأربعمائة. وكان سبب ذلك أن أرسلان التركي المعروف بالبساسيري كان قد عَظُمَ أمره، واستفحل شأنه لعدم نظرائه، وانتشر ذكره، وتهيبته أمراء العرب والعجم، ودعي له على المنابر، وجبى الأموال، وخرب القرى، ولم يكن القائم يقطع أمراً دونه، ثم صح عنده سوء عقيدته، وبلغه أنه عزم على نهب دار الخلافة، والقبض على الخليفة، فكاتب الخليفة أبا طالب محمد بن مكيال سلطان الغز المعروف بطغرلبك - وهو بالري - يستنهضه في القدوم، ثم أحرقت دار البساسيري. وقدم طغرلبك في سنة سبع وأربعين، فذهب البساسيري إلى الرَّحبة، وتلاحق به خلق من الأتراك، وكاتب صاحب مصر، فأمده بالأموال وكاتب تبال أخا طغرلبك وأطمعه بمنصب أخيه، فخرج تبال، واشتغل به طغرلبك ثم قدم البساسيري بغداد في سنة خمسين ومعه الرايات المصرية، ووقع القتال بينه وبين الخليفة. ودعى لصاحب مصر المستنصر بجامع المنصور وزيد في الأذان: حيّ على خير العمل، ثم خطب له في كل الجوامع إلاّ جامع الخليفة، ودام القتال شهراً. ثم قبض البساسيري على الخليفة في ذي الحجة وسيره إلى غابة وحبسه بها. وأما طغرلبك فظفر بأخيه وقتله، ثم كاتب متولي غابة في ردّ الخليفة إلى داره مكرّماً، فحصل الخليفة في مقر عزه في الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة إحدى وخمسين، ودخل بأبهة عظيمة، والأمراء والحجاب بين يديه. وجهز طغرلبك جيشاً فحاربوا البساسيري فظفروا به، فقتل، وحمل رأسه إلى بغداد.
ولما رجع الخليفة إلى داره لم ينم بعدها إلاّ على فراش مُصلاّه، ولزم الصيام والقيام، وعفا عن كل من آذاه، ولم يستردّ شيئاً مما نهب من قصره إلاّ بالثمن، وقال: هذه أشياء احتسبناها عند الله، ولم يضع رأسه بعدها على مخدّة. ولما نهب قصره، لم يوجد فيه شيء من آلات الملاهي.

دولة المقتدي بأمر الله(١)

وهو عبد الله بن محمد القائم بأمر الله. يكنى أبا القاسم.

وتوفي في محرم سنة سبع وثمانين وأربعمائة.

[٥٦/ب] واضطرب الأمر ببغداد، وصُرفت الدعوة من العباسيين/ إلى...(٢) الشيعة بمصر والشام أياماً ثم عاد الأمر إلى بقايا العباسية.

[وتوفي في المحرّم سنة سبع وثمانين وأربعمائة](٣).

دولة المستظهرْ بالله(٤)

وهو أبو العباس أحمد بن المقتدي بالله، وهو الذي خاطبه علي بن يوسف

---

(١) قال السيوطي في ترجمته في تاريخ الخلفاء (٤٢٣): مات أبوه في حياة القائم ـ وهو حمل ـ فولد بعد وفاة أبيه بستة أشهر. وأمه أم ولد اسمها أجوان. وبويع له بالخلافة عند موت جده، وله تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر، وكانت البيعة بحضرة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وابن الصباغ، والدامغاني، وظهر في أيامه خيرات كثيرة، وآثار حسنة في البلدان.

وكانت قواعد الخلافة في أيامه باهرة وافرة الحرمة بخلاف من تقدمه. ومن محاسنه أنه نفى المغنيات والخواطي ببغداد، وأمر أن لا يدخل أحد الحمام إلاّ بمئزر. وخَرَّبَ أبراج الحمام صيانة لِحُرَم الناس. وكان ديِّناً، خيِّراً، قوي النفس، عالي الهمّة، من نجباء بني العباس... وفي سنة تسع وسبعين أرسل يوسف بن تاشفين صاحب سبتة ومراكش إلى المقتدي يطلب أن يسطلنه، وأن يقلّده ما بيده من البلاد، فبعث إليه الخلع، والأعلام، والتقليد، ولقبه بأمير المسلمين، ففرح بذلك، وسُرَّ به فقهاء المغرب، وهو الذي أنشأ مدينة مراكش... وفي سنة أربع وثمانين... قدم السلطان ملكشاه بغداد وأمر بعمل جامع كبير بها، وعمل الأمراء حوله دوراً ينزلونها، ثم رجع إلى أصبهان، وعاد إلى بغداد في سنة خمس وثمانين عازماً على الشر، وأرسل إلى الخليفة يقول: لا بد أن تترك بغداد، وتذهب إلى أي بلد شئت. فانزعج الخليفة وقال: أمهلني ولو شهراً. قال: ولا ساعة واحدة، فأرسل الخليفة إلى وزير السلطان يطلب المهلة إلى عشرة أيام. فاتفق مرض السلطان وموته، وعُدَّ ذلك كرامة للخليفة.

وقيل: إن الخليفة جعل يصوم، فإذا أفطر جلس على الرماد ودعا على ملكشاه، فاستجاب الله دعاءه، وذهب إلى حيث ألقت. ولما مات كتمت زوجته تركان خاتون موته، وأرسلت إلى الأمراء سِرّاً، فاستحلفتهم لولده محمود ـ وهو ابن خمس سنين ـ فحلفوا له. وأرسلت إلى المقتدي في أن يسلطنه، فأجاب ولقّبه: ناصر الدنيا والدين. ثم خرج عليه أخوه بركياروق بن ملكشاه، فقلّده الخليفة ولقبه ركن الدين، وذلك في المحرم سنة سبع وثمانين وأربعمائة. وعَلَّمَ الخليفة على تقليده، ثم مات الخليفة من الغد فجأة فقيل: إن جاريته شمس النهار سَمَّتهُ، وبويع لولده المستظهر.

(٢) موضع النقط طمس بالمخطوط.

(٣) ما بين المعقوفين جاء متراكب الحروف، فأخذت معناه من تاريخ الخلفاء وغيره.

(٤) ومما ترجم له به السيوطي في تاريخ الخلفاء (٤٢٦) قال: ولد في شوال سنة سبعين وأربعمائة، =

أمير......[١] فقرأ عنده بكتاب مشهور عند الناس يأمره فيه بالمعروف ويَنهاه عن المنكر.

ولعمري أن علي بن يوسف يرحمه الله كان أولى منه بذلك، لاستبداده وجهاده، ولكنه من تدبير ملكه وبلاده ومعرفته بأمر دنياه ومعاده.

ومات المستظهر بالله سنة اثنتي عشرة وخمسمائة.

وولي بعده ابنه المسترشد بالله.

دولة المسترشد بالله[٢]

وهو أبو منصور بن أحمد المستظهر.

وعلى عهده كان ظهور دعوة المهدي القائم بدولة الموحدِّين بالمغرب.

وكانت له فيما زعموا هِمَّة وشجاعة.

وعظمت في أيامه فتنة الباطنية، وخرج لقتال المذكورين من الأعاجم فوقعت عليه الهزيمة وأُسِرَ وقتلته الباطنية[٣].

= وبويع له عند موت أبيه وله ست عشرة سنة وشهران. قال ابن الأثير: كان ليِّن الجانب، كريم الأخلاق، يحب اصطناع المعروف للناس ويفعل الخير، ويسارع في أعمال البر، حسن الخط، جيد التوقيعات، لا يقاربه فيها أحد يدل على فضل غزير، وعلم واسع، سمحاً، جوّاداً، محبّاً للعلماء والصلحاء، ولم تصفُ له الخلافة بل اضطربت أيامه فكانت كثيرة الحروب.

... وفي سنة اثنتي عشرة مات الخليفة المستظهر بالله في يوم الأربعاء الثالث والعشرين من ربيع الأول، فكانت مدته خمساً وعشرين سنة، وغسَّلَهُ ابن عقيل شيخ الحنابلة، وصلى عليه ابنه المسترشد. وماتت بعده بقليل جدّته أرجوان والدة المقتدي. قال الذهبي: ولا يعرف خليفة عاشت جدته بعده إلاّ هذه، رأت ابنها خليفة، ثم ابن ابنها، ثم ابن ابن ابنها. وقال السلفي: قال لي أبو الخطاب بن الجراح: صلّيت بالمستظهر في رمضان، فقرأت: «إن ابنكَ سُرِّقَ» رواية رويناها عن الكسائي فلما سلمت قال: هذه قراءة حسنة فيها تنزيه أولاد الأنبياء عن الكذب.

(١) موضع النقط طمس بالمخطوط.

(٢) من مصادر ترجمته: المنتظم (١٠/ ٤٥)، خريدة القصر (١/ ٢٩)، النبراس (١٤٥)، سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٦١)، دول الإسلام (٢/ ٥٠)، العبر (٤/ ٧٥)، فوات الوفيات (٣/ ١٧٩)، مرآة الزمان (٨/ ٩٥)، طبقات السبكي (٧/ ٢٥٧)، البداية والنهاية (١٢/ ٢٠٧)، النجوم الزاهرة (٥/ ٢٥٦)، تاريخ الخلفاء (٤٣١)، شذرات الذهب (٤/ ٨٦)، وقال في ترجمته الذهبي في سيره: مولده في شعبان سنة ست وثمانين وأربعمائة في أيام جده المقتدي، وخطب له بولاية العهد وهو يرضع، وضربت السكة باسمه... وله خط بديع، ونثر صنيع، ونظم جيد، مع دين ورأي وشهامة وشجاعة، وكان خليقاً بالإمامة، قليل النظير.

(٣) قال الذهبي في السير أيضاً في المصدر السابق: بويع عند موت أبيه في ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة

قال أبو الفرج: وصل الخبر بذلك إلى بغداد سنة تسع وعشرين وخمسمائة.
وبويع بعده ولده الراشد بالله.

دولة الراشد بالله(١)

يكنى أبا جعفر.
بويع له في ذي القعدة، واستقام له الأمر. ثم خُلِعَ بعد سنتين.
وولي بعده المقتفي لأمر الله.

دولة المقتفي لأمر الله(٢)

واسمه محمد بن المستظهر بالله.

= وخمسمائة، فكانت دولته سبع عشرة سنة، وسبعة أشهر، وعاش ستاً وأربعين سنة، فقيل: إن الذين فتكوا به جهزهم مسعود، وكانوا سبعة عشر نفساً، فأمسكوا، وقتلهم السلطان، وأظهر الحزن والجزع.

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٦٨)، تاريخ الإسلام (٤/ ١٥٠)، العبر (٤/ ٨٩)، دول الإسلام (٥٢)، فوات الوفيات (٤/ ١٦٨)، مرآة الزمان (٨/ ١٠١)، البداية والنهاية (١٢/ ٢١٣)، النجوم الزاهرة (٢٦٣)، تاريخ الخلفاء (٤٣٦)، تاريخ الخميس (٢/ ٣٦٢)، شذرات الذهب (٤/ ١٠٠)، الكامل في التاريخ من أحداث سنة (٥٢٩: ٥٣٢).
ومما قال ابن الأثير في الكامل في ترجمته في ذكره لقتل المسترشد وخلافة الراشد في أحداث سنة (٥٣٢): ولما قتل المسترشد بالله بويع ابنه الراشد بالله أبو جعفر المنصور، ولقّب بالراشد بالله، وكان أبوه قد بايع له بولاية العهد في حياته وجدد له البيعة بعد قتله يوم الاثنين السابع والعشرين من ذي القعدة، وكتب السلطان مسعود إلى بك آبه الشحنة ببغداد يبايع له، وحضر الناس البيعة وحضر بيعته أحد وعشرون رجلاً من أولاد الخلفاء، وبايع له الشيخ أبو النجيب ووعظه وبالغ في الموعظة.
وقال في ذكره لقتل الراشد في سنة (٥٣٢): ولما وصل الراشد بالله إلى همذان وبها الملك داود بوزابه ومن معهما من الأمراء والعساكر ـ على ما تقدم ذكره (أي في الكامل) ـ ثم سار إلى خوزستان مع الملك داود ومعهما خوارزم شاه، فقاربا الجزيرة، فسار السلطان مسعود ليمنعهم عن العراق، فعاد الملك داود إلى فارس، وعاد خوارزم شاه إلى بلاده، وبقي الراشد وحده، فلما أيس من عساكر العجم، سار إلى أصفهان، فلما كان الخامس والعشرون من رمضان، وثب عليه نفر من الخراسانية الذين كانوا في خدمته فقتلوه وهو يريد القيلولة. وكان في أعقاب مرض برىء منه، ودفن بظاهر أصفهان بشهرستان، فركب من معه فقتلوا الباطنية، ولما وصل الخبر إلى بغداد جلسوا للعزاء به يوماً واحداً. وكان أبيض أشقر، حسن اللون، مليح الصورة، مهيباً، شديد القوة والبطش.

(٢) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٩٩)، المنتظم (١٠/ ١٩٧)، النبراس (١٥٦)، مرآة الزمان (٨/ ١٤٤)، الروضتين (١/ ١٢٤)، مفرّج الكروب (١/ ١٣١)، الفخري (٣١٠)، المختصر (٣/ ٣٧)، العبر (٤/ ١٥٨)، دول الإسلام (٢/ ٧١)، تتمة المختصر (٢/ ٩٧)، الوافي بالوفيات (٢/ ٩٤)، البداية والنهاية (١٢/ ٢٤١)، تاريخ ابن خلدون (٣/ ٥٢٢)، معالم الأناقة في مآثر الخلافة (٢/ ٣٥)، النجوم الزاهرة (٥/ ٣٣٢)، تاريخ الخلفاء (٤٣٧)، تاريخ الخميس (٢/ ٣٦٢)، شذرات الذهب (٤/ ١٧٢). =

وتوفي في أيامه أمير الجيوش سنجر التركي، وكان يستبد بأمره بعده، وأظهر العدل، وذُكر في مناقب بغداد.

وتوفي سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وأياماً.

قلت: وإنما انفسحت أيام دولة الغصبة الأخيرة لاشتغال الأتراك بأنفسهم في حرب بعضهم مع بعض حسبما تقع إليه الإشارة.

ثم ولي بعد المقتفي ولده المستنجد بالله.

دولة المستنجد بالله(١)

واسمه يوسف. ويُكنى المظفر.

بويع له عند وفاة أبيه المقتفي.

وكان قال...(٢) رأيت رسول الله ﷺ قبل موت والدي بأربعة أشهر، فدخل بي

= قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: مولده في ربيع الأول سنة تسع وثمانين وأربعمائة... وبويع بالإمامة في سادس عشر ذي القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة... كان المقتفي عاقلاً لبيباً، عاملاً مهيباً، صارماً، جوّاداً، مُحِبّاً للحديث والعلم، مُكرماً لأهله، وكان حميد السيرة، يرجع إلى تديّن وحسن سياسة، جدَّد معالم الخلافة، وباشر المهمات بنفسه، وغزا في جيوشه.

قال أبو طالب بن عبد السميع: كانت أيامه نضرة بالعدل، زهرة بالخير، وكان على قدم من العبادة قبل الخلافة ومعها، ولم يُرَ مَعَ لينه بعد المعتصم في شهامته مع الزهد والورع، ولم تزل جيوشه منصورة. وكان أسمر آدم، مجدور الوجه، مليح الشيبة، أقام حشمة الخلافة، وقطع عنها أطماع السلاطين السلجوقية وغيرهم، وكان من سلاطين خلافته صاحب خراسان سنجر بن ملكشاه، والملك نور الدين صاحب الشام، وأبوه قسيم الدولة.

... قال ابن الجوزي: مرض المقتفي بعلّة التراقي. وقيل: بدمل في عنقه، فتوفي في ثاني ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وله ست وستون سوى ثمانية وعشرين يوماً. وكذا مات أبوه بعلّة التراقي.

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤١٢)، المنتظم (١٠/ ١٩٢)، مرآة الزمان (٨/ ١٧٧)، العبر (٤/ ١٩٤)، دول الإسلام (٢/ ٨٩)، فوات الوفيات (٤/ ٣٥٨)، البداية والنهاية (١٢/ ٢٦٢)، معالم الأناقة (٢/ ٤٤)، الضوء اللامع (١٠/ ٣٢٩)، حسن المحاضرة (٢/ ٩١)، تاريخ الخلفاء (٤٤٢)، شذرات الذهب (٤/ ٢١٨).

قال الذهبي في سيره: عقد له أبوه بولاية العهد في سنة سبع وأربعين وعمره يومئذ تسع وعشرون سنة... وقيل: إن المستنجد كان فيه عدل ورفق، أبطل مُكوساً كثيرة.

قال ابن النجار: كان موصوفاً بالفهم الثاقب، والرأي الصائب، والذكاء الغالب، والفضل الباهر، له نظم ونثر، ومعرفة بالأسطرلاب، توفي في ثامن ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة.

(٢) موضع النقط كلمات غير مقروءة لطمس.

من باب كبير ثم ارتقينا إلى رأس جبل، وصلّى بي ركعتين، وألبسني قميصاً، ثم قال: قل: اللهم اهدني فيمن هديت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت.

وتوفي المستنجد في ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة، وكانت ولايته إحدى عشرة سنة وشهراً.

وولي بعده المستضيء بالله ابنه.

دولة المستضيء بالله(١)

واسمه: الحسن بن المستنجد.

ويكنى: أبا محمد.

وكان كثير الخِلع كريماً محتقراً للمال.

وكان الناس في زمانه في أرغد عيش.

قال عماد الدين محمود في البر الشامي: وعلى عهده ـ يعني المستضيء بالله ـ كانت وفاة العاضد آخر ملوك العُبيديين، وذاك في يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة، وانقرضت بوفاته أيام ملوك الشيعة، وصارت الدعوة في جميع بلاد الشام والحجاز والعراق عباسية على يدي صلاح الدين بن أيوب حسبما يلي التعرّف بذلك في دولة بني عُبيد الشيعة إن شاء الله(٢).

وتوفي المستضيء بالله في ذي القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة.

فكانت مدته عشر سنين إلاّ شهراً

وولي بعده ولده: الناصر لدين الله.

---

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٦٨)، العبر (٤/ ٢٢٣)، والسبط في المرآة (٨/ ٣٥٦)، المنتظم (١٠/ ٢٣٣)، تاريخ الخلفاء (٤٤٤)، وفيه: ولد سنة ست وثلاثين وخمسمائة. وأمه أم ولد أرمينية اسمها: غضة... قال ابن الجوزي: احتجب المستضيء عن أكثر الناس، فلم يركب إلاّ مع الخدم، ولا يدخل عليه غيرهم.

(٢) قال السيوطي في تاريخ الخلفاء أيضاً: قال ابن الأثير: السبب في إقامة الخطبة العباسية بمصر أن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبت قدمه، وضعف أمر العاضد كتب إليه نور الدين محمود بن زنكي يأمره بذلك فاعتذر بالخوف من وثوب المصريين، فلم يُصغ إلى قوله، وأرسل إليه يلزمه بذلك، واتفق أن العاضد مرض، فاستشار صلاح الدين أمراءه فمنهم من وافق، ومنهم من خاف. وكان قد دخل مصر أعجمي يعرف بالأمير العالم، فلما رأى ما هم فيه من الإحجام قال: أنا أبتدىء بها. فلما كان أول جمعة من المحرم، صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء، فلم ينكر ذلك أحد. فلما كانت الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بقطع خطبة العاضد، ففعل ذلك، ولم تنتطح فيها عنزان ـ والعاضد شديد المرض ـ فتوفي في يوم عاشوراء.

دولة الناصر لدين الله(١)

واسمه: أحمد بن المستضيء الحسن بن المستنجد بالله يُوسف.

يكنى: أبا العباس.

بُويع يوم الأحد ثاني ذي القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة.

وكانت أيامه سبعة وأربعين سنة غير يوم واحد.

فتغيرت في دولته خمسة ملوك من بني عبد المؤمن بالمغرب، أولهم: يعقوب المنصور، وآخرهم الملقب بالعادل.

وكان ببغداد عند حلول أبي الحسن بن جُبير بها، فقال في رحلته: أبصرنا هذا الخليفة، وهو أبو العباس أحمد الناصر بدين الله بن المستضيء بالله، بالجانب الغربي بإزاء منظرته به، وقد انحدر عنها قاعداً في الزورق إلى قصره بأعلى الجانب الشرقي على الشط، وهو في قباء من سِنِّهِ.

[وكان](٢) أشقر اللحية صغيرها، كما اجتمع [في](٢) وجهه حسن الشكل، جميل المنظر، أبيض اللون، معتدل القامة. . .(٣)/ سِنُّهُ نحو الخمسة والعشرين سنة، [٥٧/ب] لابساً ثوباً أبيض شبيه القبة برسوم ذهب.

وعلى رأسه قلنسوة مذهّبة مطوّقة بوبر أسود من الأوبار الغالية القيمة المتخذة للباس. . .(٤) متعهداً بذلك زي الأتراك تعمية لشأنه، لكن. . .(٤) لا تخفى. . .(٤).

وكانت وفاته يوم الاثنين سلخ شوال سنة ثنتين وعشرين وستمائة وذكر. . .(٤) أبو الحسن بن سعيد الرحّال، لكن لم يُعين اليوم.

ثم تولى الأمر الظاهر بالله ولده.

---

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٢/ ١٩٢)، رحلة ابن جبير (٢٠٦)، النبراس (١٦٤)، مرآة الزمان (٨/ ٦٣٠)، مفرج الكروب (٤/ ١٦٣)، مختصر أبي الفداء (٣/ ١٤٢)، العبر (٥/ ١٧)، دول الإسلام (٢/ ٩٥)، فوات الوفيات (١/ ٦٢)، البداية والنهاية (١٣/ ١٠٦)، السلوك للمقريزي (١/ ١/ ٢١٧)، النجوم الزاهرة (٦/ ٢٦١)، المنهل الصافي (١/ ٢٦٤)، شذرات الذهب (٥/ ٩٧)، تاريخ الخلفاء (٤٤٨).

قال الذهبي في سيره: ولد في عاشر رجب سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة. . . كان أبيض معتدل القامة تركي الوجه، مليح العينين، أنور الجبهة، أقنى الأنف، خفيف العارضين، أشقر، رقيق المحاسن. نقش خاتمه: رجائي من الله عفوه.

. . . ولم يل الخلافة أحد أطول دولة منه لكن صاحب مصر المستنصر العبيدي، ولي ستين سنة. وكذا ولي الأندلس الناصر المرواني خمسين سنة.

(٢) ما بين المعقوفين يتطلبه السياق. (٣) موضع النقط كلمة مطموسة.

(٤) موضع النقط كلمات مطموسة.

دولة الظاهر بالله[1]

واسمه: محمد.

وكنيته: أبو نصر.

وتوفي في رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة.

وكانت أيامه تسعة أشهر.

وولي بعده ابنه المستنصر بالله.

دولة المستنصر بالله[2]

وهو: أبو جعفر منصور بن محمد الظاهر.

وهو الذي خاطبه الأمير أبو عبد الله محمد بن يوسف أمير الأندلس، ودعا له ووصله جوابه صحبة الراية السوداء، وتقليد الولاية وخِلْعَه، ذكر أنها لمست البردة النبوية، وذلك في حدود عام ست وعشرين وستمائة وتقليده إياه.

وجواب المتغلب على الأمر ببغداد المدعو...[3] بما نذكره في...[3] ابن هود إن شاء الله.

---

(١) من مصادر ترجمته: تاريخ الإسلام (١٤٥٨)، مرآة الزمان (٨/ ٦٤٢)، مختصر أبي الفداء (٣/ ١٢٣)، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٤)، دول الإسلام (٢/ ٩٦)، الوافي بالوفيات (٢/ ٩٥)، نكت الهيمان (٢٣٨)، البداية والنهاية (٢٣٨)، النجوم الزاهرة (٦/ ٢٦٥)، شذرات الذهب (٥/ ١٠٩).
قال السيوطي في تاريخ الخلفاء: ولد سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، وبايع له أبوه بولاية العهد، واستخلف عند موت والده، وهو ابن اثنتين وخمسين سنة، فقيل له: ألا تتفسح؟ قال: لقد يبس الزرع. فقيل: يبارك الله في عمرك. قال: من فتح دكاناً بعد العصر إيش يكسب؟! ثم أنه أحسن إلى الرعية، وأبطل المكوس، وأزال المظالمْ، وفرّق الأموال.
قال ابن الأثير: لما وَلِيَ الظاهر الخلافة أظهر من العدل والإحسان ما أعاد به سنة العُمرين. فلو قيل: إنه ما ولي الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان صادقاً.

(٢) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٥٥)، مرآة الزمان (٨/ ٧٣٩)، ذيل الروضتين (١٧٢)، تاريخ الخلفاء (٤٦٠)، المختصر لأخبار البشر (٣/ ١٧٩)، دول الإسلام (٢/ ١١٠)، العبر (٥/ ١٦٦)، البداية والنهاية ١٣/ ١٥٩)، النجوم الزاهرة (٦/ ٣٤٥)، شذرات الذهب (٥/ ٢٠٩).
ومما قال الذهبي في سيره في ترجمته: مولده سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، وأمه تركية. وكان أبيض أشقر، سميناً، ربعة، مليح الصورة، عاقلاً، حازماً، سائساً، ذا رأي ودهاء ونهوض بأعباء المُلك، وكان جده الناصر يحبه، ويسميه القاضي لحبه للحق وعقله.

(٣) موضع النقط طمس بالمخطوط.

وكان قصد ابن هود بذلك الاستظهار على الموحدين بمراكش الذين نابذهم، وخالف عليهم بالأندلس.

وكان اللقب الذي لقّبه المستنصر بالله المذكور: مجاهد الدين سيف أمير المؤمنين، وتمثّل الناس يومئذ بقول الشاعر:

سهم أصاب وراميه بذي سلم ... من بالعراق لقد أبعدت من ملك

بل والله لم يصير لأصدق الوهم.

ولله درّ المثل: العجل يضم نفسه.

وتوفي المستنصر عاشر جمادى الأولى سنة أربعين وستمائة. حكاه ابن سعد وغيره[١].

ثم ولّي بعده ابنه المستعصم بالله.

دولة المستعصم بالله[٢]

وهو: أبو أحمد عبد الله بن المستنصر.

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: أنبأني ابن البزوري: أن المستنصر توفي يوم الجمعة، بكرة عاشر جمادى الآخرة. وقال المنذري: جمادى الأولى، فوهم. عاش إحدى وخمسين سنة، وأشهراً، وخُطِبَ يوم موته له، كتموا ذلك. فأتى إقبال الشرابي والخدم إلى ولده المستعصم فسلّموا عليه بإمرة المؤمنين، وأقعدوه في سُدَّة الخلافة وأعلم الوزير وأستاذ الدار في الليل... وكانت دولته سبع عشرة سنة رحمه الله وسامحه.

(٢) من مصادر ترجمته: تاريخ الخلفاء (٤٦٤)، سير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٧٤)، شذرات الذهب (٥/ ٢٧٠)، النجوم الزاهرة (٧/ ٦٣)، العقد الثمين (٥/ ٢٩٠)، دول الإسلام (٢/ ١٢١)، العبر (٥/ ٢٣٠)، البداية والنهاية (١٣/ ٢٠٤)، تاريخ ابن خلدون (٣/ ٥٣٦)، مختصر التاريخ لابن الكازروني (٢٦٦)، خلاصة الذهب المسبوك (٢٨٩)، فوات الوفيات (٢/ ٢٣٠).
قال الذهبي في ترجمته: ولد سنة تسع وستمائة، واستخلف سنة أربعين يوم موت أبيه في عاشر جمادى الآخرة. وكان فاضلاً تالياً لكتاب الله، مليح الكتابة، ختم على ابن النيار، فأكرمه يوم الختم ستة آلاف دينار، وبلغت الخِلَعُ يومَ بيعته أزيد من ثلاثة عشر ألف خلْعة. وكان كريماً حليماً ديناً، سليم الباطن، حسن الهيئة.... وفي سنة خمس وخمسين وستمائة... جرت فتنة مهولة ببغداد بين الناس وبين الرافضة، وقتل عدة من الفريقين، وعظم البلاء، ونهب الكرخ، فحنق ابن العلقمي الوزير الرافضي، وكاتب هولاكو، وطمعه في العراق، فجاءت رسل هولاكو إلى بغداد وفي الباطن معهم فرمانات لغير واحد، والخليفة لا يدري ما يتم، وأيامه قد ولّت، وصاحب دمشق شاب غرّ جبان، فبعث ولده الطفل مع الحافظي بتقادم وتحف إلى هولاكو فخضع له ومصر في اضطراب بعد قتل المعز، وصاحب الروم قد هرب إلى بلاد الأشكري، فتمرّد هولاكو وتجبر، واستولى على الممالك، وعاث جنده الكفرة يقتلون ويأسرون ويحرقون.

[١/٥٨] فكانت أيامه خمس عشرة سنة، وتسعة أشهر/ وعشرين يوماً.

وقصد ملك التتر، المسمى هولاكو، مدينة بغداد بعد أن ظهروا على العراق واستباحوا بلاد الإسلام.

وخادعه وزيره، وفرّق بينه وبين. . .(١) هولاكو ملك التتر، وقصد منه أن يُبقي عليه رُتبة الوزارة إذا صار له الأمر، فأشار عليه بالخروج إليه، ففعل، فلما تحصّل بيده قبض عليه وعلى أهل بيته وولده، فقتله، ودخل بغداد عنوة وألحم السيف في أهلها أياماً حتى عجز العدو عن قتل المسلم، وكَلَّ السلاح وضعفت عن حمله الأيدي، وكانت الوقيعة الكبيرة، والحادثة الشنيعة من دخول التتر مدينة بغداد يوم السبت سلخ ربيع الآخر سنة ست وخمسين وستمائة.

وانقرضت دولة الإسلام من العراق، واستولى عليها التتر، وصارت قاعدة ملك المسلمين بالمشرق. . .(٢) مضى إلى هذا العهد، والبقاء لله وحده.

وهاتان الدولتان المنسوبتان إلى بني أميّة وبني العباس أكبر دول الإسلام من جهة الزمان والمكان ورفعة الشأن وفضل الزمان. وما الظن بدول ابتزت كسرى العراق، وهرقل الشام، وخاقان الترك، ومقوقس مصر، وجرجير إفريقية، ولذريق الأندلس، حسبت الأموال، واستولدت الحريم، واسترّقت الأولاد، واقتطعت البلاد، واستخدمت العباد؟ كيف يكون ريها وشبعُها، واحتفال نواديها وغنى أيديها؟.

إلاَّ أن الكمال في الوجود متعذر الوجود لينفرد بوصفه جلال المعبود المتوجه لوجهه الكريم بالسجود، فوصمها. . .(٣) استباحت الحِمَى ولم ترع المنتمي من الانتقام من آل بيت الرسول وولده. . .(٣) جوهرية فيها من استهتار، وأمور في الدين كبار، منها نبش اللحود، ومطاوعة الحقود، والفتك بالعلوية، وانتحال المذاهب الرديّة، إلى أن اتّسع نطاق العوام، وخرج الأمر من الجَرَب إلى الجذام، حتى استولى التتر على ملوك الإسلام، واستأثروا بمدينة السلام، فلولا أن هذه العصابة الصالحة التركية ثبتت صبراً. . . وانصرف إلى خدمة الحرمين الشريفين اهتمامها لاستردت الروم ما يليها واسترجعت القياصر محل دولها، والأرض لله يورثها ويُعَقِبُ فيها.

وحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) طمس بالمخطوط.

(٢) طمس بالمخطوط.

(٣) طمس بالمخطوط.

[٥٨/ب]

/ ابتداء المماليك الذين غلبوا على دولة المغرب من بني العباس

ظهر في عهد هذه الدولة العباسية لما تفطّرت عصاها وصارت أفزازاً، ولم يبق بيت إلا مال. . .[١] البنان أو سير بالبنان بأقطار تلك الإيالة المشرقية ملوك نازعوا. . .[١] وانتحلوا دونها الشهرة من الترك، والدّيالمة، والأعجام، والقليل من غيرهم.

وكان لهم ملك كبير، أمره شهير، فجلب منه ما تيسر ليتسع نطاق الاطلاع على ملوك البقاع وأمراء الأصقاع.

ومن المنقول في محاورات شاحي لأبي معشر البلخي الشهير في الأحكام النجومية:

أنه قال له: هل تفنى دولة العرب؟

فقال: لا، ولكن يغلب الترك على أكثر من ثلثيها.

فنقول:

كان الذي فتح على العباسيين هذا الباب المعتصم بن الرشيد العباسي، استكثاراً بالمماليك على أهل الأخطار من العرب، وقد جرّب ما نزل بأخيه الأمين عند الفتنة، فكان كمن أراد الاستضاءة بالنار والاستدفاء بها، فأحرق بيته بها، والله غالب على أمره.

فاستكثر من المماليك يختارهم من أبناء الملوك وأشراف الأعاجم من الترك والديالمة والغز والتتر فتحملهم وأجناسهم وأتباعهم على التراب إلى الغابات البعيدة، وأوصافهم تدل على أرهاطهم، فالإخشيد يُسَمَّى به كل ملك من فرغانة، كما يُدعى ملك الروم قيصر، وشاه كل ملك من ملوك خوارزم، وصول كل ملك من جرجان، واصيهتن كل ملك من أذربيجان، وسلان كل ملك من طبرستان.

وكان. . .[٢] منهم الأفشين، وايتاخ، وعجيف، وبُغا، ومازيار، وبابك.

---

(١) طمس بالمخطوط.

(٢) كلمة مطموسة.

واجتمع ببابه منهم من سمرقند، وفرغانة، وسائر ثغور خراسان أزيد من أربعة آلاف، ألبستهم أنواع الديباج والملابس المذهّبة، والحلي. وتوّج الأفشين تاج ذهب مُرصع بالجوهر، ثم تاج ذهب ليس به إلاّ الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر.

وألبسه وشاحين، وقلّده سيفين، وزوَّج ابنه الحسين من ابنة اشناس التركي، واسمها أُتْرُجَّة، وزُفَّت إليه، وأُقيم لها عُرس لم يُرَ له نظير في الدنيا، وكانت ذات حُسن بارع، وفي ذلك يقول المعتصم يصف حسنها وجمالها ـ وكان الحسين بن الأشفين أجمل الناس صورة ـ:

زفت عروسٌ إلى عروسِ   بنت رئيس إلى رئيس

[٥٩/أ] / أيهما كان ليت شعري   أجلّ في الصدر والنفوس

أصاحب المرهف المحلي   أم ذو الوشاحين الشموس

ويظهر أن الشموس كانت تطلق في زمانهم على آلة من آلات... [(١)].

... [(١)] المعتصم، حتى شقي بالمماليك، وخالف عليه منهم الأفشين، وباجاه، ومازيار، وفي ذلك يقول حبيب الطائي في قصيدته التي أولها:

الحق أبلج والسيوف عوار   فحذار من أسد العروق حذار

... [(٢)] ثم تفاحش الأمر واستولوا على ولده من بعده يقتلون الناس ويسملون أعينهم متى شاؤوا، ولم يبق رسم للعبودية على حالها... [(٣)] إلا لتشاغل بعض هؤلاء الملوك الأعاجم ببعض واستيلائهم على بقية الملك، وامتنع الخليفة بزعمهم بدار على ما عليه الحال اليوم بتونس مع أمراء العرب، وكان منهم أمراء عظماء استضافوا العربية إلى الجزء الأوفر... [(٤)] لما ملكوا جبال العراق وجاوروا معادنهم من الترك ممن استأمن إليهم أو أسلم من كفارهم أو تملّكوه بسيوفهم، أو ابتاعوه بأموالهم، فأطاعهم العرب والعجم، وجاءت الأيام منهم بدول جحاجحة من بني بُوَيْهٍ، وبني أيوب، والسلجوقية.

[٥٩/ب] / ابتداء دولة الديلم من بني بويه وغيرهم:

وكان ظهور الديالمة في دولتهم سنة عشر وثلاثمائة، فكان أول من غلب منهم على الرّي لنكي بن النعمان، ثم لنكي بن كاكي.

---

(١) طمس بالمخطوط.

(٢) موضع النقط ذكر عدة أبيات تركتها لما أصابها من طمس جعل الأبيات لا تؤدي المعنى المراد.

(٣) موضع النقط كلمة مطموسة.

(٤) طمس قدره كلمة.

ثم غلب بعدهم أسفار بنو شرويه، وكان. . .[١] من المماليك اسمه مناويج بن زيلد اغْنَاله[٢]، وملك مكانه، وارتفع أمره.

وتحدّث الناس أنه يريد تشعيث الدولة، وقصد بغداد، وكان يروم أن يعيد دولة الأعاجم، ويبطل ملك العرب.

ثم أساء السيرة في الأتراك، فاغتالوه، ورأس القوم: يَحْكُم غلامه. [٦٠/أ]

وبلغ من قهر الخليفة وإخراج الأمر من يده أن كتب على الدينار:

إنما أنا العزّ فاعلم، الأمير المعتصم سيد الناس يحكم.

واستوطن بعد حرب كبيره واسط، وكان وقوراً، عاقلاً، يفهم اللسان العربي، ولا يتكلم، ويقول: أخاف أن أخطىء والخطأ من الرئيس قبيح.

وبنى دار ضيافة للفقراء، وكان يقول: إن كنت لا أحسن العلم والأدب، ولكن أُحب أن لا يكون في الأرض عالم ولا فاضل إلاّ تحت اصطناعي.

وهو الذي ابتدأ المارستان ببغداد، وجدده عضد الدولة. وكانت أمواله كثيرة، وكان يدفنها في الصحارى، ويأخذ رجالاً في صناديق يقفلها ويحملهم مع الأموال، فإذا دفنوها ليلاً أعادهم إليها خوفاً منه أن يطرق حادث يحول بينه وبين دياره وخزائنه.

فذكروا أنه ضاع ماله لما هلك.

وكان مهلكه وقد خرج يتصيّد فلقيه قوم من الأكراد فحمل عليهم، فطعنه أحدهم فقتله.

ونقل من حماره ما يزيد عن ألف ألف من العين ما عدا الذخيرة والمتاع ثم ألفى بالدار ستة عشر قُمْقُماً مملوءة من الذهب العين.

وأخبار يحكم كثيرة غريبة.

ثم ظهر على الدولة علي بن بويه الديلمي أحد قوّاد مرداويج.

وكان مرداويج قد بعثه إلى الكرخ يستحث له حمل مال، فلما حصل له أخذه لنفسه، وسار إلى همذان فأغلقت أبوابها، فقاتلها وفتحها عنوة، وقتل من أهلها خلقاً كثيراً.

ثم سار منها إلى أصبهان، فملكها، وخرج إلى أرجان فعثر فيها على كنز كبير،

---

(١) كلمة مطموسة.

(٢) كذا في المخطوط، وفي الكامل: مرداويج بن زيار.

[٦٠/ب] وقويت شوكته..........................(١)/ فضة، وصندوقين فيهما جوهر، وستين صندوقاً، منها خمس وأربعون فيها آنية الزينة.

وخمسة عشر قُمْقُماً من البلور المحكم.

ومائة وثلاث وثلاثون مركباً من الذهب.

وستمائة مركب من الفضة.

وأربعة آلاف ثوب ديباج.

وعشرة آلاف ثوب......(٢).

قال الشيخ عماد الدين بن كثير في تاريخه الكبير في سنة ثماني عشرة وأربعمائة:

ورد كتاب من السلطان محمود بن سبكتكين إلى الخليفة يذكر فيه: أن ما افتتحه من البلاد الهندية، وأنه كسر الصنم المشمس بسومنات، وأن صنمهم هذا افتتوا به، وكانوا يعتقدون أنه يحيي ويميت، ويقصدونه للحج من كل فج عميق، ويتقرّبون إليه بالأموال حتى بلغت أوقافه عشرة آلاف قرليّة مشهورة، وامتلأت خزائنه بالأموال. وربط له الرباط للخدمة ثلاثمائة يخلفون رؤوس حجيجه عند القدوم، وثلاثمائة رجل، وخمسمائة امرأة يغنون ويرقصون عند بابه.

ولقد كان العبد ـ يقول الأمير محمود في كتابه ـ: يتمنى قلع هذا الصنم، ويتعرّف الأحوال فتوصف له المفاوز إليه وكثرة الرجال، فاستخار العبد الله تعالى في الانتداب لهذا الواجب طلباً للأجر، ونهض في شعبان سنة ست عشرة في ثلاثين ألف فارس سوى المطوعة ففرّق في المطوعة خمسين ألف دينار معونة.

وقضى الله بالوصول إلى بلد الصنم، وأعان حتى ملك البلد، وقلع الصنم، وأوقدت عليه النار حتى تقطع.

وقتل خمسون ألفاً من أهل البلد.

وقال الشيخ شمس الدين الذهبي في تاريخه(٣):

كانت حوله أصنام كثيرة من الذهب والفضة، مرصّعة بالجواهر محيطة بِعَرْشِهِ يزعمون أنها الملائكة.

ووجدوا في أذنه نيفاً وثلاثين حلقة، فسألهم محمود عن ذلك.

---

(١) الصفحة [٦٠/أ] جاءت مهتزة التصوير من أصل المخطوط فلم يتيسر قراءتها.

(٢) موضع النقط كلمات غير مقروءة.

(٣) ونحو ما يذكر هنا أيضاً في سير أعلام النبلاء (١٧/ ٤٨٣ : ٤٩٥).

فقالوا: كل حلقة عبادة ألف سنة[١].

قال: وورد منه كتاب آخر فيه:

أنه وافى مدينة لم يعاين مثلها فيها زُهاء ألف قصر مشيد، وألف بيت للأصنام، ومبلغ ما في الصنم ثمانية وتسعون ألف مثقال، وقلع من أصنام الفضة ما يزيد على ألف صنم.

/ ولهم صنم معظم يؤرخون مدته بجهالتهم بثلاثمائة ألف عام. [١/٦١]

حول تلك الأصنام المنصوبة زهاء عشرة آلاف بيت.

فَعُني العبد[٢] بتخريب تلك المدينة وإفنائها، وأعانه المجاهدون بالإحراق، فلم يبق منها إلاّ الرسوم.

وأفرد خُمس الرقيق فيهم. . .[٣] واستعرض خمسون فيلاً.

وحكى الشيخ الحافظ شمس الدين الذهبي في كتابه تاريخ الإسلام:

أنه ورد كتاب من القاهرة إلى السلطان محمود بن سبكتكين في سنة أربع عشرة وأربعمائة يذكر فيه:

أنه أوغل في بلاد الهند حتى [وصل][٤] إلى قلعة فيها بيت صنم.

قال: ورأيت قلعة، ليس لها في الدنيا نظير، والظن أنها تسع خمسمائة فيل، وعشرين ألف دابة، وتقوم لها بالعلوفة. وأعان الله تعالى حتى طلبوا الأمان. فأمَّنْت ملكهم، وأقررته على ولايته بخراج ضرب عليه، وأنفذ هدايا كثيرة، من جملتها طائر

---

(١) قال الذهبي بعد هذا في (ص ٤٩١) في ذكره لفتح سومنات في هذا الصنم: ثم نزلوا سومنات في رابع عشر ذي القعدة، ولها قلعة منيعة على البحر، فوقع الحصار، فنصبت السلالم عليها فهرب المقاتلة إلى الصنم، وتضرعوا له، واشتدت الحال، وهم يظنون أن الصنم قد غضب عليهم، وكان في بيت عظيم منيع، على أبوابه الستور والديباج، وعلى الصنم من الحلي والجواهر ما لا يوصف، والقناديل تضيء ليلاً ونهاراً، على رأسه تاج لا يُقَوّم يندهش منه الناظر ويجتمع عنده في عيدهم نحو مائة ألف كافر، وهو على عرش بديع الزخرفة علو خمسة أذرع وطول الصنم عشرة أذرع، وله بيت مال، فيه من النفائس والذهب ما لا يحصى. ففرّق محمود في الجند معظم ذلك، وزعزع الصنم بالمعاول فخرّ صريعاً.

وكانت فرقة تعتقد أنه: «مَنات»، وأنه تحوّل بنفسه في أيام النبوّة من ساحل جدّة، وحصل بهذا المكان ليُقْصَد ويحج معارضة للكعبة. فلما رآه الكفار صريعاً مهيناً تحسروا وسقط من أيدهم. ثم أحرق حتى صار كلساً. وألقيت النيران في قصور القلعة، وقتل بها خمسون ألفاً.

(٢) يعني محمود بن سبكتكين.

(٣) موضع النقط كلمات مطموسة.

(٤) زيادة يتطلبها السياق.

على شكل القمري إذا حضر على الخوان وكان فيه شيء من السّمّ دمعت عيناه وجرى منها ماء وتحجّر، فيحك ويطلى بما تحلل منه الجراحات فيلحمها على الفور[١].

ومن حجّابهم والشواهد لجلالة ملكهم:

شاشي الحاجب ابن طاهر المتطبب مولى أبي الفوارس بهاء الدولة ابن عضد الدولة، وكان مراعي أمور الأتراك، وكان كثير الصدقة، فائض المعروف.

وهو الذي بنى قنطرة اليارسية.

ووقّف الرباع العظيمة على المارستان وغيره.

وله بطريق الحجاز آثار عديدة.

وكان. . .[٢] قد أخرجوا بوم الجنائب بمراكب الذهب، وأظهروا الزينة.

فقال له بعض أصحابه: لو كان لنا شيء. . .[٣]؟

فقال: إنه في جنابهم قنطرة اليارسية، والخندق.

وأوصى عند موته أن يدفن بمقبرة أحمد بن حنبل، وأن لا يبنى عليه قبّة.

فخالفوه وبنوا عليه قبة فسقطت.

وكانت وفاته في شوال سنة ثمان وأربعين وأربعمائة.

ومن ذلك ما ذكره الجوزي عن. . .[٤]:

منهم أو من ديار بكر وميافارقين ولقبه نصر الدولة، كانت له من. . .[٤] ما ثمنه أربعة عشر ألفاً.

وملك خمسمائة سرية، ووافى ألفين وخمسمائة خادم.

وكان يحضر في محله من الآلات والجواهر ما يزيد على مائتي ألف دينار.

وتزوج من بنات الملوك جملة..

[٦١/ب] وأنفذ إلى طغلبك هدايا عظيمة منها حجر الياقوت المشهور/ المسمى بالجبل، وأنفذ معه مائة ألف دينار عيناً.

---

(١) ذكر نحو هذا كثيراً وصيف شاه في كتابه مختصر عجائب الدنيا، والذي أعانني الله على تحقيقه ونشره في دار الكتب العلمية أيضاً، فذكر فيه من العجائب والغرائب من مثل هذه الأشياء الكثير جداً وأنا أظن أن مثل هذه الأشياء كانت تحدث نتيجة معرفة صانعوها معرفة جيدة بعلوم الكيمياء وتأثيراتها في الأشياء وتأثيرات الأشياء فيها والله أعلم.

(٢) كلمة هذا رسمها: الاسبعصلاريه.

(٣) طمس بالمخطوط قدر ثلاث كلمات.

(٤) موضع النقط كلمات مطموسة.

ووزّر له أبو القاسم المغربي صاحب شذور الذهب. . .(١).

ووفد إليه الشعراء، وسكن في ظله العلماء، والزهّاد، والصلحاء. . .(١).

وتوفي وله بضع وسبعين سنة.

وإنما كانت هذه حال من كتاب. . .(١).

يذكر عند ذكر المماليك الأندلسيين من ملوكهم.

وكان ركن الدولة أبو علي قد قسّم المماليك بين أولاده.

فجعل لعضد الدولة أبي شُجاع: فارس وكرمان.

ولمؤيد الدولة: الرّي، وأصبهان.

ولعجز الدولة: همدان و. . .(٢).

وفي الموالي. . .(١) في البلاد وتغلّب بعضهم على بعض.

وتوفي ركن الدولة سنة ست وستين وثلاثمائة.

وقدم عضد الدولة بغداد سنة سبع وستين.

وخرج الطائع للقائه، ثم. . .(٣) المركب إقبال بختيار بن الحسين.

وتقدم المطيع الناس أن تقيم الخطبة لعضد الدولة على منابر بغداد، وأن تضرب فيها في الغداة والمغرب والعشاء.

وهذا الرسم اليوم بالمشرق قائم يسمونه الطبلغانة، ولم يكن قبل خلافة الطائع.

وسأل عضد الدولة بعد القفول من لقاء بختيار بن الحسين والفراغ من أمره: أن يزاد في ألقابه تاج الملك، وأن تجري عليه خِلع الخليفة.

ومن هذا العهد أيضاً:

حدث هذل التخطيط وتفخيم الأوصاف بالمشرق.

فجلس الطائع في صحن داره مجلساً مشهوراً وحوله من خدم الحول أُولى المكاطي نحو مائة، وبين يديه مصحف عثمان، وعلى كتفه البردة، وبيده القضيب وهو متقلّد سيف رسول الله ﷺ.

ثم حضر عضد الدولة، فاستدناه، وأقسم عليه ليجلسن في. . .(٤).

---

(١) طمس في المخطوط.

(٢) موضع النقط كلمات مطموسة.

(٣) كلمة مطموسة.

(٤) كلمات مطموسة.

فقال له: . . .[1].

فقال: عذري معلوم.

فقال الطائع: . . .[1] يرغبون فيها، وعقيدتك مسكون إليها، وقد رأيت أن أفوّض إليك ما وكّل الله إليَّ من أمر الرعيّة في مشرق الأرض ومغربها، وما وراء بابي، فتولى ذلك مستخيراً الله تعالى.

فقال عضد الدولة: يعين الله على خدمة مولانا وطاعته.

ثم أمر بخلع عليه بحضرة القضاة، والقوّاد، وتوّج.

ثم قدم لواءان بعد أن استخار الطائع لله وصلى على رسوله، وعقدها بيده، ثم أمره بقراءة من سورة، ولما فرغ قال له الطائع: خار الله لي ولك،/ وللمسلمين، [١/٦٢] آمرك بما أمرك الله، وأنهاك عما نهاك، وأبرأ إلى الله مما فوق ذلك.

وجيء بثلاثمائة صانع حتى هيىء الفرش، ثم ابتعد الطائع مدة.

وكان له الموصل، والعراق، وديار بكر، وحران، ومنيح، وكرمان، وفارس.

وكان مع هذا ينافس في القيراط.

فلما نزل به الموت جعل يقول: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحَاقَة: الآيتان ٢٨،٢٩]، إلى أن توفي يومِ الاثنين ثامن شوال، سنة ثنتين وسبعين وثلاثمائة، عن سبع وأربعين سنة وأحد عشر شهراً.

ودفن بدار الملوك، وأُخفي قبره إلى أن صيّر الملك لولده. فحمل إلى مشهد على عليّة السلاح وكتب على قبره: هذا قبر عضد الدولة، وتاج الملوك، أبي شجاع بن ركن الدولة، أحب مجاورة هذا . . .[1] لطمعه في الخلاص، ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النّحل: الآية ١١١].

وجلس ابنه صمصام الدولة المعزّ وجْه وجاه، الطائع صغرياً، وقد لطم عليه بداره وبالأهواز.

وتوّج ولده وجدّد له البيعة.

ولم تزل الأحوال تتقلّب بالديالمة إلى أن تمكّن أبو طالب محمود بن ميكائيل، المعروف بطغرلبك، أمير الغز من بلاد خُراسان.

فكاتبه القائم بأمر الله.

فأقبل إلى بغداد، وأجلس له الخليفة كما تقدم، وخطب له ولَقَّبه بملك المشرق والمغرب.

---

(١) طمس بالمخطوط.

وهو أول من ملك من السلجوقية.

ثم خطب من بعده لأبي نصر الملك الرحيم آخر ملوك الديالمة، فقبض طغرلبك عليه وحمله إلى القلعة. . .[١] على الدولة.

ولما توفي طغرلبك ولّي ابن أخيه سليمان بن داود.

ثم عظم أمر محمد بن داود، واتصل به خروج ملك الروم إلى الشام، وعزمه على استئصال المسلمين.

فنظر إلى القائد، وكان في قلٍّ من العسكر إذ كان معظم جيشه وصل إلى خراسان ولم ير أن يرجع إلى بلاده لجمع عساكره فيكون ذلك هزيمة على المسلمين.

فصرف خاتون السعبرية، ووزيره نظام الملك بأثقاله إلى همدان، وأمره بإنقاذ العسكر، وقال: أنا صابر في هذه الغزاة صبر المحسنين، وصائر إليها مصير المخاطرين، فإن سلمت فذاك ظني بالله، وإن تكن الأخرى، فأنا أعهد إليكم أن تقيموا ولدي معاذ، فقد رددت الأمر إليه.

فأجابوه بالسمع والطاعة.

قال المؤرخ:

وكان عسكر السلطان يناهز عشرين ألفاً.

وأما ملك الروم:

فلم يكن يأخذ عدده الحصر.

وقيل: كان معه من الإفرنج ثلاثون ألفاً من غيرهم الذين وراء القسطنطينية خمسة عشر ألفاً/ . . .[٢]، ما فعل ببلاد النصارى، فجمع الناس واستغفر وقال: ما [٦٢/ب] منا اليوم سلطان. . . إني بعت نفسي لله، وأنا أريد أن تفرح نفسي بالنصر على العدو، فمن أحب أن يتبعني إلى الجنة، وإلا فقد أذنت له في الانصراف.

ثم لبس لأمته، وحمل القوم، فهزمهم وركب المسلمون أكتافهم، وقد بعدت المراحل بينهم وبين. . .[٣] واستأصل أموالهم، وأُتي إليه بملك الروم أسيراً، فوبخه، وقال له: ألم أسألك المثوبة، فما حملك على البغي؟

فقال: أيها السلطان، جمعت فاستكثرت، وكان لك النصر، فافعل ما شئت ودعنا من التوبيخ.

---

(١) كلمة مختلطة المداد.

(٢) موضع النقط كلمات غير مقروءة لتراكب بعض الحروف، واختلاط المداد، والطمس.

(٣) موضع النقط طمس.

فقال: لو وقعت لك ما كنت تفعل بي؟

فقال: . . .[١].

فقال: . . .[١] أنت رجل عاقل.

ثم قال: وما تظن أني فاعل بك الآن؟

قال: أنت وثلاث أقسام:

الأول: قتلي.

والثاني: إشهاري في بلادك التي تجرّدت بقصدها.

والثالث: لا فائدة لي في ذكره، فإنك لا تفعله.

قال: فاذكره.

قال: العفو، وقبول الأموال واصطناعي، وردي إلى مُلكي مملوكاً لك نائباً عنك في مُلك الروم.

فقال: ما اعتزمت منك إلاً هذا الذي وقع يأسك منه.

واستقرّ الأمر على مال وهدية في أمتعة. . .[٢] المسلمين في بلاده، وصرف، فألفى النصارى قد قدمت ملكاً غيره، فوجّه إليه ما قدر عليه وعزّزه.

ثم إنه عبر نهر جيحون على. . . وضم ما وراءه من كفار العجم وأُتي به يستحفظ ببعض القلاع الشهيرة بالعجم تعرف بـ. . .[٣] الخوارزمي، جاء به إليه غلامان، فلما وصله شتمه السلطان، وقرّره على أعمال قبيحة، وأمر أن تضرب له أوتاد أربعة، وتشدّ أطرافه إليها.

فقال للسلطان بلسانه: يا مخنث، مثلي يقتل بهذه القتلة؟

فأخذ السلطان القوس والنشابة، وقال للغلامين: خليا عنه.

فرماه بسهم، فأخطأه، فنهض إليه المذكور والسلطان على كرسي، فنهض أمامه فعثر، فوقع على وجهه، فأكبَّ على السلطان، وضربه بسكين خفية كانت في خاصرته.

ولحقه الجند، فقتلوه، وشُدَّت جراح السلطان، ثم مات رحمه الله.

وأُقعد ولده ملكشاه.

---

(١) طمس بالمخطوط.

(٢) طمس بالمخطوط.

(٣) تراكبت حروف اسم تلك القلعة أو الحصن.

ثم وصله نظام الملك وزير أبيه، ورد إليه الأمور.

وكان مولعاً بالصيد راكناً إلى الملذات بخلاف أبيه.

وأخبار الملك شاه مشهورة/ حفر الأنهار، وعَمَّر الخرابات، وكانت السُّبُل [٦٣/أ] أيامه مأمونة، ويفرض للمرأة والضعيف.

وخطب له في...[١].

وحكى الهمداني: أن...[١] لقي السلطان ملكشاه وهو يبكي فسأله عن سبب بكائه، فقال: ابتعت بطيخاً بدريهمات لا أملك غيرها، ولقيني ثلاثة من الأتراك...[١] حيلة سواه.

فقال:...[٢] وكان ذلك في أول قدوم البطيخ، وقال له: إن نفسي قد تاقت إلى البطيخ، فطف في العسكر، فانظر من عنده شيء يبيعه...[١] بطيخ.

فقال: عند من رأيته؟

فقال: عند الأمير فلان.

فأحضره، وقال: من أين لك بهذا البطيخ؟

فقال: جاء به الغلمان.

فقال: أوتينيهم الساعة.

فمضى، وقد عرف نيّته السلطان فيهم، فهربهم وعاد، فقال: لم أجدهم.

فالتفت السلطان إلى صاحب البطيخ وقال: هذا مملوكي وقد وهبته لك حيث لم يحضر القوم الذين أخذوا متاعك، ووالله لئن خلّيته لأضربن عنقك.

فأخذ بيده وخرج من بين يديّ السلطان. فاشترى الأمير نفسه بثلاثمائة دينار. وعاد صاحب البطيخ، وقال: يا سلطان، قد بعت المملوك بثلاثمائة دينار.

فقال: أو قد رضيت؟

قال: نعم.

قال: فامضي في السلامة.

قال المؤرخ:

قال أبو العباس في كتاب...[٣] السلطان:

---

(١) طمس في المخطوط.

(٢) طمس بالمخطوط.

(٣) كلمة غير مقروءة هذا رسمها: مسكردان.

وكان هذا السلطان رحمه الله مولعاً بالصيد حتى أنه ضبط ما اصطاده بيده، فكان عشرة آلاف، فتصدّق بعشرة آلاف دينار، وقال: أخاف الله سبحانه وتعالى من إزهاق الأرواح لغير مأكلة.

وصار بعد ذلك كلما قتل صيداً تصدّق بدينار.

وخرج من الكوفة لتوديع الحاج وشيّعهم بالقرب من واسط وصادف في طريقه وحشاً كثيراً، فَبُنِي هنالك من حوافر الحمر الوحشية، وفروة الظباء التي صادها في تلك الطريق منارة[1]، والمنارة باقية إلى اليوم تعرف بمنارة القرود.

وذكر هبة الله بن المبارك السقطي في تاريخه قال:

حدّثني عبد السميع بن داود قال: قصد ملكشاه رجلان من أهل البلاد السفلى من العراق، فقالا: نحن من قرية مقطعها حمارتكين المحلياني صادرنا على ألف وستمائة دينار، وكسر ثنيتي أحدنا، والثنيتان في يده، وقد قصدناك أيها الملك لتقتص لنا، وقد شاع من عدلك ما حملنا على قصدك، فإن أخذت بحقنا كما/ أوجب الله عليك وإلاَّ فالله الحاكم العدل بيننا. [٦٣/ب]

فقال عبد السميع: فشاهدت السلطان، وقف ونزل من فوق فرسه، وقال: ليمسك كل منكما بطرف كمي.

فاستحيا فقال: . . .[2] فأقسم عليهما إلاَّ فعلا، فأخذا بكُمّيه، وسارا به إلى دار نظام الملك. . .[2] الخبر، فخرج مسرعاً إليه، وقَبَّل الأرض بين يديه، وقال: أيها السلطان المعظم، ما حملك على هذا؟

فقال له: كيف حالي هذا عند الله إذا طُلبت بحقوق المظلومين، وقد قلّدتك هذا الأمر لتكفيني مثل هذا، فإن تطرّق إلى الرّعية ثُلْمٌ فما تطرّق، وأنت المطالب فانظر ما بين يديك.

فقبَّل الأرض، وسار في خدمته، وعاد من وقته، فأمر بعزل خمارتكين، وحلّ أقطاعه ورد المال عليهما، ووعد بقلع ثنيتيه إن قامت عليه البيّنة، ووصلهما بمائة دينار، رحمة الله ورضوانه عليه.

ولله درّ القائل:

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

وفي مثل ذلك قلت من أبيات في الحكم والأمثال:

---

(١) في المخطوط: قال، وهو تحريف.

(٢) طمس بالمخطوط.

والـلّـه مـا جـار عـلـى مـالـه أو جـاهـه مـن حـاط مـن عـرضـه
والـنـاس فـي خـيـر ومـن ضـده هـم شـهـداء الـلّـه فـي أرضـه

وتزوّج المقتدي بأمر الله بنت ملكشاه هذا.

وكان عُرسه بها مما يتحدث به أهل القصص والأحاديث الطويلة، زعموا أن خزانتها المنقولة كان منها اثنا عشر صندوقاً من الفضة إلى غير ذلك. ثم دخل الوزير أبو شجاع ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النّساء: الآية ٥٨].

وقد أذن في نقل الوديعة إلى الدار العزيزة. فقالت: السمع والطاعة للمراسم البريئة.

فنقلت في مَحَفَّةٍ مرصّعة بالجوهر، وأحاط بها مائتا جارية بالمراكب العجيبة، وبين يديها نظام الملك والأمراء.

وأحضر الخليفة صبيحة البناء عسكر السلطان على...[1] استعمل فيه أربعون ألفاً من الشكر، ولولا أن يطول الكتاب ويخرج عن غرضه لاستقصينا ذلك.

وتمادت أيامه جليلة موصوفة بالعدل وإقامة رسوم الخير إلى أن توفي سنة خمس وأربعين وأربعمائة.

وكان عمره سبعاً وثلاثين سنة. واختلف أولاده وتنازعوا إلى أن صارت الأمور إلى ولديه محمد وسنجر.

/ ودخلا على المستظهر بالله، ففوّض السلطنة إلى محمد منهما، وجعل سنجر وليّ العهد بعده، وتوفي محمد. [٦٤/أ]

وبقي سنجر[2] في السلطنة إلى أن توفي سنة اثنتين وخمسمائة.

---

(١) طمس بالمخطوط.

(٢) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: (٢٠/ ٣٦٢) في ترجمته: السلطان، ملك خراسان، معز الدين، سنجر ابن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان بن جغريبك بن ميكائيل بن سلجوق الغزي التركي السلجوقي، صاحب خراسان وغزنة وبعض ما وراء النهر.
وخطب له بالعراق وأذربيجان والشام والجزيرة، وديار بكر، وأرّان، والحرمين. واسمه بالعربي أبو الحارث أحمد بن حسن بن محمد بن داود.. ولد بسنجار من الجزيرة في رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة إذ توجّه أبوه لغزو الروم، ونشأ ببلاد الخوز، ثم سكن خراسان، وتدير مرو... قال السمعاني: كان في أيام أخيه يلقب بالملك المظفر إلى أن توفي أخوه محمد بالعراق في آخر سنة إحدى عشرة، فتسلطن، وَرِثَ الملك عن آبائه، وزاد عليهم، وملك البلاد، وقهر العباد، وخطب له على أكثر منابر الإسلام. وكان وقوراً حيياً كريماً سخياً مشفقاً، ناصحاً لرعيته كثير الصَّفح، جلس على سرير الملك قريباً من ستين سنة.

وكان سنجر مهيباً كريماً رفيقاً بالرعية.

وأقام على سرير الملك مستقلاً به إحدى وأربعين سنة إلى عشرين قبلها والبقاء لله.

واتصل بعده ملك هذه الطائفة من الأعاجم حتى أيوب وغيرهم إلى زماننا هذا حسبما يأتي الإلماع به عند ذكر ملوك الترك بمصر... من تقرير الدولة العبيدية.

ولولا أننا اشترطنا الاختصار وذكر هذه الدول بحكم الاضطرار لما سُئلنا عنه لأشبعنا القول فيه.

ذكر شيء من دولة بني حمدان

وكان هذا البيت من بني حمدان بيتاً كبيراً معروفاً في القديم سامي التليل، وأصلهم عرب من تغلب، وقد نظم أبو الطيّب المتنبي نسب سيف الدولة في قصيدته التي أولها:

* عَـوَاذِلُ ذَاتِ الـخَـالِ فـيَّ حـواسِـدُ *

بما يدل على شرف قديم ومحل من الأصالة كريم، إذ يقول:

فأنت حسام الدين واللَّه ضاربٌ	وأنـت لـواء الـديـن والـلَّـه عـاقـدُ
وأنت ابن حمدان بن حمدون بابنه	تـشـابـه مـولـود كـريـم ووالـدُ
وحمدان حمدون وحمدون حارث	وحـارث لـقـمـان ولـقـمـان راشـدُ
أولـئـك أنـيـاب الـخـلافـة كـلـهـا	وسـائـر أمـلاك الـبـلاد الـزَّوائـدُ

وكان لهم بمحل العرب بلد العواصم، وديار بكر، وثغور الشام شهرة.

وكان أشرافهم قد اعتقلوا ببعض ما يجرّه الخروج عن السلطان، فلما أهمّ الخليفة أمر الخارج، وخربت بسببهم البلاد، واستولى منهم الشاري على الأقطار، انتدب إلى الخليفة من أعلام هذا البيت عبد الله بن حمدان، وتبرّع في الإتيان بالخارجي أو الإراحة منه، وشرط على السلطان في ذلك شروطاً منها:

أن يتركه واختيار من يظهر له من الفرسان في جيش السلطان.

ومنها أن يسرّح من في اعتقال السلطان من قومه.

فمكّن مما طلبه، وساعده الجدّ في تيسير ما تبرّع به.

فاتبع الخارجي حتى كسره، ثم اقتحم وراءه الأنهار والبحار والفيافي والقفار، إلى أن دخل به وأصحابه/ مأسورين مشهورين على الجمال في يوم مذكور ببغداد، [٦٤/ب] تضمنت ذلك كتب التواريخ.

وازداد ذكر بني حمدان وعلا شأنهم، واستعانت بهم الدولة العباسية على من كان يعارضهم من الخوارج والروم المجاورين لمحل سكنى بني حمدان، فعظم أثرهم واشتهرت أخبارهم، وكانت دولتهم تنيف على سبعين سنة.

قال الطبري:

في سنة ثلاث وثلاثين شخص المعتضد إلى ناحية الموصل بسبب هارون الشاري الخارجي[١].

وقدم عليه الحسن بن حمدان بن حمدون في جماعة من أهل بيته، واشترط إيصال الشاري إليه على أن يُطلق أباه، وقرابته من اعتقالهم عنده.

وأن ينتخب الحسن من شاء من الجيش، ففعل.

واتبعه، وأجاز في طلبه أنهار العراق، واقتحم مفاوزها حتى أخذه وساقه إلى المعتضد من غير عهد، فبلغ منه كل مبلغ. واتصلت الرياسة فيهم إلى سيف الدولة وقومه.

ومما يشهد بأصالة بني حمدان وعلوّ مقدارهم وانخراطهم في سلك الملوك الكبار:

قول أبي مروان الثعالبي، قال:

كان بنو حمدان ملوكاً وأمراء، ووجههم للصباحة، وألسنتهم للفصاحة، وأكفّهم للسماحة، وعقولهم للرجاحة، وسيف الدولة[٢] مشهور بسادتهم وواسطة قلادتهم، وكانوا عدّة الزمن البهيم، وعماد الإسلام ومن به سداه الثغور وسداد الأمور، وكانت وقائعه في عصاة العرب تكُفُ بأسها، وتنزع لباسها، وتُعل أنيابها، وتذلّ صعابها، وغزواته تدرك من طاغية الروم الثأر، وتحسم شرهم المثار، وتحسن في الأيام الآثار.

وحضرته مقصود الوفود، ومطلع الجود، وقبلة الآمال، ومحط الرحال، وموسم الأدباء، وحلبة الشعراء.

---

(١) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٢/ ١٨٢) في أحداث سنة ثلاث وثمانين ومائتين: فيها ظفر المعتضد بهارون الشاري رأس الخوارج بالجزيرة، وأُدخل راكباً فيلاً، وزينت بغداد.

(٢) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٨٧) في ترجمته: أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان، صاحب حلب، مقصد الوفود، وكعبة الجود، وفارس الإسلام، وحامل لواء الجهاد، كان أديباً مليح النظم، فيه تشيع. . . يقال: تمّ له من الروم أربعون وقعة أكثرها ينصره الله عليهم. مولده في سنة إحدى وثلاثمائة، وله غزو ما اتفق لملك غيره، وكان يضرب بشجاعته المثل، وله وقع في النفوس، فالله يرحمه. مات بالفالج، وقيل: بعسر البول في صفر سنة ست وخمسين. وكانت دولته نيفاً وعشرين سنة، وبقي بعده ابنه سعد الدولة في ولاية حلب خمساً وعشرين سنة. وقد أُسر ابن عمهم الأمير شاعر زمانه أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان، فبقي في قسطنطينية سنوات. ثم فداه سيف الدولة. وكان بديع الحسن، وكان صاحب منبج، ثم تملّك حمص، فقتل عن سبع وثلاثين سنة، سنة سبع وخمسين.

قلت:

استأثر بنو حمدان من الدولة العباسية بحظ رحيب، واستوطنوا حلب العواصم وملكوا بما اتصل بها من ديار بكر، وكان أشهرهم ملكاً، وأعظمهم شأناً الأمير سيف الدولة، أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان.

حسبما يشهد لذلك ديوان أبي الطيب المتنبي شاعره، وسواه، إذ يقول في قصيدته التي أوّلها:

لكل امرئٍ من دهره ما تعودَ ... وعادة سيف الدولة الضرب في العِدَا

/ ومن الضرغام للصيد بازه ... تصيده الضرغام فيما تصيدا [١/٦٥]

يشير إلى ما يسمى إليه سيف الدولة من الاستبداد والتأهل لما فوق طوره.

ولما انتهى أمرهم إلى سيف الدولة اكتمل بَدْرُهم وبلغ النهاية أمرهم... [١] لم يجتمع بباب أحد من الملوك ما اجتمع ببابه من فحول الشعراء، ونجوم النثر... [١] كتابه مختار الشعر فيه، فبلغ عشرة آلاف بيت، كقول السري الموصلي [٢]:

أعزمتك الشهاب أم النهار ... وراحتك السحاب أم البحارْ

خلقت سنية وسنى فأضحت ... تمور بك البسيطة أو تمارُ

تُخلى الدير أو تحمي حماه ... فأنت عليه سوراً وسِوَارُ

وكقول أبي الفرج الوأواء فيه:

من قاس جدواك بالغمام فما ... نصف في الحكم بين شكلين

أنت إذا جدت ضاحكاً أبداً ... وهو إذا جاد دامع العين [٣]

أو كقول أبي نصر بن نباتة فيه:

حاشاك أن تدّعيك العُربُ واحدها ... يا من ندى قدميه طينة العَرب

---

(١) طمس بالمخطوط.

(٢) هو: السري بن أحمد أبو الحسن الكندي الموصلي الشاعر الرّفاء. مدح سيف الدولة، وببغداد المهلبي. وكان بينه وبين الخالديين هجاء وشر فآذاه حتى احتاج إلى النسخ، فبقي ينسخ ديوانه ويبيعه. مات سنة نيف وستين وثلاثمائة ببغداد. وهو القائل:

وكانت الإبرة فيما مضى ... صائنة وجهي وأشعاري

فأصبح الرزق منها ضيقاً ... كأنها من خرمها جاري

(٣) أرى في هذين البيتين مبالغة شديدة وجمال بديع رفيع حيث وصفه بالجود مع النفع الخالص الذي لا مَنّ فيه ولا كدر، وسعة فيه بلا ضرر، ورضى نفس من المعطي وبساطة وجه وبشاشة. ووصف الغمام بالجود مع وجود بعض الكدر أو المصاحب لبعض المتاعب، ثم وصفه أنه لا يجوز إلاّ إذا سح مضطراً.

فإن يك لك وجه مثل أوجههم عند العيان فليس الصفر كالذّهب
وإن يك لكَ نطق مثل نُطقهم فليس مثل كلام اللَّه في الكتب

وكقول أبي الطيّب المتنبي[١]:

وإن دماً أجريته بك فاخِرٌ وإن فؤاداً رعته لك حاسدُ
نهبت من الأعمار ما لو حَوَيْتَهُ لهُنئت الدنيا بأنك خالدُ
فأنت حسام الدين واللَّه ضارب وأنت لواء الدين واللَّه عاقدُ

ويقال: إن سيف الدولة غزا الروم أربعين غزوة، فمنها: أنه أغار على ربطتها، وغزنة، وملطية ونواحيها، فقتَل وأحرق وسبى، وانثنى قافلاً إلى درب هوازن فرصد عليه قسطنطين بن فردوس الدمستي فأرصد له فأوقع به وقتل صناديد رجاله، وعقب إلى بلدانه وقد تراجع من هرب منها، فأعظم القتل، وأكثر الغنائم، وعبر/ الفرات [٦٥/ب] إلى بلاد الروم، ولم يفعله أحد قبله. ولما رأى قسطنطين بعد مغزاة بلاد...[٢] غزا نواحي أنطاكية...[٣] سيف الدولة. ولما بلغه الخبر أخذ يقول: الراحل لا ينظر إلى متأخر ولا يلوي على متقدم، حتى عارضه...[٤] فأوقع به وهزمه، وقتل رؤوس البطارقة.

وأمر قسطنطين بن الدمستي وأصابت الدمستي ضوبة في وجهه، وفي ذلك يقول المتنبي:

سريت إلى جيهان من أرض آمد ثلاثاً لقد أدناك ركض وأبعد
فوَلى وأعطاك ابنه وجيوشه جميعاً ولم يُعط الجميع لتحيرا

(١) هو الشاعر المشهور الذائع الصيت في الشعر والأدب وهو أبو الطيب أحمد بن حسين بن حسن الجعفي، الكوفي، المتنبي. قال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٩٩): ولد سنة ثلاث وثلاثمائة، وأقام بالبادية يقتبس اللغة والأخبار، وكان من أذكياء عصره. بلغ الذروة في النظم، وأربى على المتقدمين وسار ديوانه في الآفاق. ومدح سيف الدولة ملك الشام، والخادم كافوراً صاحب مصر، وعضد الدولة ملك فارس والعراق. وكان يركب الخيل بزي العرب، وله شارة وغلمان وهيئة. وكان أبوه سقّاء بالكوفة، يعرف بـ: عبدان...

قال التنوخي: خرج المتنبي إلى بني كلب، وأقام فيهم، وزعم أنه علويّ، ثم تنبأ فافتضح وحبس دهراً، وأشرف على القتل، ثم تاب. وقيل: تنبأ ببادية السَّماوة، فأَسَرَهُ لؤلؤ أمير حمص بعد أن حارب. وقد نال بالشعر مالاً جليلاً، يقال: وصل إليه من ابن العميد ثلاثون ألف دينار، وناله من عضد الدولة مثلها. أُخذ عند النعمانية، فقاتل، فقتل هو وولده مُحَسِّد، وفتاه في رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة.

(٢) طمس في المخطوط.
(٣) كلمة غير مقروءة.
(٤) طمس في المخطوط قدره كلمة.

وما طلبت ذوي إلاّ سِنّة غيره ولكن قسطنطين كان له فدا

وقال أبو فراس[١] من قصيدة يخاطبه:

وولّى على الرسم الدمستي هارباً وفي وجه عذر من السيف عاذرُ
فدا نفسه بابن عَلَيْهِ كنفسه وللشدة الصمّاء تقنى الذخائرُ
وقد يقطع العضو النفيس لغيره وتُدفع بالأمر الكبير الكبائرُ

ولما توجّه سيف الدولة لبناء الحسدة ـ وهي قلعة عظيمة الشأن أخذت بمخنق بلاد الروم ـ اشتد على ملك الروم، فجمع عظماء أهل مملكته، وجهزهم بالصليب الأعظم، وقدم عليهم فردوس الدُّمُستي طالباً لثأر ابنه قسطنطين، في عدد لا يحصى حتى أحاطوا بعسكر سيف الدولة.

والتهبت الحرب، واشتدّ الخطب، وساءت ظنون المسلمين، ثم أنزل الله نصره، فحمل سيف الدولة يخرق الصفوف طلباً للدمستي، فولّى هارباً، وأسر سيف الدولة صِهره، وابن بنته، وقتل من الروم خلقاً لا يحصى، وأكثر الشعراء في هذه الوقيعة، ففيها يقول أبو الطيب:

وكان بها مثل الجنون فأصبحت ومن جنبها القتلى عليها تمائمُ
لبيت اللّه كل شيء أخذته وهو لما يأخذه منك غوارمُ
وقد فجعته بابنه وابن بنته وبالصهر حملات الأمير الغواشمُ
مضى يشكر الأصحاب في فوتهم الظباء لما شغلتها هامهم والمعاصمُ
/ يغترّ بما أعطاه لا عن جماله ولكن... [٢] بمن منك مغانمُ [١/٦٦]
وقعت وما بها الموت تشك لواقف كأنك في............ [٢]
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضّاح..... [٣]

---

(١) قال الذهبي في ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٦/١٩٦): الأمير أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الشاعر المفلق. وكان رأساً في الفروسية والجود، وبراعة الأدب. وكان الصاحب بن عباد يقول: بدىء الشعر بملك وهو امرؤ القيس، وخُتم بملك وهو أبو فراس. أسرته الروم جريحاً، فبقي بقسطنطينية أعواماً ثم فداه سيف الدولة منهم بأموال، وأعطاه أموالاً جزيلة، وخيلاً، ومماليك. وكانت له منبج، ثم تملّك حمص. ثم قتل بناحية تدمر، وكان سار ليتملك حلب. وديوانه مشهور. قتل سنة سبع وخمسين وثلاثمائة. وكان عمره سبع وثلاثون سنة.
ومن مصادر ترجمته الكثيرة نذكر: يتيمة الدهر (١/ ٣٥)، المنتظم (٧/ ٦٨)، زبدة الحلب (١/ ١٥٧)، وفيات الأعيان (٢/ ٥٨)، الوافي بالوفيات (١١/ ٢٦١)، البداية والنهاية (١١/ ٢٧٨)، النجوم الزاهرة (٤/ ١٩)، شذرات الذهب (٣/ ٢٤).

(٢) كلمات مطموسة. (٣) طمس بالمخطوط.

وكان سيف الدولة[١] رحمه الله شاعراً مفلقاً، فمما ينسب إليه:

وساق صبيح الصبوح دعوته فقام وفي أجفانه سِنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم فمن بين منقضٍ علينا ومنفض
وقد نشرت أيدي الجفون مطارفاً على الجود كنا والجواد على الأرض
يطرق منها قوس الحجاب بأصفر على أحمر في أخضر فوق مُبَيّض
كأذيال خود أقبلت في غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض

قال أبو مروان: وهذا من التشبيهات اللوكية التي لا يحضر مثلها السوقة.

ومن أمراء بني حمدان:

ناصر الدولة[٢] يخاصبه بقوله:

رضيت لك العليا وقد كنت أهلها وقلت لهم بيني وبين أخي فرق
فلا بد لي من أن أكون مصليّاً إذا كنت أرضى أن يكون لك السبق

ومن أمراء بني حمدان:

الأمير أبو المعالي، وأبو المكارم، ابنا سيف الدوْلة علي بن حمدان.

ونهما كتب الأمير أبو فراس من أسره:

يا سيديّ أولكما لا تذكران أخاكما
من ذا يعاب بما لقيت من الورى إلاكما

---

(١) سبق ذكر ترجمته قبل قليل، ومن مصادر ترجمته: تجارب الأمم (٦/ ١٤٦)، المنتظم (٧/ ٣٨)، وفيات الأعيان (١/ ١٧٤)، المختصر في أخبار البشر (٢/ ١٠٦)، العبر (٢/ ٣٠٣)، الوافي بالوفيات (٦/ ٢٧٨)، البداية والنهاية (١١/ ٢٦٣)، النجوم الزاهرة (٤/ ١٤)، شذرات الذهب (٣/ ١٨)، سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٨٧).

(٢) قال الذهبي في ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٨٦): صاحب الموصل ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان بن حمدون بن الحارث بن لقمان التغلبي، أخو الملك سيف الدولة، ابنا الأمير أبي الهيجاء. وكان أكبر من أخيه سِناً وقدراً، وهو الذي قتل محمد بن رائق الذي تملّك. ولما مات أخوه تأسّف عليه، وساء مزاجه، وتسودن، فحجر عليه بنوه. وتملّك ابنه أبو تغلب الغضنفر، وجعله في قلعة مُرَفَّهاً مُعزَّزاً. وله حروب ومواقف مشهورة.
قال ابن خلكان: مات في سنة ثمان وخمسين. وأما علي بن محمد الشمشاطي فقال: مات يوم الجمعة ثاني عشر ربيع الأول سنة سبع، مات بالقولنج، ثم بذَرَبٍ، وكان أخوه يتأدّب معه.
[وزاد بين البيتين بيتاً هو]:
ولم يك بي عنها نكول وإنما تجافيت عن حقي فتمّ لك الحق

أوجدتما بدلاً بمسّه يبني سماء علاكما
لا تقعدوني بعدها وسلا الأمير أباكما[١]

ومن أمراء بني حمدان:

الأمير أبو فراس الحارث بن حمدان ابن عم سيف الدولة، كما قال فيه أبو مروان: فَرْدُ دَهْرِهِ، وشمس عصره أدباً، وفضلاً، وكَرَماً، وجوداً، وبراعة، وفروسية، وشجاعة.

وهو أحد من قيل فيهما: بدىء الشعر بأمير وخُتم بأمير.

وكان سيف الدولة هو الذي وفّاه وخرجه.

حكى ابن خالويه قال:

كتب أبو فراس/ إلى سيف الدولة وقد...[٢] مضرّته إلى منزله بمنبج كتاباً [٦٦/ب] صدره كتابي: أطال بقاء مولاي من التبرّك ومن...[٣] السالم الغانم، مُثقل الظهر...[٢] وشكر أبا شمس سيف الدولة...[٢] فكتب إليه:...[٤]

قلت:...[٢] ومن أبياته الجارية مجرى الحِكَم والأمثال قوله:

ونحن أناس لا نر... لنا القدرُ دون العالمين أو القبرُ
تهون علينا في المعالي نفوسنا وفي خَطَب الحسناء لم يُغْلِهِ المهرُ

وقوله يعزي سيف الدولة:

لا بد من فقد ومن فاقد هيهات ما في الناس من خالد
كن المُعَزّى لا المُعَزَّى به إن كان لا بد من الواحد

وقوله:

المرء رهن مصائب لا تنقضي فعش يواري جسمه في رمسه
فمؤجل يلقى الردى في غيره ومعجّل يلقى الردى في نفسه

وامتحن بالأسر شأن الكثير من أهل بيته المجاهدين، وحمّال الدين، وأسرته الروم رحمه الله وهو جريح، قد أبلى في العدو حتى أثخن في الجراح.

واستقرّ بقسطنطينية، وطالت مُدّة أسره لتعذر المفاداة، فصدرت عنه في وصف أسره ومرضه أشعار تفتّت الأكباد، وتصدّع الفؤاد.

---

(١) وله من مأسره إليهما رسائل كثيرة جداً غاية في الحسن والعُتب والتشكي واللّوم.
(٢) كلمة مطموسة.
(٣) طمس في المخطوط.
(٤) طمس في المخطوط في كلمات كثيرة من شعر قدره ثلاثة أبيات فتركتها.

فمن قصائده يهزّ سيف الدولة الأمير إلى مفاداته، قوله:

دعوتك للجفن القريح المُسَهّدِ لديَّ وللنوم القليل المُشرّدِ

[١/٦٧] / وما ذاك بخلاً بالحياة وإنما لأول مـــبـــذول الأول... (١)

وما زال عني أن شخصاً معرضاً لـــنـــيـــل............ (١)

ولكنني أختار موت بني أبي على صهوات الخيل......

وتأبى وإياي أن أموت موسَّداً بـــأيـــدي الـــنـــصـــارى

نضدت على الأيام ثوب جلادتي ولكنني لم أنض ثوب التجلّد

فمن حسن صبر بالسلامة واعد ومن ريب دهر بالردى متوعد

فمثلك من يدعي لكل عظيمة ومثلي من يفدي بكل مسود

تشبث بها لكرومة قبل فوتها وقم في خلاص ثابت العزم واقعد

فإن تفتدوني تفتدوا شرف العدا وأسرع عوّاد إليه المعوّدِ

يدافع عن أعراضكم بلسانه ويضرب عنكم بالحسام المهندِ

متى تخلف الأيام مثلي لكم فتى طويل نجاد السيف رحب المقلّدِ

ولا وأبي ما ساعدان كساعدٍ ولا وأبيء ما سيدان كسيدِ

وإنك للمولى الذي به أفتدي وإنك للنجم الذي به أهتدي

وأنت الذي عرّفتني طرق العُلى وأنت الذي هديتني كل مقصدِ

فيا ملبسي النعمى التي جل قدرها لقد أخلقت تلك الثياب فجدّدِ

ألم تر أني فيك صافحت حَدَّها وفيك شربت الموت غير مَصَرَّدِ

وفيك لقيت......(٢) عيونهم بنسبعين فيها كل......(١)

يقولون جَنِّب عادة ما عرفتها شديدٌ على الإنسان ما لم يُعَوّدِ

فقلت: أما واللّه لا قال قائل شهدت له في الحرب السهم مشهدِ

ولكن سألقاها فإما منية هي الظن أو بنيان عِزّ مؤبدِ

ولم أدر أن الدهر من عدد العِدا وأن المنايا السُّود يرمين عن يدي

وأحفظ أبو فراس يوماً الدمستي ـ وهو كبير النصارى الذي أسره ـ في مناظرة جرت بينهما.

---

(١) طمس في المخطوط.

(٢) موضع النقط طمس بالمخطوط.

فقال له الدمستي: إنما أنت ـ يعني بني حمدان ـ كُتَّابٌ لا تعرفون الحَرْبَ.

/ فقال له أبو نوّاس: نحن نطاردك منذ سبعين سنة بالسيوف أم بالأقلام؟ [٦٧/ب]

ثم قال:

أتزعم يا . . . .[1] أننا ونحن أسود الحرب لا نعرف الحربا

. . . .[1] ومن ذا الذي يضحي ويُمْسي لها تِربا

. . . .[1] وجلل ضرباً وجه والدك العضبا

لقد جمعتنا الحرب من قبل هذه فكنا بها أسداً وكنت بها كلبا

بأقلامنا جُرِحْت أم بسيوفنا؟ وأسد الشّرى قدنا إليك أم الكتبا؟

تفاخرنا بالضرب والطعن و . . . .[2] لقد أوسعتك النفس يا ابن استها كذبا

رعى اللّه أوفانا إذا نال ذمة وأنفذنا طعناً وأثبتنا ضربا

قالوا: ولم تطل حياة أبي فراس بعد فكاكه. وكان آخر شعر قاله عند وفاته، قوله يخاطب ابنته:

أبُنَيّتي لا تجزعي كل الأنام إلى الذهاب

نوحي عليّ بحسرةٍ من خلف سترك والحجاب[3]

قولي إذا كلمتني فعييتُ عن رَدِّ الجواب

زين الشباب أبا فِراس ما تمتّع بالشباب

ومنهم: أخوه الأمير أبو الهيجاء سعيد بن حمدان. وهو الذي خاطبه بقوله:

حللت من المجد اسمى مكان وبلّغك اللّه أقصى الأمان

فإنك لا عدمتك العلى أخ لا كإخوةِ هذا الزمان

كسونا إخوتنا بالصَّفا كما كُسِيَتْ بالكلام المعان

ومنهم: الأمير أبو العشائر بن حمدان، الذي كتب له وهو أسير بأرض الروم قوله من قصيدة:

فمن مبلغ عني الحسين الوكه تضمنها دُرّ الكلام المنظم

---

(١) طمس في المخطوط.

(٢) كلمة مطموسة بالمخطوط.

(٣) هذا البيت جميل جداً حيث لامس فطرة المحب وطبيعة النفس مع النصح بالتمسك والتجلّد والتصبر والمحافظة الكاملة على التحسم والوقار وصون النفس والبدن عن التعري الباطن والظاهر، فرحم الله أبا فراس.

لـذيـذ الـكـرا حـتـى أراك مُـحَـرّمٌ ونـار الأسـى بـيـن الـحـشـا تـضـرم
واتـرك أن أبـكـي عـلـيـك تـطـيـراً وقـلـبي يـبـكـي والـجـوانـح تـلـطـم

[١/٦٨] / قالوا: لم يسمع أحسن من هذا في التفجع المنكوب.

وأظـهـر لـلأعـداء عـنـك جـلادة وأكتم ما في القلب واللّه أعلم
وما أغربت فيك الليالي فإنها لـتـصـد...............[1]
طوارق خطب ما تُغِبُّ وفودها ....[1]
فما عَرَّفتني غير ما أنا عارف وما علّمتني غير ما كنت أعلم
وتدعوا كريماً من يجود بماله ومن يبذل النفس الكريمة أكرم
إذا لم يكن ينجي الفرار من الردى على حاله فالصبر أوفى وأحزم
لعمري لقد أعذرت لو أني معذراً وأقـدمـت لـو أن الـكـتـاب تـقـدم
وما عابك أن السابقين إلى العلى تـأخـر أقـوام وأنـت الـمـقـدم
وما لك لا تلقى بمهجتك القنا وأنت من القوم الذين هُمُ هُمُ
لعاً يا أخي لا مسك السُّوء إنه هو الدهر في حاليه بؤسي وأنعُمُ

ومنهم: الأمير أبو وائل ثعلب بن داود بن حمدان.

وكان ظهر في العرب رجل يعرف بالمرقّع، يدعو الناس لنفسه، والتفّت عليه القبائل، وافتتح مدائن أطراف الشام، وأسَرَ أبا وائل تغلب المذكور.

وكان أبو وائل هذا خليفة سيف الدولة على حمص.

فألزمهم المرقّع شراء نفسه منه بعدد من الخيل، وجملة من المال.

فأسرى سيف الدولة من حلب يجدّ السير حتى لحقه في اليوم الثالث بنواحي دمشق، فقتله، ووضع السيف في أصحابه، فلم ينج منهم إلاً من سبق به فرسه.

وعاد سيف الدولة ومعه أبو وائل وقد استخلصه ومعه رأس الخارجي.

وفي ذلك يقول أبو الطيّب المتنبي من قصيدته المشهورة:

لـو كـنـت بـأسْـرٍ غـيـر الـهـوى ضـمـنـت ضـمـان أبـي وائـلِ
فـدا نـفـسـه بـضـمـان الـنـضـار وأعـطـى صـدور الـقـنـا الـذائـل
ومـنـاهـم الـخـيـل عـبـوبـه فـجـيء بـكـل فـتـى بـاسِـلِ
دعـا سـمـعـت وكـم سـاكـت عـلـى الـبـعـد عـنـدك قـائـل

(١) شطران مطموسان بالمخطوط.

/ وعــدت إلــى حــلــبٍ ظــافــراً كــعــود الــحُــلــي إلــى الــعــاطــل [٦٨/ب]

وإنما لم نمعن القول في دولة آل حمدان لأن أيامهم خلية من المعنى الذي جلبنا إليه هذا القصص، ولم نر إخلالاً بالكتاب من إلمام محاسنهم، فعرجنا على نبذة من ذكرهم بحسب الانجرار في أذيال الدولة العباسية.

وكان انقراض أمر بني حمدان من الشام بعد موت سيف الدولة لتغلّب الدولة السلجوقية الأعجمية على ملك العرب، واستيلائهم على الشام.

ولذلك يقول الحاج أبو الحسين بن جبير رحمه الله في رحلته:

وقدم منصرفاً من الحجّ واجتاز بدار ملكهم حلب في أيام صلاح الدين بن أيوب في ثالث عشر من ربيع الأول من عام تسعة وسبعين وخمسمائة:

بلدة قدرها خطير، وذكرها في كل زمن، يطير خطابها من الملوك كثير، ومحلها في نفوسهم أثير، فكم أهاجت من كفاح، وتلت عليها من بيض الصِّبَاح.

لها قلعة شهيرة الامتناع، نابية الارتفاع، معدومة الشبيه والنظير في القلاع، تنزّهت حصانة أن تُرام أو تُستطاع، قاعدة كبيرة، ومائدة من الأرض مستديرة، منحولة الأرجاء، موضوعة عن نسبة اعتدال، واستواء، فسبحان من أحكم تدبيرها، وأبدع كيف شاء تصويرها، عتيقة في الأزل، حديثة وإن لم تزل، قد طاولت الأعوام والأيام، وشيّعت الخواص والعوام، هذه منازلها وديارها، فأين سكّانها وعمّارها؟

وتلك سُدّة ملكها وبناؤها أمراؤها والحمدانيون وشعراؤها، أجل فنى الجميع ولم يأن بعد فناؤها.

فيا عجباً للبلاد تبقى وتذهب أملاكها، ويهلكون، ولا يقضي هلاكها، وتخطب بعدهم فلا يتعذّر إملاكها، وترام فيتيّسر بأيسر شيء إدراكها.

هذه حلب قد أدخلت ملوكها في خبر كان، ونسخت ظرف الزمان بالمكان. أُنِّثَ اسمها فتحلّت بسمت الغوان، ودانت بالغدر فيمن دان، وتجلّت عروساً بعد سيف دولتها ابن حمدان.

فهيهات هيهات سيهزم شبابها، ويعدم خطابُها، ويسرع منها بعد حسينٍ خرابها، وتتطرّق مخبأت الحوادث إليها، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن أمراء الدولة العباسية الجارين مجرى الملوك العظماء في الصولة وعظم /الدولة والاستبداد والعزّ البعيدة الآماد، الأمراء من بني طولون

[٦٩/أ]

قال الطبري: في سنة اثنتين وستين فيها ولي أحمد بن طولون الثغور الشامية زائداً إلى ما كان يلي مصر وأعمالها:

دولة أبي العباس أحمد بن طولون(١)

قال أبو الفرج:

ولد أحمد ببغداد سنة عشرين ومائتين، ونشأ بعيد الهبة، كثير الخير والصلاح، وحفظ القرآن، وطلب الحديث، ثم سأل الوزير عبد الله بن يحيى بن خاقان أن يوقّع له برزقه على الثغر ليكون في جهاد، فكانت ولايته ما بين رحبة طوق إلى طريق المغرب. ثم تولى مصر والشام، وكان كثير البرّ والصدقات.

قال له وكيله يوماً: ربما امتدت إلى الكتب المطرفة والمعصم فيه السوار أفأمنع هذه الطبقة؟

فقال له: ويحك، هؤلاء المستورون والذينْ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، احذر أن تردّ يَداً امتدت إليك.

وكان خراج مصر في أيامه أربعة آلاف ألف، وثلاثمائة ألف دينار.

وأنفق أموالاً على المصالح منها على الجامع المنسوب طولون مائة وعشرون ألف دينار، وكان يتصدّق في كل شهر بثلاثة آلاف، وكان راتب مطبخته كل يوم ألف دينار، ويجري على أهل المساجد كل شهر ألف دينار، وعلى فقراء الثغور كذلك.

وحمل ما فرّق على العلماء والصالحين فكان ألف ألف دينار، وعلى فقراء ذهباً.

ومرض، فخرج المسلمون بالمصاحف واليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل، والمعلون بالصبيان، وكثر الدُّعاء له في الصحراء والمساجد.

---

(١) من مصادر ترجمته: تاريخ الطبري (٩/ ٣٦٣)، المنتظم (٥/ ٧١)، وفيات الأعيان (١/ ١٧٣)، العبر (٢/ ٤٣)، الوافي بالوفيات (٦/ ٤٣٠)، سير أعلام النبلاء (١٣/ ٩٤)، البداية والنهاية (١١/ ٤٥)، النجوم الزاهرة (٣/ ١)، شذرات الذهب (٢/ ١٥٧).

فلما أحسَّ بالموت رفع يده وقال: يا رب، احمل من جهل مقدار نفسه، وأبطره حلمك عنه، ثم تشهّد.

وقضى في ذي القعدة سنة سبعين ومائتين. فكان عمره سبعين سنة.

وخلّف ثلاثة وثلاثين ولداً منهم سبعة عشر ذكراً.

وترك عشرة آلاف ألف دينار.

وكان له من المماليك سبعة آلاف، ومن الخيل على مربطه سبعة آلاف، ومن الجمال والبغال ستة آلاف رأس، ومن الدواب الخاصة ثلاثمائة، ومن المراكب الحربية ثلاثمائة مركب، ومن الغلمان أربعة وعشرون ألفاً. وله أخبار/ غريبة. [٦٩/ب]

ومما نقله الناس في فضله:

أنه دخل على أبيه يوماً وهو صغير فقال: بالباب قوم ضعفاء، فلو كتبت لهم بشيء؟

فقال: ائتني بدواة، فذهب، فرأى في الزهائر حظيّة من حظايا أبيه... [١] خادم، فأخذ الدواة ولم يكلم بشيء، وخشيته الجارية أن يسبقها إلى طولون، فجاءت إليه وقالت: أحمد راودني الساعة في الزهائر. فصدقها، وكتب كتاباً إلى بعض خدمه يأمره بقتل حامل الكتاب من غير مشورة.

وقال لأحمد: اذهب بهذا الكتاب إلى فلان. فأخذه ومَرَّ على الجارية.

فقالت: إلى أين؟

فقال: في حاجة مهمة للأمير. ولم يعلم ما في الكتاب.

فقالت: أنا أرسله إليه ولي بك حاجة. فدفعته إلى الخادم الذي كان معها، وقالت: اذهب به.

وإنما أرادت أن يزداد طولون على أحمد حنقاً.

فلما وقع المأمور على الكتاب قطع رأس الخادم وبعث به إلى طولون.

فلما رآه تعجّب واستدعى أحمد، وقال له: أصدقني ما الذي رأيت، وإلاّ قتلتك؟

فأخبره قصة الجارية.

فطلب الجارية وقال: أصدقيني، فحدّثته بقصة الخادم، فقتلها.

وحظي أحمد عنده.

---

(١) طمس في المخطوط قدره ثلاث كلمات تقريباً.

ونشأ على سيرة حسنة وطلب العلم وسمع الحديث، وتنقلت به الأموال حتى ولي مصر والشام، وكان حكمه من الفرات إلى المغرب.

وأنفق على الجامع المنسوب إليه مائة ألف دينار، وعشرين ألف دينار، كما قلته ـ. ورتّب للعلماء، والقرّاء، وأرباب البيوت في كل شهر عشرة آلاف دينار. وللصدقة في كل يوم مائة دينار.

وكانت فيه خصال جميلة إلاّ أنه كان سَفَّاكاً للدماء.

ومات وفي جيشه ثمانية عشر ألفاً.

وتوفي سنة ثمان وستين ومائتين.

وقيل له في المنام: ما فعل الله بك؟

فقال: إنما البلاء على من ظلم من لا ناصر له إلاّ الله تعالى، وما على رؤساء الدنيا أشدّ من الحجاب لطالب الإنصاف.

وقال بعضهم:

كنت أرى شيخاً يقرأ على قبره، ثم تركه، فسألته فقال: كان له علينا بعض العدل، فأحببت أن أصله بالقرآن، ثم رأيته في المنام، فقال: لا تقرأ عليّ شيئاً، فإنه ما تمر بي آية إلا قيل لي: أما سمعت هذه؟

وخالف عليه ولده العباس بن أحمد، وقد استخلفه بمصر لما توجّه إلى الشام، وانصرف ببيوت أمواله إلى برقة، وجرت بينهما حروب أجلت عن تغلبه على ولده، وتمكّنه منه.

[٧٠/أ] وتوفي لاثنتي عشرة بقيت/ من ذي القعدة سنة سبعين ومائتين.

دولة خمارويه بن أحمد بن طولون

وولي أمره ولده خمارويه وغزا طرسوس، وغيرها...[١].

وصاهر المعتضد بالله على بنته قطر الندى ابنة خمارويه[٢]...[١] الأعراس نبأ عظيماً.

---

(١) طمس بالمخطوط.

(٢) قال الأستاذ عمر رضا كحالة في كتابه أعلام النساء (٤/ ٢١٢) في ترجمتها: من ربّات الحسن والجمال والرأي والعقل، خطبها المعتضد بالله لما اصطلح مع خمارويه صاحب مصر الحسن بن عبد الله المعروف بابن الجصاص رسولاً لخمارويه بن أحمد بن طولون ومعه هدايا كثيرة وأموال عظيمة، وسأل المعتضد أن يزوج ابنه المكتفي بالله بقطر الندى، وهو إذ ذاك ولي العهد. فقال =

قال الطبري:

وفيها قدم على المعتضد الحسن بن عبد الله المعروف بابن الجصاص من مصر رسولاً لخمارويه بن أحمد بن طولون بقطر الندى ومعه من الهدايا:

عشرون حملاً من دنانير على بغال.

وعشرة من الخدم والفتيان.

وصندوقان فيهما طراز.

وعشرون وصيفاً على عشرين نجيّباً مسرجة، محلاّة بفضة كثيرة، ومع كل واحد منهم جراب فضة، وعليهم أقبية الديباج والمناطق المحلاة.

وسبع عشرة دابة بجلال مشهورة.

وتسعة أبغل بسروج ولجم محلاّة، منها خمس دواب بذهب والباقية بفضة.

وسبع وثلاثون دابة بجلال مشهورة.

وتسعة أبغل بسروجها ولجمها.

وزرافة.

فوصل بالهدية إلى المعتضد، فخلع عليه وعلى سبعة نفر ممن معه.

وأنزلت قطر الندى بدار صاعد ببغداد.

وكان المعتضد غائباً في الموصل، ثم نقلت إلى المعتضد ليلة الاثنين لأربع خلون من شهر ربيع الآخر.

ونودي في جميع بغداد: أن لا يعبر أحد دجلة. وغلّقت أبواب الدور والسوارح، ونقلت في الحراقات والمراكب البحرية ليلاً في هول عظيم لم يزل يتمثل به.

وأعرس بها المعتضد ليلة الثلاثاء.

وفي ذي الحجة من هذه السنة طرق البريد من مصر في سبعة أيام، فأعلم المعتضد بوفاة أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون، ذُبح على فراشه بيد بعض خدمه بقصره لثلاث خلون من ذي الحجة المذكورة.

= المعتضد بالله: أنا أتزوجها. فزوجها على مهر يبلغ ألف ألف درهم. وجهزها أبوها بجهاز عظيم، فقيل: إنه كان في جهازها عشرون صينية ذهب في عشرة منها مشام صندل، وزنها أربعة وثمانون رطلاً. وعشرون صينية فضة في عشرة منها مشام الصندل زنتها نيف وثلاثون رطلاً. وخمس خلع قيمتها خمسة آلاف دينار. وفيه أيضاً ألف هاون ذهباً، ودكة أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من جوهر لا يعرف لها قيمة.

ثم ساق خبراً طويلاً في زفافها وسيرها إلى قصر الخليفة، وما فعل بها في الطريق وذكر طرفاً من أدبها مع الخليفة وحبه إياها.

وقيل: إن الذي ذبحه المزيِّن...... [١] في إصلاح شعره.

وعليه اعتمد أبو محمد بن حزم.

قالوا: صونع عليه المزيِّن لعنه الله، فلما شرع في إزالة ما بحلقه من الشعر أجهز عليه وجئاً. وقبض عليه خمارويه، وقد أنفذ المذكور مقاتله، فلم يغن.

قلت: فتمكين الملك نفسه مزيِّناً بحلق حلقه بعد سماع هذه الحكاية من أعجب أخبار الغفلة، ولا أقل من أن يتوقع فساد فكر المزيِّن بمرض يطرق نفسه.

وقد كان المعتضد بعث إلى خمارويه بهدية جليلة مع ابن الجصاص، وأودعه إليه رسالة. فلما بلغ هذا الخبر، وجّه البريد لزدّه، فردّ من سُرَّ من رأى إلى بغداد.

[٧٠/ب]

/ دولة جيش بن خمارويه بن أحمد بن طولون [٢]

وولي الأمر بمصر بعد مهلك خمارويه، ولده جيش بن خمارويه.

وعن قرب من ولايته شغب عليهم أمراء الأتراك الذين لهم نظرة من بني طغج وغيرهم، وهمّوا بقتله فسعى يهم إليه... [٣] كبيرة وجهد عظيم.

ثم ثار به الجند من المغاربة، وقالوا: لا نرضى بك أميراً علينا فتنحى حتى نُولي مكانك عمك.

فكلّمهم كاتبه علي بن أحمد بن المادراني وقال لهم: انصرفوا يومكم هذا لينظر السلطان فيما طلبتم.

---

(١) موضع النقط طمس بالمخطوط يقدر بكلمتين.

(٢) قال ابن الأثير في الكامل في التاريخ في أحداث سنة ثلاث وثمانين ومائتين في ذكر عصيان دمشق على جيش خمارويه وخلاف جنده عليه وقتله: وفي هذه السنة خرج جماعة من قواد جيش ابن خمارويه عليه، وجاهروا بالمخالفة، وقالوا: لا نرضى بك أميراً فاعتزلنا حتى نولّي عمك الإمارة. وكان سبب ذلك أنه لما وُلّي كان صبياً فْقرب الأحداث والسفل، وأخلد إلى استماع أقوالهم فغيروا نيّته على قوّاده، وأصحابه. وصار يقع فيهم ويذمهم ويظهر العزم على الاستبدال بهم، وأخذ نعمهم وأموالهم. فاتفقوا عليه ليقتلوه ويقيموا عمه. فبلغه ذلك، فلم يكتمه، بل أطلق لسانه فيهم، ففارقه بعضهم وخلعه طغج بن جف أمير دمشق. وسار القوّاد الذين فارقوه إلى بغداد وهم محمد بن إسحاق بن كنداجيق، وخاقان المفلحي وبدر بن جف أخو طغج، وغيرهم من قواد مصر. فسلكوا البرية وتركوا أهاليهم وأموالهم فتاهوا أياماً، ومات من أصحابهم جماعة من العطش، وخرجوا فرق الكوفة بمرحلتين، وقدموا على المعتضد، فخلع عليهم وأحسن إليهم. وبقي سائر الجنود بمصر على خلافهم ابن خمارويه فسألهم كاتبه علي بن أحمد الماردانى أن ينصرفوا يومهم ذلك، فرجعوا. ونهبوا داره، ونهبوا مصر، وأحرقوها، وأقعدوا أخاه هارون في الإمرة بعده فكانت ولايته تسعة أشهر.

(٣) طمس بالمخطوط قدره سبع كلمات تقريباً.

فانصرفوا وبادر جيش إلى عمه المذكور فقتله وعمّاً آخر ثانياً، ورمى برأسيهما.

ثم نهبوا مصر، وأحرقوا كثيراً منها.

دولة هارون بن خمارويه بن طولون(١)

ثم أُقعد أخوه هارون بن خمارويه مكانه في سنة ست وثمانين ومائتين.

وظنّ المعتضد أن هارون بن خمارويه مخالف بمصر إلى أن وصله في جمادى الأولى من السنة بآمد رسوله يُعَرِّفه ببذل الطاعة، وأنه سلم إليه قنسرين والعواصم يقبضها خدامه، وشرط أن يحمل له في كل سنة أربعمائة ألف وخمسين ألفاً من الدنانير المصرية. وسأل تجديد ولاية مصر والشام، وأن يوجّه المعتضد بذلك مع خادم من خدمه. فسُرَّ المعتضد بذلك، وأنفذ إليه بدراً الفدامي وعبد الله بن الفتح بالولاية، والخلع.

ثم ضعف هارون عن مصر والشام وأتت حروب القرامطة على جيشه، وأبادت أكثر رجاله.

وفي سنة إحدى وتسعين ومائتين خلع المكتفي بالله على محمد بن سليمان كاتب الجيش وعلى وجوه القواد، وأمرهم بالسمع والطاعة لمحمد بن سليمان، وبرز إلى مضربه بباب الشماسية، وعسكر هناك في رجب منها وخرج بالجيوش إلى جهة دمشق لقبض ما بيد هارون بن خمارويه من الأعمال إذ تبيّن ضعفه.

فرحل محمد بن سليمان في زهاء عشرة آلاف فارس، وجدَّ في السير.

وفي سنة اثنتين وسبعين بعدما وصل إلى أحواز هارون بن خمارويه، وبرز إليه هارون ـ وكانت بينهما حروب/ أصيب فيها هارون بسهم ـ فقضى عليه ودخل [١/٧١] محمد بن سليمان الفسطاط من مصر وهو محل الملك قبل بناء القاهرة المعزية مسكن سلطان الشيعة الباقي إلى اليوم(٢)، فاحتوى على دور آل طولون وأموالهم، وتقبض

---

(١) من مصادر ترجمته: تاريخ الطبري (١٠/ ١١٨)، صلة تاريخ الطبري (١٦، ولاة مصر للكندي (٢٦٦)، العبر (٢/ ٩١)، دول الإسلام (١/ ١٧٦)، مرآة الجنان (٢/ ٢٢٠)، البداية والنهاية (١١/ ٩٩)، النجوم الزاهرة (٣/ ٩٣)، حسن المحاضرة (١/ ٥٩٦)، تاريخ مصر (١/ ٤٢)، سير أعلام النبلاء (١٤/ ١٧)، شذرات الذهب (٢/ ٢٠٩).

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمته: التركي، الملك صاحب مصر أبو موسى. . . وكانت دولته ثمانية أعوام وأشهراً وقُتل شاباً. وتملك عمُّه شيبان أبو المقانب. ثم تلاشى أمره بعد أيام، وزالت دولة آل طولون، وطُرد من بقي منهم بمصر نحو من عشرين نفراً.

(٢) أي أيام أن وضع المؤلف هذا الكتاب.

على جميعهم وهم سبعة عشر رجلاً، واعتصب أموالهم، وكتب بالفتح إلى المكتفي بالله، وذلك في صفر من السنة يأمر المكتفي بالله محمد بن سليمان بإشخاص آل طولون إلى بغداد وأن لا يبقي منهم أحداً بها.

ففعل ذلك، وانقرض آل طولون إلى هذا الحد من بَعْدِ مُلك كبير هو الذي بأيدي ملوك الترك اليوم.

والبقاء لله سبحانه، ووال بعدهم الملك من آل طغج.

ذكر أيام بني طغج الاخشيدية
وأول أيام الأمير طغج

ثم قَدَّم المكتفي بالله على أعمال ابن طولون الأمير طغجا، وكان قبل ذلك يتولى دمشق لنظر أحمد بن طولون.

وظهر بالشام أيام المكتفي زكرويه الخارجي من القرامطة، وجمع إلى نفسه جماعة من الأعراب وغيرهم، وأتى بهم إلى دمشق وبها طغج.

فكانت بينهم حروب كثيرة ووقعات في العام بعد العام.

وأرسل زكرويه أولاده إلى الطرق وأعراض البوادي، فبايعوه، وضيّق بالبلاد، ثم توفي زكرويه[1]. وقدَّم أصحابه ولده المسمى بيحيى المُكنى بأبي القاسم ولقّبوه بالمسيح، ودعوه بأمير المؤمنين، وهم ينسبون أهل هذا البيت إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وعهد إلى أخيه الحسن بن زكرويه، ولقّبه بالمدثّر، وزعم أنه أبو عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر، وأنه المعني في سورة المدثر، ولقّب غلاماً من ولده

---

(١) قال ابن الأثير في الكامل في أحداث سنة أربع وتسعين ومائتين في ذكر قتل زكرويه لعنه الله: لما فعل زكرويه بالحجاج ـ ما ذكرناه ـ عظم على الخليفة خاصة وعلى كافة المسلمين عامة، فجهز المكتفي الجيوش. فلما كان أول ربيع الأول سير وصيف بن صوارتكين مع جماعة من القواد والعساكر إلى القرامطة، فساروا على طريق خفان، فلقيهم زكرويه ومن معه من القرامطة ثامن ربيع الأول فاقتتلوا يومهم، ثم حجر بينهم الليل، وباتوا يتحارسون، ثم بكّروا إلى القتال فاقتتلوا قتالاً شديداً، فقتل من القرامطة مقتلة عظيمة. ووصل عسكر الخليفة إلى عدو الله زكرويه، فضربه بعض الجند وهو مولّ بالسيف على رأسه فبلغت الضربة دماغه، وأخذه أسيراً، وأخذ خليفته، وجماعة من خواصه، وأقربائه وفيهم ابنه وكاتبه وزوجته، واحتوى الجند على ما في العسكر. وعاش زكرويه خمسة أيام ومات، فسُيِّرت جيفة والأسرى إلى بغداد.

وانهزم جماعة من أصحابه إلى الشام فأوقع بهم الحسين بن حمدان فقتلوهم جميعاً، وأخذوا جماعة من النساء والصبيان، وحمل رأس زكرويه إلى خراسان لئلا ينقطع الحجاج، وأخذ الأعراب رجلين من أصحاب زكرويه يعرف أحدهما بالحداد، والآخر بالمنتقم وهو أخو امرأة زكرويه، كانا قد سارا إليهم يدعوانهم إلى الخروج معهم. فلما أخذوهما سيّروهما إلى بغداد. وتتبع الخليفة القرامطة بالعراق، فقتل بعضهم، وحبس بعضهم، ومات بعضهم في الحبس.

بالمطوّق، وقلّده قتل أسرى المسلمين إلى أن قتله المصريون بباب دمشق، بعد أن كانت على طغج وقائع كاد يظهر بها على دمشق.

وكان شأن هذا الخارجي غريباً، يركب جملاً واحداً لا يركب غيره، ويتعمم عمَّة أعرابي، ويتلثّم، وكان يأمر أصحابه أن لا يقاتلوا أحداً حتى ينبعث الجمل من تلقاء نفسه، ويقول لهم: ما دمتم تفعلون ذلك لم تهزموا.

وكان يزعم أنه إذا أشار إلى ناحية من النواحي التي فيها محاربوه انهزم أهل تلك الناحية، فاستغرى بذلك الأعراب إلى أن لم يُغن عنه ذلك شيئاً، فقُتِل، وتفرّق أصحابه.

ثم اجتمعوا على أخيه الحسن المذكور، ودعا إلى مثل ما دعا إليه أخوه، واشتدت شوكته وقصد دمشق/ فصالحه أهلها على خراج. [٧١/ب]

وتغلّب على حمص، وحلب، وسلهبة، وحماه، لا يرفع السيف حتى عن صبيان المكَاتِب والبهائم، إلى أن وقع بهم جيش السلطان في خبر يطول.

وأتى بالقرمطي صاحب الشامة، والمدثر، والمطوّق يوم الاثنين لأربع بقين من المحرم سنة إحدى وتسعين ومائتين على الجمال وألبسوا برانس الحرير، وطوّق المطوق منهم بطوق ذهب، وسوارين من ذهب، فضربت أعناقهم بعد قطع أيديهم.

ولما توفي طغج اتصل استعمال ولده بدمشق، ثم بمصر، فولي منهم محمد بن عبد الله بن طغج بعد أن تخللت ولايتهم مداولات تكين التركي وغيره.

دولة محمد بن طغج(١)

قال الطبري:

---

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٥/ ٣٦٥)، ولاة مصر (٢٩٩)، تاريخ ابن عساكر (١٥/ ٢٤٣ب)، المنتظم (٦/ ٣٤٧)، وفيات الأعيان (٥/ ٥٦)، العبر (٢/ ٢٣٩)، الوافي بالوفيات (٣/ ١٧١)، مرآة الجنان (٢/ ٣١٤)، البداية والنهاية (١١/ ٢١٥)، النجوم الزاهرة (٣/ ٢٣٥)، شذرات الذهب (٢/ ٣٣٧).

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمته: صاحب مصر الملك أبو بكر محمد بن طغج بن جف بن خاقان، الفرغاني التركي. روى عن عمه بدر. وولي مصر سنة إحدى وعشرين، ثم دمشق مضافاً إلى مصر من قبل الراضي، والإخشيد بالتركي ملك الملوك. وتوفي جده سنة سبع وأربعين ومائتين. ثم صار طغج من كبار قواد خمارويه، ثم سار إلى بغداد فعظموه، فبدا منه كِبْر وتيه في حق الوزير، فسجن هو وابنه هذا، فمات في السجن ثم أطلق محمد، وجرت له أمور طويلة إلى أن تملك. وكان بطلاً، شجاعاً، حازماً، يقظاً، مهيباً، سعيداً في حروبه، مكرماً لأجناده، شديد الأيد، لا يكاد أن يجر أحد قوسه. بلغ عدة مماليكه ثمانية آلاف، وقيل: بلغ جيشه أربعمائة ألف راكب. وهذا بعيد. وله جماعة أولاد تملكوا بعده. =

وفي جمادى الآخرة من سنة تسع عشرة وثلاثمائة:

قُلّد أبو بكر محمد بن طغج مدينة دمشق. فلما وصل كتاب الخليفة إلى ابن طغج سار من وقته إلى دمشق، فسُرَّ أهل دمشق بقدوم ابن طغج ودخلها أحسن دخول. وأقام محمد بن طغج بدمشق، ثم بمصر، إلى أن توفي سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة.

قال الإمام أبو الفرج في تاريخ بغداد:

كان محمد بن طغج شجاعاً شديد التيّقظ في حروبه.

وكان جيشه يحتوي على أربعمائة ألف رجل وكان له ثمانية آلاف مملوك يحفظونه بالنوبة كل يوم ألف مملوك.

ويوكل بجانب خيمته الخدم، ثم لا يبقى حتى يمضي إلى خِيم الفراشين فينام فيها.

ولقبه الراضي بالله بالإخشيد لأنه كان فرغانياً.

دولة الأستاذ كافور الإخشيد بمصر والشام[1]

وخلفه كافور أبو المسك مولى الإخشيد وكفل ولداً من ذريته صغيراً ومن شرط كتابنا فيمن بويع قبل الاحتلام.

وكانت وفاة كافور يوم الجمعة لثلاث بقين من جمادى الآخرة من سنة أربع وخمسين وثلاثمائة بعد أن أسند النظر على الولد إلى أبي الفضل بن خيران الوزير.

وقدمه على التدبير، وسمولاً الرومي على العساكر والجيوش.

وكان يدعي لكافور بالمنابر[2]، وينفذ حكمه بالشام والثغور: طرسوس، وحلب، والمصيصة.

= توفي بدمشق في ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة عن ست وستين سنة. ثم نقل فدفن ببيت المقدس غفر الله له. وقد حاربه ابن رائق فهزمه الإخشيد، ثم سار أخو الإخشيد، فالتقى ابن رائق فقتل. فندم ابن رائق، وبعث ابنه مزاحماً إلى الإخشيد ليقتله بأخيه، فعفا، وخلع على مزاحم، ورده إلى أبيه.

(١) من مصادر ترجمته: المنتظم (٧/ ٥٠)، وفيات الأعيان (٤/ ٩٩)، المختصر في أخبار البشر (٢/ ١٠٧)، العبر (٢/ ٣٠٦)، دول الإسلام (١١/ ٢٢١)، البداية والنهاية (١١/ ٢٦٤)، سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٩٠)، النجوم الزاهرة (٤/ ١)، حسن المحاضرة (١/ ٥٩٧)، شذرات الذهب (٣/ ٢١).

(٢) جاء في محاذات هذه الكلمة في هامش المخطوط هذه العبارة: «على الحرمين مكة والمدينة»، وقد فرح بعدها سهم يشير إلى العبارة. وهو ما يشير إلى سقوط بعض العبارات من السياق أو اضطراب فيها لتتمّ بها هذه العبارة.

[١/٧٢] وكان موت كافور ثقة الإخشيد بن طغج من أسباب استيلاء/ الشيعة على مصر. إذ كان ملكاً حازماً جليلاً . . .(١) السكردان.

قال: كانت وظيفة كافور كل يوم من اللحم ألفي رطل وسبعماية رطل، ومائتي طائر دجاج، وثلاثمائة فرخ حمام.

وثلاثمائة فروج.

وعشر أوزات. وعشرين خروفاً. عشرة بطراخ سمكة. وثلاثمائة صحن حلوى. وألف كماجة.

وسبع . . .(١) تفرق في خاصته.

وكان يعطي العطاء الجزيل.

اتفق في أيامه زلزلة، فدخل عليه محمد بن عاصم الشاعر، فأنشده قصيدة منها:

ما زلزلت مصر من سوء يراد بها وإنما رقصت من عدله فرحا

فأجازه كافور بألف دينار.

قال: وهذه الجائزة هي التي حثت المتنبي على المجيء إلى كافور، فكان يقف بين يديه بخفين ومنطقة وعمامة خضراء ويحضر سماطه، وفيه يقول قصيدته التي أولها:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

يقول فيها من الحكم والأمثال:

أقل اشتياقاً أيها القلب ربما رأيتك تصفي الوُدّ من ليس جازيا

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

يقول فيها في وصف الركائب والمطايا:

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا

قصدت بنا إنسان عين زمانه وخلّتْ بياضاً خلفها ومآقيها

وهذا من أروع ما تنتهي إليه خواطر الشعراء في تفضيل أسود على أبيض، فيجعل الأسود في العزة بمنزلة سواد العين والأبيض بمنزلة البياض منها.

ثم ساء ما بينه وبين كافور، ومنعه من الرحيل عن مصر تقية منه على عرضه،

---

(١) عبارة مطموسة في المخطوط.

فقال يهجوه من قصيدة:

إني نزلت بكذابين ضيفهم   عن القِرى وعن الترحال محدُودُ
جود الرجال من الأيدي وجودهم   من اللسان فلا كانوا ولا الجُودُ
ما يقبض الموت نفساً من نفوسهم   إلاّ وفي يده من نتنها عُودُ

/ ويقول فيها: [٧٢/ب]

العبد ليس كحر صالح بأخ   لو أنه في بيوت الحر مولُودُ
لا تشتري العبد إلاّ والعصا معه   إنّ العبيد لأنجاس مناكيد
من عَلَّم الأسود المختص...[1]   ...[1] البيض أم آباؤه السود
أم أذنه في يد النخاس دامية   أم قدره وهو بالعلسين مردُودُ

وأسند أمر مصر والشام بعده إلى تِكين[2] التركي.

فلما استولى الشيعة على مصر امتسك بالشام، وكانت بينه وبين ملوك الشيعة وقعات، ثم دخل في أمرهم.

---

(١) طمس بالمخطوط.

(٢) من مصادر ترجمته: ولاة مصر (٢٨٦)، العبر (٢/ ١٨٦)، الوافي بالوفيات (١٠/ ٣٨٦)، سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٢٣)، (١٥/ ٩٥)، خطط المقريزي (١/ ٣٢٧)، النجوم الزاهرة (٣/ ١٧١)، حسن المحاضرة (٢/ ١٣)، شذرات الذهب (٢/ ٢٨٩)، وفيات الأعيان (٥/ ٦٢)، دول الإسلام (١/ ١٩٥)، تاريخ مصر (١/ ٤٢)، تهذيب تاريخ ابن عساكر (٣/ ٣٤٠).

قال الذهبي في ترجمته في الموضع الأول من سير أعلام النبلاء: تِكِين الأمير أبو منصور التركي الخزري. ولي إمرة ديار مصر للمقتدر بعد عيسى النُّوشري وكان ملكاً سائساً مهيباً كبير الشأن، قدم على مصر في شوال سنة سبع وتسعين ومائتين، وتهيأ لأمر المغرب وظهور دعاة الشيعة هناك واهتم لذلك، وعقد لأبي النَّمِر على برقة في جيش كثيف، ثم عزله بالأمير خِيَر، فالتقوا، فانهزم المصريون، ثم كتب تكين إلى عامل إفريقية يدعوه إلى الطاعة سنة ثلاثمائة. ثم أقبل حباسة في مائة ألف، فأخذ الإسكندرية سنة اثنتين وثلاثمائة.

وأقبل من العراق القاسم بن سِيماء مدداً لتكين. وقدم أحمد بن كيغلغ وأمراء. ثم التقى الجمعان، واستحرّ القتل بالمغاربة، وانهزم حَبَاسَة، وكان المصاف بالجيزة. ثم خرج كمين لحباسة، ومالوا على المصريين، فقتل نحو عشرة آلاف. ثم أصبحوا على المصاف، والسيف يعمل، وقاتلت العوام قتال الحريم، وكانت وقعة مشهودة. ثم أقبل مؤنس الخادم في جيوشه من بغداد إلى مصر، فعزل تكين في ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثمائة. ثم في صفر سنة ثلاث ولي إمرة مصر ذه الرومي الأعور، ورجعت المغاربة إلى إفريقية. ثم عاد تكين إلى ولاية مصر سنة سبع. ثم عزل سنة تسع. ثم أعيد مرات، وقلّ أن سمع بمثل هذا. ثم بقي تكين على إمرة مصر أعواماً إلى أن مات في ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة.

ذكر دولة العبيديين الملوك بمصر، وإفريقية، والشام

وخرج من أيدي العباسية عندما ضعف أمرهم المغرب بجملته من حدود الشام، ومصر، وبرقة، إلى البحر المحيط، والسوس الأقصى إلى تخوم الروم، وأفرانسة من بلاد الأندلس، فابتذهم المغرب إلى عبيد الله من الشيعة، المنتسبين إلى علي بن أبي طالب، واتفق لهم بإفريقية ملك كبير، ودوّخوا ملوك البربر إلى البحر المحيط.

ثم تراموا إلى ملك المشرق، فاستولوا على مصر، والشام، والحجاز، ثم العراق أياماً يسيرة، وكان ابتداء أمرهم أن الشيعة كانت تزعم أن الإمام المهدي القائم هو الحسن بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب.

ثم بطل ذلك بأيديهم، وكان من رجال الكمال من حيث الدنيا والسياسة، وما يحتاج إليه أرباب الدول وغير ذلك من صحة...[1] أو غيره، فالله أعلم به.

وكان داعيته بالمغرب أبو عبد الله الشيعي الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا[2] المعروف بابن المحتسب.

وكان ذا عقل وأمانة ومعرفة برأي الشيعة، وتعرب وقت الحج، وقفل عن اليمن بطائفة من كُتامة الغرب فيمن حج تلك السنة فيهم قوم من الشيعة سرى إليهم ذلك من

---

(١) طمس بالمخطوط.

(٢) من مصادر ترجمته: وفيات الأعيان (٢/ ١٩٢)، البيان المغرب (١/ ١٦٠)، العبر (٢/ ١١٠)، الوافي بالوفيات (١٢/ ٣٢٨)، البداية والنهاية (١١/ ١٦)، شذرات الذهب (٢/ ٢٢٧)، سير أعلام النبلاء (١٤/ ٥٨) وفيه: الشيعي الداعي الخبيث أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الصنعاني. من دهاة الرجال الخبيرين بالجدل، والحيل، وإغواء بني آدم.
قام بالدعوة العُبيدية، وحجّ وصحب قوماً من كُتَامَة، وربطهم، وتأله، وتَزَهَّدَ، وشوّق إلى إمام الوقت، فاستجاب له خلق من البربر. وعسكر، وحارب أمير المغرب ابن الأغلب، وهزمه غير مرة، إلى أن جاء عبيد الله المهدي، فتسلم الملك، ولم يجعل لهذا الداعي ولا لأخيه أبي العباس كبير ولاية. فغضبا وأفسدا عليه القلوب، وحارباه، وجرت أمور إلى أن ظفر بهما المهدي فقتلهما في ساعة سنة ثمان وتسعين ومائتين.

داع قبله يُعرف بالحلواني.

فجلس إليهم وقد سمعهم يذكرون فضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فحدثهم ففتنوا به، وجعلوا يستفتونه ويسألونه، ثم عرضوا عليه التوجه معهم إلى المغرب، فلان لهم، ثم جعل يسألهم عن بلادهم، وعن طاعتهم/ للسلطان. [١/٧٣]

فقالوا: ليس له علينا حكم أكثر من ذكره، وبلادنا...[1] ومياه ومكرمه من حدود إفريقية وعندنا الخيل والسلاح ـ وهو يعي ذلك كله لما يؤمله ـ.

ثم رَحَلَ معهم إلى بلادهم...[1].

وكان وصوله كتامة للنصف من ربيع الأول سنة ثمانين ومائتين إلى أن تفاقم أمره، وقلق السلطان بمكانه، وجرت بينه وبين صاحب إفريقية من الأغالبة مخاطبات شعر منها أنه صاحبه وناصح دولته لحدثان كان يتحمله.

ثم اتسع الخرق، وظهرت الدعوة، ودخل في أمره القبائل والبلاد، ووقعت له على السلطان الهزائم، ثم فتح البلاد، واشتهر أمره، وأعى ملك إفريقية علاجه، وهو يومئذ أبو نصر زيادة الله بن عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب وكان هؤلاء الملوك بإفريقية أولى ذكر وعز ومنقبة.

وكانت دعوتهم إلى بني العباس من بعد بني أمية حسبما تقدم، ويأتي التعريف بهم إن شاء الله تعالى.

فقوض عنها، وأجلى إلى المشرق بجملته. ولما رأى عبيد الله الدعوة له إن لم تثبت من قدر دعوته إلا ما بدر بالمغرب، وأن قد استوثق له الأمر على المغرب له وولده أبو القاسم، ولم يخلص إلى حدود المغرب إلاّ عن شقة لجعل الإرصاد على رجال بينهم بكل جهة.

واتصل بسجلماسة يروم لقاء الشيعي، واستريب به فيها، وسجن وهو يخفي أمره، وينتسب إلى المغرب بالتجارة، وينتفي مما يظن به من طلب الأمر.

فلما بلغ الشيعي خبره نزع من إفريقية وقد استخلصها، وشرع في قصد سجلماسة فتحرك إليها في جيوش عظيمة، ولما دنا من المدينة برز إليه أميرها أليسع بن مُدْرَار وناشبه القتال.

فرآه لا يطيقه، ولما جنّه الليل أعمل الفرار عنها هو وأهله، ولحقوا بالصحراء. ومن...[2] خرج إليه وجوه أهل البلد، ومكّنوه منه، ولم يقدم شيئاً على قصد

---

(١) طمس بالمخطوط.

(٢) كلمة مطموسة. وفي الكامل في التاريخ في أحداث سنة ست وتسعين ومائتين في ذكر مسير أبي عبد ـ

الموضع الذي كان به عبيد الله مسجوناً فاستخرجه وابنه القاسم وبادر بهما لما يليق بهما من المراتب، وحفت بهما العساكر وتقدم الشيعي ودعاته بين يدي عبيد الله يقولون: هذا مولانا ومولاكم حتى انتهى به، والطبول خلفه إلى فسطاطٍ ضرب له. وجدَّدَ له بيعة الناس، وتمَّ له الأمر وأمر باتباع أليسع بن مدرار بسجلماسة الفار عنها.

فأُتي به، فقتله، وسكن المدينة واستعمل عليها.

[٧٣/ب]

/ دولة عبيد الله أول ملوك الشيعة

وهو مما يزعم قومه والمثبتون لنسبه: أبو محمد عبيد الله بن جعفر بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد بن علي بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

ويدفع ذلك أضداده، والله أعلم بصحته. فبويع برقادة[١] يوم الجمعة الحادي والعشرين لربيع الأول سنة سبع وتسعين ومائتين. وكان نقش خاتمه: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾ [يونس: الآية ٣٥] الآية.

= الله إلى سجلماسة وظهور المهدي. فلما جنّهم الليل هرب اليسع وأصحابه من أهله وبني عمه، وبات أبو عبد الله ومن معه في غم عظيم لا يعلمون ما صُنع بالمهدي وولده. فلما أصبح خرج إليه أهل البلاد وأعلموه بهرب اليسع، فدخل هو وأصحابه البلد وأتوا المكان الذي فيه المهدي، فاستخرجه، واستخرج ولده فكانت في الناس مسرّة عظيمة كادت تذهب بعقولهم، فأركبوهما، ومشى هو ورؤساء القبائل بين أيديهما، وأبو عبد الله يقول للناس: هذا مولاكم، وهو يبكي من شدّة الفرح حتى وصل إلى فسطاط قد خرب له فنزل فيه. وأمر بطلب اليسع، فطلب فأدرك، فأخذ وضرب بالسياط، ثم قُتل.

(١) رَقّادة: بلدة كانت بإفريقية بينها وبين القيروان أربعة أيام، وكان دورها أربعة وعشرين ألف ذراع وأربعين ذراعاً، وأكثرها بساتين. ولم يكن بإفريقية أطيب هواء ولا أعدل نسيماً وأرقّ تربة منها. ويقال: إن من دخلها لا يزال مستبشراً من غير سبب. وذكروا أن أحد بني الأغلب أرِق وشرد عنه النوم أياماً، فعالجه إسحاق المتطبّب الذي ينسب إليه اطريغل وإسحاق، فلم ينم فأمره بالخروج والمشي، فلما وصل إلى موضع رقادة نام، فسميت رَقّادة يومئذ، واتخذها داراً ومسكناً وموضع فرجة للملوك... والمعروف أن الذي بنى رقادة إبراهيم بن أحمد بن الأغلب، وانتقل إليها من مدينة القصر القديم، وبنى بها قصوراً عجيبة وجامعاً، وعمرت الأسواق والحمامات، والفنادق فلم تزل بعد ذلك دار ملك لبني الأغلب إلى أن هرب عنها زيادة الله من أبي عبد الله الشيعي وسكنها عبيد الله إلى أن انتقل إلى المهدية سنة (٣٠٨) وكان ابتداء تأسيس إبراهيم بن أحمد لها سنة (٢٦٣)، فلما انتقل عنها عبيد الله إلى المهدية دخلها الوهن، وانتقل عنها ساكنوها، فلم تزل تخرب شيئاً بعد شيء إلى أن ولّي معد بن إسماعيل فخرب ما بقي من آثارها، ولم يبق منها شيء غير بساتينها، ولما بناها إبراهيم وجعلها دار مملكته منع بيع النبيذ بمدينة القيروان وأباحه بمدينة رقّادة. (معجم البلدان).

وتأتى له بالمغرب ملك كبير، فبنى القصور، ورتب السياسة، وأحكم التدبير، وعمل حساب تغلّب الزمان، وتعلق بالخوف فيه والأمان، فشرع في بناء المهدية المنسوبة إليه، واتخذها عُدّة للسدّة، واستكثر بها من العُدّة، والخزائن، إذ كان عنده علم من الحدثان بالاضطرار إليها.

وكان سنه يوم استقلاله بالأمر سبعاً وثلاثين سنة.

وولده أبو القاسم لمَّا طَرَّ شاربه جمع الفقهاء ثاني يوم دخوله إلى رقادة، وأمر أن يدعى له في المنابر، وخطب الأعياد بمرسوم يقال فيه بعد الصلاة على النبي ﷺ، وعلى أمير المؤمنين علي، وفاطمة الزهراء، والحسن، والحسين رضي الله عنهم وعن الأئمة من أولادهم:

«اللهم صل على عبدك ووليك وخليفتك القائم بأمر عبادك في بلادك أبي محمد عبد الله الإمام المهدي بالله أمير المؤمنين، كما صليت على آبائه خلفائك الراشدين المهديين الذين قضوا بالحق وكانوا به يعدلون، اللهم وكما اصطفيته لولايتك، واخترته وجعلته لدنياك عصمة وعماداً، ولبريّتك موئلاً وملاذاً، فانصره على أعدائك المارقين، وافتح له مشارق الأرض ومغاربها كما وعدته، وأيده على العصاة الظالمين إنك أنت الحق المبين».

واتخذ من العبيد اثني عشر ألف مملوك بين رومي وحبشي.

ثم أعاد على الشيعي الداعي إليه فقتله وأخاه في خبر طويل.

وأوقع بزنانة وقعة كبيرة.

وتملك برقة، وهدم قصبتها.

وصرف وجهه إلى البلاد المصرية، وفتح الإسكندرية.

وكانت بينه وبين عمل المقتدر من بني العباس حروب جمّة إلى أن تملك المشرق وولده من بعده.

وتوفي منتصف ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة.

وقام بالأمر بعده القائم بأمر الله أبو القاسم.

/ دولة القائم بن المهدي[١] [٧٤/أ]

اقتفى آثار أبيه، والتزم من الحزن عليه ما لم يلتزمه ابن لأب، فلم يرق سريراً،

---

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٥٢)، الحلة السيراء (١/ ٢٨٥)، وفيات الأعيان (٥/ ١٩)، المختصر (٢/ ٨٠)، العبر (٢/ ٢٤٠)، الوافي بالوفيات (٤/ ٤)، مرآة الجنان (٢/ ٣١٧)،

ولا ركب دابة بقصره إلى أن مات.

وافتتحت في أيامه فتوحات عظيمة، ومدن من مدن الروم بصقلية كثيرة. ووجه جيوشه إلى المغرب فاستولت على أكثره.

ووجه جوهراً مولاه بأسطوله إلى جنوة فاستباحها في خبر شهير.

وخرج عليه أبو يزيد مخلد بن كيداد الخارجي وكان نكاريّاً يستحل الدماء والأموال، ويسبّ عليّاً رضي الله عنه، وكان مصنوعاً له في ضلاله، واستولى على البلاد واستباحها وفتح القيروان وسواها.

واعتصم منه أبو القاسم بن عبيد الله بالمهدية ولجأ إلى ما أعدّ له أبوه إذ كان ينذر بذلك، إلى أن توفي في ريعان فتنة أبي يزيد لثلاث عشرة خلت من شوال سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وقام ولده بعده إسماعيل الملقب بالمنصور.

دولة إسماعيل بن القائم[1]

وكان إسماعيل ملكاً جليلاً عالي الهِمّة.

= البداية والنهاية (١١/ ٢١٠)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ٤٠)، خطط المقريزي (١/ ٣٥١)، النجوم الزاهرة (٣/ ٢٨٧)، شذرات الذهب (٢/ ٣٣٧).

قال الذهبي في ترجمة له في سير أعلام النبلاء: صاحب المغرب أبو القاسم محمد بن المهدي عبيد الله. مولده بسَلَمِيَّة في سنة ثمان وسبعين ومائتين. دخل المغرب مع أبيه، فبويع عند موت أبيه في سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة. كان مهيباً شجاعاً، قليل الخير، فاسد العقيدة... وحصره مخلد بالمهدية، وضيّق عليه، واستولى على بلاده، ثم وسوس القائم، واختلط وزال عقله، وكان شيطاناً مريداً يتزندق.

ذكر القاضي عبد الجبار المتكلّم: أن القائم أظهر سبّ الأنبياء، وكان مناديه يصيح: العنوا الغار، وما حوى، وأباد عِدّة من العلماء، وكان يراسل قرامطة البحرين ويأمرهم بإحراق المساجد والمصاحف... وقد أجمع علماء المغرب علىْ محاربة آل عبيد لما شهروه من الكفر الصراح الذي لا حيلة فيه. وقد رأيت في ذلك تواريخ عِدّة يُصدق بعضها بعضاً.

وعوتب بعض العلماء في الخروج مع أبي يزيد الخارجي، فقال: وكيف لا أخرج وقد سمعت الكفر بأذني؟ حضرت عقداً فيه جمع من سُنّة ومشارقة، وفيهم أبو قضاعة الدّاعي، فجاء رئيس، فقال كبير منهم: إلى هنا يا سيدي ارتفع إلى جانب رسول الله ـ يعني أبا قضاعة ـ فما نطق أحد... وتسارع الفقهاء والعبّاد في أهبةٍ كاملة بالطبول والبنود، وخطبهم في الجمعة أحمد بن أبي الوليد وحرّضهم وقال: جاهدوا من كفر بالله، وزعم أنه ربّ من دون الله تعالى، وغيّر أحكام الله، وسبّ نبيّه، وأصحاب نبيه. فبكى الناس بكاءً شديداً.

وقال: اللّهم إن هذا القرمطي الكافر المعروف بابن عبيد الله، المدعي الربوبية، جاحد لنعمتك، كافر بربوبيتك، طاعن على رُسُلِكَ، مكذّب بمحمد نبيّك، سافك للدماء، فالعنه لعناً وبيلاً، واخزه خزياً طويلاً، واغضب عليه بكرةً وأصيلاً، ثم نزل فصلى بهم الجمعة.

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٥٦)، البيان المغرب (١/ ٢١٨)، وفيات الأعيان (١/ =

وقصده النكّار، وهو ثابت لم يبق معه إلاّ رافع المظلة على رأسه، فسَلَّ سيفه، وأقدم على عدوه فتهيبه العدو وأدبر عنه.

وكرّ إليه خالصة المنهزمة، فلم يردهم فتح وقال: ادخلوا هنا، وهو يبتسم.

ثم شمَّر إلى أتباعه واقتحم عليه الشعاب، والمفاوز، والجبال، حتى قبض عليه بأحواز قلعة شاكر من عمل الهيضة، وقد تردى النكّار من الجبل، وسيق إليه وهو مهيض، فجعله في قفص من الحديد، وجرى بينهما كلام كثير يبث في محله.

وإسماعيل أول من استعمل بني أبي الحسن على ملك صقلية، فاتصلت أيامهم بها بعده.

وتوفي رحمه الله آخر يوم من شوال سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة.

وولي بعده رحمه الله ولده أبو تميم معد الملقب بالمُعزّ.

دولة المعز لدين الله(١)

وهو أعظم ملوكهم قدراً وأجلّهم فخراً، وكان بعيد الصيت، عظيم الجبروتيه/ [٧٤/ب] وقوراً كثير التأديب.

= ٢٣٤)، العبر (٢/ ٢٥٧)، مرآة الجنان (٤/ ٣٣٣)، البداية والنهاية (١١/ ٢٢٥)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ٤٣)، خطط المقريزي (١/ ٣٥١)، النجوم الزاهرة (٣/ ٣٠٨)، شذرات الذهب (٢/ ٣٥٩).

وقال الذهبي في سير الأعلام في ترجمته: المنصور أبو طاهر إسماعيل بن القائم... ولي بعد أبيه، وحارب رأس الأباضية أبا يزيد مخلد بن كيداد الزاهد، والتقى الجمعان مرات، وظهر مخلد على أكثر المغرب ولم يبق لبني عبيد سوى المهدية. فنهض المنصور، وأخفى موت أبيه، وصابر الإباضية حتى ترحلوا عنه، ونازلوا مدينة شوسة، فبرز المنصور من المهدية والتقوا فانكسر جيش مخلد على كثرتهم، وأُسِرَ هو سنة (٣٣٦)، فمات بعد الأسر بأربعة أيام من الجراح، فسُلِخ وحشي قطناً وصُلِب.

وبنوا مدينة المنصور مكان الوقعة، فنزلها المنصور وكان بطلاً شجاعاً رابط الجأش فصيحاً، مُفوّهاً يرتجل الخطب، وفيه إسلام في الجملة، وعقل بخلاف أبيه الزنديق... ومن محاسنه أنه ولّى محمد بن أبي المنظور قضاء القيروان، وكان من كبار أصحاب الحديث... خرج في رمضان سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة إلى مكان يتنزّه، فأصابه برد وريح عظيمة فأثر ذلك فيه، ومرض، ومات عدد كثير ممن معه. ثم مات هو في سلخ شوال من السنة، وله تسع وثلاثون سنة... وذكر المشايخ أنهم ما رأوا فتحاً مثله قط. وكان المنصور محبباً إلى الرعية مقتصراً على إظهار التشيع.

(١) من مصادر ترجمته: المنتظم (٧/ ٨٢)، البيان المغرب (١/ ٢٢١)، وفيات الأعيان (٥/ ٢٤)، العبر (٢/ ٣٣٩)، البداية والنهاية (١١/ ٢٨٣)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ٤٥)، خطط المقريزي (١/ ٣٥١)، إتعاظ الحنفا (١٣٤)، النجوم الزاهرة (٤/ ٦٩)، تاريخ ابن إياس (١/ ٤٥)، شذرات الذهب (٣/ ٥٢)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٥٩)، وفيه في ترجمته:

هو المعزّ لدين الله أبو تميم معد بن المنصور إسماعيل بن القائم العبيدي، المهدوي، المغربي،

ذهب بنفسه كل مذهب حتى زعموا أنه أمر المؤذن أن يقول بعد: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله».

ومما يشهد لذلك قول شاعره أبي القاسم محمد ابن. . .(١) في قصيدته الشهيرة التي أولها:

....(٢)

يقول فيها من أبيات:

امد يدها من حيث دار لطالما ... زاحمت تحت لوائه جبريلا

وورثته البُرهان والتبيان ... والفرقان والتوراة والإنجيلا

وعلمت من مكنون اللّه ما لم ... يؤت في الملكوت ميكائيلا

لو كنت أوته مُبشراً أمّة ... نشرت لمبعثك القرون الأولى

لو كنت نوحاً منذراً في قومه ... ما زادهم بدعائه تضليلا

للّه فيك خفية لو أُعلمت ... أحيا بذكرك قاتلٌ مقتولا

لو كان آتى الخلق ما أوتيته ... لم يخلق التشبيه والتمثيلا

والكتب لولا أنها لك شهد ... ما فُصّلت آياتها تفصيلا

لولا حجاب دون علمك حَاجِرٌ ... وجدُوا إلى علم الغيوب سبيلا

= الذي بنيت القاهرة المُعِزِّيّة له. . . قال القفطي: عزم المُعز على بعث جيشه إلى مصر، فسألته أمه أن يؤخر ذلك لتحجّ خُفية فأجابها، وحجّت، فأحس بقدومها الأستاذ كافور - يعني صاحب مصر - فحضر إليها وخدمها وحمل إليها تُحفاً، وبعث في خدمتها أجناداً. فلما رجعت منعت ابنها من قصد مصر. فلما مات كافور، بعث المعز جيشه، فأخذوا مصر.

قلت: قدم عليهم جوهراً فجبى ما علّى البربر من الضرائب، فكان ذلك خمسمائة ألف دينار. وعمد المعز إلى خزائن آبائه، فبذل منها خمسمائة حمل من المال، وساروا في أول سنة ثمان وخمسين في أُهبة عظيمة. . . وكان عاقلاً لبيباً حازماً ذا أدب وعلم ومعرفة وجلالة وكرم، يرجع في الجملة إلى عدل وإنصاف، ولولا بدعته ورفضه، لكان من خيار الملوك.

. . . قيل: ما عُرِفَ عن المعزّ غير التشيع، وكان يطيل الصلاة، ومات قبله بسنةٍ ابنه عبد الله وليّ العهد، وصبر، وغلقت مصر لعزائه ثلاثة أيام، وشيّعوه بلا عمائم بل مناديل صوف، فأمّهم المعزّ بأتم صلاة وأحسنها. . . وثارت عليه القرامطة، واستولوا على كثير من الشام، وساروا حتى أتوا مصر فحاربهم جوهر، وجرت أمور مهولة. . . ووقع المصاف بين جوهر والقرامطة، وقتل خلف بظاهر القاهرة، واستمر ذلك ثلاثة أيام، ثم ترحل الأعسم القرمطي منهزماً، وذلّوا، واتهم الأعسم أمراءه بالمخامرة، فقبض عليهم.

(١) طمس في المخطوط.

(٢) بيت شعر غير مقروء للطمس.

لولاك لم يكن التفكر واعظا ... والعقل عِلماً والقياس دليلا

لو لم تعرفنا بذات نفوسنا ... كانت لدينا عالما مجهولا

وملك بلاد المغرب بأسرها إلى البحر المحيط وبرقه والإسكندرية، ثم مصر، والشام، والحجاز، على يدي قائده الكاتب جوهر فكان أمره ينفذ من أقصى الشام، والحجاز إلى السوس الأقصى، إلى أن دخل مصر يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة.

وأذن مؤذن بإذنه المخصوص بقومه بمسجد طولون سنة ستين وثلاثمائة وتوجه إلى مصر في احتفال لم يسمع بمثله بعد أن أمر باتخاذ قصر من كل ثلاثين ميلاً ما بين داره بإفريقية وبين داره بمصر وكان من جملة ما استظهر به على وجهته المشرق بعد إزاحة علل الجيوش وأنصابها إلى السفر البعيد/ أنه حمل من الذهب واستقر بمصر [٧٥/أ] قراره.

وملك الشام والحجاز بعد أن استخلف على ملك المغرب بلقين الصنهاجي، وجعل خاتمه في يده.

وجرى بينه وبين ولاة العباسية بالشام قبل تملكه حروب عظيمة.

ذكروا أنه أخرج جوهراً إلى لقاء لتكثير التركي بجيش فيه خمسمائة طبل، وخمسة آلاف بند.

وتوفي بالمعزية التي بنى بمصر يوم الأحد السادس من ذي الحجة سنة أربع وستين وثلاثمائة.

وسبحان الحي الذي لا يموت.

وولي الأمر بعده نزار بن [المعز](١).

دولة العزيز بالله(٢)

وتمّ له الأمر حسبما كان لأبيه.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) من مصادر ترجمته: المنتظم (٧/ ١٩٠)، البيان المغرب (١/ ٢٢٩)، وفيات الأعيان (٥/ ٣٧١)، العبر (٣/ ٣٤)، البداية والنهاية (١١/ ١٢١)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ٥١)، خطط المقريزي (١/ ٣٥٤)، النجوم الزاهرة (٤/ ١١٢)، تاريخ ابن إياس (١/ ٤٨)، شذرات الذهب (٣/ ١٢١)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٦٧) وفيه:

صاحب مصر أبو منصور نزار بن المعز معد بن إسماعيل، العبيدي، المهدوي، المغربي. ولد سنة أربع وأربعين وثلاثمائة. قام بعد أبيه في ربيع الأول سنة خمس وستين وكان كريماً شجاعاً،

وكان العزيز بالله ملكاً كبيراً، وجرت بينه وبين عضد الدولة مُدَبِّر ملك العراق حروب وكان له على القرامطة هزائم عظيمة، ووقائع شهيرة.

ومن الحكايات عنه

أنه ركب في ليلة مقمرة، ومرّ ببعض الطاقات المشرفة على النيل، فإذا جارية من أندى الناس صوتاً تغني بهذين البيتين، وهما:

أما ونزار حلفة حلفتها ... على الماء أثوبه وهو نمير
لقد خبت من معروفة ونواله ... هواه فيّ إلى معروفه لفقير

ومولاها يستعيدها.

فلما فرغت قال لمملوك من صقالبة خذ بدرة فيها ألف دينار، واصعد إلى صاحب هذا الطاق فادفعه إليه، ومثله عن قائل هذا الشعر، ففعل.

فعرف أن قائله المقداد بن الحسين الشاعر، فأمر في الوقت أن يحمل له خمسة آلاف دينار، وأن يلحق بالندماء.

وتوفي العزيز بالله بمدينة بلبيس من بلاد مصر لليلتين بقيتا من رمضان المعظم سنة ست وثمانين وثلاثمائة.

وكانت مدته إحدى وعشرين سنة وعشرة أشهر.

وقام بالأمر بعده ولده أبو علي منصور الحاكم بأمر الله بن نزار.

دولة المنصور الحاكم بأمر الله(١)

وكان سن الحاكم يوم ولي إحدى عشرة سنة.

= صفوحاً، أسمر، أصهب الشعر، أعين، أشهل، بعيد ما بين المنكبين، حسن الأخلاق، قريباً من الرعية، مُغرى بالصيد، يكثر من صيد السباع، ولا يؤثر سفك الدماء، وله نظم ومعرفة. توفي في العيد ولد له فقال:

نحن بنو المصطفى ذوو محن ... أوَّلُنا مبتلى وخَاتِمُنَا
عجيبة في الأيام محنتنا ... يجرعها في الحياة كاظمنا
يفرح هذا الورى بعيدهم ... طُراً وأعيادنا مآتمنا

قال أبو منصور الثعالبي في اليتيمة: سمعت الشيخ أبا الطيب يحكي أن الأموي صاحب الأندلس كتب إليه نزار صاحب مصر كتاباً سبَّه فيه وهجاه، فكتب إليه الأموي: «أما بعد، فإنك عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك». فاشتد ذلك على العزيز، وأفحمه عن الجواب، يشير أنك دعي لا نعرف قبيلتك... وفي سنة ست وثمانين في رمضان مات العزيز ببلبيس في الحمام من القولنج وعمره اثنان وأربعون سنة وأشهر. وقام ابنه الحاكم الزنديق.

(١) من مصادر ترجمته: المنتظم (٧/ ٢٩٧)، البيان المغرب (١/ ٢٨٦)، وفيات الأعيان (٥/ ٢٩٢)، =

وهو ممن جلبنا التاريخ بسببه ممن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ولم يختلف عليه بسبب ذلك أحد.

وكان العزيز بالله قد جعله لنظر أبي الحسن بن علي، وعمار المسمى بأمين الدولة وهو الذي/ دَبَّرَ أمره وأحكم حربه وسلّمه إلى أن استقل، وليته لم يستقل. [٧٥/ب]

فقد كان بلغ من الخرف وسيء السيرة المبالغ التي لا شيء فوقها، إذ فسد فكره، وساء ظنه، فقتل الخدام، والظهراء، والعلماء والقضاة، وجاء بشاعات من التصاريف الغريبة.

قال صاحب سُكره: إن السلطان كان متقلِّباً لأنه كان عنده شجاعة وإقدام وجبن وإحجام، ومحبة للعلم، وانتقام من العلماء، وميل إلى الصلاح وقتل الصلحاء، والغالب عليه السخاء، ويبخل بالقليل... [١] سبع سنين، وأقام سنين يوقد عليه الشمع ليلاً ونهاراً، ثم جلس في الظلام مدة.

وقتل من العلماء ما لا يحصى.

وأمر بسبِّ الصحابة وكتب ذلك على أبواب المساجد والشوارع ثم محاه بعد مدة.

وأمر بقتل الكلاب، ثم نهى عنه.

ونهى عن النجوم، وكان مع ذلك يرصدها.

وبنى جامع القاهرة، وجامع راشدة.

ومنع صلاة التراويح عشر سنين، ثم أباحها وهدَّ قمامة، ثم بنى مكانها، ثم

= العبر (٣/ ١٠٤)، البداية والنهاية (١٢/ ٩)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ٥٦)، خطط المقريزي (١/ ٣٥٤)، النجوم الزاهرة (٤/ ١٧٦)، تاريخ ابن إياس (١/ ٥٠)، شذرات الذهب (٣/ ١٩٢)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٧٣)، وفي ترجمته قال: المهدي، العبيدي، المصري الرافض، بل الإسماعيلي الزنديق المدعي الربوبية. مولده في سنة خمس وسبعين وثلاثمائة. وأقاموه في الملك بعد أبيه، وله إحدى عشرة سنة، فحكى هو قال: ضمني أبي وقبلني وهو عريان، وقال: امضي فالعب، فأنا في عافية، قال: ثم توفي. فأتاني بَرْجَوان وأنا على جُمَّيزة في الدار، فقال: انزل ويحك، الله الله فينا. فنزلت، فوضع العمامة بالجوهر على رأسي، وقبَّل الأرض ثم قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، وخرج بي إلى الناس، فقبّلوا الأرض، وسلّموا عليّ بالخلافة. قلت: وكان شيطاناً مريداً جباراً عنيداً، كثير التلوّن، سفاكاً للدماء خبيث النحلة، عظيم المكر، جوّاداً ممدحاً، له شأن عجيب ونبأ غريب، كان فرعون زمانه، يخترع كل وقت أحكاماً يلزم الرعية بها... وفي الأربعمائة وبعدها كانت الأندلس تغلي بالحروب والقتال على الملك. وأنشأ داراً كبيرة ملأها قيوداً وأغلالاً، وجعل لها سبعة أبواب، وسمّاها جهنم فكان من سخط عليه أسكنه فيها.

(١) طمس في المخطوط.

أعادها كما كانت وبنى المدارس وجعل فيها العلماء والمشايخ ثم قتلهم، وهدمها.

وكانت أحكامه كلها من هذه النسبة، ومنها أنه منع النساء من الخروج إلى الطرقات ليلاً ونهاراً.

قال القاضي شمس الدين بن خلكان: وكانت مدة منعهن سبع سنين، وسبعة أشهر.

ومنها: أنه أمر الناس بغلق الأسواق نهاراً وفتحها ليلاً، فامتثلوا ذلك دهراً طويلاً، حتى اجتاز مرة بشيخ يعمل النجارة، بعد العصر، فوقف عليه وقال: ألم ننهكم عن هذا؟

فقال: يا سيدي أما كان الناس يسهرون لما كانوا يتعيشون بالنهار؟ فهذا من جملة السهر.

فتبسم وتركه، وعاد الناس إلى أمرهم الأول.

قال الشيخ عماد الدين بن كثير: هذا من أحكامه الشنيعة، وأوامره المخالفة للشريعة، وكل هذا تغيير للرسوم، واختبار لطاعة العامة ليرتقي إلى ما هو أطم من ذلك لعنه الله.

ومنها: أنه نهى عن أكل الملوخية، والجرير، وعلل تحريم الملوخية بميل معاوية إليها، وعلل تحريم الجرير بكونه منسوباً إلى عائشة.

وعذره عَسَّرَهُ الله أنحس من ذنبه. ثم أنه اطلع على جماعة أكلوا الملوخية فضربهم بالسياط، وطاف بهم القاهرة، ثم ضرب رقابهم في باب زويلة.

ونهى عن بيع الرطب، ثم جمع منه شيئاً كثيراً وأحرقه، وكان مقدار النفقة على/ إحراقه خمسمائة دينار. [١/٧٦]

ونهى عن بيع العنب، وأنفذ شهوداً إلى الجند حتى قطعوا شيئاً كثيراً من كرومها وردها إلى الأرض.

...[١] وجمع ما كان في مخازنه من جرار العسل وحملت إلى شاطىء النيل، وقلبت في البحر، وكانت خمسة آلاف جرة.

ونهى عن بيع الزبيب قليله وكثيره على اختلاف أنواعه، ونهى التجار عن حمله، ثم جمع بعد ذلك منه جملة كبيرة وأحرقها. ونهى عن بيع السمك الذي لا قشر له، وظفر بمن باعه فقتله.

ومنها: أنه أمر النصارى أن تعلق في أعناقها الصلبان، وأن يكون طول الصليب ذراعاً، ووزنه خمسة أرطال.

---

(١) موضع النقط طمس بالمخطوط.

وأمر اليهود أن يحملوا في أعناقهم قرامى خشب في زنة الصلبان، وأن يلبسوا العمائم، ولا يكتروا من مسلم بهيمة.

ثم أفرد لهم حمامات، وأمرهم أن يدخلوا إليها بالصلبان في أعناقهم.

وأمرهم في وقت بالدخول في الإسلام كرهاً، ثم أذن لهم في العود إلى أديانهم. فارتدّ منهم في سبعة أيام ستة آلاف. وخرّب كنائسهم، ثم أعادها.

ومنها: أنه كان يعاقب بسلب الألقاب حتى أنه يبقي الإنسان إذا غضب مدة طويلة لا يدعى باسمه وهو مع ذلك في حزب حتى يرد عليه لقبه، فيكون عنده البشارة العظيمة.

ومنها: أنه ادعى الربوبية، وكتب له: باسم الحاكم الرحمٰن الرحيم.

واجتمع له كثير من الجهَّال، وبذل لهم المال ونادوه باسم الإلاه.

قلت: وكأن هذه الخاصية، مما انفردت به مصر، قبل[1] ذلك فرعون، وتبعه هذا المحروم الآخر كأنهم شربوا هذا.

قال ابن الجوزي: فصار قوم من الجُهَّال إذ رأوه يقولون: يا واحد، يا أحد، يا محيي، يا مميت.

وصنّف له بعض الباطنية كتاباً ذكر فيه: أن روح آدم انتقلت إلى علي، وأن روح علي انتقلت إلى الحاكم.

وقرىء هذا الكتاب بجامع القاهرة، فقصد الناس قتل مصنّفه، فسَيّره الحاكم إلى جبال الشام، فنزل بوادي التيم، وناحية بانياس، فاستمال الناس وأعطاهم المال وأباح لهم الخمر، والزنى، وأقام عندهم مدّة يدعوهم إلى معتقد الحاكم، فأضلَّ منهم خلقاً كثيراً.

وفي وادي التيم إلى يومنا هذا[2] قرى كثيرة يعتقدون رجوع الحاكم، وأنه لا بد أن يعود، ويمهّد الأرض.

وتلك خيالات فاسدة، وظنون كاذبة، نعوذ بالله منها.

وكانت/ الإسماعيلية يعتقدون أفعاله لأغراض صحيحة استأثر بعلمها، وتفرّد [٧٦/ب]

---

(١) في المخطوط: بعد. وهو سهو. وصدق المثل القائل في مصر: قالوا: يا فرعون إيش فرعنك. قال: ما لقيت حدّ يردني.

(٢) كان هذا في أيام المؤلف رحمنا الله وإياه، أما اليوم فقد أذهب الله تعالى تلك الغمة وكشف تلك الفتنة، نسأل الله تعالى أن يرزقنا وإياكم حسن الاعتقاد وحسن الختام بالموت على دين الله الإسلام الذي جاء به خير الأنام محمد عليه الصلاة والسلام، آمين.

بباب الجامع بمصر، ونزل عن حماره، وأخذ بيد ركابيته، وأرفده، ورشق بطنه بيده، وأخرج مصارينه، وغسل يديه، وتركه ومضى.

وأكثر في وقتٍ من قتل الركبدارية حتى رغبوا أن يخرج لهم من الخزانة سيف ماض فإن السيوف النابية تعذّبهم. وأحرق جماعة من خواصه بالنار.

وكان يأمر بتكفين من يقتله ودفنه، ويلزم أهله بملازمة قبره، والمبيت عنده، وهو مع هذا القتل العظيم والأذى الكثير يركب حماراً وحده، ويمشي في القاهرة تارة، وفي البرية تارة عند جبل المقطم وغيره، والجند على اختلاف طبقاتهم، وتباين أجناسهم ومنهم أتراك، وديلم، ومصامدة، وسودان، وخُدّام، وصقالبة، وروم، وغير ذلك.

وهو فيهم الأسد الضاري بين البقر.

وأقام على ذلك مدة إلى أن ادعى الألوهية، وصرح بالحلول والتناسخ وعَنَّ له أن يحمل الناس على ذلك.

وكان أهل بيته من قبله يعتقدون ذلك ويكتمونه خوفاً من تفرّق الكلمة.

وكان السبب في هلاك الحاكم: أنه أراد قتل أخته سِت الملك وهَمَّ أن يرسل إليها القوابل ليتحقق بكارتها، وقال لبعض قرابتها: سمعت أنكم تجمعون الجموع، ويدخل إليكم الرجال ولا بد لي من قتلِكم أجمعين.

وتكرر هذا القول منه، وعلمت أُخته أنه [يريد أن][1] يقتلها لا محالة لِمَا تحققت من خُبْثِ طويته ومؤاخذته بالصغائر، وإصراره على الكبائر، وصاحب البيت أدرى بالذي فيه.

وكانت من النساء المدبرات، فأخذت في تدبير الحيلة والعمل على قتل أخيها الحاكم، وخرجت ليلاً، وأتت إلى دار الأمير سيف الدولة ابن دوَّاس.

وكان الحاكم قد أقبل على قتله، فدخلت عليه خفية، واختلت به، وعرّفته أنها أخت الحاكم، فعظمها وأكرمها.

فقالت له: أنت تعلم ما يجري من أخي في سفك الدماء وخراب البلاد، وقتل وجوه الدولة، وقد هَمَّ على قتلك وقتلي.

فقال لها: كيف الحيلة في أمره؟

قالت: الرأي عندي أن نجهز له رجالاً يقتلونه عند خروجه إلى حلوان، فإنه ينفرد بنفسه، وأنت تكون المدبّر لدولة ولده، والوزير له.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

واتفقا على ذلك، ومضت إلى قصرها[١].

---

(١) قال الأستاذ عمر رضا كحالة في أعلام النساء (٢/١٦٦) في ترجمة ست الملك بنت العزيز بالله الفاطمي: سيدة جليلة ذات نفوذ وسلطان وسياسة وإدارة ورأي وعقل، أخذت في تدبير الحيلة على قتل أخيها الحاكم بأمر الله لما تمادى في بغيه وتقتيله الأبرياء، ونهبه الدور، واستحيائه النساء الخ... فكانت تنهي الحاكم وتقول: يا أخي احذر أن يكون خراب هذا البيت على يديك. فكان يسمعها غليظ الكلام ويتهددها بالقتل، فبعث إليها يقول: رفع إليّ أصحاب الأخبار أنك تدخلين الرجال إليك، وتمكنينهم من نفسك. وعمل على إنفاذ القوابل لاستبرائها، فعلمت أنها هالكة معه.
وكان بمصر سيف الدولة ابن دَوَّاس، وكان شديد الحذر من الحاكم، فراسلت ست الملك ابن دوَّاس مع بعض خدمها وخواصها، وهي تقول: لي إليك أمر لا بد لي فيه من الاجتماع بك، فإما تنكرت وجئتني ليلاً، أو فعلت أنا ذلك. فقال: أنا عبدك، والأمر لكِ. فتوجهت إليه ليلاً في داره متنكرة، ولم تصحب معها أحداً، فلما دخلت عليه قام إليها، وقبَّل الأرض بين يديها دفعات، ووقف في الخدمة، فأمرته بالجلوس داخل المكان.
فقالت: يا سيف الدولة قد جئت في أمر أحرس به نفسي ونفسك والمسلمين ولك فيه الحظ الأوفر، وأريد مساعدتك فيه. فقال: أنا عبدك، فاستحلفته واستوثقت منه. فقالت له: أنت تعلم ما يقصده أخي فيك، وأنه متى تمكن منك لم يبق عليك وكذا أنا، ونحن على خطر عظيم، وقد انضاف إلى ذلك تظاهره، وبادعائه الإلٰهية، وهتك ناموس الشريعة، وناموس آبائه، وقد زاد جنونه، وأنا خائفة أن يثور المسلمون عليه فيقتلوه ويقتلونا معه، وتنقضي هذه الدولة أقبح انقضاء.
فقال سيف الدولة: صدقت يا مولاتنا، فما الرأي؟ قالت: قتله، ونستريح منه، فإذا تم لنا ذلك أقمنا ولده موضعه، وبذلنا الأموال، وكنت أنت صاحب جيشه، ومدبّره، وشيخ الدولة القائم بأمره، وأنا امرأة من وراء حجاب، وليس غرضي إلاّ السلامة منه وأن أعيش بينكم آمنة من الفضيحة. ثم أقطعته إقطاعات كثيرة، ووعدته بالأموال والخِلَع والمراكب السنية. فقال لها عند ذلك: مري بأمرك.
قالت: أريد عبدين من عبيدك تثق بهما في سِرّك، وتعتمد عليهما في مهمتك. فأحضر عبدين ووصفهما بالشهامة، فاستحلفتهما ووهبت لهما ألف دينار، ودفعت لهما بثياب وإقطاعات وخيل وغير ذلك. وقالت لهما: أريد منكما أن تصعدا غداً إلى الجبل فإنها نوبة الحاكم في الركوب، وهو ينفرد، ولا يبقى معه غير القرافي والرّكابي، وربما ردّهُ، ويدخل الشّعب، وينفرد بنفسه، فاخرجا عليه فاقتلاه، واقتلا القرافي والصبي إن كانا معه. وأعطتهما سكينين من عمل المغاربة، ورجعت إلى القصر، وقد أحكمت الأمر وأتقنته.
فسار الحاكم إلى الشّعب الذي جرت عادته بدخوله وقد كمن العبدان الأسودان له، وقد قرب الصباح، فوثبا عليه وطرحاه أرضاً، فصاح: ويلكما، ما تريدان؟ فقطعا يديه من رأس كتفيه، وشقا جوفه وأخرجا ما فيه، ولفاه في كيس، وحملاه إلى ابن دوّاس. فحمله ابن دَوّاس والعبدين إلى أخته ست الملك. فدفنته في مجلسها، وكتمت أمره، وأطلقت لابن دوّاس والعبدين مالاً كثيراً وثياباً. وأحضرت خطير الملك الوزير، وعرّفته الحال، واستكتمته، واستحلفته على الطاعة والوفاء ورسمت له بمكاتبة ولي العهد، وكان مقيماً بدمشق نيابة عن الحاكم بأن يحضر إلى الباب، فكتب إليه بذلك.
وأنفذت علي بن داود ـ أحد القواد ـ إلى الفَرَما، فقالت له: إذا دخل ولي العهد فاقبض عليه واحمله إلى تنيس. ثم كتبت إلى عامل تنيس عن الحاكم بإنفاذ ما عنده من المال، فأنفذه وهو ألف ألف

[١/٧٧] ولما كانت صبيحة النهار، خرج الحاكم على عادته وانفرد بنفسه/ في المقطم، وكان ابن دوّاس قد أحضر عشرة من العبيد فأعطى كل واحد منهم خمسمائة دينار، وعرّفهم كيف يقتلونه، فسبقوا إلى الجبل. فلما انفرد، خرجوا عليه وقتلوه.

وخرج الناس بعد ذلك لانتظاره على عادتهم ومعهم دواب المركب والنجائب، ففعلوا ذلك سبعة أيام.

ثم خرج مظفر صاحب المظلة ومعه جماعة فبلغوا دير القصير، ثم أمعنوا في

= دينار، وألف ألف درهم خراج ثلاث سنوات. وجاء ولي العهد إلى الفَرَما، فَقُبِضَ عليه وحُمل إلى تنيس. وفقد الناس الحاكم في اليوم الثاني، ومنع أبو عروس من فتح أبواب القاهرة انتظاراً للحاكم على حسب ما أمره به. ثم خرج الناس في اليوم الثالث إلى الصحراء، وقصدوا الجبل، ولم يقفوا له على أثر. وأرسل القواد إلى أخته وسألوها عنه، فقالت: ذكر لي أنه يغيب سبعة أيام، وما هنا إلاّ الخير. فانصرفوا على سكون وطمأنينة.

ولم تزل أُخته ست الملك في هذه الأيام ترتب الأمور، وتفرّق الأموال، وتستحلف الجند. ثم بعثت إلى ابن دوَّاس المذكور، وأمرته أن يستحلف الناس لابن الحاكم كتامة وغيرها، ففعل ذلك. فلما كان في اليوم السابع ألبست أبا الحسن علي بن الحاكم أفخر الملابس، واستدعت ابن دوَّاس، وقالت له: المعول في قيام هذه الدولة عليك، وتدبيرها موكل إليك، وهذا الصبي ولدك، فابذل في خدمته وسعك. فَقَبَّل الأرض، ووعدها بالطاعة.

ووضعت التاج على رأس الصبي، وهو تاج عظيم فيه من الجواهر ما لا يوجد في خزانة خليفة، وهو تاج المعزّ جد أبيه، وأركبته مركباً من مراكب الخليفة، وخرج بين يديه الوزير، وأرباب الدولة. فلما صار إلى باب القصر صاح خطير الملك الوزير: يا عبيد الدولة، مولاتنا السيدة تقول لكم: هذا مولاكم فسلموا عليه، فقبّلوا الأرض بأجمعهم، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل، ولقّبوه الظاهر لإعزاز دين الله. وأقبل الناس أفواجاً فبايعوه وأطلق المال وفرح الناس، وأُقيم العزاء على الحاكم ثلاثة أيام.

وفي رواية للقضاعي أنه قال بعدما ساق سبب قتله: ثم أمرت ست الملك بخلع عظيمة ومال كثير ومراكب ذهب وفضة للأعيان، وأمرت ابن دوَّاس أن يشاهدها في الخزانة، وقالت: غداً نخلع عليك. فقبّل ابن طولون الأرض، وفرح، وأصبح من الغد، فجلس عند الستر ينتظر الإذن حتى يأمر وينهي. وكان للحاكم مائة عبد يختصون بركابه ويحملون السيوف بين يديه، ويقتلون من يأمر بقتله. فبعثت بهم ست الملك إلى ابن دوَّاس، ليكونوا في خدمته.

فجاؤوا في هذا اليوم ووقفوا بين يديه. فقالت ست الملك لنسيم صاحب الستر: اخرج وقف بين يدي ابن دوَّاس، وقل للعبيد: يا عبيد، مولاتنا تقول لكم: هذا قاتل مولانا الحاكم فاقتلوه. فخرج نسيم فقال لهم ذلك، فمالوا على ابن دوّاس بالسيوف فقطعوه وقتلوا العبدين الذين قتلا الحاكم، وكل من اطلع على سِرها قتلته، فقامت لها الهيبة في قلوب الناس. وقال ابن الصابىء: لما قتلت ست الملك ابن دواس قتلت الوزير الخطير، ومن كانت تخاف منه ممن عرف بأمرها. وملك الظاهر لإعزاز دين الله سائر ممالك والده مثل: الشام، والثغور، وإفريقية، وقامت عمته ست الملك بتدبير مملكته أحسن قيام، وبذلت العطاء في الجند، وساست الناس أحسن سياسة. وتوفيت ست الملك سنة (٤١٥هـ).

الدخول في الجبل، فبينما هم كذلك إذ بصروا حماره الأشهب المدعو بالقَمر، وقد قطعت يداه وعليه سَرْجُهُ ولجامه فتبعوا أثر الحمار إلى أن انتهوا إلى المقصبة التي في شرق حلوان فنزل رجل إليه فوجد فيها ثيابه، وهي سبع جبات مروزية لم تحل أزرارها وفيها آثار السكاكين، فلم يشكّوا في قتله.

وذلك في شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة.

وفي جبل الشام خلق كثير من المتغالين في حُبّه، الحمقى يعتقدون حياته، وأنه لا بد أن يظهر، ويحلفون بغيبة الحاكم.

وولي بعده ولده أبو الحسن الظاهر.

وكان على عهد ولاية الحاكم بإفريقية، ومصر، والحجاز جملة من الأعلام وأصحاب مالك الإمام، وصدور الإسلام، منهم:

الإمام أبو محمد بن أبي زيد صاحب كتاب الرسالة والنوادر الفقهية الشهير.

وعبد الحي بن أبي سعيد المفتي بعده، صاحب الوثائق.

وميسرة بن مسلم بن ربيعة الحضرمي، رَحَلَ الناس إليه من الأقطار، وسمع من النسائي والبغوي.

وابن عبد الله بن الرشي أخذ عن البغوي، والطبري، وابن شعبان، وأخذ عنه أبو عمران العباسي، وهو الذي حبس مع السباع فلم تضره ولا عدت عليه.

ورجاء بن عيسى بن محمد الأنصاري، أخذ عن حمزة الحافظ، وأبي العباس الرّازي، وابن رشيق.

وأبو الحسن علي بن محمد بن خلف أبو الحسن القابسي المعروف الفضل والعلم، صاحب الملخص.

وأبو جعفر بن نصر الداودي من المالكية.

وأبو علي بن خلدون من أصحاب أبي الحسن القابسي.

وخلف بن مسعود الرعيني من أهل الدراية والعلم.

والقاضي عبد الوهاب إمام المذهب عند المشارقة، لقي الأبهري، وتفقّه على أصحابه، وله الكتب التي من جملتها التلقين والمعونة.

وأبو بكر بن عبد الرحمن الخولاني.

وأبو عمر الفاسي الفقيه المشهور.

وأبو القاسم بن عبد الرحمن الليدي.

والولي أبو إسحاق الحينياني صاحب الكرامات والولاية.

وأبو القاسم البرادعي صاحب كتاب التهذيب.

[٧٧/ب] ومحمد بن العابد الشهير من أهل/ إفريقية.

دولة الظاهر بن الحاكم(١)

واسمه: علي بن منصور.

وكنيته: أبو الحسن. وقيل: أبو الأشبال. ولقّب أول أمره: الملك القاهر.

فقال له الصاحب زين الدين: ما لُقِّب أحد بهذا اللقب فأفلح.

لقّب به القاهر بن المعتصم فلم تطل أيامه، وخلع ثم سمل.

ولقب به القاهر صاحب الموصل فسُمّ ولم تطل أيامه.

فترك اللقب المذكور، وتلقّب بالظاهر.

وحَطَّ المظالم يوم ولايته، وسَرَّح من بالسجون ليطمس على سيرة أبيه.

وهُزِمَ في أيامه أبو زكوي الخارجي، وأُدخل القاهرة على جمل، فقُتِلَ بها.

وتوفي الظاهر يوم الجمعة الرابع لشعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة.

وولي بعده ولده معد أبو تميم المستنصر.

دولة المستنصر بن الظاهر(٢)

استوثق له الأمر، وعَلا صيته، وطال عمره.

---

(١) من مصادر ترجمته: المنتظم (٨/ ٩٠)، وفيات الأعيان (٣/ ٤٠٧)، العبر (٣/ ١٦٣)، البداية والنهاية (١٢/ ٣٩)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ٦١)، خطط المقريزي (١/ ٣٥٤)، النجوم الزاهرة (٤/ ٢٤٧)، تاريخ ابن إياس (١/ ٥٨)، شذرات الذهب (٣/ ٢٣١)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٨٤)، وقال في ترجمته فيها:

صاحب مصر الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن علي بن الحاكم منصور بن العزيز نزار بن المعز، العبيدي المصري، ولا أستحلّ أن أقول: العلوي الفاطمي، لما وقر في نفسي أنه دعيّ. وقيل: يكنى أبا هاشم. بويع وهو صبي لما قتل أبوه في شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة. وكانت دولته على مصر والشام والمغرب، ولكن طمع في أطراف بلاده، طوائف، فتقلّب حسان بن مفرج الطائي صاحب الرملة على كثير من الشام وضعُفَت الإمارة العبيدية قليلاً... ومات الظاهر في سنة سبع وعشرين وأربعمائة، ولم يبلغني كثير شيء من أخباره... وقيل: كان غارقاً في اللهو والمُسكر والسراري.

(٢) من مصادر ترجمته: العبر (٣/ ٣١٨)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٨٦)، الكامل في التاريخ من أحداث سنة (٤٢٧ : ٥٠٠)، وفيات الأعيان (٥/ ٢٢٩)، البداية والنهاية (١٢/ ١٤٨)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ٦٢)، خطط المقريزي (١/ ٣٥٥)، النجوم الزاهرة (٥/ ١)، تاريخ ابن إياس (١/ ٥٩)، شذرات الذهب (٣/ ٣٨٢).

وعلى عهده خلع أبو تميم المُعز من ملوك صنهاجة طاعته دولة العبيديين، وخطب للقائم العباسي، ولعن العبيدية بالمساجد. ولما بلغه ذلك عظم عليه وأحزنه.

فدخل عليه وزيره الجرجرائي، وكان من أهل الدهاء، فقال له: ما أهمك يا أمير المؤمنين؟

وكيف لا أهتم، وقد خسف ملكنا بإفريقية، والمغرب، وقتل المسلمون بالقيروان وخطب لعدونا على منابرنا!

فقال: لا عليك، جوّز لهم العرب الجائعة من هلال، وزغبة، ورباح ـ وكانوا ما بين النيل والبحر ـ.

فكتب إليهم المستنصر، وخاطبهم وخلع على وجوههم، وقال لهم: قد أعطيتكم إفريقية والمغرب بأسره، وجميع ما تملك المعز بن باديس الصنهاجي العبد الآبق، فلا تفتقرون أبداً.

فطمعت العرب، وخرجوا قاصدين إلى القيروان كالجراد، لا يمرون بشيء إلاّ أهلكوه.

ولقيهم المعز بن باديس، فكانت عليه الهزيمة ولم يستقل بهم العثرة ذلك الوطن إلى الآن.

وتوفي المستنصر منسلخ ذي الحجة من عام خمسمائة. فكانت خلافته ثلاثاً وسبعين سنة وأشهر.

وكان يُدْعى ذو العمرين، وبلغ عمره نيفاً وتسعين سنة، وهو من الغريب في أعمار الملوك.

وولي بعده ولده المستعلي بأمر الله.

دولة المستعلي بأمر الله(١)

/ وهو أحمد. وقيل: نزار بن المستنصر معد بن الظاهر بن الحاكم. [٧٨/أ]

= قال ابن الأثير في الكامل في التاريخ في أحداث سنة سبع وعشرين وأربعمائة في ذكر وفاة الظاهر وولاية ابنه المستنصر: مولده بالقاهرة سنة عشر وأربعمائة، وفي أيامه كانت قصة البساسيري. وخطب له ببغداد سنة خمسين وأربعمائة، وكان الحاكم في دولته بدر بن عبد الله الجمال الملقب بالأفضل أمير الجيوش. وكان عادلاً حسن السيرة.
وفي سنة (٤٧٩) وصل الحسن بن الصباح الإسماعيلي في زيّ تاجر إلى المستنصر بالله وخاطبه في إقامته الدعوة له بخراسان وبلاد العجم، فأذن له في ذلك، فعاد ودعا إليه سرّاً وقال للمستنصر: من إمامي بعدك؟ قال: ابني نزار. والإسماعيلية يعتقدون إمامة نزار، وسيرد كيف صُرف الأمر عنه سنة (٤٨٧) إن شاء الله تعالى (أي في الكامل).

(١) من مصادر ترجمته: الكامل في التاريخ سنة (٤٨٧ : ٥٠٨)، وفيات الأعيان (١/ ١٧٨)، العبر (٣/

بويع في اليوم الذي توفي فيه أبوه.

وكان سيىء التدبير.

وخملت الدعوة على عهده، وضعُف أمر العُبيدية واشتد كلب النصارى على الشام، فاستولوا على بيت المقدس، وسواحل الشام، والجزائر.

وتوفي المستعلي في السادس والعشرين لذي الحجة سنة ثمان وخمسمائة.

وولي بعده ابنه الآمر.

دولة الآمر بن المستعلي[(١)]

واسمه: حسان. وقيل: نزار.

= ٣٤١)، البداية والنهاية (١٢/ ١٦٢)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٦٢)، خطط المقريزي (١/ ٣٥٦)، النجوم الزاهرة (٥/ ١٤٢)، تاريخ ابن إياس (١/ ٦٢)، شذرات الذهب (٣/ ٤٠٢)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٩٦). وقال في ترجمته:

قام بعد أبيه سنة (٤٨٧)، وله إحدى وعشرون سنة. وفي أيامه وهت الدولة العبيدية، واختلّت قواعدها، وانقطعت الدعوة لهم من أكثر مدائن الشام، واستولى عليها الفرنج وغيرهم من الغُزّ. فأخذت الفرنج إنطاكية من المسلمين في سنة إحدى وتسعين، وكانت لها في يد المسلمين نحو عشرين سنة، وأخذوا بيت المقدس، واستباحوه، وأخذوا أيضاً المعرَّة في سنة اثنتين وتسعين، ثم استولوا على مدائن وقلاع. وما كان للمستعْلي مع أمير الجيوش حلّ ولا ربط.

وهرب في دولته أخوه نزار المنسوب إليه الدعوة النزارية الإسماعيلية بالألموت وبقلاع الإسماعيلية، فوصل نزار إلى الإسكندرية وقام بأمره الأمير أفتكين، وقاضي البلد ابن عمار، وبايعوه، وأقام سنة، فأقبل الأفضل أمير الجيوش في سنة ثمان وثمانين، وحاصرهم، فبرز إليه أفتكين فبيّته وهزمه. ثم أقبل ونازله ثانية، وافتتح البلد عنوة، فقتل القاضي وجماعة، وقبض على نزار وأفتكين، ثم ذبح أفتكين، وبنى المستعلي على أخيه نزار حائطاً فهلك.

وفي دولته كثرت الباطنية الملاحدة الذين هم الإسماعيلية، وأخذوا القفول، وتملّكوا قلعة أصبهان، وفتكوا بعدد كثير من الكباء والعلماء. وشرعوا في شغل السكين، وخرّت لهم خطوب وعجائب.

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٩٧)، وفيات الأعيان (٥/ ٢٩٩)، العبر (٤/ ٦٢)، البداية والنهاية (١٢/ ٢٠٠)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ٦٨)، خطط المقريزي (١/ ٣٥٧)، النجوم الزاهرة (٥/ ١٧٠)، تاريخ ابن إياس (١/ ٦٢)، شذرات الذهب (٤/ ٧٢).

قال الذهبي في ترجمته في سير الأعلام: الآمر بأحكام الله، صاحب مصر، أبو علي منصور بن المستعلي أحمد بن المستنصر معد بن الظاهر بن الحاكم العبيدي، المصري، الرافضي، الظَّلُوم. كان متظاهراً بالمكر، واللهو، والجبروت. ولي وهو صغير، فلما كبر قتل الأفضل أمير الجيوش، واصطفى أمواله، وكانت تفوت الإحصاء، ويضرب بها المثل، فاستوزر بعده المأمون محمد بن مختار البطائحي، فَعَسَفَ الرعية، وتمرّد، فاستأصله الآمر بعد أربع سنين، ثم صلبه، وقتل معه خمسة من إخوته. وفي دولته أخذ الفرنج طرابلس الشام، وصيدا، ثم قصد الملك بردويل الفرنجي ديار مصر، فأخذ الفَرَما ـ وهي قريبة من العريش ـ فأحرق جامعها ومساجدها، وقتل وأسر. =

وقتله طائفة من الحشيشية بمصر وثبوا عليه في بعض الأزقة، فكمنوا في فرن بطريقه، وتعلقوا به واستعلى أحدهم على كفل دابته وقتلوه، وقتلوا جميعاً في الحال.

وولي بعده الحافظ عبد المجيد.

وكانت وفاته سنة أربع وعشرين وخمسمائة.

دولة الحافظ بأحكام الله[1]

واسمه عبد المجيد.

= وقيل: بل هي غربي قطيا. ثم رجع فهلك في سبخة بردويل فشقوه ورموا حُشوته وصَبَّروه، فحشوته ترجم هناك إلى اليوم. ودفنوه بقمامة، وكان قد أخذ القدس، وعكا، والحصون. وفي أيامه ظهر ابن تُوْمَرْت بالمغرب وكثرت أتباعه، وعسكروا وقاتلوا، وملكوا البلاد. وبقي الآمر في الملك تسعاً وعشرين سنة، وتسعة أشهر إلى أن خرج يوماً إلى ظاهر القاهرة، وعدى على الجسر إلى الجيزة، فكمن له رجال في السلاح، ثم نزلوا عليه بأسيافهم، وكان في طائفة ليست بكثيرة، فرُدَّ إلى القصر مثخناً بالجراح، وهلك من غير عَقِب.

وكان العاشر من الخلفاء الباطنية، فبايعوا ابن عمٍّ له هو الحافظ لدين الله. وكان الآمر ربعة شديد الأُدمة، جاحظ العينين، وكان حسن الحظ جيد العقل والمعرفة، لكنه خبيث المعتقد، سفاكاً للدماء، متمرّداً جبّاراً، فاحشاً فاسقاً، صادر الخلق، عاش خمساً وثلاثين سنة. وانقلع في ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة، وبويع وله خمسة أعوام.

(١) من مصادر ترجمته: الكامل في التاريخ من سنة (٥٢٤ : ٥٢٦)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٩٩)، وفيات الأعيان (٣/ ٢٣٥)، العبر (٤/ ١٢٢)، البداية والنهاية (١٢/ ٢٢٦)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ٧١)، خطط المقريزي (١/ ٣٥٧)، النجوم الزاهرة (٥/ ٢٣٧)، تاريخ ابن إياس (١/ ٦٤)، شذرات الذهب (٤/ ١٣٨)، وقال الذهبي في السير في ترجمته:

الحافظ لدين الله صاحب مصر أبو الميمون عبد المجيد ابن الأمير محمد بن المستنصر بالله، معد بن الظاهر علي بن الحاكم بن العزيز بن المعز العبيدي الإسماعيلي المصري. بايعوه يوم مصرع ابن عمه الآمر ليدبِّر المملكة إلى أن يولد حَمْلٌ للآمر إن ولد. وغلب على الأمور أمير الجيوش أبو علي بن الأفضل بن بدر الجمال. وكان الآمر قد سجنه عندما قتل أباه، فأخرجت الأمراء أبا علي وقدّموه عليهم، فأتى إلى القصر، وأمر ونهى، وبقي الحافظ معه منقهوراً، فقام أبو علي بالملك أتم قيام، وعَدَلَ في الرعية، وردَّ أموالاً كثيرة على المصادرين، ووقف عند مذهب الشيعة، وتمسك بالاثني عشر، وترك ما تقوله الإسماعيلية، وأعرض عن الحافظ وآل بيته، ودعا على منابر مصر للمنتصر صاحب السرداب على زعمهم، وكتب اسمه على السّكة، واستمر على ذلك، وقلقت الدولة إلى أن شدَّ عليه فارس من الخاصة فقتله بظاهر القاهرة في المحرّم سنة ست وعشرين وخمسمائة وذلك بتدبير الحافظ.

فبادره الأمراء إلى خدمة الحافظ، وأخرجوه من الضيق والاعتقال وجددوا بيعته، واستقل بالمُلك. وكان مولده في الغربة بسبب القحط سنة سبع وستين وأربعمائة بعسقلان. وعندما مات الآمر قبله قال الجُهال: هذا بيت لا يموت إمام منهم حتى يخلف ابناً ينص على إمامته، فخلف الآمر حملاً فكان بنتاً. وكان الحافظ يعتريه القولنج، فعمل له شيرمان الديلمي طبلاً مركباً من سبعة معادن في

من بيت القوم، ولم يكن أبوه بخليفة، وإنما قُدِّمَ ليحفظ الأمر على من في بطن جواري الآمر.

ولما لم يظهر الحمل استقل بالمُلك. وفي أيامه ابتدأت أيام المُوحدين بالمغرب وأخذت دولة العُبيديين في الانتقاض.

وولي بعده الظافر ولده.

دولة الظافر ابن الحافظ(١)

واسمه يوسف بن عبد المجيد الحافظ.

= شرف الكواكب السبعة، فكان من ضربه وبه قولنج أنفس منه ريح كثير، فوجد راحة. فوجده السلطان صلاح الدين في خزائنه فضرب به أمير كردي فضرط، فغضب وشقه ولم يعلم منفعته.
وكان الحافظ كلما أقام وزيراً تمكن وحكم عليه، فيتألم ويتحيّل عليه، ويعمل على هلاكه، منهم: رضوان فسجنه سبع سنين، وكان قد قدم الشام، وجمع جموعاً وقاتل المصريين وقاتلهم على باب القاهرة، وانتصر، ثم دخلها، فاعتقله الحافظ عنده معززاً في القصر، ثم نقب الحبس، وراح إلى الصعيد، وأقبل بجمع عظيم، وحارب، فكان الملتقى عند جامع ابن طولون، فانتصر وتملّك فبعث إليه الحافظ بعشرين ألف دينار ورسم الوزارة، فما رضي حتى كَمَّلَ له ستين ألفاً، ثم بعث إليه عدّة من المماليك، فقاتلهم غلمانه وهو. فقتل، وبقي الحافظ بلا وزير عشر سنين، ولما قُتل الأكمل أقام في الوزارة يأنس مولاه فكبر يأنس وتعدى طوزه فسقي.
ثم وزر له ولده الحسن، فكان شرّ وزير، تمرّد وطغى، وقتل أربعين أميراً إلا أنه كان فيه تسنن، فخافه أبوه وجهّز له عسكراً فتحاربوا أياماً، ثم سقاه أبوه. وقد امتدت أيامه، ومات في خامس جمادى الأولى سنة أربع وأربعين وخمسمائة، فكانت دولته عشرين سنة سوى خمسة أشهر. وعاش سبعاً وسبعين سنة. قلّما بلغ أحد هذا السن من العبيدية.

(١) من مصادر ترجمته: الكامل في التاريخ من أحداث سنة (٥٢٤ : ٥٤٩)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٠٢)، وفيات الأعيان (١/ ٢٣٧)، العبر (٤/ ١٣٦)، البداية والنهاية (١٢/ ٢٣١)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ٧٣)، خطط المقريزي (٢/ ٣٠)، النجوم الزاهرة (٥/ ٢٨٨)، تاريخ ابن إياس (١/ ٦٥)، شذرات الذهب (٤/ ١٥٢).
قال الذهبي في سير الأعلام في ترجمته: صاحب مصر الظافر بالله أبو منصور إسماعيل... العبيدي، المصري، الإسماعيلي من العبيدية الخارجين على بني العباس. ولي الأمر بعد أبيه خمسة أعوام، وكان شاباً جميلاً وسيماً، لعّاباً، عاكفاً على الأغاني والسَّراري. استوزر الأفضل سليم بن مصال، فساس الإقليم. وانقطعت دعوته ودعوة أبيه من سائر الشام والمغرب والحرمين، وبقي لهم إقليم مصر.
ثم خرج على ابن مَصَال العادل بن السلار وحاربه وظفر به، واستأصله، واستبدّ بالأمر. وكان ابن مصال من أجلّ الأمراء، هزمه عسكر ابن السلار بدَلاص، وأتوا برأسه على قناة، وكان علي بن السَلار من أمراء الأكراد، ومن الأبطال المشهورين سُنّيّاً مسلماً حسن المعتقد شافعياً. خَمَدَ بولايته نائرة الرفض، وقد ولّي أولاً الثغر مدة، واحترم السلفي، وأنشأ له المدرسة العادلية. إلا أنه ذا سطوة وعَسف، وأخذ على التهمة. ضرب مرة دُقّاً ومسماراً على دماغ الموفق متولي الديوان لكونه في =

وكنيته أبو المنصور، وقيل: أبو تميم.

بُويع سنة أربع وعشرين وخمسمائة. وقتل في قصره غِيلة، أصبح به مقتولاً بفراشه.

وقيل: قتل في سبيل لعب مجافة.

والله أعلم بذلك.

وكان سنّه يوم بويع سِنَ الصغير، وهو من المشترط ذكره فيمن لم يبلغ الاحتلام.

وولي بعده الفائز ابنه.

دولة الفائز بن الظافر (١)

واسمه محمد بن الظافر ابن الحافظ.

= أوائل عمره شكى إليه غرامة لزمته في ولايته فقال: كلامك ما يدخل في أذني. فبقي كلما دخل المسمار في أذنه يستغيث. فيقول: أدخل كلامي بعد في أذنك.

وقدم من إفريقية عباس بن أبي الفتوح ابن الملك يحيى بن تميم بن المعز بن باديس مع أمه صبياً، فتزوج العادل بها قبل الوزارة، فتزوج عباس وولد له نصر، فأحبه العادل، ثم جهز أباه للغزو، فلما نزل ببلبيس ذاكره ابن منقذ، وكرها البيكار، فاتفقا على قتل العادل، وأن يأخذ عباس منصبه، فذبح نصر العادل في المحرم سنة خمسمائة وثمان وأربعين فتملك عباس وتمكّن.

وكان ابن نصر من الملاح، فمال إليه الظافر وأحبه، واتفق هو وأبوه عباس على الفتك بالظافر، ودعاه نصر إلى دارهم ليأتي متخفياً، فجاء إلى الدار التي هي اليوم المدرسة السيوفية، فشد نصر عليه فقتله وطمره في الدار، وذلك في المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة. فقيل: كان في نصفه، وعاش الظافر اثنتين وعشرين سنة. ثم ركب عباس من الغد، وأتى القصر، وقال: أين مولانا؟ فطلبوه، ففقدوه، وخرج جبريل ويوسف أخوا الظافر، فقالا: أين مولانا؟ قالا: سلْ ابنك. فغضب وقال: أنتما قتلتماه، وضرب رقابهما في الحال.

(١) من مصادر ترجمته: الكامل في التاريخ من أحداث سنة (٥٤٩ : ٥٥٠)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٠٥)، وفيات الأعيان (٣/ ٤٩١)، العبر (٤/ ١٥٦)، البداية والنهاية (١٢/ ٢٤٢)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ٧٥)، خطط المقريزي (١/ ٣٥٧)، النجوم الزاهرة (٥/ ٣٠٦)، تاريخ ابن إياس (١/ ٦٦)، شذرات الذهب (٤/ ١٧٥).

وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء: أن اسمه عيسى، فقال: الفائز بالله صاحب مصر أبو القاسم عيسى بن الظافر إسماعيل ابن الحافظ عبد المجيد بن محمد بن المستنصر بالله، العبيدي، المصري، لما اغتال عباس الوزير الظافر أظهر القلق ولم يكن علم أهل القصر بمقتله فطلبوه في دور الحُرَم فما وجدوه، وفتشوا عليه وأيسوا منه. وقال عباس لأخويه: أنتما اللذان قتلتما خليفتنا. فأصرا على الإنكار، فقتلهما نفياً للتهمة عنه واستدعى في الحال عيسى هذا ـ وهو طفل له خمس سنين ـ وقيل: بل سنتان. فحمله على كتفه، ووقف باكياً كئيباً، وأمر بأن تدخل الأمراء، فدخلوا. فقال: هذا ولد مولاكم، وقد قُتل عمّاه مولاكم، فقتلتهما به كما ترون، والواجب إخلاص النية

وكنيته أبو الحسن.

وتوفي في السابع عشر جمادى الآخرة سنة خمسين وخمسمائة.

وولي بعده أخوه إسماعيل بن الظافر، الملقب بالعاضد.

دولة العاضد بن الظافر(١)

وكنيته أبو نزار.

= والطاعة لهذا الولد. فقالوا كلهم: سمعاً وطاعة، وضجوا ضجة قوية بذلك ففزع الطفل، وبال على كتف الملك عباس. ولقبّوه الفائز.

وبعثوا إلى أمه، واختلّ عقله من حينئذ، وسار يتحرك ويصرع، ودانت الممالك لعباس. وأما أهل القصر، فاطلعوا على باطن القضية وأقاموا المآتم على الثلاثة، وتحيلوا، وكاتبوا طلائع بن رُزّيك الأرمني الرافض والي المنية، وكان ذا شهامة وإقدام، فسألوه الغوث، وقطعوا شعور النساء والأولاد، وسيّروها في طيّ الكتاب سَخَّمُوه، فلما تأمله اطلع من حوله من الجند عليه وبكوا. ولبس الحداد، واستمال عرب الصعيد وجمع وحشد، وكاتب أمراء القاهرة وهيّجهم على طلب الثأر، فأجابوه. فسار إلى القاهرة، فبادر إلى ركابه جمهور الجيش وبقي عباس في عسكر قليل، فخارت قواه وهرب هو وابنه نصر، ومماليكه، والأمير ابن منقذ.

ونقل ابن الأثير: أن أسامة هو الذي حسَّن لعباس وابنه اغتيال الظافر وقتل العادل. وقيل: إن الظافر أقطع نصر بن عباس قليوب. فقال أسامة: ما هي في مهرك كثير. ثم قصد عباس الشام من ناحية أيلة في ربيع الأول، فما كانت أيامه بعد قتل الظافر إلاّ يسيرة. واستولى الصالح طلائع بن رُزيك على ديار مصر بلا ضربة، ولا طعنة، فنزل إلى دار عباس، وطلب الخادم الصغير الذي كان مع الظاهر، وسأله عن المكان الذي دفن فيه أستاذه، فأعلمه، فقلع بلاطه، وأخرج الظافر، ومن معه من القتلى، وحملوا ناحوا عليهم، وتكفل طلائع بالفائز، ودبَّر الدولة.

وجهزت أخت الظافر رسلاً إلى الفرنج بعسقلان، وبذلت لهم مالاً عظيماً إن أسروا لها عباساً وابنه. فخرجوا عليه، فالتقاهم، فَقُتِلَ في الوقعة، وأُخذت خزائنه، وأسروا ابنه نصراً، وبعثوه إليها في قفص حديد، فلما وصل، قبض رسولهم المال. وذلك في ربيع الأول سنة خمسين. فقطعت يد نصر، وضرب بالمقارع كثيراً، وقُصّ لحمه، ثم صلب، فمات، فبقي معلقاً شهوراً، ثم أُحرق. وقيل: تسلمه نساء الظافر، فضربنه بالقباقيب وأطعمنه لحمه. مات الفائز في رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وله نحو من عشرين سنة، وبايعوا العاضد.

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٠٧)، الكامل في التاريخ من حوادث سنة (٥٥٥هـ)، وفيات الأعيان (٣/ ١٠٩)، العبر (٤/ ١٩٧)، البداية والنهاية (١٢/ ٢٦٤)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ٧٦)، خطط المقريزي (١/ ٣٥٧)، شذرات الذهب (٤/ ٢١٩)، النجوم الزاهرة (٥/ ٣٣٤)، تاريخ ابن إياس (١/ ٦٧).

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: صاحب مصر العاضد لدين الله خاتم الدولة العبيدية أبو محمد عبد الله ابن الأمير يوسف ابن الحافظ لدين الله عبد المجيد بن محمد بن المستنصر، العبيدي، الحاكمي، المصري، الإسماعيلي، المدّعي هو وأجداده أنهم فاطميون. مولده سنة ست وأربعين وخمسمائة. أقامه طلائع بن رُزيك بعد الفائز، فكان من تحت حِجْرِه لا حل لديه ولا ربط. وكان =

وهو آخر ملوك بني عبيد بالشام، ومصر، والحجاز في أيام/ العاضد هذا. [٧٨/ب]

وفي سنة أربع وخمسين وخمسمائة في جمادى الآخرة منها ظهرت النار بأرض الحجاز.

قال الشيخ الإمام الحافظ شيخ الحديث وإمام المؤرخين في زمانه شهاب الدين الملقب بأبي شامة في تاريخه: ظهرت في التاريخ المذكور، واستمرت شهراً وأزيد منه، وذكر كُتباً متوافرة عن أهل المدينة من ناحية. . .[١] تلقاء أُحُدٍ وإنها ملأت تلك الأودية، وكان يخرج منها شرر يأكل الحجارة. وذكر أن المدينة زلزلت بسببها، وأنهم سمعوا أصواتاً مزعجة قبل ظهورها بخمسة أيام، ثم انبجست تلك الأرض عن نار عظيمة صارت مثل الوادي العظيم طولها أربعة فراسخ في عرض أربعة أميال، والعمق قامة ونصف، تُسِيل الصخر حتى يبقى مثل الأُنُكِ، ثم يصير كالفحم الأسود.

وذكر أن من الناس من كتب لضوئها في الليل.

وكأن في كل بيت منها مصباحاً.

ورأى الناس سنامها من مكة.

قال شهاب الدين: وإن أهل المدينة لجؤوا في هذه الأيام إلى المسجد النبوي، وتابوا إلى الله تعالى، واستغفروا عند قبر النبي ﷺ مما سلف من ذنوبهم، وأعتقوا عبيدهم وتصدّقوا على فقرائهم.

وكانت وفاة العاضد يوم السبت العاشر من محرم سنة ست وسبعين وخمسمائة.

ومن غرائب أخبار الألقاب والكنى أن ملوك العبيدية بمصر أول دولتهم طلبوا من بعض الفضلاء أن يرسم لهم ألقاباً يلقّبون بها الملوك، فكتب لهم ألقاباً كثيرة، كان آخر ما كتب منها العاضد، فكان آخر ملوكهم العاضد.

= العاضد سَبّاباً خبيثاً مُتَخلّفاً. . . قال أبو شامة: . . . أن نسبهم غير صحيح بل المعروف أنهم بنو عبيد من نسل القدّاح المجوسي الملحد. قال: وقيل: والده يهودي من أهل سلمية. وعُبيد كان اسمه سعيداً، فغيّره بعُبيد الله لما دخل إلى المغرب، وادعى نسباً ذكر بطلانه جماعة من علماء الأنساب. ثم ترقّى وتملّك، وبنى المهدية.

قال: وكان زنديقاً خبيثاً، ونشأت ذريته على ذلك. وبقي هذا البلاء على الإسلام من أول دولتهم إلى آخرها. قلت: وكانت دولتهم مائتي عام وثمانياً وستين سنة، وقد صنف القاضي أبو بكر الباقلاني كتاب (كشف الأسرار الباطنية) فافتتحه ببطلان نسبهم إلى الإمام علي.

(١) طمس بالمخطوط.

ذكر المماليك من الغز والأتراك
الذين اتصلّت أيامهم من بعد الشيعة إلى عهدنا

ولما ضعف أمر العبيديين من ملوك الشيعة بمصر والشام إلى عهدنا، وعجزوا عن ضبط الأطراف، وتملّكت الروم البلاد الشامية، وعظم احتياجهم إلى المال، فأجحفوا بالناس في الضرائب والمكوس والمظالم، خرج ملك ما بقي من الشام من أيديهم.

فكان أول من ملك مدن الشام من الأعاجم بعد ملوك الدولة السلجوقية وبني طولون، وبني طغج الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمد بن زنكي. وقد/ [٧٩/أ] كانت الروم استولت على كثير من بلاد الشام.

أما الساحل فبجملته أو أكثره من عكا، وصور، وبيروت، وعسقلان، وما اتصل بذلك.

وأما البر فكثير من جُملته بيت المقدس.

ولم يبق بين دمشق وبين بلاد الروم إلا مسيرة يوم.

وبدل النصارى في. . .[١] بالناس والاقتناع بالمغانم اليسيرة، وإفساد العدل في الأحكام ما عظمت له الفتنة، وانقطعت الطريق من مصر إلى بلاد الشام، فكانت على بعض طريق الحجاز من عقبة أيلة. . .[١] وذلك على عهد الفائز، والظافر من العبيدية وعلى عهد المستنجد وابنه من العباسية. فضبط البلاد الشامية لهذا العهد هؤلاء المماليك من أمراء الغز والأتراك. وكان أطهرهم في عنفوان كلب العدو على الشام، وطلبه في الاستيلاء على بلاد المسلمينْ الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي.

دولة الملك العادل محمود[٢]

كان هذا الملك العادل ذا جد في الجهاد وحماية الثغور.

---

(١) كلمة مطموسة في المخطوط.

(٢) من مصادر ترجمته: المنتظم (١٠/ ٢٤٨)، الكامل في التاريخ من سنة (٥٤٢ : ٥٦٩)، سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٥٣١)، وفيات الأعيان (٥/ ١٨٤)، مفرّج الكروب (١/ ١٠٩)، العبر (٤/ ٢٠٨)، دول =

وكان دار ملكه بدمشق.

وهو الذي خدمه العماد الأصفهاني قبل اتصاله بصلاح الدين يوسف بن أيوب.

وفيه يقول يمدحه بقصيدته التي أولها:

لو حُفظت يوم النوى عُهُودها ... ما مُطلت بوصلكم وُعُودُها

ماذا جنت قلوبها حتى غدا ... في الناس من شوقكم خُلودُها

وما يراد من ردايا أنفسٍ ... يَدُ الهوى إلى الجوى تقودها

أما كفاها الوجد حتى حملت ... أعباء شوق بعدكم تؤدها

أما اشتفى منها الفراق واكتفى ... بما بها علام يستزيدها

ومنها في ذكر السلطان نور الدين:

وإنما يُحمد عيش بلدةٍ ... مالكها بعدله محمودها

معطي المذاكي ضمرت بطونها ... مع السبايا نهدت نهودها

مؤيد أموره بعزمةٍ ... من السماوات العُلى تأييدها

آثاره حميدة وإنما ... آراؤه بنصره عقيدها

/ إن الورى بحبه وبغضه ... يعرف من شقيِّها سعيدها [٧٩/ب]

قد جاءكم نور من اللّه فمن ... به اهتدى فإنه رشيدها

وقوله وقد افتتح بلاداً وقلاعاً من جملتها الرّها:

أدركت في نيل الزمان المشتهى ... وبلغت من قبل الأماني المنتهى

وبقيت في كنف السلامة آمناً ... مُتكرّماً بالطبع لا مُتكرها

لا زلت فوق الدين في كنف العلى ... ذا عزة للعالمين بها البها

يا محيي العدل الذي في ظلّه ... في عدله رعت الأسود مع المها

= الإسلام (٢/ ٨٣)، تتمة المختصر (٢/ ١٢١)، أمراء دمشق (١٤٧)، البداية والنهاية (١٢/ ٢٧٧)، الجواهر المضية (٢/ ١٥٨)، تاريخ ابن خلدون (٥/ ٢٥٣)، النجوم الزاهرة (٦/ ٧١)، شذرات الذهب (٤/ ٢٢٨).

وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمته: نور الدين صاحب الشام، الملك العادل، ناصر أمير المؤمنين تقي الملوك، ليث الإسلام، أبو القاسم محمود بن الأتابك قسيم الدولة أبي سعيد زنكي ابن الأمير الكبير آقسُنقُر، التركي السلطاني الملكشاهي. مولده في شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة... كان بطلاً شجاعاً، وافر الهيبة، حسن الرمي، مليح الشكل، ذا تعبد وخوف وورع، وكان يتعرّض للشهادة، سمعه كاتبه أبو اليسر يسأل الله أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير.

محمود المحمود من أيامه لبهائك ضحك الزمان. . .[1]
مولى الورى مولى الندى محيي الهدى مُردي العدا. . . . .[1]
آراؤه بصوابه معروفة وبمقتضاها دائر فلك النهى
كم زلّ في الحلم البصير وإنه ما زلّ يوماً في الأمور ولا سهى
يا من أطاع اللّه في أيامه متأوّباً من خوفه متأوّها
إن الملوك لهوا وإنك مَنْ غَدَا وبها للّه والملك يوماً ما لهى
صيّرت مدحك في البلاد قوافيا صار الغبى بما بليت. . . . . .[2]
يُهدى الثناء لك لا للطغاة وإنما في شكره فتحت لنا ولها اللها
فاسلم بتاج كرامة متتوجاً مستظهراً في ظلّه متنزها

وكانت أمور المسلمين تجري بينهم وبين عدو الدين في مجراها عندنا بالأندلس غالباً في الحرب تارة والسلم تارة أخرى، حسبما حكاه أبو الحسن بن جبير في رحلته عندما رحل من دمشق إلى عكا مجتازاً بالبلاد المتصيّرة إلى الإفرنج، وسيّرهم مع من يجاورهم من المسلمين.

وكان نجم الدين أيوب التركماني أبو الملك الناصر من كبار أمراء الملك العادل الذين يجالسونه ويظاهرونه، وكان محل إمارته تُكريت.

وكان أخوه أسد الدين شيركوه من لباد الدولة وبينهم وافر وعصبيتهم جليلة، وبينهم ظاهرة، تجمعهم الأصول وتنفقهم النصول.

[٨٠/أ] وكان صلاح الدين بن نجم الدين أيوب خفيفاً على نفس الملك/ العادل وقريب المحل منه، يقف على رأسه في المجلس وقَلَّ أن يفارقه في حال من الأحوال ازدياناً لشيمه، واستحساناً لأغراضه، وافتقاراً إلى نجدته.

وكان مرشحاً للمراتب العالية، راقياً في درجات السعادة، موصوفاً بالأوصاف الجميلة.

وكان الملك نور الدين قد عين أسد الدين شيركوه أخا نجم الدين أيوب، وعم صلاح الدين، ووجهه بالجيوش إلى. . .[3] صاحب مصر والمتضى[4] عليها، فقد خنقها واضطر وزير العبيدي بمصر الذي يرجع إليه تدبير مُلكه ويُسمى شاور إلى الاستظهار على أسد الدين شيركوه بالإفرنج المجاورين لحدود أرضه بإيلياء،

---

(١) كلمات مطموسة بالمخطوط. (٢) طمس بالمخطوط.
(٣) كلمة غير مقروءة هذا رسمها: «مُاربه».
(٤) كذا ورد في الأصل «والمتضى».

وسواحل الشام، وكانت بينهما حروب عظيمة ومواقف شهيرة إلى أن وقعت بين السلطان الملك العادل صاحب الشام وبين شاور وزير الطائع صاحب مصر المهادنة على مال وهدايا التزمها شاور للملك العادل وانصرف عنه أسد الدين إلى حمص محل ولايته.

وكان الإفرنج أيام استعانة شاور بهم على الجيوش الشامية قد كشفوا البلاد المصرية، وتطلعوا على عوراتها، وعرفوا طرق مكائدها، فقوي فيها طمعهم، واحتشدوا واستكثروا، براً وبحراً، ورأوا أن لا صاد لهم عنها ولا مانع لهم من الاستيلاء عليها.

فتحركوا لمنازلة القاهرة المعزّية عاشر شهر صفر سنة أربع وستين وخمسمائة. ولما عجز شاور عن مدافعتهم، ورأى أن لا طاقة له بهم، داخل طاغية الروم ولاطفه، والتزم له ضرائب مُعجّلة ومؤجلة ودسّ له الوعد بما أطمعه وحرّك أمله، وطلبه بالتوقف والتنحي عن حوزته، وتفتير مخفته بخلال ما ينظر في أمره. وألحّ بالكتب على نور الدين، وهو يومئذ بحلب مستصرخاً مستنفراً مذكراً بحُرْمَةِ الإسلام، يناشده الله، ويسأله المبادرة إلى نصره، ويعرّفه ضيق العرصة، وأنه يعلّل الروم بالمطال، وترديد الأرسال، ولم يبق له جهد في الاحتيال، ولم تبق إلاّ الفضيحة بعظم ذلك على نور الدين. وأهمه وأقلقه ذلك فاستدعى أسد الدين شيركوه بن أيوب من حمص فوطئه من ليلته إلى...[1]، وخرج له عما أهمّه وشغل باله من أمر المسلمين بمصر، وخوّفه من فوات الأمر فيها، وعرّفه باضطراره إلى غنائه ووقوف نظر [٨٠/ب] عليه. فاعتذر بما يفتقر إليه ضمّ العساكر والاستعداد للعدو/ من الزمان.

فأطلق يده في الخزائن، وحكّمه في المال، واستلحاق الرجال، وعجّل له مائتي ألف. وخرج أسد الدين إلى الرحمية[2] فجمع التركمان وبذل المال، ولم تأت إلاّ أيام قليلة فعرض ممن اختاره وانتقاه خمسة آلاف فارس من أنجاد انتقاؤه، وأضاف إليه نور الدين من أمرائه، ومفرديه، ومجرّديه ألفي فارس، وتحرّك في رمضان من سنة أربع وستين.

فوصل مصر يوم الأربعاء السابع من شهر ربيع الآخر.

والتفت إليه جيوش مصر، فتظاهر العدد وبعد الأمد في العزيمة، ورأى العدو ما لا قِبل له به، فأحجم ورجع أدراجه إلى بلاده، وجيوش المسلمين تنال من أعقابه، وتأخذ عليه ثنايا شعابه. ولما وصل أسد الدين إلى مصر ومعه ابن أخيه

---

(١) كلمة غير مقروءة في المخطوط هذا رسمها: «ملد».
(٢) كذا في المتن، وفي هامش المخطوط: الرحبة.

صلاح الدين بن أيوب دخلا ومن معهما من كبار المماليك إلى الديوان، وخُلعت عليهم من خزائن العاضد الخِلع وتردد شاور الوزير إلى أسد الدين شاكراً يَدَه، وجرت على العساكر الضيافات، والأطعمة، والميرة، وفي أثناء مقام العساكر الشامية بظاهر مصر وقعت بين العاضد وبين أسد الدين شيركوه المراسلة الخفية أو بينه وبين صلاح الدين في إزاحة شاور المتغلب على أمره، وردّ الأمر إلى أسد الدين وتقليده الوزارة بمصر، وقال له كما قال الأول:

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل وإلاّ فادركني ولمّا أُمَزَّق

ولما تمّ العمل على ذلك والتوثق منه، نمّى الخبر إلى شاور، فلم يحفل به شأن المغرورين، وركب إلى المحلة على عادته وليس معه إلاّ الصبية الوزارية، فاعترضه صلاح الدين بن أيوب ابن أخي أسد الدين في الأمراء النورية، فقبض عليه ووكّل به في خيمةٍ من خيامه بالعسكر.

ولما فشى الخبر واتصل بالعاضد في قصره عجّل من يقتضي قتل شاور وإنفاذ رأسه إليه.

ولم يوسع صلاح الدين عذراً في ذلك ففعل.

وكان قتل شاور يوم السبت السابع عشر من شهو ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمائة.

وتقلّد أسد الدين وزارة العاضد، واستقلّ بأعباء أمره.

وصدر عن العاضد لأسد الدين منشور شهير عند الأدباء، ورواة الأنباء، تطرّز به المجالس وتزّين به المحافل، وكتب العاضد بخطه في طُرَّته ما نصه:

[٨١/أ] «هذا عهد لا عهد لوزير مثله/ وتقليد.أمر رآك أمير المؤمنين أهلاً لحمله، والحجة عليك عند الله بها، أوضحتْ لك من مراشده، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوّة، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزمت خدمتك إلى بُنُوّة النبوءة، واتخذت للعون سبيلاً، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها توكيدا، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً»[١].

---

(١) ومما ترجم له الذهبي لمحمود بن زنكي في وصفه في سير الأعلام أن قال في وصفه نقلاً عن ابن الأثير في الكامل: كان أسمر له لحية في حنكه، وكان واسع الجبهة، حسن الصورة، حُلو العينين، طالعت السير، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين، وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة منه، ولا أكثر تحرياً منه للعدل، وكان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلاّ من ملك له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة، ولقد طلبت زوجته منه، فأعطاها ثلاثة دكاكين، فاستقلتها، فقال لها: ليس لي إلاّ هذا، وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين.

وكان يتهجد كثيراً، وكان عارفاً بمذهب أبي حنيفة، لم يترك في بلاده على سعتها مَكْساً، وسمعت =

دولة أسد الدين شيركوه[(١)] بمصر

استقرّت ولاية شيركوه بالبلاد المصرية، وتحوّل من المحلة إلى سكنى دار الوزارة بالقاهرة المعزيّة.

وتلقّب أسد الدين بالملك المنصور، وهو أول ملوك بني أيوب من الغز بمصر.

كذا نسبه أبو العباس بن أبي حجلة فيما كتب إليّ به.

وفي ذلك يقول العماد محمد ابن. . .[(٢)] يُهنىء أسد الدين بما تصيّر إليه:

= أن حاصل أوقاته في البر في كل شهر تسعة آلاف دينار صورية. ثم قال الذهبي: كان دَيِّناً تقياً، لا يرى بذل الأموال إلاّ في نفع، وما للشُعَراء عنده نفاق، وفيه يقول أسامة:

سُلطانـنـا زاهـد والـنـاس قـد زهـدوا ... لـه، فـكـل عـلـى الـخـيـرات مـنـكـمـش

أيـامـه مـثـل شـهـر الـصـوم طـاهـرة ... من المعاصي وفيها الجوع والعطش

قال مجد الدين بن الأثير في نقل سبط الجوزي عنه: لم يلبس نور الدين حريراً ولا ذهباً، ومنع من بيع الخمر في بلاده.

ـ قلت: قد لبس خِلعة الخليفة والطوق الذهب ـ. قال: وكان كثير الصوم، وله أوراد في الليل والنهار، ويكثر اللعب بالكرة، فأنكر عليه فقير، فكتب إليه: والله ما أقصد اللعب، وإنما نحن في ثغر، فربما وقع الصوت فتكون الخيل قد أدمنت على الانعطاف والكرّ والفرّ. . .

قال العماد في «البرق الشامي»: أكثر نور الدين عام موته من البر والأوقاف وعمارة المساجد، وأسقط ما فيه حرام، فما أبقى سوى الجزية والخراج والعشر، وكتب بذلك إلى جميع البلاد، فكتب له أكثر من ألف منشور.

(١) من مصادر ترجمته: الكامل في التاريخ في سنة (٥٦٤)، سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٥٨٧)، مرآة الزمان (٨/ ١٧٣)، الروضتين (١/ ٢٥٤)، وفيات الأعيان (٢/ ٤٧٩)، مفرّج الكروب (١/ ١٤٨)، المختصر (٢/ ٤٥)، دول الإسلام (٢/ ٧٧)، العبر (٤/ ١٨٦)، تتمة المختصر (٣/ ١١٥)، طبقات السبكي (٧/ ٣٥٢)، البداية والنهاية (١٢/ ٢٥٢)، تاريخ ابن خلدون (٥/ ٢٨١)، النجوم الزاهرة (٥/ ٣٨١)، حسن المحاضرة (٢/ ٣)، شذرات الذهب (٤/ ٢١١).

قال الذهبي في سير الأعلام في ترجمته: شيركوه الملك المنصور. فاتح الديار المصرية، أسد الدين شيركوه بن شاذي بن مروان بن يعقوب الدويني الكردي، أخو الأمير نجم الدين أيوب. مولده بدوين: بليدة بطرف أذربيجان مما يلي بلاد الكُرْج، ويقال في النسبة إليها: دُوَيْني. . . وكان أحد الأبطال المذكورين، والشجعان الموصوفين، تُرعب الفرنج من ذكره.

ثم جهز نور الدين في جيش إلى مصر لاختلال أمرها وطمع الفرنج فيها، فسار إليها غير مرة، فسلك أولاً على طريق وادي الغزلان وخرج من عند إطفيح، وجهّز ولد أخيه صلاح الدين إلى الإسكندرية وجرت له أمور يطول شرحها، وحروب وحصار، وأقبلت الفرنج، وأحاطوا ببلبيس، واستباحوها في سنة أربع وستين، فاستغاث المصريون بنور الدين، فبعث إليهم أسد الدين، فطرد عنهم العدو، ودخل القاهرة وتمكّن، فعزم شاور وزير مصر على الفتك به، فبادر وبيّته، واستقلّ بوزارة العاضد، ودان له الإقليم فبقي شهرين، وبغته الأجل بالخوانيق شهيداً في جمادى الآخرة سنة أربع وستين. فقام في الدَّست بعده صلاح الدين.

(٢) كلمة غير مقروءة في المخطوط هذا رسمها: «اله».

والحمد لله الذي صيّر مشارق الأرض ومغاربها التي ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز من بعض ممالك المولى وولاياته، وأعلى بالظفر والتأييد راياته، وجعله من الذين أنزل فيهم آياته، وبلغه في أمله أقصى غاياته.

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب كم راحة ثبتت في راحة التعبِ

يا شيركوه ابن شاه الملك دعوة من نادى فَعَرَّفَ خير ابن بخير أبِ

ومنها بعد كثير:

عليك في مصر إذ دوت الخطوب بها أثبت منابرها بالشكر في الخطب

وحين صرت إلى الكفار فانهزموا نصرت نصر رسول اللّه بالرُّعُبِ

بالعزم والحزم قد أصبحت مرتقياً ملكاً يدوم مدى الأيام والحُقُبِ

أعدت نقمة مصر نعمة وغدت تقول كم نعمة للّه في النكبِ

اركبت رأس سنان رأس ظالمها عدلاً وكنت لوزرٍ غير مُرتكبِ

هو الذي أطمع الإفرنج في بلدِ الإسلام حتى سعوا للقصد والطلبِ

ولما تسنى أمر أسد الدين وعلا سلطانه وشمل إحسانه وركنت الدولة منه إلى جبل رست أركانه. لم يمنعه الدهر بما ناله، ولا هنّأه بما تأتى له، فطرقه الأجل [٨١/ب] يوم/ الاثنين الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة.

وتولى الأمر بعده ابن أخيه السلطان صلاح الدين.

دولة السلطان صلاح الدين(١)

وبعد ثلاث أيام من تعزية الأمراء بالعسكر لصلاح الدين عقدوا له الرأي والراية

(١) هو علم من أشهر أعلام الدنيا، طبقت شهرته الآفاق في العدل والإنصاف والجهاد والصبر والنصر، فلا يجهل قدره عدو ولا صاحب، مسلم ولا كافر، سائلاً الله أن يجعل ذلك في ميزان حسناته يوم القيامة ولا ينقصه منه شيئاً إنه وليّ ذلك، وأن يحشرنا مع رسول الله ﷺ على الطاعة التامّة وحسن الختام آمين.

من الكامل في التاريخ أو من سير أعلام النبلاء، يمكنك أن ترى طرفاً من ترجمته ومن مصادر ترجمته: ديوان الإسلام (١٣١٥)، الأعلام (٨/ ٢٢٠)، شذرات الذهب (٤/ ٢٩٨)، النجوم الزاهرة (٦/ ٣)، سير أعلام النبلاء (٢١/ ٢٧٨)، الكامل في التاريخ من سنة (٥٦٤ : ٥٨٩)، وفيات الأعيان (٢/ ٣٧٦)، السلوك للمقريزي (١/ ٤١)، طبقات السبكي (٤/ ٣٢٥)، مرآة الزمان (٨/ ٤٢٥)، تاريخ الخميس (٢/ ٣٨٧).

وهو صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان، أبو المظفر الملك الناصر الشهير بصلاح الدين الأيوبي.

وأخلصوا له الولاء والولاية، وألزموا صاحب القصر بتوليته. . .[١].

وشرع في ترتيب الملك وتزيينه، ففضّ الخزائن على الأمراء، وبث الصلات في الخطباء والشعراء، حتى استخلص القلوب وبلغ فضله المطلوب.

وجعل التواضع بضاعته، وعَمَّرَ بالخير يومه وساعته.

وكان بالقصر من كبار خُدَّام العاضد أستاذ كبير خصيّ يعرف بمؤتمن الخلافة.

فقال الشيخ ابن محمود في بعض ما قيّده: . . . وله في التدبير الذي يعود إليه بالإدبار إعداد والتذاذه، واجتمعت على حداه من أصناف صنائعه جذاذه، وشحذ حدّه وزعم أنه في مضاء مضاربه فولاذ، وتشمَّر، وتنمّر، ونال من كسرى ومن قُبَاذَة، وهل هو إلا مجمعة تؤلم أفذاذه.

وقد تآمر هو ومن شايعه وتابعه وبايعه على أن يكاتبوا الإفرنج ويضيّقوا على الأسدية، والصلاحية. . .[٢] فكتبوا له بالاستدعاء، والاستعداء وسيروها على سبيل الخفاء، وانتظروا في جوابها وصول الأعداء.

وكان مقصودهم أنه إذا سمع صلاح الدين بحركة الكافر خرج إلى قتالهم بالعساكر، فيسفكوا بالقاهرة دماء من تخلّف بها من أصحابه، ويخرجون وراءه لانتهابه.

وتقدّم الإفرنج على لقائه، ويأخذون أمامه، والمصريون من ورائه.

فافتضح أمرهم، وأُخذ الكتاب، وقالّ دلوني على كاتب من الكتّاب.

فدُلّ على يهودي من الربط، فلما حضر عرّفه بما كان عليه من الرّبط، وأن الآمر به مؤتمن الخلافة، وأنه بريء من هذه الآفة، وحسن إسلامه وعُرف استسلامه، وثبت. . .[٣] إخفاء هذا الأمر، واكتتامه.

فاستشعر الخصيّ العصيّ، وخشي أن تشقه على شق العصا العِصِي، فما صار يخرج من القصر مخافة، وإذا خرج لم يبعد/ مسافة. [١/٨٢]

والسلطان صلاح الدين عليه مغضب وعنه مقص لم يأمر فيه ببسط ولا قبض إلى أن استرسل واستبسل وزعم أن ما. . .[٤] من البشر العقيم نسل.

وكان له قصر في قرية يقال لها: الخرقالية بخرقة، ورقع ما يتسع عليه من

(١) طمس بالمخطوط قدره ثلاث كلمات.

(٢) طمس بالمخطوط.

(٣) طمس بالمخطوط.

(٤) كلمات مطموسة في المخطوط.

خرقة، فخلا فيه يوماً للذّته، ولم يدر أنه يوم ذلّته وانقضاء بضاعته بانقضاء دولته، فنهض إليه السلطان صلاح الدين من. . .[(١)] من حياته لباسه، وذلك في يوم الأربعاء الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة أربع المؤرخة، فورد موارده من رداءة على أكدر منزع.

ولما قتل. . .[(١)] وثاروا، واضطربوا من إسعار السعير استعاروا، وقاموا يوم الخميس ثاني يوم قتله في جيش بجملة من أولى الحرابي سوداً في عريش، وطاشت الجوسية، وارتاحت إلى قبض الأرواح الريحانية.

وأقبل قابلهم، وأطلّ طلهم، وأبلّ وابلهم، وكانوا أكثر من خمسين ألفاً من كل أغبش أعبس، أحمّ أحمس ماجر أجرس.

وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه، واجتاحوه، وأذلوه، واستباحوه، واستحلوه.

فحسبوا أن كل بيضاء شحمة، وأن كل سوداء فحمة، وأن كل حمراء لحمة.

فقال أصحابه: هذا مبتدأ الرّوع وريعانه، وعنفوان العنف وعنوانه، ولا وجه للون ما هذا أوانه، وهذا الفرس وهذا ميدانه، وإنه موعد نصر هذا زمانه.

فهاجوا واتصلت الحرب بين القصرين، وأحاط بهم العسكرية من الجانبين، ودام الشر يومين حتى أفنى الأساجم بالحيين، وكلما لجأوا إلى محلة حرقوها عليهم، وجروا، وساحوا إليهم، وأخرجوا وأدلوا بالغي على منازلهم العزيزة، وأخرجوا ذلك يوم السبت الثامن والعشرين من ذي القعدة.

فأخلص السودان بعدها من الشدّة.

وفي هذه السنة المذكورة قبل قتل العاضد عبد الله الكامل وأخاه ابنيّ شاور بالقصر، وعمهما أخا شاور يوم الاثنين من جمادى الآخرة.

وذلك أنه لما قتل شاور عاذاً بالقصر فكأنما نزلوا منه في قبر، ولو أنهم جاؤوا إلى أسد الدين سلموا، وامتنعوا، وعصموا، فإنه ساءه قتل شاور، وأمن بقتله ما حاذر.

هذا كله منقول من مختصر البرق.

[٨٢/ب] / وفي سنة خمس وسبعين وخمسمائة تداعت جميع الإفرنج من جميع الجهات وأقبلوا إلى منازل الديار المصرية، فحلوا بمدينة دمياط مستهلّ صفر من السَّنَة، في أمم لا تحصى عدداً ولا تحصر مدداً.

وكان صلاح الدين قد بادر إليها بابن أخيه مع الأمراء، وأقام بالقاهرة، ينفذ

---

(١) طمس بالمخطوط.

الأمداد، والأزواد، ويكمل الاستعداد. واتصل الحصار إلاّ أن الله عزّ وجل ثبت أقدام المسلمين فصابروا الأعداء، وجعلوا أنفسهم وأرواحهم الفداء.

وطال على الجيوش الكافرة الأمد، وكان رحيلهم في الحادي والعشرين لشهر ربيع الآخر من العام المذكور.

وقد كان الملك نور الدين شرع في حشر العباد ولفظ البلاد، وحثّ داعي الجهاد:

«ألا إنّ الله عزَّ وجلَّ كفى وعده بالنصر وأنجز ووفّى».

وفي ذلك يقول العماد يخاطب صلاح الدين من قصيدة أولها:

يروقني في المَهَامه فَهْضُهَا ... ومن قدود الحسناء هيفها

ومن عيون الظباء أبْتَرُها ... ومن خصور الملاح أنحفها

ما سقمي غير سُقم أعينُها ... ثم الشفا في الشفاةَ أو سفها

يُسكرني فرقف يشعشها ... لحظ الطلا لا للطلا وقرقفها

ومنها يخاطب صلاح الدين:

هذا بسلب الفؤاد يظلمني ... وذا بقتل العِداه يُنْصِفُها

الملك الناصر الذي أبدا ... بعزّ سلطانه يُشَرِّفُها

قام بأحوالها يدبرها ... خُشْناً وأثقالها يخففها

بعدله والصلاح يَعمُرُهَا ... وبالندا والجميل يكنفُها

من دنس الحاضرين يدحضُها ... ومن خبات العدا ينظفُها

حكم في ماله العفاة فما ... ينفذ فيها إلا تصرفُها

ومنها أيضاً:

يوسف مصر الذي ملاحته ... جاءت بأوصافه تُعرّفُها

كتب التواريخ لا يزيّنها ... إلا بأوصافه مصنّفها

/ آيات دين الإله ظاهرة ... فيك وينبيكها مُصْحَفُها [٨٣/أ]

كم جحفل للعدو دنى لجب ... بالصف منه.. [١] صفصفها

وخُطت دمياط إذا أحاط بها ... من برجوم البلاد يقذفها

قال المؤرخ:

---

(١) كلمة غير مقروءة لتراكب حروفها نظراً لكثرة مدادها.

في سنة أربع وسبعين وخمسمائة، أسقط السلطان صلاح الدين مكوس مكة، شرّفها الله، المضروبة على الحمام في كل سنة، وكانت من أشنع الضرائب، وأعظم المصائب، فإن النصارى القاصدين إلى حجّهم بيت المقدس تحت الصغار والمذلّة لم يكن الجعل المضروب على رؤوسهم يبلغ جزءاً من أجزاء الضريبة المفترضة على رؤوس المسلمين، إذ كانت اثني عشر ديناراً ذهباً على كل رأس من صغير أو كبير، أو ذكر أو أنثى، لا يحاشى منه الفقير المُدقِع، ولا العديم المفلس، ولا المسكين المتكفف، ولا الزاهد المتعفف، بل يلزم أداء ذلك، وينا له في التوقف العذاب من العصائب والتعليق والضرب الشديد.

فإذا كانت إحدى الكبر في الدين، وغريبة في العار عديمة القرين، كان مقرر هذه الوظيفة الخبيثة التي له وزرها ووزر من عمل بها بعده، قد علّلها بمصالح البيت العتيق وصدقاته، وبركات خُدّامه، ومعاونة مجاوريه وقطّانه، وكأنه لاحظ في ذلك غرض الشريعة الكريمة من اختيار الطيب لله، والتماس الحلال في أجناس ما يتقرّب به إليه وقوله: «لا يقبل الله إلا طيباً»، «ولا يقبل الله صدقة من غلول، ولا صلاة بغير طهور». فكان الحجاج يلقون في ذلك مشاق تتفطر لها الأكباد، ويلعن مقررها على البلاد والعباد.

وقد بالغ أبو الحسن بن جُبير في رحلته في إستبشاع تلك الحوادث، وكان له عناء كبير في قصيدة رفعها إلى الملك حسبة وتقرباً، فرفع الله ذلك على يد صلاح الدين وعوّض الحرم بمال وأوقاف وصدقات باقيات.

وعَيَّنَ للحرم عُشر بلاده، ثمانية آلاف أردب تُوصل كل سنة إلى ساحل جِدَّة.

فكان ذلك من مناقبه الشريفة.

وفي سنة سبع وستين وخمسمائة: صرف السلطان صلاح الدين خطبة البلاد، ودعوة الخلافة إلى المستضيء بالله من العباسية بين يدي موت العاضد آخر ملوك العبيدية.

وسبب ذلك يقتضي الشرح في خبر طويل.

ولما توفي العاضد حسبما شاء الله جلس صلاح الدين للعزاء، وأغرب في الحزن والبكاء/ ومشى بين يدي جنده. . .[1] فوق القباء. [٨٣/ب]

وانقرض ملك بني عُبيد في هذه السنة والملك لله.

فكانت مدة ملكهم مائتي سنة، وإحدى وسبعين سنة ما بين بيعة جدهم عُبيد الله بسجلماسة إلى وفاة العاضد هذا بمصر.

---

(١) كلمة مطموسة.

ودخل صلاح الدين القصر، فاحتاط على أهل العاضد وولده، وألزمهم محلاً غيره تجري عليهم به النفقات.

وضمّ رجال بيتهم المتوقع تشوّفهم فاعتقلهم في دور تسعهم، ورتّب لهم الجرايات، وعزلهم عن النساء حتى لا ينمو نسلهم، ولا ينهض بيتهم، فانقرضوا لأمد قريب وعهد غير بعيد.

وأطلق الحرائر، وأعتق أمهاتِ الأولاد، وتصرّف في المُرقّون، وأفضل على المماليك وملأ أيديهم من مخبئات الخزائن.

ولم يكن ما حصل عليه من مقتنى بطول المدة ليدركه الحصر من ذخيرة ملابس نفيسة، ومصوغات تِبْرٍ وفضةٍ، وبسط، وفرش، فأسرف في العطاء وأطلق البيع بعد ذلك فيما لم ير الاغتباط به.

فذكر العماد أن الكتب التي أُلقيت في خزانة العلوم كانت عشرين ألف مُجلّد، بها الخطوط المنسوبة، والضنائن المجلوبة.

وقسّم على رجال دولته الديار، وتملّك ما كان للدولة العُبيدية وأشياعها من العقار، وعفى الآثار.

وفي سنة ثمان وستين وخمسمائة توفي السلطان العادل نور الدين بن محمود بدمشق يوم الأربعاء حادي عشر شوال رحمه الله.

وقدّم خاصته ولده الملك الصالح[1].

دولة الملك الصالح بن العادل[2]

وهو إسماعيل أبو الفداء.

---

(١) قال الذهبي في أواخر ترجمته لصلاح الدين في ذكره لوفاته في سير أعلام النبلاء: مرض بحمى صفراوية، واحتدّ المرض، وحدث به في التاسع رعشة وغيبة، ثم حُقن مرتين، فاستراح، وسرب. ثم عرق حتى نفذ من الفراش، وقضى في الثامن عشر. توفي بقلعة دمشق بعد الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة.
ومحاسن صلاح الدين جمّة، لا سيما الجهاد، فله فيه اليد البيضاء ببذل الأموال والخيل المثمنة لجنده. وله عقل جيد، وفهم، وحزم، وعزم. قال العماد: أطلق في مدة حصار عكا اثني عشر ألف فرس. قال: وما حضر اللقاء إلا استعار فرساً، ولا يلبس إلاّ ما يحل لُبْسُهُ كالكتان، والقطن. نزّه المجالس من الهزل، ومحافله آهلة بالفضلاء. يؤثر سماع الحديث بالأسانيد، حليماً، مقيلاً للعثرة، تقياً نقياً، وفياً صفياً، ولا يغضب، ما ردّ سائلاً، ولا خَجّل قائلاً، كثير البر والصدقات، أنكر عليّ تحلية دواتي بفضة. فقلت: في جوازه وجه ذكره أبو محمد الجويني. وما رأيته صلّى إلاّ في جماعة.

(٢) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٣٤)، الكامل في التاريخ من سنة (٥٦٩ : ٥٧٧).

وكان يومئذ صبياً لم يبلغ الاحتلام.

دخل تحت ما شرطناه.

ووقفوه للناس محروق الذوائب مشقوق الجنب، حاسراً، حافياً، ثم أجلسوه للناس في الإيوان الشمال على الدِّست بين يديه يعبثون في شعورهم، وصدورهم، ووجوههم، إلى أن فُرغ من مواراته. وحضر أولو أمره، والمتبرّعون بالوفاء لأبيه، والمقرضون له أحسن القرض في ولده، والملتزمون لعهود نعمته، وهم شمس الدين بن المقدم. وكمال الدين ريحان بن صالح بن العجمي. والشيخ إسماعيل أمير بيت المال. وحضر القاضي كمال الدين.

[١/٨٤] وأُحضرت المربعة الكريمة، وقد رفض الجزع، وغيّبوا الدموع، وأظهروا/ التجلّد والصرامة.

فتحالفوا على أن تكون أيديهم مساعدة، وعزائمهم متعاقدة، وآراؤهم واحدة. وأن شمس الدين بن المقدم مقدم العسكر وإليه المرجع في الورود والصدور.

واتفقت الآراء على نقل ولد السلطان وهو الملك الصالح إلى دار المُلك بحلب لمنعتها، وبعدها من جهة التقية، فكان ذلك.

ورحل السلطان بعد أن. . .(١) دمشق. . .(١) فأقام بها شمس الدين بن المقدم بالجيش. وجمال الدين ريحان. والقاضي كمال الدين الشهرزوري، وكان نافذ الحكم، صائب السهم، وبه رفع الملك الصالح الأمير كمشتكين، و. . .(١) ابن العجمي ووزيره.

وولّي الدين الخازن، وغيرهم من خواص أبيه.

وجدّوا السير حتى سبقوا الخبر إلى قلعة حارم فملكوها واستقلوا بذروتها.

فلما بلغ صلاح الدين الخبرْ أعمل الحركة إلى دِكي فدخلها يوم الاثنين آخر شهر ربيع الأول من السنة. . .(٢) أصحابه إلى أن ملكها بعد محاورة اختصرناها،

= قال الذهبي في سيره في ترجمته: السلطان الملك الصالح عماد الدين أبو الخَيْش إسماعيل ابن الملك العادل محمد بن أيوب وابن شاذي صاحب دمشق. . . تملك بُصرى، وبعلبك، وتنقلّت به الأحوال، واستولى على دمشق أعواماً، فحاربه صاحب مصر ابن أخيه، وجرت له أمور طويلة، ما بين ارتفاع وانخفاض. كان قليل البخت، بطلاً، شجاعاً، مهيباً شديد البطش، مليح الشكل، كان في خدمة أخيه الأشرف، فلما مات الأشرف توثب على دمشق وتملّك، فجاء أخوه السلطان الملك الكامل وحاصره وأخذ منه دمشق، ورده إلى بعلبك.

(١) كلمات مطموسة.

(٢) موضع النقط كلمات مطموسة.

وأشاع صلاح الدين أنه إنما وصل الشرقية الملك الصالح وحفظه وكفالته وضبطها له وأنه أحق بصيانته، وأولى بوزارته، وتحرّك إلى حمص يريد حلب.

ولما اتصله خبره بالمديرين أمر الملك الصالح شمر، والدفاعة، وبنوا على قراعة وأرسلوا إليه معنفين، ومن الانقياد إليه . . .[١] وكان الرسول منهم قطب الدين بن حسان، فقال للملك الناصر: هذه السيوف التي مَلَّكتك مصر هي التي تعيدك إليها.

فحلم عنه السلطان، واحتمله، وذكر أنه وصل لترتيب الأمور، وسَدَّ الثغور، وتربية ولد نور الدين.

فلم يقبلوا ذلك.

ولما وصل حلب، وافق كَلَبَ البرد، وشدّة الثلج، ورأى الأمور بخلاف ما ظنّه، فقفل أدراجه إلى مصر، وقد مهّد البلاد الشامية وقرر مصالحها. واستقرّ الملك الصالح بحلب إلى وقت قدّره الله له.

وفي مستهلّ رجب سنة ست وسبعين[٢] وخمسمائة تجهّز صلاح الدين أخاه فخار الدين شمس الدولة بورنشاه بن أيوب من مصر إلى بلاد اليمن.

وكان فخر الدين والياً بقوص، واتصل نجد مسرجل من أهل اليمن شاعر . . .[٣] فكان يمدحه ويغريه بتملّك اليمن حتى يوفر عليه ما عزمه.

فخرج بجيوشه إلى مكة أعزّها الله، وطوى الحجاز إلى اليمن، وافتتح زبيد، وعدناً، وتعز، وسواها، وملك اليمن وهزم ملوكها، واستولى عليها.

وكان باليمن رجل خارجي استولى على البلاد يدّعي مذهب القرامطة/ وينتمي[٨٤/ب] إلى صاحب مصر الفاطمي، ويتستر بالإسلام، فقتل خلقاً كثيراً، وشقّ بطون الحوامل، وذبح الأطفال.

ثم مات، وتخلّف ولده بعده، ففعل أفسد مما فعله أبوه، وبنى على قبره قُبّة عظيمة صفّح حيطانها بالذهب والجواهر النفيسة وقناديل الذهب، وستور الديباج، بحيث لم يعمل في الدنيا مثلها.

ومنع أهل اليمن من الحجّ إلى الكعبة، وأمرهم بالحجّ إلى تلك القبّة.

---

(١) كلمة غير مقروءة.

(٢) في المخطوط: سنة ست وتسعين. وهو تحريف، والتصويب من السياق حيث إن صلاح الدين توفي قبل ذلك التاريخ، وفي الكامل أنه أرسل جيشه إلى اليمن سنة (٥٧٧).

(٣) كلمات غير مقروءة.

فكانوا يحملون إليها من الأموال في كل سنة ما لا يحصى، ويطوفون بها، ومن لم يفعل ذلك قتله.

وأقام على الفسق والفجور، وسفك الدماء، وذبح الأطفال، وسبي النساء. فلما فتح شمس الدولة اليمن قتل هذا الخارجي، وكان اسمه عبد...[(١)]، وهدم القبّة، وأخذ ما فيها من المال، والجواهر، والآنية، والأمتعة، فكان ذلك قدر الستمائة حمل، ونبش القبر فأحرق عظام الخارجي.

وفي أوليات سنة ثنتين وسبعين وخمسمائة خرج السلطان صلاح الدين إلى الجهاد، وقاتل من يليه من الكفار بمدينة عسْقلان. وخيّم ببلبيس إلى جمادى الآخرة منها.

وكان للعدو نيل من أثقاله وحمولته، ثم استأنف الحركة، وقد بلغه أن الروم نازلوا حِصن حارم من أحواز حماة، واتصل الغزو وتتابع الجد وخلص لله العزم، ففتح الله عليه، وأسر من البلاد على يديه مثل: طبرية، عكا، الذنب، معليا، إسكندرية، تينيس، مونس، الناصرة، الطور، صفورية، الفولة، خبنين، زرعين، دمنهورية، بلابيسان، سبطة نابلة، اللجون، زنجا، سنجل، السرة، يافا، أرسوف، قيسارية حنفا، صفد، قلعة أبي الحسن، جبل خليل، بيروت، جميل، مجدل، يابا، مجدل، حماة، الداروم، غزة، عسقلان، تل الصافية، التل البرج، الأطرون، جيب جبريل، جبل الخليل، بيت لحم، قَد الرملة، قرشا، القوص، وباهر، مس السلع، عفر السقيف، الكرك، وحبلة، اللازقية، صميون، مونسة، قلعة العد، الجماهريين، بالنطس، بكاس، الشعر، برزنة، رفساد، بعراس، صفد، كوكب.

وكفى بفتح بيت المقدس فتحاً شهيراً، وذكراً جميلاً، وأثراً كبيراً[(٢)].

ووقفت من كلام الشيخ محمد بن محمد بن محمود الأصفهاني رحمه الله في هذه الفتوح:

على ما يشفي الفصول، ويشهر منه القدر، إذ قال:

[٨٥/أ] وقد رشح إلى غرضه بذكر التواريخ ما نصه:/ ولولا التواريخ لضاعت مساوىء أهل السياسة الفاضلة، ولم تكن المدائح بينهم وبين المدائح الفاضلة، ولقلّ الاعتبار بمسالمة العواقب وعقوبتها، وجهل ما وراء صعوبة الأيام من سهولتها، وما وراء سهولتها من صعوبتها، فأرّخ بنو آدم بيومه.

---

(١) الاسم غير مقروء في المخطوط.

(٢) يقطع المؤلف الحديث عن ذكر صلاح الدين لغرض أنه يريد أن يجعل فتحه للقدس تاريخاً جديداً ثم يعود إلى ذكره بعد أن يمدحه بما هو أهله إن شاء الله.

وكان أول من اشترى الموت بنفسه، وقام النزع مقام سوية، ثم أرَّخ الأوّلون بالطوفان الذي ملأ الأرض وأغرقها، ثم بالعام الذي بلبل الألسن وفرّقها. وأرّخت الفرس أربعة تواريخ لأربع طبقات من ملوكها، أولهم: كل شاه، معنى هذا الاسم ملك الطين . . .[1] مرجع الفرس بأنسابها، وعليه ينسق عقد حسابها. وهي الآن تؤرخ بيزدجرد آخر ملوكها، وهذا الذي خرّب الإسلام سام ديوانه، وأطفأ نور الله بيت نيرانه.

وأرّخ اليونانيون من قلس أبي الإسكندر والي قلوبطرة آخرهم، وهؤلاء المسمون الحنفاء، وهم الصابئون.

وأرّخ الروم بالإسكندر لعظم خطره، وشهرة أمره.

وأرّخ النبط بالعراق، والقبط بمصر، بتواريخ موجودة في الكتب التي خلّدوها، والأزياج التي رصدوها.

وأرّخ اليهود بأنبيائهم وخلفائهم، وبعمارة البيت المقدس وخرابه على ما اقتضاه نقل أوائلهم، وآبائهم.

وكانت العرب قبل ظهور الإسلام تؤرخ بتواريخ كثيرة، فكانت حِمْيَرْ تؤرخ بالتبابعة ممن يلقب بذي وبهي بقيل.

وكانت غسان تؤرخ بعام السَّدِّ حين أرسل الله عليهم عرم السيل.

وأرّخت العرب اليمانية بظهور الحبشة على اليمن، ثم بغلبة الفرس عليها.

وأرّخت معد بغلبة جُرْهُم العماليق، وإخراجهم عن الحرم، ثم أرّخوا بعام الفساد، وهو عام وقع فيه بين قبائل العرب تنازع في الديار فتنقلوا منها وافترقوا عنها، ثم أرّخوا بحرب بكر، وتغلب ابني وائل، وهي حرب البسوس، ثم أرّخوا بحرب عبس وذبيان ابني بيض، وهي حرب داحس والغبراء، وكانت قبل المبعث بستين سنة، ثم أرّخوا بعام الخناق.

قال النابغة الذبياني:

فمن يك سائلاً عني فإني من الفتيان في عام الخناق

وأرّخوا بعده من مشاهير أيامهم وأعوامهم بعام المخانق، وعام الزنائب/ ويوم [٨٥/ب] ذي قار، وبحرب الفجار، وهي أربع حروب ذكرها المؤرخون وأسندها الراوون . . .[2] به قبل الإسلام بحلف الفضول منصرف قريش من الفجار.

---

(١) كلمة غير مقروءة هذا رسمها: «جالسه».

(٢) ثلاث كلمات متراكبة الحروف لزيادة المداد بها.

وبحلف المطيبين وهو قبل حلف الفضول، وبعام الفيل وهو الجارودي. . .[١].

ولتاريخ الإسلام بعده خرج إمام الجمعة فطويت الصفحة، وجفت الأقلام، وأظهر الله على الأديان الدين القيم، ونسخ تاريخ الهجرة كل تاريخ مُقَدَّم، فأمن وقع الخلاف الواقع في تواريخ الأمم، وجبّت الهجرة ما قبلها جَبَّ الأنوار للظُّلَم، ورفع الله الناس بعضهم ببعض، واستدار الزمان كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، ووقتت هذه الهجرة الوقت الذي أمر به أمر الإسلام ويومه الذي ما ولدت الليالي مثله من بينها الأيام، وعامها العام الخاص بالفضل، وكل ما بعده يعد من عوام الأعوام.

وأنا أرّخت بهجرة ثانية تشهد للهجرة الأولى بأن أمدها بالقيامة مقرون، وأن موعدها الموعد الصحيح غير المدفوع، هذه الهجرة هي هجرة الإسلام إلى بيت المقدس وقائمها صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب، وعلى عامها يحسن أن يبنى التاريخ وينسّق، ويسفر عن أهلها داء أدى المداد وتنشّى. وهذه الهجرة هي أقوى الهجرتين، وهذه الكرّة بقوّة الله أقوى الكرّتين، فإن العرب كانت إذا تناهت في وصف الرجل بالقوة قالت: كأنه كُسِر ثم جُبِرَ[٢].

والحق أن نقول: إن أطول الحياتين حياة المرء إذا مات ثم نشر، والعيان يشهد أن أمنع السورين ما عُمِّرَ بعد أن ثغر، والفرق بين فتح الشام في هذا العصر وبين فتوحه في أول الأمر فرق يتبين تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر.

فإن الشام فتح أولاً والعهد برسول الله ﷺ غير بعيد، والرَّحى ما كاد يتعطل في طريقه من السماء إلى الأرض بريد، والعيون التي شاهدت رسول الله ﷺ تسلّ سيوفها من أجفانها، والقلوب التي شهدت مواقف معجزاته أوثق بخبره منها في الفتح منها بعيانها، ورسل عالم الغيب إلى عالم الشهادة بالآيات المؤتلفة مختلفة/ [١/٨٦] ونجدات السماء إلى الأرض متصلة بالملائكة منزلة مسومة ومرجفة، وقد أخبرهم سيدنا وسيدهم أن الأرض زويت له مشارقها ومغاربها، وأنه سيبلغ ملك أمته. . .[٣] المرحومة ما ضمت عليه جوانبها، والروم حينئذ بغاث ما استقرّ، والفرس يومئذ رخمٌ

---

(١) كلمة غير مقروءة هذا رسمها: «وفرمى».

(٢) لا أقول شيئاً في هذا، غير أني أقول: هذا رأيه وله كل تقدير واحترام، وربما كان معه بعض الحق أيام أن قال هذا القول حيث لم تكن قد عادت الكَرّة وذهبت القدس بعد ذلك مرات وها نحن الآن نعيش ما لا يفلح فيه مقال، فأي الهجرتين أقوى وأي الهجرتين أبقى، وأي الهجرتين أثبت، وأي الهجرتين أبقى في سمع الزمان، وأي الهجرتين ألمع في بصر التاريخ، وأي الهجرتين أرسخ في نفوس المؤمنين، نعم نَحِنُّ والقدس معنا لصلاح الدين، لكن الهجرة الأولى هي الأولى وهي الهجرة.

(٣) كلمة غير مقروءة.

ما استبصر، والحديد ما طوّعت أشكاله الرائعة ولا طبعت أسيافه هذه القاطعة، وما نسجت أثوابه هذه المانعة، والبروج لا تعرف إلاّ مشيدة لا مجلدة، والمنجنيقات لا يتوثب اليوم ما يتوثب من خُشُبها المُسَنَّدة، والأفران لا تتراجم بالنيران المزكاة، والأسوار لا تتناطح بالكباش المشلاة، وبصائر السلف الصالح رضي الله عنهم تقاتل بها ولو كانوا غرلاً، والواحد منهم يسوق عشرة كما يساقون إلى الموقف عُراةً غُرْلاً، وكانوا أحرص على الموت منه على البقاء، وكان شوقهم إلى لقاء الله باعثهم على لقاء الأعداء بذلك اللقاء.

والشام الآن قد فُتِحَ حيث الإسلام قد وهى العظم منه واشتعَلَ الرأس شيباً، وأُهريق شبابه، واستبش أديمه. وقد عاد غريباً، وقد طلع شرف الستمائة وهي للملك المعترك، وكثرت معاثره بما نصب من الشَّرَك، وأخلق الجديدان[1] ثوبه وكان القشيب، وذوى غصنه وكان الرطيب، ونصلت كفّه وكانت الخضيب، وطال الأمد على القلوب فقست، ورانت الفتن على البطائر فطمست، وعرض هذا الأدنى قد عمي وأصم حبه، ومتاع هذه الحياة قليل قد شغل عن الحظ الجزيل في الآخرة كسبه، والكفّار قد خشنت عرائكهم واتسقت ممالكهم، واستبصروا في الضلال، واستبضعوا للقتال، وخرجوا من ديارهم يخبطون غاشية الموت، ونفروا من وراء البحر يطلبون أمامهم من البرانسية الصوت، وقاتلوا جنداً ورعية، واستباحوا الأنفس غير متورعين، فلا عجب أن ترى استباحة رعيه، وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون، وأمدهم في طغيانهم يعمهون، شقراً كأنما لفحت وجوههم النار وهم فيها كالحون، زرقاً كأن أعينه من حديد فهم في قلوبهم وعيونهم مكافحون، قد نزع الله الرأفة من قلوبهم ونقلها إلى عروقهم، وعذّب بهم لما يريد من تعذيبهم، واشتعلت نار جهنم في فحم ذنوبهم تشهيد المردة من مردتهم.

ويدعى الناس بالعون على الاطلاع/ على...[2] ومضت ملوك الإسلام، [٨٦/ب] ومضت أيامهم...[2] فتنازع الناس عليها طرائف الاحتلام وحاربوا هذا العدو الكافر، فما أثروا فيهم، فكانوا محاربين كمسالمين، وبذلوا جهدهم، فما نقول إنهم مظلومون وما بالعجز ذمّهم ظالمين. اللهم غفراً ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: الآية ٣٨]، وما على القدر عتاب.

والأيام تمخض وتمطل بالزبدة، والسور تتلى إلى أن تأتي بالسجدة، والناس

(١) أي الليل والنهار، وهو هنا يريد بكل هذا الكلام المسلمين لا الإسلام، وهذا حال زمانه فما باله بزماننا.

(٢) كلمات غير مقروءة.

يريدون الخروج ولكن ما أعدّوا له العدّة، والعذر على كل لسان لكل قوم مدة. فلما أراد الله الساعة التي جلاّها لوقتها وأظهر الآية التي ألاحت لها فنقول: هي أكبر من أُختها، أفضت الليالي الماطلة إلى فجرها، ووصلت الدنيا الحامل إلى تمام شهرها، وجاءت بواحدها الذي تضاف إليه الأعداد، ومالكها الذي له السماء خيمة والحُبُك اكتساب والأرض بساط، والجبال أوتاد، والشمس دينار القَطْرُ دراهم، والأفلاك والأملاك خَدَمٌ والنجوم أولاد، صلاح الدنيا والدين ومهما دعونا له فإن الله قد سبق إليه كوناً، ورأينا بين مُنَانَا وبين كرمه بوناً، فهو سبحانه بالنوال منا بالسؤال، والكريم بكرم الله مجزيّ والساكت عن الدعاء مكفيّ، وإن قُلنا: أحسن الله إليه فقد قال: ﴿لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: الآية ٣٠].

وإن قلنا: جزاه الله خيراً بالإحسان، فقد قال: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٦٠].

وإن قلنا: هداه الله سبيله، فقد قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العَنكبوت: الآية ٦٩].

وإن قلنا: لا ضيّع الله عمله، فقد قال: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩٥].

وإن قلنا: لا جعل الله لدهر عليه سبيلاً، فقد قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محَمَّد: الآية ١٧].

كل مسؤول سائل ... في معاليه قد كمل
لا يسأل فيه سائل ... سبق الجود ما سأل
ولتصبح تأملا ... تجد اللّه قد فعل

ونعود إلى ذكره، أعزّ الله ذكره، فلا كفتح على يديه فتح، وما هو فتح واحدٌ ما هو إلاّ فتحان، فتح الدم ذائب، وفتح الذهب جامد، فما البلاد التي فتحها فاتحاً القرائح ما على يد الجود من قبل المدائح./ [١/٨٧] والناس أكيس من أن يمدحوا ما لم يروا عنده آثار إحسان، وإنّا لنرجوا أن نكون قد كتبنا مدحه من الصادقين من الذين آمنوا أن يكونوا معهم، وأن نكون قد كُتبنا مع المحسنين لأنّا أحسنا، وصف إحسان الله إلى عباده، ولم يقطع بنا ما قطعهم، وإنّا وإن كُنّا رعاياهم لنرى أنفسنا ملوكاً ونرى الملوك وهم لنا سوقة ومنه في القلم ولسنا نُسميه قصراً وإن جذع أنفه ولكنا نركبه كما ركب قصير العصى إلى وصف هذا السلطان لندري وصفه، ونقول للقلم إذا فاخره السيف: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ [الكوثر: الآية ٣].

ونزيده إذا أوردناه وصف مولانا: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ [الكوثر: الآية ١]

على أن هذا القلم يلزم الأدب لذكره أعلاه الله فينكس رأسه، ويقبّل بين يديه قرطاسه.

ولست ببعيد في تقييد هذه المفاخر وتشييد هذه المآثر من رجال الطعن والضرب الذين فتحوا بين يديه وأوجبوا الحق عليه، بل حقي من حقوقهم أوجه وأوجب، وقلمي من سيوفهم أضرى وأضرب، وهو من رماحهم أقصى، وأخطب، ومن مهامهم أمجى وأنجب، ومن فيهم أكسى وأكسب، ومن جيادهم أسرى وأسرب، ومدادي من نفعهم أغلى وأغلب، وقرطاسي من راياتهم أجلى وأجلب، وسيوفهم قد أغمدت وجردت منه ما لا يغمر ولا يغمد، وآثار السيف من الجراح قد تبرأ وآثاري من الذكر لا تمحى، ولا تخمد، وما السيف أسوى ضربه من لسانيا، فكل خبر خبّر به غيري يموت بموته وينقطع بث الأثر بانقطاع صوته، والذي أخبر به أنا سندُ روض يزهو إذا أقلعت الأيام سُحُباً، ونجم يبدوا إذا أفاض الشفق على فضة النجوم ذهباً، وقولي يُذكر وينسى كل فعل وفاعله، لا قول يؤثر مهما عاش اليوم عالمه، ثم لا يأتي في غد إلاّ جامله، فميزة الكتب تهب الأعمار الثانية، وتفاخر الألسن القائلة بها الأيدي الكاتبة الفانية، فانظروا إلى إيوان كسرى وسينية البحتري في روضته تجدوا الإيوان قد خرت شعياته، وعَفُرت شرفاته، وتجدوا سينية البحتري قد بقي بها اسم كسرى في ديوانه، أضعاف ما بقي شخصه في إيوانه، وإنما تراوح/ بين الأرصاب [٨٧/ب] الغادية. . . . .[١]

ثم إن الروم كما قال أبو المطرف: . . .[٢] وعادت الكرة وبلا ضعف فأجلبت بخيلها ورجلها، فصارخت من كل أوب وتنادت من كل صقع ودرب، فيها حميّة الضلال وغشاوة الامتعاض فبذلوا نفوسهم وأموالهم، وفارقوا أوطانهم وبلادهم، وجعلوا وجوههم إلى الشام في عددٍ لا يعطاه العد، ولا يدركه الحصر، ولا يرومه الحساب، ما بين جزيرتين، برطانية المعروفة بالأنكشيرة. . .[٣] في الأرض الكبيرة، وهما جزيرتان عظيمتان، عَرْض إحداهما سبعمائة ميل، وملوكها أنجز ملوك الروم وأوسعها، ذات يدٍ يمنى بالأندلس، سلطان هذه الأمة إلى غالب وتسمى أمته الأقليش كبّه الله وأهلكه، مظاهراً صاحب إفرانسية، وملك الأرض الكبيرة، والبر المتصل وإليه ينسب أهل الشرق الروم فيقولون الإفرنج، تغيير اللفظ الفرنسي المنسوبون إلى إفرانسية، وهو ملك رومة، والعريقين واليونانيين من الأمم القديمة، وكان محل

(١) استرسل في كلام مطموس يصف السيف والقلم.
(٢) كلمات مطموسة.
(٣) كلمة مطموسة.

ملكهم برومة حيث الوادي الأعظم قعره بألواح الصُّفر أميالاً عديدة، وإليه ينسب تاريخ الصفر وما كان القسيس الأعظم خليفة المسيح الذي يدّعوه أنه إلاههم، تعالى الله عن قولهم.

ثم ارتحل الملك منذ زمان إلى مدينة بريش، وانتقل القسيس أيضاً أيام الحروب إلى مدينة بناها وانفرد بها تسمى بنيون، ومدينة بريش المذكورة قد خرجت عن حد التمدن في طرف الأقراط يقال: إنه يدخلها في كل يوم مائة ألف عجلة، وخمسمائة عجلة ببيض الدجاج إلى أسواقها.

ويقال: إن ملك المشرق أو المغرب كتب إليه: من فلان صاحب كذا وكذا وسمى بلاده ومدائنه بما جرت به العادة في مخاطبات/ الروم، فكان الفرنسيس يقول [١/٨٨] بلسانه عند تعديد البلاد ما معناه أن صاحب بريش يعني... [١] وإنصافه إليهم ذلك الأمان، وهو قريب منهم إلى غيرهم من المراكشية وملوك الجزر المزمانية والبنادقة، وقبرص، وسردانية، وصقلية، وغير ذلك ممن يتصل بحدود الثلج من روم القسطنطينية العظمى ركب القوم ظهور الأفواج وأكتاب الحجاج، ورمق الإسلام منهم بالداهية الثاني على حال تفرّق الكلمة، وضيق الموطن وإعواز الغلات، وبعد ما بين بغداد ومصر وذلك الثغر، فنزلوا مدينة عكا مما افتتح المسلمون وحتى حاضرة البحر وأعظم المراسي أوردهم... [٢].

وقد كان صلاح الدين رحمه الله أخذ بالحزم في أمرها، وشاور أرباب الرأي والخبرة والجهاد في شأنه، فوقع العمل على إمدادها بالأقوات، والعدد والآلات، فملئت بأنجاد الرجال وأولي الغنى من الفرسان، وأبطال الأمراء والمماليك، وندب إليها الفعلة والصنّاع، وأرباب الحيل الحربية من النفوط والمجانيق وقاداح النيران في الأدْهَان.

وتوالت الأمم الكافرة تهوي إليها كسحاب الجراد، وعوارض قَطْرِ العماد، واضطربت المحلات عليها، وحفْرت الخنادق، وبنت على محلاتها الأسوار، وحاربوا المسلمين بها حرباً لم يعهد بمقدم الزمان ولا حديثه. واحتشد إليهم المسلمون، وخيّم بهم السلطان صلاح الدين بإزائهم.

واتصلت الأيام وقلّما يجدون في الروم عثرة أو يلقون إلى إغاثة البلد سبيلاً، وطال بالمسلمين المقام وهلكت الجيوش وبعدت الأموال، ومَلّ الناس، وتعذرت الأقوات، وتعددت الوقائع والفتكات والحروب والسجال، وتمادى ذلك ثلاثة أعوام، وبعد لأهل البلد المحصور القوت، وفرّ إلى العدو من أهله كثير وتُعرِّف منهم حال الشدة.

---

(١) كلمة مطموسة.

(٢) كلمة غير مقروءة.

فألحّ على القتال، وبلغ الصبر من المحصورين مداه وطلبوا الأمان لأنفسهم، فتغالى العدو عليهم إلى أن اتفقوا على تسليم/ النفوس والتزام المسلمين بعد ذلك [٨٨/ب] مال كبير، وأسرى الروم ممن ببلادهم. . . . . .[1] الذي عليه المسلمون ببيت المقدس، ودخل النصارى المدينة، وعزل أهلها، وأحيط بهم وبدأ الملزوم في أمرهم، فأقسموهم وقتلوهم في صعيد واحد بمرأى من جيوش المسلمين رحمة الله عليهم. ثم تحرك العدو بعد ذلك المحل نحو الساحل وأجفل المسلمون بين يديه وبادر بهدم مدينة عسقلان وغيرها من القلاع لعجزهم عنها.

وكلما هدموا بلداً أسرع الإفرنج في جبره، إلا أن الله تعالى تدارك بلطفه المرجو في الشدائد، فملّت النصارى، وحنّت إلى أوطانها، وسبحان الله الذي يقول: ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النّساء: الآية ١٠٤].

فوقع الصلح بين الطائفتين والمهادنة بين الأُمّتين، وأخذت النصارى في الانصراف بعد أن ثقفت البلاد، واستكثرت العُدد والإعْدَاد، وفاز المسلمون بما استرجوه وتهنوا بما افتتحوه.

وتأخر أمر عكا إلى أيام الأشرف خليل بن قلاوون ففتحها، ومحى أثرها فهي اليوم خراب بلقع.

وأخبار صلاح الدين وفضله وجهاده مأثورة.

وكان ممدوحاً مقصوداً، مدح بما لم يمدح به ملك، فمن ذلك قصيدة أبي الفتح محمد بن محمد بن عبيد الله التعاويذي، وهي قوله:

حتى متى أرضى في هواك وتغضب ... وإلى متى تجني عليّ وتعتبْ[2]

حدّثني شيخنا أبو الحسن بن الجيلب رحمه الله عن شيوخه، وقد جرى ذكر صلاح الدين: وما ينقل عنه يوم فتحه القدس من أمره أمراء بني أيوب برفع أواني ماء الورد وصبها على الصخرة المقدسة به وغسله إياها بوجهه ولحيته.

ومثل ذلك من شواهد صحة عقيدته وكرم قصده.

فقال: كان لصلاح الدين فرّاش له يدعى محمد، وكان يدعوه باسمه على الأيام

---

(١) عبارة مطموسة.

(٢) فذكر قصيدة طويلة تزيد على الثمانين بيتاً، وقد ورد بها طمس كثير، ولم أر كثير بال أو عظيم فائدة في ذكرها فآثرت حذفها نظراً لما ورد بها من الطمس. وقد استغرقت هذه القصيدة من باقي [ص ٨٨/ ب] حتى أوائل [ص ٩/ ب] وآخر بيت في القصيدة هو قوله:

فـي نِـعْـمَـةٍ أيـامُـهـا لا تَـنْـقَـضِـي ... وَسَـعَـادَةٍ سُـلْـطَـانُـهـا لا يُـغْـلَـبُ

فيقول: يا محمد افعل كذا، واصنع كذا، وفي بعض الأيام دعاه: فرّاش، اصنع كذا، فاستراب الفراش ذلك وظنه لتغيّر عليه، وشكى ما به لبعض أولى الدلالة على صلاح الدين، فلما نمّى إليه حديثه، ضحك وقال: والله ما له عندي إلاّ ما عرفه، ولكني على غير طهارة فكرهت أن أتلفظ باسم رسول الله ﷺ وأنا على غير طهر[١].

ومن غرائب صلاح الدين وشواهد سعادته وعلى علوّ درجته عند الله ما حكاه الإخباريون: من أن رجلين من اليهود غيرا أشكالهما واستظهرا بجميع أحوال المسلمين، وسكنا المدينة المشرّفة بمحل غير بعيد من الضريح النبوي المقدس.

وسوّل لهما الشيطان أن يحتفرا نقباً منْ محلهما إلى الضريح، ويذهبا بمن فيه إلى أرض من كلفهما ذلك من ملوك الأمم، وصارا يذهبان كل يوم بتراب ليلة يتلفانه في خارج المدينة إلى أن لم يبق بينهما وبين الضريح إلاّ مقدار يسير، ورأى صلاح الدين رسول الله ﷺ في المنام يقول له: تداركني.

فأهمّه ذلك، وبادر إلى المدينة يؤكد بالنظر فيما حدث في منامه، فتفقدت الدور وأعمل البحث فعثر على القضية، وقتل الرجلان الخبيثان شر قتلة، وأمر أن يحفر حول الضريح حفير عميق وأن يبنى بالحجر والرصاص حتى ارتفع الطمع عن ذلك.

[١/٩١] وكانت وفاة/ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله غروب يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة رحمة الله عليه.

وخلف جملة من الولد، فقامت بالأمور بعده، فكان كما قال الشاعر[٢].

دولة أولاد صلاح الدين

وخلف صلاح الدين بمحل وفاته. . .[٣] ولده الملك الأفضل نور الدين عليّاً.
وتملّك مصر ولده الملك العزيز عماد الدولة عثمان.

وتملك حلب ولده الملك الظاهر غياث الدين أبا الفتح غازي واشتغل أخوه الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب بما بشرقي البلاد من الفرات والولايات، واستناب فجبى فارقين، ودمياط وحران والرّها، وكان السلطان الملك الناصر صلاح

---

(١) ليس معنى هذا أن هذا حكماً شرعياً، وإنما هو تنزّة من الرجل رحمه الله وتورّع وزهد غير مكلف به، وإنما شدّة حب رسول الله ﷺ وإكرام له منه رحمه الله.
(٢) ثم ذكر ثلاثة أبيات مطموسة لم يظهر منها ما يفيد معنى.
(٣) ثلاث كلمات مطموسة.

الدين يدعو لأخيه هذا في الكلمة بعده، وكان ملازماً لدرب الصيد قُبيل. . .[١] فلما قفل السلطان دمشق انصرف هو إلى الكردستر. . .[١] فتوفي السلطان في غيبته واستقل ولده برتبته.

واستقل أخوه الثاني سيف الإسلام باليمن كما تقدم ذكره.

فاستشفوا بلالة الدنيا بعده بين تنازع وموافقة، ومحاربة ومسالمة ومجاملة، بحسب ما سوّغتهم الأقدار، وما منحهم الليل والنهار.

وكانت بينهم ملوك حسنت منهم الأخبار، وحمدت الآثار.

ولولا أن يطول الكتاب لتعددت منهم ومن أمثالهم الأسفار.

وقد حكى أبو الحسن بن سعيد الإمام الرحال ما كان من لحاقه بالبلاد: أنه لقي بالقاهرة كمال الدين بن العديم رسول سلطان حلب الملك الناصر، وإنه استصحبه محمد قفوله ليُطرف به الملك الناصر، وأنه أنشده لما دخل عليه، وذلك في حدود سنة ثمان وأربعين وستمائة، قصيدته التي أولها:

جُدْ لي بما لعق الخيال من الكرا ... لا بد للضيف المُلم من القِرَى

/ فقال السلطان كمال الدين: هذا رجل عارف قد ورى بمقصده من أول كلمة، [٩١/ب] ثم قال فيه أبيات:

والناصر الملك الذي عزّ ساقه ... أبداً تكون مع العساكر عسكرا

ملك رأيناه لفتح يلزم لامه ... والجمع من أعدائه متنكرا

فعظم استطراف السلطان لهذه المقاصد، وأثنى عليه، ثم وصل فقال:

الدين أصلحه وعَمَّ صلاحه ... الدنيا، وأصبح ناصراً ومظفرا

هو كان كنيته غدت موصوف عمه ... من يريه والوصف منه مقررا

وكأنما الأسماء قد عرضت على ... علياً قبل وجوده فتخيرا

فقال السلطان: كيف ترون؟!

واستعاده.

فقال له عون الدين العجمي، وكان كاتب الإنشاء استنباط ما سمع الملوك بمثله يا خوند، ثم قال:

من آل أيوب الذين هُمُ هُمُ ... ورثوا الندا والبأس أكبر أكبرا

أهل السياسة والرئاسة والعُلى ... بسيوفهم حلو الذرى سمع الذرى

(١) موضع النقط كلمة غير مقروءة.

سم العداة على حياة فيهُمُ لا تعجبن كذاك أساء الشَّرَا

كادوا يقيلون العداة من الرحى لو لم يمدوا كالحجاب العثيرا

جعلوا خواتم سمرهم من قلب كل معاند عد المثقف خنصرا

لو لم يخافوا فيه سَارٍ نحوهم وهبوا الكواكب والصباح المنبرا

وهي طويلة.

ثم استجلسه السلطان، وسأله عن بلاده، ومقصده بالرحلة.

فأخبره أنه جمع كتاباً في الحلى البلادية والحلى العادية، المختصة بالمشرق، وأنه سماه: «المشرق في حلى المشرق»، وجمع مثله وسماه: «المغرب في حلى المغرب». فقال: نعينك بما عندنا من الخزائن، ونُوصل إلى ما لا عندنا مثل خزائن الموصل وبغداد وتصف لنا المغرب بخدم على عادتهم.

فقال: لمولاي بذلك إنعام وتأنيس.

ثم قال له السلطان مداعباً: إن شعراءنا عندنا ملقّبون بأسماء الطيور، وقد اخترت لك لقباً يليق بحسن صوتك وإيرادك الشعر، فإن كنت ترضى به، وإلا لم يعلمه غيرنا وهو/ البلبل[1]. [٩٣/أ]

فقال: قد رضي المملوك يا خوند.

فتبسّم السلطان وقال مداعباً: اختر واحدة من ثلاثة:

إما الضيافة التي ذكرت في أول شعرك.

وإما جائزة القصيدة.

وإما إحسان التسمية.

فقال: يا خوند، المملوك ممن لا يختنق بعشر لقم فكيف بثلاثة؟

فطرب السلطان وقال: هذا مغربي ظريف. ثم أتبعه من الدنانير والخلع الملوكية، والتراقيع بالأرزاق ما لا يوصف.

ولقي بحضرته عون الدين العجمي، وهو بحر لا تنزفه الدلاء.

والشهاب التعلقري[2] الشهير الذكر.

---

(١) سقط الرقم [١٩٢أ،ب] من الترقيم في الصفحات، فيلاحظ، ونبدأ بالرقم المتمم للكلام وهو [٩٣/أ].

(٢) كذا جاء رسمه بمتن المخطوط، وبالهامش تصحيح مع علامة استفهام، فربما كان الكاتب غير متأكد نصه: «التلعفري؟».

والتاج ابن شقير.

وابن تسهيم الموصلي.

والشرف بن سليمان الأربلي.

وطائفة من بني الصاحب.

ثم تحول إلى دمشق ومصر، فجلس السلطان المعظم ابن الملك الصالح بدمشق، وجلس بخلوته.

قال صاحبنا أبو العباس بن أبي حجلة في موضوع وجهه إلى من بالبلاد ما نصه:

آخر ملوك مصر من بني أيوب المعظم توران شاه ابن الملك الصالح أيوب[1].

وكانت مدة ملكه المعظم إحدى وسبعين يوماً، ثم قتل.

وكان السبب في قتله: أنه لما بلغته وفاة أبيه الملك الصالح وصل من مصر كيفاً واستقل بملك مصر، فساءت سيرته، وأخذ في إبعاد مماليك أبيه، وتقريب الذين وصلوا معه من المشرق، فعند ذلك اجتمع جماعة من مماليك أبيه واتفقوا على قتله، ودخلوا عليه وفي أيديهم السيوف مجرّدة فهرب إلى برج من خشب كان في خيمته، وأغلق بابه عليه، فرموا فيه النار وأحرقوه، فخرج أمامهم من البرج وقصد البحر، فأدركوه به، وضربوه بالسيوف، فرمى بنفسه في البحر فتبعوه، وقتلوه في البحر.

فمات رحمه الله يوم الاثنين السادس والعشرين من المحرم سنة ثمان وأربعين وستمائة.

قال القاضي شهاب الدين بن فضل الله: ثم بعد ذلك اتفق الأمراء، وملكوا أم

---

(١) من مصادر ترجمته: مرآة الزمان (٨/ ٧٨)، ذيل الروضتين (١٨٥)، تاريخ مختصر الدول (٢٦٠)، المختصر في أخبار البشر (٣/ ١٨١)، كنز الدرر (٧/ ٣٨١)، دول الإسلام (٢/ ١١٦)، سير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٩٣)، العبر للذهبي (٥/ ١١٩)، تاريخ ابن الوردي (٢/ ٢٦٢)، الوافي بالوفيات (١٠/ ٤٤١)، فوات الوفيات (١/ ٢٦٣)، طبقات السبكي (٨/ ١٣٤)، البداية والنهاية (١٣/ ١٨٠)، النجوم الزاهرة (٦/ ٣٦٤)، شذرات الذهب (٥/ ٢٤١).

وقال الذهبي في ترجمة سير أعلام النبلاء: ولد بمصر وعمل في نيابة أبيه، ثم تملّك بحصن كيفا، وآمد، وتلك البلاد، وكان أبوه لا يختار أن يجيء لما ملك مصر، كان لا يعجبه هَوَجُهُ ولا طيشه، وسار لإقدامه الأمير الفارس أقطاي. وسار به يتحايد ملوك الأطرف من نحو من خمسين فارساً على الفرات وعانة، ثم على أطراف السماوة، وعطشوا فدخلوا دمشق، وزينت له، ثم سار منها بعد شهر، فاتفقت كسرة الفرنج عند وصوله وتيمن الناس به، فبدا منه حركات منفرة وترك بحصن كيفا ابنه الملك الموحد صبياً، فطال عمره، واستولت التتار على الحصن. فبقي في مملكة صغيرة حقيرة من تحت يد التتار إلى بعد السبعين وستمائة.

خليل سرّية الملك الصالح اسمها: شجرة الدُّر.

وحلفوا لها، واستحلفوا جميع العساكر المصرية والشامية، ورتّبوا الأمير عز الدين أيبك التركماني أتابك العسكر.

ثم تزوّجت الأمير عز الدين أيبك المذكور وكان مملوك زوجها الملك الصالح. وخلعت نفسها من الملك وسلَّمته إليه في شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة.

وتسمى الأمير عز الدين أيبك التركماني بالملك المعزّ.

واستقلّ بالملك من التاريخ المذكور، فكان أول ملك من الترك.

[٩٣/ب] / قلت: ويأتي في الحديث عنه إن شاء الله.

دولة خاتون شجرة الدُّر[1] بمصر والشام وما إلى ذلك من بلاد الإسلام

وشجرة الدُّر ليست ممن دخل تحت شرطنا، وهو ذكر من بويع قبل الاحتلام

---

(١) قال الأستاذ عمر رضا كحالة في كتابه أعلام النساء في ترجمتها (٢/ ٢٨٦): شجرة الدجر أم الخليل الصالحة: من شهيرات الملكات في الإسلام، ذات إدارة، وحزم، وعقل، ودهاء، وبرّ، وإحسان، ملكها الملك الصالح في أيام والده، واستولدها ولده خليل، ثم تزوجها، وصحبته ببلاد الشرق، ثم سارت معه إلى جسر الكرك، ثم قدمت معه إلى البلاد المصرية، فعظم أمرها في الدولة الصالحية، وإليها غالب التدبير في أيام زوجها ثم في مرضه، وكانت تكتب خطاً يشبه خط الملك الصالح فتعلم على التوقيع.

قال صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي في تاريخه: شجرة الدّر، أم خليل الصالحية، كان يحبها الملك الصالح حبّاً عظيماً، ويعتمد عليها في أموره، ومهماته، وكانت بديعة الجمال ذات رأي وتدبير ودهاء وعقل، ونالت من السعادة ما لم ينله أحد في زمانها. ولما مات الملك الصالح كتمت موته، وجمعت الأمراء وأرباب السلطان، وقالت: السلطان يأمركم أن تحلفوا له أن يكون الملك من بعده لولده الملك المعظم تورانساه، فأجابوها إلى ذلك وأقسموا لها الأيمان بتنفيذ ذلك الطلب، ثم باشرت الحكم، وأخذت توقّع عن السلطان مراسيم الدولة إلى أن وصل تورانساه إلى المنصورة، وأرسل إليها يهددها، ويطالبها بالأموال، وعملت على قتله، وذلك: أرسلت إلى بعض البحرية في سابع المحرم سنة ستمائة وثمان وأربعين هجرية، فقتلوه. ولما قتل وقع الاتفاق على تولية شجرة الدّر السلطنة، فتولتها، وقبّلَ لها الأمراء الأرض من وراء الحجاب. فكانت تاسع من تولى السلطنة بمصر من جماعة بني أيوب، وذلك في الثاني من صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة. وجعلوا عز الدين أيبك الصالحي التركماني أتابك عسكرها.

ولما تمّ لها الأمر في السلطنة فرّقت الوظائف السنية على الأمراء، وفرقت الإقطاعات الثقال على المماليك البحرية وأغدقت عليهم بالأموال والخيول وأرضتهم بكل ما يرضي. وساست الرعية أحسن سياسة، فرضي الناس عن حكمها خير رضاء. أما الأمير عز الدين أيبك مدبر المملكة، فكان لا يتصرف ولا يقطع في أمر إلا بعد موافقتها واستشارتها ومعرفة رأيها فيه وإرادتها. وكانت تصدر =

من ملوك الإسلام، حاشى وكلا، فإنما تعدّ فيمن بايعه أبطال السروج من ذوات

= المراسيم وعليها توقيع شجرة الدّر بخطها باسم: والدة خليل. وخُطِبَ في أيام الجُمع باسم شجرة الدُّر على منابر مصر والشام، فكانت الخطباء تقول بعد الدعاء للخليفة: واحفظ اللهم الصالحة ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ذات الحجاب الجميل، والستر الجليل، والدة المرحوم خليل زوجة الملك نجم الدين أيوب. وضربت السَّكة باسمها، ونقش عليها: «السكة المستعصمية ملكة المسلمين الصالحية والدة الملك المنصور خليل».

وبلغ من سلطنتها أن أطلقت الملك فرنسيس ملك الإفرنج بعد مراسلات كثيرة، واشترطت عليه أن يسلم دمياط للمسلمين، فسلمها الفرنج بعد أن ظلت بيدهم أحد عشر شهراً وتسعة أيام، وعلى أن يحمل أموالاً مقررة، ثم توجه إلى بلاده بعد أن أصدر أمراً إلى الفرنج بدمياط يحملهم على تسليمها إلى المسلمين. وكانت شجرة الدر من ربّات البرّ والإحسان، فأوقفت مدرسة عرفت بمدرسة شجرة الدّر، وحماماً عرف بحمام الستّ. ولما بلغ الخليفة المستنصر بالله أبا جعفر وهو ببغداد، أن أهل مصر قد سلطنوا عليهم امرأة، أرسل يقول لأمراء مصر: أعلمونا إن كان ما بقي عندكم بمصر من الرجال من يصلح للسلطنة، فنحن نرسل لكم من يصلح لها، أما سمعتم في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»؟. وأنكر عليهم إنكاراً عظيماً، وهددهم وحضهم على الرجوع عن توليتها مصر.

فلما بلغ شجرة الدّر ذلك خلعت نفسها من السلطنة برضاها من غير إكراه بعد أن حكمت بالديار المصرية نحو ثلاثة أشهر إلاّ أياماً. وأشار القضاة والأمراء بأن يولوا عز الدين أيبك في السلطنة، وأن يتزوج بشجرة الدّر، فتزوج بها، ثم تولى السلطنة. فكان أول من تولى من ملوك الترك ولقب: «الملك العزيز»، وذلك في آخر ربيع الآخر سنة (٦٤٨هـ)، واستولت شجرة الدّر عليه في جميع أحواله، ثم عملت شجرة الدّر على قتل زوجها الملك العزيز أو المعز أيبك. وذلك أنه بلغها أن زوجها الملك المعز أيبك يريد أن يتزوج بنت الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وقد عزم على ذلك، وأنه ربما عزم على إبعادها أو إعدامها، لأنه سأم من حجرها عليه، واستطالتها، فعاجلته، وعزمت على الفتك به، وإقامة غيره في الملك.

وطلبت شجرة الدر صفي الدين إبراهيم بن مرزوق وكان بمصر، فاستشارته، ووعدته بالوزارة، فأنكر عليها ونهاها عن ذلك، فلم تصغ إلى قوله. وطلبت مملوكاً للطوشي محسن الجوهري الصالحي وعرضت عليه أمرها ووعدته ومنّته إن قتل المعز. ثم استدعت جماعة من الخدام واتفقت معهم، فلما كان يوم الثلاثاء (٢٣ من ربيع الأول) لعب المعز بالكرة ومن معه، وصعد إلى القلعة آخر النهار، وأتى الحمام ليغتسل، فلما خلع ثيابه، وثب عليه سنجر الجوهري، والخدام، فرموه وخنقوه. وطلبت شجرة الدّر ابن مرزوق على لسان الملك المعز. فركب حماره وبادر، وطلع القلعة من باب السر، فرآها جالسة، والمعز بين يديها ميت، فأخبرته الأمر، فعظم عليه جداً فاستشارته فقال: ما أعرف ما أقول، وقد وقعت في أمر عظيم، ما لك منه مخلّص. ثم طلبت الأمير جمال الدين بن ايْدُغدِي بن عبد الله العزيزي، وعز الدين أيبك الحلبي، وعرضت عليهما السلطنة، فامتنعا.

فلما ارتفع النهار شاع الخبر، واضطربت الناس. وأما شجرة الدّر، فإنها امتنعت بدار السلطنة، هي والذين قتلوا الملك المعز أيبك. وطلب المماليك المعزية هجوم الدار عليهم، فحالت الأمراء الصالحية بينهم وبينها حمية لشجرة الدّر. فلما غلبوا مماليك المعز منهم ومنها أمروها وحلفوا لها

الفروج وممن خدمته القضاة والعلماء. . .[١]، وباكرت أبوابه بالحضور وتعبيد الأمور، ومن ذوات البظور.

وممن استخدم صفير الأقلام وسمد الرمام، وجرد العراب وبيض الصباح، من ذوات الإحراج.

وكان الحاج يطوف وبيوت العبادة ترتب بها الصفوف، وقدر الدنيا عند الله معروف.

ومن جهل وفاته ومكانه فطرفه مطروف وعن باب الله لقلّة الشكر مصروف.

جعلنا الله ممن افتكره، ونعم الله عليه فشكره، وممن راح ميدان الرضى عنده وابتكر.

= أنهم لا يتعرضون لها بسوء. فلما كان يوم الاثنين (٢٩ منه) أخرجت من دار السلطنة إلى البرج الأحمر، فحبست به، وعندها بعض جواريها وقبض على الخدام.

واقتسمت الأمراء جواريها، واستمرت شجرة الدُّر بالبرج الأحمر بقلعة الجبل. والملك المنصور علي ابن الملك المعز أيبك ووالدته يحرضان المعزية على قتلها، والمماليك الصالحية تمنعهم عنها لكونها جارية أستاذهم. ووجدت مقتولة، مسلوبة، خارج القلعة، يوم السبت في الحادي عشر من ربيع الآخر، فحملت إلى التربة التي كانت بنتها لنفسها بقرب مشهد السيدة نفيسة، فدفنت بها.

ولشجرة الدر مآثر وأوقاف على وجوه البرّ والإحسان معروفة بها.

(١) كلمة غير مقروءة.

دولة المماليك من الترك بمصر والشام

نقول بعون الله وقوّته:

قد ذكرنا أن آخر الملوك من بني أيوب كان الملك المعظم ابن الملك الصالح، واستندنا في ذلك إلى من يوثق به في المعرفة بملوك بلاده، ويجري من الصواب على سداده.

وأن الملك المعزّ أيبك التركماني أول من ملك من الأتراك بحكم النيابة عن الخاتون شجرة الدُّر أم ولد الملك الصالح.

ثم بتقديمها إياه، وخروجها عن الأمر إليه.

حسبك بهذا الاستخلاف الوثيق الأساس الجامع بين النص والقياس، ونستغفر الله ربّ الناس ملك الناس إله الناس.

دولة الملك المعز أيبك[1]

استقام الأمر له من غير منازع سنين، ثم إن شجرة الدّر عَدت على الأمير عز الدين أيبك وأحكمت الأمر في قتله.

وكان السبب في ذلك أنه خطب بنت بدر الدين صاحب الموصل لنفسه، فبلغ

---

(١) من مصادر ترجمته: ذيل مرآة الزمان (١/ ٥٤)، دول الإسلام (٢/ ١٢٠)، العبر (٥/ ٢٢٢)، الوافي بالوفيات (٩/ ٤٦٨)، طبقات السبكي (٨/ ٢٦٩)، البداية والنهاية (١٣/ ١٩٨)، النجوم الزاهرة (٧/ ٣)، حسن المحاضرة (٢/ ٣٨)، شذرات الذهب (٥/ ٢٦٧)، سير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٩٨)، وذكر في ترجمته الجاشنكير صاحب مصر.

... كان المعز أكبر الصالحية، وكان ديناً، عاقلاً، ساكناً، كريماً، تاركاً للشرب، ملكوه في أواخر ربيع الآخر سنة ثمان. وتزوج بأم خليل، فأنف من سلطنته جماعة فأقاموا في الاسم الملك الأشرف موسى بن الناصر يوسف بن مسعود أطسز ابن السلطان الملك الكامل، وله عشر سنين، وذلك بعد خمسة أيام، فكان التوقيع يبرز وصورته: «رُسِمَ بالأمر العالي السلطان الأشرفي والملكي المعزي». واستمر ذلك والأمور بيد المعز. فنادوا أن الديار المصرية لمولانا المستعصم بالله، وأن الملك المعز نائبه. ثم جددت الأيمان، فأجاهم صاحب الشام الملك الناصر الحلبي، فالتقوا، وكاد الناصر أن يملك، فتناحت الصالحية، وحملوا، فكسروه، وذبحوا نائبه لؤلؤ وجماعة. وكان في المعز تؤدة ومداراة.

زوجته شجرة الدُّر، فتغيّرت عليه، وتغيّر هو عليها أيضاً، كرهها لأنها كانت تمُن عليه بأنها التي ملّكته مصر، وأسلمت إليه الخراج[١] والأموال، وكانت تتصرف في مملكة مصر وتأمر وتنهى، ومنعته من الاجتماع بزوجته التي هي أم ولده نور الدين/ علي [١/٩٤] حتى ألزمته بطلاقها.

ولما تمكن الغيظ منه نزل إلى مناظر اللوق وأقام بها، فبعثت إليه من حلف عليه وتلطف به.

وتمكن غيظه، فطلع إلى القلعة، وكانت قد أعدّت له من يقتله إذا طلع إليها. فصعد، ودخل الحمام، فدخلت إليه ومعها خمسة خدّام.

فأخذ بعضهم بأنثييه، وبعضهم بخناقه، فاستغاث بشجرة الدّر.

فقالت لهم: اتركوه.

فأغلظ لها بعضهم في القول، وقال: لما مسّ تركناه لا يبق عليك ولا علينا، ثم قتلوه، في التاريخ المذكور.

وتملّك بعده ولده: الملك المنصور نور الدين علي ابن الملك المعز، وقبض شجرة الدر ودخل بها إلى أُمِّه فقتلها بالقباقيب، ورمتها في الخندق عُريانة على باب القلعة، وبعد أيام دفنت على باب القلعة، وبعد أيام دفنت في تربتها.

فكانت مدة الملك المعز سبع سنين إلا ثلاثة أشهر وأياماً.

دولة المنصور علي بن أيبك[٢]

واستولى على الملك ولده المنصور الملقّب بنور الدين.

ودامت أيامه إلى سنة سبع وخمسين وستمائة.

وضعف عن الأمور، وعجز عنْ مزاحمة المماليك إياه في الملك.

واستولى عليه منهم المظفر سيف الدين قُطَز، فخلع علي بن أيبك، ونفاه، فلم يسمع له بعد خبر.

---

(١) في المخطوط: الخراب، وهو تحريف.

(٢) قال الذهبي في آخر ترجمة المعز في سير أعلام النبلاء (٢٣/ ٢٠٠) في الكلام على المنصور علي ابنه فقال: أما المنصور علي فعُزِلَ وتملّك قُطز الذي كسر التتار، فبعث بعلي وبأخيه قليج إلى بلاد الأشكري، فحدثني سيف الدولة قليج هذا أن أخاه تَنَصَّر بقسطنطينية، وتزوج وجاءته بأولاد نصارى، وعاش إلى نحو سنة سبعمائة، وسمَّى نفسه ميخائيل. قلت: نعوذ بالله من الشقاء، فهذا بعد سلطنة مصر كفر وتعثّر.

دولة الملك المظفر
قُطُـز[١]

واتصلت أيام الملك المظفر إلى ذي قعدة من سنة ثمان وخمسين وستمائة.

ثم قتل بعد كسره التتر بعين جالوت، ودفن بالقصير من أرض القلزوم[٢].

ثم ملك بعده الملك الظاهر بيبرس.

دولة الملك الظاهر
بيبـرس[٣]

وكانت ولاية الظاهر بيبرس في ذي قعدة المذكور، دخل مصر وقعد على سرير

(١) من مصادر ترجمته: ذيل الروضتين (٢١٠)، ذيل مرآة الزمان (٢/ ٢٨)، العبر (٥/ ٢٤٧)، فوات الوفيات (٣/ ٢٠١)، طبقات السبكي (٨/ ٢٧٧)، البداية والنهاية (١٣/ ٢٢٥)، النجوم الزاهرة (٧/ ٧٢)، سير أعلام النبلاء (٢٣/ ٢٠٠)، حُسن المحاضرة (٢/ ٣٨)، شذرات الذهب (٥/ ٢٩٣).

(٢) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمة المظفر ما نصه: السلطان الشهيد الملك المظفر سيف الدين قُطز بن عبد الله المعز. كان أنبل مماليك المعز، ثم صار نائب السلطنة لولده المنصور، وكان فارساً شجاعاً، سائساً، ديّناً، محبباً إلى الرعية. هزم التتار وطهّر الشام منهم يوم عين جالوت. وهو الذي كان قتل الفارس أقطاي فقُتل به ـ ويَسْلَم له إن شاء الله جهاده ـ.
ويقال: إنه ابن أخت خوارزم شاه جلال الدين، وأنه حُرّ، واسمه محمود بن ممدود. ويذكر عنه أنه يوم عين جالوت لما أن رأى انكشافاً في المسلمين رمى على رأسه الخوذة، وحمل ونزل النصر.
وكان شاباً أشقر، وافر اللحية، تام الشكل، وثب عليه بعض الأمراء وهو راجع إلى مصر بين الغرابي والصالحية، فقتل في سادس عشر ذي القعدة سنة (٦٥٨) ولم يكمل سنة في السلطنة رحمه الله.

(٣) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٥/ ٣٥٠): الملك الظاهر هو السلطان الكبير ركن الدين أبو الفتوح بيبرس التركي البندقداري، ثم الصالحي صاحب مصر والشام. ولد في حدود العشرين وستمائة واشتراه الأمير علاء الدين البندقداري الصالحي، فقبض الملك الصالح على البندقداري وأخذ ركن الدين منه، فكان من جملة مماليكه، ثم طلع ركن الدين شجاعاً فارساً مقداماً إلى أن بهر أمره وبعُدَ صيته. وشهد وقعة المنصورة بدمياط. ثم كان أميراً في الدولة المعزية، وتنقلت به الأحوال وصار من أعيان البحرية وولي السلطنة في سابع عشر ذي القعدة سنة ثمان وخمسين.
وكان ملكاً سرياً غازياً مجاهداً مؤيداً، عظيم الهيبة، خليقاً للملك، يضرب بشجاعته المثل، له أيام بيض في الإسلام وفتوحات مشهورة ومواقف مشهورة، ولولا ظلمه وجبروته في بعض الأحايين لعُدّ من الملوك العادلين، قاله في العبر.
وقال ابن شهبة في تاريخ الإسلام: توفي بقصره الأبلق بمرجة دمشق جوار الميدان، وغسلوه وصبّروه وعلّقوه في البحيرة إلى أن فرغ من الظاهرية فنقلوه إليها، وكان قد أوصى أن يدفن على الطريق وتبنى عليه قبة. فابتاع له ولده الملك السعيد دار العقيقي بسبعين ألف درهم، وبناها مدرسة للشافعية والحنفية، ونقله إليها ووقف عليها أوقافاً كثيرة، وفتح بيبرس من البلاد أربعين حصناً كانت

الملك واستمر ملكه إلى سنة ستٍ وسبعين وستمائة، ثم مات بدمشق في السابع والعشرين لمحرم من السنة بعدها.

وولي بعده ابنه الملك السعيد ناصر الدين المسمى بَرَكَة، بفتح الباء.

دولة الملك السعيد بَـرَكَـة(١)

واستمر في الملك إلى سنة ثمان وسبعين وستمائة.

ثم خلع من الملك.

[٩٤/ب] وقدم بعده/ الملك العادل المسمى شلامِش ابن الملك الظاهر بيبرس.

دولة الملك العادل شـلامِـش

وتقدم شلامِش صغيراً، عمره نحو من سبع سنين. وهو من المشترط ذكره في الكتاب ممن بُويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام. وتعيّن للنيابة عنه الملك المنصور سيف الدين أبو المعالي قلاوون التركي الصالحي النجمي الألفي ـ وهو أبو هؤلاء الملوك ـ.

وهذا المقدار هو الذي صح عندنا في أمرهمْ بالمغرب لعدم المعتني بذلك من الحجاج في زماننا وما يتصل به منهم لنهم الرجل منهم بقضاء ما توجه إليه.

دولة الملك المنصور قـلاوون(٢)

وهو سيف الدين أبو المعالي.

= مع الفرنج افتتحها بالسيف عنوة.

وقال الذهبي: انتقل إلى عفو الله ومغفرته يوم الخميس بعد الظهر الثامن والعشرين من المحرم بقصره بدمشق وخلف من الأولاد الذكور الملك السعيد محمد ولي السلطنة وعمره ثماني عشرة سنة، والخضر، وشلامِش، وسبع بنات، ودفن بتربة أنشأها ابنه.

(١) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٥/ ٣٦٢): السلطان السعيد الملك ناصر الدين أبو المعالي محمد ابن الملك الظاهر بيبرس، ولد في حدود سنة ثمان وخمسين وستمائة بظاهر القاهرة وتملّك بعد أبيه سنة ست وسبعين في صفر. وكان شاباً مليحاً، كريماً، حسن الطباع، فيه عدل ولين وإحسان ومحبة للخير. خلعوه من الأمر، فأقام بالكرك أشهراً ومات شبه فجأة في نصف ذي القعدة بقلعة الكرك، ثم نقل بعد سنة ونصف إلى تربة والده وتملك بعده أخوه خضر.

(٢) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٥/ ٤٠٩): السلطان الملك المنصور سيف الدين أبو المعالي، =

تقدم كما ذكرنا نائباً عن الصبي الصغير شلامِش، وحَلَفَتْ له الأمراء معه، وذُكر اسمه في الخطبة مع شلامش، ونقشت أسماءهما في السكة، فكانت السكة ذات وجهين الواحد فيه اسم شلامش والثاني فيه اسم قلاوون، وفي ذلك يقول الشاعر:

يقولون ما للمال بمصرك. . . [(١)] ومهما اقتضيت الوعد أخلف مَوْعِدَا

فقلت وما ذنبي بليت بغادرٍ يناقض قول اليوم أن قاله غدَا

لذا كان ذا وجهين دينار وقتنا فمن يرتجيه أو يشدّ به يدَا

وأهل المشرق تستحسن نوادرهم في هذا المعنى.

وأُنشدت لبعضهم في الفلوس المصرية، وهم يصوّرون على الفلوس المصرية شكل أسد وهي علامة سكة السلطان:

لحا اللّه مصر وسكانها وفتت أكبادهم بالحَسَدْ

متى يرتجى مُفْلِسٌ عندهم غني وعلى كل فلس أسَدْ

وقال بعضهم يجيب مغربياً عن إنكار الأسود على السكة التي هي أصل الأقوات:

أسودكم تغتالكم ولأجل ذا رسمنا أُسود الترك في الصرف راتبه

لكن تعلموا أن الأسود تَقُوتُنا بضد الذي بأرضكم يا مغاربة

فأجابه المغربي وتَنَادَرَ به ما شاء الله:

/لقد قلت ما لا وجه فيه لقائل محجته عند النزاع. . . . . [(٢)] [١/٩٥]

كلانا لأسد الشرق والغرب أكلا وزدتم بأسد صهوة المال راكبه

فهذي وذي في كل حال عليكم إذا ما رحلتم أو أقمتم مُغَاضِبُه

واستمرت نيابة الملك المنصور قلاوون إلى رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة.

وخلع شلامش واستبد بالملك، وكان أبا المماليك من الترك، وله الإمارة

= وأبو الفتح قلاوون التركي الصالحي النجمي، كان من أكبر الأمراء زمن الظاهر، وتملك في رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة. وكسر التتار على حمص، وغزا الفرنج غير مرّة، وفتح طرابلس وما جاورها، وفتح حصن المرقب.

وفي سنة ثمان وثمانين عمل في القاهرة بين القصرين تربة عظيمة، ومدرسة عظيمة، ومارستان للمرضى. وكانت وفاته ظاهر القاهرة بالمخيم، وقد عزم على الغزاة فتوفي في سادس ذي القعدة ودفن بتربة بين القصرين.

(١) كلمة غير مقروءة.

(٢) كلمة غير مقروءة هذا رسمها في المخطوط: «مغارمه».

والأخبار والمباني الخطيرة، والفضائل التي هي الشمس أوضحتها الظهيرة.

قال الأديب أبو العباس في كتابه: «السكردان» في وصفه:

تسلطن بعد خلع الملك العادل شلامش ابن الملك الظاهر، وصفا له من بطانته الباطن والظاهر، وتصرف في البلاد عرضاً وطولاً، وكانت له به معرفة النظر في الكتب اليد الطولى، له في ذلك الغرائب والعجائب، تنقلها النجائب.

وهو ممن تجنب السبع الموبقات، وأكثر من الفتوح والفتوحات، فكسر التتر سنة ثمانين، وترك الفرنج من جيشه في حلقة السعير.

وله في القاهرة الأوقاف المبرورة، والمدرسة المشهورة، والمارستان الذي هو عون الفقير، وجبر الكسير.

قلت: وثابت بين الملوك المنصور وبين سلطان التتر الذي قصد الشام مجموعة على عهده محاربات ومواقعات، ولولا فضل دفاعه وجهاده لكان ملكِ التتر قد استضاف البلاد المصرية والشامية إلى بلاده.

وكان هو وابنه الملك الأشرف خليل الملك بعده من أهل الشعور الكائنات والمحدِثين القضايا المستقبلات وحسبما تقتضيه أسطار الحكايات.

حكى بعض خدمه وكفاته:

أنه خرج في بعض الأيام إلى قبّة النصر هو وجماعة من الأمراء على سبيل الفرجة، وضربت له صواوين خفاف واستدعى بخراف من الرمسان البراري، فعرضها وقلبها، وتخيّر منها خروفاً من أصحها أعضاء، وفرّق بقية الخراف على المماليك الأمراء، وقال: ليقم كل واحد منكم بذبح خروفه ويشويه بيده مثل ما كُنَّا نعمل في بلادنا وأنا في الأول.

[٩٥/ب] ثم قام/ وذبح الخروف الذي اختاره وشواه بيده، فلما انتهى طلب الأمراء ليأكلوا معه.

ثم أخذ منه الكتف اليمنى، فأكل لحمها إلى أن أحفاها وترك العظم قليلاً حتى جفَّ، ثم قام فجعل يلوحه على النار برفق ثم أخرجه ونظر إليه، وأطال فيه التأمل قليلاً، ثم تفل عليه، وشتمه وألقاه من يده.

فسأله بعض الأمراء عن ذلك بعد أن سكن غضبه.

فقال: قالوا لي: هذا العظم من هذا الصبي، فنحن لا نخرجه إلى الشام، فإنه متى خرج إليه هرب وعمل فتنة كبيرة، فلم يزل فنحن مؤخراً عنده بهذا السبب هذه حياته.

فلما مات وتسلطن بعده ولده الملك الأشرف، وتسلطن لاجين بعد خلع الملك الناصر خرج فنجق نائبه إلى الشام فجرت بينهما وحشة فهرب فنجق إلى الشرق وعمل الفتنة العظيمة بمجيء غازان وعسكر التتر.

فجرى على المسلمين ما لا يكون شرحه، فكان الأمر كما قال الملك المنصور رحمه الله.

قال المخبر بذلك من أهل البلاد: وكان فنجق عسر الله في نفسه قنينة دهن ورد تُخَبأ ليوم مشؤم.

قال القاضي محيي الدين فضل الله: حكى لي فنجق بعد عودة التتر قال: لما تلاقينا نحن وأنتم تتعتع جيشنا بهم وغازان بالهروب وطلبني ليضرب عنقي قبل أن يرجع لأن خروجه كان برأسي ففطنت لذلك. فلما صرت بين يديه قال لي: إيش هذا؟

فضربت له حوكاً ثم قلت: أنا أخبر بأصحابي وهم لهم حملة واحدة...[1] يصبر ويبصر كيف ما يبقى قدامه أحد منهم؟ فثبت فكان الأمر كما قلت، وخلصت من يده فلما انكسرتم أراد أن يسوق عليكم فعلمت أنه متى ساق عليكم ما يُبقي منكم أحداً، فقلت...[2] يصبر فإن أصحابنا خباث وربما يكون لهم كمين، وقد انهزموا مكيدة متى نسوق خلفهم فيردون، فوقف حتى أبعدتم عَنا، فلولا أنا ما قتل منكم أحد، ولولا أنا ما بقي منكم أحد.

وجرت بين الملك المنصور قلاوون وبين الملوك الكرام من بني مدين قدسهم الله المهادات، فبعث إليه أمير المسلمين أبو يعقوب هدية مشتملة على خيل عديدة، وبغال رومية، وغير ذلك من الأمتعة، زعموا أن الدواب بين فرس وبغل، وجمل بلغت سبعمائة دابة. وكان الذي تولى إيصالها رسول الملك المنصور عند قفوله بجواب رسالته إليه هو سيف الدين بكتمر الجوكندار، وكان عزيزاً على الملك [١/٩٦] المنصور قلاوون يخاطبه بالعمومة.

ولما بلغت الهدية إلى الحدية من أحواز اتصل بهم خبر مهلك السلطان أبي يعقوب فسلبتها العرب بذلك الموطن ولحق الرسول بالمشرق بعد مشقة.

وتوفي الملك المنصور قلاوون في سادس ذي قعدة سنة تسع وثمانين وستمائة. فكانت دولته إحدى عشرة سنة وأربعة أشهر.

---

(١) كلمة غير مقروءة المخطوط هذا رسمها: «بالنان»، أو لا معنى لها مع السياق.

(٢) كلمة مثل السابقة بغير الباء، أي بهذا الرسم: «الفار».

وكان قد عهد في حياته إلى ولد له اسمه علي ودعاه بالسلطان الملك الصالح وخُطب له على المنابر معه، وأهّله لخلفه وهو صبي صغير لم يبلغ الحُلم، جميل الخَلق مؤهل للملك، وفيه يقول السراج الورّاق من قصيدة:

لقد عفّ في سلطانه وجماله ... فللّه ملك فيهما قد تعفّفا

وأغرب في تصنيف أفعاله التي ... روينا بها عنه الغريب المصنفا

وهذا الملك الصالح من شرط كتابنا لانعقاد البيعة له صبياً وتوفي شاباً في حياة أبيه في شعبان سنة سبع وثمانين وستمائة بعد موت أخته غارية خاتون زوج الملك السعيد ابن الملك الظاهر باشر، وَدُفِنا عند أُمهما في تُرْبَة بين مصر والقاهرة.

وولي الأمر بعده ولده الملك الأشرف.

دولة السلطان الملك الأشرف

واسمه خليل.

ولقبه صلاح الدين.

ولي في ذي القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة.

وكان ملكاً جليلاً أحسن المناب عن والده الملك المنصور رحمه الله ـ فيما عاقته المنية عنه من قصد مدينة عكا ـ وتحرك إليها بجيوش المسلمين من مصر والشام وافتتحها، وأراح البلاد الشامية منها وبفتحها تم للمسلمين خلاص الشام بأجمعه من أيدي النصارى.

ثم إن الإسلام...[1] بسببها وحميت الإفرنج لأجلها إذ يرونها الركاب إلى تملك بيت المقدس.

فجمع الأيدي عليها وألصقها بالأرض فلم تعمر بعده ولا يطمع الروم في بنائها.

وكان صابر الإدراك، ملهماً للصواب، صادق الخواطر.

ذكر الأديب أبو العباس في كتابه: أن الملك الأشرف كان جالساً في بعض الأيام بالميدان والقرّاء يقرأون بين يديه والسلطان والده المنصور يومئذ محاصر طرابلس.

[٩٦/ب] فقال وهم لا/ يعلمون من يعينه؟ نصره الله في هذه الساعة أخذت طرابلس. فلم يمض إلا مدة قدر مسافة الطريق حتى وردت الأخبار بفتح طرابلس، فكان الأمر كما قاله.

---

(١) كلمة في المخطوط هذا رسمها: «السر»، أو: «الس».

قال المخبرون: لكأن الأمر كشفه الله تعالى لذهنه الشريف وإدراكه المنيف.

وجرى ذكره في الفصول المسجعة المشرقية من كتاب: «السكردان»[١] فقال: كان ليثاً هماماً، وبطلاً ضرغاماً، افتتح ملكه بالجهاد، وتمهيد البلاد، فنظف الساحل وقطع عن أهله الواصل، وتسوّر السور على أهل صور، وهجم البيوت على أهل بيروت، بعد أن سار رويداً وصاد بفخاخ منجنيقاته عكا وصيدا، ونال الرضى الأسنى من أهل...[٢] باب السر حين فتحت، و...[٢] بعدها ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ﴾ [الرُّوم: الآيتان ١، ٢].

فأفنى أوقاته في الحروب، وأخذ بثأر أبي أيوب، سيَّما حين فتح عكا ودكّ أرضها سنابك خيله دكّاً دكّا، فرعى مروجها، وقتل علوجها، وأسر بأبشارها، ثم هدم أسوارها، ففرح به المسلمون، وانتصروا، وقطع دابر الذين كفروا.

وكان رحمه الله مع ما فيه من البادرة، حَسَنَ النادرة، وكان يحب الغرباء، ويطارح الأدباء وفيه يقول القاضي علي الدين بن عبد الظاهر يصف فضله الباهر:

ما رأيت ولا سمعت بأسبق من ذهنه إلى فهم، ولا أدري لما يزيل الوهم، ولقد كتبت عنه، واستكتبت، فما علّم قط على مكتوب إلاّ وقرأ جميعه، وفهم أصوله المكتوبة وفروعه، لا بل واستدرك عليّ وعلى الكتاب، وخرج أشياء كثيرة فعرفنيها الصواب، وذلك بحسن تعطف، وفضل تلطف، و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾ [الجُمُعَة: الآية ٤].

وكان قد أسقط المكوس لأول ولايته بدمشق وغيرها، وكتب على مرسوم بإزالة مكس كان يلزم حمل الجمل من القمح بباب الجابية بدمشق، وكتب بين سطوره بقلم العلامة بخطه ما نصه:

---

(١) قال حاجي خليفة في كتابه القيم الجليل: كشف الظنون عن أسماء من الكتب والفنون (٢/ ٩٩٤) في الكلام على هذا الكتاب ما نصه: سكردان لابن أبي حجلة أحمد بن يحيى التلمساني المتوفى سنة (٧٧٦) ألفه في سنة (٧٥٧) للملك الناصر. وأوله: بسم الله، الحمد لله... الخ. وهو على مقدمة وسبعة أبواب: المقدمة فيما يتعلق بإقليم مصر. الباب الأول: في خواص الإقليم السبعة. الثاني: في علاقة السلطان لذلك العدد. الثالث: في مناسبة الإقليم بذلك. الرابع: في كون ذلك السلطان السابع من السلاطين التركية. الخامس: في سيرته. السادس: في الاتفاقات الغريبة. السابع: في تفسير بعض ألفاظ الكتاب ونتيجته.

ومنتخبه على خمسة أبواب: الأول: في قصة يوسف عليه السلام. والثاني: في قصة موسى عليه السلام وفرعون. والثالث: في سيرة ملوك مصر. الرابع: في سيرة الحاكم بأمر الله. والخامس: في سبع زهرات وأوراد. في آخر كل باب خاتمة الباب، وهي سبع حكايات.

(٢) كلمات غير مقروءة.

«ولتكشف عن رعايانا هذه الظلامة، وتستجلب الدعاء لنا من الخاصة والعامة، وأزرق الصبح بيد، وأقبل أبيضه وأول المزن طل ثم ينسكب».

[١/٩٨] / وإليه[١] تنسب الأشرفية التي بقلعة الجبل المحروسة.

قال ابن أبي حجلة: وهي الآن كنانة الله في أرضه، ومعقل سنّة العدل وفرضه، والسّر في المكان لا في المنزل.

وفي الملك الأشرف وجهاده يقول القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله:

يا بني الأصفر قد حلّت بكم ... نقمة الله التي لا تنفصل

نزل الأشرف في ساحلكم ... فابشروا منه بصقع متصل

وقال شمس الدين محمد بن علي فيه، وفي السلطان صلاح الدين بن أيوب:

مليكان قد لقبا بالصلاح ... فهذا خليل، وذا يوسف

فيوسف لا شك في فضله ... ولكن خليل هو الأشرف

وفاته في العشر الأول لمحرم سنة اثنتين وتسعين وستمائة، وقد خرج إلى الصيد ونزل بأرض الحمامات وهجم عليه وقت العصر وهو بنزوحه من تلك الجهات نائب السلطان بيدرا[٢]، وجماعة من الأمراء فأحاطوا به ولم يكن معه، ولا مع أحد من

---

(١) الورقة رقم [٩٧أ، ب] تكررت التصوير فزاد الرقم فيلاحظ لترك رقمها غفلاً كما حدث مع ورقة سابقاً قبل هذه بقليل في أوائل التسعينات أيضاً.

(٢) كذا في المخطوط، وفي شذرات الذهب (٥/ ٤٢٢): بندار، وفي وفاة الأشرف يقول ابن العماد في وفيات سنة ثلاث وتسعين وستمائة: فيها قتل الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن الملك المنصور سيف الدين. ولي السلطنة بعد والده في ذي القعدة سنة تسع وثمانين، وفتك به الأمير بندار، وذلك أنه جهز العسكر مع وزيره إلى القاهرة وتخلى بنفسه ليخلو مع خاصته بسبب الصيد، وترك نائبه الأمير بندار تحت الصناجق.

فلما كان وقت العصر وهو جالس بمفرده، قدم الأمير بندار وصحبته جماعة من الأمراء، فقتلوا السلطان وحلفوا البندار وسلطنوه، ولقب بالملك القاهر. وتوجهوا إلى مصر فلقيهم الخاصكية، ومقدمهم الأمير زين الدين كتبغا فحملوا عليهم، فانهزم الأمير بندار، فأدركوه، وقتلوه، ومسكوا باقي الأمراء فقتلوهم، وأقاموا الملك الناصر وحلفوا له، واستقر الشجاعي وزيراً، ومسك ابن السلعوس، واستأصلوا أمواله، ومسكوا أقاربه وذويه، وكان قد أحضرهم من الشام، فحلت عليهم النقمة إلا رجل واحد لم يحضر من الشام، وكتب إليه شعراً:

تنبه يا وزير الأرض واعلم ... بأنك قد وطئت على الأفاعي

وكن بالله معتصماً فإني ... أخاف عليك من نهش الشجاعي

فكان كما قال، فإنه مات من نهشة الشجاعي، عاقبه إلى أن مات، ولم يجد لنهشه درياقاً. ثم إن الشجاعي عزم على قتل كتبغا، فركب عليه وحصره في القلعة فقتله بعض مماليك السلطان ورموا به =

مماليكه سيف طمأنينة، وركوناً إلى الأمان. فبادر إليه بيدرا وضربه بالسيف فقطع يده وصاح به حسام الدين الأمير وقال: من يريد الملك تكون ضربته هذه؟!.

وضربه على كتفه ضربة بَتَّه بها وسقط منها إلى الأرض ميتاً.

وتركوه في ذلك المكان طريحاً، وفيه يقول بعض شعرائهم:

ألم تر يا ليث التتر قد تناشت   ذئاب العلا منه ذراعاً وساعدا

وكانت مدة ملكه ثلاث سنين وشهرين وخمسة أيام.

وكان رحمه الله من أبناء الثلاثين سنة. ثم ملك بعده أخوه الملك الناصر.

دولة الملك الناصر(١)

وهو محمد بن قلاوون الصالحي.

= إلى كتبغا، فسكنت الفتنة وخرج الناس بموته وطافوا به في البلد وتزايدت أفراح الناس لما كان تعمد من المظالم.

(١) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٦/ ١٣٤): الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون بن عبد الله الصالحي. ولد في صفر، وقيل: في نصف المحرم سنة أربع وثمانين وستمائة. وشوهد منه أنه ولد وكفاه مقبوضتان ففتحتها الداية فسال منها دم كثير. ثم سار يقبضهما فإذا فتحهما سال منهما دم كثير، فأوّل ذلك بأنه يسفك على يديه دماء كثيرة.

فكان كذلك، وولي السلطنة عقب قتل أخيه الأشرف وعمره تسع سنين، فولى السلطنة سنة إلا ثلاثة أيام ثم خلع بكتبغا. وكان كتبغا قد جهز الناصر إلى الكرك بعد أن حلف له أنه إذا ترعرع وترجّل يفرغ له عن المملكة بشرط أن يعطيه مملكة الشام استقلالاً. ثم أحضر الناصر من الكرك إلى مصر سنة ثمان وتسعين وسلطنوه ثانياً. واستقر بيبرس الجاشنكير دويدار وسلار نائباً في السلطنة، ولم يكن للناصر معهما حكم البتة، واستقر أقش الأفرم نائب دمشق.

وحضر الناصر وقعة غازان سنة تسع وتسعين، وثبت الناصر الثبات القوي وجرى لغازان بدمشق ما اشتهر وقطعت خطبة الناصر من دمشق مدة، ثم أعيدت فتحرك غازان في العود، فوصل إلى حلب ثم رجع. وفي شعبان سنة اثنتين وسبعمائة كانت وقعة شقحب، وكان للناصر فيها اليد البيضاء من الثبات والفتك، ووقع النصر للمسلمين. ثم في سنة ثمان وسبعمائة أظهر الناصر أنه يطلب الحج، فتوجه إلى الكرك، وأقام بها، وطرد نائب الكرك إلى مصر، وأعرض عن المملكة لاستبداد سلار وبيبرس دونه بالأمور، وكتب الناصر إلى الأمراء بمصر يترقق لهم ويستعفيهم من السلطنة، ويسألهم أن يتركوا له الكرك، فوافقوه على ذلك.

وتسلطن بيبرس الجاشنكير، ثم قصد الناصر مصر في سنة تسع وسبعمائة فاستقر في دست سلطنته يوم عيد الفطر، ولما استقرت قدمه قبض على أكثر الأمراء وعزل وولّى، وحج وجدد خيرات كثيرة وبنى جوامع ومدارس وخوانق. وفتحت في أيامه ملطية وطرسوس وغيرهما، واشترى المماليك فبالغ في ذلك حتى اشترى واحداً بما يزيد على أربعة آلاف دينار.

قال في الدرر: ولم ير أحد مثل سعادة ملكه وعدم حركة الأعادي عليه براً وبحراً مع طول المدة، فمنذ وقعة شقحب إلى أن مات لم يخرج عليه أحد، ووجدت له إجازة بخط البرزالي من ابن مشرف

وهذا الرجل في الأزمان المتأخرة خاقان الأتراك، وأبو الأملاك الطويل العمر، النافذ الأمر، المجرّب لصروف الدهر، وألوان الشر.

جلس على سرير المُلك رابع عشر المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة.

[٩٨/ب] / ومولده في سنة أربع وثمانين وستمائة.

وكانت سنه يوم قعد للملك نحواً من تسع سنين وهو بعيد من سن الاحتلام، فهو لذلك ممن شرطنا ذكره وجلبنا الكتاب بسببه.

وخلع من المُلك سنة أربع وتسعين. وتولى الأمر الملك العادل عزيز الدين كتبغا ثم لاجين المنصور.

دولة كتبغا ولاجين

وتمادى نظر كتبغا إلى شهر المحرم سنة ست وتسعين.

ثم ملك بعده الملك المنصور حسام الدين لاجين(١) المنصور.

وأقام في الملك إلى شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وستمائة.

وهجم عليه جماعة من الخاصكية في ليلة الجمعة، وهو قاعد يلعب بالشطرنج مع أحد جلسائه فمهروه بالسيوف.

واتفق الأمر على استحضار الملك الناصر من الكرك(٢).

= وغيره، وسمع من ست الوزراء، وابن الشحنة، وخرج له بعض المحدثين جزءاً وكان مطاعاً مهيباً عارفاً بالأمور، يعظم أهل العلم والمناصب الشرعية ولا يقرر فيها إلاّ من يكون أهلاً لها.

وتوفي في تاسع عشر ذي الحجة بقلعة مصر في آخر النهار، وحمل ليلاً إلى المنصورية فغسل بها وصلى عليه عز الدين بن جماعة القاضي إماماً بحضرة أناس قلائل من الأمراء، وحصل للمسلمين بموته ألم شديد لأنهم لم يلقوا مثله، وعهد قبيل موته لولده الملك المنصور فجلس على كرسي الملك قبل موت والده بثلاثة أيام، والله أعلم.

(١) كذا في المخطوط، وفي بعض الكتب وفي شذرات الذهب (٥/ ٤٣٤) في ذكره لحوادث ووفيات سنة (٦٩٦) سماه: لاشين، بالشين بدل الجيم، فقال: وفيها توجه الملك العادل إلى مصر، فلما كان باللجون، وثب حسام الدين لاشين المنصور على بيحاص، وبكتوت الأزرق، فقتلهما، وكانا جناحي أستاذهما العادل، فخاف وركب سراً في أربعة مماليك، وساق إلى دمشق، فدخل القلعة فلم ينفعه ذلك، وزال ملكه، وخضع المصريون لحسام الدين، ولم يختلف عليه اثنان، ولقب بالملك المنصور. وأخذ العادل تحت الحوطة فأسكن بقلعة صرخد وقنع بها.

(٢) في المخطوط: «الكرد»، والتصويب في شذرات الذهب (٥/ ٤٤٠) في أحداث سنة (٦٩٨) حيث ذكر خبر قتل لاجين، وذكره هنا بالجيم، فقال: وفي ربيع الآخر استوحش قبجق المنصوري نائب الشام وبكتمر السلحدار وغيرهما من فعائل منكوتمر وخافوا أن يبطش بهم وبلغهم دخول ملك التتار =

فعاد إلى الملك واستمر فيه حتى[(١)] سنة ثمان وسبعمائة.

واضطربت الأحوال بمملكته وخشي من الأمراء على نفسه، فأظهر التوجه إلى الحج.

فلما تأهب لذلك، وصار في أثناء الطريق عرج إلى الكرك[(٢)]، وثنى عزمه عن الحجاز، وأظهر الانقطاع والتخلي عن الملك.

وصرف من كان معه إلى الديار المصرية.

دولة بيبرس المظفر[(٣)]

ولما رجع الأمراء عن السلطان الملك الناصر إلى مصر بعد استقراره بالكرك.

= في الإسلام فأجمعوا على المسير إليه، فساروا من حمص على البرية، فلم يلبثوا أن جاء الخبر بقتل السلطان ومنكوتمر على يد كرجي الأشرفي ومن قام معه، هجم عليه كرجي في ستة أنفس وهو يلعب بالشطرنج بعد العشاء ما عنده إلا قاضي القضاء حسام الدين الحنفي، والأمير عبد الله، ويزيد البدوي، وأمامه المجير بن العسال، قال حسام الدين: رفعت رأسي فإذا سبعة أسياف تنزل عليه ثم قبضوا على نائبه فذبحوه من الغد.

ونودي للملك الناصر وأحضروه من الكرك، فاستناب في المملكة سلار ثم قتل طغجي وكرجي الأشرفيان ثم ركب الملك الناصر بخلعة الخليفة وتقليده، وقدم الأفرم على نيابة دمشق في جمادى الأولى. وكان الملك المنصور أشقر أصهب فيه دين وعدل في الجملة وله شجاعة وإقدام.

(١) في المخطوط: «من» وهو تحريف.

(٢) في المخطوط: «الكرد» وهو تحريف.

(٣) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٦/ ١٨) في أحداث سنة تسع وسبعمائة: فيها كما قال السيوطي: خرج السلطان الملك الناصر بن قلاوون قاصداً للحج فخرج من مصر في رمضان، وخرج معه جماعة من الأمراء لتوديعه فردهم. فلما اجتاز بالكرك عدل إليها، فنصب له الجسر فلما توسطه تكسر به، فلم يسلم من قدامه، وقفز به الفرس فسلم، وسقط من وراءه وكانوا خمسين، فمات أربعة وتهشم أكثرهم في الوادي الذي تحته. وأقام السلطان بالكرك، وكتب كتاباً إلى الديار المصرية يتضمن عزل نفسه عن المملكة. فأثبت ذلك على القضاة بمصر، ثم نفذ على قضاة الشام، وبويع الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير بالسلطنة في الثالث والعشرين من شوال. ولقب الملك المظفر، وقلده الخليفة وألبسه الخلعة السوداء، والعمامة المدورة، ونفذ التقليد إلى الشام في كيس أسود أطلس فقرىء هناك، وأوله: «إنه من سليمان، وإنه بسم الله الرحمٰن الرحيم»، ثم عاد الناصر في رجب سنة تسع، وطلب عوده إلى المُلك، وولاه على ذلك جماعة من الأمراء، فدخل دمشق في شعبان، ثم دخل مصر يوم عيد الفطر، وصعد القلعة...

وخذل المظفر فجاء إلى السلطان فوبخه وخنقه، وأباد جماعة من رؤوس، وتمكن وهرب نائبه سلار نحو تبوك، ثم خدع وجاء برجله إلى أجله، فأميت جوعاً. وأخذ من أمواله ما يضيق عنه الوصف، وكان تملك أحد عشر سنة. وكان مغلياً أسمر، سهل الخدين، ليس بالطويل، ذا هيئة، قليل الظلم، وبلغ من الجاه والمال ما لا مزيد عليه.

اتفق الرأي منهم على أن يكون بيبرس الجاشنكير سلطاناً، والأمير سلار نائباً عنه.

فجلس بيبرس على سرير الملك، وأقام يدبر ملك الترك أحد عشر شهراً، إلى يوم الثلاثاء: سادس عشر شهر رمضان سنة تسع وسبعمائة، فاضطربت أحواله، وبلغه إقبال الملك الناصر إليه.

وكان طائفة من الأمراء لحقوا به، وحركوه من الكرك إلى دمشق، وانتظمت بها أحوال ملكه، وشرع في العود إلى البلاد المصرية.

ولما تحقق الملك المظفر ذلك، أخذ جميع ما في الخزائن من مال وذخيرة وخرج إلى أسوان من بلاد الصعيد.

ودخل الملك الناصر مصر يوم الخميس الثاني من شهر شوال.

دولة الملك الناصر الثالثة

[٩٦/أ] / واستقل على سرير ملكه وقت[١]... معتادة عنده وحلفت له العساكر.

ووجه جماعة من الأمراء إلى بيبرس، ووقعت بينهما مراوضة اتفق فيها على دخوله تحت طاعة السلطان الملك الناصر، والقدوم عليه، وعلى أن يقلده حميده وأعمالها.

فلما ورد على بابه اعتقله، وأذاقه وبال أمره.

ووصف أبو العباس بن أبي عجلة السلطان الملك الناصر في كتابه فقال:

كان ملكاً مهاباً، وجواداً، له قوة بطش وبأس، ومهابة في قلوب الناس، قد جلب أشطر الدهر، وجرى ذكره من النيل لما وراء النهر، فانتشر ذكره في الآفاق، وطار فأعرق في حدود العراق، طالما ضرب التتر المصافة، وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف فأذاقهم النكال، وكفى الله المؤمنين القتال.

فهو ممن خدمته السعادة، ونال من أعدائه ما أراده، فأمسك إلى أن مات ما ينيف على مائة وستين أميراً وأوسعهم اعتقالاً دائماً ونكالاً كبيراً، وكان بعدهم يقتنص الشاردة ويصطاد الغزال وهو قاعد، ويُحب مماليكه، ويبالغ في إكرامهم، ويتغالى في إتحافهم، فكان يبذل فيهم النقود النضة، وينفق عليهم القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، فعظموا في أيامه، وتخولوا في أنعامه فما منهم إلاّ حسنت آثاره.

وبنى المدارس فانتشر العلم ورفع مناره.

---

(١) موضع النقط كلمة لم أتبين قراءتها في المخطوط هذا رسمها: التمولرالمعُدر.

ليس الفتى يفتي لا يستضاء به ولا يكون له في الدهر آثارٌ

ولا سيما ما أنشأه المعز الأشرف المكنى الناصري السيف منجك وزير الديار المصرية، كان كافل المماليك بالمملكة الاطرابلسية الآن من الجامع الذي جمع المحاسن، واجتمع بصهريجه أنهار من الماء، كم أطلقت زهر قناديلها نجماً، وكم مَشِيْت فيه ـ وإن لم أكن من الصالحين ـ على الماء[1]، والخانقات التي تشرفت من الصوفية بالعلم والعمل وأصبحت كأنها من المنقطعين إلى الله في رأس الجبل. [٩٦/ب]

فيا لها من خانقات تشرق قناديلها في كل زاوية، ويعجز عن وصف صهريجها الدلال وحماد الرواية، فكم بها للصوفية من خلوة، وكم لعروش منارها من جلوة، فالله تعالى يضاعف للواقف، والقاعد، بها الحسنات، ويرفع لباني منارها الدرجات/ ، ويكثر به في أمة صاحب الكوثر، ويقر عينه بذلك الصهريج يوم العطش الأكبر.

وكان على عهده أعلام العلماء ومشاهير الشعراء...[2].

وحج الملك الناصر، وأصلح كثيراً من أمور الحرمين الشريفين، وترك بهما آثاراً صالحة.

أخبر صاحبنا القاضي الحاج المصنف أبو البقاء خالد بن عيسى بن أبي عيسى البلوي الفيتوري في تقييد رحلته التي سماها «تاج المفرق في تجلية علماء المشرق» فقال:

ثم أقبلت على ذلك الحرم الشريف والمسجد الرفيع المنيف أتأمل محاسنه وأتخيل فيه من أصحابه الأبرار ساكنيه، فمن أبدع ما رأيته وأبرعه فريدة قد كتبت بالخط المرتب الرائق البديع وأثبتت في ألوان الأزهار التي تخجل زهرة الربيع. ورفعت أمام الروضة المقدسة في منتصف المسجد الشريف الرفيع فخلت القراطيس لؤلؤها وعقدها، ونقلت كل ما كان قبلها وبعدها وها هي تسفر عن غُرّتها الواضحة. وتعبق عن نسبتها النافحة، وتشهد لناظمها بالقريحة الراجحة والعقيدة الصالحة بعد البسملة والتصلية:

سلام كنشر الروض من سقط الندا عليك رسول الله يا مَنزل النّدا

ويا مهبط الملاك والوحي لم تزل أنيساً بزوار الرسول محمدا

---

(١) هذه مبالغة في القول، ولا يصح أن أحداً مشى على الماء بدون وسيلة مهما بلغ علمه وتقواه وكل ما يقال أو يحكى في ذلك محض افتراء.

(٢) ثم ذكر شعراً كثيراً استغرق صفحتان ونصف الصفحة، أي استغرق [٩٦/ ب] [٩٧/أ]، نصف الصفحة [٩٧/ب] وقد ورد في هذا الشعر أبيات غير كثيرة غير واضحة فآثرت تركه لأنه مدح وثناء على ذلك الملك وقد حشيت كتب التواريخ بكثير مثله وليس فيه فوائد تاريخية.

ويا تُربة المختار أفديك تُربةً … بنفسي وإن كانت أقل من الفِدا
ويا بيته حيّاً ومثواه ميتّاً … لك الفخر في حاليك ميتاً ومشهدا
تضمنت أعضاء الرسول سواءً … مهاداً من الفردوس فيك ممهدا
سقى اللَّه منك التراب أفضل ما سقى … وصلى على من حلّ فيك مؤسّرا
[١/٩٨] / فيا منزل الأبرار حييت منزلا … ويا مسجد المختار شُرِّفت مسجدا
كأني أرى صحب النبي محمداً … بأرجائك أثبتوا ركوعاً وسُجدا
ففيك بدت من جنة الخلد روضة … تطوف بها الأملاك مثنى ومُفردا
سلام من الرحمٰن يذكر أريجه … أخص به خير الأنام محمدا
سلام وروح وريحان ورحمة … على روحه ما راح سائح وما غدا
فيا خير أهل الأرض بيتاً وعنصرا … وأشرف خلق اللَّه نفساً ومُحتذا
وأوسعهم حلماً وأزكى خليفة … وأطيبهم خيماً وأطيب مولدا
ويا صفوة الرحمٰن من خير خلقه … وأطولهم طولاً وأعظم سؤددا
شهدت بأن اللَّه لا رب غيره … وأن رسول اللَّه حقاً محمدا
وأشهد أن اللَّه أمدك رحمة … إلى خلقه واختارك اللَّه سيدا
فصل عليك اللَّه يا خير مرسل … ويا خُير من بالمعجزات تفردا
وصلى عليك الله ما لاح بارق … وما ناح طير في الغصون مُغردا
وصلي على الأبرار إلاّ أنهم … بنورهم يأتم من قد تزهدا
هم القوم عنهم أذهب الرجس كله … وركب منهم كل خير وأوجدا
وصلي على أصحابك الغُر إنهم … نجوم بها ينجوا غداً من بها اهتدا
صلاة اللَّه والسلام مضاعف … على المصطفى المختار ما اتصل المدا

اللهم أدم النصر والتمكين، والنصر العزيز، والفتح المبين لعبدك المسكين الذي ولّيته أمور المسلمين، واخترته على كثير من العالمين، السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين، أبو المعالي محمد بن قاسم أمير المؤمنين، سلطان الإسلام والمسلمين، قاتل الكفرة والمشركين، قاهر الفجرة والمتمردين، حامي حوزة الدين سلطان الديار المصرية، والفراتية، والبلاد الشامية، ملك البحرين، خادم الحرمين الشريفين، ولد السلطان المرحوم المنصور سيف الدنيا والدين، قلاوون الصالحي، [٩٨/ب] أدام الله أيامه وصيّر في الخافقين رايته وأعلامه، وجعل السعد والإقبال / حيثما توجه أمامه.

وكان ابتداء العمل في شهر ربيع الأول وانتهاءه في جمادى الآخرة عام أحد وسبعين وسبعمائة للهجرة النبوية[١].

ولقي جموع التتار غير ما مرة، فعظم بلاؤه وغناؤه، وكانت الحروب بينهم على الغلاب والسجال.

فلولا أن الله عز وجل جعله شجاً في صدورهم، وسداً بين المسلمين وبينهم لكانوا قد استضافوا البلاد الشامية والمصرية إلى ما افتتحوه من الأقاليم العراقية.

واتصلت بين الملك الناصر، وبين السلطان أمير المسلمين بالمغرب الجليل القدر الشهير الذكر أبي الأملاك من بني مربي، وقدوة الملوك المجاهدين الصالحين أبي الحسن نضَّر الله وجهه، وتوجهت إليه من بابه الكريم الهدية الشهيرة على إثر تملكه مدينة تلمسان عنده حسبما نذكر إذا أعان الله تعالى بالاقتضاء إلى محل ذلك، ونحن نجلب عروضها ليقف على ذلك من يتشوق إليه منقولاً من نسخة العقد الذي وقعت الشهادة فيه على متولي قبض الهدية من خدامه، فكانت قُبة من مائة ضيقة وفيها أربعة أبواب.

وقُبة أخرى من ست وثلاثين، ضيقة داخلة جُلة مخلوقة، ووجهها حرير أبيض، وركيزها ابنوس وعاج مرصع، والأكبار فضة مذهبة، والشرائط حرير، ضربت القبتان بالصفصيد وحل فيها جميع الهدية، وصففت جميع الدواب بجهازاتها أم القبة من الخيل ثلاثمائة وخمسة وثلاثون.

من البغال بين ذكور وإناث، ومن الجمال: سبعمائة إلا أنها لم تصفف بل أعدها لحمل الهدية.

ومن البراة والأحرار: أربعة وثلاثون.

ومن أحجار الياقوت: مائتان وخمسة وعشرون.

ومن قصب الزمرد: مائة وثمانية وعشرون.

ومن حبوب الجوهر الفاخر أكثره: ثلاثة آلاف وأربعة وستون.

ومن أحجار الزبرجد: ثمانية وعشرون.

ومن الشدات مجلية الذهب: عشرة.

---

(١) قد مرت بالحرمين الشريفين عمارات كثيرة على مر الأزمان والدهور أشهرها ما هي عليه الآن من بنايات خراسانية وتجصيص أو تجليد رخامي وبلاط عازل أو طارد للحرارة وتكييف مركزي في كثير من قطاعات الحرم المكي وكل الحرم النبوي وساحات خارجية فسيحة ومبلطة بالرخام النادر، والأنوار المبهرة، ودورات مياه للوضوء والتطهر تحت الأرض وفوقها ومصاعد كهربائية وتوفير مياه الوضوء والشرب من زمزم في كل بقعة حتى في مسجد المدينة يوماً.

ومن أزواج مهامز الذهب: عشرة.

ومن أزواج الأركب: عشرة واحد كله ذهب، وثلاثة كلها فضة، وستة مزججة مذهبة على الحديد.

وأتاب من الضمات ذهباً وماشية مذهبة.

وحُلل: ثلاثة عشر وعشر كلل ومخاد حُلة.

ونزق ذهب: مائتان.

وأنزاق ذهب: عشرون.

وقدود: ستة وأربعون.

وفرثية حُلّة.

وعشرة علامات معششة.

وعشر وقايات مذهبة.

وستة وعشرون قناعاً مذهبة.

[٩٩/أ] وثلاثون/ من وجوه اللحف حرير وذهب.

ومائتان من المحررات المذهبات الرفيعة المختمةُ.

وخيطان أحدهما: حلة. والأخرى تزن وثُلاثة وعشرون شقة من الرصان، واثنان من خمائل الحُلة.

وعشرة براقع للخيل منها ثمانية من الحلة.

وأمثلة الخيل: ثلاثون.

وثلاثة طنافس من الحرير.

وحنبلان من الحرير.

وعشرة حنابل من الحرير والصوف.

وحنابل ولا نشريثية.

وزمورية: مائة وسبعة.

وأربعة آلات من الجلد التركي.

ومن درق اللكاء المثمنة ومن الأكسية المحررة أربعة وعشرون.

ومن البرانس المحررة: ثمانية.

ومن أزواج المجفف: خمسون.

وعشر لزمات فضة.

وستة عشر شقة من الملف.

وأما أزواد الحجاج:

فأعطى للحرة المكرمة أخته، رحمها الله، ثلاثة آلاف دينار من الذهب.

وما بين كسوة برسم العرب.

[٩٩/ب] ولمن سفر معها ستمائة وسبعين.

ولأبي إسحاق بن أبي يحيى ثلاثمائة دينار من الذهب، وكسوة رفيعة.

ولعريف بن يحيى السويدي ألف دينار من الذهب إلى العدد الكثير من الذهب العين فيهم الوصيفات والخدم.

ولمسوم التحبيس على قراءة الربعة الكريمة ستة عشر ألفاً وخمسمائة دينار.

وتوفي السلطان الملك الناصر بعد أن مهد الدولة، وأرسى قواعدها، وأراح نفسه من كل من يقع الشغب منه من كبراء الأتراك، ومشهور أمرائهم، قطربغا الغجري، وطشمر حمص أخضر، فلم يبق عليهم، وفي ذلك يقول بعض شعرائهم:

طوى الرداء طشتمر بعد ما ... بلغ في دفع الأذى واحترس

عهدي به كان شديد القوى ... أشجع من يركب ظهر الفرس

ألم يقولوا حمصاً أخضرا ... تعجبوا باللّه كيف اندرس

قلت: وفي أثناء تقييد هذا الكتاب وقفت على مجموع لبعض من يتعاطى التاريخ من أهل المغرب، استحشد فيه واستكثر، وألمّ بذكر هؤلاء المماليك، فكتب فيما كتبنا من أخبارهم إلى هذا التاريخ ما نصه:

فقال: لما ضعفت الدولة العُبيدية بمصر والشام، وظهر فيها الوهن، وتملك الروم أكثر بلاد الشام، وغلبت، مع أن العبيديين كانوا متمسكين بالسنة قد غلب عليهم الرفض والقدح في الصحابة رضي الله عنهم.

واستباحوا من المكوس شيئاً ينكر، منها:

أنهم جعلوا على كل من أتى من المغرب يريد الحج عشرين مثقالاً تقبض منه بديوان الانكشارية، ومن تعاص من أداءها علق من أنثييه، وضرب بالسياط.

وزعموا أن من الوظيفة التي تؤخذ من الحجاج برسم أهل مكة ونفقاتهم.

فمقتهم الناس، ونفذت أيامهم، فخاطب أهل دمشق من بلاد الشام أمير المؤمنين المستنجد بالله العباسي، صاحب بغداد، وكتبوا إليه بيعتهم لأن يبعث إليهم عامله.

فبعث إليهم صلاح الدين يوسف بن أيوب من بغداد حتى دخل دمشق وملكها وخطب بها للمستنجد بالله العباسي، وذلك في سنة أربع وستين وخمسمائة، فأخذ يقاتل التريين حتى أفناهم وتملك جميع الشام وأكثر بلاد مصر والحجاز.

فلما توفي القاصد استولى صلاح الدين على جميع البلاد، فولى أخاه على مصر، وكان له أخ ثالث ولاّه أمير المؤمنين المستضيء على اليمن.

وبقي صلاح الدين بالشام يجاهد الشام ويفتح بلاده التي كان الروم قد غلبوا عليها في أيام العبيديين، ومعاقلة، فكان فتحاً ثانياً لبلاد الشام على يديه وفتح بيت المقدس.

قال ابن جبير في كتاب «الرحلة» له: كان فتح بيت المقدس الفتح الثاني على يد الملك الفاضل صلاح الدين بن أيوب رحمه الله ونفعه، يوم الجمعة لثلاث بقين من رجب الفرد سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

وكان تغلب النصارى عليه في سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة.

فأقام بأيديهم نحو التسعين سنة.

وكتب بالفتح إلى أمير المؤمنين الناصر العباسي ببغداد، فَسُرّ الناس بذلك، وفرح المسلمون ودعوا له بالمشرق والمغرب.

ولما ملك صلاح الدين مصر أزال مكوسها وظلاماتها وكل ما أحدثه بها بنو عبيد الله.

وبنى المدارس، والمارستانات والجسر على النيل.

وبنى في الإسكندرية دار إبراهيم لنزول غرباء المغاربة الذين يأتون برسم الحج، وأجرى عليهم فيها التضيف وما يحتاجون إليه طوال مقامهم بها.

وكان رجلاً صالحاً فاضلاً منصوراً.

وأخبار صلاح الدين قد ذكرها العماد الأصبهاني في كتابه المسمى بـ«البرق الشافي».

[١٠٠/أ] وتوفي الملك الفاضل صلاح الدين يوسف بن أيوب في خلافة الناصر / العباسي ضحوة يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

فكانت أيامه بمصر والشام من حين توفي العاضد واستقام له هو الأمر إلى أن توفي اثنتين وعشرين سنة وأربعة أشهر.

وولي بعده أخوه العادل الملك الثاني منهم، واسمه حمزة بن أيوب.

وكان والياً لأخيه على مصر، فولي الملك بعد وفاة أخيه.

وكتب له أمير المؤمنين الناصر بعهده على مصر والشام، وتسمى بالملك العادل.

فاقتفى طريقة أخيه في الفضل والدين والعدل والمواظبة على الجهاد، وتأمين البلاد، وضبط الثغور، فكانت أيامه غرة في الدهر.

ثم توفي الملك العادل بحماة من بلاد الشام سنة ستمائة.

وولي بعده الثالث منهم وهو الكامل، واسمه يحيى ابن الملك العادل، فأخذ بسيرة أبيه وعمه في العدل والرفق وضبط الثغور، ومداومة الجهاد في البر والبحر.

وكتب إليه أمير المؤمنين الناصر عهده على ما كان عليه سلفه، إلى أن توفي.

وولي بعده الملك الصالح.

وكانت وفاة الملك الكامل في ذي الحجة سنة سبع عشرة وستمائة.

ولما ولي الملك الصالح، واستقام أمره بالشام والحجاز أمر بغزو بلاد الروم بالبر والبحر، فقامت قيامتهم لذلك، واجتمعت كلمة الروم بأسرها على غزو بلاد مصر بأسرها. وكان لملك الروم المغرب بالإفرنسيس ما لا يحصى عدده، وأتته وفود الروم من جميع بلدانهم.

فقصد بلاد مصر في عدد عظيم وعدة لم ير الناس مثلها، فنزل بمدينة دمياط من بلاد مصر، ودخلها بالسيف فاستشهد فيها خلق كثير من المسلمين، وانتشرت جيوش الروم في بلاد مصر. فخرج لمحاربته الملك الصالح وتنحى له عن بلاد السواحل، مظهراً له أنه عجز عن لقائه لكي يتوغل اللعين في أعلى بلاد مصر وينقطع عن المادة من البحر.

فتقدم الرومي من بلاد مصر مطالباً للمسلمين. وعزموا على لقاء مصر، فمرض الملك الصالح ثلاثة أيام وتوفي قبل التقاء الجمعين.

وكانت له جارية حظية عنده تركية، اسمها بلغتهم خاتون، وتلقب بشجرة الدُر.

كانت حازمة في غاية الذكاء والحذق والدهاء، فأخفت موت سيدها، وجعلت خلفه من تُمسكه وتحرك أصبعه، ويدخل عليه القواد والأمراء فتخاطبهم عنه بما يفعلون وهم يرونه يشير بأصبعه، /فلم يشكوا في حياته. [١٠٠/ب]

فأخذت في مقابلة الروم وقتالهم، وجعلت الملك الصالح في هودج عليه ثيابه وآلته، وأدخلت خلفه من يُمسكه، وتقدمت هي راكبة أمام الهودج، ومماليكها يحفون بها، والطبول والبُنود فوقها.

فالتقى الجمعان، فكانت بينهما حروب عظيمة هزم فيها الروم، وأُخذ ملكهم وهوى الافرنسيس أسيراً.

وركبهم المسلمون بالأسر والقتل، وغنموا جميع أموالهم التي كانت في البر.

ولما رأى من كان في المراكب بالبحر ما نال أهل البر، رفعوا قلوعهم وأخذوا في الفرار. فأخذ الافرنسيس وأُتي به إليها، فأمرت به، فحُبِس في قفص من حديد وأدخلته القاهرة على جمل بين يديها.

وأظهرت موت سيدها، وملكت الأمر بعده، وسلمه القواد إليها لما ظهر من حزقها ودهائها، فخرجت الأمر باسمها.

وخططت بالستر الرفيع والحجاب المنيع مدة من سنتين.

ثم اجتمع الأمراء والقواد والفقهاء، وقالوا: لا يليق بالإسلام أن تدبر أمره امرأة. فعرضوا عليها أن تتزوج من شاءت منهم ويكون الذي تختاره هو الملك.

فردت الأمر إليهم.

فاختاروا لها المعز، وهو مملوك لورثة الملك الصالح، فاجتمع الورثة على عتقه فأعتقوه، وتزوجها وولي الملك.

ولما تزوج المعز شجرة الدُّر وولي الملك أقام سنة، وتزوج على شجرة الدُّر بنت ملك العجم، فغارت بها، فخنقته في الحمام، وزعمت أنه مات حتف أنفه.

وولي قافان بن المعز يوم وفاة أبيه غرة ربيع الثاني سنة ست وخمسين وستمائة.

فلم يصلح للملك، فخلع في آخر ربيع الأول سنة سبع وخمسين وستمائة. فمدته سنة تامة.

وفي أيامه ملك التتر بغداد وسائر بلاد العراق.

وانقطعت الدولة العباسية، واستبدت المماليك بالأمر في الشام، ومصر، واليمن.

وولي الملك المظفر مملوك الملك المعز فغلب على المملكة بقتل مولاته شجرة الدُّر، وخلع ولد المعز.

وتملك وخرج إلى جهاد التتر عند رجوعه من غزاة الإفرنج.

وكانت وفاته في آخر شهر ربيع الثاني سنة ثمان وخمسين وستمائة، فكانت أيامه سنة وشهراً.

وولي الملك الظاهر بيبرس، ويلقب البندقداري[1].

---

(١) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٥/ ٣٥٠) في أحداث ووفيات سنة (٦٧٦): في السابع من المحرم قدم السلطان الملك الظاهر فنزل بجوسقة الأبلق ثم مرض في نصف المحرم فتوفي بعد ثلاثة عشر يوماً، فأخفى موته وسار نائبه بيلبك بمحفة يوهم أن السلطان فيها مريض إلى أن دخل =

وكان قد خاف من الملك المظفر أن يقتله فَهَمَّ بالفرار، فلقيه رجل صالح وهو يتصيّد فقال له: لا تخف يا بيبرس، سر واتق الله فيما / تليه من أمر المسلمين، فإنك [١٠١/أ] الملك الظاهر، فولي بعد المظفر.

وكان فاضلاً، عادلاً، حازماً، لم يكن بعد صلاح الدين أحسن منه.

توفي في شهر المحرم سنة ست وسبعين وستمائة.

فدولته ثماني عشرة سنة.

وولي الملك السعيد بن الظاهر اسمه محمد، ويعرف بالخضر.

ولي الملك بعد أبيه ثلاث سنين، ثم خَلَعَ نفسه ولجأ إلى حصن الكرد وهو من أمنع حصون العرب.

وكان والده الملك الظاهر قد بناه وحصنه وأعدّ فيه من الطعام والأدام والسلاح والمال ما لا حد له.

وتركه عُدة لحوالة الدهر، فاستقر به الملك السعيد، وتخلى عن الملك شهر صفر سنة تسع وسبعين وستمائة.

فدولته ثلاث سنين وشهر واحد.

= بالجيش إلى مصر فأظهر موته وعمل العزاء، وحلف الأمراء لولده الملك السعيد، وكان عهد له في حياته. والملك الظاهر هو السلطان الكبير ركن الدين أبو الفتوح بيبرس التركي البندقداري، ثم الصالحي، صاحب مصر والشام، ولد في حدود العشرين وستمائة واشتراه الأمير علاء الدين البندقداري الصالحي، فقبض الملك الصالح على البندقداري وأخذ ركن الدين منه فكان من جملة مماليكه. ثم طلع ركن الدين شجاعاً فارساً مقداماً إلى أن بهر أمره وبعد صيته وشهد وقعة المنصورة بدمياط. ثم كان أميراً في الدولة المعزية، وتنقلت به الأحوال، وصار من أعيان البحرية، وولي السلطنة في سابع عشرة ذي القعدة سنة ثمان وخمسين. وكان ملكاً سرياً غازياً مجاهداً مؤيداً عظيم الهيبة خليقاً للملك، يضرب بشجاعته المثل. له أيام بيض في الإسلام، وفتوحات مشهورة، ومواقف مشهودة، ولولا ظلمه وجبروته في بعض الأحيان لعدّ من الملوك العادلين. قاله في «العبر».

وقال ابن شهبة في «تاريخ الإسلام»: توفي بقصره الأبلق بمرجة دمشق جوار الميدان وغسلوه، وصبروه، وعلقوه في البحيرة إلى أن فرغ من الظاهرية فنقلوه إليها. وكان قد أوصى أن يدفن على الطريق وتبنى عليه قبة، فابتاع له ولده الملك السعيد دار العقيقي بسبعين ألف درهم، وبناها مدرسة للشافعية والحنفية ونقله إليها ووقف عليها أوقافاً كثيرة. وفتح بيبرس من البلاد أربعين حصناً كانت مع الفرنج افتتحها بالسيف عنوة.

وقال الذهبي: انتقل إلى عفو الله ومغفرته يوم الخميس بعد الظهر الثامن والعشرين من المحرم بقصره بدمشق وخلف من الأولاد الذكور الملك السعيد محمد ولي السلطنة وعمره ثماني عشرة سنة، والخضر، وسلامش، وسبع بنات. ودفن بتربة أنشأها ابنه.

وَوَلّي سلامش بن الظاهر بعد تخلي أخيه السعيد عن المُلك، فملك أربعة أشهر.

وخلع في آخر رجب سنة تسع وسبعين المذكورة.

وولي الملك المنصور، واسمه قلاوون، ويعرف بالألفي لأنه كان ابتاعه الملك الظاهر بألف درهم، ولي بعد سلامش.

فقاتل التتر وهزمهم هزيمة عظيمة قتل فيها من التتر ما يزيد على الستين ألفاً، وفتح قلعة المرقب، وفتح طرابلس الشام، وأخذ في غزو مدينة عكا، فمات بظاهر القاهرة في آخر شهر صفر سنة ثلاث وتسعين وستمائة.

فمدته ثلاث عشرة سنة ونصف.

وولي الملك الأشرف، واسمه خليل ابن الملك المنصور قلاوون، ولي بعد أبيه، فتمم حركته إلى عكا فافتتحها وخربها وبعدها فتح قلعة الروم وخربها، وقتل الأشرف بساحل مصر، قتله مماليكه في صيد كان خرج إليه.

وكان قتله في شهر شعبان سنة ست وتسعين وستمائة. فمدته ثلاث سنين ونصف.

وأخبرني من حضر معه فتح عكا: أنه خرج إليها في ثلاثمائة ألف مقاتل من المغاربة، منها ثلاثون ألفاً، والمطوعة خمسة وأربعون ألفاً، والحرافيش خمسة وأربعون ألفاً، والمرتزقة مائتا ألف، فوصل إليها، فنزل حولها، وشرع في قتالها وأمر الأشراف بحفر تحت الأرض حتى سامت برجاً عظيماً من أبراجها، وأمر بالنفق الذي حُفر، فأشحن بالنار بعد أن مليء حطباً، وأمر كل فارس في عسكره أن يأتي بحزمة حطب إلى حشيش ومخلاة مملوءة بالتراب فقذف ذلك في الحفير الدائر بالمدينة.

[١٠١/ب] ولما تم له ذلك، وأُضرمت النار في الحطب الذي حُشي به النفق المحفور تحت البرج، أمر جيشه ورماته ورجاله أن يسابقوا لوقوع البرج، وأن تكون دفعة الخيل ورمي الرماح واقتحام الرجال وضرب الأطبال والتشهد والتكبير عند سقوط البرج.

فسقط البرج عند وقت الزوال، وتوسط الشمس في السماء.

فكبّر المسلمون بالشهادة، وضربت الطبول، وهي ثمانية عشر ألف طبل، ودفعت الخيل والرجال فصعق أكثر أهل البلد رعباً عند تلك الضجة وقصد الفرسان الحفير فارتدم من ساعته.

وملك المسلمون البلد من ذلك البرج الساقط، وانتشروا في المدينة بالقتل والسبي والنهب، وفرَّ من الروم خلق كثير في مراكب البحر، ولجأ نحو الثمانية عشر

ألفاً منهم إلى قصبة المدينة فتحصنوا، وأحدق بها المسلمون، فأخذت بعد العصر من اليوم بعينه، وقتل من كان بها وأُسر.

فتحصل للأشرف في خُمس مدة الغزاة ستة آلاف بكر، ومن السبي والأموال ما يقصر الوصف عن حصره.

وتولى بيدرة مملوك المنصور قتل الأشرف وولي مكانه.

فلم يتم له الأمر لأنه ولي بعد صلاة العصر وقتل في غد عند الضحى وقتل معه خمسة آلاف من المماليك.

وولي الملك الناصر بن المنصور، وهو محمد الناصر، ولي يوم قتل بيدرة ثاني يوم من وفاة أخيه الأشرف.

فاستقام له الملك إلى أن خُلع منسلخ ذي الحجة سنة ست وتسعين المذكورة.

فمدته الأولى أربعة أشهر وأيام.

وولي كتبغا، ولقبه زين الدين، وهو مملوك للمنصور. خرج إلى الشام برسم الغزو فهم وزيره لاجين بقتله وتأمر مع الأمراء على ذلك، فانتهى الخبر إليه أنهم عزموا على قتله، فهرب منهم إلى بغداد وذلك في مستهل رجب سنة سبع وتسعين وستمائة المذكورة.

وقتله طغيجون مملوك المنصور في آخر جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وستمائة.

فمدته سنتان كاملة.

وولي الملك الناصر المتقدم محله إلى المُلك ثانية.

وسبب إعادته: أن الملك المنصور كان استنزل الخضر من حصن الكرد، ونفاه إلى القسطنطينية العظمى.

فلما قُتل... [1] لاجين، استدعى الأمراء الخضر من القسطنطينية، ووصل فعرضوا عليه المُلك، فأبى وأشار عليهم بتولية الناصر.

فولوه مرة ثانية / فاستقام له الأمر في مدته الثانية، وتوطدت له المملكة. [١٠٢/أ]

وفي مدته الثانية تغلب على التتر في بلاد الشام فصالحهم أهل دمشق بمائة قنطار من الذهب.

وقيل: بألف قنطار.

(١) كلمة متراكبة الحروف لم أتبين قراءتها.

فتحرك إليه من مصر وأتت وفود العرب والحجاز واليمن بالسفن مع التتر، وكانت بينهم حروب عظيمة، قتل فيها من التتر خلق عظيم، وهزمهم وأخرجهم من الشام، ولم تقم لهم بعدها قائمة إلى أن أسلم ملكهم حدبندة بن قازل بن هلوب بن قاقان.

ودعا التتر إلى الدخول في الإسلام، فدخلوا في الإسلام طوعاً منهم وكرهاً، واجتمعت كلمتهم.

ولم يبق ببلاد العرب كافر إلا أن كان ذمياً من أهل الشام من قبلهم.

وكان إسلامهم في سنة ثمان وسبعمائة.

وفي سنة ست عشرة وسبعمائة غزا الملك الناصر مدينة ملطية من بلاد الشام ففتحها عنوة بالسيف، وأخذ فيها من الأموال والحلي ما لا يجر به الحصر.

ومن السبي اثنين وسبعين ألفاً، حتى كانت الرومية لا يوجد بمصر من يلتفت إليها من كثرتهن.

ولما فرغ الناصر من فتح ملطية، سار منها إلى الحجاز برسم الحج، فوصل إلى المدينة وفرق فيها أموالاً عظيمة، وتصدق بمائة ألف مثقال.

وخلع أميرها حميضة بن أنجمان وولي عليها ثقاته وأمرهم بالرفق بأهلها وحفظ جوار رسول الله ﷺ.

وانصرف منها إلى مكة وفرّق فيها كذلك أموالاً جليلة، وخلع عنها أميرها ولد أبي نِميّ وقتله إذ كان يضرب الحج والمجاورين.

وحج السلطان في تلك السنة.

فلما عزم على الرحيل من مكة استخلف عليها الموحدي، وارتحل إلى مصر.

فهو الآن ملك الشام، والحجاز، ومصر، وخدمته ملوك الشام بأسرها، ودخلت في طاعته ومادته، وخافت بأسه.

وإليه انتهى التاريخ والحمد لله وحده.

قلت: وبين هذا المنقول وبين ما قيدناه قبله خلاف ليس باليسير في وصول صلاح الدين من بغداد مستدعي إلى الشام.

وفي عدد إخوته.

وفي الخبر عن شجرة الدُّر وما عملت بالملك الصالح من التمويه به بعد موته حتى هزم الإفرنج.

ونحن: استندنا فيما كتبناه إلى النقل عن العماد الأصبهاني، خاصة الملك

صلاح الدين وملازمة الكاتب عنه وعن ولده ومن لا يتهم بعدم الخبرة بأحواله، إلى آخر حديث صلاح الدين.

ثم لما نقلنا ما بعده من تاريخ الملك المعظم بوران شاه ابن الملك / الصالح [١٠٢/ب] أيوب إلى آخر الحديث في أبناء الملك الناصر، استندنا فيه إلى ما كتبه الأديب المؤرخ المصنف أبو العباس بن أبي حجلة مستوطن القرافة بمصر الآن.

وهذا الفن شاق في جملته، وهو أيضاً لا يتهم بعدم التحقيق، وناقل عن فضلاء من خدام الدولة، كابن فضل الله وغيره.

فالناظر في هذا الكتاب مخيّر بأي الخبرين شاء إن شاء الله.

وأما ما ذكرته في شأن الوقيعة بملك النصارى الافرنسيس الذي تقول فيه المشارقة: الفرنسيس، فالذي عندي فيه:

أن الروم لا تزال طالبة تلك البلاد الشامية، والمصرية، وبلاد الإسكندرية، فتارة تشغلها الشواغل فيسكن الطلب ويفتر، وتارة تفرغ إلى المسلمين فتحشد وتنفر، وإنها نازلة دمياط بقوة عظيمة.

ولم يسع المسلمين إلا الإفراج لهم عن الساحل بعد أن شحنوا دمياط بكل ما في الوسع.

فلقد ذكر لي بعض الشيوخ أن خزيتها اشتمل على جباب وصهاريج مبنية ملئتا من الخليع للأيام، به ذبح الأمين الجواسيس وجعل فيها ما يناسب هذا من العدد والطعام.

وإذا المسلمين فروا عن دمياط إذ رأوا ما لا قِبَل لهم به، وتخلفوها موفورة ولم يصحبهم منها بشيء.

وأن النصارى لما قربت من المدينة ولم يُبصروا على سورها أحداً قدروا أن ذلك لمكيدة، فأحجموا وتوقفوا حتى تحققوا الأمر، واستولوا عليها وملكوها وسكنوها واستندوا إليها بالمعلات، فكانت عساكرهم بأزابها وأجفانهم بساحلها. ثم انبسطوا في البلاد، وتمادوا إلى زمان الفيض، إذ الفيض يكون بتلك البلاد بعد الفراغ من غلة الصائفة. فتورطوا واجتمعت عليهم أيدي المسلمين من كل جهة، واتفق في الوقت حضور جمع كثير من رجال المغاربة عددهم عشرة آلاف، كانوا صادرين من الحج، كان لهم غناء كثير، واستشهد منهم عدد كثير. وتوفي سلطان البلاد المصرية في أثناء ذلك.

وسُقط في أيدي المسلمين، إلا أن النواب والأمراء والحافظين الأمر على ولد السلطان استناب بعضهم، وحسن صبرهم، ونصر الله الفئة القليلة على الفئة الكثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين.

ولم تكن الهزيمة عن كثير قتال، لكن زلزل الله أقدام الروم وهانتهم البلاد، ورابهم البُعد عن المحلاب، فرجعوا / والمسلمون في أعقابهم، وفيض النيل، وجهلهم من أحوال جسوره بما يعرفه أهل البلاد يرديهم. [١٠٣/أ]

فوقع فيهم النهب واستحر القتل والتهمهم الوبال وأثخنتهم النبال، وضاقت عن أسراهم الجبال.

ثم حصرهم المسلمون في المحلة الكافرة، وكانوا قد دلوا عليها خنادق وأسواراً من الخشب والحجارة، وزعموا أنه كان على مضارب السلطان سور سرجه بعمد الحديد.

واقتحمت عليهم المحلة، فتعلق بالأجفان منهم أمم كثيرة.

وانحصر بمدينة دمياط أخرى، فنزلوا عن عهد، وأخذ الفرنسيس أسيراً عند الكسرة في جملة الأمراء والكبراء.

إذ كانت المحلة قد جمعت أزيد من خمسة عشر ملكاً.

واعتقل الافرنسيس في بعض الديار بالقاهرة، وتعرف بدار ابن لقمان، وكان يتولى حراسته طوابيش من خدمة السلطان يسمى صبيحاً.

فلما أفتك الافرنسيس وسُرح اشترط عليه ما رضي المسلمون تعرف منه بعد ذلك وعيد وتهديد، فخوطب بهذه الأبيات مع رسالة في معناها:

قل للفرنسيس إذا جئته ... مقالة صدق من قول نصيح[1]

أخزاك اللّه على مثلها ... من قتل عُباد لعيسى المسيح

أتيت مصر تبتغي ملكها ... حسبت أن الزمر يا طبل ريح

فجابك الحال على أدهم ... ضاق به عن ناظريك الفسيح

إن كان بابكم بذا راضياً ... فرب غِشّ قد أتى من نصيح

فاتخذوه كاهناً إنه ... أنصح من شق لكم أو سطيح

وقل لهم إن أضمروا عودة ... لأخذ ثأرٍ أو لعزم صحيح

دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق والطوامش صبيح

وقد كنت وقفت به أيام الشبيبة السالفة على كتاب انفرد بمجمل من هذه الغزاة ومفصلها من تأليف الإمام المحدث جار الله أبي اليمن ابن عساكر رحمه الله، بَعُدَ عهدي به الآن بحيث لا أثق بالنقل منه.

---

(١) الشطر الثاني من البيت في الهامش على هذا النحو: «مقالة قد صدرت عن نصيح».

رجع التاريخ(١)

وكان مولد السلطان الملك الناصر، سنة أربع وثمانين وستمائة.

وتوفي يوم الأربعاء تاسع عشر شهر ذي حجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة.

ودفن ليلة الخميس بالمدرسة المنصورية بين القصرين.

/ وأنزل على والده الملك المنصور رحمهما الله. [١٠٣/ب]

وكانت مدة إقامته في الملك النوبة الأولى والثانية نيفاً وأربعين سنة.

وولي بعده ولده أبو بكر المنصور.

دولة السلطان الملك المنصور أبي بكر

جلس على سرير الملك يوم الخميس الموفى عشرين لذي الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، ثاني يوم وفاة أبيه السلطان الملك الناصر.

وذكره صاحب السكردان فقال:

كان أبوه الملك الناصر قد نص عليه وأسند الوصية إليه بالمُلك، وذلك بحضرة قوصون وبشتاك، وجماعة من أمراء الأتراك، فما اختلف عليه اثنان ولا قيل هذان خصمان.

فسار سيرة حسنة، وجلس على سرير الملك وقد ناهز العشرين سنة.

فولي من ولي، وعزل من أدبر.

وتولى بسط العدل، وأكثر البذل، وأجزل العطية، وأحبته الرعية، وعامل خاصكية أبيه بالمعروف، وبذل فيهم الألوف بعد الألوف.

فقيل: سار أبوه سيرة العمرين وطار الخبر بعلو همته إلى النسرين.

فلم يكن إلا ريثما اشتد ساعده وتمهدت قواعده، إذ استذلت قرناؤه، وخانه الدهر وأبناؤه، فنسبوه بركوب البحر إلى الخوض مع الخائضين، وشهد، وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين.

ومن ذا الذي ينجو من الناس سالماً ... وللناس قال بالظنون وقيل

وقد علم الله تحريف ذلك القول، وضعف روايته عن تلك السنة إلى هذا العام، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

فلم يلق إلا كَسِنَةٍ من النوم أو يوم أو بعض يوم إذ أُخذ بغتة.

---

(١) يريد عَوْدٌ إلى ما كنا بصدده من أخبار الملك الناصر.

وقيل: كانت ولاية أبي بكر فلتة، فخرج سابع سبعة من إخوته إلى قوص، وفقد هنالك شخصه الكريم على الخصوص، فأصبح وقد أضمرته البلاد ولبس لفقده، ولا سيما الخطيب، السواد، فأغمض هنالك طرفه المتنبه، وكان آخر ذلك العهد به(١).

وكانت مدته أزيد من شهرين وأيام قليلة، وخُلع في العشر الأخير من صفر سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة، رحمه الله.

دولة السلطان الملك الأشرف كجك(٢)

جلس على سرير الملك بعد خلع أخيه الملك المنصور في أواخر شهر صفر سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة.

[١٠٤/أ] وكان عمره يومئذ ست سنين تقريباً، وهو سن المشترط ذكره في هذا / الكتاب، ومن جلبنا من أجله شجون هذا الكلام.

وقال أديبهم في «الفصول المحشورة»:

الملك الأشرف كجك، تصرف في الأحكام صغيراً.

وأوتي على صغر سنه ملكاً كبيراً إلى أن لحق بعمه الأشرف، وقدم على الجنة وأشرف، فقرعت لفقده الأسنان قرع الأسنّة، وطار خبره في الآفاق، فهنيئاً له عصفوراً من عصافير الجنة.

فيا له من موروث أورث القلب حزناً، وجنى ورد جُنى عليه، وربما عوقب من لا جناه.

وجرم جره بـبـهـمـاء قـوم ... فـحـل بـغـيـر جـانـيـه الـعـقـاب

غير دجناء وأنا المقافُ فيكم ... فـكـأنـنـي سـبـابـة الـمـتـقـدم

وكان قوصون في أيامه مُشير دولته، ولسان مملكته، فاستولى على المماليك

---

(١) وقال ابن العماد في أحداث سنة (٧٤٢) (٦/ ١٣٦): وفيها توفي السلطان الملك المنصور أبو بكر ابن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، خُلع في صفر. قال السيوطي: لفساده وشرب الخمور، حتى قيل: إنه جامع زوجات أبيه. ونفي إلى قوص، وقتل بها، وتسلطن أخوه الملك الأشرف كجك، ثم خُلع من عامه وولي أخوه أحمد ولُقب الناصر، وعقد المبايعة بينه وبين الخليفة الشيخ تقي الدين السبكي قاضي الشام، وكان قد حضر معه.

(٢) قال ابن العماد (٦/ ١٥٠) في أحداث سنة (٦٤٦): وفيها الملك الأشرف كجك بن محمد بن قلاوون الصالحي، ولي السلطنة وعمره خمس سنين تقريباً وذلك في أواخر سنة اثنتين وأربعين، واستمر مدة يسيرة. وقوصون مدبر المملكة إلى أن حضر الناصر أحمد من الكرك، فخلع ودخل الدور إلى أن مات في هذه السنة في أيام أخيه الكامل شعبان. وله من العمر نحو الاثنتي عشرة سنة.

وتصرف في المملوك والمالك، فأمهل قليلاً، ثم أُخذ أخذاً وبيلاً، فنهبت خانقاته، ونكصَت راياته، فبطل زخمه وطبله، وملأ من الحواصل اصطبله، واشتفى به الحسود، وأصبح عبرة في الوجود.

وكيف لا وقد فارق الأهل والولد، وأصبح في الإسكندرية، ورحله في صفد ولم يزل بها سابع سبعة من الأمراء الصقليين إلى أن فرغ زيت قنديلهم، وأمر بمخرجهم بعد تعديلهم، فخلا منهم المكان، ودخلوا في خبر كان.

وقال في كتاب «السكردان» السلطان:

من غريب الاتفاق أن الملك المظفر كجك ولي الملك وهو صغير إلى الغاية، لأن عمره كان خمس سنين وأشهراً.

وكجك: لفظ أعجمي، ومعناه بالعربي: صغير.

فكأنه لاحظ فيه حال التسمية أنه يلي الملك وهو صغير.

فكان ذلك من غريب الاتفاق.

ثم قال: لا جرم أنه جرى عليه ما يشيب له الولدان.

وقالت الأيام لعكس مراده إنك لتعلم ما نريده؛ فخذل بعد أخيه المنصور وجرت عليه، والله غالب على أمره.

وخلع الملك الأشرف عن خمسة شهور بسبب منافسة الأمير المدبر دولته قرصون، واعتقل في قلعة الجبل إلى أن توفي بها في أيام أخيه الملك الكامل شعبان.

دولة السلطان الملك الناصر شهاب الدين

وهو أحمد ابن السلطان الملك الناصر.

جلس على سرير الملك بعد خلع أخيه الأشرف كجك.

وكان قد قدم من الكرك، فأقام بالملك بمصر أربعين يوماً، ثم رجع إلى الكرك ولم يزل هنالك حتى خُلع يوم الخميس ثاني عشر محرم سنة خمس وأربعين وسبعمائة.

وكان موته / إلى أن خلع وولي أخوه الملك الصالح إسماعيل، ستة أشهر. [١٠٤/ب]

وذكره في «الفصول»، فقال:

كان أكبر إخوته سناً، وأردهم في العين وزناً، هو ليثهم الغالب، وشهابهم الثاقب.

وكان أبوه قد أخرجه إلى الكرك وهو صغير السن، فجعلها محط رحاله، وكنانة سهامه ورجاله.

وأقام بها مدة وأنشأ بها نشايات عدة ولم يزل بها إلى أن حدثت بالشام مظالم، وفعل الفخري مع نائب دمشق فعل الحية بظالم.

واتفق بعد ذلك، بقوصون، ما تقدم ذكره واشتهر بين الناس أمره، فعند ذلك خط له عقائل الممالك وطلب إلى مصر من هنالك، فحضر بعد تثبت ومهلة، ودخل المدينة على حين غفلة.

فجلس على سرير الملك بعد أن خلع أخيه المذكور آنفاً.

وأمر بقتل سبعة من الأمراء المعتقلين بالإسكندرية، فمن كان له مخالفاً فولغ في دمائهم بلسان البيان.

وقال حين أخذ بثأر أخيه أبي بكر: يا لثارات عثمان.

فلم يكن إلا كزورة الحبيب وغيبة الرقيب أو غمزة حاجب، أو مَشْقَةِ كاتب، إذ كَرّ راجعاً إلى الكرك التي تربة أترابه ومنار منازل أصحابه:

ركب الأهوال في زورته ثم ما سَلَّمَ حتى ودعا

وكان في أثناء ذلك قد أمسك أميرين كبيرين، أحدهما: نائبه وعاضده.

والآخر: عضده وساعده.

فجعلهما عند وصوله إلى الكرك مُثْلة، وقتلهما شر قتلة.

فأهمل جانب مساعده، وأقبل على ما كان عليه من اللهو أيام والده.

فتفاقم الأمر، واختصم زيد وعمر، فأنشأ الخلان، وخرجت الخوارج في الأطراف وتنمرت بنو نمير.

وقيل للخير فيهم لا خير ولا ميرة، فاتسع الخرق على الراقع، وزرع رجاله فقطعت الطرقات وكثرت السرقات، واضطربت الأحوال، وكثرت الأراجيف والأهوال، ووقع المراء، وتجاذبت الآراء، وكثر الفساد، وخربت البلاد، فآل الأمر إلى خلعه، وولاية أخيه الصالح، وكان ذلك من أكبر المصالح.

دولة السلطان الملك الصالح عماد الدين

وهو أبو الفداء إسماعيل.

جلس على سرير الملك بعد خلع أخيه الملك الناصر أحمد، يوم الخميس، الثاني والعشرين لمحرم سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة.

وجرى ذكره في «الفصول الحجلية».

كان من أجود الإخوة وأكثرهم مروءة ونخوة، على شكله طلاوة، وفيه خير وتلاوة.

/ اجتمعت عليه الآراء بعد خلع أخيه الناصر، فحلفت له العساكر ودقت له المشاهر. [١٠٥/أ]

فعدل في الأحكام، وعامل الرعية بالإكرام، فأُمنت البلاد، وطابت قلوب العباد، فلو برك القطا ليلاً لناما، فزال بولايته البأس.

وقيل لخطب محاسنه: ما في وقوفك ساعة من بأس.

وكان أخوه الملك الناصر قد تحصن به الكرك.

وأخرج منها ما أخرج وترك منها ما ترك.

حذر أمور لا تصير وآمن ما ليس ينجيه من الإقرار

فأمر بتجهيز العساكر إليه والتضييق عليه، فأقبل إليه ابن صبيح حين أدبر الطلاح، وكسيت رؤوس الجبال عمائم الغمام.

غمام ربما مطر أشقاها فأقحط ودقه البلد الريعا

هذا بعد أن دق النفير، وجمع العشير، فأخلا الضياع، وملأ بأهل البقاع، وكثر بأهل السديد السواد، وأكثر من الحجازيين الذين نقبوا في البلاد.

ثم تكاثرت من بعده العساكر، وأقبل من المصريين كل شجاع معتقل من رمحه فناشر، فربت في أثرهم الدبابات، وزحفت الزاحفات.

فتأهب للقائهم، واستقل جمعهم وهم ما هم، جم غفير، وجمع كثير، قد ملأت شعوب قبائلهم الشعاب، وأصبحت المصريون منهم، والشاميون، عدد الرمل والحصى والتراب.

فأحدقت حدائق العساكر، وأحاطوا بالقلعة إحاطة السواد بالناظر، وتلقته من سورها على رأي العامة بوجه أبلط من الحجر. فعجبوا حين سكن الريح من خنادقها الهاوية، وعجزوا عن وصف قرائر قفطها وما أدراك ما هي؟.

فسورها على شفا جرفٍ هار، وبروجها بين النجوم عالية المقدار.

فالتحم بينهم القتال، وتكسرت النصال على النصال، وأخذت الفرسان والرماة في التحريك والتسكين، وذبح من نزل به القضاء من النشاب بغير سكين.

فجيء عليهم ظلام الغبار، واختلط ونزل على منجنيق الشاميين من منجنيقها الغضبان السخط، فجلعه صنمهم القائم جذاذاً.

وقيل له: فك أو كسر؟

فقال: شيء من هذا أو شيء من هذا.

فوقع بعد الضجة في العطب، وتلت عليه آية النار: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ [المَسَد: الآية ١]، هذا والجد بظلام القتال ممتلىء، وابن صبيح ينشد:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي ... وبالغ فبالغ في القتال والتحريض

ويوقع الناس من رمحه ... ونشابه في الطويل والعريض

[١٠٥/ب] / فعلى التراب من الدماء مجاهد ... وعلى السماء من العجاج مسوح

فلم تزل الأعمار كالأوقات تنصرم، ونار الحرب من سنة ثلاث إلى سنة خمس وأربعين تضطرم، فحين أخذت الأموال في العباد والثقوب في النجوب، وأشرفوا على أخذها لأن كل محاصر مأخوذ، شكت القلعة إلى ربها. ودخلت نكاية الثقوب إلى صميم قلبها، فبرزت متبرجات الأبراج، وضجت عيون مراقيها سريعة الاختلاج، فجاسوا خلال الديار، واقتلعوه من القلعة وسط النهار.

فلم يسعه وحاله هذه غير التسليم.

والقدوم بعد ذلك على ربّ كريم.

وكان قتله في صفر سنة خمس وأربعين كما تقدم؛

دولة السلطان الملك الكامل شعبان

هو شعبان ابن السلطان الملك الناصر.

جلس على سرير الملك بعد موت أخيه الملك الصالح، وحلف له الأمراء يوم الجمعة الثالث عشر لربيع الآخر من سنة ست وأربعين وسبعمائة.

وفيه يقول الشيخ جمال الدين بْن نباتة:

شعبان سلطاننا المرجا ... مبارك المنظر البديع

يا حُسن مرءاة حين أبدا ... هلال شعبان في ربيع

ذكره في «الفصول المنثورة»، فقال:

كان الملك الصالح أخاه لأبويه، فأسند الوصية بالملك إليه.

فجلس على سرير الملك بعده، وعهد إليه الخليفة كعهود أخيه التي ولي.

وكان شديد البأس، صعب المرام، أزرق العينين، طويل الساعدين، محدودب الأنف، يُعد في الرجال، استماله حب المال، وأتعب من ديوانه وحفظته كاتب اليمين وكاتب الشمال.

فأخذ القطيعة على الإقطاعات، وأقام لذلك ديوناً قائم لذلك، فوقع في المهالك، وأنكرت الناس عليه ذلك فخالف العواذل، وقدم الأراذل، وصعب الأمر واشتط، وانحطت البراءة وارتفع البط.

وكان قد خرج عليه يلبغا نائب الشام، ولما شق العصا من خالف أمره وعصا فشق ذلك عليه، وأمر بتجهيز العساكر إليه، وكان ذلك باتفاق مع جماعة الأمراء لديه.

فلما ضرب النفير، وجد العساكر بالمسير، وضاق بهم متسع الفضاء، ووردوا بئر البيضاء، رجع منهم الصادر / والوارد، وحملوا عليه في قلعة الجبل حملة رجل [١٠٦/أ] واحد حتى راء الغبار قد ثار سل الغرار، ونزل من القلعة كجلمود صخر حطه السيل، وقال لفرسه الأدهم حين رقع في سوادهم: اسلك النيل.

فالتحم بينهم القتال، واشتد، وسقط في أيديهم فأخذهم الأمراء باليد.

فكان مدة إقامته في الملك سنة وشهرين.

وولي أخوه الملك المظفر.

دولة السلطان الملك المظفر حاجي

وهو حاجي ابن السلطان الملك الناصر.

جلس على سرير الملك بعد خلع أخيه الملك الكامل شعبان، مستهل جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وسبعمائة.

ومن غريب الاتفاق أن الملك المظفر هذا كان في سجن الملك الكامل، وقد ضيّق عليه وأراد أن يبني حائطاً يدور بمحل اعتقاله، تهمماً بأمره، واتفق أن مد السماط للسلطان الكامل المعتاد لأكله، وجهزوا طعام أخيه حاجي هذا المظفر إليه ليأكله في السجن، فلم يكن إلا كلمح البصر إذ خلع الكامل، فدخل أكل طعام أخيه السجن، وخرج أخوه حاجي وجلس على سرير الملك، وأكل طعام السماط فسبحان الفعال لما يريد.

ذكر هذا الأسجاع الحجلية فقال:

جلس على سرير الملك بعد أخيه المذكور وجرت عليه بعد الأمور أمور.

هذا بعد أن أمره ونسي وقهر، فصفت له الأيام وعند صفو الليالي يحدث الكدر، فلم يزل ناعم البال خلي البلبال إلى أن أمسك جماعة من الكبراء، وأولاد الأمراء فروع الصغير، وقتل الكبير فعامل الناس بالجزر والمد وتجاوز فيهم ذباب سيفه الحد، فحام حمام الحِمام، وذهب بقية القوم الكرام.

فلم يبق إلاّ حماها من الظبي لما شفتيها والثدي السواهد

فلما بلغت الروح التراقي، وعمل عامل سيفه حساب الباقي، سلب القرار، وطلب الثأر، وأخذ مشير القوم في تحريضهم، وخرجوا إلى قتاله بقضهم وقضيضهم، فتأهب لقتالهم، ونزل من القلعة إلى نزالهم، فلما تراءى الجمعان اصطلح عليه الفريقان فدنا منه حين دنا منه الأجل، وقيل: لي لام فيه سبق السيف العزل.

وكان في خلال ذلك قد اشتغل بالطيور عن تدبير الأمور، وعن الأمر والنهي في الاحكام بلعبه بالحمام.

[١٠٦/ب] فجعل / السطوح داره، والشمس سراجة، والبروج مناره، فأطاع سلطان هواه وخالف من نهاه، فبالغ في المراء فنصت لكلام الوشاة على الإغراء.

ما كَلاَم الوشاة إلاّ كِلاَم وحَمَام الأراك إلاّ حِمَام

وخلع الملك المظفر حاجي في الثاني عشر لشهر رمضان[١] المعظم سنة ثمان وأربعين وسبعمائة.

وكانت مدته سنة، وثلاثة أشهر، وأحد عشر يوماً.

دولة السلطان الملك الناصر حسن

وهو حسن ابن السلطان الملك الناصر.

جلس على سرير الملك بعد أخيه حاجي بكرة يوم الثلاثاء الرابع عشر من رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة.

وكان سلطاناً جميلاً، وملكاً أصيلاً، بنى المباني الضخمة، وخلف الآثار الشهيرة. وكان يجدد الدولة لو أن الليالي أمهلته، والحوادث سالمته، فكان ذكياً مهذباً ترفع إليه المصنفات وتنجح لديه الرغبات، وجرى ذكره في «الأسجاع الحجلية»، فقال:

---

(١) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٦/ ١٥٢) في أحداث سنة (٧٤٨): قتل في ثالث عشر شعبانها الملك المظفر سيف الدين حاجي بن محمد بن قلاوون. وُلد وأبوه في الحجاز سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة. وولي السلطنة في العام الذي قبل هذا ـ كما تقدم ـ واتفق رخص الأسعار في أول ولايته، ففرح الناس به لكن انعكس مزاجه عليه بلعبه وإقباله على اللهو والشغف بالنساء حتى وصلت قيمة عصبة حظيته التي على رأسها مائة ألف دينار. وصار يحضر الأوباش بين يديه يلعبون بالصراع وغيره، وكان مرة يلعب بالحمام، فدخل عليه بعض الأمراء ولامه وذبح منها طيرين، فطار عقله، وقال لخواصه: إذا دخل هذا إليّ فبضعوه بالسيف. فسمعها بعض من يميل إليه فحذره، فجمع الأمراء وركب، فبلغ ذلك المظفر، فخرج فيمن بقي معه، فلما تراءى الجمعان ضربه بعض الخدم بطبر من خلفه فوقع وكتفوه، ودخلوا به إلى تربة هناك فقتلوه، ثم قرروا أخاه الناصر سن مكانه في رابع عشر شعبان. قاله ابن حجر.

السلطان أبو المحاسن حسن الذات، سعيد الحركات، له تهجد وصيام، ومحبة في النبي عليه الصلاة والسلام، سمت همته من النيل إلى السماك الراسخ وسار سيرة أخيه إسماعيل، فهو بقية السلف الصالح، وكيف لا وقد تجنب اللمم، وعدل في الأمم، وأصلح بين الذئب والغنم، واقتدى بأبيه في العدل، ومن تشبه بأبيه فما ظلم، هذا الوصف الطائل أحق بقول القائل:

لسنا وإن كرمت أوائلنا ... يوماً على الإحسان نتكل

نبني كما كانت أوائلنا ... تبني ونفعل فوق ما فعلوا

فَلَمَّ دولته وحاشيته وأئمة الملك تقول لسرجها: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝﴾ [الغَاشِيَة: الآية ١]، فبدت لهم كرامات، ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ﴾ [يُوسُف: الآية ٣٥] فغاب كالبدر في سحابه، ورجع كالسيف المسلول من قرابه، فخضعت له الرقاب، وضرب بين الظلام وخلعته ﴿بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ [الحَديد: الآية ١٣]، وأنشده الدهر وأبناء الدهر بغير راعياً عبث الذباب، فأزال عن القلوب الوجل، وأصبح لموشحات مدائحه زجل إلى زجل.

وقالت قلعته المحروسة لسحب الأرزاق: يا سارية الجبل:

غدا سلطاننا ملك البرايا ... رعاه اللّه يعدل في الرعايا

/حواصل عدل والده حواها ... فأخرج من زواياها الخبايا [١/١٠٧]

فيا ملك له في الحكم رأي ... به يقضي إذا اشتهت قضايا

لئن أمسيت عار من عُيُوب ... فقد كسيت بنا تلك العرايا

وإن صلت سيوفك في الأعادي ... رأت تلك الصلات من الخطايا

فمهلاً في التمادي وفي الأيادي ... فقد حذت النهاية في العطايا

قال الشيخ أبو العباس بن أبي حجلة: ومن الموافقات العجيبة في هذا السلطان:

أنه وافق أباه في سبعة أشياء:

فوافقه في اللقب الخاص والعام، والتسمية.

ومنها أنه ترك الملك وعاد إليه كوالده الملك الناصر.

ومنها أنه جلس على سرير الملك مدته الأولى، وكذلك أبوه جلس في أولى مراته على سرير الملك في الرابع عشر من الشهر.

ومنها أنه جلس في الثانية بمجلس الملك في ثاني شوال، وكذلك في المرة الثانية في ثاني شوال.

قلت: ولما هلك السلطان حسن قتلاً بتدبير الأمير الخاصكي، ولي الأمر بعده السلطان أبو البركات شعبان.

دولة السلطان الملك شعبان بن حسن

وهذا السلطان، شعبان بن حسن ابن الملك الناصر، يكنى أبا البركات، وهو اليوم ملك الديار المصرية وارث المملكة الناصرية، ومخائله تدل بالسماع على أنه أنموذج من جده الملك الناصر رحمه الله في اتفاقات سعيدة، منها:

نصبه للملك في حال الصغير.

ومنها: أنه عاشر على عهده الأمراء وصحبته السلامة، وهو ممن تقدم للملك صغيراً، وحجبه الخاصكي فخذلوه.

ثم بالذي دبر عليه الأمر فقتلوه، وجرت بينهم حروب سالت منها الدماء وسقطت على الأرض قبلهم السماء، وأكلهم الحديد، وبنى منهم العدو العديد.

ثم خلص للسلطان بعد ذلك كله خاصة سليمة.

وجرت أموره إلى اليوم فيما تعرفناه سديدة مستقيمة، وإن امتدت أيامه، والله يمدها بخير للمسلمين ويجعلها نعمة على سائر الدين، ويسهل بما قصد حج بيت الله، وزيارة قبر خاتم النبيين، فيكون ملياً بالتجارب، سديد المسالك والمذاهب، خبيراً بما / للملوك من الألقاب والمراتب، حذراً من العواقب. [١٠٧/ب]

وهو من شرط هذا التقييد فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام.

فإنني أقتضي اجتهادي أيام القيام بتدبير الأندلس استجلاب المودات لأجل ثغرها من جميع ملوك الإسلام لما رأيت في ذلك من الاستظهار على عدو الدين حتى بالأدعية والخواطر فضلاً عن المهاداة والمعاناة ومبلغ إيصال الأيدي وبركة الألفة وإحراز ما للمواخاة في الله من المثوبة، فأخبر الرسول والموجه إليه من هيئته وشكله ومثل من حضر من الصبية بما يدل على صغر سنه وحداثة نشأته، إذا حضر للقابلة مُلبساً أقبية تصف لطافة أعضائه وهيئة جرمه.

وذلك في عام سبعة وستين وسبعمائة، وأما الآن فقد اتصل بنا استقلاله وأنه قد رحب به العز مجاله، وسمت إلى سيرة جده الملك الناصر آماله، وعلى عهده تغلبت النصارى في عام خمسة وستين وسبعمائة من أهل قبرص على مدينة الإسكندرية، فصدهم أسطولهم، وقد شحن بالرجال، والعدد ووصلت صحبته المراكب بالفرسان، والمسلمون على حال أمان وعدم تقية فخذل الناس وجفلوا عندما فضحتهم السهام.

فمن نزل بالساحل من الروم يريدون البلد فضاق عنهم بابه ولم يتمكن لهم سده

ولا المدافعة عنه، فقد اقتحم النصارى عليهم المدينة، وفر الجُل من أهلها على الباب المفضي إلى البر، وجاز الروم في حوانيها، وبيتوا، وعجزت قواهم عن نقل ما اشتملت عليه مما لا يحصيه الوصف، ولا تدركه القول، فأعملوا السيف وسبوا الحريم ولم يقدروا على إمساك المدينة، وقد تداركها كبير الأمراء وكافل السلطان والغالب على أمره الأمير يلبغا الخاصكي فتخلوا عنها بعدما شعثوها وأفسدوا الكثير منها وأعجزهم شجرها عن كمال غرفتهم.

وعاد إليها الإسلام وقد كان الاسفلق بأخطار ليوقع امتثالكم بها، فأقال الله العز، وفرج الشدة، وسكن الرجفة، وعجل الرجعة، وأبقى سبيل الحج مهاباً، وأعلام الإسلام مائلة، وأسباب المسلمين متصلة.

ولم تمض إلا أيام يسيرة وعادت المدينة بمباشرة الأمر المذكور في جهاد ومفاوضة صاحب فرس بما يشفي الصدور، ويبرد الأكباد، فأنشأ الأساطيل العديدة، واستجلب / خدمة البحر، واستدعى الرماة، واستكثر الآلات بما شاعت أخباره، [١٠٨/أ] وعظمت آثاره.

ولو تراخت به الأيام لارتقبت ثمرة تلك العزائم المشحوذة غرارها، ولكن الحكم بيد الله العلي الكبير، والله للإسلام خير ولي ونصير.

ووقعت بيني وبين هذا الأمير أيام تدبيري لملك الأندلس، وحرص على موادة من أسكنني من ملوك الإسلام وحجابهم وظهرائهم ونوابهم استظهاراً واستكثاراً واستعانة حتى بالخواطر والدعوات وإكرام من يقصد بلادهم بالتجارات والأمور المعتبرات معرفة جميلة وصل إليها وأتحف وبدأ في المراجعة، وألطف وأكرم موصل الكتاب وأجزل العناية التي تليق بمثله من أولي حسن المثاب.

وكان مما خاطبته رحمه الله في المقر الأشرف الأعلى مقر الملك الشريف والعز المنيف والإمارة الغنية عن التعريف، مقر الأمين المؤتمن على سلطان الإسلام والمسلمين، المقلد تدبيره السديد قلادة الدين، المبني على رسوم بره المقام في علنه وسره، لسان الحرم الأمين الآوي من مرضات الله ورسوله إلى الربوة القرار والمعين. المستعين من الله على ما تحمله وأمّ له بالقويّ المعين، سيف الدعوة، ركن الدولة. قوام الملة، مؤمل الأمة، تاج الخواص، أسد الجيوش، كافي الكفاة، زين الأمراء، علم الكبراء، عين الأعيان، حسنة الزمان، الأجل الأسنى، المرفع الكبير، الشهير الأسمى، الحافل العاهل الأكمل المعظم، المؤمر الأمير يبغا الخاصكي، وصل الله له سعادة تشرق غرتها وصنائع تسح فلا تشح درتها، وأبقى تلك المثابة قلادة الله وهو درتها، سلام كريم، طيب بر عميم، يخص إمارتكم التي جعل الله الفضل على سعادتها أمارة والسير لها شارة، ساعد الفلك الدوار مهما أعملت داره ومثل المرسوم كلما أشارت اشارة.

أما بعد:

حمداً لله الذي هو بعلمه في كل مكان من قاص ودان، وإليه توجه الوجوه، وإن اختلفت السير وتباعدت البلدان، ومنه يلتمس الإحسان، وبذكره يشرح الصدر ويمرح اللسان.

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله العظيم الشأن، الصادق الرسالة والبرهان.

[١٠٨/ب] والرضى عن آله وأصحابه / وأعمامه وأحزابه أحلاس الخيل، ورهبان الليل، وأسود الميدان.

والدعاء لإمارتكم بالسيرة بالعز الرائق، والخير العيان، والتوفيق الوفيق البيان بكسبه المعظم إلى الله حظاً من فضله العميم وافراً، وصنعاً عن محيا السرور سافراً، وفي جو الإعلام بالنعيم الجسام مسافراً، معظماً ما عظم الحق من أبوابكم العالية، وفواضلكم المتوالية، ولا زائد إلاّ تشوّق إلى التعريف بتلك الجوانب الشريفة التي أنتم عمران كمانها المرقوم، وبيت قصيدها المنظوم، والمحاسن الثابتة الرسوم، وتقرير المثول بسيل زيارتها بالأرواح عند تعذرها بالجسوم.

والحرص على صلة هؤلاء تقدمت بين سلف هاتين الجهتين فيم عرف الخلوص من خلالها، وتسطع أنوار السعادة من آفاة كمالها، وتلتمح من أسطار سطورها محاسن تلك المعاهد الزاكية المشاهد، وتعرب عن فضل المذاهب، وكرم المقاصد، والرغبة في أن يجددها بحسن مثابكم وتصلها بمواصلة جنابكم، وتغتنم في عود زمانها الحميد زمانكم، وتؤمل في تمكين مبانيها الوثيقة مكانكم.

فخوطب تلك الأبواب الشريفة في هذا الغرض مخاطبة خجلة من التقصير وجلة من الناقد البصير، يرجو الوصول في حفاوة أيديكم التي لها الآيات البيض والموارد التي لا تغيض، ومثلكم من لا تخيب المقاصد في شمائله ولا تضحي المآمل في ظل خمائله، فقد استمر من حميد سيركم خاطب الآفاق وصحب الرفاق، واستلزم الإجماع والإصفاق، وبلادنا حدّه أعز الله الأمير بلاد مباركة، ما خاب من سلفت له فيها مشاركة إلا وجدها في نفسه ودينه وماله.

والله ألزم من وصى لأمري في كياله، وحمل المعظم الإدلال، والسحب الذي صفت منه الأذيال، والاعتماد على مكارم أخلاق من بالبلاد، حرسها الله بأيامكم العادلة، وزينها بإمارتكم الفاضلة من الطلبة الأخيار، والعلماء أولي الأخطار، والصوفية الأبرار.

إن وجه بعض تواليفه بهرجها منهم على ستره الغيوب وجبره القلوب بعد

المعرفة بأن الفضل على المشارق مقصور وإن إجادة المغاربة قصور، وإن المغرب يوازن مطلع النورة، ومحل البركات الواضحة السفور، لكن لا تعدم الساقطة / [١٠٩/أ] لاقطة، ولا السنة النادرة، مالك المبادرة، والرحمة شاملة، والنفوس لها ليلة ورسالة إلى الضريح الكريم النبوي تُقرر الأشواق ومطلع النور المنير من تلك الأهلة، وملتمس البركات الصهبة الأغداق، وجلالتكم تتكفل فتجعل ذلك موضع له وجهاً أوضح المسالك إلى اتجاهكم لواء ذا جمعة وحسام مما جمعه وحرز حريز وركن عزيز.

ولما كانت المهاداة مشروعة، والنفوس النفيسة على القبول ممن دونها مطبوعة، أصحب الموجّه ما تُنعم أبوابكم المشرفة بقبوله والإغضاء عن قليله، فالقصد معلوم، ومن له أن يقوم بحقكم ملوم، وجهله مفهوم.

نسأل الله جل جلاله يجعله ودّاً به ذاته وذريعة إلى مرضاته، وجمع القلوب على طاعاته، ويشفع بوسيلة النبي ﷺ الذي يُعول على شفاعاته ويبقي الأبواب ملجأ للإسلام والمسلمين، وإقامة لشعائر الحرم الأمين.

ويتولى إعانة إمارتكم على وظائف الدين، ويجعلكم ممن أنعم عليه من المجاهدين، والسلام.

فصدر من جوابه الدال على فضله وكرم مكافأته ما نستوهبه له من الله الرحمة والمغفرة لأجله، ولم يحضر الكتاب الآن فنثبته.

وخاطبت الإمام السيد قاضي البلاد المصرية، وهو من هو من جلالة الشأن ورفعة المكان، والمحل من علوم الأديان، بما نصه:

أبقى الله المجلس العلمي وحافظه بالتعظيم معتمد، وقيمة سعيدة ليس لها حد ولا أمد، وساعة سرور لا يغير عليها كسد، ومورد فضله غمر ولا ثمد، ولا زال عين الإسلام التي لا يشوبها ومض، ولا يصيبها رمد، وزاد فسطاط الإسلام بفضله من عنايته عمومها الذي يفاتح به الملوك بمجلس قاضي القضاة، وهو الأوج والمثابة يتزاحم في ليلاها الفوج، والبحر الذي مجاته من الموج، والديوان الذي عجز عن حصر أشتات مجده الفرد والزوج. لو أن لساني طبع الفاضل لبياني، بل المدد الحسّاس، بل العقل الإنساني، لتوقعت خمول شاني وأنفت لدسته العربي من لغط حبشاني، وخشيت هول الميتة أن تغشاني، فَلج مقداره، وإن رغم الساقي لا يتعاطاه مثل هذا الشاني، فكيف لي مع القصور، والأمد المحصور بمبارزة الأسد الهصور ومدافعة / العلم المنصور، وأنى للمغربي يعتصر النور، ومن ذا يسح بعد فور التنور، [١٠٩/ب] لكن فضل المجلس العالي للمقصرين شفيع، وإن اتضع قدر المتسور على خطابه،

فعلمه رفيع، والمستعيذ بحرمه قد كنفه من كرمه جانب منيع، والموارد يقتحمها العين والجولة، والمسارح الكريمة يقتصدها الرواد، والكعبة إليها يُحج من البلاد السواد، فلو تنحل المستأهل من غيره أو عُومل السائر على مقدار سيره وبركته وخيره، لكان المطرود أكثر ممن صح له الورود، وتقع عليه البرود، لكن الرحمة تشمل، والضعيف لا يُمهل، والإغضاء أجمل، وإن المملوك ما زال يتلقى من محامد المجلس العلمي قوامج طيب، وقوامج روض رطيب، وملامح بشر تذهب بما للزمن من تقطيب نغمات تطيل في النعيم مطيب، وتعشق النفوس، ليس مقصور على مشاهدة طرق، ولا مباشرة حُسن وظرف، وشم عَرْف، والعدل يمنع أن تقابل هذه الحجة بصرف، أو يعبد الله في إنكارها على حرف، فمن المشهور والذائع بين الجمهور:

يا قوم اذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا

وقوله: وعشق الفتى بالسمع مرتبة أخرى. وليس في هذه الدعوى عتاب ولا لها استناد إلى قوله:

«الأرواح أجناد».

لو تركني الدهر وما أسر من التشيع لمناقبه وللبيت داعي شرفي بإجابته، وإن تجاسرت على خرقي لحجاب مهابته شأنِ المحبين كلما خانهم الصبر ولم ينل منها مواجد كلومهم الصبر لكنه سد المسالك فاستبنا الممالك وأساء الملك.

وبعثت رسالتي هذه متوسلة بوسيلة الحب الصريح عادلة عن التعريض إلى التصريح، البوح المريح، متلطفة في المثول بباب إيوانه، والاستثراء على شعب بوانه، متعلقة بأردان أصغر أعوانه، وأرجو أن تُبلغ النية هديها إلى محله، وتفديها سعادة الجد على محله، والمرغوب من تلك المثابة التي تعشوا إلى نورها العيون، وتقضي من صدقات طولها الديون، أن تحب من المحب النازح ممن سعد بحبه، وصدق منه التوغل في لقائه إلى رق، وأن ينتظم في ذوي ولائه وشيعة علائه، فإن قضى اللقاء حصل الكمال، / واستوجب الآمال وتضافرت النيات والأعمال، وارتفع [١١٠/أ] عن سور القصد الإهمال، وإن كان غير ذلك قطعت النية، وللذين يؤمنون بالغيب المرية.

ولما تحققت من مكارم السيد العماد قاضي القضاة، أبقاه الله، أن يلتمس ما في يديه بالتوجه إليه، افتتحت تعريفي بسؤاله، ومددت يدي إلى نواله، ورغبت فيه أن يسم مغفلاً ويفتح إلى العناية باباً مقفلاً، ويأذن في الرواية عن مقامه المخدوم بين يدي الوفادة والقدوم، وإيجاد الشرف المعدوم بصراحة ملكته ونسبة عبوديته، وكفلاء ظلاله، فوجب حقه المحتوم، ومعظم مقامه المعلوم، وهم فلان وفلان مطوقاً نعمة

الإسعاف جيد من يعرف قدرها في الأقدار ويرقى الأهلة بأمداده إلى مراتب الأبرار، وهو الكفيل بإجابة السائل، واحتساب العائل، ولله در القائل:

ولو يممتهم في الحشر تحدوا لأعطوك الذي صلوا وصاموا

والمملوك يطالع العلوم الشرعية بين جلال يقبض وهيبة اسودها لا تربض، وإذلال عروقه تنبض أنه وجه إلى تلك المحال الشريفة مبرحاً، زائغاً ومترقباً خائفاً، فما صدر عن طبع قاصر، ووطن دار بنا طاقه للعدو حاصر، وليس إلاّ الله ناصر، فإن أحظاه بالمثول بناديه وضفت على طارقه ظلال أياديه، فالمسؤول من شفقته الاغضاء عن معرف، والتجاوز عن خطل زين خرف، ويشكر الله الذي كمله إذا وقف على النقص وتأمله، ويخفض الجناح لما أمله، ويقابل بالشفقة من أتى به، ومن له بالوصول إلى مجلس المالك، وإلى الله تجلته، كما أعز بنظر مهلته إنما هو فرض يُفْرَض وأمان على النفس يعرض، ونسأل إلى الله لمثابة المجلس العالي بقاء يمتع المسلمين مواهب العدل المشهورة، والدين الذي تجلت شمسه مظاهر الظهور، والعلم الذي يجلو غياهب الديجور، ويتكفل من الله بإنماء الأجور.

والسلام الكريم عليه من خاطب شرف وداده وملتمس مواهب الله في إعانته وسداده فلان.

فراجعني بما نصه قبل الانصراف عن الأندلس، بعد:

بسم الله الرحمن الرحيم

فيبتهل إلى الله تعالى / بالأدعية الصالحة لمقره الكريم العالي المولون القضاء [١١٠/ب] العالي العاملي الأوحد الأثير، والخاشعي الناسك المقدس المحقق المؤيد المدثر المستجير، الوزير الحمال، حمال الإسلام والمسلمين بركة الملوك والسلاطين، وزير الديار المغربية، ذا الرياستين، استبغ الله عليه أنعامه وأفضاله، وسدد أقواله وأفعاله. ولا زالت ممادحه الشريفة بالألسنة والأقلام تتلوه، ومحامده المنيفة على الأبصار والأسماع مجلوة، ولطائف بره للصادرين والواردين محققة ومرجوة، المملوك الداعي ببقائه، والمشتاق إلى لقائه، أبو البقاء السكن يصف ما هو عليه من الشوق الذي يتجدد على مر الأيام وجوده، والولاء الذي تبنى على قواعد الإخلاص عقوده، والود الذي لا تنحل عُراه، ولا تُنسى عهوده، والإخلاص الذي زكي بتحقق الخاطر لصحة شهوده، وورد المثال الشريف مشتملاً على فضله المنيف قد حاز من الفصاحة أتمها، ومن البلاغة أشملها وأعمها، فسرح المملوك نظره في تلك الرياض النضرات وعلم أنه لا طاقة له بمثلها فاقتصر على هذه الكلمات.

ووقف المملوك أيضاً من تصانيفه الشريفة على كتاب «الإحاطة في تاريخ

غرناطة»، فوجده المملوك تصنيفاً ليس له مثال، وتاريخاً لم ينسج له على منوال، والله تعالى يبقيه لربوع الفضائل يعمرها ولطلاب العلوم الشريفة يغمرها، ومولانا يشرف بخدمته ومهماته على عادة إحسانه وتفضلاته، والله يسبغ عليه ملابس نعمه ويحرس مقره الكريم بمنه وكرمه.

وكاتب هذه المطالع صالح بن أحمد بن محمد الأموي، كاتب الحكم العزيز الشافعي، يقبّل الأرض لمقره المحروس، أسبغ الله ظله.

وكتبه في الثالث والعشرين من المحرم من سنة ثمان وستين وسبعمائة.

والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه،

وحسبنا الله ونعم الوكيل

وكان على عهد مولاه المماليك ما بين شجرة الدُّر إلى أيام مَن بعدها الأمراء الغر الذين أُقيم بها وبهم في تملك البلاد رسم الإسلام

وعلى عهد تقديم الملك الناصر وأخيه قبل الاحتلام.

وعلى عهد تعاقب ولده من بعده تعيث فيهم أكف الاحتكام، وتسرع إليهم بالمداولة الأيام، بحور زاخرة من العلماء الأعلام، والمحدثين المرجوع إليهم في / [١١١/أ] الأحكام، واليقين في الحلال والحرام، فالمشتهر عن أحد منهم هنالك أنه أنكر عقداً ولا بدل في تغيير شيء من الواقع جهراً، ولا ضرب عمر منهم زيداً، بل اقتصروا على شؤونهم وفنونهم، والاشتغال بما يعنيهم، وعليهم في خواص نفوسهم بما يُقربهم من الله، وهم طبقات مع الزمان وأعقاب تخلت من سلف بإحسان من أهل مصر والإسكندرية، والشام والحجاز، وهي أقطار دولتهم، وأقطاب مملكتهم.

[الطبقة الأولى][١]

كالشيخ المحدث الشهير أبي عبد الله محمد بن يوسف الشهير بالخلاس.

وأبي سلطان جابر بن محمد القيسي العبسي[٢].

(١) زيادة تصنيفية يتطلبها ما بعدها من ذكره لطيفة أخرى من علماء عصور تلك الملوك والأقطار.

(٢) قال ابن القاضي المكناسي في «درة الحجال في أسماء الرجال»، وهو ذيل «وفيات الأعيان» (ت٣٤٨/ ١/ ٢٣٢) في ترجمته هو: جابر بن محمد بن القاسم بن أحمد بن إبراهيم بن حسان الوادي آشي القيسي، معين الدين، أبو سلطان. ولد عام عشر وستمائة. وتوفي يوم الأحد الخامس من شهر ربيع الأول عام (٦٩٤) ودفن بأسفل الزلاج. أخذ ببغداد عن عبد اللطيف القبيطي، وببلد =

وأبي كثير جماعة بن مهنا.

والشريف المحدث الشهير، رحّالة وقته: أبي الحسن علي بن أحمد، الحسيني العراقي[١].

وأخيه برهان الدين بن أحمد.

والشيخ أبي الذكر أحمد بن عبد القادر بن رافع.

وبرهان الدين إبراهيم بن فلاح بن محمد الجذامي[٢].

ومحمد بن أحمد بن عبد العزيز بن الصواف[٣].

وأخيه يحيى بن أحمد[٤].

والشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الخالق بن طرخان[٥].

= سيخار عن عز الدين أبي القاسم بن محمد الخطيب. وبالموصل عبد الرزاق الرَّسْعَني ـ مدينة برأس عين من ديار بكر ـ من أهل تونس أبو محمد. أخذ عنه محمد بن محمد بن أحمد بن مسعود العبدري صاحب «الرحلة» سنة (٦٨٨). وأجاز له عَلَم الدين السخاوي.

(١) قال ابن القاضي في المصدر السابق (ت١٢٢٧ ج٣/٢١٦) هو: علي بن أحمد بن عبد المحسن بن أحمد بن محمد بن علي السيد الشريف، أبو الحسن، الحافظ، الضابط، تاج الدين، الواسطي، الغرَّافي، نسبة إلى الغرَّاف من أعمال واسط. سمع ببغداد من جماعة من متأخري أصحاب ابن الوقت منهم: أبي بكر بن فهرون الطيب، سمع عليه مسند عبد بن حميد، وأبو الحسن بن رَوْزبه، ومن أبي الحسن القطيعي ونصر بن عبد الرزاق الحلبي بن عبد القادر الجيلي الحسني، وأبي عبد الله بن عماد الحراني، وأبي محمد بن أبي رواح وغيرهم. ذكره في مشيخته أحمد بن الزبير الأصغر، أجاز له في تاريخ رحلته.

(٢) وقال المكناس أيضاً في ترجمة رقم (٢٥٩) هو: إبراهيم بن فلاح بن محمد، الجذامي، الإسكندري، برهان الدين. كان ينوب عن الخطباء بدمشق، وهو إمام فقيه محدث ذو زهد وصلاح. روى عن علم الدين اللورقي، وعن فرج الحبشي، وابن عبد الدائم. وروى جزء «ابن عرفة» عن البُلْدَاني عن ابن كليب بسنده. ولد سنة (٦٢٤). وقيل: بعد سنة ثلاثين وستمائة. وتوفي في شوال سنة (٧٠٢).

قلت: له ترجمة في الدرر الكامنة (١/ ٥٣)، حُسن المحاضرة (١/ ٥٠٦)، غاية النهاية (١/ ٢٢).

(٣) قال صاحب درة الحجال (ت٧٥٢) في ترجمته: هو محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن عبد الله بن علي بن الصواف، الإسكندري، مولده في سنة (٦٢٢). سمع من جده أربعين السِّلفي، وأجاز لابن جابر. توفي في ربيع الآخر سنة (٦٩٦) بالثغر.

(٤) قال صاحب المصدر السابق في ترجمة رقم (١٤٤٤) هو: يحيى بن أحمد بن عبد العزيز بن عبد الله بن علي بن الصواف، شرف الدين أبو الحسن. مولده سنة (٦٠٨)، سمع من جده وناصر الدين الأغماتي ومن ابن عماد الحراني الخلعيات، وسمع على عبد الحق التنيسي، وإبراهيم بن الحباب. توفي ببلده في سابع عشر شعبان سنة (٧٠٥).

(٥) قال المكناسي في «درة الحجال في أسماء الرجال» (ت٤٥٩) هو: محمد بن عبد الخالق بن طرخان. الشيخ الصالح، المكثر، المسند، أبو عبد الله. كان أبو طرخان يلقب بشبل الدولة وأهل

والشيخ أبي العباس أحمد بن محمد بن عبد الله الظاهري الشامي.

وشهاب الدين أبي المعالي أحمد بن إسحاق بن محمد المؤيد الأَبَرْقُوهي[(١)].

والشيخين المحدثين: أبي الفداء إسماعيل[(٢)]، وأخيه: أبي إبراهيم إسحاق ابني إبراهيم بن عبد الرحمٰن بن علي بن قريش المخزومي.

والإمام تقي الدين أبي الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري بن دقيق العيد[(٣)].

= الحديث المصريون يقولون: السخاوي، لأنه منسوب إلى «سخا» مقصور، قرية على النيل بأسفل مصر. له السماع الصحيح العالي، سمع أبا الحسن بن البناء، وأبا الفتوح مبارك الجلاجلي، وأبا عبد الله بن عماد، وأبا محمد العثماني. أجاز لابن رشيد بالإسكندرية سنة (٦٨٤).

(١) قال ابن القاضي في المصدر السابق (ت٣٤) هو: أحمد بن إسحاق بن محمد بن علي، الأبرقوهي، المصري. مولده بأبرقوه سنة (٦١٥). كان مقرئاً، محدثاً، فاضلاً، يعرف بشهاب الدين السهروردي. سمع أبا علي الحسن الجواليقي، وأبا هريرة: محمد بن الوسطاني، وصالح بن بدر المؤذن، وزكريا العلبي، وعمر بن كرم في جماعة من أصحاب أبي الوقت. توفي عفا الله عنا وعنه في تاسع عشر ذي الحجة سنة (٧٠١) بمكة شرفها الله تعالى بمنه. قلت: له ترجمة في شذرات الذهب (٤١٦)، النجوم الزاهرة (٨/ ١٩٨)، المنهل الصافي (١/ ٢١٨)، حُسن المحاضرة (١/ ٣٨٦).

(٢) قال صاحب درة الحجال في أسماء الرجال (ت٢٩٩) هو: إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الرحمٰن بن علي بن قريش. المخزومي، العصري. تاج الدين أبو العرب. سمع من جعفر الحمداني، وابن المقرىء. توفي سنة (٦٩٤).

(٣) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٦/ ٥) في أحداث سنة اثنتين وسبعمائة: وفيها الشيخ الإمام تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة، القشيري، المنفلوطي، الشافعي، المالكي، المصري. ابن دقيق العيد. ولد في شعبان سنة خمس وعشرين وستمائة. وتفقه على والده بقوص، وكان والده مالكي المذهب. ثم تفقه على الشيخ عز الدين بن عبد السلام فحقق المذهبين وأفتى فيهما. وسمع الحديث من جماعة. وولي قضاء الديار المصري. ودرس بالشافعي ودار الحديث الكاملية وغيرهما. وصنف التصانيف المشهورة منها الإلمام في الحديث وشرحه، وسماه: «الإمام»، وله «الاقتراح» في أصول الدين، وعلوم الحديث. وشرح مختصر ابن الحاجب في فقه المالكية ولم يكمله. وشرح عمدة الأحكام للحافظ عبد الغني. وله غير ذلك.
وكان يقول: ما تكلمت بكلمة ولا فعلت فعلاً إلاّ أعددت له جواباً بين يدي الله تعالى. ويحكى أن ابن عبد السلام كان يقول: ديار مصر تفتخر برجلين في طرفيها: ابن منير بالإسكندرية، وابن دقيق العيد بقوص، وقال الذهبي في معجمه: قاضي القضاة بالديار المصرية وشيخها وعالمها الإمام العلاّمة الحافظ القدوة الورع شيخ العصر، كان علاّمة في المذهبين، عارفاً بالحديث وفنونه، سارت بمصنفاته الركبان وولي القضاء ثمان سنين، وبسط السبكي ترجمته في الطبقات الكبرى، قال: ولم ندرك أحداً من مشايخنا يختلف في أن ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث، على رأس السبعمائة.
وقال ابن كثير في طبقاته: أحد علماء وقته بل أجلّهم وأكثرهم علماً وديناً وورعاً وتقشفاً ومداومة =

وقطب الدين أبي بكر محمد بن أحمد بن علي القيسي القسطلاني الإمام الشهير[١].

والإمام محيي الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن عبد المنعم الدميري[٢].

والشيخ ضياء الدين أبي الهدى عيسى بن يحيى بن أحمد السَّبتي[٣].

والشيخ أبي يعقوب يوسف بن داود بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب الحنفي الملك الأوحد.

وأبي نصر يوسف بن أبي نصر بن أبي الفرج الشقاري عماد الدين[٤].

= على العلم في ليله ونهاره مع كبر السن والشغل بالحكم، وله التصانيف المشهورة، والعلوم المذكورة برع في علوم كثيرة لا سيما في علم الحديث، فاق فيه على أقرانه وبرز على أهل زمانه، رحلت إليه الطلبة من الآفاق ووقع على علمه وورعه وزهده الاتفاق. وقال الأسنوي: له خطب بليغة مشهورة أنشأها لما كان خطيباً بقوص وله شعر بليغ... توفي رحمه الله تعالى في صفر بالقاهرة ودفن بالقرافة.

(١) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٥/ ٣٩٧) في أحداث سنة (٦٨٦): وفيها ابن القسطلاني الإمام قطب الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن علي، المصري، ثم المكي. ولد سنة أربع عشرة وستمائة. وسمع من علي بن البناء، والشهاب السهروردي وتفقه في مذهب الإمام الشافعي وأفتى. ثم رحل سنة تسع وأربعين فسمع ببغداد ومصر والشام والجزيرة، وكان أحد من جمع العلم والعمل والهيبة والورع.
قال ابن تغري بردي: كان شجاعاً عالماً عاملاً عابداً زاهداً جامعاً للفضائل كريم النفس كثير الإيثار حسن الأخلاق قليل المثل. وكان بينه وبين ابن سبعين عداوة وينكر عليه بمكة كثيراً من أحواله. وقد ألف في الطائفة الذين يسلك طريقهم ابن سبعين، وبدأ بالحلاج، وختم بالعفيف التلمساني، وكان القطب هذا مأوى الفقراء الواردين عليه يبرهم ويعين كثيراً منهم...
وقال الأسنوي: استقر بمكة، وكان ممن جمع العلم والعمل والهيبة والورع والكرم، طلب من مكة فوضعت له مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة إلى أن توفي في شهر المحرم.

(٢) قال المكناسي في درة الحجال (ت١٠٤٩) هو: عبد الرحيم بن عبد المنعم بن يخلف، الدميري، المصري، محيي الدين، وشمس الدين، ولد سنة (٦٠٣). وسمع من أبي الحسن المقدسي جزء الأصوات ولم يكن له منه إجازة، وسمع من الفخر الفارسي. وهو قارىء المصحف بجامع عمرو بن العاص. توفي ليلة الجمعة تاسع المحرم سنة (٦٩٥) وله ترجمة في شذرات الذهب (٥/ ٤٣١)، حسن المحاضرة (١/ ٣٨٥).

(٣) قال صاحب درة الحجال في أسماء الرجال، وهو الذيل على وفيات الأعيان في ترجمة رقم (١١٦٩) هو: عيسى بن يحيى بن أحمد السبتي، ضياء الدين. مولده سنة (٦١٣). سمع من ابن المغير، ومن أصحاب السلفي. ولقي السهروردي بمكة. وتوفي بالقاهرة في رجب سنة (٦٩٦).

(٤) وفي المصدر السابق (ت١٤٨٤): يوسف بن أبي نصر بن أبي الفرج بن السقاري الدمشقي، عماد الدين، أمير الحاج. سمع من ابن الزبيدي. مولده سنة (٦٠٦). وتوفي في منتصف ربيع ثاني سنة (٦٩٩). وله ترجمة في الشذرات (٦/ ٤٥٤)، العبر (ت٤٠٧).

والشيخ أبي الفضل سليمان بن حمزة بن أحمد بن عمر المقدسي(١).

والشيخ أبي الخير الفضل بن علي بن نصر بن رواحة الخزرجي.

والشيخ أبي المجاهد غازي بن أبي الفضل الحلاوي(٢).

وفخر الدين أبي الحسن علي بن أحمد بن عبد الواحد المقدسي البخاري(٣).

والشيخ أبي حفص عمر بن يحيى بن عمر الكرخي(٤).

والشيخ أبي الفضل عبد الرحيم بن يوسف بن يحيى بن خطيب المِزّة(٥).

والشيخ تقي الدين عبد الله بن محمد بن عياش الأسعردي.

والشيخ زين الدين أبي بكر محمد بن إسماعيل الأنصاري الأناطتي.

[١١١/ب] والشيخ أبي الفضل أحمد بن هبة الله بن أحمد ابن عساكر/ الدمشقي(٦).

---

(١) في المصدر السابق أيضاً (ت١٣٩٧) اسمه كما هنا، ثم زاد: الحنبلي، الإمام المفتي تقي الدين أبو أحمد. أخذ عن أبي المنجي بن اللّتي، والحسين الزبيدي حضوراً وسماعاً. أخذ عنه ابن رشيد، وكتب له خطه بصالحية دمشق سنة (٦٨٤)، وله ترجمة في الدرر الكامنة (٢/ ١٤٦)، طبقات الحنابلة (٢/ ٢٦٤)، وذيول العبر (٨٥).

(٢) وقال أيضاً في (ت١٣٠٨): غازي بن أبي الفضل بن عبد الوهاب الحلاوي الدمشقي الشيخ المسن، أبو المحامد. أجاز له أبو حفص بن طبرزد، وهو صاحب الأمين زكي الدين بيبرس بن التركماني.

(٣) وقال كذلك في ترجمة رقم (١٢٢٦) هو: علي بن أحمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن بن إسماعيل بن منصور الأنصاري المقدسي، الصالح المعروف بابن البخاري، فخر الدين أبو الحسن الشيخ الإمام المحدث المعروف بالبخاري لتفقهه ببخارى، أخذ عن ابن رشيد في رمضان سنة (٦٨٤) وعدَّه في مشيخته.

(٤) وقال ابن العماد في شذرات الذهب (٥/ ٤١٧) في أحداث سنة (٦٩٢) بعد ذكر اسمه: الشافعي، ولد سنة تسع وتسعين، وستمائة بالكرج وتفقه بدمشق على ابن صلاح وخدمه مدة وسمع من البهاء عبد الرحمن وابن الزبيدي، وطائفة، وليس ممن يعتمد عليه في الرواية توفي هو والفخر بن البخاري في يوم واحد.

(٥) قال صاحب درة الحجال في (ت: ١٠٤٦) هو: عبد الرحيم بن يوسف بن يحيى بن أحمد بن سليم الدمشقي، شهاب الدين، أبو الفضل، ويعرف بابن خطيب المِزّة. سمع من أبي حفص عمر بن طبرزد بدمشق سمع عليه «سنن أبي داود» رواية اللؤلؤي. وسمع من أبي علي حنبل الرصافي، سمع عليه مسند ابن حنبل، أجاز لابن الزبير الأصغر سنة (٦٨٤)، وخطيب المزة هو جده، والمزة من قرى غُوطة دمشق. ولد بدمشق سنة (٥٩٨).

(٦) قال صاحب درة الحجال فيها في ترجمة رقم (٥٣): هو أحمد بن هبة الله بن أحمد بن محمد بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر، الدمشقي. مولده سنة (٦٢٤). وجده هو أخو الحافظ أبي القاسم ابن عساكر، مؤرخ الشام. من بيت حديث، سمع أبا المجد القزويني، وأبا الحسن بن الأثير، وأبا بكر الشيرجي، وزين الأمناء أبا البركات السجاد، وعبد الرزاق بن سكينة، وابن الزبيدي - سمع عليه البخاري - وأبا عبد الله بن المجاور، وأبا القاسم بن صَصري، وأبا عبد الله بن غسان، وابن =

والشيخ جار الله أمين الدين أبي اليمن عبد الصمد بن عبد الوهاب ابن عساكر[١].

والشيخ رضي الدين الإمام أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن أبي بكر الطبري[٢].

والإمام أبي عبد الله بن عبد الحق القرشي الدلامي[٣].

والشيخ أبي الحسن عبد الرحمٰن بن محمد بن علي المكي[٤].

= أفداش، وأبا صادق، وابن صباح، وأجاز المؤيد الطوسي، وأبو روح الهروي، والقاسم بن الصفار، وزينب بنت عبد الرحمٰن الشعرية، وعبد الرحيم بن أبي سعد عبد الكريم بن السمعاني، وابن اللَّتِّي سمع عليه جزء أبي الجهم، وغيرهم. ودفن بمقابر الصوفية خيفة من فتنة التتر. وله ترجمة في: شذرات الذهب (٥/ ٤٤٥)، البداية والنهاية (١٤/ ١٣)، وفيه أن ميلاده كان سنة (٦١٤).

(١) قال ابن العماد في الشذرات (٥/ ٣٩٥) في أحداث (٩٨٦): وفيها الإمام الزاهد أمين الدين أبو اليمن عبد الصمد بن عبد الوهاب بن زيد الأمناء الدمشقي المجاور بمكة، روى عن جده والشيخ الموفق، وطائفة. وكان صالحاً، خيراً، قوي المشاركة في العلم، بديع النظم، لطيف الشمائل، صاحب توجه وصدق. ولد سنة (٦٢٤)، وجاور بمكة أربعين سنة، وتوفي في جمادى الأولى.

(٢) قال صاحب درة الحجال (ت٢٤٩): إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الطبري، الشافعي، المكي، الفقيه، المحدث، الراوية، إمام المقام الشريف، رضي الدين أبو إسحاق. ولد بمكة عام (٦٣٦). أخذ عن جماعة بها كأبي الحسن علي بن هبة الله الجميزي، وأبي عبد الله بن أبي الفضل المُرسي، وسليمان بن خليل العسقلاني. وأجاز له ابن الصلاح. واختصر كتاب شرح السنة للغوب. وله شعر، وأجاز هو لابن جابر الوادي آشي. توفي ببلده في العاشر لربيع الأول عام (٧٢٢).

وراجع: الدرر الكامنة (١/ ٥٤)، النجوم الزاهرة (٩/ ٢٥٥)، شذرات الذهب (٦/ ٥٦)، مرآة الزمان (٤/ ٢٦٧)، المنهل الصافي (١/ ١٥٠)، شجرة النور الزكية (١/ ٢٠٢).

(٣) قال صاحب درة الحجال أيضاً في (ت٩٥٣): عبد الله بن عبد الحق بن عبد الله بن عبد الأحد المخزومي القرشي الشافعي الدلامي، المحدث الراوية، الأديب. مولده بها، وهي من بلاد القادسية من أعمال مصر في أول يوم من رجب سنة (٦٣٠). أخذ القراءات بدمشق عن كمال الدين أبي إسحاق: إبراهيم بن إسماعيل بن فارس التميمي، وعن أبي اليمن ابن عساكر، والحافظ عبد العظيم المنذري، وحضر درس ابن عبد السلام. وأجاز له جماعة، منهم أبو الفضل محمود بن فتح بن عبد الله البغدادي، وإسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليسر التنوخي، والجنيدي بن عيسى بن خلكان، وعمر بن محمد بن أبي سعد النيسابوري الكرماني، وغيرهم. بقي نحواً من سبعين سنة ملازماً للبيت المكرم يقرىء كتاب الله تعالى بغير أجر لا يبغي إلا الثواب الأخروي نفعه الله بقصده. توفي بمكة المشرفة في فاتح (٧٢١). ومن مصادر ترجمته: الدرر الكامنة (٢/ ٢٦٥).

(٤) قال صاحب المصدر السابق في (ت١٠٤٤): عبد الرحمن بن محمد بن علي بن الحسين المكي عماد الدين سبط سليمان بن خليل. من مسموعاته: «مسلم» على أبي الفضل المرسي. مولده بمكة سنة (٦٣٢)، وقيل (٦٣٣) وتوفي سنة (٧٠١). أجاز لابن جابر الوادي آشي وذكره في مشيخته.

والشيخ عفيف الدين أبو محمد عبد السلام بن محمد بن مزروع البصري[(١)].

وفخر الدين الإمام أبو عمر.

وعثمان بن محمد بن عثمان التوزري[(٢)].

والشيخ رضي الدين فلدس الواسطي.

والشيخ عبد الهادي بن عبد الكريم المصري[(٣)].

والشيخ جمال الدين أبي مهدي المهلبي.

والشيخ عبد الرحمٰن بن سالم المصري.

وعيسى بن مظفر العباس الدمشقي.

والشيخ أبي علي الحسين بن عبد الرحمٰن الجوزي حافد الإمام أبي الفرج.

والشيخ أبي الحسن علي بن شجاع بن سالم[(٤)].

---

(١) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٥/ ٤٣٠) في أحداث سنة (٦٩٦): وفيها عفيف الدين أبو محمد عبد السلام بن محمد بن مزروع بن أحمد بن عزاز المصري، البصري، الفقيه، الحنبلي، المحدث، الحافظ، نزيل المدينة المنورة. ولد بالبصرة في شوال سنة خمس وعشرين وستمائة. ورحل إلى بغداد فسمع بها من ابن قميرة، وخلق، وتفقه على الشيخ كمال الدين بن وضاح. ثم انتقل إلى المدينة المنورة واستوطنها نحواً من خمسين سنة إلى أن مات بها. وحج منها أربعين حجة على الولاء وحدث بالكثير بالحجاز، وبغداد، ومصر، ودمشق. وسمع منه جماعات منهم: البرزالي، وابن الخباز، والحارثي. وتوفي يوم الثلاثاء بعد الصبح سابع عشري صفر ودفن بالبقيع.

(٢) قال ابن القاضي في درة الحجال (ت١٢١١) هو: عثمان بن محمد بن عثمان بن أبي بكر بن محمد بن داود التوزري المكي. مجد الدين المجاور. مولده عام (٦٣٠) ومشيخته يزيدون على الألف. قرأ البخاري على أزيد من ثلاثين رجلاً من أصحاب البوصيري. وقرأ على الهمداني بإجازة من أبي الوقت. وسمع من ابن الجميزي والسبط السلفي. توفي بمكة في الحادي عشر لربيع الآخر عام (٧١٣). راجع تراجمه في الدرر (٢/ ٤٤٩)، غاية النهاية (١/ ٥١)، الشذرات (٦/ ٣٢).

(٣) قال ابن العماد في الشذرات (٥/ ٣٣٤) في أحداث سنة (٦٧١): وفيها أبو الفتح عبد الهادي بن عبد الكريم بن علي القيسي، المصري، المقرىء، الشافعي، خطيب جامع المقياس. ولد سنة سبع وسبعين وخمسمائة، وقرأ بالسبعة على أبي الجود، وسمع من قاسم بن إبراهيم المقدسي وجماعة. وأجاز له أبو طالب أحمد بن المسلم اللخمي، وأبو طالب بن عوف، وجماعة، وتفرد بالرواية عنهم، وكان صالحاً كثير التلاوة. وتوفي في شعبان.

(٤) في شذرات الذهب في (٥/ ٣٠٦) في أحداث (٦٦١) قال: وفيها الكمال الضرير شيخ القراء أبو الحسن علي بن شجاع بن سالم بن علي الهاشمي، العباسي، المصري، الشافعي، صاحب الشاطبي، وزوج بنته. ولد سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، وقرأ القراءات على الشاطبي، وشجاع المدلجي وأبي الجود، وسمع من البوصيري وطائفة، وتصدر للإقراء دهراً، وانتهت إليه رئاسة الإقراء، وكان إماماً يجري في فنون من العلم، وفيه تودد وتواضع ولين ومروءة تامة. توفي في سابع ذي الحجة.

والشيخ جمال الدين يوسف بن أحمد بن محمود الأسدي الدمشقي.

والشيخ أبي بكر علي بن مكارم بن فتيان الدمشقي[١].

والشيخ مفتي المسلمين أبي محمد عبد العزيز بن عبد السلام المصري[٢].

---

(١) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٥/ ٣٠٠) في أحداث سنة (٦٥٩): وفيها توفي نور الدولة علي بن أبي المكارم المصري العطار الأديب الفاضل الشاعر المجيد من نظمه لغز في كوز الزير:

وذي أذن بــلا سـمـع لـه جـسـم بـلا قـلـب
إذا اسـتـولـى عـلـى صـب فـقـل مـا شـئـت فـي الـصـب

(٢) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٥/ ٣٠١)، في أحداث سنة (٦٦٠): وفيها عز الدين شيخ الإسلام أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن، الإمام العلامة، وحيد عصره، سلطان العلماء، السلمي، الدمشقي، ثم المصري الشافعي. ولد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسمائة وحضر حمزة بن الموازيني، وسمع من عبد اللطيف بن أبي سعد، والقاسم ابن عساكر، وجماعة، وتفقه على فخر الدين ابن عساكر، والقاضي جمال الدين بن الحرستاني، وقرأ الأصول على الآمدي، وبرع في الفقه، والأصول، والعربية، وفاق الأقران، والأضراب، وجمع بين فنون العلم من التفسير والحديث والفقه واختلاف أقوال الناس ومآخذهم. وبلغ رتبة الاجتهاد، ورحل إليه الطلبة من سائر البلاد. وصنف التصانيف المفيدة. وروى عنه الدمياطي، وخرّج له أربعين حديثاً، وابن دقيق العيد هو الذي لقبه سلطان العلماء، وخلق غيرهما. ورحل إلى بغداد، فأقام بها أشهراً. هذا مع الزهد، والورع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصلاة في الدين. وقد ولي الخطابة بدمشق، فأزال كثيراً من بدع الخطباء، ولم يلبس سواداً، ولا سجع خطبته، كان يقولها مترسلاً.

واجتنب الثناء على الملوك، بل كان يدعو لهم، وأبطل صلاة الرغائب والنصف، فوقع بينه وبين ابن الصلاح بسبب ذلك. ولما سلم الصالح إسماعيل قلعة الشقيف وصفد الفرنج نال منه الشيخ على المنبر، ولم يدع له، فغضب الملك من ذلك، وعزله، وسجنه، ثم أطلقه فتوجه إلى مصر فتلقاه صاحب مصر الصالح أيوب وأكرمه، وفوّض إليه قضاء مصر دون القاهرة، والوجه القبلي، مع خطابة جامع مصر، فأقام بالمنصب أتم قيام وتمكن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم عزل نفسه من القضاء، وعزله السلطان من الخطابة. فلزم بيته يشغل الناس ويدرس، وأخذ في التفسير في دروسه، وهو أول من أخذه في الدروس. وقال الشيخ قطب الدين اليونيني: كان مع شدته فيه حسن محاضرة بالنوادر والأشعار.

وقال الشريف عز الدين: كان عَلَمَ عصره في العلم، جامعاً لفنون متعددة، مضافاً إلى ما جبل عليه من ترك التكلف مع الصلابة في الدين، وشهرته تغني عن الإطناب في وصفه. وقال ابن شهبة: ترجمة الشيخ طويلة، وحكاياته في قيامه على الظلمة وردعهم كثيرة مشهورة. وله مكاشفات. وقال الذهبي: كان يحضر السماع ويرقص. توفي بمصر في جمادى الأولى من السنة. وحضر جنازته الخاص والعام والسلطان فمن دونه، ودفن بالقرافة في آخرها. ولما بلغ السلطان خبر موته قال: لم يستقر ملكي إلا الساعة، لأنه لو أمر الناس فيّ بما أراد لبادروا إلى امتثال أمره. ومن مصادر ترجمته: ديوان الإسلام (١٤٤٣)، هدية العارفين (١/ ٥٨٠)، الأعلام (٤/ ٢١)، معجم المؤلفين (٥/ ٢٤٩)، كشف الظنون (٩٢ وغير ذلك)، إيضاح المكنون (١/ ٨٤) البداية والنهاية (١٣/ ٢٣٥)، النجوم الزاهرة (٧/ ٢٠٨)، مرآة الجنان (٤/ ١٥٣)، مفتاح السعادة (٢/ ٢١٢)، مختصر دول الإسلام (٢/ ١٢٨)، المختصر في أقوال البشر (٤/ ٢٢٤).

ومن بعدهم من الطبقة الثانية

كالشيخ الإمام العلامة عز الدين أبي الحسن بن علي بن إسماعيل الواسطي صاحب خطتي الإمامة والخطابة بالمسجد النبوي.

ممن أخذ عنه الشيخ الخطيب أبو عبد الله بن مرزوق، ومن في نمطه بعد الثلاثين وسبعمائة، وقبلها بيسير.

والشيخ الإمام جمال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن عيسى الخزرجي السعدي العبادي.

والشيخ الإمام الفقيه الثقة المعمر محيي الدين أبي زكريا يحيى بن محمد المغراوي.

والشيخ نور الدين أبي الحسن علي بن محمد الحجار.

والشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد الصنعاني.

والشيخ الإمام قاضي القضاة بالمدينة شرف الدين الأخميمي الأسيوطي.

والشيخ صالح عز الدين الطراشي.

والشيخ شهاب الدين منهال بن عبد الله المغشي.

والشيخ بهاء الدين موسى بن سلامة الشافعي المصري.

والشيخ أبي طلحة الزبير بن أبي صعصعة الأسواني.

والشيخ عفيف الدين المصري.

والشيخ المعمر شرف الدين أبي عبد الله عيسى بن عبد الله الحجي.

والشيخ زين الدين أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بكر الطبري.

والشيخ الصالح شرف الدين جبير بن عبد الرحمن المعمر.

وشيخ شيوخ رباط الأعجام حيدر بن عبد الله.

والشيخ مقرىء الحرم برهان الدين إبراهيم الأربلي المصري.

والشيخ مصلح الدين الحسن بن عبد الله العجمي.

[١/١١٢] والإمام الصالح / أبي الضياء خليل بن عبد الرحمن القسطاني.

والشيخ الصالح الإمام الحجة أبي عبد الله بن أبي سعيد الشافعي منتهى الرئاسة العلمية ولي الخطط الشرعية بالحرم.

والشيخ فخر الدين بن أبي بكر المالكي.

والشيخ المدرس شهاب الدين أحمد بن أبي الحواري اليمني.

والشيخ قاضي القضاة، نجم الدين محمد بن جمال الدين عبد الله بن المحب الطبري.

والشيخ جلال الدين بن عبد الله محمد بن أحمد بن بريا خيرنا القشيري.

والشيخ قاضي القضاة، وخطيب الخطباء، عز الدين أبي عمر عبد العزيز بن محمد بن جماعة الكناني[١].

والشيخ الإمام علاء الدين إسماعيل بن يوسف العزيز.

والإمام تقي الدين محمد بن أبي بكر بن عيسى السعدي.

والشيخ المصنف الشهير الذكر الرفيع القدر، قاضي القضاة، جلال الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمٰن القزويني.

والشيخ الإمام قاضي القضاة برهان الدين إبراهيم بن أبي محمد عبد الحق، الحنفي.

والشيخ شرف الدين أقضى القضاة أبي عبد الله محمد الأخميمي.

والشيخ المسند بدر الدين محمد بن أحمد بن خالد.

والشيخ الحافظ أبي محمد قطب الدين عبد الكريم بن عبد المؤمن بن منير الحنفي.

---

(١) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٦/ ٢٠٨) في أحداث سنة (٧٦٧): وفيها قاضي القضاة عز الدين أبو عمر عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الأصل الدمشقي المولد، الشافعي. ولد بدمشق في المحرم سنة أربع وتسعين وستمائة. ونشأ في طلب العلم وسمع الكثير. وشيوخه سماعاً وإجازة يزيدون على ألف وثلاثمائة، قاله ابن قاضي شهبة. وتفقه على والده، والوجيزي، وغيرهما. وأخذ الأصلين عن الباجي. والنحو عن أبي حيان، وولي قضاء الديار المصرية مدة طويلة، وجعل الناصر إليه تعيين قضاة الشام، وحدث، وأفتى، وصنف. وكان كثير الحج والمجاورة. وكان مع نائبه القاضي تاج الدين الناوي كالمحجور عليه له الاسم والمناوي هو القائم بأعباء المنصب، فلما مات عجز القاضي عز الدين عن القيام به، فاستعفى، وكان يعاب بالإمساك، ولم يحفظ عنه في دينه ما يشينه، ذكره الذهبي في المعجم المختص، وقد مات قبله بنحو عشرين سنة.

وقال فيه: الإمام المفتي، الفقيه المدرس، المحدث، قدم علينا بوالده طالب حديث في سنة خمس وعشرين، فقرأ الكثير، وسمع وكتب الطباق وعنى بهذا الشأن، وكان خيراً صالحاً، حسن الأخلاق كثير الفضائل، سمعت منه وسمع مني. انتهى. وكان يقول: أشتهي أن أموت بأحد الحرمين معزول عن القضاء، فنال ما تمنى في أنه استعفى من القضاء في السنة التي قبلها، وحج فمات في جمادى الأخرى من هذه السنة، ودفن بعقبة باب المعلى إلى جانب قبر الفضيل بن عياض بينه وبين أبي القاسم القشيري.

والشيخ شهاب الدين أحمد بن منصور بن إبراهيم الحلي الزبيري.

والشيخ المعمر شرف الدين يحيى بن أبي الفتوح، المقدسي، المصري.

والشيخ محسن بن عبد الله بن محمد بن عبد المعطي القرشي.

والشيخ شهاب الدين محمد الحلبي.

والشيخ الإمام الحافظ أثير الدين أبو حيان محمد بن علي بن يوسف النقري.

والحافظ النسابة شهاب الدين أبي العباس أحمد بن أبي بكر بن طي بن حاتم الرقوي.

تبلغ شيوخه أزيد من ألفين.

والشيخ الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن المدلان.

والشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الله النوشي المالكي.

والشيخ المتصوف تاج الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن تغلب المصري مدرس المالكية.

والشيخ شمس الدين أحمد بن محمد الخطابي، الصيرفي.

والشيخ عماد الدين محمد بن علي بن نجم، الدمياطي، الشافعي.

والشيخ تاج الدين أبو نعيم محمد بن عبيد بن عباس الأشعري.

وتقي الدين إسماعيل بن إبراهيم التغلبي.

وفتح الدين يونس بن إبراهيم بن عبد القوي.

وشمس الدين بن محمد بن إسحاق بن عمر الوردي.

والعلامة مفتي الشافعية تقي الدين علي بن عبد الكافي[١].

---

(١) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٦/ ١٨٠) في أحداث سنة (٧٥٦) في ترجمته: الإمام تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام بن حامد بن يحيى بن عمر بن عثمان بن علي بن مسور بن سوار بن سليم السبكي، الشافعي، المفسر، الحافظ، الأصولي، اللغوي، النحوي، المقرىء، البياني، الجدلي، الخلافي، النظار، البارع، شيخ الإسلام، أوحد المجتهدين. قال السيوطي: ولد مستهل صفر سنة ثلاث وثمانين وستمائة. وقرأ القرآن على التقي بن الصائغ، والتفسير على العلم العراقي، والفقه على ابن الرفعة، والأصول على العلاء الباجي، والنحو على أبي حيان، والحديث على الشريف الدمياطي، ورحل وسمع من ابن الصواف، والموازيني. وأجاز له الرشيد بن أبي القاسم وإسماعيل بن الطبال، وخلق يجمعهم معجمه الذي خرّجه له ابن أيبك.

وبرع في فنون، وتخرج به خلق في أنواع العلوم. وقرأ له الفضلاء، وولي قضاء الشام بعد الجلال القزويني، فباشره بعفة ونزاهة غير ملتفت إلى الأكابر والملوك، ولم يعارضه أحد من نواب الشام إلا =

وبرهان الدين إبراهيم بن علي بن أبي القاسم المعروف بابن بنت الشاذلي.

والشيخ أبي الحسن علي بن محمد بن عبد القادر التميمي.

وبرهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد بن علي الخيمي.

وشمس / الدين الأوركالي. [١١٢/ب]

وبرهان الدين الحكري.

وأبي محمد عبد الكريم بن محمد بن محمد الطوسي.

والشيخ الإمام المصنف تاج الدين محمد التبريزي.

والشيخ الصوفي محمود بن القاسم الأصبهاني.

والشيخ شرف الدين سهيل بن محمد المقيلي.

وبرهان الدين إبراهيم بن محمد القيسي السفاقسي.

وأسد الدين يوسف بن داود بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب، من بني ملوك بني أيوب.

وعلاء الدين أبي الحسن بن أيوب.

وخطيب القدس بدر الدين محمد بن أحمد الصائغ المقدسي.

ومحمد بن علي بن منيب الأندلسي.

وبرهان الدين إبراهيم بن عمر المغلي إمام الخليل.

وبرهان الدين بن تاج الدين بن العركاج.

وشمس الدين محمد بن مسلم قاضي قضاة الحنابلة.

وأحمد بن محمد بن إبراهيم المرادي أبي العشاب.

وأبي القاسم بن علي بن الفراء.

والشيخ عز القضاة أبي محمد بن ناصر الدين منصور بن محمد بن المنير.

ولو تتبع من كان في هذه المدة من الأعلام لضاق المتسع، وطال الراوي

= قصمه الله. وولي مشيخة دار الحديث بالأشرفية، والشامية البرانية، والمسرورية، وغيرها. وكان محققاً مدققاً نظاراً، له في الفقه وغيره الاستنباطات الجليلة، والدقائق والقواعد المحررة التي لم يسبق إليها، وكان منصفاً في البحث على قدم من الصلاح والعفاف. وصنف نحو مائة وخمسين كتاباً مطولاً ومختصراً لمختصر منها يشتمل على ما لا يوجد في غيره من تحرير وتدقيق وقاعدة واستنباط منها تفسير القرآن، وشرح المنهاج في الفقه... وأنجب أولاداً كراماً أعلاماً. وتوفي بمصر بعد أن قدم إليها. وسأل أن يولي القضاء مكانه ولده تاج الدين، فأجيب إلى ذلك.

والمستمع. وإنما القصد الإتيان ببعض من كان تزييناً للكتاب وإتماماً إلى ما رسمه مستدعيه شرف الظهراء والنواب، وفخر الوزراء أولي الأديان والأحساب من الإلمام والمعارف الجليلة القدر والشأن، والوجوه، والأعيان، قصد الإخفاء بنبله، ووضوح مناهجه، وبيان سُبله.

وفيما ذكر كفاية إن شاء الله.

ذكر ما أمكن الإلماع به من الأمراء العلويين بمكة والمدينة

وإن كان خبرهم غير منقول لاندراجهم في ملك المماليك بمصر، وإقعارهم ودعوتهم وعدم تهمم من يقصد تلك البلاد المقدسة بهذه الأغراض خمود ليس التهمم وإخلاد إلى أرض العجز والكسل. وإن اتفق أن يصل إلى تلك البلاد من له حظ في الطلب فقصاراه أن يقيد رواية أو يحفظ حكاية.

وأما العناية بصاحب دولة أو نسب ذي مملكة فقلما تتجه إلى ذلك عناية أو تتعلق به رغبة.

ونحن نأتي من ذكرهم بنبذة على جهة التبرك إلى أن يمن الله بتيسير غيرها الذي جاهدنا من بلادنا واحتسبنا في جنب ما أصابنا من الكباد الخارق حجب الاعتياد، ويتمم الأمل سبحانه في مطالعة تلك المعاهد المقدسة والمعالم المقررة على التقوى والرضوان.

المؤسسه، فنعتاض الخُبْر من الخَبَر، والعين من الأثر بفضل الله متمم المنى، ومتقبل الوسائل الخالصة إليه بالقبول الحي لا إله إلاّ هو، فنقول:

[١/١١٣] كان الحجاز على / عهد الناصر لدين الله من العباسيين ببغداد، وهو أحمد بن المستضيء بالله، وكان طويل العمر استغرقت أيامه دولاً خمساً من دول أبناء عبد المؤمن أولهم: يعقوب المنصور، وآخرهم العادل.

وقد قطع بينه وبين الخلفاء الساكنين ببغداد، فألحق دولتهم من الاضطرابات والخوارج، ومنابذة أمراء الترك، فتمسك أهل الحجاز بمصر والشام من أصحاب الدعوة، فكان ذلك من العلويين الذين أقروا بالحجاز الرسم، وحفظوا الاسم للأمير أبو محمد مُكثر بن عيسى بن فليتة بن قاسم بن محمد بن جعفر بن أبي هاشم الحسيني.

ورآه الحاج الفاضل أبو الحسن بن جبير في رحلته سنة ثمان وسبعين وخمسمائة فقال فيها، وقد وصف الخطبة في أول جمعة من جمادى الأولى من سنة رحلته وقد حضرها بمكة شرفها الله فقال يصف الخطيب:

ثم قام، فأكثر الصلاة على النبي ﷺ وعلى آله، وترضى عن أصحابه، واختص الأربعة الخلفاء منهم بالتسمية رضي الله عنهم، ودعا لعميّ النبي ﷺ حمزة والعباس، ثم الحسن والحسين، ووالى الرضى عن جميعهم، ثم دعا لأمهات المؤمنين زوجات النبي ﷺ ورضي عن فاطمة الزهراء، وخديجة الكبرى، بهذا اللفظ، ثم دعا للخليفة العباسي أحمد الناصر، ثم لأمير مكة أبي محمد مكثر بن عيسى بن فليتة بن قاسم بن محمد بن جعفر بن أبي هاشم الحسيني، ثم لصلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب، ثم لولي عهده أخيه أبي بكر بن أيوب، وعند ذكر صلاح الدين بالدعاء تخفق الألسن عليه من كل مكان:

وإذا أحـب الـلَّـه يـومـاً عـبـده ... ألـقـى عـلـيـه مـحـبـة فـي الـنـاس

وحُق ذلك عليهم لما بذل لهم من جميل الاعتناء، وحُسن النظر لهم، ولما رفعه من وظائف المكوس عنهم.

ثم قال ما نصه: وليلة أهلَّ هلال الشهر المذكور، وهو جمادى الأولى، فكَرّ أمير مكة مُكثر المذكور في صبيحتها إلى الحرم الكريم في طلوع الشمس ومواده يحفون به والقراء يقرؤون أمامه، فدخل على باب النبي ﷺ، والرجالة السودان الذين يعرفونهم بالحرابة يطوفون أمامه وبأيديهم الحراب، وهو في هيئة اختصار عليه السكينة والوقار، وسِمَة سلفه الكريم رضي الله عنهم لابساً ثوب بياض بأزاء المقام الكريم، وقف وبُسط له وطاء من كتان فصلى ركعتين، ثم تقدم إلى الحجر الأسود فقبله وشرع في الطواف.

وقد علا قبة زمزم / صبي يدعي بدعاء أحد المؤذنين، وهو أول مؤذن يؤذن به [١١٣/ب] يعتدون، وله يتبعون، وقد لبس أفخر ثيابه، وتعمم، فعندما يكمل الأمير شوطاً واحداً ويقرب من الحجر يرفع الصبي بأعلى القبة رافعاً صوته بالدعاء، ويستفتحه الأمير يُصبح الأمير بسعادة دائمة ونعمة شاملة ويصل ذلك بمنية الشهر بكلام مسجوع مطبوع جميل الدعاء والثناء، ثم يتمم ذلك بثلاثة أبيات وأربعة من الشعر في مدحه ومدح سلفه. وذكر سابق النبوة رضي الله عنهم، ثم سكت.

فإذا أطل من الركن اليماني يريد الحجر، يرفع بدعاء آخر على ذلك الأسلوب، ووصله بأبيات من الشعر غير الأبيات الأولى في ذلك المعنى بعينه كأنها منتزعة من قصائد مدح.

هكذا في السبعة الأشواط إلى أن يفرغ منها، والقراءة في أثناء طوافه أمامه، فينتظم من هذه الحال والابهة وحُسن صوت ذلك الداعي على صغره، لأنه ابن إحدى عشرة سنة أو نحوها، وحسن الكلام الذي يورده نثراً ونظماً، وأصوات القراء،

وعلوها بكتاب الله تعالى مجموع تحرك النفوس وتشجيها فتوكف العيون ويبكيها تذكراً لأهل البيت الذين أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

فإذا فرغ من الطواف ركع عند الملتزم ركعتين ثم جاء وركع خلف المقام أيضاً، ثم ولى منصرفاً، وحلبته تحف به فلا يظهر في الحرم إلى مستهل هلال آخر، هكذا دائماً.

ثم قال له أهل مكة عن بكرة أبيهم يخرجون على مراتبهم قبيلة قبيلة، وحارة حارة، شاكين في الأسلحة فرساناً ورجالة، فاجتمع منهم عدد لا يحصى كثرة يتعجب المعاين لهم لوفور عددهم، فلو أنهم من بلاد جمة لكانوا عجباً، فكيف وهم من بلد واحد؟.

وهذا أدل الدلائل على بركة البلاد.

فكانوا يخرجون على ترتيب عجيب، فالفرسان منهم يخرجون خيلهم ويلعبون بالأسلحة عليها.

والرجالة يتواثبون ويتسابقون بالأسلحة في أيديهم حراباً وسيوفاً وحجفاوهم وهم يظهرون التطاعن بعضهم لبعض، والتضارب بالسيوف، والمراقعة بالحجف التي يستجنون بها، وأظهروا من الحذق بالثقافة كل أمر مستغرب، فكانوا يرمون الحراب إلى الهواء ويبادرون إليها لقفاً بأيديهم وهي قد تصوبت أسنتها على رؤوسهم، وهم في زحام لا يتمكن المحال، وربما رمى بعضهم بالسيوف في الهواء فيلقونها قبضاً على قوائمها كأنها لم تفارق / أيديهم. [١١٤/أ]

إلى أن خرج الأمير يزحف بين قواده. . .[١] وقد قاربوا سن الشباب، والرايات تخفق أمامهم، والطبول بين يديه، والسكينة عليهم.

وقد سلك الجبال والطرق والثنيات بالنظارة من جميع المجاورين.

فلما انتهى إلى الميقات، وقضى غرضه، أخذ في الرجوع، وقد ترقب العسكر بين يديه لعبهم ومزحهم، والرجالة على الصفة المذكورة من التجاول، وقد ركب جماعة من أعراب البوادي نحباً صهباً لم ير أجمل منها منظراً، وركابها يسابقون الخيل بين يدي الأمير رافعين أصواتهم بالدعاء له والثناء عليه إلى أن وصل المسجد الحرام، فطاف بالكعبة.

والقراء أمامه، والمؤذن الزمزمي يغرد في سطح قبة رافعاً عقيرته بتهنئته بالموسم والثناء عليه، والدعاء له على العادة.

---

(١) موضع النقط ثلاث كلمات لم أتبين قراءتها لسوء في المخطوط.

فلما فرغ من الطواف صلى عند الملتزم، ثم جاء إلى المقام وصلى خلفه، وقد أُخرج من الكعبة ووضع في قبته الخشبية التي يصلى خلفها.

فلما فرغ من صلاته رفعت له القبة عن المقام فاستلمه وتمسح به، ثم أُعيدت القبة.

وأخذ في الخروج على باب الصفا إلى المسعى والحفى بين يديه، فسعى راكباً، والقواد مطيفون به، والرجالة الحَرابة أمامه.

فلما فرغ من السعي استلت أمامه، وأحدقت الأشياع به، وتوجه على هذه الحالة الهائلة خوفاً.

وبقي المسعى يومه ذلك لموجب الساعين والساعيات.

وقال، وقد ذكر شهر رمضان:

وفي ضحوة يوم الأربعاء الثالث من الشهر المبارك المذكور، وكُنا جلوساً في الحجر المكرم، فسمعنا ضراب الأمير مكثر وأصوات نساء مكة يولولن عليه، فبينما نحن كذلك، دخل منصرفاً من لقاء سيف الإسلام وطائفاً بالبيت المكرم طواف التسليم، والناس قد أظهروا الاستبشار بقدومه والسرور لسلامته، وقد شاع الخبر بنزول سيف الإسلام داخلاً للزهراء ضرب أخبيته فيه، ومقدمتها من العسكر قد وصلت الحرم وزاحمت الأمير مكثراً في الطواف.

فبينما الناس ناظرون إليه إذ سمعوا أصواتاً عظيمة، وزعقات هائلة.

فما راعهم إلاّ الأمير سيف الإسلام داخلاً من باب بني شيبة، ولمعان السيوف أمامه كله يحول بين الأبصار وبينه، والقاضي عن يمينه، وزعيم الشبيين عن شماله، والمسجد الحرام قد ارتج وغاص بالنظارة والوافدين، والأصوات بالدعاء له ولأخيه صلاح الدين قد علت حتى صكت الأسماع، وأذهلت / الأذهان، والزمزمي المؤذن [١١٤/ب] في مرقبته رافع عقيرته بالدعاء له والثناء عليه، وأصوات الناس تعلو على صوته... [(١)] في الحين دنا الأمير من البيت المعظم أغمدت السيوف وتضاءلت... [(١)] وخلعت قلانس العزة، وذلت الأعناق، وخضعت الرقاب، وطاشت العقول والألباب مهابة وتعظيماً لبيت ملك الملوك، الجبار الواحد القهار، يؤتي الملك من يشاء، سبحانه جلّت قدرته وعز سلطانه، وتهافتت هذه العصابة العزية على باب بيت الله العتيق تهافت الفراش على المصباح، وقد نكس أذقانهم الخشوع، وبلت سبالهم الدموع. وطاف القاضي وزعيم الشبيين بسيف الإسلام الأمير مُكثر قد غمره ذلك الزحام.

---

(١) موضع النقط كلمات غير واضحة بالمخطوط لتراكب حروفها وكثرة مدادها.

فأسرع في الفراغ من الطواف، وبادر إلى منزله، وعندما أكمل سيف الإسلام طوافه صلى خلف المقام، ثم دخل قبة زمزم، فشرب من مائها ثم خرج على باب الصفا إلى السعي، فابتدأه ماشياً على قدميه تواضعاً وتذللاً لمن يجب له التواضع والسيوف مغلولة، وقد اصطف الناس من أول المسعى إلى آخره سماطين مثل ما صنعوا أيضاً في الطواف، فسعى على قدميه طريقين من الصفا إلى المروة، ومنها إلى الصفا، وهرول قدر الميلين، ثم قيده الإعياء فركب، وأكمل السعي راكباً، وقد حشر الناس ضحى معناً ووقتاً.

ثم عاد هذا الأمير إلى المسجد الحرام على حالته من الهيبة، وهو يتهادى بين بروق خواطف من الصوارم المصلتة، وقد بادر الشيبيون إلى باب البيت المكرم ليفتحوه، ولم يكن يوم فتحه، وضم الكرسي الذي يصعد عليه.

فرقا الأمير وتناول زعيم الشبيين فتح الباب، فإذا المفتاح قد سقط من كمه في ذلك الزحام، فوقف وقفة مندهش مذعور، ووقف الأمير على الأدراج، فيسر الله في وجود المفتاح، ففتح الباب، ودخل الأمير وحده مع الشيبيين.

وبقي وجوه الأغرباء وأعيانهم مزدحمين على ذلك الكرسي، فبعد لأواء فتح لأحد أمرائهم فدخل، وتمادى مقام سيف الإسلام في البيت الكريم مدة طويلة، ثم خرج.

وانفتح الباب للكافة منهم، فيا لك من ازدحام وتراكم وانتظام حتى صاروا كالعقد المستطيل وقد تسلسلوا، فكان يومهم أشبه شيء بأيامهم السارة في دخولهم البيت حسب تقدم الوصف له.

وركب الأمير سيف الإسلام وخرج إلى البيت بالموضع المذكور.

[١١٥/أ] وكان هذا اليوم بمكة من الأيام الهائلة المنظر، العجيبة المشهرة، الغريبة / الشأن، فسبحان من لا ينقض ملكه، ولا يبيد سلطانه لا إله إلاَّ هو.

وصحب هذا الأمير جملة كبيرة من حجاج مصر وسواها واغتنموا البر والأمن فوصلوا في عافية وسلامة، والحمد لله.

وفي ضحوة يوم الخميس بعده كنا أيضاً بالحِجْرِ المكرم، فإذا بأصوات وطبول ودبادب، وبواقات قد قرعت الأذان، وارتجت لها نواحي الحرم الشريف، فبينا نحن نتطلع للاستعلام عن خبرها طلع الأمير مكثر وغاشيته الأقربون حوله وهو راجل في حلة ذهب صرف كأنها الجمر المتقد يسحب أذيالها، وعلى رأسه عمامة شرب رقيق هجاني اللون قد علا كورها على رأسه كأنها سحابة مركومة، وهي مصفحة بالذهب، وتحت الحلة خلعتان من الريسيقي المرسم البديع الصنعة، خلعها الأمير سيف

الإسلام عليه فوصل بها فرحاً جذلان، والطبول، والدبادب، والبواقات تشيعه على أمر الأمير سيف الإسلام إشادة بتكرمته، وإعلاناً بمآثرته ومنزلته.

فطاف بالبيت المكرم شكراً لله على ما وهبه من كرامة هذا الأمير بعد أن كان أوجس في نفسه خيفة منه، والله يصلحه ويوفقه بمنه.

ثم قال في فصل آخر:

عند استهلال شهر شوال، فأول من بكر الشيبيين، وفتحوا باب الكعبة المقدسة وأقام زعيمهم جالساً بالعتبة المباركة، وسائر الشيبيين داخل الكعبة إلى أن أحسوا بوصول الأمير مُكثر فنزلوا إليه، وتلقوه بمقربة من باب النبي ﷺ، فانتهى إلى البيت المكرم، وطاف به أسبوعاً والناس لعيدهم، والحرم قد غُصَّ بهم، والمؤذن الزمزمي فوق سطح القبة على العادة رافعاً صوته بالثناء عليه والدعاء له متناوباً مع أخيه في ذلك.

فلما أكمل ذلك الأسبوع عمد إلى مصطبة قبة زمزم مما يقابل الركن الأسود، فقعد فيها وبنوه عن يمينه ويساره ووراءه، وحاشيته وقوف على رأسه.

وعادة الشبيين لمكانهم من البيت تلحظهم الناس بأبصارهم خاشعة للبيت غابطة لمحلهم منه، ومكانهم من حجابته وسدانته، فسبحان من خصّهم بالشرف في خدمته، وحضر الأمير في خاصته أربعة شعراء فأنشدوا واحداً واحداً إلى أن فرغوا من إنشادهم، وفي أثناء ذلك تمكن وقت الصلاة.

قلت: والأمير العلوي اليوم بمكة شرفها هو الأمير أبو السبق عجلان بن رحتة بن نمير بن سعد بن إدريس / بن عبد الكريم بن مطاعن بن بلغيث بن راجع بن [١١٥/ب] محمد بن علي بن عباس بن عيسى بن محمد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

هكذا تلقيناه في هذه الأيام ممن يحسن الظن بنقله.

وعجلان هذا هو الذي تجيز عنده الحجاج القافلون من البيت الحرام... (١) في أمره من قبل السلطان أمير مصر بولد له يسمى أحمد بن عجلان، وأفرد الولد بخط من الوالد، وصارت الكسوة لأمير مكة كسوتين، والإحسان المعتاد مضاعفاً كذلك مرتين.

وقد اقتضى اجتهادي في ذكر يخلد، أو دعاء يستنجد، أن خاطبت هذا الأمير من الأندلس بما نصه، وبما يظهر من غرضه جعل الله ذلك خالصاً لوجهه الكريم، وكان صدر الكتاب:

---

(١) موضع النقط كلمات غير مقروءة في المخطوط.

المقر الأشرف الذي فضل الحجاز لدينه محلة، وكرم في بئر زمزم منبط إسماعيل ﷺ نسله ومحله، وخصه بأمرة الحرم الأمين من بين الأمر كله، واشتمل على خواص الشرف الوضاح جنسه وفضله، وطابت فروعه لما استمد من ريحانتي الجنة أصله، مقر السلطان الجليل الكبير المعظم الموقر ذي الحسنيين، وحافد سيد الثقلين، تاج المعالي، عز الدين والدنيا أبي السبق عجلان ابن السلطان الكبير الشهير الرفيع الخطير الجليل النبيل الطاهر الظاهر الشريف الأصيل المعظم المقدس المنعم أسد الدين أبي الفضل وصيف بن محمد بن سعيد الحسيني أبقاه الله وأفئدة من الناس تهوي إلى باطن مثواه على بعد الدار، وتتقزب فيه إلى الله بلثم التراب، واستلام الجدار، وتجيب أذان نبيه إبراهيم بالحج إجابة الأبرار، ومناه بالمزية التي خصه بها في ملوك الأقطار، وأولى المراتب عباده والأخطار، كما رفع قدره على الأقدار وسجل له بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام عند الفخار، ينمي إليه أكرم التحيات تتأرج عن هذه الروضة المعطار عقب الأقطار، فعظم ما عظم الله من شعائر مثواه، وتلتمس البركة من أبواب مفاتحه، ولكل أمر بي ما نواه، وموجب حقه الذي يليق بمن البتول والوصي أبواه، المشيق إلى الوفادة عليه وإن نطله الدهر ولواه، فلان وبعده ما اقتضاه الوقت من شفاعة ووسيلة ووصية بمن التمس ذلك غير مهملة، إن شاء الله، ولا مضاعة.

وأما المدينة على ساكنها الصَّلاة والسلام

[١١٦/أ] / فأميرها اليوم عطية بن منصور بن حسان بن قاسم بن مهنا بن داود بن قاسم بن عبد الله بن محسن بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسن الأصغر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

أخبرنا بذلك الشيخ الشريف عبية ابن الشريف عفان بن يرجص بن عبيد أمير المدينة ابن قاسم بن حسان، هنا يلتقي مع أمير المدينة اليوم في النسب.

كان سلفه يقولون: إمارة المدينة مع سلف الأمير المذكور، وانزعج لأجل ذلك هذا الرجل عن المدينة، وهو فاضل، حسن السمت، ظاهر الهيئة، حافظ للرسم.

قدم على السلطان المقدس أمير المسلمين أبي فارس رحمه الله ورضي عنه، فأكرم وفادته وطالعه بمرسوم يشهد بصحة إتيانه، كتب عليه قاضي القضاة بالبلاد المصرية عز الدين أبي عمر عبد العزيز بن جماعة رحمه الله.

وقد كنت قبل الخروج عن الأندلس خاطبت أمير المدينة هذه المخاطبة صحبة رسالة وقصيدة بعثت بهما إلى الضريح الكريم النبوي زاده الله تقديساً وتكريماً وتشريفاً وتعظيماً قصد التبشر والتبرك نفع الله بذلك، وصدر الكتاب يعتمد:

الملك الأشرف الذي طاب بطيب بشره، وحل بإمارتها الشريفة أمره، وقرر في الآفاق شرفه وشرف قدره، وعظم بضريح سيد ولد آدم فخره الأمير الكذا ابن الأمير الكذا أبقاه الله تعالى منشرحاً بجوار روضة الجنة صدره متشرفاً بذلك الأفق الأعلى بدره، ذائعاً على الألسن في الأقطار البارحة حمده وثناه، مذرياً بشذا المسك الأذفر في الجمع الأوفر ذكره، تحية معظم بما عظم الله من دار الهجرة داره، ومطلع أبداره، للملتمس بركة آثاره، المتقرّب إلى الله بحبه وإيثاره.

والكتاب طويل، وفي هذا المقدار كفاية.

ومن القصيدة الموجهة صحبته لنجعلها في هذا الجزء مسك ختام وبركة سحائبها ذات انسجام:

دعاك بأقصى المغربين غريب ... وأنت على شحط المزار قريب

مُدل بأسباب الرجاء وطرفه ... غضيض على حكم الحياء مُريب

يكلف قرص البدر حمل تحيته ... إذا ما هوى والشمس حين تغيب

ويستودع الريح الشمال شمائلا ... من الحب لم يعلم بهن رقيب

ويطلب في جيب الجنوب جوابها ... إذا ما أظلت والصباح جنيب

/ ويستفهم الكف الخضيب ودمعه ... غراماً بحناء النجيع خضيب[1] [١١٦/ب]

ومنها بعد كثير:

أيا خاتم الرسل المكين مكانه ... حديث غريب الدار فيك غريب

فؤاد على جمر البعاد مقلب ... يماج عليه للدموع قليب

/ ....[2] [١١٧/أ]

ومنها:

عليك صلاة اللّه يا طيب الفضا ... عليك مُطيل بالثناء مطيب

وما اهتز غصن للغصون مُرنح ... وما أفغر ثغر للبروق ثنيب

---

(١) ثم يسوق القصيدة وفي بعض أبياتها كلمات غير مقروءة، فيذكر بعد حوالي عشرين بيتاً قوله: ومنها بعد كثير: . . . فتركت الأبيات لكون الكتاب ليس لهذا الغرض ولسوء الخط، ثم أذكر بعض أبياتها كما فعل هو، والله الموفق.

(٢) تركت بعض الأبيات ثم أذكر البيتين الأخيرين لما فيهما من الختام بالصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ.

اختصرناها لتكررها في كثير من مصنفاتنا «ريحانة الكتاب» و«نجعة المنتاب»، وفي «المفاخر الطيبة في المفاخر الخطيبية». وفيما ذكرنا كفاية بحول الله.

تمَّ الجزء الأول من الكتاب المسمَّى

«أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام

وما يتعلق بذلك من الكلام»

وهذا الجزء هو المتضمن ما يخص من الغرض البلاد المشرقية إلى «برقة» حسبما بلغ إليه علمنا في الوقت بين خفيف ولفيف، وقوي من الكلام وضعيف، والعذر عن التقصير غير خفي، ويرفع للجناح لي من تعذر الكتب، بعد أن عاث في خزائنها الزمان، وتشتيت الفكر الذي اقتسمه الخوف والأمان، وكلال الجوارح بعد أن استرد قوة الشبيبة الرحمٰن.

وفي عشرين يوماً كان الفراغ من هذا الجزء من تبييض وتدوين، ونسخ وتكوين، وسداجة وتلوين، ترفع الكراسة لمشحنها والحبر رجراج، والمعين قلم وسراج، والمساعد انفراد، والمؤانس فكر وسهاد، من بغير تنقيح يستدري المغفل، أو تصحيح يفيد المهمل، حرصاً على تكميل غرض مستدعي جمعه، وتعجيلاً لإتحاف سمعه.

والحمد لله إن لم يشبه الإنسان إلاّ في كونه خُلِق من عجل، وعمر الأجل، وما سوى ذلك من خواصه الشريفة، ومزاياه المنيفة، في متاع مهجور، وحجر محجور، ومن عرف قدره فمثاب إن شاء الله ومأجور.

وحسبنا الله ونعيم الوكيل.

يتلوه إن شاء الله تعالى، الجزء الثاني،

ما يخص الأندلس ما بين بحر الزقاق إلى الثغر الأقصى

وذكر دولة بني أمية ومن بعدهم، والجزر الراجعة إلى الأندلس،

وتعاقب ملوك قشتاله، وليُون، وبرتغال، ومرجلوقة

فهرس المحتويات

أعمال الأعلام

فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام
وما يتعلق بذلك من الكلام

تأليف

الوزير أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطي الأندلسي
الشهير بلسان الدين ابن الخطيب
المتوفى ٧٧٦هـ

تحقيق

سيد كسروي حسن

الجزء الثاني

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

[١/١١٨] بسم الله الرحمن الرحيم /

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً

[الجزء الثاني من الكتاب المسمى بـ: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام][1]

ويتضمن بالإشارة إلى من دال بالأندلس من جهة المغربية، واقتطاعها عن الممالك الشرقية، والدول العباسية، والشيعة العلوية، وفيهم ملوك بني أمية، وملوك بني حمشوذ الأدارسة، ومن بعدهم من ملوك الطوائف، والثوار أولي البهرج الزائف.

نقول، بعد استعانة الله:

قد كان الأوْلَى بنا أن نذكر بعد دول الملوك بالمشرق من يتصل في حدود البلاد الغربية من الجهات الإفريقية وما وراءها غرباً إلى البحر المحيط، وبعد ذلك نكرّ على الأندلس بالذكر، وتصرف القول بعد الفراغ من متصل البر إلى ذكر ما وراء البحر.

لكنا راعينا في ذلك غرضين:

أحدهما: المناسبة الأموية، بأن ملوك الأندلس منهم إنما هم بقايا الدولة بالمشرق، وفروع عن أصولها، وبل من جمهورها ومقتطع من جرثومتها، فقد كان ملك الأموية فتحها، وأمراؤهم تملكوها، ثم استقل بها ذريتهم، فأبقوا رسماً غير خامل القدر، ولا مغفل الذكر.

---

(١) ما بين المعقوفين جاء موضعه بياض بالمخطوط قدره خمسة أسطر، أرجح أن تكون كانت مكتوبة بالمداد الأحمر، فأثبت فيها ما أظن أنها كانت تضمنه، والله أعلم.

والثاني: ما بنينا عليه من الختم بالدولة المرينية، لنبدأ الكتاب بذكر السلف الواجب الحق، ونختمه بذكر الملوك الكرام من آل عبد الحق، فنكون قد افتتحنا بالفضل والنسك، وعقبنا بالملك، وختمنا منهم بختام المسك، وولينا المعتبة ما اعتذرنا به من الترتيب لنبرأ من التثريب، ومشاقنا في هذا القسم قريب، فما بنينا عليه من الاختصار والتقريب، إلا ما كان للمستطرف والغريب، والمستأخر القريب، فقلما خلونا من الإسهاب، وتزيين الكتاب بالآداب.

وحسبنا الله ميسّر الآراب، لا إله إلاّ هو.

فصل في الإلمام بشيء من إطراء الأندلس

ليعلم أن وطن الأندلس حظه من المعمور كبير.

وإنما سمي جزيرة بحلم المجاز لاعتراض البحر الشامي الخارج من دائرة البحر المحيط من قبل الزقاق بطنجة / قاطعاً بين هذه الأرض الأندلسية وبين ما [١١٨/ب] يجاورها من البر المتصل قبله إلى أن يتصل إلى الخليج بأحواز قسطنطينية.

وقد اختلفت طباع هذه الأرض لسعة خطتها وأخذها من الأقاليم بخطوط، فمن أماكنها المعتدل وغير المعتدل، ومائلاً إلى البرد، وقد خصها الله من الري، وغدق السقيا ولذاذة الأقوات، وفراهة الحيوان، ودرور الفواكه، وكثرة المياه، وشجر العمران، وجودة اللباس، وشرف الأبنية، وكثرة السلاح، وصحة الهواء، وابيضاض الرأس من الإنسان، ونبل الأذهان، وقبول الصنائع، وشهامة الطباع، ونفاذ الأدراك، وأحكام التحدي، والاعتماد بما حُرِمَه الكثير من الأقطار مما سواها.

حدثني بعض من كنت أردده إلى ملوك النصارى بأعماق أرضها، فقال:

مررت في مرحلة واحدة بأزيد من ثلاثمائة بلد في نهاية الإحكام وحُسن الوضع، وتشييد البناء كأنها سوسان الرياض تُومِض بزرقها في مدلهم الغياض لعدم الصحارى والمفاوز بذلك الوطن.

وقيل: إن ذرعه ستة أشهر.

وقال لي بعض الفضلاء من أصحابنا الذين جلبوا الأشطار، وخبروا الأقطار، وصحبوا الحداة والقطار، وهو حجة في الأخبار، ومدارك الأنظار.

واعلم أن الأندلس بالنسبة إلى ما وراء البحر كله تل وحصاره والجميع صحراء متفاضلة الأحوال في البدا في البداوة، وإن قدرت أن قطراً من الأقطار التي تقع عليها عينك بعدما يوازنها أو يشبهها في ظرف أو حُسن أو زينة أو إحكام صناعة أو فلاحة، فاعتقد أنك غلطت في الأمر، وأن الخبر غير الخبر.

قلت: وهذا أيضاً غلط، فإن استحسان الأوطان لا يملك فيه زمام الهوى.

ومن فتن بالأندلس فتنة هذا، أبو إسحاق بن خفاجة في قوله:

ما جنَّة الخلد إلاَّ في دياركم   وهذه كنت لو خيّرت أختار

لا تتقوا بعدها إن سقرا فليس تدخل بعد الجنة النار

ولما فاض سيل الإسلام وبلغ مُلك الأمة المحمدية ما زوى لنبيها ﷺ، وعبرت سيوف الدعوة العربية البحر إلى الأندلس، ونظروا إلى ما وراء البحر في خطتها من بلاد طيبة، وبركات صبية، اغتبطوا وارتبطوا وتمهدوا واستقروا، وتولدوا ونسوا أوطانهم، وألقوا أعطانهم، واستقام للإسلام بها ملك كبير/ وسلطان شهير، قد أفرد بعموم خيره معين غيره، وغنى أمره عن سواه. [١/١١٩]

عن منصور بن العباس، وأمله أنه قال: وقد جرى ذكر بعض، وما الذي يقال في رجل يركب من نتاجه، ويلبس من ديباجه، وينفق من خراجه.

قلت: ولو شاء لزاد: ويأكل في علاجه، ويتقرب إلى الله بجهاد أعلاجه، إلا أنها اليوم لم يبق لها إلا علالة لا تروي غلة، ونفاضة مزاد لا يحس بها ملّة، لم تحفظ دماءها إلاّ فتن شغلت العدو وشرعت الهدو، لطف الله بها من النسيم بقدرته.

وحديث الفتح، وما فتح الله على الإسلام من المنح وأخبار ما أفاء الله من خيره على موسى بن نصير، وكتب من جهاد لطارق بن زياد، محلول قصّاص وأوراق وحديث أفول وإشراق، وأرعاد وأبراق، وامتشاق وآلة معلقة في حانوت مشاش.

والقصد أنها دخلها من الأمراء من لدن افتتاحها على عهد ولد عبد الملك بن مروان إلى لحاق عبد الرحمٰن بن معاوية، مجرد الدولة الأموية بها نحواً من عشرين رجلاً منهم: طارق بن زياد الذي تولى افتتاحها، وإليه ينسب جبل الفتح المدعو بجبل طارق، وغيره.

وبها شهير مولى موسى بن نصير، فكانت إمارته فيها سنة.

ثم موسى بن نصير البكري وإليه ينسب الفتح، إذ كان طارق من قبله، وهو الذي تمم ما بدأه بها تملك، وابنه عبد العزيز ثلاث سنين، ثم قفل بالغنائم.

وكان الوليد بن عبد الملك بن مروان سلطانه الذي ولآه مريضاً يجود بنفسه.

وولي الأمر بعده أخوه سليمان بن عبد الملك، فأشار على موسى بن نصير بالتربص ليكون دخوله في أيامه إذا قضى الوليد نحبه، فأبى عليه لصلابة موسى ودينه ومشهور وفائه.

فلما ولي أسفه وعذّبه، وقتل ولده بما هو معلوم.

ثم ولي أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير، تملك ستة أشهر.

ثم دخلها الحسن بن عبد الرحمٰن الثقفي، فملك سنة وسبعة أشهر.

ثم دخلها السمح بن مالك الخولاني، فملك سنتين وسبعة أشهر.

ثم دخلها عنبسة بن سحيم الكلبي، فملك أربع سنين وخمسة أشهر.

ثم دخل يحيى بن سلامة الكلبي، فملك ستة أشهر.

ثم ولي عثمان بن أبي نسعة الخثعمي، ملك ستة أشهر.

ثم ملك الهيثم بن عبيد الكلابي، فملك أربعة أشهر.

ثم ولي عبد الرحمٰن بن عبيد الله الغافقي، فملك سنتين وسبعة / أشهر. [١١٩/ب]

ثم ولي عبد الملك بن قطن الفهري، فملك ثلاث سنين وشهرين.

ثم دخل عقبة بن الحجاج السلولي، فملك خمس سنين وشهرين.

ثم دخل عبد الملك بن قطن مرة أخرى ثانية، فتملك سنة وشهراً.

ثم دخل بلج بن بشر، صاحب الطائفة البلجية من أهل الشام...[١] لأخذ كبيرة البربر في خبر مشهور، فتملك ستة أشهر.

ثم ولي ثعلبة بن سلامة العاملي خمسة أشهر.

ثم ولي أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي، فملك سنتين وثمانية أشهر، وكانت في أيامه حروب شهيرة.

ثم ولي نوابة بن سلامة الجذامي، فملك سنتين وشهرين.

ثم ولي الأمير يوسف بن عبد الرحمٰن الفهري، فملك تسع سنين وأحد عشر شهراً، واستقر له الملك بالأندلس، لمصاهرة الصميل بن حاتم إلى أن طرقه من قدوم صقر بني أمية عبد الرحمٰن بن معاوية ما كدر شربه، وورع سربه، ثم عادة الأيام والبقاء لمن انفرد بالدوام، سبحانه لا إله إلا هو.

---

(١) كلمة غير مقروءة.

دولة عبد الرحمٰن بن معاوية(١)
أول من ملك الأندلس في بني أمية

قالوا: لما أتيح للعباسية الظفر بمروان بن محمد الجعدي بأحواز مصر، وانقرضت دولة بني أمية، وصاحت بهم الأيام، ووقع الطلب عمن أفلت منهم، كان عبد الرحمٰن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك أحد من شرده واستثار به الجلاء والاختفاء إلى المغرب.

وقال ابن أبي العياض مخبراً عنه، قال:

سمعت مسلمة بن عبد الملك بن مروان عم لي يقول يوماً لجدي هشام بن عبد الملك وهو خليفة، وقد نظر إليّ:

هذا هو الذي يُحيي ملك بني مروان بالمغرب بعد ذهاب مُلكنا بالمشرق.

فكان جدي يفضلني من حينئذ، وما زالت تلك الكلمة تعمل بي، فلما أن انخرم ملكنا بالمشرق، خرجت أريد المغرب، فملكت الأندلس.

قالوا: واجتاز عبد الرحمٰن وقد لحق به بدر مولاه، بشيء من الذهب وجوهر نفيس أعطاه إليه ليعيش به وتدريه أمير إفريقية عبد الرحمٰن بن حبيب فأفلته، واستقر بمقيلة، وكتب من ساحلها إلى من بالأندلس من سرايا بني أمية وصنائع دولتها، فاستجابوا له، واشترى له بساحل تدمير مركب عاد إليه فيه بدر مولاه في طائفة من الصنائع.

فركب فيه البحر واحتل بمرسى المنكب غرة ربيع الأول من سنة ثمان وثلاثين ومائة.

ثم تحرك إلى البيرة، واستجاب الناس لدعوته.

ولما كملت لديه الجيوش عقد اللواء ومضى نحو قرطبة، وكان الأمير يوسف

---

(١) من مصادر ترجمته: العقد الفريد (٤/ ٤٤٨)، الطبري (٧/ ٥٠٠)، فوات الوفيات (٢/ ٣٠٢)، ابن خلدون (٤/ ١٢٠)، نفح الطيب للمقري (١/ ٣٢٧)، نهاية الأرب (٢٢/ ١)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (١/ ١١٨)، سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٤٤).

الفهري يومئذ غائباً عنها، محاصراً / مدينة سرقسطة، فلما بلغه الخبر قفل إلى قرطبة [١٢٠/أ] فنزلها.

وأقبل عبد الرحمٰن، فنزل بضفة النهر، ودارت بين الفريقين محاورة أجلت عن الصلح يوم الجمعة وهو يوم الأضحى من السنة. واستدعى عبد الرحمٰن من ابن أبي الصباح يحيى بن يحيى اليحصبي ـ يقال له: أشهب فيمن الكوكب كان له فتحول إليه ـ وقال: إن فرسي قلص لا يمكن معه الرمي. فقدمه إليه فركبه.

وطمأن الناس، وتمت الهزيمة على يوسف الفهري[١]. وتمت البيعة لعبد الرحمٰن يومه، ودخل قصر الإمارة بقرطبة، واستقر به.

وتمادى يوسف الفهري في فراره إلى أن استقر بغرناطة.

وتحرك عبد الرحمٰن في أثره، فنازله وحاصره، والتمس من عبد الرحمٰن الأمان، فبذل له.

وخافه بعد، وفرّ عن محصرته، ووقع عنه الطلب، فأتى إليه برأسه، وخلا له الجو منه[٢].

---

(١) لتوضيح هذا الكلام أسوق ما ذكر ابن الأثير في هذه النقطة في الكامل من التاريخ في أحداث سنة (١٣٩) في ذكر دخول عبد الرحمٰن بن معاوية إلى الأندلس، فمما قال في ذلك: ثم أتى إشبيلية فبايعه أبو الصباح يحيى بن يحيى ونهض إلى قرطبة، فبلغ خبره إلى يوسف ـ وكان غائباً عن قرطبة بنواحي طليطلة، فأتاه الخبر وهو راجع إلى قرطبة ـ. فسار عبد الرحمٰن إلى قرطبة، فلما أتى قرطبة تراسل هو ويوسف في الصلح، فخادعه نحو يومين أحدهما يوم عرفة، ولم يشك أحد من أصحاب يوسف أن الصلح قد ابترم وأقبل على إعداد الطعام ليأكله الناس على السماط يوم الأضحى. وعبد الرحمٰن مرتب خيله ورجله وعبر النهر في أصحابه ليلاً ونشب القتال ليلة الأضحى وصبر الفريقان إلى أن ارتفع النهار. وركب عبد الرحمٰن على بغل لئلا يظن الناس أنه يهرب، فلما رأوه كذلك سكنت نفوسهم، وأسرع القتل في أصحاب يوسف وانهزم، وبقي الصميل يقاتل مع عصابة من عشيرته، ثم انهزموا، فظفر عبد الرحمٰن. ولما انهزم يوسف أتى ماردة. وأتى عبد الرحمٰن قرطبة، فأخرج حشم يوسف من القصر على عوده، ودخله بعد ذلك.

(٢) هكذا هنا، وفي المصدر السابق على خلاف ذلك تماماً، إذ قال ابن الأثير بعد ذكره لدخول عبد الرحمٰن القصر: ثم سار في طلب يوسف، فلما أحسّ به يوسف خالفه إلى قرطبة، فدخلها، وملك قصرها، فأخذ جميع أهله وماله بمدينة البيرة، وكان الصميل لحق بمدينة شوذر. وورد إلى عبد الرحمٰن الخبر، فرجع إلى قرطبة طمعاً في لحاقه بها، فلما لم يجده عزم على النهوض إليه، فسار إلى البيرة، وكان الصميل قد لحق بيوسف وتجمع لهما هناك جمع. فتراسلوا في الصلح، فاصطلحوا على أن ينزل يوسف بأمان هو ومن معه، وأن يسكن هو وعبد الرحمٰن بقرطبة، ورهنه يوسف ابنيه أبا الأسود محمداً، وعبد الرحمٰن. وسار يوسف مع عبد الرحمٰن، فلما دخل قرطبة تمثل:

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة نتنصف

وانسال بنو أمية من المشرق محتالين مختفين يجيء إليه عدد منهم تجددت بهم الدولة.

وماج على عبد الرحمٰن بن معاوية بحر الخلاف والمنازعة، وقارع الكثير من الثوار، ولاكأ لعلاء بن الغيث الحداني الداعي إلى نفسه بناحية باجة من عمل حمص.

وذكر أن المنصور صاحب الدولة العباسية أرسل إليه بولاية الأندلس فاتبعته الأجناد، وتطلع إليه العباد، إلى أن كادت دولة عبد الرحمٰن تنصرم.

فخرج إلى حد مونة محاذياً له بخاصته، وعاجله العلاء بن مغيث، فحاصره بها أياماً عديدة.

فلما طال بالعلاء الأمر، وعلم عبد الرحمٰن باختلال محلته، أمر بنار فوقدت، ثم أمر بأجفان السيوف فطرحت بها، وقال لأصحابه: اخرجوا معي خروج من لا يحدث نفسه بالرجوع، وكانوا سبعمائة، فخرجوا إلى العلاء، فرزقهم الله النصر، وزلزل أقدام عدوهم، إلى قضاء الله من إقبال الدولة وتمهيد لأمرها فهزم القوم، وقتل العلاء فطيف للحين برأسه، وأمر به عبد الرحمٰن فعولج بما يحفظه وجعل مع اللواء المعقود له في صفط وأرسله مع أقواماً من الحجاج الذاهبين إلى الحج إلى مكة.

واتفق أن حج المنصور عامئذ، فجعل القوم الصفط بازاء باب سرادقة فإذا نظر إليه، قال: عَرّضنا هذا المسكين للقتل والحمد لله الذي جعل بيننا وبين هذا - يعني عبد الرحمٰن بن معاوية - بحراً[1].

واستنزل الثوار، وقهر الأعداء، وجاهد في سبيل الله بما هو معروف في دولته من كتب التاريخ.

وذكر أن أبا جعفر المنصور قال يوماً لبعض جلسائه: أخبروني عن صقر قريش من الملوك؟

= واستقر عبد الرحمٰن بقرطبة، وبنى القصر والمسجد والجامع، وأنفق فيه ثمانين ألف دينار، ومات قبل تمامه، وبنى مساجد الجماعات. ووافاه جماعة من أهل بيته، وكان يدعو للمنصور. وقد ذكر أبو جعفر أن دخول عبد الرحمٰن كان سنة تسع وثلاثين. وقيل: سنة ثمان وثلاثين على ما ذكرنا.

(١) وفي الكامل في التاريخ في أحداث سنة (١٤٦) في ذكر خروج العلاء بالأندلس: وفيها سار العلاء بن مغيث اليحصبي من إفريقية إلى مدينة بناحية الأندلس، ولبس السواد، وقام بالدولة العباسية، وخطب للمنصور، واجتمع إليه خلق كثير، فخرج إليه الأمير عبد الرحمٰن الأموي، فالتقيا بنواحي اشبيلية، ثم تحاربا أياماً، فانهزم العلاء وأصحابه، وقتل منهم في المعركة سبعة آلاف وقُتل العلاء، وأمر بعض التجار بحمل رأسه ورؤوس جماعة من مشاهير أصحابه إلى القيروان وإلقائها بالسوق سراً، ففعل ذلك. ثم حُمل منها شيء إلى مكة، فوصلت وكان بها المنصور. وكان مع الرؤوس لواء أسود، وكتاب كتبه المنصور للعلاء.

قالوا: ذلك أمير المؤمنين الذي واصل الملوك، وسكن الزلازل، فأباد الأعداء وحسم الأدواء.

قال: ما قلتم شيئاً.

قالوا: معاوية.

/ قال: لا. [١٢٠/ب]

قالوا: فعبد الملك بن مروان.

قال: ما قلتم شيئاً.

قالوا: فمن يا أمير المؤمنين؟

قال: صقر قريش عبد الرحمٰن بن معاوية الذي عبر البحر، وقطع القفر، ودخل بلداً أعجمياً مفرداً بنفسه فصار وجند الأجناد، ودون الدواوين، ونال ملكاً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته، إن معاوية نهض بمركب حمله عمر، وعثمان، والملالة صعبة، وعبد الملك ببيعةٍ تقدم عقدها، أمير المؤمنين يطلب ثأر عثرته، واجتماع شيعته، وعبد الرحمٰن منفرد بنفسه مؤيد بأمره، مستصحب لعزمه، وطّدَ الخلافة بالأندلس، وافتتح الثغور، وقتل المارقين، وأذلّ الجبابرة الجائرين.

وكان عبد الرحمٰن من أهل العلم وعلى سيرة جميلة من العدل، ومن قوله:

أيها الراكب الميمِّمُ أرضي ... أقرِ من بعضي السلام لبعضي

إن جسمي كما علمت بأرضٍ ... وفؤادي ومالكيه بأرضِ

قُدِّرَ البين بيننا فافترقنا ... وطوى البين عن جفوني غمضي

قد قضى اللّه بالفراق علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضي[(١)]

وله من الشعر كثير، وهو معلوم.

وكان عبد الرحمٰن بن معاوية فصيحاً، بليغاً، حسن التوقيع، مليح الفصول، مطبوع الشعر، معدوداً من أهل العلم، وعلى سيرة حسنة من العدل.

ذكروا أنه لما نزل بمنية الرصافة من قرطبة، نظر فيها إلى نخلة هاجت شجنه وتذكر بها وطنه، فقال بديهة:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت شبيهي في التغريب والنوى ... وطول انثنائي عن بنيّ وعن أهلي

---

(١) الأبيات في نفح الطيب (٣/ ٣٨)، جذوة المقتبس (٩)، الحلة السيراء (١/ ٣٦)، وقيل: إنها لمعاوية بن صالح القاضي، ونسبت لعبد الرحمٰن الداخل هذا، والله أعلم.

نشأت بأرض أنتِ فيها غريبة فمثلك في الإقصاء والمنتأى مِثلي
[سقتك عوادي المُزن من صوبها الذي يَسُحُّ وتَسْتَمري السِّماكين بالوَبْلِ][١]

وتوفي عبد الرحمٰن بن معاوية يوم الثلاثاء لست بيقين من ربيع الآخر سنة ثنتين وسبعين ومائة، ودفن بالقصر من قرطبة. وكانت مدة ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر.

وكان عمره يوم دخل الأندلس خمساً وعشرين سنة.

وكان قد عقد الخلافة لبنيه هشام وسليمان.

[١٢١/أ] فاستخلفها هشام باستباقه إلى قصر الخلافة قبل أخيه، إذ كانا غائبين، ولما / حضرته الوفاة، وابنه هشام بماردة، وابنه الآخر سليمان بطليطلة، وكّل ابنه عبد الملك المعروف بالبلنسي، وقال له: من سبق إليك من أخويك فادفع إليه بالخاتم والأمر، وإن سبق إليك هشام فله فضل دينه وعفافه، واجتماع الكلمة عليه.

وإن سبق إليك سليمان، فله فضل سنه ونجدته وحب الناس له.

فقدم هشام قبل سليمان، فلقيه الأخ عبد الملك، وسلّم إليه امرته، وأدخله القصر.

دولة هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان[٢]

كنيته: أبو الوليد.

بويع مستهل جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين ومائة.

ولما اتصل بأخيه الخبر، وهو بطليطلة، حشد إليه، وقصد قرطبة.

وبرز إليه هشام، وكان اللقاء بجهة جيان، فانهزم سليمان.

وعاود الاحتشاد، فتكررت الهزيمة، ثم نازعه أخوه عبد الله متخلف إليه، الذي

---

(١) البيت من سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٤٧).

(٢) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٥٣)، العقد الفريد (٤/ ٤٩٠)، ابن القوطية (٤٢)، جذوة المقتبس (١٠)، الحلة السيراء (١/ ٤٢)، البيان المغرب (٢/ ٦١)، ابن خلدون (٤/ ١٢٤)، المعجب (١٩)، نفح الطيب (١/ ٣٣٤). قال الذهبي في ترجمته في سير أعلام النبلاء: الأمير، أبو الوليد، المرواني، بويع الملك بالأندلس عند موت والده سنة اثنتين وسبعين، وعمره إذ ذاك ثلاثون سنة، فإنه وُلد بالأندلس. وكان ديناً ورعاً يشهد الجنائز، ويعود المرضى، ويعدل في الرعية، ويكثر الصدقات، ويتعاهد المساكين. أمه: أم ولد اسمها حوراء. ولما احتضر عهد بالأمر إلى ولده الحكم. ومات في صفر سنة ثمانين ومائة، وله سبع وثلاثون سنة رحمه الله تعالى وإيانا.

دفع إليه أمانته لسبعة أشهر من ولايته، ولحق بأخيهما سليمان بطليطلة.

وتحرك هشام إلى منازلتهما، فجاءت الحال عن لحاق عبد الله بهشام من غير عهد ولا أمان، وتقبله وأجراه مجرى ابنه في الأمر، وصالح سليمان بستين ألفاً على الخروج بأهله وولده عن الأندلس إلى عدوة المغرب، ونازل هشام بعد ذلك بسرقسطة وبها مطروح بن سليمان الأعرابي، فأمكنه الله تعالى منه وخلا له الجو.

فغزا بلاد الروم بنفسه وقواده، فكان أثره عظيماً، فتح به مدائن، وحاصر إفرنجة.

وفي سنة تسع وسبعين ومائة غزا عبد الكريم بن مغيث بالطائفة التي انتهى بها داخل خليقة، فهزم طاغية الروم، وقد احتشد له البشكنس، ثم اتبعه في الجبال ينسف كل ما مر به ويتركه قاعاً صفصفاً.

وكان مقدمة جيش عبد الكريم الحاجب التي قدمنا بين يديه لمناجزة إذ فونش صاحب فرج بن كنانة، عشرة آلاف، فكانت غزاة شهيرة[١].

وكان هشام الرضي من أئمة وبمنزلة عمر بن عبد العزيز في قومه بالأندلس.

تولى بناء القنطرة العظمى بقرطبة بنفسه، وأنفق فيها أموالاً عظيمة.

وحكى ابن وضاح: أنه ذكر له أن الناس يقولون: إنما بناها لتصيّده وتنزهه.

فحلف، لما بلغه ذلك، لا يجوز عليها إلاّ لغزو في سبيل الله أو مصلحة.

قلت: هكذا شأن الناس مع أرباب الدول / إن بنى القنطرة ولازمها على كريهة، [١٢١/ب] نفعه الله، واختار ما نالها من طيبه.

قيل: بناها للهوه وصيده، ولو كان هذا فليت شعري أي شيء كان يعوزهم من منفعتهم بها، وهلا دعوا أن يهنيه الله بزهوه وصيده إذ كانا شافعين في بنائها لهم، ولو

(١) قال ابن الأثير في هذه الحكاية: أنها كانت في سنة ثمانين ومائة أيام حكم الحكم بن هشام، فقال فيها في ذكر غزوة الفرنج بالأندلس: وفي هذه السنة سير صاحب الأندلس جيشاً مع عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الإفرنج، فدخل البلاد وبث السرايا ينهبون، ويقتلون، ويحرقون البلاد، وسير سرية، فجازوا خليجاً من البحر كان الماء قد جزر عنه، وكان الفرنج قد جعلوا أموالهم وأهليهم وراء ذلك الخليج ظناً منهم أن أحداً لا يقدر أن يعبر إليهم، فجاءهم ما لم يكن في حسابهم فغنم المسلمون جميع مالهم، وأسروا الرجال، وقتلوا منهم فأكثروا وسبوا الحريم، وعادوا سالمين إلى عبد الكريم. وسَيّر طائفة أخرى فخربوا كثيراً من بلاد فرنسية وغنم أموال أهلها، وأسروا الرجال، فأخبره بعض الأسرى أن جماعة من ملوك الإفرنج قد سبقوا المسلمين إلى واد وعر المسلك على طريقهم. فجمع عبد الكريم عساكره، وسار على يعبيه، وجدّ السير، فلم يشعر الكفار إلا وقد خالطهم المسلمون، فوضعوا السيف فيهم فانهزموا، وغنم ما معهم، وعاد سالماً هو ومن معه

لم يبنها لم يسلم من حملهم لأجل تركها، فإنّا لله من الناس. وما أشبه حال صاحب الدولة بحال الابن والأب والحمار، لا فارق.

ذكروا أن رجلاً خرج هو وابنه ولهما حمار يركب الرجل خلفه، فسمع الناس يقولون: ما أعظم خفاء هذا الشيخ، وأقلّ حياءه، ركب هو وابنه حماراً ضعيفاً، فهلا نزل وخفف عنه؟!

فنزل عن الحمار، وترك عليه الولد، وسمع الناس يقولون: أركب ابنه القادر على المشي وترك نفسه مع الضعف؟!

والشيخ يطارح الولد سوء الأدب، وسوء المعاملة.

فأنزل الولد وركب، فسمع الناس يقولون: ولد صغير آثر نفسه عليه وتركه يتعب دونه ولم يرحمه؟!

فنزل وترك الحمار خالياً ظهره، فسمعهم يقولون: حمار يسير بطالاً، وشيخ، وصغير خلفه؟! قد حرم هذا الشيخ نفسه وولده حرصاً وصوناً للحمار؟! صنع الله به وصنع.

فقال: يا ولدي، حرنا مع هؤلاء لم يخلصنا معهم شيء، والحق أن نفعل ما يظهر لنا ولا نلتفت إليهم.

وفي مثل هذا الحال قلت من قصيدة طويلة شرحت فيها حالي فيما بليت به بالأندلس من مكابدة الصم والبكم الذين لا يعقلون:

إن تورعت أصبحت حوز الملك ... ضياعاً لجرأة الفجار

أو طردت العفاف عفت من الله ... إذا ما سُئلت عن أوزار

أو تقاعدت أصبح الأمر فوضى ... تلعب الشاة فيه بالجزار

أو تعرضت وانتدبت سمعت النقد ... حال الإيراد والإصدار

لا يزال الملام عنك بحالٍ ... حالة الشيخ وابنه والحمار

قدتهم للجهاد فامتثلوا الضعف ... وضجوا لِكَثْرَة الأسفار

... ... (١)

[١٢٢/أ] /من مماليك كالسبع وصفات ... وغزو ديلم وتتار

لم نجد مسلماً يقوم بحقي ناظراً ... لي بغلة استعفت بسهاري

... ... (٢)

---

(١) تركت ثلاث أبيات لعدم وضوح بعض الكلمات بها في المخطوط.

(٢) فعلت كما في التعليق السابق.

فنستغفر الله ربنا، ظلمنا أنفسنا، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين.

ولله درَّ الصوفية إذ يلزمون من جَنى عليه الاستغفار والإنصاف من نفسه ويرون أنه إنما أوصى من قبلها رجع.

وكانت أيام هشام خير أيام عافية، وهدوء، وعدّه أبو محمد بن حزم ثالث ثلاثة من العدول في بني أمية خاصة.

وتوفي لسبع خلون من صفر سنة ثمانين ومائة.

وذكروا أنه سأل منجم زمانه، وأظنه العباس بن فرناس، عن مقدار أيام دولته، فاستعفاه من ذلك، فلم يفعل، وعزم عليه.

فقال له بعد نظر: إن صح دعوة هذه الصناعة، فإنك تبقى في الولاية سبع سنين، وكذا.

فأطرق، وبكى، وقال: حسبي الله، فوالله لو كانت سجدة لله لكانت قليلة قصيرة.

وصرف وجهه إلى الاجتهاد والجهاد، رحمة الله عليه ورضوانه.

وكانت مدته سبع سنين وأشهراً.

دولة الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية[1]

وكنيته: أبو العاصي.

وكان ملكاً كبيراً، شديد الحزم، ماضي العزيمة، عظيم الصولة، حسن التدبير.

وكان يسلّط قضاته وحكامه على نفسه فضلاً عن ولده وخدمه.

وكانت له ألف فرس بارية مرتبطة بجانب القصر، فكلما أتى إليه البريد خبراً

---

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٥٣)، العقد الفريد (٤/ ٤٩٠)، جذوة المقتبس (١٠)، الكامل في التاريخ (سنة ١٨٠) وما بعدها، المغرب في حلي المغرب (١/ ٣٨)، المعجب للمراكشي (٤٤)، الحلة السيراء (١/ ٤٣)، البيان المغرب (٢/ ٧٠)، فوات الوفيات (١/ ٣٩٣)، أخبار مجموعة (١٢٤)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٢٥). وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمته: يلقب بالمرتضى، ويعرف بالرَّبضي، لما فعل بأهل الرَّبض. بويع بالملك عند موت أبيه في صفر سنة ثمانين ومائة. وكان من جبابرة الملوك، وفساقهم، متمرديهم، وكان فارساً شجاعاً فاتكاً ذا دهاء وحزم وعتو وظلم، تملك سبعاً وعشر سنة، وكان في أول أمره على سيرة حميدة تلا فيها أباه، ثم تغير وتجاهر بالمعاصي. قال أبو محمد بن حزم: كان من المجاهرين بالمعاصي، سفاكاً للدماء، كان يأخذ أولاد الناس المِلاح فيخصيهم ويمسكهم لنفسه. وله شعر جيد.

باقر أو خارجي عاجله قبل أن يعلم، فلا يشعر إلاّ وقد أُحيط به.

وفي سنة إحدى وثمانين من أيامه كان الإيقاع بأهل طليطلة، وقد اتخذ قصراً احتفر بناءه تراب جدرانه من صحنه، فلما كمل، إلا ما يخص الصحن، أعمل الحضور على طليطلة وعرض واليها عليه، أو على ابنه، حضور صنيعة بالقصر الجديد.

واستدعى له وجوه البلد، وأوهم أنهم إذا طعم منهم قوم انصرفوا عن باب غير الذي دخلوا منه، وجعلوا كلما دخلوا قتلوا، حتى فطن بعض شيوخهم /إلى البخار [١٢٢/ب] المرتفع من الدار، فقال: هذا والله بخار الدماء لا بخار الطعام، وقد خمد الناس.

فذكروا أن عدد القتلى يومئذ من وجوه طليطلة وأعيانها خمسة آلاف وثلاثمائة رجل، فمالت بعد ذلك صولة طليطلة.

وفي أيامه قفل عمه أبو أيوب من المغرب، وطلب الأمر لنفسه، وكانت حروب عظيمة بينهما انجلت عن هزيمة أبي أيوب وقتله. وكان للحكم غزوات شهيرة.

وأنكر الناس عليه أمور، منها:

إطلاق يد ربيع القومس متولي جزية المعاهدين بالأندلس من النصارى. وكان حظياً في رجاله سوغة افتراض المعاون والمغارم على المسلمين، فثار به أهل الربض بقرطبة سنة اثنتين ومائتين الثورة الشهيرة، ونابذوه وجاهروا بخلعه، وزحفوا إلى باب قصره في السلاح وأحاطوا به في أمم لا يحصيها إلاّ الله، وفيهم الفقهاء الجلة، وأهل الفتيا، مثل: طالوت الفقيه.

ويحيى بن يحيى الراوية عن مالك، وأخيه، وأمثالهم.

وكان من جملتهم جد لنا يعرف بابن وزير، ممن طوحت النّوا بركابه، واستقر بطليطلة، ومنها تحول إلى مستقرنا بلوثه فكان خطيباً بها، وله ينتسب بيتنا من بعد النسبة الأولى.

وذعر الحكم لهول ما رأى، وأمر بعض خدامه الصقالبة أن يأتيه بوعاء الغالية، فاستراب الفتى وأنكر ذلك، وقال: وأي وقت غالية هذا؟!

فصاح به: ائت به ويحك، وإلاّ فمن أين يعرف رأس الحكم؟

وجاء بها، فغلف بها رأسه ولحيته، واستبسل الموت.

وتوافى إليه كثير من خدمته، واستركب عبيده وحجابه، وأخذوا أعقاب الناس، فدهشوا إذ عدموا من يلتف عليه جمعهم.

فقد كان من نوادر ذلك اليوم المأثورة مثلاً في هيج الرعاع أن حداد كان بين

يديه صبي يسوّي الكبير، وأبصر اجتماع الناس، وحضورهم في الأسلحة فقال: ومن رئيسهم؟

فقيل: ليس لهم رئيس.

فقال للصبي: يا صبي حرِّك الكير واعمل عملك.

يعني، فإن هؤلاء لا يكون منهم شيء.

فأعمل السيف يومئذ في أهل الربض، فقتل منهم أزيد من عشرة آلاف رجل، وجلا عن قرطبة أضعاف ذلك، وما استقرّ منهم طائفة ببلد من البلدان إلاّ وثاروا به.

حتى لقد حكي أن آلافاً منهم استقرت بالإسكندرية، وأن رجلاً منهم تكلم مع جزار، فرمى الجزار بوجهه بكرش كانت في يده فبطش به وقتله. فنادى مناديهم في المدينة، فتألبوا، وثاروا، وتغلبوا على المدينة / حتى صرفوا عنها صلحاً إلى جزيرة [١٢٣/أ] إقريطش[١].

وأقسم الحكم أن لا يمشي عن الربض حتى يدعه دكّاً، فصيّره على عِظمه وهوله وأصالة بنائه مزرعة.

قلت: ولقد باشرت بالأندلس أخاً ونظيراً لهذا الموقف الحكمي النكد، أعظم الله به الأجر وجعله آخر المواقف الكريهة في الدنيا.

إلاّ أن الناس اجتمعوا على هذا العهد الذي شهدناه، واتفقوا على رجل من قرابة السلطان، ولم يكونوا هملاً. فكان الشقاء بهم أشد لولا لطف الله وذلك أن السلطان أبا عبد الله بن أبي الحجاج بن نصر لما عاد إلى الأندلس، ثرّه خدامه إلى طلب بالذنوب وكلهم جان بيده ولسانه، واتفقت الكلمة الواحدة على الثورة به، ولحقت ببابه والأمر قد كمل استعداده للشر، وأبرمت عقدته، وأضيف الدليل البركي، فشايع هو وطائفة من مثله الرئيس علي بن علي بن نصر من القرابة، وأنا ذاهل عن الأمر، إلا أن شيخ التكلف والفتنة والاشتغال بما لا يعني من أمر الدنيا والآخرة علي بن كماشة عتبني مشفقاً في القدوم على الأندلس يومئذ وقال لي: احتل في الانصراف، فإنما السلطان كالبيضة فوق النار كأني بها قد فرقعت وانشقت فسالت.

وتهاونت بقوله، وما راعني من الغد وأنا بين يدي السلطان، وقد جلس للناس في قبة الجنان المتصل بالقصر، وأبطأ المبكرون على بابه إلا النذير العريان يقول: قد

(١) في معجم البلدان ما معناه: أنها المعروفة الآن بكريت، وهي التي في البحر الأبيض المتوسط، وقد تملكها الأندلسيون عام (٢١٢)، وكان أميرهم أبو حفص عمر بن عيسى.

ثار البلد، والنداء بدعوة فلان، وكثر ذلك. والتفتنا من طيقان القبة، فإذا البلد يموج بأهله خيلاً ورجلاً.

فقال لي السلطان: ما ترى؟

فقلت: الصبر، والتوكل على الله تعالى، عليه بالانصراف إلى منزله، وسد أبواب القلعة إلا واحداً يُسد بالرجال، وأشرت عليه بالدخول إلى منزله ولبس سلاحه.

وفتحت قراب العمدة وصعد السلطان في موقف مُطل على البلد ونشرت رايته فوق رأسه، وأسمع النفير، ونودي على الجند بالعطاء، والخلق قد ناصبونا الحرب، والصياح قد سَدَّ الأفق، والسهام تتراشق نحونا.

وصاحب القوم في ربوة تجاه القلعة، ومن انحاز إلينا لا نعرف مذهبهم، وألهمَ الله الصبر، وسدد القول والعمل، فلم يستحكم الزوال إلاّ وظهر اختلاف مصاف القوم، ورسائلي تنفذ إلى وجوه الناس، فخذل مكايدون وسقط في أيديهم، وفروا على وجوههم، وقبض على الشيخ، وسكن الله / الأرجاء وأخمد النار. [١٢٣/ب]

وقد كانت الآزفة التي ليس لها من دون الله كاشفة، وعظم خوف الناس من الرعب من السلطان، واستحكمت صبغة الشر وكثر المستريب. فبادرت من الغد يوم الجمعة، بالمسجد الجامع وعلوت ذروة المنبر بكتاب أشهدت على السلطان بترك قديم المؤاخذات وحرجها، ورفع الخوف عن الناس، وبذل الأمن لجميعهم.

وارتهنت ضمان ذلك رُقية قرنت به العافية إلى ما بعد، والحمد لله.

رجع الحديث(١)

وكان الحكم على فظاظته شاعراً مطبوعاً، فمما يؤثر من شعره قوله في جوار كان مغرماً بهن:

ظل من فرط حبه مملوكا ... ولقد كان قبل ذاك مليكا

إن بكى أو شكى الهوى زيد كلما ... وبعاداً يدني حِمَاماً وشيكا

تركته جانب(٢) القصر صَباً ... مستهاماً على الصعيد تريكا

يجعل الخد واضعاً فوق تُرب ... للذي يجعل الحرير أريكا

---

(١) يريد عوداً على بدء أي نعود إلى ما كنا بصدده من خبر الحكم وصفاته وحكم أهل السير عليه وتقييمه.

(٢) كلمة لم أتبين قراءتها فذكرت أقرب معنى لها والله أعلم، ورسمها هكذا: جَافِر.

هكذا يحسن التذلل بالحر إذا كان في الهوى مملوكا

وتوفي رحمه الله يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة سنة ست ومائتين.

وولي الأمر بعده ولده عبد الرحمٰن بن الحكم.

دولة عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية(١)

وكنيته: أبو المطرف.

وكان ملكاً كبيراً، فارع الثوار، وهزم الكفار، وأبعد الآثار.

ولما صلى على والده، وواراه، جلس متطأطئاً ليس تحته وطاء، وفعل من معه كذلك، فافتتح القول، فقال:

الحمد لله الذي جعل الموت حتماً من حكمه، وعزماً من أمره، وأجرى الأمور على مشيئته، واستأثر بالملكوت والبقاء، وأذل خلقه بالفناء، تبارك اسمه وتعالى جده، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه ورسوله وسلم تسليماً.

وقد كان مصاب الإمام رحمه الله مما جلت به المصيبة، وعظمت به الرزية، عند الله تعالى نحتسبه، وإياه نسأل إلهام الصبر، وإليه نرغب في إكمال الأجر والذخر، وعهد إلينا بما فيه صلاح أحوالكم، ولسنا ممن يخالف عهده بل لكم لدينا مزيد إن شاء الله.

ثم قام وخرجت الكساوي والأموال على أقدارهم.

/ وفي أيامه انتقض المعاهدة بجزيرة ميورقة، فغزاهم في ثلاثمائة مركب، [١٢٤/أ] فافتتحها ثانية.

وغزا بنفسه جليقية فافتتح حصونها، وسبى حريمها، وقتل مقاتلتها، وذاك سنة خمس وعشرين ومائتين، وطالت غيبته في غزاته هذه، وفي ذلك يقول شاعره عبد الله بن إبراهيم على لسانه، وقد وصف له أرقاً عراه وتذكراً لمن حَنّ إلى لقائه:

عدا بي عنك مزار العدو ووفودي إليهم لهاماً مهيبا

فكم قد تعسفت من سبسب ولاقيت بعدد وفي ذوبا

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٦٠)، العقد الفريد (٤/ ٤٩٣)، جذوة المقتبس (١٠)، المغرب في حلي المغرب (١/ ٤٥)، الحلة السيراء (٦١)، البيان المغرب (٢/ ٨٢)، أخبار مجموعة (١٣٥)، ابن خلدون (٤/ ١٢٧)، نفح الطيب (١/ ٣٤٤)، قال الذهبي في السير: بويع بعد والده في آخر سنة ست ومائتين، فامتدت أيامه، وكان وادعاً، حسن السيرة، لين الجانب، قليل الغزو، غلبت المشركون دولته على إشبيلية ولكن الله سلم... وكان مولد عبد الرحمٰن بن الحكم بطليطلة في شعبان سنة ست وسبعين ومائة. ومات في ثالث ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين ومائة.

ألاقي بوجهي سَموم الهجير وقد كاد منه الحصا أن يذوبا
أنا ابن الهاشميين من غالب أشب حروباً وأطفي حروبا
وأدرع النقع حتى لبست من بعد نضرة وجهي شحوبا
سموت إلى الشوك في جحفل ملأت الحزون بهم والسهوبا

كان ذا حظ في البلاغة.

تردد عليه بعض مواليه يسأله استخدامه بلطائف الرغبة، وترقيق الملاطفة.

فقال له: لم يتقدم لك عندنا خبرة نولك بها، ولا تجربة نقدمك بسببها، غير ما رأيناه من بلاغتك وحُسن خطابك فيما يرد علينا من كتُبك، فإن كنت كاتبها فقد جودت وأحسنت، وإن كنت تطلب بمعينتك، تخيّرت بفضل همتك من حُسن ذلك عنك، فقد أحسنت في العناية، وفضلت في الهمة بكلتي الحالين متقدم، وقد رجونا باستلطافك لعملك وتهذبك لخدمتك وقد وليناك على الجاء فيك، فصدق ما خبأه الظن بك، فإنك إن حافظت على أدنى حظك أدركت أقصاه، وإن أحسنت بدءه نلت أحسن عُقباه.

وكتب إليه بعض عماله يسأله عملاً رفيعاً ليس من شاكلته.

فوقع له في أسفل كتابه: من لم يصب مطلبه كان الحرمان أولى به.

ومن شعره:

لقد تعارض أوجه لأوامر فيقودهاً التوفيق نحو صوابها
والشيخ إن يجد النهى بتجارب فشباب رأي القوم عند شبابها

وفي سنة ثمان ومائتين كانت الغزاة التي عقدها عبد الرحمٰن على وزيره عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث بالطائفة المعروفة بغزوة البله والقلاع، دخل فيها / [١٢٤/ب] أرض العدو وفتك بما لا عداد به، وفتح له الفتح المعروف بفتح برنيس، فأخرب كل ما مر به، ونازل مدائن وفتح معاقل، وهزم حشود كثيرة حسبما هو مذكور في كتاب غريب وغيره.

وفي أيامه خرجت مراكب المجوس[١] حرباً... [٢] ببلية وقادش وشدونة ولشبونة، ثم... [٣] والمجوس ثم الذين يسمونهم اليوم... [٣] قشتالة بالأقليش وأهل المشرق بالفرنج وبالانكثير، ومستقر ملكهم بجزيرتين عظيمتين ذرع إحداهما سبعمائة ميل، وهم أهل قوة وبأس وشدة.

---

(١) جاء بالهامش تعليق بغير قلم الناسخ نصه: سمى اللنجليز مجوس. (يريد الإنكليز أو الإنجليز).
(٢) كلام غير مقروء بالمخطوط قدره كلمتان.
(٣) موضع النقط كلمات غير مقروءة بالمخطوط.

وقد ذكرنا شيئاً من حديثهم عند ذكرنا أيام صلاح الدين، ونجلب شيئاً منه فيما يأتي بمحله إن أعان الله على ذلك وأنسأ الأجل إليه.

وفي أيامه اختلفت دولة بني أمية بالأندلس وعظمت الألقاب، وشيدت القصور، وجلبت إليها المياه، وجلبت إليه من المشرق بعد أن عاثت الفتنة في قصور الأمير، وخزائن بغداد الذخيرة الرفيعة كعقد الشفاء، ومثله أعلاق زبيدة بنت جعفر.

وفي أيامه اتخذ الطراز الذي كان حديث الرفاق وطرفة أهل الآفاق.

وكانت وفاته يوم الخميس لثلاث خلون من ربيع الآخر سنة ثلاث[1] وثلاثين ومائتين.

وتخلف من الولد أزيد من ثمانين بين ذكر وأنثى شطرهم ذكور.

وولي بعده ابنه محمد بن عبد الرحمٰن.

دولة محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية[2]

بويع للأمير محمد بن عبد الرحمٰن لأربع خلون من ربيع الآخر سنة

---

(١) كذا جاء هنا ثلاث، وهو مخالف لما ذكره الذهبي من قبل، وكذا مخالف لما هو عند ابن الأثير في الكامل في التاريخ، حيث ذكر أن وفاته كانت في سنة ثمان وثلاثين ومائتين، وذكره فيها في كتابه الكامل في التاريخ فقال: وفيها توفي عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية بن هشام الأموي صاحب الأندلس في ربيع الآخر وكان مولده سنة ست وسبعين ومائة، وولايته إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر وكان أسمر، طويلاً، أقنى، أعين، عظيم اللحية، مخضباً بالحناء. وخلف خمسة وأربعين ولداً ذكوراً. وكان أديباً شاعراً، وهو معدود في جملة من عشق جواريه، وكان يعشق جارية له اسمها طروب، وشُهر بها. وكان عالماً بعلوم الشريعة وغيرها من علوم الفلاسفة وغيرهم. وكانت أيامه أيام عافية وسكون، وكثرة الأموال عنده، وكان بعيد الهمة. واخترع قصوراً ومنتزهات كثيرة، وبنى الطرق، وزاد في الجامع بقرطبة رواقين، وتوفي قبل أن يستتم زخرفته، وأتمه ابنه. وبنى جوامع كثيرة بالأندلس. ولما مات ملك ابنه محمد فجرى على سيرة والده في العدل، وتمم بناء الجامع بقرطبة، وأمه تسمى: بهتر.

(٢) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٦٢)، جذوة المقتبس (١١)، والعقد الفريد (٤/ ٤٩٣)، المغرب (١/ ٥٢)، الحلة السيراء (٦٤)، البيان المغرب (٢/ ٩٦)، الوافي بالوفيات (٣/ ٢٢٤)، ابن خلدون (٤/ ١٣٠)، أخبار مجموعة (١٤١)، نفح الطيب (١/ ٣٥٠)، والكامل في التاريخ من سنة (٢٣٨: ٢٧٣)، قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: صاحب الأندلس أبو عبد الله الأموي المرواني. كان محباً للعلم مؤثراً لأصحاب الحديث مُكرماً لهم، حسن السيرة، وهو الذي نصر بقيّ بن مخلد الحافظ على أهل الرأي. قال بقيّ: ما كلمت أحداً من الملوك، أكمل عقلاً، ولا أبلغ لفظاً من الأمير محمد، ولقد دخلت عليه يوماً في مجلس خلافته، فافتتح الكلام بحمد الله والصلاة والسلام على نبيه، ثم ذكر الخلفاء، فحلّى كل واحد بحليته وصفته، وذكر مآثره بأفصح لسان حتى انتهى إلى نفسه، فحمد الله على ما قدّره، ثم سكت.

ثلاث[١] وثلاثين ومائتين.

واستعصت عليه طليطلة، فبرز إليها بنفسه، واستجاش أهلها ملك النصارى بجليقية دون بن دفوقش، فوجه إليهم إخاه.

وكاده الأمير محمد، فبعث الكمناء بقصر المدينة في جمع غير كثير، فاستبشر الطاغية وأيقن أنه يظفر به.

فلما خالطه برزت الكمناء من الجهات فهزمه الله تعالى شر هزيمة.

وبلغ عدد القتلى ثمانية آلاف فارس.

ثم وصل الغزو إلى أرض البلة والقلاع، فعظم أثره.

وفي سنة اثنتين وستين ومائتين عظم أمر محمد بن مروان من المتمردين على الأمير ببطليوس، وماردة، وكان من المستأمنين المستنزلين على الخلاف المستقرين بقرطبة، فجر أنفه ولحق بحيث ذكروا عضل داؤه.

وكان سبب انتقاضه أن الوزير هشام بن عبد العزيز الأثير رأى الخليفة محمد، القريب التصرف به قجة بن مروان من بني الوزراء لحدة كانت في هاشم لم يملك / [١٢٥/أ] معها عشية أن قال له: الكلب، يضير منك، وأمر به فصفع قفاه، واستبلغ به.

ففر فقبر طويل واستكثر بسعتوب السونباني وقومه، وهم فرسان العرب بالثغر، وبادر هاشم بن عبد العزيز فطلب فرصة ينتهزها فيهم، وأبحص بغرته، وجاوز الوعر، وأبعد عن العسكر، فأخذت المضايق عليه وناشبوه القتال وواقعة الجراح، وقتل جملة من جماعته، وأُسر، واستقر بيد عدوه الذي صفعه وأهانه جبرة، وأحسن إليه وحلم عنه عند قدرته.

وبلغ ذلك الأمير محمد، فألحى على هاشم، وقال: هذا أمر جناه على نفسه بعجلته وطيشه.

وفي سنة أربع وستين تم انطلاقه بعد أن كان الأمير محمد أقعد ابنه رضاً منه

= قلت: رأى مصنف أبي بكر بن أبي شيبة، إذ نازع أهل الرأي بقيّ بن مخلد، فأمر بنسخه، وقال: لا تستغني خزانتنا عن هذا. وكان ذا رأي وحزم، وشجاعة، وإقدام. بويع عند موت والده في سنة ثمان وثلاثين، وله إحدى وثلاثون سنة وذلك بعهد من والده. وأمه: أم ولد. وامتدت دولته، وقيل: إنه توغل في بلاد الروم وكان يبقى في الغزو السنة وأكثر. قال أبو المظفر بن الجوزي: هو صاحب وقعة سَليط وهي ملحمة مشهورة لم يعهد قبلها بالأندلس مثلها، يقال: قتل فيها ثلاثمائة ألف كافر، وهذا شيء لم يسمع بمثله، قال: وللشعراء فيه مدائح. ومات بآخر صفر سنة ثلاث وسبعين ومائتين عن أربع وستين سنة رحمه الله.

(١) الصواب: ثمان وثلاثون، كما بيّنا في آخر الترجمة السابقة.

بمرتبة الوزارة في حال الصغر، وحفظ عليه جاهه ونعمه إلى أن قرّت بذلك عينه عند خلاصه من نكبة أمره.

ولقد أذكرني قضية هاشم وأنا قاعد مع الوزير الهمام أبي بكر بن غازي المقيد هذا الكتاب بأمره، ما حدث من مثلها في شباب الشيخ عثمان بن إبراهيم بن أبي طلاق العسكري المتميز بنصيحته، وهو صاحب العلم لبني عسكر، وقد بلغه الخبر بأسره وتحصيله بيد عدوه لتجلده عند نكبه واستدعائه ولد وأجلسه بمكانه على صغر سنه وعقد الراية فوق رأسه، وضم خُدام أبيه إليه، وانصرافه رافلاً في الخلع السلطانية وراكباً في الحلة الرفيعة إشادة لعزه.

ونبهت على ذلك من قرب شيء من خواصه تفاؤلاً بخلاصه، فكان ذلك كذلك لأقرب مدة من غير يد ولا فدية.

والحمد لله مُسير السعادة، ومبلغ الإرادة.

وفي أيام الأمير محمد كان ابتداء أمر ابن حفصون، كبير الثوار بالأندلس على عهد الدولة الأموية المتفسح الأمد، الملبس الدولة لباس الكمد، متصل العناء به أزيد من سبعين سنة حسبما يأتي ذكر الثوار.

وكان الأمير محمد أوحد قومه في البلاغة والرجاحة، متنزهاً عن الخنا والقبيح من [القول][1] والقبول على السعادات[2].

قال وزيره هاشم بن عبد العزيز، وكان هاشم من رجال كمال قلّ أن تأتي الدنيا بمثله من اجتماع خصاله: كان الأمير محمد فصيحاً بليغاً، عظيم الأناة، متنزهاً عن القبيح، يؤثر الحق وأهله، لا يسمع من ساع، ولا يلتفت إلى قول رافع، وكان عاقلاً، على أخلاق حميدة، ومكارم جميلة، ذا بديهة وروية، يرى كل من خدمه وباشره أن لهم الفضل المستبين في إدراكه، وفهمه ودقة ذهنه ولطف فطنته، وجزالة رأيه.

/ وكان...[3] وإذا أخلّ أحد من خزانه وأهل خدمه الحساب شيئاً من ذلك لم [١٢٥/ب] يجن عليه باللحظة والنظرة، ولقد استدرك على بعض خزانه في صك يشتمل على مائة ألف دينار دراهم، خمسة عشرة، فرد الصك وأمر بتصحيحه فتجمع الخدمة والكتّاب إليه، فلم يقعدا على ذلك...[3] وخفائه، فرجعوا إليه معترفين بالتقصير، وأعلموا الرسول، فرد...[3] عليهم باعترافهم، فعلم على موضع الخطأ فإذا هو خمسة عشر درهم.

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط والسياق يقتضيه.
(٢) في المخطوط: «السعايات» وهو تحريف.
(٣) موضع النقط كلمات مطموسة بالمخطوط.

وخدمته ملوك البلاد المغربية واعترفت بطاعته.

وكان على عهده من ملوك افرنجة أعظمها وأمجدها يهاديه ويتاحفه على نزاهة بنفسه إلى الغاية التي لم يذهب إلى مثلها قومه. فهذا الملك هو الذي اتخذ تمثالاً زنته ثلاثمائة رطل من ذهب خالص وحفه من الياقوت والزبرجد بما لا يدخل تحت القيمة واتخذ له كرسياً بأعظم من ذلك كله وحشد جميع الأمم الفرنجية لرايته، ثم دفعه إلى خادم كنيسة الذهب.

وكان الأمير محمد يستنفر لغزوه في الطوائف المجردة إلى جليقية مع ولده من كورة البيرة وجيان، وقبرة، واستجنة، وشدونة، ومورور خمسة عشر ألف فارس ليس فيهم من أهل الأندلس غير من ذكر وربما أوغل في بلاد العدو ستة أشهر.

وذكروا أنه خرج متنزهاً يزماً لبعض متنزهاته ومعه هاشم بن عبد العزيز فكان بمصادر نهاره على راحته، فلما أمسى واختلط الظلام، وانصرف إلى القصر، فأخبر من سمع هاشماً يقول له: يا ابن الخلائف، ما أطيب الدنيا لولا الموت. فقال له: يا ابن اللخناء، وهل ملكنا هذا الملك الذي نحن فيه إلا بالموت، ولولا الموت ما كُنا نراه أبداً.

وكانت وفاته يوم الخميس لليلة بقيت من شهر صفر سنة ثلاث وسبعين ومائتين.

وكانت مدته نحواً من خمس وثلاثين سنة[1]، رحمه الله.

دولة المنذر بن محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية

وكنيته: [أبو الحكم][2].

(١) قال ابن الأثير في الكامل في التاريخ في أحداث سنة (٢٧٣) في ذكر وفاة محمد بن عبد الرحمٰن وولاية ابنه المنذر: في هذه السنة توفي محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام الأموي، صاحب الأندلس، سلخ صفر. وكان عمره نحواً من خمس وستين سنة. وكانت ولايته أربعاً وثلاثين سنة وأحد عشر شهراً. وكان أبيض مشرباً بحمرة ربعة، أوقص يخضب بالحناء والكتم، وخلّف ثلاثة وثلاثين ولداً ذكوراً. وكان ذكياً فطناً بالأمور المشتبهة متعانياً منها. ولما مات ولي بعده ابنه المنذر بن محمد، بويع له بعد موت أبيه بثلاث ليالٍ، وأطاعه الناس وأحسن إليهم.

(٢) زيادة من مصادر ترجمته، وموضعها بالمخطوط بياض، ومصادر ترجمته هي: سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٦٣) العقد الفريد (٤/ ٤٩٦) ابن القوطية (١١٩) جذوة المقتبس (١١) الحلة السيراء (٦٥) البيان المغرب (٢/ ١١٦)، بلغة الظرفاء (٣٢) وابن خلدون (٤/ ١٣٢) نفح الطيب (١/ ٣٥٢)، أخبار مجموعة (١٤٩)، الكامل في التاريخ (من سنة ٢٧٣ : ٢٧٥). قال الذهبي في ترجمته في سير =

وتقدم بعهد أبيه، وكان بعيد الهمة، قوي الشكيمة، يكرم إخوانه ويحبهم، ويدني مجلسهم ويصلهم، ويحضرهم مجالس أنسه.

وكان يجزل العطاء للشعراء، وينشدونه غازياً وراجعاً.

من شعرائه أحمد بن عبد ربه.

والعكي، وغيرهما من شعراء العرب.

/ولم يكن أحد من الخلفاء قبله في شجاعته وصرامته وحزمه وعزمه، ولقد بلغ [١٢٦/أ] في ذلك في سنة ما لم يبلغه غيره في الدهر.

ولقد كان أبطال الرجال وأنجادهم من أهل الفتنة يذعنون إليه دون محنة ويهرعون إليه بالطاعة قبل أن يطلبها.

وأن المستفيض عن الشيوخ الذين أدركوا ذلك الزمان، وعن أهل التمييز بالحروب، أنه لو عاش المنذر عاماً واحداً زاهداً لم يبق بين يديه منافق.

وأخباره تدل على ذلك، وأول أخباره الدالة على ذلك، أنه لما أتاه موت أبيه لم يمنعه ذلك عن التفريح عن القصور، واقتصاد الطريق، ولا شغله مهم ولا أمر جليل عن آخر بجعل طريقه على ريبة، فهذب أمورها، ونظر في أسبابها، وولى عليها سليمان بن عبد الله بن أحصل، وعبد الرحمٰن بن جريش، وأدخل معهما أهل المعاقد من المغرب، والحشم ثم جمع في يوم واحد سائر جيشه، وأعطى عطائين للجنود. وأعمل النظر في ما أسقط عن الإرثة عن الرعية.

وما فعله من الاستحماد إلى قرطبة بإسقاط العشور عنهم.

والنظر في الندب وإخراج الفائد.

وهكذا كان فعله في جميع أسبابه.

وبادر لأول أمره لسجن هاشم بن عبد العزيز، وسبب ذلك: أن هاشماً كان يحسد لمكانه من الأمير محمد، وكان حُساده يسعون به عند المنذر حتى تنافرت النفوس، فلما مات الأمير محمد أراد المنذر أن يتبع به فعل أبيه، فولاه الحجابة، ثم تمالأ عليه حُساده، وكثروا وحرفوا كلامه حتى نفذ قضاء الله وكان مفخر دولتهم، وزينة ملكهم، ونمي عنه أنه قال عند مواراة الأمير محمد قبره:

أُعَزي يا محمد عنك نفسي ... فعاد الله والمن الجسام

فهلا مات قوم لم يموتوا ... ودوفع عنك كأس الحِمَام

=

الأعلام: كانت دولته سنتين، مات وهو يحاصر عمر بن حفصون رأس الخوارج بالأندلس وكان هذا بدوياً يجلب السمك بالأندلس فآل به الأمر إلى أن كثر جمعه واستولى على جماعة حصون.

فأغروا المنذر بكونه قصده، وصدرت عنه في نكبته أشعار ملاطفات لم تغن عنه.

ومن شعره في ذلك، ما كتب به لجارية له تسمى عاج:

وإني عزاني أن أزوك مطبق ... وباب منيع بالحديد مضبب

فإن تعجبي يا عاج مما أصابني ... ففي ريب هذا الدهر ما يتعجب

تركت رشاد الأمر إذ كنت قادراً ... عليه فلاقيت الذي كنت أرهب

هواكم قافل قال انج ويحك سالماً ... ففي الأرض عنهم مستزاد ومهرب

[١٢٦/ب] / فقلت له إن الفرار مذلة ... وعفى على الأمر أحلى وأطيب

منا رضى ربكم الله...... [1] ... وما من قضاء الله للعبد مهرب

إلى أن قتله رحمه الله.

ثم انصرف إلى محاربة عمر بن حفصون الثائر بمدينته، ونازله فلم تسع أيامه لما وراء ذلك بعد أن أحفظه وأضاق صدره وظهره على قواده.

فتحرك إليه، وقد افتتح القسم العظيم ألاّ يبرح من حصره حتى يتمكن منه أو يموت دونه.

وعظم ذلك على الناس وشق عليهم، فعسكرهم ببشير، وغير القدر الحتم ليمينه أحد الأمرين المقتضي الإملاء لابن حفصون.

فزعموا أن المنذر اعتل لأربعين يوماً من منازلته ابن حفصون والأخذ بمخنقه.

وبعث إلى قرطبة في أمان أخيه محمد ابنه ابن الأمير محمد لينوب عنه: إن اتصل مرضه، فلما وصله مات المنذر.

وتفرق العسكر، فلم يلو أحد على أحد وظهر ابن حفصون، وبرز إلى منازعة عبد الله ومن ثبت معه، فلم يسعه إلا أن رفع المنذر فوق جمل، وانصرف إلى قرطبة.

وعظم أمر ابن حفصون، فاستولى على معظم البلاد، ولم يبق بينه وبين دار الملك إلا مرحلة قصيرة بحصن بلاد من الكتابية.

وكانت وفاة المنذر يوم السبت من شهر صفر سنة خمس وسبعين ومائتين [2].

---

(١) موضع النقط كلمة غير مقروءة، وبعد هذا البيت بيت لم أتبين قراءته.

(٢) قال ابن الأثير في الكامل في أحداث سنة (٢٧٥): وفيها توفي في المحرم المنذر بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام الأموي صاحب الأندلس. وقيل: في صفر. وكانت ولايته سنة وإحدى عشر شهراً وعشرة أيام. فكان عمره نحواً من ستة وأربعين سنة، وكان أسمر، طويلاً، بوجهه أثر الجدري، جعداً، كث اللحية، وخلف ستة ذكور. وكان جواداً يصل الشعراء، ويحب الشعر.

دولة عبد الله بن محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية(١)

كنيته: أبو محمد.

وكان رحمه الله مقتصداً في أموره من مطعم وملبس، شديد التواضع، متظاهراً بالبر والخشوع.

وذكره الإمام أبو محمد بن حزم فصرح بالحمل عليه وقال:

كان قتالاً تهون عليه الدماء مع ما كان يظهره من عفته، فإنه احتال على أخيه المنذر لما قَصَدَه بالعسكر، وأوطأ عليه حجاماً تسمّ المبضع الذي قصده به.

ثم قتل ولديه معاً بالسيف واحداً بعد واحد، وقتل أخاه القاسم ثالثهم، إلى من قتل من غيرهم.

قلت: والإمام أبو محمد في التجريح والتعديل حجة على قومه، ومنون الملك لا ينكر فيها أمثال هذه الطبائع، ومن عوفي فليحمد الله(٢).

وكان الأمير عبد الله ذا حظ من الشعر وحُسن التواقيع، اعتذر إليه بعض مماليكه يوماً فوقع على عذره:

إن مخائل الأمور لتدل على خلاف قولك وتبين عن / باطن تنصلك، ولو بوت [١٢٧/أ] ندنك، واستغفرت لجرمك لكان أعتب لنا وأسد لستر العفو عنك.

---

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٦٤)، العقد الفريد (٤/ ٤٩٧)، جذوة المقتبس (١٢)، الكامل في التاريخ من سنة (٢٧٥: ٣٠٠)، الحلة السيراء (٦٥)، ابن خلدون (٤/ ١٣٢)، نفح الطيب (١/ ٣٥٢). قال الذهبي في سير الأعلام في ترجمته: أخو المنذر، تملك اندلس بعد أخيه، وامتدت أيامه وكان أسن من أخيه بعام، وكان ليناً وادعاً يحب العافية، فقام عليه من كل قطر من الأندلس متغلب، وتناقض أمر المروانية في دولته... وقال محمد بن وضاح: كان عبد الله الأمير من الصالحين المتقين العالمين. روى العلم الكثير، وطالع الرأي، وأبصر الحديث، وحفظ القرآن، وتفقه وأكثر الصوم، وكان يلتزم الصلوات في الجامع، فيمر بالصف فيقوم الناس له، فكتب إليه سعيد بن خُمير: أيها الإمام، أنت من المتقين، وإنما يقوم الناس لرب العالمين، فلا ترضى من رعيتك بغير الصواب فإن العزة لله جميعاً. فأمر العامة بترك ذلك، فلم ينتهوا، فحينئذ ابتنى طريقاً مشهوراً من قصره إلى المقصورة. قال اليسع بن حزم: استضعفت دولة بني أمية، وقام ابن حفصون وكان نصراني الأصل، فأسلم وتنصّح، وألب وحشد، وصارت الأندلس شعلة تضرم، ولم يبق لبني أمية منبر يخطب فيه إلا منبر قرطبة، والغارات تُشن عليها، حتى قام عبد الرحمٰن الناصر، فتراجع الأمر. ومات عبد الله في أول ربيع الأول سنة ثلاثمائة، وله اثنتان وسبعون سنة.

(٢) قلت: إذا ما يقوله ابن حزم كان عين الصواب وحقاً لا مرية فيه فكيف يكون هذا التناقض إذ كيف يكون الحاكم عادلاً ظالماً؟!.

فكتب إليه: إنما أنا بشر، وما يقوم لعذر.

فقال: فهلاّ عليك ورويداً بك نقدت لك خدمة وتأخرت لك توبة، وما للذنب مجال بينهما وقد منعك الغفران.

ومن شعره:

يا مهجة العشاق ما أوجعك ويا أسير الحب ما أفضك

ويا رسول العين من لحظها بالرد والتبليغ ما أبرعك

تذهب بالسر فتأتي به في مجلسين يخفى على من معك

كم حاجة أنجزت إمرارها تبارك الرحمٰن ما أطوعك

ومن قوله في الزهد:

يا من يرى بعث الأجل حتى متى يلهيك الأمل

حتى متى لا تخشى الردى وكأنه بك قد نزل

أغفلت عن طلب النجاة ولا نجاة لمن غفل

وتصيرت إليه الخلافة، وقد تحين النكث أطرافها، واقتسمها الثوار، وكلب عليها الأشرار، ولم يبق منها إلاّ الاسم فوق ظهر منبر قرطبة، والقليل من غيرها، وساءت الظنون. ولم يدر عبد الله إلى أين يصرف وجهه؟

إلى ابن حفصون كبير الثوار المجاور لقرطبة وقد استولى على أعظم البلاد مثل: البيرة، ورية، وما إلى ذلك؟

أم لابن حجاج وقد استقل بإشبيلية، وقومونة، وما إلى ذلك؟

أم لعبد الرحمٰن بن مروان الجليقي ببطليوس؟

أم إلى عبد الملك بن أبي الجواد بباجة المغرب؟

أم لابن السليم بشدونة؟

أم لابن اليامي بالقلعة المسربة إليه؟

أم لحمير بن شاكر بشوخر؟

أم لعمر بن قصم الهروي؟

أم لسعيد بن مُذيل بحصن المشلون؟

أم لسعيد بن منتا بيهاغوا؟

أم لبني هابل بحصون جيان؟

أم لإسحاق بن عطاء بحصن متناهثة؟

أم لسعيد بن سليمان بن جودي بغرناطة؟

أم لمحمد بن أضحى كبير العرب بالبيرة؟

أم لأبي بكر بن يحيى بشنت مرية؟

أم لسليمان بن محمد الشدوني بشريش؟

أم لعبد الوهاب بمورين؟

أم ليحيى التجيبي الأنقر بسرقسطة؟

وإنما المعنى بذكر أسمائهم المتعددة، وهم بعض من كل، وقليل من كثير، لغرضين:

أحدهما: التأسي والتعزي حتى لا ينكر ملك أن ينازع أو يخرج عليه / أو تتفق [١٢٧/ب] تغدره وينكث بعهوده، وإذا تعين المستحق لأمر المسلمين أين يوجد؟ مثل من خرج عليه مولاً نسباً، ومذهباً، وشروطاً مستوفاة.

وقد ساعدهم رعاياهم وفقهاؤهم وعظماؤهم، فسيروا طواعية، وأقطارهم عظيمة ومعاصروهم جلة حتى اقتضوا الأيام التي حدّها الله لهم منطلقة ليومهم فيما كتب الله لهم أو عليهم من غي أو رشد.

والثاني: الاستراحة إلى حسن العقبى وما عود الله من كفاية من استكفاه.

فخرج بنفسه محتسباً إياه في سبيل الله، وقصد ببشتر واتسعت معايشها، وقفل فأعقبه ابن حفصون واستولى على استجة واسطبة.

وأخرج إليه الجيش، وألح عليه حتى اتقاه ابن حفصون لطلب الأمان.

ثم ضيق على قرطبة حتى خرج بنفسه إلى حصن بلي، وكان آخذاً بمخنقها دخلة وملكه. واحتشد ابن حفصون، وأقبل عليه في ثلاثين ألفاً فنصره الله وهزمه أقبح هزيمة. وصرف وجهه إلى ابن حجاج بإشبيلية فهادنه وعاقده وتقاضى العُمر مع ابن حفصون حرباً وسلماً ومُعاهدة ونكثاً إلى أن عاد رونق الخلافة، وانقشع كثير من الظلماء.

وبغص عبد الله الدهر بما جرى به القدر من قتل ولديه، حسبما يتقرر في محله، ولا أوحش الله من دُنيا تطيب بعد قتل ولد ولو أن صحبتها إلى غير أمد.

وكانت وفاته في مستهل شهر ربيع الأول سنة ثلاثمائة وهو ابن ثنتين وسبعين سنة.

وملك خمساً وعشرين سنة وخمسة عشر يوماً(١).

دولة عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية(٢)

كنيته: أبو المطرف.

ولقبه: الناصر لدين الله.

وولي بعد جده إذ كان أبوه خالف من أبيه، وأغراه به المطرف أخوه حتى سجنه الأب، ثم قتله أخوه في السجن، وقتل عبد الله أبوهما المطرف قاتله.

وألقى الله على عبد الرحمٰن هذا الحفيد محبة من جده وشفقة، وأسكنه في مسكنه، وكان يخصه من دون بنيه، ويومي إليه ويرشحه لأمره، ويقعده في الأعياد والمواسم مقعد نفسه، ويأمر بالسلام عليه.

فتعلقت آمال الدولة به، ولم يشكوا بمصير الأمر إليه.

---

(١) قال ابن الأثير في الكامل في التاريخ في أحداث سنة ثلاثمائة في ذكر وفاة عبد الله بن محمد صاحب الأندلس، وولاية عبد الرحمٰن: وفيها توفي عبد الله بن محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية الأموي صاحب الأندلس في ربيع الأول، وكان عمره اثنتين وأربعين (كذا قال) وكان أبيض اللون، أصهب، أزرق، ربعة، يخضب بالسواد. وكانت ولايته خمساً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً. وخلف أحد عشر ولداً ذكراً، أحدهم محمد المقتول، قتله في حدٍّ من الحدود، وهو والد عبد الرحمٰن الناصر.

(٢) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٦٥)، العقد الفريد (٤/ ٤٩٨)، جذوة المقتبس (١٣)، والكامل من سنة (٣٠٠: ٣٥٠)، المغرب في حلي المغرب (١/ ١٨٠)، الحلة السيراء (٩٩)، طبقات السبكي (٢/ ٢٣٠)، ابن خلدون (٤/ ١٣٧)، نفح الطيب (١/ ٣٥٣)، أزهار الرياض (٢/ ٢٥٧)، أخبار مجموعة (١٥٣)، غزوات العرب (١٦٧)، تراجم إسلامية (١٤٢). قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: سلطان الأندلس المدعو أمير المؤمنين، الناصر لدين الله، أبو المطرف الأموي المرواني. كان أبوه محمد ولي عهد والده عبد الله بن محمد، فقتله أخوه أبو القاسم المطرف، فقتله أبوهما به. ففي سنة سبع وسبعين ومائتي قتل محمد، وله سبع وعشرون سنة، وتأخر قتل المطرف إلى رمضان سنة ثمانين. ولما قتل محمد كان لعبد الرحمٰن هذا عشرون يوماً، وولي الخلافة بعد جده.

قال ابن حزم: كانت خلافته من المستطرف، لأنه كان شاباً وبالحضرة جماعة من أعمامه وأعمام أبيه، فلم يعترض معترض عليه، واستمر له الأمر وكان شهماً. وكل من تقدم من آبائه لم يتسم أحد منهم بإمرة المؤمنين، وإنما كانوا يخاطبون بالإمارة فقط، وفعل مثلهم عبد الرحمٰن إلى السنة السابعة والعشرين من ولايته، فلما بلغه ضعف الولاية بالعراق وظهور الشيعة العبيدية بالقيروان، رأى أنه أحق بإمرة المؤمنين، ولم يزل منذ ولي الأندلس يستنزل المتغلبين حتى صارت المملكة كلها في طاعته، وأكثر بلاد العدو، وأخاف ملوك الطوائف حوله.

فلما مات الجد أقعد محل سريره / دون ولده، وإخوته. [١٢٨/أ]

وتهيأ له ذلك من دون منازع لسُكناه بقصره.

وقيل: إنه يولي إليه مخافة إمارة على استخلافه.

فكان أول من بايعه أعمامه أبان، والعاصي، وعبد الرحمٰن، ومحمد، وتلاهم إخوة جدوده، ثم من سواهم، والله يؤتي ملكه من يشاء.

لا يضر الصغير حدثان بشيء إنما الشان في سعود الصغير

كم مقيم فازت يداه فغنم لم تنهكه بالركض كف مُغير

والناصر هذا هو الذروة العليا في ملوك بني أمية، طال عمره، واتسق سعده، واشتهرت أيامه، وبعد صيته، وانتشرت بالعدوة الغربية طاعته، وعلت على منابرها كلمته.

وهو أول من تسمى منهم بأمير المؤمنين، ثم اقتفاه من بعده، وذلك عندما ضعفت الدولة العباسية، وظهرت الدولة التركية، والديلمية، وكثرت الألقاب، وخطبت بذلك خطيبة أحمد بن بقي بن مخلد يوم الجمعة سنة ست عشرة وثلاثمائة.

قالوا: وولي الناصر لدين الله الأمور، والأندلس جمرة تحتدم، ونار تضطرم، وقد عظم الشقاق والنفاق، وارتجت الآفاق، فسَكَّنها الله بسعده وعزة نقيبته، وكان يشبه بعبد الرحمٰن الداخل.

وهو الذي استنزل الثوار، وشيّد القصور، وغرس الغروس، وخلد الآثار، وأعظم في الكفر النكاية، فلم يبق عليه في الأندلس مخالف ولا نازعه منازع، ودخل الناس أفواجاً في طاعته، ورغبوا في مسالمته، وفي ذلك يقول شاعره ابن عبد ربه:

قد أوضح اللَّه للإسلام منهاجا والناس قد دخلوا في دين اللَّه أفواجا

وقد تزينت الدنيا لساكنها كأنما لبست وشياً وديباجا

وتحرك إلى كورة البيرة، واستنزل الثوار، ثم كرّ على ببشتر، وهي الدار العليا والداهية العظمى.

وأقام البناء وشرع في السكنى، فأذعن حفص بن عمر بن حفص المصير إليه أمرها بعد أبيه، وأخيه، وألفى بيده، فملكها رجاله يوم الخميس لسبع بقين من ذي القعدة من السنة، وكانت مدة بني حفصون أزيد من سبعين سنة.

وخاطبت الناصر البلاد: عندما أراحه الله من الغم القديم اللزيم المتعاقب بهم ابن حفصون، واستغلاق قلعة بربشتر عليه فعيّن المخاطبة بأمير المؤمنين، واللقب بناصر الدين، بما نصه:

[١٢٨/ب] أما بعد: فإن / أحق من استوفق وأجدر من استكمل حظه، ولبس من كرامة الله ما ألبسه للذي فضلنا به وأظهر أمرنا فيه، ورفع سلطاننا إليه، ويسّر على أيدينا إدراكه، وسهل بناء دولتنا مرامه، والذي أعاد في الآفاق ذكرنا وعُلو أمرنا، وأغلق من رجاء العالمين بنا، وأعاد من انحرافهم للبقاء انتشارهم بدولتنا، والحمد لله ولي النعمة والأنعام بما أنعم به وأجلّ الفضل ما تفضّل علينا به وقدّر لنا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين، وخروج الكتب عنا، ورودها كذلك، إذ كل مدعي هذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه ومتسم بما لا يستحقه، وعلمنا أن التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق ضيعناه واسم ثابت أسقطناه.

فأْمُر الخطيب بموضعك أن يقول به، وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله.

إيجاز خبر عمر بن حفصون وبني حجاج

وعلى عهد الناصر لدين الله كان انقراض عهد عمر بن حفصون وولده.

وكانت مدة خلافته وفتنته اثنتين وخمسين سنة وستة أشهر.

وكان عُمر كبير الثوار بالأندلس وغصص الخلفاء بها.

وهو عمر بن حفصون بن جعفر الاسلافي، ظهر بنفسه ونجدته، وحدثان تلقاه في أمره وتحصن مدينة ببشتر من كورة رية، وأطاعه أكثر بلاد الموسطة بين رية، والخضراء، والبيرة، وأحواز قرطبة.

وأخرج الأمير محمد إليه الجيش لنظر وزيره هاشم بن عبد العزيز، فأمنه وأوصله إلى قرطبة مرفهاً عليه.

ثم استراب وفر إلى الجبل المذكور من المخالفة إلى شاقة سنة اثنتين وسبعين ومائتين[١].

وخرج المنذر بن محمد الأمير قصد إليه بالجيوش، وضيق به، واتصل بالمنذر وفاة أبيه، فعجل الرجوع إلى قرطبة، ولما قُرّر أمره خرج بنفسه إلى منازلة ابن حفصون، فنازله في قاسرة من عمل رية، وضيّق عليه حصاره، فلما اشتد عليه الأمر طلب الأمان لنفسه على النزول بأهله وولده إلى قرطبة، وشرط أن يدفع له مائة بغل يحمل عليها ثقله وأهله إلى قرطبة، وأن يفرج له.

فأسعف في ذلك، فقتل الغرباء الناظرين على البغال، وأخذها وقد انحل العسكر، وانصرف إلى ببشتر.

---

(١) قال ابن الأثير في الكامل في أحداث سنة (٢٧٢) في هذا الخبر: وفيها سير صاحب الأندلس إلى ابن مروان الجليقي ـ وهو بحصن اشيرغره ـ فحصروه وضيقوا عليه، وسير جيشاً آخر إلى محاربة عمر بن حفصون بحصن بربشتر.

وقفل المنذر إلى قرطبة وشرع في الحركة إليه، وأقسم أن لا يفارقه أو يستأصل أثره، ونازله ببشتر كما تقدم ذكره.

فكانت وفاة المنذر مُحَاصِراً إياها، وولي بعده الأمير عبد الله أخوه، فعظم أمر ابن حفصون، وتغلب / عامل عبد الله على كورة رية واشتدت شوكته وظهر على [١٢٩/أ] متوار، وأسر سعيد بن جودي أمير البيرة.

ووقعت المهادنة بينه وبين الأمير عبد الله، ثم انتقض وتملك حصن بلان وجيش ثلاثين ألفاً من أهل الكورة.

وبرز إليه الأمير عبد الله بنفسه في نحو شطر ذلك العدد، ففر عنه ابن حفصون، وفتح عبد الله حصن بلان سنة سبع وسبعين ومائتين.

ونازل مدينة استجة، فاستنزل منها رجال عمر.

ثم انتقل فنزل بظاهر ببشتر، ولم يتأت له في ابن حفصون غرض، فقفل إلى مدينة قرطبة عن محن كثيرة.

وجرت على ابن حفصون بأحواز البيرة هزيمة أثخن بها جراحاً، ولحق مغلولاً ببشتر. ثم قوى أمره بخلاف بني حجاج بإشبيلية واتصلت يده بهم، فعظمت غاراته وسراياه مورور، وشدونة، وقرمونة، وغيرها. ثم كبر أولاد عمر بن حفصون: أيوب، وجعفر.

واعتلّ عمر علّة شديدة، اتهم فيها أيوب ولده بالفتك به، فعاجله وقتله. والجيوش في كل حين تتوالى عليه، فتارة يستأمن، وتارة ينكث.

وأهلك الأندلس فتنة، وخاطب ملوك الشيعة بإفريقية أضداد الأموية، ووجهوا إليه رجلين ممن يعتقد مذهبهم بخلعات وخاطبوه بالحض على التزام طاعتهم، وإقامة دعوتهم، وأقاما عنده حتى حضرا كثيراً من حروبه.

وصرفهما ووجهت معهما هدية انتخبها إلى صاحبها.

ولما توطد لهذا العهد أمره أحضر أصحابه وعقد لولده جعفر العهد بعده، وكتب عليهم عقداً استخلفهم فيه.

واتصل به مرض الأمير عبد الله، فغلب لذلك على الحصن الذي على مدينة ببشتر، وقتل من به.

وبلغ ذلك الأمير عبد الله، فأغزاه ابنه أباناً سنة ثلاث وأربع وخمس وثمانين. فاشتد الأمر عليه، واستراب بأصحابه، فحذرهم وعوّل على النصارى، وتقلّد [illegible] دينهم دين آبائه.

ثم ولي الأمير عبد الرحمٰن بن محمد الناصر لدين الله، وصرفه إلى استنزال الثوار فرأى ابن حفصون من إقبال دولته وسعادة حركتها، فطلب أمانه، فسعفه الناصر وكتب له عهداً أمضى ذلك له ولعقبه ما وفوا، وارتهن عنده ولده عبد الرحمٰن بن محمد.

وغزا قواد الناصر بلاد النصارى غزوات حضرها ابن حفصون.

ثم توفي عمر في سنة ست وثلاثمائة. وولي أمره ولده جعفر بن عمر.

[١٢٩/ب] وزعموا أنه شهر دين النصارى، وانفرد، فواراه أبيه مع القسيسين حتى دفنوه / على سنة دينهم.

وذهب جعفر مذهب أبيه في العناد، ودين الأشرار للقطع بالمطرقات.

فأعذر إليه الناصر، ثم غزاه بنفسه، فافتتح حصن بلده عنوة، وقتل مقدم جعفر، واستباح أهل الحصن قتلاً، وأسراً، وخالف على جعفر أخواه: عبد الرحمٰن، وحفص.

وضاق أمره، واختلت حاله، وقام عليه طائفة من خاصته، فقتل.

فكانت مدته ثلاث سنين وثلاثة أشهر، واستدعى قتلته إخوته سليمان وحفصاً، سبق سليمان إلى ببشتر واستولى على أمر والده، واستأمن إلى الناصر، وخطب طاعته، فسالمه إلى أن تمكن وعلا قدره فنكث وشن الغارات.

فأخرج الناصر القواد إلى مضايقته، وبنى على طرش من حصونه، ولم تطل مدة سلمه إلى أن نكث ودخل مدينة المنكب عنوة، فقتل جميع أهلها وسبى نساءهم. فخرج الناصر إلى منازلته وضيق به، وفتح الكثير من جهانة، ثم قفل وقد اختلفت كلمة أصحاب سليمان بن عمر بن حفصون، فرصدوه حتى إذا خرج يوماً إلى مطالعة بعض حصونه أعلنوا بخلعه، وخاطبوا القومس كبير النصارى المعاهدين عامل الناصر بتلك الجهة فلحق بهم.

فبينما هو يروض الجهلة في استدعاء قائد الناصر، إذ لحق سليمان مستبسلاً، وقد أضاعوا الحزم في ضبط المدينة فدخلها متنكراً متلثماً يحمل حريمه، وتلاحق به أصحابه.

ففر الأسقف وجعل سليمان السيف على من اتهمه.

ثم ضاقت حاله، فكتب إلى عبد الرحمٰن الناصر يطلب الأمان والسلم، فأجابه إلى ذلك وكتب له عهده، فلما تأثل نكث وعاود الغدر.

فوالى عليه عبد الرحمٰن الجيوش والحشم وأردف القواد حتى توالت عليه الوقائع، وتبين إدباره، فأطاع جملة من معاقله وقطعت عن ببشتر الميرة، والمرافق،

إلى أن وقعت على سليمان الهزيمة بأحواز شنت فجت وكبى به فرسه فقتل.

وولي بعده أخوه حفص ملكه أهل القلعة أمرهم.

وخرج إليه الناصر سنة خمس عشرة وثلاثمائة فافتتح مدينة الجش من طاعة حفص، ونازله ببشتر، وابتنى بجوارها حصن خليدة وتخلف فيه الوزير ابن المنذر.

فأذعن إلى التسليم فلم يجب إلاَّ على الخروج، فتم ذلك بعد عناء كبير سنة ست عشرة وثلاثمائة، ووصلوا بجمعهم إلى قرطبة.

وتوسع إلى حفص في إنزال واسع وإتحاف شريف.

وغزا مع عبد الرحمٰن الناصر إلى جليقية، وأحنى بين يديه إلى أن مات بوات الحجارة سنة كذا / وعشرين وثلاثمائة. [١٣٠/أ]

وانفض أمر بني حفصون إلى هذا الحد، ولا بد لكل أول من آخر، فسبحان من له البقاء.

ذكر شيء من أخبار بني حجاج

وكان هذا البيت من بني حجاج بيت رئاسة وظفور بإشبيلية، وآخر بيوتات النباهة الدينية بيت بني حجاج هذا، وبيت بني عبادويه، وبيت بني خلدون، وبيت بني الحكم المستقر عقبهم الآن بدندة حسبما ذكر لي أبو بكر ابن الوزير أبي عبد الله منهم.

وأدركت من بيوتات بني حجاج بمالقة أمين العطارين بها يخبر بشرف هذا البيت وأنهم استبدوا بحضرة إشبيلية عن بني أمية بحيث كانوا يقدمون قاضي الجماعة من مدينتهم ولا يرجعون في شيء من أمرها إلى صاحب الدعوة المروانية.

وكان إبراهيم كبير هذا البيت لما كشف الوجه في الخلاف هادن الأمير عبد الله بن محمد على أن يوليه ببلده، ولا يعرض له، فرضي منه بذلك وفعل.

فجبى الأموال واصطنع الرجال وارتقى في درج الجلال، وكان رئيساً ضخماً. بعيد الهمة، حسن الآثار، جميل الذكر.

ولم يزل يتبسط على الأمير عبد الله حتى ساء ما بينهما، فأظهر الخلاف ومالأ بجاره ابن حفصون، وعظمت نكايتهما إلى أن هلك إبراهيم، وحاله حال الملوك فصافاً وإنعاماً، وكان يضاهي الملوك، ويقصده الشعراء، وفيه يقول ابن عبد ربه قصيدته التي أولها:

كتاب الشوق يطويه الفؤاد ... ومن فيض الدموع له مداد

وكان مهلكه في عام ثمانية وثمانين ومائتين.

وولي بعده ولده عبد الرحمٰن بن إبراهيم بن حجاج، فطالت مدته إلى سنة أحد وثلاثمائة وكان أخوه محمد بن إبراهيم بن حجاج بمدينة قرمونة قد أقام أيضاً رسماً كبيراً من الفضل زاد به على شهرة أبيه وجلالته.

ولما توفي عبد الرحمٰن جعل أهل إشبيلية الأمر لأحمد بن مسلمة من بني حجاج، وصرفوه عن محمد صاحب قرمونة، فناصبهم الحرب.

وأعطى الناصر الطاعة، وقد صار إليه الأمر وأمده بالجيش، فضيق على إشبيلية، وأقام إقليم الشرق منها.

ولما رأى ابن مسلمة ما لا يطيقه داخل الناصر لدين الله في سِر من الأمر، ومكن الناصر من إشبيلية.

ولما علم محمد ذلك أنكر كتم الأمر عنه، فخالف الناصر، وأغار على الأحواز القرطبية. وما زال الناصر يؤنسه ويماني له إلى أن أجابه إلى سكنى قرطبة حضرته على أن يترك بقرمونة بلده نائباً عنه، فكان ذلك في / رمضان من عام أحد وثلاثمائة. [١٣٠/ب]

ووصل قرطبة في رجاله وقومه، فأجرى الناصر عليه وقرّبه من نفسه، وولاّه الوزارة منوهاً به رفيع القدر.

وخرج للغزاة، فأغزاه معه وزيراً.

ثم امتنعت عليه مرقونة، فحاصرها مع السلطان إلى أن طرقته في أمورها التهمة، فعزل عن الوزارة وحبس، ثم اغتبه، ولم تطل مدته أن هلك في شوال سنة اثنتين وثلاثمائة.

وانقضت أيام بني الحجاج، والثوار في دول بني أمية متعددون شقيت بهم الملوك، وتنغصت بهم الخلفاء، واضطروا إلى مسالمتهم تارة ومحاربتهم أخرى، وجعلوا رسم الوفا، عاهدوا منهم سياسة لولاها لجل الخطب ولم يخلص الملك.

والسبب في كثرة الثوار بالأندلس يومئذ ثلاثة وجوه:

الأول: منعة البلاد وحصانة المعاقل وبأس أهلها بمقاربتهم عدو الدين، فهم شوكة وحد بخلاف سواهم.

الثاني: علو الهمم وشموخ الأنوف، وقلة الاحتمال لثقل الطاعة، إذ كان من يحصل بالأندلس من العرب والبرابرة أشرافاً يأنف بعضهم من الانقياد لبعض.

الثالث: الاستناد عند الضيعة، والاضطرار إلى الجبل الأشم والمعقل الأعظم من ملك النصارى الحريص على ضرب المسلمين بعضهم ببعض، فكان الأمراء من بني أمية يرون أن اللجاج في أمورهم يؤدي إلى المطاولة، وفيها فساد الأموال وتعذر

الجباية وتعريض الجيوش إلى الاقتتال، وأولياء الدولة إلى القتل، ولا تقوم الشرور بغلبة الثائر بما يوازنه من نزحة هذه الأمور.

وسياسة الثوار والناقمين، قد أكثر أرباب السياسة القول فيها من الفرس ويونان والترك وغيرهم، حسبما نبين في كتاب «رسالة الفلك من سياسة الملك» إن شاء الله. فلا يزالون يسعون في حُسن التأني لهم المُرّ ويتحملون المشاق.

وكان الأمير عبد الرحمٰن مبرزاً في ذلك مع مُعين البخت والإقبال، فهادن طائفة وارتهن أخرى، واستنزل إلى حضرته أخرى، وغلب بالسيف أخرى، فاستأثر من بين قومه بالمروءة وحلو الشمائل من المرح، وتهنأ مخول الملك.

وهذا الكتاب كتاب لمع وإشارات إن أطلقنا فيه العنان خرجنا عن الغرض. ثم أن الله ابتلاه ومحصه بالوقيعة الشهيرة التي أوقعه بها عدو الله ردمير على ردون يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة سبع وعشرين وثلاثمائة[1] من باب مدينة شنترين بلنكش من بلاد الروم بعد قتال أيام / جالت فيه المغالبة بين الفريقين [١٣١/أ] بأشد ما يكون وأصعبه.

وكانت للعدو الكرة، فانكشف المسلمون انكشافاً لم يسمع بمثله، وجرت الهزيمة على المسلمين طائفة من جند الناصر لدين الله حشدته ما شاء الله له من الصنع ولم تناصحه في الحرب حق النصح، فجالت ثانية اللاعنة واختل مصاف القتال. وألجأ العدو المسلمين إلى خندق بعيد المنون، إليه تنسب الوقيعة، فتساقط فيه الناس حتى ساروا بين حافتيه وانكشف الناصر، وأسلم محلاته، فاستولى عليها العدو بما فيها من عدة وغير ذلك، وضاع فيها مصحفه ودرعه وكان لا قيمة لهما[2].

إلى أن استرد ذلك في أيام، ولما خلص من المعركة وجه طائفة من أنجاد

---

(١) ذكر الوقعة ابن الأثير في الكامل في هذا التاريخ فقال: وفي هذه السنة عصى أمية بن إسحاق بمدينة سنترين على عبد الرحمٰن الأموي صاحب الأندلس، وسبب ذلك أنه كان له أخ اسمه أحمد وكان وزيراً لعبد الرحمٰن فقتله عبد الرحمٰن، وكان أمية بشنترين. فلما بلغه ذلك عصى فيها والتجأ إلى ردمير ملك الجلالقة، ودله على عورات المسلمين. ثم خرج أمية في بعض الأيام يتصيد فمنعه أصحابه من دخول البلد، فسار إلى ردمير فاستوزره. وغزا عبد الرحمٰن بلاد الجلالقة، فالتقى هو وردمير هذه السنة، فانهزمت الجلالقة، وقتل منهم خلق كثير، وحصرهم عبد الرحمٰن. ثم إن الجلالقة خرجوا عليه وظفروا به وبالمسلمين وقتلوا منهم مقتلة عظيمة. وأراد اتباعهم فمنعهم أمية وخوفه المسلمين ورغبه في الخزائن، والغنيمة. وعاد عبد الرحمٰن بعد هذه الوقعة جهز الجيوش إلى بلاد الجلالقة فألحوا عليهم بالغارات، وقتلوا منهم أضعاف ما قتلوا من المسلمين، ثم إن أمية استأمن إلى عبد الرحمٰن، فأكرمه.

(٢) أي لا تقدر لهما قيمة من المال نظراً لقيمتهم العالية عديمة النظير والمثيل.

خدمته سبقت الناس إلى قرطبة فبشرت بسلامته وأنفذت أمره باتخاذ الخشب والمصالب على ضفة نهرها لحين وصوله تقبض على ما يناهز ثلاثمائة من الفرسان، فصلبهم وأمر بالنداء عليهم: هذا جزاء من غش الإسلام وكاد أهله وأدخل بمصاف الجهاد.

فرفعوا بها، وبادرتهم الرماح بمرأى من الناس.

ودخل إلى قصره، ومن لدن هذه الغزاة لم يباشر الغزو بنفسه، وصنع الله له بعدها من الوقائع على ملوك النصارى واكتساح بلادهم ما لم يصنعه لأحد بعده قبله. وتوالت عليه بعد ذلك الفتوح، وأذعنت الأعداء، وقدمت عليه رسل الملوك بالعدوة الغربية من زناتة، والأدارسة، والقيروان، وجزائر بني قزقنا.

ووصل إليه رسول ملك القسطنطينية العظمى راغباً منه في إيقاع المؤالفة، فعقد له المعقد الشهير الذي لم يتهيأ مثله لملك قبله، فدخل الرسول عليه وقد بهت لهول ما عاينه، ودفع إليه رسالته مودعة في درج ذهب كثير التصاوير، وكان الكتب في رق سماوي اللون مكتوباً بالذهب وعليه طابع ذهب أحد وجهيه صورة المسيح وعلى الآخر صورة الملك قسطنطين.

وتمهد مُلك الناصر، وعظم أمره، وبلغت الغاية مبانيه، فزاد في المسجد الأعظم الزيادة الهائلة، وبنى المنار الأعظم بقرطبة وجعل أعلى ذروته ثلاث رمانات تخطف الأبصار بالتماعها، اثنتان منها ذهب وواحدة فضة طوف كل رمانة فيها قنطار من الذهب، ودور إحداها ثلاثة أذرع ونصف.

وهو الذي ابتنى الزهراء، ابتدأ بناءها في أول سنة خمس وعشرين وثلاثمائة وكان يضرب فيها من الصخر المنحور / العريض الضخم كل يوم خمسة آلاف صخرة [١٣١/ب] سوى صخر البليط والتأسيس، وجلب إليها الرخام حتى من تونس وقرطاجنة إفريقية.

وجلب إليها من سَوَارِ في الرخام أربع آلاف وثلاثمائة سارية، وأربعاً وعشرين سارية، وجلب إليها الروم على يد ربيع الأسقفي حوضاً منقوشاً بالذهب ينقل هيناً من مكان إلى مكان حتى وصل إلى البحر ورفع منه إلى البلدة، فكان عبرة لمتأمله، وجلب إليه أحمد بن حزم حوضاً ثانياً منقوشاً فيه تماثيل لا قيمة لها، احتيل في اجتلابه من بلاد الشام فوضعه في بيت المنام من المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس، وكان عليه اثنتا عشرة تمثالاً من الذهب الأحمر المرصع بالدر النفيس العالي.

وذكر المُخبر: أن قوت الحيتان في بِرْكات قصوره بلغت كل يوم اثنتي عشرة ألف خُبزة.

وكانت همته في البناء طامحة فوق همم الملوك.

وكانت جبايته مقسومة ثلاثة أقسام:

قسم للجند.

وقسم للبناء.

وقسم مدخر للضرائر.

وحكى صاحب طبقات القضاة:

أن الناصر لدين الله اتخذ ينضح القبة المائلة على الضريح المرد المشهور متانة بالزهراء قراميد مغشاة ذهباً وفضة، أنفق عليها مالاً جسيماً، وقد مدّ سقفها بماء صفراء فاقعة إلى بيضاء ناصعة مستلب الأبصار بمطارح أنوارها المشعشعة وجلس فيها إثر تمامها لا يمل مملكته. فقال لوزرائه وخاصته يفتخر بما صنعه وما يتصل به من البدائع:

هل سمعتم أو رأيتم ملكاً كان قبلي جعل مثل فعلي هذا أو قدر عليه؟

فقالوا: لا والله يا أمير المؤمنين، وإنك أوحد في شأنك كله، وما سبقك إلى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه ولا انتمى إلينا خبره.

فأبهجة قولهم وسَرّه جداً.

فبينا هو كذلك تضحك أسارير وجهه إذ دخل عليه القاضي منذر بن سعيد[1]. واجماً ناكساً.

---

(١) هو منذر بن سعيد أبو الحكم البلوطي الأندلسي، قاضي الجماعة بقرطبة، ينسب إلى قبيلة يقال لها: كُزنَة، وهو من موضع قريب من قرطبة يقال له: فحص البَلّوط. كان فقيهاً محققاً وخطيباً بليغاً مفوهاً، له اليوم المشهور الذي ملأ فيه الآذان وبهر العقول، وذلك أن المستنصر بالله كان مشغوفاً بأبي علي القالي يؤهله لكل مهم، فلما ورد رسول الروم أمره أن يقوم خطيباً على العادة الجارية، فلما شاهد أبو علي الجمع العظيم جبن فلم تحمله رجلاه، ولا ساعده لسانه. وفطن له منذر بن سعيد، فوثب في الحال، وقام مقامه، وارتجل خطبة بديعة فأبهت الخلق، وأنشد في آخرها لنفسه:

هذا المقال الذي ما عابه فنَدٌ ... لكن صاحبه أزرى به البلدُ

لو كنت فيهم غريباً كنت مُطرفاً ... لكنني منهم فاغتالني النكدُ

لولا الخلافة أبقى الله بهجتها ... ما كنت أبقى بأرض ما بها أحدُ

فاستحسنوا ذلك، وصلب الرسول، وقال: هذا كبش رجال الدولة.

ومن تصانيفه كتاب: الإنباه عن الأحكام من كتاب الله، وكتاب الإبانة عن حقائق أصول الديانة (سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٧٣)، من مصادر ترجمته: طبقات النحويين واللغويين (٣١٩)، تاريخ علماء الأندلس (٢/ ١٤٤)، جذوة المقتبس (٣٤٨)، فهرست ابن خير (٥٤)، بغية الملتمس (٤٦٥)، معجم الأدباء (١٩/ ١٧٤)، معجم البلدان (١/ ٤٩٢)، إنباه الرواة (٣/ ٣٢٥)، اللباب (١/ ١٧٦).

فلما أخذ مجلسه قال له كالذي قال لوزرائه من ذكر السقف المذهب واقتداره على إبداعه.

قال: فأقبلت دموع القاضي تنحدر على لحيته، وقال له: والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ، ولا أنك تمكّنه من قيادك هذا التمكين مع ما آتاك الله وفضّلك به على العالمين، حتى ينزلك منازل الكافرين.

قال: فاقشعر عبد الله الناصر لدين الله، وقال: انظر ما تقول، كيف أنزلني منازلهم؟

فقال: أليس الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا﴾ [الزّخرُف: الآية ٣٣] الآية؟

[١٣٢/أ] قال: فوجم الناصر لدين الله / ونكس رأسه ملياً ودموعه تنحدر على لحيته خشوعاً لله تعالى، وتذمماً ما أجرى إليه. ثم أقبل منذر بن سعيد فقال: جزاك الله عنا وعن نفسك خيراً وعن المسلمين والإسلام خير الجزاء، وكثر في الناس أمثالك، فالذي قلت هو الحق.

وقام من مجلسه ذلك يستغفر الله، وأمر بنقض سقف القبة، وإعادة قراميدها تراباً على غير تلك الصفة.

ثم طوّف الناصر ما طرف، وجده، فأنفذ قتل ولده عبد الله، وقد بلغه أن جماعة من أهل قرطبة بايعوه بالخلافة، وكان أهلاً لذلك فضلاً وعلماً وبصراً بالفنون، وذلك سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة.

وكان الناصر شديد الجرأة على الدماء، مرهوب السطوة، ثقيل العِقاب والسخطة.

حدث شرطية أنه استودع للقصر ليلاً فأمره بضرب عنق جارية لا نظير لها في الدنيا، وهي تسترحمه فلا يرحمها، قال: وسمعت للسيف في عنقها صوتاً لم أعلم ما هو، فلما ضممت عليها النطع وخرجت بها إلى الحفرة ألفيت عقداً قد سقط في النطع لا قيمة له في الدنيا، ورجعت فأعلمته.

فقال: اذهب به فهو لك.

ومن آثاره التي ضُربت بها الأمثال وقُضيت فيها العجائب

حال الطراز ببابه لنسج ما يحتاج إليه من الخلع والكساء وملابس الحرم وغير

= العبر (٢/ ٣٠٢)، تلخيص ابن مكتوم (٢٥٦)، البداية والنهاية (١١/ ٢٨٨)، تاريخ قضاة الأندلس (٦٦)، البلغة في تاريخ أئمة اللغة (٢٦٤)، بغية الوعاة (٢/ ٣٠١)، نفح الطيب (١/ ٣٧٢)، شذرات الذهب (٣/ ١٧).

ذلك. فقد كان على عهده مدينة تشتمل على آلاف من الخلق قد اتخذت فيها المرافق، والمساجد، والحمام، والشُرف، ولو تتبعنا أصنافهم، وما كانوا يحاولونه من صناعاتهم وينافسون به المشرق من بضائعهم ومقدار جراياتهم ونفقاتهم لضاق عنه الكتاب.

وتوفي رحمه الله يوم الأربعاء لاثنتين خلت من رمضان سنة خمس وثلاثمائة.

فكانت أيام ولايته خمس سنين وستة أشهر وثلاثة أيام، وعمره ثلاث وسبعون سنة.

وقال ابن الفرضي: وجد في تاريخه بخط يده أيام السرور التي صفت لي من غير تكدير يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا.

وكرر التواريخ فعدت، فكل ما وجد منها أربعة عشر يوماً بطول خمسين سنة ونصف.

وهكذا حال الدنيا لمن اعتبرها وموازينها لمن اختبرها.

ومن شعر كاتبه جعفر بن عمار المصحفي في ندبته:

ألا إن أيـامـاً بـيـعـت بـإمـامـهـا	لـجـائـرة مـشـتـطـة فـي احـتـكـامـهـا
فلم تفطم الدنيا عظام خطوبها	وما أحداثها إلاّ قلوب عظامها
/ تأمل قبلاً من طالع صغير أفِلِ	لـمـن وصـل مـن قـاعـد لـقـيـامـهـا
...................(١)	مـن الـنـاس ألا يـمـت لـعـظـامـهـا
كـأن نـفـوس الـنـاس كـا...(٢)	فـلـمـا تـوارى أيـقـنـت بـحـسـابـهـا
بطارقها يأمن الأمن وتفاخرت	بحد الصبر عن أحوالها والتدامها

[١٣٢/ب]

وكان عدد الفتيان الصقالبة بمدينة الزهراء لحين وفاته ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمس، وعدد النساء بالقصر ستة آلاف وسبعمائة وخمس.

يجري على الجميع اللحم والخبز والطير والحيتان وغير ذلك من ضروب المؤتدمات وضروريات الديار والجاريات.

وقد كان عهد بالأمر بعده لولده الحكم، وهو طفل صغير من ثماني سنين أو نحوها، بحيث لو هلك لنصب بعده في مكانه حسبما اقتضاه، ما أخذه على الناس من العهد بذلك، واقتضاه من الأيمان الغليظة المحرجة بأن من يأخذ العهد لولده من الملوك.

---

(١) و(٢) موضع النقط شطر غير ظاهر بالمخطوط.

إلا أن عمره امتد إلى أن كان يوم تصيير الأمر إليه بعده في سن الكهولة. فالحَكَم رحمه الله بهذا الاعتبار ممن اشترطنا ذكره ممن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، وكفى بذلك وبحال ابنه المؤيد هشام بعده، أي سائل أراد الاقتداء بذلك واختار الاعتداد به. رحمة الله عليهم أجمعين.

دولة المستنصر بالله الحكم بن عبد الرحمٰن الناصر لدين الله(١)

بويع الحكم بن عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية بعد موت أبيه تجديداً لعهده لثلاث خلون من شهر رمضان سنة خمسين وثلاثمائة.

وكان رحمه الله عالماً، فقيهاً بالمذاهب، إماماً في معرفة الأنساب، حافظاً للتاريخ، جماعاً للكتب، مميزاً للرجال من كل عالم وجيل، وفي كل مصر أوان، تجرد لذلك، وتهمم به، فكان في ذلك حجة وقدوة وأصلاً يوقف عنده.

وفي أيامه سكتت الفتنة لتوطيد أبيه الدولة، واستظهاره على الثوار بحسن السيرة، وطول العمر، ومساعدة الأيام.

وفي أيامه ظهرت المجوس المجلبة على المسلمين من بحر الخوف، فتحرك إلى المرية وقد حصر وأحض القبطة من حصونها فأوقع بهم.

وأنشأ الأسطول لغزوهم فكان عدده ستمائة جفن بين غزوي وغيره.

---

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٦٩)، جمهرة الأنساب (٩٢)، جذوة المقتبس (١٣)، الكامل من سنة (٣٥٠: ٣٦٦)، ابن خلدون (٤/ ١٤٤)، نفح الطيب (١/ ٣٨٢)، أزهار الرياض (٢/ ٢٨٦). قال الذهبي في سير الأعلام: كان حسن السيرة، جامعاً للعلم، مُكرماً للأفاضل، كبير القدر ذا نهمة مفرطة في العلم والفضائل، عاكفاً على المطالعة، جمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من الملوك لا قبله ولا بعده، وتطلّبها وبذل في أثمانها الأموال، واشتريت له من البلاد البعيدة بأغلى الأثمان. مع صفاء السريرة، والعقل، والكرم، وتقريب العلماء. . .
ولقد ضاقت خزائنه بالكتب إلى أن صارت إليه، وآثرها على لذات الملوك، فغزر علمه، ودق نظره، وكان له يد بيضاء في معرفة الرجال، والأنساب، والأخبار، وقلما تجد له كتاباً إلاَّ وله فيه قراءة أو نظر من أي فن كان، ويكتب فيه نسب المؤلف، ومولده ووفاته، ويأتي في ذلك بغرائب لا تكاد توجد. ومن محاسنه أنه شدد في مملكته في إبطال الخمور تشديداً عظيماً. وكان أخوه محمد انموذجاً في محبة العلم، فقتل في أيام أبيه. وكان المستنصر موثقاً فيما ينقله. ذكره ابن الأبّار في تاريخه وقال: عجباً لابن الفرضي وابن بشكوال كيف لم يذكراه.
مولده في سنة اثنتين وثلاثمائة. قال اليسع بن حزم: كان الحكم عالماً راوية للحديث فطناً ورعاً. . وكان موته بالفالج في صفر سنة ست وستين وثلاثمائة، وخلف ولداً وهو هشام، فأقيم في الخلافة بتدبير الوزير ابن أبي عامر القحطاني.

وفي سنة اثنتين وخمسين غزا الروم ففتح مدناً جليلة.

وهو الذي بنى الزيادة بالمسجد الأعظم وزينه / بالفسيفساء المجتلبة من قِبل [١/١٣٣] ملك القسطنطينية مع الصناع المتمكنين من ذلك محاذياً بفعله ما فعله الوليد بن عبد الملك بمسجد دمشق، ففاق خدمه. . .[١] إلى أن كمل ما أراده.

وورد عليه أرسال ملوك البلاد، وجبابرة العباد، وألقت الأقطار إليه بالمقاليد ونجعت بالطاعة.

وورد عليه جعفر بن علي، وأخوه يحيى ملك الزاب الذي يمدح محمد بن هاني الشاعر بالقصيدة الشهيرة التي أولها:

أليتك إذا أرسلت وارداً وجفا ... وبتنا نرى الجوزاء في أذنها شنفا

فاحتفل لتلقيه وكان يوماً مشهوداً بالأندلس.

وفي سنة ثلاث وستين افتتح غالب مملوكه مدينة البصرة من أحواز أصيلا، وقفل إلى الحضرة، وقد استنزل ملوك الأدارسة الحسينيين.

وأخبار الحكم رحمه الله متميزة، وإليه انتهت الأبهة والجلالة، والعلم والأصالة، والآثار الباقية والحسنات الراقية، وولد له هشام ابنه في سن الكبر فعظم استبشاره به وسروره فوهبه الله فيه حدث عبادة لابن عبد الله.

قال: بُشر الخليفة الحكم يوماً في خلوته باشتمال جاريته صبح على حمل، وكان جعفر بن عثمان المصحفي بين يديه، فأنشده بديهة:

هنيئاً للإمام وللأنام ... كريم يستفيد على كريم

مُرجّاً للخلافة وهو ماء ... ومأمول لآمالِ كرام

أضاء على كريمته ضياء ... فلم تعلم بعلم مشيئة الظلام

ولِمَ لا يستضاء بجانبيها ... وبين ضلوعها بدر التمام

قال: فولدت صبح من هذا الحمل هشام بن الحكم.

واتفق أن حضر جعفر عند الخليفة عندما أتاه البشير بولادته، فقال في ذلك:

طلع البدر من سحابه ... وأطرق السيف من قرابه

وجاءنا وارث المعالي ... ليثبت الملك في نصابه

بُشرنا بسيد البرايا ... بنعمة اللّه في كتابه

فلو منحت البشير عُمري ... لكان نزراً لمن أتى به

---

(١) عبارة مطموسة بالمخطوط.

وتوفي الحكم ليلة الأحد لأربع خلون من صفر سنة ست وستين وثلاثمائة، وعمره نحو من ثلاث / وستين سنة وأربعة أشهر. [١٣٢/ب]

دولة هشام المؤيد بن الحكم

هو هشام بن الحكم بن عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية(١).

ولما توفي الحكم المستنصر بالله بويع ولده ولي عهده هشام الملقب بالمؤيد بالله، والخلافة قد بلغت المنتهى، وأدرك بحمائلها الجنى، وبلغ طورها، وانتهى دورها، فكانت كهامة، ثم زهرة بسامة، ثم ثمرة بهية، ثم فاكهة شهية، تؤكل بكرسي العامرية محلاها، ثم تلاها ما تلاها، وأرخص الحُظُوط أعلاها، فكان المال قد ضاقت عنه خزائنه، والمصر قد عظمت مزاياه ومزاينه، والملك تعوذ بالله أن لا يصيبه ما يعاينه، والمباني قد بلغت السماء سمواً، وزاحمت الكواكب علواً، والبلاء قد بلغ فيها إلى قاصي الاهتمام، وفرغت بُناتها من لَبِنَاتِ التمام، والآثار الصالحة مخارب، والمنابر الواضحة قد تعددت، والأذهان في بسطة الإسلام قد تبلدت، ورسم الخلافة قد أمحى، والدولة المروانية قد بركت وسط المرعى، والدعوة قد انتشرت في المغرب الأقصى، والمصر قد خرج في العمارة عن المعتاد، وظهور الرياء والوهاد متزاحمة بجيوش الجهاد، والصنائع تجل والفتوحات من فوق المنابر تسل، والقرابة تضيق عن أعدادهم مجالس الملك ويقصر عن انتظام لياليهم الثمينة درع ذلك السلك.

---

(١) من مصادر ترجمته: الكامل في التاريخ من سنة (٣٦٦: ٤٠٣)، جذوة المقتبس (١٧)، النبراس (٢٢)، البيان المغرب (٢/ ٢٥٣)، ابن خلدون (٤/ ١٤٧)، نفح الطيب (١/ ١٨٧)، سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٧١)، بغية الملتمس (٢١)، المغرب في حلي المغرب (١/ ١٩٣)، وسير أعلام النبلاء (١٧/ ١٢٣).

قال الذهبي في سير الأعلام الموضع الثاني: صاحب الأندلس، بايعوه صبياً، فقام بتشييد الدولة الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر، فكان من رجال الدهر رأياً وحزماً ودهاء وشجاعة وإقداماً ـ أعني الحاجب ـ فعمد أول تغلبه إلى خزائن كتب الحكم، فأبرز ما فيها بمحضر من العلماء، وأمر بإبراز ما فيها من تصانيف الأوائل والفلاسفة، حاشا كتب الطب والحساب، وأمر بإحراقها، فأحرقت، وطمر بعضها، ففعل ذلك تحبباً إلى العوام، وتقبيحاً لمذهب الحكم.

ولم يزل المؤيد بالله هشام غائباً عن الناس لا يظهر ولا يُنَفِّذ أمراً. وقال الذهبي أيضاً في نفس الكتاب في الموضع الأول: الأموي الأندلسي أبو الوليد، ولي الأمر بعد والده وطالت أيامه، مولده بمدينة الزهراء في جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين، وبويع وله اثنا عشر عاماً بإشارة الدولة وقام بتدبير الخلافة المنصور محمد بن أبي عامر، واستبد بالأمر، فقبض أول شيء على عمه المغيرة بن الناصر. وكان هشام العاشر من ملوك بني أمية بالأندلس، وكان ضعيف الرأي، أخرق، محجوراً عليه، فكان صورة، وكان المنصور هو الكل، فساس المملكة أتمّ سياسة وغزا عدة غزوات ضخام.

ووقع الاتفاق على تعيين هشام للخلافة مع وجود الأعمام الكهول، وبني الأعمام الفحول أسود الهياج وغيوث المحول، وهشام يومئذ صبي يناهز عشر سنين مع ضعف في الأصل، وعدو في الخصل، والكل على علم من أنه لم يبلغ الحلم.

وحكى القاضي أبو الفضل عياض رحمه الله: أن الحكم أباه لما وضع سريره للصلاة عليه قيل لجعفر بن عثمان: من يصلي على أمير المؤمنين؟

قال: ومن يصلي عليه إلاّ أمير المؤمنين ولده؟!

فتقدم هشام، وتقدم بارزاً عن صف الناس القاضي أبو العباس بن ذكوان ناوياً الإمامة لصغر هشام عن هذه الوظائف، وخلفه من أعلام مشيخة العلم والدين والشهرة والصلابة في الحق أمة لم يشتمل العراق عليها أيام احتفاله ووفور رجاله، ما منهم إلاّ عالم بسنه ومولده، ومحله من / الاضطلاع بأمورهم، والاستقلال بأعباء ما [١٣٤/أ] نحلوه وأعطوه صفقات أيمانهم من بيعته، والقوم لا يؤتون من جهل ولا يهدون إلى سلوك سبيل مستقيم ما لم يؤمن ذلك.

وأخذ على الناس العقود به أياماً تباعاً حتى كمل الغرض، وتم ذلك الواجب المفترض، وكان الناس، لا بل وفي كل زمان أربعة:

فصنف همه الدنيا التي ينالها بسبب الولد بالغاً أو مراهقاً أو طفلاً في المهد، وجنيناً في المشيمة، وهم صنائع الحكم وخُدامه وعماله وفتيانه ورجاله، وكل ذي علاقة به ممن يحسب نفسه أجنبياً عن خليفة غيره إن لم يُعد عدواً تطرق الظن إلى ماله ونفسه.

وهذا الصنف بحر زاخر، وللحصا والقطر مكاثر، ويضاف إليه كل ذي علاقة قديمة سالفة أو حديثة ناشئة تنسب إلى النائب عنه وهو مُستَكْثِر من الأولياء لضرورة ما تحمله، والاستظهار على ما دخل فيه وهم أيضاً بحدثان وهول لا يثنيه ثانٍ.

وصنف مرتق من الديوان، مشهور العناية والمكان، أو مجهول الشأن، راضٍ بحظه من الزمان، لا يتشوف إلى المزيد، ولا يحذر من النقصان، قد تساوت في الدولة أحواله، وسكنت إلى الرزق المفروض آماله، فإن تعين الطفل أو الكهل لم تلحقه بازاء هذا مزية، ولا يقد لأجل هذا، حاله سنية، فهو هادن ساكن، وإلى فئة العافية راكن.

وصنف يزيل أمراً، ويشب إن قدر جمراً، ويرجو من القرابة الراجحة زيداً وعمراً، ومستحى يأسف لما خرج عن يده أو يعتقد الظلم فيمن عدل عنه إلى محل ولده، مستوحش يبخس حقه، وجحد سيفه، ولا يعلم حال الدنيا فيمن ادعى الاستحقاق، وفرض الوفاق، وإن حذا قياس فصح الأول والآخر، والغائب

والحاضر، وقطع الأعناق، وسحت الأرزاق، واكتسب النار، وأعقب الخسار وما تلبست الأيدي بشيء، ولا حصلت إلاّ على ظل وفيء، وقد جرت بذلك الأمثال المضروبة، والأقوال المشهورة كما قال امرىء القيس المجنون وقد خسر على ليلى حتى عقله ومسكنه، وذهب بها إلى رحله من تمتع بها بما حُرِم:

قضاها لغيري وابتلاني بحبها فهلا بشيء غير ذاك ابتلانيا

وقال آخر:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

[١٣٤/ب] / وقال آخر:

رب ساع لقاعدُ واسلمي أم خالد

لا بل سبحان الله الذي يقول: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عِمرَان: الآيتان ٢٦، ٢٧].

إن الحظوظ قد كتبت، والأمور قد أبرمت، والفلك قد سخر، والقَدَر قد قُدّر، والنجوم قد أُمرت، والأحوال قد قُرِّرَت، والمواليد قد سُميت، والغيوب قد أُبهمت، وهذا الصنف المنازع المنافس بين أن يصمت فيموت بدائه أو يجهر بالمنازعة فيُنتهى إلى قدر الله وقضائه.

وكان في ذلك الوقت أضعف الأصناف لاستحكام الصبغة الحكمية التي لا تبالي ممن تقادم، ولا تظن عند الحكم أو الناصر كان آدم، فلم تسعهم يومئذ المجاملة، وجدت على الرضى المعاملة، وأسمع الدعاء والإطراء وأعمل الشكوى والإبراء.

وصنف من أهل الدنيا والآخرة قلدوا أقل الجل والعفو والقبول، والرد اجتهادهم وسألوا الله توفيقهم وسدادهم، واستكفوه الشرور التي تغال النفوس والأقوات، وتسيء المحيا والممات، واعتبروا من رأس الأمة المسلمة في أمهات البلدان من الفتيان والغلمان، والطواشية والخصيان، والأعجام التي تخاطب بالترجمان، والصبية والنسوان، وهم أشرف أوطاناً وأعظم سلطاناً، وأوفر أعلاماً، وأغضى إسلاماً، ورأوا أن الله قد سدّ ثلمهم بمن يحكم التلفيق، ويلتمس التوفيق وحُسن المناب، ويحكم السلة والكتاب، وأنه رأب الصدع برجل من أنفسهم يؤثر التقوى ويدفع عن الحوزة بالذراع الأقوى إلى أن يستقر هشام بأمر الحكم، وتفضي المذاهب إلى النهج الأمم.

فحمدوا الله على حُسن الكفاية واصطناع المنة، وإقامة رسم الكتاب والسُّنَّة، فاغتبطوا وارتبطوا، ونشطوا، وانبسطوا، وكلما زادت الأحوال صلاحاً شكروا واعتبروا، وذكروا، واستبصروا، وهم جمهور الناس من الفقهاء، والعلماء، والخاصة، والدهماء، فلم تسمع عن أحدٍ هجرة أعملها، ولا فتيا سوغت الخلاف لمن سألها، ولم يستجيزوا ذريعة تؤدي إلى سفك الدماء، وتغيير النعماء، وشمات الأعداء، فصانوا أديانهم، وعرفوا زمانهم، واقتصروا على رسول الله ﷺ في الإرشاد وإلهام السداد.

وصنف غارم لا هم له إلا فيمن[1] / . . . . [١٣٥/أ]

[نبذة عن بعض من كان على عهد حياة أبيه عند أخذ البيعة لهشام من العلماء والفقهاء والقضاة][2]

. . .[3] / ابن عيسى[4]. سمع قاسم بن أصبغ وكان من أصحاب الرأي [١٣٦/أ] والتصرف والحفظ.

وأحمد بن محمد بن زكريا بن الوليد بن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن زيد بن مكيال مولى عبد العزيز بن مروان الرصافي القرطبي.

وأحمد بن قزمان أبو عمر بن العياط المملس.

والقاضي محمد بن يحيى بن زكريا التميمي[5]، سمع بقرطبة من ابن خلدون،

---

(١) سقطت اللوحة [١٥٣/أ،ب] من المخطوط فيلاحظ.

(٢) زيادة تصنيفية من صنع المحقق لتوضيح بعض ما سقط من المخطوط ووضع عنوان لما يتناوله المؤلف من الكلام.

(٣) موضع النقط سبق الإشارة إليه قبل قليل من كون الورقة [١٣٥/أ،ب] قد سقطت من المخطوط، وتحتوي على الصنف الخامس، وهو زائد عما وصف المؤلف من أنهم أربعة، أول الأعلام الذين كانوا على عهد أخذ البيعة.

(٤) سقط أول اسم العلم ولم يبق إلا أباه أو جده.

(٥) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٧): القاضي أبو عبد الله محمد بن يحيى بن زكريا بن يحيى التميمي، القرطبي، المالكي، ابن برطال ولد سنة تسع وتسعين ومائتين. سمع من أحمد بن خالد الجباب الحافظ، ومحمد بن عيسى، وقاسم بن أصبغ، وإبراهيم بن فراس المكي، وإسماعيل بن الجراب، وعثمان بن محمد بن أحمد السمرقندي، ومحمد بن محمد بن الخياش، وعدة. وولي الخطابة وقضاء الجماعة إلى أن علت سنه، وتفلت ذهنه، فصرفه أبو عامر الحاجب عن القضاء إلى الوزارة. روى عنه: الفرضي، وسراج بن عبد الله، وعمر دهراً. وكان حُجَّة في سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة. وتفرد بأشياء عالية. وتوفي سنة أربع وتسعين وثلاثمائة عن خمس وتسعين سنة. ومن مصادر ترجمته: تاريخ علماء الأندلس (٢/ ١٠٥)، تاريخ الإسلام (٤/ ٩٦)، تاريخ قضاة الأندلس (٨٤).

وقاسم بن أصبغ، وابن رفاعة، وابن دجيم.

وإبراهيم بن أحمد بن فتح[١] المعروف بابن الحداد القرطبي، روى عن ابن أيمن، وابن منصور، ومحمد ابن الحاج بن عبد الرحمٰن بن علقمة.

وأحمد بن محمد بن يوسف المعافري القسطنطيني، سمع أبا عيسى والدينوري.

وسعيد بن حمدون بن محمد المدني القيسي أبو عثمان، سمع ابن أصبغ، وابن أسامة وابن حزم، وابن مطرف.

وخطاب بن مسلمة بن محمد بن سعيد بن بشر الأيادي، سمع ابن لبابة وابن أصبغ، وحج فلقي ابن الأعرابي، والنحاسي.

ومسلمة بن محمد بن مسلمة[٢] أبو محمد الزاهد، سمع بمكة من الآجُري، وغيره.

وعتاب بن هارون بن عتاب بن بشر بن عبد الرحيم بن بشر بن الحارث بن سهل بن أيوب[٣]. سمع بمكة من ابن الأنماطي، والطوسي، والخزاعي.

---

(١) قال الحميدي في جذوة المقتبس (١/ ١٨/ ت٤٥): إبراهيمبن أحمد بن فتح، مولي قريش من فهر من أهل قرطبة، يكنى أبا إسحاق ويعرف بابن الحداد روى عن محمد بن عبد الملك بن أيمن، ومحمد بن مسعود، وعبد الله بن يونس القبري، وأحمد بن زياد، وقاسم بن أصبغ، والحسن بن سعد، وأحمد بن يحيى بن الشامة، ونظرائهم. وكان حافظاً للمسائل عاقداً للشروط، عالماً بالفقه والعربية، فصيحاً ضابطاً. حدّث وقرىء عليه المدونة وغير ذلك، وسمعت منه. وتوفي يوم الأربعاء لأيام بقيت من شهر ربيع الآخر سنة تسع وسبعين وثلاثمائة. ودفن يوم الخميس صلاة العصر، وصلى عليه محمد بن يبقي.

(٢) قال الحميدي أيضاً في المصدر السابق (٢/ ١٣٠/ ت١٤٢٤): مسلمة بن محمد بن مسلمة بن محمد بن سعيد بن بُترِيّ الأيادي. مْن أهل قرطبة، يكنى: أبا محمد. كان زاهداً فاضلاً متبتلاً، مجتهداً، ورعاً، كثير الجهاد. وسع من وهب بن مسرة، وأبي عيسى، وعبد الله بن محمد بن علي الباجي، ومحمد بن يحيى بن عبد العزيز، وأبي جعفر بن عون الله، وابن مفرج، وسمع من عمه الخطاب بن مسلمة. وله إلى المشرق رحلة سنة ثمان وخمسين سمع فيها من زياد بن يونس السّدري، وسمع بمكة من أبي بكر الآجُري، ومن غيره يسيراً. وامتحن في الطريق بذهاب رحله، فلم يتحصل له كبير شيء من سماعه بمكة. قرأت عليه المدونة، والمستخرجة، وغير ذلك. وكان أكثر ما يحمله من الحديث على سبيل الإجازة وكانت العبادة أملك به وأغلب عليه.
توفي رحمه الله لست بقين من ذي الحجة سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة ودفن يوم الجمعة بعد صلاة العصر، في مقبرة الرّبض وصلى عليه أبو إسحاق المؤدب، وشهدته، وشهده خلق عظيم، وما انصرفنا من جنازته إلا بليل.

(٣) قال الحميدي أيضاً في جذوة المقتبس (٢/ ٣٠٠/ ت٨٨٨): عتاب بن هارون بن عتاب بن بشر الغافقي من أهل شذونة، يكنى أبا أيوب. روى عن أبيه وغيره، رحل إلى المشرق سنة إحدى =

وسعيد بن مُرشد العُكي، أبو عثمان، البدوي.

سمع وهب بن كرم[١].

وعثمان بن سعيد بن البشر بن غلاب[٢] اللخمي اللمدوني، سمع من ابن لبابة، وابن خالد.

وعمر بن محمد بن إبراهيم بن الرفايفي الأبهري، روى الأشراف عن مؤلفه ابن المنذر، وكان من أهل العلم والعمل.

وأحمد بن موسى بن أحمد بن يوسف بن موسى بن بهز[٣] ابن الإمام أبو بكر.

وعبد الله بن محمد بن أزهر بن حريث بن قيس بن أيوب بن جبير.

وأحمد بن يوسف بن إسحاق بن إبراهيم[٤] الإسحاقي.

ومحمد بن عبد الله بن القاسم الأسمي، سمع ابن لبابة، وابن خالد، وابن أصبغ.

= وخمسين، وحج سنة اثنتين وخمسين، فسمع بمكة من أبي بكر محمد بن أحمد بن موسى الأنماطي، ومن أبي حفص الجمحي، وأبي محمد الطوسي، وأبي الحسن الخزاعي. وروى بمصر عن أبي بكر بن الحجاج التنيسي وغيره. رحلت إليه إلى شذونة، وقرأت عليه كثيراً، وأجاز لي م سمعه، وكان حافظاً للرأي على مذهب مالك، وأصحابه حسن النظر، وكان يقال إنه مجاب الدعوة. سمعت أبا محمد عبد الله بن محمد بن قاسم الثغري يقول: لست أعلم بالأندلس أفضل من [أبي] أيوب بن بشر. قال لي أبو أيوب: ولدت في شهر ربيع الأول سنة إحدى عشر وثلاثمائة وتوفي رحمه الله ليلة السبت لأربع بقين من شعبان سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة. ودفن يوم السبت بعد صلاة الظهر. وصلى عليه إبراهيم بن فُليس الفقيه.

(١) قال الحميدي في جذوة المقتبس (١/ ٧٢/ ت٥١٥): من أهل شذونة، يكنى أبا عثمان، سمع من وهب بن مسرة، وأحمد بن حزم، ومحمد بن أحمد بن الخراز القروي. وكان مشاوراً في الأحكام مع أصحابه. ورحل حاجاً في آخر عمره، فتم حجه، ودخل بيت المقدس، ثم قدم مصر منصرفاً، فتوفي بها في آخر يوم من شعبان سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة.

(٢) قال الحميدي في جذوة المقتبس (١/ ٣٠٧/ ت٩٠٧): ابن غالب بن فيض اللخمي. من أهل [illegible] من ساكني اسْتَبَّة، يكنى أبا الأصبغ. سمع من عبد الله بن أبي الوليد، ومحمد بن عمر بن [illegible]، وأحمد بن خالد. كان فقيه استبة، وصاحب صلاتهم، وكان شيخاً صالحاً. حدث، وتوفي باستبة سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة.

(٣) قال الحميدي في المصدر السابق (١/ ٥٦/ ت١٨٨): ... ابن موسى بن حصيب (بدل بهز) يعرف بابن الإمام. من أهل تُطيلة، يكنى أبا بكر. سمع من عمه عمر بن يوسف، ومحمد بن شبل. ولي القضاء بموضعه. وكان فقيهاً عالماً. ولد سنة سبع وعشرين وثلاثمائة. وتوفي يوم الأربعاء، ودفن يوم الخميس ضحاً صدر وشعبان سنة ست وثمانين وثلاثمائة.

(٤) قال الحميدي في الجذوة (١/ ٥٢/ ت١٧٠): من أهل إستجة، يكنى أبا القاسم. كان متصرفاً في الفتيا والشروط، متقلباً في حفظ الخبر، والشاهد، والمثل، وكان له من قرض الشعر نصيب [illegible] رحمه الله في جمادى الآخرة سنة اثنين وسبعين وثلاثمائة.

وعبد الله بن عبد الوارث بن منتهل[١] الطليطلي.

وأبي تمام غالب بن عبد الله بن تمام بن غالب المعافري.

وعبد الله بن فتح بن فرج بن معروف الخير[٢]، الطليطلي.

سمع من ابن الورد، والسكري، وابن أبي الموت.

وعبد الله بن محمد بن علي بن شريعة بن رفاعة المعروف بالباجي[٣].

ومحمد بن عبد الله بن شيبة الإشبيلي.

ومحمد بن حسن بن عبيد الله بن مذحج[٤] الزبيري أبو بكر، قال ابن حيان: لم يكن له نظير بالأندلس.

---

(١) ذكره الحميدي في جذوة المقتبس في (١/ ٢٣٧/ت٧٣٠) وفيها: عبد الله بن عبد الحارث بن منتيل. من أهل طليطلة، يكنى أبا الفرج. كان حافظاً للمسائل، فقيهاً، واستخلفه القاضي محمد بن يحيى بن عبد العزيز أيام كان قاضياً عندهم. وتوفي ليلة السبت لسبع عشرة ليلة مضت من شهر رمضان سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، وصلى عليه ابن عمه محمد بن أحمد بن سيد بن منتيل.

(٢) قال الحميدي في جذوة المقتبس (١/ ٢٣٨/ ٧٣٣): عبد الله بن فتح بن فرج بن معروف بن أبي معروف التجيبي، واسم أبي معروف سلام. من أهل طليطلة، يكنى أبا محمد. سمع من وهب بن مسرة الحجاري، ووهب بن عيسى الطيطلي. ورحل إلى المشرق بعد الأربعين، فسمع من جماعة بمصر منهم ابن الورد، وابن السكري، وابن أبي الموت، وغيرهم. حدث، وتوفي رحمه الله ليلة الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت لشعبان سنة ست وسبعين وثلاثمائة. وصلى عليه أبو عبد الله محمد بن سعيد البكري الخطيب بطليطلة.

(٣) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمته (١٦/ ٣٧٧): العلامة الحافظ محدث الأندلس أبو محمد عبد الله بن محمد بن علي بن شريعة، اللخمي، الإشبيلي، المشهور بابن الباجي. ولد سنة إحدى وتسعين ومائتين. وسمع عن محمد بن عبد الله بن القوقي، وعبد الله بن يونس القبري، والزاهد سيد أبيه، وسعيد بن جابر الإشبيلي، ومحمد بن عمر بن لبابة، وأسلم بن عبد العزيز، ومحمد بن فُطيس وطبقتهم.
قال ابن الفرضي: كان حافظاً، ضابطاً، لم ألق مثله في الضبط، سمعت منه الكثير بقرطبة ورحلت إليه إلى إشبيلية مرتين. روى الناس عنه الكثير. ومات في رمضان سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة وله سبع وثمانون سنة. قلت: وممن روى عنه ولده أبو عمر، وحمام بن أحمد القاضي، وحدث عن القبري بمصنف ابن أبي شيبة.
من مصادر ترجمته: تاريخ علماء الأندلس (١/ ٢٤٠)، جذوة المقتبس (٢٥٠)، بغية الملتمس (٣٣١)، طبقات الحفاظ (٣٩٨)، تذكرة الحفاظ (٣/ ١٠٠٤)، العبر (٣/ ٧).

(٤) قال الذهبي في ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٦/ ٤١٧): إمام النحو أبو بكر محمد بن الحسن بن عبيد الله بن مذحج، الزبيدي، الشامي، الحمصي، ثم الأندلسي، الإشبيلي، صاحب التصانيف. سمع سعيد بن فحلون، وقاسم بن أصبغ، وأبا علي القالي. وأخذ العربية عن القالي، وعن أبي عبد الله الرياحي. روى عنه ولده أبو الوليد محمد بن محمد، وإبراهيم بن محمد الأفليلي، وولده الآخر أبو القاسم أحمد الأديب قاضي إشبيلية. طلب المستنصر بالله صاحب الأندلس أبا بكر الزبيدي من =

محمد بن شراحيل أبو زكريا، البلنسي، له كتاب في توجيه حديث الموطأ.

وإدريس بن عبيد الله بن إدريس بن عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن خالد، كان حافظاً زاهداً.

وعيسى بن العلاء أبو الأصبغ التدمري، من أهل الفتيا بمحله.

ومحمد بن عيسى بن حُسين بن أبي أسعد بن سيد الدار.

وعبد الله بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن جعفر أبو محمد الأصيلي[1]، / [١٣٦/ب] انتهت إليه الرئاسة ببلده.

= إشبيلية إلى قرطبة للاستفادة منه، فأدب جماعة، واختصر كتاب «العين» وألَّف «الواضح» في العربية، وهو مؤدب المؤيد بالله هشام.

توفي في جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وثلاثمائة، وله ثلاث وستون سنة. وعاش ولده أبو الوليد إلى سنة نيف وأربعين وأربعمائة فكان آخر من حدث عن والده. قال ابن خلكان: كان أبو بكر أوحد عصره في علم النحو، وحفظ اللغة، وكان أخبر أهل زمانه بالإعراب، والمعاني، والنوادر إلى علم السير والأخبار، لم يكن في الأندلس في فنه مثله في زمانه، وله كتب تدل على علمه، منها كتاب «طبقات النحاة واللغويين». وله في الرد على ابن مَسرَّة، وأشياء مفيدة، وله نظم بديع.

انظر ترجمته في تاريخ علماء الأندلس (٢/ ٨٩)، يتيمة الدهر (٢/ ٧٠)، جذوة المقتبس (٤٦)، الأنساب (٦/ ٢٤٩)، بغية الملتمس (٦٦/ ٦٧)، معجم الأدباء (٨/ ١٧٩)، إنباه الرواة (٣/ ١٠٨)، المحمدون من الشعراء (٧٣)، المغرب في حلي المغرب (١/ ٢٥٠)، وفيات الأعيان (٤/ ٣٧٢)، العبر (٣/ ١٢)، تلخيص ابن مكتوم (٢٠٢)، الوافي بالوفيات (٢/ ٣٥١)، مرآة الجنان (٢/ ٤٠٩)، البلغة في تاريخ أئمة اللغة (٢١٨)، بغية الوعاة (١/ ٨٤)، شذرات الذهب (٤/ ٩٤).

(١) قال الذهبي في ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٦/ ٥٦٠): الإمام شيخ المالكية عالم الأندلس، أبو محمد عبد الله بن إبراهيم، الأصيلي. نشأ بأصيلا من بلاد العدوة، وتفقه بقرطبة. سمع من ابن المشاط، وابن سليم القاضي، ووهب بن مسرة، لقيه بوادي الحجارة، وأبا الطاهر الذهلي، وابن حيويه، وأبا إسحاق بن شعبان، وعدة بمصر، وكتب بمكة عن أبي زيد الفقيه «صحيح البخاري». ولحق أبا بكر الآجري، وأخذ ببغداد عن أبي بكر الشافعي، وابن الصواف والقاضي الأبهري. وله كتاب «الدلائل» في اختلاف مالك وأبي حنيفة والشافعي. قال القاضي عياض: قال الدارقطني حدثني أبو محمد الأصيلي ولم أر مثله.

قال عياض: كان من حفاظ مذهب مالك، ومن العالمين بالحديث وعلله ورجاله، يرى أن إتيان أدبار النساء على الكراهة، وينكر الغلو في الكرامات، ويثبت منها ما صح. ولي قضاء سرقسطة قال: وكان نظير ابن زيد بالقيروان، وعلى طريقته وهديه، وفيه زعارة، حمل الناس عنه. توفي في ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة، وشيعه أمم. ومن مصادر ترجمته: تاريخ علماء الأندلس (١/ ٢٤٩)، طبقات الشيرازي (١٦٤)، جذوة المقتبس (٢٥٧)، ترتيب المدارك (٤/ ٦٤٢)، بغية الملتمس (٣٤٠)، معجم البلدان (١/ ٢١٢)، تذكرة الحفاظ (٣/ ١٠٢٤)، العبر (٣/ ٥٣)، الديباج المذهب (١/ ٤٣٣)، وفيات ابن قنفذ (٢٢٣)، طبقات الحفاظ (٤٠٥)، شذرات الذهب (٣/ ١٤٠)، شجرة النور الزكية (١/ ١٠٠).

وأصبغ بن الفرج بن الفارس الطائي، أبو القاسم أحد أكابر المفتين بقرطبة.

وعبد الرحمٰن بن محمد بن يحيى بن صاعد أبو المطرف، سمع الحريري، وابن جهضم، وابن رشيق، وقدم للشورى.

والقاضي أمية بن أحمد بن حمزة، ولي الشرطة والأحكام، وأفتى.

ومحمد بن أحمد بن محمد بن قادم بن زيد القرطبي، سمع من قاسم بن أصبغ، وابن حمدان، والصواف، وغيرهم ببغداد.

وأحمد بن محمد بن عبد الله بن هانيء العِطار، عرف بابن اللباب، أبو عمر، سمع قاسم بن أصبغ.

ومحمد بن وادع بن محمد القرطبي، سمع القاضي المرواني بالمدينة، والخزاعي بمكة.

وأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن أبي زَمَنين[١]، المري، سمع من وهب بن مسرة، وابن المَشّاط، وابن عيسى، وابن فحلون، وابن حزم.

وأبي عمر محمد بن يحيى بن سعيد بن الحريري الطليطلي.

وأبي موسى بن أبي الحزم بن جوهر المرساني.

وأبي بكر محمد بن وهب التجيبي الخصار المعروف بابن القبري القرطبي، أخذ عن ثابت، وابن قطن، وأحمد بن هلال، والباجي، وصحب أبا محمد بن أبي زيد.

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٨٨): الإمام القدوة الزاهد، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد بن أبي زمنين، المري، الأندلسي، الإلبيري، شيخ قرطبة. قرأ ببجانة على سعيد بن فحلون مختصر ابن عبد الحكم. وسمع من محمد بن معاوية الأموي، ومحمد بن المطرف، وأحمد بن الشامة، ووهب بن مسرة. وتفقه بإسحاق الطليطلي. وتفنن واستبحر من العلم، وصنف في الزهد والرقائق، وقال الشعر الرائق. وكان صاحب جد وإخلاص، ومجانبة للأمراء، روى عنه أبو عمرو الداني، وأبو عمر بن الحَذّاء، وجماعة. ولد في سنة أربع وعشرين وثلاثمائة وتوفي في ربيع الآخر سنة تسع وتسعين وثلاثمائة. اختصر «المدونة»، وله «منتخب الأحكام»، مشهور، وكتاب «الوثائق»، و«مختصر تفسير ابن سلام»، وكتاب «أصول السنة» وأشياء كثيرة.

وكان من حملة الحُجة. وزَمَنِين: بفتح الميم ثم كسر النون. ومن مصادر ترجمته: جذوة المقتبس (٥٦)، ترتيب المدارك (٤/ ٦٧٢)، بغية الملتمس (٨٧)، تذكرة الحفاظ (٣/ ١٠٢٩)، العبر (٣/ ٧١)، الوافي بالوفيات (٣/ ٣٢١)، الديباج المذهب (٢/ ٢٣)، طبقات المفسرين للسيوطي (٣٤)، طبقات المفسرين للداوودي (٢/ ١٦١)، شذرات الذهب (٣/ ١٥٦)، شجرة النور الزكية (١/ ١٠١).

وأبي عثمان بن سعيد بن محسن، تقلَّد الشورى بقرطبة.

وأبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الحضري المعروف بابن الشرقي، من الأئمة في الرواية، ولي الصلاة والخطبة بجامع قرطبة، وسمع ابن حزم وأبي مطرف.

وأحمد بن عبد الرحمٰن بن إبراهيم الكلاعي أبو عمرو، سمع من أبي عيسى، ومسلمة بن محمد.

وأحمد بن سعيد بن محمد بن بشير بن الحصار[1]، القرطبي، أبو العباس، أبو العاصي، أبو المطرف.

وأحمد بن عبد الله بن الحسن[2]، أبو عمر، القرطبي.

سمع قاسم بن أصبغ وغيره.

ووهب بن محمد بن محمود بن إسماعيل بن عبد الله بن يحيى[3] الأموي أبو الحزم، سمع من قاسم بن أصبغ، ووهب بن مسرة وغيرهما، وكان من أهل الرأي والشورى.

وأبو المطرف عبد الرحمٰن الرعيني بن مشاط القرطبي، ولي الشورى.

---

(١) قال صاحب جذوة المقتبس (١/ ٦٠(ت١٩٨): من أهل قرطبة، يكنى أبا العباس. سمع من قاسم بن أصبغ، وابن أبي دليم، والحبيب بن أحمد العلم، ومسلمة بن القاسم، وخالد بن سعد، وغير واحد من نظرائهم. وكان كثير السماع مشهوراً بطلب الحديث، وكان يعقد الشروط، ويفتي، وسمع الناس منه كثيراً، ولم يكن بالضباط لما كتب. وتوفي رحمه الله يوم الأحد لتسع بقين من شعبان سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة. ودفن يوم الاثنين صلاة العصر في مقبرة بني العباس، وهو ابن ست وسبعين سنة، وكان أعور.

(٢) قال الحميدي أيضاً في المصدر والموضع السابق في (ت:١٩٩): من أهل قرطبة، يكنى أبا عمر سمع من قاسم بن أصبغ وغيره، واستقضى بكورة ريّة من أول ولاية أمير المؤمنين المؤيد بالله إلى أن توفى. وكان مشاوراً، وبلغني أنه كُتب عنه. وتوفي ليلة الخميس لأحد عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة، ودفن بمقبرة قريش غداة يوم الجمعة ضحاً. وصلى عليه القاضي أحمد بن عبد الله بن ذكوان.

(٣) قال صاحب الجذوة فيها في (٣/ ١٦٦/ ت١٥٢٢): من أهل قرطبة، يكنى أبا الحزم. سمع من قاسم بن أصبغ، ووهب بن مسرة وغيره، وكان حافظاً للرأي شاوره محمد بن إسحاق بن السليم أيامه على القضاء، ولما ولي محمد بن يبقى ترك مشاورته. وكان شيخاً صالحاً كثير الصلاة، مواظباً للمسجد الجامع، يجتمع إليه ويستفتى، وقد حدث.
توفي رحمه الله يوم الثلاثاء لاحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة، ودفن يوم الأربعاء لصلاة العصر في مقبرة الزبض. وصلى عليه عبد العزيز بن أحمد بن جهور، وكان أوصى إليه.

وأحمد بن علي بن أحمد المقرىء أبو العباس الباغلي، قال ابن حيان: كان رباني في علوم الإسلام، لم يخلف بعده أحد يقربه في علوم القرآن.

وعبد الرحمٰن بن أحمد بن سعيد البكري، المعروف بابن محجب.

وأبي عبد الله الحسن بن حي بن عبد الملك بن حي التجيبي، سمع الآجري، وتقدم للشورى.

وعبد الله بن عبد الرحمٰن بن عبد الله الترحالي.

وأبي عبد الله محمد الصابوني.

وأبو محمد بن بركة، من أهل الشورى.

وعيسى بن العلاء التدمري.

وأبي عبد الله محمد بن القاسم بن الجالطي بن الفراء، ولي الصلاة والخطبة بقرطبة.

[١٣٧/أ] ويوسف بن محمد بن عمر بن يوسف، سمع من / [قاسم بن][1] أصبغ، ومحمد بن أبي دُليم، وابن الأحمر.

وأبي عمر أحمد بن عبد الله الباجي[2]، أبو محمد الإشبيلي.

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط، أثبته من جذوة المقتبس (٣/ ٢٠٨/ ت١٦٣٩)، وقال في ترجمته: يوسف بن محمد بن عمر بن يوسف بن عمروس. من أهل استجة، يكنى أبا عمر. سمع من القاسم بن أصبغ كثيراً، ومن محمد بن عبد الله بن أبي دُليم، ومحمد بن معاوية وغيرهم. وكان حافظاً للمسائل رأساً في الفتوى بموضعه، وكان له حظ من التهجد بالقرآن. وقد حدث وسمع منه غير واحد، وكُتب عنه. وأجاز لي جميع روايته، وقال لي: ولدت في رجب سنة عشرين وثلاثمائة. وتوفي باستجة يوم الأربعاء لخمس بقين من جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة.

(٢) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٧/ ٧٤): الإمام الحافظ المحقق، أبو عمر أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن شريعة اللخمي الإشبيلي، عرف بابن الباجي. سمع من والده جميع ما عنده من ذلك «مصنف» ابن أبي شيبة بروايته عن القبري عن بقي بن مخلد عنه.

قال الخولاني: كان أبو عمر عارفاً بالحديث ووجوهه، إماماً مشهوراً، لم تر عيني مثله في المحدثين، وقاراً وسمتاً، رحل بابنه محمد، ولقي شيوخاً جلة، وولي أبو عمر قضاء إشبيلية مدة يسيرة، وأخذنا عنه كثيراً. توفي فشهدت جنازته في محفل عظيم في الحرم سنة ست وتسعين وثلاثمائة، وله أربع وستون سنة.

وقال ابن عبد البر: كان يحفظ «غريبي الحديث» لأبي عبيد، وابن قتيبة. وشوور في الأحكام، وله ثمان عشرة سنة، وجمع أبوه علوم الأرض، ولم يحتج إلى أحد، ورحل بآخره، ولقي أبا بكر المهندس وطائفة، وكان فقيه عصره، وإمام زمانه، لم أر بالأندلس مثله، كَمَّلْت عليه «مُصَنَّف» ابن أبي شيبة، وكان إماماً في الأصول والفروع.

وسعيد بن عبد الملك الجذامي الإشبيلي، أبو عثمان بن الملاح.

وسعيد بن موسى بن نصر[١] الغساني، لقي الأبهري.

وأبي محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمٰن بن أسد[٢] الجهني الطليطلي، سمع ابن الورد، وأبي السكن.

وأبي عبد الله محمد بن عيسى المزتلي الطليطلي، رجل ذا الشجاعة، والعلم، والعفة.

وأبي حفص عمر بن عبادل الرعيني.

وأحمد بن عبد الله بن محمد بن عروس الموروري الحضراي، ولي الوزارة.

ومحمد بن يعيش بن منذر الأسدي، قلده على عهده.

وأبي الحزم خلف بن عيسى بن سعيد الخيرقي أبي درهم الوشقي الفقيه.

وأبي عبد الله محمد بن عمر المعروف بابن الفخار[٣]، الحافظ، إمام المالكية بقرطبة.

= من مصادر ترجمته: جذوة المقتبس (١٢٨)، ترتيب المدارك (٤/ ٦٨٤)، الأنساب (٢/ ١٨)، الصلة (١/ ١١)، بغية الملتمس (١٧٢)، اللباب (١/ ١٠٣)، المشتبه (٢/ ٦٢٨)، تاريخ الإسلام (٤/ ١٠٠)، تذكرة الحفاظ (٣/ ١٠٥٨)، العبر (٣/ ٦٠)، الديباج المذهب (١/ ٣٣٤)، طبقات الحفاظ (٤١٤)، شذرات الذهب (٣/ ١٤٧).

(١) كذا في المخطوط: نصر، وفي جذوة المقتبس (١/ ١٧٦/ت٥٣٣): «مهص» وعلق عليها المحقق بقوله: كذا بالأصل.
وقال الحميدي في ترجمته: من أهل إلبيرة من قرية فرخشبيط من قرى الإشات يُكنى أبا عثمان. رحل إلى المشرق، ودخل بغداد، فسمع بها من أبي بكر الأبهري شرح المختصر، وغير ذلك، وسمع من جماعة هناك، وانصرف إلى الأندلس، فخرج تُطيلة، فلم يزل مقيماً بها للرباط إلى أن توفي. وكان فقيهاً عالماً زاهداً ورعاً يصوم الدهر، وكان ينتقل في سكناه بين تطيلة، وبلغى، وكان كثير الجهاد ولم يحدث، قتل بمعترك الماشة قرب مدينة بلغى يوم الخميس لعشر بقين من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة.

(٢) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٧/ ٨٣): الإمام العلامة، عالم الأندلس، أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمٰن بن أسد الجهني الطليطلي، المالكي، البزاز. ولد سنة عشر وثلاثمائة. سمع من قاسم بن أصبغ وعدة، وارتحل فسمع من أبي محمد بن الورد، وأبي علي بن السكن بمصر، ومن أحمد بن محمد بن أبي الموت. وكان من أوعية العلم، رأساً في اللغة، فقيهاً محرراً، عالماً بالحديث كبير القدر. أكثر عنه أبو عمر بن عبد البر، وأبو المطرف بن فطيس، والخولاني، وأبو عمر بن الحذاء، وأبو مصعب بن أبي الوليد الفرضي، وكان ذا ورع واتقان، وتلاوة في المصحف. مات في سنة خمس وتسعين وثلاثمائة في آخر السنة.
من مصادر ترجمته: تاريخ علماء الأندلس (٢٤٨)، جذوة المقتبس (٢٥١)، ترتيب المدارك (٤/ ٦٨٧)، بغية الملتمس (٣٣١)، تاريخ الإسلام (٤/ ٩٨).

(٣) قال الذهبي في ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٧/ ٣٧٢): الإمام، العلامة، الحافظ، شيخ

وأبي بكر عبد الرحمٰن بن أحمد بن محمد التجيبي، بن حربيل القرطبي، سمع مطرفاً، وابن الأحمر، وابن السليم، وابن جابر، وأبي المطرف.

وعبد الرحمٰن بن هارون المعروف بابن القنازعي، سمع من بشر، وأبي القوطية وتفقه بابن المكْوي والأصيلي.

وأحمد بن يحيى بن أحكم العامل أبي اللباب القرطبي، قاضي طليطلة.

وأبي سعيد عمر بن عبد ربه المعافري القرطبي، مختصر الدلائل.

وأبي محمد بن الشاق.

وعبد الله بن سعيد بن محمد القرطبي، شيخ المفتين في وقته.

= الإسلام، عالم الأندلس، أبو عبد الله محمد بن عمر بن يوسف بن الفخار، القرطبي، المالكي. ولد سنة نيف وأربعين وثلاثمائة. حدث عن أبي عيسى الليثي، وأبي محمد الباجي، وأبي جعفر بن عون الله، وطبقتهم، وحج وسمع بمصر من طائفة، وجاور بالمدينة. وقد تفقه بأبي محمد الأصيلي، وأبي عمر بن المكْوي. وكان رأساً في الفقه، مقدماً في الزهد، موصوفاً بالحفظ، مفرط الذكاء، عارفاً بالإجماع والاختلاف، عديم النظير، يحفظ «المدونة» سرداً، و«النوادر» لأبي محمد بن أبي زيد.

أريد على الرُسليّة إلى أمراء البربر، فأبى وقال: بي جفاء، وأخاف أن أوذى، فقال الوزير: ورجل صالح يخاف الموت! فقال: إن أخفه فقد خافه أنبياء الله، هذا موسى قد حكى الله عنه: ﴿فررت منكم لما خفتكم﴾ [الشعراء: ٢١]. قال ابن حيان: توفي الفقيه الحافظ المشاور المستبحر الرواية، البعيد الأثر، طول الهجرة في طلب العلم، الناسك المتقشف، أبو عبد الله بن الفخار بمدينة بلنسية في عاشر ربيع الأول سنة تسعة عشر وأربعمائة فكان الحفل في جنازته عظيماً، وعاين الناس فيها آية من طيور شبه الخُطاف وما هي بها تخللت الجمع رافة فوق النعش جانحة إليه مُشِفَّة إليه لم تفارق نعشه إلى أن وري فتفرقت وتحدث الناس بذلك وقتاً، مكث مدة ببلنسية مطاعاً عظيم القدر عند السلطان والعامة، وكان ذا منزلة عظيمة في الفقه والنسك، صاحب أنباء بديعة.

قال جُماهر بن عبد الرحمٰن: صلى علىٰ ابن الفخار الشيخ خليل التاجر، ورفرفت عليه الطير إلى أن تمت مواراته. وكذا ذكر الحسن بن محمد القُبسي من خبر الطيور، وزاد: كان عمره نحو الثمانين، وكان يقال: إنه مجاب الدعوة، واختبرت دعوته في أشياء. وقال أبو عمرو الداني مات في سابع ربيع الأول سنة أربعمائة وتسعة عشر عن ستة وسبعين سنة، وهو آخر الفقهاء الحفاظ الراسخين العالمين بالكتاب والسنة بالأندلس رحمه الله.

وقال القاضي عياض: كان أحفظ الناس وأحضرهم علماً، وأسرعهم جواباً، وأوقفهم على اختلاف الفقهاء، وترجيح المذاهب، حافظاً للأثر مائلاً إلى الحجة والنظر. فرّ عن قرطبة إذ نذرت البربر دمه عند غلبتهم على قرطبة. قلت: سميه الحافظ أبو عبد الله بن الفخار المالكي مات سنة تسعين وخمسمائة.

من مصادر ترجمته: ترتيب المدارك (٤/ ٧٢٤)، الصلة (٢/ ٥١٠)، العبر (٣/ ١٣٢)، دول الإسلام (١/ ٢٤٩)، الوافي بالوفيات (٤/ ٢٤٥)، الديباج المذهب (٢/ ٢٣٥)، النجوم الزاهرة (٤/ ٢٦٨)، نفح الطيب (٢/ ٦٠)، شذرات الذهب (١٣/ ٢١٣)، شجرة النور الزكية (١/ ١١٢).

وأبي محمد عبد الله بن يحيى بن دحون أحد جلة شيوخ المفتين بقرطبة.

وأبي محمد حماد بن عمار الزاهد.

وأبي القاسم يحيى بن محمد بن يحيى بن نهيل القرطبي، آخر من حمل عن [قاسم بن][1] أصبغ.

وأبي عبد الله محمد بن يحيى بن محمد بن الحذاء، سمع من دلهم، والأنطاكي، وغيرهما، وألَّف شرحاً على الموطأ.

وأبي عامر أحمد بن عفيف القرطبي، سمع من أبي زرفا، وابن السليم، والقاضي أبو المطرف بن الحصار.

وأبي عبد الله محمد بن علي بن هشام بن عبد الرؤوف الأنصاري، الحمودي، حاكم قرطبة.

والليث بن حُريش أبو الوليد المفتي.

وأبي محمد مكي بن أبي طالب[2]، نزيل قرطبة، إمام القراءات في وقته.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٩) في ترجمته: العلامة المقرىء أبو محمد مكي بن أبي طالب حمُّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني، ثم القرطبي، صاحب التصانيف. ولد بالقيروان سنة خمس وخمسين وثلاثمائة. وأخذ عن ابن أبي زيد، وأبي الحسن القابسي. وقرأ بمصر على أبي عدي ابن الإمام، وأبي الطيب بن غلبون، وولده طاهر. وسمع من محمد بن علي الأذفُوي، وأحمد بن فراس المكي، وعدة. وكان من أوعية العلم مع الدين والسكينة والفهم، ارتحل مرتين الأولي في سنة ست وسبعين.
قال صاحبه أبو عمر أحمد بن مهدي المقرىء: أخبرني مكي أنه سافر إلى مصر وله ثلاث عشرة سنة، واشتغل، ثم رحل سنة ست وسبعين، وأنه جاور ثلاثة أعوام، ودخل الأندلس في سنة ثلاث وتسعين، قرأ بجامع قرطبة، وعظم اسمه وبعد صيته. قال ابن بشكوال: قلده أبو الحزم جهور خطابة قرطبة بعد يونس بن عبد الله، وقد ناب عن يونس. قال: وله ثمانون مصنفاً، وكان [illegible] متديناً مشهوراً بإجابة الدعوة، دعا على رجل كان يؤذيه ويسخر به إذا خطب، فزمن [illegible] في المحرم سنة سبع وثلاثين وأربعمائة. قلت: تلا عليه خلق منهم عبد الله بن سهل ومحمد بن أحمد بن مُطرف. وروى عنه بالإجازة أبو محمد بن عتاب.
ومن مصادر ترجمته: جذوة المقتبس (٣٥١)، ترتيب المدارك (٤/ ٧٣٧)، نزهة الألباء (٣٤٧)، الصلة (٢/ ٦٣١)، بغية الملتمس (٤٦٩)، معجم الأدباء (١٩/ ١٦٧)، إنباه الرواة (٣/ ٣١٣)، وفيات الأعيان (٥/ ٢٧٤)، معالم الإيمان (٣/ ٢١٣)، العبر (٣/ ١٨٧)، دول الإسلام (١/ ٢٥٨)، معرفة القراء الكبار (١/ ٣١٦)، تلخيص ابن مكتوم (٢٥١)، عيون التواريخ (١٢/ ٢١٧)، الوافي بالوفيات (١٦/ ٦٨)، مرآة الجنان (٣/ ٥٧)، الديباج المذهب (٢/ ٣٤٢)، غاية النهاية (٢/ ٣٠٩)، طبقات ابن قاضي شهبة (٢٥٧)، النجوم الزاهرة (٥/ ٤١)، بغية الوعاة (٢/ ٢٩٨)، مفتاح السعادة (١/ ٤١٩)، شذرات الذهب (٣/ ٢٦٠).

وأبي أيوب سليمان بن ربيع[(١)] الكهلي.

وقاضي القضاة أبي الوليد يونس بن عبد الله بن الصفار.

وأبي المطرف عبد الرحمٰن بن سعيد بن جريج، من أهل الشورى.

وأبي القاسم بن مختار.

وأبي محمد مروان بن عبد الملك بن الأصبغ.

وابنه عبد المهيمن.

وأبي عمر أحمد بن إبراهيم بن أبي سفيان الغافقي.

وعبد الرحمٰن بن أحمد بن نصر بن خالد أبو المطرف، من أهل الشورى بقرطبة.

وأبي القاسم خلف بن البنا الأمي.

وحمام بن أحمد بن عبد الله بن حمام.

[١٣٧/ب] وخلف بن / مروان الصخري.

وأبي محمد بن عبيد القرطبي.

وعبد الله بن عبيد الله بن الوليد المعطي من بيوتات الشرف والعلم بقرطبة.

وأحمد بن عمر بن عبد الله بن منصور الحضري المعروف بابن خفيف.

وأحمد بن محمد بن عبد الله أبو عمر، الطلمنكي.

والقاضي أبو الوليد إسماعيل بن عباد الراسبي.

وأبي بكر زهر الأيادي.

وأبي الوليد بن مغفل.

وهاشم بن يحيى بن حجاج، قال أبي الحذاء: ما رأيت أتم ورعاً منه.

وأبي القاسم المهلب بن أحمد بن أبي صفرة[(٢)] التميمي.

وأبي محمد بن إباج الأموي، جاور بمكة بضعاً وثلاثين سنة، وسمع الشجري وابن فراس وغيرهما.

---

(١) قال الحميدي في جذوة المقتبس (١/ ١٨٧/ ت ٥٦١): من أهل قرمونة. كان معتنياً بالعلم، مفتياً في موضعه، ذكره ابن خالد.

(٢) قال الحميدي في جذوة المقتبس (٣/ ٣٥٢/ ت٨٢٧): المهلب بن أحمد بن سيد بن أبي صفرة، أبو القاسم، التميمي. فقيه، محدث، سمع أبا محمد يحيى بن علي بن محمد الحضرمي، المصري، وعبد الوهاب بن الحسن بن منير، وغيرهم. وله كلام في شرح الموطأ، وفي كتاب الجامع لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري. مات بالأندلس بعد العشرين وأربعمائة.

وأبي العباس أحمد بن أيوب أبي الربيع، من أهل البيرة، وسكن في قرطبة، ومن شيوخه ابن أبي زمنين، وأبو الحسن القابسي.

وأبي بكر يعيش بن محمد بن يعيش بن منذر الأسدي الطليطلي.

وأبي عمرو صغرد بن داود بن دلقات، لقي ابن عابدل وغيره.

وأبي عمر أحمد بن حسين القاضي.

وأبي بكر عبد الله القرشي التميمي القرطبي.

وأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله الباجي الإشبيلي.

وخلف بن سعيد بن أحمد بن محمد الأزجي.

وأبي بكر محمد بن مغيرة بن عبد الملك بن مغيرة بن معاوية الإشبيلي.

وأبي بكر محمد ابن قاضي القضاة أبا العباس بن ذكوان.

وأبي المطرف عبد الرحمٰن بن مختار القرطبي.

وأبي الحسن مختار بن عبد الرحمٰن القرطبي.

وأبي عمر بن عبد الرحمٰن الفرداجي.

والقاضي الشهير أبي الوليد الباجي[1] صاحب التمهيد والاستذكار وغير ذلك.

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٨/ ٥٣٥): الإمام، العلامة، الحافظ، ذو الفنون، القاضي أبو الوليد: سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي، الأندلسي، القرطبي، الباجي، الذهبي. صاحب التصانيف، أصله من مدينة بطليوس، فتحول جده إلى باجة بليدة بقرب إشبيلية فنسب إليها، وما هو من باجة المدينة التي بإفريقية التي ينسب إليها الحافظ أبو محمد عبد الله بن محمد بن علي الباجي، وابنه الحافظ الأوحد أبو عمر أحمد بن عبد الله بن الباجي، وهما من علماء الأندلس أيضاً. ولد أبو الوليد في سنة ثلاث وأربعمائة، وأخذ عن يونس بن مغيث، ومكي بن أبي طالب، ومحمد بن إسماعيل، وأبي بكر محمد بن الحسن بن عبد الوارث. وارتحل سنة ست وعشرين، فحج، ولو مدّها إلى العراق، وأصبهان، لأدرك إسناداً عالياً، ولكنه جاور ثلاثة أعوام ملازماً للحافظ أبي ذرّ، فكان يسافر معه إلى السّراة ويخدمه، فأكثر عنه. وأخذ علم الحديث والفقه والكلام.

ثم ارتحل إلى دمشق فسمع من أبي القاسم عبد الرحمٰن بن الطُّبيز، والحسن بن السمسار، والحسن بن محمد بن جُميع، ومحمد بن عوف المزني، ورجع إلى الأندلس بعد ثلاثة عشر سنة بعلم غزير حَصَّلَهُ مع الفقر والتقنع باليسير. حدث عنه: أبو عمر بن عبد البر، وأبو محمد بن حزم، وأبو بكر الخطيب، وعلي بن عبد الله الصقلي، وأبو عبد الله الحميدي، وخلق سواهم. وتفقه به أئمة واشتهر اسمه، وصنف التصانيف.

قال القاضي عياض: آجر أبو الوليد نفسه ببغداد لحراسة درب، وكان لما رجع إلى الأندلس يضرب ورق الذهب للغزل، ويعقد الوثائق، قال لي أصحابه: كان يخرج إلينا للإقراء، وفي يده أثر المطرقة

وأبي عبد الله بن عتاب الفقيه المشهور.

والقاضي أبي زيد بن الحشار.

وأبي عيسى يحيى بن عبد الله الليثي(١)، سمع ابن عم أبيه، وابن لبابة، وأسلم ابن عبد العزيز.

ومحمد بن عبدون بن محمد بن فهد، روى عن أبي وضاح وجده.

وهذه نبذة يسيرة عن من كان على عهد أخذ البيعة لهشام في حياة أبيه، ثم نفذها وهو إذ ذاك صبي صغير بإجماع من المؤرخين، وأكثرهم من أهل قرطبة، وبعض أعلام ممن شايع الوفادة بعهد بلده، وكلهم من أصحاب إمام دار الهجرة، مالك بن أنس رضي الله عنه، ذكرهم أبو الفضيل بن عياض في مداركه، واستوفى أوصافهم، وجلبنا ذكرهم ليجد فيهم إثرة من باشر مثل ما باشروه، إن احتاج إلى ذلك واختاره وأراده.

كما عددنا جملة من بُويع قبل الاحتلام ليتأسى بها من جنح إلى مثل ذلك.

مع أن ذكر هؤلاء الفضلاء في هذا المحل بما أشار به الأمر بتغييره، أنجزه الله تعالى بعز طاعته وتولى توفيقه بفضله، ولقد رجح الظن باستبصارهم في صحة هذه

= إلى أن فشا علمه وهيبت الدنيا به، وعظم جاهه وأُجزلتْ صِلاتُه، حتى مات عن مال وافر، وكان يستعمله الأعيان في ترسلهم، ويقبل جوائزهم، ولي القضاء بمواضع من الأندلس، وصنف كتاب «المنتقى» في الفقه، وكتاب «المعاني في شرح الموطأ» فجاء في عشرين مجلداً عديم النظير. قال: وقد صنف كتاباً كبيراً جامعاً بلغ فيه الغاية سماه «الاستيفاء»، وله كتاب «الإيماء» في الفقه خمس مجلدات، وكتاب «السراج» في الخلاف لم يتم، و«مختصر المختصر» في «مسائل المدونة»، وله كتاب في اختلاف المواطآت، وكتاب في الجرح والتعديل، وكتاب «التشديد إلى معرفة التوحيد»، وكتاب «الإشارة» في أصول الفقه، وكتاب «إحكام الفصول أحكام الأصول»، وكتاب «الحدود» وكتاب «شرح المنهاج» وكتاب «سُنن الصالحين وسنن العابدين» وكتاب «سبل المهتدين» وكتاب «فِرق الفقهاء» وكتاب «التفسير» لم يتمه، وكتاب «سنن المنهاج وترتيب الحجاج»...

قال أبو علي بن سُكَّرة: مات أبو الوليد بالمرية في تاسع عشر رجب سنة أربع وسبعين وأربعمائة، فعمره إحدى وسبعون سنة سوى أشهر، فإن مولده في ذي الحجة من سنة ثلاث وأربعمائة. ومن مصادر ترجمته: الإكمال (١/ ٤٦٨)، قلائد العميان (٢١٥)، ترتيب المدارك الصلة (١/ ٢٠٠)، بغية الملتمس (٣٠٢)، معجم الأدباء (١١/ ٢٤٦)، اللباب (١/ ١٠٣)، المغرب (١/ ٤٠٤)، وفيات الأعيان (٢/ ٤٠٨)، دول الإسلام (٢/ ٦)، العبر (٣/ ٢٨١)، فوات الوفيات (٢/ ٦٤)، شذرات الذهب (٣/ ٣٤٤) وغير ذلك كثير جداً.

(١) قال الحميدي في جذوة المقتبس (٣/ ٣٧٦/ ت٨٩٦): يحيى بن عبد الله بن أبي عيسى، أبو عيسى، روى عن عم والده عبيد الله يحيى بن يحيى بن كثير، وعن أبي عبد الله محمد بن عمران بن لبابة، روى أبو الحزم خلف بن عيسى القاضي وغيره.

البيعة ما كان من انعقاد الفتيا في قضية عبد الملك بن منذر صاحب الرد من خدام الخلافة وطائفة من أصحابه[١].

وقد ذكر عنهم الشروع في خلع هشام، وعقد البيعة لعبد الرحمٰن بن عبد الله بن / الناصر لما أجروه مجرى المحاربين وجعلوا لهشام خليفتهم التخيير فيه بما تقرر [١٣٨/أ] ذلك في توصيفه.

فاستقر الأمر لهشام يكنفه الحاجب المنصور، وأسعد أهل الأندلس فولوا أشهرهم بأساً، وأبعدهم في حُسن الذكر الحازم العازم، العظيم السياسة، الشديد الصلابة، القوي، الثبت الموقف، معود الإقبال، ومبلغ الآمال، الذي صحبته ألطاف الله الخفية في الأزمات، وأظهر له النصر العزيز في نحو سبع وخمسين من الغزوات، ولم تفارقه السعادة حالتي المحيا والممات. وكان هو وبنوه ستراً على هشام ورعيته، فلما زال لم تستر لهم عورة، ولا عدمت ثورة، ولا فقدت للكروب ولا للحروب فورة، فأنهبت كل يد ما ملكت، وفتنت الرعايا، وهلكت، وانشقت العصا، وضرب، وضرب طاغية الروم، فمن أطاع وجه من عصا، وصار كمعلم الصبيان في المكاتب إذ قعدوا فوق المراتب، يعرض الخرج ويَصُوب الفرج، ويكلف الصعب، وينشىء الرعب، وينفذ الهول، ويصمت القول، ويسمع الوعيد المسموع، ويطلق الجموع، ويضم الأقطار بكلتي يديه، فلا من يدفعه ولا من يعترض عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولما كان هشام مندرجاً في طي كافله الحاجب المنصور رحمه الله بحيث لا ينسب إليه تدبير، ولا يرجع إليه من الأمور قليل ولا كثير، إذ كان في نفسه مراحل تركيبه مُضعفاً مهيناً مشغولاً بالنزهات ولعب الصبيان والبنات، وفي الكبر بمجالسة النساء، ومحادثة الأنامة، يحرص بزعمه على اكتساب البركات، والآلات المنسوبات، فكم ألفى بخزائنه من ألواح منسوبة إلى سفينة نوح ومن قرون منسوبة إلى كبش إسحاق[٢]، وحوافر منسوبة إلى حمار عزير، ومن خفاف منسوبة إلى ناقة صالح، لم يسترب في تعددها، ولا فكر في مقدار ما يحتاجه الحيوان منها، إلى مطلبات منسوبة لعباد، وأواني وضوء متوارثة عن زهاد، بذل في ذلك من الأموال ما يزن أضعاف أوزانها، وهي مجتلبة من المجان والمعاطب، ملتقاة من أيدي المخابث.

---

(١) جاء بهامش المخطوط تعليق على هذه الفقرة هذا نصه: ذكر قضية عياض في آخر كتاب «الشفا».

(٢) من المعلوم لدى الخاصة والعامة وأهل التحقيق من أهل العلم أن الذبيح كان إسماعيل، والكبش فدى به إسماعيل عليه السلام، والقول بغير ذلك هو قول النصارى.

وجب أن تلم بأحوال الدولة منسوبة إلى المنصور ملك الأندلس، وأكثر العدوة على الحقيقة، ما لسالك من الحرم على أقوم الطريقة.

أيام المنصور محمد بن أبي عامر(١)

هو محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر محمد بن الوليد بن اليزيد بن عبد الملك العامري.

دخل جده عبد الملك مع طارق بن زياد مولى موسى بن نصير، ونزل بالجزيرة، فساد أهلها، وخدم منهم محمد / أبو عامر بن الوليد، وابنه عامر في دول الأموية. [١٣٨/ب]

وكان أبو الحاجب المنصور من أهل الفضل والانقباض، حج وقفل إلى المغرب فتوطن بأطرابلس المغرب ونشأ محمد ابنه ظاهر النجابة مرحاً مخولاً في الفضل والنباهة تتفرس فيه مخائل الرئاسة. ولا يزال يخبر بذلك من نفسه حسبما هو مشهور.

ثم اتصل بالحكم وولي أعمالاً من قضاء وإمامة نقله عن طوريهما نظره إلى طور الخدمة، والمباشرة، والانتظام في أصحاب السلطان.

ومما ينقل عنه من تدبيره قوله: وقد نقل عن نمط الفقهاء، والقضاة، إلى

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٠): الملك المنصور، حاجب الممالك الأندلسية أبو عامر محمد بن عبد الله بن أبي عامر محمد بن الوليد القحطاني المعافري القرطبي القائم بأعباء دولة الخليفة المرواني المؤيد بالله هشام بن الحكم أمير الأندلس. فإن هذا المؤيد استخلف ابن تسع سنين، وردت مقاليد الأمور إلى الحاجب هذا. فعمد إلى خزائن كتب الحكم، فأبرز ما فيها ثم أفرد ما فيها من كتب الفلسفة فأحرقها بمشهد من العلماء وطمر كثيراً منها وكانت كثيرة إلى الغاية، فعله تقبيحاً لرأي المستنصر الحكم. وكان بطلاً شجاعاً جازماً سائساً، غزاء عالماً، جم المحاسن كثير الفتوحات، عالي الهمة عديم النظير. دام في المملكة نيفاً وعشرين سنة، ودانت له الجزيرة، وأمنت به، وقد وزر له جماعة، وكان المؤيد معه، صورة بلا معنى، بل كان محجوباً لا يجتمع به أمير ولا كبير، بل كان أبو عامر يدخل عليه قصره ثم يخرج فيقول: رسم أمير المؤمنين بكذا وكذا، فلا يخالفه أحد، وإذا كان بعد سنة أو أكثر أركبه فرساً وجعل عليه برنساً، وحوله جواريه راكبات، فلا يعرفه أحد.

وقد غزا أبو عامر في مدته نيفاً وخمسين غزوة وكثر السبي حتى بيعت بنتُ عظيم ذات حسن بعشرين دينار، ولقد جمع من غبار غزواته ما عملت منه لبنة، وأُلحدت على خَدِّه أو ذُرَّ على كفنه. توفي بأقصى الثغور بالبطن سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة. وكان جواداً ممدحاً معطاء، وتملك بعده ابنه أبو مروان بن عبد الملك. ومن مصادر ترجمته: جذوة المقتبس (٧٨)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (٥٦)، بغية الملتمس (١٠٥)، يتيمة الدهر (٢/ ٦٢)، الحلة السيراء (١/ ٢٦٨)، تكملة الصلة (١/ ٤٣٧)، المغرب (١/ ١٩٩)، البيان المغرب (٢/ ٣٠١)، تاريخ الإسلام (٤/ ٩٣)، شذرات الذهب (٣/ ١٤٣).

خواص الدولة، ووجوه الخدمة: قد قطعت الزنار، ونبذت الرهبانية.

وترشح إلى وكالة ولي العهد هشام لسنة تسع وخمسين وثلاثمائة.

ثم أضاف الحكم له الخزانة، ثم قدمه على خطة المواريث، ثم استقضاه على كور إشبيلية، ثم رقاه إلى الشرطة الوسطى، ثم قدمه إلى الأمانات بالعدوة، ثم أضاف إليه النظر في الحشم آخر أيامه.

وتنفق للسيدة أم هشام بما استهواها به من الخدمة والإتحاف والمهاداة بلغ في ذلك ما لا يهتدي إليه من قصور الفضة، وصحب لذلك خواص العساكر، واصطنع أهل الخصوصية، فما من يوم إلاّ ويرتقي منزلة أو يستزيد أمره.

ولما توفي الخليفة، تقلد حجابة هشام بعده، جعفر بن عثمان المصحفي، وأنهض في اليوم بعينه أبو عامر للوزارة، وتعين بسبب الدالة على السيدة أم هشام رسولاً فيما بين ولدها وبين الحاجب المذكور، فتأكدت المداخلة ولم يكن إلاّ أن شاع خبر مهلك الحكم، فانتقض الطاغية، وشاع كَلَبُه على البلاد، فاضطرب الأمر واستغاث أهل الثغور، وكبر الأمر على جعفر، وندب الوزراء للذب عن الثغور. فقصروا عن ذلك وانقبضوا منه، وأشار بعضهم بإزالة الجسر المتخذ على وادي أنّة بين العدو وجمهور البلاد.

فأنف لذلك محمد بن أبي عامر وانتدب للقيام بالجهاد وتبرع به، وكفى السلطان ما أهمه، وشرع في الحركة، واختار الرجال والعُدة.

وخرج أول رجب سنة ست وستين وثلاثمائة فنازل حصن الخامة من عمل جليقية وحاصره، وفتح ربضة، وقفل غانماً إلى قرطبة عن خمسين يوماً.

فعظم السرور والتيمن بحركته، وبلي الجند من سعة درعه وكرم لقائه وحُسن عشرته وبذخ يديه ما أحسبوه له واغتبطوا به من أجله.

ولما وشجت قرونه، ناصب جعفراً، وابتز عِزَّه، فما زال يدفعه عن مرتبة ويستأثر بها دونه إلى أن أسقطه سقطة لم يستقلها عمره.

واستظهر محمد على المصحفي بسبب نظام الصقالبة المستأمرين بما جاء / [١/١٣٩] حجاب القصر.

وكانوا ينيفون على الألف فيهم من الأكابر المتسمين بالحلفاء زهاء عشرين، يجدون دنيا الملوك العظام، يتقدم الجماعة ما بين وجود ورفيع، وهؤلاء طوائف الخدم، والفحول.

وكان غرض رؤساء الصقالبة العدول عن تولية هشام إلى من يضطلع بالأمر من القرابة، ولهم الحُكم في ذلك. وجرت معهم فيه محاورة ألقت في نفس الحاجب

المصحفي، فجاء ابن أبي عامر من باب هواه في حسم دائهم، فألفاه شديد الانحطاط في ذلك الشغب.

فأُشير على جملة من معتمديهم المنافسين لغلبتهم بالرفع على أكابرهم، وإعلان السكون بهم.

فلما اتصل ذلك يد جعفر المصحفي، وارى هشام والسيدة أمه بدسيس المنصور أن إصلاح بواطنهم آكد في السياسة، برفع حكم ذينك الكبيرين عنهم، فصدر الأمر به، وضاق ذرعهما عن حمله نعرة وتعززاً، وعرّضا بالانصراف عن القصر، فكانت حاجة في النفوس قضيت، فأسعفا بالانصراف عن القصر إلى دورهما بالمدينة، ولهما أتباع وصنائع يطوقون الحاجب المصحفي الموحدة.

ثم عرض على جمهورهم المستبقين بالقصر، اختيارهم من يرجعون إليه.

وقد تقدم لهم في ذلك بتدبير وإطماع كثيراً.

فاختاروا كنف ابن أبي عامر، فحصل له بهم جناح كثيف مباشر للقصر شديد النفور عن جهة صده.

ثم سما في المظاهر عليه إلى أن أجلى من ذلك بمظاهرة كبير مماليك الحاكم غالب ذي السفن صاحب الثغر عليه، وسيف الدولة الحكمية، والناصرية، وأنف عزتها وقد كانت بينه وبين الحاجب جعفر وحشة جُرتها الحساد وإن ألقمتها الكواشح.

فتمكن المنصور وعلت يده، وصح بالملك إفراده، وعليه اشتماله، ويغالب، وشيعه استظهاره وضبط المدينة والقصر بابن عمه وثقاته ضبطاً أنس به من سلف من الكفلة وأولي السياسة.

ثم غزا غزوته الثانية، واجتمع بطهره غالب وأظهر من موافقته، والسعي في مرضاته ما استخلص به ضميره، وملكْ به قياده.

ولما تمّ له الغرض من نكب جعفر المصحفي وإسخاط جهة السلطان عليه:

غرس صنائعه ورجاله عوضاً عن صنائع جعفر وشيعته.

وقدم أولياءه لمراتب الوزارة.

ومن رمى إلى الغرض البعيد من ضبط السلطان والحجر عليه، والاستبداد، وامتثال رسم المتغلبين على ملوك الشرق، وسما إلى ما سمت الملوك إليه، من الاختصاص بقصد ينزله وبلد يسكنه خوفاً مما تجره عليه الحيل / والدخول إلى قصر [١٣٩/ب] السلطان. فابتنى مدينة الزاهرة وانتقل إليها واتخذ فيها الدواوين للأعمال، والحجر للغلمان، والسقائف للحُراس، والقصور للوزراء والخاصة، والاصطبلات للطير

والكراع. وعمل داخلها الأسراء الواسعة، والخزائن الوثيقة.

وانتقل إليها ورتب فيها مقاعد للوزراء وسقائف للعمال.

وكتب: بأن تجلب إليها وظائف الجبايات والأموال وعطل قصر الخلافة وسد بابه، ونصب رسم الشرطة تلقاءه، وأدار عليه السور الحريز الوثيق.

وأشاع: أن السلطان فوّض إليه النظر في أمر الملك وتحلى بعبادة ربه، وبث ذلك في الرعية وأثبته في النفوس مع قوة ضبطه وسرعة بطشه.

فنافسه غالب لما رآه يطوي الدولة طيّاً، وينشئها خلقاً جديداً منسوباً إليه، معروفاً باصطناعه، فأضمر له الخديعة ورجا منه الإزاحة، وصانعه ومال في هواه، ودعا في إحدى غزواته فدخل بظاهر مدينته المدعوة بأنتنيسة من الثغر إلى وليمة أعدها له.

فلما صعد القلعة في خفّ من أصحابه، وانفرد به، شرع في كتافه، ثم كرّ عليه بسيفه فأصابه بجراح أبانت بعض أنامله وأثرت كثيراً بصدغه.

وفر أمامه، فأقحم فرسه مهراً من أعلى القلعة، أصاب عند استقراره شاباط بناء نشب فيه وتخلص جريحاً ونجا من ورطة كانت النجاة فيها غريبة من آيات سعده. وامتنع غالب بمعقله.

وبادر المنصور إلى مدينة سالم حيث دار غالب وولده، فسبق إليها الخبر. وقد ضمن له كاتب غالب أمرها، فاستولى عليها وعلى جميع ما كان له من مال ونعمة. ففرّق ذلك كله في الجيش ولم يستأثر به، وقفل إلى الحضرة.

واستجاش غالب من ملوك النصارى ومن يرى رأيه في الخلاف على ابن أبي عامر.

وكان غالب فارس الأندلس غير مدافع، وأبا الأبطال، ومخرج الفرسان والشجعان، ودَمِنَ الحروب، وبرز المنصور، فأتيح لغالب الظفر عليه، وكسر جيشه، وأسر وزراءه، وتكرر ذلك حتى ظن بابن عامر الإدبار وهو مع ذلك جاد في مطالبة غالب ومعاودته إلى أن أراه الله ما لم يكن يحتسب من آيات نصره.

قال المؤرخ:

نهض ابن أبي عامر في جموعه إلى مدينة سالم للقاء غالب، وقد كان غرسيه دخل إلى بلده عند حركة ابن أبي عامر ليذبه عنه، وهو يرى أنه قاصد لعادته. فلما استبان قصده لغالب، خرج إليه في جمع من النصارى فيهم طائفة من البشكنش مع ملكهم رُذمير بن شانجة المعروف بذي قربة.

فنهض إليهم ابن أبي عامر إلى أنتنيسة حتى نزل حصن شنت بجنت بالقرب من

[١/١٤٠] أنتنيسة / يوم الخميس لليلتين خلتا من المحرم سنة إحدى وسبعين، وبرز له غالب، وقد عبأ ابن أبي عامر عسكره أحسن تعبئة، فصار في القلب مع الغلمان وطائف جند الحضرة، وصير الوزير جعفر بن علي مع البرابر في الميمنة، وأبا الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبي، وحسن بن أحمد بن عبد الودود في معظم أهل الثغر في الميسرة، فأطلقوا عقال الحرب يوم الخميس المذكور، ويوم الجمعة، وتواعدوا الصدق في غدة يوم السبت، وافترقوا على محاجزة، فأصبحوا يوم السبت لأربع خلون من المحرم على تعبئة، ووقعت الحرب في الحرب في كل جهة، فاشتدت وحمت، وأقبل غالب لما اتسع الضحى من هذا اليوم على فرس له مذكور عليه درعه السابعة وعلى رأسه طشتان مُذَهّب مرتفع السمك قد عصبه بعصابة حمراء أعلم بها، وشد جبينه بعصابة أخرى، وقد قارب في وقته الثمانين سنة، حوله كبكبة من أنجاد غلمانه وحماة رجاله، فوقف ينظر في صفوف ابن أبي عامر مصعداً أو مصوباً.

ثم قال لمن حوله: من هؤلاء؟ وأشار إلى الميمنة.

فقيل: ابن الأندلسي والبرابرة.

فقال: الأعداد وراء القابلة، شدوا عليهم.

فحمل عليهم حملة فصنهم فيها، ولم يثبت قدامه أحد، وانتقضت لجولتهم الميمنة، ثم عاد غالب إلى موقفه، فقال: من أولئك؟ وأشار إلى الميسرة.

فقيل له: معن، وصنيعتك ابن عبد الودود مع الجيران والصحابة.

فقال: الغادرون أولو القطيعة خصوهم على اسم الله بحملة.

وشد عليهم ثانية كالليث الغادي، فانقلعوا قدامه طائرين لا يلوي أحد منهم على صاحبه.

فاستوى له فض الجهتين في وقت، والقلب قائم مكانه يضبطه ابن أبي عامر بهيبته وهو على أحد من الحفر يصفق بيده دَهِشاً ورجلاه تضطربان في ركابه، ينظر من أين يحاط به، ولا يشك حتفه، وهو مع ذلك يُطمئن نفسه، ويردّ حائل مكروهنا فيسكن جأشه.

وخرج غالب من غمرة الشدة الأخرى، فخرج إلى موقفه، وقال لأصحابه: كيف ترون عاقبة الصبر؟ قد كسرنا جناحي القوم، وبقي القلب، وإنما ثبت من فيه حياءً من هذا الأحدب الملعون ـ يعني ابن أبي عامر ـ وليسوا ذو حفاظ، فما أخلفهم بإسلامه، فاصدقوا الحملة عسى الله أن يمكن منهم بغدرته. ثم رفع يديه وقال: اللهم إن كنت تعلم أن بقائي أصلح للمسلمين، وأعود عليهم من بقاء محمد بن أبي عامر فأهلكه وانصرني عليه، وإن كان هو أولى بذلك مني فانصره عليّ وأرحني. فكانت مُباهلة حكم الله فيها لمحمد.

وحمل غالب على أثر ذلك، وخوض القلب، وخلط بين صفوفه / وثار نقع [١٤٠/ب] عظيم فقد فيه شخصه، وسقط في مجال الخيل، فحار فرسه، وأصيب محمولاً بجنبه. . . [(١)] من السلاح في جسده، فقيل: إن قربوس سرجه الأندلسي، وكان شديد الإسراف عزيز، بجانبه قوة ضربة أصابت جانب قلبه.

وقالوا غير ذلك، ولم يتيقنوا حتفه إلى اليوم، وقد زعم قوم من غلمانه أنه عدل عنهم في أول هذه الصدمة عقب المباهلة فانحازوا عنه ورأوا أنه يريد الحاجة، وتوارى عنهم في وهداه فأبطأ، فاستشرفوا حاله فوجدوه ساقطاً ميتاً لا حراك به وفرسه يعلك اللجام بقربه فسقط في أيديهم، وانحرفوا على وجوههم.

وسبق إلى ابن أبي عامر رجل من أصحاب غالب، فبشره بهلاكه، فلم يكد يصدقه حتى جيء بيده وفيها خاتمه، ثم جيء برأسه، فخرّ ساجداً، وكبّر المسلمون تكبيراً خلع قلوب المشركين، وولوا على وجوههم طائرين بكل سبيل، ولم يكن لهم معرج على أنتنيسة.

وركب المسلمون أحفارهم فقتلوا منهم خلقاً عظيماً فيهم ذي قربة، ونجا غرسييه، ولم يكرر إلى بلاده، واستضاف ابن أبي عامر جيشه وبلاده وأمواله، ليعلم أن الله على كل شيء قدير.

فلما استوسق له الأمر، وتقررت له فوق المنابر الألقاب، وخضعت له الرقاب، أعمل الحيلة على جعفر بن علي، بأن نادمه ليلة، وانحط في هواه، وتنازل إلى ما لم يعتد منه، وسقاه، وأغرى السقاة به، ثم أرصد له في طريقه إلى منزله من ثار به وقتله.

ونادى بترات سالفة منسوبة إلى أيامه بإفريقية، ولم يغب ذلك عن أخيه فصرح به بما أوجب مكانه وإزعاجه عن الأندلس إلى المشرق.

وكرّ من بعد ذلك على ابن عم لنفسه ابن أبي عامر.

ولم يُبق يداً يحذر بطشها إلا شلها، ولا عيناً بريبة تنظرها إلا فقأها.

وفرغ عن أمر القصر سداً لا نبأ لها، واستطلاعاً مع الأنفاس لجريات حركاته، وإذكاء للعيون على من به، واستناداً بسقائفه إلى ثقاته، مع بر من به، وإيجاب حقه، وإنساء رزقه، والغيرة على حرمه، والصون لحشمه، وحفظ رسومه، ومواصلة تفقده ومطالعته، فلم تفقد الخاصة ولا العامة إلا الأعلام والأعمال، ثم نيابته شيئاً من وظائف ملوكهم وأئمتهم، بل غرفت الزيادة والتوسع والاطلاع بأمور الدين والدنيا.

---

(١) موضع النقط ثلاث كلمات مطموسة.

صرف سعيه إلى الجهاد وتمهيد البلاد، فأسهم بفرسان الهيجاء، وأبطال الكريهة وأعلام السمرة من فرسان العرب وزَنَاتَه الواردين على بابه في سبيل الحسائف، والدماء الواقعة بينهم وبين ناسهم فارتاش منهم بأجنحةٍ وافرة / . . .[1]/ [١٤٣/أ] وودعه وجعل يقبّل وجهه ولحيته.

قال: وأرسله نحو المدينة، فوطنا على بعد، ثم أرسل أخاه عبد الرحمٰن خلفه إلى جهة أخرى، وتحول من العرنين إلى الحجارية عند. . . فركبها ولا يكاد يملك أطرافه رجفاً ورعشاً وإنما ركبها توطيناً لمن حوله ممن ثبت مقامه، وكان إلى جنبه جُملة من جنائبه.

فقال لي: لا ترد عنها أبداً، فإنهم أولى بها من العدو.

وظل قائماً في جمعه يستغيث بالله وينشده عهده، والحرب تقوى، والأمر يصعب إلى أن اشتد له مع اشتداد الزلزال رأي كأن من أقوى أمنيات الفتح، وذلك أنه أمر برفع محلته عن الربوة التي أعجله العدو عن الظهور منها إلى الربوة التي كان قائماً عليها.

فصاح بمن حوله في إنفاذ الثقل، وأوعدهم على تأخيره، وجعل لهم على السير به إلى ذلك التل جعلاً وافراً، فوافوا به لوقتهم حملاً على الأعناق.

فلما عاين العدو شخصه سقط في أيديهم وعلموا أن بالمسلمين قوة ووراءهم مدد، فنكصوا عقب ذلك، واستمرت الهزيمة بهم، وركب المسلمون أكتافهم يقتلونهم كيف شاؤوا.

ووجدت الحبال بأيدي أكثرهم وقد أخذوها ليفرقوا أسرى المسلمين.

وغنم جميع ما في محلتهم من الكراع والسلاح والآنية، واتبعت الخيل منهزمتهم فراسخ فأصيب كثير من فرسانهم، ونصر الله المسلمين عليهم نصراً ما سمع بأعظم منه.

واستشهد في هذه الوقعة من صنوف المدونة وغيرهم أزيد من سبعمائة رجل وذلك يوم الاثنين لست بقين من شعبان سنة تسعين.

ولم يجم المنصور عن وجهته، بل أوغل في أرض قشتهبلة، فافتتحها يوم الفطر من هذه السنة.

وفصل منها إلى بليلونة، فأثّر هناك آثاراً عظيمة.

ولم يظهر إليه بالبلدين أحد.

---

(١) سقطت الورقة [١٤١/أ،ب]، الورقة [١٤٢/أ،ب].

ثم قفل إلى قرطبة فوصل إلى مائة وتسعة أيام.

وعتب المنصور على كافة جنده، فأظهر من نكوصهم، وأمر كاتبه على الرسائل عبد الملك بن إدريس بإنشاء كلام انتخبه القواد ليقرأوه على كافتهم منه.

فصل

وكثيراً ما فرط من قولكم إنكم تجهلون قتال المعاقل والحصون، وتشتاقون مُلاقاة الرجال الفحول، فحين جاءكم ذلك بالأمنية وقاتلكم بالشريطة أنكرتم ما عرفتم ونافرتم ما ألفتم حتى برزتم فراراً ليعافير من آساد الغيل، وأجفلتم إجفال الربال عن المقشصي، ولولا رجال منكم دحضوا عنكم العار، وحرروا رقابكم من الذل، لبرئت من جماعتكم وشملت بالموجدة كافتكم، وخرجت للإمام والأمة عن عهدتكم، ونصحت المسلمين في الاستبدال بكم، ولم أعدم من الله تعالى عاجل نصر، وحُسن /عُقبى، فلا بد أن ينصر دينه بمن شاء. [١٤٣/ب]

وفي ذلك يقول صاعد يهنىء بهذا الفتح، وهي من أفخر شعره:

جددت شكري للهوى المتجدد ... وعهدت عندك منه ما لم يُعهد

اليوم عاش الدين وابتدأ الهدى ... غضاً وعاد الملك عذب المورد

ووقفت في ثاني حنين وقفةً ... فرأيت صنع اللّه يؤخذ باليدِ

من فاته بدراً وأدرك عمره ... جرفيد فهو من الرعيل الأسعد

فوددت لم حتم القضاء بأنني ... في القوم أول طالع مستشهد

ما أستكين لروعة ومحمد وبنوه ... أنصار النبي محمد

عهدي به واللّه ينظر صبره ... والموت بين مصوب ومصعد

غطى عليه المشركون فلم يكن ... في القوم إلا صخرة في فَرْقَد

حتى تحصن بالملائكة التي ... حفته بين معفر ومردد

حملت بأيديهم عليك نشيجة ... كالسيل يحطم جَلْمَداً عن جلمد

ورأوك فارتدوا على أعقابهم ... مثل ارتداد تنفس المتنهد

وركبت فَلّهم بكلِ مهندِ ... يقضى به في الروع كل مهند

ما ناجزوك وفي الجوانح موضع ... لتصبر ومكانه لتجلد

طال الشقاء عليهم وتبرموا ... بالجيش في الذلّ المقيم المقعد

فتحالفوا لمُحنث وتجمعوا لمفرق ... وتألفوا لمبدد

ثم واصل المنصور الغزو بنفسه وولده، ورجاله، على شانجة ملك النصارى

حتى أذعن لائذاً بعفوه، واستأذنه في القدوم عليه بنفسه، فأذن له وسُرَّ بمجيئه سروراً ما سُرَّ قط مثله.

فتقدم في الاستعداد له واستحضار طبقات الأولياء.

فوصل لثلاث خلون من رجب سنة اثنتين وثمانين.

وأركب المنصور الجيوش والمطوعة لتلقيه في دخوله قصر الزاهرة.

فكان يومه أحد أيام الدنيا الشهيرة حتى بهت الذي كفر، ورأى من وفور المسلمين ونباهة أسلحتهم، وجمال زيهم، وكثرة عددهم، ما لم يكن ظاناً أن الدنيا تجمعه، ولا الأيام تحشده، ولا الخزائن تكنفه.

[١/١٤٤] ولقيه ولد المنصور عبد الرحمٰن ـ حفيده من بنته كما قدمنا ذكره ـ وقد / حف به وزراء السلطان، ووجوه القواد، وأكابر أهل الخدمة، والمماليك، في أحسن زي وأكمل تعبئة.

فلما وقعت عينه على الصبي ترجل وباس رجله فأمر بالركوب وأقبل معه إلى أبيه وهو بين صفي حديد حفاف الطرفين أميالاً، ثم إلى الدروع الشابرية والجواشي المذهبة، والأبطال قد لبسوا الشوق والسواعد، واستبغوا الحلي، وعلقوا الدرق، وخلفهم صفوف الرُّماة مشدود عليهم المناطق المذهبة.

والملك الرومي يقلب الطرف قد غشى قلبه ذعراً، إلى أن وصل إلى مجلس المنصور في الساعة السابعة من النهار، وقد قعد له أفخم قعود وأعلاه مرتبة، مكتنفاً سريره بالوزراء وأعاظم رجال الدولة، وامتد الوصفاء والصقالبة صفين من باب المجلس إلى باب القصر.

فحين وقعت عينه على المنصور بن أبي عامر أهوى إلى الأرض مقبلاً، يعيد ذلك مرات وهو يستدنيه حتى قبّل رجليه ويده.

وأمر فألقي له كرسي مُذهب قعد عليه، وأشار فخرج الناس، وخلا به، قاضياً وطره من عدله والعِلج يقابله بالاعتراف.

ثم خرج وتبعه بالخلع السلطانية، ومشت بين يديه المراكب والبدور، وما انفض المجلس إلا تحت جناح الليل.

ولما حصد ابن أبي عامر شوكة النصراني بقشتالة وليون وما إلى ذلك الصقع، صرف الوجه إلى غزو الفرنجة المتصلة بأرض إفرانسية، ورومة، وهي الأمة التي لا يطاق قتالها صبراً وسلاحاً وجفوة وكثرة فدوخها، ودخل برجلونة، وكان مما اتخذه لقتالهم القرامد التي تغشى بها السواعد من الهند، ليتلقى بها الفرسان سيوف الفرنج من فوق رؤوسها ووجوهها وتقتحم بها الشدائد مفرجة بها.

وإن أطلنا في أخبار ابن أبي عمر القول فلم نقف عند غاية منها، فقد أجمع المشيخة أنه نهض بجد لا كفاء له، وأصحب سعداً لا نحس يخالطه، وأعطى إقبالاً لا إدبار معه، قد وثق بذلك فلم يلتفت إلى غيره.

ولقد حذر يوماً من رجل ينبز بالربو بالربذ بالشؤم تعلق وقصت عليه أخبار من شؤمه، فقال المنصور: لا مرحباً بسعدى إن كان لا يعفى على شؤم هذا ومثله.

فزعموا أن حال ذلك الرجل استقلت بمعرفته إياه. وكان الناس يعجبون من نجح رأيه كلما ارتكب في الشورى مخالفة أو سك مضاضة، وكان رئيساً وقوراً إذا خلى كان أحسن الناس مجلساً، وأبرهم بمن يحضر منادماً ومؤانساً، وكان شديد القلق من التبسط عليه والواله لا يغفرها ولا يحلم عنها جريرة، ولم يكن / يبلغ في [١٤٤/ب] نقصان الهيئة وحفظ الطاعة أحداً من ولد ولا في خاصة، دعاه ذلك إلى قتل ولده عبد الله صبراً بالسيف بما هو معروف وحكاياته بهذا الكتاب شهيرة.

وكانت الجزالة والرجولة ثوبه الذي يخلقه إلى أن وصل إلى ربه، والحزم والحذر شعاره الذي لم يفارقه طول حياته، والنصب والسهر شأنه في يومه وليله لا يفضل لذة على لذة تدبيره، وحلاوة نهيه وأمره ينفذ الأمور والكأس تدور والجبال للطرب تمور.

زعموا أنه أكثر في ذلك ليلة على كاتبه الأخص عيسى بن سعيد، وكان أول كاتب له قبل ملكه، فكان ينبسط عليه فسأله خدمته وقديم صحبته، فلما باعد بينه وبين شهوته، وقطع به عن لذته قال: اللهم غُفْراً إما شراب ولذة، وإما خدمة ومشقة، فاذا عزت عليّ صلة النهار بالليل فاسكت المسمعة، ولتحضر الخريطة، ثم امر بما شئت نقم به على الحقيقة. فخلط الجد بالهزل مفسدة، وإنما نستجم بهذه الساعة الضيقة لقطع الأوقات الطويلة.

فضحك المنصور وقال: أضمرت يا عيسى، وليس منا في شيء ومن عدل بالأمر والنهي لذة، فقد انتفى من الذكورة، ثم توفر ببقية الليل على المنادمة.

وحدث فتاهُ شغله مُلازِمه، قال: غلب على الفجر عند مولاه، وقد اختلفت ما بينه وبين الخليفة، فكان يفر على الحرم، ويصعد إلى قبته المسماة بـ«لؤلؤة» وغيرها من مستشرفاته يرعى النجوم وينفرد بنفسه، ويكب على الفكرة والشمعة بين يديه، والدرج مُلقى على الدواة إلى جانبه، فإذا ثاب له رأي أثبته، ولا يزال كذلك إلى أن يدنو الفجر فيستلقي على مهاد يجده في كل وجهه من أماكن خلوته فلا يتحصل له على حقيقة مكان مرقده، ولا يزال قائماً على القدم حتى يُدنى منه سواكه ووضوءه، ويؤذنه المؤذن بالصلاة، فيقضيها، ويربط الدرج في منديل كمه ويرفع الستر عنه

فيدخل من رسمه البكور من الخاصة والوزراء والصحابة فيناظرهم فيما رسمه ليله ويأمر بتنفيذ ما شاء الله منه إلى أن يرتفع النهار ويجتمع الناس فيأخذ في النظر العام ويناولني الدرج فأقطعه صغاراً وأغرقه فيما ورد بحضرته حتى تخفى أجزاؤه.

ولقد قلت له: قد أفرط مولانا في السهر، وبدنك يحتاج إلى أكثر من هذا النوم، وهو يعلم ما يجرك عليه السهر من علة الغضب.

فقال: يا شعلة، حارس الدنيا لا ينام إذا نامت الرعية، ولو استوفيت نومي لما كان في دور هذا البلد عين نائمة ولو كنت من صاحب القصر - وأشار إلى ناحية الخليفة - على / مثل مسافة بسطة لأحرمت النوم، فكيف وإنما بيننا من أصبحه وأمساه [١/١٤٥] أنماره في بناء الثغور، وزيادة المسجد الجامع، والجباب لسقي الناس، وبنيان القناطر بنهري قرطبة واستجة، فآثار عظيمة ولو لم يكن من الآثار غير الزاهرة ذات القصور الفخمة، والمنتزهات المخترعة.

وكان من شدة حذره من الحادث الواقع بعد دولته، وتقية المكروه من جهة أهل بنت سلطانه، قد اتخذ رجلاً ثبتاً أميناً جعله عيناً على من بالمدينة من ولد الخلفاء، وأمر المروانيين مع ذلك بلزوم منازلهم في المدينة، وحظر عليهم الركوب والخروج رأساً إلا لضرورة، ووكل بهم ثقات من مشيخة الفتيان الحاكمين على دول متعاقبة يطالعون ما ينكرونه من أحوالهم، وأخذ بتقريب من حولهم إلاّ لمن يأذن فيه من غلام أو وكيل أو معلم أو طبيب، وحذرهم صحبة سواهم من الناس.

وألزمهم القصر في أمورهم والإقبال على ما يعنيهم.

وكان يأخذهم بالخروج معه إلى الغزوات حتى خشعوا واقتصروا على بيوتهم، وأهمتهم أنفسهم.

وكان له كاتب يدور في الدواوير يترصد ما يجري من قصة أو يحدث بين ولاتها من مناظرة، فيثبت ذلك، ويطالع به. وكان شأنه في الأخذ على المتكهنين والمنجمين ومن ينذر بذكر قاطع على الدولة أو اقتراب من المدة، فكان يمتعض لذلك ويذهب فيه بقطع الأعناق والألسنة بعد العقاب الأليم.

وكان أحرص الناس على التثمير والاعتمار والمشاحة للعمال. وعلى الجملة فكان نسيج وحده في صقعه، وقل أن يسمع بمثله في غيره.

قال بعض من تغنى بأخباره: كان آية من آيات الله فطرة ودهاء ومكر وسياسة، أنحى بالمصاحفة على الصقالبة حتى قتلهم. ثم عدا بجعفر بن الأندلسي على غالب حتى استراح منه.

ثم عدا بنفسه على جعفر حتى أهلكه، ثم انفرد بنفسه ينادي صروف الدهر: هل من مبارز؟.

فلما لم يجده حمل الدهر على حكمه فانقاد له وساعده واستقام له أمره منفرداً بسابقة لا يشاركه فيها غيره.

ومن أعجب أحواله أنه كان على بصيرة من أمره هانئاً بما دخرت له الأيام في حداثة سنه، فكان يتكلم في ذلك بين أصحابه ولداته، ويشير بما خبأ الله له من غيبه.

فحدث ابن أبي الغياض في كتابه قال:

أخبرنا الفقيه أبو محمد علي بن أحمد، قال: أخبرني محمد بن موسى بن عدرون قال: أخبرني فقال:

اجتمعنا يوماً في متنزه لنا بجهة الناعورة بقرطبة ومعنا ابن أبي عامر وهو في حداثته وابن عمه عمر ابن / عمه فلان، والكاب بن السمسار عزا ورجل يعرف بابن [١٤٥/ب] الحسن من جهة مالقة، وكانت معنا سفرة فيها طعام.

فقال المنصور من ذلك الكلام الذي يتكلم به: لا بد لي أن أملك الأندلس، وينفذ حكمي فيها، ونحن نضحك منه، ونهزأ به.

وقال: تمنوا عليّ.

فقال ابن عمه: نتمنى أن تتولى المدينة.

وقال ابن المارعزا: نتمنى أن نتولى السوق.

وقال ابن الحسن: نتمنى أن توليني القضاء بجهتي، فإني أحب التِّين حتى أتشفى من أكل التين.

قال موسى بن عدرون: وقال: تمنى أنت.

قال: فأسمعته كلاماً قبيحاً.

فلم يك إلا أن صار المُلك إليه، فولى ابن عمه المدينة، وبلغه أمله من ضرب الأبشار.

وولي ابن المارعزا السوق.

وكتب لابن الحسن بالقضاء عساه يشبع من التين.

قال: وأغرمني أنا مالاً عظيماً أجحفني وأفقرني لقبح ما كنت جئته به.

قلت: والشيء يذكر بالشيء، وقف عندي على هذه الحكاية الشيخ القاضي اليوم علي بن الحسن الملقب بجعسوس أطروفة الدنيا وأضحوكتها شكلاً وعلماً وخلقاً، فحسبها فرصة تغتنم، فضعف عقله وظهر له باشتراك اسمه مع ابن الحسن المذكور أن ينسخ من هذا الكتاب عدة نسخ، أنفق عليها ما تضفي عنه حاله الضعيفة. وجعل كلما فرغ من الكتاب باعه، وهداه، لا يقف في ذلك عند حد ولا غاية.

فقلت للكاتب ابن زمدك المولع بالعبث به، وحفظ نوادره: ما ترى ما يذهب إليه أبو الحسن بن الحسن من اقتصاره على نسخ هذا الكتاب والاشتغال به عن ضرورياته؟

فقال لي: إنه سمع الحديث: «تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم».

فقدّر جارياً على أقيسته الفقهية: أن كل مكثر لشيء ما فهو مأجور.

فقلت له: أجري الحديث بحضرته إذا جاء إلينا للطعام.

ففعل، فقال: يا سيدي هو ذكر جميل وفيه فخر للولد.

فقلت: سبحان الله، وعلى فرض أن يكتب بظهر كل منتسخ: عقد بأنك ابن الحسن، وأن هذا جدك، وأي فخر فيمن تبين أن سبب طلبه القضاء الذي يستعفي عنه أهل الفضل والورع هو حب التين والشبع من أرماطه وهي شهوة يتوصل إليها في ساحلكم ببيضة دجاجة، أو كسرة خبز، بل بغير ثمن، وهلا إذا ظهر له أن يذكر السبب؟

قال: لنجري الأحكام بالحق أو أن نستدعي الشهود، وننظر في الأجناس الضائعة، أو سكت وطلب القضاء فقط.

وأما جعل هذا الرطيب الدني ذريعة ووسيلة إلى الشبع من التين، فلا يقوم مدح صاحبه بالقضاء، وتعرفه بابن أبي عامر في وقت الخمول بمدينة النهم والخسية إنما كان الأمر يقرب لو قال المؤرخ:

رغب أهل مالقة في تقديمه، واستخار الخليفة الله فهداه إليه.

ولو أدركت هذا الرجل الذي ترغب في الخلاص إليه للقيته بطير العصير، وهو عندنا طائر معروف يأكل التين.

فقال: يا سيدي، ومتى ينظر أحد بنظرك أو يعطي هذه الأشياء ما تعطيها من اعتبارك ما ثَمّ اليوم أحد من العلماء يصل بفكره إلى مثل هذا.

فقال ابن زمرك: حضرني أبيات أخاطب بها سيدي الفقيه.

فقلت: افعل.

فأنشده هذه الأبيات وهو من المستظرف معناه:

أحافد عند التين يملأ بطنه	من التين والمسوى لهم من غير
لقد كنت قبل اليوم فيك محيراً	إلى أن هديت للفكر منه لليسر
فقد طبت من طهر العُصير نسبه	فخرت بها بين القضاة على الغير
فأنت إذاً من دون جدي نابت	كما تنبت الأشجار من رق الطير

وذهبنا في الدعابة على مذهب وحرد، وأراد أن يجيبه فارتج عليه.

والنوادر المتعلقة بذكر ابن الحسن هذا المتأخر غريبة جداً قد تضمنها كتاب يسمى بـ«خلع الزمن في التعريف بأحوال ابن الحسن»، مما دوّن للمولى السلطان المقدس أبي فارس عبد العزيز رحمه الله، لا شيء فوقه في الظرف والاستظراف يسلي الثكالى، ونستغفر الله تعالى.

رجع الحديث[1]

وكذلك كان المنصور على علم من مدته، فحدث ابن مروان عن أبيه عن أحمد بن سعيد بن حزم وزير ابن أبي عامر الأخص به، قال:

كنا معه يوماً بالزورق وهو مركب النزهة في النهر بين يدي قصر الزاهرة في نفر من خاصته، منهم أبو عمر أحمد بن محمد بن حُدير، ومحمد بن أبي عامر يصعد ببصره ويصوب في قصوره بالزاهرة[2]، ومصانعه المطلة، ومبانيه المشرفة، وقد قيدت الألحاظ حُسناً وبهجة، فقال محمد:

---

(١) أي عود على بدء، حيث انتقل من الحديث عن التاريخ وأخبار المنصور إلى تلك الطراقات والنكت الظراف للترويح عن القارىء.

(٢) هي في معجم البلدان لياقوت: «الزهراء»، ووصفها بما جاء في هذا الكتاب من حسن بناء وتقسيم النفقة أثلاثاً وجلب الجبايات والأرزاق إليها وجعلها مقراً للحكم، ثم ذكر في مدح الشعراء لحسنها نماذج من أشعارهم فقال: وقد أكثر أهل قرطبة في وصفها وعظم النفقة عليها، وقول الشعراء فيها، وصنفوا في ذلك التصانيف، وقال أبو الوليد بن زيدون يذكر الزهراء، ويتشوقها:

ألا هل إلى الزهراء أوبة نازح ... تقضت مبانيها مدامعه سفحا
مقاصر ملك أشرقت جنباتها ... فخلنا العشاء الجون أثناء هاجحا
يمثل قرطبها إلى الوهم جهرة ... فقبتها فالكوكب الرّحب فالسطحا
محل ارتياح يذكر الخلد طيبه ... إذا عزّ أن يصدى الفتى فيه أو يضحى
تعرضت من شدو القيان خلالها ... صدى فلوات قد أطار الكرى صبحا
أجل أن ليلى فوق شاطىء نيطة ... لأقصر من ليلى بآنة فالبطحاء

وقال أيضاً:

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقاً ... والأفق طلق ووجه الأرض راق
وللنسيم اعتلال في أصائله ... كأنما رق لي فاعتل إشفاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسم ... كما حللت عن اللبات أطواق
يوم كأيام لذات لنا انصرمت ... بتنا لها حين نام الدهر سراقا

وذكر زهراء أخرى فقال: والزهراء أيضاً موضع آخر في قول مصعب بن الطفيل القشيري:

نظرت بزهراء المغابر نظرة ... ليرفع أجمالاً بأكمة ألها
فلما رأى أن لا التفات وراءه ... بزهراء خلى عبرة العين جالها

واهاً لك يا زاهرة الحُسن، لقد جمل مرآكِ، وراق منظركِ فليت شعري من المدبر المشؤوم الذي يهدمك؟!

قال: فاستعظمنا ما كان منه وحسبنا أن النبيذ أعمل فيه.

وأفرط أبو عمر في استنكار ما جاء به حتى تحداه بالقول، وقال له: كأنك تسمع بهذا يا أبا عمر وهو عندي وعند سلفك عن صاحبكم الحكم كالحتم المنتظر، ولكن تتجاهل سيظهر عليها عدونا فيهدمها ويلقي حجارتها في هذا النهر.

فأخذنا في التعليل لهذه الآثار.

وقال: كان المنصور يعلم الذي يزول أمرهم على يديه وصفته بما اطلعه من تلك الآثار وجلب أحاديث اختصرناها.

[١٤٦/ب] وتوفي المنصور / رحمه الله منصرف غزوته إلى بلد برغومس، ثم أحب قشتالة بمدينة سالم التي بناها بوادي الحجاز من الثغر وشيدها وأقامها في نحر العدو، محمولاً إليها من بلد الحرب على الرؤوس عزيزاً على فراش التجلية وحجاب الملك والعمل المختوم بالجهاد ليلة سبع وعشرين من رمضان سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة[١].

ودفن بصحن قصرها، وقبره هناك.

أخبرني به بعض الطلبة ممن وجهته لتأكيد عقد الصلح مع صاحب قشتالة، فدخل مدينة سالم في محريقة، وقد أوصيته إلا أن رسومه من شعر منقوش، وتاريخ مكتوب وأمر منوه به مفقود.

---

(١) قال ابن الأثير في الكامل في أحداث تلك السنة: وفيها توفي أبو عامر محمد بن أبي عامر المعافري الملقب بالمنصور أمير الأندلس مع المؤيد هشام بن الحكم. وكان أصله من الجزيرة الخضراء من بيت مشهور بها، وقدم قرطبة طالباً للعلم، وكانت له همة، فتعلق بوالده المؤيد في حياة أبيه المستنصر، فلما ولي هشام كان صغيراً فتكفل المنصور لوالده القيام بأمره، وإخماد الفتنة الثائرة عليه، وإقرار الملك عليه فولاه أمره. وكان شهماً شجاعاً قوي النفس حسن التدبير، فاستمال العساكر وأحسن إليهم فقوي أمره وتلقب بالمنصور، وتابع الغزوات إلى الفرنج وغيرهم، وسكنت البلاد معه، فلما يضطرب منها شيء. وكان عالماً محباً للعلماء، يكثر مجالستهم، ويناظرهم. وقد أكثر العلماء ذكر مناقبه وصنفوا لها تصانيف كثيرة.

ولما مرض كان متوجهاً إلى الغزو، فلم يرجع ودخل بلاد العدو فنال منهم وعاد وهو مثقل، فتوفي بمدينة سالم. وكان قد جمع الغبار الذي وقع على درعه في غزواته، فكان شيئاً صالحاً، فأمر أن يجعل في كفنه تبركاً به. وكان حسن الاعتقاد والسيرة، عادلاً، وكانت أيامه أعياداً لنضارتها، وأمن الناس فيها رحمه الله، وله شعر جيد، وكانت أمه تميمة. ولما مات ولي بعده ابنه المظفر أبو مروان عبد الملك، فجرى مجرى أبيه.

وحدَّث مَن سمعه يوصي ابنه عبد الملك في مرضه الذي مات فيه، فقال له:

يا بني لست تجد أنصح لك ولا أشفق مني عليك، فلا تتعدين وصيتي فقد جودت لك رأسي وروِيتي على حين اجتماع من ذهني فاجعلها مثلاً بين عينيك، وقد وطئت لك مهاد الدولة وعزلت طبقات أوليائها وقايست لك بين دخل المملكة وخرجها، واستكثرت لك من أطعمتها وعددها، وخلفت لك جباية تزيد على ما يقويك بجيشك ونفقتك، فلا تطلق يدي الإنفاق، ولا تغض لظلمة العمال، فينحل أمرك سريعاً، فكل سرف إلى اختلال، فاقصد في أمرك جهدك واستلبث[1] فيما يرفع إليك أهل البطالة، والرعية قد استصفيت لك تقويمها وأعظم مناها إلى أن تأمن البادرة وتسكن إلى لين الجنبة.

وصاحب القصر[2] قد علمت مذهبه، وأنه لا يأتيك من قِبله شيء تكرهه، والإلفة ممن يتولاه ويلتمس الوثوب به فلا تنم عن هذه الطائفة جهدك، ولا ترفع عنها سوء الظن[3] والنميمة[4] وعاجل بها من خفته على أقل تهمة[5]، مع قيامك بحق صاحب القصر على أتم وجه، فليس لك ولأوليائك شيء يقيكم الحنث في يمين بيعته إلا ما تقيمه لوليها من هذه النفقة[6].

وأما الانفراد بالتدبير مع ما بلوته من جهله وعجزه فإني أرجو أني وإياك منه في سعة ما تمسكنا بالكتاب والسنَّة، والمال المخزون عند والدتك هو ذخيرة مملكتك فأقمه مقام الجارحة من جوارحك التي لا تبدلها إلا عند شدة تخاف منها على سائر جسدك[7].

---

(١) يريد: تريث فيما يرفع إليك الوشاة حتى لا تظلم أحداً من حاشيتك أو رعيتك.

(٢) يريد: هشام بن الحكم المؤيد بالله وأنه لا يتحرك إليه إلا أن يحركه من حوله ممن يرغبون في السلطان.

(٣) يريد أن ينبهه على أن يحذر ممن يظن به أن تكون له مصلحة في القضاء عليه أو اغتياله، هذا في أمر الملك، وفي الأمور العامة يجب على الإنسان أن يحذر ولا يُخوِّن حتى لا يتهم مسلم بالظن الذي هو أكذب الحديث، وبئس مطية الرجل زعموا.

(٤) يريد: التجسس على من يظن به هذا الأمر حتى يأمن جانبه، وأن يكون على بينة من أمره حتى لا يباغته بما يكره، ويقصد بالنميمة هنا أيضاً: النقمة أو عاجل بالانتقام.

(٥) هذا هو شأن كل حاكم إلاَّ من رحم الله، فمن أجل البقاء في سُدّة الحكم فهو يضحي بكل غال ورخيص بادئاً في ذلك ببنيه فهو يقتل بنيه إن ظن منهم ذلك، ويقتل الولد والده في عصورنا هذه فكم من حركة حدثت قلب فيها نظام الحكم من ولد على والده حتى في بلادنا العربية.

(٦) يريد: أنك عليك أن تعطي هذا الرجل حقه بما استوجبه عليك من يمين البيعة التي أخذها عليك في أن تقوم له بالأمر نيابة عنه على أن لا تحيد عن الحق والعدل وترعى في ذلك كله حق الله تعالى وما شرعه الإسلام، والإسلام في الواقع لا يقرّ من ذلك شيئاً إنما يفعل باسمه ما يهوى الملوك.

(٧) هذه النصيحة الخاصة بالمال المدخر عند والده المظفر إنما هو بمثابة الأموال السرية التي يحتفظ بها

وأخوك عبد الرحمٰن قد صيّرت له في حياتي ما أرجو أني قد خرجت له فيه عن حقه من ميراثي، وأخرجته من الثغر لئلا يجد العدو مسعى بينكما في خلاف وصيتي فيسرع ذلك في نقض أمري، ويجلب الفاقرة إلى دولتي، وقد كفيتك الخبرة فيه فاكفني الحيف منك عليه، وكذلك سائر أهله فيما صنعت بهم بحسب ما قدرت به خلاص من مال / الله الذي بيدك وخلافتك أحرى مما صرفته إليهم، فلا تضع جميعهم، والحظهم بعينيّ فإنك أبوهم بعدي، فخرج ذكورهم باستخدامك، والحِف بناتهم جناحك جبر الله جماعتهم وأحسن الخلافة عليهم. [١/١٤٧]

وإن انقادت لك الأمور بالحضرة فهذا وجه العمل، وإن اعتاصت[١] عليك فلا تلقين بيدك إلقاء الأمة، ولا تبطر[٢] بك ولا بأحجابك النعمة والسلامة فتنسوا آمالكم في بطون بني أمية وشيعهم بقرطبة، فإن قاومت من يوثب[٣] عليك منهم، فلا تذهل[٤] عن الحرم فيهم، وإن خفت الضعف فاقتبذ[٥] بخاصتك وغلمانك إلى بعض المعاقل التي حصنتها لك.

واحتقر غدك إن أنكرت يومك، وإياك أن تضع يدك في يدّ مرواني ما طاوعتك بنانك، فإني أعرف ذنبي إليهم[٦].

= الملوك في خزائن خاصة بعيدة عن دواوين الحكومة، وتسمى مصاريف سرية في عصرنا الحديث. ومنها ما لا يطلع عليه أحد كما يشير المنصور إلى ابنه بأن لا يُخرجها إلا في أشد الحالات، وضرب له بذلك مثلاً قوياً لا يحتاج معه إلى زيادة إيضاح حيث جعله محل السمع والبصر إذ لا يمكنه الاستغناء عنهم إلاّ في حالة التخيير بينهما وبين إتلاف حياته كلها، أي قتله، فهنا يكون أخف الضررين فهو يوصيه أن يحافظ عليه لتقلبات الزمن، وكذا على كل عاقل إن كان الله قد وسع عليه فيجب أن لا ينسى أن يفعل ببعض ماله ذلك ويخاف من حساب الله تعالى له من بعد الموت ما دام يدفع زكاته. بل لا بأس بذلك ولا شبهة فيه حيث وصف الله تعالى المال المدخر المتبقي بعد موت الميت بالصفة الطيبة فقال سبحانه وتعالى: ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين﴾ [البقرة: ١٨٠] فسمى الله ما ترك من المال «خيراً».

(١) أي لم تطعك وتلين لك فلا تسلم قيادك لخصمك بسهولة من أول الأمر.

(٢) أي لا تنسيك النعمة ولا تجعلك متكبراً غافلاً.

(٣) ثار بك أو قاومك منهم أحد أو خصم.

(٤) أي لا تغفل حقوق الحُرمة فيهم.

(٥) أي فتحصن ولذ بهؤلاء فإنهم أمان لك.

(٦) قلت: إن صحت هذه الوصية من المنصور لولده المظفر لهي أغلى من كل جواهر ويواقيت الدنيا فقد جمع له فيها كل سياسات الحكم ومعاملة الرعية وعلاقته بإخوته وأهل مملكته وقصره وخواصه وأصدقائه وأعوانه وأعدائه وكيفية الاحتراز منهم، وأعدائه القدامى وعدم الأمان لهم مهما ظهر منهم من الصفاء والود، فإنه أرجعه إلى المخادعة والمهادنة، فجمع له في هذه الوصية ما لم يستطع شراءه بمال الدنيا كلها.

قال: وسمعته يقول لغلمانه عند هذه الوصية:

تنبهوا لأميركم، واحفظوا نعمة الله عليكم في طاعته، عبد الملك أخيكم ومولاكم، ولا تغرنكم بوارق بني أمية ومواعد من يطلب منهم سيئاتكم، وقدروا ما في قلوبهم وقلوب شيعهم من الحقد عليكم فليس يرأسكم بعدي أشفق عليكم من ولدي[١].

وملاك أمركم أن تنسوا الأحقاد، وأن تكونوا كرجل واحد فإنه لا يطمع فيكم. وانصرف المظفر لشأنه وضبط سلطانه. وتخلف المنصور ينازع من أجله وانفراده بعمله، قد قطع الدهر به عن أمله فسبحان الحق الباقي لا إله إلا هو.

قلت:

ولم نطل القول فيما اختص بدولة هشام بن الحكم المؤيد بالله وكفالة المنصور بن أبي عامر إياه إلاَّ لكونه أشبه الأحوال بما نحن فيه من جهة اتفاق الخواص على مبايعة صبي لم يبلغ الحلم[٢] وفي قطر يقتدي الناس بأعلامه وأحكامه والتعويل في ذلك الرسم الإمامي على من يتولى وزارة التفويض وشأنها معروف إذا تعذر وجود جميع الشروط المعتبرة.

ووجب مراعاة حال المصلحة المقررة لا سيما ومن لهذه النيابة فقد عدم المطعن فيه عدالة وكفاية تمشت أمور المسلمين بذلك أحسن ما مشت فيما سلف من الأزمان.

وكونه عند من اقتصر عليه وأعطى صفقة يمينه فيه مما اقتضاه الاجتهاد الوقتي وغير ذلك من المناسبات.

---

(١) يحذرهم خيانة ابنه ويبين لهم أن عدوهم مهما أظهر لهم الحرص على مصالحه وبذل الخير لهم فإنما يخادعهم فهم للمنصور كالولد يشفق بهم كما يشفق بولده، وولده أشفق الناس عليهم بعده ولا يغرنكم تغرير المغررين من بني أمية وآل مروان.

(٢) في هذا القول عدم إنصاف حيث ذكر لنا المؤلف، رحمنا الله وإياه، كمّاً كبيراً من العلماء الذين كانوا أحياء أيام مبايعة هذا الصبي، ولكنه لم يذكر لنا موقف كل علم منهم أو قول كل إمام أو عالم منهم، بل سرد لنا أسماءهم دون ذكر شيء من موافقتهم على ذلك أو اعتراضهم عليه بما أوحى إلينا أن هؤلاء الأعلام كانوا موافقين تمام الموافقة على ذلك وهو أمر يخالف صريح ما يعرف عن الإسلام في شروط إمامة الإمام، والتي من أهمها بعد الإسلام البلوغ والعقل والتقوى وحسن التدبير، والعلم والعدالة... الخ. ولم يبين لنا أن من وافق هل كانت موافقته عن محض إرادته مبنية على أدلة اجتهد فيها دفعته على الموافقة على تلك البيعة أم أداها مقهوراً عليها خوف بطش سلطان أو فتنة تثار أو ردعاً لعدو غدّار. فالله أعلم ما هي الظروف التي دفعتهم للبيعة فلا نحملهم تبعة ما لا نعلم حقيقة، والله أعلم.

فلذلك مددنا القول فيه لكي يعتضد الشكل بشكله، ويأنس صاحب هذه الوظيفة الشريفة بذكر سِيَرِ مثله فيجتهد ليربى عليه في فضله وعدله، وينكب عما أنكر عليه من قبله فيحيد عن سُبْله بمقدار نُبله.

[١٤٧/ب] والله يجعلنا ممن قصد الخير في أمره كله / بقدرته وعونه وحوله.

وفي آخر الكتاب عند الوزان والكلام في الزمان والمكان، وفضل الدولة المرينية بالبرهان، وما يزيده من هذا الشأن بمشيئة الله.

دولة المظفر عبد الملك بن المنصور بن محمد بن أبي عامر[(١)]

وصار الأمر بعد محمد بن أبي عامر لولده عبد الملك الملقب بالمظفر سيف الدولة يوم الاثنين لثلاث خلون من شهر رمضان[(٢)] سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة.

وخاطب الأقطار بالمغرب والأندلس يعرف الناس بوفاة أبيه وبما تصير له من أمره فاستوثق له الأمر، ولم يخالفه أحد واجتمع الناس على حبه، وكان مع كلفه بالنبيذ واستغراقه فيه مراقباً لله مُحباً للصالحين يظهر العدل، ويحمي الشرع، وينصر المظلوم، ويوفي بالرعية، ويقمع عدو الدين، ويا ليت شعري إلى أين يذهب الناس بعد هذا؟! وما الذي يريدونه؟ وكان مما تقرب به إلى قلوب الناس إسقاط سدس الجباية عن جميع البلاد، وابتدأ من الحد الذي وقفَ فيه أبوه مرامياً بهمته العالية وآماله الشريفة.

قالوا: كان عبد الملك أسعد مولود ولد بالأندلس على نفسه وأبيه وغيرهما فجدد الألقاب واقتفى الرسوم، فلقد ذكر أن المنصور توفي عن ألقاب عديدة من ألقاب الطبقات من بابه من الفقهاء والعلماء، والكُتاب، والشعراء، والأطباء، والمنجمين، فلم يكونوا أوفر عدداً، ولا أنبأ أرزاقاً منهم في أيامه مع عدم التلبس بشيء من أمرهم، إذ كان مقتصراً على شأنه من التجند والعمل بالسلاح حفظاً للرسوم والتماساً لجميل الذكر وحرصاً على التزيد والشغوف على غيره.

وكان مثلاً في الحياء والشجاعة، إذ ما كان عند الحياء والحشمة بكراً عزيزة، وفي مواقف الكريهة أسداً ورداً لا يقوم له شيء إلاّ حطمه.

قال أبو مروان في الكتاب المتين، فقال يصف مدته:

انصب منه الإقبال والتأبية على دولته انصباباً ما عهد مثله في دولة، وسكن الناس منه على عفاف ونزاهة ونقي سريرة وتوقٍ في بعد همته اطمأنوا بها إلى جنبه في

(١) راجع ترجمته في: نفح الطيب (١/ ٤٢٣)، الكامل (٨/ ٢٥).
(٢) كذا جاء بالمخطوط، وجاء بهامش المخطوط تعليق بغير خط الناسخ وشبه قلمه: شوال.

السر والعلانية فباحوا بالنعم واستأثروا الكنوز وتناهوا في الأحوال والمكاسب، وتحاسدوا في اقتناء الأصول وانتداء القصور وغالوا في الفرش والأقنية، واستفرهوا[1] المراكب والغلمان، وغالوا في الجواري والفتيان، فسمت أثمان ذلك بتلك المدة، وبلغت الأندلس فيها الحد الذي فاق الكمال حتى تناهت تلك الدولة في احتشاد / النعم عندها، وارتفاع حوادث الغير عنها، نذراً للزمان قضاه ولبسوها بعزة [١٤٨/أ] في كنف ملك مُقتبل السعد ميمون الظاهر، غافل عن الأيام، مسرور بما تتنافس فيه رعيته من زخرف دنياها.

فاجتمع الناس على حبه ولم يدهنوا في طاعته، ورضي بالعافية منهم، وآتوه إياها، فصفا عيشه وانشرح قلبه وخلصه الله من الفتنة.

وقال في إطراء دينه:

كان في سر أموره عفيفاً متواضعاً على رفعة حالة، يبكي على ذنبه، يحب الصالحين ويمتري أدعيتهم.

وذكر لقاءه لولي الله على عهده أبي أيوب الفريسي نفع الله به، ثم قال:

وحكى الأستاذ أبو القاسم المغربي فقال: طرقه عبد الملك ليلاً وأحسسنا بذلك لقربنا من منزل الشيخ، فامتلأت المغيرة بخيل المظفر، وقصد باب الشيخ في خف من غلمانه، والقاضي أبو العباس بن ذكوان معه، فقرع الباب عليه وهو قائم يصلي فآذنته زوجته بمكانه - وكانت فاضلة -.

وقالت: يا أبا أيوب، أوجز في صلاتك، فهذا صاحب البلد واقف على بابك يبغي الدخول عليك، فانظر ما جناه عليك ابن. . .[2].

فانصرف وقال لها: يا هذه بلوى حلت تسترفع بالصبر، ائذني له وقانا الله فتنته، فدخل وكلمه فوعظه، ثم تناول كفه مصافحاً. فقال له: يا مظفر أن لك كفاً ناعمة رخصة فاتق الله عليها من نضج الجحيم. فأقبل عبد الملك على البكاء والنحيب، ثم دعا له ويده في يده.

فقال: بسطها الله في الجهاد، وأطالها بالصدقة، ما يبلغني عنك بنعمة الله عليك إلا ما يبشر وقد وجب عليّ نصحك، فاتق الله ربك فيمن استُرعيت أمرهم، وتذكر من بعد عنك وعجز عن قصدك فاكشف عن مظالمهم جهدك وتوقي سوء دعائهم ما استطعت، واحترس من بطانتك أشد من عدوك، فإنهم أقرب إلى ضرك

---

(١) أي استحسنوا المراكب الفارهة دون غيرها من الدواب إظهاراً للأبهة من كثرة النعيم وسعة العيش.

(٢) موضع النقط بياض في المخطوط قدره كلمة.

يزينون لك شهواتك لينالوا رضاك، ولا يغنون عنك من الله شيئاً، والله الله في الجهاد، فبه أعز الله أباك رحمة الله عليه، وعليك بإصلاح السبيل فهي أهم ما تُرك إليك، وتقوى الله أول وآخر ما أوصيك به، فاشعره قلبك فإنك تأتي إليه وحدك لا يغني عنك أحد شيئاً، في كلام نحو هذا.

وذكر أن المظفر أُرسل إليه بدرة من خمسمائة دينار وقال: إنها من أطيب تراثي، وأريد أن تضعها بمكان ينفع. فقال: ما أعلم إلاّ إمام المسجد هذا ليست له دار، فإن شاء أن يشتري بها داراً يوقفها على أئمة المسجد فنعما هي، وإلا فهو أعلم بصدقته.

فأمر عبد الملك بذلك الدار، وتعرف بهذا من يومئذ.

[١٤٨/ب] قال: / وكان مما سلك فيه عبد الملك مسلك والده من الأعمال الزكية نظره في السجون، وكشفه عمن طال سجنه وتعذر خلاصه، فيطلق من يؤمن إضراره بالمسلمين ويرجى سواهم.

قال: وكان عبد الملك لصحة عقده مع قلة عقله لا يحلف بالله البتة، ولا يحلف به تعظيماً لله، كتب عنه الكاتب يوماً يميناً من ذلك في وعيد، فلما مرَّ بسمعه أنكره، وأمر بمحو اليمين، وقال للكاتب: ومتى عهدتني خلافاً.

قلت: وقد ذكر الناس ذلك في مناقب أحمد بن حنبل رضي الله عنه.

وذكر أن عبد الملك كان أبر خلق الله بوالديه.

وحكى عنه في ذلك خُلقاً شريفاً ألحفه الله رضوانه.

وذكر حياءه وعفته فقال: كان لا يكاد يرفع طرفه إلى سائل ولا يعتذر حياءً ورقة، وكان أعف خلق الله إزاراً، وأسترهم لعورته، وأبعدهم عن جميع ما يتدنس به الملوك من وليه وعمر خُلوة.

وأجرأ شجاعته فقال: وهذه خلة كانت أغلب خلل المظفر عليه. فحكى عن الوزير حكم بن بدر أنه أجرى لمحمد بن علي بن محمد بن خزر المغراوي عظيم زناته مفتخراً به للعصبية الأندلسية بعد موته بزمان، فقال: لا تشك يا أبا العاص في أنه لم يكن في عسكره فارس يعدله البتة.

قال أبي حيان: وكان من أحسن الغرائز في الناس ما جمع الله فيه من الحياء والشجاعة، فلقد استحق وصف القائل:

فتى هو أحيى من فتاة حيية ... وأشجع من ليث بخفان خادر

ثم تكلم في سعده، ويمن سلطانه، وتملكه ورفاهيته، ومبانيه وآثاره، فجاء بمبدعات تحسد لها الأمم البالية والدول الخالية، فيا ما أحسن الذكر الجميل في

بطون الأوراق، والمحاسن تنشأ بالأندلس، ثم تطير إلى الشام والعراق.

وسبحان الذي يقول حكاية عن نبيه: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٤-٨٩].

وله في الروم وسبيل الجهاد آثار كريمة غزا سبع غزوات منها إلى برجلونة، وبلاد الفرنجة، ومنها إلى بلطونة، ومنها إلى غلسية، ومنها إلى غزوة الخريقة، ومنها غزوة قلونة، وآخرها التي مات قافلاً عنها.

وفي سنة أربع وتسعين تناهى ملكه، واحتكمت إليه ملوك النصارى فيما شجر بينهم، وما رُئي في أمر الجيوش أبسط يداً في الحركات الجهادية ولا أرغب معونة من المظفر، ولقد كان يفيض العطاء في المطوعة التي / تبحر البحر للجهاد معه من [١٤٩/أ] أرض العدوة، وحال البرابرة، وعهد في غزوته التي فتح فيها حصن منغص من ثغر بلشونة إلى الخزان بتوزيع خمسة آلاف درع، وخمسة آلاف بيضة، وخمسة آلاف مغفر على طبقات الأجناد الدارعين.

وفي سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة استدعى الخليفة إلى قصره بالزاهرة لنزهة أنشأها هنالك في قصوره ركب إليها من قصر الخلافة على سبيله المعهودة من الاستخفاء عن أعين الناس وطردهم عن طريقه بكل جهة، والحاجب المظفر بين يديه في الجيش على العادة، وفاوض عبد الملك فيما أراده، وتمتع من لقائه.

فلما انصرف من عنده أتبعه رقعة بخطه وهي بعد اسم الله:

من الخليفة هشام المؤيد بالله:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

أتم الله عليك نعمه، وهناك قسمه، وألبسك عفوه وعافيته، لما رأيناك مسلك الله ومن صنع الله الجسيم وفضله العظيم لنا عليك وما شفق الصدور وأقر العيون. استخرنا الله تعالى في أن سميناك: «المظفر»، فنسأل الله سؤال الجاني، وضراعة وابتهال إليه أن يعرفنا وإياك بركة هذا الاسم، ويحليك معناه، ويعطينا وإياك وكافة المسلمين فضل ما حملت منه، وأن يخير لنا ولهم في أقضيته، ويقرن قيمته وسعادته بمنه وخفي صنعه، وكذلك أبحنا لك التكني في مجالسنا ومحافلنا وفي الكتب الجارية منك وإليك في أعمال سلطاننا وسائر ما يجري فيه اسمك معنا، ودوننا إبانة بمحلك لدينا، ودلالة على مكانك منا، وكذلك ما شرفنا فتاك أبا عامر محمد بن المظفر قلادنا أسعده الله بالإنهاض إلى خطة الوزارتين وجعلنا بها في التكني على المشيخة والترتيب أثرك في الدولة، وأنت الحقيق منا بذلك كله وبمزيد المزيد عليه

لأنك تربيتنا، وسيف دولتنا، وولي دعوتنا، ونشيء نعمتنا، وجريح أدبنا، فاظهر ما جددناه في الموالي، وأهل الخدمة، واكتب به إلى أقطار المملكة وتصدقه بشكر النعمة، أحسن الله توفيقك، ومتعنا طويلاً بمعافاتك وأنسأنا ملياً بدوام سلامتك إنه ولي قادر عزيز قائم إن شاء الله تعالى.

وعنوان ما كتب به عبد الملك بعدله: من الحاجب المظفر سيف الدولة أبي مروان عبد الملك بن المنصور.

وكان عبد الملك قد أجحف بالمال لانطلاق يده في خاصته والتوسعة على الناس بسدسه وكثرة حركاته، والتجاوز في نفقاته، ثم مات في أخريات أيامه بهجر الفخر / والراحة، واستيقظ من الغفلة، وعكف على مباشرة أمره والإشراف على [١٤٩/ب] الجلوس وإحياء رسم والده، فانقلب إلى طرف من ماله قسم به أطماع العمال ووالى الجلوس للكشف عليهم بتقارب رغبته وحرصه وترابت أحواله المالية إلى الصلاح والوفور وبلغ من ذلك في المدة القصيرة ما رُجفت بعده الثورة وحسنت العافية.

وقضى الله باخترامه عند ترقيه في ذلك أشد ما كان في رأيه، وأضبط ما كان لشأنه، فمضى حميداً.

وكان قد اعتل منصرفه من غزوته بالصائفة سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة عن بلاد شانجة بن غرسية.

ووصل إلى الحصرة منتصف المحرم في مقابيل علته متحدثاً بالانكفاء إلى الرضة.

فلم يستقر بقرطبة إلاّ ريثما تراجعت قوته إلى أن صح عزمه على مفاجأة العدو بالشانية، فخرج من قرطبة للنصف من صفر سنة تسع وتسعين فزاد به مرض الذبحة.

ووقع العمل على إعادته إلى القصر في العمارية، فكانت وفاته بها في الطريق قبالة ديراز ملاط من أحواز قرطبة رحمة الله عليه، يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة بقيت من صفر سنة تسع وتسعين.

وولي الأمر بعده، أخوه عبد الرحمٰن بن المنصور.

دولة عبد الرحمٰن الناصر بن المنصور محمد بن أبي عامر

ولما دخل المظفر قصر الزاهرة ميتاً، وقد كان أخوه ضبطه مستخلفاً عنه، فقام بالأمر، وأنفق الأموال، وثقف المدينة، وجلس مجلس أخيه، ودخل الناس عليه مهنئين. ثم ركب إلى قصر الخليفة فعزاه بأخيه وانصرف، وقد خلع عليه خلعاً سلطانية، وقلده الحجابة، وأقدر له بخطه تسميته بالمأمون فتلقب بالناصر، ثم

بالمأمون. فكان يدعى بالحاجب الأعلى المأمون ناصر الدولة.

وساء تصرفه، وانتهى إليه مَلَل الناس، وإذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه، وسلك خلاف مسلك أبيه وأخيه في مداخلة الخليفة والوقوف في أمره عند ضرورة السياسة، فتنفق إليه، وفتح الباب إلى تيسير أغراضه واستماله وخلطه بنفسه، وطره العمل في استدعائه إلى النزهة على رسمه من الحجبة عن الرعية.

وكان رسمه أن يكسى برنساً في جملة الخواص فلا يعرف منتهى أو غرب الاحتفال له، وسولت لعبد / الرحمٰن نفسه أن يلتمس ولاية عهد هشام والقيام بأمر [١٥٠/أ] المسلمين من بعده إذ كان هشام قد عدم الولد ضعفاً ومهانة، فأمنه بذلك مشيراً على نفسه الفاقرة، فأمن المروانيين من أهل بيته، وكانوا يرتقبون عادة الدهر بالكرة التي تعيد الأمر إليهم مسلماً من العارية، فهم يتعللون بالأحلام، وأضغاث المنام، ويزجرون ساعات الأيام.

فلما رأوا انصراف العهد إلى بني أبي عامر وخروجه عن بني مروان بلوا ما لا يسعه ذرع التحمل وشرع رجالهم في مبادرة الأمر والاستمالة من دونه.

وقد جبل الله أهل قرطبة على ملل ملوكها وإلقاء بذرى أمرها، والإرجاف بما يتوقع لها.

وكان سفهاؤهم بالأسواق والمجامع غير المحتشمة مؤثر عنهم في العامريين نوادر حارة واستراحات عنهم، كان المنصور وولده المظفر يستحضر لذلك مشيختهم ويأمرهم بإنهاء وعيده، ويشافههم بإنكاره، ولا يزال حكامه يبالغون في تغيير ذلك إنكاره أقصى المبالغة ضرباً للظهور وقطعاً للألسنة.

فلما ذهب عبد الرحمٰن هذا المذهب، وأطاع هذا الخرف، كثر الحمل واشتهرت البغضة.

قال أبو مروان بن حيان:

وقد سبق القول في تعلق هذا الجاهل بدعوى الخلافة عجرفية من غير تحاويل ولا عقيدة، وكيف استهواه كيد الشيطان، وغرته قوة السلطان إلى أن ركبها عمياء مظلمة لم يشاور فيها نصيحاً، ولا فكر في عاقبة بل صيرها بالعجلة، ولم يمهل الخليفة بعد منصرفهم من نزهتهم التي أوقعوا فيها هذه الوهلة حتى عدا عليهم اليوم الرابعة في جيوشه المتكافئة وعدده المتظاهرة، فأخذ عليه أنقاب قصر الخلافة بعد أن أحضر من شاء من طبقات أهل الحضرة.

فأجلس لهم هناك وأشهدهم فيما أمضاه من الولاية، وأخرج كتاباً قرئ بحضرته من إنشاء كاتب الرسائل أبي حفص أحمد بن بُرة رحمه الله.

وهذه نسخة العهد بالبيعة:

هذا ما عهد به أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله أطال الله بقاءه إلى الناس عامة وعاهد الله عليه من نفسه خاصة، وأعطى عليه صفقة يمينه ببيعة تامة بعد أن أمعن النظر، وأطال الاستخارة وأهمه ما جعله الله إليه من إمامة المسلمين وخصه به من إمرة المؤمنين، راعى حلول القدر بما به يؤمن، وخاف نزول القضاء بما لا يصرف، وخشي إن هجم محتوم ذلك عليه ونزل مقدور ذلك به ولم يرفع / لهذه الأمة علماً [١٥٠/ب] تأوي إليه ولم يوردها ملجأ تنعطف عليه أن يكون يلقى الله مفرطاً فيها ساهياً عن آداء الحق إليها، ونفض عن ذلك طبقات الرجال من أحياء قريش وغيرها ممن يستحق أن يسند الأمر إليه ويعول في القيام به عليه ممن يستوجبه بدينه وأمانته وهديه وورعه بعد اطراح من الهوى والتجرد للحق والتزلف إلى الله عز وجل بما يرضيه، وإن قطع الأواصر وأسخط الأقارب عالماً بأن لا شفاعة عنده أعلى من العمل الصالح، وموقناً أن لا وسيلة إليه أرضى من الدين الخالص، فلم يجد أحد هو أجدر أن يقلده الخلافة ويفوض إليه النظر في أمر الخلافة بعده في فضل نفسه وكرم قيمه وشرف قيمه وعلو منصبه مع تقواه وعفافه ومعرفته وحزمه من المأمون الغيب الناصح الجيب النازح عن كل عيب ناصر الدولة أبي المظفر عبد الرحمٰن بن المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر رفعه الله إذ كان أمير المؤمنين قد ابتلاه واختبره ونظر في شأنه واعتبره، فرآه مسارعاً إلى الخيرات مستولياً على الغايات جامعاً للمأثور، وارثاً للمكرمات، يجذب بصنيعه إلى أرفع منازل الطاعة ويسموا بعينه إلى أعلى الدرج في النصيحة، أب منقطع القرين، وصنو معدوم النظير، ومن كان المنصور أباه والمظفر أخاه فلا غرو أن يبلغ في سبيل الخير مداه، ويجري من حلل المجد بما حواه مع أن أمير المؤمنين أكرمه الله لما أطلعه من مكنون الغيب ووعاه من مخزون الأثر أمل أن يكون ولي عهده القحطاني الذي حدث عنه عبد الله بن عمرو بن العاص، وأن يتحقق فيه ما أسنده أبو هريرة إلى النبي ﷺ: «أن لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق العرب بعصاه». فلما استوى له الاختيار، وتقابلت عنده فيه الآثار، ولم يجد عنه مذهباً ولا على غيره معولاً، خرج إليه من تدبير الأمر في حياته، وفوض إليه النظر في الخلافة بعد مماته، طائعاً راضياً مجتهداً متغيراً غير مجاب له ولا مائل بهواه إليه، ولا متركٍ نصح الإسلام وأهله فيه، وجعل إليه الاختيار لهذه الأمة بولاية عهده فيها إن رأى بقاء ذلك في أمير المؤمنين أعزه الله أمضى أمير المؤمنين أعزه الله عهده هذا، وأنفذه وأجازه وبتله ولم يشترط فيه مثنوية ولا خياراً، وأعطى على الوفاء بذلك سره وجهره وقوله وفعله عهد الله وميثاقه وذمة نبيه ﷺ / وذمة الخلفاء الراشدين من الذين أمامه، [١٥١/أ] وذمة نفسه بأن لا يُبدل ولا يُغير ولا يحوّل ولا يتأوّل، وأشهد على ذلك الله وملائكته، وكفى بالله شهيداً، وأشهد عليه من أوقع اسمه في هذا الكتاب، وهو أعزه

الله جائز الأمر ماضي القول والفعل بمحضر من ولي عهده المأمون ناصر الدولة أبي المظفر عبد الرحمٰن بن المنصور وفقه الله، وقبوله لما قلده والتزامه لما ألزمه.

وذلك في شهر ربيع سنة تسع وتسعين وثلاثمائة.

وهذا الكتاب نسختان أول الشهود فيه قاضي الجماعة أحمد بن عبد الله بن ذكوان ويليه الوزراء خاصة أسماء تسعة وعشرين رجلاً يليه أسماء مائة وثمانين رجلاً من أهل الشرطة وسائر أهل الخدمة من الحكام والقضاة والفقهاء والمشاورين وغيرهم.

قال ابن عون:

وصدر عبد الرحمٰن في أهل المملكة إلى القصر بالزاهرة يختال في ثوب الخلافة، ويحسب أنها له نحلة، فلما استقر به مجلسه أذن لخاصته من الوزراء والأصحاب، وأكابر أهل الخدمة بالدخول إليه، فأفاضوا في ذكر تهنئته بما أكرمه الله به والدعاء له والمعونة عليه يمدون في غيه وقلوبهم منكرة عليه، وهو يوليهم قبولاً ويوسعهم بكرمه. وأمر بإنفاذ الكتب عنه إلى أقطار المملكة بالأندلس والعدوة يخبر بولايته العهد والإذعان إليهم بالدعاء له على منابرهم بالعهد بعد الدعاء للخليفة مع نسق أسمائه المجموعة له.

قال: وغدا وجوه الناس من أهل قرطبة لتهنئة المغرور عبد الرحمٰن بهذه المنحة التي كانت عندهم أشد محنة، كلهم يعزي عنها نفسه ويكفكف عليها عبرته.

ثم تحملوا بالغلس وجلس لهم عبد الرحمٰن بقصر الزاهرة في مرتبة الملك لا ينقصه دقيقة وصفاً، رجال المملكة قيام بين يديه على مراتبهم في رائق أبهاتهم وأذن لمن حضر الباب بالدخول إليه لتهنئته.

فدخلوا على منازلهم يقدمون المبعدون عن الخلافة من أهل بيت المؤيد هشام المروانية وغيرهم من بطون قريش، تبدوا عليهم في ظاهرهم الاستكانة والكبوة. وتساءل بعدهم وجوه الناس من الحضرة، فقضوا حق تهنئته وغبطوه بما ارتمى إليه من رفيع مرتبته، فأحسن الرد عليهم وخرجوا من عنده وقلوبهم ذوية عانية موقدة ببغضه.

وولّى عبد الرحمٰن ابنه عبد العزيز خطة الحجابة مجموعة بسيف الدولة لقب عمه المظفر، فوسم هذا الطفل بالحجابة بعد موت أخيه.

/ وانهمك عبد الرحمٰن بعد هذه الحادثة في غيه، وأقبل على بطالته، وجاهر [١٥١/ب] بلذته...[١]، ونادم وجوه الجنسين - أعني البرابرة والأندلسيين - فأكثروا الشغل

---

(١) موضع النقط عبارة مطموسة بالمخطوط.

بالمراهنات والاشتغال بالمحالات حتى تفاقم الأمر، وهو ذاهل عن ذلك كله مشغول بشأنه.

قال ابن الرقيق في كتابه:

لما تم له ما أراد من ولاية العهد ودبر سائر الأمور، أخذ في التخليط، والفسق، والانهماك في مجلس شرابه وخلوته.

قال ابن حيان:

ومن مختار ما قالته الشعراء في تهنئة عبد الرحمٰن بولايته العهد، قول أبي العلاء صاعد البغدادي[1]:

قرأت كتاب الجود وحورته أولاً ... وأوضحت منه كل ما كان مشكلا
فلما تجلى الحسن منه لبسته ... فأحسنت في الأقوام أن تتفضلا
أما والذي أعطى الخلافة ربها ... أغر معمّاً في التبايع مخولا
لقد حازها مرخ عليها جناحه ... عُقاب إذا ما أعلى الصيد جلجلا

وقال أبو منصور زيادة الله في ذلك بديهة:

تخيّر اللّه والسلطان للأمم ... ولي عهد براك اللّه من كرم
لا تعدم الملك منه أن ينشد له ... عزاً شديداً بضرب السيف والقلم
اختاره اللّه للإسلام يحفظه ... وخصه بعلو القدر والهمم

وقال أيضاً:

---

(١) قال الخطيب في تاريخ بغداد (٩/ ٣٤٤) في ترجمته: صاعد بن محمد أبو العلاء النيسابوري، ثم الاستوائي، من أهل استواء، وهي قرية من رستاق بنيسابور. سمع عبد الله بن محمد بن علي بن زياد، وإسماعيل بن نجيد النيسابوريين؟ وبشر بن أحمد الإسفراييني، ومن بعدهم. وورد العراق في حداثة سنه حاجاً فسمع بالكوفة من علي بن عبد الرحمٰن البكائي. وولي بعد ذلك قضاء نيسابور، ثم عزل وولي مكانه أبو الهيثم عتبة بن خيثمة. وكان أحد شيوخه، فحدثني علي بن المحسن التنوخي قال: لما عزل صاعد بن محمد عن قضاء نيسابور بأستاذه أبي الهيثم عتبة بن خيثمة، كتب إليه أبو بكر محمد بن موسى الخوارزمي هذين البيتين وأنشدناهما لنفسه:

وإذا لم يكن من الصرف بدٌّ ... فليكن بالكبار لا بالصغار
وإذا كانت المحاسن بعد الـ ... صرف محروسة فليس بعار

وكان صاعد عالماً فاضلاً صدوقاً، انتهت إليه رياسة أصحاب الرأي بخراسان، وقدم بغداد وحدّث بها، فحدثني القاضي أبو عبد الله الصيمري حدثنا القاضي أبو العلاء صاعد بن محمد الفقيه ببغداد وأسند لي عنه حديثاً، فسألت الصيمري عن قدوم صاعد بغداد فقال: آخر سنة قدمها سنة ثلاث وأربعمائة. قلت: ولقد لقيته أنا بنيسابور وسمعت منه وبلغني أنه مات في سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة.

تولى عهد المسلمين كما التقى … وابيض وجه الدين حتى أشرقا
الآن أبلغت الخلافة سؤلها … وغدا لها رأي الإمام موفقا
عقد الإمام لها فأثبت عزها … بولاية المأمون عهداً موثقا
ملك ترى نور الهدى بجبينه … متبلجاً وسنا التقى مُتألقا
زان المغارب في ولاية عهده … بالبر والتقوى فساق المشرقا
لو أن مكة تستطيع زيارة … لأتت إليه مودة وتشوقا[1]

وقال قاسم بن محمود المرواني:

/لقد وفق اللّٰه الإمام المؤيدا … وألهمه للحق فيه وأرشدا [١٥٢/أ]
فقلدك العهد الذي تم عقده … لك اللّٰه منة في الرحاب وأكدا
شهدت بأن اللّٰه ولا خير من … به استن الدين الحنيف وشيدا
وإنك يا مأمون أفضل مُنتقى … وأجدر مَن عهد الخلافة قلدا
وهل ذخر الرحمٰن ذا الملك لأمر في … سواك وأهداه إليك ومهدا
ألا يا ولي العهد وفيت عزة … بأيمن وقت به الزمان وأسعدا
تقلده وابشر بالخلافة بعده … ودون ذوي العلى الحسام المهندا
فأنت الذي جاءت به النذر التي … أتى الأثر المروي فيها مرددا
وأنت أمين اللّٰه مهدي يعرب … ابن قحطان فيها طبت نفساً ومحتدا
لكم كان هذا الأمر بدءاً أو فيكم … يكون مدا مستأنف الدهر سرمدا

وقال كاتب الرسائل وأفرط في قوله، وهو مولى بني مروان:

الآن عاد الدهر غضاً مشرقاً … وتمكنت أرجاؤه واستوسقا
وغدا هلال الحق بدراً بعدما … قد كان أصبح شمله متفرقا
بولي عهد المسلمين ومن غدا … في المشركين إذا تقحم [illegible]
فاللّٰه يشهد للمؤيد أنه … قد حاط أمة أحمد منه نفسا
وأحلهم في باذج متمتع … صعب حواشيه عسير الملتقا

---

(١) صدق الله العظيم في وصف الشعراء، ومن أصدق من الله قيلاً: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين امنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعدما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ [الشعراء: ٢٢٤، ٢٢٧] فإلى هذا الحد يصل بهم التيه والهيام دون اعتبار لحرمة وإلى أي مدى يغوصون في النفاق حتى يصف البيت هذا الرجل الذي قالوا عنه في الفجور ما قالوا؟! سبحانك اللهم لا عجب.

أمسى يفتش قومه وعشيره — شحاً عليهم والحميم الألصقا
ورجا بأن يلقى إذا ما فتشوا — في عبد شمس للخلافة معلقا
فرآهم متخلفين عن العلى — لا يصلحون لأن يسوسوا جردقا
فرسى إلى المأمون أمر جميعهم — إذ لم يزل حَدِباً عليها مشفقا
قالوا إذا ضعفت قريش أخرت — وأبو هريرة قال ذاك مُصدقا
وأتى عن الفاروق أكرم أسوة — خبر غدا للخافقين مطبقا
لو أن فيكم سالماً قدمته — لِيَلِي الأمور مُغرباً ومشرقا[1]

وهذا الذي جلبنا بعض من كل، وقليل من كثير، ولو أننا رأينا أخبار العامرية [١٥٢/ب] / غير مستثقلة لذهبنا في الاختصار أقرب من هذا المذهب.

وتحرك إلى الغزو ثانية تسع وتسعين وثلاثمائة التي اجتثت أمره وكان فتاه الأكبر نصح له في ترك الغزو وخوّفه من اضطراب الناس، وأبلغه عن بعض المروانيين نصحه في محاولة رجل منهم القيام عليه، واستجابة خلق من الجند إليه.

فأعرض عما ذكر واستهان به، وقال: والله لو اجتمع بنو مروان إلى مرقدي وأنا نائم لما أيقظوني.

وهذا سبيل الغرور التي سلك عليها معظم أهل الدول إلا القليل من الحَزَمَةِ كالمنصور، فإن الحازم من لا يأمن الدهر فإنه يجمع العجائب ولا يبطل طبيعة الممكن، فإن الغريب في الدنيا بعيد، والبعيد قريب والحازم من يزن كُلاً بميزانه ويعد له عدته ويعطيه حظاً من فكره وكفلاً من احتياطه، فإن اتسق حال السلامة لم يضر حازماً حزمه ولا محتاطاً احتياطه، ولو لم يكن في ذلك صلاح إلا أنه شجى للعدو وكمد للمكايدين في أن يُبصره بعيداً عن الغفلة فيتهيب رأيه ويترك مهاجمته ويغتنم السلامة معه والنجاة منه لكفى ذلك، ثم أنه لو ضبط القصر بأُولى غناء من رجاله وذوي كفاية من بطانته.

ولكنه نفذ لسبيله في وقت لم يسمع بأشد منه قوة بَردٍ وكلب مطر، واقتحم بليقة من ثغر طليطلة على سبيل منكرة من اللهو والبطالة.

وكان يوغر إلى صاحب الشرطة في المحلة أن ينادي في الناس: يأمركم أمير المؤمنين بكذا وكذا، فيفعل.

ويقول له إذا عاد: كيف رأيت الناس؟ هل أنكر أحد منهم شيئاً؟

---

(١) كل هذه الأشعار لا تحكي حقيقة وإنما هي محض رياء وافتراء وكذب واختلاف، رزقنا الله وإياكم الصدق وحسن الختام.

فيقول: لا.

فيقول له: عاود ذلك مراراً كثيرة.

إلى أن وصل طليطلة، وبها اتصل به أن محمد بن هشام بن عبد الجبار، قام بقرطبة، واستولى على القصر، وفتح مدينة الزاهرة، وأخذ أموالها، ثم حرقها وهدمها.

فهاله ذلك وضبط الجيش وأتى قلعة رباح[1]، فأقام بها حائراً بنفسه لا يدري ما يصنع إلا أن يستحلف الجند بقتال المبتز.

وقد صحبه في موكبه غرمسي كبير من زعماء النصارى المتوسلين إليه قربى أمه من عمومه الملك.

فلما رأى اضطرابه عرض عليه رأي الخلاص من اللحاق والنجاة، وبيّن له الأمور.

فقال له: إما على علم إني إذا ظهرت لأهل قرطبة لا يبقى أحد على ابن عبد الجبار.

فقال له الرومي: أنا على علم من أنك مغرور وآهاً لك، ولكن لا يوسعني الوفاء لك إلا الموت معك مع أنني قد أمكنني / خلاص نفسي، فدونك وما شئت. [١٥٣/أ]

قال: ودعا أهل العسكر إلى مبايعته على حرب أهل قرطبة ونصر الخليفة المظلوم. فلم يمتنع عليه أحد، وأقبلوا يحلفون له أياماً متوالية.

وقال يعلى الزناتي:

دعاني وقال لي: أصدقني عن نفسك، وعن قومك فلا رأي للمكذوب.

فقلت: نعم، لا تغتر فليس يقاتل عنك أحد من زنات والناس تبع لهم.

فشق عليه ذلك وقال: ما الدليل على قولك؟

فقلت: تأمر بتقديم مطبختك إلى طريق طليطلة وتظهر الرحيل، فتعلم من يتبعك ومن يتخلف عنك.

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان في «رباح»: قلعة رباح مدينة بالأندلس من أعمال طليطلة، استولى عليها الإفرنج منذ سبعين سنة أو نحوها (هذا على عهد ياقوت) وهي غربي طليطلة وبين المشرق والجوف من قرطبة. ولها عدة قرى ونواح، ويسمونها الأجزاء، يقوم مقام الإقليم كما ذكرنا في اصطلاحهم في لفظ الإقليم في أول الكتاب منها جزء البكريين وجزء اللخميين وغير ذلك. وقد نسب إلى هذه النسبة قوم منهم محمد بن سعيد الرباحي صاحب نحو ولغة وشعر، ويقال له الجياني أيضاً، نسب إلى مدينة جيان. والفقيه المحدث محمد بن أبي سهلويه الرباحي، وقاسم الشارح الرباحي المحدث الفقيه.

فقال: صدقت.

ثم لم يفعل ورحل إلى قرطبة، وقد زيّن له عداته دخولها عنوة.

وأخرج إليه ابن عبد الجبار حاجب بن دري وقد فرّ عنه الناس.

فقتل رحمه الله، وقتل معه ابن غرمسي، وذلك بمنزل هانيء من دار ملاط أدنى محلاته إلى قرطبة، يوم السبت لأربع خلون من رجب من السنة.

وانقضى أمر العامرية، وإلى دولتهم بلغت حدود التناهي في دول مُلك الأندلس بحسب ضيق الخطة، وبعد النجعة، إذ الأمور لا تقاس إلا بأشكالها، ولا تناظر إلاّ بأمثالها.

فذكر أبو مروان خلف رحمه الله:

في كتابه الذي أنافت على المائة أسفاره المسمى بـ«أخبار الدولة العامرية المنسوخة بالفتنة البربرية، وما جرى فيها من الأحداث»، فقال:

كتب إليّ أبو القاسم محمد مرشد أحد بقايا وجوه الكتاب المستأخرين المتمتعين بالنظر والمعرفة على كبر السِّن مُعرفاً بأشياء سألته عنها من هذا الباب سنة ست وثلاثين وأربعمائة، أثبتها نقلاً من كتابه وهي مبلغ الجباية أيام المنصور أربعة آلاف ألف دينار، سوى رسوم المواريث بقرطبة، وكورْ الأندلس، كانت تجري على الإمامة وسوى مال السَّبي والغنائم علَى اتساعه فيْ هذه الفترة، وسوى ما يتصل به السلطان من أموال المصادرات، ومثل ذلك مما لا يرجع إلى قانون.

قال: وكانوا يعتدونها أربع صنوف تأخذ النفقات السلطانية منها على المشاهرة بالزيادة والنقصان ما بين الشهر والشهر مائتي ألف دينار إلى مائة وخمسين ألفاً إلى أزيد، خلا شهر يونية العجمي فيتضاعف فيه الإنفاق من أجل الاستعداد لغزو الصائفة، فينتهي منه إلى خمسمائة ألف دينار وأكثر منها.

[١٥٢/ب] وما فضل من المال بعد جميع النفقات أحرزه / السلطان في بيت ماله، مع ذلك من ضروب استفاداته.

قال: وكتب أبو محمد عبد الله بن مروان:

أحد حذاق كُتَّاب المحاسبة اليوم وممن لحق طرفاً من تلك الدولة:

أن محمد بن أبي عامر أحب الوقوف على حاصل الأطعمة في الأمراء عندما اعتزم على غزو برجلونة سنة أربع وسبعين، فارتفعت جُملته إلى مائتي ألف ونيف عليها.

قال: فلحقه العُجب بذلك حتى قال: أنا أكثر طعاماً من يوسف صاحب

الخزائن[١]. فلم تمطله بَغْيُ كلمته إذ برأها من الاعتصام من ربه تعالى، واعتورته السنون الشداد المتوالية من سنة ثمان وسبعين، فانتسفت أطعمته باتصال الإنفاق وعدم الاغتلال حتى أشفى على المجاعة، وهمّ بالجواز إلى العُدوة لخصبها يومئذ حتى أغاث الله بلاد الأندلس، وأخرج أرزاقها، وجعل بعد ذلك لا يستكثر شيئاً من الأطعمة، ولا يقتصر على ما يجتلبه منها حتى يخرج المال في شرابها في سني الخصب، فهلك وحاصله منها جملة غليظة.

وكتب إلى أبو عبد الله بن سعيد التجاني بما أثبته، فقال:

كان عدد جميع الأجناد العامريين من الفرسان خاصة من سائر الطبقات والأحرار، وجميعهم مرتزقون في الديوان يُقلع لهم بالحملان والحلية، والسلاح، والمنازل، والنفقة، والعلوفة على مراتب مختلفة، اثني عشر ألف فارس، ومائة زيادة.

قال: وانتهى تحصيل المنصور بن أبي عامر لجميع من ضمه عسكره في بعض صوائفه الحافلة من الفرسان خاصة إلى ستة أربعين ألف فارس.

فكان عدد فرسان الحرس لحمل العُدة وخدمة العساكر ستمائة فارس. وعدد الشرطة والرواد المتصرفين في خدمة العساكر مائتي فارس. وعدة الطباليين مائة وثلاثين فارس.

وانتهى عدد الرجالة معهم إلى ستة وعشرين ألف راجل.

قال: وذكر أن المنصور بن أبي عامر لما اعتد للصائفة التي توفي في قفوله عنها سنة اثنتين وتسعين أنفذ الكتب إلى جميع الثغور بأن يلحق ببابه جميع طبقات المترجلين من فرسان الجند بسائر القوات ليشرف عن حملهم بنفسه. فجمعهم جميعاً بالأركاب لكثرة ما تكامل من الخيل يومئذ.

وقاد مع نفسه في العسكر بعد ذلك سبعمائة رأس من الخيل عراة، عدة لما يحدث في طريقه.

ومعه خمسون / فرساً من العتاق لركابه إلى قريب من عدتها تخلفها بقرطبة. [١٥٤/أ]

وأفضل مع ذلك كله في الاصطبلات بقرطبة مقدار ألف فرس عدوية كانت طرية العبور استغنى عنها، وأمر بالقيام عليها.

---

(١) يريد سيدنا يوسف عليه السلام، وبطر نعمة الله ولم يشكر من قال: ﴿ولئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ فأراه العذاب الشديد سبحانه، اللهم لا تعاقبنا بسفاهاتنا وعاملنا بفضلك ولطفك وجودك وكرمك يا أكرم الأكرمين ويا أرحم الراحمين اللهم آمين وارزقنا حسن الختام بالموت على دينك دين الإسلام.

قال: ووصل الاتباع على ذلك في طريقه كله من الوفود وغيرهم إلى أن ورد مدينة سالم، وفوده من الأمراء نحو ألف فرس.

وكان له من المطايا والبغلات سوى ما يحمل عليه مائتان وخمسون رأساً منها لركابه خمسين.

وكان له من البغال المستخدمة في الأسفار نحو ألف رأس سوى الزوامل الخادمة للخيل ومطايا الوكلاء.

وكان له من الجمال المتصرفة في حمل الأثقال أربعة آلاف إلا مائة بمسارح كورة تدمير.

وكان له من الرباط المستنتجة بحراز إشبيلية المعروفة بالمدائن على أجناسها ثلاثة آلاف فرس يعد لها من فحول الخيل للضراب أوان الاستنتاج مائة رأس تعزل عند العلوف.

قال: وكانت حمولة ابن أبي عامر لغزاته الصائفة:

الحافلة ما بين أثقاله وأثقال غلمانه خاصة تنتهي إلى ألفي رأس في أعم السنين إلى مائة رأس كانت معه تحمل الأرحاء للطحن موزعة على جهات العسكر لطحن الأزواد.

وربما قصر ظهره هذا عن حمولتهٔ في بعض الأوقات فيحتاج إلى الاكتراء من الناس من بلد إلى بلد.

ثم قال: ومن تفصيل حمولته، وفصل ألقاباً من السرادق الكبير، والمطبخ، وآلات الوضوء، ودار الصناعة، وأغلال السجن، وجمل المال، وأرحُل النساء الغوازي، وأخبية الفتيان، وكان من جملتها:

ما داخل السرادق ومائتان إلا ستة تحمل لمن لا قطيعة له من الجند.

وثلاثمائة خباء تتحمل للرجالة.

وثلاثون خباء فاضلة للأضياف والواردين.

ثم ذكر عدداً كثيراً للغطاء والوطاء على ضيوفه، وآلات الطبخ والسقاء، والوضوء، والمائدة، وتوابيت الكسي والخلع، وآلات المنجنيق، وتوابيت النبال، وصناعات العسكر، والزيت والنفط والقطران، والمشاقة، وما يستضاف إلى ذلك.

وأحمال الدروع والعدة، وأرحل الزمالين والمقدمين.

ثم قال: وهذا كله زائد على ما كان يُقَدم إلى الثغر من العدة على دواب الأكرياء والمستأجرة.

فحمل ستمائة ترس عامري.

وألفا ترس سلطاني.

وألفي حربة إفرنجية.

وألفي رضم للرجم.

وأربعمائة واثنتين وعشرين خباء.

ومائة وسبعة وسبعين خباء من الأخبية المعروفة بالفرود.

وخمسين ربُعاً من الزيت.

وستة مجانيق من مدينة سالم.

ومائتي ألف سهم.

وخمسة آلاف ترس سلطاني من مدينة سالم.

ومائتي /زوج من أزواج المطاعن وآلات الحديد. [١٥٤/ب]

وكان يدفع لأهل الحملات للموالي فرس من وطيئة، وسرج، ولجام.

ولكل واحد نفقة شهرين من الطعام والعلوفة.

وتعين لهم الدور للسكنى.

وكان الرسم أن يصنع من الأخبية عدة للجند كل عام على أجناسها، ثلاثة آلاف خباء، إلى ما يقيمه السلطان لنفسه ولمن يناءمون إياه من كبار خدمته وغلمانه.

وكان يضع بدار التراسين من أصناف التراس كل سنة حسبما تلقيته من يحيى التراس، أحد من بقي من مشيخة التراسين في وقتنا، فقال:

كان الطريحة من التراس في السنة ثلاثة عشر ألف ترس.

وطريحة القسي في السنة اثني عشر ألف قوس بشطرين عربية.

وتركية ستة آلاف من قِبل أبي العباس البغدادي المعلم الأكبر بقرطبة.

ومثلها من قبل طلحة الصقلبي بالزهراء.

وكانت طريحة النبل في الشهر عشرين ألفاً.

قال التجاني: وكان بالزاهرة على ذلك كله من التراس الحصونية المعدة للتوزيع على رجّالة قرطبة وغيرهم من المحشودة أيام البرور والترفيه أربعون ألفاً.

وكان فيها من أبدان الدروع المستعدة فيها لذلك سبعة آلاف درع.

ومن أجناس الدروع السوابغ، والغلائل السامرية، خمسة آلاف درع.

ومن الجواشن المتشية والخراسانية سبعمائة قطعة.

قال: وكان الجاري من اللحم على صقالبة ابن أبي عامر على طبقاتهم في الشهر، وقسط المياومة[١] سبعة وعشرين ألف رطل.

والجاري على نسائه في قصره على طبقاتهن منه تسعة آلاف رطل سوى وظيفة مطبخه الخاصة المقامة كل يوم فإنه لم يقف عليها.

وزعم أن عدة الفرسان، والبرابرة الغرباء في ديوانه ثلاثة آلاف فارس فيضاف إليها رَجَّالَة الرقاصة السودان الداخلين في عدادهم ألفا رجل تتمة خمسة آلاف.

وذكر أحوال الطراز وما يُصنع فيها، ومقدار ما كان يرد على بابه من الرصاص والخشب، فرأينا أنا نُطوّل بجلب ذلك.

قال: وكان يزد ربع لدواب السلطان من شعير القصيل القضيم خيل الحملان وغيرها مفتتح الزريعة من كل شتوة بالأجعال السلطانية في أعم السنين خمسمائة مُدّ من الشعير.

وكان حاصل الابتداع من الخيل في أعم السنين ثمانية آلاف فرس سوى ما يُبتاع من البغال بأرض الأندلس.

[١٥٥/أ] قال: /ولما عزم على غزو منتمير واحتاج إلى الاستكثار من البغال، وأمر بإحضار ما يصلح منها وقعد لما يقاد بين يديه منها فابتاع في سبعة أيام متوالية من شوال من هذه السنة ثلاث آلاف رأس.

وقال: وشهدت عند التقابض في خزائنه السلاح بين محمد بن إسماعيل المقريطي، وعبد الله بن اللباد.

فأذكر أن المقريطي دخل فيها من العدة على نحو خمسة عشر ألف جنة ما بين درع سابغة وبدن وجوشن خاصة.

وأما سائر الأسلحة من الدرق، والترأس، والسيوف، والرماح، والبيض، والطشتانيات، والسنون، والسواعد، والدبابيس، والطبورنيات وغير ذلك.

ففات إحصائي كثرة إلى ما شارفته في خزائن الحلية من أجناس المراكب المفضضة والمزينة، والحزم والمناطق والسروج واللجم المختلفة الصفات وغير ذلك مما يحير اللب اتساعاً وكثرة.

كل هذا أحاط به النهب يوم قيام ابن عبد الجبار خطفه في ساعة لم يحصل منه على شركة، فأعظم بها نكبة.

وبلغت المدينة من الاتساع والانبساط، وبعد الأقطار إلى أن كانت أرباضها

---

(١) أي التعيين الجاري يومياً لا يتغير ولا يقف ولا ينقطع لأي سبب، أو التموين اليومي.

إحدى وعشرين ربضاً كل ربض منها يعد أكبر مدينة من مدائن الأندلس بالجهة الغربية، منها تسعة:

ربض الرقاقين.

ربض مسجد الكهف.

ربض حوانيت الريحان.

ربض مسجد الشفا.

ربض مسجد سرور.

ربض بلاط مغيث.

ربض حمام الإلبيري.

ربض السجن القديم.

ربض الروض المحدث.

وبالجهة القبلية اثنان:

ربض شفندة.

ربض منية المغيرة.

وبالشرقية:

ربض منية عبد الله.

ربض فرن بريل.

ربض مجص الناعورة.

ربض المدينة القصبة العتيقة واسطة البلد، وكان ينقسم على ربضين:

الجامع وما حوله ربض واحد يتولاه عريفه، ومحارسة على حده.

وربض آخر بذاته ينفرد به أيضاً عريفه.

وكان ذرع مساحة الخندق المضروب على قرطبة أيام قتال البرابرة من جهاتهم الثلاثة له:

أعني النهر الأعظم من مد الحفير عليها من الجهة القبلية سبعة وأربعين ألف ذراع، وخمسمائة ذراع يجب لها ستة عشر ميلاً غير سدين ميل.

قال: وملك المنصور عن سبعة خلفاء من فتيانه الأكابر.

وكان شأنهم في ملك الأموية كبيراً وهو يثور بثقل كلفتهم الباهظة.

فلما تولى ولده عبد الملك بعده الأمر بلغ بهم ستة وعشرين خليفة فضاعف مؤنتهم أضعافاً كثيرة.

وكان من مشاهيرهم واضح بشير نظيف نجا شغله فطفر زهير خيره نصر نصير ظرفه شفيع بمن واثق، بشير واضح بشرى، والزاب يليق كوثر خلف / جعفر خلفه، [١٥٥/ب] هذا آخر شيء من كلام التجاني.

قلت: وابن خيران، ومجاهد، ما كانت قد طوت بهم الأخبار ونسبت لهم المآثر والآثار.

وفي خط الميزاني الكاتب في تاريخه قال: أحب المنصور أن يتعرف بمقدار ما يدخل قرطبة من جهاتها من أحمال الحطب في اليوم الواحد من أيام دروره للاحتكار، فوكل بإحصاء ذلك عدة من ثقاته فقعدوا له راصدين بسائر طرق قرطبة وأنقابها، وكتب كل واحد منهم ما أحصاه ورفعوا جميعه فبلغ إلى ستة آلاف وستمائة حمل على اختلافها.

وذكر أن الخليفة الحكم وكّل من أحصي له ما يباع بقرطبة من السمك المملوح المسمى بالسردين خاصة المجلوب من الساحل، فانتهى البيع فيه في يوم واحد إلى عشرين ألف دينار.

هذه نبذة من أحوال تلك المدينة التي كان أهلها تحت بيعة صبي لم يبلغ الحلم بعمره، ولا يباشر شيئاً من أمره، وانظر نائب عنه يحمي حماه، ويدافع عداه، ويصون حرمته ويمنيه فضل الله قبله ونعمته، ويوفي إجْلاله وإيثاره، ويعطي وظائف الدين حقها، ويوضح من شرائع الشرائع طرقها.

وقد تقرر ما انتهى إليه أمر عامر بعده، وكيف ذهبت سعادتها بذهاب سعده، وأنجز لها الدهر كالي وعده، فحالت أحوالها وتغير جمالها، وشقت عن العورات أسمالها، وصارت معتبراً لذوي الاعتبار، ومندباً لناظم الأشعار، فمما ينسب في ذلك إلى الوزير أبي عامر ابن شهير من شهرائها وأبناء وزرائها:

أفي الطلول من الأجلة مُخْبِر	فمن الذي عن حالها مستخبر
لا تسألن سوى العراق فإنه	ينبئك عنهم انجروا أم غورُ
جار الزمان عليهم فتفرقوا	كل ناحية وباد الأكثر
جرت الخطوب على محل ديارهم	وعليهم فتغيرت وتغيروا
بزغ الزمان يصوغ في عرصاتهم	نوراً تكاد له العيون تنور
فلمثل قرطبة يقل بكاء من	يبكي بعين دمعها متفجرُ
وإذ أقال اللّه عثرة أهلها	فتبربروا وتغربوا وتمصروا
في كل ناحية فريق منهم	متفطر لفراقها متحيرُ

عهدي بها والشمل فيها جامع ... من أهلها والعيش فيها أخضرُ

/ ورياح زهرتها تلوح عليهم ... بروائح يفتر منها العنبر [١٥٦/أ]

والدار قد ضرب الكمال رواقه ... فيها وباع النقص فيها يقصر

والقوم قد أمنوا تغير حسنها ... فتعهدوا بجمالها وتآزروا

يا طيبهم بقصورها وخدورها ... وبدورها بقصر ودها تتحدّر

والقصر قصر بني أمية وافر ... من كل أمر والخلافة أوفر

والزاهرية بالمراكب تزهر ... والعامرية بالكواكب تعمر

والجامع الأعلى يغص بكل من ... يتلو ويسمع ما يشاء وينظر

وسالك الأسواق شهد أنها ... لا يستغل بسالكيها المخسر

يا جنة عصفت بها وبأهلها ... ريح النوى فتدمرت وتدمروا

آسى عليك من الممات وحق لي ... إذ لم تزل بك في حياتك تفجر

كانت عراصك للميمم مسكة ... يأوي إليها الخائفون فينصروا

يا منزلاً نزلت به وبأهله ... طير النوى فتغيروا وتنكروا

جاد الفرات بساحتيك ودجلة ... والنيل جاد بها وجاد الكوثر

وسُقيت من ماء الحياة غمامة ... تحيا بها منك الرياض وتزهر

أسفي على دار عهدت ربوعها ... وظباؤها بفنائها تتمختر

أيام كانت عين كل كرامة ... من كل ناحية إليها تنظر

أيام كان الأمر فيها واحداً ... لأميرها وأمير من يتأمر

أيام كانت كف كل سلامة ... تسمو إليها بالسلام وتبدر

حزني على سرواتها ورواتها ... وثقاتها وحماتها يتكرر

نفسي على الأئمة وصباتها ... وبهائها وصفائها يتحسر

كبدي على علمائها حُلمائها ... أدبائها طربائها تتفطر

قال: وممن رثى قرطبة أيضاً من وجوه أهلها وأرباب النعم المواثلة بها وأكثر التفجع على دياره منها لما استولى الخراب عليها عند فرار البربر عنها، الفقيه الأديب أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد[1] / ابن وزير آل محمد الأكبر. فإني وجدت بخطه [١٥٦/ب]

---

(١) هو علم أعلام الأندلس بل والمغرب كله، ابن حزم، قال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٨٤): الإمام الأوحد، البحر، ذو الفنون والمعارف، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ...

في خبر ذكره قال:

وقفت على أطلال منازلنا بحومة بلاط مغيث من الأرض الغربية، منازل البرابر المستباحة عند معاودة قرطبة، فرأيتها قد محيت رسومها، وطمت أعلامها، وخفيت معاهدها، وغيرها البلاء فصارت صحارى مُجدبة بعد العمران، وفيافي موحشة بعد الأنس، وآكاماً مشوهة بعد الحُسن، وخراب مفرغة بعد الأمن، مأوى للذئاب، وملاعب للجنان، ومغاني للغيلان، ومكامن للوحوش، ومخابىء للصوص بعد طول غنائها برجال كالسيوف، وفرسان كالليوث، تفيض لديهم النعم الفاشية، وتغص منهم بكثرة القطين الجليسة، وتكنس في مقاصيرهم ظباء الأندلس الفاتنة تحت زبرج من نضارة الدنيا تُذكّر نعيم الآخرة.

مال الدهر عليهم بعد طول النضرة فبدد شملهم حتى ساروا في البلاد أيادي سَبَأ تنطق عنهم الموعظة.

فكأن تلك المحاريب المنمقة، والمقاصير المرفئة التي كانت في تلك الديار كبروق السماء إشراقاً وبهجة يغير حسنها الأبصار ويجلي منظرها الهموم كأن لم تغن بالأمس، ولا حلتها سادة الإنس، قد عبث بها الخراب وعمها الهدم، فأصبحت

= غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي الأصل، ثم الأندلسي، القرطبي، اليزيدي، مولي الأمير يزيد بن أبي سفيان بن حرب الأموي رضي الله عنه، المعروف بيزيد الخير، نائب أمير المؤمنين أبي حفص عمر على دمشق، الفقيه، الحافظ، المتكلم، الأديب، الوزير، الظاهري، صاحب التصانيف، كان جده يزيد مولي للأمير يزيد أخي معاوية كان جده خلف بن معدان هو أول من دخل الأندلس في صحابة ملك الأندلس عبد الرحمٰن بن هشام المعروف بالداخل.

ولد أبو محمد بقرطبة في سنة أربع وثمانين وثلاثمائة. ثم ذكر له ترجمة طويلة جداً ثم قال قرب نهايتها: قال أبو القاسم بن بشكوال الحافظ في «الصلة» له: قال القاضي صاعد بن أحمد: كتب إليّ ابن حزم بخطه يقول: ولدت بقرطبة في الجانب الشرقي في ربض منية المغيرة قبل طلوع الشمس آخر ليلة الأربعاء، آخر يوم من رمضان سنة أربع وثمانين وثلاثمائة بطالع العقرب، وهو اليوم السابع من نُوَنْبِرْ. قال صاعد: ونقلت من خط ابنه أبي رافع: أن أباه توفي عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة فكان عمره إحدى وسبعين سنة وأشهراً رحمه الله. قلت: وله تصانيف كثيرة أشهرها «المحلى».

وقد صنفت في سيرته الكتب، ومن مصادر ترجمته: جذوة المقتبس (٣٠٨)، تاريخ الحكماء (٢٣٢)، الصلة (٢/ ٤١٥)، بغية الملتمس (٤١٥)، معجم الأدباء (١٢/ ٢٣٥)، المطرب (٩٢)، المعجب (٣٢)، المغرب (١/ ٣٥٤)، وفيات الأعيان (٣/ ٣٢٥)، تذكرة الحفاظ (٣/ ١١٤٦)، العبر (٣/ ٢٣٩)، دول الإسلام (١/ ٢٦٨)، مرآة الجنان (٣/ ١٩)، البداية والنهاية (١٢/ ٩١)، الإحاطة (٤/ ١١١: ١١٦)ـ للمؤلف ـ لسان الميزان (٤/ ١٩٨)، النجوم الزاهرة (٥/ ٧٥)، طبقات الحفاظ (٤٣٦)، نفح الطيب (٢/ ٧٧)، شذرات الذهب (٣/ ٢٩٩)، وغير ذلك كثير جداً.

أوحش من أفواه السباع فاغرة تؤذن بفناء الدنيا وتريك عواقب أهلها، وتخبرك عما يصير إليه كل ذا نفس ماثلاً فيها، وتزهدك فيها.

وكررت النظر ورددت البصر، فكدت أستطار حزناً عليها، وتذكرت أيام راحتي فيها، وصبابة لذاتي بها مع كواعب غيد إلى مثلها يصبو الحليم.

ومثلت لنفسي انطوائهن بالفناء وكونهن تحت الثرى إثر تقطع جمعنا بالتفريق والجلاء في الآفاق النائية والنواحي البعيدة، وتصدقت نفسي عن فناء تلك البغية، وانصداع تلك البيضة، بعدما عهدته من حسنها، ونضارتها وزبرجها وغضارتها ونضوبه بفراقها من الحال الحسنة والمرتبة الرفيعة التي رفلت في حللها ناشئاً فيها.

وراعيت سمعي صوت الصدا، والبوم زاعقاً فيها بعد حركات تلك الجماعة المنصدعة بعرصاتها التي كان ليلها تبعاً لنهارها في انتشارها بسكانها، والتقاء عمارها، فعاد نهارها تبعاً لليلها في الهدوء والاستيحاش والخفوت والإجهاش، فأبكى ذلك عيني على جمودها وفزع كبدي على خرابها، وهاج قلبي على نكارتها وحركني للقول على نبوء طبعي فقلت:

سلام على دار رحلنا وغودرت ... خلاء من الأهلين موحشة قفرا

/تراها كأن لم تغن بالأمس بلقعاً ... ولا عمرت من أهلها قبلنا دهرا [١٥٧/أ]

فيا دار لم يُقفرك منا اختيارنا ... ولو أننا نستطيع كنتِ لنا قَرْا

ولكن أقدار من اللّه أنفذت ... تُدمِرنا طوعاً لما حل أو قهرا

ويا خير دار قد تركت حميدة ... سقتك الغوادي ما أحل وما أسرا

ويا مجتلي تلك البساتين حفها ... رياض قوارير غدت بعدنا غُبرا

ويا دهر بلغ ساكنيها تحيتي ... ولو سكنوا المروين أو جاوزوا النهر

فصبراً لسطو الدهر فيهم وحكمه ... وإن كان طعم الصبر مستثقلاً مُرا

لئن أظمأنا فقد طال ما سقى ... وإن ساءنا فيها فقد طال ما سرا

وأيتها الدار الحبيبة لا يرم ... ربوعك جون المزن لميمي بها القطرا

كأنك لم يسكنك غيد أو إنس ... وصيد رجال أشبهوا الأنجم الزهرا

تفانوا وبادوا واستمرت نواهم ... لمثلهم أسكبت مقلتي العبرا

سنصبر بعد العسر لليسر طاعة ... لعل جميل الصبر يُعقبنا يُسرا

وإني وإن عادت وعُدنا لعهدها ... فكيف بمن من أهلها سكن القبرا

ويا دهرنا فيها متى أنتَ عائد ... فنحمد منك العود إن عدت والكرّا

فيا رُبّ يوم في دارها وليلة ... وصلنا هناك الشمس باللهو والبدرا

فواجسمي المضني وواقلبي المُعزى　　ووانفسي الثكلى وواكبدي الحرا
ويا هم ما أعدى ويا شجو ما أبدى　　ويا وجد ما أشجى ويا بئس ما أقرا
ويا دهر لا تبعد ويا عهد لا تحل　　ويا دمع لا تجمد ويا سقم لا تبرا
سأندب ذاك العهد ما قامت الخضراء　　على الناس سقفاً واستقلت بنا الغبرا

دولة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمٰن الناصر لدين الله(١)

كنيته: أبو أيوب.

ولقبه: المهدي.

وكان عبد الملك بن المنصور قد وتر محمداً هذا بقتل أبيه هشام بن عبد الجبار، لاتهامه بالتدبير على دولته، فكان يطلب له الغوائل.

---

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٢٨)، جذوة المقتبس (١٨)، نفح الطيب (١/ ٤٢٦)، بغية الملتمس (٢٢، ٢٣). وقال الذهبي في ترجمته في السير: وأما محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر لدين الله عبد الرحمٰن، فتلقب بالمهدي ونصَّب الديوان، واستخدم، فلم يبق زاهد ولا جاهل ولا حجام حتى جاءه، فاجتمع له نحو من خمسين ألفاً، ودانت له الوزراء والصقالبة وبايعوه. فأمر بنهب دور آل المنصور أبي عامر، وانتهب جميع ما في الزهراء من الأموال والسلاح، وقلعت الأبواب. فقيل: وصل منها إلى خزانة المهدي هذا خمسة آلاف ألف دينار سوى الفضة. وصلى بالناس الجمعة بقرطبة وقُرىء كتابه بلعن شنشول، ثم سار إلى حربه. فكان القاضي ابن ذكوان يحرض على قتاله ويقول: هو كافر. وكان شنشول قد استعان بعسكر الفرنج لأن أمه منهم، وقام معه ابن غومش. فجاء إلى قرطبة، فتسحب جنده، فقال له ابن غومش: ارجع بنا قبل أن تؤخذ، فأبى. ومال إلى دير شربش جوعان سهرانً، فأنزل له راهب دجاجة وخُبزاً، فأكل وشرب، وسكر، وجاء لحرب ابن عمه المهدي، وحاجبه محمد بن المغيرة الأموي، فقبض عليه، فظهر منه الجزع، وقَبّل قدم ابن المغيرة وقال: أنا في طاعة المهدي. ثم ضرب عنقه، وطيف برأسه: هذا شنشول المأبون المخذول. فلما استوثق الأمر للمهدي، أظهر من الخلاعة والفساد أكثر مما عمله شنشول.

وقال الحميدي: فقام على المهدي ابن عمه هشام بن سليمان بن الناصر لدين الله في شوال سنة تسع وتسعين، وقام معه البربر وأسر هشام هذا فقتله المهدي. وقال غيره: زاد المهدي في الغي وأخذ الحُرَم، وعمد إلى نصراني يشبه المؤيد بالله، ففصده حتى مات، وأخرجه إلى الناس، وقال: هذا المؤيد، فصلى عليه ودفنه. وقدم على المهدي رسول فلفل بن سعيد الزناتي صاحب طرابلس داخلاً في طاعته يلتمس إرسال سكة على اسمه ليعينه على باديس. فغلب باديس على طرابلس وتملكها، وكتب إلى ابن عمه حماد ليغري القبائل على المهدي لخذلانه، وقدهم البربر الذي حوله ولوّح بذلك. فهذا سبب خروجهم عليه مع ابن عمه هشام بن سليمان.

فلما توفي المظفر كان من قدر الله أن اتهمته الزلفى حظية المنصور بالتدبير عليها، وقتله / بالسم أخاه عبد الرحمٰن المتأمر بعده. [١٥٧/ب]

فداخلت المروانيين في أمر الوثوب عليه بواسطة بشر الطفيلي من الفتيان العامرية المنحرفين عن موالاة عبد الرحمٰن.

فأرشده المروانيون إلى فاتك من فُتاك بينهم في ذلك الوقت جرار جسور ثائر مخاطر خليع مداخل للصقور، والفُتاك لا يدري في أي وادٍ هلك وهو المهدي هذا.

ففتح معه باب الدبير، ووعده عن الزلفى الإعانة بالمال.

واستظهر بسائر ولد الناصر وفتيان المروانية، وقد سملتهم بغض فبايعوا محمداً سِرّاً واستمالوا له خلقاً كثيراً، يلقونه بأطراف قرطبة وسفح جبلها على حال اكتتام وخفية، وخفي عن شيعة السلطان أكثر ذلك.

فلما ذهب عبد الرحمٰن لوجهته من الغزو وأبعد عن الحضرة، تمكن محمد بن [هشام بن] عبد الجبار من وثوبه.

فأقدم على باب السلطان في السادس عشر من جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة.

واهتبل الغرة لاشتغال صاحب كرسي المدينة القاعد به يومئذ أكثر حرسه في احتفار كرومه أمناً وطمأنينة واغتراراً بالأيام.

وقد كان ابن عبد الجبار قد بثَّ بتلك النواحي وانتبذ هو في غُدوة النهر قبالة القصر يرتقب الميقات.

إلى أن تألف إليه من أصحابه اثني عشر فتى فيهم طرسوس المجْونسي وهو أشهم القوم عاملين على الكر وراء الباب وإظهار الأمر.

فانكفأ إلى هنالك، وقد بث العصابة أمامه فتكنفوا الباب كأنهم نظارة إلى أن طلع عليهم ابن عبد الجبار، فشهر سيفه وهجم للحين على صاحب المدينة، واقتحم عليه مجلسه.

فجيء به إلى محمد بن هشام بن عبد الجبار مختبئاً لفرط جزعه، فأمر بضرب عنقه بين يديه ورفع رأسه على قناةٍ.

وحين أبصرت العامة رأس المذكور تداعت إلى ابن عبد الجبار كالسيول من السفلة والغوغاء، فقويت بهم نفسه، وجعل يحركهم على العامرية فخاطبهم بوجه قيامه واحتسابه وبادر بكسر سجن العامرية وفيه اللصوص والدعار وأصحاب الجرائم.

وتلاحق به بنو عمه المروانيون يستدعون الناس.

وأغلق هشام المؤيد باب القصر، وارتقى إلى السطح، وأشرف على العامة بين مصحفين يحملهما خادمان، وأشار إلى من تحته من العامة يسكنهم بيده. فصاحوا به: لا حاجة لنا بك، وهذا أولى بالملك منك.

فولى عنهم منصرفاً إلى قصره، وأمر الخدم بالكف عن دفاعهم حتى يقضي الله قضاءه. ودخل محرابه، فلم يتحول عنه إلى أن تم أمر الله تعالى عليه.

[١٥٨/أ] وأمر محمد بنقب القصر فشرع / في ذلك، وجلبت السلاليم، وخاف هشام على نفسه وأهله، لما رآه أعجز من بالزاهرة عن نصره، وتمالق الناس عليه.

فأرسل إلى ابن عبد الجبار، وجرت بينه وبين هشام محاورة في عشى هذا اليوم.

وقصدت الزهراء أمم من أخلاط الناس، فمانعهم أهلها ليلتهم، ثم خذلهم الله بعدها.

وأنزل ابن عبد الجبار الناس من سقف القصر، وذادهم عن أنقابه.

وأجلس كرسي الشرطة محمد بن المغيرة ابن عمه.

ونصب ابن عبد الجبار ابن عمه الآخر مكان الحاجب.

واستدنى سليمان بن هشام منهم، وسماه ولي العهد.

وبعث ليلتئذ إلى هشام مغلومة مُغَنّتاً على فيه إلى أبي عامر، ويدعوه إلى خلع نفسه.

فاعتذر بالعجز عن الإراحة منهم، وبادر إلى ما سئل منه من الخلع.

فَسُرّ ابن عبد الجبار بذلك، وبادر بالأرسال عن الناس ليلته لم يطبق جفناً، فسارع المشيخة وأهل البيت من قريش والأعمام والوزراء وطبقات الخدام والقضاة والفقهاء والعدول.

وقد بادر إليه هشام بخلعٍ فاخرة غير بها للوقت من أحواله، ودخل عليه الأشهاد.

فصحّت الخلافة لمحمد بن عبد الجبار في صبح تلك الليلة، وتلقب بالمهدي، لقب لم يلبسه مرواني قبله.

وكان جسوراً، مضطرب الرأي.

ويقال: إن عدة من تبعه من سفلة قرطبة، فأثبت أسماءهم في العطاء، خمسون ألفاً، وانتهب الزاهرة فتقسمت الأيدي كل ما اشتملت عليه من مال مخزون، وآلة،

ومتاع، وعدد سلطانية، وفُرش، وآنية حتى اقتلعت الأبواب الوثيقة، والخشب الضخمة وتوصل منها القائم فيما زعموا بعد ذلك بخمسة آلاف ألف وخمسمائة ألف دينار دراهم، ومن الذهب لألف ألف وخمسمائة ألف.

واستخرج من بعض الدفائين مائتي ألف لم يُغن عنه شيئاً مع الاضطراب والفتنة، وأطلق من حُرَم آل عامر الحرائر، واصطفيته الإماء.

ولما فرغ من تحويل ما كان بالزاهرة أمر بهدمها، وحط أسوارها، وقلع أبوابها، وتشعيث قصورها، وطمس آثارها، وتعجيل ذلك، توقعاً لتدارك عبد الرحمٰن بن أبي عامر ومن لديه من الجيوش أمره، وسوّغ الناس أنقاضها، فبلغوا من تدمير تلك المدينة الجليلة ما لا تبلغه الدهور المتعاقبة، فأصبحت بلقعاً كأن لم تغن بالأمس.

وذكروا أن المنصور بن أبي عامر بانيها كان يرى في منامه كأن الله اطلع عليها وتجلى لها، فسأل عن ذلك ابن الهمداني، فأخبره بخرابها وتلا / قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣]. [١٥٨/ب]

فكان المنصور متى ذكر هذه الرؤيا بغض عيشه.

وكان ما تقدم به المعريف من عند عبد الرحمٰن بن المنصور وأقرابه بالجيش على قرطبة وفرار الناس عنه إلى ابن عبد الجبار وقتله.

وسرت أهل قرطبة بولاية المهدي سروراً عظيماً وأفرطوا في اتخاذ الأعراس له بالرحبات، والأرباض، غافلين عما خبأ القدر لهم في ذلك من المكروه الذي أباد خضرائهم، وفرّق جموعهم، وأجاع بطونهم وسلب أموالهم، وهدم دورهم، وألبسهم لباس الجوع والخوف سُنّة الله في الرعايا إذا بطرت وملت العافية، ودانت بحب الإدالة والقلى بالملوك والشره إلى الشوّار.

والتف الجيش الغازي مع عبد الرحمٰن بن أبي عامر على صاحب الأمر، ودانوا بطاعته، فكان من أسباب إدباره: قعود من وكّل بأبوابه من السفلة ومحدثي الاستعمال والاستخدام[١] من أراذل العامة المستنجدة بكل من يجب بره وتسويده من وجوه الناس وأعلام الملة وشيوخ البرابرة.

---

(١) يريد أن من أسباب هزيمته أنه استخدم أهل الثقة لا أهل الخبرة، ثم إنهم لم يكونوا أيضاً أهل خبرة حيث إن ولاءهم يكون لمن يدفع أكثر أو لمن له سلطان أقوى حيث لا حساب لديهم لسوى ذلك الأمر حيث إن هدفهم في الحياة هو الثراء أو الاشتباع من متع الدنيا وزينتها ولا كرامة لهم ولا ولاء إلا لذلك، ثم إن أهل الخبرة دائماً تكون قد تكونت لديهم بالإضافة إلى الخبرة العقيدة والتي تكون لمن يكون الولاء الحقيقي عمن يجب أن يكون الدفاع بالروح والدم؟.

فكانوا يطالبونهم بإلقاء السلاح، ويبادرونهم بالتحية، ويسمعونهم الخنا من غير تمييز بين أعلاهم وأدناهم حتى انبعثوا منهم حقداً، وأثاروا على إسلام ابن أبي عامر ندامة.

وهاجت طائفة فتعدت على دور البرابرة بالرصافة فنهبتها.

ففسدت طاعته، وانخرقت النفوس عنه، فلما استوثق له الأمر، وكتب إليه واضح العامري صاحب طليطلة بالطاعة، وتم مراده من انتظام المُلك.

وأحضر للناس رجلاً ميتاً شبيهاً به، قيل: إنه يهودياً أو نصرانياً فعاينه الوزراء وشهدوا بأنه هشام المؤيد غير شك فيه.

وقام بحق مواراته يوم الاثنين لثلاث بقين من شعبان هذه السنة.

ثم أسقط سبعة آلاف ممن كان قد استخلف من جنوده، فاستهدف لانحرافهم وعداوتهم.

وأعلن ببغض البرابرة، وتنقصهم جهلاً بمحلهم من البأس والعصبية[١].

فتألفت من هذه الأصناف جُملة على هشام بن سليمان بن عبد الرحمٰن.

وانجلت الحال عن القبض على هشام بن سليمان والإتيان به إلى ابن عبد الجبار، وتفرق من كان قد التف به من البرابرة المستوحشين من ابن عبد الجبار لكونهم صنائع ابن أبي عامر، وغيرهم مِن / البادين والصنائع والفتيان. [١٥٩/أ]

فقتل هشام بن سليمان صبراً بين يديه، وانتهب دوره، ودور من تلبس به من البرابرة وغيرهم.

وانحاز البرابرة والمغاربة من القبائل بجميعهم إلى أرملاط خارج قرطبة عشية يوم الجمعة بعد محاورة بينهم وبين العامة، ثم صرفوا وجوههم إلى الثغر.

ثم راسلهم ابن عبد الجبار، فلم يلتفتوا إليه، وكان سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمٰن الناصر لدين الله[٢] قد فرَّ من قرطبة طالباً النجاة بنفسه لما

---

(١) هذا من سوء تقدير الحاكم أو تزيين بطانته له بعض الأمور التي تودي بحياته وبالبلاد إلى الدمار والخراب والفشل في الإدارة، ولذلك مثال في تاريخنا المعاصر حيث قام الخومين بقتل كل قادة الجيش الذين كانوا في إيران عقب توليه الحكم، ثم دخل في حرب مع جيرانه بقوات لا خبرة لها في الحرب مع معاداته لكل جيرانه فما كان من ذلك إلا نتيجة حتمية هي الهزيمة وهلاك الناس أثناء تلك الحروب الطاحنة التي استمرت أكثر من ثمان سنوات اضطر في آخرها إلى التوقف. فلو قال قائل: إن القواد كانوا غير موالين له بل موالين للشاه المخلوع، لقيل لهم: كان يجب عليه أن ينظر في سبب ولاءهم له ويصلح ذلك ومَن لم يصلح أقاله واستعاض عنه بمن هو في كفاءته وولاءه للعهد الجديد.

(٢) هو ابن أخي هشام المقتول.

قُتل من قتل من بني أمية، فصار من جملتهم.

ولما سألوه عن نفسه فصدهم عن أمره، قدموه وعقدوا له الخلافة، وتسمى المستعين بالله، وذلك في عقب شوال من سنة تسع المذكورة[١].

ونهضوا به إلى شانجة بن غرسية بن فردلند وعاقدوه على أن يعين سليمان بن الحكم على دخول قرطبة.

فتحرك معهم في عسكر عظيم من النصارى، واحتل قرطبة.

وبرز إليهم المهدي فيمن معه فهزمهم سليمان وقتل النصارى يومئذ من أهل قرطبة أزيد من ثلاثين ألفاً.

وكانت أول ما رأت المشركين على المؤمنين ولما عظم الأمر على ابن عبد الجبار، ورأى انحراف الناس عنه بدا له في أمر هشام المؤيد بالله المخلوع، وظن أن الناس يتعصبون له إذا رأوه، فأخرجه للناس رجاء أن يتمسك الحال به.

فلم يجد ذلك، وقد تمكن الداء، وأعضل المشتكى.

وعجز ابن عبد الجبار، ورأى [أن][٢] إبراز هشام للناس لم يغن [شيئاً][٢].

فدبر الحيلة، أذعن لسليمان ومن معه من البرابرة، وسلم في القصر لسليمان. فوجه إليه والده الحكم ليضبط أمره بخلال ما يتم خروج ابن عبد الجبار عنه بأهله. ويدخله ضحوة اليوم، ففرّ ابن عبد الجبار من ليلته، واختفى في المدينة أياماً، ثم خرج متنكراً إلى طليطلة في خبر غريب[٣].

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٢٩): وجمعوا له مالاً حتى صار له نحو من مائة ألف دينار. فتوجه بالبربر إلى طليطلة فتملكها، وقتل واليها. فجزع المهدي، واعتد للحصار، وتجرأت عليه العامة، ثم بعث عسكراً فهزمهم سليمان المستعين، ثم سار حتى شارف قرطبة فبرز لحربه عسكر المهدي، فناجزهم سليمان فكان من غرق منهم في الوادي أكثر ممن قُتل. وكانت وقعة هائلة هلك فيها خلق من الأخيار والأئمة والمؤذنين. فلما أصبح المهدي بالله أخرج للناس الخليفة المؤيد بالله هشام بن الحكم، الذي كان أظهر لهم موته، فأجلسه للناس وأقبل قاضي الجماعة يقول: هذا أمير المؤمنين وإنما محمد بن هشام بن عبد الجبار نائبه. فقال له البربر: يا ابن ذكوان، بالأمس تصلي عليه واليوم تُحييه؟! ثم خرج أهل قرطبة إلى المستعين سليمان فأحسن ملقاهم واختفى محمد المهدي واستوثق أمر المستعين، ودخل قصر الإمارة، ووارى الناس قتلاهم فكانوا نحواً من اثني عشر ألفاً.

(٢) زيادة يتطلبها السياق وربما تكون سقطت من المخطوط.

(٣) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٣٠): ثم تسحب المهدي إلى طليطلة، فقام معه وكتب إلى الفرنج ووعدهم بالأموال، فاجتمع إليه خلق عظيم. وهو أول مال انتقل من بيت المال بالأندلس إلى الفرنج. وكانت الثغور كلها باقية على طاعة المهدي فقصد قرطبة في جحفل عظيم، فالتقى الجمعان على عقبة البقر على بريد من قرطبة، فاقتتلوا أشد قتال، فانهزم سليمان المستعين،

بعض حديث اختفائه وحيلته وما جرى عليه من الخطوب

فكان اتصاله بطليطلة وانحيازه إلى واضح الحكمي بها في أول جمادى الأولى من سنة أربعمائة.

وقبله أهل طليطلة أحسن قبول، وكان من أمره ما يُذكر.

أيام سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمٰن الناصر لدين الله

والحديث قد تقدم بقيام البربر بدعوته ونزوله بظاهر قرطبة من بعد هزيمة ابن عبد الجبار، ثم انخلاعه لهم عن الأمر، واختفائه.

[١٥٩/ب] ودخل سليمان قصر قرطبة مرته الأولى / في السابع عشر من ربيع الأول سنة أربعمائة ثاني يوم من فرار المهدي، وطلبه فأعياه.

واستقر سليمان بمقر المُلك، وخاطب البلاد، وقدم العمال ولحين لحاق ابن عبد الجبار بطليطلة مستظهراً بواضح، وبادر فأحكم له أيضاً العقد مع الفرنج على أن خرج لهم عن مدينة سالم بقصرها إلى ما التزم لهم عن نفسه من مال ونفقة. وتحرك الجميع إلى قرطبة.

وبلغ ذلك سليمان، فاستنفر الناس، وخرج إلى لقائهم لأربع عشرة خلت من شوال هذه السنة.

ولما أحكمت البرابرة المغيبة للحرب، جعلوا سليمان في أخرياتهم، ومعه خيل من المغاربة، وقالوا له:

لا تبرح من مكانك ولو وطئتك الخيل. فلما دفعت الفرنج وخرقت صفوف البربر، لم يدر أن البرابرة أفرجت لها إذ لا يقوم لصدمتها شيء، وإنها تلتف عليها بعد. فلم يشك أن البربر قد اصطلموا، فانهزم فيمن كان معه على ذلك.

فقتلت يومئذ البرابرة مغسد ملك الروميين وخمسين من كبار قومه.

وقتل من البربر نحو من ثلاثمائة من رجالتهم إذ لم يقتل لهم يومئذ فارس.

وانحازوا إلى الزهراء، فرفعوا أولادهم، وفروا على وجوههم، وتصبر سليمان

= واستولي المهدي على قرطبة ثانية، ثم خرج بعد أيام إلى قتال جماهير البربر، والتقاهم بوادي آرّه فهزموه أقبح هزيمة. وقتل من جنده الفرنج ثلاثة آلاف، وغرق خلق، فجاء إلى قرطبة، ثم وثب عليه العبيد فضربت عنقه، وقطعت أربعته، وكفى الله شره في ثامن ذي الحجة عام أربعمائة وعاش أربعاً وثلاثين سنة.

بما رأى إلى شاطئه. وخرج أهل قرطبة، فانتهبوا أثاث البربر، وقتلوا من وجدوا.

وأتى محمد بن عبد الجبار، وواضح قرطبة فدخلاها.

أيام محمد بن هشام في الرجعة الثانية

قال: ولما عاد ابن عبد الجبار إلى قرطبة جدد البيعة لبنيه، فكان أول من بايعه هشام المؤيد.

وطلب الناس بمال يفرضونه لمن معه من النصارى وكانوا في سبعة آلاف.

ثم أقسم بالأيمان المغلظة أن لا يستقر ولا يحل شعار الحرب حتى يفرغ من أمر البربر.

وقد كانوا أسروا بأولادهم وعيالهم يحملونهم على سروج دوابهم، وغير ذلك إلى جهة الخطر البادي بحمية بلادهم الغربية، ونزلوا بوادي بارة[1] من أحواز مرفلة.

وتحرك إليهم بكل من قدر على حمل السلاح من أهل قرطبة، وبواديها، حتى نزلوا على البربر، يوم الخميس لست خلون من ذي القعدة سنة أربعمائة.

فاقتتلوا قتالاً شديداً، وخشي ابن عبد الجبار فرسان الثغر، وبلوا من البربر قتال المستميت الذي لا يطمع في الحياة بعده، ومن قاتل كذلك، فقد كتب الله له الطائلة.

فانهزم واضح، وابن عبد الجبار، والفرنجة، أعظم هزيمة فقتل من الفرنجة عدد قليل ذليل إلا أنه / أثبت رجله في مستنقع الموت ولم يعول على الحياة. [١٦٠/أ]

فقتل من الفرنجة يومئذ أكثر من ثلاثة آلاف وغرق منهم بوادي السقايين ـ وهو وادي بارة ـ خلق كثير.

واحتوى البرابرة على ما في عسكرهم وعسكر واضح، وابن عبد الجبار من مضارب، ومال، وسلاح، ودواب.

ووصل المنهزمون إلى قرطبة ثاني يوم الوقيعة. ورغب ابن عبد الجبار، وواضح، من النصارى، في الرجوع معهما إلى البربر، فأبوا ذلك، ورحلوا إلى بلادهم مغلولين.

وشرع ابن عبد الجبار في الحركة والرجوع، وطلب من أهل المدينة المال تجلداً وغرامة كاذبة، ولم يكن إلاّ أن رحل عن الحضرة، ثم غلب رأي الانحجار والاحتجار، وأمر باحتفار الخندق. وتكالب البربر، وظهرت خيلهم مغيرة على

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان: البارة: إقليم من أعمال الجزيرة الخضراء بالأندلس فيه جبال شامخة، وثارت من أهله فتن قديماً وحديثاً، وهو بلد ثمر لا بلد زرع.

الأطراف، وتملكوا جبل يشتر قاعدة خلاف بن حفصون في القديم.

وأجحف ابن عبد الجبار بالناس، فنفروا عنه، وتشاءموا به، وبدا لهم سوء ما دخر لهم القدر من أيامه، وأحسوا بعقاب الله إياهم في بطر العافية المقترنة بدول العامرية التي ملّوها، وسئموا نعيمها، وضجوا من مواصلة جهادها في سوء الجوار، وكفران الحق لهذا العهد.

وأتت النفقات على أسباب السلطان، وذهب عتاده وزينه، وأصبح حقيراً فقيراً، واستأسد العدو، واستقال سليمان بن الحكم أمير البرابرة العشرة، واقتضى نظر واضح ومن معه قتل ابن عبد الجبار إعادة هشام المؤيد.

فأجلس ابن عبد الجبار بين يديه فعاتبه طويلاً لما جنى عليه في نفسه وحرمه، ثم أخرج من بين يديه فقتل، ومُثل به.

واختفى ولده ولي عهده إلى أن لحق بطليطلة.

أيام هشام بن الحكم بن عبد الرحمٰن الناصر لدين الله في المرة الثانية

لما قُتل المهدي بن عبد الجبار، أُجلس هشام للناس، وتقدم لحجابته واضح، وجدد له البيعة، وبعث إلى سليمان أمير البرابرة، وإلى من معه ودعاهم إلى الدخول في ما دخل فيه الناس، والاستقالة من الفتنة.

فلم يقبلوا ذلك، واغتبطوا بأميرهم.

[١٦٠/ب] وفي أُخريات ربيع الأول من هذه السنة نزلوا قرطبة، ودخلوا مدينة الزهراء / وانضم الخلق من الأحواز إلى المدينة، وانتشرت الغارات، وعظم العياث فيما اتصل بالبلد، وانتشرت البرابرة على كور الأندلس، مالقة[١]، والسرة، وما اتصل بأحواز قرطبة، يخربون الديار، وينسفون النعم، ويسبون الحريم، ويصادرون بالفداء من يتهم باليسار من الرعية[٢].

وطلبوا الناس بالأموال، وقطعوا الميرة[٣] عن قرطبة، فاشتد الغلاء، وعظم

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان: مَالَقَةُ: كلمة أعجمية، مدينة بالأندلس عامرة من أعمال رَيّة سورها على الشاطىء بين الجزيرة الخضراء والمرية. وقال الحميدي: هي على ساحل بحر المجاز المعروف بالزقاق. والقولان متقاربان، وأصل وضعها قديم، ثم عمرت بعد وكثر قصد المراكب والتجار إليها فتضاعفت عمارتها حتى صارت أرشذونة وغيرها من بلدان هذه الكورة كالبادية لها، أي الرستاق.

(٢) أي يخطفون رجلاً أو امرأة أو طفلاً من ذوي اليسار، ثم يطلبون فدية لتركه نوعاً من الابتذاذ وإلا قتلوا من بأيديهم من ذويه، فيضطر المخطوف له أن يدفع الفدية المطلوبة التي عادة ما يكون مبالغ فيها.

(٣) الميرة: هي الطعام أو المواد التموينية.

البلاء. واضطر هشام وواضح إلى خطة الخسف من استصراخ النصارى والاستعانة بملكهم على شرط تمكنه من البلاد.

ووصلت رسله إلى قرطبة، فأحكمت الشروط على تسليم أزيد من مائتين حصن مما فتح الملوك المجاهدون من سامية، وكافل أمرهم المنصور، وأكده وحضر لذلك الفقهاء، والقضاة، والمفتون. وانصرف الجميع مستبشرين بنصر العدو إياهم خذلاناً وعماية ولجاجة في الغي والنقمة من الله لبطر العافية.

وارتكب العوام والرعاع بين المنافرة للبربر، والمجالبة الطبيعية، وعدم الإغماص في استصلاحهم مرتكباً من اللجاج والتخاصم مكن خزي الله من وجوههم، وتل ربق القهر في رقابهم.

فلقد كانت من واضح، وهشام، وبعض الأحائيين مراوضة في السلم والصلاح، وصل للكلام فيها من قبل القوم رجل يعرف بابن بُكير، وقع الناس عليه فقتلوه، ومثلوا به.

وقد عجز صاحب الأمر عن قصره، وتجرد الناس لقتال البربر، وتكلفوا المال للجيش حتى تلفت أموالهم وكان مما يلزم رسم الحبس خمسمائة فارس. واضطر السلطان إلى المال، فأخرج ما في قصره من حلي ثمين، وذخيرة، وآنية فضة، وذهب، وثوب، ومتاع حتى الكتب، والخزن، والمواعين، والفرن، ومن الأدوية الطبية، والعقاقير المجلوبة، ذكر أرباب التواريخ من ذلك أموراً تجدها تبعث الحسرة، ولم يغن ذلك من شيء لعياث الأيدي فيه، وامتياز أيدي العوام به، وشره أهل الجاه والتمكن إليه.

وجمع السلطان الناس إلى القصر وشكا إليهم القلة والحاجة، فأظهروا العجز، وقالوا: لم يبق فينا مطمع ولا عُلالة، فاخرج بنا إلى العدو فإننا لا نقيم على هذه الحالة والموت خير منها.

وتحير واضح وارتبك عليه أمره، فعزم على الفرار إلى الثغر.

وفطن له الجند فضعف في أعينهم فاجترأوا عليه، واجتمعوا على ابن وداعة من وجوه العسكر وزحفوا عليه فعاقبوه بما أتلف من الأموال، وما عزم عليه من خراب الدولة، ثم سَلّوا السيوف فقتلوه، واحتزوا رأسه وطافوا به البلد.

وألقوا جثته بالموضع الذي طرح فيه جثة ابن عبد الجبار، ونهب دوره، وخزائنه، وألفيت أمواله ميسرة، ورجاله مشدودة. وتجلد هشام بعده، وأظهر الاستغناء عن الوزير، وتجرد لمباشرة الأمر بنفسه.

وكتب سليمان بن الحكم إلى أهل قرطبة فحذرهم الفتنة، فلجوا وبلغت الغاية، وانتهى الأمر.

وطال على الناس لزوم المحارس والمراصد والبيتات فملوا وعجزوا، وبان للعدو فشلهم وإخلادهم إلى الأرض، فاشتد فيهم طمعه وهم على خمسة أضعاف الحاصر، وتوالت عليهم الهزائم، وأكلتهم السلاح وأصرعتهم الحاجة.

واقتحم البرابرة أرباض قرطبة عنوة، فكان الأمر في هول يومئذ يجل عن الوصف، ويشذ عن العبارة من استيلاء السيف والسبي والنار والتخريب.

ولجأ من تأخر أجله إلى المدينة. وخرج القاضي ابن ذكوان، وكان له توسل، إلى أميرهم سليمان بن الحكم، وقد رأى مد يده في مصالحة قومه فعقدوا للناس أماناً تحت صغارٍ وذلةٍ ودنيةٍ وخفيفة. ودخل سليمانُ القصر بقرطبة بعد[١].

أيام سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر لدين الله عبد الرحمٰن[٢] في المرة الثانية

دخل سليمان القصر بقرطبة يوم الاثنين لثلاث بقين من شوال سنة ثلاث وأربعمائة.

وأحضر هشاماً فوبخه، وقال: كنت تبرأت من الخلافة، وأعطيت صفقة يمينك

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٣٣): وبالجملة، فالذي جرى على أهل الأندلس من جندها البربر لا يحد ولا يوصف، وقد عملوا ما يصنّعه كفار التُرك وأبلغ، وأحرقوا الزهراء، وجامعها، وقصورها، وكانت أحسن مدينة في الدنيا وأطرأها، وقد قال ابن نبيط:

ثلاث من طبعها الفساد الفأر والبربر والجراد

وقال محيي الدين عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي في كتاب «المعجب»: دخلت البربر قرطبة وعليهم سليمان المستعين في شوال سنة ثلاث وأربعمائة فقتلوا المؤيد بالله. وقتل في هذه الكائنة بقرطبة من أهلها نيف وعشرون ألفاً.

(٢) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٣٣)، جمهرة الأنساب (١٠٢)، جذوة المقتبس (١٩)، الذخيرة في محاسن الجزيرة (١/ ١/ ٣٥: ٤٨)، بغية الملتمس (٢٤)، المعجب (٤٢)، الحلة السيراء (٢/ ٥)، البيان المغرب (٣/ ٩١)، المختصر في أخبار البشر (٢/ ١٤٥)، فوات الوفيات (٢/ ٦٢)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٥٠)، نفح الطيب (١/ ٤٢٨)، والكامل في التاريخ في أحداث سنة (٤٠٣)، وقال فيها: في هذه السنة ملك سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمٰن الناصر لدين الله الأموي، ولقب المستعين. وهذه غير ولايته منصف شوال على ما ذكرناه في سنة أربعمائة، وبايعه الناس، وخرج أهل قرطبة إليه يسلمون عليه، فأنشد متمثلاً:

إذا ما رأوني طالعاً من ثنية يقولون: من هذا وقد عرفوني
يقولون لي أهلاً وسهلاً مرحباً ولو ظفروا بي ساعة قتلوني

وكان سليمان أديباً شاعراً بليغاً. وأريق في أيامه دماء كثيرة لا تحد، وقد تقدم ذلك سنة أربعمائة. وكان البربر هم الحاكمون في دولته لا يقدر على خلافهم لأنهم كانوا عامة جنده، وهم الذين قاموا معه حتى ملكوه.

فنقضت عهدك. فاعتذر إليه بأنه مغلوب على أمره، ثم تبرأ له من الأمر.

وانتقل سليمان إلى سكنى الزهراء، ورتب الأمر وكتب بالتمكين إلى الجهات، وأخرج الولاة، وقسم بعض كور الأندلس بين رؤساء القبائل البربرية، وكانوا ستة:

فأعطى صنهاجة منهم بني زيدي بن مناد البَيْرَةَ[(١)].

وأعطى معراوة جنوبي البلاد.

ومنذر بن يحيى سَرَقُسْطَة[(٢)].

وبني برزال وبني يفرن حياز ودواتها والمغارب.

وبني دمروازداجة شَذْوَنة[(٣)] وموزور[(٤)].

وولى ابنه علي بن حمزة سَبْتَة[(٥)].

والقاسم بن حمود مدينة طنجة، وأصِيلا، والخضراء[(٦)].

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان: بَيْرَة: بالفتح كذا ضبطه الحميدي وقال: هي بليدة قريبة من ساحل البحر بالأندلس، ولها مرسى ترسي فيه السفن ما بين مرسيه والمرية. قاله سعد الخير، وأما الحميدي فإنه قال: هي بالأندلس، ولم يزد. وقال ابن الفقيه: بيرة جزيرة فيها اثنتا عشرة مدينة وملكها مسلم يقال له في هذا الوقت سودان بن يوسف، وهي في أيدي المسلمين منذ دهر، وأهلها يغزون الروم والروم يغزونهم، ومنها يتوجه إلى القيروان، هكذا قال. ولا أعرف هذه الجزيرة، ولا سمعت لها بذكر في غير هذا الموضع. وكان ابن الفقيه في حدود سنة (٣٤٠هـ).

(٢) وقال صاحب المصدر السابق: بلدة مشهورة بالأندلس تتصل أعمالها بأعمال تُطيلة. ذات فواكه عذبة لها فضل على سائر فواكه الأندلس، مبنية على نهر كبير، وهو نهر منبعث من جبال القلاع، قد انفردت بصنعة السمور ولطف تدبيره تقوم في طرزها بكمالها منفردة بالنسخ في منوالها. وهي الثياب الرقيقة المعروفة بالسرقسطية، هذه خصوصية لأهل هذا الصقع، وهذا السمور المذكور هنا لا أتحقق ما هو ولا أي شيء يعني، وإن كان نباتاً عندهم أو وبر الدابة المعروفة، فإن كانت الدابة المعروفة، فيقال لها: الجند بادستر أيضاً. وهي دابة تكون في البحر، وتخرج إلى البر وعنده قوة ميزة... ولها مدن ومعاقل، وهي الآن بيد الإفرنج صارت بأيديهم منذ سنة (٥١٢هـ).

(٣) وقال عن هذه: مدينة بالأندلس تتصل نواحيها بنواحي موزور من أعمال الأندلس، وهي منحرفة عن موزور إلى الغرب مائلة إلى القبلة.

(٤) وقال عن مَوْزُورُ: اسم لكورة بالأندلس تتصل أعمالها بأعمال قرمونة، وهي عن قرطبة بين المغرب والقبلة، كثيرة الزيتون والفواكه، بينها وبين قرطبة عشرون فرسخاً.

(٥) قال ياقوت في سَبْتَةُ: هي بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ومرساها أجود مرسى على البحر. وهي على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس على طرف الزقاق الذي هو أقرب ما بين البر والجزيرة، وهي مدينة حصينة تشبه المهدية التي بإفريقية على ما قيل لأنها ضاربة في البحر داخلة كدخول كف على زند، وهي ذات أفياف وخمس ثنايا مستقبلة الشمال وبحر الزقاق، ومن جنوبيها بحر ينعطف إليها من بحر الزقاق، بينها وبين فاس عشرة أيام.

(٦) قال ياقوت في معجم البلدان: طَنْجَةُ: بلد على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء، وهو

ولما استقر الأمر لسليمان كان رؤساء البرابرة غالبين على أموره، فحذر لذلك العامرية، وفروا إلى بلاد شرق الأندلس فتبادلوا بها الملك حسبما يأتي بحول الله.

وفي هذا العهد لأوَّل عودة سليمان بن الحكم هلك هشام رحمه الله.

وكان الفتيان العامريون، والبغايا الشاميون، لما يأسوا من حسن العقبى، وأيقنوا باستيلاء البرابرة مع سليمان على قرطبة قصدوا ليلة الاثنين الذي فتح فيه البرابرة قرطبة إلى باب الشدة، وقد تأهبوا للبرابرة، وجهدوا في الدخول إلى هشام فلم يمكنهم من ذلك، فجعلوا يميلونه ويعرضون عليه الدخول إلى المدينة الزهراء كيما يجتمع الجند إليه بها.

فأبى وقال: المدينة من قرطبة، ومن فاته رأس الأمر فلا يأخذ بِذَنَبِهِ، وقد علم الله أنني ما أحببت الدخول في شيء مما أدخلتموني فيه، قضاء الله بكربي وهو حسبي.

قالوا: فاركب معنا الليلة في خف من رحلك وصفوة من أهلك.

فخرجنا في جمعنا، ونقطع من الليل فنلحقك بقلعة مثاطبة بمحل عصمة فلا يبغي أن يلحق بك الناس، وينحل أمر عدوك بسرعة.

فقال وجفوه أشد: أعود حال سليمان وألقِح الفتنة والهرج للأمة؟! أهذا ما لا يكون أبداً.

فلما يأسوا منه مالوا إلى الصلح من غد وطمعوا في الحياة واستجابوا لخلع هشام، ومكنوا من ناصيته.

= من البر الأعظم، وبلاد البربر، قال ابن حوقل: طنجة مدينة أزلية آثارها ظاهرة، وبناؤها بالحجارة، قائمة على البحر، والمدينة العامرة الآن على ميل من البحر وليس لها سورة، وهي على ظهر جبل وماؤها في قناة يجري إليها من موضع لا يعرفون منبعه على الحقيقة، وهي خصبة، وبين طنجة وسبتة مسيرة يوم واحد. وقيل: إن عمل طنجة مسيرة شهر في مثله وهي على آخر حدود إفريقية.

وقال عن أصيِل: بلد بالأندلس، قال سعد الخير: ربما كان من أعمال طليطلة. وذكره أبو عبيد البكري في كتابه في المسالك عند ذكره بلاد البربر بالعُدوة بالبر الأعظم، فقال: ومدينة أصيلة أول مدينة العدوة مما يلي الغرب، وهي في سهل من الأرض، حولها رواب لطاف، والبحر بغربيها وجنوبها، وكان عليها سور ولها خمسة أبواب. فإذا ارتج البحر بلغ الموج حائط المسجد، وسوقها حافلة يوم الجمعة، وماء آبارُها شروب وبخارجها آبار عذبة، وهي الآن خراب. وهي بغربي طنجة بينهما مرحلة.

وقال عن الخضراء في نفس المصدر: الجزيرة الخضراء: بالأندلس، ذكره في الجزيرة، والمدينة الخضراء بلدة بينها وبين مِليانة يوم واحد، وهي مدينة جليلة كثيرة البساتين، على شاطىء نهر، من أخصب مدن إفريقية.

فحمل إلى سليمان وعاتبه، ثم صرفه، وقد رَقَّ له مع محمد بن سليمان ولده، ووصاه بالجميل في أمره.

فأقام معه أياماً لا يخبر مكانه، ثم غيب شخصه، فكان آخر العهد به.

وشاع يومئذ أن محمداً أعجل عليه دون إذن والده سليمان فاغتاله خنقاً منفرداً بذلك مع بطانته ابن حدير وغيره لخمس خلون من ذي القعدة سنة ثلاث وأربعمائة.

فكانت مدته في هذه الكرة سنتين، وأربعة أشهر، أنست ما قبلها من أماد الشر، وأزمان الفتنة.

وكانت سِنّهُ يوم الخلع الثاني: ثمانياً وأربعين سنة، وأربعة أشهر. ولم يخلف عقباً من ذكر ولا أنثى.

واقتدر قاتلوه على ما لا شيء فوقه من كتم أمره[1]، وأشاعوا أنه فرّ لوجهه مأذوناً له.

فتعيش زماناً سقاء بالمرية، وكان من غرائب الدهر.

وكان لعربان الدهر لغرائب كله ضم بن عباد بإشبيلية شيخاً مأبوناً من عرض الرعاع حجبه، وزعم أنه هشاماً أيام حياته، فشهدوا بوجوده حياً.

وقام بدعوته، وندب الناس إليه، ووقف عليه معاينوا هشام أيام حياته فشهدوا بوجوده حياً لديه.

فخطب له بأكثر بلاد الأندلس: قرطبة، وإشبيلية وغيرهم زمناً، وتوصل بذلك إلى كثير من تدبيره حتى توطد له الأمر بإشبيلية، واستحكم بناؤه، وأورثه بنيه بعده.

ولما تنفس مخنق العامريين الموالي والصنائع الهاشميين.

وعادوا على سليمان بالحقود البربرية من بعضهم إلى علي بن حمود أمير سبتة من الحسنيين عهداً منسوباً إلى هشام المؤيد، وبخطه: زعموا العهد فيه بعده إلى علي بن حمود، وتوليه القلب الطلب، وسهلوا عليه سبيل طلب / الخلافة، فأظهر به [١٦٢/أ] الخلاف على سليمان بن الحكم، وكان أملك لنفسه. ثم تحرك بعد أن التف عليه بشر كثير، وبعد أن خاطب أخاه القاسم بقرطبة، فلحق ببلاده الخضراء.

فكان استبراء علي بن حمود سنة أربع وأربعمائة. وقتل قاضيها محمد بن عيسى، والفقيه ابن يربوع عميدها، لاتهامهما بميلهما إلى سليمان. وقد بعث عيوناً

---

(١) أغرب من هؤلاء وقوف هؤلاء في كتم السر هم إخوة يوسف عليه السلام فقد كانوا عشرة ومكث سرهم أكثر من عشرين سنة، وقيل أربعين، وقيل ثمانين سنة لم يفشه أحد منهم إلى أن كشفه الله تعالى أمام الجميع.

تتطلع له طلع أحوال سبتة.

وفي السنة المذكورة جاز علي بن حمود من سبتة إلى مالقة بعد أن بعث منها إلى جوس الصنهاج وإلى خيران الفتى العامري، فأشار عليه بقصد مالقة.

وخرج سليمان المستعين بالله من قرطبة إليه، فالتقيا في شهر محرم من سنة سبع وأربعمائة.

فكانت على سليمان الهزيمة، وقبض على سليمان وأخيه، وابنه الحكم.

وسيقوا إلى علي بن حمود، فدخل قرطبة... [1] بين يديه، وبحث عن هشام فعرف أنه قتل وعرض عليه قبره، فأخرجه منه وأصلح من شأن مواراته، وصلى عليه، ثم ضرب عنق سليمان وأخيه وابنه محمد وابنه الحكم بيده.

وقال بلسان الزناتي: لا يقتل الزلطان إلا المزلطان.

وقيل: إن علي بن حمود قال للشيخ الحكم: يا شيخ هكذا فعلتم بهشام؟

فقال: لا والله ما قتلناه، وما هو إلاّ حيّ يرزق.

فعند ذلك عجّل علي بقتله.

وكان هذا الشيخ الحكم بن سليمان فاضلاً لم يتلبس من أمر ابنه بكبير شيء.

وجعلت رؤوس ثلاثتهم في طست، وأخرجت من المحلة إلى القصر ينادى عليها: هذا جزاء من قتل هشاماً.

وانفصل أمر سليمان على هذا السبيل، وكان أديباً شاعراً مدركاً متأقياً، إلا أنه خرج الأمر في تلفيق الأمور عن يده.

وشعره متداول مشهور، وهو أحد من شرف الشعر باسمه، وتصرف على حكمه، ومن المشهور له قوله يعارض الرشيد هارون في قوله بسبب جواريه الثلاث:

ملك الثلاث الآنسات عنانّ وحللن من قبلي بكل مكانِ
ما لي تطاوعني البرية كلها وأطيعهن وهن في عصيانِ
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى وبه قوين أعز من سلطانِ

بقوله:

عجباً يهاب الليث حدّ سناني وأهاب لحظ فواتر الأجفان
وأقارع الأهوال لا متهيباً منها سوى الإعراض والهجران
وتملّكت نفسي ثلاث كالدُّمى زهر الوجوه نواعم الأبدان

(١) موضع النقط كلمة بالمخطوط غير مقروءة.

ككواكب الظلماء لحن لناظري من فوق أغصان على كثبان
/ هذي الهلال، وتلك بنت المشتري حُسناً وهذي أخت غصن البانِ [١٦٢/ب]
حاكمت فيهن السُّلُوَّ إلى الصبا فقضي بسلطان على سلطانِ[١]
فأبحن من قلبي الحمى وتركنني في عز مُلكي كالأسير العانِ
لا تعزلوا ملكاً تذلل في الهوى ذل الهوى عز وملك ثانِ
إن لم أطع فيهن سلطان الهوى كلفاً بهن لا كنت[٢] من مروانِ

واعتنمته شعراء العامرية والدولة الأموية. وقد نسجت على أفواههم ومحاريبهم العناكب أيام الحرب والفتنة واشتدت فاقتهم، وجمعت طباعهم، وكانوا كالبراة الفره الجياع انقضت لفرط الضرورة على الجرادة فلم يبل صداهم، ولا سد خلتهم لاشتغاله بشأنه، واشتداد حاجة سلطانه.

فمن ذلك ما أنشده شاعر الأندلس على عهده المكان فيها يومئذ بمنزلة المتنبي بصقع الشام أبو عمر بن دراج القسطلي:

هنيئاً لهذا الملك روح وريحان وللدين والدنيا أمان وإيمان
فإن قعيد الخزي قد ثل عرشه وإن أمير المؤمنين سليمان
فمن الذي انقاد الأنام لأمره فلم يعصه في الأرض إنس ولا جان
... العُلى للحمد غادٍ وراء شيخ وخلف التقى للّه راضٍ وغضبان
به رد في جو الخلافة نورها وقد أظلمت منها قصور وأوطان
وأنقذ دين اللّه من قبضة العِدَا وقد قاده للشر ذُل وإذعان
وقام فقامت للمعالي معالم وللخير أسواق وللعدل ميزان
وجدد للإسلام ثوب خلافة عليها من الرحمٰن نور وبرهان
ووكدها عهداً لأكرم من وفى بعهد زكت فيه عهود وأيمان
به شدّ إزر العدل والعلم والعلا وفاض على الأيام حُسن وإحسان
فتى نكصت عنه العيون مهابة فليس له إلا الرغائب أقران
يهون عليه يوم يروي سيوفه دماً أن يوافيه الدُّجى وهو ظمآن

(١) جاء بعد هذا البيت في سير أعلام النبلاء:
وإذا تجاوز في الهوى أهل الهوى عاش الهوى في غبطة وأمان
ولم يأت بالأبيات الثلاثة التي بعده.

(٢) في الهامش بالمخطوط تصويب: «كلفاً بهن فلست».

صهر النبي المصطفى وابن عمه وو ارث ما شادت قريش وعدنان

[١٦٣/أ] / . . . . (١)

وكان ملكه الذي عفا على محاسن العباد والبلاد فوطن الجهاد، وذهب منه بالقارة والبلاد، وإذ قرطبة خضرة الدنيا، وأم القواعد من غير ثناء، حر النار وبرد الشفار وترك حديثها محلاً للاعتبار، ثلاث سنين وعشرة أشهر ألوت بمحاسن المضر الأنيق، وذهب برونقه الشهير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي الكبير.

وعقد سليمان بن الحكم العهد لابنه محمد بن سليمان في منتصف جمادى الآخرة سنة أربعمائة، وكان يومئذ واحد، وهو صبي، فأعلن بتوليته عهده، وزعم أنه من حُسن اختياره لرعيته بعد أن شاور في / ذلك وزراءه ورجال مملكته من الطائفتين [١٦٤/أ] فتوخى معظمهم موافقته فليمضي به العهد، وأوقع الدعاء له بذلك في سائر عمله، وجرى ذكره بالتأمين والتكنية والمخاطبة، فتمت ولايته على هذا الوجه دون نفقة ولا عطاء لقلة المال.

فكان أول من افتتح بذلك، وتلاه من جاء بعده من المتوثبين في الفتنة، حتى صار العهد لخطة من الخطط يقتصر فيه على مقروءه.

وأمر بنقش اسمه في السكة والأعلام والطرز.

وتقدم إلى الخطيب قاضي الجماعة ابن ذكوان بالدعاء له فوق المنبر على الرسم.

ونفذت الكتب بذلك عن سليمان، فكانت نسختها:

أما بعد:

فإن أمير المؤمنين لما جبله الله عليه وحببه إليه من الاجتهاد للمسلمين والنظر لهم، والفكر في عواقبهم، والحرص على مصالحهم، والإشفاق من اختلافهم وافتراق كلمتهم، رأى أن يجتهد لهم لمماته كما اجتهد لهم في حياته، فإن يرفع لهم علماً يهتدون إليه وينصب لهم وزراً يلجأون إليه، وموئلاً يتعطفون عليه، يؤلف شملهم، ويجمع كلمتهم، ويلم شعثهم، ويسكن نفرتهم، ويؤمن روعتهم، مقتدياً في ذلك بالأئمة المهتدين والخلفاء الراشدين الذين نظروا للأمة بعدهم وأشفقوا من اختلاف كلمتهم، وتفرق مذاهبهم عندما يفاجأهم ما لا محيد لهم عنه ولا بد منه من بغتات الأقدار، ونفاد الأعمار الليل والنهار.

---

(١) في قصيدة طويلة جاوز الخمسين بيتاً تركتها لسوء خط المخطوط، وسوء التصوير وما فيها سوى المدح والثناء والاطراح البعيد عن الحقيقة على عادة الشعراء في كل العصور.

فأطال استخارة الله عز وجل والرغبة إليه في الأخذ له بتوفيقه، ومعاضدته، وتسديده، وحمله على ما فيه الخير له ولجميع المسلمين بجميل العافية في الدنيا والآخرة، فألقى الله في روعه، وثبت في خَلَدِهِ، وقرر في نفسه أن محمد ابن أمير المؤمنين أولى أهل بيته الخلافة بولاية عهد المسلمين، غير محابٍ له ولا آخذ بمولده فيه، بل لما قد علمته الخاصة والعامة من تكامل خلال الخير له، واجتماع أدوات الفضل فيه، وما هو عليه في دينه وهديه وورعه وفضله وطهارة أثوابه وعفاف مذهبه، وصلف نفسه، واكتمال حلمه، وسعة علمه، وكمال أدبه، واضطلاعه بأعباء الخلافة، ومعرفته بمعاني السياسة، ونفاذه في التدبير والإدارة.

فأمضى أمير المؤمنين ما استخار الله تعالى فيه وعزم عليه، وجعل ولاية عهد المسلمين إلى محمد بن المستعين بالله أمير المؤمنين، وهو يعتقد أنه قد خرج لجماعة المسلمين عما ألزمه الله من حقهم، وتبرأ إلى الله / مما كلفه من أمرهم، وأداء الأمانة [١٦٤/ب] التي حمله الله في الاجتهاد لجماعتهم، وقضى ما وجب عليه من الاحتياط في الاختيار لإمامتهم، مبتغياً بذلك ثواب الله العظيم وفضله الجسيم، ونظره لأمة محمد ﷺ، وتحصيناً عليها واحتياطاً لها، وهروباً من التقصير في حقها، والله يريه وجماعة المسلمين الخير والخيرة، واليمن والبركة والسعادة والغبطة فيما وفق أمير المؤمنين له وألهمه إياه. فاعلم ذلك من عقد أمير المؤمنين وعهده، وما أنشده من فعله، وتقدم إلى أصحاب الصلوات في جوامع عملك بالدعاء له في خُطب الجُمع بما أدرجناه طي كتابنا هذا.

والله يسأل أمير المؤمنين أن يتولاه في جماعة المسلمين بما فيه الخير لهم وسبل العاقبة في دينهم ودنياهم، وأن يقارضه بجميل نيته لهم وكريم مذهبه فيهم إنه ولي المجازاة بالإحسان عن الإحسان والممتن بالفضل والامتنان إن شاء الله[١].

وكتب في النصف من جمادى الآخرة سنة أربعمائة.

قال أبو مروان في المتين: ومن غريب ما طرحه أهل التنجيم في مبتدأ هذه الفتنة وكنه تأثيرها على أصولهم وزعمهم أن القران الشنيع الحادث في سنة سبع وتسعين وثلاثمائة المؤذن بها كان في برج ذو جسدين قيل له السنبلة، فأنذروا بذلك بأن تكون لمن قام بالملك في هذه الفتنة دولتان لا محالة.

---

(١) هذا نص رسالة أو كتاب تولية محمد بن المستعين بالله، وكذا كل كتاب تولية بعهد أو ما شابه ذلك تنتقى كلماته ويظهر فيه كاتبه حرصه الشديد على الإسلام والرعية وخوفه الشديد من المسؤولية وابتغاؤه من عمله هذا وجه الله رب البرية ومتأسياً في عمله هذا خير البرية وأصحابه هداة البشرية وكأن الأمر في ظاهره صحيح وليس فيه هوى ولا حظ لدنيا أو متاع زائل أو سلطان مزيف والحقيقة أن العكس هو الصحيح وأن الرعية تسقى كؤوس الحنظل من جراء ذلك.

فرصدت ذلك فإذا القضاء قد أخرجه من القول إلى الفعل حسبما ذكروه وتناسق على الكرور في الملك خمسة أملاك ملكوا مرتين مرتين وهم:

محمد بن هشام هذا.

ثم هشام بن الحكم صاحب الجماعة.

ثم سليمان بن الحكم صاحب البرابرة.

ثم اثنان من ملوك الحمودية:

القاسم بن حمود.

وابن أخيه يحيى بن علي بن حمود.

وارتفعت بعد هذه العادة على أن أباه على ابن حمود عاتب سليمان بن الحكم.

وأول ملوك بني حمود شذ عن هذا الترتيب في تثنية الملك، ومن سميناه فلم يَدُل إلاّ مرة واحدة، والله أعلم بأمره وأحكم.

ذكر دولة الأدارسة الحَسَنيين بقرطبة وما يتخللها من أفذاذ بني أمية من بعد الجماعة

دولة علي بن حمود بقرطبة

وهو: علي بن حمود بن ميمون بن حمود بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن / حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه[1]. [١٦٥/أ]

وهو أول ملوك بني هاشم بالأندلس.

والكلام في هذا البيت ولحاق أهله من البلاد الحجازية بالمغربية مما يرجأ القول فيه إلى الجزء الثالث بعد هذا إن شاء الله تعالى.

لقبه: الناصر لدين الله.

وكنيته: أبو الحسن.

وكان من جملة أمراء المغاربة المرشحين في ديوان بني أمية بقرطبة.

ولما التفت البرابرة والمغاربة بسليمان استحيا شيئاً من العصائب الأندلسية وتشمر لمقارعتها، وأجفل البرابرة إلى وادي باروا منهزمين لحق بالعدوة الغربية. وتغلب على سبتة محتالاً، ثم عاد إلى الأندلس لما استوثق الأمر لسليمان، واختص

---

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٣٥)، جمهرة أنساب العرب لابن حزم (٥٠)، جذوة المقتبس (٢٢)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (١/ ٩٦)، بغية الملتمس (٢٧)، الكامل لابن الأثير أحداث سنة (٤٠٧)، المعجب (٩٨)، البيان المغرب (٣/ ١١٩)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٥٢)، الأعلام (١٢٨)، نفح الطيب (١/ ٤٣١). وقال الذهبي في ترجمته: المستولي على الأمر بقرطبة في أول سنة سبع وأربعمائة، وكانت دولته اثنين وعشرين شهراً. ثم خالف عليه مواليه الذين قاموا بنصره وبيعته، فخرجوا عليه، وقدموا عليه الأمير عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك ابن الناصر لدين الله الأموي، ولقبوه بالمرتضى. وزحفوا إلى غرناطة، ثم ندموا على تقديمه لما رأوا من قوته وصرامته وثبات جأشه، فخافوا من غائلته، ففروا عنه، ودسوا عليه من قتله غيلة أم علي بن حمود، فوثب عليه غلمان له سقالبة في الحمام فقتلوه في آخر سنة ثمان وأربعمائة، وخلف من الأولاد يحيى المُعتلي، وإدريس، فشيخنا جعفر بن محمد الإدريسي من ذريته.

كور أيالته التي اقتسمتها البرابرة واقتطعوها بسبتة.

وأخوه القاسم بالجزيرة كما ذكرنا آنفاً.

ولم يغب [عن][(١)] وجوه أصحاب سليمان بن الحكم فساد رأيه في إشراك بني حمود مع نفسه في الولايات، وجنايته على نفسه في ترشيحهم إلى طلب ما بيده.

ولكن الله غالب على أمره، فلقد دخل على سليمان البرزالي من رؤساء البرابرة لما بلغه تقديم بني حمود بضفتي العدوتين، فقال له: بلغني أنك وليت بني حمود على المغرب؟

فقال: نعم.

فقال: أليس العلويون طالبين؟

فقال: نعم.

فقال له: تأتي إلى الأحناش فتردهم ثعابين؟

فقال له: قد نفذ الأمر بذلك.

وقال ابن حيان: ومن الاتفاق العجيب على سليمان:

أنه لما استوثق له الأمر بعد فراغه من هشام أنفذ عزمه من قواد جيشه في اختيار علي بن حمود للتقديم بسبتة رأياً ذهل عنه ونبذها إلى ضر له مُكَاشح شريك في الدعوة والقرابة.

فتلقفها علي وهجم عليه فسلب ملكه، وحول دولته، ومزق عشيرته.

وإذا أراد الله أمراً أمضاه.

وذكر أن هشاماً كان معنياً بقائم على المروانية بسبتة أول اسمه عين، حسبما تلقى ذلك من كتب الملاحم والحدثان.

فلم يزل يرتقب ظهوره إلى أن قام على سبتة، فكتب له عهده، فكان من أخذه بثأره على ما تقدم.

ولما صارت إليه الدولة قهر البرابرة وأمضى الأحكام، وأقام العدل.

وكان الأغلب على خلقه السماحة، والشجاعة، والإنابة، وكان مفتح الباب مرفوع الحجاب، يقيم الحدود، ويعذب الظالمين المتظلمين، فانتشر الناس في الأرض.

ثم ساء في الناس رأيه فألزمهم المغارم، وانتزع منهم السلاح وتوصل إلى

(١) زيادة يتطلبها السياق.

خيارهم بسبب الأطماع، فامتحن لذلك جملة من أعيان قرطبة.

وكان، فيما زعموا، يصيب بعينه[١]، فلما يستحسن شيئاً إلا أسرعت إليه الآفة وأزورت عنه خواصه، والكثير من الرؤساء والعامرية.

وفي سنة ثمان وأربعمائة / كان مقتله بأيدي أحداث من صقالبته بجماع خنجره، [١٦٥/ب] لم يشركهم سواهم، ولما استطال بقاؤه في الحمام دخلوا عليه فألفوه صريعاً يسيل دمه...[٢]، وبعث إلى القاسم أخيه بإشبيلية فلحق بقرطبة وصلى على أخيه، وقعد مكانه، وعثر على اثنين من الصبية فقتلا، وصلبا، ولم تنتقل التهمة إلى غيرهم فسكنت الأحوال.

دولة القاسم بن حمود[٣] بقرطبة

وقد تقدم نسبه، وذكر أخيه.

وكان لقبه: المأمون.

وكنيته: أبو محمد.

وولي الأمر مرتين مداولاً لابن أخيه، يحيى أولاهما لأربع خلون من ذي القعدة، سادس يوم من موت أخيه.

---

(١) يريد أنه كان حسوداً وهذه الصفة يوصف بها أناس كثيرين، والحقيقة أن الحسد موجود وورد ذكره في القرآن الكريم وأمرنا بالاستعاذة بالله من هؤلاء الحساد، غير أن هناك من الناس من يبالغ في هذا الأمر ويظن أن الحسد يسبق القدر وهذا اعتقاد فاسد.

(٢) في المخطوط كلمة مختلطة المداد.

(٣) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٣٦)، جمهرة ابن حزم (٥٠)، جذوة المقتبس (٢٢)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (١/ ٤/ ٤٨١)، بغية الملتمس (٢٨)، الكامل في أحداث سنة (٤٠٨هـ)، البيان المغرب (٣/ ١٣٣)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٥٢)، نفح الطيب (١/ ٤٣١).
وقال الذهبي في ترجمته: وكان هادئاً ساكناً أمن الناس معه، وكان يتشيع قليلاً، فبقي في الملك إلى سنة اثنتي عشرة وأربعمائة في ربيع الأول فخرج عليه ابن أخيه يحيى بن علي بن حمود المعتلي. فهرب القاسم من غير قتال إلى إشبيلية فاستمال البربر، وجمع وحشد وجاء إلى قرطبة، فهرب منه المعتلي. ثم اضطرب أمر القاسم بعد قليل، وخذله البربر، وتفرقوا في سنة أربع عشرة، وتغلبت كل فرقة على بلد من الأندلس وجرت خطوب وأمور يطول شرحها. فلحق القاسم بشريش، فقصده المُعتلي وحاصره وظفر به، وسجنه دهراً. وأما أهل إشبيلية فطردوا عنها ابني القاسم بن حمود. وأمروا عليهم ثلاثة: قاضي البلد محمد بن إسماعيل بن عباد، ومحمد بن بريم الإلهاني، ومحمد بن الحسن الزبيدي، فساسوهم، ثم تملك عليهم القاضي وأظهر لهم ذلك الحصري الذي يقال أنه المؤيد. وتملك مالقة يحيى المعتلي، والجزيرة الخضراء. وغلب أخوه إدريس بن علي على طنجة، وطال أسر القاسم، وعاش ثمانين سنة. ثم خنق في سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة.

وأحسن تلقي الناس، وأجمل موعدهم، وأمَّنَهُم، وأسقط عنهم ما كان قد طلبهم به أخوه، وأقر الحكام، وأرباب الألقاب على ما تخلفهم عليه أخوه.

ثم ضعف أمره وتلاشى وغلبه عليه رؤساء البرابرة المستولون على الكور، وأمراء الثغر، والفتيان العامرية بالبلاد الشرقية.

واتفق أمير الثغر منذر بن يحيى، وابن ذي النون، وزهير العامري على إعادة الدولة المروانية.

فبايعوا من بني أمية عبد الرحمٰن بن حمود الناصر لدين الله.

بيعة المرتضى من بني أمية وهو عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمٰن الناصر

وكان من أسباب ذلك أن خيران الفتى العامري لما دخل قرطبة مع علي بن حمود طمع في أن يجد هشاماً المؤيد بالله حياً[1]، فلما لم يجده استراب من علي بن حمود، وحذره، وشرع في الفرار، واتبعه علي بذلك طبقة زُهَيْر، ولحق في أمنه وشيعته ونصبوا هذا المرتضى وزحفوا به إلى قرطبة بعد أن أحكموا أمره، وراشوا جناحه، وأقاموا آلات الملك، ونزلوا بغرناطة بادرين وأميرها يومئذ زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي.

فكانت بينه وبين القوم محاورات ومخاطبات ثم اقتتلوا قتالاً شديداً أياماً، ثم أن المرتضى خذله أنصاره من هؤلاء الأمراء وكانوا قد بدا لهم في أمره، فانهزموا عنه، وهم في أضعاف مضاعفة من عدوهم.

---

(١) قال ابن الأثير في الكامل في التاريخ في أحداث سنة (٤٠٧هـ) في موضوع ذكر ظهور عبد الرحمٰن الأموي: لما خالف خيران علياً أرسل يسأل عن بني أمية، فدل على عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمٰن الناصر الأموي، وكان قد خرج من قرطبة مستخفياً ونزل بجيان، وكان أصلح من بقي من بني أمية، فبايعه خيران وغيره ولقبوه المرتضى. وأرسل خيران منذر بن يحيى التجيبي أمير سرقسطة والثغر الأعلى وراسل أهل شاطبة، وبلنسة، وطرطوشة، والبونت، فأجابوا كلهم إلى بيعته، والخلاف على علي بن حمود. فاتفق عليه أكثر أهل الأندلس، واجتمعوا بموضع يعرف بالرياحين في الأضحى سنة ثمان وأربعمائة، ومعهم الفقهاء والشيوخ وجعلوا الخلافة شورى، وأصفقوا على بيعته. وساروا معه إلى صنهاجة، والنزول على غرناطة. وأقبل المرتضى على أهل بلنسة وشاطبة، وأظهر الجفاء لمنذر بن يحيى التجيبي ولخيران ولم يقبل عليهما، فندما على ما كان منهما. وسار حتى وصل إلى غرناطة فوصل إليها ونزل عليها وقاتلوها أياماً قتالاً شديداً فغلبهم أهل غرناطة وأميرهم زاوي بن زيري الصنهاجي، وانهزم المرتضى وعسكره، واتبعهم صنهاجة يقاتلون ويأسرون، وقتل المرتضى في هذه الهزيمة وعمره أربعون سنة وهو أصغر من أخيه هشام. وسار أخوه هشام إلى البونت وأقام بها إلى أن خوطب بالخلافة، ولم يزل علي بن حمود بعد هذه الهزيمة يقصد بلاد خيران والعامريين مرة بعد مرة.

وقتل المرتضى، واستولى الصنهاجيون أصحاب زاوي على محلبة من الآلات، والخيل، والظهر، والقباب على ما يجوز الوصف كثرة.

وورد على القاسم بن حمود الخبر بمقتل المرتضى وهزيمة / الأندلسيين من قِبل [١٦٦/أ] زاوي مع نهبه الغنيمة، وفي الجملة... [١] المرتضى... [١] من على نهر قرطبة، وغشيه الناس ينظرون إليه وقلوبهم تتقطع أسى وحسرة.

بعد هذه الوقيعة توكدت ريح المروانية وتقطعوا في الأرض واستيئسوا فلم تقم لهم قائمة.

وكان ممن تخطاه الملك يومئذ أبو بكر بن هشام بن عبد الرحمٰن أخو المرتضى ولحق بالموالي العامريين فزهدوا فيه، فاستقر عند ابن القاسم صاحب حصن البندها جاره، فلم يزل عنده إلى أن استدعي للأمر بقرطبة حسبما يأتي التنبيه عليه إن شاء الله تعالى.

ومن بعد هذه الوقيعة أزمع زاوي بن زيري الرحيل عن الأندلس إلى وطنه بإفريقية مغتبطاً بما تهيأ له وحذراً من العواقب بعده، إذ رأى أن الذي جَرَّ له الهزيمة على الأمراء إنما كان إغماضهم وتخاذلهم عن نصر صاحبهم.

وكانت هذه الوقيعة في سنة تسع وأربعمائة.

رجع الحديث إلى دولة القاسم [٢]

ولما ضعف أمر القاسم شرع أبناء أخيه: يحيى الكائن بسبتة.

وإدريس الكائن بمالقة.

في مطالبته، فأجاز منهم يحيى بن علي بن حمود البحر إلى مالقة فضبطها.

وتخلف إدريس بسبتة.

وجمع يحيى جيشاً ممن انضاف إليه بمالقة ومن أعانه من جيرانه البرابرة وأقدم على عمه بقرطبة.

---

(١) موضع النقط كلمات غير مقروءة بالمخطوط.

(٢) قال ابن الأثير في الكامل في أحداث سنة (٤هـ) في ذكره ولاية القاسم بن حمود العلوي بقرطبة: قد ذكرنا قتل أخيه علي بن حمود سنة سبع وأربعمائة، فلما قتل بايع الناس أخاه القاسم ولقب المأمون، فلما ولي واستقر ملكه كاتب العامريين واستمالهم، وأقطع زهيراً جيان، وقلعة رباح وبياسة، وكاتب خيران واستعطفه فلجأ إليه واجتمع به ثم عاد عنه إلى المرية. وبقي القاسم ملكاً لقرطبة وغيرها إلى سنة اثنتي عشرة وأربعمائة. وكان وادعاً ليناً يحب العافية فأمن الناس معه، وكان يتشيع إلا أنه لم يظهر شيئاً من ذلك فسار عن قرطبة إلى إشبيلية، فخالفه يحيى ابن أخيه فيها.

واستجار قاسم برؤساء البرابرة جيرانه فقعدوا، وأرادوا التقريب بين أولئك الحَسَنِيين.

ولما عجز القاسم عن مقاومته فرّ إلى إشبيلية فضبط أمرها لثمان خلون من ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وأربعمائة.

وضبط بها من العدويين إلى أن لحق يحيى بن علي بقرطبة.

دولة يحيى بن علي الحمودي الحسني(١) بقرطبة

بويع له بقرطبة يوم الاثنين مستهل جمادى الأولى سنة اثنتي عشرة وأربعمائة، واجتمع عليه الفريقان من البرابرة والأندلسيين بقرطبة وأعمالها.

وكان شريف الأرومة من بيت كريم الولادة، رابع أربعة من أبناء القرشيات في

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٣٧)، جذوة المقتبس (٢٤)، الذخيرة في محاسن الجزيرة (١/ ٤/ ٣١٦)، بغية الملتمس (٣٠)، الكامل لابن الأثير في أحداث سنة (٤١٢هـ)، المعجب (٥٠)، البيان المغرب (٣/ ١١٨)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٥٣)، بلغة الظرفاء (٤٢)، نفح الطيب (١/ ٤٣١)، قال ابن الأثير في الكامل في التاريخ في أحداث سنة (٤٠٧) في ذكر دولة يحيى بن علي بن حمود وما كان منه ومن عمه: لما سار القاسم بن حمود عن قرطبة إلى إشبيلية سار ابن أخيه يحيى بن علي من مالقة إلى قرطبة فدخلها بغير مانع، فلما تمكن بقرطبة دعا الناس إلى بيعته فأجابوه، فكانت البيعة مستهل جمادى الأولى من سنة اثنتين عشرة وأربعمائة، ولُقب بالمعتلي، وبقي بقرطبة يُدعى له بالخلافة وعمه القاسم بإشبيلية يُدعى له بالخلافة إلى ذي القعدة سنة ثلاث عشرة وأربعمائة. فسار يحيى عن قرطبة إلى مالقة ووصل الخبر إلى عمه فركب وجد في السير ليلاً ونهاراً إلى أن وصل إلى قرطبة فدخلها ثامن عشر ذي القعدة سنة ثلاث عشرة. وكانت مدة إقامته بإشبيلية قد استمال العسكر من البربر وقوي بهم، وبقي القاسم بقرطبة شهوراً ثم اضطرب أمره بها. وسار ابن أخيه يحيى بن علي إلى الجزيرة الخضراء، وغلب عليها وبها أهل عمه وماله. وغلب أخوه إدريس بن علي صاحب سبتة على طنجة، وهي كانت عدة القاسم التي يلجأ إليها إن رأى ما يخاف بالأندلس. فلما ملك أبناء أخيه بلاده طمع فيه الناس وتسلط البربر على قرطبة فأخذوا أموالهم، فاجتمع أهلها وبرزوا إلى قتاله عاشر جمادى الأولى سنة أربع عشرة، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم سكنت الحرب وأمّن بعضهم بعضاً إلى منتصف جمادى الأولى من السنة. والقاسم بالقصر يظهر التودد لأهل قرطبة، وإنه معهم وباطنه مع البربر. فلما كان يوم الجمعة منتصف جمادى الآخر صلى الناس الجمعة، فلما فرغوا تنادوا السلاح السلاح، فاجتمعوا ولبسوا السلاح وحفظوا البلد ودخلوا قصر الإمارة. فخرج عنها القاسم واجتمع معه البربر وقاتلوا أهل البلد، وضيقوا عليهم، وكانوا أكثر من أهله، فبقوا كذلك نيفاً وخمسين يوماً والقتال متصل، فخاف أهل قرطبة وسألوا البربر في أن يفتحوا لهم الطريق ويؤمنوهم على أنفسهم وأهليهم، فأبوا إلا أن يقتلوهم، فصبروا حينئذ على القتال، وخرجوا من البلد ثاني عشرة شعبان، وقاتلوهم قتال مستقتل فنصرهم الله تعالى على البربر ومن بُغي عليه لينصرنه الله، وانهزم البربر هزيمة عظيمة ولحق كل طائفة منهم ببلد فاستولوا عليه.

الإسلام، أولهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ثم الحسن الأمين.

ثم زبيدة بنت جعفر.

وسلك لأول أمره مسلك أبيه في التخفي بالفروسية والصيد ومجانبة العصبية، وإيثار السلامة.

إلا أن الكِبر والعُجب شانته وثلث خصاله بالإضاعة والراحة واستكفاء غير الكفي طَرَّقا الخلل إلى أمره وضيقت عليه، فاضطر إلى ارتكاب ما نعاه الناس على غيره، فساءت حاله، ونهشت مدة ولايته الأولى هذه وهي سنة واحدة وستة أشهر.

/ثم جرت مسالمة ومعاقدة بينه وبين عمه المجاور له بإشبيلية. [١٦٦/ب]

فقال أبو محمد بن حزم: ولم نسمع بخليفتين تصالحا ولا بادل على الأمصار منه.

واضطر إلى الفرار عن قرطبة لاثنتي عشرة خلت من ذي القعدة سنة ثلاث عشرة وأربعمائة.

دولة القاسم بن حمود الحسيني في كرّته الثانية

ولما فرّ يحيى بن علي بن حمود من قرطبة وخلعه من بها من جند البر وغيرهم، استدعى الأمر القاسم من إشبيلية ثانية.

فدخل قرطبة يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت في ذي القعدة سنة ثلاث عشرة[1].

---

(١) وقال ابن الأثير في الكامل في أحداث سنة (٤٠٧هـ) في ذكر دولة يحيى بن علي وما كان من عمه وأما القاسم بن حمود فإنه سار إلى إشبيلية وكتب إلى أهلها في إخلاء ألف دار ليسكنها البربر، فعظم ذلك عليهم، وكان بها ابناه الحسن ومحمد، فثار بهما أهلها، فأخرجوهما عنهم ومن معهما، وضبطوا البلد وقدموا على أنفسهم ثلاثة من شيوخهم وكبرائهم وهم: القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي، ومحمد بن يريم الألهاني، ومحمد بن محمد بن الحسن الزبيدي. وكانوا يدبرون أمر البلد والناس. ثم اجتمع ابن يريم والزبيدي وسألوا ابن عباد أن ينفرد بتدبير أمورهم، فامتنع وألحوا عليه. فلما خاف على البلد بامتناعه أجابهم إلى ذلك، وانفرد بتدبير وحفظ البلد. فلما رأى القاسم ذلك سار في تلك البلاد ثم أنه نزل بشريش، فزحف إليه يحيى ابن أخيه علي ومعه جمع من البربر فحصروه، ثم أخذوه أسيراً فحبسه فبقي في حبسه إلى أن توفي يحيى، وملك أخوه إدريس. فلما ملك قتله، وقيل: بل مات حتف أنفه وحمل إلى ابنه محمد وهو بالجزيرة الخضراء فدفنه. وكانت مدة ولاية القاسم بقرطبة مذ تسمى بالخلافة إلى أن أسره ابن أخيه ستة أعوام، وبقي محبوساً ستة عشر سنة إلى أن قتل سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة، وكان له ثمانون

فاستمرت أيامه بقرطبة وإشبيلية، وابن أخيه يحيى بمالقة يدعى لكل واحد منهما بأمير المؤمنين.

إلى أن ساءت حاله وفسد ما بينه وبين أهل المدينة بسبب من حقد من البربر، فثار الناس وأعلنوا بخلعه كلمة إجماع، وأزعجوه عن المدينة يوم الثلاثاء لتسع بقين من جمادى الآخرة منها بعد حصره في القصر أياماً يراوحونه القتال ويغادونه إلى أن انتقل إلى الربض الغربي منها في جيش البربر.

واتصل منه العطاء بقرطبة نحو شهرين إلى أن أتيح عليهم النصر على أهل المدينة ووقعت عليهم هزيمة شنيعة خروا لها مغلولين، وذلك لاثنتي عشرة ليلة خلت من شعبان من السنة.

وفرّ القاسم إلى إشبيلية، وبها ابناه محمد والحسن وأهله فسد أهلها أبواب المدينة في وجهه وعميدهم القاضي بإشبيلية محمد بن إسماعيل بن عباد أول الطائفة العبادية.

وهذه الحال كانت أمس دولتهم.

وانصرف القاسم طريداً إلى مدينة شريش، فاستقر بها، وأعمل إليه الحركة يحيى المعتلي بالله ابن أخيه، فداوله بقرطبة فنازله بمدينة شريش إلى أن فتحها، وأسره فسجنه مع بنيه بمالقة.

ثم انقضى قتله خنقاً فيما زعموا.

ولما فر القاسم عن قرطبة منهزماً مع البرابر وظهر عليهم القرطبيون طمعوا في حيز الدعوة المروانية فاختاروا من أبناء المروانية أمثل ما في بقاية الوقت سليمان بن عبد الرحمٰن، وكتبوا بيعته ولقبوه بالمرتضى.

فبينما هم بالمسجد الأعظم، قد شرعوا في أخذ البيعة له إذ هجم إليهم عبد الرحمٰن بن هشام بن عبد الجبار أخو المهدي القائم على بني عامر المستولي على أمر هشام المؤيد في شرذمة من الناس يدعو إلى نفسه، فرجعوا إليه طوعاً وكرهاً وبُتر اسم سليمان من الرق وجعل فيه اسمه، وذلك من النادر الغريب.

= سنة. وله من الولد: محمد والحسن وأمهما أميرة بنت الحسن بن القاسم المعروف بفتون بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وكان أسمر عين أكحل مصفر اللون طويلاً خفيف العارضين.

دولة عبد الرحمٰن بن هاشم بن عبد الجبار[١]

بويع يوم خروج القاسم والبرابرة من ربض قرطبة منهزمين يوم الثلاثاء السادس عشرين رمضان المعظم سنة أربع عشرة وأربعمائة.

وتلقب بـ«الظافر بالله»[٢].

وكان قد همّ بالوثوب عند اضطراب أمر القاسم بن حمود وبث دعاته فلم يتأت له ذلك.

ونذر به الوزراء والمشيخة، فحذروا من شر الوثوب. ووقع الطلب عليه فلم يظهر إلا يوم هجومه فأسفوه بذلك وإن كانوا قد علقوه بالشورى وجعلوه ثالث ثلاثة بعد سليمان بن المرتضى، ومحمد بن العراقي فاستقل بالأمر يومئذ وتكنفه أمير الدائرة محمود، وعنبر المقدمان على الرجال المستخدمين بقرطبة لحمايتها من القاسم والبرابرة، فساء الوزراء والمشيخة لذلك ولم يمهلهم أن قبض عليهم واعتقلهم بالمطبق وأغرمهم أموالاً، فسعوا عليه من المطبق، وكاتبوا الناس فاستجابوا لهم، وثاروا فكسروا المطبق إذ لم يكن بقرطبة معقل يملك السلطان فيه نفسه إلا القصر اغتراراً بأوفية العافية وحُسن ظن بالأيام.

وخرج الوزراء والمشيخة والتف بهم الناس وتغلبوا على القصر وأقعدوا به محمد بن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن عبد الرحمٰن الناصر لدين الله، ولقبوه بالمستكفي بالله.

وقال بعض المؤرخين:

إنما ثار به الناس لإكرامه وفد من البرابرة قدموا عليه.

فصاح: عاد شر البرابرة، جزعاً ووافقهم الدائرة.

فقتلوا الضيوف من البرابر وماجوا في البلد، فسمعهم من المطبق من مشيختهم فاستغاثوا بهم.

---

(١) من مصادر ترجمته: جذوة المقتبس (٢٥، ٢٦)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (١/ ١/ ٤٨)، بغية الملتمس (٣١)، الكامل في التاريخ في أحداث سنة (٤١٤هـ)، المعجب (١٠٥)، تتمة المختصر (١/ ٤٩٧)، نفح الطيب (١/ ٤٣٥).

(٢) في سير أعلام النبلاء: المستظهر بالله، وقال في ترجمته: المستظهر بالله عبد الرحمٰن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر لدين الله المرواني. قام معه كبراء قرطبة وملكوه بعد ذهاب القاسم الإدريسي فبايعوه في رمضان سنة أربع عشر وأربعمائة وله ثنتان وعشرون سنة. وكان عجباً في الذكاء والبلاغة، يُكنى أبا المطرف وزر له ابن حزم الظاهري. ولم تطل أيامه بل قُتل بعد أيام من ذي القعدة من عامه، توثب عليه ابن عمه المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمٰن، وتملك ستة أشهر ونزع.

فكسروا أقفاله، وما راعه إلا تسور الناس السقف عليه، وأحيط به من كل جانب وجهة وركب يطمع في الخروج.

فقامت الدابرة من وجهه يسبونه، فترجل، وخلع ثيابه واختلى في أثر حمام القصر، وسبيت حُرمه بما لم يجر على حُرم مثله، وبحث عنه، فاستخرج بحال قبيحة، فبطش به أحد الرجالة القائمين على رأس ابن عمه المبايع.

فقتل ومضى لسبيله يوم السبت لثلاث خلون من ذي القعدة سنة أربع عشرة وأربعمائة.

وكان لولا قاطع الأدبار عليهم من ذوي الفضل البارع والظرف الناصع.

قال ابن بسام: كان على حدوث سِنّه ذكياً فطناً يقظاً لبيباً أديباً حسن الكلام، جيد القريحة، فليح البلاغة، يتصرف فيما شاء ويصوغ قطعاً من الشعر مستجادة يزين ذلك بطهارة أثواب وعفة وبراءة من شرب النبيذ، وكان في وقته فسيح، وحدّ به ختم فضلاء أهل بيته الناصريين.

بيعة المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمٰن بن عبيد الله بن عبد الرحمٰن الناصر لدين الله(١)

[١٦٧/ب] / وكنيته: أبو عبد الرحمٰن.

وكان عمره اثنتين وخمسين سنة.

ووافق لقبه لقب سميه من العباسية، وكثير من الخلال منها:

توثبهما في الفتنة.

واستظهارهما بالفسقة.

واعتزل كل واحد منهما على ابن عم.

---

(١) من مصادر ترجمته: جمهرة أنساب العرب (١٠٠)، جذوة المقتبس (٧٦)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (١/ ١/ ٤٣٣)، بغية الملتمس (٣٣)، الكامل في التاريخ في أحداث سنة (٤٠٧هـ)، المغرب في حلي المغرب (١/ ٥٤)، البيان المغرب (٣/ ١٤١)، الوافي بالوفيات (٣/ ٢٣٠)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٥٢)، نفح الطيب (١/ ٤٣٢). قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٣٨): تملك ستة أشهر، وكان أحمق، قليل العقل، وزر له أحمد بن خالد الحائك، ثم قُتل وزيره، وخُلع هو، وسجنوه ثلاثاً لم يطعموه فيها شيئاً، ثم نفوه المُعثر فلحق بالثغور، وأضمرته البلاد. وقيل: بل سم في دجاجة فهلك، وعاد أمر الناس إلى المعتلي. وقال في السير أيضاً (١٧/ ٣٩٧): الأموي المرواني، خرج على ابن عمه الملقب بالمستظهر بقرطبة في ذي القعدة سنة أربع عشرة وأربعمائة، وقتله وتمكن. وكان أحمق طائشاً.

وتوسيط كل واحد منهما في شأنه امرأة خبيثة، فلذلك حسناء الشيرازية، ولهذا بنت المروزية. قاله ابن حيان.

وكان منقطعاً إلى البطالة عطلاً من الخصال ضداً لقتيله المستظهر.

وفي أيامه عاجل ابن عمه ابن العراقي بالخنق.

وفي أيامه استؤصلت القصور الناصرية بالخراب.

وفي سنة ستة عشر وأربعمائة اتصل بأهل قرطبة تحرك يحيى بن علي بن حمود إليهم من مالقة، فدخل الوزراء والمشيخة على المستكفي، فأغلظوا عليه الكلام، وقالوا: قد اضطررنا إلى مكافحة عدونا ونحن خارجون إليه ولا ندري ما يحدث عليك بعدنا، فاخرج معنا. فأوعل الرد عليهم، وخرج فاراً بنفسه في هيئة النساء منتقباً بين امرأتين، فذكر له من خرج معه من رجاله اتهموه بمال فاغتالوه[1]، وقتلوه بأقليح من الثغر، وكان خروجه في يوم الثلاثاء لخمس بقين من ربيع الأول من السنة.

وعاد يحيى بن علي بن حمود إلى قرطبة.

دولة يحيى بن علي بن حمود بقرطبة كرته الثانية

وقدم يحيى بن علي من مالقة بعد انصراف المستكفي عن قرطبة، فدخل القصر يوم الخميس لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة ست عشرة المذكورة، وبقي به إلى تمام السنة، ثم خرج إلى مالقة يوم الثلاثاء لثمان خلون من المحرم، وتحرك بقرطبة وزيره وكاتبه أبو جعفر أحمد بن موسى، ودوناس بن أبي روح إلى أن قصد إلى قرطبة الموفى زهير وخيران العامريان من قبل حبوس بن ماكسن.

فلما أحَسّ أهل قرطبة بهما وثبوا بمن كان عندهم من البرابر فقتلوهم يوم الثلاثاء لعشر بقين من ربيع الأول من السنة، وبلغ عددهم ألف رجل.

وفرّ أحمد بن موسى ودوناس فنجيا.

وكان يحيى بن علي بن حمود قد انتقل إلى قرمونة[2] مضيقاً على ابن عباد،

---

(١) قال ابن الأثير في الكامل في التاريخ في أحداث سنة (٤٠٧) في ذكر ولاية محمد بن عبد الرحمٰن: كان همه لا يعدو فرجه وبطنه، وليس له هم ولا فكر سواهما... فخلعوه، وخرج عن قرطبة ومعه جماعة.

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان: قَرْمُونِيَةُ: كورة بالأندلس يتصل عملها بأعمال إشبيلية، قديمة البنيان عصت على عبد الرحمٰن بن محمد الأموي، فنزل عليها بجنوده حتى افتتحها وخربها ثم عادت إلى بعض ما كانت عليه. وبينها وبين إشبيلية سبعة فراسخ، وبين قرطبة اثنان وعشرون فرسخاً. وأكثر الناس يقولون: قرمونة.

وطمع فيه ابن عباد لاستئثار اللهو واللعب به، فوجه إليه إسماعيل بن عباد ابنه مع جيش من صنائعه، وطائفة من البرابر المستخدمين لديه، فطرقوا أحواز قرمونة ليلاً، وقد كمنوا وستروا أنفسهم.

واتصل خبرهم بيحيى بن علي وهو عاكف على شرابه ثمل، فنعر وقال: وأبياض يحيى الليلة، وابن عباد زائره.

وبادر الخروج برجاله، ومضى يضرب أبطن فرسه، وألقى بنفسه على القوم في أوائل / خيله[١]، فنال منهم منالاً يفضحهم لولا أن انتفضت الكمائن، وحاد صبره، ثم انهزم أصحابه وصُرع فجز رأسه، وطير به إلى ابن عباد بإشبيلية. [١٦٨/أ]

فخر ابن عباد فيما زعموا ساجداً، وانطبق البلد فرحاً.

وكان لديه محمد بن عبد الله البرزالي كبير البرابرة من بني برزال، فابتدر قرمونة لوقته، وقد ملك أبواب سورها يحيى بن علي، فتوصل من بعض الأماكن حتى دخلها عن حيلة، فحاز ما اشتملت عليه، وانقضى أمر يحيى بن علي بن حمود على هذه الوتيرة[٢]، وذلك في سنة سبع عشرة وأربعمائة.

---

(١) رقم الصفحة: [١٦٧/أ،ب] محذوف حيث إنه وضع على صفحة مكررة التصوير فتركت الترقيم على ما في المخطوط معتبراً للرقم المحذوف مع هذه الإشارة إليه.

(٢) قال ابن الأثير في الكامل في التاريخ في أحداث سنة (٤٠٧هـ) في ذكر عودة يحيى العلوي إلى قرطبة وقتله: ولما مات أبو عبد الرحمٰن الأموي وصح عند أهل قرطبة خبر موته سعى معهم بعض أهلها ليحيى بن علي بن حمود العلوي ليعيدوه إلى الخلافة، وكان بمالقة يخطب لنفسه بالخلافة فكتبوا إليه وخاطبوه بالخلافة، وخطبوا له في رمضان سنة ست عشرة وأربعمائة فأجابهم إلى ذلك، وأرسل إليهم عبد الرحمٰن بن عطاف اليفرني والياً عليهم، ولم يحضر هو باختياره. فبقي عبد الرحمٰن فيها إلى محرم سنة سبع عشرة، فسار إليه مجاهد وخيران العامريان في ربيع الأول منها في جيش كثير، فلما قاربوا قرطبة، ثار أهلها بعبد الرحمٰن فأخرجوه وقتلوا من أصحابه جماعة كثيرة ونجا الباقون. وأقام خيران ومجاهد بها نحو شهر، ثم اختلفا فخاف كل واحد منهما صاحبه. فعاد خيران عن قرطبة لسبع بقين من ربيع الآخر من السنة إلى المرية وبقي بها إلى سنة ثمان عشرة، وتوفي، وقيل: سنة تسع عشرة. وصارت المرية بعده لصاحبه زهير العامري فخالف حبوس بن ماكسن الصنهاجي البربري، وأخوه على طاعة يحيى بن علي العلوي. وبقي مجاهد مدة ثم سار إلى دانية وقطعت خطبة يحيى منها وأعيدت خطبة الأمويين، وبقي يتردد عليها بالعساكر. واتفق البربر على طاعته وسلموا إليه ما بأيديهم من الحصون والمدن، فقوي وعظم شأنه وبقي كذلك مدة. ثم سار إلى قرمونة، فأقام بها محاصراً لإشبيلية طامعاً في أخذها، فأتاه الخبر يوماً أن خيلاً لأهل إشبيلية قد أخرجها القاضي أبو القاسم بن عباد إلى نواحي قرمونة. فركب إليه ولقيه وقد كمنوا له، فلم يكن بأسرع من أن قتل. وذلك في المحرم سنة سبع وعشرين وأربعمائة. وخلف من الولد: الحسن وإدريس لأي ولد. وكان أسمر أعين أكحل طويل الظهر قصير الساقين وقوراً هيناً ليناً. وكان عمره اثنتين وأربعين وأمه بربرية.

فكانت مدته هذه ثلاثة أشهر واثنين وعشرين يوماً.

وكان من حديث بني حمود ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

قال: واجتمع أهل قرطبة بعد هذه الكائنة، على خلع الفاطميين من بني حمود. ونشأت بينهم الترات التي تأبى المهادنة، فنظروا من يسددون به الرسم من بني أمية؟.

دولة هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمٰن الناصر

وتقدم أن المرتضى الذي بايعه العامريون قُتل بظاهر غرناطة لما حلّ بها طالباً الأمر لنفسه على يد زاوي بن زيري، وأن أخاه هشاماً هذا فرَّ يومئذ من الوقيعة، واستقر يحض البنت عند صاحب عبد الله بن قاسم الفهري.

ولما خلع الحموديون بايعه أهل قرطبة بمكانه من الثغر المذكور يوم الأحد لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ثمان عشرة وأربعمائة، وأقام كذلك سنتين وسبعة عشر وأربعمائة.

وأقام كذلك سنتين وسبعة أشهر وثمانية أيام، فخطب له بقرطبة غائباً عنها ثم أتى قرطبة في سنة عشرين ولم تطل مدته إلى أن خلع بسبب وزير له يُعرف بسعيد بن الحكم، ويدعى بالقزاز أساء معاملة الوزارة والرعية.

وكان إحسان معاملة من ذكر يومئذ معوزاً بكل حال لسوء خلق المدينة. وشذوذ أهلها عن ضبط السياسة ومرانهم على الوثوب، وضعف السلطان وعجزه عن مؤنة من يقهر به العامة، فبطشوا به وقتلوه[1].

وكان المعزي بهشام ابن عم له هو أمية بن عبد العزيز العراقي من أبناء الناصر. فتى شديد التهور والجهل سولت له نفسه الاستيلاء، فلما قتل ابن حكم قام أمية هذا، وهو: أمية بن عبد الرحمٰن بن هشام بن سليمان[2] بن عبد الرحمٰن الناصر.

واجتمع عليه العوام، وتقدم إلى القصر، وهشام الشيخ غافل بين يدي نسائه.

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٤٢): واتفق في هذا العام [٤٢٧هـ] موت الأمير المعتمد بالله أبي بكر هشام بن محمد بن عبد الملك ابن الناصر المرواني. وكان قد بويع ونهض بأمره عميد قرطبة أبو الحزم جهور بن محمد، فعقدوا له في سنة ثمان عشرة، وبقي متردداً في الثغور ثلاث سنين وثارت فتن وبلايا واضطراب، ثم خلعه الجند وأهين، فالتجأ إلى ابن هود بسرقسطة إلى أن مات عن ثلاث وستين سنة، فهو آخر المروانية.

(٢) في الكامل في التاريخ في أحداث سنة (٤٠٧هـ): أمية بن عبد الرحمٰن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر.

فبادر حين بلغه الخبر والرجفة الصعود إلى العلية متمنعاً بها.

ونهبت العامة القصر، وبادر العامة إلى الشيخ أبي الحزم بن جهور كبيرهم، فهتف على الناس بكف الأيدي.

وأمية مع هذا مقيم بالقصر، قد تبوأ مجلس هشام، واستوى على فراشه، ورتب من النهاية من ينفذ أوامره، محرضاً على هشام لا يشك في تمام الأمر له / وأعمل الوزراء والمشيخة. [١٦٨/ب]

فاتفقوا على خلع الشيخ وإبطال رسم الخلافة جملة لعدم المشاكلة، وعلى نفي المروانية وإجلاءهم، وأنفذوا إلى هشام المعتز بالله(١) وإلى أمية بالخروج عن قرطبة.

فأنزل الشيخ هشام من العلية إلى ساباط الجامع المفضي إلى المقصورة، فيمن تألف إليه من ولده ونسائه طارحاً نفسه على الجماعة ينشدهم الله في مهجته.

فأُعلم بكره الناس له.

فقال: ليتني قرب الجزيرة مؤنتي في اللجة فيكون أخفى لنسائي، فافعلوا ما شئتم، واحفظوني في أهلي وولدي. وبقي بمكانه يومه وليلته أسيراً ذليلاً خائفاً شاخص البصر إلى جهة تهجم منها المنية عليه.

وذكر بعض خدمة المسجد أن أول ما سأل الشيوخ الداخلين عليه إحضار كُسَيْرَة يسد بها جوع طفلة صغيرة له، إذ كان قد ضمها إليه ساتراً إياها بكفه من برد ليلته، وكانت تشكو له الجوع ذاهلة عما أحاط به فزيد به في همه.

وسأل سراجاً يتأنس به نساءه، فأبكى من كلمه اعتباراً بعادة الدهر.

وبات الناس ليلتين بالجامع ليفرغ الوزراء من شأنه.

ثم أُخرج إلى حصن ابن الشور(٢) من غير أن يؤخذ حظه بالخلع ولا يشهد بعجزه عن تدبير الخلافة وإحلال الأمة من بيعته على السبيل المعهودة.

---

(١) وفي الكامل أيضاً: المعتمد بالله، وقال في خبره: تسور القصر مع جماعة من الأحداث ودعا إلى نفسه، فبايعه من السواد ناس كثير. فقال له بعض أهل قرطبة: نخشى عليك أن تقتل في هذه الفتنة، فإن السعادة قد ولت عنكم. فقال: بايعوني اليوم واقتلوني غداً. فأنفذ أهل قرطبة وأعيانهم إليه وإلى المعتمد بالله يأمرونهما بالخروج عن قرطبة. فودع المعتمد أهله وخرج إلى حصن محمد بن الشور بجبل قرطبة، فبقي معه إلى أن غدر أهل الحصن بمحمد بن الشور فقتلوه وأخرجوا المعتمد إلى حصن آخر حبسوه فيه. فاحتال في الخروج منه ليلاً، وسار إلى سليمان بن هود الجذامي، فأكرمه وبقي عنده إلى أن مات في صفر سنة ثمان وعشرين، ودفن بناحية لاردة، وهو آخر ملوك بني أمية بالأندلس.

(٢) في المخطوط: «الشرب» وهو تحريف، والتصويب من الكامل في التاريخ.

وأنساهم الله ذلك تهاوناً بحقه ونسياناً. وأما أمية بن العراقي فلم يبرح من القصر حتى أزعج مطلقاً لسانه من الحمل على الوزراء بما شاء.

ومشى البربر في الأسواق، والأرباض، بأن لا يبقى بقرطبة أحد من بني أمية ولا يكنفهم أحد.

وكان القائم بإخراجهم ومقيم الرسم بقرطبة بعدهم، أبا الحزم بن جهور حسبما يأتي الكلام فيه.

وانتهى أمر بني مروان لهذا الحد، ومحى رسم الجماعة، وتقسم البلاد، والأقطار رؤساء الطوائف، قد استخار كل منهم استبداده بنفسه ورضي بذلك من بقواعدهم من المسلمين على وفور الفضلاء وتعدد العلماء، وانفساح الأقطار، وتزاحم الاعتمار.

والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

ونكر بالقول على تمام حديث العلويين الفاطميين من بني حمود.

ذكر تلخيص الكلام في الأمراء من بني حمود

قد ذكرنا منهم فيما سلف كثير، منهم:

علي بن حمود، والقاسم أخاه، ويحيى بن علي بن حمود.

وانتهينا إلى ذكر مقتل يحيى بن علي بظاهر قرمونة على يدي ابن عباد، وتغلب محمد بن عبد الله البرزالي على قومه.

/ فنصل ذكر القوم بعده، فنقول: [١٦٩/أ]

ولما بلغ إدريس بن علي بن حمود[١] الكائن بسبتة، خبر يحيى أخيه، أسرع

---

(١) مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٤١)، جذوة المقتبس (٣٠)، بغية الملتمس (٣٧)، البيان المغرب (٣/ ٢٨٩)، الوافي بالوفيات (٨/ ٣٢٤)، نفح الطيب (١/ ٤٣١)، وقال الذهبي في ترجمته في السير: الحسني الإدريسي أخو المعتلي بالله لما قتل أخوه بادر أبو جعفر أحمد بن موسى بن بقنة، ونجا الصقلبي الخادم، فأتيا مالقة وهي دار ملكهم فأخبرا إدريس بن علي بقتل أخيه بسبتة، فدخل الأندلس. بويع بمالقة ولقب بالمتأيد بالله، وجعل ابن أخيه حسن بن المعتلي والياً على سبتة. ثم إنه استنجد بإدريس محمد البربري على حرب عسكر إشبيلية، فأمده بجيش عليهم ابن بقنة فهزموا عسكر إشبيلية، وكان عليه إسماعيل ولد القاضي ابن عباد، وقتل إسماعيل وحمل رأسه إلى إدريس بن علي، فوافاه وهو عليل، فلم يعش إلا يومين ومات. وخلف من الولد: محمداً الذي لقب بالمهدي، والحسن الذي لقب بالسامي.
... ولما بلغ نجا الصقلبي وهو بسبتة موت إدريس عدى على مالقة ومعه حسن بن يحيى بن علي، فخارت قوى ابن بقنة وهرب، فتحصن بحصن لمارش وهو على بريد من مالقة، فبويع الحسن بن

اللحاق بمالقة، ودعا إلى نفسه، ونهض بالبيعة حبوس بن ماكسن مع صنهاجة، فبايعوه واستضافوا لجملتهم زهير الفتى.

فخطب له بالمرية لمطاوعة زهير خَلِيفَهُ وجاره بالبيرة، وذلك في منتصف ذي حجة من السنة.

وتوجهوا إلى قرمونة وإشبيلية، فحللوهما نهباً وغارة.

ولم يتجه لهم فيهما أكثر من ذلك.

ثم توفي إدريس صاحب سبتة ومالقة سنةِ إحدى وثلاثين وأربعمائة.

فبويع بعده:

أخوه حسن بن علي بسبتة، وتسمى بالمستنصر بالله.

ولما توفي حسن بن علي، قام بعده بأمره **ولده: يحيى.**

ودام ملكه بها سنتين، ثم قام عليه ابن عمه حسن بن علي نسيبه فخلعه.

ويذكر أن والد حسن هذا، وهو يحيى بن علي، أسند إليه عهده فسبقه عمه إدريس أبو هذا القتيل إليه.

وعبر حسن بن يحيى إلى مالقة، وكان له أخ إسمه إدريس. . .[1] فتفقده في القصر. ثم تمادى ملك حسن بمالقة إلى أن توفي بها مسموماً، وترك ولداً صغيراً له بسبتة، فبايعه أبو الفوز نجا العلوي، قائده وثقته بها.

وهو من شرط كتابنا ممن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام.

وأجار البحر لتقاد البلاد بأقصى الجزيرة وبها أبناء القاسم بن حمود، وأراد إخراجهم منها.

فبرزت إليه سبيعة أمهم حاشرة، وقالت: يا أبا الفوز أتقطع أيام مواليك، وتخرجهم وتكشفهم عن البلاد؟

فخجل رحمه الله من ذلك وانصرف إلى مالقة، وقد صحبه قوم من برغواطة كانوا إخواناً لحسن المتوفى بمالقة.

فترصدوا غفلة من أبي الفوز نجا العلوي فقتلوه بالطريق من مالقة.

ثم نهضوا إليها، فسبقوا الخبر، ودخلوا على أحمد بن موسى الوزير قائدها

= يحيى بالخلافة وتسمى بالمستعلي، ثم آمن ابن بقنة، فلما قدم عليه قتله، ثم قتل ابن عمه يحيى بن إدريس بن علي، ورجع نجا إلى سبتة، ثم هلك المستعلي بعد سنتين.

(١) كلمة غير مقروءة في المخطوط.

فقتلوه، وأخرجوا **إدريس بن يحيى**[(١)] من سجنه، فبايعوه بها هم ومن فيها من رؤساء البرابرة.

ولقبه: العالي بالله.

وخطبوا باسمه سنة أربع وثلاثين وأربعمائة، ثم ثار على العالي ابن عمه محمد بن إدريس بن علي بن حمود، فخلعه في شعبان من سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة.

اهتبلوا غرته وقد خرج إلى قلعة ببشتر، فسدت الأبواب في وجهه، فعاد إلى ببشتر[(٢)]، ثم ترحل بأهله وولده إلى سبتة فأقام بها عند سراجات البرغواطي القائم بأمره لذلك العهد ـ ويأتي التعريف به ـ.

واستقام أمر محمد بن إدريس بمالقة، **وتلقب**: بالمهدي.

وكان محمد بن إدريس هذا سفاكاً للدماء، فأُعملت الحيلة في هلاكه بكأس مسمومة، ووجهها إليه باديس بن حبوس الصنهاجي أمير غرناطة مع رجل من خاصته فقال: هذه كأس جُلبت للحاجب المظفر باديس، فلم يرها / تصلح إلاّ للخلافة [١٦٩/ب] فاختصك بها.

فأُعجب بذلك محمد بن إدريس، وما أن أوصلها إلى فِيهِ حتى أحسّ في نفسه ريبة فأمر الرجل الذي أوصلها إليه أن يشرب ما فيها فتهرأ لحمه من حينه[(٣)].

---

(١) مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٤٣، ٦٥٧)، جذوة المقتبس (٣٣)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (٢/ ١/ ٨٦١)، بغية الملتمس (٣٩)، الكامل في التاريخ في أحداث سنة (٤٠٧)، الحلة السيراء (٢/ ٢٦)، البيان المغرب (٣/ ٢١٨)، الوافي بالوفيات (٨/ ٣٢٤)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٥٥)، وقال الذهبي في ترجمته: أخرجه البربر من السجن وملكوه بعد مصرع نجا الخادم بعد موت أخيه الحسن بن يحيى وكان العالي فيه رقة ورحمة، لكنه قليل العقل يقرب السفهاء، ولا يحجب عنهم حظاياه، وكان سيىء التدبير. فمالت البربر إلى محمد بن القاسم الإدريسي فملكوه بالجزيرة الخضراء، ولقبوه بالمهدي. وصارت الأندلس ضُحْكة، بها أربعة كل واحد يُدعى أمير المؤمنين في مسير أربع ليال. ثم لم يتم أمر المهدي وفاجأه الموت عن ثمان بنين، وقام بالجزيرة ابنه القاسم بن محمد، ولم يتلقب بالخلافة. وقام بعد العالي ولده محمد، ثم مات بمالقة سنة خمس وأربعين وأربعمائة في حياة أبيه، ثم ردوا أباه إلى مالقة وغرناطة، ثم قهرهم ملك إشبيلية المعتضد بن عباد. وزالت دولة الإدريسية.

(٢) قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: بُبَشْتَر: بالضم، ثم الفتح، وسكون الشين المعجمة، وفتح التاء فوقها نقطتان وراء: حصن منفرد بالامتناع من أعمال ريّة بالأندلس بينه وبين قرطبة ثلاثون فرسخاً. وربما أشبعوا الباء الثانية فنشأت ألفاً، فقالوا: بباشتر.

(٣) هذه عادة الملوك عند الريبة يكون الضحية الخادم القائم على الإطعام أو الشراب، وربما لم يكن له أي ذنب ولا دراية بما يحمل بل وربما كان في نفسه وهو ساع إلى الملك بذلك السم الزعاف أن يمنحه الملك منحة عظيمة وهو لا يدري أنه يسير إلى حتفه بقدميه، ويحمل داءه بين يديه.

وبقي محمد بن إدريس ثلاث أيام، ومات في آخر سنة أربع وأربعين وأربعمائة، وقام بعده بالأمر:

ابن أخيه وهو: إدريس بن يحيى بن إدريس بن علي بن حمود.

وتسمى بالشافي.

ثم أحمل نفسه وركب البحر كأنه تاجر، ونزل في ريف غمارة فقبض عليه وأُتي به إلى سبتة، فقتله سراجات البرغواطي.

وبقي العالي عنده إلى أن مات في سنة أربعين وأربعمائة.

وولوا بعده ولده: محمد، وتسمى بالمستعلي.

واتفق أمراء البرابر على البيعة **لمحمد بن القاسم بن حمود** الكائن بعد أبيه بالجزيرة الخضراء، وما إليها.

ولقبوه بالمهدي.

وخطب له بجميع بلادهم، وتوجه إليه من رؤسائهم جماعة كبيرهم باديس بن حبوس صاحب غرناطة، وإسحاق بن محمد بن عبد الله الزناتي صاحب قرمونة، ومحمد بن نوح صاحب مورور، وعبدوس بن معروف صاحب أركش.

وانضاف إليهم فتح الله بن يحيى من أمراء وليۃ الغرب.

وابن الأفطس صاحب بطليوس[1].

ونهضوا به إلى بلاد ابن عباد بإشبيلية، ونازلوه وأشفوا أرضهم ثم انصرفوا، وقد عجزوا منه.

وذلك في سنة تسع وأربعين.

ولما توفي محمد بن القاسم بايعوا **ولده محمد بن القاسم.**

على رسمه، ثم مات، وولي بعده القاسم ولده بالملقب بالمستعلي.

ثم تغلب **باديس بن حبوس** على مالقة وأخرجه عنها، ولم يبق لهذا العهد على ملك الحسنيين إلا الجزيرة الخضراء وأميرها القاسم بن محمد بن القاسم بن حمود.

فنازله قائد ابن عباد عبد الله بن سالم في البر.

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان: مدينة كبيرة بالأندلس من أعمال ماردة على نهر آنة غربي قرطبة، ولها عمل واسع. ينسب إليها خلق كثير منهم: أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي النحوي اللغوي، صاحب التصانيف والشعر، مات في سنة (٥٢١هـ). وأبو الوليد هشام بن يحيى بن حجاج البطليوسي.

ونازله أساطيله في البحر.

فلما عجز عن مقاومته تخلى له عن البلد عن أمان أكده.

وركب البحر معرضاً عن جهة سراجات بسبتة إلى المرية، فأقام بها إلى أن مات وانقرضت مدتهم.

وكانت من يوم ولي علي بن حمود إلى تخلي القاسم عن الجزيرة ثمانياً وخمسين سنة.

قال أبو محمد بن حزم:

اجتمع عندنا بالأندلس في صقع واحد خلفاء أربعة، كل واحد منهم يخطب له بالخلافة وتلك فصيحة لم ير مثلها، أربعة رجال في مسافة ثلاث أيام كلهم يُسمى بالخليفة، وإمارة المؤمنين، وهم:

خلف المصري بإشبيلية على أنه هشام من بعد اثنتين وعشرين سنة من موت هشام، وشهد له خصيان ونسيان.

فخطب له على منابر الأندلس وسفكت الدماء من أجله.

ومحمد بن القاسم خليفة / بالجزيرة. [١٧٠/أ]

ومحمد بن إدريس خليفة بمالقة.

وإدريس بن يحيى بن علي ببشتر.

ذكر نبذة من أحوال ملوك الطوائف بعد الخلائف

نقول وبالله الاستعانة ومنه الحول والقوة ذهب أهل الأندلس في الانشقاق، والانشعاب، والافتراق إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار مع امتيازها بالمحل القريب والخطة المجاورة لعُبَّاد الصليب، ليس لأحدهم في الخلافة إرث ولا في الإمارة سبب ولا في الفروسية نسب ولا في شروط الإمامة مكتسب. فاقتطعوا الأقطار واقتسموا المدائن الكبائر، وجبوا العمالات والأمصار، وجندوا الجنود، وقدموا القضاة، وانتحلوا الألقاب، وكتبت عنهم الكُتاب الأعلام وأنشدهم الشعراء، ودوّنت بأسمائهم الدواوين، وشهدت بوجوب حقهم الشهود، ووقفت بأبوابهم العلماء، وتوسلت إليهم الفضلاء. وهم ما بين مجبوب وبربري مجلوب، ومجند غير محبوب، وغفل ليس في السراة بمحسوب، ما منهم من يرضى أن يسمى ثائراً ولا لحرب الحق مغايراً، وقصارى أحدهم أن يقول: أقيم على ما بيدي حتى يتعين من يستحق الخروج به إليه، ولو جاءه عمر بن عبد العزيز لم يُقبل عليه، ولألقى غير الدية.

ولكنهم استوفوا في ذلك آجالاً وأعماراً وخلفوا آثاراً، وإن كانوا لم يألوا غير آراء من معتمد، ومعتضد، ومرتضي، وموفي، ومستكفي، ومستظهر، ومستعين، ومنصور، وناصر، ومتوكل، كما قال الشاعر:

مما يزهد في أرض أندلس سماع معتضد فيها ومعتمد

ألقاب مملكة في غير موضعها كالمرء يحكي انتفاخاً صولة[1] الأسد

جلبنا منهم ذكراً ليغتبط مطالعه بحاله، ويَرْضَى الواقف عليه من زمانه، ويبتهج بشأنه، ويرى أنه أوثق عهدة وأحكم عقدة، وأرحب عطفاً وآمن وطناً.

وسبحان من لا تزن الدنيا عنده جناح بعوضة، ومن لم يرض لأوليائه الكرام عليه غير ما لديه.

ذكر أيام بني جهور بقرطبة وما إليها

قلت: وكان من الترتيب أن نقدم ذكر من تقدم بالزمان من هؤلاء الرؤساء، واستحق تقدم الذكر بتقدم وقت ظهوره.

وإنما ابتدأنا بهؤلاء الجهاورة اعتناءً بمحل ولايتهم، دار الملك قرطبة أعادها الله تعالى، ونبدأ أولاً بشيء من ذكرها فنقول[2]:

---

(١) كذا في المتن، وفي الهامش: «سورة» وربما كان ما في المتن تصحيح من الناسخ وأثبت الخطأ بالهامش.

(٢) قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: قُرْطُبَة: كلمة فيما أحسب أعجمية رومية ولها في العربية مجال يجوز أن تكون من القرطبة وهو العدو الشديد... وقال الأصمعي: طعنه فقرطبه إذا صرعه... وقال: القُرطُبا السيف، كأنه من قرطبه أي قطعه. وهي مدينة عظيمة بالأندلس وسط بلادها وكانت سريراً لملكها وقصبتها، وبها كانت ملوك بني أمية، ومعدن الفضلاء ومنبع النبلاء من ذلك الصقع، وبينها وبين البحر خمسة أيام. قال ابن حوقل التاجر الموصلي، وكان طرق تلك البلاد في حدود سنة (٣٥٠هـ): وأعظم مدينة بالأندلس قرطبة، وليس لها في المغرب شبيهاً في كثرة الأهل وسعة الرقعة. ويقال: إنها كأحد جانبي بغداد، وإن لم تكن كذلك فهي قريبة منها، وهي حصينة بسور من حجارة، ولها بابان مشرعان في نفس السور إلى طريق الوادي من الرصافة. والرصافة مساكن أعالي البلد متصلة بأسفله، وأبنيتها مشتبكة محيطة من شرقها وشمالها وغربها وجنوبها، فهو إلى واديها، وعليه الرصيف المعروف بالأسواق والبيوع. ومساكن العامة بربضها، أهلها متمولون متخصصون، وأكثر ركوبهم البغلات من خَوَرِهم وجبنهم، أجنادهم وعامتهم. ويبلغ ثمن البغلة عندهم خمسمائة دينار، وأما المائة والمائتان فكثير لحسن شكلها وألوانها وقدودها وعلوها وصحة قوامها.

قال عبيد الله الفقير إليه مؤلف هذا الكتاب: كانت صفتها هكذا إلى حدود (٤٤٠هـ) فإنه انقضت مدة الأمويين، وابن أبي عامر، وظهر المتغلبون بالأندلس، وقويت شوكة بني عباد وغيرهم، واستولى كل أمير على ناحية، وخلت قرطبة من سلطان يرجع إلى أمره، وصار كل من قويت يده عمرت =

قال أبو محمد الرشاطي:

قرطبة، قاعدة / البلاد، وأُم المدائن، ومستقر الخلافة، ودار الإمارة، فيها كان [١٧٠/ب] الخلفاء من بني أمية وآثارهم بها ظاهرة وأبنيتهم فيها.

ومما جاورها منيّة وبها الجامع المشهور أمره الشائع ذكره من أجل مجامع الدنيا الكبير مساحة وإحكام صنعة وجمال صفته واتقان بنيه، تمم به الخلفاء من بني أمية فزادوا فيه زيادة بعد زيادة، وتحصيناً أثرتهم حتى بلغ الغاية في الاتقان، واستولى على أمر الإحسان، فصار يحار فيه الطرف ويعجز عن حُسنه الوصف.

وقرطبة على نهر كبير فوهته بجبل شقورة ويمر على قرطبة، وينصب فيه تحت قرطبة أودية، ثم يمر إلى إشبيلية، وقد ذكرناه في باب الإشبيلي.

وعليه بقرطبة قنطرة عظيمة حصينة من أجلّ البنيان قدراً، وأعظمه خطراً، وهي من الجامع في قبلته وبالقرب منه، فانتظم به الشكل إلى الشكل، وجاءت كالفرع لذلك الأصل.

ولما كانت قرطبة على الشكل الذي ذكرنا محل الإمارة، ومستقر الخلافة، كثر بها العلم والعلماء، واستقر فيها الفضلاء والنبلاء، وصارت دار هجرة للعلم، ومكان رحلة لأولي الفهم.

وكان من بها من الخلفاء رضي الله عنهم يجلون العلماء، ويكبرون من يولونه منهم خطة القضاء، ويختارون للخطة أهلها، ويوفونهم حقوقهم فيها.

فكانت للقضاة بها المنزلة العالية، والرتبة السامية، مع كون الخلفاء منقادين لأحكامهم، موافقين لنقضهم وإبرامهم.

مع ما خصّ به أهل قرطبة من علو الهمة، واجتماع الكلمة، وتألفهم على الحقائق واتباعهم لأحسن الطرائق، فصارت لهم بذلك النخوة والعزة، وجازوا أعلى منازل الرفعة.

فممن ولي القضاء بقرطبة، وكان بها على الصفة التي ذكرنا، محمد بن بشير.

ووقع لي ذكرها في بعض كتب الفتوحات، فقلت:

قرطبة، وما أدراك ما قرطبة، ذات الأرجاء الخالية الطامية، والأطواد الراسخة

= مدينته. وخربت قرطبة بالجور عليها، فعمرت إشبيلية ببني عباد عمارة صارت بها سرير ملك الأندلس، فهي إلى الآن على ذلك من العمارة. وخربت قرطبة وصارت كإحدى المدن المتوسطة وقد رثوها فأكثروا فيها. وممن تشوق إليها القاضي محمد بن أبي عيسى بن يحيى الليثي قاضي الجماعة بقرطبة (فذكر في ذلك شعره).

الراسية، والمباني المباهية، والزهراء الزاهية، والمحاسن غير المتناهية، حيث هالة من بدر السماء قد استدارت من الطور المشيد البناء داراً، وتمر المجرة من نهرها الفياض المسلول حسامه من غمود الغياض، قد لسن بها جاراً، وفلك الدولاب المعتدل الانقلاب قد استقام مداراً ورجَّع الحنين اشتياقاً إلى الحس الأول وإذكاراً حيث الطود كالتاج يزدان بلجين العذب المجاج فاق تاج كسرى، ودارا حيث جسور القصور المدبرة فكأنها عَوجُ المطي العديدة، تعبر النهر قطاراً حيث /آثار العامري [١٧١/أ] المجاهد تعبق من تلك المجامر شذاً معطاراً، حيث كرائم عرائس السحاب تمر بمرابض الرياض، فتحمل لها من الدر نثاراً، حيث شمول الشمائل تدور على الأدراج بالغدو والرواح فترى الغصون سكارى وما هي بسكارى، حيث أيدي الافتتاح تفتض من شقائق البطاح أبكاراً، حيث ثغور الأقاحي البواسم تُقبلها زوّار النواسم، فتخفي من قلوب النجوم الغيارة، حيث... [١] العتيق قد رحب مجالاً وطال فناراً وإزاراً ببلاط الوليد احتقاراً، حيث الظهور المثارة بسلاح الفلاح تجب عن مثل أسنمة المهارى، والبطون كأنها لتدميث الغمائم بطون العذارى، والأدواح العالية تخترق أعلامها الهادية بالجداول الحيارى، فما شئت من جوّ صقيل، ومعرس للحُسن ومقيل، ومالك للعقل وعقيل، وخمائل كم فيها للبلابل من قالٍ وقيل، وخصيب مجاوب فيقبل، وسنابل تحكي من فوق سوقها، وقصب يسوقها الهمزات فوق الألقاب، والعصافير البديعة الصفات فوق الغُصن[٢] المؤتلفات تميل لهبوب الصبا، والجنوب مالئة الجيوب بذور الحبوب وبطاح لا تعرف غير المحل يتطلب بالرحل ولا تصرفه في خدمة بيض قباب الأزهار عند افتتاح السوقين والمهارة غير العبدان من سودان النحل وبحر الفلاحة الذي لا يدرك ساحله ولا يبلغ الطية البعيدة راحلة إلى الوادي وسمر النوادي ومدار دموع الغوادي المتجاسر على تخطب عند تمطية الخبر العادي، والوطن الذي ليس من عمرو ولا زيد، والفراء الذي في جوفه كل صيد، أقل كرسيه خلافة الإسلام، وأعلى بالرصافة والجسر دار السلام، وما عسى أن تطنب في وصفه ألسنة الأقلام، أو تعبر به عن ذلك الكمال فنون الكلام[٣].

ولما خلع هشام الأخير واتفق رأي الجماعة بقرطبة على محو رسم الخلافة الأموية لعدم الضلوع في أهل بيتها، وسوء الجوار وفناء الأموال التي يرزق منها من

---

(١) كلمة غير ظاهرة.

(٢) في المخطوط: الغضب، وهو تحريف.

(٣) كل ما سبق ما هو إلا مقطوعة أدبية ليس لها من التاريخ وفنونه كبير نصيب وإنما ذلك لأن الكاتب شاعر أديب مؤرخ، ولكن الطابع الأدبي عليه غالب، مما يجعله كثيراً ما يخرج عن الموضوع ويطنب في الوعظ والوصف.

يقهر به السلطان كواف الناس، اتفق الملأ على إسناد الأمور بالحضرة إلى شيخ الجماعة وبقية الأشراف من بيوت الوزارة: **أبي الحزم جهور[(١)] بن محمد بن جهور بن عبد الملك بن بخت بن جهور بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الغمد بن يحيى بن عبد الغافر بن يوسف بن أبي عبدة.**

وكان لمدخل جدهم يوسف بن بخت أبي عبدة إلى الأندلس أثر عظيم من جميل الدفاع وسعة الباع، وأسندوا إليه فهمهم، وعدوا / من خصاله ما لم يختلفوا [١٧١/ب] فيه، فأعطوا قوس السياسة باريها، فانسدل عليهم به الستر.

قال المؤرخ: وكان مع براعته ورفعة قدره أشد الناس تواضعاً، وعفة، وأشبههم أولاً بآخر، لم يختلف من الفتى إلى الكهولة فأبهج سعيه وألمّ الشعث في المدة القريبة فنعش الرفات وأحيا منها الموات، ودافع بحسن تدبيره البرابرة، وأحسن الجوار والمعاملة.

ثم توفي رحمه الله ليلة الجمعة السادس من شهر محرم سنة خمس وثلاثين وأربعمائة.

---

(١) في المخطوط: أبو الحزم بن جهور، ولفظ: «ابن» زائدة على السياق وضبطه من سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٣٩، ٥٢٥). ومصادر ترجمته: جمهرة الأنساب (٩٣)، جذوة المقتبس (٢٨)، مطمح الأنفس (١٦)، الذخيرة (٢/ ١/ ٦٠٢)، الصلة لابن بشكوال (١/ ١٣١)، بغية الملتمس (٣٤)، الحلة السيراء (٢/ ٣٠٠)، المغرب في حلي المغرب (١/ ٥٦)، البيان المغرب (٣/ ١٨٥)، دول الإسلام (١/ ٢٥٧)، العبر (٣/ ١٨٣)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٥٩)، شذرات الذهب (٣/ ٢٥٥)، والكامل في التاريخ في أحداث سنة (٤٠٧هـ)، وقال في ذكر تفرق ممالك الأندلس: فأما قرطبة فاستولى عليها أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور، وكان من وزراء الدولة العامرية، قديم الرئاسة موصوفاً بالدهاء والعقل، ولم يدخل في شيء من الفتن قبل هذا، بل كان يتصاون عنها. فلما خلا له الجو وأمكنته الفرصة وثب عليها فتولى أمرها وقام بحمايتها، ولم ينتقل إلى رتبة الإمارة ظاهراً بل دبرها تدبيراً لم يُسبق إليه، وأظهر أنه حام للبلد إلى أن يجيء من يستحقه. واتفق عليه الناس فيسلمه إليه. ورتب البوابين والحشم على أبواب قصور الإمارة ولم يتحول هو عن داره إليها، وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدي رجال رتبهم لذلك، وهو المشرف عليهم. وصيّر أهل الأسواق جنداً وجعل أرزاقهم ربح أموال تكون بأيديهم ديناً عليهم فيكون الربح لهم ورأس المال باقياً عليهم. وكان يتعاهدهم في الأوقات المتفرقة لينظر كيف حفظهم لها، وفرق السلاح عليهم، فكان أحدهم لا يفارقه سلاحه حتى يعجل حضوره إن احتاج إليه. وكان جهور يشهد الجنائز ويعود المرضى، ويحضر الأفراح على طريقة الصالحين، وهو مع ذلك يدبر الأمر تدبير الملوك. وكان مأمون الجانب، وأمن الناس في أيامه، وبقي كذلك إلى أن مات في صفر سنة خمس وثلاثين وأربعمائة. وقام بأمرها بعده ابنه أبو الوليد محمد بن جهور على هذا التدبير إلى أن مات.

أيام أبي الوليد محمد بن جهور[1] رحمه الله

قال ابن حيان: وولي بعده ابنه أبو الوليد محمد بن جهور بن محمد بن جهور نهاية بيوت الشرف الأنبل بقرطبة على آخر الدهر المغرب شأوه في نظم قلادة خمسة ككعوب الرمح أنبوب على أنبوب، ثم تناقلوا الملك فيما بينهم وبين خامسهم عبيد الله، ولم تنقلها الفتنة إلى أن ورتها تربها، هذا السري الفاضل أبو الوليد.

ولما يعرف البؤس يوماً، فأعانه ذلك على الحسب والمروءة.

وأقر لوقته الحكام، وأولي المراتب، ثم اقتفى آثار أبيه في السياسة، فأصبح من العجب العجاب تكافىء الناس عن المظالم والتشافه بخلاف ما كانوا عليه تحت الضغط الشديد بأيدي جبابرة أصحاب الشرطة أيام الجماعة، فلا يكاد يسمع لشرارهم من معهود ذلك إلا النادرة.

ثم قال: فلم يفهم من الأمر بمثل ما قام به أبوه، بل قدم ولده عبد الملك على الناس وأخذ عليهم العهد والبيعة لابنه، فجار واعتدى، وصحب الأرذال، وأهمل الأمور، وأخاف السبيل، وأظهر الفساد، وتعاطى ما أحجم عنه سلفه من الاستبداد، فسمى بنفسه بذي السيرة سنين المنصور بالله الظافر بفضل الله، وخطب على المنبر باسمه، ولم يكن أبوه وجده شغلاً عن رسم الوزارة، ولا تلبساً بشيء من أمور الأموية.

أيام عبد الملك بن محمد بن جهور

وكان الرئيس أبو الوليد رحمه الله قد ألقى الله منه على ابنه الأصغر من ولديه محبة آثره لها على أخيه كبيره عبد الرحمٰن لمزية شهامة كانت في نفسه جنى بها خروج الأمر عنهم، وخص عبد الرحمٰن بحظ رحيب من أمره، فكان عبد الملك النظر في الجند والتولي لغرضهم والإشراف على أعطياتهم، ولعبد الرحمٰن النظر في الأشراف والجباية، ورضيا بذلك.

---

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٤٠)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (٢/ ١/ ٦٠٤)، الصلة (٢/ ٥٤٦)، بغية الملتمس (٣٥)، الكامل في التاريخ في أحداث سنة (٤٠٧هـ)، المعجب (٦٠)، ووفاته فيه سنة (٤٤٣)، المغرب في حلي المغرب (١/ ٥٦)، البيان المغرب (٣/ ٢٢٢)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٥٩). وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمته: حكم على قرطبة ثمانية أعوام، فقصده ابن عباد، وقهره، وأخذ البلد، ثم سجن أبا الوليد في حصن. وكان قد قرأ على مكي بن أبي طالب، وسمع من أبي المطرف القنازعي، ويونس بن عبد الله بن مغيث، وطائفة، وعُني بالحديث. فبقي في سجن ابن عباد إلى أن مات في نصف شوال سنة اثنتين وستين وأربعمائة. وقيل: بل غلب على قرطبة المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة، وقام بعده ابن عكاشة البربري، ثم غلب عليها أبو القاسم بن عباد وصارت تبعاً لإشبيلية.

إلا أن عبد الملك ابتزه ذلك وتغلب عليه وسجنه في منزله ورتب عليقة.

وقد أصابت الأب زمانة، واستولى عبد الملك على الأمر، وكان من تدبيره الانحطاط.

/ سلك المعتضد بن عباد جارهم المصاقب، فوالى مخاطبته ومداخلته، وزاره بنفسه، فقام ابن عباد بحقه، وأغراه بما تسبب فيه إلى ما بيده من قتل وزير أبيه الكائن شجا في حلق ابن عباد المعروف بابن السقاء، واتصلت مصادقته لابن عباد بضده يحيى بن ذي النون، فصرف غربة إلى قرطبة التضييق عليها نُصب عينيه، واستهان في سبيل الحصول عليها الأموال، واصطنع الرجال، وتحرك إليها سنة اثنتين وستين وأربعمائة. [١٧٢/أ]

فاستغاث عبد الملك بن أبي الوليد بن جهور بصديقه ابن عباد لعجزه عن الانفراد بمقامة ذي النون، فبعث إليه المعتضد بن عباد بكتيبة من ثلاثمائة فارس، ثم أتبعها ألف فارس لنظم قائديهما الكبيرين: خلف بن نجاح، ومحمد بن مؤنس، وتقدم إليهما بما يكون عملهما.

ولما اتصل يد عبد الملك يحيى بن عباد دافع ذي النون عن حوزته، فانصرف عنه ولم يجد فيه غرة بعد قتال ومدافعة، وكان مضطرب الجيش العبادي أيام مقامه في نصرة ابن جهور بالربض الشرقي من قرطبة، ووقعت المداخلة بين قائدي الجيش وبين بعض الإشبيليين في الإراحة من بني جهور وخلعهم وتصير الأمر إلى ابن عباد.

فلما صح انصراف ابن ذي النون، وذهب القائدان ومن معهما إلى وداع ابن جهور بباب المدينة، اقتحم رجاله الأبواب وملكوها ودخل الجيش، وقامت الدعوة باسم ابن عباد يوم الأحد لسبع بقين من شعبان سنة إحدى وستين وأربعمائة[١].

وامتنع عبد الملك وخويصة أهله في علية الدار حيث سكناه، ودافع عن نفسه إلى أن غشي الدار الجراد المنتشر من الناس، وشملها النهب.

---

(١) هذا الحدث نحو حدث أفغانستان أيام أن طلب رئيسها مساعدة الروس له على مقاومة بعض أفراد شعبه من أعضاء التيار الإسلامي فما كان من الروس إلا أن دخلوا فخلعوه واستولوا هم على مقاليد البلاد، وما كان من أفراد الشعب من التيار الإسلامي إلا الدفاع عن حوزتهم فهزموا الروس هزيمة نكراء بعد حرب طالت بينهم من أواخر السبعينات إلى أواخر الثمانينات، ثم تولى الشعب على السلطة، ثم دبر لهم العدو مكية جعلت الشعب يقوم بإبادة نفسه في حرب أهلية طاحنة استمرت حتى أوائل الألفين. ثم قام ابن لادن بضرب المركز التجاري الأمريكي مما دفع الأمريكان إلى الدخول إلى أفغانستان وضربها بكل أنواع الأسلحة والسيطرة عليها بواسطة عميل لهم أفغاني يدعى حامد قرضاي وها هو الشعب الأفغاني يقاوم حتى الآن لإخراج العدو الجديد من أرضه، وهذا جزاء من يستعين على عدوه بغير أهل دينه وملّته.

ونجّى الشيخ أبو الوليد أبوه، فأوى إلى مقصورة المسجد ببناته وكرائمه، واقتحمتها طائفة من نصارى الجند الإشبيلي فجردوهم وانتهبوا ما أصابوا عندهم من ذخيرة.

وطلب عبد الملك الأمن لنفسه، ونزل إلى القائدين.

وتحصل البلد ورؤساؤه في أيديهما، فأطلقا النداء بكف الأيدي، وتوعدا بالسيف، وعجلا إخراج عبد الملك وأخيه عبد الرحمٰن إلى إشبيلية من يومهما مراعاة للحزم وألحقا بالجلاء مُوكلاً بالكل من يطلع بذلك ثم عطفا على النظر في حال الشيخ الزمن أبي الوليد صدر بيوتات الأندلس وأوثقها عروة وجاه وأشدها ركن، فصيراه إلى دار صغرى إلى أن وصل جواب ابن عباد بإخراج الشيخ ومن معه إلى جزيرة شاطيش من الجزر الكائنة في موقع نهر إشبيلية. فأخرج من بعد العز والجاه، واتصال الترف، محمولاً بين عدلي على ظهر زاملة، قد أركب خلفه من يمسكه[١].

قلت:

[١٧٢/ب] / وقد أفرد ابن حبان لهذه النكبة الجهورية كتاباً سماه «البطشة الكبرى» وكلامه فيه لباب بلاغته، وذكر أن الشيخ أبا الوليد بن جهور لما توسط القنطرة مخرجاً عن وطنه على تلك الحالة، رفع يديه إلى السماء وأخذ يبتهل بالدعاء، وكان مما جاء عنه قوله:

اللهم كما أجبت فينا الدعاء علينا فأجبه لنا.

فمات لأربعين يوماً من نكبته بجزيرة شَلْطِيش[٢]، رحمه الله وغفر له.

فكانت هذه سبيلهم رحمة الله عليهم أجمعين.

وشرع الوزيران في ضبط قرطبة، وكان بعض حوادث تخللت ذلك يطول الكتاب إن استقصيناها، فكانت مدة بني جهور بقرطبة أربعين سنة إلا يسيراً، والبقاء لله وحده.

وتأتّى لهذين الشيخين، وخصوصاً لأبي الحزم والدهم، ما لم يتأتَّى الحكام من مسالمة من يليه، وانسحاب العافية على بلده مدة ولايته لرؤساء الطوائف بمنزلة الأب يفصل بينهم في القضايا، ويشفع في الحوائج، ويصلح بينهم في المنازعات، فلم يدر الناس ما فقدوا فيهم إلا بعد أن بلوا غيرهم وفقدوا خيرهم، والحكم لله سبحانه.

---

(١) هذه سنّة الله في الخلق، أنه يرفع أقوام ويضع آخرين، فليعتبر من كان له لب حين نعمة السعة والغنى والصحة والأمن.

(٢) قال ابن ياقوت: بلدة صغيرة بالأندلس في غربي إشبيلية على البحر.

ولم يمتع المعتمد ابن عباد[1] بما حصل عليه من منيحة قرطبة، بل نقصه سرورها بما كان من هجوم ابن عكاشة على قرطبة ليلاً، فطرقها ولنظره بعض الحصون المجاورة للحضرة. وقد كان المعتمد تخلف فيها للظافر ولده والوزير محمد بن مرتين للحزم غريقين في اللذات.

واحتال ابن عكاشة حتى دخل المدينة ليلاً برجاله، وطرق دار الإمارة، وبرز الظافر إلى استجلاء الأمر، فقتل وحز رأسه، وبادر إلى ابن مرتين، وهو عالق على شراب ولهو، فقبض عليه.

وتأيد ابن عكاشة بمن بالبلد من أولياء ابن ذي النون.

فتمت الدعوة لابن ذي النون، ولم يمض إلا زمن قريب، وقتل ابن عكاشة، وعادت قرطبة إلى المعتمد إلى آخر أيامه.

ذكر أيام بني عباد بإشبيلية وغيرها

وبنو عباد من العرب الداخلين إلى الأندلس من لخم.

قال أبو مروان:

جاز إلى الأندلس بعد الفتح رهط من لخم تفرقوا أقطارها، وانحاز منها إلى غربيها أخوان: نعيم، وعطاف.

فنزل أحدهما بقرية يومي، وتناسل ولده بها مدة من الزمان ثم انتقلوا إلى إشبيلية، فنموا وتصدروا للوجاهة والنباهة في دولة الحكم المستنصر بالله، ودولة ابنه هشام، وحاجبه المنصور.

وقد كان نشأ فيهم صدريتهم ومؤسس مجدهم إسماعيل بن عباد، فقدمه المنصور على خطة القضاء بها.

/ فاتصل استعماله بها إلى زمن انقراض الأموية، واستمرت حاله مع من نجم [١/١٧٣] في الفتنة، فنظر في صلاح القطر وحمله على الطريقة المثلى من السياسة إلى أن نزل في عينه الماء سنة أربع عشرة وقرح، فعاد بعض بصره، فلم يستجري الحكم بين

---

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٨)، مطمح الأنفس (١٠)، الذخيرة (١/ ٢/ ٤١)، خريدة القصر (٢/ ٢٥)، المعجب (١٥٨)، الحلة السيراء (٢/ ٥٢)، العبر (٣/ ٣٢١)، تتمة المختصر (٢/ ١٦)، وفيات الأعيان (٥/ ٢١)، البيان المغرب (٣/ ٢٠٧)، الوافي بالوفيات (٢/ ١٨٣)، عيون التواريخ (١٣/ ١٩)، تاريخ ابن خلدون (٥/ ١٥٨)، النجوم الزاهرة (٥/ ١٥٧)، القلائد (٤٠)، نفح الطيب (٤/ ٢١٢)، شذرات الذهب (٣/ ٣٨٦)، الكامل في التاريخ في أحداث سنة (٤٨٤هـ)، (٤٨٨هـ).

الناس، فولى ولده أبا القاسم القضاء، واقتصر هو على رئاسة البلد وتولى رأي المشيخة، وكان نسيج وحده علماً ومعرفة وأدباً وحكمة، فحمى مدينة إشبيلية من سطوة البرابرة الذين اقتطعوا أحوازها، ونزلوا حولها بالتدبير الصحيح، والرأي الناجح، والنظر في الأمور السلطانية إلى أن هلك سنة أربع عشرة وأربعمائة.

ذكر أيام القاضي أبي القاسم محمد بن عباد أول ملوكهم بإشبيلية

هو: أبو القاسم ابن ذي الوزارتين، أبي الوليد إسماعيل [بن][1] قريش بن عباد بن عمر بن أسلم بن عمر بن عطاف بن نعيم اللخمي[2].

---

(١) سقط من المخطوط.

(٢) كذا جاء نسبه في المخطوط وفي سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٥٧) على النحو التالي: أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد بن قريش اللخمي. ومصادر ترجمته: جذوة المقتبس (٨٠)، الذخيرة (١/ ٢/ ١٣)، الصلة (٢/ ٥٢٣)، بغية الملتمس (١١٧)، الحلة السيراء (٢/ ٣٤)، وفيات الأعيان (٥/ ٢٢)، البيان المغرب (٣/ ١٩٤)، دول الإسلام (١/ ٢٥٦)، العبر (٣/ ١٧٩)، الوافي بالوفيات (٢/ ٢١٢)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٥٦)، نفح الطيب (٤/ ٢٢٦)، شذرات الذهب (٣/ ٢٥٢).

وقال الذهبي في ترجمته: ابن عباد، القاضي الكبير، أمير إشبيلية، ومدبرها، وحاكمها، أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد بن قريش اللخمي. من ذرية أمير الحيرة النعمان بن المنذر، أصله من الشام من بلد العريش، فدخل أبوه الأندلس، فنشأ أبو القاسم وبرع في العلم، وتنقلت به الأحوال، وولي قضاء إشبيلية في أيام بني حمود العلوية فساس البلد، وحمد، ورمقته العيون. ثم سار يحيى بن علي بن حمود، وكان ظلوماً، فحاصر إشبيلية، فاجتمع الأعيان على القاضي وأطاعوه ثم قالوا: انهض بنا إلى هذا الظالم ونملّكك، فأجابهم، وتهيّأ للحرب. وذكر أن يحيى ركب إليهم سكران فقتل وتمكن القاضي، ودانت له الرعية، ولُقِّب بالظافر. ثم إنه تملك قرطبة وغيرها، وقصته مشهورة مع الشخص الذي زعم أنه المؤيد بالله المرواني. وكان خبر المرواني قد انقطع من عشرين سنة.

وجرت فتن صعبة في هذه السنين، فقيل لابن عباد: إن المؤيد حَيّ بقلعة رباح بمسجد، فطلبه، واحترمه، وبايعه بالخلافة، وصير نفسه كوزير له. قال الأمير عزيز: حُسِدَ ابن عباد، وقالوا: قتل يحيى الإدريسي من أهل البيت، وقتل ابن ذي النون ظلماً. فبقي يفكر فيما يفعله، فجاء رجل فقال: رأيت المؤيد. فقال: انظر ما تقول. قال: إي والله هو هو. وقال تومرت ـ عبد كان يخدم المؤيد ـ: وأنا إذا رأيت سيدي عرفته ولي فيه علامات. فأرسل رجل مع ذلك الرجل إلى قلعة رباح، فوجده، فقدم معهما. فلما رآه تومرت، وثب، وقبّل قدمه، وقال: مولاي والله. فقَبَّل حينئذ القاضي يده. ثم بويع، وأخرجه يوم الجمعة، ومشوا بين يديه إلى الجامع، ثم خطب المؤيد الناس وصلى بهم. وبقي ابن عباد الحاجب له على قاعدة الحاجب المنصور بن أبي عامر، غير أن المؤيد يخرج إلى الجمعة دائماً، ودانت له أكثر المدن.

قال عزيز: هرب المؤيد من قرطبة عام أربعمائة متنكراً حتى قدم مكة، ومعه كيس جواهر، فشعر به حراميّة مكة، فأخذوه منه، وبقي يومين لم يطعم، ثم عمل في الطين وتقوّت، ثم توصل إلى القدس، فتعلم نسج الحصر ثم رجع إلى الأندلس سنة (٤٢٤). قال عزيز: هذا رواه مشايخ. وقال =

وعطّاف هو الداخل مع بلخ بن بشير.

وكان القاسم بن حمود لما ملك إشبيلية قد اختصه، واستظهر به على مهمات ملك الحضرة، واستنام إليه لمحلة من الجلالة والأصالة في النظر ووفور المالية.

فلما جرى على القاسم ما تقدم التعريف به من إيقاع أهل قرطبة بمن معه من برابرته، وإجلائه وإياهم عن الحضرة، وما أتيح لهم من هزيمته، خاطب بين يديه لحاقه بإشبيلية من بها بأن تُخلى له الدور لمن في صحبته من البرابرة.

فوقع الاتفاق من أهل البلد على سد أبواب المدينة في وجهه، وأن يخرج إليه أهله وولده، ففعلوا ووكل القاسم.

فامتنعوا عليه إلى أن قصد شريبة، كما مر قبل.

وتولى ضبط المدينة على كثرة الهرج القاضي أبو القاسم عميد البلدة مشترك النظر مع وجوه البلد وأعلام بيوتاتها إلى أن انفرد بالأمر دونهم.

وحدث له في تدبير الأحوال أمور شهيرة إلى أخلص بسابقته، وأجمع أهل عمله على طاعته، فدانوا له.

وسلك سيرة كأصحاب الممالك بالأندلس لأول وقته يضم الرجال ويشتري العبيد، والجند يساعده، والأمور تنقاد له إلى أن استولى على الأمد وبنى قواعد سلطانه. وكان من تدبير إسماعيل بن عباد لما ضاق ذرعاً بمزاحمة بني حمود الفاطميين من كل جهة، ولهم في الناس النداء المسموع والحق المعلوم، أن دعا إلى تجديد بيعة هشام الخليفة المؤيد المشكوك في موته، المدعي كثير من الناس أنه قرّ لوجهه، وزعم أنه عثر عليه سائحاً في الأرض. وقد كان صاحب المرية زهير المحافري ذهب مذهبه في رجل سقاء شديد الشبه بهشام، فموه زميناً به سنة ست وعشرين وأربعمائة.

= ابن حزم رحمه الله: فضيحة أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام يسمون أمير المؤمنين في وقت، أحدهم: خلف الحصري بإشبيلية على أنه المؤيد بالله. والثاني: محمد بن القاسم الإدريسي بالجزيرة الخضراء. والثالث: محمد بن إدريس بن علي بن حمود بمالقة. الرابع: إدريس بن يحيى بن علي بن حمود بشنترين. فهذه أخلوة لم يسمع بمثلها. وخطب لخلف على المنابر، وسفكت الدماء، وتصادمت الجيوش، فأقام في الأمر خمساً وعشرين سنة، وابن عباد القاضي كالوزير بين يديه.

قال الذهبي: قلت: مات القاضي في جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة، ودفن بقصر إشبيلية. وخلفه ابنه المعتضد بالله عباد، ودامت دولته إلى سنة أربع وستين وأربعمائة، وقيل: بل بقي القاضي محمد إلى سنة تسع وثلاثين، وكان يستعين بالوزير محمد بن الحسن الزبيدي، بعيسى بن حجاج الحضرمي، وبعبد الله بن علي الهوزني. وكان له ابنان: إسماعيل، قتل في مصاف. والمعتضد الذي تملك بعده.

[١٧٣/ب] ثم تلاشى / الأمر في يده فطرده وأحكم ابن عباد أمره، فأعلى منه اليد فشبهه في الحال بها زمناً طويلاً، والدنيا عند الله حقيرة الوزان خاملة الشان.

قال ابن القطان حاكياً عنه، فذكر:

أن هشاماً فرّ من الفتنة، رفض الملك وكتم أمره، واستقر في قرية من قرى إشبيلية يؤذن في مسجدها، ويعمره، ويتقوت من العمل في الحلفاء[١].

فخرج إليه القاضي محمد بن إسماعيل هذا، وولده، وجميع خاصته، وعبيده، ومعه أثواب الخلفاء وملابسهم وزيهم، ومراكبهم، ولم يشعر الرجل وهو خارج المسجد من القرية يعمل بيده في حَلْفَاء إلا بالقوم قد غشوه، وأحاطوا به.

وترجل القاضي، وابنه، ومن معهما، وقبلوا الأرض بين يديه، فبُهت الرجل لما عاين وجعل يقول: لست بالذي تعنون، ولا بالذي تطلبون.

وهم لا يردون عليه شيئاً سوى التضرع والرغبة، إلى أن أقاموه من مكانه، وجردوه من خلقانه[٢]، وألبسوه الخلافية، ووضعوا القلانس على رأسه، وأركبوه.

ومشى القاضي وجميع من معه أمامه، وكان الرجل أشبه الناس بهشام، ودخلوا به المدينة.

وصاح منادي: يا أهل إشبيلية اشكروا الله تعالى على ما أنعم به عليكم، فهذا مولاكم قد صرف الله الخلافة من قرطبة إلى بلدكم.

واستقر بالقصبة، وجحد ابن عباد بابنه إسماعيل شأن المنصور مع هشام بقرطبة، وخاطب الناس بكل جهة في شأنه، فوجه الكثير منهم أرساله وثقاته ليقفوا على حقيقة أمره، فأدخلوا على الرجل وهو في بيت مظلم، وذكر لهم أنه يشكو عينيه وكلموه وكلمهم، غير أنهم لم يثبتوا صفته، فمنهم المُقِر والمُنْكِر، وأبى قبول ذلك ابن جهور، مُقِرّاً ابن عباد بلده إلى أن أظهر الموافقة وخطب له في القواعد التي تغلب عليها العامرية.

وعظم ملك ابن عباد، وضيق على الجهات، وأكثر الغارات إلى أن أصيب ولده إسماعيل بأيدي بني زيري المتغلبين على كورة البيرة في هزيمة اتجهت عليه له وعليه وقعات شهيرة إلى أن توفي القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة.

---

(١) الحلفاء: نوع من الحشائش تخرج على شواطىء الترع وحواف الطرق، وهي معروفة جداً لأهل الريف في مصر، ومنها نوع يخرج في الصحراء يسمى «حلف بر» وهو مفيد للعلاج، أما المراد هنا هو ما ينبت على شواطىء النزع وحواف الطرق، وهو يستخدم في صناعة الحُصر وعمل الحبال، وبعض الأطباء أو المشنات، وهو نبات شديد الخشونة طول دقيق كأعواد القمح.

(٢) الخلقان: هي الثياب الرثة البالية الحقيرة.

ووَلي الأمر بعده، ولده أبو عمر عباد بن محمد الملقب بالمعتضد.

أيام المعتضد بالله عباد بن محمد بن عباد

تولى الأمر بعد أبيه منسلخ جمادى الأولى من سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة[١].

واستولى على غرب الأندلس كسلب، ولَبْلَة[٢]، وجبل العيون، وما إلى ذلك.

قال أبو مروان: وكان عباد قد أوتي من جمال الصورة وتمام الخلقة، وفخام الهيئة وبساطة البنان، وثقوب الذهن، وحضور الخاطر، وصدق / الحدس، ما فاق به [١٧٤/أ] على نظرائه ونظر مع ذلك [قبل ميل الهوى إلى ما به إلى طلب السلطان][٣] في الأدب أدنى نظر بأذكى طبع، فحصل [لثقوب ذهنه][٣] منه على قطعة وافرة علقها من غير تعمد[٤].

---

(١) في متن المخطوط: ثلاثمائة، والتصويب من هامشه، ومن مصادر ترجمة المعتضد بالله: جذوة المقتبس (٢٩٦)، الذخيرة (٢/ ١/ ٢٣)، سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٥٦)، بغية الملتمس (٣٩٥)، المعجب (١٥١)، الحلة السيراء (٢/ ٣٩)، وفيات الأعيان (٥/ ٢٣)، البيان المغرب (٣/ ٢٠٤)، العبر (٣/ ٢٥٦)، دول الإسلام (١/ ٢٧٤)، فوات الوفيات (٢/ ١٤٧)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٥٦)، النجوم الزاهرة (٥/ ٩٠)، نفح الطيب (٤/ ٢٤٢)، شذرات الذهب (٣/ ٣١٦)، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة (٨٦).

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان: قصبة كور بالأندلس كبيرة يتصل عملها بعمل اكشونية، وهي شرق من أكشونية وغرب من قرطبة بينهما وبين قرطبة على طريق إشبيلية خمسة أيام أربعة وأربعون فرسخاً، وبين إشبيلية اثنان وأربعون ميلاً وهي برية بحرية غزيرة الفضائل، والثمر، والزرع، والشجر، ولأدمها فضل على غيره، ولها مُدن. وتعرف لبلة بالحمراء، وقد ذكرت في بابها. ومن لبلة يُجلب الجنطيانا أحد عقاقير العطارين.

(٣) زيادة من شذرات الذهب.

(٤) قال ابن العماد في شذرات الذهب في ترجمته فيمن توفي في سنة (أربع وستين وأربعمائة): وفيها المعتضد بالله أبو عمرو عباد ابن القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي صاحب إشبيلية، ولي بعد أبيه، وكان شهماً مهيباً صارماً ذا هيبة مقداماً، جرى على سنن أبيه، ثم تلقب بأمير المؤمنين، وقتل جماعة صبراً وصادر آخرين، ودانت له الملوك، قاله في العبر. وقال ابن خلكان: قال أبو الحسن علي بن بسام صاحب الذخيرة في حقه: ثم أفضى الأمر بعده محمد القاضي إلى عباد سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة وتسمى أولاً بفخر الدولة ثم بالمعتضد قطب رحى الفتنة، ومنتهى غاية المحنة، ناهيك من رجل لم يثبت له قائم ولا حصيد ولا سلم منه قريب ولا بعيد، جبار أبرم الأمر، وهو متناقض، وأسد فرس الطلا، وهو رابض، مشهور يتحاماه الدهاة، وجبار لا تأمنه الكماة، متعسف اهتدى، ومنبت قطع فما أبقى ضبط شأنه بين قائم وقاعد حتى طالت يده واتسع بلده وكثر عديده، وعدده. وكان قد أوتي أيضاً من جمال الصورة وتمام الخلقة وفخامة الهيئة. إلى أن قال زائداً عما هنا: من غير عمد لها، ولا إمعان في عمارها، ولا إكثار من مطالعتها، ولا منافسة في اقتناء صحائفها، أعطته سجيته على ذلك ما شاء من تحبير الكلام وقرض قطعاً من الشعر، وهي في

قالوا: ومن عجائب سعده أنه فتح ما يجاوره من البلاد أعاديه، وأجلى طواعيتهم عن جواره حتى أضاف قرمونة، وعمل الجزيرة وتحصلت في خزائنه جملة من رؤوس البرابرة، والأدارسة، مثل:

رأس محمد بن عبد الله أمير قرمونة شهاب الفتنة.

ورأس خزرون.

ورأس ابن نوح.

ورأس الخليقة يحيى بن علي بن جهور، وغيرهم ممن أرداهم بسيفه وجدها اللمثونيون لما دخلوا إشبيلية على ولده في مستودعات مفاخرة، والرقاع ملصقة بها معربة عن أسمائها.

هذا وهو قاعد فوق أريكته، منفذاً للعظائم من جوف قصره، وكان شديد الجرأة، قوي المنة، عظيم الجلادة، مستهيناً بالدماء، قَتَل ولده إسماعيل صبراً بيد نفسه، وقد اتهمه بالفساد عليه.

واحتال على طائفة من رؤساء أعدائه البرابرة حتى زاروه ببلده فأدخلهم الحمام في سبيل التكرمة، فسد بابه إلى أن هلكوا عن آخرهم.

وما زال الناس ينسبون إلى هذا اللقب مصاحبة الجرأة والفظاظة في كل زمان ومكان.

= معان أمدته فيها الطبيعة. وبلغ فيها الإرادة واكتتبها الأدباء للبراعة. جمع هذه الخلال الظاهرة إلى جود كف باري السحاب بها.

وأخبار المعتضد في جميع أنحائه وضروب أفعاله بديعة، وكان ذا كلف بالنساء، فاستوسع في اتخاذهن، وخلط في أجناسهن، فانتهى في ذلك إلى مدى لم يبلغه أحد من نظرائه، ففشا نسله لتوسعه في النكاح وقوته عليه، فذكر أنه كان له من الولد نحو العشرين ذكوراً ومن الأناث مثلهم. وأورد له عدة مقاطيع، فمن ذلك قوله:

شربنا وجفن الليل يغسل كحله ... بماء صباح والنسيم رقيق
معتقة كالتبر أما بخارها ... فضخم وأما جسمها فدقيق

ولولده المعتمد فيه جملة أبيات:

سميدع يهب الآلاف مبتدياً ... ويستقل عطاياه ويعتذر
له يَدٌ كل جبار يقبّلها ... لولا نداها لقلنا إنها الحجر

ولم يزل في عز سلطانه واغتنام مساره حتى أصابته علة الذبحة فلم تطل مدتها. ولما أحسّ بتداني حِمَامَهُ استدعى مغنياً يغنيه ليجعل ما يبدأ به فألاً، فأول ما غنى:

نطوي الليالي علماً أن ستطوينا ... فشعشعيها بماء المزن واسقينا

فتطيّر من ذلك ولم يعش بعده سوى خمسة أيام، وقيل: ما غنى منها سوى خمسة أبيات. وتوفي يوم الاثنين غرة جمادى الآخرة، ودفن ثاني يوم بمدينة إشبيلية، وقام بالمملكة بعده ولده أبو القاسم محمد.

وقال بعضهم فيه:

لم يقصر عباد في دولته التي مهدها فوق أطراف الأسِنَّة، وصير أكثر شغله فيها شن الحروب وكبار الملوك وإحراج البلاد، وأحزان البلاد من توفير حظه الأوفى من الأمور الملوكية، والعدد السلطانية، والآلات الرئاسية، فابتنى القصور السياسية واعتمر العمارات المغلة، واكتسب الملابس الفاخرة، والأعلاق السنية، وارتبط الخيل السابحة، واقتنى الغلمان الروقة، واتخذ الرجال الذادة فانتقاهم من كل فرقة، يتعهد طبقاتهم بإدرار العطية، وضمان الزيادة على صدق الصيال الوجلة بالعهود على النكول سياسة أعيت على أنداده من ملوك الأندلس.

وكان يتشبه في حزمه وضبطه لأموره بأبي جعفر المنصور(١).

وعظمت القطيعة بينه وبين جاره المظفر بن الأفطس حتى عجز المظفر عن حربه، وجاء الله بالهدنة بينهما في ربيع الأول من سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة بسعي الشيخ ابن جهور أمير قرطبة.

وبعد ذلك فرغ ابن عباد إلى حرب الأمراء الباقين بالغرب فاتح له من الظفر بهم، والاستيلاء على بلادهم ما هو معلوم. ثم مد يده إلى الجزيرة الخضراء، فنازل فيها محمد بن القاسم كما ذكرنا، وتملكها من يده، ثم صعده إلى قرطبة ووجه إليها عزمه، فأتاه الحِمَام من دون ذلك.

وكان ملكها مدحوراً لولده المعتمد. وولي بعده الأمر ولده محمد المكنى بأبي القاسم، الملقب أول الأمر بالظافر، ثم بعده بالمعتمد على الله.

وكان المعتضد مع جوده وبسالته وعلو همته /يقرض الشعر، وترد عنه [١٧٤/ب] المقطعات الرائقة والمعاني الفائقة، فمن شعره المنسوب إليه قوله:

كأنما ياسمية الغصن كواكب في السماء تبيض

والطرق الخمر في جواقيه كخد عذراء سنها غض

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء وكانوا يشبهونه بالمنصور، لكن مملكة هذا بقعة ستة أيام، ومملكة أبي جعفر مسيرة ثمانية أشهر في عرض أشهر، وقد هم ابنه بقتله، فما تم له، وسجنه أبوه ثم قتله، ثم عهد بالملك إلى ابنه المعتمد محمد، وكان جبار عسوفاً. مات سنة أربع وستين وأربعمائة، وقام بعده ابنه. وقيل: لما رأى ميل الكبار إلى خليفة مرواني أخبرهم بأن المؤيد بالله الذي زال ملكه سنة أربعمائة عنده، وأحضر جماعة شهدوا له، وقال: أنا حاجبه. وأمر بذكره على المنابر، واستمر ذلك مدة إلى أن نعاه الناس في سنة خمس وخمسين وأربعمائة. وزعم أنه عهد إليه بالخلافة، وهذا محال لا يروج أصلاً، ولو كان المؤيد حياً إلى حين نعاه، لكان ابن مائة عام وزيادة. وقيل: إن طاغية الفرنج سمّ المعتضد في ثياب أهداها له.

وقوله:

شربنا وجفن الليل يغسل كحله بماء صباح والنسيم رقيق

معتقة حمراء أما بخارها فضخم، وأما جسمها فرقيق

دولة المعتمد على الله محمد بن عباد(١)

كنيته: أبو القاسم.

وهو الجواد الشجاع، البليغ، ذو الأخبار الشهيرة الذكر، والأنباء المأثورة في الدهر.

قال ابن الصيرفي:

المعتمد على الله محمد بن عباد نسيج وحده في الجود، وأصلب نظرائه مكثر، فذاً في البلاغة، طرفاً في الشعر والكتابة، بارع النظم والنثر، كثير الأدب، جزل الألفاظ، كثير المعاني، حر المآخذ، لدن معاطيه الكلام، رقيق الحاشية، كثيف المنن، كثير البديع، رائق الديباجة، لائق الاستعارة حسن الإشارة، جم التوليد، لم ينشده من الوزراء والشعراء أشعر منه على كثرتهم. اجتلب إليه من أعلاق الثناء، ونثر عليه من دُرر الحمد، ووضع إليه من ثمر القريض.

قالوا: وكان شجاعاً، مقداماً، حسن السيرة، رفيقاً بالرعية، وسمت به سمته إلى تملك قرطبة، فدخلت في أمره حسبما وقع الإلماع به عند ذكر بني جهور، ووصل إليها فآنس أهلها، وبث المعروف فيها، وأحسن السيرة في أهلها، فسروا بإنالته، وولى عليها ابنه الحاجب سراج الدولة عباد بن محمد بن عباد ليستخلفه فيها.

فوصله يوم الثلاثاء السادس من شوال تلك السنة، ودخلها دخولاً فخماً تضاعف له ، مروراً فيه.

وانصرف المعتمد عن إشبيلية وخلف ابنه والياً عليها، وترك معه القائد ابن مرتين بجماعة من الفرسان، قد أخل ابن ذي النون صاحب طليطلة في أمرها رَجُلاً من قواد الحصون المجاورة لقرطبة بهيمة من البُهم أحمد خاص الأسد يعرف بحكم بن عكاشة ضمن له غدر ابن عباد.

---

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٨)، مطمح الأنفس (١٠/ ٢٢)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (١/ ٢/ ٤١)، خريدة القصر (٢/ ٢٥)، المعجب (١٥٨)، الحلة السيراء (٢/ ٥٢)، وفيات الأعيان (٥/ ٢١)، تتمة المختصر (٢/ ١٦)، الوافي بالوفيات (٣/ ١٨٣)، عيون التواريخ (١٣/ ١٩)، تاريخ ابن خلدون (٥/ ١٥٨)، النجوم الزاهرة (٥/ ١٥٧)، القلائد (٤٠)، نفح الطيب (٤/ ٢١٢)، شذرات الذهب (٣/ ٣٨٦)، تراجم إسلامية (٢١٢).

ونمى ذلك إلى القائد ابن مرتين، فأكذب الخبر، وتهاون به إلى أن أتم ابن عكاشة ما أراده، ففتح له بعض أبوابها قوم من شيعته، ودخل المدينة ليلاً بحيث لا يشعر به، في شرذمة من خيله ورجله، فقصد دار ابن جهور حيث سكنى الأمير ابن عباد. وبرز ابن عباد عند سماع الهيعة يجالدهم بسيفه / حتى قُتِل. [١٧٥/أ]

ثم نهضوا بعد قتله إلى دار ابن مرتين، وهو عاكف على شرابه ولهوه، ففرّ واختفى ببعض دور صنائعه، وعثر عليه بعد ثالثة، فاستحضر ابن عكاشة من كان بين يديه ليلتئذ من القينات والملهين فجعل يسأله عن أسمائهن شماتاً له، ثم أكبله وبعثه إلى حصنه.

فلما وصل إلى ذي النون ودخل الحضرة أمر بقتله. ولم تصبح ليلة هجوم ابن عكاشة على المدينة إلا وقد انضم إليه أعداد من الأشرار، واستولى على البلد، وأقام فيها الدعوة الذنونية.

وخاطب ابن ذي النون، فتلاحق بقرطبة، فدخلها في أبهة عظيمة، وأخذ بيعة أهلها. وكان وصوله إليها من بلنسية يوم الجمعة لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وستين وأربعمائة، ولم ينشب ابن ذي النون أن اعتل بقرطبة وتوفي فيها لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة من سنة سبع وستين.

وخاطب أهل قرطبة المعتمد، فأقبل إليهم، وقاموا بدعوته، وفرّ ابن عكاشة على وجهه يوهم المدافعة، فقتله بالقنطرة يهودي من رجال قرطبة.

واستولى ابن عباد على المدينة لثلاث ليال بقين من ذي القعدة من السنة المذكورة. من بعد ذلك اتصلت بها طاعة ابن عباد ما ينيف على ست عشرة سنة، وأسكن بها ولده، وعاد إلى إشبيلية.

واتصلت أيام المعتمد على الله أحسن أيام، ولذلك ما لهجت القصاص بأخباره وأحاديث حظيته المسماة اعتماد الجمع أسماء حروف لقبه، وهي أم الملوك الأربعة من ولده والمنسوبة «رُمَيكة»، إلى مولاها الذي اشتراها منه واسمه «رميك ابن فلان» إلى أن ضيم من صاحب قشتالة[1] اذفونش بن فردلاند في شأن الضريبة التي كان يؤدي إليه ملوك الأندلس، وشاحه اليهودي المتولي لقبضها منه بحيث أسمعه ما يكرهه.

فغضب رحمه الله، وأمر بقتله، وأسر من وصل صحبته من النصارى، فعظم ذلك على الطاغية، وأقسم أن لا يدفع عقالاً عن ابن عباد.

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان: إقليم عظيم بالأندلس قصبته اليوم طليطلة وجميعه اليوم بيد الإفرنج

فاضطره ذلك إلى الجواز إلى المغرب واللحاق بالأمير يوسف بن تاشفين والاستظهار به على جهاد الطاغية، فأجابه لذلك، وخرج له عن الجزيرة الخضراء[١].

وكان ما يقع التعريف ببعضه من الوقيعة بالعدو على يدي يوسف بن تاشفين، وحسن بلاد المعتمد في ذلك إن شاء الله، وخبره مع ابن عمار.

وكان محمد بن عمار لدى المعتمد بن عباد بالمحل المعروف تربية وخدمة وطول صحبة، وكان نادر وقته براعة وأدباً وحسن مجالسة وشهامة نفس، فأخذ بمجامع قلب المعتمد وحل منه المحل المحمود على من سواه[٢].

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: قال ابن خلكان الأذفونش قد قوي أمره وكانت الملوك بالأندلس يصالحونه ويحملون إليه ضرائب، وأخذ طليطلة في سنة ثمان وسبعين بعد حصار شديد من القادر بن ذي النون، فكان ذلك أول وهن دخل من الفرنج على المسلمين، وكان المعتمد يؤدي إليه، فلما تمكن لم يقبل الضريبة وتهدده، وطلب منه أن يسلم حصوناً، فضرب الرسول وقتل من معه، فتحرك اللعين. واجتمع العلماء، واتفقوا على أن يكاتبوا الأمير أبا يعقوب بن تاشفين صاحب مراكش لينجدهم، فعبر ابن تاشفين بجيوشه إلى الجزيرة، ثم اجتمع بالمعتمد، وأقبلت المطوعة من النواحي. وركب الأذفونش في أربعين فارس، وكتب إلى ابن تاشفين يتهدده. فكتب في ظهر كتابه: الذي يكون ستراه. ثم التقى الجمعان، واصطدم الجبلان بالذلاقة من أرض بطليوس. فانهزم الكلب، واستؤصل جمعه، وقلّ من نجا في رمضان سنة تسْع وسبعين وجرح المعتمد في بدنه ووجهه، وشهد له بالشجاعة والإقدام، وغنم المسلمون ما لا يوصف وغدا ابن تاشفين. ثم عبر في العام الآتي، وتلقى المعتمد وحاصروا حصناً للفرنج، وترجل ابن تاشفين فمرّ بغرناطة، فأخرج إليه صاحبها ابن بلكين تقادم وهدايا، وتلقاه. فغدر به، واستولى على قصره، ورجع إلى مراكش، وقد بهره حُسن الأندلس، وبساتينها، وحسَّن له أمراؤه أخذها ووحشوا قلبه على المعتمد.

(٢) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٨/ ٥٨٢) في ترجمة محمد بن عمار: المَهْري شاعر الأندلس، ذو الوزارتين، أبو بكر محمد بن عمار الأندلسي، كان هو وابن زيدون كفرسي رهان. بلغ المَهْري أسنى المراتب حتى استوزره المعتمد بن عباد، ثم استنابه على مرسية، فعصى بها، وتملّكها، فلم يزل المعتمد يتلطف في الحيلة إلى أن وقع في يده، فذبحه صبراً للعصيان بعد فرط الإحسان، ولأنه هجا المعتمد وآباءه، فهو القائل:

مما يُقَبِّح عندي ذكر أندلسٍ ... سماع مُعْتَمِدٍ فيها ومُعْتَضِدِ
أسماء مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

وقد جال ابن عمار في الأندلس أولاً، ومدح الملوك والكبار والسوقة بحيث إنه مدح فلاحاً أعطاه مخلاة شعير لحماره، ثم آل بابن عمار الحال إلى الإمرة فملأ للفلاح مخلاته دراهم، وقال: لو ملأها بُرّاً لملأناها تِبراً. وقد سجنه المعتمد مدة، وتوسل إليه بقصائد تلين الصخر فقتله في سنة (٤٧٩هـ). ومن مصادر ترجمته: قلائد العقبان (٨٥)، الذخيرة (٢/ ١/ ٣٦٨)، الخريدة (١١/ ١٦٤)، بغية الملتمس (١١٣)، المطرب (١٦٩)، المعجب (٧٧)، الحلة السيراء (٢/ ١٣١)، المغرب (١/ ٣٨٩)، وفيات الأعيان (٤/ ٤٢٥)، العبر (٣/ ٣٨٨)، الوافي بالوفيات (٤/ ٢٢٩)، نفح الطيب (١/ ٦٥٢)، شذرات الذهب (٣/ ٣٥٦).

وكان خيران العامري لما خرج / في مرسية تغلب عليها أبو عبد الرحمٰن بن طاهر [١٧٥/ب] من أعيانها وجلتها، ومحله في الأدب والفضل والمروءة معروف، قد قرر ذلك الفتح في كتاب القلائد وغيره إلى أن خالف عليه أهلها، وكاتبوا المعتمد يستدعونه إليها.

فوجه ابن عمار وزيره إليهم، وقائد جيشه عبد الرحمٰن بن رشيق، فدخل مرسية وتحصل ابن طاهر في اعتقاله وضبطها، واستقر فيها قراره إلى أن سولت له نفسه الانفراد بها، وكشف وجهه في الخلاف للمعتمد، وقيض لابن عمار من ابن رشيق جزاء عامل بسوء عمله، فاهتبل غرته وقد خرج لتفقد بعض شؤون حصونها، فوثب على مرسية، واستولى عليها وبلغ ابن عمار الخبر، ففر عنها ولحق بالمؤتمن بن هود بسرقسطة.

واستولى ابن رشيق على مرسية، فامتنع أيضاً بها، وجرى بينه وبين المعتمد في ذلك حديث طويل إلى أن خرج ابن رشيق عن مرسية ليوسف بن تاشفين أمير لشبونة عند جوازه إلى الأندلس.

واستَعْدَى المعتمد عليه، فلم يبلغ المعتمد بعد ذلك فيه كلام.

وبقي ابن عمار عند المؤتمن بن هود على شأنه عند المعتمد من سلطانه إلى أن أغراه بحصن شقورة[1]، ووعده من نفسه بفتحه، وتوجه إليه، فلما نزل بساحته كاده صاحب الحصن، وسهل عليه الأمر، وجعل البلد في يده باللسان، وطلب منه الصعود بنفسه لمباشرة قبضه.

فأسرع لذلك في طائفة يسيرة من مماليكه ورجاله، وقد أعمى عينه الحرص والغرور وتهوره المشهور.

فلما تحصل في قبضة صاحب الحصن وثب به وأكبله وأودعه المطبق، واتصل ذلك بابن عباد، فراسل صاحب الحصن في التمكين منه وراغبه فيما لديه حتى استنفره وأمكنه من رقبته، فأدخل إشبيلية مدخل الشهرة فوق ظهر بعير بين عيدان. وحشد الناس إلى رؤيته.

وقد خرج لمسير كبير، وأعيد اليوم ذليلاً أسيراً، وتلك عادة الأيام في تعاقب الصروف وجحد المعروف.

واعتقله المعتمد ببعض حُجر القصر، وكان يستحضره فيبالغ في عتبه.

ويتلقاه ابن عمار من الاستعطاف والاسترحام بما كاد يحل عقدة مودته، ويطمع

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان: شَقُورَةُ: مدينة بالأندلس شمالي مُرسية وبها كانت دار إمارة همشك أحد ملوك تلك النواحي.

في الإبقاء عليه، لولا أن أعداءه شمروا للإغراء به، ونسبوا إليه أقوالاً في إساءة ذكره والنيل من أم ولده، فأمضى قتله بيده.

وصدرت من ابن عمار من الأشعار في غرض استقالته واستعطافه كلمات شهيرة تعالج بمراهمها جرائح القلوب، وتعين على مضبات الذنوب لولا ما فرغ منه القدر والمكتوب والأجل المحسوب، فمن ذلك قوله:

سجايك إن عافيت أدنى وأسمع ... وعُذرك إن عاقبت أجلى وأوضح

[١٧٦/أ] / وإن كان بين الخطتين قريبة ... فأنت إلى الأندلس من اللّه أجنح

وماذا عسى الأعداء أن يتزودوا ... بهْوى إن ديني ثابت ومصحح

وأن رجائي أن عندك عزماً ... يخوض عدوي اليوم فيه ويمرح

أقلني بما بيني وبينك من رضى ... له نحو روح اللّه باب مُفَتح

ولا تلتفت قول الوشاة وزورهم ... فكل إناء بالذي فيه يرشح

وقالوا سيجزيه فلان بذنبه ... فقلت وقد يعفوا فُلان ويصفح

إلا أن بطشاً للمؤيد يرتقي ... ولكن حلماً للمؤيد يرجح

وبين ضلوعي من هواه تميمة ... ستشفع لو أن الحمام يجنح

سلام عليه يكف دار به الهوى ... إليّ فيدنُو أو عليّ فيسرح

ويمنيه إن مت السلوى فإنني ... أموت وبي شوق إليه مُبرحُ

قلت: ولولا أن يطول الكتاب لاستوفيت من ذلك ما يعجب استيفاؤه.

وسبحان الذي جعل نفوس أكثر الملوك تنقاد إلى أزِمّة حُب التشفي وطلب الإنصاف، فلا تتوقف في مطاوعة، وذلك أنها نفوس غير مقهورة بالرياضة والملكات، ولا مُرغمة، ففراق الشهوات إلاّ القليل النادر ممن كانت نفسه متصفة بالرحمة في أصل جبلتها فهي ساكنة الفورة كالمأمون العباسي في العفو عن عمه الذي نادمه على كأس السلافة من بعد أن انتهر ثوب الخلافة فتركها مثلاً بعده، ولا يخلف الله وعده لمن اتصل بالحلم.

ومما يؤثر عن المأمون قوله:

لو علم الناس محبتنا في العفو لتقربوا إلينا بالجرائم.

وما كان أجمل بالمعتمد أن يبقي على جانٍ من عبيده قد مكّنه الله من عنقه لا يؤمل الحصول على أمره، ولا يزيده العفو عنه إلاّ ترفعاً وعزاً وجلالة وهمة وذكراً جميلاً وأجراً جزيلاً، فلا شيء أهيىء للسيئة من الحسنة، ولا أمثل للشر من الخير، ورحم الله الشاعر إذ يقول:

وطعنتهم بالمكرمات وباللهى   من حيث لو طعن القنا لتكسرا

وذكروا أن:

المعتمد قدم على قتله ولا معين.

ومن الحكم قوله:

أنت على ما لم تفعله أقدر منك على رد ما فعلته.

جعلنا الله ممن يملك عنان نفسه ويقدم لغده في أمسه.

وكان زمن المعتمد / بالأندلس مشهوراً بالراحات والأدب، وأيامه موصوفة [١٣٦/ب] باخضرار الجناب. ولما استوثق ليوسف بن تاشفين بسعيه أمر الجهاد وراقه حُسن ما بالأندلس من البلاد، وأغرى بملوك الطوائف، وقررت لديه مساويهم أزمع على خلعهم. فبدأ بصاحب غرناطة حفيد باديس. ثم ثنى بالمعتمد على الله، فنازله قواده بإشبيلية.

ونازلت ولده بقرطبة، وولده الراضي بِرُنْدة[(١)]. ولما ضاق به الأمر حده، راسله سلطان النصارى يستصرخ به ويطمعه.

فبعث إليه جيشاً أوقع بالمرابطين المحاصرين لأهل جَيّان[(٢)] وقيعة استأصلتهم، ولأجلها ذهبوا إلى الأخطار بدمه عند خلعه لو اتفقت الفتيا بذلك.

ثم وصل النصارى إلى بلد من أحواز إشبيلية فكانت بينهم وبين جيوش المرابطين وقعة تناصف فيها المسلمون.

وعند ذلك يئس ابن عباد وأيقن بالغلبة، وترامى الناس من فوق أسوار إشبيلية، واستدعى أهلها أمراء المرابطين وركب المعتمد. وقد اقتُحم البلد يوم الثلاثاء منتصف رجب من سنة أربع وأربعين وأربعمائة، وعليه قميص يشف عن بدنه، وقد

---

(١) قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: رُنْدَةُ: معقل حصين بالأندلس من أعمال تاكُرُنّا، وهي مدينة قديمة على نهر جار، وبها زرع واسع وضرع سابغ. قال السلفي: أبو الحسن سقي بن خلف بن سليمان الأسدي الرُّندي كان يتردد إليَّ بعد رجوعه من الحجاز سنة (٥٣٠) وقال: إن رندة حصن بين إشبيلية ومالقة، وكان ظاهر الخير سمع بالأندلس، ورجع إلى بلده. وأبو علي عمر بن محمد الرندي الأديب، حدث عن محمد بن إبراهيم الفخاري وأبي زيد السُّهيلي، وكان شيخاً فاضلاً من مالقة.

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان: جَيّانُ: مدينة لها كورة واسعة بالأندلس تتصل بكورة البيرة مائلة عن البيرة إلى ناحية الجوف في شرقي قرطبة، بينها وبين قرطبة سبعة عشر فرسخاً، وهي كورة كبيرة تجمع قرى كثيرة وبلداناً تذكر مرتبة في مواضعها من هذا الكتاب وكورتها متصلة بكورة تدمير وكورة طليطلة، وينسب إليها جماعة وافرة.

اعتزل والسيف منتظم بيده، وحمل على الداخلين، فردهم على أعقابهم، وقتل منهم فارساً، وانزعج الناس أمامه، وخلفوا الباب، فأمر بسده، وعاد إلى القصر، وإلى تلك الحال يشير بقوله:

كـم رمـت يـوم نـزالـهـم ... أن لا تـحـصـنـنـي الـدروع

وبـرزت لـيـس سـوى الـقـمـيـص ... عـن الـحـشـى شـيء دفـوع

أجـلـي تـأخـر لـم يـكـن ... بـهـواي ذُلِّـي والـخُـشُـوع

مـا سـرت قـط إلـى الـقـتـال ... وكـان فـي أمـلـي رجـوع

وفي يوم الأحد لعشر بقين من رجب فتحت المدينة، فوقع النهب وفرّ أهلها إلى المحلة. وخرج ابن عباد، وابنه مالك، فقتل مالك بين يديه، وكوثر المعتمد، فأغمد سيفه، وانصرف إلى القصر ملقياً بيده ورفع البريد بكف الأيدي، ثم أخرج المعتمد فغرب مكبولاً مُدال العز، مسلوب الملك بعد أن جرت عليه أهوال، وتلفت بنته يوم الخروج. ثم جارت عليه بعد ذلك واستقر بإغمات[١] واقتات من غزل بناته، وجرت عليه خطوب يهون سماعها مصائب الزمان وحوادث الحدثان.

وبأغمات ماتت حظيته قبله، وله في التفجع عليها ورثاء نفسه، وإنذاره بسرعة لحاقه بها، وذكر معهده وأيامه وتقلب / الأحوال به أقوال مُفتة للقلوب، معجزة للغروب، مسلية عن متاع الدنيا المسلوب. [١٧٧/أ]

وكانت وفاته بأغمات في ذي الحجة من عام ثمانية وأربعين وأربعمائة[٢].

---

(١) قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: أغمات: ناحية في بلاد البربر من أرض المغرب قرب مراكش، وهي مدينتان متقابلتان كثيرة الخيرات ومن ورائها البحر المحيط السوس الأقصى بأربعة مراحل، ومن سجلماسة ثماني مراحل نحو المغرب. وليس بالمغرب فيما زعموا بلد أجمع لأصناف من الخيرات ولا أكثر ناحية ولا أوفر حظاً ولا أكثر خصباً منها، تجمع بين فواكه الصرود، والجروم. وأهلها فرقتان يقال لإحداهما: الموسوية من أصحاب ابن ورصند، والغالب عليهم جفاء الطبع، وعدم الرقة. والفرقة الأخرى: مالكية حشوية. وبينهما القتال الدائم، وكل فرقة تصلي في الجامع منفردة بعد صلاة الأخرى. كذا ذكر ابن حوقل التاجر الموصلي في كتابه، وكان شاهدها قديماً بعد الثلاثمائة من الهجرة، ولا أدري الآن كيف هي؟ فقد تداولتهم عدة دول منها: دولة الملثمين، وكان فيهم جدّ وصلابة في الدين. ثم عبد المؤمن وبنوه، ولهم ناموس يلتزمونه، وسياسة يقيمونها لا يثبت معها مثل هذه الأخلاط، والله أعلم. وبين مدينة أغلاط ومراكش ثلاثة فراسخ هي في سفح الجبل هناك، وهي للمصامدة يدبغ به جلود تفوق جودة على جميع جلود الدنيا وتُحمل منها إلى سائر بلاد المغرب، وينافسون فيها.

(٢) وقال ابن الأثير في الكامل في التاريخ في أحداث سنة (٤٠٧هـ) في تفرق ممالك الأندلس في ذكره للمعتمد على الله اختصاراً: وولي بعده ابنه أبو القاسم محمد بن عباد ابن القاضي أبي القاسم، ولقب المعتمد على الله، فاتسع ملكه، وشمخ سلطانه، وملك كثيراً من الأندلس وملك قرطبة أيضاً =

ولما أحسّ بالمنية ترهقه، وجاء لها تعلقه، أمر أن يكتب على قبره:

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي ... حقاً ظفرت بأشلاء ابن عباد
بالطاعن الضارب الرأي إذا قتلوك ... بالخِصب إن أجدبوا بالرِّي للصادِ
نعم هو الحق وافاني على قدر ... من السماء ووافاني لميعاد
ولم أكن قبل ذاك النعي أعلمه ... إن الجبال تهادي جوف أهواد
فلا تزال صلوات اللّه دائمة ... على دفينك لا تحصى بتعداد

قلت: ووقفت على قبر المعتمد على الله بمدينة أغمات في حركة راحة أعملتها إلى الجهات المراكشية باعثها لقاء الصالحين، ومشاهدة الآثار عام واحد وستين وسبعمائة. وهو بمقبرة أغمات في نشز من الأرض قد حفت به سِدوة وإلى جنبه قبر اعتماد[1] حظيته مولاة رُمَيْك وعليها وحَشة التغرب، ومعاناة الخمول من بعد الملك فلا تملك العين دمعتها عند رؤيتها، فأنشدته في الحال:

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات ... رأيت ذلك من أولى المهمات
لِمَ لا أزورك يا أندى الملوك يداً ... ويا ضياء الليالي المُدْلهمات
وأنت لم يخطىء الدهر مصرعه ... إلى حياتي أجادت فيه أبيات

= وولي عليها ابنه الظافر بالله فبلغ خبر ملكه لها إلى يحيى بن ذي النون صاحب طليطلة فحسده عليه فضمن له جرير بن عكاشة أن يجعل ملكها له. وسار إلى قرطبة وأقام بها يسعى في ذلك، وهو ينتهز فرصة، فاتفق أن في بعض الليالي جاء مطر عظيم، ومعه ريح شديد ورعد وبرق، فثار جرير فيمن معه ووصل إلى قصر الإمارة، فلم يجد من يمانعه. فدخل صاحب الباب إلى الظافر، وأعلمه فخرج بمن معه من العبيد والحرس، وكان صغير السن، وحمل عليهم ودافعهم عن الباب، ثم إنه عثر في بعض كراته فسقط فوثب بعض من يقاتله وقتله. ولم يبلغ الخبر إلى الأجناد، وأهل البلد، لا والقصر قد مُلك. وتلاحق بجرير أصحابه، وشيعته، وترك الظافر ملقى على الأرض عرياناً، فمر عليه بعض أهل قرطبة، فأبصره على تلك الحال، فنزع رداءه وألقاه عليه. وكان أبوه إذ ذكره ينشد:

ولم أدر من ألقى عليه رداءه ... على أنه قد سَلَّ عن ماجدٍ محض

ولم يزل المعتمد يسعى في أخذها حتى عاد ملكها وترك ولده المأمون فيها. فأقام بها حتى أخرجه جيش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وقتل فيها بعد حروب كثيرة... سنة أربع وثمانين وأخذت إشبيلية من أبيه المعتمد في السنة المذكورة، وبقي محبوساً في أغمات إلى أن مات بها رحمه الله. وكان هو وأولاده جميعهم: الرشيد، والمأمون، والراضي، والمعتمد، وأبوه، وجده، علماء فضلاء شعراء.

(١) قال الأستاذ عمر رضا كحالة في أعلام النساء (١/ ٧١): اعتماد الرُّميكيَّة: أديبة من أديبات الأندلس كان المعتمد على الله ابن عباد كثيراً ما يأنس بها ويستظرف من نوادرها، ولم تكن لها معرفة بالعلم، وإنما كانت مليحة الوجه حسنة الحديث حلوة النادرة كثيرة الفكاهة، لها في كل ذلك نوادر محكية. وتوفيت سنة (٤٨٨).

أناف قبرك في هضب يمنوه فتنتحيه حفيات التحياتِ
كرمت حيّاً وميّتاً واشتهرت عليّ فأنت سلطان أحياء وأمواتِ
ما رئي مثلك في ماضي ومعتقدي أن لا يرى الدهر في حال ولا آتِ

وقال ابن الصيرفي:

لما انفصل الناس من مصلى العيد الذي توفي المعتمد في شهره، حفّ بقبره ملأ من الناس يتوجعون له ويترحمون عليه، وأقبل شاعره ابن عبد الصمد في جملتهم، وقد اتفق حضوره يومئذ لبعض شأنه، فوقف على قبره وأنشد:

ملك الملوك أسامع فأناد أم قد عدتك عن السماع عَوَادِ
لما خلت منك القصور فلم تكن فيها كما قد كنت في الأعياد
/ قبلت في هذا الثرى لك خاضعاً وتحدث قبرك موضع الإنشاد [١٧٧/ب]

ثم خرّ يبكي، ويعفر في تراب قبره.

قال: فبكى ذلك الملأ حتى أخضلوا ملابسهم وارتفع نشيجهم وعويلهم[1]، فللّه در ابن عبد الصمد، وملأ ذلك البلد.

قلت: وتمام رثائه:

---

(١) ومما ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء من سيرته في آخر أيامه من خروجه وسجنه وتدهور حاله ودوران الدوائر عليه وشعره في ذلك أن قال: قال عبد الواحد: برز المعتمد من قصره في غلالة بلا درع، ولا دَرَقة، وبيده سيفه، فرماه فارس بحربة أصاب الغلالة، وضرب الفاس فثلّه، فولت المرابطون. ثم وقت العصر، كرت البربر، وظهروا على البلد من واديه، ورموا فيه النار، فانقطع العمل واتسع الخرق على الراتق، بقدوم سِيَر ابن أخي السلطان، ولم يترك البربر لأهل البلد شيئاً، ونهبت قصور المعتمد، وأُكره على أن كتب إلى ولديه أن يُسلما الحصنين، وإلا قُتِلْتُ، فدمى رهن على ذلك، وهما: المُعْتَدُّ، والراضي، وكانا في رُنْدَة، ومارْتلة، فنزلا بأمان ومواثيق كاذبة، فقتلوا المعتد، وقتلوا الراضي غِيلة. ومضوا بالمعتمد وآله إلى طنجة بعد أن أفقروهم، ثم سجن بأغمات عامين وزيادة في قلة وذلة، فقال:

تبدلت من ظل عز البنود بِذُلِّ الحديد وثقل القيود
وكان حديدي سناناً ذليقاً وعضباً رقيقاً صقيل الحديد
وقد صار ذلك وذا أدْهَماً يعضّ بساقيّ عض الأسود

وقيل: إن بنات المعتمد أتينه في عيد، وكنّ يغزلن بالأجرة في أغمات، فرآهن في أطمارٍ رَثَّةٍ، فصدعن قلبه، فقال:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا فساءك العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا

قد كنت أرجو أن تبرد دمعي قبران حزن أضرت بعوادي
فإذا بدمعي كلما أجريته زادت عليّ حرارة الأكباد
يا أيها القمر المنير اذكر أيخبوا ضياء النير الوقاد
أفقدت عيني مذ فقدت إنارة بمجالها في ظلمة وسواد
ما كان ظني بعد موتك أن أرى قبراً يضم شوامخ الأطواد
الهضبة الشماء بين ضريحه والبحر ذو التيار والأزباد
عهدي بملكك وهو طلق ضاحك متهلل النفحات للقُصاد
والمال ذو ثمن براذٍ والندا غُر وشمل المجد غير بداد
أيام تخفق حولك الرايات فوق كتائب الرؤساء والأجناد
والأمر أمرك والزمان ميسر وممالك قد أذعنت وبلاد
والخيل تمرح والفوارس تنتجي بين الصوارم والقنا لمُنَاد
إذ تحسب الهيجاء روضاً يانعاً وترى الأزاهر من ضيا وصعاد
وتخال عنبرها دخان المندقد فعم الأنوف وغام فوق الناد
وكأن بيض المرهفات على الطلا ورق الحمام على الغصون شواد
ولكم هززت الغصن من طرب لها وجررت أذيالاً من الإزراء
وسقيت رمحك ثمّ من ماء الطلا وروي حسامك من بنات الهاد
وكأنما الدرع منك ربيعة ابن مُكرّم والحارث ابن عباد
حتى إذا ما الدهر أظهر حقده والدهر للأحرار ذو أحْقاد
ألقت بأيديها معاقلك التي ملأت من العقار والآساد
وتهدمت أركان لكل سياسة وانهد حول الملك كل عماد
/ قالوا أضاع الحزم وهي بواطل نور الحقائق للنواظر باد [١/١٧٨]
وإذا انقضت أيام ملك فالعنا في غاية الإكثار والأعداد
حازت بنو العباس ملك أمية .... [1] والأعواد والأقداد
ورأ معاوية علياً هالكاً وعلى الليث الزبر العاد
والدهر أذهب تبعاً وجنوده وأزال ملك الأرض عن شداد

ومنها:

(١) موضع النقط طمس بالمخطوط.

إني لأعجب بعد جندك كيف لا ... تستنكر الأسياف في الأغماد
أو يخطب الخطب بعدك ثغره ... أو يركع الهندي فوق الهاد
أو تلتقي الشجعان تحت عجاجة ... أو تقتضي الميدان سبق جواد
قد كانت الأقداح يجعل درها ... في كف أي مميز نقاد
من يفتح الأمصار بعد محمد ... من يعقد الرايات للقواد
من يطعن النجلاء في المزاق أو ... من يضرب الأُخدود في المُراد
من يترك الأوراق في الأسطار مثل ... الحلي في اللبات والأجياد
من يفهم المعنى الخفي ومن له ... صدق الحديث وصحة الإيراد
من يلبس الخضراء وهي حصينة ... وكأنما هي من عيون جراد
ويقلد الصمصام وهو منمق ... بغريد أو حلي نجاد
من ذا يمد على العفاة ظلاله ... ويبلغ الآمال كل مراد
من يبذل الآلاف للزوار والمُداح ... والقصاد والشُّرواد
هيهات مات الجود بعد محمد ... وأصاب الفهم كل كساد
ودجا الزمان وأقحطت أيامه ... بالجدب موجود بكل مراد
مسح الزمان بأهله فتعرضوا ... من ذلك الإصلاح بالإفساد
يا ساكن القبر الذي بفراقه ... قتل الرجاء وبث في الأعضاد
كُنا نؤمل أن نرى لك عودة ... تعطى بها الأيام كل قياد
وتبيت خيلك في مرابضها على ... وعد من الإتمام والأنجاد
[١٧٨/ب] / وتمد السلطان في الأقطار ... للأصهار والحفداء والأولاد
فإذا المنايا قاطعات بالمُنى ... والدهر لا يردي سوى الأجواد
قد كان ذا الرمح عطف قده ... وأبا الحسام العضب مل غماد
. . . . . .[1] الجياد إلى الوغا ... وتضاحك الأنجاد للأنجاد
إذ حان حين العز أدركك الردى ... فكأن موتك كان بالمرصاد
لو كنت إذ ساروا بنعشك حاضراً ... لرأيت ثملاناً على الأعواد
إني لأعجب من ضجيعك . . .[1] ... قد كان قربك أقسما في الناد

(١) موضع النقط كلمات غير مقروءة بالمخطوط.

جاورتها في قبرها فكأنما ... قد كنتما في ذا على ميعاد
راحت وأمّلك الندى من بعدها ... فمشى إليها فوق نعشك غادِ
جمعتكما أغمات في الترب الذي ... وُسِّدْتُما منه بأي وساد
أما الملوك أما علمت فزائر ... لك ذو وفاء مخلص وودّاد
أبْكَى العلى والمجد فَقْدَكُما الذي ... لبست له الدنيا ثياب حداد
لهفي على تلك السجايا إنها ... زهر الرُّبا موشية الأبراد
لهفي على تلك العطايا واللها ... كم أخجلت من واكفات غواد
لم نعمة خضراء قد ألبستني ... ومواهب واليتها وأياد
ناديت كفك طامياً مستمطراً ... فقضى على يداك باستعباد
قد كنت لا أرضى البحار مناهل ... زهواً ولا أرضى السماك مهاد
في دولة غراء عبادية ... فلت من الأملاك كل عناد
ورئاسة يحمي البلاد رئيسها ... يوماه يوم ندى ويوم جلاد
والبدر ترسي والثريا معقلي ... والصبح سيفي والرياح جياد[1]
أغرقتني في بحرك الطامي الذي ... منع الظماء ورود كل ثماد
وسللت في نصري سيوف مكارم ... تركت سيوف الهند غير حداد
عادت بحاراً إذ سقيت ضحاضحي ... وغدت هضاباً إذ رفعت وهاد
/ ومددت كفي للكواكب قاعداً ... فبلغتها لما غدوت مصاد [١٧٩/أ]
نفقتني والدهر يخسر قيمتي ... وأنفت من رخص به وكساد
وأقمتني لما رأيت حوادث الأيام ... قد أشرفن في إقعاد
فالجفن بعدك ليس يدري ما الكرا ... في دمعه منهلة وسُهاد
وكأن قلبي في مخالب طائر ... وكأن جسمي فوق شوك قتاد
إن لم تطب فيك المراثي والثنا ... مني فلست بطيب الميلاد
لو فزت من ذاك الجمال بنظرة ... لجعلتها حتى القيامة زاد
إن السيادة التي قد حزتها ... تركتك منفرداً بلا أنداد
ولئن مضيت فإن ذكرك خالد ... يبقى مع الأيام والآباد
يا صاحب القفر الذي قد أصبحت ... زهر الرياض بضفتي بغداد

(١) هذا البيت غاية في الجمال من الناحية التصويرية، وحسن التشبيه.

راقت وجوه الكتب بالنكت التي … منعت زنادك ثم من أصلاد
لما فقدت المثل آثرت الردى … ومن الصحيح تنافر الأضداد
شُقوا الثياب وجددوا أحزانكم … وصلوا التلهف يا بني عباد
كم رد ريح الخطب عنكم ظله … وحماكُم من مثل عاصف عاد
لولا أمير المسلمين وفضله … لم تكتحل أجفانكم برقاد
واللّه يبقيه لكم ليصونكم … من كل حادثة تُخاف قعاد
أبقى عليه ستره وأقالكم … قد يسعى الأمجاد للأمجاد
كان ابن عباد صباحاً مُسْفراً … لغياهب إن أظلمت ووداد
كم بات منه البحر تحت سكينة … والطود ذو الهضبات فوق وساد
ما كان إلاّ الروض موشى الحلى … سقيت أزاهره بصوب عهاد
يهتز عند الحمد معطفه الذي … يهتز عطف الأملد المياد
يا موت لم تترك حنيفاً مسلماً … صعب اللقاء على ذوي الألحاد
قد كان من أعلى الملوك رئاسة … وفؤاده من أروع الزهاد
[١٧٩/ب] / يا موت لم تشفق لغربته ولم … تر ما يخلفه من الأولاد
ما أورث الأبناء إلا مجده … إن العُلى ميراث كل جواد
كنا نفدي موته بنفوسنا … لو كان يقبل فيه منا الفادِ
.... غير محمد[١] … قبل اختلالك كان في استعداد
كم رام في رجب لقائك جاهراً … والحظ ليس ينال دون جهاد
أهوى الشهور سواه فهو أذلني … وأحب أيامي سوى الآحَادِ
صبراً جميلاً يا بَنِيةِ فربْما … نال المُنا قوم بلا ميعاد
إني نظمت لكم للآلىء قوله … عرضت على الأيام صفو وداد
ولقد تمازج حبهم بجوانحي … كتمازج الأرواح بالأجساد
فسقى انسكاب الغيب قبر أبيكم … من رائح متدفق أو غادِ
ولقد رثيت وما قضيت حقوقكم … واللّه يعلم ما يكن فؤاد[٢]

---

(١) موضع النقط كلمات غير مقروءة لطمس بالمخطوط.

(٢) كذا يكون الوفاء لا الوفاء لمن ذهب شخصه وبقي سلطانه، ولكن هذا قد رثى من ذهب شخصه وسلطانه معه وبقي بعده أولاده في ذلة وصغار، اللهم أحسن إلى أهل الوفاء واجعلنا منهم يا رب العالمين آمين.

ذكر أيام بني هود بسرقسطة وما إليها

كان مبدأ قيامة هذا البيت سليمان بن محمد بن هود الجذامي الملقب بـ: المستعين.

وكان مدة الجماعة بالأندلس من كبار الجند بالثغر الأعلى إلى حين الفتنة الشاملة.

فتغلب على مدينة الإردة، وقتل قائدها أبا الطرف التجيبي في خبر طويل.

واستولى على مدينة ماردة[١]، ومنشون، وأنظارهما في غرة محرم من سنة إحدى وثلاثون وأربعمائة.

أيام سليمان بن هود

ولما ثار أهل سرقسطة بيحيى بن منذر بن يحيى، صرفوا طاعتها إلى سليمان بن هود.

فضخم أمره، واشتهر ذكره، وبعد صيته، إلى أن توفي سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة، وخلف خمسة أولاد بأقطار ملكه، قسم عليهم.

فولى أحمد مدينة سرقسطة المدينة البيضاء.

وولى يوسف مدينة الإردة.

وولى محمداً مدينة قلعة أيوب[٢].

وولى لبّا تُطِيْلَة[٣].

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان: مَارِدَة: كورة واسعة من نواحي الأندلس متصلة بحوز فريش بين المغرب والجوف من أعمال قرطبة إحدى القواعد التي تخيرتها الملوك للسكنى من القياصرة والروم. وهي مدينة رائقة كثيرة الرخام عالية البنيان فيها آثار قديمة حسنة تقصد للفرجة والتعجب. وبينها وبين قرطبة ستة أيام، ولها حصون وقرى، وينسب إليها غير واحد من أهل العلم والرواية.

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان: قلعة أيوب: مدينة عظيمة جليلة القدر بالأندلس بالثغر، وكذا ينسب إليها فيقال: الثغرى. من أعمال سرقسطة، بقعتها كثيرة الأشجار والأنهار والثمار والمزارع. ولها عدة حصون، وبالقرب منها مدينة لَبْلَة.

(٣) قال ياقوت في المصدر السابق: تُطِيْلَة: مدينة بالأندلس في شرقي قرطبة تتصل بأعمال أشقة، هي اليوم بيد الروم، شريفة البقعة، غزيرة المياه، كثيرة الأشجار والأنهار، اختطت في أيام الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية. قال أبو عبيد البكري: كان على رأس الأربعمائة بتطيلة امرأة لها لحية كاملة كلحية الرجال، وكانت تتصرف في الأسفار كما يتصرف الرجال، حتى أمر قاضي الناحية القوابل بامتحانها، فتمنعت عن ذلك، فأكرهنها فوجدنها امرأة، فأمر بأن تُحلق لحيتها ولا تسافر إلا مع ذي محرم. وبين تطيلة وسرقسطة سبعة عشر فرسخاً. وينسب إليها جماعة من أهل العلم منهم أبو مروان إسماعيل بن عبد الله التطيلي اليحصبي، وغيره.

واستبدوا بعد موته، وكان أحمد منهم مصنوعاً له وضايقهم فظهر عليهم إلى أن انتزع ما كان بأيديهم واستأصلهم إلى أن ذهب اسمهم ومسماهم في حديث طويل.

وتلقب أحمد بالمقتدر بالله.

[١٨٠/أ]

/أيام المقتدر بالله أحمد بن سليمان بن هود

واستوثقت للمقتدر أحمد بن سليمان الطاعة بالثغر الجوفي وانتصاف مدينة طرطوشة[١] إلى عملة، وكانت تحت يد لبيب من الفتيان العامرية، ثم في يده مقاتل بعده، فاستحوذ عليها بعد مهلكهما.

وكانت بينه وبين الروم حروب عظيمة، ودخلت مدينة...[٢] من عمله عنوة، فاستولت من سببها على ما يقارب مائة ألف نفس فعمروا المدينة.

فشمر المقتدر، وأحمد بن سليمان بن هود إلى استرجاعها، واستنفرا المسلمين من جميع بلادهم، ونازل المدينة، وكان في جيشه الذي احتشده من الرماة بالقسي العقارة أزيد من ستة آلاف ففتح الله المدينة على يده عنوة.

فشاع له بذلك ذكر جميل، وصيت شهير.

ثم زاحم أفيال الدولة على ابن مجاهد فاستنزل له على مدينة دانية[٣]، واستضاف عملها إلى ما بيده، فاتسعت خطته، وانفسحت عمالته، وتعدد جيشه. ثم هلك سنة خمس وسبعين وأربعمائة بسيء المِيتة من كلب أصابه كان يعض له أعضاءه، وذلك لقتله رجلاً صالحاً دخل عليه يعظه، وقد ضرب على رعيته ضريبة ما للروم.

فلم يمهله الله بأن أخذه أخذاً وبيلاً.

وولي الأمر بعده ابنه المؤتمن فلم تطل مدته بأن هلك.

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان: طَرْطُوشَةُ: مدينة بالأندلس تتصل بكورة بلنسية، وهي شرقي بلنسية، وقرطبة، قريبة من البحر، متقنة العمارة، مبنية على نهر إبرة، ولها ولاية واسعة وبلاد كثيرة تُعدّ في جملتها تحلُّها التجار، وتسافر منها إلى سائر الأمصار، واستولى الإفرنج عليها في سنة (٥٤٣هـ) وكذلك على جميع حصونها، وهي في أيديهم إلى الآن. وينسب إليها جماعة من أهل العلم.

(٢) موضع النقط كلمة مختلطة المداد في المخطوط لم أتبين اسم المدينة منها.

(٣) قال ياقوت في معجم البلدان: دَانِيَةُ: مدينة بالأندلس من أعمال بلنسية على صفة البحر شرقاً، مرساها عجيب يسمى السمان، ولها رساتيق واسعة كثيرة التين والعنب واللوز. وكانت قاعدة ملك أبي الجيش مجاهد العامري وأهلها أقرأ أهل الأندلس، لأن مجاهداً كان يستجلب القراء ويُفضِّل عليهم، وينفق عليهم الأموال، فكانوا يقصدونه، ويقيمون عنده، فكثروا في بلاده، ومنها شيخ القراء أبو عمر عثمان بن سعيد الداني صاحب التصانيف في القراءات والقرآن.

أيام المؤتمن محمد بن المقتدر أحمد بن سليمان بن هود

تصير له ملك أبيه بالثغر كله، واستمر فيه أيامه إلى أن هلك سنة ثمان وسبعين وأربعمائة.

وولي بعده المستعين، وكان بينه وبين المعتمد بن عباد ما يكون بين الفحول في الهجمات، والليوث في الأجمدات، وبه تلاحق ابن عمار لما خالف على المعتمد حسبما تقدم ذلك في جملة من الكتاب.

دولة المستعين أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن سليمان بن هود

وقام بأمر الثغور إلى هذا العهد المستعين بالله أحمد بن هود في سنة تسع وسبعين وأربعمائة.

نازل العدو مدينة وَشْقَة[1] من عمالة المستعين، وضيقوا بها، وحشد المستعين جيوشاً من المسلمين، وحمل إليها الميرة، والتقى الفريقان، ووقعت الحروب من لدن طلوع الشمس إلى غروبها حتى كادت تأتي على الفريقين.

وترك ابن هود المصاف على حاله وقصد يضربه لما ساء ظنه بيوم الكريهة.

فرفع ما كان به من المال، ثم كر إلى مقامه، وأبلي إلى أن كانت الهزيمة على المسلمين في أخريات ذي القعدة من العام.

ففقد من الناس ما يناهز اثنين عشر ألفاً، والتمس أهل وشقة الأمان / لثلاث [١٨٠/ب] أيام من يوم الهزيمة.

ثم مما طمع العدو إلى سرقسطة حاضرة المستعين.

فنازلها جموع لا تحصى. وأجاز الأمير يوسف بن تاشفين البحر ووجه جيشاً لنظر قائده علي بن الحاج يمحص عن أحوال ملك الروم بسرقسطة، ويخبر أحوال جيشه، فشاع لما أطل على محلة الطاغية: أنه يوسف بن تاشفين، فأوقع الله الرعب في قلب العدو، وانهزم جمعه، فأعمل المسلمون فيهم السيف بما هو معروف، ونجا الطاغية في أفذاذ قليلة بعد مشارفته العطب.

والمستعين هذا ممن لم يهجه أمير لمتوقه ولا نازعه مما في يده، ولا تطرق لخلعه قبولاً منه للعهد، وإقراراً فيما بينه وبين العدو، لما تجره مضايقته من تصيير ما بيده إلى الروم، فكان يلاطفه.

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان: وَشْقَة: بليدة بالأندلس، ينسب إليها طائفة من أهل العلم.

ووجه إليه ابن هود ولده عبد الملك فقام بحقه، وصرفه مكرماً، وأصحبه كتابه بما نصه:

من أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين إلى المستعين بالله أحمد بن هود أدام الله تأييده

كتبناه إليك والله عز وجل يوالي أيام سعدك ويعالي أعلام مجدك، ويطيل في طاعتك على أحسن ما تمناه عمرك، ويشد بتقواه أزرك، ويجري على كل لسان صدق ذكرك من حضرة مراكش حيث تتلى آيات شرفك ومآثر السادة القادة سلفك.

ونحن نحمد الله بجميع المحامد، ونستهديه أيمن المسالك، وأبين المقاصد، ونسأله أتم الفوائد، وأعم العوائد.

ونصلي على سيدنا محمد صفوة أوليائه وخاتم رُسُله وأنبيائه، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

وأما الذي عندنا أيدك الله لجانبك الكريم ومجدك العميم، ومحلك المعلوم بالمفهوم، فَوُدّ صريح، وعقد في ذات الله تعالى صحيح.

وردنا، أدام الله إقبالك، وأجرى إلى غاية الأفضال آمالك، نشأة السيادة، والفضل، والنباهة، والنبل أبو مروان عبد الملك ابنك ولادة ونسباً، وابننا ودادة وتقرباً، زاد الله به عينك قرة، ونفسك سُرّة.

ومعه وزيراك: أبو الأصبغ، وأبو عامر، أكرمهما الله بتقواه.

وكلاً وفيناه حق قضائه وآتيناه برّه من بابه، وتلقيناه تكرمة بمقضى دواعية وأسبابه.

وأديا إلينا كتابك الخطير المقبول المبرور، فوقفنا به على وجه شخوصهما، وأصغينا في تفصيل جملة إلى تلخيصها، فألقينا إليهم مراجعة عن ذلك ما لقنوه وسفرنا لهما عن وجه مقصدنا فيه حتى استبينوه، وجملة الوفاق، وجماعة الانصياع في سلك ما/ [١٨١/أ] يرضي الله تعالى والانسياق إن شاء الله.

. . .[١] احتل يوسف بن تاشفين بقرطبة سنة ست وتسعين وأربعمائة، أعاد إليه توجيه ولده عبد الملك الملقب بـ: عماد الدولة الكائن بحصن روطة بمدينة جليلة، وكان من جملتها أربعة عشر ربعاً من آنية الفضة محررة باسم المقتدر بن هود جدهم.

فأمر يوسف بن تاشفين بضربها قراريط مرابطية، وفرقها في طباق المرابطين ليلة النحر من تلك السنة. وفي ذلك الوقت عقد البيعة لولده علي بن يوسف، وحضر العهد عبد الملك بن المستعين.

---

(١) كلمة مطموسة بالمخطوط.

واتصلت أيام المستعين بن هود إلى سنة إحدى وخمسمائة، ففيها جدد البيعة لنفسه ولولده، وتحرك إلى الجهاد في جمادى الآخرة منها.

فدخل على تطيلة إلى لونية ونازلها ودخل أرباضها، واعتصم أهلها منه في كنيسة عتيقة.

فرحل عنها بعد مصالحتهم على مالٍ يؤدونه، وأخذ به رهائنهم، ثم انصرف.

وقد شنّ الغارات على تلك الأقطار فعمها إحراقاً ونهباً وتدميراً، فلما شارف بلاد الإسلام تلاحق به النصارى، فاجتلد الفريقان أحرّ جلاد إلى أن استشهد المستعين بن هود، وانهزم المسلمون.

فأتى القتل على كثير منهم رحمهم الله وذلك أول يوم من رجب من السنة المذكورة.

وولي بعده ابنه عبد الملك.

أيام عبد الملك بن أحمد المستعين بن هود عماد الدولة[1]

بايع الناس عبد الملك بعد أن استشهد أبوه، واشترطوا عليه أن لا يتلبس بشيء من أمر الروم.

---

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٧)، الحلة السيراء (٢/ ٢٤٨)، المغرب في حلي المغرب (٢/ ٤٣٨)، الحلل الموشية (٧١)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٦٣)، نفح الطيب (١/ ٤٤١)، الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى (٢/ ٦٦)، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة (٩٠). قال الذهبي في ترجمته في سير أعلام النبلاء: كان أحد ملوك الأندلس في حدود الخمسمائة وهو من بيت مملكة تملكوا شرق الأندلس فلما استولى الملثمون على الأندلس أبقى يوسف بن تاشفين على ابن هود. فلما تملك علي بن يوسف بعد أبيه كان فيه سلامة باطن فحسّن له وزراؤه أخذ الملك من ابن هود حتى قالوا له: إن أموال المستنصر العبيدي صارت في غلاء مصر المفرط تحولت كلها إلى بني هود. وقالوا: الشرع يأمرك أن تسعى في خلعهم لكونهم مسالمين الروم. فجهز لهم الأمير أبا بكر بن تيفلوت، فتحصن عماد الدولة بروطة، وكتب إلى علي بن تاشفين يستعطفه في المسالمة. ويقول: لكم فيما فعله أبو بكر أسوة حسنة، وسيلعم مبرم هذا الرأي عندكم سوء مغبته، والله حسيب من معي، وحسبنا الله وكفى. فأمر علي بن يوسف بالكف، وأنّى ذلك، فقد داخلته الرعية سرقسطة.

وكان ابن رذمير اللعين صاحب مملكة أرغونة من شرق الأندلس قسيساً مجرباً داهية مترهباً، فقوي على بلاد ابن هود فطواها وقنع عماد الدولة ابن هود بدار سكناه. وكان ابن رذمير لا يتجهز إلا في عسكر قليل كامل العدة فيلقى بالألف آلافاً. قال أليسع بن حزم: حدثني عنه أبو القاسم هلال، أحد وجوه العرب قال: كان بيني وبين المرابطين أمر ألجاني إلى الوفود على ابن رذمير، فرحب بي، وأمر لي براتب كبير، فحرضت معه حرباً طعن عنه حصانه، فوقفت عليه ذاباً عن حوزته، فلما انصرفنا إلى رشقة، أمر الطواغين بعمل كأس من ذهب، رضعه بالدُر، وكتب عليه: «لا يشرب منه إلا من وقف على لسطانه». فحضرت يوماً، فأخرج الكأس وملاه شراباً وناولني بحضرة ألف

وطمع عبد الله ابن فاطمة قائد الملثمة في سرقسطة عند موت المستعين فتحرك

= فارس، ورأيت أعناقهم قد اسودت من صدأ الدروع. قال: فناديت وقلت: غيري أحق به. فقال: لا يشرب هذا إلاّ من عمل عملك. وكان هلال هذا من قرية هلال بن عامر تاب بعد وغزى معنا، فكان إذا حضر في الصف جبلاً راسياً يمنع تهائم الجيوش أن تميد، وقلباً في البسالة قاسياً، يقول في مقارعة الأبطال: هل من مزيد. أبصرته رحمه الله أمة وحده، يتحاماه الفوارس، فحدثني عن ابن رذمير وإنصافه قال: كنت معه في ظاهر روطة، وقد وجه إليه عماد الدولة وزيره أبا محمد عبد الله بن همشك الأمير رسولاً، فطلب فارس من ابن رذمير أن يمكن من مبارزة ابن همشك. فقال: لا، هو عندنا ضيف. فسمع بذلك ابن همشك، وأمضى ابن رذمير حاجته، وصرفه. فقال: لا بد لي من مبارزة هذا. فأمر الملك ذاك الفارس بالمبارزة، وقال: هذا أشجع الروم في زمانه. فانصرف عبد الله يريد روطة، وخرج وراءه الرومي شاكاً في سلاحه، وما مع ابن همشك درع ولا بيضة، فأخذ رمحه وطارقته من غلامه، وقصد الرومي، وحمل كلاً منهما على الآخر حملات، ثم ضربه ابن همشك في الطارقة، فأعانه الله، فانقطع حزام الفارس، ووقع بسرجه إلى الأرض، فطعنه ابن همشك فقتله والملك يشاهده على بعد. فهمت الروم بالحملة على ابن همشك، فمنعهم الملك، ونزل غلام ابن همشك فجرد الفارس وسلبه، وأخذ فرسه، وذهب لم يلتفت إلى ناحيتنا، فلا أدري ممن أعجب من إنصاف الملك أو من ابن همشك كيف مضى ولم يعرج إلينا؟!

وأقام ابن رذمير محاصراً سرقسطة زماناً، وأخذ كثيراً من حصونها. فلما رأى أبو عبد الله محمد بن غُلبون القائد، ما حلّ بتلك البلاد من الروم، ثار بدورقة، وقلعة أيوب، وملينة، وجمع وحشد وكافح ابن رذمير. واستولى أبو بكر بن تيفلوت على سرقسطة، وأقام بقصرها في لذاته. وأما ابن غلبون: فأحسن السيرة، وعدل، وجاهد، ورزق الجند، رأيته رجلاً طوالاً جداً، واجتمعت به، وأقام مشاغر لابن رذمير شجاً في حلقه، التقى مرة من ألف فارس لابن رذمير، والآخر في ألف، واشتد بينهما القتال وطال، ثم حمل ابن غلبون على ابن رذمير، فصرعه عن حصانه فدفع عنه أصحابه، فسلم، ثم انهزموا، ونجا اللعين في نحو المائتين فقط. وأما ابن تيفلوت فإنه راسل ابن غلبون، وخدعه حتى حَسّن له زيارة أمير المسلمين علي بن يوسف، فاستخلف على بلاده ولده أبا المطرف، وكان من الأبطال الموصوفين أيضاً. وقدم محمد مراكش فأمسك وألزم بأن يخاطب بنيه في إخلاء بلاده من المرابطين، فأخلوها طاعة لأبيهم، وترحلوا إلى غرب الأندلس ففرح بذلك ابن رذمير وحصر سرقسطة وصنع عليها برجين عظيمين من خشب. وأن أهلها لما يئسوا من الغياث خرجوا وأحرقوا البرجين، واقتتلوا أشد قتال، وكتبوا إلى ابن تاشفين يستصرخون به.

ومات ابن تيفلوت، وذلك في سنة إحدى عشر وخمسمائة، فأنجدهم بأخيه تميم بن يوسف فقدم في جيش كبير، وعبَّى رذمير جيوشه ففرح أهل سرقسطة بتميم، فكان عليهم لا لهم، جاء مواجه المدينة، ثم نكب عنها، وكان طائفة من خيلها ورجلها قد تلقوه، فحمل عليهم حملة قتل منهم جماعة كثيرة، ثم نكب عن لقاء العدو، فانصرف إلى جهات الموراله، فاشتد البلاء على البلد، ثم سلّموه بالأمان، على أن من شاء أقام به وكان ابن رذمير معروفاً بالوفاء، فحدثني من أثق به أن رجلاً كانت له بنت من أجمل النساء ففقدها، فأخبر أن كبيراً من رؤوس الروم خرج بها إلى سرقسطة، فتبعه أبوها وأقاربها فشكوه إلى ابن رذمير، فأحضره وقال: عليّ بالنار، كيف تفعل هذا بمن هو في جواري؟ فقال الرومي: لا تعجل عليَّ، فإنها فرت إلى ديننا. فجيىء بها، فأنكرت أبويها وارتدت. ولما دخل سرقسطة أقرهم على الصلاة في جامعها سبعة أعوام، وبعد ذلك يعمل ما يرى. وحاصر =

إليها على شهر من الوقيعة، فلما قرب منها رحمه الله أشار عليه أهلها أن ينصرف عنهم ولا يبدأ بالفتنة ويُحيي عليهم استعانة أميرهم بالروم، فانصرف عنهم.

ثم إن عبد الملك تلبس بملك قشتالة وأنكر الناس ذلك، فاستدعوا قائد علي بن يوسف من بلنسية، فأقبل إليه، وفتحت له المدينة.

واستدعى عبد الملك النصارى فتحرك إليه ابن رذمير، وبادر ابن الحاج قائد عسكر المتوثبين إلى قتاله.

فخذل الناس، ووقعت الهزيمة، فاستشهد رحمه الله.

وأتت الهزيمة على كثير من المسلمين عشي يوم الأحد منتصف ذي الحجة من سنة ثلاث وخمسمائة.

إلى أن أخرج أهل سرقسطة عبد الملك بن أحمد بن المؤتمن بن المقتدر بن المستعين من الحضرة.

واستدعى / عامل علي بن يوسف فدخلها يوم السبت العاشر من ذي القعدة من سنة ثلاث وخمسمائة. [١٨١/ب]

ولم يقم له ولا لأحد من عقبه بعد قائمة. وانحاز إلى فئة الروم.

أيام أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن يوسف بن هود(١)

كان هذا الرجل بقية بني هود، بقية الفتنة، بثغر روطة لما تصيرت دار ملكهم

= قتندة بعد سرقسطة سنتين، فلما كان في آخر سنة أربع عشرة قصده عبد الله بن حيونة في جيش فيهم قاضي المرية أبو عبد الله بن الفراء، وأبو علي بن سُكَّرة، فبرز لهم اللعين، فقتل خلقاً، وأسر آخرون واستشهد المذكوران فبنى عليهم ابن رذمير قبوراً، ثم سلم البلد إليه، وأخذ في تلك المدة دورقة، وقلعة أيوب، وطرسونة، وأكثر من مائتي مسور، ولم يبق أكثر من ثلاثة مدائن لم يأخذها. وبقي من أعمال بني هود إلا: لارِدَة، وإفراغة، وطرطوشة، وغير ذلك معاملة عشرة أيام، لم يقنع اللعين بها، فقام بلارِدَة الهمام البطل أبو محمد. وقام بأفراغة الزاهد المجاهد محمد مردنيش الجذامي جد الأمير محمد بن سعد.

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤١)، الحلة السيراء (٢/ ٢٤٩)، المغرب في حلي المغرب (٢/ ٤٣٨)، نفح الطيب (١/ ٤٤١)، معجم الأنساب والأسر الحاكمة (٩٠). قال الذهبي في ترجمته في سير أعلام النبلاء: الملقب بالمستنصر بالله الأندلسي. من بيت مملكة، وحشمة، وأموال عظيمة، كان بيده قطعة من الأندلس فاستعان بالفرنج على إقامة دولته. ذكره اليسع بن حزم وقال: انعقد الصلح بين المستنصر بن هود، وبين السُّليطين ملك الروم وهو ابن بنت اذفونش إلى مدة عشرين سنة على أن يدفع للفرنج روطة، ويدفعوا إليه حصوناً عوضها، ويعينوه خمسين ألفاً من الروم يخرج بها إلى بلاد المسلمين ليملك، فجعل الله تدميره في تدبيره. وكنا نجد في الآثار عن

سرقسطة إلى النصري متعلقاً بأذيال ابن رذمير إلى أن عارضه من روطة بخطه من مدينة طليطلة، فانتقل إليه بأهله.

= السلف فساد الأندلس على يدي بني هود وصلاحها بعد على أيديهم، فخرج اللعين السُّليطين، وابن هود، في نحو مائة وأربعين ألف فارس، وتاشفين بالزهراء، فقصد ابن هود جهة إشبيلية، وبقي ينفق على جيوش السليطين نحو ثمانية أشهر، وشرط عليهم أنهم لا يأسرون أحداً.
وحدثني المستنصر، وقد ندم على فعله من شيطنة الشبيبة، وطلب ملك آبائه، فقال لي: الذي أنفقت في تلك السفرة من الذهب الخالص ثلاثة آلاف ألف دينار، والذي دفعت إليهم من مخازن روطة من الدروع أربعون ألف درع، ومن البيض مثلها، ومن الطوارق ثلاثون ألف. وذكر لي جماعة أنه دفع إلى السليطين خيمة كان يحملها أربعون بغل. وذكر لي محمد بن مالك الشاعر: أنه أبصر تلك الخيمة قال: فما سمع بأكبر منها قط. ولما طالت إقامته على البلاد، ولم يخرج إلى ابن هود أحد رجع ومعه ابن هود، ولم يكن مع ابن هود إلاّ نحو مائتي فارس، فأقام ابن هود بطليطلة ليذهب منها إلى حصونه التي عُوّضَ بها، ﴿وبئس للظالمين بدلا﴾.
ثم إن قرطبة اضطرب أمرها، واشتغل أمير المسلمين بما دهمه من خروج التومرتية، فجاء المستنصر بالله أحمد من مدينة غرليطش وقصد قرطبة، وكان محبباً إلى الناس بالصيت. فبرز إليه ابن حمدين زعيم قرطبة بعسكرها، فقصد عسكرها نحو ابن هود طائعين ففر حينئذ ابن حمدين إلى بُليدة.
ودخل ابن هود قرطبة بلا كلفة، ولا ضربة، ولا طعنة، فاستوزر أبا سعيد المعروف بفرج الدليل، وكاتب نواب البلاد، ففرحوا به لأصالته في الملك، ثم خرج فرج الدليل إلى حصن المدوّر، فقيل لابن هود: قد نافق وفارق، فخرج بنفسه واستنزله من الحصن، فنزل غير مظهر خلافاً، وكان رجلاً صالحاً، فقتله صبراً، فساء ذلك أهل قرطبة، وثارت نفوسهم، وعظم عليهم قتل أسد من آساد الله تعالى، فزحفوا إلى القصر، ففر ابن هود من قرطبة، فقصدها ابن حمدين، فأدخله أهلها، وكثر الهيج، واشتد البلاء بالأندلس وغلت مراجل الفتنة.
وأما أبو محمد بن عياض فكان على مملكة لارِدَة، فخرج في خمسمائة فارس يسعى في إصلاح أمر الأمة، وقصده أهل مرسية، وبلنسية، ليملكوه عليهم، فامتنع، ثم بايع أهل بلنسية عن الخليفة عبد الله العباس. ثم اتفق ابن عياض وابن هود على أن اسم الخلافة لأمير المؤمنين العباسي، وأن النظر في الجيوش والأموال لابن عياض، رحمه الله، وأن السلطة لابن هود، قال أليسع: فكتبت بينهما عهداً هذا نصه: كتاب اتفاق، ونظام، وائتلاف لجمع كلمة الإسلام، يفرح به المؤمنون، انعقد بين المستنصر بالله أحمد، وبين المجاهد المؤيد أبي محمد عبد الله بن عياض، وصل الله بهما أبواب التوفيق... إلى أن قال: وأنا لي في جزيرة الأندلس غرباء في مادة الروم، فَلِمَ لا تعزم على إذاعة العدل وتروم؟ وقد توجه نحوكم كاتبنا ابن أليسع، وكل ما عقده، وفي أموركم اعتمده أمضيناه.
قال: فلما وصلت المدينة وقرأت الكتاب فرحوا... إلى أن قال: فأغارت الروم على أحواز شاطبة فبعثني عبد الله بن عياض إلى المستنصر يقول له: أنا أحتفل للقاء القوم فلا تخرج، فلما جئته بهذه الرسالة، قال لي: إنما تريد أن تفسد ما بيني وبين الروم من وكيد الذمة وإذا أنا خرجت واجتمعت بملوكهم ردوا ما أخذوه. فأعلمت ابن عياض، فقال لي: هل يحسب هذا أن الروم تفي له، سيتبع رأيي حين لا ينفعه. فتضرعت إلى المستنصر، فأبى. فخرجنا جميعاً نَوْم العدو حتى وصلنا، فأمرني بكتابين عنهما إلى الملكين: مُونَق، وفراندة، وكتاب عن ابن عياض إلى صهره أبي محمد ليصل بعسكر بلنسية. فقال له ابن عياض: يقرب صيدنا والحرب خدعة. فأبى وقال: إذا وصلهم كتابي =

ولما ثار ابن. . .[١] في صفر عام تسعة وثلاثين، نهض إلى قرطبة عند ثورة أحمد بن حمدين فدخلها.

ثم لم يلبث أن فرَّ منها، وقصد جياق وقد ثار ابن جوار بقلعة جيان، فتغلب عليه، وعاجل غرناطة، وقد ثار بها ابن أضحى قاضيها، واستدعى ابن حمدين فملك ابن هود المدينة، وشد حصار من بقصبتها من المرابطين شهوراً.

وجيَّش قاضي مرسية ابن أبي جعفر الجيش إليها وسبوا الملثمون فأوقعوا بهم الوقيعة التي قتل فيها ابن أبي جعفر.

وظهر الملثمون إلى أن عجز ابن هود عن مرام غرناطة، وفرّ إلى جيان.

وفرّ ابن أضحى إلى المنكب، واستولى الملثمون على آلات ابن هود.

واتصلت به ثورة ابن عياش بمرسية فتوجه إليها ودخلها في الحادي عشر لجمادى الآخرة سنة أربعين وخمسمائة.

ثم إن الروم أغارت على مرسية، وجهات الشرق، وكان اللقاء بينهم وبين المسلمين في الموفي عشرين لشعبان، فهزم المسلمون هزيمة شنيعة قتل فيها ابن هود، وانقرض أمرهم بهذا العهد من الأندلس إلى أن ظهر المتوكل ابن هود يفخر بأنه من ذرية المستعين ابن هود، وفي ذلك يقول بعض شطار الأدباء يومئذ:

يقول المستعين أبي وجدي ... وطليق البأس والجنود المعين
فقلت الفضل بالتقوى فدعنا ... بفخر التراب والماء المهين
وهل في المستعين رأيت خيراً ... فكيف المُدعي في المستعين؟!

دولة ذي النون بطليطلة وما إليها

ذكر المؤرخون أن بني ذا النون هؤلاء الملوك من قبيل البربر الذين كانوا

= ردوا الغنائم. فلم يغن كتابه شيئاً.

إلى أن قال: فالتقينا نحن والروم، فكمنوا لنا ألفي فارس، وظهر لنا أربعة آلاف، ونحن نحو الألفين، ووقع الحرب، فمات من أهل بلنسية نحو سبعمائة، ومن الروم نحو الألف، وفرّ أهل مرسية عن ابن عياض، وفرّ ابن هود. فثبت ابن عياض في نحو مائة فارس، وانكسرت الروم، لكن خرج كمينهم، فانكسرنا بعد بأس شديد. واستشهد الأمير أبو محمد عبد الله بن مردنيش صهر ابن عياض، وأحمد بن مردنيش، فشق حينئذ ابن عياض وسط الروم، وجاز نهر شقر حتى وصل مدينة جنجالة، وتوصل الفأل إليه، وفقدنا ابن هود، ودخلنا مُرسية، واستبشر أهلها بسلامة الملك المجاهد عبد الله بن عياض، وذلك سنة بضع وثلاثين وخمسمائة.

(١) الاسم مختلط المداد فلم أتبينه.

يخدمون في الدولة العامرية، وأن جدهم الذي ينسبون إليه هو زنون، فغير بالذال لطول المدة، ولم يكن لهم رئاسة ولا زعامة إلاّ في دولة المنصور محمد بن أبي [١٨٢/أ] عامر، ففيها قدموا واشتهروا، /وقادوا الجيوش، واستقروا بكورة شنتمرية.

ولما ضبط أمر طليطلة عبد الرحمٰن بن مثيوة بعده، وأساء في أهلها، خلعوه، واتفقوا على أن حملوا إلى ابن ذي النون، فوجه إليهم من شنتمرية ابنه إسماعيل بن عبد الرحمٰن بن ذنون.

أيام إسماعيل بن ذنون بطليطلة وما إليها

قالوا: فاستولى هذا الفتى على ملك طليطلة وما إليها.

وساس أهل مملكته سياسة استقاموا عليها.

واستقام في أموره إلى شيخ البلدة أبي بكر الحديدي، وكان من أهل العلم والعمل والدهاء.

فكان إسماعيل لا يقطع أمراً دونه إلى أن حسده قوم من أهل طليطلة على منزلته لديه.

ثم توفي إسماعيل، وولي بعده ابنه يحيى المأمون.

أيام يحيى بن إسماعيل[١] بطليطلة وما إليها

فلما ملك يحيى بن إسماعيل طليطلة، جرى على سبيل أبيه في استعمال قانون

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٢٠)، الذخيرة (١/ ٤/ ١٤٧)، المغرب في حلي المغرب (٢/ ١٢)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٦١)، أزهار الرياض (٢/ ٢٠٨)، نفح الطيب (١/ ٥٢٩)، معجم الأنساب والأسر الحاكمة (٨٩)، الأعلام (٨/ ١٣٨). وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمته: ملك طليطلة أبو زكريا يحيى ابن صاحب طليطلة الأمير إسماعيل بن عبد الرحمٰن بن عامر بن ذي النون الهواري الأندلسي، استولى أبوه على البلد بعد العشرين وأربعمائة ونزعوا طاعة المروانية. وتملك المأمون بعد أبيه سنة خمس وثلاثين، فامتدت أيامه خمساً وعشرين سنة، عاكفاً على اللذات، والخلاعة، وصادر الرعية، وهادن العدو، وقدم الأطراف، فطمعت فيه الفرنج بل في الأندلس، وأخذت عدة حصون إلى أن أخذوا منه طليطلة في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، وجعلوها دار ملكهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكان المأمون أراد أن يستنجد بالفرنج على تملك مدائن الأندلس، فكاتب طاغيتهم: أن تعالى في مائة فارس والملتقى في مكان كذا. فسار في مائتين، وأقبل الطاغية في ستة آلاف وجعلهم كميناً له، وقال: إذا رأيتمونا قد اجتمعنا فأحيطوا بنا. فلما اجتمع الملكان، أحاط بهم الجيش، فندم المأمون، وحار. فقال الفرنجي: يا يحيى، وحق الإنجيل كنت أظنك عاقلاً، وأنت أحمق، جئت إليّ، وسلمت مهجتك بلا عهد ولا عقد، فلا نجوت مني حتى تعطيني ما أطلب. قال: فاقتصد، =

العدل. وأجرى أموره مع ابن الحديدي على سنن أبيه.

فاستقامة طاعته، واتفق ملكه، إلى أن وقعت المنازعة بينه وبين جاره سليمان بن هود، فوجه إليه جيشاً كثيفاً لنظر ولده أحمد بن سليمان ونازل مدينة وادي الحجارة، وبرز المأمون لمدافعته، وأتيح لابن هود عليه ظهور حصره لأجله بمدينة طليبرة.

ثم رحل عنه فألجأته ضيقته، وما أسلفه به ابن هود، إلى الاستعانة بملك النصارى وبذل له مالاً وأخرجه إلى قطر سليمان بن هود.

فجال العدو في أحوازه شهرين من زمن الصيف.

فلم يدع ما يقتاته الطائر، وخرب البلاد، وأهلك العباد.

وفتح عدة من الحصون، والمعاقل، وخالف ابن عباد، ووافقه على ما دعا إليه من الدعوة الهشامية، وأعلن بها على منابره، وقد بان الخرق بذلك، فلا يمكن أن يرقع أوان العمل به ينفع.

وفي السنة الآتية استعان ابن هود بالنصارى.

وخرج إلى أرض ابن ذنون من حُصُونه، ونازعه ابن ذنون، فأخرج للعام بعده النصارى إلى بلد ابن هود، ففتح قلعة قلبيرة التي كان فتحها ابن أبي عامر، وفارت بها أيدي الروم وذلك صدر عام سبعة وأربعمائة، وخرج الطاغية المتظاهر لسليمان بن هود من قلون حليقة إلى ثغر طليطلة، ودامت / الفتنة بين هذين الأسدين المشؤومين [١٨٢/ب] على المسلمين من سنة خمس وثلاثين إلى سنة ثمان وثلاثين، وفورقت بموت سليمان بن هود منهما.

فلما فتر. . .[١] يحيى بن ذنون من سليمان بن هود، رجع إلى مطالبة جاره ابن الأفطس.

ثم شغلته الشواغل عنه بابن عباد، وساء ما بينهما، وتحرك إلى قرطبة بما دعا ابن عباد إلى نصره صاحبها، ثم إلى غدره، والاستيلاء عليها، ثم تصيرت إلى يحيى بن ذنون على يد ابن عكاشة كما ذكرت قبل.

ثم توفي يحيى بن ذنون لإحدى عشرة ليلة من ذي قعدة سنة سبع وستين وأربعمائة.

وولي الأمر بعده حفيده وسميه يحيى بن ذنون.

= فسمى له حصوناً وقرر عليه مالاً في كل سنة، ورجع ذليلاً مخذولاً، وذلك بما قدمت يداه. وتوفي سنة ستين وأربعمائة.

(١) عبارة غير مقروءة.

أيام القادر بالله يحيى حفيد المأمون بن ذنون

وبويع ليحيى هذا بطليطلة أثر بلوغ الخبر بموت جده، ثم وصل ثافوته إلى مرقية وبها مجدد رسوم الجد. وكان قبل وفاته قد قسم وظائف الملك بجعل تدبير الأجناد إلى وزيره ابن الفرج وأمور الرعايا والمشورة والرأي إلى ابن الحديدي.

وأخذ المواثيق على ابن الحديدي ليبلغن كل مبلغ في مؤازرته وثبت أمره، علماً باستقلاله.

وكان هذا الحفيد، يحيى، مُضعفاً كثير الحيلة، خبيث الفكرة، يصاحبه مرض درّي، فلما ينعش به، وأغرته الطائفة الغالية على أمره بابن الحديدي فعجل على مكروهه.

وكان جده قد سكن ملكه وقرر أسبابه، فسجن طائفة من أهل طليطلة مثار الشرور، وأسباب الفتن، بإشارة ابن الحديدي، فوثبوا بالمطبق واطرد الخبر بفقدهم، فلم يتمكن لابن ذنون الفتك بابن الحديدي لأصالته في المدينة إلاّ بعد الاستظهار عليه بأعدائه منهم فأخرجهم سراً.

ولما دخل ابن الحديدي المجلس، ووقعت عليهم عينه أيقن بالهلكة.

وقام ابن ذنون وهو يتعلق بأذياله، ويستجيرء، فلم يعنه ذلك، فتمكنوا منه، وقتلوه.

وهاجت العامة، فشغلت بنهب دوره وإطلاق أيديها على ماله.

وظن ابن ذنون أن الجو قد خلا له من ابن الحديدي، وإذا به قد بحث عن حتفه بظلفه، وإذا ملك الجماعة لما فرغوا من ابن الحديدي، رجعت على حفيد ابن ذنون بحساب جده.

وانتبذ ابن عبد العزيز كبير بلنسية بها، وخلع يده عن الطاعة ووقف أمره على المهادنة، إلى أن ثار بحفيد ابن ذنون وتلك الطائفة التي أخرجتها / من الاعتقال، [١٨٣/أ] وصاحوا به، وسعوا في هلاكه، فأفلت من بعض الأبواب المعدّة للضرائر لا يملك شيئاً إلا نفسه.

وزعموا أن زوجه بنت المظفر، وابنته منها، تبعتاه يومئذ راجلتين أزيد من فرسخين إلى أن ركبتا، ولحق ببعض حصونه.

وأقام أهل طليطلة أياماً كالسائمة المهملة ليس عليهم أمير، ولا فيهم بالصواب مشير، إلى أن جنحوا إلى المظفر بن الأفطس من ملوك الطوائف على بغداد، وامتزاج

أقطاره، فجاءهم متثاقلاً، كما قال المؤرخ: . . . .[١].

فدخل طليطلة سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة.

أيام المتوكل على الله عمر بن المظفر بن الأفطس بطليطلة

قالوا: وأقاموا المتوكل بطليطلة يسدد أمورها: «أضل من في رحم وأذل من لحم على وضم»[٢].

وقد كان ابن زنون بعد فراره تهيأ له دخول مدينة قُونْكَة[٣]، فتماسك أمره بها إلى أن فرّ عنها بعد تمام عشرة أشهر أيام إلحاح العدو، وقلة المال.

وعاد عمر بن المظفر إلى بلده، وقد حصل من ذخيرة ابن ذنون وماله وما عثر عليه من أسباب نصره على خطر رغيب.

عودة يحيى بن ذنون إلى طليطلة أعادها الله

ولما استقر حفيد ابن ذنون بمامنة، بعد الخروج من طليطلة، راسل إذفنش ملك قشتالة يذكره سالف عهده، إذ كان قد اضطر إلى اللحاق بابن ذنون، جده، ولجأ إليه لما غلبه أخواه على الملك، فأجاره إلى أن أعاد إليه أمره، فلبى دعواه، وسمع شكواه، وأقبل معه إلى طليطلة، وقد عاقده على أن يخلي بينه وبين المدينة إن بلغه أمله من دخولها. فنازلها وشد حصارها إلى أن بلغ الجهد من أهلها مبلغة وعجزوا عن الصبر، وتبرأوا من المسكة، وأعذروا في الدفاع إلى أن أعيد حفيد ابن ذنون إلى طليطلة على شروط للنصارى لا يطاق حملها.

فدخلها والطاغية بين يديه يتفجع بيده عنده، واستقر بها شر استقرار. واقتضاه الطاغية الوعد، وسلبه الله النصر والسعد، وهلكت الذمم، واستوصلت الرمم، ونفذ عقاب الله في أهلها جاحدي الحقوق، ومتعودي العقوق، ومقيمي أسواق الشقاق والنفاق، والمثل السائر في الآفاق، ولم تطل مدته شطر السنة حتى ملك الطاغية طليطلة.

---

(١) موضع النقط عبارة غير مقروءة بالمخطوط.

(٢) مثل عربي فصيح يضرب لبيان شدة الحيرة والتخبط في الأمور كمن يمشي على غير هدى أو من يتحرك في ظلام دامس، وقد تعرضت لهذا المثل في موسوعتي التي عنوانها: «علي رأي المثل» والتي هي موسوعة للأمثال العامية والعربية وتحوي أكثر من عشرين ألف مثل عامي وعربي.

(٣) قال ياقوت في معجم البلدان: مدينة بالأندلس من أعمال شنتبرية، ينسب إليها إبراهيم بن محمد بن خيرة القونكي...

وذكروا أن أهل العقد والحل من أهلها لما بلغ الصبر بهم مداه، خرجوا إلى محلته، فأدخلوه إلى المضرب الذي كان له / بعد حجاب غليظ، وإذلال كثير، فألفوه يمسح عينه من النوم، فقال لهم: إلى متى تختلفون؟ وماذا تصنعون؟ [١٨٣/ب]

فقالوا: لنا بقية، وفي فلان وفلان أمنية. وسموا له جملة من ملوك الأندلس، فتهافت وسخر بهم، ودعا بإرسال من سموه فحضروا، وكلهم يؤدي خضوع مرسله، وينوب في لثم يده، ويتوسل بهديته، فخرجوا من عنده وقد سقط في أيديهم.

ولثلاث أيام من ذلك. . .[١] حلوا بينه وبين البلد، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وانتقل حفيده إلى بلنسية بمشايعة لملك قشتالة، وجه معه جيشاً حتى دخلها، واستقر بها إلى شهر رمضان من سنة خمس وثمانين وأربعمائة.

وقد تملك ابن عكاشة قائد يوسف بن تاشفين مرسية، فاستدعاه أهل بلنسية وعرضوا عليه مدينتهم، فأقبل إليها نائبه بجيش من اللمتونيين.

وخرج القاضي ابن جحّان، والفقهاء لتلقيه وإدخاله البلد.

ففر ابن ذنون من القصر، ولم يمكنه الخروج من المدينة، فاختفى ببعض الدور الخالية فظهر ليلة الجمعة لسبع بقين من رمضان من السنة، وسيق إلى القاضي ابن حجّان، فأمر بقتله، وتولى ذلك فتى من بني الحديدي القتيل بطليطلة، وطيف برأسه.

واحتوى ابن حجّان على ما كان له وطوحت جثته سبخة، فواراه رجل احتساباً وصدقة، ودفن دون كفن، فانقطعت مدته على هذا السبيل.

ذكر مدة بني مسلمة المعرفين ببني الأفطس

وهؤلاء من جملة ملوك الطوائف، وكان جدهم أبو محمد عبد الله بن محمد بن مسلمة المعروف بابن الأفطس.

أصله من قبائل مكناسة، ونزل بفحص البلوط من جوفي قرطبة.

وقال ابن حيان: ومن النادر الغريب انتماؤه في تجيب، وبهذه النسبة مدحته الشعراء آخر وقته، إذ يقول ابن شرف القيرواني:

يا مالكاً أمست تجيب به ... تحسد قحطان عليه نزار

لولاك لم تشرف معد بها ... جَلّ أبو ذر فجلت غفار

وكان به من قوم لا نباهة لهم إلا أنه كان من أهل المعرفة التامة والعقل والسياسة والدهاء.

---

(١) كلمة مطموسة لتراكب المداد.

ولما تفرق شمل الجماعة واقترن كل على ما بيده، استبد بالصقع الغربي ببطليوس وشنترين، وجميع الثغر الجوفي فتى من عبيد الحكم اسمه سابور، وكان غُفْلاً / من المعرفة، عطلاً إلا من خُلّة الشجاعة. [١/١٨٤]

فكان عبد الله بن محمد بن مسلمة من صنائعه يدبر له أمره، ويخدم دولته، إلى أن هلك سابور وترك ولدين لم يبلغا الحلم.

فقام مقامه عبد الله بالأمر وأمسكه على ولديه.

دولة عبد الله بن محمد بن مسلمة بن الأفطس

خلف هذا الرجل سابور، وقام بأمر ولده في صِغَرِ سِنّه وهو الذي نسميه اليوم بأرض برتقال، ودبر أمره، وأقام ملكها، وهو من ناب عنه من شرط كتابنا في ذكر من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، وحسبك بذلك الوطن جلالة، وبأهله وفوراً، فاشتمل عبد الله على ذلك الأمر واستأثر به، وحصل على ملك غرب الأندلس، واستقام له مدة إلى أن هلك لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين وأربعمائة.

وولي بعده ولده المظفر.

دولة المظفر محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة بن الأفطس

ولي المظفر بعد أبيه على ما كان بيده، فاستقامت أموره، وكان فاضلاً عالماً، وشجاعاً فارساً، وله التأليف الكبير المسمى «بالمظفر» في نحو خمسين مجلداً.

وأقام بذلك الثغر ملكاً عظيماً، وكان ينكر الشعر على قائله في زمانه، ويقبل رأي من ارتسم في ديوانه، ويقول: من لم يكن شعره مثل شعر المتنبي أو المعري فليسكت، ولا يرى بدون ذلك.

وكانت بينه وبين جاره ابن عباد حروب أذهبت الرسوم وأتلفت الأرواح والجسوم، والله ينصف الخصوم بالأعين لذلك الوقت المعلوم.

وفي مدته أخذ العدو مدينة قلبيرة من الفتوح العامرية بعد محاصرة طويلة، وكان قائده عليها مملوكاً له استأمن العدو في السر، وخرج إليه بأهله وولده.

وأصبح المسلمون بها وقد أخذوا أهبة القتال، فقال لهم العدو: كيف القتال وقائدكم عندنا منذ البارحة؟

فصبروا إلى أن نفدت أقواتهم، ودخلت عليهم عنوة، فقتل الرجال، وسبى الذرية والحريم في سنة ست وخمسين وأربعمائة، فكان الفجع بها أكبر.

وكانت مدة الإسلام بها بضعاً وسبعين سنة.

وأقبل المملوك قائدها إلى ابن الأفطس، وكان له مجل، من قبيلة، فأمر به فضربت عنقه.

وغلب[1] الطاغية على هذه الثغور الغربية، وضرب على أهلها الأتاوة حتى ضعفت لولا أن الله أهلكه سنة ثمان وخمسين وقام بعده ولده إذفونش فشغل بأبي عباد إلى أن / شغله الله بالمرابطين. [١٨٤/ب]

ولما تولى المظفر رحمه الله، ولي الأمر بعده ولداه: عمر، ويحيى.

وفي سنة إحدى وستين وأربعمائة عظم بينهما الخلاف والنزاع، وحصل الطاغية بسبب ذلك على ما أراد من بلاد المسلمين، وأموالهم، وذخيرتهم في سبيل التضريب بين متنازعيهم فشبت نار الفتنة بينهما، وتغلق منهما يحيى بولاية ابن ذنون.

ومال أخوه عمر إلى تولي المعتمد بن عباد. وما زالت السعايات تقدح بينهما حتى اصطلمت البلاد، واجتاحت الرعية، وأراح الله زمنهما بموت أحد الأخوين يحيى. واستوثق الأمر لأخيه عمر، فاستحق الانفراد بالذكر.

دولة المتوكل على الله عمر بن المقتدر بن الأفطس

وكان المتوكل ملكاً عالي القدر، مشهور الفضل، مثلاً في الجلالة والسير، ومن أهل الرأي والحزم والبلاغة.

وكانت مدينة بطليوس في مدته دار أدب وشعر ونحو وعلم.

وقال الفتح عند ذكره في قلائده: ملك جند الكتائب، والجنود، وعقد الألوية والبنود. وأمر الأيام فأتمرت، وطافت بكفته واعتمرت إلى أمن وفصاحة، ورحب جناب للوافدين وساحة ونظم زرابي الدر النظيم، ونثر يسري في رقة النسيم، وأيام كأنها من حسنها جمع وليال كان فيها على الأنيس حضور ومجتمع.

وقال أبو طالب بن غالب: كُتب إلى المتوكل بهذين البيتين في ورقة كرنب من بعض الساقين:

انهض أبا طالب إلينا ... واسقط سقوط الندا علينا

فنحن عقد بغير وسطى ... ما لم تكن حاضراً لدينا

وقد تقدم ذكر دخول طليطلة في أمره، وانتقاله إليها، ومقامه بها المدة المذكورة، واستمرت أيامه إلى أن تغلب اللمتونيون، المتسمون بالمرابطين، على

(١) في المخطوط: كلب، وهو تحريف ظاهر.

الأندلس، فضيق الأمير سيرين بن أبي بكر ببطليوس بالسرايا والغارات، والمتوكل يطمع بالتمسك بها لقربه من حدود النصارى.

فلما عيل صبره، وعجز عن مقاومتهم، راسل اذفونش ملك قشتالة، وأطمعه - زعموا - في المدينة، وخرج له عن مدينة شنترين فحصنها العدو وضبطها.

وعندما مكن العدو من شنترين انحرفت عنه الرعية، واتصل عليه الحمل، وضاقت الصدور.

وراسل أهل بطليوس المرابطين، فوصلتها الجيوش، وفتح الناس الأبواب، فدخل القوم عنوة، وقبض على المتوكل وعلى / بنيه وعبيده، واستخرج ما كان له من [١٨٥/أ] مال وذخيرة، وأزعج مع ابنين له إلى إشبيلية، وفي أثناء الطريق، لما بعد من بطليوس، أنزل وأمر بالتأهب للموت، فسأل أن يقدم ابناه ليحتسبهما فكان كذلك، وقتل الجميع صبراً.

وذلك في أخريات سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وكان قد أشخص ولده الملقب بالمنصور إلى بعض مشايخه ليتحصن به، وجعل عنده ذخيرته.

أيام المتوكل بن المنصور عمر بن الأفطس بحصن شانحة

ولما اتصل به ما جرى القدر به في والده وأخويه الفضل وسعيد أبي عمر، وجه إلى ادفونش بأهله، وماله، ودخلوا - زعموا - في دينه، وصدر معه إلى بلاده بعد أن سقط الحصن برجاله.

وانتهى أمر بني الأفطس، وقد رثاهم الوزير أبو محمد بن عبدون عظيم ملكهم وناظم سلكهم بقصيدة اشتملت على كل قتل، وأشارت إلى من غُدر منهم وقتل، تكبرها المسامع ويعتبر بها السامع، وهي:

ننشر بالشيء لكن كي تُغربه ... كالأيم ثار إلى الجافي من الزهر

كم دولة وليت بالنصر خدمتها ... لم يبق منها وسل ذكراك من خبر

....[١]

ذكر مدة بني صمادح الأمراء بالمرية

قالوا: كان جدهم محمد بن عبد الرحمٰن بن صمادح بن عبد الله بن المهاجر بن

(١) فذكر قصيدة قرابة الخمسين بيتاً هي في الوعظ والاعتبار بالأيام والممالك والحوادث الطارئة على الإنسان والدول والبلاد، وقد تركتها لا لشيء، إلا لأن قراءتها صعبة نظراً لسوء الخط وعيوب التصوير، وإن كانت ذات فائدة تاريخية غير ما هو مذكور قبل ذلك من القصائد.

عميرة بن شريح بن حرملة بن تميم بن المخصاف بن شبيب بن الدعاف بن سعد بن أشرس الواقع على والده تجيب، عرفوا بأمهم، كذا أثبت نسبهم ابن الصيرفي، وثبت في كتاب المغرب اسم جدهم: أبا يحيى بن أحمد بن صمادح.

فيظهر أن هذه الأسماء الثلاثة متأخرة عن عبد الرحمٰن هذا الذي ذكر ابن الصيرفي، ومتصله به.

وكان جدهم، حسبما ذكر ابن حيان، إذ قال: يحيى بن أحمد صاحب مدينة وشقة وأعمالها وطلعت نباهته في أيام المؤيد هشام. ثم أكد له ذلك سليمان بن الحكم فشق له الوزارة وأقضاه على عمله.

وكان أول أمره مماثلاً لابن عمه منذر بن يحيى يظهر موافقته ومكاتمة جنده لما لا شيء فوقه، ثم تكاشفا بعد / مضي سليمان، وتحاربا على ملك وشقة، فعجز ابن صمادح [١٨٥/ب] عن منذر لكثرة جمعه، وسلم له البلد، وفرّ بنفسه. وأما ابنه معن فيجيء ذكره.

أيام معن بن صمادح أبو يحيى

قالوا: قتل زهير الفتى بظاهر غرناطة على يدي باديس بن حبوس أمير صنهاجة حسبما يأتي ذكره.

صارت المرية دار ملكه إلى عبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية المذكور كذلك. ونافسه فيما صار إليه مجاهد مولى سلفه، فتحرك إلى بلاد عبد العزيز، وهو يومئذ قبلة الدهر من تركة زهير القتيل.

فخرج مبادراً إلى استصلاح مجاهد واستخلف بالمرية صهره ووزيره معن بن صمادح هذا، فكان شر مستخلف بدار ملك، فلم يكد يوازي عبد العزيز وجهه حتى خانه الأمانة وطرده عن الإمارة، ونصب له الحرب وفارت بها قدامة، واستقر فيها ملكه وخلفها ميراثاً لبنيه بعده.

ثم هلك، وقام بأمره بعده ولده أبو يحيى.

أيام محمد بن معن بن صمادح المعتصم بالله

قال المؤرخ: فارتقى ذروة الخلافة، وتلقب من ألقاب الخلفاء بالمعتصم بالله وبالرشيد.

وقال ابن بسام: ولم يكن أبو يحيى هذا من ملوك الفتنة في شيء، فإنه أخلد إلى الدعوة، واكتفى بالضيق من السعة، واقتصر على......[١] من اللذة واستوى

(١) عبارة غير مقروءة بالمخطوط.

عليه وبرز فيه، غير أنه كان رحب الفناء، جزل العطاء، حليماً عن الدماء والدهماء، طافت به الآمال، واتسع في شرحه المقال، وأحملت إلى حضرته الرحال.

ولزمه جملة من فحول الشعراء، كأبي عبد الله بن الحداد، وأبي عبادة، وابن الشهيد، وغيرهم.

وكانت بينه وبين ملوك الطوائف فتون مبيرة غلبوه عليها، أخرجوه من هجيبة إليها مكرهاً لم يكن مكانه منها بمكين، ولا صبحه بمبين.

ولما ملك يوسف بن تاشفين أرض الأندلس وعزم على خلع رؤسائها، ونازلت المحلات غرناطة، أمر الأمير يحيى بن واستوا منهم بمحاصرة المرية، والتضييق على المعتصم، فطال به الحصار، وتمالكت حصونها، وجهاتها، فلم يبق بيد المعتصم غيرها، وضاقت بها الأحوال، وشرع أهلها في الفرار.

واعتل المعتصم، ونزل به الموت أثناء محاصرتها، فذكروا أنه نظر إلى جارية عند رأسه تبكي عليه، فقال لها:

عــزِّفـيّ بـدمـعـك لا تـفـنـيـه فـبـيــن يـديـك بـكـاء طـويـل

وأوصى ولده ولي عهده معز الدولة أن يتمسك بقصبة المرية.

فلما قام ابن عباد متمسكاً بإشبيلية، فإذا أمضى أمره إلى خلعه فليعبر البحر بأهله وولده إلى الجزائر...[1].

وكان قد راسل صاحب الجزائر ووجه إليه أحمد بن عبد العزيز بن عيسون من أهل بلده، فوصل إلى المنصور بن الناصر بن علناس، وهو يومئذ بالقلعة يخطب إليه جواره، والتحول إليه، فتلقاه بالرحب والسعة وخيره في أقطار بلاده.

ثم توفي المعتصم بن صمادح في ربيع الآخر من سنة أربع وثمانين وأربعمائة.

ولما اتصل موته بالمعتمد بن عباد قال: رجل استصحب حال سعده من قصره إلى قبره، كأن الموت كأس بيده فحين استطابها تجرعها.

وذكر الفتح المعتصم ببعض ما يوجبه الإنصاف لشأنه أبياتاً كتب بها إليه ابن عمار، وقد طال مقامه ضيفاً لديه ومجوداً بسحائب يديه، وهي:

يا واضحاً فضح السحاب الجود في معنى السماح

ومطابقاً ياءَ وجوه الجد من طرف المزاح

أسرفت في بر الضياف فجذ قليلاً في السّراح

---

(١) عبارة غير مقروءة لاختلاط مداد التصوير.

فوقع له مجيباً ومن فراقه إياه كئيباً :

يا فاضلاً في شكره أهل السماء مع الصباح

هلا رفقت بمهجتي عند التكلم في السراح

إن السماح ببعدكم والله ليس من السماح

أيام معز الدولة ابن المعتصم بالله أبي يحيى بن صمادح

ولما توفي المعتصم أقام معز الدولة يصوب ويصعد ويعمل النظر في امتثال وصية أبيه، فجعل يبدي غرضه في نقل زوجه بنت مجاهد إلى دانية ويترك أسبابها إلى المدينة ليكون أقرب إلى الإيساق في البحر.

فلما كمل ما أراده من ذلك، وافاه اليقين بتغلب المرابطين على ابن عباد وخروجه عن ملكه، فأمر رجاله بنقب السور خارج باب موسى إلى دار الصنعة، وركب بمن اختص به في قطعة وحمل المال والمتاع في ثنتين وأحدق بلق الأجفان خشية الاتباع فأمن عاديتها / ونزل بالجزائر على البحر، وطائر اليمن إلى أن هلك بمأواه وانقضت أيام بني صمادح. [١٨٧/أ]

ذكر أيام بني المنصور محمد بن أبي عامر

وكان هؤلاء البقايا العامريون ولد المظفر والمنصور ممن تخطفهم الملاك عند ثورة ابن عبد الجبار، وسَلمت لبعضهم دنيا عريضة. ولما استقر الأمر لسليمان بن الحكم مدته الأولى أمنهم واجتلبت صنائعهم، وأذن في موارة شلو عبد الرحمٰن الناصر بن المنصور، فبولغ بالتنويه به أقصى المبالغة، وأعلن النَّوح لها، وأقامت العامرية لها المآتم الملوكية.

وبرز الطفلان أبناء العم محمد بن المظفر، وعبد العزيز بن المنصور، وأشبهما لا يجاوز سبع سنين، فكانا تحت رَعْي إلى أن اختل أمر سليمان بن الحكم بعدوة عدوهما وقاتل أبيهما محمد بن عبد الجبار إلى قرطبة. فخرج عبد العزيز عنهما، وتأذن الله سبحانه بتجدد ملك كبير لعبد العزيز منهما بشرق الأندلس دام سنين عديدة.

دولة محمد بن المظفر عبد الملك بن محمد المنصور أبي عامر الملقب بالمعتصم

قال ابن أبي الفياض وغيره:

كان محمد جميلاً سخياً، وكان يوم وقعت الأزفة بدولتهم صبياً صغيراً في نحو

سبع سنين، واستقر بالثغر في كنف منذر بن يحيى، ثم انصرف إلى كورة جيان فظفر ببعض أحوازها، وضم إلى نفسه الرجال مستعيناً على ذلك بأموال عظيمة خصلت لأمه كانت تمده بها إلى أن ظهر أمره.

فلما استقل خيران الفتى العامري بقلعة أرقولة ومرسية، ونازع الموفق مجاهد العامري صاحب دانية، وأتيحت لمجاهد عليه الهزيمة عجز عن مقاومته مجاهد. فخاطب محمد بن المظفر يدعوه إلى ملك ما بيده، فأسرع إليه وملكه من أرقولة ومرسية، وخرج له عن الأمر، وصار في جملة من بين يديه.

ثم فسد ما بينه وبين خيران وتغير له حتى حذره خيران على نفسه ففر عنه، وقصد المرية، فاحتل بها ليلة الرابع عشر لربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وأربعمائة.

ثم تحرك منها إلى مرسية محارباً لمحمد المعتصم، فألحّ عليه حتى أخرجه عنها في السادس من ربيع الأول سنة ثلاث عشرة.

وذلك أن محمداً أضاع الحزم فخرج عن المدينة وقد داخل خيران من أهل مرسية رجلاً يعرف بعميرة بن الفضل فسدّ الباب دونه، وضبط المدينة باسم خيران.

ولجأ المعتصم محمد بن المظفر إلى أريولة[1]، فصمد إليه خيران.

ولما علم محمد أنه لا طاقة / له بخيران فرّ عنها ولحق بمجاهد، فكان عنده [١٨٨/أ] مدة، ثم توجه إلى البلاد الغربية من جهة الأندلس، فاستقر بحصن دارة، وبها توفي من جدري أصابه في ليلة الجمعة لليلتين خلتا من شهر رمضان سنة إحدى وعشرين وأربعمائة.

وأخبر الإمام أبو محمد بن حزم أنه لما أيقن بالموت، دق جوهراً عظيماً كانت قيمته مالاً نهاية له لئلا يتمتع به أحد بعده، فانقضى أمره على هذه السبيل.

وهو من شرط كتابنا إذ كان ممن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام.

وكذلك ابن عمه الآتي الذكر.

أيام المنصور عبد العزيز بن الناصر عبد الرحمٰن بن منصور محمد بن أبي عامر

قال أصحاب التاريخ:

كان الموالي العامريون عند ذهاب مجاهد كبيرهم عنهم قد أسندوا أمرهم إلى مشيخة منهم، وتشاوروا في ابتغاء أمير من أنفسهم يعترفون له.

---

(١) كذا في المخطوط، وهو أحياناً يذكرها: أرقولة، بالقاف بدل الياء.

فاتفقوا على ابن مولاهم عبد العزيز هذا إيثاراً له على ابن عمه محمد بن عبد الملك، وكان محمد مقيماً بقرطبة، وعبد العزيز بسرقسطة، فلحق ببلنسية.

واستقبله الموالي أفواجاً ينجعون له بالطاعة وقلدوه رئاستهم سنة سبع عشرة وأربعمائة.

وكان عبد العزيز هذا من أوصلهم لرحمه، وأحفظهم لقرابته، قد ابتعثه الله رحمة للممتحنين من أهل بيته فآواهم وجبر كسرهم، ونعش فقيرهم طول مدته إلى أن بلغ من ذلك مبلغاً أعيا ملوك زمانه.

وخاطب لأول حينه الخليفة القاسم بن حمود بقرطبة ولاطفه بهدية حسنة، وذكره بزمام سلفه فتقبله، وسماه ذا السابقتين ولقبه المؤتمن.

فتوطد سلطانه، واشتمل على خدمته أربعة من الكُتّاب كانوا يسمون الطبائع الأربع، وهم:

ابن طالوت.

وابن عباس.

وابن عبد العزيز.

وابن الشاكرين.

فنال جسيماً من دنياه، وكان له من جهة سلفه للأمومة ملوك النصارى حظ انتفع به عندما نازعه الأمر مجاهد جاره بدانية، وضيق عليه، واستظهر بجيوش النصرانية في أخبار يطول شرحها.

وفي أيام عبد العزيز هذا، كانت الوقيعة على المسلمين ببطرنة حسبما هو مشهور.

وطالت مدة عبد العزيز إلى سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة.

وتوفي في ذي الحجة منها.

وعهد بالأمر إلى ولده عبد الملك.

أيام عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر

ولما هلك عبد العزيز اجتمع أهل دولته على ابنه عبد الملك وهو صبي لم يبلغ الحلم، فهو من شرط كتابنا فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام.

[١٨٨/ب] وقام له بالأمر كله كاتب الدولة والده / المدبر لدولة ابن عبد العزيز المشهور مع معرفته بابن ريس القرطبي وكان موصوفاً بالرجاحة.

فأحسن معونته وتمهيد سلطانه، واستقل أمره وراعى هذا الكاتب الشهم من أمر الدولة في عبد الملك، فكان صهره وظهيره لابن ذنون المأمون إذ كان صهر عبد الملك أبا امرأته المساهم له في نصاب أبيه المعين له على سد ثلمة الراد عنه كل من طمع فيه.

ذكر أيام الدولة المنذرية

قال ابن حيان:

كان منذر بن يحيى رجلاً من عرض الجند، وترقى إلى القيادة آخر دولة ابن أبي عامر، وتناهى أمره في الفتنة إلى الإمارة.

وكان أبوه يحيى من الفرسان غير النبهاء، فأما ابنه هذا فكان فارساً لبق الفروسية، خارجاً من حد الجهل، يتمسك بطرف من الكتابة الساذجة، وأما غوره فالنار برأس البقاع من. . .[1] غدره بهشام المؤيد رب نعمته.

ولم يقتصر على غدره حتى غزاه في عقر داره، وأنزله عن سريره، وأسلمه لحتفه، وباع دماء أهل قرطبة عشيرته.

وعاد بمثلها لمحمد بن سليمان أثيرة عندما استجار به في نكبته وهو ضيفه. فجاء بها صلعاء مشهورة لم تغسلها معذرة. إلا أنه كان كريماً وهب القُصّاد مالاً عظيماً فوفروا عليه وعمرت بذلك حضرته بسرقسطة.

فحسنت أيامه، وهتف المداح بذكره.

وكان لأول ولايته قد ساس عظماء الفرنجة فحفظت أطرافه إلى أن مضى لسبيله.

وفي سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة قتل منذر بن يحيى، قتله رجل من بني عمه يعرف بعبد الله بن حكم، دخل عليه وهو غافل في غلالة وليس عنده إلا بعض صقالبته وقد أكب يطالع كتاباً ففرّ الخصيان من بين يديه إلا خادماً منهم قتله عبد الله مع المنذر مولاه، وقطع رأس منذر، وأخرجه للوقت، وقعد في موضعه. وقد ركب من خطة الثغر مركباً لم يجرؤ عليه قاتل من قبله أسقطت فتكته كل فتك في الإسلام لوثوبه على ملك جوف قصره وبين يديه أزيد من مائة رجل سوى نسائه، قام بين الجميع كالأسد الورد، فأبلسوا، وبهتوا، فلم يكن من أحد منهم مدافعة.

وأرسل من حينه إلى القاضي والمشيخة فدخلوا عليه وهو قاعد على فراش

---

(١) كلمة مختلطة المداد بالمخطوط.

منذر، وهو مزمل في مكانه إلى جانبه، ووصف أنه إنما جرى في سبيل الإصلاح والسدِّ لسلطانهم، وأظهر الدعاء أولاً لابن هود.

فأروه قبول ما وصفه وتفرقوا عنه وكلمتهم متألفة عليه إلى أن ثاروا به، وقاتلوه.

[١/١٨٩] فخرج من باب بظهر القصر، ونجا بفاخر ما اشتمل عليه من / ذخائر إلى منذر، ولحق بحصن روطة، أحد معاقل سرقسطة المنيعة، وقد كان أعده لنفسه.

فقام به برصد الفتنة جهده، وحمل معه أخوين لمنذر: قبيلة، وأبا المغيرة بن حزم، ووزير منذر، وغيرهم مقيدين، فحبسهم عنده يطالبهم بالأموال.

ونهب القوم قصر سرقسطة إثر خروجه، حتى قلعوا مَرْمَرَهُ، وطمسوا أثره.

وبادر ابن هود، فتملك سرقسطة سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة.

وقال ابن حيان فيه:

كان قد ساس عظماء الفرنجة فحفظت أطرافه إلى أن مضى لسبيله، وثغره مسدود لا ثغر فيه.

وبلغ من استمالته الطوائف النصرانية أن جرى على يده بحضرته عقد مصاهرة لبعضهم فقرضته الألسنة إلى أن ألوت به المنية. فاعترف الناس برأيه، ولم يأت بعده من يسد مسده.

واشتمل منذر على قواد تلك الثغور، فاستوثقت له الأمور، واستكتب عدة من الكتاب النبهاء، وقصده أكابر الشعراء، وفيه يقول أبو عمر بن درّاج قصيدته لما صرف إليه وجهه وقدم عليه سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، وهي:

بشراك من طول الترحل والسرا ... صبح بروح السَّفر لاح فأسفرا

من حاجب الشمس الذي حجب الرجا ... فجرى بأنهار الندا متفجرا

قاد الجنى على الندا ثم اعتلا ... سبل العُفاة مهللاً ومكبرا

لبيك أسمعنا نداك ودوننا ... نوء الكواكب مخوياً أو ممطرا

....[١]

[١/١٩٠] / ... وعلى ما تقرر من قتل منذر أكثر الحكايات إلا أن صاحب «المغرب»

(١) في قصيدة مدح وثناء وإطراء نيفت على الخمسين بيت ليس فيها من أخبار التاريخ أو مواضعيه شيء إنما هي على عادة الشعراء في استجلاب الأموال من الحكام أو الملوك بالفخر والتفخيم والتعظيم الذي ليس له من الحقيقة أي نصيب، فتركتها لسوء الخط فيها، وإنما ذكرها المؤلف لكونه منشغل بالأدب.

ذكر في كتابه في سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة حديثه إلى المنذر فقال ما نصه:

وذلك أن أمر سرقسطة كان إلى رجل من التجيبيين مسمى منذر بن يحيى، فكان من قواد الدولة العامرية، ومات أهل البيت، فورث مكانه ابنه يحيى بن منذر، وكان سِنّه فيما ذكر سبع عشرة سنة، فسمي بالحاجب معز الدولة، فاحتقروه وتواطئوا على قتله مع كبير منهم، دخل يوماً للسلام عليه فضربه بسكين في صدره كانت سبب منيته. وخرج هذا القاتل فاجتمع عليه بنو عمه وولوه أمرهم.

وكان عاهر الفرج، فأنكروا فعله وقام عليه أهل سرقسطة، وهموا بقتله فخرج فاراً بنفسه.

وأقام أهل سرقسطة دون أمير، فبعثوا إلى سليمان بن هود فولوه على أنفسهم فبقي / أميرهم إلى أن مات. [١٩٠/ب]

فإن كان ما ذكره صحيحاً فيظهر أن منذر بن يحيى ولي بعده ولد له أو أخ يحيى لأبيه.

فجرت عليه الشبيهة بالحادثة عليه. وإلا فهو وَهْم من المؤرخ، والمشهور في ثوار الأندلس، وملوك الطوائف، إنما هو منذر بن يحيى.

ذكر شيء من حديث بني طاهر بمرسية

وكان هذا البيت بمرسية بيت أعلام، وحملة سيوف، وأقلام، تفرقت الجماعة بقرطبة وخرجت الحادثة على الدولة العامرية، ولجأ فتيانها إلى شرق الأندلس واستقر منهم خيران العامري بمرسية ثم انزعج عنها حسبما يتبين في موضعه، وتغلب عليها الرئيس أبو عبد الرحمٰن بن طاهر.

وكان صدر زمانه، والمثل السائر في بلاغته وبيانه.

فأجرى أمور بلده وذهب فيها من العز إلى أمده مستعيناً بوافر نسبه، وسائراً من الحزم على مذهبه إلى أن فسدت حاله مع جيرانه، فحسدوه، وموردي الردى أوردوه، وخاطبوا المعتمد على الله محمد بن عباد.

فوجه إليهم وزيره ابن عمار، وابن رشيق قائد عسكره، وثار البلد على ابن طاهر، وقبض عليه واستولى ابن عمار على مرسية وسولت له نفسه القيام بها على المعتمد ووجه إليه الجيش، وخاطب ابن رشيق في شأن الوثوب به، فترصد غرّته، وقد خرج عن مرسية، فملكها، ثم استأثر بها إلى نفسه حسبما تقدمت الإشارة إليه.

وتأتي في هذه التقلبات الخروج من الاعتقال لابن طاهر فلحق بابن عبد العزيز جاره ببلنسية وهو أيضاً كبير ذلك القطر وعين الأعيان والمشار إليه بالبنان.

قال الفتح في القلائد:

وعندما خلص من ذلك الشقاق خلوص القناة من الشَّقَّاق، جنح إلى الاستقرار ببلنسية إلى أن لحقته بها الحادثة، فأسر وبقي عند العدو مدة، ثم سنى الله خلاصه بقلة الطمع فيه لذهاب ذات يده، فلحق بشاطبة، ثم عاد إلى بلنسية، فأقام بها إلى أن توفي سنة سبع وخمسمائة، وقد نيف على التسعين سنة.

وكان رحمه الله فصيح القلم، ظريف التوقيع، خفيف الروح، عذب النادرة والفكاهة، حسبما يظهر ذلك من كتاب القلائد والمطمح.

ذكر شيء من حديث بني عبد العزيز

وكان الوزير أبو بكر عبد العزيز أحد رجال الكمال بالأندلس، وعين بلنسية التي بها تبصر / ولسانها تصمت به وتحصر. [١٩١/أ]

وكان طاغية الروم... [١] لرؤساء أهل الأندلس يكثر مداخلتهم إياه في أمر بلادهم، يقول إذا جرى ذكره رجال الأندلس: ثلاثة فيبعد فيهم ابن عبد العزيز.

ولما فرّ المتوكل بن المقتدر بن ذنون عن طليطلة وسوغها لصاحب قشتالة، لجأ إليه ببلنسية، وقد كان بها وزيراً لأبيه فكنفه، وقام بأمره.

وكانت آثار ابن عبد العزيز على الجملة هيلة. وكان نائباً لأبي الحزم بن جهور وشبيهاً له في الجهة الشرقية حمل جهته على سداد، وقام بها بحال استبداد، فطاول الجبال والآكام، وفل السيوف بالأقلام.

وكانت وفاته ببلنسية في العشر الأواخر من جمادى الآخرة سنة ست وخمسين وأربعمائة.

وأخبار ابن عبد العزيز شهيرة وآدابه في الشهرة كشمس الظهيرة.

أيام القاضي أبي أحمد بن جحاف رئيس بلنسية

وهو ثالث القوم ابن عبد العزيز، وابن طاهر، وفي نمطهم، وكان قاضي حضرة بلنسية، وله فيها الأصالة الماجدة الناطقة بالقدم الشاهدة، وكان قد سيم عدو الله الكنبطور ببلنسية، وسومه أهلها خطة الخسف، وسيم الذل، وضاق صدره بحفيد ابن ذنون المنتقل إليه بعد تمكين النصارى من طليطلة، فقوي بمكان دولة اللمتونيين، وانتشل على أيديهم كشف المحنة والخروج من الذل الكنبطور متعبد أهل بلنسية وحالب ضروع جباياتها بمصارمته.

---

(١) كلمة غير مقروءة لتراكب مدادها بالمخطوط.

فاستدعى محمد ابن عائشة، قائد يوسف بن تاشفين، فوجه إليه جمعاً من المرابطين وبرز الناس إلى لقائه، وفر عند ذلك حفيد ابن ذنون من قصره، وثار البلد به، وعثر عليه، فقتل بأمر القاضي ابن جحاف كما تقدم.

وتمت بمقتله الرئاسة في البلد لابن جحاف فرتب الأجناد والخدمة، واستشعر أئمة الملك، وعين الألقاب، وحذا حذو ابن عباد بإشبيلية، فلم تساعده الأيام.

وخاطبه عدو الله الكنبطور يُهنيه على ما تهيأ له، وفي قلبه من استظهاره بسلطان لمتونة النار المضرمة.

وأخذ يعرض له بالحسنة التي اكتسبها في شهر صومه من قتل سلطانه، ويطلبه بالأطعمة التي كانت له بحصون بلنسية، انتهبها رجاله في حال الحادثة.

فراجعه أن البلد لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين، والأطعمة قد انتهبت. فكتب إليه الكنبطور يقسم بحرمات أيمان دينه لا يبرح عن بلنسية حتى يظفر به ويأخذ ثأر ابن ذنون.

وخاطب من يجاوره من أهل الحصون الذي لا / طاقة له يستمد الأقوات [١٩١/ب] للمحلة إلا منها، ثم كاد الكنبطور عدو الله تعالى ابن حجاف وخدعه، وداخله في إقامة أَوَدَهُ وتوطيد ملكه إذا صرف اللمتونيين وأزعجهم أنه يسوغه استبداده بالملك ويقيمه.

وقام ابن ذنون يقاتل عنه يريده، وكان استثقل القوم، وضاق بمؤنتهم، ففعل وعند ذلك استنصر بالقصبي عليه، فعظم الغلاء، وتضاعف البلاء، واستصرخ بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين.

فبعث إليهم جيشاً عظيماً أُتيح للكنبطور عليه الظهور.

فأيقن الناس بالهلكة، واشتد عليهم كَلَب العدو إلى أن استنابوه لأنفسهم. وخرج إليه ابن حجاف وأحكم معه العقد.

ودخل العدو المدينة جمادى الأولى من سنة سبع وثمانين وأربعمائة.

وتجهزت إليه جيوش المسلمين ثانية، فما أغنت، وفازت بها قداحه، ولما تمكن فيها سام أهلها سوء العذاب واستخلص أموالهم، وأذاقهم وبال أمرهم بما هو معروف.

واعتقل القاضي أبا المطرف جعفر بن حجاف وعم بالنكبة جميع قرابته وأهله وطلبه بمال حفيد ذنون، فلما استصفى جميع ماله من ظاهر وباطن، أمر بإضرام النار، وسيق القاضي أبو المطرف يوسف في قيوده بين أهله وولده وقد حشر الناس من أهل الملتين.

وقال الكنبطور للملأ: ما جزاء من قتل أسيره عندكم في شرعكم؟

فصمتوا، فقال: أما نحن فجزاؤه عندنا الإحراق. وأمر به، وبجملته إلى تلك النار، وقد لحفت الوجوه على المسافة البعيدة. فضج المسلمون، والنصارى، وتضرعوا إليه في ترك الأطفال، والعيال، إذ لا ذنب لهم، فأسعف الرعية بعد جهد ومدة، واحتفر للقاضي أبي المطرف حفرته وأدخل فيها إلى حجزته وسوى التراب حوله وضمت إليه النار، فلما لفحت وجهه قال: بسم الله الرحمٰن الرحيم، ثم ضمها إلى جسده فاحترق رحمه الله.

ولم يكن غضبه عليه إلا لاجتهاده في طلب النصر، ودفعه إياه بالمطاولة.

وجاء في استمساك البلدة للإسلام واستبقاء الكلمة فيها.

وعهد بعد إحراقه إلى الجلّة من أهل بلنسية، فثقفهم بحال تفرقه بين سجون الرجال منهم والنساء، يتجاوب صراخهم أمام المحنة، حتى استأصل جميع ما عندهم وجعل الناس في الضغط إمرة على طبقاتهم، وهلك في الثقاف خلق كثير منهم رحمهم الله، وذلك في أخريات السنة.

ذكر شيء من أخبار بني رزين

[١٩٢/أ] / قال ابن حيان:

وقد ذكرنا أبا مروان من رزين الملقب بحجاج الدولة، كان جده هذيل بن خلف بن لب بن رزين صاحب الحملة، وسطه ما بين الثغر الأعلى والأدنى بقرطبة، وكان من أكابر برابرة الثغور، وورث ذلك عن سلفه، ثم سما لأول الفتنة إلى اقتطاع عمله والإمارة بجماعة، والتشبه بجاره إسماعيل بن ذنون في الشرود عن سلطان قرطبة.

فاستوى له من ذلك ما أوله هو وغيره إلاّ أنه كان مع تعززه على هشام لم يخرج عن طاعته، ولا وافق منذراً وأصحابه على التمالؤ عليه إلى أن ظفر سليمان بهشام المؤيد المخلوع آخر القوم بقرطبة، فسلك مسلكهم ورضي منه بذلك سليمان، وعقد له على ما في يده لعجزه عنه.

وتمرس منه منذر بن يحيى وطمع فيه فأجازه منه منعة معقله، وسَلِمَ من معرة الفتنة أكثر وقته، وتحطته الحوادث لقوة سعده، واقتصر مع ذلك على ضبط... [١] المرسوم بولاية ولده، وترك التجاوز لحده، والامتداد إلى شيء من أعمال غيره،

---

(١) كلمة غير مقروءة في المخطوط.

فاستقام أمره وعمر بلده، وانظر بعد جمهور الثوار بالأندلس مدة الحياة، وليس في بلد الثغر أخصب بقعة من سهلته المنسوبة إلى بني رزين سلفه لاتصال عمارتها، فكثر ماله.

ونازعه جاره وشبهه إسماعيل بن ذنون في جميع المال، ومنافسه في خلال البخل، وفرط القسوة.

وكان شاباً جمل الوجه، حمي الأنف، غليظ العقاب، صار إليه أمر والده منبعث الفتنة وهو فتى كما اجتمع وجهه فأنجده الصبى على الجهالة، وقواه الشباب على البطالة، فبعد في الشر الشرور شأوه.

ولم يخالف أحد من الأمراء على آداء الأتاوة، ولا حظي أمر الفتنة بسوى إقامة الدعوة فقط إلى أن مضى إلى سبيله، والأخبار متتابعة بجهله وفظاظته حتى زعموا أنه سطى بوالديه، وتولى قتلهما بيديه.

وكان بارع الجمال، حسن الخَلْق، أرفع الملوك همة في اكتساب الآلات.

وهو أول من بالغ الثمن بالأندلس في شراء القينات المشهورات، فكانت ستارته أرفع ستارات الملوك بالأندلس.

وتصير أمره إلى الحاجب ذي الرياستين أبي مروان عبد الملك بن رزين بن حسام الدولة، وعندها احتفل مجدهم، وبلغ النهاية في الإشراف نجدهم.

ذكره الفتح في القلائد، فقال فيه:

ورث الرئاسة عن ملوك عهدوا موازرهم، وشدوا دون النساء مآزرهم، لم يتوشحوا إلا بالجمائل، ولم يجنحوا اللباس إلاّ في أعنة الصبا والشمائل، ركبوا الصعاب، وابتغوا سبباً للنجوم حتى انتعلوها فملكوا الملك بأيدٍ وعقلوه من النجدة بقيد، وكان / ذو الرئاستين منتهى فخارهم، وخطيب ثوارهم. [١٩٢/ب]

وأما شعره، فأخبر الكاتب أبو جعفر بن منصور:

أنه أصبح يوماً بحضرته. . .[1] والربيع على الأرض موش، وقد صقل الغمام والأزهار حتى أذهب تماسكها وسقاها فأروى عطشها، فكتب إليه:

فديتك لا يستطيع النظم والنثر فأنت مليك الأرض وانفصل الأمر

شربنا نداك الغمر فانسل طرباً كما سكبت وطفا أو فتق الفجر

وجاء الربيع الطلق ينـد إعطاره تجيبك عنه الشمس والروض والنهر

---

(١) كلمة غير مقروءة لاختلاط مدادها بالمخطوط.

وما منهم إلا إليك انتماؤه حيتك والجنود المتمم البِشر
خلا منك وقت قد مضى بغيومه فلما أتت أيامك ابتسم الزهر
فنشرت آمالي بملكٍ هو الورى ودار من الدنيا ويوم هو الدهر

فأجابه:

إليك فلولا أنت لم ينظم الدُّرُّ ولا التام في مدح نظام ولا نثر
إذا قلت لم ينطق فصيح مذرب ولا شامخ في سمع غناء ولا زمر
لك السبق فكم روضت من عاطل الرُّبا وحللت من سحر إذا حرم السحر
ولما ملكت القول قسراً وعنوة أطاعك جيش النظم وأيتم النثر
فلا نقل إلا ما تقول بديهة ولا خمر ما لم تأت من فمك الخمر

وكبا به فرساً يوماً وقد طارد صيداً، فسقط سقطة أوهنت قواه ودعته إلى ملازمة مثواه، وبلغه أن أحد حساده شمت بوقعته، وسر بصرعته، فقال:

إني سقطت ولا جبن ولا خور وليس يدفع ما قد شاءه القدر
لا يشمت حسودي إن سقطت فقد يكبو الجواد وينجو الصارم الذكر
هذا الكسوف يُرى تأثيره أبداً ولا يعاب به شمس ولا قمر

ذكر بني قاسم أصحاب مدينة البُنت(١)

منهم: نظام الدولة عبد الله بن قاسم الفهري، ولم تزل في أيديهم من أول البنتية.

وكان أول من نائل بها وبنى الرئاسة لقومه بسببها عبد الله هذا المذكور إلى أن هلك سنة إحدى / وعشرين وأربعمائة. [١٩٣/أ]

ثم ولي بعده محمد ابنه الملقب بيمن الدولة، واستمرت أيامه فيها في جملة ثوار الأندلس وأولى طوائفها إلى سنة أربع وثلاثين.

ثم ولي بعده ولده أحمد بن محمد بن عبد الله الملقب بعز الدولة.

قال أبو مروان بن حيان عند ذكره:

وألقاب سلفه مياسم مهولة لمن حظه من الدنيا عدة أبرية تحيط عينه بها من جوف مرقبته، هلك هذا الفتى بمرقبته الشاهقة بخطه لم يُمْل له بعد أبيه.

---

(١) قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: البُنْتُ: بلد بالأندلس من ناحية بلنسية ينسب إليها أبو عبد الله محمد البُنتي البلنسي الشاعر الأديب.

وكان موته في رجب من هذه السنة، فنصب أصحابه بعده ابناً له صبياً ابن سبع سنين أو نحوها، يسمى محمداً، وسموه بالإمارة مكانه، وتخطوا بها عمومته له. وآثره بها شيخ دولتهم المسمى بقاسم جد هذا الغلام لأمه، ودبر الأمة باسمه شهوراً ليبقي النعمة على ابن ابنته المؤمر إلى أن يدري.

فأتى عمه ابن محمد من ذلك وواطأ في السر جماعة من أصحاب أخيه على الوثوب بقاسم هذا، وإزالة ابن ابن ابنته والكون مكانه خوفاً على ما في أيديهم. فتهيأ له ذلك فيما بلغني آخر هذه السنة.

ووثب بقاسم فقيده وحبسه، وصرف الصبي ابن أخيه إلى حجر أمه وكنفها. فاستصلح إلى والدها المحبوس في يده وخلى عنه، وأعاده إلى حاله مع أخيه صهره الأول وقام بالإمارة مقام أخيه الهالك، فانتظمت له سريعاً، واستصلح إلى الملوك حوله وتسمى نظام الدولة، فاتصلت ولايته.

قلت: هؤلاء الرؤساء أشهر من كان على أثر انقراض الدولة الأموية من رؤساء الطوائف بالأندلس ما بين متناهي الخلافة جارى كبار الملوك في اتساع الخطة وكثرة الجباية وتوفر الجيش، وانتشار الشهرة، واحتفال المباني والآثار، واستخدام الكتاب والشعراء، ومحاورة العلماء، واختيار القضاة الفضلاء كبني عباد، وبني هود، وبني ذنون، وبني الأفطس، وبني منذر، وبني جهور، من أخدان السداد والعافية ومن أمثالهم بني عامر، وكان على عهد هؤلاء جملة لم تبلغ هذا المدى في الشهرة ولا برزت في ميدان الذكر، منهم:

ابن أبي الحجاج الشنياطي القائم بمدينة لاردة.

ومنهم أبو الأصبغ بن مزين، وموسى أخوه.

وكان أبوهما قاضي شلب وحصون الغرب، تسمى أحدهما بالمظفر، وانفرد بالأمر دون أخيه إلى أن غلب عليه المعتضد سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة.

فكانت مدتهم تسعاً وثلاثين سنة.

ومنهم: أبو عيسى بن ليون صاحب قلعة عبد السلام من الثغر قرب وادي الحجارة.

ومنهم سعيد بن أحمد بن زنفل الجماني المنتذي بقلعة شقورة المنيعة /س [١٩٢/ب] أطراف جيان.

ومنهم عبد الحميد بن منثور الدابري.

ومنهم يحيى بن عمران الدابري، المقترن بصخرة بن السراب المسماة بقرانش على باب قرطبة.

والدابري، والدوابر عند أهل الأندلس هم الصعاليك الذين يثورون في الحصون فيقطعون الطرقات، ولا يعطون طاعة.

ومنهم ابن بطال صاحب حصن الشوط من موسط كورة الغرب.

ومنهم المعروف بابن أخي حصاد صاحب القلعة المنسوبة إليه وسط كورة شدونة.

إلى عدد كثير شق علينا ذكرهم مع عدم الشهرة.

ومنهم عبد العزيز البكري أبو مصعب صاحب شلطيش استمرت حاله في رغادة من العيش لرضا أهل بلده به إلى أن تحرك إليه ابن عباد، فرأى أبو مصعب يزداد قدره على مدافعته، فخرج عنها وانتقل إلى قرطبة بأهله وولده.

ومنهم أبو نصر بن يحيى المسمى بالحاجب، ولي بعد أخيه، ثم بعد أبيه، رخي البال، صالح الأحوال، إلى أن أخرجه عنها ابن عباد.

وكانت مدة بني يحيى خمساً وأربعين سنة.

وقد مر ذكر ابن عمار، وابن رشيق، ونحن نذكر بعد هؤلاء من أمكن من موالي الملوك العامريين.

ذكر من تيسر من ملوك
الموالي الأمويين والعامريين

نقول:

انتهت الشهرة في هؤلاء المماليك العامريين إلى الأمير خيران بعد انقراض الدولة العامرية، وكان ممن تخطته المقالة عند خلع هشام واستيلاء سليمان بن الحكم على قرطبة، وقتل من قبض عليه منهم، وأنجاه الفرار له عن الحضرة.

وكان نال بباب هشام الرياسة والقيادة على الصقلب والمشاركة في جماعة الفحول التائبين على الدولة.

فخلص من الحضرة مفلتاً بعد أن تضمر بها وخفي مكانه، وقد اتصل به افتراء أصحابه بشرق الأندلس.

فذهب إليهم عن تؤدة، وأبت له همته الانقياد لأحد من رؤساءه إذ كان منذ صباه في دار سلطانه أشهم أبناء جنسه نفساً وأعلاهم همة، فاستقر مصحباً بمن أخرجه من طرف كورة تدمير.

وكتب إلى جماعتهم من محل تخيرهم بمكانه بينهم وبين عدوهم من البرابرة ساداً لثغرهم، ويسألهم الإعانة على ذلك بشيء يذودهم عن كورة تدمير.

ففعلوا، واستقر خيران بذروة أرْيُولة وهو مثل في الحصانة والمنعة، وأقبل إليه ثوابت الفتنة من الدابرة والصعالكة، أقدم بهم على الكبير، وزاول جسام الأمور. فاعتلى قدحه، واشتهر أمره إلى أن استولى على الجهة. / ووجه له صاحب قرطبة [١/١٩٤] موسى بن مروان بن حديد، وكان في الصرامة والجرأة آية، وكان بينه وبين خيران وأصحابه وقيعة أجلت عن أمر موسى بن جرير، وقتل أصحابه ونصر خيران نصراً عزيزاً اعتلا به.

ثم تغلب على مرسية فكثف جمعهم.

ثم صرف وجهه إلى طلب المرية متصل الأندلس، وكان بها أجلح الصقلبي من هؤلاء رجل جلف شديد العتو والجهالة، مفرط النخوة، لا يحسن التفرد والاستقلال بنفسه، قد ذهب به العجب كل مذهب، ورأى لنفسه الفضل على سائر جنسه

بالشيخوخة، وقديم الملكة، فاستهان الناس.

فتعبأ له خيران في جيشه من مرسية غرة المحرم سنة خمس وأربعمائة فنازله ودخل المدينة، وتغلب على القصبة.

فقال أفلح وولده، وحازماً وجد فيها من مالٍ وعدة، وهتف في رعيتها بالأمان، واتخذ المدينة وطناً، نزله برجاله وماله، واستخلف على ما انصرف عنه وعول على المرية فأحسن ضبطها وحصَّن قصبتها، وسد عوراتها، إلى أن صيرها في الحدّ الذي هي اليوم فيه، فلا يرام التعلي بها.

واتخذها قاعدة لسلطانه، وحمل إليها أموال عمله، وعدل في سيرته، ورفق برعيته، واستوسع فيما يليها من الأعمال وضبطها مع عمله الأول بجيشه ورجاله.

واستعان على تدبيره بوزيره الشهير الدهاء والرجاحة عباس بن أبي زكريا، إلى أن نال بصحبته فوق ما ناله مجيل قلم من صحبة ملك حسبما هو مشهور.

وجرت بين خيران وبين من يجاوره من أمراء صنهاجة، بكورة البيرة، حروب، فلم يعلو من صرمه.

وله بالمرية الآثار الخالدة، والحسنات الشهيرة، فهو الذي أوصل إليها الماء، وبنى الحمّة العجيبة، وفي أيامه بلغت من العمارة والقوة وفشو الصنائع ما هو مشهور.

وكان مذهبه في الجود قصداً، لم يشتهر بكرم ولا وصم بلوم، وكان أغلبها إلى الخير.

عليه دهية وشجاعة ومصافة، اجتمع له إلى شجاعة النفس جودة الرأي وحُسن التدبير، فكان أكثر عمله في حروبه على المكر والتدبير والمخادعة، وهو رأي أولي المعرفة بها من الملوك الحَزَمَة.

وكان مذهبه مع جلالة شأنه الخفض من حاله، والقصد في أسمائه، فما كان يسامي في شيء مما يسامى فيه أملاك زمانه من ملوك الفتنة إلاّ ما كان من وصفه بالخليفة وبالفتى الكبير.

وإياه مدح شاعر الأندلس أبو عمر بن أحمد بن درّاج القسطلي، صدر سنة سبع [١٩٤/ب] وأربعمائة يصف محنته في ركوبه / البحر إليه بمنية، وهي:

لك الخير قد أوفى بعهدك خيران وبشراك قد أولاك عز وسلطان

. . . . (١)

(١) في قصيدة مدح وثناء وإطراء نيفت على الستين بيت استغرقت الصفحة [١٩٤/ب] والصفحة =

/ . . . واعتل خيران بالمرية أشهراً، يقيم رسمه للناس عباس بن أبي زكريا، [١٩٥/أ] إلى أن توفي بها ليلة الجمعة لثلاث خلون من جمادى الأولى سنة تسع عشرة وأربعمائة.

وكانت مدة ولايته بها أربع عشرة سنة، وصار ملكه إلى زهير الفتى.

أيام الفتى زهير العامري

ولما توفي خيران اجتمع أحمد بن أبي زكريا بأهل العقد والحل، وعرفهم بموت خيران، وبأنه قدم أخاه زهير.

قال: فرضي الناس، وكان زهير فاضلاً شهماً، داهية، شديد المذهب، مؤثراً /للأناة، عالي الهمة. [١٩٦/أ]

وكان خيران قد استقدمه وهو أمير بمرسية ورشحه لمكانه.

فقام بالأمر أحمد قيام يوم الجمعة لثلاث خلون من جمادى الأولى سنة تسع عشرة.

ودامت مدته عشرة أعوام ونصفاً.

وله في المرية آثار جميلة، وهو الذي بنى المسجد الجامع بها، وزاد فيه الزيادات من جهاته الثلاث ما سوى القبلة.

وكان يشاور الفقهاء ويعمل بقولهم، وامتدت أطناب مملكته من المرية إلى قرطبة ونواحيها وإلى شاطبة وما يليها إلى بياسة إلى الفج من أول طليطلة.

ودبر أمر قرطبة منفرداً به أيام الفتنة، والاستغناء عن الخلافة، وسكن قصرها يوم الأحد لخمس بقين من شعبان سنة خمس وعشرين وأربعمائة، ودام سلطانه عليها خمسة عشر شهراً ونصف شهر، إلى أن فسد ما بينه وبين باديس بن حبوس من الحلف القديم.

وراسله معاتباً ومستدعياً تجديد المحالفة، فسارع زهير نحوه، فوضع الحزم واغتر بالعجب ووثق بالكثرة، أشبه شيء يمحي الأمير الضخم إلى العامل من عماله، قد ترك رسم الالتقاء بالنظر أو أعرض عن ذلك كله، وأقبل فتجاوز الحد بين العلمين من غير إذن باديس وصير الأوعار والمضايق خلفه.

= [١٩٥/أ] معظم الصفحة [١٩٥/ب] وليس في القصيدة ما يلزم نشرها في هذا الكتاب، وقد تركتها نظراً لسوء الخط، ورداءة التصوير، وهي من قبيل الأدب أو مجالها كتب الأدب ودواوين الشعر وهذا كتاب تاريخ كان يجب فيه الاقتصار على بيت أو بيتين على الأكثر لبيان جودة الشاعر أو بيان صفة المقصود به القول، والله أعلم.

ولما وصل إلى غرناطة وخرج باديس في جمعه، وقد أنكر اقتحامه عليه، وعده حاصلاً في قبضه، وبدأه بالخيل وأوسع عليه وعلى رجاله في القِرى والقضيم بما يمكن اغترارهم، ووقعت المناظرة بين زهير وباديس.

فنشأ عارض الخلاف لأول وهلة، وحمل زهير أمره على التشطط.

فعزم باديس على لقائه...[1] لحاء من لا يشعر وقطع في الطريق خلفه قنطرة لا محيد له عنها وغاداه على تعبئة محكمة، فدهش زهير وأصحابه لكنه أحسن تدبير الثبات وقام فنصب الحرب وثبت في قلب العسكر وقدم خليفته هذيل بوجوه أصحابه الموالي العامرية وعرف صنهاجة أنهم الحماة والشوكة ومتى حُصدوا لم يثبت من وراءهم، فاختلفوا بهم، واشتد القتال، فحكم الله لأقل الطائفتين من صنهاجة ليرى قدرته، فانهزم زهير وأصحابه وتقطعوا وأعمل السيف فيهم فمزقوا، وقتل زهير، وجهل مصرعه.

وغنم باديس من المال والخزائن والأسلحة والعدة والحلية والغلمان والخيام ما لا يحاط بوصفه.

وكانت وفاة زهير يوم الجمعة عقب شوال من سنة تسع وعشرين وأربعمائة بقرية البُنت من خارج غرناطة.

[١٩٦/ب] واتصل خبر هذه الوقيعة بأهل المرية فضبطوا بلدهم وأسندوا أمرهم /إلى شيخهم أبي بكر الدهيمي، فضبط المدينة إلى أن كاتوا عبد العزيز بن أبي عامر، المتقدم الذكر، فجاءها من بلنسية حسبما ذكر في اسمه.

أيام أبي الجيش مجاهد العامري

ومجاهد العامري هذا، صاحب ملقية والجزائر الشرقية، ذو الأخبار الفخمة، والوقائع الشهيرة.

قال أبو مروان: كان أبو الجيش مجاهد يباين سائر الملوك في زمانه بخلال من الفضل من أشبهها العلم والمعرفة، لم يكن في الأحرار ولا في الموالي أثبت قدماً منه فيها، يكاد يربي على متقلدها، من أكابر العلماء في وقته، لا سيما علم العربية فإنه تحقق به إلى ما يصير به من علم القرآن قراءته معانيه وغريبه وتفسيره، قد عُني بطلب ذلك من صباه إلى اكتهاله، فكان في النهاية من البصر به.

وجمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من نظرائه، وأتت إليه العلماء من كل

---

(١) كلمة غير ظاهرة بالمخطوط.

صقع، فاجتمع بفنائه جملة من مشيختهم، ومشهور طبقاتهم:

كأبي بكر المغربي.

وابن عبد البر.

وابن معمر اللغوي.

وابن سِيدة.

فشاع العلم في حضرته حتى فشى في جواره وغلمانه، فكان له من الصنفين يقومون على قراءة القرآن ويشاركون في فنون من العلم يحملونه بها ويشرفون دولته.

ومنها التقدم في الفروسية والحذف في معانيها، فلم يك في ملوك الزمان فارس يعدله شكلاً ولباقة ورأي وهيئة وسن عمل في السلاح وتقليباً له إلى حد بأبواب الثقافة والرماية وتدقيق لمعانيها، وتسمى أول انتزاله بالجزائر بذي الوزارتين، خطته التي رَقَّاه إليها بعض ملوكهم.

وكان شديد الوطأة على رعيته، سام أهل الجزائر الخسف فسطا بوجوههم، ورؤسائهم، وألزم قلوبهم الرهق لما خافهم على دولته بقريب من التعبد والسياسة، حتى لقد حظر عليهم رماكهم السامية ـ وكانت عمدة أموالهم ـ فكتبها منعوتة فلا تكاد الرمكة تنتج مهراً حتى يكتب على رَبِّه بنعته ويلزمه تربيته، والقيام عليه، إلى أن يصلح للرياضة فيقبض منه عند ذلك ويعطى عنه خمسة دنانير دراهم لا يزاد عليها في وقت ولا يبرأ منه إن نفق إلا ببراءة من ثقة.

ولقد قطع أذن رجل لقطعه أذن مهر، طلب التشويه بخلقه.

وأكثر التخليط في ذات أمره، فطوراً قلبك مخبت متبرىء من الباطل كله، منقطع إلى الجد وأهله، لا يستريح إلا إلى جزء يقرأه ودفتر يطالعه، أو عالم يذاكره.

وتارة لا يستأنس بشيء من الجد، ولا / يعرف غير المباطلة واللهو. [١٩٧/أ]

وكان مذهبه في الجود قصداً لم ينهمك فيعزى إليه، ولا يكره عنه فيوصف بضده، فأعطى وحرم وجاد وبخل، ووضع الأشياء مواضعها، فكأنه عاين عهده الذم. وكان مع أدبه وعلمه أزهد الأمراء في الشعر وأنكره على منشده، لا يزال يتعشقه فنقده كاشفاً عن لفظة، أو شبهة، أو سرقة، أو إحالة، فأقصرت الشعراء لذلك.

وغزا، رحمه الله، إلى سردانة جزيرة الروم، وهي عظيمة، مسيرتها ثمانية أيام وفيها ملوك الربعة من قبل صاحب الأرض الكبيرة، افتتحها في مائة وعشرين مركباً حمل فيها ألف فارس.

ففتح أرضاً جليلة، وضرب على بعض ملوكها جزية.

وتجاوز حدها فاختط مدينة واسعة وشرع في بنائها، وانتقل إليها بأهله وولده بعد أن غنم وسبى ما لا يأخذه الحصر، إلى أن كثر في زمانه السبي، وبخست فيه الأثمان.

وتداعى عليه ملوك الأرض الكبيرة، واستجاشوا. وبلغه من أمرهم ما لا يطيقه، فعزم على التحول إلى محله، والقفول إلى دار ملكه بدانية. فأعجله العدو عن ذلك وقطع به.

فكانت عليه وقيعة شنيعة، وظهور ما سمع بمثله، فقتل من أصحابه وجنوده عالم لا يحصى، وملكوا أسطوله، وتنقدوا، واستولوا على حريمه وفيهن نساؤه وبناته، وعلى ولده، وجُود[1] أمه النصرانية.

افتدى بعضهن سريعاً وتأخر البعض، كولده علي، فإنه وقع في سهم صاحب الألمانيين، وهم أمة من الفرنجة تلي صقلية يسمع أن دارعة مقاتلتهم ثمانون ألفاً، فاحتبس به للمباهاة، وأعْيَ على والده فِدَاؤه، وقد بذل عليه عشر آلاف إلى أن قبض بعد زمن طويل.

ولم يخلص من أسطوله أجمعه إلا خمسة مراكب وأربعة قوارب.

وكان شحنة الأسطول المفلول من سبي سردانية يوم ظهور العدو عليه ثمانية آلاف فارس.

وكان مجاهد قد نصب بمحل ملكه خليفة دعا الناس إليه، وهو الفقيه أبو عبد الرحمن عبد الله بن عبيد الله بن الوليد، المعيطي المديني، أحد من أزعجته الفتنة من رجال الأشراف بقرطبة، وكان في عدد الفقهاء المشاورين بها، قيضه خليفة، وأخذ له على الناس البيعة في جميع عمله بدانية وميورقة وغيرها، وسماه: المنتصر بالله، وأثبت اسمه في سكته وفي أعلامه، وذلك أول سنة خمس وأربعمائة بدار ملكه.

فلما عاد منكوباً من غزوته سردانية، ألفاه قد استبد، وداخل الناس، وعمل على إبادته، فبادر المعيطي عند وصوله إلى الساحل /وهو ذاهل عنه، وهجم عليه [١٩٧/ب] وأقلعه عن مجلسه وقبض عليه[2] وعلى من شايعه من أصحابه، وتسلم منه سلطانه وعاقبه في سوء ما كافأه به، وعدد عليه يده، فاعترف له بهمومه به.

---

(١) كتب فوق هذه الكلمة في المخطوط بخط دقيق كلمة «اسم». يريد أن كلمة «جُود» هو اسم أم مجاهد وهي نصرانية، وقد سباها العدو ضمن من سبى من النساء والذرية.

(٢) تكررت عبارة: «وقبض عليه» في المخطوط فحذفت التكرار.

وقال له: بلغني ما أحدثته بعدي من العبث بالناس، والاستيثار بالفيء، والمجاهرة بالمعاصي، فلم يسعني إنظارك، وأردت قبض يدك عن ظلم العباد، وعلى ذلك بايعتني، ولا موادة لك عندي، كلاماً هذا معناه.

ثم احتمله وصيره في البحر إلى السدوة، فأنزله ببجاية واستقر عند البرابرة بها معلماً لصبيانهم لا يرفع رأساً إلى الدنيا، وطاولته هناك الحياة إلى أن هلك بعد مدة، وأصبح خبره للناس عبرة.

ولما هلك مجاهد الموفي قام بالأمر بعده ولده علي بن مجاهد، والمسمى بـ: إقبال الدولة.

أيام علي بن مجاهد إقبال الدولة

وكان مجاهد، رحمه الله، قد تم له افتكاك من أُسر له من بناته ونسائه وأخواته في مدةٍ قريبة إلا والدته، وكانت نصرانية، فاختارت أهل ملتها وتبعتها أختٌ، فأعرض عنهما وأقام على ولده.

وكان يومئذ واحده، وسنه سبع سنين، إلى أن تهيأ فكاكه سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة، ووصل إلى جزيرة ميورقة، وهو فتى كامل يتكلم بلسان الروم الذين كان فيهم ويتزيا بزيهم.

فعرض عليه والده الإسلام، فقبله وحسن إسلامه وختنه، فأصابه من ذلك مرض شديد.

وبدت لمجاهد فيه مخائل الشجاعة، فتوكل بإرهاقه وتأديبه، وألحقه بمرتبة أخيه الأصغر المرشح لأمره، وعوّل عليه دونه في قود جيشه.

ثم قلده الأمر بعده صارفاً إياه عن ولده حسن من الموحدة على أخيه ما ظهر أثره قبل انصرام حول.

وقد داخل حسن بن عباد في أمر الوثوب عليه، ووجه غلاماً من غلمانه شجاعاً على سبيل الزيارة.

ووقع اتفاقهم على الفتك بعلي عند خروجه من صلاة الجمعة.

فلما أمضى عزمه دهش فلم يجهز عليه وأصابت المُدْيةُ[1]، فقبض على يده، وأراد الغلام العبَّادي أن يطعنه فنشب الرمح في الحائط لضيق المكان، وثاب لعلي بن مجاهد رجاله، فقتل الغلام، وفرّ حسن بن مجاهد راكضاً، واستقل الجرح بعد أيام.

---

(١) في المخطوط: «المدينة» وهو تحريف، والمدية هي السكين أو ما يقطع به نحوها.

وطالت أيامه، وصاهر أمراء وقته على بناتٍ له كن آية في الجمال.

[١٩٨/أ] وكان ناجح الشعب في أبواب الجباية / والاكتساب.

ولقد ذكروا أنه وجه إلى مصر مركباً ضخماً مملوءاً طعاماً عام المجاعة المضروب بها المثل في البلاد، عام ستة وأربعين وأربعمائة، فعاد إليه مملوءاً مالاً وذخيرة.

وجرى بينه وبين جاره وصهره ابن هود من الحروب ما يطول شرحه حتى استولى على بلاد دانية، ثم حاصر بها إلى أن سأله أن يسلمه في نفسه وولده وينزل له عن القصور تاركاً إياه بفرسه وزينته.

فكان ذلك سنة ثمان وستين وأربعمائة، ونقله إلى سرقسطة وأقطعه أقطاعاً تمونه وتقيم أوده، فكان آخر العهد به.

أيام الأميرين مبارك وظفر العامريين وخبر خيرة الصيقل العامري

كان هذان الفتيان قد ترقيا ببلنسية إلى ملك الحضرة، وأقاما رسوم السلطان بها لأنفسهما على أفخم الوجوه، وظهر من سياستهما وتقارضهما صحة الألفة طول حياتهما ما فاتا به في معناهما ما أشغل الأخوة، وعشاق الأحبة له.

نزلا معاً بقصر الإمارة مختلطينَ تجمعهما مائدة واحدة من غير تمييز في شيء إلاّ الحُرَم خاصة.

وكان التقدم لمبارك في الخطبة برسوم الإمارة لفضل صرامة وفكر ومكراً قصر عنهما. فطفر بذمامته في خَلْقِهِ وانحطاطه لصاحبه في سائر أمره على تحليه بكتابة ساذجة، وفروسية، فبلغا الغاية من امتلاك الأسلحة والآلات الملوكية والخيل المضربات ونفيس الحلي والحلل وإشادة البناء للقصور، وأشمل هذا الرأي على جميع أصحابهما ومن تعلق بهما من وزرائهما وكتابهما.

ولم يعرض لهما عارض إنفاق بتلك الآفاق، فانغمسا في النعيم إلى قمم رؤوسهما حتى انقضى أمرهما.

ومن الذي يزل على ما ذكر من اشتراكهما في السلطان والاشتراك الذي لا مزية فيه لأحدهما ولا انفراد دون صاحبه.

ومن غرائب ما اتفق لهما قول أبي عمر بن دراج يمدحهما:

أنورك أم أوقدت بالليل نارك ... لباغٍ قراك أم باغٍ جُوارك[١]

---

(١) في قصيدة مدح بلغت ما يزيد على الأربعين بيت بعد اختصارها، وقد اشتملت هذه القصيدة على =

. . . .

واختص بهذين الرئيسين من كتاب الحضرة الذين ضاقت عنهم بسبب الفتنة طائفة من / الفضلاء البلغاء الوكيدي الذمام، المستحكم في دولتهم كالتاكرني وابن [١٩٨/ب] مهلب وابن طالوت وزادهم في دولتهم مرتبة مشيخة الوزراء بقرطبة.

فكانا يرجعان إليهم في الرأي والمشورة والتدبير.

ومضت أمورهما خارجة عن طاعة صاحب قرطبة وغيره، رادة لرغوبة وآزوا ما آثره الناس من التفرد بقطعتهم وجريا مجرى من حولهما من ملوك الأطراف في استكفاء أمراء الفتنة إلى آخر أيامهما.

قال المؤرخ:

وكان موت مبارك منهما بأن ركب يوماً من قصر بلنسية وقد تعرض له أهلها مستغيثين من مال اقترضه، فقال: اللهم إن كنت لا أريد إنفاقه فيما يعم المسلمين نفعه فلا تؤخر عقوبتي يومي هذا.

وركب إثر ذلك، فلما أتى القنطرة وكاتب من خشب خرجت رجل فرسه من حافرها فرمى به أسفلها واعترضته خشبة ثانية شدخت وجهه وسقط الفرس عليه، ففاضت نفسه، وكفاهم الله أمره.

وثارت العامة بهم فانتهبوا القصر، وقتل مظفر وانقضت أيامهما.

وأما خيرة الصيقل

فتآمر بشاطبة، وهي المعقل المنيع، فدبر مبارك الحيلة عليه كيما ينفرد بإمارة الجماعة دونه.

وكان خيرة السخاء أغلب الخلال عليه فأحبته الرجال وأمَّلوه.

واستقر عند انقراض الدولة العامرية بشاطبة فامتنع بها، ودبر أمره، واتفق أن اجتاز ببلنسية يمارك أحد المذكورين، فتلقاه مبارك وبالغ في إكرامه ودعاه إلى طعامه، فأجابه مطمئناً وأكل عنده، فذكروا أنه دس له سماً في بعض ما أكله.

فانصرف إلى شاطبة وقد أنكر نفسه واستعر به وجهه وهلك إلى أيام قليلة.

وتفرد نائبه عبد العزيز أفلح السلطاني بضبط القلعة، وتدبير أمر من فيها من الجند.

= باقي صفحة [١٩٨/أ]، الصفحة [١٩٨/ب]، والصفحة [١٩٩/أ] عدا السطر الأخير منها، ثم استأنف المؤلف الكلام عن سيرتهما.

وكان له انحطاط إلى مبارك فلم يهجه وقنع منه بذلك، وخلاه على حاله إلى أن تصير أمرها بعد ذلك إلى يد مجاهد العامري، واشتد سلطان مبارك بتلك الجهة واستضم الرجال.

ولاذ به لبيب الصقلبي العامري، صاحب طرطوشة، وقد طمع فيه منذر بن يحيى، وواصل استخراجه، فخرج إليه بنفسه في نحو خمسمائة فارس من نقاوة الجندين، فظهروا على منذر، وهزموه هزيمة شنيعة، وقتل ابن عمه وصيفه محارب بن عيسى التجيبي. وانصرف مبارك على إثر ذلك إلى بلنسية وقد استعجل أمره وملك جماعة الموالي ودانوا له إلى أن كان من هلاكه ما ذكر.

وهؤلاء نبهاء مقتسمي الملك من بعد الجماعة بالأندلس، وكبار المماليك العامرية.

[٢٠٠/أ] ونحن نذكر بعدهم / من أمكن ذكره من مشاهير الرؤساء من الطائفة المغربية المسماة عند مؤرخي الأندلس بالطائفة البربرية.

ذكر المشاهير من رؤساء الطائفة البربرية

تقدم ما كان من اختصاص كل واحد من رؤساء القبائل الغربيين بالأندلس بوطن من أوطانها عند مظاهرة سليمان بن الحكم وتغلبهم به على الجماعة.

ونحن الآن نذكر منهم كُلاً على انفراده، ونبدأ بكبيرهم زيري بن مناد الصنهاجي.

دولة بني زيري بن مناد الصنهاجي

قد تقدمت الإشارة إلى ما كان من قدوم زاوي بن زيري بن مناد على باب بني أمية.

وما كان من حرص الحكم بن عبد الرحمٰن على لحاق أصناف المغاربة، وفتح باب القبول عليهم في ذلك، وما كان من اعتدال ابن أبي عامر في هذا الغرض وعمله بالاحتياط فيه.

وتغالى ابنه المظفر عبد الملك بعده فيه لأمر فرغ عنه مسبب الأسباب سبحانه، فكان ممن ورد على الأندلس على عبد الملك بن المنصور من رؤساء القبيلة الصناهجة، وأبناء ملوكها بالشحوم الإفريقية، والحدود القبلية، زاوي بن زيري وقومه جالياً أمام صولة باديس بن المنصور بن بلقيس بن زيري لأسباب تذكر عند ذكر ملوك صنهاجة إن شاء الله.

وخبر تلقيه وقدومه وإيجاب حقه شهير، فلما انشقت العصا بانقراض الدولة العامرية ونالت البرابرة والقبائل المغربية بدولة ابن عبد الجبار الإخافة والحمل للنفرة الطبيعية بين الأندلسيين والمغاربة، اضطروا إلى الانجماع والانحياز والذياد عن أنفسهم، والتفوا على سليمان بن الحكم، وزحفوا به إلى قرطبة، وكشفوا الوجوه في مناهبة جميع أهل الأندلس وهم منهم بمنزلة نصف المعشار أو أقل شأن المعول على الموت الباني على تفويت الحياة، ولم تزل الوحشة تعظم، والعداوة تتأكد حتى لم تبق بقية ترجى ولا مهادنة تبتغى.

وخربوا الأندلس تخريباً لم يقتصر على المال دون البلاد ودون الأنفس، فتركوها كأنما أطلقت بمغانيها النار.

ولما استقر صاحبهم بمقر الخلافة وفي أيديهم زمامه ولحكمهم يرجع نقضه وإبرامه، طلبوه بالبلاد التي يحرزون بها أولادهم وحرماتهم، ويرجعون إلى موائدها في حاجات أقواتهم إذ لا يأمنون على أنفسهم تمالؤوا البلدين في زمن من الأزمان.

فكان زاوي بن زيري من استأثر بكورة البُورة، وجيان.

/أيام زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي [٢٠٠/ب]

يكنى: أبا ليلى.

وكان ليث الحروب، وفل الوقائع، ورحل القبيل قاطبة دهاءً وحرباً، وحصافة. وفكراً، وصبراً، وإقداماً، ورأياً.

وكان له في حروب أبي يزيد مخلد بن كيداد الخارج على أبي القاسم بن عبد الله، الشيعي بإفريقية، غناء كبير، إذ كانت قبائل صنهاجة يومئذ متقلدة بآراء الشيعة مخالفة لقبائل زناتة في انحيازهم إلى طائفة الأموية لتحقق جل ملوكهم يومئذ من آل حرز بولاء عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وكانت الحرب بين الصناهجة وقبائل زناتة متصلة بين غلاب وسجال إلى أن انتقل ملك الشيعة إلى المشرق، وأمر المعز منهم أمر المغرب إلى بلقين بن يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي إذ لم يرجحه في غيره عنده ووصاه بما يفعله في أموره، فمن ذلك:

أن لا يرفع السيف عن قبائل البربر.

ولا المغرم عن الرعية.

وأن لا يُولي الأمر أحداً من بني عمه، إذ يرون أنهم أحق به منه.

فامتثل بلقين أمره، ووصى به ولده.

فلما تصير الأمر إلى باديس بن المنصور بن بلقين المذكور، ضايقه أعمامه وأعمام أبيه فلم يعطهم الدنية.

ووقعت بينهم حروب قتل فيها عم أبيه ماكس بن زيري بن مناد، فضاقت عليهم الأرض لانتصابهم بين عدو زناتة وسلطان قومهم.

فجاز إلى الأندلس زاوي بن زيري، وجاز صحبته إليها أبناء أخيه: ماكس وحباسة وحبوس.

وتلقاهم المنصور بكل بِرْ وترحاب وفر جزيل وكان درعه يتسع لهم في جميع ما يتبسطون عليه فيه من قول أو فعل إلا ما كان من الحقوق الشرعية التي لم يكونوا ببلادهم يعرفونها، فكانوا بذلك تحت موجدة وأحقاد كامنة على الدولة وأهلها. فلما انشقت العصا ذهبوا من الغداد في الأرض إلى غير نهاية.

وكان ما تقدم به الإلماع من إيقاع زاوي بن زيري بجيش الخليفة المرتضى بظاهر بلده غرناطة واستيلائه على محلاته وعزمه على الانصراف إلى بلده.

وكان وقوع ذلك على عهد المعز بن باديس بعد إذن منه لزاوي.

وقدم على رعي وبر في قومه إلى أن هلك هنالك، فكان خروج زاوي من الأندلس سنة عشرين وأربعمائة، وتمسك بمحل سلطانه من كورة البيرة ابن أخيه حبوس بن ماكس بسعي من كبير قصر البيرة وفقيهه ابن أبي زمنين، إذ قصد بعد توديع زاوي بن زيري بمرسى المقلب إلى حِصن أشر، وقد كان حباسة أخوه قتل في الفتنة بقرطبة.

دولة حبوس بن ماكس بن زيري بن مناد

ولما ثبت قوم حبوس بن ماكس بغرناطة، وذلك في سنة أربع عشرة وأربعمائة، استظهر عليها بجماعة عظيمة من قومه وفية وافرة من قبيله، فبنى مُلكاً شامخاً وغلب نظراؤه.

واستولى على كورتي جيان وخبرة، وما إلى ذلك منها.

وحمى رعيته من سائر المتنقرين بحوزه.

واتصلت أيامه إلى أن هلك في رمضان سنة تسع وعشرين وأربعمائة.

وولي بعده الأمر ابنه باديس.

[٢٠١/أ] / دولة باديس بن حبوس بغرناطة وما إليها

وكان تصير الملك إلى باديس بن حبوس بتسليم له من أخيه بُلقين بن حبوس شقيقه.

ولقب باديس: أبو سناد.

وتسمى: المظفر بالله الناصر لدين الله.

ونافس أخوه في الجلالة.

وأذعنت له الأعداء، وانضاف إلى إيالته البلاد إلى أن ملك كورة ريّة، وقنسرين.

وعظمت جبايته، وضخم أمره، وتعددت جيوشه.

وأتيح له الظهور على زهير الفتى أمير المرية، حسبما مرّ في ذكر زهير.

فحصل من ذلك الإكفاء له.

ومن كلام أبي حيان، قوله:

وأما أربع أملاك البرابرة في هذا الوقت شأناً وأشدهم سلطاناً، وأكثرهم رجالاً، وأوسعهم أعمالاً، فباديس بن حبوس من سلطان صنهاجة.

ومستخدم الكثير من قبائل زناتة، الممتد سلطانه اليوم على ما بين أطراف كورتي بسطة، وجيان إلى بابي مالقة، وإستجة، وما تحت ذلك من أقسام قرطبة، أملى النصر العزيز على الأعداء إملاءً واختباراً، فلبسه بغياً واستكباراً، وأساء الانتقام، ولم يقل العثرة، وأخذ بالظنة، وأسرف في العقوبة، وشدّد بالعصبية، وتقلّد الحمية الجاهلية، واستأثر بالقسوة الجبرية، فجاء في ذلك كله أخباراً مأثورة.

واستولى على دولة باديس كاتبه الإسرائيلي ابن نغزالة، ثم ولده يوسف بعده، فكانت بيده أمواله، وبعين لحظه أحواله، وبمرأى ومسمع منه أفعاله الخفية وأقواله.

وكان قد نشأ لباديس ولده المسمى بلقين، فرشحه لولاية عهده، ولقبه: سيف الدولة.

وكان منحرفاً عن اليهودي المذكور، منكراً استيلاءه على الملك وتنويهه باليهودي من قومه، وانطلاق يده على المسلمين.

ولا يزال ينفث فيه إلى أبيه ويبادر به إليه عيونه في القصر وجواسيسه.

فأعمل الحيلة على بلقين باستدعائه إلى مجلس شراب احتفله له وسقاه كأس سُم قضى منه نحبه.

ولما بحث باديس عن أمره، صرف الإسرائيلي التهمة / إلى طائفة من فتيان [٢٠١/ب] ولده، وجواريه، وقرابته.

عاث فيهم باديس قتلاً وإبادة، ففروا عنه وفسدت له قلوبهم، وخبثت ضمائرهم.

وعظم استيلاء اليهودي وزير باديس إلى أن طرق جاهه الاعتلال، وأسرع إلى حاله الاختلال، وكثرت فيه الأقوال. ورمى بمداخلة ابن صمادح، صاحب المرية، في تصيير باديس إليه، وضبطت القصيدة المنسوبة إلى الولي العائذ أبي إسحاق الإلبيري، رضي الله عنه، التي يقول فيها مخاطباً باديس، ومحرضاً على اليهودي:

ألا هل لصنهاجة أجمعين بدر الزمان وأسد العرين

[٢٠٢/ب] / ....(1)

فثار بهم، وقد تيقنوا إعراضه عنه على نكبته.

ورجعوا إلى داره وقد تبعتهم العامة فاقتحموها وانتهبوها، وأخفى اليهودي نفسه في بيت ملآن فحماً سوَّد به وجهه وتنكر.

فأخرجوه وقتلوه وصلبوه على باب المدينة.

وقتل في هذا آلاف من اليهود، وذلك في سنة تسع وستين.

وقيل: سنة خمس وستين.

وولي بعده حافده عبد الله ابن ابنه بلقين الذي اتهم اليهودي بقتله.

دولة عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس

ولما توفي باديس بن حبوس، اتفق خدام دولته وأشياخ قبيلته على تقديم عبد الله بن بلقين.

فأخذوا له البيعة على الناس.

ولقبوه: المظفر بالله الناصر لدين الله.

وعدلوا إليه عن عمه ولد باديس الكائن بوِلاية دبة بمدينة جيان، وذلك لِمَا رأوا به من سوء سجيته، وانهماكه واجترائه على سفك الدماء.

وكان عبد الله هذا عند ولايته الأمر صبياً صغيراً لم يبلغ الحلم، فهو لذلك ممن يشتمل عليه شرط كتابنا ممن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام.

وغرناطة إذ ذلك حافلة بالأعلام وصدور الإسلام وحملة السيوف والأقلام.

وانفرد بتربية عبد الله، وتدبير ملكه، الوزير سماجة الصنهاجي، فاستقل بسياسته.

---

(1) في قصيدة بلغ عدد أبياتها أربع وأربعين بيتاً. وقد استغرقت من أوائل صفحة [٢٠١/ب]، [٢٠٢/أ]، ثم بيتين بأوائل الصفحة، ثم استتم المؤلف سرد الخبر.

وكان باديس قد جعل أخاه عبد الله تميم بن بلقين بمالقة، فجرت أمورهم على سبيل من السداد وحسن السيرة.

وطمع ابن عباد فيما في أيديهم حين بلغه مهلك باديس، فحشد واستكثر، ووصل إلى غرناطة وابتنى على ستة فراسخ منها حصناً لتستقر رابطته فيه، مضيقاً على من بالحضرة، فلم يقوم بطائل الاضطلاع سماجة بالأمور وضمه لأطراف الملك.

وكان سماجة حازماً، شديد السطوة، مرهوب العقاب، جواداً، شجاعاً، فاضلاً، ذكر عنه الغرناطيون أنه اشتد في منع اتخاذ الخمر، وجعل بإزاء ذلك القتل غرمة، فلم يحل عقدها ولم ينسخ حكمها.

فبينا كان طائفة من أبناء الأعيان وصدور الطلبة أولي الوجوه الحسان على راحة لهم بجهة المصلى القديم خارج القصبة، إذ أظلهم سماجة فجأة، فسقط في أيديهم / [٢٠٣/أ] وأيقنوا بالهلكة، فابتدره قبل الوصول إليهم فتى منهم، فأنشده:

بينما نحن بالمصلى نسقي ... وجناح العشي فيه جنوح

إذ أتانا سماجة يتسلا ... وجهة الشرق من تجليه تفوح

فطفقنا يقول بعض لبعض ... أغبوق شرابنا أم صبوح

قال: فخجل سماجة، وأنّس الصبي ووعده بالإحسان، وانصرف من طريقه إغضاءً وتغافلاً، ولم يزل سماجة يدبر أمر عبد الله والسعود تساعده والأمر ينوه به ساعده إلى أن بلغ عبد الله وأراد الاستبداد بحاله، وضاق بسماجة فرحل عنه إلى كنف جارهم صاحب المرية، وقد مهد لنفسه عنده، فاستقر لديه بحال ثروة وغناء، وأقام عنده إلى آخر عمره.

وكان عبد الله بن بلقين جباناً مُغْتَمد السيف، متكاسلاً عن الخيل، زاهداً في النساء، موصوفاً بالضعف.

لكنه يكتب، ويشعر، ويتحدث فيما يتحدث فيه الطلبة.

وقفت على ديوان بخطه ألفه بعد خلعه بمدينة أغمات، قرر فيه أحواله، والحادثة عليه بما يستطرف من مثله، أتحفني به خطيب المسجد بأغمات رحمه الله.

ولما اجتاز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس من بعد الوقيعة بملك النصارى يوم الزلاقة، شار عليه خلع رؤساء الأندلس وبادئاً منهم بعبد الله حفيد باديس.

وقد حركه إليه تحريك طائفة من خدامه لحقت به، واتصلت به، عند الاستعداد، واتخاذ البلاد، وتجديد الأسوار، ومراسلة صاحب قشتالة.

وتجنى عليه تجني الذئب على المعزى، حسبما يتمثل به الناس، إذ قال لها مسبباً لأكلها:

شمري ذنبك فإنك تحركي عليّ به الغبار.

فقالت: وأي ذنب لي بفعل ذلك؟

فقال لها: أو تكذبيني يا فعالة؟!

ووثب عليها فأكلها.

فوجه الجيش إلى منازلته وقصده بنفسه، وتبادر إليه الرعايا معلنين بطاعته.

ولما رأى اختلال حاله ونكول أهل بلده عن الدفاع عنه، استشار صنائعه، فأشاروا عليه بالخروج إلى الأمير يوسف والإلقاء باليد إليه، فكان ذلك.

فتلقاه هو وأمّه على فرسخين من المدينة، فترجل عبد الله وسأله العفو، فعفا عنه وأمره بالركوب.

فركب والتفت به الخيل فأنزل في مضرب عين له، وأمر بثقاف القصر، وخاطب أهل البلد بما أرضاهم من ضمان العدل والرفق وإفاضة الخير، والذب عن الحوزة.

[٢٠٣/ب] وكان خلع عبد الله بن بلقين، حفيد باديس، يوم الأحد لإحدى عشرة / ليلة خلت من شهر رجب سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة.

أيام تميم بن بلقين بن باديس بن حبوس

وكان باديس قد جعل تميماً هذا بمالقة من عمله لنظر رجل من شيوخ صنهاجة لصغره إلى أن بلغ واشتد، وتسمى بـ: المنتصر بالله.

وكان شهماً، شديد الجرأة، بعيد الاعتدال، سيىء الملكة في الرعية. وهو الذي صنع ثريا الفضة بمسجدها وهي باقية إلى اليوم.

إلى أن تملك يوسف بن تاشفين غرناطة واتصلت به الشكوى بتميم من أهل مالقة، وورد عليه الأمير في شأنه أبو المطرف الشعبي وغيره.

فرفع حكمه وأكبله بسبب الشكايات.

ونمى عنه أنه أطلق لسانه عند القبض عليه في جهة السلطان يخصه بالجلاء إلى السوس. وأسكن أخاه عبد الله بمدينة أغمات إلى أن عفا عن تميم فسكن بمراكش، حتى مات بها سنة ثمان وثمانين وأربعمائة.

فانقضى أمر باديس وعقبه على هذا السبيل، والبقاء لله وحده.

أيام شيخ زناتة محمد بن عبد الله الوردسي البرزالي

وكان هذا الرئيس يلي باديس من ملوك البرابرة في جلالة الشأن، وقوة

السلطان، بقية أمراء البرابرة المسلطين في هذه الفتنة وأعظمهم شأناً في الدهاء والرجولة، وأبصرهم بتدبير العساكر، وأربطهم جأشاً على الخطوب المقلقة.

وكان مشهوراً بذخيرة عتيدة من صامت المال، لم يزل يجمعها، حافظاً لها بالبخل الشديد، واستظهاراً بها على الخطب العنيد.

وكان قدوم هذا البيت من زناتة القاطنين بأرض المزيلة والزاب الأسفل العهد لحاق جعفر بن علي أمير الزاب بباب بني أمية، إذ كان هذا البيت صديقاً له وظهيراً، فبنى بهم المكان من بعده.

ولما هلك جعفر أقاموا جنداً على عادتهم إلى حين وقوع الفتنة المعروفة، فكشفوا في الحرب عن أعضادهم، واستقر قرارهم بمدينة قرمونة وإستجة والمدور، وغلبوا على هذه البلاد.

وكانت بينهم وبين جيرانهم من هذه الجهات حروب وخطوب يطول الكلام إن استقصيناها.

وتوفي رئيسهم هذا، محمد بن عبد الله، عن جمع ضخم من قبيل نجيب وخزين من الطعام لم يجمعه أمير قبله في الفتنة، وصار أمره إلى ولده إسحاق.

أيام إسحاق بن محمد بن عبد الله بقرمونة

/ ورأس إسحاق بعد مهلك أبيه وهو في حد الكهولة. [٢٠٤/أ]

وكان مشهوراً بالحزم والكفاية والنباهة والفروسية، يتحلى بشعبة من شعب الكتابة، ويضبط شيئاً من الحساب، ويقرأ الدفاتر القريبة.

وهو دون أبيه محمد في القسوة والفظاظة، وأذهب منه في فرط العصبية. وكلاهما على ذلك موصوف بالعفة والنزاهة والبعد عن آفات الملوك الشائنة مع اشتهارهما بالنكوب عن الجماعة، واعتقادهما بمذهب الناكرين من جوف الأباضية الخوارج لا يستتران بذلك هما وقومهما من بني برزال أعمالهم وأقوالهم في ذلك معروفة.

هذا كلام ابن حيان.

ولم تزل الحروب بينهما وبين جيرانهم من قبائل بني دمر وكورة مورور والمعتضد بن عباد إلى أن ضاقت أحوالهم بقرمونة واضطربوا.

فكاتب رئيسهم العزيز بن إسحاق بعد هلاك إسحاق في خبر طويل إلى ابن ذنون أن يعطيه قرمونة وأنظارها ليتمكن من نكاية عدوه ابن عباد منها، على أن يعطيه المأمون بن ذنون عوضاً عنها في بلاده الجوفية، فاتفقا على ذلك.

وخرج العزيز بن إسحاق عن قرمونة إلى حصن المدور، وقبض رجال ابن ذنون في السر يقول له: إن قرمونة قريب من بلدي وبعيدة من نظرك وبلادك، فاصرفها إليّ واجعل يدي مع يدك على تملك قرطبة حتى أصيرها لك.

وكانت قرطبة أُمنية ابن ذنون عمره، فأجابه إلى ذلك، وتوثق منه، وأخلى له قرمونة. فشحنها ابن عباد بالأطعمة والرجال، ولم يفِ لابن ذنون بشيء مما ارتبط إليه.

وجرت بينهما من الأحداث في أمر قرطبة ما تقدم ذكره في اسم ابن جهور.

ولم يستقل العزيز بن إسحاق بالمدور لضعفه وضيقه، فتلاشى وانقرض أمره.

وهذان البيتان من هذه الطوائف المغربية كانا أشبه بالملوك والأمراء، ويستوي من بعدهما من أمراء البرابرة في الحال.

منهم: بيت أبي ثور بن أبي قرة بن دوناس اليفرني أمير اليفرنيين من بني يفرن.

المتغلبين على كورة تاكرتا لأول الفتنة.

وكان جسوراً بطلاً مقدماً، عِطلاً من كل خلة تدل على فضيلة.

عزيز الجانب ببأس رجاله ووعورة مجاله وحصانة قلاعه، شارعاً في لذاته لا يلين درهماً لحمل على ذاته في الباطل فوق طوقه.

ومنهم: عبدون بن خرزون الزنداجي.

أمير بني أرنيان وبطونهم من القبائل الزنانية المتغلبين على كورة شدونة لأول النازلين بقصبة قلسانة.

قام بسلطانه وراثة من والده أحد أكابر البرابرة المتآمرين لما خرجوا عن الجماعة، وهو فتى دمث أنيق / بكر، عطل من الفضائل لإنصاف...[1] منها خلة [٢٠٤/ب] صالحة، إلا أنه رفق بقومه وأخذ بمعونتهم فاستقاموا له.

ومنهم: محمد بن نوح بن أبي زيري الدمري.

صاحب كورة مورور وراثة عن أبيه وحده.

فتى غِر حديث عهد بالإمارة، جاهل خلو من الفضائل، موصوف بكيس وليانة.

قلت: وجميع من ذكرنا أجمعهم عبد ممسك بمنكب العز والصبر والسلاطة، فأرداهم تارة بالقهر والغلبة، وتارة بالحيلة.

وكان في آخر أيامه قد صرف وجهة السياسة إلى استمالتهم بالصلات والمودة

---

(١) كلمة غير مقروءة بالمخطوط.

إلى أن وجه إليهم بالزيارة ليتجمل بهم، فأتوه في أحسن زي وأفخم أُبهة، وقد كانت تكررت زيارتهم له أفذاذاً قبل ذلك، فجاؤوا إليه مباهين في نحو مائتي فارس من رؤساء قبائلهم.

فأكرمهم وأمر بتطييب الحَمّام لهم وحملهم إليه عبيده، وهم الثلاثة الأمراء المذكورون:

ابن ثور.

وابن نوح.

وابن خرزون.

فلما دخلوا الحمام وقعدوا بإزاء حوضه، أمر، فبنى عليهم خلف دفة الحمام.

ولما فرغ من البناء أمر موقد النار بالزيادة والإلحاح في الإحراق، فالتهب الحمام، ولم يجدوا مخرجاً منه، فكان آخر العهد بهم. وأقام ذلك الحمام عطلاً إلى آخر أيام العباديين.

ووجه العساكر إلى بلادهم فاحتوى عليها، ونزل باقيهم إلى إشبيلية، فصاروا من رجاله.

ولم يبق له معاند إلا ما كان ممن بشدونة وأركس، فإن أميرهم محمد بن خرزون كان قد تخلف عن دعوة ابن عباس، فزاد همه في استئصالهم، وبنى عليهم حصناً شده الخيل والرجال.

وضاق عليهم أمرهم فتطارحوا على باديس بن حبوس، واتفقوا على أن يعطوه قلعة أركش وجميع ما بأيديهم من بلاد شدونة ويبيع منهم طعامهم المختزن بسوم معروف، على أن يعطيهم باديس بلداً يسكنونه تحت كنفه.

فتم ذلك وبعث معهم عسكر، وخرج بنو أرنيال بأموالهم وحرمهم. فكان جملة دوابهم نحو خمسمائة بغل.

وكان بنو أرنيال قطعة كبيرة، فلما أبعدوا عن القلعة التي خرجوا عنها نحو عشرين ميلاً، عارضهم ابن عباد بحصن شاب فوقعت الحرب، فلجأوا إلى ربوة كانت قريباً منهم وحطوا أثقالهم إلى الصباح.

وكان ابن عباد قد أمكن لهم كميناً، فلما حميت الحرب خرج عليهم الكمين وطبوله هادرة، وأعلامهم خافقة، وخيله متناسقة.

فلما رأوا ذلك سُقط في أيديهم، وضعفت قلوبهم، وثاب الظفر لابن عباد فهزمهم، ولم يمعن في إفنائهم.

[٢٠٥/أ] وهلك في هذه الحرب أكثرهم، إذ قاتلوا على أموالهم وحريمهم حتى أُبيدوا، وقتل أميرهم محمد بن خرزون بعد أن أمر غلامه / بقتل امرأته لأنها كانت لطيفة المحل من قلبه، فطعنها بالرمح وهي راكبة فسقطت، وفعل ذلك بأخته.

وقتل قائد باديس الذي كان معهم وركب السيف أعناق من معه.

ودخل ابن عباد قصر أركش وسائر بلاد شدونة، واتصل نظره إلى آخر بلاد غرب الأندلس، وقتل واستأصل شأفة القوم، فلم يبق منهم بالأندلس باقية. فسبحان الحي الذي لا ينقضي شأنه، ولا يبيد سلطانه.

قلت: وهذه جمهرة من رؤساء الطوائف وثوار البلاد بالأندلس من بعد انقراض الدولة الأموية، وعلى حين استقرار الدولة المرابطية، وتغلب سلطانها الأمير يوسف بن تاشفين، خلا الجو من جميعهم، وكان فيهم الفاضل، والمعلوم، والمجهول، كما يكون فيمن كثر عدده.

واختلف في السيرة مقصده، ولا شيء أشبه بالدول كلما ضعفت وتفرقت كلمتها واختلفت، وفي أول أمرها قبل أن تكون وقفت بالأرض المتخذة بالمقلى والخضر والثوار فيها بمنزلة العشب الناجم والبقل الناجم الذي يعدم عند قوة الفلاح واضطلاعه وقيامه على الأرض، واتصال مباشرته وإزالة ما يشوش المزدرع من العشب الغاصب من الحشيش الناصب، فإذا اشتغل عنه لُضعف أو مرض أو قلّة ذات يد، ألفى غالباً على الأرض مهلكاً للفلح مبيداً للمال.

فلم تدع الدولة ذات القبيل والدين الأصيل منهما شيئاً مذكوراً بعد أن شقيت الدنيا بهم دهوراً، ولقي الإسلام بهم وبالاً وثبوراً، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ذكر تصيير الأندلس إلى ملوك لمتونة المُدَّعين بالمرابطين على سبيل الإشارة والإلماع لورود الكلام فيهم بمحله من دار ملكهم بالمغرب إن شاء الله تعالى وذكر ما آلت إليه الحال بالفتنة واقتسام أمراء الطوائف أقطار الأندلس

من لدن تفرق شمل الإسلام، وانشقت عصاه، وتبددت كلماته، لم يكن هم عدو الإسلام إلا استرجاع البلاد والأقطار، واستضافات العمالات، وافتتاح القلاع، والاستيلاء على الثغور، تارة في سبيل المشارطة والاستجارة، وتارة في سبيل المسالمة والمشاركة، وتارة بالغلاب والمنازلة.

وقد وقع من ملوكهم التكالب والتنافس، فصاحب قشتالة وليون يضم ما جاوره ويطويه طي السجل.

وصاحب برجلونة يسري فيما يليه سُرى النار في الهشيم، وحسبك أن هشام بن الحكم، وهو سلالة /الإدة، وبقية الدين والحشمة، والبعيد المرمى من الدنيا، [٢٠٥/ب] خرج في أيام فتنته ومحنته بابن عبد الجبار سليمان على مائتي موضع وحازها العدو، وحينئذ موه بالحركة إلى نصره ولم يفعل، ثم سلك من بعده سبيله إلى أن استولى على طليطلة وما إليها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة وحسبك بها فجيعة وأعظم بها مصيبة.

وملوك الأندلس في غمرتهم ساهون، وعن عواقب الإسلام لاهون، حسبما قال أبو الحسن بن الجد يمدح الأمير يوسف:

وكل يوم غريب فيه معتبر تلقاه أو يتلقانا به خبر
أرى الملوك أصابتهم بأندلس دوائر السوء لا تبقي ولا تذر
قد كنت انظرها والشمس طالعة لو صح للقوم في أمثالها النظر
ناموا وأسرى لهم تحت الدجى قدر هوى بأنجمهم خسفاً وما شعروا
وكيف يشعر من في كفه قدحٌ يحدوا به ملهاة الناي والوتر
صمت مسامعه عن غير نعمته مما تمر به الآيات والسور

تلقاه كالفحل معبوداً بمجلسه لـه خـوار لـكـن حـشـوه خَـوَر
من حوله كل مغتر وما علموا أن الـذي زخـرفـت دنـيـاهـم غـرر
فقل لمن نام: أصبحت، انتبه، فلقد قضى بك الليل نحباً وانقضى السمر
وانظر إلى الصبح سيفاً في يدي ملك في الله من جنده التأييد والظفر
يرعى الرعايا بطرف ساهرٍ يقظٍ كما رعاها بطرفٍ ساهر عُمر
ردوا مـوارد قـد أوردتـم حـنـقـا بها الأنام ولكن ما لكم صَدَر
كأنني بكم قد صرتم سَمراً وما لكم في الورى عين ولا أثر
أماتكم قبل موت سوء فعلكم وكيف بالذكر أن لم تحسن السير

وإلى هذا العهد لم تبق الأنفس خافت، وعدم النصير بالمغرب لتبدد الكلمة، واقتسام أيدي الثوار إياه من ملوك الجزيرتين، والزناتيين، والبرغواطيين، والازداجيين، والمدرارين، إلى أن شاع في المدينة خروج اللمتونيين من الصحراء، واستيلاؤهم على المغرب، وإنها دعوة مبنية على دين متين وتأسيس يفقه، وأنه إسلام جديد.

[٢٠٦/أ] فحدّقت إلى سمته العيون، وصرفت إليه الوجوه / ثم ارتفع إليه الصراخ، ثم أعملت الإشارات، ثم مُدت الأيدي إلى أن كان من تنفس المختنق بمجاورة ملك لمتونة ما كان.

فسبحان من يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: الآية ٤٠].

قلت: ولما استولى ملك قشتالة فونش بن شانجة بن فردلندو على مدينة طليطلة، دار ملك الروم، وعلى الثغر الجوفي، وانضمت له البلاد.

وقد كان والده شانجة، وجده فردلندو قبله راضى له ذلك بما ألقى، فلكلكه على صاحب يحيى بن ذنون الملقب بالمأمون سنة خمس وأربعين وأربعمائة، ونازله وألح عليه.

وضعف أمر المسلمين حتى لم يقدروا إلا على التحصن والاحتجار، وكان من شأن الطاغية أن يترك المسلمين بأحواز الموضع الذي يريد قصده وتجليهم، وما يريدونه من معايشهم، فإذا كثرت الغلات استكثر من الاحتشاد.

وفرض على رعيته أمماً من الفلاحين لضم الأقوات، فحاول منها ما كان المسلمون يستفيدونه لأنفسهم وينقل ذلك على ظهور محلاته ورعيته إلى ثغوره المجاورة لبلاد المسلمين ليميز بها محلاته عند الحاجة لذلك، وضرب الجزية عليهم بما شاءه.

فلما هلك فردلندو، وولى ابنه شانجة، ذهب الناس إجراء عادته من المال.

فقال: إنما كان ذلك الملك لفردلندو وهو ثابت أبداً، حسناته لا يزول، إنما نصالحكم على ما يختص بي، فأضعف له العدد.

ثم هلك شانجة وولي بعده إذفونش ولده هذا.

فسار بسيرة أبيه وأضعف العددين، فكانت الرعايا تتحمل هذه الأموال زيادة إلى أموال الجباية المستقضاة بالعنف التي يقيم منها ملوكهم ما يختص بهم، فضعف الاعتمار، وخلت الديار، وجعل الله بين أولئك الأمراء ملوك الطوائف من التحاسد والتنافس والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات، والعشائر المتغايرات، فلم تتصل لهم في الله يد، ولا نشأ على التعاضد عزم، ولا توجه إلى الاستكثار قصد، إنما كان وكدهم في التماس المحل من وده، وإبراز الفضل من حظوته والتنفق عنده، والترافع إليه، والاستظهار به، وقد قعد للتضريب بينهم والمفاسدة، وأطل بذروة التغلب والتحكم مفتوح اليد مقبول المزايدة، واجتلاب الفائدة، إلى أن استولى على طليطلة كما قلنا، فأفرط في التعاظم، وحق له ذلك بما استروحه من استرجاع ما حازه الفتح الأول، وعرض عليه شيعته يومئذ أن يلبس التاج، ويعيد عادة من سلف من ملوكهم في القديم.

فأرجاهم بذلك إلى أن يستولي على دار ملك المسلمين بقرطبة، وقد حسب ذلك حاصلاً في يده، وواقعاً في مدته.

/ ثم مال على جهة ابن عباد كَبيرهم، يخضل شوكته، ويخطب مملكته، ويطرق [٢٠٦/ب] حِماه، متناهياً في الوعيد، مراسياً إلى المرسى البعيد.

ووصله رسوله اليهودي المعين لقبض الضرائب، وتجريع المسلمين كؤوس المصائب.

فنزل بظاهر إشبيلية في موكب من فرسان سلطانه، وكتاب ديوانه.

وأبرز له المال، فلم يرض عياره، وأقسم أن مولاه لا يقنع في السنة المقبلة إلا بالبلاد، وجمع بلسان الصولة بما ساء ابن عباد.

ولما نُقل إليه كلامه لم يملك زمام نفسه وأمر بالقبض عليه وعلى من معه، وأنفذ الأمر بقتل اليهودي وأسر من معه، وبذل في نفسه أموالاً خطيرة، فلم يصغ إليه وشفى منه نفسه.

ثم خاطب ملك النصارى يشرح له عُذره، وقد أسفه بما لا يقبل العلاج، ولا يعرف الصلاح.

وقام له الأذفونش في ركائبه وصرف عزمه إليه.

وقد كانت الأخبار اتصلت بخروج الأمير يوسف بن تاشفين من الصحراء في أمة جديدة الإسلام، شديدة الاعتزام، مظهرة للقيام بالحق، مجاهدة من زاغ عن الشريعة.

وأنه قد طوع المغرب ورد الكلمة في أكثره واحدة كما قلنا.

فترجح لديه استدعاؤه والاستصراخ به، وعرض ضرورة الإسلام على دينه واستعاضه واستشار أولياؤه في ذلك.

فقال له ولده الرشيد ما معناه:

حاول الأمر مجهدك مع النصراني ولا تستعجل بإدخال من يسلمنا الملك، ويشتت الشمل، فالناس من علمت.

فقال المعتمد: يا ولدي لأن أموت راعياً بالمغرب خير عندي من أن أرد الأندلس دار كفر فتكون اللعنة عليّ من المسلمين أبد الدهر.

فقال: يا أبت، افعل ما أراك الله.

فخاطب المعتمد يوسف بن تاشفين غُرة جمادى الأولى من سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، يستأذنه في القدوم عليه لتعزيز أحوال الأندلس.

ولما ورد عليه الخطاب جمع قومه وإخوته، فقال لهم: ما ترون في هذا الأمر؟

فقالوا: هذا الرجل قد استنصر بنا على عدو الدين، ووجب علينا وعلى كل مسلم نصره.

وقد كان اتصل به من فضلاء أهل الأندلس عبد الرحمٰن بن أسباط، وخدمه ونصحه في أحوال أهل الأندلس، فاستشاره.

فقال له أسباط: الأمر لله، ولكم، غير أن عندي ما تلقيه إليكم وهو أن الأندلس بلد منقطع يعمر منه المسلمون، ويعمر باقيه الروم، فإن جزت إليها وحصلت حكم لم يكن لك شيء في نفسك، وهذا الرجل الذي انتصر بك لم يتقدم بينك وبينه ما يوجب الخجل منه، فاكتب إليه بأن الجوار لا يمكنك إلا أن يتخلى لك عن الجزيرة الخضراء تجعل بها رجالك وأجنادك وعدتك، ويكون الرجوع إلى وطنك بيدك متى شئت.

[١/٢٠٧] فشكره على / ذلك، وأجاب المعتمد، فأذن له في الوصول إليه ويعلن إجابته بما ذكر.

فجاز إليه المعتمد سنة سبع وثمانين[١] بأسطول الأندلس جوازاً فخماً، اختار لمصاحبته في سفره الخواص والأعيان.

---

(١) في هامش المخطوط: تسع وتسعين.

واستخلف ولده الرشيد بإشبيلية وشيعه الناس إلى محل ركوبه البحر، وفي ذلك يقول شاعره، بل بعض شعرائه عبد الجليل بن وهبون في قصيدته التي أولها:

عزم تجدد فيه النصر والظفر وفكرة خمدت من دونها الفكر
عساك خلت عباب الماء من زرد تعود الحوض فيه طرفك الأثِر
أو قلت في الموج خرصان معوقة تحارب الجيش أو مصقولة بتر
هي البسالة إلا أنها شرف تنفي الحذار ومما يؤثر الحذر
لا تحمل الدِّين والدنيا على غرر فليس يحمد في آثارها الغرر
إن كان ثوبك مختصاً بلابسه فقد تعلى من أذيالك البشر

فلما قضى غرضه مشدود اليد بعهده، معلق الآمال بإنجاز وعده، وقفل إلى بلده، تخلى عن الجزيرة الخضراء، بما فيها من بهيمة أنعام، وعلوفة طعام.

وذلك في شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وأربعمائة.

دولة الأمير يوسف بن تاشفين بالأندلس

ولما اجتاز الأمير يوسف بن تاشفين إلى الأندلس، لقي طاغية الروم، وأوقع به وقيعة الزلاقة - منسوبة إلى موضع اللقاء من أحواز بطليوس - ثم عاد بعدها إلى المغرب.

ثم جاز ثانية، ونازل حصن الإبط من كورة تدمير، وتعذر عليه فتحه، فقفل إلى بلاد المراكشية، وقد وجد على ملوك الأندلس واتهمهم بالإغماض في أمره، وداخله الناس في شأنهم، ودست إليه السعايات بهم.

فأعاد الجواز ثالثة سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة، وشرع في خلعهم، فتم له ذلك.

وتوفي سنة خمسمائة.

وولي بعده الأمر ولده علي.

دولة الأمير علي بن يوسف بن تاشفين بالأندلس

فتجددت له بيعة أهل الأندلس وشرع في الجواز إليها أخريات تلك السنة، فباشر أمورها، ورتب أحوالها.

وهلك الطاغية في السنة الثانية لولايته، فتمهدت البلاد.

ثم أجاز البحر / ثانية ففتح مدينة طابيرة. [٢٠٧/ب]

ثم أجاز ثالثة ونازل قسرية، ثم قفل عنها.

وأجاز رابعة لإصلاح الأمور بقرطبة وولي بعده تاشفين غرناطة.

وصنع الله له في الجهاد الصنائع الجميلة، والآثار الكريمة.

ثم استدعاه في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، فولاه عنده.

وتوفي الأمير علي لسبع خلون من رجب سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة.

دولة الأمير تاشفين بن علي بن يوسف بالأندلس

واشتغل الأمير تاشفين عن الأندلس بعد موت أبيه بما دهمه من حروب المهدي واستيلاؤه على المغرب.

فلم يلو إلى الأندلس رأساً، وجاء الضرر من إتيان الهزائم عليه، وتنكيب المراد إياه، فكان ما جرى به الأمر أيام إمارته وجهاده بالأندلس ليقضي الله أمره، إلى أن هلك في السابع والعشرين لرمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة.

وعادت هيف إلى جباتها، وتفرق الكلمة إلى شأنها، وكبحت جُذى الثوار، وأصبحت الأندلس دار البوار، ولله درُّ القائل:

إذا غاب الهزيز الورد يوماً أخو الفتكات والنفس البئيسه

ولم يحم الفريسة مستطيلاً تزاحمت الذئاب على الفريسه

ذكر من كان في أخريات دولة المرابطين اللمتونيين من الملوك والرؤساء والثوار

وتعددت الثوار، والمنتزون في أعقاب هذه الدولة مثل ابن وزير شيخ غرب الأندلس.

وأبي محمد سدران.

ويوسف البطروجي الثائر بلبلة.

وأسيد بن عبد الله صاحب شنترين.

وأبي الغمر بن غرور صاحب شريش.

وابن عياض الأمير بشرقي الأندلس.

وعلي بن عيسى بن ميمون صاحب قادس، الثائر بلبلة.

ومحمد بن علي بن الحجاج صاحب بطليوس.

وأحمد بن حجر.

والشيكياني.

ومدين الدابر.

ومحمد بن المنذر.

وكل واحد من هؤلاء له خبر، ودولة على قدره، وقدر عمله، وما مد الله له فيه من عمل غيه أو رشده.

وإن جئنا نتبع هذه الأشياء خرجنا عما أردنا، فلنقتصر على طائفة فوق هؤلاء في الشهرة، مثل حديث ابن قسي باختصار.

أيام أبي القاسم بن قسي مُدّعي الهداية

كانت ثورة هذا الرجل أول ثورة بالأندلس في أعقاب الدولة المتونية، وتسمى بثورة: / المريدين. [٢٠٨/أ]

إذ كان هذا الرجل شيخاً من شيوخ الصوفية المسمى أتباعهم بغرب الأندلس بالمريدين، وقدره في هذه الطريقة معروف، وله كتاب خلع النعلين وغيره.

وكانت هذه الطائفة قد كثرت يومئذ بغرب الأندلس، سيما بمدينة مثاب، وكثر خوضهم في الكتب التصوفية، وموضوعات الغلاة من الباطنية، والكلف برسائل إخوان الصفا، وأمثال ذلك، وانتشر هذا الرأي بمثلب ولبلة وحتى بلد أبي القاسم أحمد بن الحسن وكثر جمعهم... [(١)] وحذروا صاحب الدولة، فتفرقوا، واستقر نُجَل نحلتهم بالمرية، وكان بها رئيس هذا الشأن ورجالته والمشهور فيه الشيخ أبو العباس بن العريف، فأعلم علي بن يوسف بذلك.

فوجه معن بن العريف، وأبي الحكم بن برجان نظيره في الخلة وغيرهما من أمثالهما، فقربهم.

وكانت وفاة الشيخين بمراكش سنة سبع وثلاثين وخمسمائة.

وكان أبو القاسم بن قيس هذا في زمان فتائه وشبيبته مشرفاً بمثلب من عمل إشبيلية إلى أن ظهر وتصدق بجميع ماله وتطوق على الأندلس، فابتنى رابطة بقرية جلة من قرى مثلب، كان يجمع بها دائرته التي دارت بها على الأندلس، دائرة السوء، وادعى الولاية، وتسمى بالمهدي.

وكثرت مخاريفه، واشتهر عنه أنه حج من ليلته، ويناجي بما يشاء، وينفق من الكون، وتتابع الناس إليه بالرحيل.

(١) كلمة غير مقروءة بالمخطوط.

واتصل به أقوام من أهل البيوتات والأجناد، منهم:

ابن وزير الذي ذكرنا.

وابن عنان فارس جهة قابرة.

ومحمد بن المنذر، من أهل مثلب.

ومحمد بن عمر.

وعبد الله بن أبي حبيب.

وأمثالهم من أعيان ذلك الصقع الغربي واللمتونيون.

وأثناء هذه الحال قد انقطعت عنهم مواد الغرب بما دعته من فتنة المهدي، وأجحفوا بالناس بسبب احتياج بالأندلس.

وتحاملت عليهم الناس، وتوفرت دواعي الشتات بفترة الخوف، واستهدفوا الخلع.

وكثر التعدي في الطرق، والدوائر في السُّبل، والفتك بالرفاق.

وأوعد أبو القاسم بن قيسي إلى أحد طائفته أن ينتهز الفرصة في حصن منتقوط، فاهتبل الغرة فئته.

وتغلب عليه في شوال من عام ثمانية وثلاثين وخمسمائة، وبادره المرابطون بجهته قبل أن يستعد، فأنزلوه منه فقتلوه.

وكان ابن قيسي يغالط أصحابه، ويقول: إنما مثله كالفجر الكاذب، وبعده يطلع الفجر الصادق، ويضح النهار.

ثم خاف ابن قيسي عند القبض على المذكور، فخرج إلى جهة مرتلة من حصون [٢٠٨/ب] الغرب بكورة شدونة، فاستقر عند قوم يعرفون ببني / الشمة.

وكان من أصحابه رجل يسمى محمد بن يحيى، ويعرف بابن القابلة، وكان فريد دهره صرامة، ودهاءً، وشجاعة، وبلاغة، وفضائله مشهورة، وفصاحته مذكورة، رمى به غرضه، وجعله يوسف ثورته، وعضد دولته، وتقلبه وعينه لغدر مربلة يخرج إليها من المكان الذي اختفى فيه ابن قيسي بقرية الجوزة من قطر مربلة في سبعين رجلاً من المريدين.

وكان قائد حصن مربلة قد واعد رجلاً من أهلها على الإتيان إليه في الليل، فرشوه على حال إسهار من أهل الحصن وقدم الوصاية بذلك إلى بوابه.

ونمى إليهم الخبر، فأوطؤوا باتخاذ رفقة صعد بها بعضهم إلى الحصن.

ولم يشك صاحبه أنها رجفة ميعاده الخبيث، ففتح الباب، واقتحم القوم

الحصن، فملكوه، وبادر محمد بن القابلة إلى تسكين الناس وضبط الحصن.

وزحف إليه المرابطون بتلك الجهة، فلم يغنوا شيئاً، وارتحلوا بعد تخريب قطر مربلة، وتداعت عامة ما بجوارها إلى الثورة.

فقام أهل يابرة ملتفين على ابن وزير عميدهم.

وتوجه ابن قيسي إلى مربلة، فاحتل بقصبتها المنيعة، غرة ربيع الأول عام تسعة وثلاثين وخمسمائة.

وبث للحين عقيدته، وتسمى: إمام.

وكتب إلى البلاد يندب الناس إلى الثورة على المرابطين.

واتصل به الأشرار، وأجزل العطاء من غير عمل ولا خراج.

وكان إذا أعطى يحثوا بيده من غير عدد.

وكان أصحابه يقولون للناس: إن المال يتكون عنده إذا فرغ.

ومن النوادر في ذلك:

أن رجلاً من البادية قال لبعض أصحابه وقد أعطاه: عجباً لهذا المال الذي يصل الإمام من السماء كيف عليه طابع المرابطين ولم يكن عليه طابع غير ذلك؟

ونُقل إليه هذا الحديث، فكان آخر العهد بذلك الرجل.

ثم إن بعض أصحاب ابن قسي إذا اختلفوا عليه وفسد ما بينهم وبينه، فنازعه ابن وزير بثلب وأخوه بباجة وصرفوا الدعوة إلى ابن حمدين بقرطبة وقد دعا إلى نفسه وتسمى بـ: القاضي الخليفة، حسبما يذكر.

فعزم ابن قيسي على اللحاق بأمير المؤمنين، فخاطب الأمير عبد الرحمٰن بن علي، فلم يجد عنده قبولاً لتعاليه في الخطاب عليه، وجعل الحظ لنفسه بوصف الهداية بصناعة القوم، فأعادوا واعتذر وتحرك في عقبها، فكان لقاؤه إياه في ربيع الأخرى من عام أربعين وخمسمائة.

وتحفى عبد المؤمن به وأكرم وفادته، ثم انصرف إلى الأندلس بعسكر الموحدين. وهو أول عساكرهم في أكورة تغلبهم حسبما يأتي ذكره.

ثم إنه لما اضطربت الأحوال بالدولة المؤمنية بالماسي مُدّعي الهداية / في [١/٢٠٩] دولتهم. وانتقض عليهم كثير من البلاد، فرجع عن دعوتهم، ولم يكن إلا أن ثاب أمرهم، وقتل الداعي القائم عليهم بمامية.

فتورط بما جناه من القطيعة، واضطر إلى مداخلة صاحب كيرة من النصارى المعروف بابن الرتق، وألطف مُهاداته، ووصل التعلق بحبله على ديدن أمثاله من الثوار.

فقبل الطاغية وبعث إليه بفرس من مراكبه، وترس، ورمح.

وتوقع أهل مثلب محايدة هذه المداخلة فنظروا لأنفسهم في الإراحة منهم.

فشغلوا ولده الحسين بن أحمد بن قيسي بنزهة أهدوها إليه، فأتى بعضهم برجل مكتوف كأنه قبض عليه من الدابرة والأشرار، واستأذنوا على مقدم الحرس، فعندما دخل إلى البلد يستأذن في أمره، فتحت الطائفة الحصن فقتلوا أحمد بن قيسي، ورفعوا رأسه على الرمح المهدى من قِبل الروم.

واستقل ابن المنذر بثلب إلى أن صيرها إلى ملك الموحدين في خبر يطول شرحه.

وكان قتل المذكور في جمادى الأولى من سنة ست وأربعين وخمسمائة، وخبره يقتضي طولاً، وما صدر عنه من الرسائل في مخاطبة أهل الأندلس، وما تضمنت من المخاوف والدعوة مذكور.

ومن شعره في عرض ما كان بسبيله:

إذا صفر الإصفار جاء فإنما ... يجيء بهول ما يمر وما يُجلى

وشهرا ربيع فيهما كل آفة ... وعند جمادى ينقضي أمد الخَيْلِ

ومن شعره، وكان يقول: أنشدني ربي في المنام:

أرد وعلى قوس العلى أوتاره ... وارم العِدَا سهامها العقاره

وانفض يديك بشلب مفتاح ... البلادْ المنجبات وأمها المختاره

ويكون ذاك إذا تكاثرت العِدا ... وتملأ فتن الجبال نصاره

ولما نقد عليه قوله «في نصارى نصاره»، غضب وقال: كذا قال لي، قل: نصاره. فمضى على هذا السبيل.

أيام أحمد بن خمدين الأمير القاضي بقرطبة

وهو أحمد بن محمد بن أحمد التغلبي.

دخل الأندلس جدهم في مطالعة بلج فنزل بساغة وبها تناسلهم.

ولي القضاء بعد أخيه بقرطبة سنة تسع وعشرين وخمسمائة، وعزله الأمير علي بن يوسف.

فلما ثارت العامة بقرطبة، واستطالت الأيدي لضعف قاضيها أن ذاك أحمد بن رشد، اضطر أبو جعفر بن حمدين إلى الخروج لردع العامة وتسكين الثائرة / ...[1] [٢٠٩/ب]

(١) موضع النقط كلمة غير مقروءة في المخطوط.

في صدره الأمر الذي برز فيه، فظهر يومئذ، وفَرّ ابن رشد مستعفياً عن القضاء.

وتعطلت الأحكام بقرطبة أزيد من سنة سخطاً من الأمير على أهلها، ثم أذن لهم في اختيار قاض، فاتفقوا على ابن حمدين هذا سنة ست وثلاثين وخمسمائة، واستمر على القضاء إلى سنة تسع وثلاثين.

وثارت العامة بوالي البلد الرئيس أبو عمر اللمتونين، وخلعوا دعوة الملثمين، واتفقوا على مبايعة القاضي أبي جعفر بن محمدين، فبايعه الخاصة والعامة بالمسجد الجامع بقرطبة خامس رمضان من سنة تسع المذكورة. وسكن قصر الخلافة وتسمى بأمير المؤمنين، وناصر الدين.

وزحف إليه أحمد بن عبد الملك بن هود المستقر عند صاحب قشتالة، حسبما وقع ذكره في دولة بني هود، وكان قد بلغ زمن الشيخوخة عند العدو، فأقبل إلى قرطبة.

فداخل العامة وفر عنها اثني عشر يوماً، وعاد إليها ابن حمدين من مستقره ببعض الحصون، فاستقام له الأمر، ودوّن الدواوين، وجند الأجناد، ورسم الخطط، وخاطب العُصاة بالأندلس، فاستقلوا ببلادهم، واعترفوا ببيعته، واستمرت أيامه أحد عشر شهراً. ثم دبر في حساءه المكيدة عليه.

فكتبوا إلى يحيى ابن غانية عميد العصابة اللمتونية، وهو مدار ملكهم بإشبيلية. فتحرك إليهم في جمادى الآخرة من عام أربعة وخمسين، وبرز ابن حمدين إلى لقائه. فالتقيا بأحواز إستجة فكانت على ابن حمدين الهزيمة، واتبعه ابن غانية فدخل قرطبة في الثاني عشر لشعبان من السنة.

وفرّ ابن حمدين إلى بطليموس، فأجازه صاحبها، ثم تدرج إلى أن لحق بحصن الدوجر المجاور لقرطبة.

وتحرك ابن غانية إليه فنازله، ووصل حصاره نحواً من شهر إلى أن استصرخ ابن حمدين طاغية الروم، ووعده بما أطمعه، فحث إليه السير، وتخلصه، وقفل ابن غانية إلى قرطبة، وأخذ ابن حمدين أثره بالنصارى، فدخلها عاشر ذي الحجة سنة أربعين.

واعتصم ابن غانية بالمدينة بعد أن عاث الروم في شرقيها بما هو معلوم.

فذكروا أنه في مدة محاصرة الطاغية لابن غانية بقرطبة، اتصلت الأخبار بصاحب قشتالة بما كان من جواز جيش الموحدين إلى الأندلس، وظهور دعوتهم بإشبيلية، فاقتضى رأيه ورأي أرباب الشورى من قومه أن يستعفي ابن غانية ويهادنه، وينصبه سداً في وجه القوم.

فترددت بينه وبين ابن غانية المحاورة، وتم له الغرض على شروط من مال، وبلاد، التزمها ابن / غانية وأقلع عنه. [٢١٠/أ]

وانصرف ابن حمدين خائفاً في ظل صاحب قشتالة، فأقام بحصن...(١) وقصر عبد المؤمن بن علي، فأقبل عليه، وأحسن وعده، واستعجل الرجوع من عنده، فاستقر بمالقة، وقد ثار بها حليفه، وصنيعه، أبو الحكم بن حسون قاضيها.

واستجمع بها، والتف بصباحته، ونهض إلى قرطبة، فبان وهنه وأخفق مسعاه، فعاد إلى مالقة أدراجه.

وساعد ابن حسون بها على مخالفة المؤحدين فدعا إلى نفسه.

وتوفي أحمد بن حمدين بمالقة في التاسع عشر لرجب سنة ست وأربعين وخمسمائة، ودفن بقبلي مسجدها.

ولما استولى الموحدون على مالقة نبشوا لحده، وصلبوه، وهو بحاله لم يتغير بعد عشرين شهراً.

وزعم بعض المؤرخين أن المنجمين في زمانه حكموا على مولده بأنه يصلب، وكان الحديث بذلك فاشياً بين أعدائه بقرطبة، فصدقت الأيام لكن بعد وفاته، تجازى الله تعالى عنه.

أيام أبي الحكم بن حسون الأمير القاضي بقرطبة

هو: الحسين بن الحسين بن عبد الله ابن الحسين الكلبي بن حسون، اشتهر بكنيته.

قال ابن خميس في تاريخه:

كان أبو الحكم قد نشأ على صنيع سلفه في الوجاهة، والنباهة، وعلو المكانة، وشرف الذات، وبعد الصيت، وطلب العلم.

وولي القضاء بمالقة عند إعفاء قاضيها أبي محمد الوحيدي سنة ثمان وثلاثين.

ثم دعا إلى نفسه لما تكاتبت القضاة، واستبد، وحصر اللمتونيين بالقصبة إلى أن أنزلهم منها بعد ستة أشهر، وتملك القصبة، وانتقل إليها.

وتسمى بالأمير، وأقام سالكاً طريقة القضاء مع الإمارة.

وقلد أخاه أبا الحسن جيشه، وولاه بلد قرطبة وما إليها.

وله بخارج مالقة من الآثار ما يشهد بجلالة قدره.

---

(١) موضع النقط كلمة غير ظاهرة لاختلاط المداد.

وألح عليه من يجاوره من المرابطين بالتغيرة وغيرها، فواصلوا الغارات عليه حتى ألجأه ذلك لاستدعاء جيوش الروم، ولزمه المال، فأضاق الرعية بما كرهوه لأجله، وشرعوا في التدبير عليه، فداخلوا رجلاً شهماً من خدَّامه كان قائد الرجال ببابه يعرف باللوشي وتواعدوا معه على يوم معلوم ثاروا فيه.

وتغلب المذكور على الأبواب، وملك القصبة، وسد ابن حسون على نفسه القصر، وقاتل عنه، فلما أيقن الهلكة، وقد قتل أهل البلد أخاه عند الهيج والثورة، ذهب إلى قتل من بداره من بناته غيرة عليهن، فامتنعن في الغُرف والبيوت.

/ واشتد الأمر، فأطلق النار في كتبه وذخيرته، فأحرقها. [٢١٠/ب]

ثم شرب سماً، فلم يفعل فيه، فدق رمحاً، وتحامل على سنانه إلى أن خرج من ظهره، ولم يجهز عليه، ودخل القصر، فوجد مشحطاً في دمه يجود بنفسه، ثم مات ليومين.

وكان ذلك يوم السبت الحادي عشر من ربيع الأول عام ثمانية وأربعين وخمسمائة.

وصلبت جثته، وحُمل رأسه إلى مراكش. واستولى الموحدون على مالقة بعده، وبيع بناته وأهله، وتسرى بعضهن جلة من أهل الدولة.

كتب الله لنا حُسن العاقبة.

أيام القاضي أبي مروان بن عبد الملك بن عبد العزيز ببلنسية

ولما استقل ابن حمدين بقرطبة، ثار الناس ببلنسية، وخلعوا الموحدين، واجتمعوا إلى القاضي ابن عبد العزيز بها، فالتزم بيعتهم بعد نقار وتوقف، ولم يسعه إلا القيام بالأمر.

وقد كان الموحدون لجأوا إلى معقل شاطبة، فاحتشد ابن عبد العزيز، وتأهب لنزولها، فكان ذلك يوم الجمعة الثامن عشر من شوال سنة تسع وثلاثين.

ولما ضاق بأهل شاطبة الحصار، وأعوزهم الغوث، اهتبل الغرة عبد الله بن حمدين ابن غانية، فخرج في طائفة قليلة من أنجاد قومه، وتعرف بذلك، واتبع أثره، فنجا وحده، وقصد الساحل.

فذكروا أنه صانع صياداً للحوت ببعض آلته وركب حفته، فأوصله إلى أحواز المرية، فقصد بها القائد محمد بن ميمون صاحب الأسطول، وصنيعه الملثمين، وقد كان رباً لهم، وأمسك بدعوتهم يجهره إلى مدينة ميورقة، فألحقه بأبيه حمدين ابن غانية.

ومن هنالك تأثلت بميورقة العصابة الميورقية التي شعب فيها عبد المؤمن.
وتملك ابن عبد العزيز شاطبة وانضاف إليه لقنة وما إليها، فضخمت جملته، واتسعت طاعته إلى أن ضاقت جبايته وكرهته رعيته.

وثار به الجند في الخامس والعشرين لجمادى الأولى من سنة أربعين وخمسمائة.

فصابرهم إلى الليل وترامى من السور، فذهب لوجهه، وتلاعبت به الأيام إلى أن توفي مسرفاً بمراكش سنة ثمان وسبعين وخمسمائة.

أيام عبد الرحمٰن بن رشيق بمرسية وما إليها

قد تقدم درة من حديث ابن رشيق، وابن عمار. وهو أن المعتمد بن عباد لما وجه إلى مرسية وزيره محمد بن عمار عندما دخلت في طاعته، فتملكها.

وتقبض على عبد الرحمٰن بن طاهر، أميرها خالف المعتمد، واستقل بنفسه.

[٢١١/أ] وفر ابن عمار إلى ابن ذنون. فلما شرع ابن عباد في مطالبته وشكا أمره / إلى الأمير يوسف بن تاشفين، وقد جاز إلى الأندلس المرة الأولى بإذن ابن رشيق بتصيير المدينة إلى طاعة الأمير يوسف، وخطب له بمنابرها.

فلم يسع ابن عباد المراجعة، ولا فصل يوسف بن تاشفين الخطة.

فلما قفل إلى مراكش انتهز ابن عباد استكانة الطاغية، وتحرك طمعه فيما بيد ابن رشيق، فحشد من بعمالته، واستكثر واحتفل، واستضاف من بقرطبة من جيش ولده، وأعمل السفن مورياً بغزو حصن البط من حصون النصارى المجاورة لمرسية ونزل بساحة ابن رشيق.

فاحتفل ابن رشيق في بره وضيافته وجاهره بالاستبداد، ولم يلقه، فتلوم المعتمد أياماً، ولما يئس منه رحل عنه بعد أن قنع منه بضريبة يؤديها إليه مساهمة، وخيل يجهزها إليه عند الحاجة. وأقام ابن رشيق بمرسية.

فلما جاز يوسف بن تاشفين في المرة، ونزل حصن البط من حصون الروم بجهة مرسية، وحضر عنده أمراء الأندلس، شكا ابن عباد بابن رشيق، وحضر فاحتج عن نفسه ووجب الحكم الشرعي عليه، فأمر بإسلامه إلى ابن عباد، فأنفذه في حكم الشقاق إلى الورقة، وانتزاء قرابته وأهله بحصون مرسية، فانقطعت الميرة، وساءت حال المحلة فأقلت.

ونقل ابن رشيق إلى الاعتقال، فبقي بها إلى أن دخلها الملثمون على ابن عباد، فخرج من ثقافة.

أيام الأمير القاضي أبي عبد الله بن أبي جعفر بمرسية

هو: محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن موسى الخشني.

وكان من أهل البيوتات الكبيرة بمرسية، استقضى بها، ثم تقلد رئاستها عندما أقام ابن أحمدين بقرطبة أواخر سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، فضبط الأمور بها مشاركاً فيها لقائدها المعروف بالثغري.

وتغلب على الريولة وجهاتها، فلما تمكن من أمره قبض على الثغري، وقد ضاق وسعه عن مداراته، فكمل استبداده، وظهر للمتونيين على أموال استعان بها.

ولما ثار ابن أضحى بغرناطة، واستعصى عليه أمر الملثمين بقصبتها، استصرخ بابن أبي جعفر هذا، ووعده بما أطمعه، فتحرك نحوه في عسكر وافر ينيف على ألفي فارس منهم أعلام فقهاء الشرق وكُتابهم وشعراؤهم.

وكانت بينه وبين جيوش الملتونيين المصحرين إليه وقيعة عظيمة بظاهر المدينة، صدقت فيها عليه الهزيمة يوم الجمعة لثلاث خلون من شهر ربيع الأول عام أربعين وخمسمائة.

وذكر بعضهم: أنه كان لا يثبت على الظهر، يسقط عند الركض، وسمعه بعض الجند يخاطب طبالاً يقول له: / اضرب الطبل فإن فيه مهابة. [٢١١/ب]

فكان الجنود بعد ذلك يعبثون بقوله.

وجز رأسه وأدخل المدينة وانقضت حاله هذه.

أيام أبي أمية أحمد بن عاصم الأمير القاضي بأريولة

وهو: أحمد بن عبد الرحمٰن بن علي بن عبد العزيز بن سعيد بن عاصم.

أحد الرؤساء الحسباء أولي السلف والنباهة المتداول للقضاء، ثم الإمارة، تام برئاسة بلده للعهد المذكور.

وقصده الناس، وامتدحوه، وأشادوا بذكره حسبما يظهر من شعر أبي بكر بن جبير في مدحه في القصيدة الشهيرة التي يصف فيها الصيد والجوارح، التي أولها:

يعز بك الإسلام والدين والفخر   وتخدمك الأقلام والبيض والسمر

وهي شهيرة.

واتصلت الرئاسة في عقبه إلى أن تغلب الروم على البلد في الدولة النصرية.

ودخل غرناطة من ولده الرئيس أبو الحسن حجل وكانت مجالس السلطان بغرناطة غرب الزي والوقار.

حسن الخط، جميل الرواء.

وكانت وفاته بغرناطة سنة ست وسبعمائة.

أيام القاضي المتأمر يوسف بن عبد الرحمٰن بن جُزي

وهو رأس الفتنة بجيان.

وهو المدعو بالرئيس أبي الحكم.

وكان عنده حظ من الطلب وخَط حسن.

توفي سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

وعندي أن القاضي المتأمر بها غيره.

أيام الأمير أبي عبد الله محمد بن سعد الجذامي بن مردنيش أمير شرق الأندلس

كان أبوه سعد أمير أفراغة وما والاها من ثغور شرق الأندلس، وكان ما تقدم به التعريف من منازلة ابن رذمير إياه بإفراغة، وأخاف الله الطاغية في مناخه بظاهرها على يد يحيى ابن غانية بعد أن أشقى عليها.

فظهر من سعد، رحمه الله، في ذلك اليوم وقبله من الصبر وحسن البلاء ما اشتهر به ذكره وعلا صيته.

ثم أن محمداً ولده هذا خب في الفتنة، وأوضع بما كان من مصاهرته ابن عياض، فأعد السير إلى محل كورته مرسية وما إليها فملكها في العشر الوسط من جمادى الأولى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة.

فثبتت قدمه في الرئاسة وخلصت ضمائر الجند.

وصاهر إبراهيم بن همشك أول ثورته على بنت إبراهيم، فاستقام الأمر وتمت / المعاضدة، وبادر بتوجيهه إلى الطاغية، فصعد سلماً على ما بيده من البلاد حين مناب صهره ابن همشك فيه. [٢١٢/أ]

ونجحت وساطة، فأمن الشرف، ورغب أهل الحصون والقلاع في طاعة ابن سعد فعظم أمره، واشتهر ذكره وخطب مسالمة عدو الله برجلونة، فتمت كذلك الأربعة أعوام على ضريبة مائة ألف مثقال.

فلما صفا له الشرق، وثار عليه أصهاره بنو هلال، يوسف بن هلال بحصن مطرنيش فأقام الفتنة على بلنسية، وأخذ حصن الصحيرة، وتملك مربلة، وأوقع بابن

مردنيش وقيعة انهزم ابن مردنيش بها، ثم استرجع، وساعده الجد في جزيرة جهزها ببعض الأطراف للضرب على مربلة، موضع يوسف المذكور، وافقت البابس متوجهاً في خويصته إلى بعض الحصون بمملكته فأخذه أسيراً وأسرع به إلى مربلة، وأمر بمخاطبة زوجه في التخلي عن الحصن وإلا نزعت عينه.

فلم تصدق الوعيد ففقئت عينه بعود من الأرض بعد أن تلكأ.

فكان محمد بن سعد غريب السيرة في الثوار، كان عظيم القوة في نفسه، شديد الأسر في تركيب بنيته، أصيل الشهامة والفروسية، ينام كبار الأبطال ومشاهير الفرسان، ومساعير الحروب، فيعاقرهم الخمر ويعاطيهم الكأس، وربما هزه الارتياح فأفضل حتى يأتيه شرابه.

وفرش مجلسه وانهمك، فكان يراقد أزيد من مائتي جارية تحت لحاف واحد. ومال إلى اتخاذ زي الروم من لباس الضيق، وركوب البراذين المماليح، واتخاذ السروج الضخمة القرابيس، واستعان بهم على تدبيره، ورتب منهم أعواناً وجنداً أفرد لهم بمرسية منازل فيها الحانات والبيع.

واضطر إلى المال فتحيف على الرعية بكل وجه من وجوه الجور، واستكثر من القيالات. ورسم بدائع المكوس، وقرر في المواشي عدداً يلزم المسن، وفرض على الأم الأدم والبقول والحبوب معاون كثيرة ثقيلة تقارب أصول الأثمان.

وتحرك محمد بن مردنيش إلى بلاد الموحدين فتغلب على جيان وأيده، وطاعت له بيامه، ونازل قرطبة، ثم إشبيلية عام أربعة وخمسين وخمسمائة.

وألح بالضرب على قرطبة حتى لجأ محاول الفلاحة إلى حرث منزله بداخل الحضرة.

وتملك بمدينة استجة، وحاول له دابر يعرف بابن شراحيل غزو قرمونة، فملكها. وجهز إليه الموحدون الجيش، ففرّ من بالحصن لقصبتها، فخيم بإزائها، واستنزل الموحدين من قصبتها على حكمه.

وفي حملته الأولى من عام سبعة وخمسين، وجه صهره القائد أبي الحسن بن همشك إلى محاصرة / غرناطة، فدخلها ليلاً. [٢١٢/ب]

وامتنع الموحدون بقصبتها، فعرض عليه ضروب الحرب، وتحرك إليها أبو سعيد بن الخليفة بجيش من الموحدين، ومعه والي إشبيلية أبو محمد بن أبي حفص.

فكان اللقاء بظاهر غرناطة بالموضع المعروف برج الرقاد، فانهزم الموحدون أقبح هزيمة، وتمادى الحصار بمن في قصبة غرناطة.

وتجدد العزم على تجهيز جيش الموحدين لإطراح من بها، فكان كذلك،

فتوفرت العساكر بمالقة وتسامع بذلك ابن مردنيش، فأمد صهره بنفسه، ووصلت الجيوش الموحدية، فاضطربت فرار من بظاهر غرناطة، وبيت جيش ابن مردنيش، فانهزم مع الفجر من تلك الليلة فلم يثن عناقاً، وكان الموحدون أملك بالحضرة.

ثم أخذ أمر ابن مردنيش في الإدبار، فكانت عليه للموحدين هزيمة بحصن اليدون يوم الجمعة السابع من ذي الحجة عام ستين، ونازلوا مرسية، ثم أقلعوا عنه.

وفسد ما بينه وبين ابن همشك بسبب بنته الكائنة تحته، فاختل أمره.

ومال ابن همشك إلى الموحدين، وتوالى عليه الحصار، وأدركه الجهد، ولزمته الشكاية، فقضت عليه عقب انصرافه من منازلة جزيرة شقر بادر عنه بإقلاع السير عنه، وعجز عن قتالهما.

فكر إلى مرسية، فتوفي عاشر رجب من عام سبعة وستين وخمسمائة.

واستوثقت طاعة الموحدين بالشرق، وشملته دعوتهم.

أيام يوسف بن هلال صهرا ابن مردنيش

كان يوسف بن هلال، صهر الأمير، شجاعاً حازماً أحظاه الأمير محمد، وظاهره، وجعل لنظره حصن مطريشة، ومواضع كثيرة، وفسدت بقبض عليه ونكبه وعنف به واستخلص فكان نظره وتركه، فأعمل الحيلة ولحق بمريولة وثار بها، وعاقد صاحب برجلونة على تصيير ما يملكه إليه، فأعانه عيل من النصارى لم يزل يضرب بها على بلنسية ويشجي أهلها، وتملك الصحرة والصحيرة وأوقع بابن مردنيش وقيعة انهزم ابن مردنيش فيها، ثم استرجع ابن مردنيش، وساعده الجد في جزيرة فيل وجهها ببعض الأطراف للضرب على سربلة موضع المذكور، فلقيت البائس بن هلال متوجهاً في خويصته إلى شنظبيطور فقبض عليه وسيق إلى ابن مردنيش، فانتزع عينه من ذلك، فأمر ابن مردنيش فأخرجت عينه بعود، وطلب بإخلاء الحصن فدعا بزوجته أو تُخرج عينه الأخرى، فحمل على التكذيب / ولم يجبه أحد، فأُخرجت للحين عينه [٢١٣/أ] الأخرى، وسيق إلى شاطبة فبقي بها إلى أن مات سنة ثلاث وأربعين وستمائة. وقد تكرر بعض حديثه.

أيام المتأمِّر إبراهيم بن أحمد بن مفرج بن همشك

وكان جد إبراهيم مفرج أو همشك نصرانياً مقطوع أحد الأذنين، أسلم، وكان معروف الشجاعة، إذا رآه النصارى في الحرب قالوا: ها معك، ومعناه: مقطوع الأذن.

وكان إبراهيم دليلاً بالأرض وفارساً نجداً، خدم مع النصارى، وتقرب إلى ابن غانية بقرطبة، وسافر رسولاً بين ابن حمدين وملك قشتالة، إلى أن تمكن الانتزاء بحصن شقوبس.

ثم تغلب على شقورة وتملكها فغلظ أمره وساوى محمد بن مردنيش وداخله حتى عقد معه صهراً على بنته، فاتصلت به الرياسة والإمارة، وكان سيفاً لصهره سلطاً على من عصاه إلى أن فسد ما بينهما، وخدم الموحدين آخر أيامه فكان أدعى الأسباب إلى خروج الأمر عن ابن مردنيش.

وكان إبراهيم همشك جباراً قاسياً فظاً غليظاً عظيم الجرأة والعبث بالخلق، يحرقهم بالنار، ويطرحهم من الشواهق، ويفصِّل أعضاءهم بحال الحياة.

رآه بعض الصالحين في النوم وسأله عما فعل الله تعالى به، فقال:

من سره العبث في الدنيا بخلقه   من يصور الخلق في الأرحام كيف يشاء

فليصبر اليوم صبري تحت بطشه   معللاً يمتطي جمراً لقضا فرشا

وكان قدومه على مراكش أوائل عام أحد وسبعين وخمسمائة، وأسكن مكناسة، ثم هلك بها عن قريب من هذا التاريخ.

أيام أحمد بن ملحان بوادي آش

كان أحمد بن محمد بن ملحان الطائي الوادياشي معروف الكفاية مضطلعاً بالعمل. فلما دعا ابن حمدين إلى نفسه واقتدى به غيره، ثار بوادي آش، وغلب بالمتأيد بالله وحصن القصبة، وأخذ بالعزم، ولم يكل أمره إلى غيره، وخاض به الفتنة خوض الجرأة، فأتى على كثير من الأنفس والأموال، واقتنى كثير من الأموال والذخيرة، واستعان على فتاه بالفلاحة وإثارة الحرث فكان أغنى أهل زمانه.

وظهر على كثير مما يجاور بلده كمدينة فسطة وبها اليوم له عقب.

واستخدم جملة من مشاهير أهل العلم والأدب، كأبي بكر بن طفيل، وأبي الحكم / هردوس. [٢١٤/أ]

ودخل في طاعة الموحدين لما ضيق به ابن سعد وطمع فيما بيده. وكان خروجه إليهم عنها سنة ست وأربعين وخمسمائة. واستعمل بمراكش في اشتغال البحيرة وبنائها وإجراء مائها. ونكب، وجرت عليه محنة استهلكت ما بيده. وتوفي بمراكش على هذا السبيل.

فهذا ما حضر من مشاهير الثوار بأعقاب دولة اللمتونيين على الاختصار.

ذكر تصيير الأندلس إلى ملوك عبد المؤمن المدعويين بالموحدين على سبيل الإلماع والإحالة

إذ الكلام يستوفى عند ذكر دولتهم بالمغرب، إن شاء الله تعالى.

قلت: ولما اضطرب أمر المرابطين من لمتونة بالأندلس، وضعفوا وكثرت الفتن والثوار، واغتنم العدو ذلك، فاستولى على البلاد.

واستمر ظهور الدولة المؤمنية والطائفة المهدية بالمغرب، وافتتحوا دار الملك مراكش، واستأصلوا أرباب الأمر، وتعلقت آمال المسلمين بهم، واستصرخهم الناس، وثاروا بمن ببلادهم من المرابطين سوء جوار، وحباً في الإدالة، وتبدل الملوك، وقل أن رأوا أيالة أنفع أو أجرى في قتال العدو من لمتونة.

فأجابهم صاحب الدعوة الأمير عبد المؤمن بن علي، فبعث إليهم جيشه لنظر إبراهيم بن بدار المتوفى في شعبان من سنة إحدى وأربعين وخمسمائة.

دولة الأمير أبي محمد عبد المؤمن بن علي بالأندلس

ولما أطاع عبد المؤمنين بن على الكثير من البلاد الأندلسية بجهة الغرب إشبيلية وتريش ولبلة تحرك إلى الأندلس في ذي قعدة من عام خمسة وخمسين وخمسمائة واحتل بجبل الفتح في الشهر المذكور ووفد عليه أهل الأندلس، وأنشدته الشعراء، وفي ذلك يقول أبو عبد الله بن صاحب الصلات:

تلألأ من نور الخلافة بارق ... أضاءت به الآفاق والليل غاسق

وأشرقت الدنيا به فكأنما ... من البشر في كل الجهات مشارق

وفي ذلك يقول أبو عبد الله الرصافي شاعر الأندلس في وقته قصيدته الشهيرة التي وصف فيها جمل الفتح وهي:

لو جئت نار الهدى من جانب الطور ... قبست ما شئت من علم ومن نور[1]

---

(١) ساق بعده قصيدة طويلة قاربت على الستين بيتاً، وقد اختصرها وهي في الثناء والإطراء، وقد ساقها لكونه مشتغل بالأدب، بالإضافة لما معه من علوم التواريخ، وقد استغرقت القصيدة الورقة [٢١٣/ أ، ب]، ونصف الصفحة [٢١٤/أ] فتركت القصيدة لسوء خط المخطوط، وعدم الفائدة التاريخية من ذكرها ومجالها كتب الأدب ودواوين الشعر.

....../..... ولما قضى وطره من إصلاح أحوال الأندلس والنظر في [٢١٤/ب] مهامها وحسم مخلاتها.

وقدم أولاده بقواعد الأندلس قفل عنها إلى مراكش لتوطيد ملكه وقد اتصل به ما أوجب ذلك.

فتوفي رحمه الله ليلة الخميس عاشر جمادى الآخرة من سنة ثمان وخمسمائة.

وعهد إلى ولده يوسف.

دولة الأمير يوسف بن عبد المؤمن بن علي بالأندلس

وكان ملكاً كبيراً، جاز إلى الأندلس، واستخلص بلاد سعد بن مردنيش، وفتح حصن بلج من حصون الروم، وانصرف إلى المغرب بعد أن قرر أموراً بالأندلس.

ثم جاز في سنة ثمانين وخمسمائة ونازل مدينة شنترين، فأصيب بجراحة من قِبل حامية النصارى فلم تخطه فكانت منها وفاته بمحلة غزاته ليلة الثامن والعشرين من ربيع الآخر سنة ثمانين وخمسمائة. وقام بأمره ولده يعقوب.

دولة يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بالأندلس

وكان ملكاً جليلاً فاضلاً ورعاً، فتح البلاد الإفريقية، واستخلص ميورقة، وأوقع بطاغية الروم الوقيعة العظمى المنسوبة إلى الأرك. بلغ عدد القتلى بها ثلاثين ألفاً.

/ وواصل الغزو، وعقد الصلح، واستأثر الله به في ربيع الأول سنة خمس [٢١٥/أ] وتسعين وخمسمائة. وولّي بعده ولده الناصر.

دولة محمد الناصر بن يعقوب بن عبد المؤمن بالأندلس

وكان ملكاً كبيراً فتح ميورقة ثانية من يد الميورقي.

وتحرك إلى إفريقية، فدوخها ومهدها. ثم قَفل إلى الأندلس، وعظمت نكاية العدو، والتقى بملك النصارى معلوب ابنه يوم الأرك، فكانت على المسلمين الهزيمة الكبرى المنسوبة إلى العُقاب. ولم تستقل الأندلس بعد هذه العثرة. وكانت يوم الاثنين الثامن لصفر سنة تسع وستمائة.

وجاز إلى المغرب واحتشد واستكثر ولم يبق غاية، وعزم عزماً لم يتقدم لملك قبله إلاّ أن الدهر قطع عليه أمله فتوفي في شعبان من سنة عشر وستمائة، ولم يعد بعدهم إلى الأندلس أحد من ملوك الموحدين إلى أن انقرضت أيامهم.

فينبغي أن نقف عنده، ونستوفي من بقي من أملاكهم بموضع ذلك من الكلام في ملوك الغرب فلينظره هنالك من أراد.

ذكر الثوار والطوائف والمتمكنين من بعد دولة الملوك آل عبد الرحمن بالأندلس

قلت: وقد كانت أيدي هذه الدولة المؤمنية أنقت الأرض من عشب الثوار، فلم تترك منها عيناً إلاّ صيرته أثراً، ولا خبراً إلاّ وردته خبراً.

واتفقت الأمة على دعوة واحدة، ثم أنهم ضعفوا، واختلفوا.

ولو شاء الله ما اختلفوا فثارت الثوار، وكثرت الغوار، واستعلت، واشتعلت للفتن النار، وطوت البلاد طيّ اليد ودّ الكفار.

فكان على آخر هذه الدولة منهم من يذكر.

بقية أخبار بني مردنيش بشرق الأندلس

ولما فرط الأمر بطهور محمد بن سعد بن مردنيش ووقعت بينه وبين الموحدين الحروب المشهوة. جاز البحر الأمير أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن إليه سنة سبع وستين وخمسمائة، وكان قد فسد ما بين ابن سعد وبين خُدامه وكثير من قرابته، فاضطرب أمره.

وكان قد أركب النصارى واجتاح لهم مالاً ضاقت عنه جباية.

وفرعنه أخوه الرئيس أبو الحجاج بن سعد ففسد فكره وساء ظنه، وأوقع بوزرائه فهلك بمرض الذبول في رجب هذا العام.

[٢١٥/ب] وتولى الأمر بعده ولده أبو القرا/ هلال بن محمد بن سعد.

وبادر بالتخلي عن مرسية والإذعان للأمير أبي يعقوب بالطاعة فوجه الأمير يعقوب إلى مرسية السيد أبا حفص أخاه، وقدم هلال بن محمد إشبيلية مستهل رمضان من السنة.

فذكروا: أن الأمير محمد بن سعد لما يئس من نفسه، وعلم بتصير ملكه إلى الموحدين، أشهد على نفسه بإيصاء يوسف بن عبد المؤمن عدوه على ولده وأهله ورغب منه في قبول ذلك، وجلب إليه ولده بعد موته.

فرق لهذا القصد الأمير أبو يعقوب واهتز لرعي هذه الوسيلة، فتزوج ابنة أبي

عبد الله بن سعد وخلط أهله بنفسه وأورثهم ذلك ملك البلاد الشرقية زمناً غير يسير.

وكان أعرس ببنت ابن سعد ليلة السبت الخامس لربيع الأول من سنة سبعين وخمسمائة.

وولع بها وتغلبت عليه حتى كان الناس يضربون المثل بحب الخليفة بالزرقاء المردنيشية.

واتفق لقومها من البخت بسببها ما لم يتفق لثائر ولا مخالف ملك من إعادته إلى ملكه فأنفذ تقديم الأمير أبي الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش على بلنسية وجهاتها.

وقدم غانم بن محمد ابن أخيه على أساطيل العدوة بسبتة، وأمسك هلالاً بحضرته أثير الرتبة لديه.

أيام الأمير أبي الحجاج يوسف بن سعيد بن مردنيش

واستقرت ولاية الرئيس أبي الحجاج بالبلاد الشرقية مدة حياته إلى أن هلك في سنة ثنتين وثمانين وخمسمائة وتخلف جملة من الولد الرؤساء فمنهم:

أبو الحملات مدافع.

وأبو الظفر غالب.

وأبو الحارث سبع.

وأبو سلطان عزيز.

وأبو ساكن عامر.

وأبو محمد طلحة.

هؤلاء رأسوا وشهروا بالبلاد الشرقية في أخريات دولة الموحدين.

فلما انشقت العصا من لدن وفاة المستنصر خاضوا في الفتنة مع الخائضين.

واستقرت الرئاسة في أبي جميل زيان بن أبي الحملات مدافع ابن الرئيس سعد. وكان مدافع قد استشهد شباباً وفي حياة أخيه أبي عبد الله بن أبي السلطان عزيز بن سعد صاحب جزيرة شقر.

فلما أزمع السيد أبو زيد عبد الرحمن بن يعقوب الخروج عن بلنسية، والاعتصام ببعض معاقلها ليكون أقدر على ضبط أمره.

وامتنعت عليه وألجأه الاضطرار إلى اللحاق بصاحب رغون، بادر الرئيس أبو جميل بلنسية من مستقره يومئذٍ بمدينة أبدة فدخلها يوم الاثنين السادس والعشرين

لصفر سنة ست وعشرين وستمائة.

وسكن القصر، وأخذ البيعة لنفسه أول ربيع الأول من السنة داعياً للعباس ببغداد/ ثم دخلت دانية في بيعة فاتسع عمله ورحبت ساحته وتملك في رجب من هذه السنة حصن قربنيرة. [٢١٦/أ]

ودخلت جنجالة في بيعته، فضخم ملكه واشتهر جهاده إلى أن كانت عليه الوقيعة بانشية من ظاهر بلنسية هلك فيها من المسلمين ما لا يحصيه إلاّ بالله.

وكلب عليهم عدو الشرق ويئسوا من نصره أهل الأندلس وأهل المغرب فتعلقوا ببيعة الأمير أبي زكريا بتونس، واستصرخوه، وأطمعوه بفتح الشرق وصدر من الاستنصار المنظوم في ذلك القصيدة الشهيرة من نظم الكاتب أبي عبد الله بن الأبار التي أولها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى سجاتها درسا

حسبما يأتي في اسم الأمير أبي زكريا بمحله إن شاء الله.

ولم يصل جوابه وأمداده إلاّ والطاغية قد نازل بلنسية.

وذلك يوم الخميس خامس رمضان سنة خمس وثلاثين.

وواصل عدو الله حاقمه ملك رغون منازلة بلنشية ورميها بالمنجانيق وشدة القتال وما زال المسلمون تنقص أعدادهم، والنصارى تتوارد أمدادهم إلى أن نفذت الأقوات، واستولى الجوع وضعفت القوى، وأكلت الجلود والزقوق، وبلغ الكتاب أجله فكانت المراوضة على إسلام البلد والخروج عنه في الرابع عشر....[١] من السنة بعد سنة المنازلة.

وخرج الأمير أبو جميل والشهود، وعقد الصلح بعدها على دانية وقابيرة وكان الرزء على المسلمين في أخذ بلنسية عظيماً، والخطب فيها أليماً، وفي ذلك يقول القاضي أبو المطرف بن عميرة:

ما بال دمعك لا يني مدراره أم ما لقلبك لا يقر قراره

ألِلوعةٍ بين الضلوع لضاعي سارت ركائبه وشطت داره

أم للشباب تقاذفت أوطانه بعد الدنو وأخلفت أوطاره

أم للزمان أتى بخطب فادح من مثل حادثةٍ خلت أعصاره

بحر من الأشجان عب عبابه وارتج ما بين الحشا زخاره

(١) بياض في أصل المخطوط.

في كل قلب منه وجد عنده ... أسف طويل ليس يخبوا ناره
أما بلنسية فمثوى كافر ... حفت به في عقرها كفاره
زرع من المكروه حل حصاده ... بيد العدو غداة لج حصاره
/ وعزيمة للشرك تفجع بالهدى ... أنصارها إذ خانه أنصاره [٢١٦/ب]
قل كيف شئت بعد تمزيق العرى ... آثاره أو كيف يدرك شاره
ما كان ذاك المصر إلاّ جنة ... للحسن تجري تحته أنهاره
طابت بطيب نهاره أصاله ... وتعطرت بنسيمه أشجاره
وتألقت أوقاته وتفسحت ... أرجاءه وتفتحت أنواره
أما السرار فقد عراه وهل سوى ... قمر السماء يزول عنه سراره
قد كان يشرق بالهداية ليله ... والآن أظلم بالظلام نهاره
ودجا به ليل الخطوب بصبحه ... أعيا على أبصارنا أسفاره
إيهٍ أبا عبد الإله وأنه ... نبأ يرجع لوعتي تذكاره
عاطيتني ذكر الجلاء وإنه ... لجلاء أنسي إذ أتت أخباره
وقدمت زند أسى له بين الحشا ... عمل تلاقي مرجُهُ وعفاره
ولقد نطقت بمقتضى الرد الذي ... راقت نضارته وطاب نضاره

ولم يطل الزمان بالشرق أن انهار وأجاب الكفار، فكان آخر العهد ببني مردنيش فهم بين قتيل وشهيد ومنتقل من تونس إلى إيالة التوحيد.

أيام أبي بكر عزيز بن أبي مروان بن خطاب بمرسية

وكان هذا الرجل صدر البلدة والرجوع إليه بها في أمور العقد والحل.

وكان من أهل الدين والنسك، وأولى التقوى والبر، كثير الخشوع، معروف الخير، كثير الصدقات، مشتغلاً بالعبادة، ملازماً بيت ألفه.

ثم أن الشيطان المسلط على من لم يضفه الله إلى عبوديتهن من بني آدم استنزله لقبول الأمرة بمرسية وما إليها مع قطع صبي المهد ورضيع الثدي بسوء عقبى يتحمل ذلك يومئذٍ فقام بالأمر وهجر المسجد وتشبه بالملوك وسبح في بحر الخوض على كثرة المنازع، وعدم المال، وكلب الجند، وقلق الرعية.

فكانت ولايته في المحرم في سنة ست وثلاثين وستمائة وبيعته من إنشاء أبي المطرف بن عُميدة شهيرة ولم يقم بالأمر حتى قعد.

وكانت عليه للنصارى وقيعة لم يحكم فيها المصاف، ولا عرف القتال، فهلك فيها/ جملة من المسلمين أوهنت البلد وكرهته إلى أهله. [١/٢١٧]

وفي السادس عشر من رمضان سنة ست، وثلاثين وستمائة استدعى أهل مرسية الأمير أبا جميل بن مردنيش، فدخل المدينة طوعاً، وهاجت العامة، فدخلت قصر ابن خطاب، وانتهبت ما فيه على اختلافه من فرش وقباب وآنية، ومال وقبض عليه وبقي معتقلاً إلى أن قتل ببعض زوايا القصر ليلة الثلاثاء الموافق من رمضان سنة ست وثلاثين.

وأخذت بها البيعة للأمير أبو زكريا صاحب تونس وانتظمت له البلاد الشرقية فمضى على هذا السبيل.

أيام الرئيس أبي عثمان سعيد بن الحكم الأموي بمنورقة(١)

كان هذا الرجل من أهل طليبرة غرب الأندلس وإفريقية، وتلون به الدهر. وجال بالأندلس، وإفريقية برهة، ثم دخل جزيرة منورقة مشرفاً بها.

ثم ذلّل بها الرئاسة لما افترقت الكلمة واختل أمر الموحدين وحسن بها تدبيره، وعلا قدره، وأعظمته الملوك.

وكان بعيد الهمة يسعى لاجتلاب أهل العلم، واصطناعاً لهم، وافتكاكاً لمن تحصل منهم بيد العدو ولديه خط جزيل من رواية الحديث، وقرض الشعر، وحسن الخط.

إلاّ أنه كان شديد القسوة والعقاب مستهيناً بالدماء.

حدثني الشيخ السري أبو الحسن التلمساني وكان عمه أبو عبد الله البري كاتباً لابن الحكم بمنورقة قال:

كان من سيرته أن يقتل الناس عقاباً على شرب الخمر، وكان قد اجتلب المحدث ابن مفوز للرواية عنه وسماع كتاب البخاري عليه، اغتنم ذلك لبنيه. قال:

فبينا الكتاب يقرأ إذ أُتي إليه برجل قد شرب الخمر، فأمر به فضربت عنقه.

قال: فطوى ابن مفوز الكتاب، وحلف أن لا يسمع عليه سنة حديثاً.

وقال: حفظك الله تطلب رواية السنة وتصحيحها وتتعدى حدود الله، هكذا والله لا سمعت مني حرفاً أبداً.

---

(١) في المخطوط: بمنرقة، والتصويب من معجم البلدان.

فقال: يا فقيه هذه الجزيرة كثيرة العنب والناس يشربون الخمر بها ويسكرون فيضيعون الاحتراس فيظهر علينا العدو.

فقال له: هذا شيء لا يخلص عند الله لم تترك الشريعة شيئاً من موازين صلاح الدنيا والآخرة إلاّ أعطته حقه، وانصرف عنه.

ودامت ولايته بمنورقة مقصوداً من الفضلاء والأدباء حسبما يظهر من ترسيل أبي المطرف، وابن الحنان وغيرهما نحواً من خمسين سنة إلى أن توفي في حدود عام ثمانية وستمائة.

وورث رئاسته بعده ولده أبو عمر.

/ أيام أبي عمر حكم بن سعد بن حكم الأموي بمنورقة[١] [٢١٧/ب]

كان أبو عمر أفضل من أبيه في دماثة الخلق والعفة عن الدماء والإيثار والاجتناب للعظائم مع حسن الحظ، ورواية الحديث وقرض الشعر.

إلاّ أنه يستقل استقلال، ولا نهض نهضته، فانصرفت أطماع العدو البرجلوني المجاور لثغره إلى تملكه فتم له ذلك.

ونفذ قدر الله فيه سنة ست وثمانين فاستولى على الجزيرة، وأجلى عنها المسلمين، ولحق أبو عمر بسبتة وقد رفع إليها رمة أبيه بعد أن كان نزل بالمرية.

ووصل إلى غرناطة وأقام بها أياماً تحت جراية أميرها.

وحدثني من رآه وروى عنه من شيوخنا: إنه كان رجلاً قرع السمت والهوى جميل الرواء عظيم الوقار والتؤدة.

وله أولاد كالنجوم جمالاً ووسامة.

وكان نساؤه وخدمه يلبس غفائر حمراً منسدلة عليهن في زيّ غريب. وركب البحر هو وبنوه ذكورهم وإناثهم وحاشيتهم، قاصداً تونس.

وقد بذر بها والده دماماً، وائل له حُظوة، فعدا عليهم البحر بأحواز الجزائر بني مزغنة.

فزعموا أن صاحب المركب عزم عليه في ركوب الثاني الذي يتبع المركب، وقد انتقى فيه الأعزة عليه.

فقال له أبو عمر: ومن معي؟.

---

(١) في المخطوط: منرقة، والتصويب من معجم البلدان، وقال مؤلفه: جزيرة عامرة في شرقي الأندلس قرب ميورقة.

فقال: لا سبيل لك إلى ذلك، فلتعن بنفسك، فهو الذي تقدر عليه لك.

فرجع إلى الطارمة حيث بناته وكرائمه، فسد غلقها عليهن وعلى نفسه.

فلم ينج منهم أحد نفعهم الله بالشهادة وكان ذلك في أخريات العام المذكور، أو في العام بعده.

وليس الكلام في منورقة من شرط الأخبار الأندلسية ولكنها أنسب إليها منها إلى غيرها إذ لم تزل راجعة إليها، وتابعة لأحكامها فهذا وجه المسامحة كما أضيف صقلية إلى إفريقية.

دولة السلطان محمد بن يوسف بن هود الجذامي

وهذا الرجل هو الذي تعين أنه صاحب الأندلس من بعد انقراض دولة الموحدين. وملك مرسية، وقرطبة، وإشبيلية، وغرناطة، ومالقة، والمرية، وما إلى ذلك بحال اجتماع وافتراق وانتزاء من أهلها عليه وشقاق.

وكان يدعى بأمير المسلمين.

ويلقب من الألقاب السلطانية بالمتوكل على الله.

وكان ينسب إلى المستعين بن هود الذي تقدم الحديث في دولته، ولأجل ذلك يقول أبو عبد الله بن خرج الكحل / من قصيدة يمدحه فيها: [٢١٨/أ]

فتحت بلاد الله دون مشقة ... وما عرفت أربابها حادثاً نكرا

ولا بد من فتح البقية عاجلاً ... ويجعل للأشياء خالقها قدرا

وكم زهرة فتحت وهي كمامة ... ولم.... [1] خير البيض من فتحها زهرا

مثل ابن هود آخذاً بتراته ... ومن كان موتوراً فلا يدع الوترا

وإن كان مغصوباً فإن محمّداً ... بصارمة الهندي قد رده قهرا

ونادى على ملك بعد صقر مدة ... وعاد إلى ما كان في مدة أخرا

فيوشع رد الشمس في جريانها ... وما بعدت نوراً ولا نقصت قدرا

قضى ربه أن يملك الأرض آخراً ... فقدمه فضلاً وأخره عصرا

وكم أخر قد جاء بالفضل أولاً ... وهل تجعل الدنيا سواء مع الأخرا

ففي رمضان ليلة القدر كونها ... وما صحبت إلاّ أواخره العشرا

وكان شجاعاً، كريماً، حيياً، وفياً، متوكلاً كلقبه، سليم الصدر، قليل المبالاة

---

(١) موضع النقط كلمة غير مقروءة لعيب في تصوير المخطوط.

بالأمور، محدوداً لم يُنصر به جيش، ولا وُفّق له رأي لغلبة الجفة عليه، واستعجاله الحركات ونشاطه إلى لقاء الأعداء من غير استعداد.

وكان خروجه من مرسية تاسع رجب سنة خمس وعشرين وستمائة، وظهوره بالصخور من جهاته في نفر يسير من الأجناد.

وكان الناس يستشعرون ذلك ومرتقبون ظهور طالب للأمر اسمه محمد واسم أبيه يوسف.

وهي العِلة المحركة لمحمد بن يوسف بن نصر الأحمر.

وجرى على الناس بسبب ذلك في زمن الموحدين امتحن شقى به قوم ممن وافق هذا الاسم أسماءهم أو أسماء آبائهم.

وقتل بسبب ذلك شخصان من جيان. ويقال إن شخصاً ممن ينتحل علوم الحدثان لقي ابن هود، فأمعن النظر إليه وسأله، وقال له: أنت سلطان الأندلس فانظر لنفسك واطلب كأس سعدك، وأنا أدلّك على من يقوم بأمرك، فانهض إلى المقدم الغُشتي.

وكان الغشتي رجلاً صعلوكاً داعراً يقطع الطريق، وتحت يده جماعة من أنجاد الرجال وسباع الشرار، قد اشتهر أمرهم إلى المقدم / الغشتي. [٢١٨/ب]

وعرض عليه الأمر فارتبط معه على أن يوليه قيادة الأسطول بالأندلس إذا تمّ له الأمر.

وقال: نستفتح الأمر بمغاورة إلى أرض العدو باسمك، وعلى سعدك.

ففعلوا، وجلبوا كثيراً من الغنم والأسرى وانضاف إلى ابن هود طوائف من مثل هؤلاء، وبايعوه بالصخيرات - كما ذكر - من ظاهر مرسية.

وأوقع به جيش الموحدين وسرده. ثم ثاب إليه ناسه، وعدل إلى الدعاء للعباسيين فتبعه اللفيف.

ووصله تقليد المنتصر ببغداد، فاستنصر الناس في دعوته، وشاع ذكره، وملك القواعد، ووفى للغشتي بعهده، فولاّه أسطول إشبيلية، ثم أسطول سبتة مضافاً إلى أمرها وما يرجع إليها.

وثار به أهلها بعد وخلعوه، وفرّ أمامهم وخفي أثره إلى أن تحقق استقراره أسيراً في الشجر بغرب الأندلس، ودام أسره زماناً ثم تخلص إلى الشيخوخة، ومات برباط أسفى، وجرت على ابن هود هزائم شهيرة ووقائع مذكورة، أوقع به السلطان أبو عبد الله بن نصر ثلاث مرات آخرهن من سنة ثلاث أو أربع وثلاثين وستمائة.

وكان اللقاء بينه وبين المأمون إدريس أمير الموحدين بشرق الأندلس سنة خمس وثلاثين فهزمهم المأمون هزيمة كبيرة، ولاذ منه بمرسية وامتنع بها.

إلاّ أن المأمون شغله أمر الفتنة الواقعة بمراكش، فصرف وجهه إليها.

وثاب الأمر لابن هود فدخلت في طاعته المرية، ثم غرناطة، ثم مالقة.

وفي سنة سبع وعشرين وستمائة تحرك لفضل شهامته في جيوش عظيمة من المسلمين لإصلاح ماردة، وقد نازلها العدو، وحاصرها ولقي جيش العدو بظاهرها، وطاغيتهم فيهم فلم يتأن حتى دفع بنفسه العدو، ودخل في مصافه، وفقده الناس لما غاب عنهم، فلم يرجع إلاّ وقد انهزموا مدبرين، وكانت هزيمة شنيعة، واستولى العدو على مدينة ماردة يومئذٍ.

وفي سنة تسع وعشرين وستمائة تملك إشبيلية وولّى عليها أخاه الأمير أبا النجاة سالماً الملقب بعماد الدولة.

وتملك مالقة وغرناطة عام خمس وعشرين وستمائة.

وفي شوال من هذه السنة جنح إلى طاعته الروم الرئيسان: أبو زكريا، وأبو عبد الله ابنا الرئيس أبي سلطان عزيز أبي الحجاج بن سعد.

وخرجا عن طاعة ابن عمهما الأمير أبي جميل، وأخذا له البيعة على ما بأيديهما.

وفي سنة تسع وعشرين وستمائة، فتح الجزيرة الخضراء عنوة، وقد كان انضم إليها بقايا المغربيين / فأجازهم إلى المغرب. [١/٢١٩]

وصرح له تملك الأندلس وإطاعته سبتة، وملك رباط الفتح بها أياماً.

وفي أوائل العشر الوسط من شوال ورد عليه الخبر ليلاً بقصد العدو جهة وادي آش.

فأسرى ليلاً، ولحق العدو على ثمانين ميلاً فاستأصله السيف، ولم يفلت منه أحد.

وفي سنة إحدى وثلاثين وستمائة وردت عليه الهدية والتقليد من المنتصر العباس ببغداد وقُرىء على الناس كتابه.

فصلّى العيد من غرناطة بموافقة اجتماع من الناس لطلب الغيث واستصفائه، وكان الأمير ابن هود يومئذٍ لابساً السواد، والراية السوداء بين يديه.

فنزل المطر يومئذٍ، واستبشر الناس، وكان يوماً مشهوداً، وصُنعاً غريباً.

وأمر بعد انصرافه بأن يكتب عنه بتلك الألقاب المذكورة إلى البلاد.

نص الكتاب

وكانت العلامة فيه بعد ثلاث أسطار أو نحوها:

توكلت على الله الواحد القهار

الحمد لله ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] ومالك أزمة الأقضية والأقدار، و (مكور النهار على الليل ومكور الليل على النهار)، المتعالي بوحدانيته عن الأشياء والأنظار، المتنزه بكبريائه عن تمثيل الأوهام وتكييف الأفكار. و ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٣]، سبحانه هو الواحد القهار.

والحمد لله الذي اختار محمداً ﷺ من أطيب قريش عُنْصراً أو أرومة، وأزكاها أصلاً وجرثومة، وأكرمها خؤولة وعمومه، ابتعثه والكفر قد ظهر فتيقه، والشرك قد قامت سوقه، والضلال قد استطارت بروقه، والشيطان قد استظهر حزبه وفريقه، فصدع بالحق، وأظهره، ودحض الضلال ودمره، ورفع لواء الإيمان ونشره، وأمات الباطل وأفتره، وأحيا الدين الحنفي وأنشره، فصلّى الله عليه وعلى آله الذين رفعوا منار أوامره المتبعة، وعلى صحبه الذين آمنوا به ﴿وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٧] صلاة دائمة متصلة غير منقطعة ما وخدت قلوص براكب، وضحك الروض ببكاء السحائب، وعلى عمه ابن عبد المطلب[(١)] خير الأعمام، وكافل الأيتام وصاحب زمزم والمقام، والمخصوص بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، المستنزل ببركته أنواء الغمام عن جدب العام، ومن قال في حقه سيد الأنام محمد خاتم النبيين عليه أفضل الصلاة والسلام.

/ «يا عم فيكم النبوة، والخلافة لا ينازعكم فيها منازع إلاّ كبه الله لوجهه ولا [٢١٩/ب] يزال الأمر في ولدك حتى يسلموه إلى عيسى ابن مريم»[(٢)].

وقال صلّى الله عليه وسلم:

«إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، فمنزلي ومنزله في الجنة تجاهين وعمي العباس بيننا مومي بين خليلين اللهم اغفر للعباس وولد العباس. ومحبي ولد العباس مغفرة ظاهرة وباطنة لا تغادر لهم ذنباً، اللهم احفظه في ولده واخلفه فيهم، واحفظ ذريته من كل سوء، وأعزهم بعونك ما بقي منهم باق»[(٢)].

وقال ﷺ:

---

(١) يريد العباس.

(٢) كلا الخبرين لا يصح.

«يا عم لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ورسوله»[١].

وجاء في الحديث: أن العباس دخل على النبي ﷺ، فخفض النبي ﷺ صوته، فقيل له: يا رسول الله، رأيناك خفضت صوتك لما دخل العباس؟ فقال:

«إن جبريل أمرني أن أخفض صوتي عنده، كما أمركم أن تخفضوا أصواتكم عندي»[٢].

وفي الحديث: أن جبريل عليه السلام هبط على النبي ﷺ وعليه قباء وعمامة أسودان، فقال له:

«يا أخي ما هذه الصورة التي ما أراك هبطت عليّ في مثلها؟».

فقال له: شعار ولد عمك العباس، وليأتين على أمتك زمان يعز الله فيه الإسلام بهذا السواد، وسيملكون الأبيض والأحمر والأصفر والأخضر والحجر والمدر والصفا والمنحر والسرير والمنبر والدنيا إلى المحشر والخلافة إلى المنشر وعليهم تقوم الساعة[٣].

والحمد لله الذي اجتنى من هذه الدوحة العباسية الشماء، والشجرة الطيبة الهاشمية التي ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٤] إماماً ألقى ولاءه في القلوب والأرواع، واسترعاه فوجده لأمته خير راع، وأوضح للناس من اعتقاده ووجوب طاعته سنناً قويماً، وجعله كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية ٤٣].

سيدنا ومولانا، إمام المسلمين، وخليفة الله في الأرضين، ووارث الأنبياء والمرسلين، المفترض الطاعة على الخلق أجمعين، الممنون بإيالته المقدسة على العالمين، مولانا أبو جعفر المنصور، المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آله الطاهرين، إمام تحلت أجياد المنابر بجواهر شريف دعوته، وترصعت تيجان المآثر بلالىء معدلته وحسن سيرته، ونزلت السكينة على العباد والبلاد بالسكون تحت وارف ظلّ رأفته المقدسة ورحمته، فالناس وادعون / في كنف عميم مكارمه وعواطفه، والخلائق راتعون في رياض جسيم مواهبه وعوارفه. [٢٢٠/أ]

فأدام الله أيامه الزاهرة، دواماً يُخْلِق أثواب الأعوام وهو جديد، وجعل دعوته

(١) لا يصح هذا الخبر كذلك.
(٢) لا يصح هذا الخبر أيضاً.
(٣) وهذا أيضاً خبر لا يصح هي أخبار من وضع الفرق التي تشددت كل طائفة لمذهبها، والإسلام لا يعرف العصبيات العرقية كما هو مصرح به في القرآن الكريم.

القاهرة مقرونة بالدوام والتخليد إلى يوم الوعيد.

ولما انتهى إلى علومه الشريفة زادها الله شرفاً وقدساً، ما عليه مجاهد الدين محمد بن يوسف بن هود من سلوك سنن الطاعة المؤسس بنيانها على تقوى من الله ورضوان، والتزام شروط الولاء الذي هو علامة متانة الدين، وكمال الإيمان، والتصدي لقارعة الناكبين عن محجة الحق والهدى، والتجرد لمرابطة من حاد عن السنّة والإجماع اللذين بهما يسترشد ويهتدي اقتضت أزاؤه الشريعة المقدسة النبوية الإمامية الطاهرة الزاكية الممجدة المعظمة المكرمة المستنصرية، زادها الله جلالاً متألق الأنوار، وشرفاً رفيع المنار، واقتداراً تجوب جياده جنوب الآفاق والأقطار، أن يقلده أمر جزيرة الأندلس، ويجري معها من الولايات والبلاد، ويسوغه ما يفتتحه من مماليك أهل الكفر والعناد تقليداً صحيحاً شرعياً وتسويقاً صريحاً أمامياً وإنعاماً يضفو عليه لباس بخارة الفضفاض، وتصفو لديه موارد مواهبه النميرة العياض، وقد أمره صلوات الله عليه بأوامر تهديه إلى سبيل الرشاد، وتحظيه برضى الله الذي هو أنفع الذخائر في الدنيا ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: الآية ٥١] وما توفيق أمير المؤمنين إلا بـالله عليه يتوكل وإليه ينيب.

أمره بأن يتدرع شعار تقوى الله الذي هو خير لباس، ويستشعر جعلته التي تجعل له كما قال عزّ وجل: ﴿نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٢]، فإن تقوى الله تعالى هي المنجية من تورد مهاوي الأنام والعصيان، والسبب الذي يعتصم به من كان من العناية الأزلية بمكان، قال الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: الآية ١٩٧]، وأمره أن يجعل كتاب الله تعالى مناراً يرجع إليه في حل المشكلات، ومصباحاً يستضيء بمراشده في الأحكام المشتبهات بأنه الفرقان الفارق بين الحلال والحرام، والنور الساطع الذي ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ﴾ [المائدة: الآية ١٦] قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: الآية ٨٩].

وأمره أن يعمل بسنّة النبي ﷺ في مصادرة أموره وموارده، وبإجماع المسلمين في جميع مناحيه ومقاصده، فإن اتباع السنّة يرشده إلى منهج الحق وسبيله، والإجماع يوضح له معاني كتاب الله وأحكام رسوله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ / ٱلرَّسُولُ [٢٢٠/ب] فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، أمره أن يكثر من مجالسة الفقهاء والعلماء، وأرباب الديانة الصلحاء، ومشاورة العقلاء الألباء، فإن مجالسة العلماء لقاح الخواطر، ومعاشرة الصالحين فيها رادع عن إتباع الأهواء وزاجر، ومشاورة الألباء تقدح بها زناد التوفيق في النواهي والأوامر، قال الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى

ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عِمران: الآية ١٥٩] وأمره بأن يحسن السيرة في رعيته ويسكنهم أرحب كنف من حنوه وشفقته ويساوي بينهم في مجالس نظره وحكومته، ولا يفرق في التفاتة بين القوي والضعيف، ولا يميز بما يقتضيه العدل والإنصاف بين المشروف والشريف، ويقوي الحاكم على ما يوجبه الشرع ويقتضيه، ويأمرهم بإقامة القسطاس الذي يحبه الله ويرتضيه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ﴾ [النِّساء: الآية ٥٨]. وأمره أن يقتدي في جميع أموره وتصرفاته وحركاته وسكناته بما أمر الله تعالى به في كتابه المكتوب الذي ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة: الآية ٧٩] من قوله عزّ وجل: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: الآية ٩٠].

وأمره أن يعتمد في مجاهدة الكفار الملاعين وأحزاب الشيطان المشركين ما أمر الله تعالى به في قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ﴾ [التوبة: الآية ٧٣] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةًۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة: الآية ١٢٣] وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. فليكن مجاهد الدين بهذه المراشد مقتدياً، ولمناهج أوامرها المطاوعة مقتفياً، فإنه إذا اتبع هُداها، وامتثل مراسمها واحتذاها وتمسك بعصم طاعة من أوجب الله عليه وعلى الخلائق اعتقاد مفروض طاعته وطوق أعناقهم بالتزام شروط موالاته وعبوديته، سيدنا ومولانا خليفة الله في أرضه، والقائم بسنّة دينه وفرضه، أبي جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، فازت قداحه وتضاعفت من أقسام السعادة الراهنة متاجره وأرباحه، فإن ذلك عند ذوي الديانات المتينة أحكم الأوامر وأوثق العرى، والذخر الذي يجده كل موفق مسعود ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عِمران: الآية ٣٠] إن شاء الله.

[٢٢٣/أ] وكتب في العشر الوسط من ذي القعدة سنة/ تسع وعشرين وستمائة.

ووصله عن الديوان العزيز وهو المعزية عن رتبة النائب عن العباس من الأعاجم في ذلك التاريخ عن الديوان العزيز النبوي أرفع منازل الشعراء الفائزين منزلاً وأحمد مقامات الأبرار، وأسمى هضبات السعادة الراهنة بقاعاً وأصفى جلابيب المواهب الأزلية مدارع وحللاً، وأرحب مواطن العنايات الإلٓهية التي لا يبغي ذوي الديانات المتينة عنها حِولا، وأعطاهم حيازة فضله، قوله عز وجل: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه: الآية ٧٥].

وما أضفى الأمير إلاّ. . .[(١)] الكبير الأجل المرابط المشاغر الغباري، مجاهد الدين مجد الإسلام، جمال الأنام، نجم الدولة، عز الملة، معين الأمة، فخر الملوك، قامع المشركين، قاهر الخوارج والماردين، زعيم الجيوش شرف الأمراء، تاج الخواص.

أطال الله بقاءه، وأدام علوه ونعمته باعتقاد وجوبه موارد خلوص معتقده وأوضح بسلوك منهجه آثار صدق يقينه، ومحض تعبده، واحتوى على قصبات رهان التوفيق بلزوم لا حسب محجته، وقديم جدده، ونور الله تعالى أرجاء عقيدته الصالحة بأنواره التي هي علامة كمال توفيقه ووفور رشده من طاعة من لا يقبل الله تعالى إلاّ بطاعته الأعمال وموالاة من والاته عنوان استمرار السعادة والإقبال، وتباعة من تباعته ذخر نافع يستظهر به كل ذي حظ عظيم في الحال والمآل، ومخالصة من. . . . .[(٢)]

. . . .[(٣)]

. . . ./ الدخول بها.

[٢٢٣/ب]

فلما قارب الحضرة أغرى به أعداء خؤولته من بني دحو بن عبد الله، فتلقوه، وقتلوه وأراحه الله منه.

وكان عمر بن محلي أحد أفراد الرجال وحزمتهم أخباره مشهورة، ونوادره مأثورة. شرع السلطان أبو عبد الله في استدعاء النصارى لسد بحر الزقاق، ونزول الخضراء.

فنزلها العدو ثامن شوال من السنة، وكانت بهم الوقيعة البحرية على أيدي الأسطول المغربي والسبتي، وأقلع العدو عنها بعد الشهر خائب السعي.

وجاز أمير المسلمين البحر إلى الأندلس ونشأت الوحشة العظمى فجهز أمير المسلمين ولده إلى الضرب على بلاد ابن نصر ونازل مربلة وحاصرها ورماها بالمجانيق وجاز بنفسه فنازل مالقة وقد صار أمرها إلى الرئيس أبي سعيد وهو غلام، وكانت عليها حرب عظيمة بلغت فيها حملات الجيش المريني إلى أن صادمت الأسوار وراء رؤوس الخيل وأعذروا باعتراضها دونهم.

---

(١) كلمة في المخطوط هذا رسمها: «الاضجهصلا».

(٢) جاء بعد هذا بياض في أصل المخطوط قدره نصف صفحة، وجاء بهامش المخطوط بخط الناسخ كلمة تفيد أن ذلك كان بياض أيضاً في النص المنقول عنه هذا المخطوط حيث قال: «بياض». سقط بعد هذا البياض أيضاً الورقة [٢٢١/أ، ب]، والورقة [٢٢٢/أ، ب].

(٣) موضع عنوان سقط مع ما سقط من الأوراق.

ثم رحل عنها بعد الإقامة بها زهاء خمسين يوماً إلى الخضراء، وتمادت الأيام بين حرب وسلم وحيلة وإذهان.

وصرف السلطان أبو عبد الله بن نصر وجهه إلى اجتثاث الرؤساء الأشقيلويين، والاراحة ممن بقي ببلاده منهم.

وقد كان الرئيس أبو إسحاق شيخ بيتهم لحق بمن بمالقة منهم فخرجوا له عن حصن قمارش وأفردوه فيه، وهو معقل الأندلس الذي لا يرام فكان الملوك من بني جهور وغيرهم قد قدروا قدره واتخذوا به مساكن تناسب الملك.

ولم يزل الرئيس أبو إسحاق إلى أن هلك، وانقلت طاعة قمارش إلى ولديه بوادي آش يضبطه لهم ثقة من خواصهم يعرف بابن الرامي.

احتال السلطان عليه بمداخلة رجال من حراسته بذل لكل واحد منهم خمسين ديناراً من الذهب، فثاروا به، وبادرهم الحسن فكان أملك به.

وبعد ذلك حصنه بما هو عليه إلى اليوم، وصرف السياسة إلى من بقي منهم بوادي آش، فالآن لهم جانبه، وسوغ لهم سلمة ووالى عليهم إحسانه وبره حتى غرّهم بذلك، وظنوا سلامة صدره وركنوا إلى جميل اعتقاده، وعند ذلك جدّد السلم مع صاحب قشتالة وهم مع السلطان خالهم بأحسن أحوالهم الرضى والألفة.

فعقد على بلدهم الصلح، وأدخلهم في جملته وهم يغتبطون بذلك ولا يستريبون حتى إذا كمل بعث إليهم وأخبرهم بعقد البيعة لولده وطلبهم بالانتقال عن مدينتهم إلى حضرته، وفسح له الوعد في مجال كرامته ورعايته.

[١/٢٢٤] / فبادر المركوع إلى ملك قشتالة وطلبوا الرجوع لجهته فأجابهم بتعذر ذلك وعدم إمكانه إذ بلادهم قد انتظمتها معاهدة السلطان، وأن إيواءهم نكث للسلم والعهد.

فسقط في أيديهم، وعجزوا عن المال والطعام يصادرون به عدوهم، ووجهوا رسولهم إلى ملك رضون فصرفهم، واعتذر ببعه الشقة وتوسط بلاد قشتالة.

وحشد السلطان أهل البلاد لمنازلتهم فلجأوا إلى القيام بدعوة ملك المغرب وكتبوا له البيعة، ووجهوا إليه رسولهم، وهو إذ ذاك بمراكش.

وجرت في ذلك بين السلطان أمير المسلمين وبين صاحب الأندلس محاورة أجلت عن تعويضهم من وادي آش بقصر كتانة، وانتقلوا إليه بأموالهم ورجالهم وأهليهم في أوائل عام سبعة وثمانين وستمائة.

ولما استقرت وادي آش بيد أمير المسلمين بالمغرب جعل فيها ثقته ولم زمن غير كبير حتى خُدع ذلك الثقة وانصرف إلى سلطانه فتطرقته الظنة، فضرب عنقه.

ولما استقر هؤلاء الرؤساء بالمغرب حذرهم السلطان ابن نصر على ملكه وتوقع إغراءهم به من صاحب المغرب وعودتهم إليه، فاستدعى حينئذٍ الطاغية إلى سد برضة المجاز بطريف.

فكان نزول الطاغية بها في أوائل شهر جمادى الأولى من عام أحد وتسعين وستمائة وتملكها العدو حسبما هو معروف.

وشق الخطب على المسلمين، وساءت النفوس، وندبتها الشعراء لولا خوف الإطالة، لأطنبنا في هذه الأمور، وهذا المقدار من التعريف بخلاف هؤلاء القوم كاف إن شاء الله.

حديث امتساك بني الحكم برندة

ولما حدث ما وقعت إليه الإشارة في أمر طريف وعبر السلطان صاحب الأندلس البحر مستقيلاً من ذنبه، وعاد إلى الأندلس لتجديد الجهاد ومنازلة طريف، واجتماع الأيدي على استرجاعها. وجاز السلطان أمير المسلمين أبو يعقوب البحر عام ثلاثة وتسعين وستمائة.

ثم تخلف السلطان عن مباشرة طريف معترضاً بمرض أصابه، ووجه بالجيش ولده فتلوم بمالقة، وطال على الجيش المريني الأمد في محاصرة طريف، وظهر عدم المساعدة والكسل عن الإعانة، وأظلم الأفق، وأقبلت أجفان العدو لسد بحر الزقاق وأجلت الحال على انصراف أمير المسلمين الملك المريني عن الأندلس ورفضها.

فجعل أمر رُندة إذ ذاك إلى الوزيرين الأخوين: أبي زكريا، وأبي إسحاق ابني أبي القاسم بن الحكم وسُوغَتْ لهما.

ولما طلبهما السلطان ابن نصر بصرفهما، أبوا من ذلك/ واستمسكوا بها. [٢٢٤/ب]

فأمر جيش مالقة بالضرب عليها، ووقعت الفتنة في البلاد الغربية، وتمادت الحال أوائل عام خمسة وتسعين وستمائة. فلما عوزت السلطان الحيلة داخل أخاهما الوزير القائم بأمر الله ولده بعده، وكان يومئذٍ متولي كتابته فأخذوا لأنفسهم شروطاً هامة لمصلحة القطر وشاملة للكافة من أهله منها:

أن لا يلي بلدهم أحد من قرابة السلطان. وأن لا يترك غازٍ من المغاربة بدار من دور المدينة.

وإسقاط التبعات وتمكن منها السلطان منتصف جمادى الثانية من سنة خمس وتسعين وستمائة.

خبر انتزاء الرئيس أبي الحجاج بن نصر بوادي آش

وفي عام اثنتين وسبعمائة اقتضى النظر تأخير الرئيس أبي الحجاج صهر

السلطان أبي عبد الله ثالث الأمراء النصريين، وزوج أخته عن مدينة وادي آش لا من نقمة عليه إذ ذاك بحضرته فركب لحيته، وأسرع اللحاق بها وبقصبتها ثقته، فكان أملك بأمرها. ولما شاع قصده، وتوجهه إليها استركب الجيش لمبادرته، وكتب له عهداً يتضمن تقريره بها، وتفشي أغراضه خوف اشتعال الفتنة.

ولما شرع في الامتناع عن وصوله فظن أهل البلد لما يريده، وقد أرهقوا من حجر النفاق الذي استأصل أخوالهم وأنفسهم زمنه القريب العهد، فبادروا إليه، وأحاطوا به قبل استعداده فتملكوه عنوة، وقبضوا عليه، ولم يصل الجيش إلاّ وقد قضى فيه الأمر، وأوصل بالقيود إلى باب السلطان، فأمر ابن عمه محمد بن علي بن أحمد المعروف بالرئيس العروس صهر السلطان أيضاً بضرب عنقه بيده ابتلاءً لطاعته، ومكروهاً جيء إليه، إذ كان السلطان منحرفاً عن قرابته، فمضى على هذا السبيل.

وفي أثناء هذا الهرج وهيجان هذه الفتنة وانفراد كل يد بما ملكت، استولى العدو على مدائن جليلة وقلاع حصينة منيعة وثغور متربعة، وأعمال خصيبة، وربوع آهلة، وأطراق يعز الإسلام الذي وطئها مشاهدة مثلها مثل مدينة شاهرة، وانتسه، ومدينة سالم والمدينة البيضاء مدينة سرقسطة، ثم في مدة بعدها على مدينة طليطلة الحالة من الأندلس محل المركز من الدائرة، ثم بطليوس، وبلنسية وميورقة، وشنترين، وأشبونة، وكلبيرة ولبلة وجبل العيون وكورة باجة.

ثم في مدة بعدها على أبدة وبياسة ويابرة، ثم في مدة بعدها على عهد ابن هود الأخير على نحو خمسمائة بلد منها شاطبة وطلقية / وماردة والكرسي. [٢٢٥/أ]

ثم في مدة بعدها بين تنازع ابن هود، وابن نصر على قرطبة، وإشبيلية وما إليها.

ثم في مدة بعدها من مدة ابن نصر الأولى على مرسية، وجيان، ولورقة، وشريش، وكم تبع هذه الأمهاتْ من بنات، وهتكت حرمات، وترك الإسلام من عيون وجنات، وفيما أدركناه على قلعة يحصب من بعده طيبة ووبرة، ثم الجزيرة، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

ومن اعتقد أن هذه البقعة الأندلسية التي لاذ بها العدو فنسفها نسفاً، ولفها لفاً كسواها من بقاع الأرض جمالاً ونضرة، وانفساحاً ونعمة، وتشييداً ومنعة، وناساً وحيواناً، وخلقاً وخلقة، وعادة وزيّاً، ونبلاً وإدراكاً، وصنائع وإتقاناً، وبأساً وشهامة، وظرفاً ولطافة، فقد ظلمها حقها، وبخسها وزنها.

والشاهد الصلات والموضوعات، وما صنف العلماء من الطبقات، وما نقل عن مواقف الحروب، وما دون من المنظوم والمنثور.

فوا أسفي عليها من معالم أعلام، ومغاني إيمان وإسلام تخبر شواهدها عن الغائب وراءها عن الغابر كما قال:

كبرد اليماني قد تقادم عهده ورفعته ما شئت في العين واليد

لطف الله بها من بغية.

رجع التاريخ إلى نسقه.

من ذكر أمراء بني نصر.

دولة الأمير أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر

وقد تقدم تصيير الملك إليه من أبي الجيوش نصر بن محمود وانصرافه إلى وادي آش مخلوعاً واستقر الأمر في يده.

وفي خامس عشر شهر المحرم من عام خمسة عشر وسبعمائة أظهر السلطان نصر المخالفة لطائفة لحقت به من قرابته وخدام أبيه، فكشف عن وجه المنابذة، وأبدى ناجز الشر، وتحرك السلطان أبو الوليد فنازله في أوائل صفر من العام وأقام محاصراً إياه خمسة وأربعين يوماً.

ثم قفل إلى حضرته واستدعى نصر جيش النصارى، وأمره يومئذٍ راجع إلى ابن السلطان بشانجة بن أدفونش كافلاً لابن أخيه.

وخرج جيش السلطان من غرناطة إلى التضييق على وادي آش.

واتفق وصول الطاغية إلى أحوازها بجيشه واستصحاب ميرة طعام لتقويتها من بلاده، وخفي على المسلمين أمره إلى أن كان اللقاء فكافحه بوادي برنزنة من أحواز وادي آش.

وقد عبر المسلمون إلى العدو نهراً صعباً، وكانت على المسلمين الهزيمة المشهورة واعترضهم الوادي فكانت بهم الدائرة، فاستلحم منهم سبعمائة فارس. وامتلأت الأندلس حزناً وصراخاً، وتغلب العدو للحين على حصن قنبيل، / [٢٢٥/ب] ومتحانس، ومجاج.

وتحرك العام بعده إلى أحواز الخضراء، فأفسد الزرع، واكتسح المواشي، وشمر لاستئصال المسلمين، إلى أن أجمل الله صنعه بالإسلام، فتحرك الطاغية وعمه دور جوان كبير النصرانية وولد السلطان الجد، فنزلوا المرج من غرناطة.

واجتمع المسلمون لمدافعتهم، فمنحهم الله النصر عليهم ظهر يوم الاثنين السادس من جمادى الأولى.

وقتل في الهزيمة أميرهم جوان وبطره، واستولى المسلمون على دوابهم

وأمتعتهم وأسبابهم على ما يعي الحصر.

وغزا رحمه الله إلى مرتش من بلاد الروم القريبة من حضرته، فدخلها عنوة، وعمل فيها السيف، وقفل، فاحتل الحضرة يوم السبت الرابع والعشرين من شهر رجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة.

ولثالث يوم دخوله، فتك به ابن عمه محمد بن إسماعيل أخي الرئيس أبي سعيد بن إسماعيل بن نصر فتكته الشعناء التي قدم بمثلها العهد جرأة وإقداماً، فطرح نفسه عليه وهو مارٌّ بين السماطين إلى محل السلام عليه، والوزير بين يديه وضربه بخنجر كان ملصقاً بذراعه معداً لذلك، قد تولى له شحذه يومئذٍ الشيخ أبو الحسن بن كماشة المتأخر الحياة إلى اليوم حسبما يعرف الناس.

وعندما سقط السلطان اخترط أصحاب الرئيس الغادر لسيوفهم وتعاوروا بها الوزير، وقد كثر لصيحة السلطان فاشتغلوا به بخلال ما رفع السلطان من بين أيديهم واحتمل إلى منزله، فظنوا به السلامة، وخذلوا، فقتل منهم جملة علقت رؤوسهم بسور القلعة، وفجعوا الإسلام من السلطان برجل موثر للجيد صحيح القصد من أهل الخير والبر رحمه الله.

وولّي الأمر بعده ولده محمد.

دولة محمد بن إسماعيل بن فرج بن نصر

بويع له يوم توفي أبوه، وهو صبي صغير سِنُّهُ نحو تسع سنين فلم يختلف عليه يومئذٍ أحد وبادر إلى بيعته الفقهاء، والعلماء، والصلحاء، والفضلاء، وأهل الجهاد، وكواف البلاد وجمعهم يومئذٍ موفور، وشأنهم في الخير مشهور.

وهو أول من بويع من هذا البيت النصري بحال الصغر وحداثة السن وهو ممن أملينا الكتاب بسببه ممن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام.

وكان على عهد بيعته عمه حاضراً بحال الاكتهال[1]، وبقية بينهم وافرة الرجال. وكان هذا الأمير وافراً مدركاً تولى خُدام أبيه كفالته وتدبير أمره والذب عنه.

وثار عليه عمه، ونازعه الملك بمظاهرة شيخ الغُزاة إياه حسبما يُذكر.

وهو أن الشيخ أبا سعيد عثمان بن أبي العلاء لما تصير الأمر إلى الولد، وناب

---

(١) يريد أن عمه كان في العقد الرابع من عمره أي في حدود الثلاثينات، يريد كيف يكون لذلك بيعة مع وجود عمه في سنّ تؤهله لتولي الحكم؟!. وإن كنت أنا لا أقر هذا ولا ذاك، لأن الإسلام يعرف لمن تكون البيعة، ومتى تكون البيعة، وكيف تكون البيعة، ولا يعرف نظام الإرث في تولي الملك أو الرئاسة أو الحكم.

عنه وكيل السلطان/ الفقيه العدل محمد بن أحمد المحروق مصطنع الشيخ احتقر [١/٢٢٦] الدولة، وسامها أعمال غرضه، وإنفاذ أمره، وقبول شفاعته، ووقع التوق في بعض، فعلّق الموجدة به والعتب عليه، وقطع أن صاحب الدولة لا بد أن يقصد منزله لاسترضائه، فتصرف فيه على حكمه.

ولما حذر ذلك الوكيل أوعز الرجال بالحمراء أن تضرب على يده وتمنعه في سبيل نصح السلطان عن الخروج من معقله.

فزادة الموجدة، وأظهر الشيخ الانصراف عن الأندلس وهو لا يظن إلاّ مكان لتسريع ذلك.

فلما عسكر بظاهر البلد اغتنمت غضبته، وأمر أن يمنع من دخول المدينة رجاله. وقدم على الغارات يحيى بن عمر بن رحوا بن عبد الله بن عبد الحي نظيره.

فلم يسع الشيخ إلاّ التصميم إلى مرسي المرية، وشرع منها في مخاطبة ملوك الجهات التي يقصدها بحملته، فتثاقل الكل عن قبوله.

وكان وصوله إلى مرسى المرية في الثامن عشر لصفر من عام سبعة وعشرين وسبعمائة. وفي الحادي عشر من جمادى الأولى داخل حصن أندرش من عمل المرية، وهو قطر الجباية، واستدعى عم السلطان الذي صرف بعد بيعة ابن أخيه إلى تلمسان موصل إليه، وبايعه.

وتوجه ولد الشيخ إلى صاحب قشتالة فحركه إلى جهة رُندة، فاستولى على حصن وبرة وما إليه من الحُصون، وعام جر الفتنة، وما أعده ملوك بني نصر للشدائد من عدة.

وكانت بين جيش الحضرة وبين المذكور مواقعات هلك فيها ولد الشيخ، وعطل الخطة ما كان من قتل الوكيل صاحب الأمر بتدبير أمر سلطانه عليه وقد قهره وأجلى عنه طائفة مختصة من مماليك أبيه، فاغتاله، وقد دخل دار الجدة يعاوضها في المهمات على عادته مملوكان حدثان ممن أعفى منهم هجماً عليه، وقتلاه بين يدي الجدة العجوز، وذلك عشر اليوم الثاني من محرم سنة تسع وعشرين وسبعمائة.

وقد كان السلم تم بين الفريقين في رمضان من السنة قبله.

وصرف العم إلى تلمسان يوسع من استدعائه ذماً، واستدعى الشيخ إلى رسمه من الخطة، ومكانه من الخطوة ثاني يوم الكائنة، فأقام الرسم إلى حين وفاته في ذي قعدة من سنة ثلاثين وسبعمائة.

فثبت الأمر في يديه. . . [١] من بغى عليه إلى أن ترعرع وظهر، فكان مثلاً في

(١) موضع النقط كلمة مختلطة المداد.

الفروسية وعبر البحر قاصداً باب السلطان الجليل والد الملوك وكبير السلاطين المولى المقدس أبي الحسن مستصرخاً على عدو الإسلام ومستدعياً إلى جهاد عبدة الأصنام فتلقاه بما هو معروف من الفضل والبر، وخُلي المجد والنائل العم والصلات [٢٢٦/ب] الشاذة عن الحصر بين/ المال الكثير، والجياد الغر، والسلاح المكلل بالدر. ووصل بريه وأصحبه ولده وأول جبل الفتح ففتحه الله له.

وبادره العدو، وقبل أن يَعْلق أصل الإسلام في ترابه، ويستقر نصله في قرابة، فتوجه بجيش المسلمين إلى إصراخة، وبذل الأعمال الصالحات في خلاصة، وحاول العدو حتى أقلع عنه ففازت يد الإسلام به.

فلما تمّ ذلك بنى أبي العلاء إدريس بن عبد الله، وقد ساءهم، ما كان من غدره خُدامة وعينوا أخاه يوسف لمكانه واختاروا بعض أعلاجه للإجهاز عليه ليبرأوا من أمره، وحين تمّ ذلك تعرضوا له أثناء طريقه قافلاً إلى مالقة في بعض أساطيله قد وصل إلى الوادي المنسوب إلى السقائين يرسم ركوبه فأوقعوا به بضفة وادي السقايين يوم الأربعاء الثالث عشر من شهر ذي الحجة عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة.

وبقي رحمة الله عليه ورضوانه خلال ما فرغ من بيعة أخيه مطرحاً مُعرّى من ثيابه مسلوباً إلاّ من فضل الله وثوابه، ثم عطفوا عليه فاحتملوه، ودفنوه بمالقة، وما صلوا عليه ولا غسلوه.

وفي ذلك يقول شيخنا القاضي أبو بكر بن شّيرين رحمه الله:

عـيـنـيّ أبـكـي مـيـتـاً غـادروه ... فـي ثـراه مـلـقـى وقـد غـدروه

دفـنـوه ولـم يُـصَـلِّ عـلـيـه ... أحـد مـنـهـم ولا غَـسَـلـوه

إنـمـا مـات يـوم مـات شـهـيـداً ... فـأقـامـوا رسـمـاً ولـم يـقـصـدوه

ولما فرغوا من قتله وأحكام غدره وختله، بدت لهم سيئات ما عملوا، وعلموا من قبيح صنيعهم ما جهلوا وعن العواقب ذهلوا لما أمهلوا، واجتمعوا بعد أيام من دفن أشلائه وحطّ علامه وكفران نعمه وآلائه فحسدوا صفات دينه بالظفر، وكتبوا فيه عقداً بالكُفر، شهد فيه جملة من أعلامهم وتحت ميم المداد في رقة أساود أقلامهم، ولم يقنعوا بعد الكلام الرعنة إلاّ بكلوم كلامهم، أعظم الله أجره كما أعظم نجره، وضاعف ثوابه كما طهر من زورهم أثوابه.

فلقد عبر البحر لغير غرضٍ إلاّ ما كان من إقامة جهاد مفترض، ولقد ارتكب في خلاص الخيل بنفسه النفيسة الخطر حتى قضى منه الوطر، ولقد أظله شهر الصوم حياه الله بنعيمه ونضيره، وهو إذ ذاك يسكن بالقصر خارج حضرته، وكان محروراً مزاجه يرديه احتدام الفصل واهتياجه، فكانت الصبة تتصل مرافقهم من لدن العصر

بين البلد وبين القصر، فكلما سمعوا النداء، أشاروا بالأثواب لمن يرميهم من تلك الأبواب فتبادر إليه بالماء، وقد قارب الفوت وشافهت/ حياته الموت من غير أن [١/٢٢٧] يستهل عليه قضاء اليوم ولا الرخصة في الصوم، وإن بلغ عذر المجهود وخان العهود، فقد أظهر الحكم العدل الخصم والشهود، وهو أحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين.

وكان على عهد بيعته وعقد صفقته، أعلام مشاهير، فخر القضاة قاضي الجماعة أبي بكر بن مسعود المحاربي الوصي بقشتالة وابنه قاضي الجماعة بعده أبي يحيى، والقاضي أبي جعفر الشاطبي، والقاضي الأصيل أبي عثمان بن سعد، والقاضي البقية أبي الفرج الوادي آشي، والقاضي أبي الحجاج بن أبي الأحوص، والقاضي أبي الحسن بن أبي العيش، والقاضي أبي عمر بن منظور، والقاضي الشهيد أبي عبد الله بن بكر، والقاضي الحسيب أبي عبد الله بن عياش، والقاضي الفقيه أبي بكر بن منظور، والقاضي المؤرخ أبي بكر بن عُبيدة، والقاضي الحاج أبي محمد السعدي، والقاضي المرابط أبي عبد الله بن عبد الوهاب، والقاضي للجماعة أبي جعفر بن بُرطال، والقاضي صدر القضاة أبي البركات بن الحاج، والقاضي أبي إسحاق بن شعيب، والقاضي أبي عبد الله الرعيني، والقاضي أبي عبد الله بن حذلم، والقاضي أبي عبد الله بن جابر.

ومن الخطباء، والصلحاء، والصوفية، والفقراء، والمقرئين، والعلماء مثل:

الشيخ الإمام القيجاطي.

والولي أبي إسحاق بن أبي العاص.

والشيخ العابد أبي عبد الله الساحلي.

والخطيب الصالح أبي جعفر بن الزيات البلنسي.

والخطيب أبي بكر الطنجالي.

وأبي محمد بن أبي المجد الأرجوني.

والخطيب أبي عبد الله بن العربي.

والخطيب أبي علي القرشي.

والخطيب ابن شعيب المريني.

والخطيب القريشي الزبيدي.

وأبي الأصبغ البسطي.

وأبي عبد الله البستاني المفتي.

والفقيه الباروني العزمي.

وأبي عبد الله الطرسوني.

والشيخ زين بن غالب حفيد أبي أحمد الولي.

وإمام الشاذلية أبي عبد الله العنجسي.

وعيسى بن غُذرة الأقروشي.

وأبي علي بن المحزومي الصوفي.

وأبي الحسن ابن المؤذن الراضي.

وأبي عبد الله ابن الفقيه الغرناطي.

وأبي عبد الله بن الفخار النحوي.

والمجد أبي الحجاج الساحلي.

وأبي محمد بن سلمون شيخ التصوف الحلقي.

وأبي عبد الله بن الصناع متبوع بواد القطر الأندلسي.

ومن بينهم من المشاهير، وأعلام الجماهير تضيق عن أعدادهم السطور المكتوبة، والأوراق المجلوبة ومن شيوخ الكتاب المبرزين/ [٢٢٧/ب] في علوم الأدب المخصوصن بالحكمة وفصل الخطاب مثل:

شيخنا أبي الحسن بن الحباب.

وشيخنا الشريف القاضي أبي القاسم الحسني.

وشيخنا القاضي أبي بكر بن شرين.

والشيخ أبي بكر بن المرابط.

والوزير أبي بكر بن ذي الوزاوتين ابن الحكم.

والقاضي الخضر بن أبي العافية.

وأبي إسحاق بن جابر.

والشيخ أبي الحسن التلمساني.

وصاحب الأشغال المحدث أبي القاسم بن الهنا المالقي.

والوزير أبي عبد الله بن المحروق الأشج.

ما منهم مقهور على البيعة بغلبة قبيل، ولا مجبر على اقتحام سبيل، ولا مدعي ضرورة، ولا مستحفظ تقية مشهورة، ولا مهاجر بدينه عن بقعة مهجورة.

وعمّ الولد المبايع حافر، وإلى سخنة عينه ناظر، والقرابة صامتون، وفي قسمة

الله باهتون، وكافل الولد جريح مخبول، وعلج مجهول، وموثق مهبول، والربع مأهول، والقول مقبول، وسن الولد غير مجهول، وما ثم إلاّ تزاحم على الشهادة، وتهالك في ابتغاء الحسبة أو في الهوادة وتمسك بالعادة، وتسليم فيما ظهر لولي الأمر من الإرادة.

فمتى نبش أهل الأندلس بإنكار بيعة صبي صغير، ونيابة حاجب أو وزير، فقد عموا وصموا، وخطروا بربع الأنصاف، فأعرضوا ومالوا، وبما سنوه لغيرهم ذموا.

ولم يكف مبايعة الصبي غير البالغ، ولا القرشي المرفوع في الدراع المستعد به للنزال في سبيل الله والقراع، وتقديمه لم يستوفِ للحلم زماناً، ولم يعرف بعد حناناً، حتى قتل ظلماً وعدواناً، وأشهد فيه بالكفر زوراً وبهتاناً، وجلى العوار على الأنظار، وخلد العار في الأسطار، ولم يستر القبيح بعد الفصل وتحكيم النصل، واحتدى بالصم البكم، وأخر ثبوت الموجب إلى أن فرغ من الحكم.

اللهم لا تفضحنا بالألسنة الشاردة، والألسنة المنكرة للحق الجاحدة، واجعلنا ممن استعان بك على هواه، واشتغل بشأنه عن شأن سواه، ولله در القائل:

ارجع لنفسك فانهها عن غيّها ... فإذا انتهيت عنه فأنت حكيم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

ومن قول شيخنا أبي بكر في رثاء السلطان الشهيد:

استقلا ودعاني طائفاً بين المغان ... وأنعما بالصبر إني لا أرى ما تريان
/ قضى الأمر الذي في شأنه تستفتيان ... ومضى حكم الإله ما له في الحكم ثان [١/٢٢٨]
مات يوم السلم قعصاً قدره الحرب الهوان ... يا خليلي أعتاب حل شجو عنان
واذكرا سابغ النعمة فيما تذكران ... وإذا صليتما يوماً عليه إذنان
ما علمنا غير خير فاقضيا ما تقضيان ... لا نبالي ما سمعنا من فلان أو فلان
غير ما قالوا اعتقدنا وعلينا شاهدان ... وغداً يجمعنا الموقف من قاصٍ ودان
ورضى الله هو المطلوب في كل أوان ... وأخو الصدق لعمري ذو مقامات حسان
وهوى النفس عناء حائل دون المعان ... وعلى البغضاء يطوي ودّ إخوان الخوان
ما بي والله أشلاء على الرمل حوان ... لفتى ما كان بالواني ولا بالمتوان
يمزج الماء نجيعاً وينادي علان ... ليس بالنيابة النكس ولا الغمر المدان
أبيض الوجه تراه والرُّبا أحمر قان ... أي سيف لضراب أي رمح لطعان
ذو فخار خزرجي المنتمي سامي المكان ... ذكره قد شاع في الأرض إلى أقطا عمان
لا يراه الحرب إلاّ حلف سرج أو عنان ... عن صهيل الخيل لا يلهيه تغراب القيان

إن ألمت هيعة طار إليها غير وان يصرع الليل بقلب ليس بالقلب جبان
يا لها من نصبة لولا نحوس في القران وشباب محا جلوه بالردى في العنفوان
لم يجاوز من سنه العشر إلاّ بثمان دوخ الأقطار غزواً من هضاب ومجان
حكموا فيه الظباء لترع من لمح العيان أن يكونوا غادروه في الثرى ملقى الجران
تشرب الأرض دماً منه تهاداه الغوان وتحييه بتسليم ثغور الأقحوان
فالمعاني أودعته بين سحر ولبان وغوادي المزن يرضعن صداه بلبان
ضاع سرح الثغر لما أغمد السيف اليمان .وأعير الأسد الورا القميص الأرجوان
عاطيان أكؤوس الحُزن عليه عاطيان جملة دون صلاة للثرى مما شجان
أو ما كانوا له يدعون أعقاب الأذان؟ لا تهينوه فما كان بأهل لهوان
عجباً والله من أبطان هذا الشنآن بت أهديها إليه بعد ترتيل المثان
ذاك جهدي أن إحسان أبيه قد غدان ويقال الرشح موجود قديماً في الأوان
[٢٢٨/ب] / وعدوك الناس شتاً من عجاف وسمان وهي النعمة حقاً كرّها في كل زمان
أتبديا فارس الخيل بغير الله فان والمعالي تطلب الثأر وتأبى بالأمان
وهي الأرحام لا تنسى ولو بعد زمان أنت من رحمة غفّار الخطايا في ضمان
وهو في الخصم إن شاؤوا وإنّا بوزان والذيْ أفشى قبيحاً حظه عض البنان
سلم الله على من فيه ذو جهل لحان وجزاء بجهاد جاء منه ببيان
ربنا أنت خبير بخفيات الجنان ويداك الدهر فينا بالندى مبسوطتان
ومجال العفو رحب والرضا غض المجان فتغمدنا برُحمى وقبول وأمان
وأجمع الشمل على أفضل حالٍ في الجِنان.

دولة يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن نصر

ولّي ساعة قتل أخوه بوادي السقايين من ظاهر الجزيرة الخضراء عقب إقلاع ملك قشتالة عن الجبل بمحاولة أخيه واتفق الناس على بيعته.

وكان سِنّه يومئذٍ قد توسط المراهقة إلاّ أنه لم يظهر ذلك بعد عليه لحياء به وسكناه بيت الحرة الصالحة أمه، وغلبة النعمة والترف على بدنه.

فلما تصير له الملك تبين فيه ظهور ذلك المعنى باتخاذ أم الولد، وكان لأول أمره كثير الصمت والسكون لا يتناول شيئاً من ملكه ولا يفيض في غير أمور قصده ولا يمضي اختياره إلاّ في مائدة طعامه، وداخل باب قصره بين من يلازمه من صبية

إلى أن استقل ونهضت بالمكان سنّه، وعظمت حنكته، وتوفرت تجربته.

ثم اشتمل عليّ وسنى يومئذٍ قريب من سِنّه فأسند إليّ جميع أمره وفرغ لي من تدبيره، واستراح إلى سره وجهره، وسفرني إلى ملك المغرب في هم أمره وبلغ من لطف منزلتي لديه ما يبلغ مثلي من مثله.

وبهذا الباب الكريم المريني اليوم من الإعلام الذين باشروا تلك الحال من يقررها متعجباً مما يتهيأ بباب ملك مخدوم أو يسرعه سلطان لذي مقام معلوم.

حدثني صدر الشرفاء، وعلم الجلساء أبو القاسم قاضي الجماعة أبو علي الحسن بن يوسف الحسن قال:

سأل مني الحاجب أبو عبد الله بن أبي عمر، وهو من خدومة السلطان المرحوم أبي عنان جلدة بين العين والأنف، أن تجري بين يدي سلطانه حديثاً غريباً باشرته من غرائب حظوتك عند سلطانك مما شاهدته عند السعادة/ إليك، فاستطردت إلى أن [٢٢٩/أ] ألمحت بكم.

قال: ففطن السلطان أبو عنان لغرضنا فأخذني إلى الجمع من خديم ومخدوم وينكر الأخلال بالرتب وإهمال الأدب جارياً من عكس الغرض بما اختاره من الذنب.

وكان السلطان أبو الحجاج رحمة الله عليه من جُلة الملوك فضلاً وعقلاً واعتدالاً وباشر بنفسه الوقيعة العظمى بطريف مواسياً لأمير المسلمين ملاقي التمحيص في سبيل الله تعالى، وقصد نصره فحسن القول عنه لذلك.

ولقيت أيامه شدة لتملك العدو قلعة يحصب، والجزيرة الخضراء.

ثم توفاه الله تعالى على يدي محرور هجم عليه بالمسجد الأعظم من حرابه، وقد خفي مكانه يوم عيد الفطر عام خمسة وخمسين وسبعمائة في الركعة الأخيرة من الصلاة فطعنه بسكين كان قد أغرى بشحذها وعلاجها.

وقبض عليه واستفهم، فتكلم بكلام مُختلط، وقتل، ثم أُحرق بالنار.

واحتمل السلطان إلى منزله فلم يشعر إلاّ وقد قضى رحمة الله عليه.

وولّي بعده ولده محمد.

دولة محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر

بويع صبياً لا أثر فيه، لا نبات ولا معرفة تدل على بلوغ، إلاّ أن سنّه سارعت في زمن المراهقة على العتاد لبعض الإربة، وقاصرة عنها في بعض.

وتمّت له البيعة في حفل مشهود ومجمع لغيره غير معهود، فلم يختلف عليه

اثنان. وبيعته مشهورة، بل ملأى اتصل خبرها بالسلطان أمير المسلمين أبي عنان، فأحاطها وغبط فيها حسبما كُتِبَت به في كتابه.

وتمت أيامه على أتمّ ما يكون من الأمان، وخصب الزمان إلى الثامن والعشرين من شهر الصوم سنة ستين وسبعمائة.

ثم كان التغلب على دولته الأولى واستولى على الأمر أخوه إسماعيل حسبما ثبت وكتبنا في كتاب «الإحاطة» و«اللمحة البدرية» فلينظر هناك من أراده.

دولة إسماعيل بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر

وكان فتّى وسيماً حسن الخلق مُحطا في لذاته لاستيثار غير النجباء بصحبته، استجلب له الحظ قريبه وحفيد عمّ أبيه، وزوج أخته ليجعله سبباً لحظة، فتمشت الأمور باحتذاء السيرة المتقدمة إلاّ أن هيبته الأمر السلطاني ارتفع حجابها.

ووقع التحاسد والشنئان بين السباع القائمين بالدولة، وأحكم صهره. . .[1] باسمه التدبير عليه، وتدرجه فأكده الخبير شأن أهل الغدر الذين تلمع للإدالة منهم الكتاب وصمت آذانهم أن تعلمه العتاب، وشدت الأم يدها من زوج ابنتها على السراج الغرار والرشيق الفرار حذار الناقة، ومهدت الجنون والحماقة، فهجم عليه بمحل سكناه، وأحاط به وقد امتثل/ غرتهِ وهو مبتذلٌ في بعض قصوره مع شرذمة لا تدافع عنه. [٢٢٩/ب]

واعتصم بفرج في القصر، ثم ألقى بيده طامعاً في العود إلى الشقاق الذي ألفه. فلما ذهب به إليه، أشار الزابل بقتله فقتل، وقتل معه أخ له صغير اسمه قيس.

وذلك في عشي ليلة اليوم السابع والعشرين من شعبان عام أحد وستين وسبعمائة. وولّي بعده التوثب على مُلكهم.

دولة محمد بن إسماعيل بن محمد بن فرج بن إسماعيل بن نصر

واستقر الملك بيد ابن عمهم هذا بعمل التوثب، والمقدم على العظيمة أشبه الناس في خلقه وسيرته محمد بن عبد الجبار المتوثب على دولة هشام بن الحكم وهادم الدولة العامرية حسبما شهد به التاريخ.

وكان هذا الفتى مقدماً شاطراً بريئاً من التشمت خالصاً نفسه آخذاً إياها بطريقة الفتيان والحرافشة، سخي اليد، مهذب الخلق، أنكحه السلطان أبو الحجاج بنته لرغبة المحل من القرابة خاصة مع الغض عن العيوب وتلك الغلطات، فناله خمول،

(١) موضع النقط كلمة مختلطة المداد.

وأقصاه حمله على التدبير على ولده بإعانته حظية السلطان أم ولده المعدول عنه يوم الولاية المسماة بريم.

وكنا قد غفلنا عن الاحتياط على المال وخزانته يومئذٍ بمحل سُكنى السلطان لنظر هذه المرأة فرزأت منه ما صيرته في سبيل التدبير.

وأحكم هذا الصبي الصهر أمره بمداخلة كل منحرف عن الدولة وحسود من حساد الله بالنعمة أو مستطيل للمدة أو ممطول بالولاية أو متوجع من العزلة.

وداخل مشايخ المدينة، وأعيان الحضرة، فلم يبقَ إلاّ حاطباً في حبله ومحرضاً له على فعله مللاً للعافية وجهلاً بمغيبات الفتنة، كأنه عرض عليهم تصير الأمر إلى عبد الملك بن مروان أو أبي جعفر المنصور أو هشام الرضي.

ولم يبق منهم رجلاً ممكناً من زمام عقله معلقاً على الأمور قسطاً من دينه يقول له بلسان حاله أو مقاله: ما أشبه الليلة بالبارحة، والغادية بالرائحة، لا هاء الله، بل بينهما ما بين الحلال والحرام والرشد والضلال.

فتسور القلعة بالرجال، محكماً لذلك ليلة الثامن والعشرين من رمضان من سنة ستين وسبعمائة.

وفرّ الموثوب به محمد إذ كان خارج القلعة فلحق بوادي آش، ثم اتصل بالمغرب.

وتمّ له الأمر إلى أن استخلصه لنفسه، ولم يقصر فيه في اجتهاده.

وأتاح الله له وقيعة على النصارى بظاهر وادي آش يوم السبت التاسع عشر لشهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين، لم يتقدم/ العهد بمثلها لمثله، نيف الأسرى فيها [٢٣٠/أ] على ألف فيهم الكبار والفرسان الدارعة، ادخلوا الحضرة في الجبال يضيق عنهم الطريق والفضاء العريض، استولت الأيدي على أسلابهم، وكان صنعاً لا كفاءة له، تسببت عنه من جده صاحب قشتالة وحرصه على استدعاء عدوه من المغرب لما فرع الله عنه من أمره.

ولما أجاز إليه البحر واستقل عدوه برندة اضطرب أمره، وافتض رأيه القابل اللحاق بصاحب قشتالة طائفة عديدة فمن خاف على نفسه وتوقع من طالب الأمر المطالبة بذنبه، فكان ذلك من غير عهد اتخذه لنفسه ولا ذمام لسلفه ليقضي الله فيه قضاءه، فلم يرع قصده.

وتقبض عليه وعلى من معه مخالفاً في ذلك الرأي قومه، وقتله بيده بعد أن مثل به بطليطلة من ظاهر إشبيلية ثاني رجب من السنة.

وألحق به طائفة بمحلها من صحابته، وأسر سائرهم، واستخلص ما كان عند الجميع من ذخيرة.

وانتهى أمره على هذا السبيل وعاد بعده الأمير أبو عبد الله مخلوعاً إلى دار مُلكه.

دولة محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر

وكان قد أعمل الحركة من مدينة رندة إلى أحواز مالقة فيسر الله له أمرها، إذ كان قد استظهر بالطاغية، وحصل بسببه على جملة من حصون المسلمين حامن الطاغية فيها بعهده وأمسكها لنفسه، فسهل ذلك مع قضاء الله دخول مالقة.

وعند ذلك أزمع عدوه الفرار من دار ملكه، واتصل به الخبر، فأعمل السير إلى الحضرة، وعاد إليها زوال يوم السبت الموافق عشرين لجمادى الثانية من سنة ثلاث وستين وسبعمائة، فاستقرت بها قدمه إلى الآن، واشتعلت الفتن بين صاحب قشتالة وبين أخيه بما أوجب الهدنة، وأن ظهر المسلمون على طائفة من بلاد العدو في سبيل إعانة بعضه على بعض بما هو معروف.

واختصصت بمؤازرته ومظاهرته على أمره وبذل الجهد في نصحه والغيرة على دينه وجمل ذكره تارة بالعتاب وأخرى بالكتاب إلى أن ترجح عزمي على الهجرة وأعمال الرحلة.

وأنا أفرد فصلاً أقرر فيه حالي ليكون من اتصل به الخبر بعدي أو شك في قصدي على عهدي حاصلاً على اليقين من أمري والبيِّنة من عذري حتى لا يبوء بإثمي ولا يغمس اليد في ظلمي، وأن يقل كنت قد خرجت عن العهدة بالبيان وعولت في المثوبة على الرحمن.

وأنا أقسم بالله أنني لا أتعمد في الخبر طريق البهتان، على أن المتجاوز في مثلها يفضحه قريباً الزمان ومباشرة المعاصر لهذا الشأن فنقول:

[٢٣٠/ب] أما حديث: ما لي بباب هؤلاء الأمراء من سلف/ في دولتهم من حظ وإلى ملكهم من وسيلة، وفي أبوابهم من نجله، فقد تضمن ذلك مع شهرته كتاب: «الإحاطة» وكتاب: «المفاخر الطيبية».

ولما صار الأمر إلى هذا الرجل[١] باستدعاء إشارتي، وأمسكت يده للناس يومئذٍ باذلاً في تثبيت إربة جهدي بلغت الخطوة منتهاها، والدرجة التي تؤمل بأبواب الملوك إلى الآماد أقصاها.

إلى أن وقع الكياد على الدولة، وكان ما هو معلوم من تسور القلعة وتحويل الحالة، وكنت ليلتئذٍ ساكناً بقصر ابنتيه بالشريعة القديمة من شرقي المدينة، كنت

---

(١) جاء بالهامش تعريف به نصه: هو: محمد بن يوسف، وهو بخط دقيق كبير أشبه بخط الناسخ. والله أعلم.

أسكنه أكثر فصول السنة.

وكان الشيخ مولاهم رضوان العبد الصالح بالقلعة مقيماً لرسم حفظ الأمانة.

والسلطان منتقل إلى جنته خارج البلد في سبيل الراحة.

فلما استولى المتوثب[1] على دار الملك بمن معه من رجال الكريهة، قصد دار الشيخ فقتله، وأخرج الأمير فأجلسه.

واتصل الخبر بأخيه[2] السلطان، فلحق بوادي آش.

وتعجل إلى المحل الذي بثّ فيه ثقات الولد القائم بدار الملك.

فاستصحبني إليه بأمانة، فابتدأ الأمر من حيث وقف أبوه، إذ كان يشاهد لطف محلي منه وترفعي عن حظ الخدمة في مدة أخيه بعده.

والصبي مغلوب على أمره وللعصابة الدائمة التصرف في ملكه، فرابهم محلي منه.

وقالوا: إنما كان هذا الكدح المعتمد والخطر المرتكب لأن يجعل الملك ثانية في يد هذا الرجل يأخذ منا ثار دولته ويقتضي حيفة سلطانه، فقروا له - وقد امتنع أخوي بوادي آش، وأجاره أهلها - أنني أحطب في حبله، وأعمل الحيلة في خبره.

وتقبض عليّ وانتهب قليل ما يعلم لي وكثيرة، وتافهه وخطيره، وأعمل التدبير في الإراحة مني، والاحتيال في تسبيب هلاكي، مع أن ألطاف الله تعالى لم تخل عني حال الشدة من ترفيل اعتقال، وتخلص جفوة مقال.

وجرت بين صاحب الدولة وبين المتصير إليه ملك المغرب يومئذ السلطان المولى المقدس أبي سالم رحمة الله عليه ورضوانه، المفاوضة في استجلاب المستقر بوادي آشي إلى المغرب، بقصد ابتغاء الهدنة، ورفع الفتنة.

فلما تمّ ذلك جعل الحديث في أمري عهده، والإشارة بخلاص.

وبعث الله لي من حيث لا أحسبه في الكون جد أو حمية.

فتم بعد لجاج وإثارة عجاج، واستخلصني الله ففكت عني بنان النكبة، وفتحت

---

(١) جاء بالهامش تعريف بقلم دقيق أشبه بخط الناسخ نصه: هو محمد بن إسماعيل بن محمد بن فرج بن نصر وهذا المتوثب هو الذي قتل صهر إسماعيل بعد أن سعى له ثاب له الأمر واستقرت له الدولة. قال ابن الخطيب: محمد بن إسماعيل هذا مشؤوم أخبث نسمة ذرأها الله من التراب، لا غاية وراءه في المكر، والخديعة، والجور، وسوء العقد وخفر العهد.

(٢) في الهامش تعليق بنفس القلم المشار إليه من قبل ونصه: هو إسماعيل بن يوسف أخو السلطان محمد لأبيه.

بالفرج أقفال الشدة، وكان قدري على السلطان أولى الناس بزجى وصحبة رسوله الخليق باعترافي وشكري.

[٢٣١/أ] وخرجت لا أملك/ إلاّ نفسي، وفضل ربي ملطوفاً بي باستصحاب أهلي وولدي وقدمت عليه تلو المخلوع، وكلانا مطوق المنى، وأنشدته يومئذٍ القصيدة المشهورة محرضاً له على نصر من قصد بابه واعتمد جنابه، والمثور يومئذٍ قد جمع الدنيا في جملتها وأشياخ المغرب وأعلامه، قد احتفلت واجتمعت وهي:

لما حل لديها من نحره ذكر ... وهَلْ أعشب الوادي وتمّ به الزهر

....(١)

[٢٣١/ب] / .... وهي طويلة اختصرتها لطولها، وشهرتها.

ثم ترجح لديّ السكون إلى العافية، والتمتع بالبقية فجنحت إلى السكنى بمدينة سلا حيث طنبت الحرمة رواقها وأقامت الحسنة بسبب الضريح المقدس أسواقها تجري علي بها النعم، ويظلّلني المجد والكرم، فلا أعدّ من عري إلاّ أيام مقامي بها وسكناي فيها تفرغاً إلى ما أريده من دنيا وآخرة وعافية شاملة، وجنة عاجلة وصاحبي يقوم العزم في شأنه ويقعد، ويقرب ثم يبعد ويستحثني إلى صحبته ويجعلني عمدة في وجهته، فلا يجد في بقية، ولا لمطاردة الأمل قِبَلَهُ مسكة إلاّ ما كان من رأي وإشارة، وإهداء نصيحة، وراضاني أخيراً على إلتماس عهدي، واقتضاء حظي بالقدوم عليه إن جبر الله كسره ورد أمره مع ولده.

وانصرف إلى طيته التي سفرة ليلة وحشتها على صاحب اللطف الخفي بعد أهوال تشيب لها الذوائب، وتذلل لعدو الدين تهون عنده المصائب، وقاني الله مواقفها، وكفاني مخازيها، لم يزل هو يغبطني بها ويقرر عناية الله في الصون عنها.

وما راعني إلاّ كتاب المستولي على دولة المغرب عمر بن عبد الله بن علي رحمهُ الله، وكانت تأكدت بيني وبينه الصحبة، وتوثقت من رعيه وبره العقدة بها، يخبرني بما انتهى إليه أمره بغرناطة، ويرى ما عندي في زيارته والوصول إليه مع ولده.

[٢٣٢/أ] فعزمت/ على الوفاء بعهده وأسرعت إلى قصده بعد أن قررت عند المذكور وبين سلطانه عزمي على تعجيل الأوبة، وعمل على إسراع العودة، وتركي الأهل والولد تحت جناح الحرمة والجوار المريني الواقي بالذمة.

---

(١) فذكر قصيدة طويلة في المدح والثناء والإطراء على الملوك، والتي هي من عادة الشعراء عند الملوك لاستخراج ما لديهم من الماء أو دفع الضرر أو نيل الحظوة، ولم أحب أن أذكرها نظراً لسوء الخط أو سوء التصوير، ثم لأنها لا تحمل الصدق ككل القصائد في هذا الباب وليس المقام مقام شعر أو أدب إنما هو مقام تاريخ، وقد اشتملت على باقي الصفحة [٢٣٠/ ب] ونصف الصفحة [٢٣١/ أ].

وقدمت عليه بغرناطة مع الولد قدوم الطبيب على المريض المشفى على الموت القاطع بالصوت، وقد زالت الدولة في أمة ليس فيها إلاّ مذنب بقول أو عمل، والمال معدوم، وبناء الملك مهدوم، والألقاب قد ذهبت رسومها، والأحوال قد تغيرت صفاتها، والدنيا قد اختلفت مألوفاتها، والخدام المتغلبون على الدولة قد سفكوا الدماء، واتبعوا الحائف، وأطاعوا المطامع بحيث عادة الثورة، فلولا دفاع الله كانت القاضية.

فشمرت لإصلاح القلوب، وسد الحسائف وتأنيس الشارد، وتأمين الخائف، وإرضاء الجند وتدفير المال ومحاولة عدو الدين.

وقد اقتضيت خطة بالسراح إلى أمر معلوم حل.

فنقلني إلى غيره وأسد رجسي سواه، وقد عادت مع ذلك عوائد العافية، وفتحت على الأندلس أبواب الخير والخيرة، فصودقت الملوك، واطردت الفتوح، ودرت المنوح، واستقامت الأمور بما يعرفه الحاضر لهذا العهد، فلا يسعه جحده، ويعرفه من الكتب الزمن الآتي من أوقعته عليه مطالعته، وفي كل آونة وساعة، وأثناء كل تفرد وخلوه بعد أن كبر الولد، واستراح مرهم الحرص الجلد، أخاطب نفسي فأقول لها:

يا مشؤومة أما تشعرين لما نزل بك حملت هذا الكَلّ على ضعفك، وأوسعت هذا الشعب في فكرك، وعمرت بهذه الحُظوظ حظ ربك، وتعرضت لأن تسخطي الطالب الممنوع بخيبته وتسخطي المعطى بما يرى أنك قد منعته من الزيادة.

عطيت وتسخطي الأجنبي بالقبول على عدوه، والميل إلى ضده، وبالإعراض عن صديقه وتسخطي الجاني بإنقاذ العقوبة في جنايته، والمجني عليه بالتقصير عن غرضه الذي يقتضيه شفاء نفسه، وتسخطي الجيش باختياره وعرضه ومنع المدفوع إليه في غير حقه، وتسخطي الرعية باستقصاء الجباية وأخذها بالأعداد لعدوها في الشدة من تحصين ثلمة، وإعداد عُدة، واختزان ماء أو قوت لشدة، وتفادي طلاب الولايات إذ..... [1] ربع عددهم وأنت مضطرة إلى مطل وعدة... [2] بعد أوله، وتعادين الأهل والقرابة، والولد يمنع الأيدي والعدل في الشهوات، وسد أبواب الشفاعات، وتعادين خاصة السلطان بالانفراد به دونهم.

وتعادين الملوك المجاورة/ بالوقف في أعراضهم التي يصعب قضاؤها، ويضرّ [٢٣٢/ب] بالدولة مضاؤها.

---

(١) موضع النقط كلمة غير مقروء بالمخطوط.

وتعادين ولد السلطان وحظيته، فلكل منهم مطلب يختص به، وطور مثلك بعيد على التهجم فيه، والافتيات على صاحب الدار.

وتعادين السلطان بعدله في الشهوات، والقيام دونه دون كثير من الأغراض، ومخالفة أمر بحسب الهوى من الخدام، وتقريعه في باب إفساد الأموال إذ لا تعطيه بسبب الدولة عليه والتربية له والأمن من بادرت الحق الذي يجب له بعد أن علت عليه السنّ وكبر الولد ونائل العز.

وهذا كله بعض من كل وقليل من كثير فلا تجدر عنه حجة ولا لشيء منه مدافعه.

وصرت أنظر إلى الوجوه، فألمح الشر في نظراتها، وأعتبر الكلمات، فأتبين الحسائف في لغاتها والصبغة في كل يوم تستحكم والشر يتضاعف ونعمة الولد تطلق لسان الحسود وشبع الكلاب المطيعة في تهييج حسائف النمور الجائعة والأسود، والأصحاب الذين تجمعهم المائدة كل يوم وليلة يعتنون في الإطراء والمديح وتحسين القسم والمحالات في الغي والتقرب بالسعي، أنظر إليهم يتناقلون الإشارات بالعيون والمغافرة بالجفون والمخاطبة باللغوز فإذا انصرفوا صرف الله قلوبهم قلبوا الأمور ونقلوا العيوب وأفسدوا القلوب، وتعللوا بالأحلام، وقواطع الأحكام.

وكنت وصلت من المغرب ولي وردٌ من الليل، ووظيفة من الذكر، وحظ من الخير، ضايقني في ذلك كله فضول القول والعمل، فهجرت السبحة، وطلقت الورد، وماطلت الفض بوقته، وعمرت الزمان بما لا يغني عني من الله شيء، فلا متعة بالمطعوم لاختلال الصحة ولا بالنساء لذهاب الشبيبة، وضيق زمان الراحة ولا باللباس لتبدل الكبرة، ولا في اكتساب المال لضعف الأمل، ولم أك قطّ اتخذت الكسب بضاعة، ولا صرفت إليه الهمة، ولا عملت عليه ولا في الوطن فضل يوصل إليه، وصرت أسهر الليل، وأتوقع الشر وأقف للدنيا موقف المتوقف في تلقي السلاح يُمْنَة ويسرة، ولا حصول مع هذا كله إلاّ على قوت مكرود، ولا يعوز في قرية ولا يفقد بين أُمَّةٍ وأنزل الله عزّ وجلّ على جبال العجز والكسل، وسقوط الأمل وتوقع الشر، وفساد الفكر، وجمع المطالب كلها والآمال بأسرها، والغايات بأجمعها في حصول راحة وتهنيء خلوة وقطع ما بقي للعمر من برهة في دار أمن وخلوّ من شغب، وصرت أتخيّل ذلك وأمثل الفوز والحصول عليه كما يتخيل مجنون بني عامر الظفر بليل، والانفراد/ بها من غير نظر لمهوي يردي، ولا سبع يعتدي، ولا وادٍ يغرق، [٢٣٣/أ] ولا نار تحرق، وعمى الهوى، واحتجاب النما وتأميل السما، كأن سعر الراحة رخيص، ومطلب الخلاص لا يعثر عليه تخصيص، ولا يتعين بين يديه تمحيص.

وسبحان الذي يقول: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٢٨].

فألححت على السلطان تارة أطلبه بإنجاز وعده والوفاء بعهده، واقتضاء مضمن خطه، وتارة بالعمل على اكتساب بُغضه، والجفاء الذي يحل عُقدة اغتباطه، ويذهب الحظ من باطنه، بلغت في ذلك بالقول والعمل إلى ما لا يبلغه محكم من عقله، ولا محافظ على نفسه، وهو يحمل ذلك كله في جنب المظاهرة بي على أمره وعلمه بمحلي من الصيانة لملكه، والنظر بعين الأبوة لأهله وولده، إلى أن لم يبق بيني وبينه إلاّ أن يذهب القتر، وينكأ القرح، وثاب لي النظر بإزماع الفرار عنه، ومصانعته بين يدي ذلك بالتأني له، والانحطاط في هواه.

وشرعت في عقد السلم مع العدو لسنين ورتبت الأمر ترتيب الآباء للبنين، ورجوت إحسان الله لي ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥]. وقلت أحج بنفسي، وأقضي فرضي، وأشغل الناس بغيري، وأكون بعد ذلك محكماً من أمري، فما اقتضيت من المولى المقدس أبي فارس عبد العزيز[1] رحمة الله عليه، وقد اتصل بي فضل دولته، وطهارة نشأته واعتدال طريقته، عهداً بخطه ضمن لي فيه المشاركة في أغراض من إقامة تحت حرمة وإعانة على حج وزيارة، ومبالغة في شفاعة أو تسويغ قفول إلى الأندلس إن شئت عودة، وتيسر اللحاق ببلاده، والحصول بجبل الفتح من إيالته. والجواز إلى سبتة غرة جمادى من سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة في أسطوله وتحت أقصى ما نؤمل من بره.

وفارقت الأهل، والبلد، والمال، والولد، والجاه الذي بلغ الأمد، لا لدنيا ثانية نعتاضها من المطلقة، ولا لخدمة نستأنفها عوض تلك المطروحة، ولا لفرار أمام جناية، ولا لفتكة في مال جباية، ولا لتفويت معقل لعدو الملة، ولا لسفك دم يطلبني بتبعه، ولا لخيانة في أهل ولا لسعي على ملك، نبرأ إلى الله من ذلك كله.

إنما تخلص قصدي بعد تنخيله في الفرار إلى الراحة، والتفادي من حمل الكلفة، والاشتغال بما يعني، لكن في ظل العافية، وتحت سحاب النعمة وذمة الحرمة نسأل الرقيب على ما في القلوب إن كنت قد شاتت في ذلك . . . .[2] ولا [٢٢٣/ب] يمن عَلَيّ بحسن لكن لم يخل هذا كله من افتات على القدرة وغرور بالحول والقوة، وتحكم على الله في تحسين العاقبة، فوقع فيه من التنغيص ما لم يُفقد فيه اللطف من ربّ العزة، ولا عدمت إقالة العثرة، وحسن الكفاية. وكانت النية صرف الوجه إلى

---

(١) في هامش المخطوط تعريف به بقلم دقيق أشبه بخط الناسخ نصه: هو: عبد العزيز بن [الحسن]، يكنى أبا فارس، بويع يوم الأحد الثاني والعشرين لذي الحجة لسنة (٧٦٧). وتوفي يوم الخميس الثاني والعشرين لشهر ربيع الآخر عام (٧٧٤). (. . . .) من تلمسان وله أربعة وعشرون سنة، وكانت دولته ستة أعوام وأربعة أشهر. قلت: موضع النقط ثلاث كلمات غير ظاهرة بالمخطوط.

(٢) موضع النقط ثلاث أو أربع كلمات غير مقروءة لعيب في التصوير.

مدينة سلا حتى أُبْلِعَ النفس ريقها، وأخطب لأفكاري هدوءها، ثم أمد اليد إلى ثمرة الهجرة، وأشرع في الرحلة.

فاتصل بي وأنا بطنجة كتاب ولدي، وقد استوحشوا ورابهم استيحاش السلطان، وتوقعوا الإغراء بهم، وتطرق الشر إليهم.

فصرفت وجهي إلى الباب العزيزي في سبيل استخلاصهم وقدمت عليه بتلمسان في التاسع عشر لرجب من السنة.

فتلقاني بما يليق بحسبه وشرف مذهبه من أركاب الخاصة، ورفع الحجبة، ورعي الوسيلة ودنو الجلسة، وإجراء النعمة.

وبادر إلى طلب الأهل بأعمال بنانه بحسب ما رسمته من العبادة، وتلقى رسوله ممن فررت عنه ما يرق له ذو النفس الحرة ويؤثره مبتغى الوسيلة من إرسال العَبرة، واستفظاع الفرقة، وتقرير ما كان لي في قلبه من المحافظة والمودة، واعترف ببراءتي في وطنه من التبعة، وصرف الأهل والولد، قاضياً للحاجة، مقرراً في الطريق بنية الجراية.

وشرعت عند ذلك في الحركة إلى وجهتي الحجازية، فعلق لي الوعد بتوجيه الربعة، والشروع فيما يخص ذلك من العزمة، فأخذت في تقرير الإقامة وانتظار ركب الرحلة.

وبلغ الخبر هذا الاختصاص والاصطفاء والمزية على الجلساء، وأعمال النّواء بهذا الباب السامي العلاء، فعجز منه الصبر عن تحمل الغيرة، وارتفع وحكم المسألة، وقطع بأني بنيت في الباب المريني على الخدمة، وكثرت عليه في جهتي كتب السعاية ممن جلا عن وطنه من القرابة، وقرر عنده مبالغة ولدي فيه بالإداية وأعمل من لديه من الخدام الذين خلا لهم الجو مني وسرحت حجلهم بعد رحيل صقري أقصى القدرة في إفساد حالي لديه بأنواع السعاية وفنون النكاية ليؤمنهم من الرجعة من القفول واللقية.

فتأتى لهم من ذلك ما خلص أجره، وعظم لديه وزره لا بشهادة عدل مقبول، ولا بثبوت خطة معروف، إنما هي إلاّ فتن راشها الهوى وبراها مع براءتي من لفظها ومعناها وموحدها زور وحساد، وبضائع أسواق فساد، واستبلغ المجهود في استبعاد/ [٢٣٤/أ] هذه الجنة التي انتقلت إليها بكل حيلة.

فما وجد السعي مكان، ولا ألفت المكائد رجاءً ولا أهلاً.

فعاد التشفي على النعم، وإهانة الرقم، وإحراق المصنفات، ومحو الحسنات، وتغيير الصدقات. وكنت لغروري بالزمان، وثقتي منه بالأمان، أظن أن لا سبيل

للدهر عَلَيّ ولا نظرة له إليّ، وأن مفارقتي لمن بالأندلس إنما هي مفارقة أب لولد، وقلب لخلد، وأن عقاري الموروث والمكتسب جاري مجرى الوقف الذي لا يبدل وصريح الشريعة الذي لا يتأول، وأن فوائده تلحق بي حيث ما كنت من المعمورة، فلا أكلف رزقاً، ولا أعمل جهداً غروراً، واستحكمت صبغته لما لمساعدة الأيام والثقة برعي الذمام ثم دكّ الجبل العاصم من الطوفان، والممسك للأرض عن الرجفان.

فكان موت المولى المرحوم أبي فارس الذي أوينا إليه وعولنا عليه، ووثقنا بوعده وتمسكنا بعهده، فانحرق الحجاب، واستأسدت الذئاب، واستنهرت البغايا والذباب، وظن أنها الداهية التي لا ترفع، وأن الوطن بعده إنما هو السراب البلقع، وأن ولد السلطان لا تنعقد له بيعة، ولا تقوم له دولة، ولا تستقيم لولده دعوة.

ولم يعلموا ما خبأ الله لبيئة الإسلام من عماد خلف الذاهب، ومناراً بأن بعد أفول البدر المذاهب، وأن الله سبحانه مدّ مدة الوزير الذي خلف العماد، وصان الحريم والأولاد، وحفظ البلاد والعباد، وأقام الحج والجهاد المعروف الحق المشهور الجد المتميز في حلبة الأمر العلوي بالسبق والحسام الذي فتح جبال الغرب وصحارى الشرق.

ووقعت بينه وبين صاحبي المراسلة والمكاتبة والمحاورة، والمخاطبة، ودسّ الإغراء، وتحامل السفراء، ووصلت الوزير البراءة بخطة سالكة سبيل التلطف بكل اعتبار، معلقة رسوم الودّ بأمر غير كبار مقرراً أن خاطره مع مداخلتهم إياي لا يتصف بقرار، ولا يتجاوز الذي أن تحكم استقرار، ولا جهل بما لحرمة الباب المريني من علو المقدار.

وعرض الوزير ذلك عليّ فبتهلته ومحضت فيه نصحه واخترته رأياً. وبذلت في تحينه سعياً، وقلت: هذا الرجل لم يطلب في أمري شططاً، ولا أقتحم على مستكرهاً، إنما غرضه انصرافي واشتغالي بشأني، فإما أن نسافر فيستريح من قربي. وما تتوقع ظنونه من أجلي، أو أعمل على اللحاق به بعد قضاء وطري من حجي، وإما أن تضطرني الحاجة إلى استرجاءه واستصلاحه، ويضيق صدري فأرضى بتحكيمه.

وسألته أن يجمع بين الغرضين بانصرافي إلى سُكنى مدينة سلا، واقتسمت له/ [٢٢٤/ب] على إيثاري إياه، وعدم رضائي بعداه، معجباً بمواصف الأنفاس العالية، ووسمت جبال الهمم السامية، ووقع لما جئت به الإنكار، وفي شأن فساده الإيراد والإصدار، وعظمت من تحمل ذلك الأنفة ولم ترضه الملكة المؤتنفة.

وأقسم أن لا يستقر في دولة مرين على الهضيمة، لها بيد الحطيطة حتى تكون لغيرها ثابغة لسواها مصانعة.

وانصرف الرسول عن ظاهر محامله، وعدة بأرفاد ومواصلة، وإجراء وإبداءه في الجميل، وإعادة إلى أن سماسرة الفتنة، وأعداء الدولة دسوا له أموراً من العمل على اجتياز من يطلب ملك الأندلس والعزم إجازته، وأن الأمر فيه قد أبرم، والتدبير قد أحكم من غير أن ينزل الله بذلك سلطاناً أو يشغل به سراً أو إعلاناً.

فأقدم إقدام المستميت، وعاجل الألفة بالتشتيت، وانقاد في هوى غضبه، وجنى على نفسه وعلى وطنه، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

هذا تقرير حالي في انتقالي وارتحالي الذي علقت اليمين والدعاء والتأمين، فمن عذر الله مثيبه، ومن حمل بعدها فالله حسيبه.

فقد علم الصدق من يعلم السر وأخفى، ويقرب زلفى، ويجزي الجزاء الأوفى، فالدنيا أحلام، والعمر منام، وإن جرت الأقدار وراب الإيراد والاصدار، وتعاور الخسف والإبدار، فالدار الآخرة هي الدار.

وكأني بسرح الحياة قد اجتوى، وبساط الجوى قد طوى، وعند الله الفسطاس الذي لا يجور، والحكم العدل الذي يرضى به البر والفجور.

ذكر التعريف بما أمكن من ملوك النصارى بالأندلس على الاختصار

ولما كان هذا الجزء مخصوصاً بأخبار الأندلس، وكان كثيراً مما يمر فيه ذكر ملوك قشتالة، كان من كماله أن نلمع بنبذة من ملوكهم، إذ لا يخلو الزمان ممن يتشوف، لذلك لا سيما الملوك، فهم أبداً لأخبار الملوك نفوسهم متطلعة ولسماع أنباءهم متشوقة.

وقد كنت طلبت شيئاً من ذلك من مظنته وهو الحكيم الشهير طبيب دار قشتالة، وأستاذ علمائه يوسف بن ومار الإسرائيلي الطليطلي، لما وصل إلينا في غرض الرئاسة عن سلطته، فقيّد لي في ذلك تقييداً أنقل منه بلفظه أو بمعناه ما أمكن، واستدرك ما أغفل، إذ ليس بقادح في الغرض.

قال الحكيم:

سألت أعزك الله وأدام/ كرامتك أن أثبت لك ما تحقق عندي من التواريخ التي [٢٣٥/أ] وقع فيها نسب ملك قشتالة، وتفرع ملوكهم، فأثبت لك ذلك مما استخرجته من الكتاب الذي أمر بعمله الملك الأعظم دون القشر، قصدت أن يكون ذلك عندك بأصل فنقول:

ذكر في التاريخ المذكور:

إن الأرض المسماة الآن قريون، وفي الزمان القديم قنطابرية، كانت بأيدي ناس عظماء يسمون دوقيش، وفشا بينهم نزاع وخلاف أوجب فراق أحد أولئك الرؤساء عنها واسمه بلاية بن الدوق فافيلة، وسكن بأرض أسطربوش، وهي بين أرض ليون وغلنسية.

فلما جازت العرب إلى الأندلس على عهد الوليد بن عبد الملك سنة اثنتين وتسعين من الهجرة، وفتح الأرض طارق بن زياد مولى موسى بن نصير، ثم موسى بعده، واستولى المسلمون على أكثر بلاد الأندلس، واتصل الفتح بأرض أشطوريش حيث كان بلاية المتقدم الذكر، قام بلاية لحماية الأرض، واجتمع إليه طائفة غير كثيرة العدد من الشجعان وأبطال الرجال، فحمى جهة أشطوريش، ودافع عنها

المسلمين، وعمت مدافعته وحمايته قطرليون، وقطر برتقال، واطلع بذلك ورد عنه العرب، وقد أنس بقتالهم وكثرت مواقفاته إياهم.

فاتفق أهل تلك الجهات على تقديمه ملكاً بها لاستحقاقه ذلك بنفسه، وبيته وإن كان غريباً عن أرضه، فكان ذلك سنة سبع وخمسين وسبعمائة لتاريخ الصُفر، وبموافقة تسع وتسعين للهجرة.

وهو أول من تسمى بهذه الأرض ملكاً بعد دخول العرب.

ودام ملكه ثلاث عشرة سنة ثم مات.

وملك بعده ابن له يسمى: أقيلة، وتمادى ملكه عامين، ثم قتله دب تعرض له بالصيد ولم يحذره فأتى عليه.

وولّي الملك بعده صهر له من بيته وأرضه اسمه: دون الفنش بن الروز دون بطره من أهل قنطابرية، كان قد وصل من تلك الأرض لزيارة أم بلاية، واعتانته وخدمته فأكرمه بلاية وزوّجه ابنته، فلما هلك لم يوجد أولى به منه.

فملك سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة بموافقة أربع عشرة ومائة للهجرة.

واتصلت مدته تسع عشرة سنة، وكان يسمى الناطوليقة لمعرفته بأصول شريعة الروم المسمى علمها عندهم طوليقي.

ولما هلك ولّي بعده ابنه المسمى: فريولة في سنة إحدى وتسعين وسبعمائة للصفر بموافقة ثلاث وثلاثين ومائة للهجرة.

وفي عهده دخل الأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وعقدت له البيعة بالأندلس، تاسع ذي حجة من سنة ثمان وثلاثين ومائة.

[٢٣٥/ب] ولما هلك فريولة ملك بعده أخوه ابن بلية واستولى على أرض أشطور/ يش التي منها أصله، وأرض غليسية، وأرض برتقال، وبعض ليون، وكان ملكاً كبيراً.

وكانت ولايته سنة ثمانمائة للصفر، وبموافقة ثمان وأربعين ومائة للهجرة، ومدته ست سنين.

وتسمى: قاسطة، ومعناه الملك الصالح، لعفاف وصلاح كان عليه عندهم.

واتصل ملكهم إحدى وأربعين سنة، وكان ابتداء أمره سنة ثمان عشرة وثمانمائة للصفر.

وثار عليها عم له ابن جارية غير ممهورة اسمه موربغاطة فخلعه وملك بعده

خمس سنين. ثم ولّي بعد هذا الخالع قريب له تغلب عليه اسمه مودة، كان أول أمره قساً أي عالماً فقيهاً في دينهم، وملك ست سنين.

ثم عاد الأمر إلى المخلوع الفونش بن فرويلة مدته التي تمام الإحدى وأربعين سنة المذكورة.

ثم ملك بعده لما هلك زميرة بن دون الفنش القطويلة ـ المتقدم الذكر قبل هذا ـ اختياراً من الناس، وذلك سنة خمس وستين وثمانمائة للصفر.

ثم ملك بعده ابنه دون الفنش أوردوينة وتسمى: ماغنة، أي الملك الكبير، وكانت مدته ستاً وأربعين سنة، وولّي صغير السن وعظم ملكه واتسعت مملكته.

وهو الذي نقل دار ملك أبيه إلى ليون.

وكان ابتداء ملكه سنة خمس وسبعين وثمانمائة، بموافقة ثمان وأربعين للهجرة.

ثم ولّي بعده ابنه دون غرسية.

وكان ابتداء ملكه سنة أربع وعشرين وتسعمائة للصفر بموافقة سنة سبع وتسعين ومائتين للهجرة، ومدته ثمان سنين.

ثم ملك بعده أخوه فرويلة سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة بموافقة خمس وثلاثمائة للهجرة، وكانت مدته سنة واحدة وشهران، وأصابه مرض الجذام فلم يتأت معه قيامه بالملك، ولهذا أنشأ بجهة ليون التي كان حكم قشتالة من قبل ملكها شتات واختلاط أوجب اقتطاع البلد القشتالية عن ملك ليون.

فقدم أهلها على أنفسهم رجلين من القضاة حسبما جرى عليه العمل ببلاد المسلمين بالأندلس على عهد ملوك الطوائف.

وتغلب القضاة، وسالموا ملك ليون على أن يخدموه ثلاثمائة فارس متى احتاج لذلك، فقبل ذلك منهم، وقنع بطاعتهم.

وكان أحدهما يسمى: نوقية رجورة.

والآخر يسمى: ولاين قبالة.

ومن نونية رجوه تناسل ملوك قشتالة، وليون الذين استقر الملك في عقبهم على عهده.

رجع الحديث لملوك ليون

ثم ملك بعد فرويلة دون الفنش بن دون أوردوينة خمس سنين وثمانية/ أشهر. [١/٢٣٦]
ثم زهد وترهب، وأصابه وسواس، فتخلى بعد ذلك عن الملك لأخيه رميوه في ثلاث

وثلاثين وتسعمائة، وكانت مدة تملكه عشر سنين.

وفي السنة الأولى من مدته قام بقشتالة داعياً إلى نفسه القمردون.

فران عنطالس حفيد نونية، وجورة أحد القاضيين المذكورين من قبل.

رجع لحديث ليون

ثم ملك بعده زميرة أوردوينة سنة ثمان وخمسين وتسعمائة بموافقة سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة للهجرة، فكانت مدته خمس سنين وستة أشهر.

ثم ثار عليه وخلعه أخوه: دون شانجة سنة ثلاث وستين وتسعمائة للصفر بموافقة سنة ست وثلاثين وثلاثمائة للهجرة، وكانت مدته: اثنتي عشرة سنة.

وفي مدة شانجة هذا الثائر بأخيه خرجت قشتالة عن حكم صاحب ليون جملة، واستقل القمر المذكور فران عنطالس حدثت بينه وبين شانجة سلطان مفاتنة فغلبه القمر وقتله.

وملك بعده نبارة ابنه دون غرسية، وكانت بنت ملك نبارة زوجاً لدون شانجة صاحب ليون ـ وكانت تطالب العهد بعداوة قتله لأبيها، وهي مع تخادعه وتريه الصداقة.

وكانت بعد تزوج بنت أخيه غرسية صاحب نبارة ولد قتيلة لتزول بينهم العداوة راساً، وداخلها زوجها ملك ليون في استدعائه لحصول رأي كبير يسمونه: «القرت»، تحصر فيه الملوك والأمراء لتقرير المصالحة الوقتية والبلادية، ففعل ذلك، ووعده القمر بالوصول.

فكتبت المرأة لأخيها صاح نبارة، أن يحاول أمره في طريقه ويونسة، ويطلب لقاءه، لعله يتأتى فيه ثأره.

فلما قضى القمر حاجته من حضور «القرت»، ورجع قافلاً إلى إبرغش بلده من عمالة قشتالة، طلب منه صاحب نبارة الاجتماع، فوقع الاتفاق على أن يستصحب كل واحد منهما سبعة من الفرسان دون سلاح.

وجاء القمر بحال طمأنينة على بغلة، وفرسانه السبعة بين يديه، حتى إذا قرب من مكان الوعد، رأى صاحب نبارة في خمسة وثلاثين فارساً يحملون السلاح، فأيقن بالشر، وأعجلوه عن التحول إلى الفرس، فدخل في جنة كانت بالموضع واعتصم ببرج كان بها ودافع هو وناسه عن أنفسهم.

فقاتله صاحب نبارة قتالاً شديداً بقية اليوم إلى نصف الليل.

ثم اقتضى أمانه على أن ينزل آمناً في نفسه من القتل، ونزل، فأحمله صاحب

نبارة إلى ناجرة فأكبله، وبقي عنده سنة ونصف سنة.

ثم رغب منه في سراح فرسانه/ إلى قشتالة فسرحهم. [٢٣٦/ب]

واتفق أن حلّ بالموضع قمر معروف من أرض أخرى، فطلب أن يزور القمر الأسير وأشفق لحاله، ووعده بالمشاركة الجميلة في أمره، وطلب زيارة بنت صاحب نبارة، وهي التي كان القمر الأسير وعد بتزوجها وعقد من ذلك حديث جنة له بسببه، فأخذ معها في شأنه، وضمن لها أنها إن خلصته من أسره أن يحملها معه إلى قشتالة ويتزوجها ويعرف لها قدر إحسانها إليه.

وللنصارى في أثناء هذا أحاديث وأشعار ومعاني ترجع إلى شطارة العشاق وارتكابهم الأخطار، فتم ما ذهبت إليه من ذلك وذهب بها إلى قشتالة، وتزوجها وعاد إلى ملكه.

ووالى الحروب على صاحب نبارة إلى أن أسره وانتصف منه، وأقام في أسره ثلاثة أشهر ثم شفعت فيه بنته، فأطلقه طوعاً.

ثم طال الأمر واستدعي صاحب لهذا القمر مرة أخرى لحضور «قرت» آخر، فوصل إليه وهذا على عهد المنصور محمد بن أبي عامر وهم كلهم بين موافقة عن بلادهم لابن أبي عامر وبين تقية وسلم.

وقد كان القمر فنصاليس صاحب قشتالة فسد ما بينه وبين صاحب ليون، فقبض عليه وأسره سنة إحدى وسبعين وتسعمائة ودبرت أيضاً زوجه بنت ملك نبارة التي خلصه من الأسر الأول بالحيلة في خلاصه من هذه فسرت من برغش في خمسمائة فارس مختارة تطوف المراحل ليلاً إلى أن كانت على ثلاثة فراسخ من ليون، وتركت الفرسان في غياض وجبال، وأقبلت في زيّ راهبة تقصد الحج بشنت ياقب

وأكرم السلطان صاحب ليون قدومها وتبرك بها.

فسألت منه أن تزور القمر أسيره، وتسافر من الغد إلى حجها فأذن لها في ذلك، فأطالت معه الحديث، ثم أمرته فخرج في زيها مع أحد خدمتها تخاطب الحرسة عنها، وبقيت هي راقدة في سرير القمر كأنه لم يبرح. فلما حصل في ظاهر البلد، وجد الخيل تنتظره بكل فرسخ إلى أن وصل بجملة خيله

ولما تعرف صاحب ليون ذلك شق عليه ثم لم يسعه إلاّ أن وجه إليه زوجه هذه مفرجة الشدائد.

وكان هذا القمر فارساً كبيراً لا نظير له، فشمر بعد ذلك في حرب صاحب ليون، وأضافه، وغنم أرضه إلى أن اصطلحا على أداء حقوق كانت للقمر فيه، والتسليم فيما بيده.

فاستقل القمر بأرض قشتالة من حينئذٍ.

رجع الحديث إلى ملوك ليون

وولّي بعده ولده زميرة وهو صبي صغير ابن خمس سنين، وذلك في سنة خمس وتسعين وتسعمائة.

[١/٢٣٧] وكانت مدته خمساً وعشرين سنة، وتولى تدبير ملة والدته دونه طريحة، وعمته/ دونه ألبيرة.

وهلك القند دون فران عنصاليس أيضاً في زمانه سنة ثمان وسبعين وتسعمائة، فكانت مدة القند فران عنصاليس نحواً من تسع وثلاثين سنة.

ثم ثار عليه في غليسية دون برمود بن دون أوردوينة وتملكها.

ولما مات دون ميره الذي تقدم صبياً ودبرته أمه وعمته خلص الملك لدون برموده بن دون أوردوينة.

وكان مبتدأ ملكه سنة ألف للصفر، ومدة ملكه سبع عشرة سنة. وعلى برمودة هذا ألح ابن أبي عامر بالغزوات.

وفي مدته ومدة من قبله ومن بعده قريباً منه كان سوق ذلك الجهاد المحظوظ.

ثم ملك بعد دون برمودة ابنه دون الفنش سنة سبع عشرة وألف للصفر، وكانت مدته سبعاً وعشرين سنة.

ملك بعده دون برمودة ولده سنة أربع وأربعين وألف لتاريخ الصفر، وكانت مدته عشرين سنة.

وكان دون برمودة هذا قد تزوج بنت صاحب قشتالة واسمها طريحة، وسيأتي خبره بعد.

وعند هلاك دون برمودة انتقل الملك لسبيل القمر دون فران عنصاليس حفيد القاضي الأول نونية رجورة المتقدم الذكر. ولما انتقل ملك ليون إلى حفيد نونية رجورة القاضي بقشتالة بسبب البنت التي كانت زوجاً لبرمودة ملك ليون، وكونه لم يعقب، فنذكر عقبه من هذا الجد، وهو الذي صار أصلاً وانقطع ما قبله، فنقول:

تولى القاضي الأول نونية رجورة سنة واحدة وهي سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة.

ثم هلك فولي بعده ابنه عنصاليس.

ثم تولى بعده القمر دون فران عنصاليس المتقدم الذكر تسعاً وثلاثين سنة.

ثم تولى بعده القمر دون غرسية فرادنس.

ثم تولى بعده ابنه دون شانجة وكان لدون شانجة ابنتان: إحداهما تسمى: دونة طريحة، تزوجت دون برمودة صاحب ليون.

والثانية تسمى: دونة ألبيرة تزوجت شانجة ملك نبارة، وولدت منه ابنين:

كبيرهما: دون غرسية ملك نبارة بعد أبيه.

والثاني: دون أفراندة الذي هو أول من تسمى ملك قشتالة.

وكان لدون أفراندة هذا ولد من عشيقة غير ممهورة اسمه دون ميرة ملك أرض أرغون.

فمن نسل دون أفراندة هم ملوك قشتالة إلى الآن.

ومن نسل دون ميرة هم ملوك أرغون.

فلما توفي دون شانجة قند قشتالة ولّي بعده دون غرسية ابنه وكان ضعيف العقل اقتضى نظره التوجه إلى ليون ليتزوج بها أخت ملكها برمودة، وحمل معه صهره دون شانجة ملك نبارة.

فنزل صاحب نبارة بحصن ليون، ونزل دون غرسية بداخل البلد.

وحدث بالبلد فتنة وهرج قتل فيه.

وقيل إن قتله بإشارة سلطان ليون.

[٢٣٧/ب] وقامت/ الحرب لأجل ذلك بين ليون وبين صاحب نبارة، وقد انضافت إلى ملكه بعد قتل صهر قشتالة سنة ألف وست وستين للصفر، وكانت نحواً من ست عشرة سنة.

وقتل طائفة من الزعماء اتهمهم بالتدبير على صهره، واستضاف أرضهم إلى أرض قشتالة وهي المسماة ببلد وليدوشطانفش وما إليها، فضخم ملكه.

ثم تصالح مع صاحب ليون على أن يتزوج ابنه دون أفراندة مع أخته. وأن يسمى ملك قشتالة.

وأعطاه أبو جز ألبيرة من أرض نبارة وهي ناجرة وما إليها.

فلما توفي أبوه وتحرك ملك ليون لقتاله واحرح[1] الذكور أخاه القائم بعد أبيه بملك نبارة، فغلبا على صاحب ليون وهزماه. وقتل في الحرب، فانصرف ملك ليون لدون أفراندة بردور وبرمودة المتقدم الذكر

---

(١) جاء فوق هذه الكلمة لفظ: «كذا» بخط دقيق بقلم الناسخ.

ثم قال الشيخ الحكيم:

وإذ بلغنا هذا الحد فلنذكر الآن:

ملوك قشتالة وليون ونجعل إلى ذات اليمين عدد الأولاد من عقب بلاية وإلى ذات اليسار عقبهم من عقب أفراندة هذا المذكور

فنقول:

ملك دون أفراندة ولد صاحب نبارة قشتالة وليون أربعين سنة وستة أشهر، وكان ابتداء ملكه سنة ثلاث وخمسين وألف للصفر، وقسم ملكه على أولاده الثلاثة.

فأعطى ملك قشتالة لدون شانجة.

وأعطى ملك ليون الفنش.

وأعطىء ملك غليسية وبرتقال لدون أنزيق.

فلما توفي دون أفراندة، ثار دون شانجة على أخويه، وأخذ منهما الملك وأسرهما.

فأما دون الفنش: فقيده بالحديد وسجنه في حصن تاجرة، فبقي بها نحواً من ثماني عشرة سنة.

وأما أخوه دون أنزيق فجعله مونجا في موضع عباده على رسم الزهاد، مرقباً عليه بموضع يقال له سفغند، واحتال فهرب منه ولحق بطليطلة وبها يومئذٍ المأمون بن ذنون فآواه وأجاره وسكن عنده وسكناه بطليطلة واطلاعه على عوراتها هو الذي أوجب تملك النصارى لها.

وأقام عند ابن ذنون إلى أن قتل أخوه شانجة بتدبير أخته أراكة، إذ دخلت في قتله بعض فرسانه، وقد خرج يتصيد بطارد صيداً وذلك الفارس يقفوه، فلما انفرد به طعنه برمح كان أعده له، وركض فلحق بالأخت المذكورة بمدينة سمورة فاستجار بها.

ووجه عنه النصارى إلى طليطلة بولده عوضاً منه، وذلك سنة ألف ومائة وسنة واحدة.

ولما ملك أبعد الأمر بقتل قاتل أخيه، وقال ما معناه: عمل جيد وعادة سوء.

ثم توفي في شهر يونية سنة سبع وأربعين ومائة وألف، ولم يترك ولداً فولّى الملك حفيده ولد ولد فرند/ لند. [٢٣٨/أ]

وقال الحكيم فيه:

دون يموندو هذا الحفيد المسمى بالفنش هو الذي تملك طليطلة وما إليها.

وكان ابتداء ملكه سنة سبع وأربعين وألف للصفر، وكانت مدته ستاً وخمسين.

قال: وهو أول من تسمى: البردون، ومعناه سلطان السلاطين.

إذ مهد جيرانه وافتتح دار ملك النصارى العوض طليطلة، واستخدم ملوك المسلمين بالأندلس.

قال ابن وقار:

كان له سبعة من الملوك يخدمونه، ولا يعصون أمره بين مسلمين ونصارى، وفي مدته خرجت جهة برتقال عن حُكم قشتالة في أول أمره إذ كان صغيراً عند الولاية، وكان جده دوق الفنش قد زوج بنتاً له من أحد قرابته اسمه رموزرة، وأعطاه برتقال، وسماه دوقاً.

ثم إنه لما هلك وولّي بعده برتقال ابنه توجه إلى الباب فولاه برتقال وثبتها له، فلم يقلد الفنش صاحب قشتالة وليون على إزالتها له.

فمن نسله ملوك برتقال إلى الآن حسبما يأتي إن شاء الله.

قلت: وهذا الفنش المعمر هو الذي طغى واستحوذ على ملوك المسلمين، وضرب بين أمراء ملوك الطوائف، إلى أن قمعه الله تعالى بلمتونة، وهزمه هزيمة الزلاقة على يد يوسف بن تاشفين حسبما يأتي إن شاء الله تعالى.

قال ابن وقار فيه:

ثم قسم ملكه قسمين، فأعطى ملك قشتالة ولده دون شانجة، وتسمى باسم الملك في حياة أبيه خمس سنين.

وأعطى ملك ليون وغليسية ولده دون أفراندة.

ثم استمرت أيام دون شانجة بعد موت أبيه عاماً واحداً، ثم توفي سنة ثمان وتسعين ومائة وألف، وترك ابناً صغيراً من أربع سنين اسمه دون الفنش.

فملك بعده ثلاثاً وخمسين سنة، وهذا الصبي المعمر هو الذي جرت عليه الهزيمة المعروفة بالأركة على يد يعقوب المنصور بن يوسف العشري بن عبد المؤمن بن علي رحمه الله سنة ثلاث وثلاثين وألف ومائتين للصفر، وفي شهر أغشت.

ثم والت له الأيام، فكانت له علي الناصر بن المنصور هزيمة العُقاب التي لم تستقل العثرة بعدها بالأندلس.

وذلك ثامن عشر من يوليه من سنة خمسين وألف ومائتين للصفر.

وكان هذا الملك الرومي بعيد الهمة لبس بعد الهزيمة عليه ثياب الحرب، وأقسم أن لا يزيلها حتى يأخذ ثأره.

فلما أُتيح له الظفر بالناصر بن المنصور، ورغب منه النصارى أن يرفع الحزن فقال: وكيف وأنا لم أنتصف وإنما غلبت ابن من غلبني، هضيمتي في عنق الابن، وهضيمة الأب في عنقي لم تزلها عني غلبتي لغيره.

وكانت له بنت اسمها برتقالة زوّجها ابن عمه دون الفنش ملك ليون، فولدت له ولدين:

[٢٣٨/ب] أكبرهما: / أفراندة.

وأصغرهما: دون الفنش.

فملك أفراندة قشتالة وليون.

وكان الفنش أفانت ملينة، ومعنى الأفانة ولد السلطان، فلما توفي الفنش ولّى ابنه دون أتريق ثلاث سنين أولها سنة خمسين ومائتين وألف.

ثم هلك بحجر أصاب دماغه في لعب من الصبيان عام ثلاثة وخمسين وألف ومائتين. فرجع الملك لأخته ملكة ليون، فأعطته ولدها أفراندة.

فهذا أفراندة ملك قشتالة من أمه، وملك ليون من أبيه، وهو الذي تملك قرطبة، وإشبيلية، وجيان، ومرسية.

وحسبك بهذا الظهور الذي أقام البرهان على أن الدنيا لا تزن عند الله شيئاً فكم اشتملت عليه تلك المدائن العظيمة من بلاد وعمالات، ومنابر، ومساجد، وأعيان، وفرسان، وعلماء، وأعلام، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٢].

وهو المسمى بالأحول.

وعلى عهده كان قيام ابن هود، وابن نصر، وغيرهم ممن تقدم ذكره.

وهلك بعد استخلاص إشبيلية، ولذلك كانت كهنة الروم ترمز فتقول: الأسود الأحول إذا أدخل يده في الزيت هلك. يعنون إذا ملك إشبيلية معدن الزيت وكانت مدته خمساً وثلاثين سنة.

وابتداء ملكه من لدن سنة خمس وستين وألف ومائتين للصفر.

وولّي بعده ولده الفنش سنة تسعين ومائتين وألف للصفر، وكانت مدته ثلاثاً وثلاثين سنة، وستة أشهر.

وعدم الولد من أول عمره، فخاف من أن يطرقه الموت فيخرج الملك عن عقبه فجعل الملك بعده لحفيده من بنته ذو العُرف، ثم ولد له بعد هذا ولده السلطان دون شانجة.

فلما كبر دون شانجة عظم عليه انفراد ذو العُرف بالملك دونه.

ولم يسع الأب حله فشمر عن مخالفته لأبيه واستخلاص الملك بالسيف.

فخلع الأب وضيق عليه إلى أن لم يبق بيده إلاّ قرطبة وأحوازها، واستنصر عليه بالمولى السلطان المرابط أبي يوسف بن عبد الحق ولاذ به، ورمى عنده تاجه ذخيرة النصارى المستقرة بدار مرين، ولقيه بصحره عناد من أحواز رندة، فسلم عليه.

ويقال: إن أمير المسلمين لما فرغ من ذلك طلب بلسان الزناتية الماء ليغسل به يده من قبلة الفنش أو مصافحته.

والشيء يذكر بالشيء، فأثبت حكايةً اتفقت لي بسبب ذلك استدعى بها الدعاء ممن يحسن عنده موقعها وهي:

أن اليهودي الحكيم بن ررزار على عهد ملك/ النصارى حفيد هذا الفنش [٢٣٩/أ] المذكور.

ووصل إلينا في حوائجه، ودخل إلى بدار سكناي مجاور القصر السلطاني بحمراء غرناطة، وعندي القاضي اليوم بغرناطة وغيره من أهل الدولة وبيده كتاب من سلطان المغرب محمد بن أبي عبد الرحمن ابن السلطان الكبير المولى أبي الحسن. وكان محمد هذا قد فَرّ إلى صاحب قشتالة، واستدعى من قبله إلى الملك فسهل له ذلك، وشرط عليه ما شاء، وربما وصله خطابه بما لم يقنعه في إطرائه.

فقال لي: مولاي السلطان دون بطرة يسلم عليك، ويقول لك: انظر مخاطبة هذا الشخص.

وكان. . . . .[1] من كلاب بابه حتى ترى خسارة الكراهة فيه.

فأخذت الكتاب من يده وقرأته، وقلت له: أبلغه عني أن هذا الكلام ما جرك إليه إلاّ خلو بابك من الشيوخ الذين يُعرفونك بالكلاب والأسود، وممن تغسل الأيدي منهم إذا قبّلوها، فتعلم الكلب الذي تغسل اليد منه ومن لا، وإن جدّ هذا الولد هو الذي قَبّل جدك يده، واستدعى الماء لغسل يده بمحضر النصراني والمسلمين، ونسبة الجد إلى الجد كنسبة الحفيد.

---

(١) موضع النقط بياض بالأصل قدر كلمة أو اثنان، وبالهامش تعليق يظهر منه كلمة: «كذا» وربما كان المقصود كذا بالأصل الذي نقل عنه.

وكونه لجأ إلى بلادك ليس بعار عليه، وأنت معرض إلى اللجاء إليه فيكافيك بأضعاف ما عملته فيه.

فقام ابن الحسن يبكي ويقبل يدي، ويصفني بوليّ الله وكذلك من حضرتي.

وتوجه إلى المغرب رسولاً فقص على بني مرين خبر ما شاهده مني وسمعه، وبالحضرة اليوم ممن تلقى ذلك كثير جعل الله ذلك خالصاً لوجهه.

رجع الحديث:

ثم هلك الفنش وولّي الأمر بعده دون شانجة ابنه سنة ألف وثلاثمائة واثنتين وعشرين للصفر، وكانت مدته اثنتي عشرة سنة.

وهو الذي فتح طريف ونازل الجزيرة، وكانت الوقيعة بأسطوله.

ثم هلك وولّي بعده أفراندة، وهو صبي صغير دون عشر سنين، في الثامن وعشرين لابريل العجمي من سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وألف للصفر.

وهو الذي نازل الجزيرة، وأخذ جبل الفتح.

وكانت مدته سبع عشرة سنة.

ولما وقعت الفتنة بين السلطان نصر وبين ابن عمه بمالقة نازل القندان وملك عليها.

وولّي بعده ابنه دون الفنش في سابع شتنبر[1] عام خمسين وثلاثمائة وألف للصفر.

وسنة ثلاثة عشر شهراً، وتقدم لتربيته والنيابة عنه عمه دون بطرة.

وهو الذي وقعت عليه وقيعة المرج بظاهر غرناطة، وسيقت جثته إلى البلد، وجعلت في صندوق خشب ببعض الأبراج عن يمين الصاعد إلى الحمراء لصق باب يعقوب.

وصارت الصبيان يرمون ذلك التابوت بالحجارة إلى أن غطته واحتيج إلى بناء البرج وأنا نائب عن السلطان. إذ ذاك، واضطر إلى الكشف/ عن التابوت، فألفى قد [٢٣٩/ب] عفن، واستؤذنت فيما يفعل بتلك الرمة؟ فأمرت بأن يتخذ لها تابوت جديد وينقلها نصارى السلطان المستخدمون في المباني حسبما يريده أساقفتهم.

فلما أخرجت الرمة لتنقل إلى التابوت ألفي بين الفقرات فيها سنان صغار الجرم قد أثبتتها فيها يد مجاهد يوم الوقيعة كانت سبباً للفتح.

---

(١) يريد سبتمبر.

فاستعبرت رقة وقبلت في ذلك السلاح الكريم وسألت الله بركة معلم بها، وأمرت برده لمكانه برّاً له وأعدت الصندوق لحاله لما رأيت في ذلك من التذكير بأيام الله، ونكاية الكفار إذا مَرّوا به، وتخليد الفجر للدين ما شاء الله، والله ينفع بالمقاصد الخالصة لوجهه الكريم.

ثم كبر الفنش هذا، فاستولى على أثغر وبره عند فتنة الغُزاة باندرس، ثم على بلد أطسة والحفرة المنسوبة إليها، وأوقع بالمسلمين الوقيعة العظمى بطريف.

ثم نال قلعة يحصب على ستة فراسخ من الحفرة وتملكها.

ثم أملى الله له بشق عصا الأمة، وما نال أمير المسلمين المرجوّ لنصرها من التمحيص بالقيروان، واستبداد ولده عليه بملك المغرب، فانتهز الفرصة في الأندلس ليأس أهلها من نصرة الإسلام، فتحرك إلى إشبيلية، ونازل جبل الفتح وشدّ حصاره إلى أن نزل اللطف الخفي بهلاكه عليه بعدما بنى وعزم على السكنى في شهر مارس سنة خمسين وثلاثمائة وألف للصفر، وبموافقة محرم من عام واحد وخمسين وسبعمائة.

فكانت مدة ملكه نحواً من تسع وثلاثين سنة. وتولى الأمر بعده ولده دون بطرة، وشغله الله عن المسلمين بحروب أهل ملتة، فانحنى على سلطان برجلونة إلى أن انتزع كثراً من بلاده كدانية، وقلعة أيوب، وأريولة وغيرها.

ونازعه أخوه المُلك، وهو أنزيق ابن أبيه من عشيقة أولدها ولداً جعله لما شاء الله من شتات كلمتهم.

وكرهت بطرة النصرانية لكثرة الكلف، وإيصال الحركات والاستعانة بالمسلمين، فخُلع، وفَرّ إلى بلد أريونة من عمل صاحب الأعليطرة بعد أن انتهب دار ملكه بإشبيلية، وعاثت أيدي الرعية في خزائنه بمرأى من عينه.

واستولى على البلاد أخوه أنزيق، فلحق بإشبيلية مُستدعي من أهلها، وأهطعت الأرض إلى طاعته.

وأعان دون بطرة ملك الجهة التي قصده، وشمر لنصره، وتحرك في جمع كثيف من أهل تلك الأرض، وشأنهم عجيب في السلاح والقوة ووفور العدة والقتال/ من [٢٤٠/أ] بعد الاسترطال ولزوم الأرض على الكريهة.

وكان اللقاء بين الطائفتين بناجرة من أحواز نبارة، وقعت على أنزيق الهزيمة المستأصلة وخلص إلى بعض الملوك المجاورة في شرذمة قليلة، وتلف كباره وخلصانه، وعدده وأمواله.

وعاد أخوه إلى ملكه وفرض على البلاد مغرماً يقضي به ديون الطائفة التي

أصرخته، إذ كان ذلك عن التزام أموال.

فخالفت عليه جملة من البلاد كقرطبة وما يجاورها، واستعان عليهم بحلفائه من المسلمين فكيف الله لذلك النصارى صنعاً جميلاً قدمت العهود بمثله... [(١)] قرطبة، وفتحت مدينة طاعة أخيه.

ولما أخذ مخنقها ونهكها الجوع استغاث أهلها بدون بطرة، فتحرك بمن تخلص له من النصرانية، وبمدد من فرسانه المسلمين قاصداً إقلاعه عن طليطلة.

فاقتحم عليه أخوه قبل وصوله إليه وهو على غير أُهبة، فهزمه بظاهر حصن شنتل، وألجأه إلى الانحصار، ونازله وأخاط به وضاق بالصبر ذرع المحصور، فصانع قوماً من خدام أخيه وتوثق منهم في تسبيب خلاصه كأنما أمره عن ناسه.

فلما تحصل بأيديهم، وجهوا لأخيه من أعلمه فبادر إليه، وقتله في أخريات رمضان من سنة تسع وستين وسبعمائة، واستولى أنزيق على تملك قشتالة، وليون، وهو بها إلى الآن، مغمور بفتنة عظيمة، وحروب دائمة.

هيأ المسلمين لها برد الحياة، وجلت نعم الله لديهم، والله المسؤول في صلة ألطافه للمسلمين وإجمال صنائعه للدين.

ونشير بعد هذا إلى:

نسل ملوك برتقال على سبيل الإلماع والإشارة

فنقول:

أول من انفرد بملك برتقال واقتطعه من ليون وقشتالة القمر أنزيق الذي تزوّج بنت الفنش ملك قشتالة وليون، وقد نبه عليه.

ثم ملك بعده ابنه الفنش، وتعمى دوقاً.

ثم من بعد ذلك ملك بإذن الباب القسيس الأعظم برومة.

ثم ملك بعده ابنه دون شانجة.

ثم ملك بعده دون الفنش بن دون شانجة.

ثم ولّي بعده ابنه دون شانجة بن دون الفنش، وخلع عن المُلك.

ثم ملك عوضاً منه أخوه دون الفنش.

ثم ملك بعده دونيش بن دون الفنش.

---

(١) موضع النقط كلمة مطموسة.

ثم ملك بعده دون الفنش.

قال الحكيم:

وهو الآن ملك بأرض برتقال.

قلت:

وهذا هو الذي أمدّ صاحب قشتالة يوم طريف بنفسه وكان مصافه بإزائها أهل الأندلس، وحملنا عليه وكدنا نفضه لولا أنهم جعلوا جيشاً وراءهم فاضلاً عن الملكين يمد من ظهر به اختلال وتضعضع فبادر إلى عدونا فقواه، وسبب له/ الظهور. [٢٤١/أ]

ولما مات تولى الملك بعد، ولده ولم تطل مدته فهلك قتله فيما سمعنا دب أو خنزير برّي حاول صيده.

ثم ملك بعده ابن له فوق المحتلم، وهو ملك برتقال الآن، واسمه دون بطرة.

وإذ أفرغنا منهم فنشير كذلك إلى:

ملك أرغُون وبرجلونة

.... [١] أقفوه بها واقتطعها دون نميرة بن ملك نبارة حسبما نبّه عليه قبل.

وهلك قتيلاً في حرب للمسلمين.

وتولّى بعده أخوه شانجة، ونازل مدينة وشقة من مدن الإسلام بشرق الأندلس فأصيب بسهم قضى عليه.

وملك بعده ابنه دون بطرة.

ثم ملك بعده أخوه دون الفنش.

ثم تولّى بعده أخوهما دون نميرة، وكان مونجا أي صالحاً عابداً.

ولما هلك ملكت بعده بنته وصيرت الملك إلى زوجها دون موندة فملك أرغون لذلك.

ثم هلك فولّي بعده دون الفنش فند برجلونة.

وملك بعده ابنه دون بطرة ابن دون الفنش.

ثم ولّي بعده ابنه دون جايمش، وهو الذي ملك مدينة بلنسية من يد أبي جميل زياد بن مردنيش وغيرها من الجهات.

---

(١) موضع النقط جاء موضعه بالمخطوط كلمة «صح» يريد أنه كان موضعها بالأصل بياض ترك لاسم الملك، وربما كان موضعه في الأصل طمس، والله أعلم.

ثم ملك بعده ابنه دون بطرة.

ثم ملك بعده دون جايمش ابن دون بطرة أخوه، وهو الذي نازل المرية على عهد نصر من بني نصر كان شهير القوة والرّأي والعزيمة. ثم ولّي بعده ابنه الفنش ابن دون دون جايمش.

وولّي بعده دون بطرة ابن دون الفنش.

وهو ملك أرغون إلى اليوم.

انتهى تاريخهم.

وقد وفينا بعض ما أردناه من هذا القسم، وسامحنا القلم فيه لكون الوطن الواقع فيه التاريخ وطننا الذي لا نعذر به في جهد المشهور من أحداثه والمتعارف من كوائنه مع الاختصار على كل حال، وقصد الإلماع.

ويتلوه القسم الثالث ما يختص بالمغرب من لدن أحواز برقة إلى السوس الأقصى، وساحل البحر المحيط الغربي

والله ولّي الإعانة سبحانه لا ربّ غيره ولا معبود سواه. وهو حسبي ونعم الوكيل.

[٢٤١/ب]

بسم الله الرحمن الرحيم /

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

القسم الثالث من الكتاب المسمى بـ:
أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام
وما يجرّ ذلك من شجون الكلام

فيما يختص بالمغرب من لدن أحواز برقة إلى السوس الأقصى وساحل البحر المحيط الغربي وبالله الاستعانة فنقول:

أول ما يلقى هذه الحدود من الممالك المغربية التي اتخذها الملوك أوطاناً لسكناها وأساساً لمبناها البلاد الإفريقية، وأول ملوكها الأغالبة، فإنهم أقاموا بها ملكاً كبيراً بين الطاعة والاستبداد، والمشاركة، والانفراد.

وكانت لهم آثار وأخبار وتداولوا الملك ولداً عن والد وتوارثوه خلفاً عن سلف بعد أن تقدم القوم أمراء من قبل السلف الصالح الذين فتحوا الوطن وقادوا إليه الدين فألقى بالعطن مثل عقبة بن نافع الفهري[١]، وأبي المهاجر دينار مولى مسلمة بن مخلد.

وزهير بن قيس البلوي.

وحسان بن النعمان.

وموسى بن نصير.

ومحمد بن يزيد مولى قريش.

---

(١) هو الصحابي المعروف المشهور صاحب فتوح بلاد الغرب، وهو مؤسس مدينة القيروان الشهيرة، وجعلها قاعدة عسكرية لانطلاق جيوشه حتى اتصلت فتوحه إلى المحيط الأطلنطي وهو صاحب العبارة الهيرة حين وقف عليه فقال: والله لو نعلم أن وراءك أرضاً لغزونها في سبيل الله.

ويزيد بن أبي مسلم.

وبشر بن صفوان الكلبي.

وعبيدة بن عبد الرحمن.

وعبيد الله بن الحبحاب.

وكلثوم بن عياض.

وحنظلة بن صفوان.

وعبد الرحمن بن حبيب.

ومحمد بن الأشعث.

والأغلب بن سالم.

وعمر بن حفص.

ولكل منهم أخبار جليلة وأمور شهيرة.

ثم وليها بعد هؤلاء الأولياء من آل المهلب:

فأولهم: يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة، يكنى أبا خالد[١].

ومعرفة الخاصة والعامة بكرمه وشجاعته، وبُعدِ صيته يغني عن شرح أمره، إذ كان كثير الشبه بجده المهلب في الدهاء والشجاعة. وانتهى أبو جعفر المنصور في تشييعه إلى فلسطين، وفيه يقول:

حلفت يميناً غير ذي مثنوية	يمين امرىء آلي ولي وليس بآثم
لشتان ما بين اليزيدين في الندى	يزيد سليم والأغر ابن حاتم
يزيد سليم سالم المال، والفتى	أخو الأزد للأموال غير مسالم

[٢٤٢/أ] / فهم الفتى الأزدي إتلاف ماله وهم الفتى القيسي جمع الدراهم، فصار قوله:

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٣٣) في ترجمته: الأزدي، البصري، الأمير. ولّي إمْرَةَ مصر سنة أربع وأربعين ومائة، فدام سبع سنين. ثم ولي المغرب مدة للمهدي، والهادي، والرشيد، ومهد إفريقية، وذلك البربر. وكان بطلاً شجاعاً، مهاباً، شديد البأس كما قيل فيه:

وإذا الفوارس عددت أبطالها عدُّوك في أبطالهم بالخنصر

ثم ذكر عدت أبيات لعدد من الشعراء كلهم قال فيه شعراً يمدحه الكرم والشجاعة. ثم قال الذهبي: مات يزيد بن حاتم بالمغرب في رمضان سنة سبعين ومائة. واستخلف ولده داود على المغرب.

ومن مصادر ترجمته: تاريخ الطبري (٧/ ٤٥٥)، المعرفة والتاريخ (١/ ١٤٠)، وفيات الأعيان (٦/ ٣٢١)، البيان المغرب (١/ ٧٨)، الاستقصا (١/ ٥٨)، النجوم الزاهرة (٢/ ١)، عيون الأخبار (١/ ٩)، مطالع البدور (١/ ١٥)، مرآة الجنان (١/ ٣٦)، تاريخ خليفة (٤٣٤).

«لشتان ما بين اليزيدين». مثلاً.

وأخباره مشهورة في الفضل، والجود، والدهاء، وبُعد الهمة، وجلالة المقدار.

وتوفي حتف أنفه بدار الإمارة من القيروان في رمضان سنة سبعين ومائة في سلطان هارون الرشيد.

وخلفه داود ابنه إلى أن وصل والياً على إفريقيا روح بن حاتم[١] أخوه. وكان قد حجب المنصور أول أيامه وهو أسن من أخيه يزيد.

حدث الأمير روح بن حاتم قال:

كنت عاملاً لهارون الرشيد على فلسطين، ثم صرفني عنها، فخرجت منها أريد بغداد، فوافى وصولي نعي أخي يزيد، فأرسل إليّ هارون، فلما دخلت عليه قال: يا روح أحسن الله عزاءك في أخيك يزيد، فقد توفي ولا شك أنه له صنائع بإفريقية، فإن ولىّ مكانه غيرك لم آمن عليهم، فاخرج إلى إفريقية واحفظ صنائعكم.

وكان روح ذا رأي، وحلم، وعلم، وشجاعة، وحزم.

ولما وجه المنصور يزيد بن حاتم إلى إفريقية وجه روح.

وتوفي بها فدفن إلى جانبه، وعليهما سارية مكتوبة.

ومن أخباره:

أنه بعث إلى كاتب له ثلاثين ألفاً، وكتب إليه:

لا أستقلها لك تكبراً، ولا أستكثرها تمنناً، ولا استثيبك عليها ثناءً، ولا أقطع عنك بها رجاء.

ولم تزل البلاد آمنة، والقبائل هاونة، ومليء منه البربر رعباً.

ورغب الأباضيون منهم في موادعته إلى أن توفي في إحدى عشر ليلة خلت من رمضان عام أربعة وسبعين ومائة.

فكانت ولايته ثلاثة سنين وثلاثة أشهر.

وكان روح بن حاتم قد أسنّ، وتوقع هارون أن تفاجأه المنية فيضطرب أمر

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٣٥) في ترجمته: ولي المغرب أيضاً، ثم قدم فولي الكوفة والبصرة، وكان أحد الأبطال كأخيه وولي السِّند أيضاً. توفي سنة أربع وسبعين ومائة. وله أخبار ومآثر في الكرم. قلت: سبحان موزع الأرزاق، فهذا يرزق الملك في أقصى المغرب وفي وسط البلاد، ثم في أقصى المرق، وكأنه ملك الدنيا بأسرها. ومصادر ترجمته: تاريخ الطبري (٧/ ٤٥٣)، المعرفة والتاريخ (١٢٥/ ١)، وفيات الأعيان (٢/ ٣٠٥)، البيان المغرب (١/ ٢٨٤)، العـ (١/ ٢٦٦)، شذرات الذهب (١/ ٢٧٥)، الاستقصا (١/ ٥٩)، الحلة السيراء (٢/ ٣٥٨).

إفريقية، فكتب عهداً في السر بولاية نصر بن حبيب المهلبي، وكان حسن السيرة وليّ سنتين وثلاثة أشهر.

ثم أن فضل بن روح بن حاتم خرج إلى الرشيد، واتصل به، فولاّه إفريقية.

فكان قدومه في محرم سنة سبع وسبعين ومائة.

ويقال: إنه لم يلِ إفريقية أجمل منه.

وحكي أنه لم يصنع الناس في أمير ما صنعوا في تلقيه، نصبت له القباب من مساجد الأمير إلى دار الإمارة.

ثم وثب به ابن الجارود، وتغلب على القيروان بعد كسر جيش الفضل، ثم أخرجه إلى دمشق، وبدا له فاسترده، وقتله.

واتصل بالرشيد وثوب ابن الجارود على الفضل، وإفساده إفريقية، فوجه أميراً على المغرب هرثمة بن أعين.

[٢٤٢/ب] وقدم هرثمة بن/ أعين القيروان مستهل ربيع الآخر سنة تسع وسبعين ومائة، فأمن الناس وسكنهم، وأحسن إليهم.

وبنى سور طرابلس وقصر المنستير[(١)].

ثم ألحّ على هارون في طلب الإعفاء فأعفاه هارون فرجع إلى المشرق سنة إحدى وثمانين ومائة، ووجه محمد بن مقاتل بن حكيم العكي.

وكان محمد بن مقاتل رضيع هارون، وكان أبوه من جلة أهل الدعوة، ولم يكن بالمحمود السيرة، فاضطرب أمره، وهو الذي ضرب البهلول بن راشد عابد زمانه، وحبسه واقتطع بعض أرزاق الجنود وأساء السيرة فيهم فعزله هارون وذلك في جمادى الآخرة من عام أربعة وثمانين.

وولي عليها جد هؤلاء الأغالبة إبراهيم بن الأغلب.

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان: مُنَسْتير: موضع بين المهدية وسوسة بإفريقية، وبينه وبين كل واحدة منهما مرحلة وهي خمسة قصور تحيط بها سور واحد يسكنها قوم من أهل العبادة والعلم. قال البكري: ومن محارس سوسة المذكورة المنستير الذي جاء فيه الأثر. ويقال إن الذي بنى القصر الكبير بالمنستير هرثمة بن أعين سنة (١٨٠هـ) وله في يوم عاشوراء موسم عظيم وجمع كبير. وبالمنستير البيوت الحجر، والطواحين الفارسية، ومواجل الماء، وهو حصن كبير عال متقن العمل.

[دولة الأغالبة][1]

دولة إبراهيم بن الأغلب بن سالم

وكان إبراهيم هذا فقيهاً، عالماً، شاعراً، خطيباً، ذا رأي وبأس وحزم، وعلم بمكايد الحروب، جريء الجنان، طويل اللسان.

قمع الشر بإفريقية، وضمّ الكلمة، وضبط الأمور، وأحسن التدبير، وأوسع العطاء.

وهو أول من اتخذ العبيد لحمل سلاحه، واستكثر من طبقاتهم، واستغنى عن استعمال الرعية في شيء من أموره.

وكان يتولى الصلاة بنفسه بالمسجد الجامع من القيروان.

ولقد عثر يوماً ببعض الحصر فجمع عند الفراغ من الصلاة وجوه الناس، فأمرهم باستنكاهه نفياً للظنة[2]، وكان حافظاً للقرآن.

وكتب إليه إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي القائم بالمغرب[3] يستكفيه عن

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة تصنيفية يقتضيها السياق نظراً لما سار عليه المؤلف في آخر القسم الثاني من تقسيم الكتاب، فرأيت زيادتها هنا إتماماً للفائدة.

(٢) يريد أنه طلب من هؤلاء القوم أن يشموا رائحة فمه حتى لا يظن ظان منهم أنه إنما كان مخموراً فكاد أن يقع. وليبين لهم أن ما حدث له إنما هو نتيجة عثرته بالحصير.

(٣) قال ابن العماد في شذرات الذهب (١/ ٢٦٩) في أحداث سنة (١٦٩هـ). وهرب إدريس بن عبد الله بن حسن إلى المغرب فقام معه أهل طنجة، وهو جد الشفاء الإدريسيين. وقال في أحداث سنة (١٩٣هـ) في (١/ ٣٣٩): وأما إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى فإنه لما انفلت من وقعة فخ لحق بالمغرب، ومعه ابن أخيه محمد بن سليمان الذي قتل بفخ فتمكن بها ودعي ونشر دعوته وأجابوه واستعمل ابن أخيه لعى أدنى المغرب من تاهرت إلى فارس، وبقي بها وولده يتوارثونها. وانتشر ملكهم واستقر. ويقال: أن إدريس أدرك بالسم إلى هناك. وأوصى إلى ابنه إدريس بن إدريس فقام بالأمر إحدى وعشرين سنة. وأوصى إلى ابنه إدريس المثلث، وكان أحد العلماء. قال صاحب كتاب روضة الأخبار: وهم على ذلك إلى هذه الغاية يتوارثون المغرب والبربر. ويقال: إن عبد المؤمن القائم اليوم بأرض المغرب ينسب إلى بني الحسن بن علي ظهر على الأندلس سنة أربعين وخمسمائة، وفيه يقول الشاعر من قصيدة طويلة:

ناحيته ويذكره بقرابته من رسول الله ﷺ.

فأجابه عن كتابه وأودعه، ولم تجر بينهم حرب إلاّ ما ذكر عنه من سعي يأتي التعريف به عند ذكر الأدارسة، إن شاء الله تعالى.

وكانت ولايته اثنتي عشرة سنة، وأربعة أشهر، وعشرة أيام.

وتوفي لثمان بقين من سنة ست وتسعين ومائة.

وأخبار إبراهيم بن الأغلب ومواقفه وسياسته شهيرة. وولي بعده ولده أبو العباس.

دولة أبي العباس بن إبراهيم بن الأغلب بن سالم

وكان أبو العباس هذا، واسمه عبد الله غائباً بطرابلس، فقام أخوه زيادة الله بالأمر[1].

= ما هز عطفيه بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد القائم بت علي
وقد ملكوا المغرب كلهم والأندلس إلى يومنا هذا، وهي سنة سبع وعشرين وستمائة.

(١) قال ابن الأثير في أحداث سنة (١٩٦هـ) في ذكر الفتنة بإفريقية مع أهل طرابلس: في هذه السنة ثار أبو عصام، ومن وافقة على إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية، فحاربهم إبراهيم فظفر بهم، وفيها استعمال ابن الأغلب ابنه عبد الله على طرابلس الغرب، فلما قدم إليها، وثار عليه الجند، فحصروه في داره. ثم اصطلحوا على أن يخرج عنهم، فخرج عنهم، فلم يبعد عن البلد، حتى اجتمع إليه كثير من الناس ووضع العطاء، فأتاه البربر من كل ناحية، وكان يعطي الفارس كل يوم أربعة دراهم، وعطي الراجل في اليوم درهمين، فاجتمع إليه عدد كثير، فزحف بهم إلى طرابلس. فخرج إليه الجند، فاقتتلوا، فانهزم جند طرابلس، ودخل عبد الله المدينة، وأمن الناس، وقام بها. ثم عزله أبوه، واستعمل بعده سفيان بن المضاء، فثارت هوارة بطرابلس، فخرج الجند إليهم، والتقوا واقتتلوا، فهزم الجند إلى المدينة، فتبعهم هوارة، فخرج الجند هاربين إلى الأمير إبراهيم بن الأغلب، ودخلوا المدينة فهدموا سورها. وبلغ ذلك إبراهيم بن الأغلب فسير إليه ابنه أبا العباس عبد الله في ثلاثة عشر ألف فارس، فاقتتل هو والبربر، فانهزم البربر، وقتل كثيراً منهم، ودخل طرابلس وبنى سورها.

وبلغ الخبر بهزيمة البربر إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، وجمع البربر، وحرّضهم، وأقبل بهم إلى طرابلس، وهم جمع عظيم عصباً للبربر ونصرةً لهم، فنزلوا على طرابلس، وحصروها. فسدَّ أبو العباس عبد الله بن إبراهيم باب زناتة، وكان يقاتل من باب هوارة، ولم يزل كذلك إلى أن توفي أبوه إبراهيم بن الأغلب. وعهد بالإمارة لولده عبد الله، فأخذ أخوه زيادة الله بن إبراهيم له العهود على الجند، وسير الكتاب إلى أخيه ليخبره بموت أبيه، وبالإمارة له. فأخذ البربر الرسول والكتاب، ودفعوه إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، فأمر بأن ينادي عبد الله بن إبراهيم بموت [. . فصالحهم على أن يكون البلد والبحر لعبد الله، وما كان خارجاً من ذلك يكون لعبد الوهاب. وسار عبد الله إلى القيروان، فلقيه الناس، وتسلم الأمر. وكانت أيامه أيام سكون ودعة.

وقدم في صفر سنة سبع وتسعين ومائة، واستقل بالأمر، وكان سديداً قائماً على أمره جماعاً للأموال.

وذكروا أنه أراد أن يحدث على الرعية جوراً عظيماً.

فقدم حفص بن حميد الجزري ومعه قوم/ صالحون من أصحابه، فاستأذنوا [١/٢٤٣] عليه ـ وكان شاباً جميلاً ـ فكلمه حفص فقال له:

اتّقِ الله أيها الأمير في شبابك، وارحم جمالك، واشفق على بدنك من النار، بإزالة الجور عن رعيتك، وخذ فيهم بسنّة الله ونبيه، فإن الدنيا زائلة عنك كما زالت عمن كان قبلك.

فأظهر الاستخفاف بهم، ولم يجبهم.

فقالوا: قد يئسنا من المخلوق فلا نيأس من الله الخالق، فإن فتح في الدعاء فقد أذن في الإجابة.

ونزلوا بوادي القصارين فتوضؤوا، ثم تقدموا إلى مسجد روح فأمّهم حفص، وصلّى بهم ركعتين، ودعوا الله عليه أن يمنعه مما أراد من أذى المسلمين ويكشف جوره.

فبعد خمسة أيام خرجت قرحة تحت أذنه قتلته في السابع من يوم دعائهم.

فذكر عن رجل كان يتولى غسل أموات أمرائهم قال:

كشفت عنه الثوب، فوالله ما ظننته إلاّ عبداً أسود لتغيره بعد جماله.

وكانت وفاته ليلة الجمعة لست خلون من ذي الحجة سنة إحدى ومائتين.

وولي بعده أخوه زيادة الله.

دولة زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب بن سالم(١)

وكان إبراهيم أبو زيادة الله يختار له العلماء بالعربية ورواة الشعر، فجاء أفصح

---

(١) قال ابن الأثير في الكامل في التاريخ في أحداث سنة (٢٠١هـ) في ذكر ولاية زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب إفريقية. في هذه السنة سادس ذي الحجة توفي أبو العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية، وكانت إمارته خمس سنين ونحو شهرين، وكان سبب موته أنه حذد على كل فدان في عمله ثمانية عشر ديناراً كل سنة، فضاق الناس لذلك، وشكى بعضهم إلى بعض فتقدم إليه رجل من الصالحين اسمه حفص بن عمر الجزري مع رجال من الصالحين، فنهوه عن ذلك ووعظوه، وخوفوه العذاب في الآخرة، وسوء الذكر في الدنيا، وزوال النعمة، فإن الله تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد بقوم سوء فلا مرد له وما لهم من دونه من وال... (فذكر نحو القصة المذكورة هنا، ثم قال):

أهل بيته لساناً، وأكثرهم أدباً، وكان يعرب كلامه من غير تقعير.

ولم ينحرف عن الدعاء للمأمون بن الرشيد أيام توثب على خلافته إبراهيم بن المهدي، فلما خلصت الخلافة إلى المأمون شكر له ذلك.

وكان زيادة الله مع محله من الفهم والمعرفة أبياً حازماً.

وذكر أن المأمون وجّه إليه كتاباً يأمره بالدعاء لعبد الله بن طاهر بن الحسن، فلم يرضَ بذلك زيادة الله، وأمر بإدخال رسول المأمون عليه ليلة وقد حلّ شعرة عظيمة وهو ثمل، ونار عظيمة بين يديه في كوانين وقد احمرت عيناه فهال الرسول منظره وكان من كلامه بعد تقرير شأنه وطاعة سلفه:

يأمرني بالدعاء لعبد خزاعة؟! هذا ما لا يكون أبداً.

ثم مَدّ يده إلى كيس بجنبه فيه ألف دينار فدفعه للرسول وصرفه.

وكان في الكيس دنانير من المضروبة بأسماء بني إدريس الظاهر ملكهم يومئذٍ بالمغرب ففهم المأمون مغزاه ولم يعاتبه بعد(١).

وانتفضت عليه إفريقية حتى لم يبقَ في يده إلاّ الساحل وقابس وصابر الأهوال، وباشر الحروب حتى استقامت له الأمور.

ومن شعر زيادة الله قوله:

بالله لا تقطعن بالهجر أنفاسي ... فأنتَ تملك إنطاقي وإخراسي

صدود طرفك عن طرفي إذا التقيا ... مجرعي كأس إرغامي وإتعاسي

[٢٤٣/ب] /لو لم أبحك حمى قلبي ترود به ... لم تستبح مهجتي يا أملح الناس

وتوفي يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من رجب سنة ثلاث وعشرين ومائتين.

وهو ابن إحدى وخمسين سنة.

وولي بعده أخوه أبو عقال.

= ولما مات ولّي بعده أخوه زيادة الله بن إبراهيم، وبقي أمراً رَخِي البال وادعاً، والدنيا عنده آمنة، ثم جهز جيشاً في أسطول البحر، وكان مراكب كثيرة إلى مدينة سردانية وهي للروم، فعطب بعضها بعد أن غنموا من الروم، وقتلوا كثيراً. فلما عاد من سلم منهم أحسن إليهم زيادة الله ووصلهم، فلما كان سنة سبع ومائتين خرج عليه زياد بن سهل المعروف بابن الصقلبية، وجمع جمعاً كثيراً وحصر مدينة باجة، فسير إليه زيادة الله العساكر، فأزالوه عنها وقتلوا من وافقه على المخالفة.

(١) والمراد بهذه الإشارة أو المغزى من هذه الدراهم وإن كان لم يفهما الرسول إلاّ أن المأمون فهما، فهو يريد أن يقول له: إن لم تتركني وشأني فإني سأحالف الأدارسة دونك، فكفّ عن ذلك.

دولة أبي عقال الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب

وكانت أيام الأغلب هادئة بخلاف أيام أخيه لاستمالة نفوس الجند إليه بكثرة الإحسان والتودّد إلى الناس بإسقاط كثير من المحدثات التي يتزيد فيها العمال.

وأجرى على عماله الأرزاق الواسعة فقبض أيديهم بها عن الناس، وكانت أيامه قصيرة توفي لسبع بقين من ربيع الآخر سنة ست وعشرين ومائتين.

وهو ابن ثلاث وخمسين سنة.

وولي بعده ولده العباس.

دولة [أبي][(١)] العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب[(٢)]

ولما توفي أبي عقال الأغلب رحمة الله عليه، ولي الأمر بعده ولده محمد، وكان مصنوعاً له، ظاهراً على أعدائه، مظفراً في حروبه على بلوغ الغاية في الجهل والأفن.

وكان كوسجاً لا لحية له كأنه خصيّ، لكن الأمور لا ترجع إلى شكل حسن، ولا تتوقف على فصاحة، ولا لسن، إنما هو رزق مكتوب وقدر معتوب، وظفر ورسوب، وعمل محسوب ولا حول ولا قوة إلاّ باللّه.

وكان قد غلبه ابنا حميد: علي، وأبو حميد أخوه متولياً وزارته، فساء ذلك أبا جعفر أحمد أخاه، وأعمل عليه التدبير، ومحمد في غفلة عنه بلهوه ولذته.

وطرق باب الإمارة، وقد خلا من الرجال ركوناً إلى الأمن والهدنة، فهجم أصحابه على الوزير ابن حميد فقتلوه يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة ست وثلاثين ومائتين.

وبلغ الخبر محمداً الأمير فامتنع في علية في القصر مرتفعة.

---

(١) سقط من المخطوط.

(٢) قال ابن الأثير في الكامل في التاريخ في أحداث سنة (٢٢٦هـ) في ذكر وفاة الأغلب وولاية أبي العباس محمد بن الأغلب إفريقية وما كان منه: فقال بعد أن ذكر أن وفاته كانت يوم الخميس للتاريخ المذكور هنا: وكانت ولايته سنتين وسبعة أشهر وسبعة أيام، ولما توفي ولي أبو العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب بلاد إفريقية بعد وفاة والده، ودانت له إفريقية، وابتنى مدينة بقرب تاهرت سماها العباسية في سنة تسع وثلاثين ومائتين، فأحرقها أفلح بن عبد الوهاب الأباضي، وكتب إلى الأموي صاحب الأندلس يعلمه ذلك، فبعث إليه الأموي مائة ألف درهم جزاء له على فعله. وتوفي يوم الاثنين غرة المحرم سنة اثنتين وأربعين ومائتين، وكانت ولايته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وعشرة أيام.

ووقع القتال بين من حضر من رجال محمد وبين رجال أحمد أخيه.

ولما صعب الأمر على رجال أحمد صاروا ينادون: نحن في الطاعة لم نخلع عنها يداً وإنما قمنا على بني حميد الذين قهروا السلطان، واستأثروا بالمال.

فلما سمعوا ذلك فشلوا عن القتال، ورأى محمد ما دهمه على غير أُهبة فلم يسعه إلاّ أن قعد مجلسه للعامة، وأدخل أخاه أحمد ورجاله على نفسه فعاتبه وضعف الأخ عن تمام الأمر فاعتذر وزعم أنه إنما انتصر له ممن كاد دولته، فتحالفا على أن لا يغدر أحد منهما بصاحبه واصطلحا.

وتغلب أحمد على أمر أخيه، وتصرف فيّ الملك بما شاء، ولم يبق لأخيه رسم.

[١/٢٤٤] ولما رأى ذلك/ أقصر عن اللذات وأخذ في الاحتيال على أخيه، والكَتْب إلى قواده، وخواصه في السر، وينتهي ذلك إلى أخيه فيكذبه إلى أن تمّ له الأمر، وحضر الوعد، وتيسر من إعداد الرجال الغرض، وضرب محمد الطبل ـ وهو العلامة ـ فأقبل القوم.

وكانت بين الفريقين حرب عظيمة إلى أن كوثر أصحاب أحمد فانهزموا، ولجأ أحمد إلى داره فاعتصم بها، واستأمن بها إلى أخيه فأمنه.

وجيء به إليه فعاتبه على ما فعل من قتل وزيره وإذلالاً له إياه، وأقصاه مشيعاً إلى مصر بأهله وولده فمات بها.

وتهنأ محمد أمره(١) إلى تمام مدته.

وهو الذي استقضى سحنون(٢) فهو من مفاخره.

وتوفي يوم الاثنين لليلتين خلتا من المحرم سنة اثنتين وأربعين.

وكانت ولايته خمس عشرة سنة.

وعمره ستاً وثلاثين سنة.

وولي بعده ابن أخيه أحمد بن محمد بن الأغلب.

دولة أحمد بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم

وولي الأمر يوم وفاة عمه العباس، وهو ابن عشرين سنة.

---

(١) أي استقر أمره ولم يداخله منغص إلى آخر أيامه.

(٢) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٢/ ٦٣): سحنون الإمام العلاّمة فقيه المغرب أبو سعيد عبد السلام بن حبيب بن حسان بن هلال بن بكار بن ربيعة بن عبد الله التنوخي الحمصي الأصل، المغربي القيرواني المالكي، قاضي القيروان، وصاحب المدونة، ويلقب بسحنوت، ارتحل وحجّ.

وكان حسن السيرة، شهير الفضل، رفيقاً بالرعية، كثير الصدقات على حداثة سنه، وكفاه أثراً باقياً، وحسنة خالده بنيان المأجل[١] الكبير بباب تونس.

وهو الذي زاد الزيادات بجامع القيروان، والمسجد الجامع بتونس.

وبنى سور سوسة[٢] سنة خمس وأربعين ومائتين.

واعتل في أثناء اتخاذ المأجل بالقصر القديم فكان يسأل: هل دخله الماء؟

إلى أن دخله الوادي فعرفوه بذلك فسرّ به وأمرهم أن يأتوه بكأس مملوءة منه فشربها، وقال:

الحمد لله الذي لم أمت حتى تمّ أمر.

ثم مات على إثر ذلك، وهذا عنوان السعادة والقبول من الله تعالى.

فإن الإنسان عرضة لذهاب اسمه ومسماه، فلو لم يكن في هذه الآثار إلاّ أنها بقاء في الوجود الأول باعتبار ما فكيف وبإزاء ذلك من النعيم الباقي والوجود الدائم ما عرف.

وفقنا الله للخير، وتقديم هذا المتاع الفاني إلى حيث ننتفع باستغلاله ونلجأ إلى ظلاله.

وتوفي يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة تسع وأربعين ومائتين.

وهو ابن ثمان وعشرين سنة.

وكانت ولايته سبع سنين، وعشرة أشهر، وخمسة عشر يوماً.

وولي بعده زيادة الله.

دولة زيادة الله بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب

وفي يوم وفاة أبي إبراهيم أخيه بويع لزيادة الله، وكان عاقلاً، حسن السيرة، جميل الأفعال/ ذا رأي وجود وشجاعة. [٢٤٤/ب]

كان سليمان بن عمران القاضي يقول:

مات ولي بني الأغلب أعقل من زيادة الله الأصغر.

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان. المأجل: هو في الأصل البركة العظيمة التي تستنقع فيها المياه، وكان بباب القيروان مأجل عظيم جداً، وللشعراء فيه أشعار مشهورة، وكانوا يتنزهون فيه.

(٢) هي مدينة مشهورة بتونس وبها مرفأ كبير للسفن على البحر الأبيض.

وقوله الأصغر لأنه تقدمه بهذا الاسم عم أبيه.

ولم تطل مدته في الملك فيكون له خبر يعتد به.

وتوفي ليلة السبت لعشر بقين من ذي القعدة سنة خمسين ومائتين في خلافة المستعين من بني العباس.

فكانت ولايته سنة وسبعة أشهر[١].

وولي بعده ابن أخيه أبو عبد الله محمد بن أحمد الملقب بأبي الغرانيق.

دولة محمد بن أحمد بن الأغلب المدعو بأبي الغرانيق

ودعي بذلك لكلفه بصيد الغرانيق[٢].

والناس يقولون اليوم عندنا إذا ضربوا المثل بأيام هادنة، ووصفوا دولة بالعدل والعافية: أيام أبي الغرانيق.

وكان غاية في الجود والسخاء وحسن السيرة.

وكان مشتغلاً بالراحة، قليل الاهتمام بجمع المال.

وكانت في أيامه حروب عظيمة، وفتحت جزيرة مالطة[٣]، وأسر ملكها في جمادى الأولى سنة إحدى وستين ومائتين.

وتردد في أيامه العرب بصقلية.

وتوفي أبو الغرانيق ليلة الأربعاء لست خلون من جمادى الأولى سنة إحدى وستين ومائتين.

فكانت ولايته عشر سنين وخمسة أشهر ونصف شهر، في دول المستعين والمعتز والمهتدي، والمعتمد.

وولي بعده أخوة إبراهيم بن أحمد.

---

(١) وقال ابن الأثير في سنة (٢٥٠) في الكامل في ذكره مدة ملكه: وكانت ولايته سنة واحدة وستة أيام.

(٢) الغرانيق، جمع غرنوق، وهو طائر مائي أشبه بالإوز، غير أن هذا طول العنق طويل الأرجل، وهو منتشر بحديقة الحيوان بالجيزة بمصر، وقد أعدوا له بحيرة يسبح فيها، ولا أذكر موطنه الأصلي الآن.

(٣) المعروف أن جزيرة مالطة جزيرة بالبحر الأبيض المتوسط بين صقلية وإفريقية، وقد أشار إليها هنا المؤلف بقوله جزيرة، مما يفيد أنها هي المرادة على الأرجح، أما ياقوت الحموي فقال في معجمه: مَالِطَةُ: بلدة بالأندلس. قال السلفي: سمعت أبا العباس أحمد بن طالوت البلنسي بالشقر يقول: سمعت أبا القاسم بن رمضان المالطي بها يقول: كان القائد يحيى صاحب مالطة قد صنع له أحد المهندسين صورة تعرف بها أوقات النهار بالصَّنج.

دولة إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب[١]

كان محمد بن أحمد أبو الغرانيق قد عهد لابنه أبي عقال بعده.

واستخلف أخاه إبراهيم بن أحمد هذا خمسين يميناً أن لا ينازعه.

فلما مات أبو الغرانيق جاء أهل القيروان إلى إبراهيم بن أحمد ـ وهو يومئذٍ وال لأخيه على القيروان ـ فعزموا عليه في دخول القصر، ورجوه إذ كان فيهم حسن السيرة أول أمره، فاعتذر بما سبق من العهد.

فقالوا: نحن كارهون لولايته ومبايعون لك، وليس في أعناقنا له بيعة.

ولزموه حتى ركب وحارب القصر حتى دخله، وبايعه مشايخ أهل إفريقية، ووجوهها وجميع بني تغلب، واستقر أمره.

وهو الذي بنى مدينة رقادة، والقصر المعروف بالفتح.

وفي أيامه فتحت سرقوسة.

وفي أيامه كانت فتنة ابن طولون، وقصده إلى برقة مخالفاً لأبيه أحمد بن طولون، يريد تملك إفريقية.

وفي سنة تسع وسبعين ومائتين، كان دخول الشيعي[٢] إلى حدود كتامة.

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٨٧) في ترجمته: صاحب المغرب أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب بن تميم، التميمي، الأغلبي، القيرواني، ابن أمير القيروان. ولي سنة إحدى وستين ومائتين، وكان ملكاً حازماً صارماً مهيباً، كانت التجار تسير في الأمن من مصر إلى سبتة لا تعارض ولا تروع. ابتنى الحصون والمحارس بحيث كانت توقد النار وتتصل في ليلة إذا حدث أمر من سبتة إلى الإسكندرية، بحيث إنه يقال قد أنشأ في البلاد من بنائه وبناء آبائه ثلاثون ألف معقل، وهو الذي مَصَّرَ مدينة سوسة. وقد دونت أيامه وعدله وجوده، وكان سديد السيرة شهماً، ظفر بامرأة متعبدة قادت قودة فدفنها حيَّة، وشنق سبعة أجناد أخذوا للتاجر ثلاثة آلاف دينار بعد أن قررهم، وأخذ الذهب لم ينقص سوى سبعة دنانير، فوزنها من عنده. وقيل جاءه رجل فقال: قد عشقت جارية، وثمنها خمسون ديناراً، وما معي إلا ثلاثون، فوهبه مائة دينار، فسمع به آخر، فجاء وقال: إني عاشق. فقال: فما تجد؟ قال: لهيباً، قال: اغمسوه في الماء، فغمسوه مراتٍ، وهو يصيح: ذهب العشق، فضحك وأمر له بثلاثين دينار. ثم إنه تسوَّدن وقتل إخوته، ثم عُوفي وتاب وتصدق. ثم ظهر عليه الشيعي (هو الحسن بن أحمد بن زكريا أبو عبد الله) داعي عبيد الله المهدي، وحاربه وجرت أمور طويلة بعضها في (تاريخ الإسلام). توفي غازياً بصقلية في ذي القعدة سنة تسعة وثمانين ومائتين، وتملك ابنه عبد الله فكان ديِّناً عالماً بطلاً شجاعاً شاعراً، فقتله غلمانه غيلة بعد عام، وتملك بعده ابنه زيادة الله.

(٢) هو الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا أبو عبد الله الشيعي الصنعاني، وقد سبق أن ذكرت التعريف باسمه من قبل، وقال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٤/ ٥٨): الداعي الحسين

[١/٢٤٥] وكان إبراهيم بن أحمد قد بدأ أمره بحسن السيرة، وسلوك/ المذاهب، والتماس الخلل الكريمة، ثم عاد في الحافرة وانقلب إلى ضد ما كان عليه، فسدّ فكره لغلبة مزاج سوداوي ساءت له أخلاقه وتغيرت ظنونه، فأسرف في القتل، وأفنى أصحابه وكتابه وحجابه، حتى قتل ابنه المكنى بأبي الأغلب.

وقيل: إنه افتقد منديلاً صغيراً كان يمسح به فمه من الشراب، وقد سقط من يد بعض جواريه وألقاه خادم له فقتل بسببه ثلاثمائة خادم.

ولما قتل ابنه أبا الأغلب لظن ظنه به فضربت عنقه بين يديه. . . .(١).

وقتل ثمانية إخوة له رجالاً ضربت أعناقهم صبراً بين يديه، وكان أحدهم ثقيل البدن زمناً فاسترحمه.

فقال: لا يجوز أن تخرج عن حكم الجماعة، ثم أمر به فضربت عنقه بين يديه.

ثم قتل بناته.

وأتى بما لم يأت به أحد قبله.

وكانت أمه إذا ولدت له ابنة من إحدى جواريه أخفتها وربتها حتى اجتمع عندها منهن ستة عشر جويرية، وقالت ـ وقد رأت منه رقة ـ:

يا سيدي قد ربيت لك وصائف ملاحاً، أفتنشط الآن تراهن؟

قال: نعم.

فزينتهن وأدخلتهن عليه، فاستحسنهن، فقالت له: هذه بنتك من فلانة، وبنتك من فلانة، حتى عدتهن.

فلما خرج قال لخادم له أسود كان سيافاً يقال له ميمون: امضِ فجيء برؤوسهن، فتوقف استعظاماً لذلك.

فقال: امضِ ويلك وإلاّ قدمتك قبلهن.

فلما دخل على أمه، كبر ذلك عليها، وقالت: راجعه، وقُلْ له لا سبيل إلى ذلك.

= من دهاة الرجال الخبيرين بالجدل، والحيل، وإغواء بني آدم. قام بالدعوة العبيدية، وحج، وصحب، قوماً من كُتامة، وربطهم، وتأله وتزهد، وشوّق إلى إمام الوقت، فاستجاب له خلق من البربر، وعسكر، وحارب أمير المغرب ابن الأغلب، وهزمه غير مرة، وإلى أن جاء عبيد الله المهدي فتسلم الملك. ولم يجعل لهذا الداعي، ولا لأخيه أبي العباس كبير ولاية. فغضبا وأفسدا عليه القلوب وحارباه، وجرت أمور إلى أن ظفر المهدي بهما، فقتلهما في ساعة، سنة ثمان وتسعين ومائتين.

(١) سقط باقي الخبر من المخطوط.

ووقف السياف على ما يراد بهن، فصحن، واستغثن، وقلن: يا سيدي، وما الذي أذنبنا أما ترحمنا؟

فلم يغن ذلك شيئاً وأخذ رؤوسهن فجاء بها معلقة بشعورهن فوضعها بين يديه.

قلت: اللهم لا ترحمه، وضاعف عليه سخطك وعذابك الذي لا يعقبه رضاك، ولا تمنحه رحمتك[(١)].

وكان من كُتّابه أحمد القديدي، وكان أديباً طريفاً، شاعراً بليغاً، بارعاً في كتابته، مليح الشعر حلوه، يذهب فيه مذاهب الكتاب، وكان إبراهيم قد قدمه وجعل إليه أموره كلها، ثم سخط عليه بعد ذلك فحبسه إفساداً لصنائعه، وقلّة عفو، وسرعة بطش.

فكتب إليه من السجن رسالة يقول فيها:

أعز الله الأمير لكرم العفو وعلو قدره، وجليل خطره، تسمى الله عزّ وجلّ به فسمى نفسه العفو الغفور، والطبع البشري مركب على النقص، مقرون بالزلل، إلاّ ما خص الله تعالى به الأنبياء، وأودعه السادات الأمراء من طهارة الأخلاق، ونزاهة الأنفس، ولست أيد الله الأمير ممن/ يدعي العصمة، والبراءة من الهفوة، ولست [٢٤٥/ب] أَمُتُّ إليك إلاّ بفضلك عليَّ، وإحسانك إليَّ، ولا أُعرفك، بل أذكرك، أن من غرس غرساً، فواجب أن لا يجتثه، وإن أبطأ بسوقه، بل يمده بمداد موارده العذبة حتى تمتد خيطانه، وتورق أغصانه، أعاذك الله تعالى بما أودعك من معالي الأخلاق من ترك العفو عن مُقِرٍ معترفٍ، لا يعرف إلاّ فضلك، ولا يرجو إلاّ عدلك.

ولو كنت أعز الله الأمير عواناً في الخدمة، لكان عفوك أكبر من ذنبي، وفضلك في حلمك أعظم من جرمي، فكيف وأنا بكر في خدمتك، لم أقف على حدودها، ولا معرفة اقتسام مراتبها، فإن يكن ذنب فعلى غير قصد أو زلّة فليست عن عمد.

ومما ذهبت به الأفواه، ونطقت به الألسن وعرفه الخاص والعام بياناً واضحاً، إنك ممن عنى الله جل ذكره بقوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: الآية ٢٢].

وقال الله عز وجل: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ

---

(١) ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم﴾ فالله أعلم ما إن كان هذا الخبر صحيح أم هو على ما يرد في كتب التواريخ التي تصف كل ملك بما تشاء من الخير أو الضلال حسب هوى المؤرخين، فما علينا إلاّ أن تسمع الأخبار ولا نتأثر بما يرد فيها كثيراً، فمنها ما هو حق، ومنها ما هو لا أساس له من الصحة.

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٤].

فلا أحد بمعالي الأخلاق والامتثال لأدب الله أحقب منك لما وهب سألت إلاّ سؤال من دحضت حجته، وأحاطت به زلته، وأوبقه جرمه.

فالحظني بعين عفوك واضفِ عليَّ ستر نعمتك، وأقول أعز الله الأمير:

هبني أسأت فأين العفو والكرم؟ قد قادني نحوك الإذعان والندم

يا خير من مُدَّتِ الأيدي إليه أما ترثي لمن قد بكاه عندك القلم؟

بالغت في السخط فاصفح صفح مقتدر إن الملوك إذا ما استرحموا رحموا

فقال إبراهيم بجهله: إن الملوك إذا ما استرحموا قتلوا[١].

وقتل ولده أبا عقال صبراً بين يديه.

وأرسل بعد ذلك في طلب حمديس المنجم ـ وكان رفع إليه أيضاً أنه قال لأبي عقال: إنك تلي الملك في وقت كذا وحدده ـ فلما دخل عليه.

قال له: أنت القائل لابني: إنك تلي الملك؟ فهلا أَعْلَمَتْكَ نجومك بما أنا صانع بك؟

ثم قال: قدموه إليّ ـ وهو قاعد على كرسي ـ فضربه بطبرزين[٢] كان في يده، وأمر به فقتل بين يديه.

وقيل: قتل إبراهيم جواريه، وبناته، بأنواع القتل منهن من بنى عليها حتى ماتت، ومنهن من بنى عليها حتى ماتت، ومنهن من ذبح، حتى لم يبقَ في قصره أحد[٣].

ودخل يوماً إلى أمه أتراب، فقامت إليه ورحبت به ودعت بطعام وشراب. فتناول منها وتحدث، فلما رأته قد انبسط قالت له:

إن عندي وصيفتين أدبتهما لكْ، وأدخرتهما لمسرتك، وقد طال عهدك بالأنس

---

(١) إن صح هذا الخبر فيذكرني بقول القائل: الصدر الضيق يهدم ما يبنيه العقل الواسع.

(٢) ربما كان في يده شيء يشبه الفأس، فقد جاء في لسان العرب في مادة «طبرزد» قوله: الطَّبَرْزَذُ: السكر، فارسي معرب، يريد تبرزد بالفارسية كأنه نُحِتَ من نواحيه بالفأس، والتَّبَرُ: الفأس بالفارسية.

(٣) هل يصدق هذا عقل، وكيف يمكن لحاكم بهذه الصورة البشعة الخالية من آثار الرحمة أو الشفقة أن يحكم شعب وأن يفتح بلاد، وأن يسوس دولة، ويقود أمه بهذه الأخلاق وتلك الطباع، وكأن الأمة ليس فيها من يثور لكرامته أو لدينه، أو أنها عدمت من يأمر بالمعروف أو ينهي عن المنكر أو من يطلب الشهادة في سبيل الله. فما أظن هذا إلاّ من مبالغات المؤرخين، وربما كان فيه شيء من تلك الصفات، ولكن ليس بهذه الصورة.

بعد قتلك الجواري، وهما تحسنان القراءة والألحان، فهل لك أن أحضرهما لك/ [٢٤٦/أ] للقراءة بين يديك؟

فقال: افعلي.

فأمرت بإحضارهما، فأحضرا، فأمرتهما بالقراءة، فقرأتا أحسن قراءة.

فقالت له: فهل ترى أن تنشداك الشعر؟

قال: نعم.

فأمرتهما، ففعلتا.

فقالت له: هل لك في الغناء؟

قال: نعم.

فأمرتهما فغنتا ارتجالاً.

ثم قالت: فهل لك في أن تغنيا بالعود؟

قال: نعم.

فغنتا بالعود، والطنبور أبدع غناء حتى أخذ فيه الشراب وأحب الانصراف.

فقالت له: هل لك أن يمشيا خلفك حتى تصل إلى مكانك فتقفا على رأسك يؤنسانك، فقد طال عهدك بالأنس؟

فقال: نعم.

ومضى وهما خلفه، فلم يكن إلاّ أقل من ساعة حتى أقبل خادم، وعلى رأسه منديل فظنت أنه وجه إليها بتحفة.

فوضع الغلام الطبق بين يديها ونحى المنديل فإذا برأسي الجاريتين.

فلما رأتهما صرخت صرخة شديدة وخرت مغشياً عليها فما أفاقت إلاّ بعد ساعة طويلة وهي تلعنه وتدعو الله عليه[١].

وأخباره كثيرة لو استقصيناها لطال بها الكتاب، وإنما استكثرنا من ذكر هذه الشناعات، والفتكات الفاجعات ليحمد الله من جعل نفسه وماله وولده وأهله في يد من يتقي الله أو يحسن فيه ملكته أو يقيل عثرته أو يهدر ذلته، ويتذكر ما ابتلي به

(١) هل يقبل أيضاً مثل هذه الحكاية، والتي قد عرفنا نهايتها منذ بدايتها، وهل كانت أمه بهذه السذاجة حتى تفعل معه فعل الوصيفات، ولم تتعلم من الدرس السابق، ثم إنه لم يصفها بالفزع على أبناء ابنها، ثم هو هنا صنفها بذلك وكأن القارىء لا عقل له ولا ذاكرة، وكأنها من حكايات ألف ليلة وليلة.

الناس من النقمات، وانتزاع الرحمات مع كونهم أغض إيماناً، وأفضل زماناً، وأوزعنا الله شكر نعمه، ولا سلبنا أثواب فضله وكرمه(١).

وفي سنة أربع وثمانين أظهر إبراهيم بن أحمد التوبة، وأزمع الخروج إلى الجهاد بصقلية ورفض الملك، وقطع القبالات، وأخرج من في السجون، وبعث في ابنه أبي العباس وهو بصقلية مستدعي إلى الملك فقدم عليه في ربيع الأول منها، فلم يسلم إليه الأمر.

واستنفر الناس ودعاهم إلى الجهاد، ووسع على المقاتلة، وفرق الأموال، وخرج من سوسة في أخريات ربيع الآخر، ثم رحل فدخل بلرم يوم الاثنين لليلتين بقيتا من رجب السنة.

ونازل قبرص، فدخلها دون عهد.

وأغرق بنيه: زيادة الله، وأبا الأغلب، وأبا بحر، رَمْطة(٢).

ثم عبر المجاز، ودخل أرض قِلَّوْرِيَة(٣) فسبى وغنم ومضى يريد كسنته، والتقته رومها بالجزية، فلم يقبل منهم، فنازلها، وقد اشتدت به العلة، فتوفي ليلة السبت لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة، سنة تسع وثمانين ومائتين.

وقفل المسلمون إلى صقلية فدفنوه بها بمدينة بلوم لسبع بقين من ذي الحجة من السنة، وبني على قبره قصر.

ورحل العسكر الذين كان معه إلى إفريقية.

وكانت مدة ولايته ثمانياً وعشرين سنة وستة أشهر.

وولي بعده ابنه أبو العباس عبد الله بن إبراهيم.

[٢٤٦/ب] / دولة أبي العباس عبد الله بن إبراهيم بن أحمد بن الأغلب(٤)

وكان أبو العباس شجاعاً ثبتاً، ذا بصر بالحروب وتجربة فيها، وكان أديباً عاقلاً

---

(١) آمين آمين، ولكن ربما ذكرت هذه الحكايات عن ملك أيام ملك آخر يكون شديد البطش حتى يقول الناس مثل هذا الكلام الذي ذكره المؤلف، ويقولون نحن خير من غيرنا.

(٢) هي قلعة حصينة بجزيرة صقلية، تقع على رأس جبل مرتفع وبها آبار الماء.

(٣) هي مدينة في إيطاليا الجنوبة يفصلها عن مضيق عن مسينة.

(٤) قال ابن الأثير في الكامل في التاريخ في أحداث سنة (٢٨٧هـ) في ذكر ولاية أبي العباس صقلية: كان إبراهيم بن الأمير أحمد أمير إفريقية، قد استعمل على صقلية أبا مالك أحمد بن عمر بن عبد الله، فاستضعفه، فولي بعده ابنه أبا العباس عبد الله بن إبراهيم بن أحمد بن الأغلب، فوصل إليها غرّة شعبان من هذه السنة، في مائة وعشرين مركباً، وأربعين حربي، وحصر طرابلس، واتصل خبره =

شديد الحذر من أبيه أيام حياته، لما يشاهده من نكيره بما أوجب رضاه عنه، والاعتراف بفضله على سائر ولده.

ثم ولاّه عهده، وصير إليه خاتمه ووزارته، وكتب له بذلك كتاباً مشهوراً.

فلم يزل كذلك إلى أن أخذه بالخروج إلى صقلية لمحاربة أهلها، وقد خالفوا أمره.

فخرج في جمادى الآخرة سنة تسع وثمانين ومائتين، فقاتلهم وظهر عليهم، ثم أمَّنَهُم، وفتح بلاداً كثيرة للروم إلى أن استدعاه وولاّه الأمر كما ذكر.

فكانت ولايته رحمة نسخت العذاب، فقعد بتونس لمظالم الرعية، ولبس الصوف وأظهر العدل.

ولم يسكن في قصر أبيه ولكنه اشترى داراً مبنية بالطول، فكان ساكناً بها إلى أن هلك.

= بعسكر المسلمين بمدينة بلرم، وهم يقاتلون أهل جرجنت فعادوا إلى بلرم، وأرسلوا جماعة من شيوخهم إليه بطاعته، واعتذروا من قصدهم جرجنت.

ووصل إليه جماعة من أهل جرجنت، وشكوا منهم، وأخبروه أنهم مخالفون عليه، وأنهم إنما سير مشايخهم خديعة ومكراً، وأنهم لا إيمان لهم ولا عهد، وإن شئت أن تعلم مصداق هذا فاطلب إليك منهم فلاناً وفلاناً. فأرسل إليهم يطلبهم فامتنعوا من الحضور عنده وخالفوا عليه، وأظهروا ذلك. فاعتقل الشيوخ الواصلين إليه منهم. واجتمع أهل بلرم، وساروا إليه منتصف شعبان ومقدمهم مسعود الباجي، وأمير السفهاء منهم ركمويه، وصحبهم، ثم أسطول في البحر نحو ثلاثين قطعة، فهاج البحر على الأسطول فعطب أكثره، وعاد الباقي إلى بلرم. وأما العسكر الذين في البر، فإنهم وصلوا إليه وهو على طرابلس، فاقتتلوا أشد القتال، فقتل من الفريقين جماعة، وافترقوا، ثم أعادوا القتال في الثاني والعشرين، فانهزم أهل بلرم، وقت العصر، وتبعهم أبو العباس إلى بلرم براً وبحراً، فعادوا قتاله عاشر رمضان من بكرة إلى العصر، فانهزم أهل البلد، فوقع القتل فيهم إلى المغرب. واستعمل أبو العباس على أرباضها، ونهبت الأموال، وهرب كثير من الرجال والنساء إلى طبرمين، وهرب ركمويه وأمثاله من رجال الحرب إلى بلاد النصرانية كالقسطنطينية وغيرها.

وملك أبو العباس المدينة، ودخلها وأمن أهلها، وأخذ جماعة من وجوه أهلها، فوجههم إلى أبيه بإفريقية. ثم رحل إلى طبرمين، فقطع كرومها وقاتلهم، ثم رحل إلى قطانية فحصرها، فلم ينل منها غرضه، فرجع إلى المدينة، وأقام إلى أن دخلت سنة ثمان وثمانين، فتجهز للغزو. وطاب الزمان وعمر الأسطول، وسيره أول ربيع الآخر، ونزل على دمشق ونصب عليها المجانيق، وأقام أياماً ثم انصرف إلى مسيني، وجاز في الحربية إلى رِيُو، وقد اجتمع بها كثير من الروم فقاتلهم على باب المدينة، وهزمهم، وملك المدينة بالسيف في رجب، وغنم من الذهب والفضة ما لا يُحدّ، وشحن المراكب بالدقيق والأمتعة. ورجع إلى مسيني وهدم سورها، ووجد بها مراكب قد وصلت من القسطنطينية، فأخذ منها ثلاثين مركباً، ورجع إلى المدينة، وأقام إلى سنة تسع وثمانين. فأتاه كتاب أبيه إبراهيم يأمره بالعودة إلى إفريقية، فرجع إليها جريدة في خمس قطع شواني، وترك العسكر مع ولديه: أبا مضر، وأبا معد، فلما وصل إلى إفريقية استخلفه أبوه بها. وسار هو إلى صقلية مجاهداً عازماً على الحج بعد الجهاد، فوصلها في رجب سنة سبع وثمانين ومائتين.

وحبس ابنه زيادة الله، وخلقاً كثيراً، من رجال أبيه، لأنه خاف من قيام ابنه المذكور عليه، وقيده.

ثم أنه خرج يوماً من الحمام إلى دار خالية، فاستلقى على سرير خيزران، ووضع تحت رأسه سيفاً ونام بعد أن خرج كل من في الدار، إلاّ ما كان من فتيين يثق بهما، فلما نام اتفقا على قتله، وتقديم ابنه زيادة الله المعتقل، واتخاذ اليد بذلك.

فتقدم أحدهما، فاستل السيف المذكور وضربه ضربة قطع بها عنقه حتى خلص إلى السرير، وأسرع الثاني، فارتقى الحائط من الدار حيث زيادة الله، ونزل إليه، فأعلمه أن أباه قد قتل.

فظن زيادة الله أنها مكيدة، فقال: إن كنت صادقاً، فأرني الرأس.

فانصرف مسرعاً، وجاء، فرمى به إليه، فعند ذلك صدقه.

وولي بعد أبيه.

وكان قتل أبي العباس بن إبراهيم يوم الأربعاء ليوم بقي من شعبان سنة تسعين ومائتين.

دولة زيادة الله بن أبي العباس بن إبراهيم بن الأغلب

ولما صحّ عند زيادة الله قتل أبيه فكّ قيوده، وبادره خوفاً أن يسبقه إلى الأمر أحد أعمامه.

ووجّه في ابن الصائغ الوزير، وفي أبي مسلم إسماعيل، وفي عبد الله بن أبي طالب، وكانوا مسجونين فقال: انظروا لي ولأنفسكم؟

فأشاروا عليه بالتوجيه عن أعمامه على لسان أبيه، فاستحضرهم ووجوه القواد، ودفع لهم الصلات، وأخذ عليهم البيعة لنفسه:

ونادى في الجند بالعطاء، وخاطب العمال، وقبض على أعمامه أجمعين، وصيرهم إلى جزيرة الكراث[1] من بحر تونس، فقتلوا بها. ثم لما فرغ/ من أمره في [١/٢٤٧] تقرير الملك دعا بالفتيين اللذين قتلا أباه، فأمر بهما فقطعت أيديهما وأرجلهما، وصلبا على باب القيروان، وباب الجزيرة من أبواب تونس، ثم قتل عمه الزاهد بسوسة.

وولىّ وزارته عبد الله بن الصائغ المشهور بالفضل والأدب.

وقد ظهر أمر داعي لاشيعة في أيام أبيه إبراهيم بن أحمد، فبعث إليه من يتلطف

(١) جزيرة صغيرة في شمال تونس، وتسمى في هذه الأيام بالجزيرة الوطنية.

في تعرف خبره، ويتطلع على طريقته.

فلما دخل عليه قال له: إن الأمير إبراهيم بن أحمد وجهني إليك يقول لك: ما حملك على التعرض لسخطي، والوثوب على ملكي، وإفساد رعيتي، والخروج عليَّ؟

فإن كنت تبتغي غرضاً من أغراض الدنيا فإنك تجده عندي، وإن كان قصدك غير ذلك، فقد عرفت عواقب من سوّلت له نفسه ما سوّلت لك نفسك، وإنما أردت الإعذار إليك، وهذا أول كلامي لك وآخره، فانظر في يومك لغدك.

فقال أبو عبد الله الشيعي: قد قلت فاسمع، وبلّغت فأبلغ: أما ما ذكرت من التهديد فما أنا ممن يُرَوَّع بالإيعاد، وأما تخويفك إياي برجال دولتك أبناء حطام الدنيا، فإني في أنصار الدين، وحماة المؤمنين الذين لا تروعهم كثرة أنصار الظالمين مع قول الله: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٩].

وأما ما أطمع به من دنياه فلست من أهل الطمع فيما عنده، أنا بعثت رسولاً لأمر حُمَّ، وقرب وانجاز وعد من الله سبق، والله لا يخلف الميعاد، هذا جواب ما جئت به.

ثم صرف الرسول على أحسن حال.

فلما بلغ إبراهيم قوله، ووصفت له صفته، عرف أنه صاحب قطع دعوته، وكان له علم من الحدثان.

ثم تفاقم الأمر في أمر زيادة الله هذا، فافتتح مدينة سطيف، ثم مدينة طبنة، ثم مدينة بلزمة.

وجهز إليه زيادة الله الجيوش، واحتشد عسكراً بلغ لدى العطاء اثني عشر ألفاً. أمَّرَ عليه هارون بن الطين، فمنح الله الشيعي النصر عليهم دفعة، وهزمهم من غير كلفة.

وافتتح الشيعي بعد ذلك مدينة تيجس.

ثم فتح قفصة.

ثم فتح قصطيلية.

ثم ملك مدينة الأربس.

ثم تحرك إلى ملاقاة زيادة الله في أول جمادى الآخرة من سنة ست وتسعين ومائتين.

وقد بلغت جيوش الشيعي مائة ألف بين فارس وراجل.

واجتمع إلى زيادة الله هيئة البحر كثرة.

وكانت بين الفريقين حرب صعبة بأحواز الأربس عنوة، فقتل أهلها.

فلما اتصل الخبر برقادة إلى زيادة الله على أن الأمر فسد فساداً لا يقبل الاصلاح، وأن الدولة قد انقرضت ـ وكان قد تقدم بشراء أمتعة واستعد للهرب، وأرسل خاصة رجاله.

[٢٤٧/ب] / فأشار عليه وزيره بالمقام وقال له: العساكر تجتمع إليك، ولا يتجاسر الشيعي على الإقدام عليك، وأنت في قوة من أهل بيتك وخاصتك.

فلم يقبل منه ذلك، وأخذ في رفع الأموال، ونفيس الخلع، واصطفاء الجواهر، واختيار السلاح، وحمل من يعز عليه من جواريه وأمهات أولاده، ثم انتخب من عبيده الصقالبة ألف خادم، وجعل على وسط كل واحد منهم ألف دينار خوفاً من أن تلحق أحمال أمواله.

ووقفت إليه جارية من قيانه، وقد أخذت العود على صدرها واندفعت تغنيه لتحركه على رفعها، وتقول:

لم أنس يوم الرحيل موقفها وجفنها في دُمُوعها غرق

وقولها والرّكاب سائرة تتركني سيدي وتنطلق؟!

فدمعت عيناه، وحطّ حمل مال عن بغل وأمر بحملها عليه.

فلما أذّن المؤذن بالعشاء الآخرة، خرج من رقاده، واتبعه الناس قوماً بعد قوم يهتدون بالمشاعل.

وأصبح الناس غداة تلك الليلة إلى قصور زيادة الله برقادة فانتهبوها، وأخذوا من أموال بني تغلب وآنية الذهب والفضة ما لا يحاط به وصفاً.

وانتهى أمر زيادة الله إلى مصر. فكانت مدة ولايته بإفريقية خمس سنين وأحد عشر شهراً.

وعليه انقرضت دولة الأغالبة بإفريقية، وكانت مدتها مائة سنة وإحدى عشر سنة، وثلاثة أشهر، وعشرة أيام.

ولما سمع الشيعي بهروب زيادة الله أسرع إلى رقادة، واستولى على ملك إفريقية، وكان من أمره ما تقدم ذكره.

والبقاء لله وحده.

ذكر ما أمكن الإلماع به من ملوك الشيعة المتقدم ذكرهم حفظاً لترتيب الكتاب وإقامة لرسمه بحول الله تعالى

ومن لدن انصراف زيادة الله عن رقادة راحلاً نحو المشرق، دالت الدولة بعد الأغالبة لملوك الشيعة المدعويين بالعبيديين، منسوبين إلى عبيد الله أول ملوكهم، وقد مَرّ ذكره.

وأضفناهم في هذا الكتاب إلى محل غايتهم بالمشرق، وإلى محل أوليهم إذ أصلهم شرقي لا مغربي.

ولما زاع أيام من ملك منهم واستوطن المغرب، وإنما حسبناهم شرقيين تغليباً للكثير، وطلبا للمناسبة إلاّ أننا في هذا الموضع نعمر المحل بسردهم حفظاً للترتيب فنقول:

أولهم:

عبيد الله الملقب بالمهدي الذي تنسب إليه المهدية[1]

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٤١): عبيد الله أبو محمد أول من قام من الخلفاء الخوارج العبيدية الباطنية الذين قلبوا الإسلام، وأعلنوا بالرفض، وأبطنوا مذهب الإسماعيلية، وبثوا الدعاة يستغوون الجبلية والجهلة. وادعى هذا المدبر أنه فاطم من ذرية جعفر الصادق فقال: أنا عبيد الله بن محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد. وقيل: بل قال: أنا عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق. وقيل: لم يكن اسمه عبيد الله، بل إنما هو سعيد بن أحمد. وقيل: سعيد بن الحسين. وقيل: كان يهودياً. وقيل: من أولاد ديصان الذي ألف في الزندقة. وقيل: لما رأى اليسع صاحب سلجماسة الغلبة، دخل فذبح المهدي، فدخل أبو عبد الله الشيعي، فرآه قتيلاً، وعنده خادم، فأبرز الخادم، وقال للناس: هذا إمامكم.
والمحققون على أنه دعي بحيث إن المعز منهم لما سأله السيد ابن طباطبا عن نسبه، قال: غداً أخرجه لك. ثم أصبح وقد ألقى عَرَمَة من الذهب ثم جذب نصف سيفه من غمده، فقال: هذا نسبي، وأمرهم بنهب الذهب، وقال: هذا حَسَبي. وقد صنف ابن الباقلاني وغيره من الأئمة في هتك مقالات العبيدية وبطلان نسبهم. فهذا نسبهم، وهذه نحلتهم. وقد سقت في حوادث تاريخنا (أي الذهبي) من أموال هؤلاء، وأخبارهم في تفاريق السنين عجائب.

[٢٤٨/أ] سلّم عليه بالإمامة سنة سبع وتسعين ومائتين، واستوطن رقادة إلى أن/ بنى المهدية بعد أن اختارها في البلاد، واختطها حسب اختياره بطالع الأسد، لكونه برجاً ثابتاً، ولكونه بيت الشمس التي هي دليل الملك.

ورمى بسهم من الباب إلى المصلى، وقال: إلى هنا يبلغ صاحب الحمار، وإنما بنيتها لصيانة الفاطميات ساعة من نهار، فكان ذلك.

وتوفي ليلة الثلاثاء منتصف ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة.

وهو ابن ثلاث وستين سنة.

ثم ولي بعد ابنه.

أبو القاسم الملقب بالقائم بأمر الله(١)

وخرج في أيامه أبو يزيد مخلد بن كيداد النكار وتبعه الناس منكرين على آل عبيد الله.

واستولى على إفريقية كلها إلاّ المهدية.

وتوفي القائم في ريعان الفتنة لثلاث عشرة خلت من شوال سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة.

وولي بعده:

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٥٢) صاحب المغرب، أبو القاسم محمد بن المهدي عبيد الله. مولده بسلمية في سنة ثمان وسبعين ومائتين، ودخل المغرب مع أبيه، فبويع هذا عند موت أبيه في سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة. وكان مهيباً شجاعاً قليل الخير، فاسد العقيدة، خرج عليه في سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة أبو يزيد مخلد بن كيدان البربري، وجرت بينهما ملاحم، وحصره مخلد بالمهدية، وضيق عليه، واستولى على بلاده. ثم وسوس القائم، واختلط وزال عقله، وكان شيطاناً مريداً يتزندق. وذكر القاضي عبد الجبار المتكلم: أن القائم أظهر سب الأنبياء، وكان مناديه يصيح: العنوا الغار وما حوى. وأباد عِدَّة من العلماء. وكان يراسل قرامطة البحرين، ويأمرهم بإحراق المساجد والمصاحف.

فتجمعت الإباضية، والبربر على مخلد، وأقبل، وكان ناسكاً قصير الدلق (ثوب متسع الأكمام طويلها) يركب حماراً لكنهم خوارج، وقام معه خلق من السنة والصلحاء، وكاد كان يتملك العالم، وركزت بنودهم (أعلامهم) عند جامع القيروان فيها: «لا إله إلاّ الله، لا حُكم إلاّ لله»، وبندان أصفران فيها: «نصر من الله وفتح قريب». وبند مخلد فيه: «اللهم انصر وليك على من سبّ نبيك». وخطبهم أحمد بن أبي الوليد، فحض على الجهاد، ثم ساروا، ونازلوا المهدية، ولما التقوا وأيقن مخلد بالنصر، تحركت نفسه الخارجية، وقال لأصحابه: انكشفوا عن القيروان حتى ينال منهم عدوهم، ففعلوا ذلك، فاستشهد خمسة وثمانون من العلماء والزهاد.

أبو طاهر إسماعيل[١]

ولي عهده، فشمر إلى النكار حتى قتله في خبر طويل.

وفتح البلاد، وجدّد الدعوة، وقتل الثوار، والخوارج.

ثم توفي سنة إحدى وأربعين، وثلاثمائة.

وولي بعده ولده:

أبو تميم معد[٢]

ذو الآثار والأخبار والجبروت.

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٥/١٥٦): المنصور أبو طاهر إسماعيل بن القائم بن المهدي، العبيدي الباطني، صاحب المغرب، ولي بعد أبيه، وحارب رأس الإباضية أبا يزيد مخلد بن كيداد الزهد، والتقى الجمعان مراتٍ، وظهر مخلد على أكثر المغرب، ولم يبقَ لبني عبيد سوى المهدية. فنهض المنصور، وأخفى موت أبيه، وصابر الإباضية حتى ترحلوا عنه، ونازلوا مدينة سوسة، فبرز المنصور من المهدية والتقوا، فانكسر جيش مخلد على كثرتهم وأَسِرَ هو في سنة (٣٣٦هـ) فمات بعد الأسر بأربعة أيام من الجراح، فسلخ وحشى قُطْناً، وصُلِبَ. وبنو مدينة المنصورية مكان الوقعة، فنزلها المنصور. وكان بطلاً شجاعاً، رابط الجأش، فصيحاً، مفوهاً يرتجل الخطب، وفيه إسلام في الجملة وعقل بخلاف أبيه الزنديق.

... ومن محاسنه أنه ولى محمد بن المنظور الأنصاري قضاء القيروان، وكان من كبار أصحاب الحديث، قد لقي إسماعيل القاضي، والحارث بن أبي أسامة، فقال: بشر كان أن لا آخذ رزقاً ولا أركب دابة، فولاه ليتألف الرعية... وخرج في رمضان سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة إلى مكان يتنزه، فأصابه برد وريح عظيمة، فأثر ذلك فيه، ومرض، ومات عدد كثير ممن معه، ثم مات هو في سلخ شوال من السنة، وله تسع وثلاثون سنة.

(٢) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٥/١٥٩): هو المُعِزّ لدين الله أبو تميم معد بن المنصور إسماعيل بن القائم، العبيدي، المهدوي، المغربي الذي بُنِيَت القاهرة المُعِزّية له. كان صاحب المغرب، وكان وليّ عهد أبيه. ولىَ سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة وسار في نواحي إفريقية يمهد ملكه فذلك الخارجين عليه، واستعمل مماليكه على المدن، واستخدم الجند، وأنفق الأموال، وجهز مملوكه جوهر القائد في الجيوش.... وكانت مصر في القحط، فأخذها جوهر، وأخذ الشام والحجاز، ونفذ يُعَرِّف مولاه بانتظام الأمر، وضربت السكة على الدينار بمصر، وهي: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، عَلِيّ خير الوصيين، والوجه الآخر اسم المعز والتاريخ، وأعلن الأذان بحيّ على خير العمل.... فتهيأ المعزّ، واستتاب على المغرب بُلكين الصنهاجي، وسار بخزائنه، وتوابيت آبائه، وكان دخوله إلى الإسكندرية في شعبان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة. وتلقاه قاضي مصر الذهلي وأعيانها، فأكرمهم وطال حديثه معهم، وعرفهم أن قصده الحق والجهاد، وأن يختم عمره بالأعمال الصالحة، وأن يقيم أوامر جده رسول الله ﷺ، ووعظ وذكّر حتى أعجبهم، وبكى بعضهم. ثم خلع عليهم، وقال للقاضي أبي طاهر الذهلي: من رأيت من الخلفاء؟ فقال: واحد قال: من هو؟ قال: مولانا، فأعجبه ذلك. ثم أنه سار حتى خيّم بالجيزة، فأخذ عسكره في التعدية

وتوفي بالقاهرة المنسوبة إليه في ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاثمائة.

وأما من بعد هؤلاء العبيديين فليسوا ممن سكن المغرب وهم:

العزيز بالله.

ثم الحاكم.

ثم الظاهر.

ثم المستنصر.

ثم المستعلي.

ثم الآمر.

ثم الحافظ.

ثم الظافر.

ثم الفائز.

ثم العاضد.

هؤلاء قد تقدم ذكرهم.

فمن أراد استيفاء أكثر من هذا فلينظره حيث ذُكر؛

= إلى الفسطاط، ثم دخل القاهرة، وقد بنى له بها قصر الإمارة، وزينت مصر، فاستوى على سرير ملكه وصلّى ركعتين. وكان عاقلاً لبيباً حازماً ذا أدب وعلم ومعرفة وجلالة وكرم، يرجع في الجملة إلى عدل وإنصاف، ولولا بدعته ورفضه لكان من خيار الملوك.

ذكر ملوك صنهاجة بإفريقية المغرب

وإن كان هؤلاء المذكورين مندرجين في دولة الشيعة والملتزمين طاعتهم، ولكنهم استبدوا، وقد خفتت الدولة العبيدية، فكانوا ملوكاً جحاجح.

وكان ابتداء أمرهم أن معداً الملقب بالمعز لدين الله أبا تميم جبار بيت الشيعة، وفحل من دون أوليهم لما أزمع الرحيل إلى المشرق، وحرص على استبقاء ما حازه من ملك المغرب بإفريقية وما إليها إلى أحواز تلمسان إلى صقلية ليكون له ردءاً ولملكه بالمشرق عدلاً، اعمل نظره فيمن يستكفيه به، فيأمن معه بأس من بالمغرب الأقصى من ملوك زناتة، المعقودة أيديهم بملوك بني أمية بالأندلس أعداء الشيعة، وأولى منافستهم.

وكانت بين ملوك زناتة في قديم الزمان وحديثه، وبين أمراء صنهاجة جيرانهم بالحدود المسيلة من مليانة، والجزائر، والحدود التاهرتية[1]، فما وراءها حروب عظيمة، وأضرار متصلة، وحسائف ظاهرة وكامنة.

وكانت الرئاسة في صنهاجة إلى:

الأمير زيري بن مناد

وكان زيري أول من ظهر منهم بالمغرب الأوسط، فقاد الجيوش، وعقد الألوية،/ وخطب له على المنابر. [٢٤٨/ب]

وهو الذي بنى مدينة أشير، وإليه تنسب وبنى ابنه بلقين بأمره مدينة مليانة ومدينة الجزائر، والمدية.

وكان زيري موالياً لملوك الشيعة استظهاراً بهم على عدوه من زناتة.

وبتحريضه وإجلابه، دخوت جيوش الشيعة المغرب الأقصى إلى بحر السوس.

---

(١) هذه النسبة إلى مدينة تاهرت قاعدة ملك دولة الرستميين الخوارج الأباضيين بالمغرب، وهي غير تاهرت القديمة، وكانت تسمى تاهرت الجديدة، أو السفلى، وكان بناها مؤسس هذه الدولة، وهو الإمام عبد الرحمن بن رستم في منتصف القرن الثاني الهجري.

وحضر قتال أبي يزيد النكار مع إسماعيل المنصور ثالث ملوكهم، فأبلى هو وقومه أحسن البلاء.

فلما استوثق الأمر لإسماعيل صرف زيري إلى بلاده، وأمسك لديه بنيه.

وكان كبيرهم بلقين، وأظهرهم، فلم يزالوا معه ومع ولده إلى أن توجه إلى مصر.

ووقع اختياره على استخلاف بلقين بن زيري بجميع إفريقية والمغرب، ففوض إليه وسماه يوسف، وكنّاه أبا الفتوح، وَلَقّبه: سيف العزيز بالله، يعني نزار بن معد.

ولما رحل واحتل قابس لوجهته يوم الاثنين لثمان خلون من ربيع الأول سنة اثنين وستين وثلاثمائة، بلغ يوسف بن زيري مشيعاً إياه آبار الخشب، ثم أمره بالرجوع إلى إفريقية، وقال له عند وداعه: إن نسيت شيئاً مما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء:

لا ترفع الجباية عن أهل البادية.

ولا ترفع السيف عن البربر.

ولا تولِّ أحداً من إخوتك وبني عمك، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك، واستوص بالحضر خيراً.

وكان آخر العهد بالمغرب بمعد، واستوثق ليوسف بن زيري ملك كبير.

دولة أبي الفتوح يوسف بن زيري

وكان جعفر بن علي ممدوح ابن هانىء الأندلسي[1] الشهير الذكر أميراً على الزاب، وأبوه هو الذي بنى مدينة المسيلة، فظن أن المعز يستخلفه على إفريقية والمغرب، فلما خاب أمله من ذلك خالف يوسف وحاربه.

وتحرك يوسف إلى المغرب أول حركاته فهزم زناتة واستأصل شأفتهم، فتح معاقلهم وسبى أموالهم وذراريهم.

---

(١) هو محمود بن هانىء الأزدي الأندلسي المهلبي الأندلسي أبو الحسن شاعر عصره. قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٣١): يقال: إنه من ذوي المهلب، وكان أبوه شاعراً أيضاً، ويكنى محمد أبا القاسم أيضاً. مولده بإشبيلية، وكان ذا حُظوة عند صاحب إشبيلية، ونظمه بديع في الذروة، وكان حافظاً لأشعار العرب، وأيامها. كنه فاسق خمير يتهم بدين الفلاسفة، فهرب لما هموا به إلى العُدْوة، فاتصل بالمُعز العبيدي، فأنعم عليه، وشرب عند قوم، فحنق في رجب سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، وهو عشر الخمسين. وديوانه كبير، وفيه مدائح تفضي به إلى الكفر، وهو من نظراء المتنبي. وقيل: بل عاش ستاً وثلاثين سنة.

ففر جعفر بن علي أمامه إلى الأندلس مستجيراً بملكها.

وانتهى يوسف إلى سجلماسة لا يدافعه أحداً إلاّ حطمه، متبعاً أمير زناتة المنتسب إلى خزر، فأسره، وتملك سجلماسة.

ثم عاد إلى أشير فبنى مدينة أشير، وكانت مدينة شريفة.

وعانى حروباً عظيمة، ذكرها الناس.

ثم توفي في بعض حركاته بين تلمسان وسجلماسة سنة اثنين وسبعين وثلاثمائة.

ووَلي بعده ابنه المنصور.

دولة المنصور بن بلقين بن زيري بن مناد

ولي الملك بعد أبيه سلم له فيه إخوته حماد وسِواه.

وبويع بالإمارة في مسجد القيروان.

وكانت / بينه وبين أعمامه حروب عظيمة. [٢٤٩/أ]

ثم انهزموا عنه، فلحق منهم بالأندلس زاوي، وجلال، وماكس، فاتفق لهم بالأندلس ملك أيام فتنة البربر بها.

فكان منهم بغرناطة باديس بن حبوش بن ماكسن بن زيري، وذريته حسبما هو مشهور.

وبعد أن عاد أبوهم زاوي إلى قومه بعد وفاة باديس بن المنصور، وقد أسن، وبلغ الغاية من العمر.

قال أبو محمد بن حزم وقد ذكره: ومن غرائب الدهر أن زاوي كان له في الدنيا أزيد من ألف امرأة لا تحل له منهن واحدة، كلهن من نسل إخوته وكذلك مثل هذا العدد من الرجال من نسل إخوته.

وأغزى المنصور حماداً أخاه ما يجاوره من بلاد أعدائه فرزق نصراً لا كفاء له.

ثم مات المنصور بن بلقين سنة خمس وتسعين وثلاثمائة.

وبويع بعده ولده باديس بن المنصور.

دولة باديس بن المنصور بن بلقين بن زيري بن مناد[١]

يكنى: أبا مناد.

---

(١) ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢١٦) وقد ذكر نسب على غير ما ذكر هنا فقال: باديس بن

ويلقب: نصر الدولة.

وكان صغير السن عند موت أبيه.

ودليله ما ذكره ابن الرقيق:

من أنه في السنة التي توفي فيها ـ وقد قدم دار ملكه أول سفرة سافرها ـ أنه نزل للقاء المنصور أبيه هو ومن معه من أهل بيته، وأن بعض عمومة أبيه أخذه على يده وحمله من الأرض حتى عانق أباه المنصور وهو راكب.

وهذا يشهد بصغر سنه إذ لا يتأتى مثل هذا إلاّ في الصبي الصغير السن.

وتسامعت أمراء زناتة من أعدائهم بموت المنصور، وغيبة أخيه حماد بالقيروان. فعاود إلى حالهم من الحرب والمخالفة، وأخذ الرفاق.

فأنهض باديس عمه حماداً إليهم، وجعل له تملك كل ما يفتحه، وأعفاه من الوصول إلى إفريقية بعد.

وكمل له شروطاً كثيرة تشطط فيها حماد لكبره، وحرص مدبري دولة باديس على الاستراحة منه.

فخرج حماد من القيروان في جيش لا يحصيه إلاّ الله يجر الدنيا وراءه، حتى أتى مدينة تيجس من أحواز قسنطينة، وتحرك فنزل بأبي طويل من أحواز القلعة المنسوبة إليه.

وبنى، وقرر العمران، وشيد القصور، وخلّد الآثار حسبما ذكره أبو الحسن بن حماد وغيره.

وكان حماد شجاعاً جواداً، قرأ الفقه بالقيروان، ونظر في الجدل، وكان من أكمل الملوك.

فغزا وظهر على أعدائه، واستمرت حالة إلى أن نهض باديس بأمره.

وفي سنة خمس وأربعمائة كتب إليه باديس يأمره برفع يده عما حازه من الأعمال.

= منصور بن يوسف بن بَلُكين بن زيري، صاحب المغرب، وابن ملوكها من جهة العبيدية، أبو مناد الصنهاجي. ولي ممالك إفريقية للحاكم، فلقبه: نصير الدولة. وكان سائساً حازماً شديد البأس، إذا هز رمحاً كسره. مولده سنة أربع وسبعين وثلاثمائة. وفي سنة ست وأربعمائة أمر جيشه بالعرض فسره حُسن شارتهم وهيئتهم، ثم مدّ السماط، وأكل فمات فجأة لليلته. فأخفوا موته ورتبوا في الملك أخاه كرامت، ثم عطفوا فبايعوا ابنه المعز بن باديس. ويقال: مات بالخوانيق، دعا عليه الصالح محرز الطرابلسي المؤدب، لكونه هم بخراب طرابلس المغرب. وصنهاجة من حمير بالكسر. وقال ابن دريد، لا يجوز إلاّ بضم الضاد.

فامتنع حماد وساء ما بينهما، وكان بين باديس والعم حماد أهوال عمة وحروب مبيدة.

وهزم حماد هزيمة مستأصلة/ ألجأته إلى الاعتصام بالجبال والقلاع. [٢٤٩/ب]

وفي أثناء ذلك طرق باديس الموت فجأة لعشر بقين من ذي القعدة سنة ست وأربعمائة.

دولة المعز بن باديس[١]

لما مات فجأة باديس بالمحلة ـ وقد لاح له الظهور، وكاد يستأصل حماداً من الغد ففرج الله عليه بوفاته بعقرب قتاله تعلقت بثيابه ـ تفاوض مدبروا الدولة، ثم اتفقوا على القيام لولده المعز بن باديس واستنابه ابن عمه كرامة بن المنصور، حتى يلحق الولد بدار الملك، ورفعوا تابوت باديس، تقدمه البنود[٢]، وتحف به الجنود، وتهتز خلفه الطبول، وتتزاحم بسيقته الخيول على أكمل هيئة وأجمل تعبئة.

ولقد أذكرنا حديثه هذا أشبه الأشياء به وهو: الانصراف من تلمسان بجنازة السلطان المولى عبد العزيز، منعقد أمره على ولده السعيد لنظر وزيره صدر الأوفياء، وعظيم الظهراء فترحمنا على من قضى وسلف ودعونا لمن حضر وخلف.

فيقال: إن حماداً أشرف عليهم من القلعة التي كان قد لجأ إليها.

فلما رأى ثبات رجال صنهاجة وحسن تعبئة جيشهم وثباتهم على ابن مَلِكِهم، ووفاءهم بزمام أبيه، وقيامهم بحق نعمته، ورعيهم إياه في ولده، وملكه وحرمه.

قال لمن حضره: مثل هؤلاء ينبغي أن تتخذ الملوك، وتبذل فيهم النعم، وصلت إلى إفريقية في ثلاثين ألف فارس، ليس منهم إلاّ من بالغت لهم في الإحسان

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٤٠) صاحب إفريقية المعز بن باديس بن منصور بن بلكين بن زيري بن مناد الحميري الصنهاجي، المغربي شرف الدولة ابن أمير المغرب. نفذ إليه الحكم من مصر التقليد والخلع في سنة سبع وأربعمائة، وعلا شأنه. وكان ملكاً مهيباً، سرياً شجاعاً، عالي الهمّة، محباً للعلم، كثير البذل، مدحته الشعراء. وكان مذهب الإمام أبي حنيفة قد كثر بإفريقية فحمل أهل بلاده على مذه مالك حسماً لمادة الخلاف، وكان يرجع إلى إسلام، فخلع طاعة العبيدية، وخطب للقائم بأمر الله العباسي، فبعث إليه المستنصر يتهدده، فلم يخفه لمحاربته من مصر العرب، فخربوا حصون برقة وإفريقية وأخذوا أماكن، واستوطنوا تلك الديار من الزمان. ولم يخطب لني عبيد بعدها بالقيروان. قيل: كان مولد المعز في سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة. ومات في شعبان سنة أربع وخمسين وأربعمائة. ومرض بالبرص. ورثاه شاعره الحسن بن رشيق القيرواني. وكان موته بالمهدية. وقام بعده ولده تميم بن المعز.

(٢) أي الأعلام والرايات.

والأنعام وعدت إلى القلعة وليس معي منهم إلاّ أقل من ستمائة، وأنا بينهم حيّ أُرَجّى وأُخْشَى، وهؤلاء قد أطاعوا باديس ميتاً كطاعتهم له حيّاً.

ورجع حماد إلى أشير، ولحق جيش باديس بجنازته القيروان.

وبويع ولده المعز يوم الاثنين لثلاث خلون من ذي الحجة من السنة المذكورة.

وعمره يومئذٍ ثمانية أعوام.

ووصله كتاب صاحب مصر، فلقبه شرف الدولة.

والمعز أبو تميم هذا هو أول من صرف دعوة العبيديين إلى غيرهم من بني العباس، وأزال أسماءهم من السكة في سنة إحدى وأربعين، ونقش فيها: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨٥].

فلما بلغ ذلك صاحب مصر وهو المستنصر ووزيره الجرجاني، دبر في دخول العرب إلى إفريقية ولم يكن منهم قَبِلَ بها أحد.

وقال: والله لأرمينه بجيوش لا أتحمل فيها مشقة.

فدعا العرب، وأباح لها مجاز النيل إلى الغرب ـ وكان ممنوعاً عنها قبل ذلك ـ وجعل لمن جاز فروة/ وديناراً. [٢٥٠/أ]

فعبر منهم خلق عظيم، شقي بهم المعز ومن بعده إلى اليوم.

فسبوا البلاد، وأيتموا الأولاد، وانتهبوا الطارف والتلاد، وحسبك بدخول مدينة القيروان شهرة، ووقيعة شنيعة: وإلى اليوم فالخطب بهم لا يرفع، والوطن الخصيب الرحيب قفر بلقع.

ومات حماد بتازمرت في شهر رجب سنة تسع عشرة وأربعمائة.

وانقسم الملك الصنهاجي بهذا الوطن على قسمين، وتفرق فرقتين:

فقسم من ولد القائد بن حماد بالقلعة المنسوبة إليهم.

ثم بَجَايَة[١] بعد ذلك.

فلنذكر قسم المعز بن باديس إلى آخرهم، ثم نكر على القسم الآخر إن شاء الله.

وتوفي المعز بن باديس سنة أربع وخمسين وأربعمائة.

ذكر قسم الملوك الصناهجة
من ولد باديس بالمهدية وما إليها من البلاد الإفريقية

أولهم:

---

(١) هي مدينة بالجزائر من عمل قسنطينة، وتقع على ساحل البحر الأبيض.

تميم بن المعز بن باديس بن المنصور(١)

ولما توفي المعز بن باديس بالمهدية بعد أن كانت عليه هزيمة العرب من زغبة اللحقين من المشرق، واستباحة مدينة القيروان عنوة، بما هو مشهور الشناعة على الأيام معدود في مصائب الإسلام، وذلك في يوم السبت لخمس بقين من شعبان سنة أربع وخمسين، ودفن في رباط المنستير بعد سبع وأربعين سنة بلغت مدته، وولي أمره ولده تميم.

وكان تميم قد ولاّه أبوه المهدية، فأقام بها إلى أن ألجىء إليها أبو المعز تاركاً ما وراءه بسبب ما نزل به من العرب.

فخرج إليه تميم، وقبّل الأرض بين يديه، وأقام بها، وتميم يُنْفِذ الأمور في حياته إلى أن توفي، واستبد تميم بالأمر.

وتميم أحد شعراء أبناء الملوك، وممن يناظر ابن المعتز في المشارقة.

وفي سنة ثمانين وأربعمائة نازل تميم أهل جنوة وبيشة في ثلاثمائة مركب، تحمل ثلاثين ألف مقاتل، فحاصروا المهدية ودخلوها ودخلوا زويلة، فأحرقوا الديار، وهتكوا الأستار، وعملوا القتل والأسار، ولجأ تميم إلى القصر المنسوب إلى المهدي، فاعتصم به إلى أن وقع الصلح بينه وبين الروم على أن يدفع لهم مائة ألف من الذهب.

فدفع ذلك بين ناض وأواني ذهب وفضة، وأقلعوا بذلك، وبأموال الناس ونسائهم، وبقي تميم بالمهدية وأحوازها من قابس، وجربة، وصفاقس، وأموره معتلة فيها، تارة له، وتارة عليه، إلى أن توفي ليلة السبت لخمس عشرة ليلة خلت من رجب سنة إحدى وخمسمائة، ونقل إلى رباط المنستير، وسِنّه إذ ذاك تسع وسبعون سنة.

ومدته ست وأربعون وأشهر.

ومن/ شعره: [٢٥٠/ب]

بكر الخيل دامية النحور وقرع الهام بالقُضب الذكور

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٩/ ٢٦٣): صاحب إفريقية، السلطان أبو يحيى تميم بن المعز بن باديس بن المنصور الحميري، الصنهاجي. من أولاد الملوك، وكان بطلاً شجاعاً، مهاباً، سائساً، عالماً، شاعراً، جواداً ممدحاً. ولد سنة (٤٢٢). وولّي المهدية لأبيه سنة خمس وأربعين، ثم بعد أشهر مات المعز، وتملك هذا. فامتدت أيامه إلى أن مات في رجب سنة إحدى وخمسمائة. وخلّف من البنين فوق المائة، ومن البنات ستين بنتاً على ما قاله حفيده العزيز بن شداد. ثم تملك بعده ابنه يحيى بن تميم، فأحسن السيرة، وافتتح حصوناً كثيرة.

لأقتحمنها حرباً عواناً يشيب لهولها رأس الصغير
فإما الملك في شرفٍ وعزٍ عَلَيَّ التاج في أعلى السرير
وإما الموت بين ظُبَى العوالي فلست بخالد أَبَدَ الدهور

وولي بعد تميم ابنه: يحيى.

دولة يحيى بن تميم بن المعز بن باديس[1]

يكنى: أبا علي.

وولي يوم وفاة أبيه تميم، وعمره إذ ذاك ثلاث وأربعون سنة وستة أشهر.

قال أبو الصلت في كتابه:

كان يحيى قدس الله روحه موقوف الفكر على سياسة رعيته، وتدبير دولته، وصرف الهمة إلى ذلك عن قرض الشعر والاشتغال به، مع طبع جيد وذهن متوقد، وإنما كان يقوله في أوقات فراغه، وعند نشاطه فمما أنشدت له:

ألا يا منتهى طربي ومن لم يَغْدُهَا أَرَبي
إذا ما كنت حاضرة شربته الراح بالنُّخَب
ومهما غبت عن بصريَ فواحزني وواحَرَبي

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٩/ ٤١٢): صاحب إفريقية الملك أبو طاهر يحيى بن الملك تميم بن المعز بن باديس الحميري، قام في الملك بعد أبيه، وخلع على قواده، وعدل، وافتتح حصوناً ما قدر أبوه على فتحها، وكان عالماً كثير المطالعة، جواداً ممدحاً، مقرباً للعلماء، وفيه يقول أبو الصلت أمية الشاعر:

فارغب بنفسك إلاّ عن ندى ووغى فالمجد أجمع بين اليأس والجود
كدأب يحيى الذي أحيت مواهبه ميت الرجاء بإنجاز المواعيد
معطى الصوارم والهيف النواعم وال جرد الصلادم والبذل الجلاميد
إذا بدا بسرير الملك محتسباً رأيت يوسف في محراب داود

مات يحيى يوم النحر فجأة، فكان موته وسط النهار سنة تسع وخمسمائة. وكانت دولته ثماني سنين. وخلف لصلبه ثلاثين ابناً، فتملك منهم ابنه عَلِي، وقام ستة أعوام، ومات فملّكوا ولده حسن بن علي صبياً مراهقاً، فامتدت أيامه إلى أن أخذ الفرنج طرابلس والمغرب، بالسيف سنة إحدى وأربعين، فهرب الحسن من المهدية هو وأكثر أهلها، ثم انضم إلى السلطان عبد المؤمن.
وقد وقف ليحيى ثلاثة غرباء، وزعموا أنهم يعملون الكيمياء، فأحضرهم ليتفرج، وأخلاهم، وعنده قائد عسكره إبراهيم، والشريف أبو الحسن. فسل أحدهما سكيناً، وضرب الملك، فما صنع شيئاً ورفسه الملك دحرجه، ودخل مجلساً وأغلقه، وقتل الآخر الشريف، وشدّ إبراهيم بسيفه عليهم، ودخل المماليك فقتلوا الثلاثة. وكانوا باطنية، أظن الآمر العبيدي ندبهم لذلك.

وكانت له غزوات بحرية عملها إلى بلاد الروم، إلى أن طلبوا سِلْمَهُ.

وكان قد تَحَيَّل عليه ثلاثة نفر من المغاربة تقربوا إليه بصناعة الكيمياء، ورغبوا له في الحضور بين يديه.

فاستحضرهم ومعه من خواص رجاله أربعة نفر: أحدهم قائد جيشه.

فلما أنسوا بالجلوس، وثبوا بالخناجر المعدة في أوساطهم، فقتلوا قائد الجيش، وأفلت يحيى بجرامات ثقيلة، إلى أن استقل وتخلص منها، وقتل أولئك المغاربة، وصلبوا.

واستمرت أيام يحيى إلى ثاني يوم النحر من سنة تسع وخمسمائة.

وتوفي في قصره فجأة، وكانت مدة عُمره اثنتين وخمسين سنة وخمسة عشر يوماً.

وملكه ثماني سنين وثمانية أشهر وخمسة عشر يوماً.

دولة علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس

قال أبو الصلت: لما توفي يحيى وقع الاتفاق على إنفاذ كتاب إلى ابنه علي يستقدم فيه من مدينة صفاقس مزوراً على لسان أبيه، وأنفذ في الوقت والساعة، وضبطت الأمور، وحصنت الأبواب بالرجال، وبادر لوقته صحبة أكابر العرب المجاورة لصفاقس، فوصل ثاني يوم وفاة أبيه، وقعد للناس، وخلع على/ وجوه [٢٥١/أ] الدعوة، وأنشدته الشعراء.

وفي ذلك يقول أبو محمد بن حمديس، وهو مما يتمثل به في محل التعزية المقترنة بالتهنئة:

ما أُغمد السيف حتى جُرد الذكر ... ولا اختفى قمر حتى بدا قمر

بموت يحيى أُميت الناس كلهم ... حتى إذا ما عَلِيٌّ جاءهم نُشروا

نعى وبشرى يناجي طائش بهما ... أمسى يموج حيارى منهما البشر

كل يُسَرُّ ويُؤْسَى من سماعهما ... فالقلب ملتئم منه ومنفطر

لولا اعتلاءُ عَلِيّ قُلْتُ من أسف ... بفيك يا من نعى يحيى لنا العفر[1]

وولي بعده ولده الحسن.

وكانت وفاته ظهر يوم الأحد لسبع بقين من ربيع الآخر سنة خمسة عشر، وخمسمائة، ونقل إلى المنستير.

---

(١) أي التراب.

دولة الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس

ولم تطل مدته حتى تغلب الروم على المهدية، وخرج منها متوجهاً إلى ابن عمه يحيى بجباية. فأنف يحيى أن يقوم له إذا دخل عليه أو يترك القيام، ولا يجمل ذلك، فأمر بإجازته إلى الجزائر وإقامته بها والتوسعة عليه فيها.

فلم يزل بها إلى أن خرج عنها القائد ابن العزيز إلى بجاية وأسلمها.

فقدم أهلها على أنفسهم الحسن بن علي هذا، إلى أن تغلب الموحدون على بلاد القبلة وإفريقية، حسبما يأتي من موضعه إن شاء الله.

وكان حسن السيرة، ذا قريحة وقادة، وفطرة سليمة، وأدرك لطيف.

ومما ينسب إليه قوله:

السيف لا أحد عليه حاكم لكنه حكم على الحكام

السيف حدٌّ لا يُردُّ قضاؤه وأَحَدُّ منه نوافذ الأحكام

ومن ذلك:

قام يسعى بكأسه وتعاطى يا له من رشاً مليح مُفَدَّى

فحكاه القضيب حين تثنى وحكاه الهلال حين تَبَدَّى

لو تَجَلَّى لظلمة لأنارت أو تَمشى على صفى لشَدَّا

ذكر قسم الملوك الصناهجة من ذرية حماد بن بلقين بقلعة حماد وبجاية وما إليها

[٢٥١/ب] / وقد تقدم ما كان من تسليم حماد بن بلقين الأمر لأخيه المنصور، وأن ولده باديس لما تصير إليه أبيه، صرف حماداً إلى المغرب.

فخرج من القيروان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة بعد أن اشترط عليه ما شاءه، وجعل له كل ما يفتحه، وأعفاه من الوصول إلى إفريقية بعد، فتعين لحماد بالجهة العربية بإفريقيا ملك كبير.

دولة حماد بن بلقين بن زيري بن مناد

وكان حماد نسيج وحده، وفريد دهره، وفحل قومه، ملكاً كبيراً وشجاعاً ثبتاً، وداهية حصيفاً.

قد قرأ الفقه بالقيروان، ونظر في كتب الجدل.

وأخباره مشهورة، وهو الذي بنى القلعة المنسوبة إلى حماد بالحضرة الباقية الأثير على توالي الغير، وتسمى غياثاً، فاتخذ بها القصور العالية، والقصاب المنيعة، والمساجد الجامعة، والبساتين الأنيقة، ونقل إليها الناس من سائر البلاد.

وفسد ما بينه وبين باديس ابن أخيه، وتحرك كل منهما إلى لقاء صاحبه، فكان جيش حماد الذي خرج به من القلعة آخر سنة خمس وأربعمائة، ثلاثين ألف فارس، وأتيح عليه الظهور لابن أخيه باديس، كما تقدم ذكره.

ونزل الفرج على حماد بوفاته، واتصلت بعده أيام حماد إلى أن توفي في شهر رجب سنة تسع عشرة وأربعمائة.

وولي بعده ولده القائد بن حماد.

دولة القائد بن حماد بن بلقين بن زيري

واستقام الأمر للقائد بن حماد لاشتغال المعز بن باديس عنه بما دهمه من العرب.

وكان سديد الرأي، عظيم القدر، وتحرك إلى حربه حمامة بن زيري المغراوي، أمير مدينة فاس، وكانت بينهما حروب أجلت عن موادعة.

وخلع القائد بني عبيد، كما فعل ابن عمه.

ودعا إلى بني العباس، إلى أن هلك في ذي القعدة، سنة ست وأربعين وأربعمائة، فكان ملكه سبعاً وعشرين سنة.

وولي بعده ولده محسن.

دولة محسن بن القائد بن حماد بن بلقين

وكان القائد قد أوصى ابنه محسناً أن لا يخرج من القلعة إلى تمام ثلاث سنين فخالف وصيته لما نازعه يوسف بن حماد عمّه بالمغرب.

وخرج إليه، فاغتاله ابن عمه بلقين بن محمد بن حماد، وكان والياً على بلد أكربون، فقتله وعاد إلى القلعة فدخلها ليلاً وملكها.

وكانت ولاية محسن ثمانية أشهر، وثلاثة وعشرين يوماً.

ووفاته في ربيع الأول سنة سبع وأربعين وأربعمائة.

/ دولة بلقين بن محمد بن حماد بن بلقين [٢٥٢/أ]

وكان شجاعاً جريئاً على العظائم، سفاكاً للدماء.

وتحرك من القلعة لحرب زناتة في صفر سنة أربع وخمسين وأربعمائة، وكان قد بلغه ظهور يوسف بن تاشفين ببلاد المصامدة، فتحرك حتى نزل بفاس، ففتحها.

وجاس بلاد المغرب، ودوخها، وبلغ يوسف بن تاشفين خبره.

فكر راجعاً إلى الصحراء خوفاً منه إلى أن قُيّض له الناصر أحد بني عمه، وأقدم عليه إقدام الأسد، ففرق بين روحه والجسد، وله حكاية مشهورة.

قال ابن بسام في كتاب «الذخيرة»، وقد ذكر قصته ما نصه:

وأذكر هذه الغارة الصلعا، والفتكة الشهيرة الشوها، إذ الشيء يذكر مع ما جانسه، ويضم إلى ما التف به ولابسه، ما اتفق في مثلها في ملك المناديين، الغالبين إلى وقتنا هذا على طرف إفريقية الأدنى المستقرة رئاستهم بقلعتهم المنسوبة إلى جدهم حماد.

وذلك أنه لما أفضى ملكهم إلى بلقين بن محمد منهم أحد جبابرة الإسلام، المفتاتين على الأيام من رجل كان لا يملأ يده إلاّ من لبدة أسد، ولا يسرح لحظة إلاّ في نهاب بلد مضطهد، ولا يراجع إلاّ وبحر الموت يلتطم، ولا يكلم إلاّ حين يبتسم، قد تجاوز في شذوذ أمنيته، وقهره لرعيته والإخافة لأقرانه، والاستبداد على زمانه، غاية من سلف من جبابرة الأرض، وسمع به من فراعنة الأجرام والنقض، إلى شهرة آثاره، وتطارح أسفاره، وما لا يحصى من عجائب أخباره.

حدث أنه آب مرة من بعض غزواته الأفراد المقلقة لأحشاء الأنام والبلاد، فكأنه ارتاح إلى ما يرتاح إليه الناس من إراحة نفسه، والخلو ولو ساعة بوجه أنسه، فجلس لذلك مجلساً حشد فيه شهواته، وتقدم في إحضار ما يصلح من آلاته وأدواته، وأمر قيمة جواريه باستحضار عقلية أترابها يومئذٍ جلالة سلطان، وحسن سماع وعيان، إحدى بنات عمه دنيا، لم يُرِ بعدها زعموا، ولا قبلها، أبدع ظرفاً، ولا أقتل طرفاً، فجاءت تودّ الثريا لو تكون نعلها، والشمس لو تصور مثلها، وقد خطرت بنفسه إحدى هناته، وتمثلت له بعض غزواته، فأخذ يدير ويدبر وطفق يورد ويصدر.

قالت قيمته: وكأني أنظر إلى الكأس في يده وإلى ابنة عمه قائمة على رأسه فاعتذر إليها واستدناها، وسناها، وقام من حيته، فوضع الكأس ملآن في طاق، وطبع عليها، وأمر بالركوب من حيته، فغزا غزوته المشهورة إلى غرب العدوة، وبلغ فيها مدينة فاس، فوطىء الدول، ودوخ السهل والجبل. ثم رجع/ [٢٥٢/ب] فجلس ذلك المجلس بعينيه، واستدعى كاسه تلك وابنة عمه، فخلا بنفسه، وقضى وطره من لذّة نفسه بعد أيام كثيرة، وحروب مبيرة.

ولما تناهى أمره، وتجاوز السهي ذكره، وظن أن الناس في حكمه، وأن البلاد

تحت حتمه، فانتحى له في بعض أسفاره ابن عمه الناصر أصغر خلق الله شأناً، وأهونهم عليه سراً وإعلاناً من فتى علّمه الخوف كيف يجسر، وهجم به ضيق المسالك علي وهو ينظر، لم يشاور إلاّ الحسام، ولا استصحب إلاّ الإقدام، وقد كان بعض نصحاء بلقين خوفه منه لكلمة أخذت يومئذٍ عنه، فجعلها بلقين نُقلة ركابه، وسَمر أصحابه.

وكان قلما يركب إلاّ دارعاً آخذاً بما يأخذ به من ذرع القلوب، ووتر القريب والبعيد.

وكان مولعاً بالادلاج إذا ارتحل، مؤثراً للانفراد كلما ركب ونزل.

فأقسم تلك الليلة لا يدلج إلاّ حاسراً، وليلقين الناصر إذا نزل، ولو كان أسداً خادراً.

فأعجله عن الأمر، ولم يبد وضح الفجر حتى لقيه كأنه يسلم عليه يسير بين يديه، فما راجعه الكلام إلاّ وقد جلله الحسام وأراح منه البلاد والأنام، ثم قام مقامه، واستظل أعلامه، وأمر برأسه فرفع على عصا وسير به أمامه، والناس يظنون بلقين قد قتل بعض أتباعه الممحنين، فهم يتساءلون: من قتل؟ ويرجمون الظن فيما فعل حتى طلعت الشمس، وارتفع اللباس، فأمر برفع مضاربه، وحشر زعماء دولته وأقاربه، فقال: أنتم تدرون أن بلقين قتل أخي، وفجعني في أكثر حرمي، وإنما شفيت صدري، وأخذت بوتري، لا أنني حدَّثت نفسي بسلطانكم، ولا رأيتني أهلاً للدخول في شيء من شأنكم.

فردوا عليه جميلاً، ورأوا إمهاله قليلاً، فظنوا أنه لم يجسر على ما فعله إلاّ وله أشياع، وحوله خول وأتباع، وكل واحد منهم قد ارتاب بمن يليه، وأهمه ما هو فيه.

وأمر لحينه بخزائن بلقين فأنهبها ذؤبان العرب وصقورة زناتة، واستخلص بذلك عيونهم، وأمال قلوبهم.

ورحل تحت ليلته فطوى المراحل واعتسف المجاهل، فسبق الأخبار إلى القلعة، فوطىء الحريم، وتملك الظاعن والمقيم.

انتهى كلام ابن بسام.

وكان دخوله القلعة يوم الخميس للنصف من شعبان سنة أربع وخمسين وأربعمائة.

دولة الناصر بن علناس بن حماد(١)

ولما استقام الأمر للناصر بن علناس كره مجاورة بني حماد أكناف القلعة المنسوبة إليهم/ إذ كان يسكنها من فرسان صنهاجة اثنا عشر ألف فارس. [٢٥٣/أ]

فبنى قريباً منها بالجبل مدينة وقصوراً شامخة مسماة بأسماء عدة.

واحتفل بالجامع الأعظم إلى ما هو مذكور في تاريخ صنهاجة.

وقد محى اليوم محاسنها الزمان، وغيّر حالها الحدثان حسبما يقول ابن حماد.

إن العروسين(٢) لا رسم ولا طلل ... فانظر تَرَى ليس إلاّ السهل والجبل

وقصرُ بَلاَّرَةٍ(٣) أودى الزمان به ... فأين ما شاد منها السادة الأُوَل؟

قصر الخلافة أين القصر من خرب؟ ... غير اللجين في أرحابها زُحَل

وليس يبهجني شيء أسرُّ به ... من بعد أن نهجت بالمنهج السُّبُل

وما روى الكوكب العلوي معتصم ... وقد عرى الكوكب التغيير والندل

وقد عفا قصر حماد فليس له ... رسم ولا أثر باق ولا طلل

ومجلس القوم قد هب الزمان به ... بحادث قلّ فيه الحادث الجلل

وإن في القصر قصر الملك معتبراً ... لمن تَغُرُّ به الأيام والدُّوَل

وما رسم المنار الآن ماثلة ... لكنها خبرٌ يجري بها المثل

حتى المُصَلّى محت آياتها وعفت ... إلاّ جداراً وما طلّت به الطّلل

كرجعك الطرف كانت كل آبرة ... فما تراه كذاك العُمْرُ والأجَلُ

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٨/ ٥٩٧): الناصر بن علناس بن حماد بن بلكين بن زيري، الصنهاجي، البربري، ملك المغرب. هو الذي أنشأ مدينة بجاية الناصرية، وكانت دولته سبعاً وعشرين سنة. توفي في سنة إحدى وثمانين. قهر ابن عمه بلقين بن محمد بن حماد وغدر به، وأخذ منه الملك بعد أن تملّك خمس سنين بعد الملك محسن بن قائد بن حماد، وكانت دولة محسن ثلاثة أعوام ومات، ومن قبله أبوه القائد، بقي في الملك سبعة وعشرين عاماً، تملّك بعد أبيه، ومات أبوه الملك حماد سنة تسع عشرة وأربعمائة، وقد حارب حماد ابن أخيه باديس وولده المعز بن باديس وجرت لهما وقائع. ولم تزل الدولة في آل حماد إلى أن أخذ منهم عبد المؤمن بجاية سنة سبع وأربعين وخمسمائة. وآخرهم هو الملك يحيى بن عبد العزيز بن منصور بن صاحب بجاية الناصر.

(٢) العروسان هو اسم القصر الذي بناه الناصر بن علناس في مدينة القلعة.

(٣) اسم زوجة الناصر بن علناس، وهي بلارة بنت تميم بن المعز.

وكان الناصر جريئاً على سفك الدماء، شديد الغيرة على النساء، له في ذلك أخبار مشهورة.

وهو الذي بنى مدينة بجاية، وسماها: الناصرية، وبنى بها قصر اللؤلؤة.

واتسعت مملكة الناصر إلى أن بايعه أهل القيروان سنة ستين وأربعمائة، وأمَّلهُ الناس، وقصده الشعراء، ففيه يقول ابن فكاه القيرواني:

قالت سعاد وقد ذمت ركائبنا ... مهلاً عليك فأنت الرائح الغادي

فقلت: تالله لا أنفَكُّ ذا سفر ... تجري بي الفلك أو يحدو بي الحادي

حتى أُقَبِّل تُرب العِزّ منتصراً ... بالناصر بن علناس بن حمادِ

وتوفي الناصر يوم الجمعة السابع من جمادى الأولى.

وقيل: جمادى الآخرة سنة إحدى وثمانين وأربعمائة بقصره بظاهر بجاية، واحتمل إلى بجاية فدفن بها.

وولي بعده ولده المنصور.

دولة المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد

/ وللمنصور بن الناصر آثار عظيمة، وقصور شامخة منيفة، وأخبار شهيرة. [٢٥٣/ب]

وتحرك إلى المغرب، وقد صارت تلمسان إلى ملك المرابطين في جيوش عظيمة اشتملت على اثنتي عشرة محلة في شوال سنة ست وتسعين وأربعمائة.

ونازل تلمسان، ثم أقلع عنها صلحاً.

ولما قفل عن تلمسان توفي بعد سبعة أشهر في ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وأربعمائة.

وكان قائماً على أمره حميد الخلال، ضابطاً للأمور: يكتب، ويشعر، ويذهب في أموره مذهب أبي جعفر المنصور، من رقع الثياب، والتحفظ على القليل من الأشياء. وعليه قدم عزّ الدولة بن حماد.

لما فرّ من المرية أمام المرابطين، فأقطعه تلس[١]، ونظرها وأسكنه بها، حسبما هو معروف.

وولي بعده الأمير باديس ابنه.

دولة باديس بن المنصور بن الناصر بن علناس

يكنى: أبا معد.

(١) مدينة بساحل البحر الأبيض المتوسط.

وكان شديد البأس، عظيم السطوة، سريع البطش.

فيحكى من جملة فظاظته: أنه ألقى رجلاً صالحاً إلى الأسود، فبات ليلته معها، وأصبح ولم تعد عليه.

وكانت وفاته ثالث عشر ذي القعدة سنة ثمان وتسعين وأربعمائة.

ويقال: إن أمه سَمّتْهُ لأنه كان يهددها ويتوعدها.

وقد ذكر مثل ذلك في الهادي من بني العباس(١).

وولي بعده العزيز أخوه.

دولة العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس

وهو الذي استوطن بجاية.

ومن بعد ولايته شرعت القلاعة في الخراب.

وكان حسن الخلق، معتدل الطريقة.

كاتب ملوك زمانه، وسالمهم، فكانت أيامه أعياداً لحسنها وجمالها.

وله في ملكه آثار عظيمة، ومبانٍ رفيعة.

وكان يعرف بالميمون لولادته ليلة ولاية أبيه.

ولما توفي ولي بعده ولده يحيى.

دولة يحيى بن العزيز بن المنصور بن الناصر

كان يحيى بن العزيز فاضلاً، حليماً، فصيح اللسان والقلم، مليح العبارة، بديع الإشارة.

وكان مولعاً بالصيد، مغرماً به، كلفاً بالملهين، يحضر منهم عنده نحو العشرين بين رجل وامرأة، من شيوخ، وعجائز، وحمقى، فكان يستلقي في بيته على الفرش الوثيرة الحشايا، ويستدعي المضحكين، وجوارح الصيد، فيختبر هذا البازي، ويتفقد هذا الكلب، ويستنهض هذا المضحك في النوع الذي سلكه فيلهيه ويضحكه.

ويجلس أبداً بين يديه أخواته: تقسوط، وأم ملال، وشبلة، في زي العرائس من الحلي والملابس.

فلا يزال كذلك إلى أن ينام، ثم يغتدي إلى الصيد.

---

(١) فيقال: إن بن أمَةُ الخيزران قد سَمّت ابنها الخليفة فقتلته.

هكذا انقضت أيامه إلى أن/ توفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة. [١/٢٥٤]

وكان قد وليّ ابنه المنصور العهد فتوفي في حياته، وعظم وجده عليه.

ولما اضطربت حاله بظهور دولة لمتونة لحق بقسنطينة.

ثم نزل عنها للموحدين مستأمناً لنفسه، وسكن بقصر ابن عشرة من سلا، وكانت وفاته به.

ذكر نبذة من أخبار صقلية
وبعض من ولي بها الملك

ولما كانت صقلية في مجاورة لهذه البلاد الإفريقية وملوكها، كان تقديمهم من إفريقية، ألحقناها بهذه الجهة من الذكر للمناسبة والجوار، ونذكر بعض وصفها:

قال أبو محمد الرشاطي:

صقلية جزيرة كبيرة، وصقلية اسم لإحدى مدنها الكثيرة، وقلاعها الأثيرة، وطولها مسيرة خمسة أيام، وهي في البحر الشامي موازية لبعض بلاد إفريقية، وأقرب المواضع إليها من بلاد إفريقية رأس أدار، بينهما مجرى يوم، وتوازي من الجهة الأخرى أرض الروم الكبيرة، وهي قريبة منها، وافتتحت في اثنتي عشرة ومائتين، وكانوا قبل ذلك معاهدين، ولافتتاحها خبر شهير.

وقال أبو الحسن بن جبير في رحلته يصف مدينة مسينة وأخبار ملوكها:

هذه المدينة موسم تجار الكفار، ومقصد جواري البحر من جميع الأقطار، كثيرة الأرفاق، برخاء الأسعار، مظلمة بالكفر. لا يقر فيها للمسلمين قرار، أسواقها نافقة حفيلة، وأرزاقها واسعة، بإرغاد العيش كفيلة، لا تزال بها ليلك ونهارك في أمان، وإن كنت غريب الوجه واليد واللسان.

وذكر بعد مدينة مسينة المدينة المعروفة بـ: بلارمة[1]، فقال:

فيها سكنى الحضر من المسلمين، ولهم فيها المساجد، والأسواق المختصة بهم والأرباض، وسائر المسلمين بضيائها، وجميع قراها ومدنها كسرقوسة وغيرها.

وبهذه المدينة سكن ملكهم غليام، وشأنه عجيب في حُسن السيرة، واستعمال المسلمين، وهو كثير الثقة بهم، وساكن إليهم في أحواله، والمهم من أشغاله، ومنهم وزراؤه وحجابه، وهم أهل دولته، والمرتسمون بخاصته، وعليهم يلوح رونق مملكته، لأنهم مسمون في الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة.

ولهذا الملك القصور المشيّدة، والبساتين الأنيقة، وهو كثير الاتخاذ للقيان

---

(١) هي مدينة بلرم أو بلرمة قاعدة مدينة صقلية، وهي على ساحل البحر منها.

والجواري، وليس في جميع ملوك الرومية أشرف منه في الملك، ولا أنعم ولا أرفع، وهو يتشبه في تنعمه بالملك وترتيب قوانينه، وتقسيم مراتب رجاله، وتفخيم أُبهته، وإظهار زينته، بملوك المسلمين.

وملكه عظيم جداً، وله الأطباء والمنجمون، وهو كثير الاعتناء بهم، شديد الحرص عليهم. ومن عجيب شأنه أنه يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته: / «الحمد لله حق [٢٥٤/ب] حمده». وعلامة أبيه: «الحمد لله شكراً لأنعمه».

وجواريه وحظاياه في قصره مسلمات كلهن، وذكر لنا أن الإفرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسلّمة يعيدها الجواري المسلمات.

وذكر مدينة شيفلودي، فقال:

هي مدينة ساحلية، كثيرة الخصب، واسعة المرافق، منتظمة الأشجار والأعناب، مرتبة الأسواق، يسكنها طائفة من المسلمين. وذكر مدينة ثرمة فقال:

هي أحسن وضعاً من التي تقدم ذكرها، وهي حصينة، تركب البحر وتشرف عليه، وللمسلمين فيها ربض كبير، لهم فيه مساجد.

وهذه المدينة من الخصب وسعة الرزق على غاية.

وذكر المدينة التي هي حاضرة صقلية فقال:

هي أم الحضارة والجامعة بين الحسنين، غضارة ونضارة، فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر، وموارد عيش أخضر عتيقة أنيقة، مشرقة، مؤنقة، تتطلع بمرأى فتان، وتتخال بين ساحات وبسائط كلها بستان، فسيحة السكك والشوارع، وتروق الأبصار بحسن موضعها البارع، عجيبة الشأن، قرطبية البنيان، قد زخرفت فيها لملكها دنياه، تنتظم بلبتها قصوره انتظام العقود في نحور الكواعب، وتتقلب في بساتينها وميادينها بين نزهة وملاعب، فكم له فيها - لا عمرت - من مقاصر ومصانع، ومناظر ومطالع، وكنائس قد صيغ من الذهب والفضة صلبانها، وديارات قد زخرف بنيانها.

وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الإسلام، يعمرون أكثر مساجدهم، ويقيمون الصلاة بأذان مسموع.

ولهم أرباض قد انفردوا بها، بأسمائهم بسكناهم، ولهم فيها قاض، وجامع يجتمعون للصلاة فيه، ويحتفلون في وقوده، وأما المساجد فكثيرة لا تُحصى، وأكثرها محاضر لمعلم القرآن، وأطنب في شبهها بمدينة قرطبة.

وذكر مدينة طرابنش، وأطنب في ذكر الجميع بما لا مرغب في إطالته إذ يجر التفجع، ويثير التوجع أعادها الله دار أيمان بقدرته.

ذكر ولاة ملوكها من بني أبي الحسين

قال أرباب التاريخ:

كان أول من غزا جزيرة صقلية من أمراء إفريقية الموجهين إليها من قبل الخليفة عثمان رضي الله عنه، ثم معاوية بعده.

الأمير معاوية بن خديج الكندي

فلم تزل تغزى بعد ذلك.

وكان معاوية رحمه الله قد بعث إليها:

عبد الله بن قيس الفزاري

ففتحها، وغنم، وأصاب فيها أصناماً من ذهب وفضة، مكللة بالجوهر، فحملت إلى معاوية بن أبي سفيان، فرأى بيعها قائمة أكثر لثمنها، فباعها إلى الهند، فأنكر الناس عليه ذلك إنكاراً شديداً(١).

[٢٥٥/أ] وكان غزو/ معاوية بن خديج في سنة خمس وثلاثين أو سنة أربع قبلها.

ثم ولي:

محمد بن أوس الأنصاري

وكان من أهل الدين والفضل، معروفاً بالفقه. ثم غزاها: بشر بن مروان الكلبي. أمير إفريقية بنفسه، فأصاب سبياً كثيراً، ثم عاد إلى القيروان.

وتوفي بأثر غزوته سنة تسع ومائة.

وولي بعده: عبيد الله بن الحبحاب سنة ست عشرة ومائة.

فأغزى صقلية حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع سنة اثنتين وعشرين ومائة.

وكان مع حبيب ابنه عبد الرحمن بن حبيب، فلم يزل بأرضها.

---

(١) هذا اجتهاد خاطىء من أحد ولاة المسلمين في العصور الأولى، وفي عصر حافل بأجلة الصحابة، وبل والفاعل ذلك من الصحابة وهو خال المؤمنين، فلا يصحّ الاحتجاج به، حيث إنه معلوم أن الهنود سوف يعيدون تلك الأصنام ويجلونها وينزلونها المنزلة الرفيعة. أما ما يتداول الآن أو في هذه العصور من التماثيل لقدماء الفراعنة، فلا بأس به حيث إن من يقوم باقتنائها فيس في نيته عبادتها، وإنما هي في وجهة نظره تحفة فنية ودراسة تاريخية، أما لو علم أن من يريدها للتعبد أو التعظيم لها بأي شكل من أشكال العقائد، فلا يجوز تسهيل ذلك له مهما كانت القيمة التي تدفع فيها فإنه لا يجوز ذلك شرعاً.

ووجه عبد الرحمن على الخيل، فلم يلقه أحد إلاّ هزمه عبد الرحمن، وظفر به ظفراً لم يرَ مثله حتى نزل بسرقوسة، وهي أعظم مدن صقلية، فقاتلوه، فهزمهم حتى ضرب بابها بسيف، فأثر فيه، فهابه الناصري، ورضوا بالجزية.

ثم توجه إلى أبيه خوفاً أن يخلفه العدو إليه.

ثم كتب عبيد الله بن الحبحاب إلى حبيب بن أبي عبدة بالرجوع من صقلية إلى قتال البربر.

فخرج عنها في أول سنة ثلاث وعشرين ومائة.

[ذكر أيام الأغالبة وولاتهم بها][1]

ولما اتسق الأمر لبني الأغلب، وانتهى منهم إلى زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي أيام الأغالبة، وليّ ابن أخيه:

الأغلب بن عبد الله بن إبراهيم

على صقلية قطيعة له، فكانت له بجميع ما فيها إلى أن توفي.

قال المؤرخ:

ولما خرج إليها ركب من سوسة في مراكب كثيرة، ومعه خيل ورجال أتوا من نواحي إفريقية لما يعلمون من كرمه وجوده، وكان مسرفاً في إعطائه.

فوصل إلى صقلية في شهر رمضان سنة إحدى وعشرين ومائتين[2]، فضبطها واستقام أمرها، وكان والياً عليها قبله قرهب بن أبي الأغلب. يحكى من أخبار كرمه:

أنه أشرف يوماً من دار الإمارة فرأى امرأة هيأت فرخين، ونظفتهما، وطبختهما طبخاً محكماً، فلما أنزلت القدر، وقد أدركت، دعا بعض فتيانه وأراه الدار، وقال:

اذهب فاجعل القدر في قفة، وجئني بها.

ففعل، وأكل منها، ثم أمر بغسل القدر فغسل، وأمر بكيس دنانير، ففرغ في القدر حتى امتلأت، وقال للغلام:

امض بها واجعلها في يد المرأة، ولا تقل لها شيئاً، ففعل.

وأرادت المرأة أن تطبخ شيئاً آخر، فكشفتها فإذا هي مملوءة دنانير.

وتوفي بصقلية سنة ست وثلاثين ومائتين، ووَلّى الناس أمرهم إفريقية، فأقر:

---

(١) زيادة توضيحية من عمل المحقق غفر الله له آمين.

(٢) أسقط المؤلف فترة زمنية من تاريخ تلك البلاد بلغت المائة سنة. فيلاحظ ذلك حتى لا يظن أن هناك سقط في المخطوط. ويتضح الكلام من باقي العبارة.

العباس [بن بربر] (١)

على ولاية صقلية، وبعث عهده بها.

وقد كان العباس بن بربر عاملاً لأبي إبراهيم على صقلية.

وكان قصريانة(٢)، من أعظم مدائن الروم، وأكثرها جمعاً.

فوجه سرية إلى بعض النواحي، فغنموا، وأخذوا أعلاجاً [فقتلوا](٣)/ عامتهم، [٢٥٥/ب] ثم قدموا واحداً منهم ليقتلوه، فقال:

لا تقتلوني فإن لأميركم عندي نصيحة، فداروه على أن يعلمهم ما تلك النصيحة، فلم يفعل فأتوا به العباس.

فقال له: تعطيني الأمان في نفسي، وأهلي، ومالي، وأدلك على مكان تفتح منه صريانة؟

فأدخله العباس بيتاً وسد عليه(٤)، ثم نادى في أصحابه بالركوب، ومضى والعلج بين يديه، وذلك يوم مطر وثلج، والناس لا يعلمون أين يريد؟

فسار حتى قرب من قصريانة، فلما غشيه الليل، ركب حتى دنا من المدينة، ووجه مع العلج عمه، في رجال كثيرين، حتى وصل إلى قناة يخرج منها ماء المدينة، فأدخل فيها الرجال إلى أن حصلوا بالمدينة ثم أتوا إلى بابه فوضعوا في الحرس السيوف، وكبَّر المسلمون في خارجها.

فأخذوا كل من كان فيها، ولم يكن للروم أكبر ولا أوسع منها، ولا أكبر مَنْحاً. وكان ذلك في شوال سنة أربع وأربعين ومائتين.

ثم ولي صقلية الأمير محمد بن أحمد بن الأغلب:

خفاجة بن سفيان

وغزا سرقوسة، فغنم وبث السرايا، وأفسد الزرع.

ثم عاد إلى المدينة فنزل بوادي الطين، وأدلج منه ليلاً.

---

(١) زيادة مما يلي من الكلام.

(٢) قصريانة، مدينة عالية بوسط جزيرة صقلية، وهي مدينة بديعة الحسن، كثيرة المنتزهات والثمر وجداول الأنهار.

(٣) زيادة يتطلبها السياق.

(٤) من الواضح من سياق القصة أن العباس أجابه إلى ما طلب ثم فعل ذلك به حرصاً منه على كتم السر.

فاغتاله رجل من عسكره، فطعنه طعنة مات منها، وهرب الذي طعنه إلى سرقوسة، وحمل خفاجة إلى صقلية فدفن بها.

ووَلّى الناس أمرهم:

ابنه محمد

وكتبوا بذلك إلى الأمير محمد بن أحمد، فأقره، وبعث إليه خلعته وعهده، يوم السبت لست بقين من رمضان سنة خمس وخمسين ومائتين.

ثم ولي الأمر أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن الأغلب، فوَلّى صقلية.

أحمد بن عمر المعروف بجيني

ونسبه منهم.

فخرج في الطائفة إلى سرقوسة، فحاربها وأفسد زرعها، وبث السرايا في غير جهة، فغنموا.

وانصرف أحمد، والمسلمون إلى مدينة بلرم، وخرج أحمد بنفسه في سرية، فبلغ قلعة نصر، فالتقى بخيل العدو، وقد ضربت على بعض النواحي، فنغمت للمسلمين غنائم كثيرة، فاستنقذها، وقتل جماعة منهم، وانصرف إلى بلرم برؤوس كثيرة، ثم عزله إبراهيم بن أحمد بن الأغلب وولاها:

أبا جعفر بن محمد بن بزين

فبعث السرايا في كل جهة، وغنم غنائم عظيمة.

ثم ظهر لإبراهيم بن أحمد أن قبض على عمه الأغلب بن محمد بن الأغلب، وأخيه: أغلب بن أحمد، وابن أخيه: أحمد بن أبي عبد الله.

ووجه بهم إلى صقلية، فحبسوا في دار أبي حجر، فصانوا غلماناً لأبي حجر، وأطمعوهم في المال، فلما خرج أبو حجر للصلاة وثب عليه الغلمان، فقتلوه.

وصار إليه أمر صقلية، وانتهب دور أبي حجر، وجهز ابنه حمد في عسكر.

ووجه إلى سرقوسة، فأقام عليها حتى افتتحها، وذلك في شهر رمضان سنة أربع/ وستين ومائتين. [٢٥٦/أ]

وذكروا أن أحمد بن الأغلب لما فتح سرقوسة قتل فيها أزيد من أربعة آلاف علج، وأصاب فيها من الغنائم ما لا يوجد في مدينة من مدن الشرك، ولم ينج من رجالها أحد، وكان مقام المسلمين بسرقوسة إلى أن فتحها تسعة أشهر.

وأقام أحمد من بعد فتحه شهرين، ثم كتب إليه الأغلب بهدمها، فهدمت.

وانصرف إلى بلرم في آخر ذي القعدة من السنة.

وفي شهر المحرم من سنة خمس وستين ومائتين التالية لسنة فتحها، وثب أهل بلرم على الأغلب، وأبي عقال، وأخرجوهما إلى إفريقية، فوصلا مصفدين، فقتلا.

ووجه الأمير إبراهيم بن أحمد صاحب إفريقية ابنه:

أبا الأغلب

أميراً على صقلية، فأقام بها تسعة أشهر، ثم وثب عليه أهل صقلية، فأخرجوه إلى إفريقية.

وفي سنة سبع وستين ومائتين ولي إبراهيم بن أحمد:

الحسين بن العباس

صقلية، ثم عزل عنها.

ووَلّى:

أبا الحسين محمد بن الفضل

في سنة ثمان وستين.

فخرج بنفسه إلى الغزو، وكانت له وقائع مشهورة، وغنائم كثيرة.

ثم عزله في ربيع الأول سنة سبعين ومائتين.

ووَلّى عليها:

عليّ بن أبي الفوارس بن عبد الله بن الأغلب

يوم الاثنين لست بقين من الشهر المذكور.

ثم عزله في آخر رمضان من السنة المذكورة.

ووَلّى صقلية:

الحسين بن رباح

ثم اعتل فمات في شعبان من سنة إحدى وسبعين.

ثم وَلّى عليها:

سوادة بن محمد بن خفاجة بن سفيان

فقدمها في نصف شوال، فكانت له بها آثار محمودة.

وفي رجب من سنة ثلاث وسبعين ومائتين، وثب أهل بلرم على سوادة بن محمد، ويعقوب بن بكر فوجهوهما إلى إفريقية.

فوَلّى إبراهيم بن أحمد على صقلية:

أحمد بن عمر بن عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب المعروف بحبشي(١)

فدخلها في صفر سنة أربع وسبعين، وخرج في الطائفة، فأفسد زرع قطانية، وطبرمين، ورمطة، ثم عزله.

ووَلّى:

أبا الحسين محمد بن الفضل

وفي سنة أربع وثمانين أمر إبراهيم بن أحمد الحسن بن أحمد بن نافذ بالخروج إلى صقلية والياً عليها.

وفيها أمر ابنه أبا العباس أن يتجهز لِلخروج إلى صقلية لقتال أهلها، وجمع إليه جياد الرجال وأشداءهم.

فخرج في جمادى الآخرة، فنزل بجزيرة صقلية، وقد تمرّد أهلها، واستطالوا على الولاة.

فحاربه أهلها حرباً شديداً، ثم انهزموا، ودخل المدينة، ثم أمَّن الناس.

ثم جاز إلى الروم فأوقع بهم، وقتل المقاتلة، وسبا الذرية، ورجع إلى صقلية، وقد أثخن في الروم.

وفي سنة أربع وثمانين عظم المرار والوسواس على الأمير إبراهيم بن أحمد، وتخلى لابنه الوالي على صقلية عن الأمر، واستنفر الناس ودعاهم/ إلى الجهاد، [٢٥٦/ب] وفرق الأموال.

وكان وصوله إلى بلرم من صقلية لليلتين من رجب من السنة، فرحل ونزل طبرمين، وحاصرها، وكان بينه وبين أهلها قتال شديد، حتى فشت الجراح في الفريقين وهَمّ المسلمون بالانحياز إلى أن قرأ القارىء بين يدي إبراهيم:

---

(١) سبق أن قال المعروف بجيني، وربما كان أحد القولين أصابه تحريف.

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] الآية.

فحمل المسلمون بنية صادقة، فانهزم العدو، وفروا والناس يقتلونهم في الجبال والأودية. ثم دخل طبرمين، في غير عهد، وغنم ما شاء الله، ثم عبر المجاز إلى قلورية.

وفرّ النصارى بين يديه، فنزل كسنتة، وقد أصابته العلّة، فمات نازلاً لها ليلة السبت لاثنتي ليلة بقيت من ذي القعدة سنة تسع وثمانين ومائتين.

وفي أثناء وقوع موته طلب أهل كسنتة الأمان، فأمنوا، وهم لا يعلمون.

واحتمل إبراهيم بن أحمد إلى بلرم فدفن بها لسبع بقين من ذي الحجة من السنة، وبني على قبره قصر.

وبقي ابن ابنه زيادة الله بن أبي العباس بصقلية بعده.

ووَلّى صقلية:

ابن قرهب

من أقارب الأغالبة، وأقام بها إلى أن استقام الأمر لعبيد الله صاحب الشيعة. فثار الجند والبربر به، وحصروه في القصر بصقلية، وأخرجوا من حبسه أبا المنهال، وأدخلوه القصر.

فكتب ما فيه من الأموال والسلاح والكساء وغير ذلك في المحرم من سنة أربع وثلاثمائة.

ثم حملوه وابنه مقيدين إلى عبيد الله الشيعي، فلما أُحضر بين يديه قال له: ما حملك على جحد حقنا والخلاف علينا؟

فقال: أهل صقلية ولوني وأنا كاره، وهربت منهم إلى غار، فأرادوا أن يحرقوني بالنار.

فلم يقبل منه ذلك، وأمر بهما فأطيفا، وصلبا بباب سالم من القيروان.

ووَلاّها:

أبو القاسم بن عبيد الله المهدي خليل بن إسحاق

سنة خمس وعشرين وثلاثمائة.

وفي سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، أخرج المنصور بالله إسماعيل بن القاسم بن عبيد الله:

الحسن بن علي بن أبي الحسين

والياً على صقلية.

دولة الحسن بن علي بن أبي الحسين بصقلية

وهو أول من ولي عليها من بني أبي الحسين.

واستقام أمرهم بها، فكان ملكاً وميراثاً، يتداولونها خلفاً عن سلف، إلى أن تغلب عليها الروم، واستولى عليها رجار ملك النصارى في زمن المرابطين على عهد الآمر بن المستعلي ملك الشيعة بمصر عندما استولت الروم على بيت المقدس، والجزائر، أو قبل ذلك بيسير.

وفي سنة خمس وأربعين وثلاثمائة، خرج حسن بن علي بن أبي الحسين بأسطول عظيم، إلى بلد الروم بالأرض الكبيرة، فعدا عليه البحر، ولم يفلت منه إلاّ القليل.

[٢٥٧/أ] وطمع العدو/ في صقلية، فقصدها وفتح بها قلعة استولى على من بها من المسلمين.

ثم تلطف حسن بن علي بن أبي الحسين، فجمع أسطولاً ثانياً، وشحنه بالرجال والعدة فعطب وهلك قائده عمار بن علي بن أبي الحسين.

ثم غزا في رجب من سنة اثنتين وخمسين، ففتح طبرمين، وأسكن فيها المسلمين. ثم رحل ففتح قلعة بنقش، ثم نزل رمطة، فاستغاث الروم ملك القسطنطينية، فوجه إليهم العساكر في البر والبحر، فالتقى حسن بن علي مع مقدمة الروم في شوال من السنة، وهو في شرذمة قليلة، لولا أن الله رزق المسلمين النصر، فقتلوا في البر والبحر خلقاً عظيماً، جزت منهم رؤوس عشرة آلاف.

قال: ثم اعتل الحسن لفرط الفرج بما أنعم الله به عليه، فكانت وفاته من حمى حادة لسبعة أيام لاثنتي عشرة ليلة، بقيت من ذي القعدة من السنة المذكورة، وحزن أهل صقلية عليه حزناً عظيماً، لما كان قد أجرى الله على يديه من العدل والظهور والخير.

دولة أحمد بن حسن بن علي بن أبي الحسين بصقلية

ولما قام أحمد بن حسن، قام بأمور صقلية خير قيام، ووالى الجهاد.

ثم استدعاه المعز معد، لما رحل إلى تملك البلاد المصرية، والشامية، فقدمه على جيوش البحر، وكانت أساطيله عظيمة قد ذكرتها شعراؤهم.

فخرج عن صقلية في أخريات شوال من سنة تسع وخمسين وثلاثمائة.

وعاجلته وفاته بعد الرحيل بالأسطول بساحل طرابلس.

وَوُرِيَ يوم الخميس لليلتين بقيتا من ذي الحجة من سنة ستين وثلاثمائة.

وولي بعده أبو القاسم بن الحسن أخوه.

دولة أبي القاسم بن حسن بن علي بن أبي الحسين بصقلية

وكان ظهور أبي القاسم بن حسن بصقلية، منسلخ رجب من سنة ستين، وأقام أميراً بها إلى سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة.

وخرج غازياً إلى بلد الروم فعبر المجاز بالعساكر الكثيرة، وأوغل في أرض قلورية من البر الكبير يريد كسنتة.

وبلغه احتشاد ملك الروم، وقصده إياه، وأنه لم يبقَ بينهما إلاّ مرحلة.

فقال لأصحابه: أرى أن أرجع إلى خلف حتى أتخلص من هذا المضيق، فنقاتل العدو في مكان واسع.

فعندما رجع وقعت عليه الهزيمة، وتبعه سلطان الفرنج يقفو أثره مسيرة خمسة عشر يوماً حتى خرج إلى الفضاء الذي أراده، وقد تلاحق به العدو، وأحفزه عن الترتيب للقتال.

فكانت بين المسلمين والنصارى حرب عظيمة هلك فيها من/ الفريقين خلق [٢٥٧/ب] كثير.

وثبت الأمير أبو القاسم على ضفة البحر راكباً وحوله خواص عبيده.

واختلط القوم، وقصدت جهة الأمير طائفة من الروم، فضربه علج على هامته فشقّ رأسه، ووقع ميتاً على شاطىء البحر، ولم يشعر أحد من المسلمين ولا النصارى بقتله.

ثم قوي المسلمون على عدوهم، فانهزم النصارى أقبح هزيمة، واستولى المسلمون على محلاتهم وعددهم.

وجرح أيضاً ملك الروم جرحاً هلك من بعد فراره.

ولما علم الناس بموت أميرهم، جاؤوا به إلى صقلية، فدفن بها.

وكان حسن السيرة، فاضلاً محباً للعلماء والصالحين، رحمه الله.

وأقام بأمره ابنه جابر.

دولة جابر بن أبي القاسم بن حسن بن علي بن أبي الحسين بصقلية

ولم يكن لجابر حزم ولا رأي، لكن وصله تقليد نزار ملك العبيدية من مصر، وسجل له أبيه، وسكن القصر الذي يعرف به في صقلية.

ثم اختلف عليه الجند، وأنفوا من ولايته وأنه لا يقوم بأمور البلاد.

فتوجه جعفر بن محمد بن أبي الحسين من مصر، إلى صقلية، وكان بمصر في رتبة الوزارة، وله حال جليلة.

دولة جعفر بن محمد بن أبي الحسين بصقلية

قال المؤرخ:

خرج جعفر إلى البر من مصر في ساحل ميسرة، فبلغ المنصورية يوم الأربعاء لخمس بقين من صفر سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، ومعه سبكتكين التركي من جلة الترك الموصوفين بالشجاعة.

فلما وصل إلى صقلية سلّم له جابر الأمر، ولم يمانعه، فكانت مدة جابر بعد أبيه سنة.

واستقام أمر صقلية لجعفر، وخلف عمه المقتول خير خلافة.

فمن أخبار فضله وصرامته:

أنه وصله كتاب من مصر من العزيز بالله يأمره أن يدفع إلى الراهب الذي هو أخو جاريته السيدة العزيزة قلاعاً من بلاد صقلية كان افتتحها حسن بن علي بن أبي الحسين، وهي بنقش، وطبرمين، ورمطة، وأن يدفع إليه كل سبي عنده قديم وحديث.

فلما وصله الراهب بعد شهر إلى صقلية، أنزله جعفر، ورقب عليه، ومنعه من لقاء من يريده نحواً من أربعة أشهر.

ثم أمر بشيوخ وعجائز ومرضى، وأصحاب زمانات، فدفعهم إليه، وأزعجه للرحيل.

فأفلت وما صَدّق بنجاته، وكتب إلى العزيز من قسطنطينية يخبره عن جعفر بن أبي الحسين، أنه لم يفعل ما أمره به.

وعلم جعفر ذلك فأمر بعد رحيل الراهب، باشتراء مركب أندلسي شحنه بجميع طُرف الأندلس، وأظهر أن أبي عامر بعثه إليه وكتب إلى العزيز بالله يذكر أن صاحب الأندلس قد كتب يسأله/ [١/٢٥٨] الرجوع في جملته والدخول في طاعته، ويبسط أمله بأنه

يقطعه من عمل الأندلس كل ما سأله.

فراجعه العزيز بالله، يذكر أن سلفه بني أبي الحسين لم يعرفوا قطّ إلاّ طاعته، وطاعة آبائه، ويحضه على التمسك بما كان عليه محمد أبوه، وحسين جده، وعمار، وعلي، وغيرهم، ويشكره على امتناعه مما دعاه إليه صاحب الأندلس.

ثم هلك، وولي بعده أخوه عبد الله.

دولة عبد الله بن محمد بن حسن بن علي بن أبي الحسين بصقلية

جرى عبد الله على سنن سلفه بصقلية، وأقام رسم الجهاد إلى أن توفي بها ليلة الثلاثاء لسبع بقين من رمضان سنة سبع وسبعين وثلاثمائة، وهو والٍ عليها رحمه الله.

وأوصى بأمره إلى ابنه أبا الفتوح.

دولة أبي الفتوح يوسف بن عبد الله بن محمد بن حسن

وليّ الأمر بعد أبيه وهو صبي دون الاحتلام، حسبما ذكر بعض المؤرخين.

ووصله سجل العزيز بالله من مصر بولاية صقلية.

فكانت أيام الناس بصقلية في مدته على أفضل ما يشتهون.

وقد ضبط البلد ضبطاً عظيماً، وأدان الروم واستقامت له الأمور، وظهر من كرمه وجوده على سائر الناس ما لا يحيط به وصف.

وكان في بلاده من العدل والرخاء والأمان ما هو معلوم.

ثم تداول ولاية صقلية أمراء من هذا البيت إلى أن انقطع عنهم أمداد المسلمين لاشتغال كل جهة بما يخصها من الفتن.

فكان استخلاص العدو لها في سنة خمس وثمانين وأربعمائة

وكان عدو الله الذي تغلب عليها الملك رجار، وهو الداهية العديم النظير في أبناء جنسه حزماً، ودهاءً، وسياسة.

وهو الذي رفع له كتاب: «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»[1]، وهو شرح كتاب جغرافية.

وتغلب على المهدية وسواحل بلاد إفريقية في خبر يطول ذكره.

وكان من جلّة من انتقل عنها عند الحادثة الشرفاء المستقر بعضهم بمدينة فاس،

(١) تأليف أبو عبد الله محمد الإدريسي المعروف بالشريف.

وقد غُير انتسابهم إلى صقلية بالقلب، فيدعون اليوم الصياقلة، ومنهم بمدينة سبتة البيت الشهير الكبير بيت الشريف الصالح أبا عبد الله بن أبي الشرف التقى الحسين وأحد أعقابه اليوم، الشريف عميد البلدة وكوكب السَّحَر بالمغرب أبو العباس أحمد بن محمد الحسيني، ونسبهم نسب صحيح، ومجدهم مجد صريح.

ومن الفقهاء، والقضاة، والمحدثين جملة حسبما تضمنه كتاب «المدارك»[1].

ومن الكتّاب، والبلغاء، والشعراء المفلقين مثل ابن حمديس الصقلي، قدم على المعتمد بن عباد عند الجلاء لحادثتها، فكان أسيراً لديه، وهو القائل مما ألم فيه بذكر صقلية، ولذلك ما جلبناه:

قضت للصبا النفس أوطارها وأبلغها الشيب إنذارها
نَعَم وأجالت قداح الهوى عليها فقسمن أعشارها
[٢٥٨/ب] / وما غرس الدهر في تُربه غراساً ولم يجن أثمارها
فأفنيت في الحرب آلاتها وأعددت للسلم أوزارها
كميتا لها مرح بالفتى إذا حثّ باللهو أدوارها
تناولها الكوب من دنها فتحسبه كان مضمارها
وساقية زررت كفها على عُتق الظبي أزرارها
تُدر بياقوتة درة فتغمس في مائها نارها
وفتيان صدق كزهر النجوم كرام النجائر أحرارها
يديرون راحاً تفيض الكُؤوسُ على ظلم الليل أنوارها
كأن لها من نسيج الحباب شباكاً تعقل طيَّارها
وراهبة أغلقت ديرها فكنا مع الليل زوَّارها
حدانا إليها شذا قهوةٍ تذيع لأنفك أسرارها
فما فاز بالمسك إلاّ فتى تيمم دَارِينَ أو دارها
كأن نوافجه عندها دنان مضمنة قارها
طرحت بميزانها درهمي فَسَيَّل في الكأس دينارها
خطبنا بنات لها أربعاً ليقترع اللهو أبكارها
من اللاء أعصار زهر النجوم تكاد تطاول أعمارها

---

(١) تأليف القاضي عياض.

تُريك عرائسها أيدياً … طوالاً تصافح أخصارها
تَفَرَّس في شَمِّها طيبها … مُجيد الفِرَاسَةِ واختارها
فتى دارس الخمر حتى درى … عصير الخمور وأعصارها
يُعد لما شئت من قهوةٍ … سنيها ويعرف خَمَّارها
وعدنا إلى هالة أطلعت … على قُضُبِ البانِ أقمارها
يرى ملك اللهو فيها الهموم … تثور فيقتل ثُوَّارها
وقد سَكَّنَتْ حركات الأسى … قيان تُحَرّك أوْتَارَها
/ فَهَذى تعانق عوداً لها … وتلك تُقَبّلُ مِزْمَارَها [١/٢٥٩]
وراقصة لقطت رجلها … حِسَابَ يَدٍ نقرت طارها
وقُضْبٍ من الشمع مُصْفَرَّةٍ … تريك من النار نُوَّارها
كأن لها عُمُداً صُفِّقَت … وقد وزن العدل أقطارها
تَقِلُّ الدياجي على هامها … فتهتك بالنور أستارها
كأنا نُسَلَّط آجالها … عليها فتحمق أعمارها

ومنها في المعنى المجلوب:

ذكرت صقلية والأسى … يُهَيّج للنفس تذكارها
ومنزلة للتصابي خلت … وكان بنو الظُّرف عُمّارها
فإن كنت أُخرجت من جنةٍ … فأنّى أُحَدِث أخبارها
ولولا مُلُوحة ماء البكاء … حَسِبت دموعي أنهارها
ضَحِكْتُ ابن عشرين من صبوة … بَكَيْتُ ابن ستين أوزارها
فلا تعظُمن عليك الذنوب … إذا كان ربك غفارها

ذكر ملوك القبلة وسجلماسة من بني مدرار الزناتيين القائمين بها والصفرية بالقبلة(١)

وإنما أتبعنا دولة الصناهجة ملوك إفريقية بهؤلاء، وإن كان الشرفاء العلويون أولى بالتقديم، ويكون هؤلاء وراءهم لمناسبة قرب الزمان والمكان، فالعذر في ذلك واضح البيان، فنقول:

---

(١) المراد بالقبلة في تعريفهم هو الجنوب، كما اتفقوا على أن الجوف المراد به الشمال.

أول من اختط مدينة سجلماسة وملكها: عيسى بن يزيد المكناسي الصفري، وكان جده سعد قد لقي بالمغرب عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنه.

وكان عيسى صاحب ماشية ينتجع بها المراعي ببلاد القبلة، وكثيراً ما كان ينتجع أرض سجلماسة، فنزلها في سنة ثمان وثلاثين ومائة.

دولة عيسى بن يزيد بن سعد المكناسي الزناتي بسجلماسة

ولما نزل عيسى بن يزيد بسجلماسة بخيامة وماله ألفي بواديه قبائل ذات عدد من زناتة الصفرية، فقدموه على أنفسهم وملكوه على بلادهم، وكان عددهم يزيد على أربعة آلاف.

فقام بأمرهم واختط مدينة سجلماسة سنة أربعين ومائة، فأكمل بناءها، وأتقن أسوارها، وقسم مياهها في خلجان بقدر موزون/ [٢٥٩/ب] وصرف إلى كل ناحية قدرها من مائة، وأمر بغرس النخل والاستكثار منه.

ثم أن الصفرية غدروه سنة سبع وستين فقبضوا عليه وشدوه وثاقاً إلى أصل شجرة في أصل الجبل بعد أن طلوه بالعسل وتركوه حتى قتلته الزنابير والنحل.

فسمي ذلك الجبل: جبل عيسى.

ووَلّوا بعده أبا الخطاب الصفري.

دولة أبي الخطاب الصفري الزناتي سجلماسة

وكان أبو الخطاب داهية حسن التدبير، تحمل أمرهم مدة من أربع وعشرين سنة.

وتوفي حتف أنفه سنة إحدى وتسعين ومائة.

وولي بعده: أبو القاسم سمعون بن يزيلان.

دولة أبي القاسم سمعون بن يزيلان الصفري

وأبو القاسم سمعون بن يزيلان الزناتي، هذا هو الملقب بـ: المدرار.

ويذكر أنه كان حداداً من جالية الربض بقرطبة أيام الحكم.

نزل بسجلماسة، وتقرب لأبي الخطاب الصفري المتقدم الذكر بسلاح من عمله، فاستحسنه وضمّه إلى نفسه، ولم يزل أمر يعظم عنده إلى أن صار القائم بأمره، فلما توفي أبو الخطاب ولي مكانه.

وهو أبو القاسم سمعون بن يزيلان بن يرول بن إسحاق بن يحيى بن ورسطق بن تمزيت بن مكناس الزناتي، ومدرار لقبه.

وجده ممن دخل الأندلس مع طارق.

وهو الذي بنى السور الخارج المدار على النخل والمزارع بسجلماسة، عام تسع وتسعين ومائة.

ومات فجأة في آخر سجدة من صلاة العشاء الآخرة في آخر ذي القعدة، سنة تسع وتسعين ومائة.

وولي بعده ولده أبو الوزير.

دولة أبي الوزير إلياس بن القاسم مدرار

كانت ولاية أبي الوزير في آخر سنة تسع وتسعين ومائة، واستمرت ستة أشهر، وخلعه أخوه أبو المنتصر اليسع بن القاسم أبي سمعون الزناتي في شهر جمادى الآخرة من عام مائتين.

دولة أبي المنتصر اليسع بن أبي القاسم سمعون

بويع بعد خلع أخيه أبي الوزير في سنة مائتين.

وكان جباراً، عنيداً، فظاً، غليظاً، غزا بلاد درعة، وأخذ خمس معادنها، وأظهر مذهب الصفرية من الخوارج وقاتل عليه، وهدم ما كان أبوه بناه من سور المدينة، وبناه بناءً حسناً أحسن من الأول، وأنفق فيه أموالاً جليلة، جعل لها اثني عشر باباً محددة، وقسم داخل السور على القبائل حسبما هو عليه اليوم.

وتوفي/ حتف أنفه سنة ثمان ومائتين عن سبعة أعوام ونصف. [٢٦٠/أ]

وولي بعده ابنه المنتصر.

دولة أبي مالك المنتصر بن اليسع بن مدرار

واتصل الملك بالمنتصر بن اليسع، فلم يزل ملكاً على سجلماسة إلى أن اختلف الأمر بين ولديه: ميمون المعروف بابن هنو بنت عبد الرحمن بن رستم، وبين ولده الثاني سمى أخيه ميمون المعروف بابن تقية.

فتنازع الأخوان وتقاتلا ثلاث سنين.

ومال أبو مالك أبوهما إلى ابن الرستمية، فأخرج ابن تقية، وولى ابن الرستمية، فأخرج فتغلب على أبيه، وخلعه واستبد بالأمر، وأساء السيرة.

فقام عليه أهل سجلماسة وخلعوه، وأرادوا أن يقدموا ابن تقية، فامتنع أن يتقدم على أبيه فأعادوا أباه المنتصر، فأقام مدة.

ثم أحسوا منه أنه أراد أن يولّي ابن الرستمية، فدخلوا عليه القصر وحاصروه، وقدموا ولده ابن تقية، وهو المعروف بالأمير، فوليها، ومات المنتصر في أيامه إلى أن توفي الأمير، سنة ثلاث وستين ومائتين.

فكانت مدة المنتصر وابنيه خمساً وخمسين سنة.

ووليّ بعد الأمير ولده محمد.

دولة محمد ابن الأمير ميمون بن تقية من بني مدرار

وليّ محمد بعد أبيه وظهر وغزا بلاد القبلة، وملك مدينة تابلبالت.

وتوفي في شهر صفر سنة سبعين ومائتين.

فكانت أيامه سبع سنين وشهراً.

وولي بعده عمه اليسع.

دولة اليسع بن المنتصر بن اليسع بن مدرار

ولما ولي اليسع ابن أخيه، استكثر من الجيوش وأحسن السيرة، وعزم على غزو مطغرة، فشغله عن ذلك ما دهمه من أبي عبد الله الشيعي الذي حاصره وتغلب عليه، وقتله، وتملك المدينة.

وكان ذلك في ذي الحجة سنة سبع وتسعين ومائتين.

فكانت مدته سبعاً وعشرين سنة وعشرة أشهر.

ولما صار أمر سجلماسة إلى عبيد الله الشيعي، قدم عليها عامله وانصرف، فثار به أهلها، وقدموا الفتح ابن الأمير مدرار المسمى بالرسول، وقد قتل عامل الشيعة وهو: إبراهيم بن غالب المزابي بعد انصراف عبيد الله الشيعي بخمسين يوماً في ربيع الأول سنة ثمان وتسعين ومائتين.

ولما قتل العامل وجميع جنده، بويع الفتح، واستقام أمره تحت تقية من مطالبة الشيعي، إلى أن توفي في رجب سنة ثلاث وثلاثمائة.

فكانت مدته سنتين وستة أشهر إلاّ أياماً.

وولي بعده أخوه أحمد.

دولة أبي العباس أحمد ابن الأمير ميمون بن مدرار

ولما وَلّى أبو العباس بعد أخيه الرسول، استقامت له الأمور، وصرف الشيعي ووجهه إليه.

/ فوجهه نحو مصالة بن حبوس الصنهاجي بجيوش من الشيعة، فنازله وشدّ [٢٦٠/ب] حصاره، ووالى عليه القتال حتى فتح المدينة عنوة وقتله، وبعث برأسه إلى عبيد الله الشيعي وذلك في محرم سنة تسع وثلاثمائة.

فكانت مدته ثمان سنين ونصفاً.

واقتضت سياسة مصالة أن يولي على سجلماسة رجلاً من بني مدرار ليأمن شغبهم.

فوَلّى عليها المعتز بن محمد.

دولة المعتز بن محمد بن ساور بن مدرار

ولي المعتز سجلماسة في شهر محرم سنة تسع وثلاثمائة.

فأقام ملكاً بسجلماسة وما إليها من البلاد القبلية داعياً للشيعة إلى أن توفي في سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة.

فمدته اثنتا عشرة سنة.

وولي بعده ولده محمد.

دولة محمد بن المعتز بن محمد بن ساور بن مدرار

ووليّ محمد بن المعتز سجلماسة بعد أبيه المعتز بتقديم عبيد الله أمير الشيعة إياه.

فلم يزل عليها إلى أن توفي سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة.

ووليّ بعده أخوه سمعون الملقب بالمنتصر.

دولة المنتصر سمعون بن المعتز بن محمد بن مدرار

وليّ المنتصر الأمر صبياً قبل الاحتلام، وهو ابن ثلاث عشرة سنة أو نحوها.

وكانت جدته مدبرة أمره.

فهو من شرط كتابنا فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام.

إلى أن قام عليه ابن عمه محمد بن الفتح ابن الأمير ميمون بن مدرار الملقب بالشاكر لله في سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة.

فخرج عن المدينة أمامه.

دولة محمد ابن الفتح بن الأمير بن مدرار

ولما خرج المنتصر عن سجلماسة وتملكها محمد بن الفتح، قطع الدعوة عن

ملوك الشيعة، ودعا إلى نفسه، وتسمى بأمير المؤمنين. وتلقب بـ: الشاكر لله.

وأظهر العدل وحُسن السيرة إلى أن بعث إليه معد بن إسماعيل أمير الشيعة جوهر الصقلي القائد، فحاصره ثلاثة أشهر.

ولما ضاق ذرعه خرج من سجلماسة بماله وأهله وخاصته، فلحق بحصن منيع من أحواز سجلماسة، يعرف بتاسجدلت.

وملك جوهر سجلماسة، وذلك في سنة تسع وأربعين وثلاثمائة.

ثم أن الشاكر خرج من الحصن في نفر من أصحابه يتجسسون الأخبار، فعد ربه قوم من مطغرة، فقبضوا عليه، وأتوا به جوهراً أسيراً فحبسه في قفص من الخشب وحمله إلى القيروان.

فطيف به، واعتقل برقادة إلى أن توفي بها سنة أربع وخمسين.

فكانت أيامه إحدى عشرة سنة.

وولّي جوهر عليها مبادر بن زيري البربري.

[٢٦١/ب] / ذكر من ولي سجلماسة بعد بني مدرار إلى صدر الدولة المرينية

ولما فتح جوهر سجلماسة ووَلّى عليها مبادر بن زيري، استمرت أيامه في سنة سبع وأربعين.

إلى أن توفي سنة سبع وخمسين وثلاثمائة.

فوَلّى مكانه ولده يصليتن بن مبادر بن زيري الزناتي بتقديم الشيعة له.

فأقام بها إلى أن غزاه المنصور محمد بن أبي عامر ووجّه إليه الجيش لنظر ولده عبد الله بن المنصور، فتغلب على المدينة وملكها، وقتل يصليتن، وخطب لهشام المؤيد بها.

ووَلّى عليها:

أبا مطر المغراوي

وذلك في سنة أربع وسبعين وثلاثمائة.

فلم يزل والياً عليها إلى أن توفي سنة سبع وثمانين وثلاثمائة.

فولي بعده ولده:

محمد بن أبي مطر رباح الزناتي

فلم يزل عليها إلى سنة أربعمائة، وتوفي.

فملكها:

مسعود بن وانودين خزرون بن فلفل بن خزرون الزنلتي المغراوي

فغلب على جميع أعمال سجلماسة، ودرعة وسائر بلاد القبلة إلى أن توفي.

فوليّ بعده ولد:

محمد بن مسعود

سنة ثلاث عشرة وأربعمائة.

ولم يزل عليها إلى أن توفي سنة سبع عشرة وأربعمائة.

ووليّ بعده:

مسعود بن محمد بن مسعود بن وانودين بن خزرون المغراوي

فلم يزل عليها إلى أن نازلها جيوش لمتونة فدخلوها عنوة بالسيف.

وقتل مسعود في الكائنة، وانتهب ماله وذلك في سنة خمس وأربعين وأربعمائة.

فلم تزل بأيدي المرابطين يتداولها عمالهم إلى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة مدة ثمان وتسعين سنة.

ثم فتحها الموحدون سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة.

وملكها:

عبد المؤمن بن علي

وخطب له بها.

فلم تزل في طاعة الموحدين من بني عبد المؤمن يتداولها عمالهم.

إلى أن تغلب عليها بنو مرين، فكان تصيرها لـ:

الأمير أبي يحيى بن عبد الحق

من يد عامل المرتضى المعروف بابن رحو على يد القطراني في سنة خمس وخمسين وستمائة.

فكانت مدة الموحدين بها مائة سنة واثنتي عشرة سنة.

ولما تملك عليها الوالي للدولة المرينية وهو:

أبو بكر القطراني

أمرها سنة ست وخمسين ثار لما بلغه موت الأمير أبي يحيى بن عبد الحق بدعوة نفسه سنة ثمان وخمسين وستمائة.

وأقام كذلك نحو السنتين، ثم خاف عقبى جنايته على بني مرين.

فخاطب المرتضى مغدوره الأول معتذراً عمّا جناه، فآنسه وأعتبه، وقدم بها قاضياً أحكم له وثوب قائد النصارى به فقتل ووجّه رأسه إلى مراكش، وعادت إلى دعوة المرتضى إلى سنة اثنتين وستين.

ثم تصيرت إلى:

عرب المنيات

بدعوة الأمير أبي يحيى:

يغمر أسن بن زياد أمير تلمسان

فلم يزالوا بها إلى أن انتزعها من أيديهم:

أمير المسلمين أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق

فدخلها يوم الخميس منسلخ صفر سنة ثلاث وسبعين وستمائة.

ولم تزل بأيديهم، وأيدي بنيهم إلى تاريخ هذا الكتاب[١].

ذكر دولة ملوك بني خزر المغراويين من زناتة بالمغرب

وكان لهؤلاء الملوك الزناتيين ذكر وشهرة وحروب تضمنتها كتب التاريخ، وكان جدهم حرب بن حفص بن صولات بن وازمار بن مغراو، مولى أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أُتي به إليه من سبي إفريقية في أول فتحها.

فأسلم على يديه وحسن إسلامه.

فمن هذه النسبة، وهذه الوسيلة، كان ميلهم إلى بني أمية بالأندلس ونفرتهم عن أضدادهم من بني عبيد الله العلوية.

---

(١) هذا الخبر يبين لنا تاريخ تأليف هذا المصنف على وجه التقريب، ويفيد بأنه بعد هذا التاريخ على وجه التحديد.

ذكر حفص بن خزر المغراوي

وهو جد ملوك مغراوة كلهم، ولم يزل ولده يتوارثون الملك من بعده إلى أن وَلّى منهم خزر بن محمد بن خزر، فملك جميع بلاد زناتة، وملك تلمسان وتاهرت، وجميع بلاد القبلة.

وكانت بينه وبين ملوك الشيعة حروب عظيمة جهزوا إليه فيها أولياءهم من الصناهجة وقوادهم حسبما تضمن ذلك الكتب المفردة له.

وكان:

محمد بن خزر الخزري المغراوي الزناتي

ملك تاهرت، ووهران، وتلمسان، وسائر بلاد وناتة بدعوة أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله ملك الأندلس.

وكان:

محمد بن الخير

من أكبر ملوك زناتة، وأكثرهم جمعاً، وأشجعهم جنداً، وأشدهم إخلاصاً ومحبة لبني أمية.

وكانت بينه وبين زيري بن مناد حروب عظيمة، قتل فيها محمد بن الخير المذكور وأكثر رجاله، وهزمت جموعه.

ثم ولي بعده ولده:

يعلى

ثم بعده ولده:

محمد بن يعلى

ثم:

محمد بن الخير بن خزر

فغلب على مدينة تاهرت، وتلمسان، والمسيلة، وأعالي المغرب والصحارى، وجميع بوادي زناتة، وأكثر بلاد الزاب والقبلة.

وخطب في جميع طاعته لبني أمية ملوك الأندلس.

ثم ولي منهم بالمغرب:

الأمير زيري بن عطية المغراوي

وهو زيري بن عطية بن عبد الله بن تبادلت بن محمد بن خزر، الزناتي، المغراوي.

ودعا لهشام المؤيد وحاجبه ابن أبي عامر، وملك مدينة فاس، وجميع بوادي المغرب.

وعلا أمره، وارتفع شأنه، وجدت بينه وبين أبي البهار بن زيري بن مناد الصنهاجي لما خالف علي ابن أخيه منصور بن بلقين صاحب إفريقية وظهير الدولة العبيدية لما خلع أبو البهار دعوته، وتقلد دعوة المروانية، وملك تلمسان ووهران، وهنين، وشلف، وونشريس، وتنس في سنة إحدى وثمانين.

ثم خلع دعوة المروانية، فتحرك إليه زيري بن عطية من مدينة فاس.

ففر أبو البهار، ولحق بإفريقية، واستولى زيري على جميع أعماله، وبعث بالفتح إلى أبي عامر المنصور صحبة هدية عظيمة، كافأه/ عليها. [٢٦٢/أ]

وذلك سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، وهو مذكور شهير في أخبار ابن أبي عامر. واستدعاه المنصور بن أبي عامر مفخماً بزيارته ومفتخراً بقدوم مثله.

فقدم حضرة قرطبة في شهر رجب سنة اثنتين وثمانين.

وأوصل هدية حافلة من طيور مفصحة بالألسن البشرية، ودواب من دواب المسك والغالية، وحيوانات غريبة، وأسود في أقفاص حديد.

واستصحب من قومه ثلاثمائة فارس، ومثلها من عبيده وحشمه الرجال.

واستخلف ولده المعز على فاس.

واحتفل ابن أبي عامر في لقائه ونزله وصلاته، وكتب له العهد على جميع المغرب. واتصل به عندما نزل قافلاً بمرسى طنجة أن يدّو بن يعلى الزناتي اليفرني أمير بني يقرن، تغلب على مدينة فاس، فأسرع نحوه.

وكانت بينه وبين يدّو محاولات، وعلى فاس مداولات إلى أن هزم الأمير زيري المغراوي، يدّو بن يعلى، وقتله، وبعث برأسه إلى المنصور.

واستمرت أيام زيري مع المنصور حَسَنة إلى سنة ست وثمانين، فساء ما بينهما وألغى ذكر المنصور من الخطبة، واقتصر على ذكر هشام خليفة.

فأنفذ إليه ابن أبي عامر واضحاً الفتى في الجيوش لقتاله، وكان اللقاء بينه وبين زيري بوادي ردات.

ودامت الحرب مدة من ثلاث أشهر إلى أن ظهر زيري على واضح وهزمه.

ولجأ واضح إلى طنجة، واستصرخ المنصور واستمده، فخرج إليه بنفسه من قرطبة، ووصل الجزيرة وأجاز إليه ابنه عبد الملك المظفر.

وبلغ ذلك زيري فاستجاش قبائل زناتة، فأجابته الجموع مما وراء ملوية وسجلماسة من بلاد الزاب.

وكان اللقاء بأحواز طنجة ووقعت بين الفريقين الحرب ودامت يوماً كاملاً إلى الليل، إلى أن وجد الغرّة من زيري غلام أسود، وكان زيري قتل خاله، فضربه بسكين في لبته يريد نحره، فلم يجهز عليه، لكنه لحق بعبد الملك فشدّ الأندلسيون عند ذلك على زناتة فهزموا، واستمرت على زيري وأصحابه، وكثر القتل في جيش المغاربة، واستولى عبد الملك من محلة زيري على ما يحار فيه الوصف.

ولم يكد زيري يستدرك أمره ويجمع فلّه حتى عاجله عبد الملك بخمسة آلاف بطل لنظر واضح، أسى بهم، فضرب على محلة زيري بحوزة بلاد مكناسة وهم آمنون.

وذلك في منتصف رمضان من سنة ثمان وثمانين، فأوقع بهم وقيعة عظيمة وأسر من مغراوة نحو ألفين مَنَّ عليهم عبد الملك وأركبهم في جنده.

ولحق زيري بمدينة فاس في شرذمة من أصحابه وبني عمه فسدت أبوابها دونه ومكّن من عياله وأولاده، فانصرف بهم إلى الصحراء.

ودخل المظفّر بن أبي عامر مدينة فاس يوم السبت منسلخ شوال سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة.

وكتب/ إلى أبيه بالفتح وقرىء بمنابر الأندلس. [٢٦٢/ب]

وأعتق المنصور شكراً لله ألفاً وثلاثمائة مملوكة أنثى، وخمسمائة عبد من جملة صدقات جمّة.

وراجع ولده وبعهده على المغرب، ووصاه فيه بحسن السيرة.

فقرىء الكتاب بمنبر القرويين آخر جمعة من ذي القعدة من السنة.

وأقام المظفر ستة أشهر بمدينة فاس فرأى الناس من فضله وعدله ما لم يروه ممن قبله

رجع الخبر إلى زيري

ولما استقر بالصحراء من أحواز صنهاجة ألفاهم قد اختلفوا على باديس بن المنصور بن بلقين بعد وفاة أبيه.

فجمع زيري القبائل الزناتية، واغتنم الفرصة وذهب إلى صنهاجة، فأوغل في بلادهم، وهزم جيوشهم، ودخل مدينة تاهرت، وتنس، وتلمسان، وشلف.

وأقام بها الدعوة للمؤيد هشام، ونازل مدينة أشير إلى أن عادت عليه جراحته، فتوفي سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة في شهر المحرم.

فقدم زناتة ولده المعز بن زيري.

دولة المعز بن زيري بن عطية

واستقل المعز بن زيري بملك أبيه وبادر باستصلاح المظفر بن أبي عامر، ورجع إلى طاعته.

فصرف واضحاً عن ولاية فاس وولاّها المعزّ في سنة سبع وتسعين وثلاثمائة بعد أن توثق ابن أبي عامر بقبض ولده معنصر رهينة، والتزم خيلاً ودرقاً وسلاحاً يبعثها في كل سنة.

فأقام معنصر بقرطبة إلى زمن الفتنة وانقضاء الدولة العامرية فصرف إلى أبيه.

وهادن المعز أهل إفريقية وقنع بما في يده، وصلحت حاله إلى أن توفي في جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة.

وولي بعده ابن عمه حمامة بن المعز بن عطية.

دولة حمامة بن المعز بن عطية المغراوي

وقام حمامة بن المعز بأمر زناتة.

وكانت بينه وبين تميم بن يعلى وقبائل بني يفرن حرب انهزم فيه حمامة، وفرّ إلى تلمسان ودخل تميم مدينة فاس، وقتل فيها كثيراً من اليهود.

ثم اجتمع إلى حمامة بمدينة تنس، قبائل مغراوة، فزحف إلى فاس وأجلى عنها تميم بن يعلى وتملكها سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة.

وأقام على ملك المغرب إلى أن توفي سنة أربعين وأربعمائة، فكانت أيامه ثماني عشرة سنة.

وولي مكانه ولده دوناس.

دولة دوناس بن حمامة بن عطية المغراوي

ووليّ دوناس مدينة فاس وأكثر أعمال المغرب بعده أبيه.

فكانت أيامه أيام هدنة ودعة ورخاء كثير. وفي أيامه عمرت فاس وقصدها

التجار وبنيت بها الرباع والمساجد، وأدير على أرباضها السور.

وتوفي سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة.

فوليّ بعده ولده الفتوح.

/ دولة الفتوح بن دوناس بن حمامة بن المعز بن عطية [٣٦٣/أ]

ولمّا وليّ الفتوح بن دوناس ـ وإليه ينسب باب الفتوح بفاس ـ الأمر بعد أبيه. وَلّى أخاه عجيسة عدوة القرويين.

فثار عليه بها ودامت الحرب بينهما ثلاث سنين متصلة إلى أن تغلب الفتوح على عدوة القرويين ليلاً، وملك العدوتين، وظفر بأخيه فقتله.

واستمرت أيام الفتوح إلى سنة سبع وخمسين وأربعمائة.

فظهر أمر لمتونة وضيقوا عليه بالقتال، فتخلى عن الأمر إلى ابن عمه معنصر.

وكانت أيام الفتوح خمسة أعوام وسبعة أشهر.

دولة معنصر بن المعز بن زيري بن عطية

وليّ مدينة فاس وتملك على مغراوة بعد اختلاع ابن عمه الفتوح وتخليه عن الأمر وكان ذا حزم، ورأي، وتدبير، وإقدام، وشجاعة، وصابر حروب الملثمين من لمتونة إلى أن فقد في بعض الوقائع بينه وبينهم، وذلك في سنة ستين وأربعمائة.

ودخل بعده الملثمون فاساً، وثار عليهم زناتة فأزعجوهم عنها، ووليها تميم بن معنصر.

دولة تميم بن معنصر بن المعز بن زيري بن عطية

ولم يكد تميم بن معنصر يستقل بأمره حتى نازل مدينة فاس يوسف بن تاشفين وحصرها ودخلها عنوة الدخلة الكبيرة، فقتل بها من زناتة ما يزيد على عشرين ألفاً، وذلك في سنة إحدى وستين وأربعمائة.

فكانت دولة مغراوة من زناتة بالمغرب نحو مائة، وكان آخر العهد فيها بتميم وقومه.

ذكر أيام بني يفرن من زناتة بالمغرب

ويفرن هو أخو مغراو، وأبوهما يصلتين. وكان من ملوكهم:

أبو يزيد بن كيداد اليفرني الزناتي.

القائم على الشيعة بإفريقية سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة حسبما مرّ ذكره.

وكان من ملوك هؤلاء:

الأمير يعلى بن محمد اليفرني

ملك مدينة تاهرت، والمسيلة، وتلمسان، ومدينة البصرة من المغرب، وكان متمسكاً بدعوة بني أمية.

وقتله جوهر قائد الشيعة في حرب كانت بينهما سنة سبع وأربعين وثلاثمائة.

فوليّ بعده ولده:

يدّو بن يعلى بن محمد اليفرني

فقام بالأمر، وملك كثيراً من بوادي زناتة وكانت بينه وبين زيري بن عطية عظيم زناتة، حروب عظيمة، فكان إذا غلب يدّو دخل إلى مدينة فاس، وإذا غلب زيري أخرجه منها.

[٢٦٣/ب] إلى / أن هزمه زيري، ودخل عليه البلد فقتله، ومثل به.

وذلك في سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة.

ومن ملوك بني يفرن:

تميم بن زيري بن عليّ بن محمدٌ بن صالح اليفرني

ملك كثيراً من بلاد المغرب.

وكانت دار ملكه بسلا، وغلب على فاس بعد سنة أربعمائة.

وأوقع باليهود فيها، فقتل منهم نحواً من ستة آلاف، وانتهبت أموالهم وتوفي في سنة ثمان وأربعين وأربعمائة.

ووليّ بعده ولده:

محمد

وكانت بينه وبين مغراوة حروب كثيرة إلى أن غلب عليه الملثمون من لمتونة، فقتلوه في سنة اثنتين وستين وأربعمائة.

وانقضى أمر هؤلاء على هذا السبيل، والبقاء لله وحده.

ذكر شيء من أيام بني تجين وبني توالي وغيرهم

أما بنو تجين:

فكان أول من ملك منهم:

عبد القوي بن وزمار بن تجين بن تميم بن علي

بلاد وانشريس، وشرشال، وشلف، والجزائر إلى تلمسان، وذلك في سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة.

فلم يزل بنوه يتوارثون ذلك إلى أن دثر رسم امارتهم بمضايقة بني زيان:

وأما بنو توالي وهم بنو يخفش الزناتيون

فأول من ملك منهم بالمغرب:

توالي بن شوصح بن نعم الخلف

وكان محل ملكه بلاد فازاز، التي ينسب إليها الخيل الفازازية، ومعدن عوام، والقلعة، ومدائن مكناسة.

وكان اسم توالي: يوسف.

وكان قيامه سنة أربعمائة.

ووفاته سنة اثنتي عشرة وأربعمائة.

ووليّ بعده ولده:

مهدي بن توالي

فبنى القلعة وحصنها واتخذ لها سوراً عظيماً وسميت به قلعة مهدي إلى الآن.

ولم يزل ملكاً على بلاد فازاز، ومدائن مكناسة إلى أن قدم المرابطون المغرب، ونازله منهم أبو بكر بن عمر، واستأمن إليه سنة إحدى وخمسين وأربعمائة.

ثم نكث عليه وقتل جماعة من رجال لمتونة، فبعث إليه الأمير أبو بكر المذكور جيشاً حاصر القلعة سبعة أعوام إلى سنة ثمان وخمسين.

ثم خرج عنها صلحاً، وتوجه إلى فاس، فظفر به صاحبها معنصر بن المعتز، فقتله.

ذكر الملوك الحميريين بالريف الغربي

وأول هؤلاء القوم:

صالح بن منصور الحميري

من أهل اليمن، توجه إلى المغرب في الفتح الأول الكائن على يد عقبة المستجاب. فنزل بمرسى تمسامان، ويعرف بمرسى البقرة، وبينه وبين نكور عشرون ميلاً.

فأسلم على يده بربر تلك الجهات، وبقي بها إلى أن مات.

فدفن على شاطىء البحر وقبره هناك معروف بقبر العبد الصالح.

وتخلف ولدين: المعتصم، وإدريس..

فوليّ الأمر بعده:

المعتصم

[٢٦٤/أ] ثم توفي، فملك/ أخوه:

إدريس

ثلاث سنين، ثم توفي، فملك بعد ابنه:

سعيد بن إدريس

فاستوثق له أمره بتلك البلاد.

وهو الذي بنى مدينة نكور سنة ثلاث وعشرين ومائة، وكانت مدينة عظيمة حافلة آهلة تقصدها مرافق البحر من مرسى المرية.

ودخلها المجوس سنة أربع وأربعين ومائتين، وأقاموا بها ثمانية أعوام.

وتوفي سعيد بعد أن ملك سبعاً وستين سنة.

فوليّ بعده:

صالح بن سعيد بن إدريس

وكان فقيهاً مالكياً، حجّ وغزا بالأندلس وتصير إليه الملك ودام فيه ثمانياً وعشرين سنة.

وتوفي في ذي الحجة سنة اثنتين وستين ومائتين.

وولّي بعده:

سعيد بن صالح

أصغر ولده، وخالف عليه صقالبة أبيه فحاصرهم بقلعة الصقالبة من تلك الأحواز سبعة أيام، ثم ظفر بهم فقتلهم.

وكانت بينه وبين ملك الشيعة محاورات تشتمل على نظم ونثر ثبت في محله من كتب التاريخ.

فأجابه عنها سعيد بن صالح بما آيسه من نفسه، فكتب إلى عامله بتاهرت مصالة بن حبوس يأمره بمحاربة سعيد بن صالح فنازل مدينة نكور.

وحارب سعيد ثلاثة أيام حتى قتل سعيد واستبيح عسكره.

ودخل مصالة نكور لثلاث خلون من المحرم سنة خمس وثلاثمائة، وانتهبت المدينة، ولحق من نجائد بني سعيد بن صالح بمالقة من برّ الأندلس، وفيهم ولد سعيد: إدريس، والمعتصم، وصالح.

وأقام مصالة متردداً بأحواز نكور شهرين.

ثم استعمل عليها عاملاً اسمه:

دلول، وانصرف إلى تاهرت.

ولم يزل ابنا سعيد بمالقة مترقبين لأم دلول إلى أن أمكنتهم فيه الفرصة فانتهزوها، وأجازوا البحر إلى نكور وقد سبقها منهم أصغرهم سناً وهو:

صالح

فبايعه البربر وسمّوه اليتيم لصغر سنه.

وهو من شرط كتابنا فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام.

وقدم المدينة، فدخلها، وقتل دلولاً العامل وأصحابه.

وخاطب صالح بالفتح، عبد الرحمن الناصر لدين الله بقرطبة، فوجه إليه الخلع وآلات الملك.

ولحق به اخوته مسلمين له في الأمر.

فاستقامت حاله إلى أن مات سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة.

فوليّ بعده ابن عمه:

المؤيد بن عبد البديع بن صالح بن سعيد بن إدريس

وزحف إليه موسى بن أبي العافية المكناسي فحاصره وتغلب عليه ونهب المدينة وخربها سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة.

ثم بايع البربر:

أبا أيوب إسماعيل بن عبدالملك بن عبد الرحمن بن سعيد بن إدريس بن صالح

فقام الأمر، وبنى المدينة القديمة التي أسسها جدّه صالح، وأدار بها السور وحصّنها سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة.

وقصده صندل قائد عبيد الله الشيعي وأرسله يدعوه إلى طاعة العبيدية، فقتل أرساله، واستعصى عليه فنازله صندل/ [٢٦٤/ب] وخاصره ثمانية أيام حتى غلب عليه ودخل المدينة، فقتل إسماعيل.

ووَلّى على نكورة رجلاً من أصحابه كتامة.

ولما انصرف صندل، قصد المدينة موسى بن علي بن المعتصم بن صالح، وكان قد لجأ إلى بني يصلتين، وزحفوا معه إلى نكور، فقتلوا عامل صندل ومنه معه وبايعوا:

موسى بن علي

وتمادت إمرته بنكور إلى أن توفي سنة ستين وثلاثمائة.

فوليّ مكانه ابن عم له اسمه:

عبد السميع بن جرثم بن عبد الله بن إدريس بن صالح بن المنصور

وكان بالأندلس، فلما مات موسى عبر البحر، فبايعه البربر، وملك المدينة إلى أن توفي سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة.

فوليّ بعده ابنه:

عبد السميع بن محمد بن عبد السميع بن محمد بن عبد السميع بن جرثم

إلى أن توفي سنة عشر وأربعمائة.

وانقرضت بموته أيام هذا البيت بنكور.

واستولى عليها:

يحيى بن الفتوح الأزداجي

مستظهراً بوفور قبيلة من أزداجة، فبايعته قبائل البربر.

وقتل من بقي بنكور من أولاد صالح، وجرثم، ونفى قوم منهم إلى الحرمة.

وأقام بها إلى حين وفاته سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة.

ووليّ بعده ولده:

يوسف بن يعلى بن فتوح الأزداجي

إلى أن توفي سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة.

ووليّ بعده ولده:

عز بن يوسف بن يعلى بن الفتوح

فلم يزل عليها إلى أن قتله لمتونة سنة ستين وأربعمائة.

وخربوا المدينة، فتوالى عليها الخراب، وتفرق أهلها في البلاد، واتصل ذلك إلى اليوم.

وآثارها ماثلة وبقايا جدرانها شاهدة، وهي اليوم مزارع لبني ورياغل.

فسبحان من يرث الأرض ومن عليها، لا إله إلاّ هو.

ذكر المتحلين الإمارة وأشنع من ذلك من برغواطة

وإن أنكر علينا منكر أن نجعلهم من ملوك الإسلام فنقول: إنما أتينا بهم حسبما شرطنا من انجرار الكلام.

قال بعض المؤرخين:

ليس قبيل برغواطة لأب ولا يرجعون إلى أصل، وإنما هم أخلاط من قبائل شتى زناتية، اجتمعوا إلى صالح بن طريف القائم بتامسنا وقد ـ زعم ـ نحلة لنفسه ودينا، وذلك على عهد هشام بن الحكم بقرطبة، وذكروا أن صالح بن طريف استوزره ميسرة الحقير أمير الغرب عند الفتح، ثم عزله، وكتب له كتاباً إلى أهل تامسنا وقومه من زناتة البربر يوصيهم به، ويصف فضله وعلمه.

وكان صالح هذا مصمودي الأصل.

وقيل: إسرائيلي الأصل نشأ بقرية برباط من الأندلس، ورحل إلى المشرق، فقرأ على عبيد القدري المعتزلي، واشتغل السحر فمهر فيه، وقدم المغرب، فاستمال من لقيه بما أظهر من الإسلام والزهد والورع واستهواهم بالنيرجات والحيل والسحر، فأقروا بفضله/ واعترفوا بولايته فولّوه على أنفسهم. [١/٢٦٥]

أيام صالح بن طريف البرغواطي

وتسمى صالح بصالح المؤمنين، وزعم أنه المشار إليه في القرآن[١].

وشرع لهم الديانة التي قرر صلالها في سنة خمس وعشرين ومائة، وهي أمور غريبة مضحكة يأمر: بصوم رجب فيها وأكل رمضان، وخمس صلوات في الليل، وشرع في الوضوء غسل السُّرة والخاصرتين، وأباح تزوج النساء مما فوق الأربع، وحَرّم تزوج بنت العم، وشرع قتل السارق، وحَرّم كل رأس حيوان، وحرم ذبح الديك، ومن قتل ديكاً أعتق رقبة، ووضع لهم سِوَراً بلغت ثمانين سورة.

واستخلف على برغواطة لما قرّر أمره ولده إلياس بن صالح، وأمره أن لا يظهر تلك الديانة حتى يقوى سلطانه، وينتشر ذكره، فلا تمكن مخالفته، وأن يتمسك بالمروانية ملوك الأندلس، ووعده بأن يرجع إلى المغرب في دولة السابع من ملوكهم، وأنه المهدي الذي يقاتل الدجال، وأن عيسى عليه السلام يكون من جنده، ويصلّي خلفه.

فكانت أيام صالح بن طريف نحواً من ست سنين، وكان انصرافه عنه سنة ثمانٍ وعشرين ومائتين.

أيام إلياس بن صالح بن طريف البرغواطي

ولمّا وليّ إلياس بعد خروج أبيه إلى المشرق كتم نحلته خوفاً على نفسه، ولم يظهر شيئاً منها في الجمهور إلاّ من وثق به ورضي به من خاصته.

فدخل في طاعته خلق كثير من زناتة وغيرهم وعظم أمره، ولم يزل ملكاً على برغواطة إلى أن توفي في سنة ست وسبعين ومائة.

فكانت أيامه نحواً من خمسين سنة.

وعهد بالأمر بعده لولده يونس وعلّمه الديانة والشرائع التي اتخذها عن أبيه وأوصاه، بقتال من خالفها.

أيام يونس بن إلياس بن صالح البراغواطي

ولمّا وليّ يونس بن إلياس ملك برغواطة، وأظهر الديانة ودعا إليها، وقتل من خالفها وكانت قاعدة ملكة مدينة شالة على وادي الغبط الآتي من أسمير.

---

(١) يريد قول الله عزّ وجلّ في سورة التحريم: ﴿وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾. وعجباً لأمر الأدعياء في كل عصر وزمان، وأعجب منه قبول بعض الناس لادعائهم مع وهن استدلالهم.

ولم يزل بها إلى أن توفي سنة خمس وتسعين ومائة، وأقام بالأمر بعده ولده أبو غفير.

وكانت أيام يونس نحواً من تسع عشرة سنة.

أيام أبي غفير معاذ بن يونس بن إلياس بن صالح بن طريف

ولمّا وليّ أبو غفير أظهر ديانته، وقاتل الأدارسة ملوك المغرب من الفاطميين، واشتدت شوكته فكانت بينه وبين إدريس بن إدريس الحسني حرب عظيمة ومواقف جهادية شهيرة.

وتوفي أبو غفير سنة ثلاث ومائتين.

فكانت أيامه خمساً وثلاثين سنة.

وكانت له من الزوجات عند وفاته: أربع/ وأربعون زوجة. [٢٦٥/ب]

ووليّ بعده ولده أبو حفص.

دولة أبي حفص عمر بن معاذ البرغواطي

واستمرت أيام عمر بن معاذ إلى أن توفي.

ووليّ بعده ولده:

اليسع بن إسماعيل

فقام بديانتهم ينتظر ظهور جده الشيخ صالح، إذ كان سابع الأمراء من بنيه.

واتصل أمر اليسع إلى سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة.

وظهر أمر اللمتونيين

ودعوتهم راجعة إلى أساس من فقه ودين، فجعلوهم جهاداً قريباً وغزاهم:

الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني

فقتلهم قتلاً ذريعاً حتى أسلموا إسلاماً جديداً.

وكان آخر ملوكهم:

عيسى بن أبي الأنصار بن محمد بن اليسع

وانقرض ملكهم، وقبيلهم اليوم قبيل ضعيف لعب سيف الملثمين فيهم، ثم سيف المهدي بعده.

دولة الأدارسة العلويين الحسنيين بالمغرب الأقصى

وكانوا ممن قامت بالمغرب دعوة زاحموا بها أيام العباسية، والعبيدية بالمشرق وأيام الأموية بالأندلس الحسنيون الطالبيون من ذرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

كان السبب في ذلك أن محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، خرج على أبي جعفر المنصور ثاني العباسيين طالباً حقه في الخلافة، ودعا في الحجاز إلى نفسه، فأجابه كثير من الناس.

وجرت بينه وبين أبي جعفر المنصور رسائل طويلة جميلة تعارفها الناس، ممّا يدل على جلالة الرجلين الطالب والمطلوب ومحلهما من العلم، وذلك في سنة خمس وأربعين ومائة.

وجهز إليه المنصور الجيوش، وقد تأذن الله بحلية أهل هذا البيت من حظهم المناسب لهم من دنياه وهو القادر على إعاضتهم من خير ما عنده، فظهر عليهم وهدر جمعهم، وقبض على جملة منهم.

وفَرّ ولده محمد إلى بلاد النوبة، فأقام بها إلى أن توفي المنصور، وصار الأمر إلى المهدي ولده، فعاد محمد إلى مكة، ودعا الناس ثانية، وعظم أمره بالحجاز، وأجاب دعوته الناس.

وبعث إخوته وكانوا ستة، وهم: يحيى، وسليمان، وموسى، وعيسى، وعلي، وإدريس في الأقطار بين إفريقية، وخراسان، ومصر، والديلم.

وجهز إليه المهدي بن المنصور جيشاً من ثلاثين ألفاً.

وكان اللقاء بفخ من أحواز مكة، فانهزم العلويون، وقتل إمامهم محمد بن عبد الله رحمه الله، وفرّ إخوته رجلان: موسى وإدريس ناجيين من الوقعة.

فتلحق إدريس منهما بمصر ومعه مولى له اسمه راشد، وكان بمصر يومئذٍ عامل للمهدي من المعتقدين لرأي الشيعة، فَنُذِرَ بهما، فتعامى عنهما، وأشار عليهما بالنجاة، وتعجيل الخروج/ عن عمله لطفاً من الله بهما، إذ كان المهدي قد أخذ عليهما الأرض، ونذر الوصاة بأخذهما. [٢٦٦/أ]

دولة إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم

كان لحاق إدريس بالمغرب في شهر ربيع الآخر، من سنة اثنتين وسبعين ومائة.

ونزل على رجل يسمى: عبد المجيد الأوربي، وشيوخ ليلى من أحواز جبل زرهون، فأقام عنده أشهراً، وجمع له عبد المجيد قومه وأخوانه لما تعرف إليه، وراقه فضله وهديه وسمته، فعرفهم بمحله من بنوة النبوءة، وأعلمهم بفضله وأعلمهم بفضله وشرفه.

فبايعوه على القيام بأمرهم وولّوه صلاتهم وأحكامهم وغزوهم، فاستجابت له القبائل الريفية وغيرها، وتألف له جيش كبير فغزا بهم بلاد تامسنا وتادلا، وكان منهم كثير على دين النصرانية، ففتحها.

ثم قفل إلى مدينة وليلى في ذي الحجة سنة اثنتين وسبعين ومائة، فافتتح بلاد: فندلاوة، وصدينة، ومديونة، وفازاز، وتحرك في أوائل رجب من سنة ثلاث وسبعين ومائة، فنازل مدينة تلمسان ودخلها صلحاً وبنى مسجدها وبها أثره.

واتصل بالرشيد هارون ما تأتى لإدريس بالمغرب من دخول أهله في طاعته وافتتاح المدينة بسيفه، فأهمه أمره، واستشار يحيى بن خالد في أمره.

فأشار عليه يبعث رجل ذي حزم ومكر وجرأة ليغتاله بما أمكن من حيلة. ووقع اختيارهم على سليمان بن جدير من أهل الشجاعة والدهاء والفصاحة، ووعده عند تمام الأمر بالمنزلة الرفيعة، وأعين بالأموال الجليلة والتحف الظريفة.

وخرج من بغداد إلى المغرب حتى ورد على إدريس فسلّم عليه وسأله فعرفه أنه من بعض موالي أبيه وأنه قصده حباً وصاغية إليه وميلاً لأهل بيته، فسرّ به إدريس وآنس بقربه وسكن إلى قوله وركن إليه ولطف منه محله، فكان لا يأنس لغيره.

وإذ لم يكن يجد عند أحد من أهل المغرب لجفائهم وغلظ طباعهم ما يجد عنده، وكان إذا قعد وجوه القبائل، قام بينهم فذكر فضائل أهل البيت وعظيم بركاتهم، ويقيم الدلائل على وجوب إمامه إدريس دون سواه.

فكان إدريس يتعجب من فصاحته وعلمه والناس كذلك.

وسليمان يترقب الفرصة، ويعمل الحيلة فلا يجد لذلك سبيلاً بملازمة راشد أوقات إدريس وعدم مفارقته إياه إلى أن غاب يوماً راشد، فوجد سليمان الفرصة، فوصف الطيب وأنواعه، وكان إدريس محباً في الطيب فقال: يا سيدي جعلت فداءك إني جلبت من شيئاً من الطيب لنفسي، فلما رأيت الطيب بهذه البلاد معدوماً آثرك به على نفسي، ثم أخرج قارورة من وعاء ووضعها بين يديه.

فقال: جزيت خيراً يا سليمان.

ثم أخذها إدريس وفتحها وشمّها واستعمل منها.

/ فلما رأى سليمان أن مراده قد حصل، خرج من بين يديه يوهم قضاء حاجة [٢٦٦/ب]

الإنسان، فسارع إلى منزله، وركب فرساً من عتاق الخيل، قد أعده لذلك هو وأمثاله، وخرج يطلب النجاة.

وكانت القارورة مسمومة بسمّ قويّ، فلما صعد السم بالاستنشاق إلى دماغ إدريس وقلبه، غشي عليه وسقط إلى الأرض لا يتكلم، ولا يعلم ما حدث به.

وأقبل راشد فألفاه يجود بنفسه إلى عشي النهار، ومات في آخر شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين ومائة.

وقيل: جعل له السم في دلاعة، وهو البطيخ السندي.

ولما توفي إدريس، وطلب راشد سليمان بن جدير، فلم يجده، ركب في جمع كثير لم يلحق بسليمان منهم راشد، فشدّ عليه السيف، وأصابه بجراحات عطل ببعضها يده وكبا براشد فرسه فمنعه من الإجهاز عليه، ففرّ إلى أن لحق بالعراق.

وعاد راشد إلى مدينة وليلى، فأخذ في جهاز إدريس ومواراته، ولم يكن لإدريس يومئذٍ ولد إلاّ أنه ترك جارية له بربرية اسمها كَنْزَة مُقرباً بحمل منه تناهر الوضع، فجمع القبائل وأخبرهم بذلك.

فقالوا له: أيها الشيخ المبارك تقوم بأمرنا كما كان إدريس يفعل فينا حتى تضع الجارية، فإن وضعت غلاماً، ربّيناه وبايعناه تبركاً بأهل البيت بيت النبوءة وذرية رسول الله ﷺ، وإن كانت جارية نظرنا لأنفسنا.

فشكرهم راشد وقام بأمرهم خير قيام حتى وضعت الجارية غلاماً أشبه الناس بإدريس أبيه.

فأخرجه راشد إلى رؤساء البربر، وقالوا: هذا إدريس كأنه لم يمت فسماه راشد: إدريس باسم أبيه.

وقام بأمره وكفله، وأحسن تأديبه فأقرأه القرآن وأحفظه إياه لثماني سنين، وعلّمه السنّة والفقه، وأشعار العرب، وأيامَ الناس، وسيَر الملوك، ثم ركوب الخيل، والمجاولة بها، وأحكام الرماية.

وكان مولده يوم الاثنين التاسع والعشرين من ربيع الآخر سنة خمس وسبعين ومائة.

دولة إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم

ولما أكمل إدريس عشراً جدد راشد له البيعة، وأثل له الأمر، واتصل ذلك بإبراهيم بن الأغلب أمير العباسيين على إفريقية، فدخل خدام راشد من البربر على يدّ من أحكم ذلك بالمال فقتلوا راشد سنة ست وثمانين ومائة.

وفي ذلك يقول إبراهيم بن الأغلب يخاطب الرشيد، ويكذب دعوى محمد بن مقاتل العكي، إذ نسب إلى نفسه محاولة هلال راشد.

/ألم ترني أهلكت بالكيد راشدا وإني لأخرى لابن إدريس راصد [١/٢٦٧]

وتاه أخو عكّ بمهلك راشدٍ وقد كنت فيه ساهراً وهو راقد

وقام بإدريس بعد راشد، أبو خالد زيد بن إلياس العبدي.

ثم نشأ إدريس وترعرع، فكان نسيج وحده في العلم والدين والشجاعة.

قال بعضهم: شهدت مع إدريس بعض غزواته في الخوارج الصفرية، وهم ثلاثة أضعافنا، فكان يضرب في الجانب مرة، ثم في الآخر أخرى، ثم يعود إلى القلب، فيقف تحت البنود يحرض الناس.

فجعلت أديم النظر إليه متعجباً، فاستفهمني عما عندي.

فقلت: عجبت أن رأيتك تبصق مجتمعاً وأنا لا أجد الريق في فمي.

فقال: ذاك لقوة جأشي، واجتماع عقلي، وذهاب ريقك لما خامرك من الرعب.

قلت: وعجبت لطلاقة وجهك، وبشره عند القتال.

فقال: ذلك ببركة جدنا ﷺ ودعائه لنسا.

قلت: وعجبت لكثرة تقلبك في السرج.

فقال: الزَّمع إلى القتال والصرامة في الحرب.

وقال:

أليس أبونا هاشم شدَّ أزْرَهُ وأوصى بنيه بالطعان وبالضَّرب

فلسنا نَمَلّ الحرب حتى تمُلّنا ولا نشتكي مما يضرّ من النَّصب

ثم ضاقت به مدينة ليلى، فسرح في الأرض يختار محلاً لبناء مدينة يستوطنها.

فوقع اختياره على موضع مدينة فاس حرسها الله، وخرج لذلك سنة تسعين ومائة، فكان تأسيس المدينة المذكورة أول يوم شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين ومائة.

فبنى داره المعروفة اليوم لسلفه بدار القيطون، ومسجدها بجواره.

وعظم شأنها بالعمارة بعده، وسكنها الملوك والأشراف إلى أن بلغت في التمدن الغاية التي لا تعلم لمدينة من مدن الإسلام بالمغرب من بعد أن خربت قرطبة، أعادها الله، وجدّدها بالإسلام.

وفي محرم سنة سبع وتسعين غزا بلاد المصامدة.

وفي سنة تسع بعدها فتح تلمسان.

وتوفي بمدينة ليلى في ثاني عشر لجمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة ومائتين، وهو ابن ثمان وثلاثين سنة.

وكان سبب وفاته أنه شرق بحبة عنب رحمه الله.

ووليّ بعده ولده محمد أكبر بنيه، وكانوا اثني عشر.

دولة محمد بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن

ولما تولّى محمد بعد أبيه قسم بلاد المغرب بين إخوته:

فوَلّى القاسم: سبتة، وطنجة، وقلعة النسر، وما إلى ذلك من البلاد والقبائل.

ووَلّى عمر منهم: بلاد صنهاجة، وغمارة.

ووَلّى داود: بلاد هوارة وما والآها.

ووَلّى يحيى: مدينة البصرة، ومدينة أصيلا.

ووَلّى أحمد: مدينة مكناسة وجبال فازار، وتادلا.

ووَلّى / عبد الله: بلاد السوس الأقصى، وبلاد نفيس، وأغمات. [٢٦٧/ب]

ووَلّى عيسى: مدينة شالة، وأزمور، وتامسنا وبرغواطة.

ووَلّى حمزة: مدينة تلمسان.

واختص هو بمدينة فاس، فكانت دار ملكه.

وتصغر باقي الإخوة عن الولاية.

فاستمرت الأحوال إلى أن طالبه أخوه عيسى الذي ولّى شالة ونبذ طاعته، وكتب إلى أخيه القاسم صاحب سبتة، وطنجة يأمره بحربه، فامتنع من ذلك وخالف أمره.

فكتب إليه أخيه عمر صاحب صنهاجة، وغمارة، فامتثل أمره، فأوقع بعيسى وهزمه، ووَلّى جميع عمله.

وكر على القاسم: فكانت بينهما حرب شديدة هزم فيها القاسم، واحتوى عمر على ما بيده من البلاد.

وسار القاسم إلى ساحل البحر مما يلي أصيلا، فاتخذ هناك مسجداً عبد الله فيه إلى أن توفي، وقد كان زهد في الدنيا إلى أن مات على ذلك.

وأقام عمر بن إدريس عاملاً لأخيه محمد على مكان بيده وبيد أخويه إلى أن توفي.

وعمر هذا هو جدّ الحموديين القائمين بالأندلس.

ولما توفي تخلف من الولد: علياً، وإدريس، وعبد الله.

وكانت وفاة محمد بن إدريس سنة إحدى وعشرين ومائتين.

وكانت ولايته ثمانية أعوام، وشهراً واحداً.

واستخلف ولده علياً من بعده.

دولة علي بن محمد بن إدريس بن عبد الله الحسني

بويع يوم وفاة أبيه باستخلافه إياه، فسار بسيرته في العدل والفضل والدين، وضبط الثغور، وكان الناس في أيامه في أمن ودعه إلى أن توفي في رجب سنة أربع وثلاثين ومائتين، وكانت أيامه نحواً من ثلاث عشرة سنة.

ووليّ بعده، ابن أخيه يحيى.

دولة يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس بن إدريس الحسني

ولما وليّ يحيى أساء السيرة، وخالف طريق سلفه، فدخل الحمام المقصور على النساء بسبب جميلة من اليهود، فأنكر الناس ذلك، وثاروا به مع عبد الرحمن بن أبي سهل الجذامي، واعتصم منهم بإحدى العدوتين عدوة الأندلس.

فذكر أنه مات في ليلته آسفاً على ما جناه على نفسه.

واستقلّ عبد الرحمن بالمدينة إلى أن تلاحق بها علي بن عمر بن إدريس من بلاد صنهاجة وغمارة، فدخل عدوة القرويين وملكها وخطب له بمنابر أعمال المغرب.

وانتقل الأمر عن بني محمد بن إدريس إلى بني عمهم عمر بن إدريس.

دولة علي بن عمر بن إدريس بن إدريس الحسني

وليّ بعد أخيه يحيى، فاستقام له الأمر إلى أن خرج عليه عبد الرزاق الفهري الخارجي بجبال مديونة/ وزحف بجمع كثير من البربر الصفرية إلى مدينة فاس، [١/٢٦٨] وخرج إليه الأمير علي بن عمر، والتقيا، فكان الظفر للخارجي.

وفرّ عمر إلى بلاد أوربة، ودخل الخارجي حتى مدينة فاس، فاستقر بعدوة الأندلسيين، وامتنعت منه العدوة الأخرى

وبعثوا إلى يحيى بن القاسم بن إدريس المعروف بالعدَّام[١].

فقاتل الخارجي، وأخرجه عن المدينة وتمّ له أمرها.

دولة العدَّام يحيى بن القاسم بن إدريس بن إدريس

واستقل العدَّام بملك فاس وما إليها، وقاتل الخارجي حتى أزعجه كما ذكر.

واستعمل ثعلبة بن محارب على عدوة الأندلسيين. وخرج إلى محاربة الصفريين، فكانت بينه وبينهم وقائع إلى أن اغتاله ربيع بن سليمان سنة اثنتين وسبعين ومائتين.

ووليّ مكانه ولد ابن عمه يحيى بن إدريس.

دولة يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس بن إدريس

توَلّى بعد قتل ابن عم أبيه العدَّام.

وكان يحيى بن إدريس هذا ملكاً جميلاً فصيحاً كريماً شجاعاً فاضلاً صالحاً، فلم يزل قائماً على ملك المغرب إلى أن قدم مصالة بن حبوس الكتامي قائد عبيد الله الشيعي سنة خمس وثلاثمائة.

فخرج يحيى بن إدريس مدافعاً له فهزمه مصالة وحاصره إلى أن صالحه على أخذ البيعة للشيعة، وارتحل عنهم إلى إفريقية بعد أن قدم مصالة بن حبوس أميراً، بتسول وبلاد تازة موسى بن أبي العافية المكناسي أميراً، ففسد ما بينه وبين يحيى بسبب مجاورته إياه بتخوم أرضه، فلما كَرَّ مصالة إلى المغرب ثانية سنة تسع وثلاثمائة، سعى ابن أبي العافية بيحيى بن إدريس عنده حتى ضاق صدره به وعزم على القبض عليه.

فلما قرب مصالة من المدينة خرج إليه يحيى بن إدريس مسلماً وملتقياً في جملة من أعيان العسكر، فقبض عليهم وأكبل يحيى، وأدخله المدينة، واستصفى أمواله.

ثم رحل عنهم وظفر به موسى بن أبي العافية مسيرة طويلة، ثم أطلقه فلحق بإفريقية.

ثم توفي على حال، مدة الفتنة الناشئة بأبي يزيد.

وقدم مصالة على مدينة فاس ريحاناً الكتامي من قواد، ثم رحل، فثار به الأمير الحسن بن محمد بن القسم.

---

(١) كذا في الأصل وربما كان صوابه العوام، وهي واضحة على الرسم الذي ذكرت بالموضعين بالمخطوط هنا وفي العنوان الذي بعده.

دولة الأمير الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس

الحسن هذا هو الملقب بالحجام إذ تكرر منه طعن جملة من الفرسان في موضع المحاجم، وفيه يقول:

وسميت حجَّاماً ولست بحاجم ولكن لطفي في مكان المحاجم

فملك المدينة ونفى عنها ريحان الكتامي واستقام أمره ونشأت بينه وبين موسى بن أبي العافية / الوحشة فأوقع به الحسن وقيعة كبيرة، وقفل إلى فاس منفرداً [٢٦٩/أ] عن جيشه لبعض ضرورته عازماً على العودة فغدر به عاملة عليها حامد بن حمدان، فقيّده وسدّ أبواب المدينة عن العسكر، وبعث إلى موسى بن أبي العافية يستحثه في المبادرة إلى فاس، فأسرع نحوه، وتغلب على المدينة، وطالب حامد بن حمدان بالتمكين من الحسن فدافعه عن ذلك وصرفه، وقد بدا له في أمره، فلما جنّ الليل أطلقه من قيده، وأنزله من أعلى السور سور المدينة فسقط الحسن إلى الأرض وانكسرت رجله ومات لثلاثة أيام من ليلته.

وقيل: قتله ابن أبي العافية.

وكانت دولته نحو عامين.

ذكر شيء من أخبار ابن أبي العافية

وهو موسى بن أبي العافية بن أبي ياسيل بن الضحاك بن تامريس بن إدريس بن وليف بن مكناس بن سطيف المكناسي ملك بلاد تازي، وتسول، وأماي، وفاس، وحاسة، وطنجة، والبصرة، وكثير من أعمال المغرب وبايعته القبائل والأشياخ.

ولما ملك فاس أجلى الأدارسة عن بلادهم، وأخرجهم عن ديارهم وملك أصيلة وشالة وغيرها من بلاد بني إدريس ولجأ جلّهم إلى قلعة حجر النسر التي ابتناها إبراهيم بن محمد بن القاسم، ونازلهم موسى عازماً على استئصالهم.

ثم رجع إلى فاس سنة تسع عشرة وثلاثمائة.

ثم ارتحل إلى تلمسان، فملكها وملك مديونة وجراوة، وكانت تحت يد الحسن بن أبي العيش عيسى بن إدريس الحسني.

وفرّ الحسن فاعتصم بمدينة مليلية وجزائر ملوية.

ثم إن موسى بن أبي العافية بدا له في دعوة الشيعة فعدل عنها وتابع عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله من بني أمية.

ولمّا اتصل الخبر بعبيد الله المهدي إمام الشيعة، جهز إليه جيشه مع حميد بن

تيسيل الكتامي، وكان اللقاء بفحص مسون.

وانهزم موسى أمامه، فتحصن ببلاد تسول وقصد حميد مدينة فاس فدخلها ثم عادت إلى ملك موسى بن أبي العافية بعد قفول حميد بن تيسيل إلى إفريقية إلى أن قدم ميسور الفتى قائد القائم بن عبيد الله الشيعي.

فملك فاس، واتبع موسى بن أبي العافية حتى أجلاه إلى الصحراء، وظاهر الباقون بقلعة حجر النسر من الأدارسة على حرب موسى بن أبي العافية، وتملكوا أكثر البلاد التي كانت بيده.

ولم يزل موسى بن أبي العافية شريداً في أطراف البلاد إلى أن قتل ببعض بلاد ملوية في سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة.

ووليّ بعده ولده.

إبراهيم.

بالبلاد التي كانت مستمسكة بطاعته وهي أجريسف، ونكور إلى سنة خمسين وثلاثمائة.

ثم وليّ بعده ابنه:

عبد الله بن إبراهيم بن موسى

إلى أن توفي سنة ستين.

فوليّ ابنه:

محمد

ثم توفي.

ووليّ بعده ابنه:

القاسم بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن موسى بن أبي العافية

وكانت بينه وبين ملوك لمتونة حرب أجلت عن هلاك القاسم.

واستؤصلت بعده بلادهم وقطعت شأفتهم، وكانت مدتهم ما بين موسى والقاسم مائة وأربعين سنة.

رجع الحديث إلى الأدارسة

ولما سافر موسى أمام جيوش الشيعة إلى الصحراء صارت الرئاسة بالمغرب

لبني محمد بن القاسم بن إدريس الحسني وكبارهم، إذ ذاك الأخوان الشقيقان قنون، وإبراهيم، فتقدم منهما قنون:

دولة قنون بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس

قدمه بنو إدريس على جميعهم بعد فرار ابن أبي العافية عنهم.

وكانت سكناه بالقلعة المعروفة بحجر النسر واسمه القاسم، وقنون لقب له.

فأقام على ما بيده إلى أن توفي سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة.

وولي بعده أبو العيش أحمد.

دولة أبي العيش أحمد بن القاسم قنون بن محمد

وكان فاضلاً عالماً حافظاً للسير والتاريخ، شجاعاً كريماً. وخطب بدعوة عبد الرحمن الناصر من بني أمية في جميع عمله في مدينة بني داود، والبصرة، وأصيلا، وطنجة، وسبتة، وما إلى ذلك.

إلى أن انتزع الناصر سبتة وطنجة، فتملكهما، واستولى على أقطار العدوة.

وضعف أمر أبي العيش فأبقى على نفسه واستأذن الناصر في الجهاد، فأذن له، وتلقاه بالكرامة، وأجمل الوفادة؛ بحيث أمر أن يبنى له بكل منزل يحله بين الجزيرة إلى الثغر، وكان يُجرى عليه ضيافته في كل يوم ألف دينار.

وكان قدوم أبي العيش على الأندلس مجاهداً في أخريات سنة ست وأربعين وثلاثمائة، بعد أن استخلف على ما بيده أخاه الحسن بن قنون.

ولما اتصل بصاحب الشيعة تغلب الناصر لدين الله على أقطار المغرب، وانكاث دعوته به، بعث قائده جوهر الروس في جيش عظيم اجتمع على عشرين ألفاً من قبائل صنهاجة، وكتامة، وتلكاتة، فخرج إلى القيروان سنة سبع وأربعين، وهزم قبائل زناتة وفرّق جموعها، وقتل يعلى اليفرني.

وقصد سجلماسة، فدخلها عنوة ونازل مدينة فاس وحاصرها حتى فتحها غلاباً، وقبض على أميرها من قِبل الناصر الأموي وسباها، وهدم أسوارها يوم الخميس الموفي عشرين لرمضان سنة/ ثمان وأربعين وثلاثمائة. [٢٦٩/ب]

ثم قفل إلى سلطانه مَعَدّ بعد أن عاث في تدويخ المغرب وفتحه وقتل، وولي المروانية به ثلاثين شهر.

وكان وصوله إلى المهدية سنة تسع وأربعين وثلاثمائة، وقد احتمل أسرى الأمراء في أقفاص الخشب على الجمال.

وبلغ من العز والظهور ما لا شيء فوقه، والعز والحق لله.

رجع الحديث

وفي أثناء ما ذكر كان الحسن بن قنون الحسن المخلف بعد أخيه المنصرف إلى الجهاد قبله أصيلاً، والقلعة مستمسكاً بدعوة الناصر، ثم بدعوة ولده اضطراراً.

فكان ملك الحسن إلى هذا العهد راجعاً إليه من بعد أخيه أبي العيش، وهو آخر ملوك الأدارسة بالمغرب.

واتصلت مشايعته للمروانية، وتمسك بدعوتهم إلى أن وليّ أمر إفريقية بلقين بن زيري بن مناد الصنهاجي، فتحرك إلى المغرب حركته الشهيرة التي استأصل فيها ملوك زناتة، وقطع دعوة بني أمية من المغرب، وقتل أولياءهم وأخذ البيعة لمعد بن إسماعيل، كما فعل جوهر قبله.

وكان الحسن بن قنون هذا أول من سارع إلى بيعة الشيعة ونصرة بلقين.

ولما قفل بلقين إلى إفريقية رجع الحاكم المستنصر الأموي بموجدته وحنقه على الحسن بن قنون صاحب البصرة.

فوجه إليه قائده محمد بن القاسم في جيش عظيم وعدة كاملة في ربيع الأول من سنة اثنتين وستين وثلاثمائة.

وزحف الحسن إلى لقائه في قبائل البربر، فالتقى الجمعان بأحواز طنجة، وكانت الهزيمة على جيش الحكم، فقتل قائده، ووجوه أصحابه، وتحصن من نجا منهم بسبتة، واستغاثوا بالحكم، فوجه غالباً مولاه صاحب الثغر، وأطلق يده في الجيش والمال.

واتصل خبره بالحسن، فأخلى مدينة البصرة وتحصن بقلعة النسر، ونازله غالب وقطع عنه المواد. واشتد الحصار على الحسن فطلب الأمان لنفسه ورجاله على التوجه مع غالب إلى قرطبة.

فتم ذلك، واستنزل جميع الحسنيين من بلاد المغرب، واستقروا تحت حكم غالب، واستقامت الدعوة الحكمية الأموية بالمغرب.

وكان دخول العلويين بصحبة غالب إلى قرطبة أول المحرم مفتتح سنة أربع وستين وثلاثمائة. وعفا عنه الحكم، ووفَّى الحسن بعهده، وأوسع له ولرجاله في العطاء وكانوا سبعمائة من الشجعان.

واستمرت سكناه في جوار الحكم وتحت برّه إلى سنة خمس وستين وثلاثمائة.

ثم ساء ما بين الحسن بن قنون، وبين الحكم المستنصر بسبب قطعة عنبر كانت

للحسن وتسمى المسوَّرة يتوسد عليها، بلغ الحكم خبرها فسأله إياها على أن يرضيه عنها بحكمه.

فأنف من ذلك بجهله، فعظمت الوحشة إلى أن انتهت به إلى أن نكبه الحكم وأخذ/ أمواله وذخيرته ومن جملتها تلك العنبرة، إلى أن قضى الله تعالى برجوع [٢٧٠/أ] الخلافة إلى ابن عمه علي بن حمود، فألقى تلك العنبرة في خزائن بني أمية، فاستردها، وأجلى الحكم الحسن بن قنون عن الأندلس في البحر سنة خمسة وستين فلحق بنزار بن معد ملك الشيعة بمصر.

فأقبل عليه وكتب له عهده على المغرب، وأمر من بإفريقية بإعانته بالجيش، فاقتحم المغرب وسارعت إليه القبائل وشرع في إظهار دعوته على عهد هشام المؤيد محجوب بن أبي عامر.

فبعث إليه ابن عمه أبا الحكم عمر بن عبد الله في جيش كثيف، فأحاط بالحسن وحاصره واستمد المنصور، فأمده بولده عبد الله. ولما يئس الحسن التمس الأمان لنفسه على شرط اللحاق بالأندلس كحالته الأولى فتمّ ذلك له.

ولما بلغ خبر إجازته البحر فسخ المنصور أمان ابن عمه، وأنفذ من قتل حسن بن قنون في طريقه، وأوصل رأسه إليه، وذلك في جمادى الأولى سنة خمس وسبعين وثلاثمائة.

فكانت دولة الحسن الأولى ست عشرة سنة، والثانية سنة وتسعة أشهر.

وركضت ريح العلوية بالمغرب وكان من بقي منهم بقرطبة في ديوان السلطان جارين مجرى المغاربة إلى أن كانت الفتنة التي أجلت عن انقراض دولة بني أمية وتصيير الأمر بالأندلس إلى هؤلاء الأدارسة برهة حسبما تقدم ذكره.

وكانت مدة ملكهم ما بين إدريس إلى الحسن بن قنون مائتين سنة واثنتين وستين وخمسة أشهر.

وكانوا بين لحيي أسد يكابدون دولتين عظيمتين من جهتيهما دولة الشيعة، ودولة الأموية، وكان سلطانهم إذا قوي امتد إلى تلمسان، وإذا اضطرب وانقبض اقتصر على معتصمهم بالجهة السبتية إلى أن ذهب منهم العين والأثر، وعدم الخَبَرُ وستغاده الخَبَرْ.

فسبحان من لا تُغَيِّرُهُ الغِيَر لا إله إلاّ هو.

ذكر ملوك لمتونة المُسَمَّيْنَ بالمرابطين

وهذه الطائفة صنهاجية تنتسب إلى صنهاج من ولد عبد شمس بن وائل بن حمير.

وتنقسم صنهاجة على سبعين قبيلة منهم: لمتونة، ومسوفة، وجدالة، ولمطة، وهم صحراويون.

وكان ابتداء أمرهم: أن لمتونة منهم كثرت في بلاد الصحراء، وبلغت مراحلهم فيها مسيرة شهرين في مثلها لا يعرفون حرثاً ولا ثمراً، إنما أموالهم الأنعام، وأقواتهم لحومها، وألبانها، وكانوا على السُنَّة والجماعة يجاهدون السودان. وكان أول ملوكهم الأمير يرلونان اللمتوني، وهو ملك عظيم دان لهم من ملوك السودان واتقوه بأداء الجزية أزيد من عشرين ملكاً، وكان يركب في مائة ألف نجيب/ [٢٧٠/ب] ووافقت أيامه أيام عبد الرحمن بن معاوية الداخل إلى الأندلس إلى أن توفي سنة اثنتين وعشرين ومائتين.

فوَلّي بعده حافدة:

يالتو بن بطي بن فيولوتان بن تيكان الصنهاجي

إلى أن توفي سنة سبع وثمانين ومائتين.

وكانت مدته خمساً وستين سنة.

ووَلّي بعده ولده:

تلين بن يالتين

فأقام أميراً على قبائل صنهاجة إلى سنة ست وثلاثمائة.

فقامت عليه القبائل الصنهاجية فقتلوه، وافترق أمرهم بعد، فلم يجتمع على أحد مدة مائة وعشرين سنة إلى أن قام بأمرهم:

محمد بن نيفات اللمطي

فكان رئيس لمتونة وأميرهم وهو من أهل الفضل والدين والحج والجهاد، فأقام

فيهم أميراً إلى أن استشهد في وقيعة بينه وبين السودان.

فوَلّي الأمر بعده:

يحيى بن إبراهيم الجدالي

وهو المشهور بين الناس، فأقام على رئاسة صنهاجة مدة.

ثم استخلف ولده:

إبراهيم بن يحيى

على رئاستهم، وحروبهم مع أعدائهم، وتوجه إلى المشرق، فلما حجّ وانصرف اجتمع بأبي عمران موسى ابن الحاج الفاسي، وجلس إليه وتعرف به، وأخبره ببلده وسيرة قومه، وأن يندبهم إلى من يقوم فيهم بشعائر الله ورغب منه في تعيين من يتوجه لهدايتهم وتبصيرهم. فوجد من الشيخ قبولاً، فخاطب بعض أصحابه بنفيس من بلاد المغرب المجاور الصحراء في هذا الغرض، ورغب منه ما شاركه يحيى فيه من ابتغاء الحسبة والمثوبة، وذلك في سنة خمس وأربعمائة ومائتين، فانتدب لذلك من فقهاء المغرب وطلبته وأهل الدين والفقه والتقوى: عبد الله بن ياسين الجزولي.

وخرج مع يحيى إلى بلاد جدالة، فسرّ به أهلها، وقام بحقه إلى أن ثقلت عليهم وطأته، وما أخذهم به من رفع المنكرات واجتناب المحظورات.

فارتحل عنهم صحبة يحيى بن إبراهيم إلى جزيرة من جزائر البحر الغربي برسم الانقطاع لله والسياحة، وصحبهما سبعة رجال من جدالة، ولم يكن أنيساً مع الناس لذلك، فعسّله الله لديهم وانثالوا عليه، فلم تمر عليه إلاّ أيام قليلة حتى اجتمع له نحو ألف رجل سماهم المرابطين إلى جهاد من خالفهم أمرهم أن يبثوا الأعذار والأنذار في قبائلهم سبعة أيام.

فلما يئس من إجابتهم شرع في الغزو، وقد بدأ بجدالة، فأوقع فيهم وقيعة، قتل منهم فيها ستة آلاف رجل، وأسلم باقيهم إسلاماً جديداً، وحسنت أحوالهم، وذلك في صفر سنة ست وأربعين وأربعمائة.

ثم غزا لمتونة ومسوفة، وقبائل صنهاجة حتى أذعن الجميع واستقامت/ السبل [١/٢٧٢] وقرىء القرآن وأديت الزكاة، وأقيمت الصلاة ثم أركب الجيوش، واستولى على بلاد الصحراء، واستتم أمره، فانثال عليه الناس.

وتوفي الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي.

فتقدم بعده:

يحيى بن عمر بن تلاكاكين اللمتوني

باختيار عبد الله بن ياسين، وكان يحيى رجلاً صالحاً شديد الانقياد لعبد الله بن ياسين، فاستولى على جميع بلاد الصحراء، وفتح الكثير من بلاد السودان.

ووردت على عبد الله وأميره المخاطبات من فقهاء سجلماسة، ودرعة يستدعونه لإقامة العدل ورفع ما ارتكبه أمراء زناتة من الجور.

فخرجوا من الصحراء في محرم سنة سبع وأربعين وأربعمائة فتغلبوا على درعة، وأتيح لهم الظهور على جيش بني أنودين وفتحوا سجلماسة، ثم قفلوا إلى الصحراء، وثار أهل سجلماسة، وبلاد سوس، وقاتل الرّوافض، وملك السوس بأسره.

ثم تملك بلاد المصامدة، وفتح بلاد أغماط، وتوطد له الملك بالصحراء، والسوس، وبلاد المصامدة.

ثم تملك بلاد تادلا، وتامسنا، سنة سبع وأربعين وأربعمائة.

واتصل بقبائل برغواطة وأميرهم يومئذٍ أبو حفص بن عبد الله، فأخلص فيهم الجهاد ورام التقرب إلى الله باستئصال كلمتهم فكانت بينه وبينهم ملاحم شديدة هلك فيها كثير من الفريقين.

وأصابت عبد الله بن ياسين سيد المرابطين جراح كثيرة فجمع أشياخ صنهاجة وبه رمق فقال لهم: يا معشر المرابطين، أنا ميت في يومي هذا، وأنتم في بلاد أعدائكم، فإياكم أن تحنثوا وتفشلوا وتذهب ريحكم، كونوا ألفة على الحق، إخواناً في الله، وإياكم والمخالفة والتحاسد على الدنيا، وإني ذاهب عنكم فانظروا من ترضونه لأمركم يقود جيوشكم ويغزو أعداءكم، ويقسم فيكم زكاتكم وأعشاركم.

فاتفق الرأي على الأمير أبي بكر الذي كان عبد الله قد اختاره لقيادة الجيوش تحت رأيه ونظره.

وتوفي عبد الله بن ياسين يوم الأحد رابع وعشرين من جمادى الأولى سنة إحدى وخمسين وأربعمائة.

وكان عبد الله رجلاً ورعاً سُنِّياً، ذكروا أنه غزا السودان في جيوش لمتونة ففقدوا الماء وأشرفوا على الهلاك.

فتوجه عبد الله بن ياسين ودعا وأمنوا على دعائه.

ثم قال: احتفروا تحت رجلي فحفروا، فألفوا الماء على مقدار شبر من الأرض، فشربوا واستقوا.

ولم يزل صائماً في بلادهم من يوم دخلها إلى أن توفي ولم يقتت إلاّ من لحوم الطير.

ذكر دولة أبي بكر بن عمر بن تلاكاكين اللمتوني

وأبو بكر كنيته غالبة على اسمه ابن عمر بن تلاكاكين بن ترحوت بن زرياط اللمتوني.

ولما فرغ من مواراة عبد الله بن ياسين عبأ العساكر الصحراوية، وقصد إلى قتال برغواطة فاستأصلهم فتكاً وداس بلادهم، وفرّق جموعهم، وقسم بين المرابطين غنائمهم، وأسلم من أفلت من القتل إسلاماً جديداً.

ثم رجع إلى أغمات وتحرك إلى بلاد المغرب، فتح بلاد فازاز، ولواتة، ومدائن مكناسة، وماناتة، وملك هذه البلاد يومئذٍ المهدي بن يوسف بن توالي، فجرت عليه الهزيمة إلى أن التقى الأمير أبا بكر بالطاعة.

وإلى هذا العهد وهو سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة بلغة اختلال أحوال الصحراء ووقوع الفتن بين قبائل قومه، وكان صالحاً ورعاً فأشفق من ذلك وعزم على القفول إلى الصحراء، فارتحل إلى سجلماسة وأقام بها أياماً حتى عزم على الرحيل دعا بابن عمه الأمير يوسف بن تاشفين اللمتوني قائده على الجيوش ففوض إليه أمر المغرب وأمره بالرجوع إلى قتال من به من زناتة وانصرف لوجهته.

وزحف يوسف بن تاشفين بمن بقي معه من الجيش إلى المغرب، فغلب على أكثر بلاده وضخم أمره، واستفحل ملكه.

فلما قضى الأمير أبو بكر من اصلاح أمور الصحراء وجهاد السودان، اتصل به ما تأتى لابن عمه يوسف من الملك، واتسق له من الفتح، فبدأ له في أمره، فأقبل من الصحراء لاسترجاع أمره، واستشار يوسف بن تاشفين زوجه زينب التي اشترى بها سعادته، واستقامت بأمرها أموره.

فقالت له: إن الأمير أبا بكر رجل ورع لا يهون عليه سفك الدماء ولا تسهل عليه الفتنة، فإذا لاقيته فلاطفه بالأموال والطعام والكساء، فذاك كله معدوم ببلاد الصحراء، وقصر عما كان يعهده منك من التنزل له، وأظهر المساواة والمقاومة حتى يعرف غرضك، ففعل.

فلما قرب الأمير أبو بكر من عمل يوسف، تلقاه راكباً لم ينزل له، وعامله معاملة مختصرة واستظهر من جيوشه بما هاله عدده، وقال له: ما تصنع بهذه الجيوش يا يوسف؟

فقال: أستعين بها على من خالفني، ونظر إلى بعير موقورة خلفه.

فقال: وما هذه الإبل؟

فقال له: جئتك بها بكل ما عندي من مال وكساء وطعام لتستعين به على الصحراء.

فعرف قصده في استمساكه بالأمر، وتورع عن هياجه، وقعد معه على الأرض.

وقال له: يا يوسف، اتَّقِ الله في المسلمين، ولا تضيع شيئاً من أمورهم، فإنك مسؤول عنهم، والله خليفتي عليك وعليهم.

ثم وَلّى إلى الصحراء فكان آخر العهدية، وقتل شهيداً في بعض حروب السودان بسهم مسموم في شعبان سنة ثمانين وأربعمائة.

دولة يوسف بن تاشفين بن إبراهيم اللمتوني

وهو يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن تومرت بن ورتاقط بن منصور بن مصالة بن منصور بن أمية بن وانصال.

من تليت اللمتوني الصنهاجي الحميري.

وكان رجلاً خيراً، عادلاً، صالحاً، شجاعاً، مرابطاً، مجاهداً، أيمن الناس نقيبة، وأسعدهم ولاية، وألزمهم نصراً لم يغير حاله من لباس الصوف، وأكل يغير حاله من لباس الصوف، وأكل الشعير والائتدام من الإبل عمره، مع ما فتح الله عليه من الدنيا.

فقد خطب له في بلاد المغرب على نحو ألفي منبر ولم ينعقد بايالته ما بين الأندلس والعدوة إلى جبال الذهب ببلاد السودان مكس ولا قرر جور، وكان محباً في العلماء، مكرماً للصلحاء، محافظاً على الدين، مستشعراً للتقوى.

ولما قفل الأمير أبو بكر إلى الصحراء، تحرك بعد أن جدد البيعة على قبائل صنهاجة واعترضهم بوادي ملوية فكانوا أربعين ألفاً عقدهم على أربعة من القواد، وهم: محمد بن تميم الجدالي، وعمر بن سليمان المسوفي، ومزدالي التلكاتي، وسير بن أبي اللمتوني، فغزا قبائل زناتة حتى أثخن فيهم، واقتضى طاعتهم ثم بنى مدينة مراكش فاستوطنها الناس بعد أن تملك أرضها بالشراء.

وفي سنة أربع وخمسين بعد أن تمدن وسكن المدينة، واتخذ أبهة الملك، وجنّد الأجناد، واستكثر القواد، واتخذ الطبول والبنود، واستركب الأغزاز والرماة والروم.

وزحف إلى أحواز فاس، وهزم القبائل، ونازل فاس، وفرّ عنها معنصر بن حماد المغراوي، ففتحها، ثم بايعه أهل مكناسة وأميرهم المهدي بن يوسف الحزناتي.

وحاصر قلعة مهدي تسع سنين، وفتح فاس الفتح الثاني بعد قيام أهلها عليه وخلها عنوة بالسيف، وقتل أهلها، فبلغ عدد من قتل بمسجد القرويين سبعة آلاف نسمة، من جملة ثلاث وأربعين ألفاً، واستولى على أرض المغرب.

واستدعاه إلى الجهاد المعتمد بن عباد بالأندلس وقد تملك العدو، بها مدينة قورية، ومدينة طليطلة.

فصرف عزمه إلى سبتة، وبها سقوت البرغواطي، فقتله، واستولى على سبتة وأمكنه الجواز.

وتعرف الفنش صاحب قشتالة، عزم ملوك الأندلس على استصراخ يوسف بن تاشفين، فتحرك يشق الأندلس شقاً لا يمرّ بشيء إلاّ حطمه حتى بلغ ساحل البحر، وكتب إلى الأمير يوسف بن تاشفين ما نصه:

من أمير النصرانية أدفونش بن فردلند، إلى يوسف بن تاشفين أما بعد:

فإنك اليوم أمير المسلمين ببلاد المغرب، وسلطانهم، وأهل الأندلس قد ضعفوا عن مقاومتي ومقاتلتي، وقد أذللتهم بأخذ الجزية منهم وبالقتل والأسر والذل والقهر، وأنا لا أقنع إلاّ بأخذ البلاد، وقد وجب عليك نصرهم لأنهم أهل ملتك، فإما أن تجوز إليّ، وإما أن ترسل إليّ المراكب / أجوز إليك، فإن غلبتني كان ملك [٢٧٢/ب] الأندلس والمغرب إليك، وإن غلبتك انقطع طمع الأندلس من نصرك إياهم، فإن نفوسهم متعلقة بنصرتك لهم.

فلما وصل إليه كتابه أمر أن يكتب له على ظهر كتابه:

من أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، إلى أدفونش، أما بعد:

فإن الجواب ما تراه بعينك لا ما تسمعه بأذنك، (والسلام على من اتّبع الهدى).

وأردف الكاتب بيت أبي الطيب:

ولا كُتْبَ إلاّ المشرفِيَّةُ والقنا ولا رسل إلاّ الخمس العرمرم

وقد ثبت في كلام الأدفونش إليه من بعض التواريخ كلام أطول من هذا، ومعناه ما ذكر.

وأجاز البحر إلى الجهاد، واحتل الجزيرة الخضراء في شهر ربيع الأول من هذه السنة وخاصته.

ثم رحل من الجزيرة، وكتب إلى رؤساء الأندلس يحضّهم على اللحاق به، فلحق به عبد الله بن تلقين صاحب غرناطة، وأخوه تميم صاحب مالقة، وابن الأفطس صاحب بطليوس.

وجد ملك قشتالة في الحشد برستاق جليقية وأصلهم قشتالة، وانتخب أهل البأس والبسالة، ونزل بإزاء بطليوس وتحرك المسلمون فنزلوا بإزائه.

وتواعد الفريقان القتال في يوم الاثنين من شهر رجب سنة تسع وسبعين لاعذار اقتضت ذلك.

ولما سكن الناس إلى هذا الوعد كادهم العدو بالمعاجلة سحر يوم الجمعة قبله، وهو منتصف رجب المذكور.

وكانت محلات المسلمين من أهل الأندلس قد أضربت بإزاء محلات النصارى، ومحلات الأمير يوسف على أميال منها فيما وراءهم. فأقبلت طلائع ابن عباد سحر اليوم المذكور والروم في أذيالها، فبادر الركوب على غير أهبة ولا تعبئة، وقد غشيت خيل العدو، فغمرت ابن عباد ومن معه، وحملتهم في صدورها، وصرع ابن عباد، وأصابته جراحة في يده، وبودر إليه في جواده ركبه وسلم من الملحمة، وأسلمت المحلات.

وطار الخبر إلى يوسف، فركب فيمن لديه، وأشير عليه بالانحراف عن مجرى ميل العدو، والقصد إلى محلاته، ففعل، واقتحمها، وقد قرعت الأسماع طبوله، وقصد صاحب قشتالة محلته أيضاً، ثم كَرّ إلى محلته، ولم تزل الكرات بين المحلات تتعاقب، والهجمات سجالاً تدول، والحرب تدور.

وأمر الأمير يوسف العبيد فترجلوا عن الخيل في نحو ألف ودخلوا المعركة بالمزارق لعجز السلام عن الخيل الدارعة، فأثرت فيها بالطعن، وجعلت ترمح بفرسانها، ولصق منهم بالأدفونش عبدٌ قبض على عنانه، وضربه بخنجر في خده هتك درعه وشكّ في خده بعد أن تحوز سرجه.

وحان وقت الزوال من اليوم والحرب قائمة، وقد اختلطت عائم المرابطين ببيضات الروم، وحميت نفوس المسلمين / وتراجع المنهزمون منهم، وصدقت [١/٢٧٣] الحملات على الأدفونش بحيث أخرجوه عن محلته، وخالطوه بحيث لا يجد الرمح مداراً، ولا الفرس مجالاً، فأفرج الروم، وأعطوا أعناقهم، ولجأوا إلى ربوة هناك، وتوعرت مرقباً، وأحدقت بهم الخيل والرجل، واستوعب محلاتهم النهب، واستولى على من فيها القتل، وأحاط بهم المسلمون.

ولما جَنّ الليل، تسللوا من تلك الربوة، وتسرب فلّهم، فجد الأمير يوسف في اتباعهم، ثم آثر الاحتياط فنزل ونزل الناس، وقد حطم الله شوكة العدو الكافر، ونصر المسلمين وأجزل لديهم نِعَمَهُ، وأظهر بهم عنايته، وأجمل لديهم صنعه.

وأمر ابن عباد بضم رؤوس القتلى فبلغت نحو من تسعة آلاف رأس من الروم،

واتخذت منها صوامع أذن فوقها المؤذن.

وطير ابن عباد الحمام إلى ابنه الرشيد بإشبيلية فعرفه بما صنع الله، فاتصل به الخبر ليومه، وكان نصه:

كتبته وقد أعز الله الدين بهزيمة أدفونش أصلاه الله - إن كان طاح - الجحيم ولا أعدمه - إن كان قد أمهله - العيش الذميم، وقد أتى القتل على أكابر الرجال وحماته، والنهب على سائر محلاته، وحضر لدى من رؤوس النصارى - ولم يحتز منها إلاّ ما يقرب - ما اتخذ الناس منها صوامع يؤذنون عليها، ويشكرون الله على ما صنع فيها، ولم يصبني بحمد الله إلاّ جراح أشوى، وعنت حسن الحال عندي وزكي، فلا تشغلن بذلك ولا تتوهم غير الحالة التي أشرت إليها وحال أدفونش إن لم يطح تحت السيف بدداً فسيموت لا محالة أسفاً وكمداً، فإذا ورد كتابي هذا فمُر بجمع العوام والخواص من أهل إشبيلية في المسجد الجامع، وليقرأ عليهم فيه، والحمد لله على ما صنع حقَّ حمده، وهو الذي لا يرتجى المزيد إلاّ عنده.

وهذا المقدار هو الذي يسع في شرح هذه الكائنة. وفي ذلك يقول عبد الجليل بن وهبون قصيدة طويلة:

فأين العُجْبُ يا أذْفَنْشَ هَلاّ ... تجنبت المشيخَةَ يا غُلامُ؟
ستسألُك النساء والرجال ... فَخَبِّر ما وراءك يا عصام
أقمت لدى الوغى سوقاً فخذها ... مناجزة وهون ما يسام
فإن شئت اللُّجين فثم سام ... وإن شئت النضار فثم حام
أنام رجالك الأشقون؟ كلاّ ... وهل يُلقى بلا رأس منام؟
رأيت الضرب تصليباً فَصَلِّب ... فأنت على صليبك لا تُلام
رفعنا هامهم في كل جذع ... كما ارتفعت على الأيك الحمام
/ سيعبد بعدها الظلماء لمَّا ... أُتيح له بجانبها اكتتام [٢٧٣/ب]
ولا ينفك كالخفاش يخفي ... إذا ما لم يباشره الظلام
نضا أدراعه وجتاب ليلاً ... يَوَدُّ لو أن طول الليل عام
سيفنى حسرة ويبيدهما ... تخطته القناة الخسام

ومنها يقول يمدح يوسف الأمير:

فثار إلى الطعان حليف صدق ... تثور به الحفيظة والذمام
فيوسف يوسف إذ أنت منه ... كبا بَزْلاً وما لكما نظام
نهجت لسيله نهجاً فوافى ... وفي آذانه الطامي غرام

فَهِيلَ به كثيب الكفر هِيلاً وكان رفيقه منه زُكَام
وصاروا فوق ظهر الأرض أرضاً كأن وهادها منه رُكَام
عديد لا يشارفه سحاب ولا يحوي جماعته زمام
تألفت الوحوش عليه شتى فما نقص الشراب ولا الطعام
فإن ينج اللعين فلا كَحُرّ ولكن مثل ما ينجو اللئام

وفي جرح يد المعتمد بن عباد يقول عباد الشاعر:

وقالوا: كفُّهُ جُرِحَتْ فقلنا: أعاديه تُواقعها الجراح؟
وما أثر الجراح ما رأيتم فترهبها المناصل والرماح
ولكن فاض سيل البأس منها ففيها من مجاريه انسياحُ

فلمّا قضى هذه الغزاة قفل إلى المغرب في سنة ثمانين وأربعمائة، وشيعه ابن عباد إلى الجزيرة.

ثم ألحّ عليه في العودة إلى الأندلس شاكياً إليه أضرار العدو بحصن اليط، فعبر البحر سنة إحدى وثمانين، ونازل حصن اليط، واصطنع الروم بضبطه وقصر المسلمون في قتاله، وشرع الطاغية في أصراخ أهله فاقتضى الرأي الاقلاع عنه.

وكثر بين الأمير يوسف وبين رؤساء الأندلس السعايات حتى غرّ صدره عليهم وأعمل النظر في خلعهم، واقتضى الفتيا بأن إعفاءهم والإبقاء عليهم لا يتوصل معه إلى واجب الجهاد.

فتحرك الحركة الثالثة في سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة، وأجاز البحر ويمّم قرطبة / فاحتلها في جمادى الأولى من العام. [٢٧٤/أ]

فبدأ منهم بعبيد الله بن بلقين صاحب غرناطة، فاستولى على ملكه، وملك أخيه بمالقة في سنة أربع وثمانين، واحتل بسبتة.

وشرع في إجازة العساكر إلى الخضراء.

فقدم ابن عمه سير بن أبي بكر على محاضرة ابن عباد بإشبيلية.

ومحمد ابن الحاج برقادة، وأمره بمنازلة المأمون بن المعتمد بقرطبة.

وقدم يحيى بن واسيو على منازلة ابن صمادح بالمرية.

وقدم عزوز الحشمي من قواده على ملك بني الأفطس.

وأخباره رحمه الله إن استقصيناها يضيق بها الكتاب.

ومن بعد وقيعة الزلاقة تسمى بأمير المسلمين، وكانت أيامه حسنة، وسيرته

جملة، وخاطب المستظهر بالله الخليفة العباسي، فوصله تقديمه على بلاد المغرب، والأندلس، وأمره بخلع ثوارها.

وتوفي رحمه الله بمراكش وعمره مائة سنة حسبما نقله ابن قنباجة، وابن الصيرفي وغيرهم في مستهل المحرم سنة خمسمائة.

ووَلّي الأمر بعده ولده: علي بن يوسف.

دولة الأمير علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني

وكان علي رحمه الله ملكاً كبيراً فاضلاً معتدلاً عظم في أيامه الملك، واتسق العز، وملك جميع المغرب إلى بجاية، إلى الأرض الأندلسية، والجزر الجوفية، وبلاد القبلة بأسرها، وخطب له على أكثر من ألفي منبر.

وسلك طريق أبيه في أموره كلها، وامتنع عليه ابن أخيه يحيى بمدينة فاس. ثم انقاد له فاستقام أمره.

وكانت له على الروم وقائع كبيرة منها: وقيعة أقليج، قتل فيها ولد الطاغية أدفونش، وكانت ثانية الزلاقة.

وجاز إلى الأندلس برسم الجهاد ففتح مدينة طلبيرة عنوة، ودخل جملة من حصون طليطلة وحاصر مدينة طليطلة شهراً.

وفي أيامه كانت الوقيعة الشهيرة التي أوقعها المسلمون بابن ردمير الطاغية. وقد حاصر مدينة أفراغة وبها القائد سعد بن مردنيش قد استغاث المسلمين وأشرفت المدينة على الهلاك ومن فيها.

فتحرك بالميرة الزبير بن عمر، وابن غانية، فكانت من جملة الميرة ألف بعير تحمل الدقيق إلى غير ذلك من المرافق، وعدد القتال، وبرز العدو لمدافعتهم. ثم ناشبهم القتال، اتصلت الميرة بالمدينة، وتحقق الناس ذلك بالعلامة المرقوبة، فقويت نفوسهم، وقاتلوا العدو قتال الموت، وخرج أهل المدينة فيمن يليهم، فكانت الهزيمة الشهيرة التي حفظت رمق الأندلس مدة.

وفي أيامه استولى العدو على / ميورقة. [٢٧٤/ب]

وفي سنة أربع عشرة وخمسمائة من أيام علي بن تاشفين ظهر المهدي الذي قيّضه الله إلى محو دولتهم، وتغيير نعمهم، فشغل عن الجهاد بسببه، ولم يزل به جهد جهيد وكرب شديد إلى أن كان من أمره وحديث استيلائه ما هو معروف.

وتوفي الأمير علي بن يوسف رحمه الله في شهر رجب، وقيل: شهر رمضان من سنة سبع وثلاثين وخمسمائة، فكان عمره نحواً من ستين سنة.

ووَلّي بعده الأمر تاشفين بن علي.

دولة تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين

وكان تاشفين قد ولّى أبوه الأندلس، وأسكنه غرناطة، وكان بطلاً شجاعاً، جميل الهيئة، سالكاً طريق الشريعة، مستقيم الأحوال، عظيم العفاف، لم يشرب مسكراً، ولا استعمل أهواء، ولا تلبس بشيء مما تلبس به الملوك. ورزقه الله عزّ وجلّ من الظهور على العدو، وتوفيق الرأي في حربه، فهزم الجيش، وفتح الحصون، ولم يظهر إلاّ طاهراً، ولا صدر إلاّ ظافراً.

قال ابن الصيرفي:

وفي سنة سبع وعشرين اتصل بالأمير تاشفين أن عظماء الروم قصدوا ناحية بطليوس، وباجة، ويابرة، والصقع الغربي، ودخلوا بلاداً كانت لا تراع، فجاسوا خلالها، وانثنوا على مهل الشغل السيقة، فثنى الأمير تاشفين الأعنة، وأمر الإدلاء أن يتحشموا به كل ذروة وثنية، رجاء في لحاقهم فجد السير والسياق إلى فلاة بقرب الزلاقة موضع الوقيعة المتقدمة ولا محيد للعدو عنه.

وأقبلت الطلائع منذرة باقتراب العدو، فلما تراءى الجمعان، وثبت المراكب، وأخذت مصافها، وأقيمت الرجال فلزمت مراكزها. فكان في القلب مع الأمير تاشفين وجوه المرابطين وأصحاب الطاعات والبنود البيض الباسقات، مكتتبة بالآيات، وفي الجانبين الكفاة والحماة من أبطال الأندلسيين، وادمار المجاهدين عليهم حمر الرايات بالصور الهائلات، وفي الجناحين أهل الثغر، وذوو الجلادة والصبر، وفي المقدمة مشاهير زناتة ولفيف الحشم بالرايات المصبغة والأعلام المنيقة فهزم الروم واستنقذ الأسرى.

وصدر إلى غرناطة في جمادى الأولى سنة ثمانٍ وعشرين وخمسمائة.

وفي ذلك يقول كاتبه أبو بكر بن الصيرفي قصيدة أولها:

أما وبيض الهند عنك خصوم فالروم تبذل ما ظباك تروم

خضعت ملوك الروم في تيجانها لا غزو قام بتاجه التعميم

قال ابن الصيرفي يصف ثبات تاشفين رحمه الله ليلة بياتة العدو بفحص البكار:

[١/٢٧٥] وفرّ/ الناس عنه وأسلمته المحلة، وقصد العدو مضرب الأمير تاشفين، وقد قرب فرسه لينجو عليه فانتهر سائسة، فقال:

لا أسْلَمَ وأُسَلِّمُ الأمة، ولا أبرح أو تنجلي عما انجلت هذه الغمرة.

فأحدق به عبيده ورجال من أهل الأندلس وأفذاذ من المرابطين لم يتم الجمع

أربعين، فاعترضوا بينه وبين الروم، فوقع الضرب واشتدت الحرب، والأمير تاشفين قائم بسيفه، ودرقته بين يديه، فلم يرَ أربط جأشاً ولا أشهم نفساً منه ولا تحدث عن أحد بما ظهر منه في مطلع ذلك الهول، وتفاقم الأمر، وقد هُتكت خيوله بالطعن وحدت أواصيها بالضرب، وطعن أحد عبيده قومس الروم، فأخرج الرمح من وراء ظهره، وأسقطه على سرجه، فكانت المحاجزة وانصدع الفجر، ولولا قدر الله بثبوت الأمير لكانت الفضيحة والآزفة التي ليس لها كاشفة.

وفي ذلك يقول أبو بكر الصيرفي كاتبه يمدحه، وينظم له سياسة الحروب ويحذره من حيلها ويعتب القبائل التي أسلمت تاشفين ليلتئذٍ:

يا أيها الملأ الذي يتقنع ... من منكم البطل الهُمام الأورع؟
ومن الذي غدر العدو به دجاً ... فانفض كُلٌّ وهو لا يتزعزع؟
تمضي الفوارس والطعان تصدها ... عنه ويدعوها الوفاء فترجع
والليل من وضح الترائك بينهم ... صُبح على هام الكُماةِ مُلَمَّع
لولا رجال كالجبال تعرضت ... ما كان ذاك السيل من لا يُوَدَّع
يتقحمون على الرماح كأنهم ... إبل عطاش والأسنة مكرع
ومن الدجى لمم على قمم الرُبى ... ودوابه بين الظُبا تتقطع
يَثْبُتُ والأقدام تزلق بالرَّدا ... حول السرادق والأسنة تُقْرَع
لا يعظمن على الأمير فإنها ... خدع الحروب وكل حرب تخدع
وبكل يوم حنكة وتمرس ... وتجارب في مثل نفسك تنجع
يا أشجع الأبطال ليلة أمسه ... واليوم أنت مع التجارب أشجع
أهديك من أدب الوغى حِكَماً بها ... كانت ملوك الحرب مثلك تولع
لا أنني أدرى بها لا كِنَّها ... ذكرى تخصّ المؤمنين وتنفع
خندق عليك إذا ضربت محلَّة ... سيّان تتبع ظاهراً أو تُتْبَع
/ وتوق من كذب الطلائع إنه ... لا رأي للمكذوب فيما يصنع [٢٧٥/ب]
فإذا احترست بذاك لم يكُ للعدى ... في فرصة أو في انتهاز مطمع
حارب بمن يخشى عقابك بالذي ... يخشى وهو في جود كفك يطمع
قبل التهارش عبّ جيشك مفسحاً ... حيث التمكن والمجال الأوسع
إياك تعبئة الجيوش مضيقاً ... والخيل تفحص بالرجال وتمزع
حصن حواشيها وكن في قلبها ... واجعل أمامك منهم من يشجع

وألبس لبوساً لا يكون مَشَهَّراً ... فيكون نحوك للعدو تطلع

واخل التوقع في مدافعة الوغى ... خدعاً توق بها وأنت مُوَسَّعُ

واحذر كمين الروم عند لقائها ... وامضي كمينك خلفها إذ تدفع

لا تبقين النهر خلفك عندما ... تلقى العدو فشرّه متوقع

واجعل مناجزة العدو عشية ... ووراءك الهدف الذي هو أمنع

واصدمه أول وهلةٍ لا ترتدع ... بعد التقدم فالنكوض يضعضع

وإذا تكنفه الرجال بمعرك ... ضنك فأطراف الرماح توسع

حتى إذا استعصت عليك ولم يكن ... إلاّ شماس دائم وتمتع

ورأيت نار الحرب تُضْرَمُ بالظُّبَا ... ودُخانه فوق الدُّجُنَّة يطلع

ثم اتّئد بجميع من أحملته ... حتى يكون له المحل الأرفع

ونراك تعتب أن تولت عصبة ... كانت تُرَفَّعُ للدعاء وترفع

من معشر إعراض وجهك عنهم ... أنكى عقاب في القلوب وأوجع

وهم الكرام فأين يَذْهَب عنهم ... فِعل الجميل وسخطك المتوقع؟

تكبوا الجياد وكل حُرّ عالم ... يهفو وتنبو المرهفات القُطَّع

أنّى نزعتم يا بني صنهاجة ... وإليكم في الروع كان المفزع؟!

ما أَنْتُمْ إلاّ أسود حقيقةٍ ... كُلٌّ بكلّ عظيمة يتطلّع

ما بال سيدكم تورط لم يكن ... لكم التقات نحوه وتجمُّعُ؟!

[١/٢٧٦]

/ إنسان عين لم يصنه منكُمُ ... جفن وقلب أسلمته الأضلع

تلك التي جرت عليكم خطّة ... شنعاء وهي على رجال أشنع

أَوَمَا ليوسف جده منٌّ عَلَى ... كل وفضل سابق لا يدفع؟

أَوَمَا لوالده عليكم نِعمةٌ ... وبكل جيد ربقة لا تخلع؟

أبطأتم عن تاشفين ولم يزل ... إحسانه لجميعكم يتسرع

خاف العدا لكن عليكم مشفقاً ... بحقوقكم وجفونه لا تهجع

ومن العجائب أنه مِنْ سِنِّه ... أدرى وأشهم في الخطوب وأضلع

ولقد عفا، والعفو منه سجيه ... ولسطوه لو شاء فيكم موضع

يا تاشفين لهم بجيشك غدرة ... بالليل والقدر الذي يدفع

هجم العدو دجى فروع مُقْبِلاً ... ومضى يهيم وهو منك مروع

كم وقعه لك في ديارهم انثنت ... عنها أعزّتها تذل وتخضع
النِّعْمَةُ العظمى سلامتك التي ... فيها من الظفر الرضى والمقنع
كُلاً أهنّى لا أَخُصّ بصنعه ... فرداً به حَرُّ الجوانح يُنْقَع
لا ضيع الرحمن سعيك إنه ... سعى به الإسلام ليس يُضَيَّعُ
نستحفظ الرحمن منك وديعة ... فهو الحفيظ لكل ما يستودع

ومن لدن استدعى علي بن يوسف ولده تاشفين إلى مدافعة المهدي وحزبه سلبه الله ما كان معروفاً به من عادة النصر، وصحة الرأي ليقضي الله في القوم قضاءه.

وكان خروجه من مراكش بعد تصيير الأمر إليه ثامن رجب سنة سبع وثلاثين وخمسمائة، وقد ملك الموحدون أكثر بلاد العدوة، فكان لا يبرح عن حرب يراوحهم ويغاديهم ويسايرهم بأطراف الجبال، والهزائم تتوار عليه، والغلاء يهلك جيشه.

واستدعى أهل البلاد القبلية وقبائل صنهاجة، فأجابه خلق عظيم ونزلوا بين الصخرتين بظاهر تلمسان، فكانت على الجميع الهزيمة وفرّ تاشفين إلى جهة وهران، وقد كتب إلى قائد الأسطول بالأندلس ابن ميمون.

وأتى بالأسطول إلى ذلك الساحل ليتخلص إليه، واضطر إلى الخروج عن محله بالجبل الذي كان فيه ليلاً، فأهوى به فرسه من شاهق بإزاء رابطة وهران، فهلك/ ليلة [٢٧٦/ب] السابع والعشرين لرمضان عام تسعة وثلاثين وخمسمائة.

واستمسك من بقي من قومه بمراكش بولده إبراهيم.

دولة إبراهيم بن تاشفين وعمه بمراكش

ولما اتصل الخبر بهلاك تاشفين قدم بعده مراكش ولده إبراهيم بن تاشفين، وبايعه جميع لمتونة، وكان شاباً صغيراً فبقي أياماً.

ثم بايعوا عمه إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين، وكان ابن ثمانية عشر عاماً.

فصابر لمتونة به الجهد والحصار نحواً من سنتين، إلى أن دخلت عليهم مراكش سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وفرّ إلى جبل إيجليز، وأتى به بعد أيام إلى عبد المؤمن فقتل.

فكانت أيامهم بالمغرب ثمانياً وسبعين سنة.

وكانت دولتهم دولة خير وجهاد وعافية، وأكثر الدول جرياً على السنة.

رحمه الله عليهم.

ذكر دولة بني عبد المؤمن المدعوين بالموحدين

وهذه الدولة أسسها وأنشأها أبو عبد الله المهدي، وكان رجلاً فقيراً مشتغلاً بطلب العلم على شكل البرابرة، صاحب انقباض عن الناس، وذاهب مذهب الحسبة وتغيير المنكر.

رحل إلى المشرق، فلقي جملة منهم أبو حامد الغزالي، فحفظ الحديث، وكلّف بعلم أصول الدين، ويذكر عن أبي حامد أنه تفرس فيه ما آل إليه أمره، وأعلن فكره به.

وكان هذا الرجل ينتمي إلى أهل البيت، ويكتب اسمه: محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن جابر بن يحيى بن عطار بن رباح بن أصار بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

قال ابن مطروح وغيره: هو رجل من هرغة من قبائل المصامدة، يعرف بمحمد بن تومرت، والله أعلم.

فأقبل هذا الرجل من المشرق يدرس الفقه ويظهر التقشف والزهد والورع، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر محتسباً في ذلك بائعاً فيه نفسه من الله.

وصحبه على هذا الرسم طائفة تناسبه، وتعرف منهم في أحواز تلمسان عبد المؤمن بن علي الذي صار إليه الأمر بعده.

وصار يرشح عنه وعن أصحابه ما قصدوا إليه أن صاحبهم هو الإمام المهدي المخبر به.

وأخذ نفسه في إراقة الخمر وكسر آلات اللهو، حيث حلّ إلى أن وصل مراكش على عهد علي بن يوسف بن تاشفين.

وشاع عنه بها الطعن على السلطان فاستحضره وجمع له الفقهاء ووقع بينهم الكلام واتفقوا أنه خارجي المذهب يفسد الناس ويستهوي العامة.

وقيل عن بعضهم أنه قال لعلي بن يوسف:

[١/٢٧٧] هذا الرجل/ إن لم يجعل له كبل لا بد أن يسمع له طبل.

ولما كثر عليه الطلب خرج عن مراكش فنزل ببلده تينمال في شوال عام أربعة عشر وخمسمائة، وتلاحق به هنالك أصحابه العشرة، وهم:

عبد المؤمن بن علي، وأبو محمد البشير، وأبو حفص بن يحيى اينتي، وأبو حفص عمر بن علي أرتاح، وسليمان بن مخلوف، وإبراهيم بن إسماعيل الهرغي، وأبو محمد عبد الله بن يعلى، وأبو محمد عبد الواحد أخضر، وأبو عمران موسى بن غاز، وأبو يحيى بن نجيت.

وتابعه هؤلاء الجماعة يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان عام خمسة عشر وخمسمائة.

وخرج من الغد إلى المسجد وأصحابه متقلدون السيوف، فصعد المنبر، وخطب الناس وأعلمهم أنه الإمام المهدي المنتظر ودعاهم إلى بيعته، فبايعه الناس، وسمى من أطاعه الموحدين.

ووضع كتاباً يحفظونه، ويتدارسونه، ذكر أنه لا ينفع مؤمناً إيمانه ما لم يقم على ذلك.

ورتب أصحابه العشرة والخمسين.

فسمى العشرة السابقين الأولين، وجعل الخمسين للرأي والمشورة.

وعقد الإمامة وندب الناس إلى جهاد لمتونة.

وبايعه منهم عشرة آلاف على الموت قدم عليهم أبا محمد البشير، وعقد له راية بيضاء.

والتقى بجيش علي بن يوسف فهزموه وحاصروا مراكش خمسة وأربعين يوماً.

ثم اتصلت حركاته وغزواته تراوح مراكش وتغاديها من جبل إيجليز ثلاثة أعوام. ثم غزا رجراجة، وبلاد المصامدة، فدخلوا في دعوته.

ثم أنه توفي يوم الخميس الخامس والعشرين لرمضان عام أربعة وعشرين وخمسمائة بعد أن دعى بعبد المؤمن، ووصاه، وأمره بما يكون عليه عمله في مواراته ومدفنه، ووصاه بإخوانه.

فكانت مدته ثماني سنين وثمانية أشهر، وثلاثة عشر يوماً.

وأخباره أن استقصيناها وما كان بعده أصحابه وحيله وغرائب سياسته لأمته طال الكتاب، وقد ذكرها اناس.

وقام بالأمر بعده عبد المؤمن بن علي.

دولة الأمير عبد المؤمن بن علي أول الموحدين

وهو عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلى بن مروان بن نصر بن علي بن عامر إلى قيس عيلان، اختصرنا نسبه لعدم الفائدة في ذكره.

وحاصل الأمر فيه أنه من زناتة من كومية الساكنين بأحواز هنين.

بويع بيعة الخاصة لكتم وفاة المهدي، وارتضاه العشرة أصحابه لثناء المهدي عليه، وتقديمه للصلاة، ولما بلوه من فضله وطهارته، وشجاعته، ورجاحة عقله.

ثم كانت بيعة العامة إياه يوم الجمعة الموفي عشرين لشهر ربيع الأول.

[تمّ بحمد الله في ٢٧ ربيع الأول الأبرك عام ١٢٥٨هـ][1].

(١) هذه العبارة بهامش المخطوط تدل على تاريخ النسخ لا تاريخ التأليف. قال محققه أبو إسلام سيد كسروى إلى هنا كان الانتهاء من تحقيق هذا الكتاب الذي قد لاقيت فيه عناءً كثيراً لسوء تصوير المخطوط ونوع الخط الذي كتب به وصغره والله أسأل أن أكون قد وفقت في تقويمه وضبطه على الوجه المراد منه، وقد وقع الفراغ من تحقيقه يوم الأربعاء الموافق ١/ ١/ ٢٠٠٣ ميلادية، المقابل ٢٨ من شوال ١٤٢٣ لهجرة رسول الله صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، والله أسأل حسن الختام بالموت على دين الإسلام اللهم آمين.

فهرس المحتويات